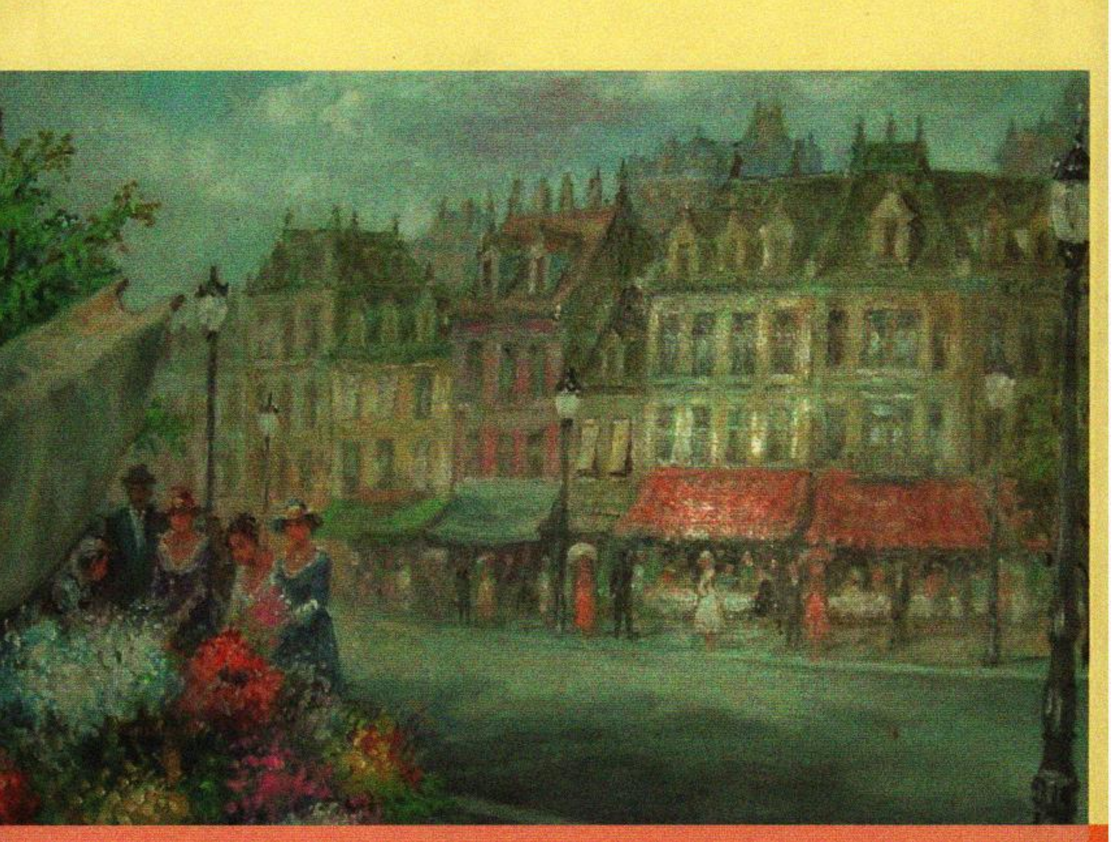
مِدل مارش

جورج إليوت

ترجمة : د. حيان الساعي



فهرسة دار الكتب الوطنية أثناء النشر

مِدل مارش
جورج إليوت

الطبعة الأولى 1430 هـ 2010 م

PZ3.E43 Mi912 2009
Eliot, George, 1819 - 1880

مدل مارش / تأليف جورج إليوت؛ ترجمة حيان جمعة الساعي. - أبوظبي: هيئة أبوظبي للثقافة والتراث، كلمة، 2009.
838 ص؛ 17 x 24 سم.
ترجمة كتاب: Middlemarch
تدمك: 978-9948-10-418-8
1 - القصص الإنجليزية. 2 - الأدب الإنجليزي. أ - الساعي، حيان جمعة.

يتضمن هذا الكتاب ترجمة الأصل الإنجليزي:
George Eliot
Middlemarch
First published in 1874



info@kalima.ae
www.kalima.ae
ص.ب: 2380 أبوظبي، الإمارات العربية المتحدة هاتف: 468 6314 2 971+، فاكس: 462 6314 2 971+



www.adach.ae
ص.ب: 2380 أبوظبي، الإمارات العربية المتحدة هاتف: 300 6215 2 971+، فاكس: 059 6336 2 971+

مِدِل مارش

تأليف:

جورج إليوت

ترجمة:

حيان جمعة الساعي





المحتويات

إهداء المترجم

إلى تلك التي قرأتُ بناظريها، وتفيأت برعايتها وحدبها منذ الصغر، أستلهمها الحكمة والصبر والعلم والعمل والإيمان، فكان لها، بعد الله، الفضل في كلّ ما أنجزته في حياتي، وما يمكن أن أنجزه في المستقبل.

إلى أختي بشرى جمعة الساعي، التي كانت، بخزّانها الإنسانيّ والعاطفيّ الضخم، أكثر من مجرّد أخت لي، أهدي هذا العمل.

حيّان جمعة الساعي

مقدمة المترجم

ولدت الكاتبة الروائية والشاعرة الإنجليزية ماري آن إيفانس (جورج إليوت) في الثاني والعشرين من تشرين الثاني (1819) لتكون الابنة الثالثة لأسرة كانت تقطن في بلدة كليفرز كوتن التي تقع في مقاطعة ووريك شاير. ولمّا كان عمرها بضعة أشهر فقط انتقلت العائلة لتعيش في جريف، حيث قضت واحداً وعشرين عاماً من عمرها هناك، بين أناس صوّرتهم في رواياتها التي كتبتها لاحقاً. تلقت إليوت تعليمها في المنزل وكذلك في عدة مدارس، منها مدارس دينية كانت إحداها مدرسة ولينغتون في نينتون حيث اعتراها شعور ديني ما لبث أن انقلبت عليه فرفضته بعد سنوات قليلة من مغادرتها تلك المدرسة.

بعد أن توفيت أمها عام (1836) أصبحت الكاتبة مسؤولة عن شؤون الأسرة، ثم ارتحلت بصحبة أبيها عام (1841) لتعيش في كوفنتري حتى وفاته عام (1849). وما إن انقضت خمسة أيام على موت أبيها حتى انطلقت الكاتبة برحلة جالت خلالها أوروبا، ثم عادت لتستقر في لندن عام (1851) حيث أقامت في منزل الناشر الراديكالي المعروف جون جابمان الذي كان قد اشترى للتو صحيفة ويستمنستر ريفيو، فعملت مساعدة لرئيس التحرير، وحملت على عاتقها معظم أعباء العمل، مما أكسبها خبرة واسعة. ومن خلال عملها هذا، ومعرفتها بالناقد والفيلسوف جورج هنري لويس، وكذلك من خلال لقاءاتها بكثير من المفكرين، اكتسبت جورج إليوت معرفة واسعة بعلوم الطب، وعلم النفس، وقد وظفت هذه المعرفة في رواياتها خير توظيف.

أتقنت الكاتبة لغات أوروبية عديدة، فترجمت عن الألمانية كتابين لكاتبين شهيرين هما ديفيد ستراوس ولودفيك فيرباخ.

أثير جدل كبير حول زواجها من جون كروس، الرجل الذي يصغرها بعشرين عاماً، ويروى أنه قد ألقى بنفسه في قناة ماء من على شرفة الفندق الذي كانا يقضيان فيه شهر العسل في فيينا، لكنه نجا من الموت بأعجوبة، فعادا ليستقرا في منطقة تشيلسي في لندن. لكنّ المرض سرعان ما داهم الكاتبة فقضت نحبها هناك عن عمر يناهز الحادية والستين وذلك في الثاني والعشرين من كانون الأول/ ديسمبر (1880). ونتيجة إنكارها للديانة المسيحية لم يُسمح بدفنها في مقبرة كنيسة ويستمنستر إيبي، فتم دفنها في مقبرة هايجيت في شرق لندن، وكانت هذه المقبرة قد خصصت لدفن أولئك المنشقين عن دينهم.

بعد مرور مئة عام على وفاتها، أي في عام (1980)، شُيد نصب تذكاري للكاتبة وضع في زاوية الشعراء ضمن مقبرة كنيسة ويستمنستر إيبي، كما أطلق اسمها وكذلك أسماء رواياتها على العديد من المباني الرئيسية في مسقط رأسها، فأطلق على إحدى المدارس المحلية اسم جورج إليوت، كما أطلق على مدرسة ابتدائية أخرى اسم مدل مارش.

كان اسمها الحقيقي ماري آن إيفانس لكنها اختارت أن تحمل أعمالها اسم رجل (جورج إليوت) لأنها تمنت، كما قالت، أن تؤخذ أعمالها بجدّية بالغة. مع أنّ الكاتبات آنذاك كنّ يكتبن بحرّية، إلاّ أن جورج إليوت لم ترغب في أن ينظر إلى أعمالها وكأنها مجرد روايات رومانسية. أما السبب الآخر الذي حملها على استخدام اسم مستعار فقد كان يكمن وراء رغبتها في إبقاء حياتها الخاصة بمعزل عن الحياة العامة والشهرة.

كتبت الروائية جورج إليوت سبع روايات، وكذلك نظمت قصائد شعرية كثيرة، فضلاً عن مجموعة تتألف من ثلاث قصص قصيرة، تحمل عنوان «مشاهد من حياة رجل دين»، كما كتبت قصة قصيرة أخرى بعنوان «كشف الحجاب»؛ مما جعلها تتبوأ منزلة رفيعة جدًّا جعلت اسمها أحد أبرز أسماء كتّاب الحقبة الفيكتورية. وقد جاءت رواياتها لتصوّر، بالدرجة الأولى، الحياة في الريف الإنجليزي بدقة، بحيث كانت انعكاساً حقيقيًّا لذلك الواقع، بما يتضمنه من علاقات اجتماعية ونفوس بشرية كانت بمثابة مرتسم لتلك الأحداث والعلاقات الاجتماعية.

كان أحد أكثر الجوانب التي برعت بها الكاتبة الغوص في أعماق النفس البشرية، فصوّرت الأحاسيس واللواعج الكامنة هناك، فضلاً عن الأفكار العرضية المسيطرة على تلك الروح البشرية القاطنة داخل شخصيات رواياتها. كذلك يمكن القول بثقة تامة إن الكاتبة استطاعت أن تحقق نجاحاً فريداً حين رسمت ملامح شخصياتها الجسدية والفكرية وكذلك النفسية، ثم راحت ترصدهم بدقة في جميع حركاتهم وسكناتهم وأحاديثهم لتوضح لقرائها ردود فعلهم الفكرية والنفسية الطبيعيتين على الأحداث كافّة، ومع مختلف الشخصيات المرافقة لهم، بتفصيل دقيق، فيشعر القارئ وكأن الكاتبة قد نقلته، في مرحلة ما من مراحل روايتها، إلى الواقع الذي تعيشه شخصيات روايتها، حتى تبلغ به مرحلة يظن معها أنه يعيش بينهم ويكاد يشاركهم بعض أحاسيسهم ويتبنى بعض أفكارهم.

كانت أعظم رواية كتبتها جورج إليوت رواية «**مدل مارش**»، إذ وصفتها الروائية والشاعرة الإنجليزية أنتونيا سوزان بَيَات في مقالة نشرتها لها صحيفة الغارديان بتاريخ 4 آب 2007 «بأنها أعظم رواية إنجليزية».

في القرن العشرين، ناصر الكاتبة جورج إليوت عدد من الكتّاب والشعراء اللامعين، وكانت من بينهم الكاتبة الأمريكية الشهيرة، فيرجينا وولف، التي قالت عن رواية مدل مارش إنها إحدى الروايات القليلة التي كتبت للكبار، على الرغم من بعض نواقصها. فردت على ذلك الكاتبة بيات وقالت: «كثير من تلك التي تعتبرها وولف نواقص ما هي في الحقيقة إلا نقاط قوة».

والجدير بالذكر هنا أن الموسوعة البريطانية، عندما اختارت أعظم الأعمال الغربية منذ العصور اليونانية والإغريقية حتى عصرنا الحاضر، قد وقع اختيارها على رواية مدل مارش لتكون أحد تلك الأعمال الرئيسيّة التي ظهرت في ستين مجلداً، فجاءت مدل مارش في المجلد السادس والأربعين من الطبعة الثانية والأخيرة التي صدرت عام (1990).

لمّا بدأت الروائية كتابة هذه الرواية في مطلع العام (1869)، كانت قد استهلت عملها بكتابة قصة طبيب طموح يدعى السيد ليدجيت، وعائلة فنسي، وكذلك السيد فيذرستون. كان تقدمها في كتابة الرواية بطيئاً؛ ففي شهر أيلول من العام نفسه، لم تكتب الروائية سوى ثلاثة فصول، ثم توقفت عن الكتابة تماماً في شهر تشرين الأول، ثم بعد أكثر من عام كامل بدأت تكتب قصة مختلفة تماماً بعنوان الآنسة بروك. لا يعرف متى تماماً بدأ دمجها بين القصتين، ولكن الوثائق التاريخية تشير إلى أنّ الكاتبة في آذار (1871) كانت تعمل على هاتين القصتين ضمن رواية واحدة تحمل اسم «مدل مارش – دراسة حول الحياة الريفية». فتم نشرها في ثمانية أجزاء متفرقة ما بين العامين 1871 – 1872.

تتحدّث الرواية، كما يعبر عنوانها، عن وقائع تدور في بلدة افتراضية هي (مدل مارش) تقع وسط إنجلترا، علماً بأن أحد معاني كلمة مارش في الإنجليزية هو الأرض الحدودية التي تفصل بين البلدان، وتمثل الرواية صورة حية لحياة الأقاليم ضمن حقبة لا تتجاوز الثلاث سنوات: من شهر أيلول (1829) حتى شهر أيار (1832). ويمكن اعتبارها دراسة واقعية للطبيعة البشرية، وتصويراً دقيقاً لشخصيات عديدة لا يمكن نسيانها تأتي على رأسها شخصية الآنسة بروك. كما تشكّل هذه الرواية انعكاساً تاريخيًّا لأحداث ثلاث سنوات سبقت ظهور أول وثيقة إصلاح في عام (1832) وهكذا يمكن اعتبارها رواية غنية جدًّا لما تحتويه من عواطف غزيرة، ولأنها تتحدث عن مآسٍ كثيرة، وعلاقات اجتماعية عديدة، وعلاقات حب، وخيبات أمل، وأنانية، وإيثار الآخرين على الذات، وكذلك تفصيلات الحياة اليومية. إنها ليست رواية رومانسية، على الرغم من كونها عاطفية جدًّا، ويمكن أن تصنّف روايةً

ترفض الرومانسية، بل إنها تجنح بشدة نحو الواقعية، فهي صورة تكاد تكون حية لمجتمع الريف الإنجليزي في جميع جوانبه وطبقاته، الأرستقراطية والعامة والسياسية والدينية والعلمية والزراعية، وكذلك الموت والولادة والزواج. فموضوعاتها مزيج من المتناقضات؛ فكما الولادة والموت حاضران فيها، كذلك المأساة والملهاة.

كان الناس يقرؤونها بصوت مرتفع، وكلما فرغوا من قراءة كتاب منها كانوا يثيرون نقاشات حوله، تماماً كما يفعل الناس في أيامنا هذه عندما تنتهي مشاهدتهم لحلقة من مسلسل تلفزيوني. إذ كان طموح الكاتبة أن ترسم لوحة واقعية لتعقيدات الحياة البشرية؛ فجاء تصويرها لتعقيدات المجتمع الريفي متمثلاً في تعقيدات كل شخصية من شخصيات رواياتها. وعلى الرغم من أن الرواية تصور علاقات قائمة بين عدة شخصيات رئيسية، فإنّه لا توجد شخصية واحدة تحتل مكانة المركز، إذ لا تمثل أيّ شخصية بمفردها الحياة الريفية. هذا الموضوع الواسع للحياة الريفية تم تحديده من خلال تركيز الكاتبة في شخصيات رواياتها الذين تتداخل جوانب حياتهم الرومانسية وكذلك المهنية بعضها ببعض. فنرى الزواج يحدث جنباً إلى جنب مع الصعوبات الناجمة عن الحياة المهنية، والمكانة والعادات الاجتماعية، وكذلك التأثير السلبي للتوقعات الاجتماعية والاهتمامات الذاتية على الأفعال والتصرفات الشخصية، كما أن الكاتبة قد ربطت مع هذه الأفكار والأحداث الروائية الموت والحياة الأسرية، وكذلك الحياة السياسية.

لقد وظفت الكاتبة في هذه الرواية تقنيات أدبية عديدة جعلتها تتميز على جميع الروايات التي ألفتها روائيات عصرها. فالقارئ يرى الأحداث التي يقوم بها أشخاص الرواية من خلال ملاحظاته الشخصية لهم، ومن خلال أفكارهم وتعليقاتهم وكذلك اهتماماتهم. كما إنه يرى في الوقت عينه من خلال عين الكاتبة. فهي تتوقف فجأة عن سرد أحداث الرواية كي تقوم بتحليلها من خلال الإشارة إلى التناقضات وتقديم الدليل الذي يدحضها، وكذلك من خلال مقارنة آراء الشخصيات حول أحداث محددة. بهذه الطريقة توضح الكاتبة كيف يكون الفهم البشري شخصيًّا، وكيف يقيده الاهتمام الشخصي، وكذلك المحرض الذاتي.

واعتمدت الكاتبة في روايتها هذه تقنية أخرى حققت من خلالها نجاحاً فريداً، إذ حرصت على أن تبدأ كل فصل من فصول رواياتها بعبارة ذكية أو اقتباس شعري يرتبط بالنص ارتباطاً ذكيًّا، فيعبر عن مضمون الفصل، ويدفع بأحداث الحبكة إلى الأمام، فيرفع من شأن رواية مدل مارش ليضعها في مكانة متميزة بين الأعمال الأدبية الضخمة، ولا سيما

أن جورج إليوت قد اقتبست كثيراً من تلك المقاطع الشعرية من أعمال عالمية رئيسية، كتلك التي كتبها كل من وليم شكسبير ودانتي وجوسر ووليم بليك وميلتون وآخرين. ومن تلك الاقتباسات ما لا يحمل اسم مؤلف؛ لأنها قطع شعرية، وبعضها نثرية، كانت الكاتبة قد ألّفتها بنفسها.

لقد قمت بترجمة جميع تلك الاقتباسات باستثناء عشرة منها؛ لأن الكاتبة آثرت أن تتركها بلغتها الأوروبية الأم دون أن تنقلها إلى الإنجليزية. ولم يعرف سبب لذلك، على الرغم من أنها ترجمت اقتباسين أحدهما بالإسبانية والآخر بالإيطالية، فآثرت على أن أضع بين يدي القارئ العربي ما وضعته الكاتبة بين أيدي قرائها.

ويميز نص الرواية عنصرٌ أدبي رفيع آخر؛ ألا وهو توظيف الكاتبة للصور البلاغية؛ إذ جاءت الرواية غنية جدًّا بمثل هذه الصور، مما يجعلها تشكل تحدياً حقيقيًّا لترجمتها إلى أيّ لغة أخرى. ولقد حرصت كل الحرص على أن أحافظ على معظم تلك الصور على الرغم من صعوبة نقلها إلى اللغة العربية لما يقوم بين اللغتين من اختلافات لغوية وكذلك ثقافية.

أما الأسلوب واللغة اللذان وظفتهما الكاتبة في روايتها، فهما يشكلان تحدياً آخر للمترجم؛ فهي تستخدم مستويات عديدة من الصياغة اللغوية والأسلوب التعبيري ليكونا مناسبين لكل حدث وشخصية. فاللغة والأسلوب اللذان توظفهما في حديث شخصية غير متعلمة يختلفان كثيراً عن الأسلوب واللغة اللذين توظفهما في حديث شخصية أخرى متعلمة، كما أنهما يختلفان تماماً عن اللذين يستخدمهما السيد كزابون، ولا سيما في رسائله. إن هذا التفاوت بين مستويات الأسلوب واللغة المستخدمين في الرواية، من اللغة العامية البسيطة جدًّا حتى اللغة الرسمية الرفيعة المستوى في بلاغتها، ينبغي أن يظهر بشكل أو بآخر في أيّ ترجمة لهذه الرواية. ولقد أوليت هذا الجانب اهتماماً خاصاً، فحاولت جاهداً أن أعكس تلك الحقيقة في الترجمة، إلا أنني تجنبت ترجمة الحوارات العامية إلى ما يوازيها من اللغة العربية، فليس في العربية لهجة عامية واحدة أستطيع اعتمادها في هذه الترجمة، لكنني حرصت على أن أوظف لهذه الحوارات أبسط أساليب اللغة العربية.

هكذا يمكن القول إن أوج عطاء جورج إليوت الأدبي قد تمثل في رواية مدل مارش، مما جعل عدداً من نقاد عصرها ينظرون إليها على أنها رواية أغنى من أن تكتبها امرأة، ولا سيما أنها تستدعي من قارئها التفكير والتمعن والتحليل أكثر مما تبعث في نفسه المتعة والتأمل والإحساس بالارتياح.

تمهيد

من كان شديد الاهتمام بمعرفة تاريخ الإنسان، وبالتغيرات التي تطرأ على هذا المزيج الغامض عبر تغيّر الظروف ومعطيات الزمن، لا يمكنه إلاّ أن يتوقّف، ولو قليلاً، عند حياة القديسة تيريزا، ويبتسم بقليل من اللطف وهو يتخيّل فتاة صغيرة تسير في صباح أحد الأيام ممسكة بيد أخيها، الذي لا يزال صغيراً، للسعي وراء الاستشهاد في بلاد المغرب؟ إنهما خرجا يدرجان من مدينة أفيلا القاسية بعيون فاغرة ومظهر بائس وكأنهما غزالان صغيران، لكنّ لهما قلبين بشريين ينبضان بفكرة وطنية، إلى أن واجههما واقعٌ عائليّ في صورة أعمام، فردّهما عن قرارهما العظيم. لقد كانت تلك الهجرة الطفولية بداية مناسبة. كانت حياة تيريزا العاطفية المثالية تتطلب حياة ملحمية: ما قيمة مجلّدات كثيرة وُضعت حول قصص الفروسية الرومانسية والإخضاع الاجتماعي أمام فتاة رائعة مثلها؟ لقد أشعل لهيبها بسرعة ذلك الوقود الخفيف، ثم راح يتغذى على ذاته محلقاً وراء إشباع رغبة لاحدود لها، ووراء هدف لا يبرر إرهاقاً يمكن أن يصلح بين اليأس الذاتي والإدراك المنتشي لحياة أخرى، فهي قد وجدت ملحمتها في إصلاح النظام الديني.

تلك المرأة الإسبانية التي عاشت قبل ثلاثمائة عام لم تكن بالتأكيد آخر بنات جنسها، فقد ولدت فتيات كثيرات كتيريزا، ولم يجدن لأنفسهن حياة ملحمية حيث تتجلى دائماً أحداثٌ ذات صدى بعيد، ولكن ربما وجدن فقط حياة الأخطاء ناجمة عن نوع خاص من الجلال الروحي لا يتوافق مع قسوة الفرص، وربما حياة فشل مأسويّ لم يجد شاعراً مقدساً فغرق في النسيان دون أن يبكيه أحد. وفي ظلّ ضوء خافت، وضمن الظروف المعقدة حاولن أن يضعن أقوالهن وأفعالهن ضمن اتفاق نبيل، ولكن في نهاية الأمر بدت صراعاتهن مجرد تناقضات عديمة الشكل والصورة في عيون العامة، لأن هؤلاء الفتيات اللواتي ولدن بعد تيريزا لم يساعدهن لا معتقد ولا نظام اجتماعي منطقي يمكن أن يقوم مقام العلم والمعرفة لأجل الروح المندفعة بحماس. فحماستهن كانت تترجّح ما بين مثالية غامضة والتوق النسوي المشترك، فاستُنكر أحدهما كتطرف وغلو، وشُجب الآخر كهفوة وسقوط.

لقد اعتقد بعضهم أن حياة هؤلاء الفتيات المتخبطة جاءت نتيجة لغموض غير لائق صنع الخالق به طبائع النساء: فإذا ما كان هناك مستوى واحد لعدم الكفاءة الأنثوية، دقيق بدقّة القدرة على العدّ حتى الرقم ثلاثة لا أكثر، فيمكن أن يعامل حظ النساء الاجتماعي بيقين

علمي. فـي أيّ حال، فالغموض باقٍ، وحدود التنوع هي أوسع مما يستطيع المرء أن يتخيله من خلال التصفيف المتشابه لشعر النساء، وقصص الحب المفضلة فـي الشعر والنثر. وهنا وهنـاك، ينشأ بصعوبة فرخ الإوز بين أقرانه من الفراخ الصغيرة فـي بركة رمادية اللون، ولا يعثر على أحد من أبناء جنسه الأصليين. هنا وهنـاك، تولد واحدة من «القديسات تيريزا» ولا تنشئ شيئاً، وترتجف نبضات قلبها المحب، وكذلك نحيبها، للسعي وراء طيبة لا تنال ولايحصل عليها، ثم تنتشر بين العوائق والصعوبات بدلاً من أن تتمحور حول أعمال بعيدة التأثير.

الكتاب الأول

الآنسة بروك

الفصل الأول

لمّا كان بلوغ الكمال مستحيلاً عليَّ كامرأة، كان لا بدّ من أن أفعل دائماً ما هو أدنى من ذلك بقليل!!!

مأساة امرأة... بيمونت وفليتشر

كان للآنسة بروك جمال يتجلّى حتى في ثوبها البسيط، كما كان ليدها ولمعصمها جمال أخّاذ، يمكّنها من ارتداء أكمام لا يقلّ بهاؤها عن تلك الصورة التي بدت فيها البتول العذراء المباركة للرسّامين الإيطاليين...

كان مظهرها الجانبيّ، وقوامها، كما هي تصرفاتها، تكسبها وقاراً أكثر مما تكسبها أثوابها غير المزركشة، التي منحتها بالإضافة إلى الزي الريفيّ، تأثير مقطع جميل من الكتاب المقدس، أو تأثير مقطع شعريٍّ من صحيفة يوميّة.

وعلى الرغم من أنها كانت متحدّثة على درجة مميزة من الذكاء، فإنّ أختها سيليا كانت تتمتع بفطنة أكثر منها... وفي أيّ حال، فإن أختها كانت ترتدي ثياباً لا تزيد زركشةً على ثياب أختها إلا بقليل، وكانت لها جاذبية، إذ لم يكن بمقدور أحد أن يميز بين ثيابهما، سوى أولئك المقربين منهما.

فقد كانت الآنسة بروك ترتدي الثياب غير المزركشة لأسباب عدة، تشاركها أختها في أكثرها، وكان لتفاخرهما بأنهما سيدتان دور في ذلك...

وعلى الرغم من أن عائلة بروك لم تكن من الطبقة الأرستقراطية على وجه الدقة، فإنّها كانت من دون أي شك في مستوى جيد. فلو أمعنت النظر في جيلٍ أو اثنين سابقين، فلن تجد بين الأجداد من كان يعمل مسّاحاً، أو حازم بضائع، بل لن تجدَ من يعمل أقل من أدميرال، أو رجل دين. فضلاً عن ذلك، فقد كان هنالك جدّ متميز كونه سيداً من المتدينين يخدم بقيادة كرومويل، ولكن بعد ذلك عدل من وضعه، واستطاع أن يتخلص من مشاكل سياسية، ليصبح مالكاً لأراضي العائلة المحترمة.

ولدت الشابتان، وعاشتا في منزل ريفي هادئ، وكانتا تذهبان إلى كنيسة في قرية صغيرة، ليست أكبر من ردهة منزل إلا بقليل، فمنهن مثل هاتين الشابتين لا يبهرهن منظر الألبسة المبهرجة، ويعتبرنه أمنية لابنة بائع متجول. وبعد حين حصل ازدهار اقتصادي، وانعكس في تلك الأيام على نمط اللباس، حيث أصبح يشكل العنصر الأهم الذي يعطي الانطباع الأول، إذ إنه كلما ارتفع مستوى الطبقة الاجتماعية، تطلّبَ ذلك نفقاتٍ أكثر.

وكانت هذه الأسباب كافية لتقبّل الألبسة المحتشمة بعيداً من المشاعر الدينية. ولكن في حالة الآنسة بروك، فإنّ الدين وحده يحدد ذلك، أما سيليا، فهي غالباً ما تتقبل آراء أختها بسهولة، وتستوعبها بفطرتها السليمة، التي تمكّنها من قبول المبادئ المهمة جدًّا دون أي تحفظ أو انفعال شديد.

حفظت الآنسة دورثيا بروك مقاطع كثيرة من كتاب بينس لباسكال، وأخرى من كتابات جيرمي تيلر عن ظهر قلب، وبالنسبة إليها، فإن قدر الإنسان حين ينظر إليه من خلال الديانة المسيحية، يجعل العناية المفرطة بالأزياء النسائية، تبدو كالجنون في مكان يسوده الهرج والمرج. إنها لم تستطع أن توفق بين سمو المشاعر الروحية وكل آفاقها، والاهتمام الشديد بالأشرطة الحريرية والألبسة الفضفاضة، إذ كان تفكيرها نظريًّا يمتد إلى كل فكرة سامية تتعلق بالعالم، بما فيه أبرشية تبتن ودورها فيها، وكانت تسحر بالقوة والعظمة، وتندفع لاعتناق أيّ فكرة تبدو لها عظيمة ومثيرة.

وبالتأكيد... فإنّ مثل هذه السمات لشخصية فتاة في مرحلة الزواج، لابد لها من أن تؤثر في نصيبها من الميراث، فتؤخر تقسيمه بحسب العرف، والمظهر الحسن، والزهو، والوجدان العاطفي. ومع كل هذا فهي الأخت الكبرى التي لم تبلغ العشرين من عمرها بعد. وقد تلقت كلتاهما التعليم منذ كانتا في الثانية عشرة من عمرهما عندما فقدتا أبويهما.

و بموجب خطط ارتجالية وقصيرة المدى، كانت قد وضعت على عجل، أقامتا عند عائلة إنجليزية، ثم عند عائلة أخرى سويسرية في «لوزان».

حاول عمهما العازب الوصي عليهما أن يخفف من وطأة اليتم التي لحقت بهما، إذ لم يكن قد مر على نكبتهما عام حين جاءتا لتعيشا في تبتن كرينج. وهو رجل قارب الستين من عمره، ذو مزاج متقلب ميال للطاعة والإذعان، ومتردد في قراراته. كثيرًا ما سافر في شبابه، ثم استقر في هذا الجزء من الإقليم، لتظهر عنده حالة التفكير المشتت، فقد كانت صعوبة التنبؤ باستنتاجات السيد بروك كصعوبة التنبؤ بتقلبات المناخ.

الشيء المؤكد الوحيد الذي يمكن قوله عنه: أنه يمكن أن يتصرف بحسن نية، وأنه ينفق أقل مبلغ من المال لإنجاز الأشياء. وحتى معظم أفكاره الخيالية الغريبة، فهي تنسجم وتتلاءم مع بعض العادات لرجل يبدو متهاوناً وزاهداً في اهتماماته ورغباته، باستثناء علبة النشوق التي كان يحافظ عليها دائماً، ويرقبها بعين الحرص بل الطمع. لقد كانت قوة تأثير المتدينين الموروثة معطلة لديه، لكنها كانت متقدة لدى ابنة أخيه دورثيا، إذ كانت تتجلى في فضائلها وأخطائها على حد سواء، فقد كانت دورثيا تفقد صبرها أحياناً بسبب تصرفات عمها كطريقة تصريفه أمور ممتلكاته.

كان يجعلها تتوق لبلوغ الوقت الذي تصبح فيه في سن تمكنها من التصرف بالمال بطرق سخية، إذ كان ينظر إليها ليس بصفتها وريثة لسبعمئة جنيه تتقاضاها سنويًّا من الإرث الذي كسبته من أبويها فحسب، بل إن دوريثا عندما تتزوج وتنجب طفلاً، فإن ذلك الطفل سيرث ملك السيد بروك، الذي يقدر بثلاثة آلاف سنويًّا، كأجرة تبدو ثروة لدى الأسر الريفية. ويبقى النقاش حول تصرف السيد بيل المتأخر حيال المسألة الكاثوليكية، فهو لا يأبه بحقول الذهب المستقبلية، ولا بطبقة الأثرياء التي تقدس الحاجة للحياة الراقية.

وكيف يمكن لدورثيا أن لا تتزوج؟ وهي فتاة جميلة، ولديها مثل هذه المؤهلات، فلا يمكن لشيء أن يعرقل زواجها، سوى إخلاصها لمعتقداتها، وتأكيدها على تنظيم الحياة وفقاً للمفاهيم التي يمكن أن تجعل من الرجل الحذر يتردد قبل أن يتقدم لطلب يدها، أو تجعلها ترفض كل من يتقدم لها، فهي شابة ولدت في ظروف مميزة وتملك ثروة، وفجأة وجدت نفسها تركع على أرض بسطت بالآجر، وعلى مقربة من رجل كادح مريض، تدعو بحرقة شديدة كما يفعل الرجل الكاثوليكي، وهي تظن أنها تعيش في زمن الحواريين الذين كانت لديهم رغبة شديدة في الصيام، كما أنها تخيلت نفسها مستيقظة طوال الليل، تقرأ كتب اللاهوت القديمة...!

يمكن لمثل هذه الزوجة أن توقظك في صباح جميل، لتطرح عليك نظام إنفاق جديد لدخلها، الذي يمكن أن يرتبط بالاقتصاد السياسي من جهة، وباقتناء الخيول من جهة أخرى، لذلك فمن الطبيعي لأي رجل أن يفكر مرتين قبل أن يغامر في مثل هذا الارتباط.

كان الناس يتوقعون من النساء أن يبدين آراء ضعيفة، لذا لم يكن في استطاعتهم أن يأخذوا بها وذلك لحماية المجتمع والحياة المدنية. لقد كان العقلاء يفعلون ما كان يفعله جيرانهم، حتى إذا خالفت مجموعة من الناس، يمكن للفرد أن يعرفهم فيتجنبهم.

كانت وجهة نظر أهل الريف، بمن فيهم ساكنو الأكواخ، حول هاتين الشابتين اللتين قدمتا حديثاً، تميل غالباً لصالح سيليا، التي كانت ودودة جدًّا وذات مظهر بريء، أما الآنسة بروك، فقد كانت عيناها الواسعتان حادتين إلى حدّ خارق مثل تدينها.

فيا لدورثيا المسكينة حين تقارنها بأختها سيليا ذات المظهر البريء، كانت تتمتع بمعرفة واسعة، وحكمة رفيعة المستوى؛ فهي ذات ذهن متقد، وفكر وهاج أكثر مما توحي تقاسيم وجهها المستدير، الذي يرتسم عليه شعار النبل. والذين تقدموا لدورثيا، وعلى الرغم من إجحافهم في حقها لما كان يشاع عنها، فإنّهم وجدوا لديها سحراً غير محدود، يمكن للمرء أن ينسجم معه. كانت تبدو لمعظم الرجال ساحرة حين تمتطي فرسها، فقد أحبت الهواء الطلق ومختلف عناصر الطبيعة في الريف. وحينما كانت عيناها تتقدان ووجنتاها تتوهّجان توهجاً ممتزجاً بالبهجة، كانت تبدو مثل راهبة. لقد كان ركوب الخيل يشكّل إشباعاً لرغباتها سمحت لنفسها به، وعلى الرغم مما يمليه عليها ضميرها من تأنيب، فإنّها كانت تستمتع بركوب الخيل بأحاسيس ومشاعر وثنية، وكانت تتطلع إلى تكرار ذلك. كانت اجتماعية ومتحمسة ومعجبة بنفسها على أقل تقدير، إذ كانت تستمتع برسم صورة فاتنة لأختها سيليا في مخيلتها بجاذبية أسمى من تلك التي ترسمها لنفسها. وإذا حضر سيد نبيل إلى كرينج لسبب غير لقاء السيد بروك، كانت تعتبر سبب قدومه حبه لسيليا؛ فعلى سبيل المثال السير جيمس جتم الذي كانت دورثيا تتساءل في حوار داخلي وبموجب وجهة نظر سيليا: أليس من الأفضل لسيليا أن توافق عليه لو تقدم لها خاطباً؟ كانت تعتبره غير ملائم على الإطلاق لها هي.

على الرغم من حب دورثيا لمعرفة حقائق الحياة، فإنّها كانت تحمل أفكار الأطفال حول الزواج؛ فقد كان ينتابها شعور مؤكد بأنها ستقبل بهوكر الحكيم لو ولدت في زمانه، ولكانت أنقذته من تلك الخطيئة المزرية التي ارتكبها عند زواجه، أو لقبلت بجون ميلتون عندما أصيب بالعمى، أو بأي رجل عظيم آخر لديه عادات غريبة، لكان ضرباً من التقوى العظيمة حين تتحمل مسؤولية كتلك. ولكن إذا كان بارونا وسيماً ولطيفاً يوافقها تماماً على كل ماتقوله – حتى عندما تكون مترددة في بعض آرائها – فكيف له أن يؤثر فيها ويجعلها تحبه؟ فالزواج السعيد حقًّا، بالنسبة إليها، هو عندما يكون الزوج كالأب، ويستطيع أن يعلمك حتى اللغة العبرية لو أردت.

إن هذه الخصائص في شخصية دورثيا قد جعلت من السيد بروك موضع لوم العائلات

المجاورة، ذلك أنه لم يقترن بامرأة في منتصف العمر لترعى ابنتي أخيه وتكون رفيقة لهما. فهو كان يخشى المرأة المتسلطة، ونتيجة اعتراضات دورثيا قرر بشجاعة أن يتحدى العالم بما فيه السيدة كادولدر زوجة القسيس والمجموعة الأرستقراطية الصغيرة التي يلتقيها في المنطقة الشمالية الشرقية من مقاطعة لومشاير ويبقى دون زواج. وهكذا كسبت الآنسة بروك المكانة الأولى في منزل عمها، وقد أسعدتها مكانتها الجديدة هذه والتي تضمن لها الولاء من الجميع.

السير جيمس جتم سيحضر إلى كرينج هذا اليوم ليتناول العشاء برفقة رجل نبيل لم تره الفتاتان من قبل، لكنهما أحستا تجاهه بمشاعر الاحترام، كان هذا الرجل الكاهن إدوارد كزابون، وهو يعرف في الإقليم بأنّه رجل ذو علم واسع، كما عُرف عنه انغماسه لسنين طويلة في عمل كبير يتعلق بتاريخ التدين. وكان أيضاً صاحب ثروة تكفي لإعطائه شهرة متميزة، وله آراء شخصية وثقت بشكل صريح في كتابه، فقد حمل اسمه تأثيراً كبيراً، كان من الصعب أن يذكر دون استعراض تاريخي لعلمه وثقافته.

في صباح ذلك اليوم عادت دورثيا من مدرسة الأطفال في القرية التي كانت تذهب إليها، وكانت تجلس في مكانها الاعتيادي في غرفة الجلوس الجميلة التي كانت تفصل بين غرفتي الفتاتين، كانت تكب جاهدة لإنجاز مخططات بعض الأبنية، وهو عمل كانت تحبه، وفي هذه الأثناء، أرادت سيليا أن تبلغها برغبتها في أمر ما، لكنها كانت مترددة، ثمّ قالت: «عزيزتي دورثيا إذا لم يكن لديك مانع، وإذا لم تكوني منشغلة جدًّا، أقترح لو نأتي بمجوهرات أمنا ونقسمها في ما بيننا. لقد مرت ستة أشهر تماماً منذ أعطاك إياها عمي، ولم تنظري إليها بعد». ظهرت على وجه سيليا علامات الاستياء الذي أخفته تماماً عن أختها تحسباً منها واحتراماً للأصول والأخلاق، إذ إنّ الفتاتين تشكلان حقيقتين متلازمتين، يمكن أن تصدرا تياراً كهربائيًّا عجيباً إذا ما تماسا فجأة. وأحست سيليا بارتياح عندما ارتسمت البسمة على وجه دورثيا وهي ترفع رأسها.

«يا لك من تقويم مدهش!!! أهي ستة أشهر؟؟ أهي شمسية أم قمرية؟؟».

«إن اليوم آخر يوم من أيلول... ولقد كان اليوم الأول من نيسان حين أعطاك إياها عمي. إنك تتذكرين أنه قد نسيها حتى ذلك الوقت. أظن أنك لم تفكري فيها منذ أن أقفلت عليها في هذه الخزانة».

أجابت دورثيا: «حسناً يا عزيزتي...!! تعلمين أن علينا ألّا نستعملها»... تلون وجه سيليا

وبدت حزينة. تابعت دورثيا بنبرة حنو، وكان القلم في يدها، وهي ترسم مخططاً صغيراً على الهامش: «أظننا نحترم ذكرى أمنا حين نضعها جانباً ولا نبالي بها»، ثم أضافت بعد تردد قليل وتنهد يعبر عن شعور بالإهانة: «إن ارتداء الأطواق أمر شائع الآن، فالسيدة بوينكون التي كانت في بعض الأمور أكثر تشدداً منك، لطالما زينت نفسها بالمجوهرات. والمسيحيات كن يرتدين بشكل عام المجوهرات، وهن بالتأكيد الآن في الجنة». كانت سيليا واعية، ولديها توقد ذهني عندما أقحمت نفسها بالحوار. صاحت سيليا: «ألا تحبين ارتداءها؟؟!!». ساد جو من الاكتشاف المفاجئ الذي بث في كامل جسدها نشاطاً وحيوية جعلها تقوم بحركة درامية اقتبستها من السيدة بوينكون التي اعتادت أن تتزين بالمجوهرات.

«بالطبع... دعينا نخرجها، لماذا لم تقولي ذلك من قبل؟ ولكن المفاتيح..المفاتيح»، ضغطت بيدها على صدغها محاولة التذكر، «إنها هنا» قالت سيليا التي لطالما دار في خلدها هذا التوضيح وجال في نفسها. «صلي، وافتحي الدرج الأكبر من الخزانة، وأخرجي صندوق المجوهرات». فتحتا الصندوق بسرعة أمامهما، فانتثرت المجوهرات المختلفة مشكلة روضة خلابة على الطاولة، لم تكن مجموعة كبيرة بيد أنه كان لبعض القطع جمال مميز، وكان أجملها عقد بنفسجي من الأحجار الكريمة صيغ بالذهب بإتقان، وصليب بخمس لآلئ ساحرة. سارعت دورثيا والتقطت هذا العقد وقلدت به عنق أختها، فطوق عنقها كالسوار، لقد ناسب رأسها وعنقها اللذين كانا يشبهان رأس هنرييتا ماريا وعنقها، واستطاعت أن ترى ذلك على العمود الزجاجي الذي كان أمامها.

«هاك يا سيليا... يمكنك أن ترتديه مع الثوب الموسلين الهندي، ولكن يجب أن ترتدي الصليب مع أثوابك الداكنة». حاولت سيليا أن تكتم ابتسامة الفرح قائلة:

«يا عزيزتي دودو يجب أن تحتفظي بالصليب لنفسك».

قالت دورثيا وهي ترفع يدها مشيرة بعدم اكتراث وترفّع: «لا لا يا عزيزتي..».

قالت سيليا ملحة: «نعم، يجب عليك حقًّا أن تأخذيه، فهو يليق بك وأنت ترتدين الثوب الأسود، يمكنك أن تلبسيه الآن».

تبسّمت دورثيا قليلًا وأجابت:

«كلا... لن يرغمني العالم بأسره على ارتدائه، فالصليب هو آخر شيء أرتديه كحلية». ابتهجت دورثيا قليلاً. فقالت سيليا مرتبكة: «عندها ستظنين بي سوءاً حين ألبسه».

قالت دورثيا ماسحة بيدها وجنة أختها: «كلا يا عزيزتي، كلا يا عزيزتي. للأرواح طبائع، فما يناسب أحدها قد لا يناسب بالضرورة غيرها».

«ولكن قد ترغبين في الاحتفاظ به وفاءً لذكرى أمنا».

«لا... فلدي أشياء كثيرة من أمنا، كالعلبة المصنوعة من خشب الصندل، والتي أنا مغرمة بها، وأشياء كثيرة. في الواقع إنها كلها لك يا عزيزتي، فلا نحتاج أن نناقش أمرها أكثر من ذلك. هاك، خذي أشياءك». شعرت سيليا بشيء من الحرج. لقد أحست بموجة قوية من التعالي من خلال تساهل دورثيا... البيوريتاني، وهو لا يقل إرهاقاً لأختها الشقراء غير المتحمسة للاضطهاد البيوريتاني.

«ولكن كيف لي أن أرتدي مجوهرات في الوقت الذي ترفضين أنت أختي الكبرى أن ترتديها».

«لا يا سيليا، إن من الصعب أن يطلب مني هذا كلّه، أي أن أرتدي هذه الحلية لكوني مبتهجة. لو ألزمت أن أرتدي عقداً كهذا، لأحسست أنني أرقص على رجلٍ واحدة، وسيدور العالم معي، ولن أعرف كيف أمشي». عندئذٍ فكت سيليا العقد وألقته.

ثمّ قالت سيليا: «سيكون ضيقاً، إنّ عقدًا آخر يتدلى على عنقك سيناسبك أكثر»، وعندما قالت ذلك شعرت ببعض الارتياح. إن اقتناع دورثيا بعدم ملاءمة العقد لها نهائيًّا جعل سيليا أكثر سعادة. وبينما كانت تفتح علبة الخواتم، أخرجت خاتماً زمردياً مرصعًا بالماس، فأرسلت الشمس من خلال السحاب بريقًا مشعاً فوق الطاولة. «كم تبدو هذه الأحجار الكريمة جميلة!»، قالت دورثيا وقد انتابها شعور مفاجئ كومضة برق.

«يا لغرابة هذه الألوان...!! إنّها تتغلغل في النفس البشرية بعمق كما يفعل العطر...!! أعتقد أن هذا هو السبب الذي يجعل الأحجار الكريمة رموزاً روحية في سفر الرؤيا للقديس يوحنا. وهي تبدو قطعاً قد هبطت من السماء، أعتقد أن هذه الزمردة أكثرها جمالاً».

قالت سيليا: «هنالك سوار يناسبها... لم نلحظ هذا من البداية».

قالت دورثيا: «إنهما جميلتان». ثم وضعت الخاتم في إصبعها، والسوار حول معصمها، ثم أدارتهما بلطف نحو النافذة، وجعلتهما في مستوى نظرها. وطوال هذا الوقت كانت أفكارها تدور حول تبريرها لفرحتها بالألوان، ودمجها مع متعها الدينية.

قالت سيليا مجاملة: «ستحبين هذه يا دورثيا»، وكانت قد بدأت تظن باستغراب أن أختها أبدت بعض الضعف، كما أن الزمرد يناسب لون بشرتها، كحال أكثر الأحجار البنفسجية، ثمّ أردفت:

«يجب أن تبقي لنفسك ذلك الخاتم والسوار، إذا كنت لا تريدين أي شيء آخر، ولكن انظري.. إن هذا العقيق جميل جدًّا وهادئ».

أجابت دورثيا بجدية: «نعم سأحتفظ بهذا الخاتم والسوار... ولكن خذي الباقي كله مع صندوق المجوهرات».

التقطت قلمها دون أن تبعد المجوهرات، وهي لا تزال تنظر إليها، وغالباً ما فكرت في الاحتفاظ بها لتروي نظرها من هذا الينبوع من الألوان النقية.

قالت سيليا وهي ترقب أختها بفضول حقيقي لترى ما ستفعل: «هل سنشترك بلبسها؟؟». رمقت دورثيا أختها بنظرة سريعة. فهي من بين أولئك الأشخاص الذين أحبتهم فزينتهم في مخيلتها. كان تفكيرها الجاد يتحرك بشكل سريع بين آونة وأخرى، وبحرقة.

لو تصرفت الآنسة بروك بتواضع تام، فإن ذلك نتيجة نقص في غليانها الداخلي. لربما قالت بتعجرف: «لا أستطيع أن أعرف إلى أي مستوى يمكن لي أن أهبط». احمرت وجنتا سيليا، ولم تكن سعيدة. لقد أدركت أنها أساءت لأختها، ولم تتجرأ على التفوه بأي شيء جميل حول المجوهرات التي أعادتها إلى الصندوق، وحملته معها. وكذلك دورثيا لم تكن سعيدة حين تابعت رسم مخططها متسائلة حول صدق مشاعرها وحديثها في هذا المشهد الذي انتهى بانفجار بسيط.

لقد بين لها وعي سيليا أنها لم تكن مخطئة قط، إذ كان من الطبيعي بل من المبرر تماماً، أن تطرح ذلك السؤال على نفسها قائلة: إن دورثيا لم تكن ثابتة في رأيها، فقد كان عليها أن تأخذ نصيبها كاملاً من المجوهرات أو أن تتخلى عنه كاملاً بعد الذي قالته. فكرت سيليا قائلة: «أنا متأكدة على الأقل، وإنني أثق بأن ارتداء العقد لا يتعارض مع صلواتي. وأرى أن لا أنصاع لوجهة نَظر دورثيا، لأننا نعيش في مجتمع يوجب علينا أن نتماشى معه، لكن دورثيا ليست دائماً ثابتة على رأيها».

هكذا ظلت سيليا منحنية بصمت على لوحتها القماشية حتى سمعت أختها تناديها:

«تعالي يا كيتي لتشاهدي المخططات. أعتقد أنني مهندسة بارعة، إذا ما حصلت على درج متناسق ومواقد للنار».

وبينما كانت سيليا تنحني على الورقة، لامست وجنة دورثيا بلطف ذراع أختها. فهمت سيليا الحركة، واتضح لدورثيا أنها على خطأ فسامحتها سيليا. ومنذ بداية ذكرياتهما، كان يمتزج في ذهن سيليا وطريقة تفكيرها نقد وخوف من أختها الكبرى، كان على الفتاة الصغرى دائماً أن تلبس نير العبودية، ولكن هل هناك من مخلوق يطوق عنقه ذلك النير دون أن يكون له آراء خاصة به؟؟؟!!

الفصل الثاني

"Dime; no ves aquel caballero que hacia nosotros viene sobre un caballo rucio rodado que trae puesto en la cabeza un yelmo de oro?». «Lo que veo y columbro», respondio Sancho, «no es sino un hombre sobre un as no pardo como el mio, que trae sobre la cabeza una cosa que relumbra». «Pues ese es el yelmo de Mambrino", dijo Don Quijote.

CERVANTES.

قال سانشو: «ألا ترى الفارس القادم إلينا على حصانه الرمادي الأرقش، وهو يرتدي خوذته الذهبية؟؟... أنا لا أرى سوى رجل يركب حمارًا رمادياً يشبه حماري وعلى رأسه شيء يلمع».

أجاب دون كيشوت: «تماماً، فما ذلك الشيء الذي يتألق على رأسه إلا خوذة مامبرينو»..

سرفانتس

«السيد همفري ديفي؟»، قال السيد بروك مع ابتسامة لطيفة، وهو يتناول حساءه معلقاً على ملاحظات السير جيمس جتم، أنه كان يدرس في كتاب الكيمياء الزراعية لـ «ديفي»، «حسناً... السيد همفري ديفي، لقد تناولت العشاء معه منذ سنين في منزل كارت رايت، وكان هناك السيد وردسورث أيضاً، الشاعر وردسورث إنك تعرفه. لقد كان هناك شيء فريد، إذ كنت في جامعة كامبردج حين كان وردسورث هناك، لكنني لم أقابله قط، وبعد عشرين عاماً تناولت العشاء معه في منزل كارت رايت، لكنّني استغربت بعض الأشياء؛ كان ديفي هناك، ويمكنني القول أيضاً إنه شاعر بل إنّ وردسورث كان الشاعر رقم واحد، وديفي الشاعر رقم اثنين، لقد كان هذا حقيقيًّا في كل الاعتبارات كما تعلم».

في بداية العشاء، لما كان الحضور قليلاً، والغرفة هادئة، شعرت دورثيا بأنها متوترة أكثر من المعتاد، إذ كان لآراء السيد بروك الكثيرة المبعثرة وقع ملحوظ. كانت تعجبُ كيف

يمكن لرجل مثل السيد كزابون أن يؤيد مثل هذه الترهات. فقد ظنت أن أسلوبه وقور، إذ إن تسريحة شعره الرمادي وعينيه الغائرتين، جعلته يشبه صورة «لوك». كان له جسم نحيل وبشرة شاحبة، مما جعله يبدو باحثاً، ويختلف كثيراً عن الرجل الإنجليزي الممتلئ ذي الشارب الأحمر، كالسير جيمس جتم.

قال الرجل النبيل: «إنني أقرأ في هذه الأيام كتاب الكيمياء الزراعية، لأنني أنوي أن أستعيد أحد حقولي، لأرى ما إذا كان تطبيق الأسلوب الزراعي النموذجي ممكناً، بعيداً من أيدي المزارعين المستأجرين. فهل توافقين على ذلك يا آنسة بروك؟»

تدخل السيد بروك قائلاً: «سيكون خطأ جسيماً يا سيد جتم، وستثير مشكلة في أرضك، وتجعل منها حظيرة بقر، إن ذلك لن ينجح. لقد استخدمت العلم مرة على نطاق واسع، لكنني وجدت ذلك غير مجد. إذ إنه سيقودك إلى مرحلة تتطلب منك ضبط كل شيء، كلا... كلا اعلمْ أن المزارعين المستأجرين لن يبيعوا قشهم لتعطيهم بدلاً منه أنابيب للصرف كما تعلم. إنّ طريقتك الخيالية في الزراعة لن تتحقق بثمن أغلى صافرة تشتريها. ولكن... ربما يمكنك أن تقتني كلاب الصيد».

قالت دورثيا: «إن إنفاق المال لأجل الاكتشاف، أفضل من إنفاقه على اقتناء الكلاب والخيل لتعدو في تلك الأرض. كيف يمكن للرجل أن يستفيد أكبر قدر ممكن من الأرض التي هي مصدر رزقه. ليس من الخطيئة أن تصبح فقيراً نتيجة إنفاقك على تجارب تصب في مصلحة الجميع».

تكلمت دورثيا بحماس أقوى من ذلك الذي يمكن أن يصدر عن شابة، ذلك أن السيد جيمس كان قد استنجد بها. فهو اعتاد على ذلك. ولطالما ظنت أنها يمكن أن تدفعه لفعل أشياء إيجابية كثيرة عندما يصبح صهراً لها. أدار السيد كزابون نظره بشكل ملحوظ إلى دورثيا وهي تتحدث، وكأنه قد رآها لأول مرة.

قال السيد بروك مبتسماً وهو يخاطب السيد كزابون: «إن الفتيات لا يفهمن سياسة الإنفاق كما تعلم».

«أتذكر حين كنا جميعاً نقرأ كتب آدم سميث، إنها كتب أخذت بكل أفكاره ذات مرة، مثل فكرة إمكانية بلوغ الانسان درجة الكمال، لكن بعضهم يقول إنّ التاريخ يعيد نفسه، ويمكن أن يكون موضع نقاش عنيف، لقد دخلت مرة في نقاش حول ذلك مع نفسي. في

الواقع... إن الفكر البشري يمكن أن يذهب بك أبعد قليلاً مما ينبغي، حيث يتجاوز بك الحدود المنطقية. لقد ذهب بي مرة بطريقة غير سليمة، لكنني وجدت أن ذلك لن يجدي نفعاً، فتراجعت في الوقت المناسب ولكن شيئًا فشيئًا. كنت دائماً أميل إلى نظرية بسيطة تقول:إننا يجب أن نفكر وإلا سينتهي بنا المطاف بالتقهقر نحو عصور الظلام. ولكن بمناسبة الحديث عن الكتب، هنالك كتاب للمؤلف سوثي عنوانه: «حرب شبه الجزيرة»، أقرؤه كل صباح. هل تعرفون سوثي».

قال السيد كزابون: «كلا». دون أن يتابع أفكار السيد بروك المبعثرة، مفكراً في الكتاب فقط. «لدي اهتمام بسيط بهذا النوع من الكتب الآن إلّا أنّني مؤخراً انهمكت في قراءة الشخصيات القديمة، والواقع أن القراءة تضايقني في المساء، لكنني شديد الحساسية تجاه الأصوات، ولا أستطيع تحمل الاستماع إلى قارئ رديء. ومن سوء الحظ بالنسبة إليّ أنني أعتمد على أحاسيسي الداخلية، وأعايش الموتى أكثر مما ينبغي. إنني أفكر كإنسان عاش في غابر الأزمان، متأملاً العالم من حوله، محاولاً أن يبنيه في خياله كما كان عليه في الماضي، بالرغم من الدمار والتغيرات الفوضوية. لكنني وجدت من الضروري أن أكون حريصاً جدًّا على نظري».

كانت هذه هي المرة الأولى التي تحدث بها السيد كزابون مطولاً، معبراً عن نفسه بدقة، وكأنه قد دعي لإلقاء كلمة منمقة وذات إيقاع عذب أمام الجمهور، يرافقها أحياناً بعض الحركات برأسه، لقد كان كلامه أكثر وضوحاً من كلام السيد بروك المفكك، والمصاغ بغير عناية. قالت دورثيا لنفسها: إن السيد كزابون هو أفضل رجل قابلته، بمن فيهم السيد ليرت، ورجل الدين فوديوس الذي عقد مؤتمرات حول تاريخ أحد المذاهب الكاثوليكية. كم هو ممتع أن تشارك في إعادة بناء عالم غابر دون أن ترتاب بوجوب تحقيق أهداف جليلة سامية، فتشارك به ولو بحملك مصباحاً! سمت هذه الفكرة الخلابة بدورثيا فوق غضبها حين شعرت بالإهانة لجهلها غير المبرر بكتاب سياسة الإنفاق، مما جعلها تبدو بعيدة من نور العلم.

ثم أخذ السير جيمس فرصة التحدث قائلاً: «ولكنك مولعة بركوب الخيل يا آنسة بروك، أظن أنك تحتاجين إلى الاستمتاع بالصيد قليلاً... أتمنى لو تأذنين لي بأن أرسل لك حصاناً كستنائي اللون لتجربيه، فهو دُرِّب لأجل السيدات. وقد شاهدتك يوم السبت هائمة فوق الهضبة على حصان هرم لا يليق بك. وسائس خيولي هو من سيجلب لك الحصان كوريدون كل يوم، ولكن أرجو أن تحددي الوقت».

قالت دورثيا: «شكراً لك إنك لطيف جدًّا. لكنّني أنوي الإقلاع عن ركوب الخيل، ولن أركب الخيل بعد الآن». لقد أجبرت على هذا الحل الفظ، حين أثار غضبها ما بدا من السير جيمس من محاولات ليجذب انتباهها، الذي أرادت أن تمنحه كله للسيد كزابون.

قال السير جيمس بنبرة تعكس اهتماماً كبيراً: «كلا إن ذلك لشيء قاس جدًّا. لقد استسلمت أختك لكبح الذات أليس كذلك؟»، تابع مستديراً إلى سيليا التي تجلس إلى يمينه.

قالت سيليا: «أظن ذلك» وهي تشعر بالخوف من أن تقول شيئاً لا يسر أختها، فاحمرت وجنتاها، وأضاء جمال وجهها من فوق العقد، ثم تابعت: «هي تحب الإقلاع عن كثير من الأشياء».

قالت دورثيا: «الصحيح يا سيليا أن إقلاعي عن الأشياء هو الانغماس بالذات، وليس كبح الذات، ولكن يمكن أن تكون هناك أسباب قوية للإقلاع عن أمور تعارف عليها الناس».

كان السيد بروك يتكلم في الوقت عينه، ولكن كان واضحًا أن السيد كزابون يراقب دورثيا وكانت هي تعي ذلك.

قال السير جيمس: «تماماً، إنك تقلعين لسبب رفيع ونبيل».

قالت دورثيا: «كلا في الواقع.. ليس ذلك تمامًا.. لم أقل ذلك بنفسي». واحمرت وجنتاها وهي قلما تحمر وجنتاها إلا عندما تبتهج أو تغضب كثيراً. أحست بغضب في هذه اللحظة من حماقة السير جيمس. لماذا لا يبدي اهتماماً بسيليا، ويتركها تستمع إلى كزابون؟ لو تكلم ذلك الرجل المتعلم بدلاً من أن يسمح للسيد بروك أن يخاطبه ويخبره بأن حركة الإصلاح الديني البروتستانتي إما أن تعني شيئًا أو لا تعني. فهو بروتستانتي إلى العظم، لكن المذهب الكاثوليكي يعني حقيقة أن تهب قطعة من أرضك للكنيسة الرومانية.

جميع البشر يحتاجون إلى الخشوع الديني الذي كان يشكل مصدر هيبة من حياة الآخرة. قال السيد بروك: «لقد بحثت معمقاً في علوم الدين ذات يوم»، وكأنه ينوي شرح نفاذ البصيرة بشكل واضح.

«إنني أعرف قليلاً عن جميع المدارس. أعرف ويلبرفورس، وهو في أفضل حالاته. هل تعرفون ويلبرفورس؟»

قال السيد كزابون: «كلا».

«حسناً لم يكن ويلبرفورس مفكراً جيداً، لكنني لو ذهبت إلى البرلمان كما طلب مني، لجلست على مقعد للمستقلين كما فعل ويلبرفورس، ولعملت في الشؤون الإنسانية».

انحنى السيد كزابون، وأوضح بأن ذلك يشكل مجالاً واسعاً.

قال السيد بروك مبتسماً: «نعم، لكنني أحتفظ بوثائق بدأت في جمعها منذ فترة طويلة جدًّا، وهي تحتاج إلى ترتيب. كنت كلما واجهت سؤالاً، أكتب لأحد الأشخاص، فأحصل على جواب. هكذا أصبح لدي الكثير من الوثائق. ولكن كيف ترتب وثائقك الآن؟»

قال السيد كزابون: «جزء منها على الرفوف».

«آه... الرفوف لا تنفع، لقد جربتها، لكن الأشياء يختلط بعضها ببعض على الرفوف، ولا أستطيع معرفة ما إذا كانت ورقة ما هي على رف.. أ.. أو رف.. ياء».

قالت دورثيا: «أتمنى لو تأذن لي أن أرتب لك أوراقك يا عمي... لكنت رتبتها جميعاً بحسب الأحرف، ثم أضع قائمة من المواضيع تحت كل حرف». ابتسم السيد كزابون بوقار مؤيداً، وقال للسيد بروك: «إنها سكرتيرة ممتازة.. أعلم ذلك».

قال السيد بروك وهو يهز رأسه: «كلا... كلا، لا يمكنني أن أدع فتيات شابات يتطفلن على وثائقي، إن الشابات أكثر طيشاً من أن يقمن بعمل كهذا». شعرت دورثيا بجرح، وبأنّ السيد كزابون سوف يعتقد أن لدى عمها سبباً وجيهاً جعله يعبر عن هذه الآراء، ولكن على عكس ذلك، إذ إن الملاحظة لم تؤثر فيه إلا كما يؤثر جناح حشرة مكسور ضمن أفكار صغيرة مشتتة، لكن الفرصة سنحت الآن كي تبرق في ذهنه.

لمّا كانت الفتاتان بمفردهما في غرفة الاستقبال، قالت سيليا: «كم هو قبيح السيد كزابون».

«سيليا.. إنه أحد أكثر الرجال الذين شاهدتهم في حياتي تميزاً بجماله، إنه يشبه بشكل واضح لوحة «لوك»..له نفس العينين الغائرتين».

«هل لدى لوك شامتان بيضاوان وعليهما شعر؟..آه»... أقول بثقة عندما ينظر إليه نوع من الناس».

قالت دورثيا، وهي تبتعد قليلاً: «يبدو السيد كزابون شاحباً جدًّا... إن ذلك أفضل.

أظنك تعجبين برجل لون بشرته وردية كلون الخنزير الصغير».

«دودو!». صاحت سيليا وهي تنظر إليها باستغراب: «لم أسمعك تقيمين المقارنة نفسها من قبل».

«لماذا أفعل ذلك قبل أن تأتي المناسبة؟ إنها مقارنة حسنة فأوجه الشبه متطابقة».

كان من الواضح أن الآنسة بروك قد نسيت نفسها وقد تنبّهت سيليا لذلك.

«عجباً لأمرك... أنت تنفعلين يا دورثيا».

«إنه لمن المؤلم يا سيليا أن تعتبري البشر مجرد حيوانات يستخدمون المراحيض. ولا ترين الروح العظيمة على وجه الإنسان». لم تخل سيليا من لمسة الكراهية الساذجة.

قالت دورثيا بصوت حازم: «نعم أعتقد أن لديه روحاً عظيمة... أرى كل شيء ينسجم مع ما في كتابه في علم الكونيات الدينية».

قالت سيليا: «كلامه قليل».

«لا يوجد عنده أحد يتحدث معه». تتحدث سيليا مع نفسها قائلة: «إنها تحتقر السير جيمس جتم، أظن أنها لن تقبل به». شعرت سيليا بالأسى، لم تنخدع قط بما يصبو إليه الفارس النبيل. كانت أحياناً تعتقد بأن دورثيا لا يمكنها أن تسعد الزوج الذي لديه نظرة تختلف عن نظرتها للأشياء، فيخمد في أعماق قلبها ذلك الشعور بأن أختها متدينة جدًّا إلى حد لن يمكنها من تكوين أسرة سعيدة.

كانت الأفكار والشكوك كالإبر المبعثرة، فهي تخيف كل واحد من أن يسير أو يجلس أو يأكل. وبينما كانت الآنسة بروك تجلس قرب طاولة الشاي، جاء السير جيمس جتم ليجلس إلى جوارها، لم يشعر بتكبرها عليه على الإطلاق. كيف له أن يشعر بمثل هذا، وهو يعتقد أنها ربّما قد أحبته؟!! فالتصرفات يجب أن تحلل بدقة قبل تفسيرها بناء على افتراضات مسبقة، فإما أن تكون موثوقة أو تكون عكس ذلك. كانت بالنسبة إليه فاتنة، لكنه أطلق بعض النظريات حول ارتباطه. فهو من طينة بشرية ممتازة وكانت لديه ميزة نادرة هي معرفته بأن مواهبه - حتى لو أطلق لها العنان - لن تضرم النار في أصغر جدول في الإقليم. لذلك كان يحب الزوجة التي يمكنه مخاطبتها.

ماذا ستفعل بهذا أو ذاك الشيء، والتي تساعد زوجها بالتفكير، والتي لديها مؤهلات لفعل ذلك.

بالنسبة إلى التدين المفرط الذي عرف ضد الآنسة بروك كان لديه تصور لا حدود له وكان يعتقد أنه سيزول مع الزواج. باختصار لقد شعر أنه قد وقع في الحب في المكان المناسب، وأنه مستعد أن يتحمل مقداراً كبيراً من السيطرة، التي يستطيع الرجل في النهاية أن يتخلص منها متى يرغب. لم يفكر السير جيمس يوماً في سيطرة هذه الفتاة الجميلة التي فتن بذكائها ولم لا؟

إن في عقل الرجل ميزة هي أنه ذكوري، فأقصر شجرة من أشجار البتول هي أعلى من أطول شجرة نخيل، وحتى جهله فهو من نوع أفضل، ربما لم يستنتج السير جيمس هذا التقييم، لكن نوعاً من العناية الإلهية يمنح أضعف شخصية قوة بسبب التقاليد والعرف.

قال المعجب المشاكس: «دعيني آمل أنك قد تراجعت عن قرارك حول الحصان يا آنسة بروك... كذلك فإن ركوب الخيل هو أفضل رياضة صحية».

قالت دورثيا ببرود: «إنني أدرك ذلك. وأظن أن ذلك سيكون جيداً لسيليا لو مارست هذا النوع من الرياضة».

أضاف: «لكنك خيالة ماهرة..».

«عفواً لقد تدربت أقل من اللازم ويمكنني أن أقع بسهولة».

«لذلك، هذا سبب جيد لتتدربي أكثر، يجب على كل سيدة أن تكون خيالة ممتازة لأنها يمكن أن ترافق يوماً زوجها».

«هل تلاحظ مدى الاختلاف الشاسع بيننا يا سير جيمس؟ لقد قررت ألّا أكون خيالة ممتازة، وهكذا لن أمثل أنموذج الفتاة التي ترغب فيها». كانت دورثيا تنظر أمامها، وتتحدث ببرودة وفظاظة كما يفعل شاب وسيم، على عكس معجبها، الذي كان يظهر عليه الود والميل إليها.

«أود معرفة أسباب قرارك الصارم. يجب ألّا تعتقدي أن الفروسية خطأ».

«من الممكن أن أعتقد أنها خطأ بالنسبة إليّ».

قال السير جيمس بنبرة اعتراض لطيفة: «لماذا؟»

وكان قد أتى إلى الطاولة السيد كزابون مستمعاً وهو يحمل بيده كوباً من الشاي فتدخل

بطريقته الدقيقة قائلاً: «يجب ألّا تسأل بفضول شديد عن الدوافع.. الآنسة بروك تعلم أن هذه الدوافع تميل إلى الضعف لدى التعبير عنها، فالشذا سينتشر كلما اشتدت كثافة الهواء، لذا يجب أن نبعد البذور الزراعية عن الضوء».

لوّن السرور وجه دورثيا، ورفعت نظرها إلى المتحدث بامتنان. ها هنا رجل يستطيع أن يفهم أعماق النفس البشرية، فيمكن أن تنشأ مشاركة روحية معه. وهو من يستطيع أن يضيء المبادىء بأكبر قدر من المعرفة. إنه الرجل الذي يتعلم دائماً ليثبت ما هو مؤمن به.

تبدو استنتاجات دورثيا كثيرة، لكن الحياة لم يكن لها الحق في أن تستمر في أيّ مرحلة، دون هذا الكم الوافر من الاستنتاجات التي كانت دوماً تسهل الزواج ضمن صعوبات التقدم الحضاري. هل حصل لأحد أن تسلل إلى العش الزوجي الصغير مع أحد معارفه قبل زواجهما؟

قال السير جيمس: «بالتأكيد. لن ترغم الآنسة بروك على البوح بأسباب تفضل إخفاءها. أنا متأكد أن أسبابها مشرفة».

لم يكن غيوراً من اهتمام دورثيا بالسيد كزابون؛ إذ لم يخطر له أنّ الفتاة التي يفكر مليًّا في خطبتها يمكن لها أن تهتم برجل يكبّ على المطالعة، ملتصقاً بكتبه كعث الكتب الجاف، وقد ناهز الخمسين من عمره، ما لم يكن هذا الاهتمام بدافع ديني، كما لو كان لرجل دين ذي منزلة رفيعة.

لما انشغلت الآنسة بروك بالحديث مع السيد كزابون حول رجل الدين فوديوس، انتقل السير جيمس جانباً مع سيليا، وتحدثت سيليا بارتياح وهي بعيدة من أختها، ثم قال السير جيمس لنفسه: الآنسة بروك الثانية كانت بالتأكيد مسايرة جدًّا وجميلة أيضاً، فهي على الرغم من أنها أشد ذكاء وأكثر رقة من أختها الكبرى، فإنّها لم تكن تتظاهر بذلك كالآخرين. عندئذٍ أحس بأنه قد اختار الفتاة الأفضل، ولا سيما أن الرجل بطبيعته يصبو إلى الأفضل، فهو سيكون منافق العازبين إذا ما تظاهر بعدم توقعه بذلك.

الفصل الثالث

لقد سُمعت الحكاية بانتباه، وكانت مليئة بالإعجاب، وعميقة التأثير، لما فيها من أشياء مدوية وغريبة

الفردوس الضائع - الكتاب السابع

ليته يحدث حقًّا ويفكر السيد كزابون مليًّا في الآنسة بروك زوجة مناسبة له... لابد من أن تكون الأسباب التي أقنعتها قد غرست مسبقاً في ذهنها، وفي اليوم التالي برعمت ثم تفتحت. لقد تسللت سيليا هاربة من النقاش الطويل الذي دار في الصباح، لأنها لم تحب صحبة السيد كزابون لشامتيه ولشحوب وجهه، أرادت الذهاب إلى بيت القسيس لتلعب مع أبنائه الحفاة، ولكن المرحين.

وفي هذا الوقت نظرت دورثيا بتمعن إلى خزان السيد كزابون الذهني المفتوح فرأت فيه انعكاساً للامتداد اللامتناهي الغامض لكل سمة أو ميزة كونتها لنفسها. لقد أفصحت له عن الكثير من خبراتها، وتفهمت منه هدف عمله العظيم، الذي هو بعد لامتناه وجذاب. كان مثقفاً ومتنوِّراً كالملاك المهذب في كتاب ميلتون، وبأسلوب يشبه قليلاً أسلوب الملاك رفائيل، لقد أخبرها كيف تعهد أن يوضح جميع الأنظمة الأسطورية، وكذلك القطع الأسطورية الشاذة التي كانت تشويهاً لتقاليد كان يُعمل بها على نهج المحاولات السابقة، ولكن بترتيب أكثر نجاحاً وبدقة أكبر وبمقارنة أكثر عدالة، وكيف أنّ المنظورات الأسطورية الغريبة نشأت في العالم الذي تسوده عادة الفساد المتجذر، وليبين أيضاً أن المحاولات التي تمت من قبل لم يتوافر فيها عنصر الإفاضة والمقارنة العادلة والترتيب الفعال الذي كان يصبو إليه السيد كزابون.

أصبح الحقل الواسع لتفاسير الأساطير منطقيًّا، لا بل مضاء بنور انسجامها وتطابقها. لكن تجميع هذا المحصول العظيم للحقيقة لم يكن عملاً هيناً ولا سريعاً، حيث كانت تعليقات السيد كزابون قد وضعت في سلسلة من الكتب، لكن العمل الأساسي يتمثل في تجميع وضغط النتائج الهائلة والمستمرة بالتزايد، ووضعها في كتاب يشبه الكتب الطبية القديمة ليتسع لها رف صغير.

من خلال شرح هذا لدورثيا عبّر السيد كزابون عن نفسه وكأنه يشرح لتلميذ له، ذلك أنّه لا يجيد التحدث بأسلوبين في آن: إنه في الحقيقة لمّا كان يستخدم عبارة في اللاتينية أو الإغريقية، كان يعطي ما يقابلها بالإنجليزية بدقة لكنه من المرجح كان يفعل ذلك في كل الأحوال. لقد اعتاد رجل الدين المتعلم الذي يعمل في الريف، أن يعتبر معارفه وكأنهم لوردات وفرسان ونبلاء وأصحاب شأن يعرفون قليلاً من اللاتينية.

لقد سحرت دورثيا تماماً بهذا التصور الآسر، هنا يكمن شيء أعمق من سطحية المدرسة النسائية الأدبية؛ فهنا كان يعيش الأسقف الفرنسي بوست، الذي أعاد عمله اللُّحمة بين المعرفة التامة والتدين الرباني، وهنا عاش المفكر الفيلسوف المعاصر أوغستين الذي وحد بين عظمة الأطباء والقديسين. لم تبد الطهارة القدسية أقل نصاعة من التعلم، لما اضطرت دورثيا للبوح ببعض من أفكارها التي لم تجد أحداً من قبل في تبتن لتبوح له بها، ولا سيّما تلك الأفكار الثانوية ذات المضمون والشكل الديني، بالمقارنة بالدين الروحاني، وتلك الأفكار التي تغمس الذات في الكمال الرباني، والتي تبين أنها قد شرحت وفصلت على أفضل وجه في الكتب المسيحية عبر أزمنة جد متباعدة. لقد وجدت في السيد كزابون الرجل الذي يصغي إليها جيداً والذي يفهمها مباشرة، ويمكنه أن يؤكد لها تأييده للرأي حين يكون معتدلاً كما ينبغي، ويكون منسجماً مع الحكمة والمنطق، كما يُمكنها الإشارة إلى أمثلة تاريخية لم تستطع التحدث حولها قبل ذلك.

قالت دورثيا بداخلها: «هو يفكر معي... أو أنه يعتقد بأن عالم أفكاري كله مجرد مرآة صغيرة بحجم بنسين، كما يعتقد أن مشاعره وخبرته كلها كبحيرة أمام بركة سباحة، إذا ما قورنت بأفكاري ومشاعري».

كانت الآنسة بروك تحاور بكلمات، وتتصرف بقليل من التردد الذي لا يزيد على ما هو لدى بنات جيلها ولا ينقص عنه. إن الرموز والسمات هي أشياء صغيرة قابلة للقياس، لكن التفاسير لا يمكن تحديدها لدى الفتيات ذات الطبيعة اللطيفة والمتحمسة، فكل سمة فيهن

تستحضر لدى الطرف الآخر سحر الإعجاب والأمل والإيمان، فهي واسعة كوسع السماء، وقد صبغت بقليل من الطلاء أي ملء الكشتبان لتبدو على شكل المعرفة. فهن لا يخدعن بشكل جسيم، فإن سندباد نفسه قد وقع على الوصفة الحقيقية حين توافر له الحظ، فالتقديرات الخاطئة تصل بالإنسان الفاني إلى نهايات صحيحة أحياناً. إن الانطلاق من موقع بعيد عن نقطة البداية الصحيحة، ثم الاستمرار في طريق متعرج، يوصلنا بشكل أو بآخر إلى المكان الذي ينبغي لنا الوصول إليه. وبما أن الآنسة بروك كانت متسرعة في وضع ثقتها في المكان المناسب، فإنّه لم يكن واضحاً ما إذا كان السيد كزابون جديراً بها.

لقد مكث وقتاً أطول مما كان ينوي، وذلك نتيجة ضغط بسيط من السيد بروك، الذي لم يقدم من إغراءات سوى وثائقه التي تدور حول تعطيل الآلات وحرق القش. لقد دعاه السيد بروك إلى المكتبة لينظر في هذه الوثائق المكدّسة، في حين أنّ مضيفه كان يلتقط الوثيقة تلو الأخرى ليقرأ منها مقتطفات، وبتردد، فينتقل من مقطع لم ينه قراءته إلى آخر. وهو يقول بصوت عال: «نعم، ولكن هنا». ثم يدفع بها كلها جانباً، ثم يفتح دفتر مذكرات شبابه الذي يتضمن رحلاته حول القارة.

«أُنظر هنا... حيث كل شيء عن اليونان، رامونس.. آثار رامونس، أنت الآن إغريقي عظيم. هل درست علم الطبوغرافيا؟

لقد قضيت وقتاً طويلاً لأنجز هذا العمل. هنا بدأنا الصباح التالي في جبل بارانسوس ذي الشعبتين، كل ما يتضمنه هذا الجزء من المذكرات هي معلومات عن اليونان.. أنت تعلم».

انتهى السيد بروك ومسح بإبهامه حافة أوراق المذكرات وهو يمسك بها أمام السيد كزابون. كان السيد كزابون مشاهداً جليلاً، ولكن فيه شيئاً من الحزن، انحنى في المكان المناسب، حيث تجنب قدر استطاعته النظر إلى الوثائق، دون أن يبدي أي إهمال أو نفاد صبر.

كان يرى أن هذا التفكك يتلازم مع أعراف البلد وتقاليده، وأن الرجل الذي أخذه في رحلة ذهنية سريعة جدًّا، لم يكن مضيفاً ودوداً فحسب، بل كان مالك أرض وحافظ وثائق الإقليم، ومما ساعده على تحمل السيد بروك أنه كان عمًّا لدورثيا. لقد بدا بالتأكيد راغباً أكثر فأكثر في جعل دورثيا تتكلم معه، ولما كان ينظر إليها، كان وجهه يشرق بابتسامة كشعاع شمس شتاء خافتة. ولقد لاحظت سيليا ذلك كله بنفسها.

قبل أن يغادر في الصباح، وبينما كان يتمشى مع الآنسة بروك عند المدخل المرصوف بالحصى، ذكر لها تأثره بمأساة الوحدة والعزلة، والحاجة إلى صحبة مبهجة، فيها روح شباب يمكن لها أن تضيء، أو تزيل تعب الكهولة وجمودها.

لقد قال هذا كلّه بدقة شديدة، وكأنه رجل دبلوماسي، لا بد من أن تكون لكلماته نتائج مؤكدة. وفي الحقيقة لم يتوقع السيد كزابون أن يعيد النظر في علاقات لها هذا الطابع الشخصي والعملي، فالرغبات التي تعمد إيضاحها في الثاني من تشرين الأول، ظنًّا منه أن ذكر هذا التاريخ كافٍ للإشارة إليها، تستند إلى ذاكرته، التي هي أشبه بكتاب كبير، حيث تستخدم فيه عبارة... «أنظر أعلاه».. بدلاً من التكرار، وليس كما في الكتب المستنسخة القديمة، التي تتضمن المنسي فقط. ولكن في مثل هذه الحالة فإن ثقة السيد كزابون لم تكن مزيفة، ذلك أن دورثيا قد احتفظت بما سمعته منه بطريقة الشابة المتحمسة، التي يمثل كل صنف من الخبرة والتجربة عندها فترة من الزمن.

كانت الساعة الثالثة، من يوم خريفي جميل، تهب فيه نسمات عليلة، عندما غادر السيد كزابون متجهاً إلى ركتوري في لُويك التي تبعد خمسة أميال فقط من تبتن. أما دورثيا التي ارتدت قبعتها وشالها، فقد سارعت إلى الذهاب عبر ممر تكسو جنباته شجيرات، فتقطع الحديقة، لتتنقّل عبر الغابة المجاورة، دون أن يرافقها أحد سوى الكلب مونك الذي اعتاد على مرافقة الفتاتين أثناء تنقُّلهما.

لقد أمعنت النظر، بصفتها فتاة، بمستقبلها المحتمل، الذي تطلعت إليه بأمل مرتجف، فأرادت أن تهيم بخيالها متأملة ذلك المستقبل المرجو، دون أن يقاطعها أحد.

سارت في الهواء البارد بخطى حثيثة، فاحمرت وجنتاها، وردّت إلى الخلف قليلاً قبعتها المصنوعة من القش، التي ينظر إليها أبناء عصرنا بفضول فطري، وكأنها سلة قش.

ربما كان صعباً أن تميَّز بشكل دقيق، لو لم يعرف عنها أنها تضفر شعرها البني، ثم تلفه فوق رأسها، فيظهر بطريقة جريئة في وقت يتطلب فيه شعور عامة الناس الحد الأدنى من التصرف الطبيعي، الذي يظهر بمهارة من خلال خصلات الشعر المجعدة، وربطات الشعر الطويلة. إذ إنّ هذا الشعور لم يتجاوزه أي شعب عريق سوى شعب الفيجي. لقد كان هذا الأمر يشكل سمة زهد للآنسة بروك، دون أن يظهر في عينيها البراقتين، حين تنظر أمامها بلا تعمد، ولكن حين تستغرق متأملة في نفسها بعمق روعة وقت العصر وجماله،

مع موجات ضيائه القديم، عبر صفوف أشجار الزيزفون البعيدة، التي تلتقي ظلال بعضها بظلال بعضها الآخر. كان جميع الناس، شباناً وكهولاً، أي أولئك الذين عاشوا في أزمنة ما قبل الإصلاح، يعتبرونها مادة ممتعة، لو عزوا توقد عينيها، وتورد خديها، إلى صور حب يافع قد استيقظ لتوّه، ولكرس خيال كلويه حول حبيبها سترفن في الشعر بقدر كاف، كما يجب أن تكون الثقة العذبة ذات الجمال البائس الشجي.

كانت الآنسة بيبن معجبة بالسيد بمبكين الشاب الوسيم، وتحلم بخيال خصب بصحبة غير مملة. تشكل هذه القصة مسرحية قصيرة، لم يمل آباؤنا وأمهاتنا منها. وبما أنه كان لدى بمبكين قوام، فإنّه قاسى من سلبيات البزة القصيرة من الأمام والطويلة من الخلف، فكان الجميع يعتقدون أنّ ليس من الطبيعي فحسب، بل إن من الضروري لكل فتاة جميلة أن تفتن مباشرة بفضائله وقدراته الخارقة، وأهم من ذلك بوفائه المطلق، إذ إنّ هذا ضروري لكل فتاة كي تبلغ درجة الكمال. ولكن ربما لا يوجد من يعيش في جوار بلدة تبتن، ولديه تعاطف تجاه أحلام فتاة، استقت مفاهيمها حول الزواج كليًّا من تعصبها الديني المقدس ومن مفهومها حول نهاية الحياة.

فهذا التعصب اتقد بشكل رئيسي بناره، ولم يشمل أدق تفاصيل عن جهاز العروس، أو نقوش الأطباق، أو حتى المقام الرفيع، ولا الفرحة العذبة التي ترتسم على وجه العروس المتورد.

لقد عشش في ذهن دورثيا، أن السيد كزابون قد يرغب في جعلها زوجة له، وأن فكرة زواجهما قد تركت في نفسها تأثيراً فيه نوع من الامتنان الوقور. يا لروعته؛ لقد كان الأمر وكأن ملاكاً مجنحاً وقف فجأة في طريقها، ومد يده لها! لقد غم على صدرها مدة طويلة للغموض الذي اعترى تفكيرها، وكأنه ضباب صيف كثيف، لف كل جوارحها ورغباتها في جعل حياتها ذات تأثير بالغ. ماذا يمكنها أن تفعل؟ وماذا عليها أن تفعل؟

فعلى الرغم من أنها فتاة يافعة، فإنّها تملك ضميراً حيًّا وذكاءً ثاقباً، لا يقبل التصرفات الصبيانية، التي تشبه تصرفات الفئران ومحاكماتها. وبنوع من الموهبة، امتزجت بين السذاجة والإدراك، ربما ظنت أن كل شابة مسيحية ذات ثروة، يجب عليها أن تجد الحياة المثالية في الجمعيات الخيرية الريفية، وفي كنف قس متواضع، وفي قراءتها لكتاب «الشخصيات النسائية في الكتاب المقدس»، وفي كشفها لمعاناة سارة خاصة، في ظلّ النظام الديني القديم، وكذلك معاناة دوركس في ظلّ النظام الديني الجديد، وفي عنايتها

بروحها أثناء قيامها بالتطريز في مخدعها، وهي تفكر في زواجها المرتقب من رجل لو كان أقل منها تشدداً وتديناً، لصلت لأجله، وقدمت له موعظة دينية.

بسبب مثل هذه القناعة أوصد الباب في وجه دورثيا المسكينة، فإن مكانتها الدينية، والقسر الذي مورس عليها في حياتها، لم يكونا إلّا انعكاسًا لطبيعة متحمسة، غير عملية، وذات نتيجة نظرية. مثل هذه الطبيعة التي تعاني من نماذج التعليم المحدود، ومقيدة بالحياة الاجتماعية، لا تبدو سوى متاهة في برامج ثانوية محوطة ضمن شبكة من الممرات الضيقة التي لا توصل إلى هدف محدد.

كان من المؤكد أن النتيجة ستفاجئ الآخرين، على الرغم من التفكك الذي يعتريها. إن أفضل ما بدا لها هو أنها أرادت أن توجد التبرير مستعينة بالمعرفة الكاملة، وألّا تعيش بموجب قوانين الزيف والمراءاة التي لم تعمل بها قط.

سكبت في هذه الروح المتعطشة جميع خلجات شبابها وعواطفها، فالارتباط الذي جذبها قد نقلها من خضوع الابنة إلى جهلها، وأعطاها قوة الإلزام لإخضاع ذاتها لمرشد يأخذ بيدها عبر أوسع ممرات الحياة.

قالت لنفسها: «يجب أن أتعلم كل شيء حينها»، وهي لا تزال تسير مسرعة في الطريق المرصوف بالحصى عبر الغابة. «سيكون من واجبي أن أتعلم كي أساعده على أفضل وجه في أعماله العظيمة. لن يكون في حياتنا شيء تافه. فكل شيء بالنسبة إلينا، سيكون له قيمة في كل يوم، وسيبدو وكأنه زواجي من باسكال. يجب علي التعلم لأرى الحقيقة كما يراها الرجال العظام.

عندما أكبر سأعرف ماذا أفعل، ولابد لي من أن أعي كيف يمكن أن أعيش حياة مهيبة.

هنا في إنجلترا، لا أشعر أن لدي الثقة الكافية لفعل الأشياء المثمرة بأيّ طريقة، فكل شيء يبدو لي وكأنني أقوم بمهمة تبشيرية بين أناس لا أعرف لغتهم.. ما لم يكن ذلك العمل بناء بيوت ريفية جيدة، عندها لا أشك بمقدرتي في القيام بذلك. آه أتمنى أن يكون بمقدوري أن أسكن الناس في بيوت جيدة في لويك. سأرسم كثيراً من المخططات كلما سنحت لي الفرصة.

فجأة أحست دورثيا بنفسها، فوبخت ذاتها على الطريقة المتغطرسة التي قدرت بها

أحداثاً غير مؤكدة، فخصصت بعضاً من مجهودها الداخلي لتغير اتجاه تفكيرها، وفي هذه الأثناء ظهر فارس يتبختر على ظهر حصان كستنائي اللون، ومدرب تدريباً جيداً مع كلبي صيد جميلين عند منعطف الطريق.

لم يدع الشك موضعاً، أن راكب هذا الحصان هو السير جتم، عندما رأى دورثيا قفز من على ظهر حصانه مباشرة، وأعطاه لسائسه ثم تقدم إليها وعلى ذراعه شيء أبيض جعل الكلبين ينبحان مبتهجين.

«كم هو مبهج لقاؤك يا آنسة بروك»، قال وهو يرفع قبعته مظهراً شعره الأشقر، ذا التموجات الملساء... لقد تضايقت الآنسة بروك من قدومه. إن هذا الفارس النبيل حقًّا لهو زوج مناسب لسيليا. لكنه يبالغ في جعل نفسه مقبولاً عند الأخت الكبرى حتى ولو أنّه سيكون زوج أخت في المستقبل، يمكن له أن يشكل مصدر ضيق للصدر إذا ما ظل يتكلف في التصرف معك، ويفهمك أنه رجل ممتاز، ويسايرك حتى حين تعارضينه. لم يدرك خطأه في توجيه معظم حديثه لها، إن كل تفكيرها كان يتركز حول نوع آخر من القناعات، لكنه في هذه اللحظة كان فضوليًّا، ولكن بشكل إيجابي. وكانت يداه السمينتان مزعجتين جدًّا، إن غضبها جعلها تتلون وترد على تحيته بعجرفة. استمتع السير جيمس جتم بلون وجهها الغاضب، وشعر أنه لم ير الآنسة بروك بمثل هذا الجمال من قبل.

قال: «جلبت لك متوسلاً صغيراً... أو بالأحرى لقد أحضرته لأرى ما إذا كان سيُقبل أن يقدم التماسه». أظهر الشيء الأبيض من تحت ذراعه، كان كلباً مالطيًّا صغيراً، أحد أكثر ألعاب الطبيعة براءة.

قالت دورثيا: «يؤلمني أن أرى هذه المخلوقات تتكاثر لتكون فقط حيوانات منزلية». وكانت تتشكل فكرتها للتو تحت وطأة الانفعال، ثمّ أردفت:

«أعتقد أنها، وعلى الرغم من العناية المنزلية، ليست سعيدة. إن هذه الحيوانات عاجزة جدًّا وحياتها تافهة. فابن عرس والفأر يحصلان على قوتهما، وهما أكثر سعادة. أنا أميل إلى الاعتقاد بأنّ الحيوانات التي تحيط بنا لها أرواح مثلنا، فإما أن تتابع حياتها بطريقتها وإمّا أن تصبح مرافقة لنا كالكلب مونك هذا، فإن تلك المخلوقات تعيش عالة على غيرها».

قال السير جيمس: «أنا سعيد جدًّا، وأنا أعلم أنك لا تحبينها... وإنني يجب ألّا أحتفظ بها، لكن النساء عادة مغرمات بمثل هذه الكلاب المالطية، هاك يا جون، خذ هذا الكلب معك، هل تفعل؟».

تم التخلص من الكلب الصغير، الذي كانت عيناه سوداوين، وأنفه أسود أيضًا، حين قررت الآنسة بروك أنّ من الأفضل لو لم يولد هذا الكلب أصلاً.

«يجب ألّا تحكم على مشاعر سيليا من خلال مشاعري، أظن أنها تحب هذه الحيوانات الصغيرة. لقد كان لديها كلب صيد صغير، وكانت مولعة به جدًّا. لكنّه سبب لي الانزعاج الشديد، لأنني كنت أخشى أن أدوسه بقدمي فعندي قصر نظر».

«لديك وجهة نظر مختصة بك حول كل شيء يا آنسة بروك، وهي دائماً وجهة نظر مصيبة».

أي رد يناسب هذا الإطراء السخيف؟

قال السير جيمس وهما يتابعان سيرهما بخطى مسرعة تبادر بها دورثيا: «هل تعرفين أنني أحسدك على ذلك».

«لا أفهم تماماً ما تعنيه».

«قدرتك على تكوين رأي ما... يمكنني أن أشكل وجهة نظر حول أشخاص، فأنا أعرف عندما أحب أناساً. ولكن حول مسائل أخرى هل تعرفين أنني غالبًا ما أجد صعوبة في اتخاذ القرارات. يسمع الفرد أشياء لها معنى. ربما لا نميز ما له معنى وما هو دون معنى».

شعرت دورثيا وكأنها فظة قليلاً.

«تماماً»، قال السير جيمس. «لكنك تبدين وكأنك تمتلكين القدرة على التمييز».

«على العكس... أنا غالباً ما أكون عاجزة عن اتخاذ القرار، لكن سبب ذلك هو الجهل.

النتيجة الصحيحة موجودة، وكل النتائج متساوية ومع ذلك لا أستطيع رؤيتها».

«أظن أن قليلين منا يستطيعون رؤيتها بسهولة أكثر، هل تعلمين أن لوف كود قال البارحة إن لديك أفضل فكرة في العالم لخطة بناء منازل ريفية.. إن هذه فكرة رائعة جدًّا لفتاة شابة، ويعتقد أن لديك إبداعاً حقيقيًّا. لقد قال إنك أردت من السيد بروك أن يبني مجموعة من البيوت الريفية الجديدة، لكنه ظنّ أن من المرجح عدم موافقة عمك على ذلك، وهل تعلمين، إن ذلك أحد الأشياء التي أتمنى القيام بها... أعني... في ملكيتي. سأكون مسروراً جدًّا عندما أنفذ خطتك، لو أذنت لي بالاطلاع عليها بالطبع. فإنها تشكل خسارة مالية،

لذلك يرفضها الناس؛ إذ لا يستطيع الكادحون دفع الأجور لجعلها رابحة، لكنها في النتيجة تستحق التنفيذ».

«تستحق التنفيذ! نعم حقًّا. هي كذلك». قالت ذلك دورثيا بحماس بعد أن نسيت غيظها. «أعتقد أننا نستحق أن نطرد من بيوتنا الجميلة بسياط لها حبال قصيرة. نطرد جميعنا لأننا ندع المستأجرين يعيشون في أماكن وضيعة وقذرة كهذه التي نشاهدها من حولنا. إن الحياة في البيوت الريفية يمكن أن تكون أفضل من حياتنا في ما لو كانت بيوتًا حقيقية تلائم الآدميين الذين ننتظر منهم تنفيذ واجباتهم والتعاطف معنا».

«هل تتطلعينني على مخططك؟».

«نعم..! بالتأكيد. يمكنني القول إن فيها أخطاء كثيرة. لكنني كنت أدقق في جميع مخططات البيوت الريفية الموجودة في كتاب لندن. واخترت ما بدا أنه أفضلها. آه.. كم ستكون مصدر سعادة عندما نقيم نسقاً من البيوت هنا! أظن أن علينا أن نبدل لازرورس الموجود عند البوابة، وعلينا أن نضع بيوتاً للخنازير خارج بوابة الحديقة العامة».

كانت دورثيا في أفضل حال لها حين تخيلت أن السير جيمس زوج لأختها وهو يبني بيوتاً ريفية على أرضه، ثم بيوتاً أخرى على النسق نفسه. ستكون وكأن روح أوبراين قد طافت الأبرشيات لتحول حياة الفقراء إلى سعادة.

اطلع السير جيمس على جميع المخططات وأخذ معه أحدها ليستشير لوف كود، كما أنه ذهب وشعور بالرضا يراوده. إذ استطاع أن يحسن رأي الآنسة بروك فيه.

لم يقدم الجرو المالطي لسيليا، فاندهشت دورثيا لإلغاء فكرة تقديم الجرو لسيليا لكنها بعد ذلك لامت نفسها. لقد استحوذت على رأي السير جيمس، لكن ذلك في النهاية كان مصدر ارتياح لها، فلن يكون هناك جرو تدوسه.

كانت سيليا حاضرة، عندما فحصت المخططات، وكانت تراقب تلميحات السير جيمس.

«يعتقد أن دودو لا تهتمّ به، إنها تهتم فقط بمخططاتها... لكنني لست متأكدة حتى الآن من أنها سترفضه، لو اعتقدت أنه سيدعها تدير كل مخططاتها وتنفذّها. وكم سيكون السير جيمس متعبًا!؟ لا أستطيع تحمل المخططات».

كان ذلك يعدّ ترفاً خاصاً لسيليا، حين تقحم نفسها بما لا تحب. فهي لا تجرؤ على الاعتراف لأختها بأيّ طريقة مباشرة. لأنها تكون في ذلك قد سمحت لنفسها أن تبرهن لها بأن دورثيا كانت بشكل أو بآخر على حرب مع جميع الفضائل. ولكن في فرص أفضل عندما يتحسن مزاجها، كانت تستخدم حكمتها لتقنع دورثيا وتخرجها من طبعها المتسرع، وأن الناس يحدقون بها ولا يستمعون لها.

لم تكن سيليا متهورة، إذ كان في استطاعتها أن تؤجل ما تريد قوله، فيأتي على نسق واحد من التوازن الهادئ. كانت تراقب وجوه الناس وتعابيرهم، حين كانوا يتحدثون بانفعال وتركيز. لم تستطع أن تفهم كيف يمكن لأشخاص نشأوا نشأة حسنة أن يقبلوا على أنفسهم أن يغنوا ويفتحوا أفواههم بطريقة مضحكة، وكأنهم ينفذون التدريبات الصوتية.

بعد أيام قليلة قام السيد كزابون بزيارة ذات صباح، حيث دعي خلالها إلى مأدبة عشاء، وقضاء ليلة في الأسبوع التالي. هكذا سنحت الفرصة لدورثيا لتتحدث إليه ثلاث مرات، فاقتنعت بأن انطباعاتها الأولى كانت صحيحة. لقد كان تماماً كما تخيلته أول مرة. بدا كل شيء قاله وكأنه عينة من منجم، أو نقش على باب متحف، يمكن له أن ينفتح على كنوز من العصور الماضية. فثقتها بثروته الفكرية كان لها التأثير البالغ في ميولها ولكن اتضح الآن أن زيارته كانت لأجلها. هذا الرجل البارع، تنازل واهتم بفتاة شابة، وعانى الكثير كي يكلمها، ليس بإطراء سخيف، بل بجذب انتباهها من خلال فهمها له، أو من خلال تعديل بناء. كم هي صحبة مبهجة! لم يكن السيد كزابون مدركًا للتفاهات القائمة، إذ لم يقحم نفسه في أحاديث جانبية مع رجال أثرياء، لأنها كانت تبدو له كقالب حلوى قديم قُدم لعروس، ورائحته كرائحة الخزانة التي كان فيها. كان يتحدث بما يهمه، أو يبقى صامتاً ومنحنياً إلى الأمام بكياسة حزينة. كان هذا بالنسبة إلى دورثيا أصالة مبهرة، وتقشفاً دينيًّا، بعيداً من ذلك الزيف الذي يلوث الروح بالتظاهر والرياء. كانت تنظر إلى السيد كزابون بترفع ديني ووقار وكأنه أعلى مرتبة منها، وكذلك تفعل الشيء عينه تجاه عبقريته وعلمه. وكان يتقبل تعابيرها التي تعكس مشاعر ورعة، وغالبًا ما كان يستخدم قولاً مقتبساً خاصاً بنفسه، له صراعات روحية في أيام شبابه. وبإيجاز كانت دورثيا ترى أنه يمكنها أن تستعين بالفهم والتعاطف والإرشاد، لكنّ أملها خاب مرة واحدة فقط في إحدى أفكارها المفضلة؛ فمن الواضح أن السيد كزابون لم يهتم لفكرة بناء البيوت الريفية، فحوّل الحديث ليتناول أبنية سكنية صغيرة جدًّا كانت أيام المصريين القدماء، وكأنه يتفحص مستوى عالياً

جدًّا من المساكن. وبعد أن ذهب استشاطت دورثيا غضباً بسبب هذا الاختلاف بينهما. فهي قد اكتسبت خبرة من خلال النقاش والحوار، حول اختلاف الظروف المناخية، حيث يستلزم تعديل احتياجات الإنسان، وكذلك بسبب ممارسات الحكام الطغاة الوثنيين من قهر وظلم. هل يجب عليها ألّا تثير مثل هذا الحوار مع السيد كزابون عندما يأتي مرة أخرى؟ إلا أن رأياً آخر لمع في ذهنها، وهو أنها كانت متغطرسة عندما لفتت انتباهه إلى مثل هذا الموضوع. لم يعترض على أن تشغل نفسها بمثل هذه الأمور في أوقات فراغها، كما تفعل النساء بأن يشغلن أنفسهن بالثياب والتطريز. شعرت دورثيا ببعض الخزي، لأنها عرضت نفسها للظنون والتخمينات، لكن عمها دعي ليقضي يومين في لويك، هل من المعقول أن يعتقد أن السيد كزابون سيكون مسروراً برفقة السيد بروك، لوحده بغض النظر عن وجود الوثائق أو عدمه؟

في هذه الأثناء انتابها بعض السرور نتيجة خيبة الأمل البسيطة، واستعداد السير جيمس جتم لتنفيذ مشروعها. كان يتردد أكثر من السيد كزابون، ولم تعد دورثيا تختلف مع السير جتم منذ أن بدا مهتماً كليًّا بتقديرات السيد لوف كود ويشعر بإعجاب شديد. عرضت عليه بناء بيتين ريفيين، على أن ينقل أسرتين من كوخيهما القديمين اللذين سيهدمان بعد ذلك ليبني مكانهما بيوتًا جديدة. قال السير جيمس: «بالضبط»، فتقبلت الكلمة بسرور مميز.

بالتأكيد إن هؤلاء الرجال، الذين لديهم أفكار انتقائية، يمكن أن يكونوا أعضاء نافعين في المجتمع، بتوجيه نسائي ناضج. ومن الصعب القول في ما لو أنها كانت تتعنت في متابعتها لمشروعها، أو أنها تعرف الاحتمالات والاختيارات، لكان ذلك موضع تساؤل. إلا أن حياتها الآن مليئة بالأمل والعمل. لم تكن تفكر في مشاريعها فحسب، لكنّها كانت أيضاً تستعين ببعض الكتب من المكتبة، فتقرأ الكثير منها بسرعة، لكي تكون أقل جهلاً من السيد كزابون بقليل فقط. وكلما سألت نفسها وفق ما يمليه عليها ضميرها، في ما لو أنها لم تكن ترفع من مستوى الأفعال البسيطة، وتعمل بقناعتها الشخصية، لكانت حينها ستتخذ قراراً آخر للجهل والحماقة.

الفصل الرابع

النبيل الأول: أفعالنا هي أغلال نصنعها بأنفسنا.

النبيل الثاني: نعم... حقاً. لكنني أعتقد أن العالم هو الذي ينتج الحديد.

قالت سيليا وهما عائدتان إلى البيت بالعربة، بعد أن تفحصتا موقع البناء الجديد: «يبدو أن السير جيمس يفعل كل ما تتمنين»، فأجابت دورثيا بتسرع: «هو إنسان جيد ويبدو أكثر تفهماً مما يتوقعه أحد».

«تعنين أنه يبدو سخيفاً!!»

قالت دورثيا وقد انتبهت لنفسها، وقد وضعت يدها على أختها: «كلا، كلا».

«ولكنه لا يتحدث بشكل متزن في جميع المواضيع».

«أعتقد أن لا أحد يفعل ذلك، سوى أولئك الذين تعودوا أن يعارضوا آراء الآخرين». قالت سيليا بهمهمتها المعتادة: «إن العيش معهم لا بد من أن يكون متعباً... يفكرون فقط في وقت الإفطار، ودائماً».

ضحكت دورثيا: «آه يا كيتي.. إنك مخلوق رائع!». لمست ذقن سيليا، فمزاجها الآن يجعلها تعتقد أن سيليا قادرة على استمالة قلوب الآخرين. فهي فاتنة، وقادرة على أن تكون ملاكاً سرمديًّا في المستقبل، فإن لم يكن خطأ أن تقول ذلك، فهي لن تحتاج إلى النجاة أكثر مما يحتاج السنجاب.

«بالطبع، فالناس لا يحتاجون إلى التحدث دائماً بشكل حسن، فلا يمكن للفرد أن يحدد مستوى تفكير المتحدثين إلا عندما يحاولون التحدث بشكل جيد».

«تعنين أن السير جيمس يحاول ويفشل».

«كنت أتكلم بشكل عام. لماذا تسألينني عن السير جيمس فليس إسعادي هدفه في الحياة؟».

«الآن يا دودو، هل يمكنك أن تصدقي ذلك؟ إنه بالتأكيد يفكر بي كأخت في المستقبل، هذا كل ما في الأمر».

لم تلمّح دورثيا لذلك من قبل، متوقعة بعض الخجل المشترك بين الأختين في موضوع كهذا، وهو يجب أن يظهر عند بعض المناسبات الحساسة. ارتبكت سيليا واحمرت، لكنها قالت مباشرة:

«أتوسل إليك ألّا ترتكبي الخطأ مرة أخرى يا دودو. حين كانت الخادمة تنترب تسرح شعري يوماً. قالت لي: إن خادم السير جيمس علم من خادمة السيد كادولدر أن السير جيمس سيتزوج من الآنسة بروك الكبرى».

قالت دورثيا بسخط: «كيف تفسحين المجال لتنترب لتحدثك بمثل هذه الإشاعات يا سيليا؟» لأن ما كان نائماً في ذاكرتها قد أوقظ الآن ليؤكد البوح غير المرغوب فيه.

«لا بد من أنك سألتها أسئلة كثيرة. إن ذلك لمؤسف».

«لا أرى من العيب أن تحدثني تنترب، فمن الأفضل أن نسمع ما يقوله الناس. هل ترين كيف ترتكبين الأخطاء حين تتبيّن آراؤك. أنا متأكدة تماماً أن السير جيمس سيتقدم بطلبك ويعتقد أنك ستقبلين به. خصوصًا أنك قد سررت من موقفه تجاه مشاريعك، وكذلك عمي. فإنني أثق بقناعته أن الجميع يعلمون أن السير جيمس مغرم بك».

كان الاشمئزاز حادًّا ومؤلماً جدًّا في نفس دورثيا إلى حدّ أن دموعها انهمرت بغزارة، وتحولت جميع مشاريعها إلى مصدر سخط، وكما أنها عدّت تخيل السير جيمس لها حبيبة له مصدر اشمئزاز آخر، وكما كان هنالك إغاظة من قبل سيليا.

ثمّ انفجرت قائلة وهي في حالة غضب شديد: «كيف له أن يتوقع ذلك؟ لم أوافقه على أي شيء سوى بناء البيوت الريفية، كنت فقط مهذبة معه».

«لكنك كنت مسرورة منه جدًّا منذ ذلك الحين، فبدا متأكداً أنك مغرمة به».

قالت دورثيا بانفعال: «مغرمة به...؟؟ سيليا...!! كيف لك أن تتلفظي بمثل هذه التعابير المشينة؟».

«يا عزيزتي دورثيا، أظن أن من الصواب أن تكوني مغرمة برجل تقبلين به زوجاً لك».

«إنك تسيئين لي حين تقولين إن السير جيمس يعتقد أنني مغرمة به. فضلًا عن ذلك، إنها ليست الكلمة الصحيحة لتعبر عن مشاعري تجاه الرجل الذي سأوافق عليه كزوج».

«حسناً آسفة نيابة عن السير جيمس. اعتقدت أن من الصواب أن أخبرك لأنك كنت ماضية بتصرفاتك كما كنت دائماً تفعلين، دون أن تعي أين أنت، وفي أي اتجاه تسيرين وترين دائماً ما لا يراه الآخرون، فإرضاؤك شيء مستحيل، ومع ذلك كلّه، فأنت لا ترين ما هو جلي. هذه طريقتك يا دودو».

كان هناك شيء قد استجد لأن سيليا واجهت بشجاعة أختها التي كانت تخاف منها في بعض المناسبات.

قالت دورثيا وهي تشعر بالمرارة: «لا يمكنني الاستمرار ببناء البيوت الريفية. يجب أن أكون قاسية معه. سأقول له: إنني لن أتابع مشاريع البناء، إن ذلك لمؤلم». واغرورقت عيناها بالدموع ثانية.

«انتظري قليلاً، فكري مليًّا، تعلمين أنه سيذهب لزيارة أخته ليوم أو يومين. لن يكون أحد مع لوف كود»، لكن سيليا لم تستطع التخفيف عن دورثيا فتابعت قائلة بنبرة ود: «دودو المسكينة... إن ذلك صعب جدًّا عليك... فهوايتك المفضلة وضع المخططات».

«هوايتي وضع المخططات؟؟ هل تعتقدين أنني فقط أهتم ببيوت من هم حولي بتلك الطريقة الصبيانية؟ ربما سأرتكب أخطاء، كيف يمكن لأحد أن يقوم بعمل مسيحي نبيل وهو يعيش بين أناس لديهم مثل هذه الظنون السخيفة؟».

لم تقل الفتاتان شيئاً آخر فقد كانت دورثيا أكثر انزعاجاً وضيقاً من أن تستعيد هدوءها، فتتصرف وكأنها لم ترتكب أي خطأ. لقد اقتربت من اتهامها لمجتمعها ذي الضمير المتبلد والأفق الضيق غير المحتمل. ولم تعد سيليا ذلك الملاك السرمدي، لكنها أصبحت كشوكة تخز روح دورثيا... أو ككافرة!!

إن ما حدث هو أسوأ من أي مصدر شقاء في كتاب «انتقال الراحلين».. فإذا ضاعت هواية وضع المخططات... فما قيمة الحياة؟ كيف يمكن للإيمان الحقيقي أن يوجد عندما تتضاءل قوة تأثير أفعال أحدنا؟؟ فتحول إلى نفايات لا قيمة لها.

عندما نزلت من العربة كانت وجنتاها شاحبتين، وعيناها محمرتين. كانت تجسيداً للأسى، وكاد عمها، الذي عاد في أثناء غيابهما من رحلة إلى البلدة المجاورة ليصوت على عفو عن مجرم، أن يصدم حين قابلها داخل ردهة المنزل لو لم تكن سيليا تقف قربها، وتبدو نضرة ومتماسكة، فاستنتج أن سبب دموعها هو تدينها المفرط.

«حسناً يا عزيزتيّ» قال بلطف وهما تصعدان الدرج لتقبلاه. «أتمنى ألّا تكونا قد اختلفتما في غيابي».

قالت سيليا: «كلا يا عمي، ذهبنا إلى فريشت لنرى البيوت الريفية. وتوقعنا أن تكون في البيت وقت الغداء».

«جئت من طريق لُويك لأتناول الغداء هناك، لم تعرفا ذلك. ولقد أحضرت لك كراستين يا دورثيا هما على الطاولة في غرفة الكتب، هل تعرفين».

بدا وكأن تيارًا كهربائيًّا قد صعق دورثيا فنقلها من اليأس إلى الأمل. لقد كانتا كراستين حول الكنيسة الأولى. فضاق صدر سيليا، ومشت دورثيا متجهمة إلى غرفة الكتب.

صعدت سيليا إلى الطابق العلوي، وتأخر السيد بروك ليتسلم رسالة ولّما عاد إلى غرفة الكتب وجد دورثيا هناك تجلس على كرسي، وقد غرقت في قراءة إحدى الكراستين التي كان على هوامشها بعض الكلمات التي سطرها السيد كزابون، تتلقفها بشوق وكأنها تتلقف عبق باقة ورود عطرة بعد رحلة كئيبة في يوم حار وجاف كانت فيه تهرب من قرية تبتن وفريشت ولتعاستها وطأت قدماها أماكن غير سليمة وهي في طريقها إلى القدس.

جلس السيد بروك في مقعده، ومد قدميه تجاه موقد النار، الذي كان يصدر لهباً رائع المنظر كقطع النرد المتلألئة، ثم فرك يديه بلطف وهو يرمق دورثيا بنظرات شبه خفية، ولكن بمزاج معتدل، وكأن لا شيء لديه ليقوله. أغلقت دورثيا الكراسة فور انتباهها لوجود عمها في الغرفة، ونهضت عازمة على الذهاب، هي عادة تهتم بمهمة عمها، أي طلب الرحمة للمجرم، لكن غضبها مؤخراً غيّب ذلك الاهتمام عن فكرها كليًّا.

«جئت عبر لويك»، قال السيد بروك ذلك وهو لا يعني منعها من الذهاب، بل ليؤكد ما قاله من قبل. وكانت النبرة الجادة تبدو جلية في حديثه.

«تناولت الغداء وشاهدت مكتبة كزابون وما شابه ذلك، لكن الهواء هناك كان شديدًا.

ولكن.. ألا ترغبين في الجلوس يا عزيزتي؟ لا بد من أنك تشعرين بالبرد».

بدت دورثيا راغبة بقبول دعوة عمها، فهي تشعر بارتياح عندما يتعامل عمها مع بعض الأمور بسلاسة وبلا غضب. خلعت دورثيا معطفها وقلنسوتها وجلست أمامه مستمتعة بلهب الموقد.

رفعت يديها الجميلتين لتحجب النار عن وجهها، لم تكونا نحيفتين ولا صغيرتين، لكنهما يدان أنثويتان فيهما حنو ودفء. وبدت وكأنها ترفعهما استعطافاً لرغبتها المتقدة في حبها للمعرفة والتفكير الذي سبب لها في محيط تبتن وفريشت بكاءً واحمرارًا في جفنيها. أصبحت تفكر الآن في المجرم المدان: «ما الأخبار التي أتيت بها عن سارق الغنم يا عمي؟».

«يا لبنش المسكين! حسناً، لا نستطيع إنقاذه... سوف يشنق». ظهرت علائم الاستهجان والشفقة واضحة على وجه دورثيا. «الشنق..!! هل تعرفين؟؟». ثم تابع السيد بروك هازًّا رأسه قليلاً: «المسكين روملي! كان سيساعدنا. هل عرفت روملي، إن كزابون لا يعرفه، إنه منغمس في كتبه أنت تعرفين كزابون».

«عندما يكتسب الرجل علماً قيماً ويكتب أعمالاً عظيمة، لا بد من أن تفوته رؤية العالم. كيف له أن يتنقل ويبني علاقات مع العديد من الناس؟».

«إنها الحقيقة.. يمكن للمرء أن يقع في عزلة. إنني أعزب أيضاً، لكنني لم أقع في العزلة قط. إنه أسلوبي في الحياة أن أذهب إلى جميع الأماكن، وأندمج في كل شيء. لم أقع في العزلة قط، لكنني أرى أن السيد كزابون يعيش في عزلة. أنت تعلمين.. يريد رفيقاً.. رفيقاً كما تعلمين»

قالت دورثيا بإثارة: «إنه لشرف عظيم لأي أحد أن يصبح رفيقاً له».

قال السيد بروك دون أن تظهر عليه علامات دهشة أو انفعال: «إنك معجبة به».

«حسناً لقد عرفت السيد كزابون لعشرة أعوام حتى الآن منذ أن قدم إلى لويك. لكنني لم أحصل على منفعة منه..أيّ أفكار. في أيّ حال، أنت تعلمين، أنه رجل ممتاز، ويمكن له أن يكون أسقفاً، شيئاً كهذا. إذا كان بيل في مكانه، ولديه انطباع جميل عنك يا عزيزتي». لم تستطع دورثيا التكلم.

«الحقيقة أن لديه انطباعاً حسناً جدًّا عنك. وهو لا يثرثر. نعم هكذا هو كزابون. لقد وافقني الرأي بأنك لم تبلغي السن القانونيّة. باختصار وعدته أن أتحدث إليك، على الرغم من أنني قلت له: ليس هناك فرصة جيدة. كان علي أن أخبره ذلك. قلت له: ابنة أخي لا تزال شابة صغيرة، أو شيئاً كهذا. أظن أنه ليس من الضروري البحث في التفاصيل. في أيّ حال لن أطيل عليك، لقد استأذنني بطلب يدك. أتعرفين؟». ثم قال السيد بروك بحركة معبرة: «أظن أن من الأفضل أن أخبرك يا عزيزتي».

لا يمكن لأحد أن يلحظ أي نوع من التوتر لدى السيد بروك، فقد أراد حقاً أن يعرف ما يدور في خلد ابنة أخيه. إلا أنه سيقدم النصيحة متى احتاجت إليها. لم تكن مشاعره مضطربة، وكان صدره يتسع لها بصفته وصيًّا تعوّد أن يقدم الكثير من الآراء. عندما لم تتكلم دورثيا مباشرة. كرر قائلاً:

«أظن من الأفضل يا عزيزتي أن أخبرك».

قالت دورثيا بلا تردد: «شكراً يا عماه، إنني ممتنة للسيد كزابون، لو تقدم بطلبي لقبلت به. إنني معجبة به، وأنا أحترمه أكثر من أي رجل آخر عرفته في حياتي».

صمت السيد بروك قليلاً ثم قال بصوت خافت وبطء: «آه؟.. حسناً! إنه يناسبك في بعض الأمور. لكن جتم رجل مناسب وأراضينا متجاورة. غير أنني لن أتدخل أبداً معارضاً رغباتك يا عزيزتي. يجب أن يختار الناس طريقتهم في الزواج وشيئاً كهذا إلى حد ما، أتعرفين؟؟ كنت أقول ذلك دائماً: أتمنى لك زواجاً سعيداً ولدي سبب وجيه يجعلني أقتنع أن جتم يتمنى الزواج منك... أتعرفين؟».

قالت دورثيا: «إنه لمن المستحيل أن أتزوج من السير جيمس جتم... إذا كان يفكر في الزواج مني فقد ارتكب خطأ جسيماً».

«عجباً! هل ترين؟؟ لم يكن أحد يتوقع. ظننت أن جتم رجل يمكن أن ترغب فيه كل فتاة».

قالت دورثيا وقد عاودها شعور بالانزعاج ثانية: «أتوسل إليك لا تذكره لي ثانية يا عماه».

تعجب السيد بروك وأدرك أن النساء لا يمكن فهمهن بدقة، حتى وهو في هذه المرحلة من عمره لا يمكنه التنبؤ بأحوالهن وبتغيراتهن، فهذا هو شخص كجتم لا فرصة أمامه أبداً.

«حسناً، لكن السيد كزابون الآن... حسناً لا نتعجل الأمر... لا تتعجلي حقًّا. إن مظهره ينبئ عن عمره. لقد تجاوز الخامسة والأربعين كما تعرفين. لا بد لي من أن أقول إنه يتقدمك بسبع وعشرين سنة. للتأكد.. إذا كنت تحبين العلم والتعلم وشيئاً كهذا لا نستطيع أن نحصل على ذلك، وإن دخله جيد، لكنه ليس شاباً ويجب ألّا أخفي عنك بأن صحته ليست في أحسن حال يا عزيزتي، لا أعرف شيئاً آخر يعيبه».

قالت دورثيا بقرار حاسم: «لا أرغب في الزواج من رجل في مثل عمري، أتمنى أن أتزوج رجلاً أكثر مني حكمة وعلماً». كرر السيد بروك قائلاً: «أعتقد أنك تمتلكين القدرة على صنع القرار أكثر من الفتيات. أظن أنك تحبين رأيك أليس كذلك؟».

«لا أستطيع أن أتصور نفسي دون بعض الآراء ولكن يجب أن تكون هناك أسباب مقنعة لها. ويمكن لرجل حكيم أن يساعدني لأحكم أي من هذه الآراء سديدة، فيساعدني لأعيش بحسب تلك الآراء».

«صحيح تماماً، ما لم تستطيعي أن تعبري عن ذلك بطريقة أفضل، فأنت لم تستطيعي التعبير بطريقة أفضل سابقاً. لكن هنالك غرابة في الأشياء». هكذا تابع السيد بروك بأحاسيس متيقظة ليقدم أفضل ما لديه لابنة أخيه في هذه المناسبة. «إن الحياة ليست مقولبة وليست مقطعة بحسب مقاييس ومعايير دقيقة أو شيء كهذا. إنني لم أتزوج وكان هذا أفضل لك ولأختك. والحقيقة أنني لم أحب إحداهن إلى حدّ أن أشنق نفسي لأجلها. إنها مشنقة.. تعلمين... إنه مزاج، هذا مزاج.. الزوج يرغب في أن يكون سيداً».

قالت دورثيا المسكينة: «أعلم أنه لا بد لي من أن أتوقع محاكمات. فالزواج حالة من الواجبات الأكثر سموًّا. فأنا لم أفكر فيه كمجرد تسهيلات شخصية».

«إنك لست مغرمة بالتباهي، والمسكن الفخم وحفلات الرقص ومأدبات العشاء وشيء كهذا. إنني أرى طريقة عيش كزابون يمكن أن تلائمك أكثر من طريقة جتم. افعلي ما تشائين يا عزيزتي. لن أعرقل كزابون.. قلت ذلك مباشرة ولا أحد يعلم ماذا سيحصل. ليس لديك الذوق نفسه الذي لدى الشابات الأخريات. فرجل دين وعالم، يحتمل أن يكون أسقفاً وما شابه ذلك، ويحتمل أن يناسبك أكثر من جتم. إن جتم رجل طيب القلب.. تعرفين. ولكن لا يتعمق بالتفكير، كنت أتعمق بالتفكير في عمره. لكنني أظن أن كزابون آذى عينيه لكثرة قراءته».

قالت دورثيا بحنو: «سيكون ذلك مصدر سعادة لي أكبر يا عمي، سيمنحني مجالاً أكبر لأساعده».

«لقد اتخذت قرارك تماماً كما أرى. حسناً يا عزيزتي، الحقيقة أن رسالة في جيبي لك».

قدم السيد بروك الرسالة لدورثيا ولكن بينما كانت تنهض لتذهب أضاف قائلاً: «لا داعي للعجلة يا عزيزتي. فكري في الأمر.. تعرفين».

عندما تركته دورثيا تبين لها أنه قد تكلم بجدية، فقد وضع أمامها مخاطر الزواج بأسلوب صريح. وكان من واجبه أن يفعل ذلك. لكنه كان متظاهراً بالحكمة أمام الشباب.. في أيّ حال ونتيجة سفره الكثير في شبابه وعشائه المتكرر مع العديد من المشاهير الذين توفوا، استطاع أن يتفهم الأفكار الجديدة. إذ لا يستطيع عم أن يقرر أي زواج يمكن أن يكون ناجحاً لفتاة تفضل كزابون على جتم. باختصار كانت المرأة مشكلة ليست أقل تعقيداً من الثورات غير المتماسكة ولا سيما عندما لا يستطيع السيد بروك الرد عليها.

الفصل الخامس

«غالباً ما يصاب الطلاب المجدّون بالنقرس والتهاب القناة التنفسية والزكام والدنف وعسر الهضم والحصى والمغص والإمساك والدوار والسل. فكل هذه الأمراض يسببها الجلوس الطويل، وهي غالباً ما تترافق مع الهزال والجفاف وشحوب الوجه... ويرجع سبب هذا كله للمعاناة من الدراسة وجهدها. إذا كنت لا تصدق هذه الحقيقة انظر إلى أعمال تستاتس العظيم وتوماس أكويناس، ثم انبئني ما إذا كان هذان الرجلان قد عانيا من مثل هذه الأمراض».

كتاب (برتن) علم التركيب البنيوي للكآبة

رسالة السيد كزابون:

عزيزتي الآنسة بروك

لقد استأذنت عمك، لأخاطبك بموضوع لا يشغل قلبي سواه. أعتقد أنني لست مخطئاً في إدراكي لمسائل أكثر أهمية من ذلك اليوم، فالحقيقة تكمن في أن إحساسي بحاجتي إلى الاهتمام بشؤون حياتي الخاصة قد ازداد في الوقت عينه الذي ظهرت فيه إمكانية ارتباطي بك في أول ساعة قابلتك بها.

إذ أصبحت لدي قناعة بملاءمتك الاستثنائية والعظيمة لتسدي تلك الحاجة. يمكن لي القول إن ما يتصل بمثل هذا النشاط العاطفي، بما فيه الانهماك في العمل الخاص جدًّا، لا يمكن التنازل عنه أو التظاهر بإخفائه بين الفينة والأخرى. وكل حكم ناجح منحني انطباعاً عميقاً أقنعني بتأكيد أقوى بتلك الملاءمة التي تخيلتها مسبقاً. وهكذا رحت أستحث مشاعري وعواطفي التي أشرت إليها بحزم أكثر وتصميم.

لقد أوضحت حواراتنا لك بقدر كاف على ما أعتقد طبيعة حياتي وأهدافها، فهي

طبيعة لا تناسب عقول العامة على حد علمي. فقد ميزت فيك سمو الأفكار، والمقدرة على تكريس النفس، التي لم أتخيلها حتى الآن، وهي تتماشى مع تفتح براعم الشباب أو مع فضائل الجنس الأنثوي ومحاسنه الذي يمكن أن يقال عنه فوراً: إنه يكتسب الامتيازات أو يمنحها، عندما يلتقي القدرات الفكرية التي ذكرتها آنفاً وهي تجتمع فيك. أعترف أنه لمن الممكن ضمن أمنياتي أن ألتقي هذه الميزات الجذابة والمتماسكة مجتمعة فيك ومهيأة لتدعم الأعمال الشاقة، وترمي بسحرها وفتنتها في وقت الفراغ، ولكن بمناسبة تقدمي لك دعيني أقول لك ثانية إنني لا أؤمن بتزامن الأحداث العابرة السطحية مع الاحتياجات القادمة، لكنها تكون عادة مرة أخرى مرتبطة بالعناية الإلهية، ومجزأة ضمن مراحل لتتم دورة الحياة.

مرة أخرى بمناسبة تقدمي لك، أظن أن علي أن أذهب للنهاية في محاولتي لأضيء وحدتي وعزلتي بالزواج. إن هذه حقيقة مشاعري يا آنسة بروك وإنني أعتمد على تسامحك، والآن أغامر فأسألك كيف يمكن لطبيعتك أن تتقبل أحاسيسي ومشاعري الداخلية الفرحة لأكون زوجاً ووصيًّا مقبولاً لديك. فلابد لي من أن أنظر إلى ذلك القبول على أنه أكبر هبة إلهية. وفي المقابل يمكن لي أن أقدم لك على الأقل عواطف وشعوراً لا تنتهي، وحياة مليئة بالقدسية والإخلاص مهما يكن جزؤها اللاحق قصيراً فلن يمكنك أن تجدي في صفحاتها الماضية ما يثير مرارتك أو خجلك. سأنتظر بقلق تعبيرك عن عواطفك التي هي جزء من الحكمة، كأي شيء يحوله العمل الجاد إلى فائدة أينما كان. ولكن في مجال الخبرة، أنا لا أزال حديث العهد، ولدي توقع لأي احتمال غير مرغوب فيه، إذ لا يمكنني إلّا أن أشعر بأن الرجوع إلى العزلة سيكون أكثر صعوبة، ولا سيما بعد أن أضيء الأمل لي لوقت قصير.

في أيّ حال سأظل مخلصاً طوال العمر.

إدوارد كزابون

بينما كانت دورثيا تقرأ الرسالة، كانت ترتجف، ثم وقعت على ركبتيها، دفنت وجهها بيديها، وكانت تنشج بالبكاء. لم تستطع الصلاة لتدفق عواطفها الجياشة الكئيبة، التي أبهجت وأثارت في مخيلتها صوراً غامضة. استطاعت أن تلقي بنفسها في حضن الضمير القدسي، فحبست نفسها فيه وقد اعتراها شعور طفل يحب الاستلقاء. ظلت في هذه الحالة حتى حان وقت تغيير ملابسها لتذهب إلى العشاء. كيف خطر لها أن تتفحص الرسالة

وتقرأها بنقد؟؟ وكأنها مجاهرة واعتراف بالحب، وتسيطر على فكرها حقيقة أن حياة أكثر انشغالاً وجدية تنتظرها: كانت ككاهن كاثوليكي يتهيأ للانتقال إلى مرحلة متقدمة من الاطلاع والمعرفة. سيصبح لديها مجال يحتوي الطاقات التي تحركت بقوة بضغط عتمة جهلها وتفاهات العادات. سيمكنها الآن أن تكرس نفسها لأجل واجبات جليلة ومحددة، والعيش باستمرار مستنيرة بفكر تستطيع أن توقره وتبجله. كان هذا الأمل يمتزج مع توقد بهجة الفخر، ودهشة مفرحة لفتاة اختارها رجل أعجبت به. انتقلت جميع عواطف دورثيا بصعوبة عبر فكرها لتصل إلى عالم مثالي ؛ إن بهاء أنوثتها المتغير نحو الأفضل وقع على أول شيء يشابهه. والدافع الذي أصبحت به الرغبة حلاً قوي بالأحداث الصغيرة التي أثارت سخطها في ذلك اليوم من ظروف حياتها.

بعد العشاء، بينما كانت سيليا تعزف على البيانو مقطوعة قصيرة تدعى أير فريشن وتمثل الجانب الجمالي لتعلم الفتيات، صعدت دورثيا إلى غرفتها لترد على رسالة كزابون. لماذا تؤجل الجواب؟ كتبت أكثر من ثلاث مرات ليس لأنها أرادت أن تغير الكلمات، بل لأن يدها كانت ترتجف على نحو غير اعتيادي، ولم تحتمل أن يظن السيد كزابون أن كتابتها رديئة وغير مقروءة. فأجبرت نفسها على أن تكتب بخط يكون كل حرف فيه واضحًا لا يدع مجالاً للشك والتخمين.

كما أنها أرادت أن تنجز كتابة هذه الرسالة على وجه لا يؤذي نظر السيد كزابون لذلك أعادت الكتابة ثلاث مرات:

عزيزي السيد كزابون

إنني ممتنة جدًا لحبك لي، واعتقادك بأنني أستحق أن أكون زوجة لك. لا يمكن لي أن أتوقع سعادة أفضل من تلك التي أحصل عليها معك. لو أردت أن أضيف شيئاً آخر، لما كان إلا الشيء نفسه ولكن بعبارات أطول، ذلك أنني لا يمكنني أن أمعن النظر أو أفكر في أي شيء آخر الآن سوى أن أخلص لك طوال حياتي.

دورثيا بروك

بعد برهة من الزمن وفي المساء نفسه تبعت عمها لتسلمه الرسالة ليتسنى له إرسالها في الصباح التالي، دُهش لذلك معبراً عن دهشته بالصمت لبضع دقائق، عبث ببعض أشياء ملقاة على طاولة الكتابة. ثم وقف وقد أدار ظهره إلى الموقد، ونظارتاه على أنفه، متفحصاً العنوان على رسالة دورثيا.

قال أخيراً: «هل فكرت في هذا الأمر مليًّا يا عزيزتي؟».

«لا حاجة لي بالتفكير يا عماه. لا شيء يجعلني مترددة، وإن كنت سأغير رأيي، فلن يكون ذلك بسبب شيء مهم، أو حديث العهد لم أعرفه من قبل».

«آه.. لقد قبلت به...؟ إذاً لا نصيب لجتم...؟ هل أساء إليك جتم – أساء إليك تعرفين؟ ما هو الشيء الذي لا تحبينه في جتم؟».

قالت دورثيا مع قليل من الغيظ: «لا يوجد شيء أحبه فيه». أرجع السيد بروك رأسه وكتفيه إلى الوراء بسرعة، وكأن أحدًا قد رماه بقذيفة. أحست دورثيا على الفور بتأنيب الضمير وقالت: «أعني كزوج، إنه لطيف جدًّا. وأظنه رجلاً طيباً جدًّا تجاه البيوت الريفية، رجلاً بمعنى الكلمة».

«لكنك تريدين عالماً أو شيئاً كهذا؟ حسناً... يبدو ذلك نادراً في عائلتنا. كان لدي حب للمعرفة والبحث في كل شيء – أكثر مما ينبغي بقليل – لقد شغلت بها أكثر مما ينبغي، هذا النوع من الميل إلى المعرفة لا يجري في عروق الفتيات، بل يجري تحت الأرض كأنهار في اليونان – أنت تعرفين – وهو يجري في عروق الأبناء الأذكياء من الأمهات الذكيات. لقد فكرت ملياً في ذلك في وقت من الأوقات. في أيّ حال يا عزيزتي، لا بد من أن يفعلوا ما يحبون فعله في مثل هذه الأمور إلى حد ما. لا يمكنني بصفتي وصيًّا أن آذن بزواج فاشل. ولكن لدى السيد كزابون فرصة جيدة ووضعه جيد. أخشى أن تجرح مشاعر جتم والسيدة كادولدر ستلومني».

طبعاً... لم تعرف سيليا أحداث ذلك المساء. لذلك فقد عزت حالة دورثيا الغاضبة وبكاءها منذ أن عادتا إلى البيت، للمزاج الذي انتابها نتيجة الحوار الذي دار بينهما حول السير جتم وبناء البيوت الريفية. كما أن سيليا كانت حريصة أن لا تؤذي دورثيا أكثر من ذلك. فقد قالت كل ما أرادت قوله. لم يكن لدى سيليا ميل أو رغبة لمعاودة النقاش في أمور تختلفان حولها. فقد كانت طبيعتها منذ طفولتها ألّا تتخاصم مع أحد. إذ إنّها تقع في حيرة

عندما تتخاصم مع الآخرين، وعندما يكونون حانقين كديوك حبش، فهي لا تبدأ اللعب معهم حتى يعودوا إلى طبيعتهم. أما بالنسبة إلى دورثيا فكانت دائماً تميل إلى أن تجد الأخطاء في كلام أختها، على الرغم من احتجاج سيليا الضمني إذ إنها كانت تصف الأشياء كما هي. فلم تعتد على اختلاق الأشياء، والتحدث عنها. ولكن أفضل ما في دودو هو أنها لا تظل غاضبة لمدة طويلة. فالآن وعلى الرغم من أنهما لم تتحدثا إلى بعضهما طوال المساء، وعندما فرغت سيليا من عملها وتوجهت إلى فراشها كما كانت دائماً السباقة في ذلك، قالت دورثيا بنبرة موسيقية وهي تجلس على مقعد منخفض ولا تستطيع أن تشغل نفسها إلا بالتأمل في لحظات تأمل يشوبها شعور هادئ وعميق جعل حديثها كتلاوة عذبة:

«عزيزتي سيليا... تعالي وقبليني»، فاتحة ذراعيها وهي تتكلم. انحنت سيليا، لتصل إليها وتعطيها قبلة سريعة، لكن دورثيا حضنتها بذراعيها اللطيفتين، وجعلت تقبلها بقوة على خديها.

قالت سيليا بارتياح، دون أن تشعر بأي نوع من الشفقة: «مازلت مستيقظة الليلة، إنك تبدين شاحبة، اذهبي إلى الفراش».

قالت دورثيا بحماسة: «لا يا عزيزتي... إنني مسرورة جدًّا، جدًّا».

«هذا أفضل بكثير»، فكرت سيليا. «كم هو غريب أن تتحول دورثيا من حالة إلى نقيضها».

في اليوم التالي، وعلى الغداء قال الخادم وهو يسلم شيئاً للسيد بروك: «لقد عاد جونس يا سيدي، وقد جلب هذه الرسالة».

قرأ السيد بروك الرسالة، واستدار إلى دورثيا قائلاً: «سيحضر يا عزيزتي السيد كزابون إلى هنا لتناول العشاء. لم ينتظر ليكتب أكثر من هذا... لم ينتظر».

لم يكن شيئاً مستغرباً لسيليا كي تلحظ أن نبأ حضور ضيف على العشاء لا بد من أن تخبر به أختها مسبقاً، لكنها صدمت لتأثير الخبر على دورثيا بعد أن راقبته بعينيها اللتين رمقتا أختها، في الوقت نفسه الذي حول عمها عينيه. وبدا وكأن شيئاً يشبه بقعة ضوء بيضاء انفصلت عن الشمس فمرت فوق تقاطيع وجهها، وانتهت عند إحدى حالات احمرار وجهها النادرة، وللمرة الأولى فهمت سيليا أنه لابد من أن يكون هناك شيء بين أختها والسيد كزابون أهم من استمتاعهما بالحديث عن الكتب، حتى هذا اليوم كانت تصف هذا الإعجاب

رغم معرفتها ببشاعته، ولكن سبق لها أن أحست بالإعجاب بالسيد ليرت في لوزان، الذي كان هو الآخر بشعاً ومتعلماً. لم تتعب دورثيا قط من الاستماع إلى السيد ليرت العجوز، بينما كانت قدما سيليا باردتين جدًّا، على الرغم من أن رؤية رأسه الأصلع المخيف تثير الاشمئزاز عندما يتحرك. فلماذا لا تتجاوز امتعاضها ويشمل قبول السيد كزابون كما شمل السيد ليرت؟ فيبدو من المرجح أن كل الرجال المثقفين لديهم الانطباع نفسه تجاه الشبان.

لكن الشك الذي جذب انتباهها الآن، جعلها تجفل فجأة، فقلما كانت تؤخذ على حين غرة بهذه الطريقة. فسرعة فهمها العجيب لبعض الإشارات المتتالية دفعتها لتتوقع مثل هذه الأحداث المحيطة بها، ولا سيما أن لديها اهتماماً بها. فهي لا تتخيل أن يكون السيد كزابون محبًّا مقبولاً، وبدأت تشعر بالاشمئزاز لمجرد الاحتمال أن تفكير دورثيا يمكن أن يميل إلى مثل هذا الأمر. فهنا شيء يحرضها ضد دودو، كان من الجيد ألّا تقبل بالسير جتم، أما فكرة زواجها من السيد كزابون فقد جعلتها تشعر بالخزي الممتزج بنوع من السخرية. ولكن إذا ما كانت دودو تقترب من تهور فظيع كهذا، فلربما يمكن التعويل على حساسيتها.

كان الطقس ماطراً فلم تخرجا للنزهة: لذلك صعدتا إلى غرفة الجلوس حيث لاحظت سيليا أن دورثيا بدلاً من أن تجلس فتنهمك جادة بعملها، كانت تتكئ على كتاب مفتوح، وتنظر من النافذة إلى شجرة الأرز العملاقة إذ كانت تتلألأ بالماء كالفضة. أما سيليا، فقد انشغلت بصنع لعبة لأطفال شماس الكنيسة، ولم تشأ أن تناقش أي موضوع بتهور. في واقع الأمر كانت دورثيا تفكر:... الأفضل لسيليا أن تعرف بالتغيير المهم الذي طرأ على وضع السيد كزابون منذ أن حضر إلى المنزل آخر مرة، فمن غير اللائق أن تترك سيليا على جهلها بالأمر، مما قد يؤثر بالضرورة على موقفها تجاهه، ولكن كان مستحيلًا ألّا تخشى من إخبارها. اتهمت دورثيا نفسها ببعض الخسة لجديتها، كما كان بالنسبة إليها دائماً، أنه من المشين أن ينتابها أي نوع من الخوف، أو تسلك طريق الاحتيال في تصرفاتها. لكنها في هذه اللحظة كانت تستنجد بأكبر قدر ممكن من الدعم، لأن كلمات سيليا المزعجة ذات الطابع الدنيوي والمبتذل جدًّا ترهبها. قاطع صوت سيليا الناعم الخافت استغراق دورثيا في التفكير، وأخر استعدادها لاتخاذ القرار الصعب حين قالت بنبرتها المعتادة وهي تعلق جانبياً وتلقائيًّا:

«هل سيأتي أحد مع السيد كزابون إلى العشاء؟».

«لا أحد على ما أعلم».

«أتمنى أن يكون هناك شخص آخر. لئلا أسمع تناوله للحساء».

«أحقًّا يا دودو؟ ألا تسمعين كيف يحك طبقه بملعقته؟ وهو يرمش عينيه قبل أن يتكلم. لا أعلم في ما لو أن لوك يرمش عينيه، لكنني أرثي لأولئك الذين يجلسون أمامه عندما يفعل ذلك».

«سيليا». قالت دورثيا بنبرة غاضبة. «أرجوك ألّا تقلقي من هذا».

أجابت سيليا: «لم لا؟ إن هذا صحيح جداً» إذ كانت أسبابها قوية كي تستمر بتعليقاتها، على الرغم من أنها بدأت تشعر بالخوف، فكثير من الحقائق لا يلحظها إلّا أصحاب العقول البسيطة.

«إذًا... أظن أن عقول البسطاء لابد من أن تكون مفيدة. فيا للشفقة إن أم السيد كزابون لم يكن لديها تفكير بسيط، وإلا لعلمت ما هو أفضل من ذلك». كانت سيليا خائفة ضمنيًّا ومتحفزة للهروب، وقد رمت بسهمها الصغير. بدأت تتصاعد مشاعر دورثيا ككرة الثلج عند تدحرجها، فلم يبق للمقدمات مجال: «آن الأوان كي أخبرك يا سيليا لقد طلبت للزواج من كزابون».

ربما لم يشحب وجه سيليا هكذا من قبل، كانت ستمزق الرجل الذي كانت تصنعه من الورق، لولا اهتمامها الاعتيادي بما تفعله. فوضعت فوراً الجسم الورقي جانباً، وجلست بلا حراك لبضع ثوان فلما بدأت التكلم، كانت قد اغرورقت عيناها بالدموع: «أواه يا دودو.. أتمنى لك السعادة». ها هنا تغلبت عاطفتها وحنوها الأخوي، على مشاعرها الأخرى كلها في هذه اللحظة... و كان خوفها يتجسد في حبها لأختها.

كانت دورثيا لا تزال مستاءة ومهتاجة ومنفعلة: «لقد اتُخذ القرار إذاً؟»، قالت سيليا بنبرة كئيبة... «وهل يعلم عمي؟».

«لقد وافقت على طلب السيد كزابون وجلب عمي الرسالة التي تضمنت ذلك. إذ عرف به مسبقاً»

«أعتذر لك إذا كنت قد قلت شيئاً يؤذيك يا دودو»، قالت سيليا ذلك وقد نشجت بالبكاء قليلاً، لم يخطر ببالها يوماً أنه سينتابها شعور كهذا.

وكان هناك شيء مأتمي في المسألة بأكملها. ويبدو السيد كزابون هو رجل الدين المعين الذي لن يكون من اللائق أن تعلق عليه بشيء. «لا تهتمي يا كيتي ولا تحزني، لا ينبغي لنا أن نعجب بنفس الأشخاص، فأنا غالباً ما أسيء بالطريقة نفسها فأميل إلى التعليق بعنف».

على الرغم من هذا التصرف الذي ينم عن شهامة، فإنّ دورثيا لا تزال تتألم: فربما كان ذلك سبب تخفيف دهشة سيليا إلى حجم انتقاداتها الصغيرة. بالطبع كل العالم الذي يحيط بتبتن سيكون بعيداً من معزوفة هذا الزواج. لم تعرف دورثيا أحداً يفكر مثلها في الحياة وفي أفضل أهدافها في أيّ حال.

قبل أن ينتهي المساء كانت سعيدة جدًّا. إذ ظلّت ساعة أو ساعتين تتحدث إلى السيد كزابون وجهاً لوجه بحرية أكبر مما شعرت بها من قبل، بما في ذلك تعبيرها عن فرحتها لتكريس نفسها لأجله، وإعلامه كيف يمكن لها أن تشاركه على أفضل وجه في جميع أهدافه المثلى. شعر السيد كزابون بغبطة عارمة كما يمكن لكل رجل أن يشعر بها في مثل هذه الحماسة الجامحة الصريحة، فهو لم يدهش لما يؤول إليه حال المحب ولا سيما عندما يكون المحب هو.

«عزيزتي الشابة الآنسة دورثيا بروك!»، قال وهو يضع يدها بين يديه ويضغط عليها. «هذه سعادة مُنحت لي، وهي أعظم مما تخيلت، أن أقابل شخصاً ذا عقل غني يمتزج بنعم إلهية فيجعل الزواج مرغوباً فيه، سعادة كهذه لم أكن أدركها. إنك تتمتعين بكل الصفات التي اعتبرتها دائماً كصفات سامية للمرأة. إن سحر جنسك العظيم يكمن في مقدرته على الحب الشديد للتضحية الذاتية. وها هنا نرى ملاءمته في إتمام دورة وجودنا. حتى الآن عرفت بضعة أنواع من المتع باستثناء القاسي منها. فكانت ترضيني منها تلك التي تشبع الطالب المنعزل. كنت أميل قليلاً إلى جمع الورود فكانت تذبل في يدي. أما الآن... فسوف أقطفها بشغف لأضعها على صدرك».

لا يمكن لأي كلام أن يكون أكثر جدية في نواياه، فكلامه الأخير المنمق الفاتر فيه إخلاص كما في نباح الكلب، أو كنعيب الغراب العاشق. ألن يكون من التسرع أن نسرع بالقول إنه لم يكن هناك عواطف جياشة تضمنتها تلك القصائد الشعرية لديليا والتي تدهشنا كموسيقى المندولين العذبة؟

كان إيمان دورثيا قد مكنها من معرفة جميع الكلمات التي ينطق بها السيد كزابون ماذا

يمكن للمؤمن أن يرى من الفقر المزعج أو التعاسة؟ يمكن للنص الذي كتبه رسول أو شاعر أن يتسع لما يمكن لنا أن نضيف إليه، وحتى لو كانت قواعده سيئة فسيظل نصًّا سامياً.

قالت دورثيا: «إنني جاهلة جدًّا... ستعجب لجهلي.. لدي أفكار كثيرة يمكن أن تكون خطأ. فمنذ الآن سيكون في وسعي أن أبوح لك بها وأسألك عنها». لكنها أضافت بتصور سريع لشعور السيد كزابون المحتمل: «لن أزعجك كثيراً.. فقط عندما ترغب في الاستماع إلي، لابد من أن تكون دائماً متعباً بمتابعة المواضيع الخاصة بك».

«كيف لي أن أتابع في أي طريق بدون رفقتك؟»، قال السيد كزابون مقبلاً جبهتها البيضاء، وكانت السماء قد منحته مباركة تناسب أمنياته. لقد منحته بلا حساب سحر الطبيعة، ونهايات سعيدة كانت تبدو بعيدة المنال. هذا ما جعل دورثيا تبدو كطفلة وبناء على بعض التقديرات الساذجة جدًّا على الرغم من كل ذكائها المعروف؛ فعلى سبيل المثال عندما ألقت بنفسها مجازاً عند أقدامه لتقبل أربطة حذائه غير الأنيقة وكأنه البابا البروتستانتي، لم تعلّم السيد كزابون كي يسألها في ما لو كان يناسبها فحسب، بل سألت نفسها باضطراب كيف يمكن لها أن تناسب السيد كزابون.

قبل أن يغادر في اليوم التالي قرر موعد الزواج ليكون خلال ستة أسابيع، ولم لا؟!! فمنزل السيد كزابون جاهز، فلم يكن كبيت الكاهن، لكنه كان قصراً مع أرض كبيرة تتصل به. وكان مساعد القسيس يشغل البيت الصغير فيقوم بجميع الواجبات عدا تقديم الموعظة في الطقوس الدينية الصباحية.

الفصل السادس

لسان سيدتي كشفرة المنجل،

تجرحك ولو بضربة يد كسولة،

فيا لقطعها: حين تقسم

حبوب الدخن بحدة الروح،

فتصيرها إلى وفرة ملموسة.

بينما كانت عربة السيد كزابون تخرج من البوابة، عرقلت دخول عربة صغيرة يجرها حصان صغير وتقودها سيدة تجلس خلفها خادمة. لم يكن واضحاً ما إذا كانا قد عرفا بعضهما، ذلك أن السيد كزابون كان ينظر أمامه دون انتباه، لكن السيدة رأته فهزت رأسها بتحية وقالت في اللحظة المناسبة: «كيف حالك؟». على الرغم من قبعتها المهترئة وشالها الهندي القديم، كان من الواضح أن الخادمة اعتبرتها شخصية مهمة للانحناءة التي قدمتها لها عند باب العربة.

قالت السيدة ذات الوجنتين المحمرتين والعينين الداكنتين بنبرة أنيقة واضحة: «حسناً يا سيدة فيتشت، كيف إنتاج دجاجاتك من البيض الآن؟».

«إنتاج وافر يا سيدتي... لكنها تأكل بيوضها. لا أرتاح بسببها على الإطلاق».

«آه إنها متوحشة... من الأفضل لك أن تبيعيها فوراً. كم ستبيعين الزوج منها؟ لا أحد يستطيع أن يأكل الدجاج ذا الطبع السيئ بثمن مرتفع».

«حسناً، أيتها السيدة... بنصف كراون. لا أستطيع أن أقبل أقلّ هذا!».

«نصف كراون؟؟ في هذه الأوقات؟؟ إنه لا يكفي لطهو حساء الدجاج للقس في يوم الأحد».

«لقد استهلك كل الدجاجات التي يمكن أن أستغني عنها. تأخذين نصف استحقاقك من الموعظة يا سيدة فيتشت تذكري ذلك، استبدليها بزوج من الحمام المحجل الجميل والصغير. عليك أن تأتي لتريها فليس لديك حمام محجل مع حمامك».

«حسناً سيدتي، إنني سأذهب لرؤيتها بعد العمل. فأنا أتشوق لاقتناء الأنواع الجديدة من الحمام».

«ستعجبك».

«تعجبني؟؟ ستكون تلك أفضل صفقة أقوم بها، زوج من حمام الكنيسة بزوج من الدجاج الإسباني اللعين الذي يأكل بيضه! ألا تتباهون أنت وابنك في هذا الأمر كثيراً».

كانت قد تحركت العربة إلى الداخل تاركة السيدة فيتشت ضاحكة، تهز برأسها ببطء وبتعجب، «بالتأكيد». لقد استنتجت الخادمة فيتشت أن الريف يمكن أن يكون أكثر مللاً لو أن زوجة القس أقل ثرثرة وبخلاً. الحقيقة أن المزارعين والعمال في أبرشيات فريشت وتبتن كانوا سيشعرون بنقص مؤسف من الحوارات، لو لم تكن هناك قصص عما تقوله السيدة كادولدر وتفعله: فهي سيدة ذات مولد حسن لا يمكن تحديده وتتحدّر من سلالة إيرلات غير معروفة عاشوا في العتمة كأنهم أشباح لأبطال، فهي تبدو وكأنها عاشت في فقر وتخفض الأسعار بلهجة لسان تنبئك من هي. سيدة كهذه تهب المركز الاجتماعي والديني وحسن الجيرة، وتخفف معاناة دفع الضرائب. وما كان لشخصية أخرى مشبعة بالوقار المتجهم، أن تستوعب تسعاً وثلاثين مقالة، وأن تكون قادرة على التواصل الاجتماعي.

أجفل السيد بروك عندما أعلن قدوم السيدة كادولدر في المكتبة حيث كان يجلس بمفرده؛ فهو يرى محاسن السيدة كادولدر من وجهة نظر مختلفة.

«يبدو أن لوك سيزرو كان عندك هنا»، قالت وهي تجلس مرتاحة وتلقي بأغطيتها إلى الوراء ليظهر جسمها النحيل والقوي. «أظن أنكما تدبران أموراً سياسية سيئة وإلا لما وددت رؤية الرجل المفعم بالحيوية، يجب أن أخبر عنكما. تذكرا أن لديكما شخصيتين مشبوهتين. منذ أن وقفتما إلى جانب بيل في البيان الكاثوليكي، سأخبر الجميع بأنك سترشح نفسك عن مدل مارش، في حزب الويج الإصلاحي عندما يستقيل بنكرتون وأن كزابون سيساعدك خفية... بأنه سيشتري الأصوات بكراريسه فينشرها في الحانات، هيا اعترف».

«لاشيء من هذا القبيل»، قال السيد بروك وهو يمسح نظارتيه لكنه في الحقيقة قد احمر قليلاً بسبب اتهامها: «أنا وكزابون لا نتحدث في السياسة كثيراً، فهو لا يأبه للجوانب الخيرية والإنسانية والعقوبات وأشياء كهذه، إنّه يهتم بقضايا الكنيسة فقط، وذلك ليس من ضمن ما أقوم به.. هل تعلمين؟».

«إن هذا لا يعقل يا صديقي لقد سمعت بأعمالك، من باع قطعة أرض للبابوية في مدل مارش؟ أظنك اشتريتها لأجل ذلك الهدف. أنت تماماً مثل كاي فوكس. انتظر لترى إذ لن يكون هناك تمثال مكروه ليحرق في الخامس من تشرين الثاني القادم. لن يأتي همفري ليشاجرك، لذلك أتيت أنا».

«حسناً لقد تهيأت للاضطهاد الديني، لأنني لا أضطهد... لا أضطهد، تعرفين».

«ها أنت هنا... هذا هراء هيأته لحملتك الانتخابية، لا تدعمهم فهم يغرونك ليجروك إلى الحملة الانتخابية، يا عزيزي السيد بروك. فغالباً ما يجعل المرء من نفسه أحمق عندما يلقي خطاباً: لا يوجد عذر إلّا عندما تكون على حق. فتستطيع أن تطلب الرحمة عندها لتلكئك.. ستخسر نفسك.. إني أنذرك. ستصنع فطيرة يوم السبت، مكوناتها آراء من جميع الأحزاب وسيجلدك الجميع».

«إن هذا ما أتوقعه». قال السيد بروك غير راغب في إفشاء ما يسمع في الحوار التنبؤي: «ما أتوقعه كرجل مستقل.. بالنسبة إلى حزب الويج أن الرجل الذي يرافق المفكرين لا يمكنه أن يرتبط بأي حزب، يمكنه أن يوافقهم في آرائهم إلى حد معين... تعرفين، لكن ذلك ما لا تفهمنه أيتها السيدات إطلاقاً».

«أين تكمن الفكرة على وجه التحديد؟ لا أود أن يشرح لي كيف يمكن لرجل أن يكون له رأي محدد دون أن ينتمي إلى حزب ما ويمضي حياته بالتجوال ولا يعرف رفاقه عنواناً له... لن يعرف أحد أين يكون السيد بروك... لا يعتمد على بروك، ولأكون صريحة معك هذا ما يقوله الناس عنك. الآن كن محترماً، كيف تذهب للاجتماعات في الوقت الذي ينظر إليك فيه الجميع بخجل، وضميرك ميت وجيبك فارغ؟».

«لا أحاول أن أجادل سيدة في السياسة». قال السيد بروك مع ابتسامة عدم اكتراث، لكنه أدرك بانزعاج أن هجوم السيدة كادولدر تطلب منه أن يقوم بحملة دفاعية عن نفسه تجاه تلك الخطوات الهجومية التي تعرض لها. «إن بنات جنسك لسن مفكرات... تعرفين،

شيء من هذا... ألا تعرفين فرجيل؟؟ أنا أعرفه».

أظهر السيد بروك مباشرة أنه لم يكن لديه معرفة شخصية بالشاعر أوغستين: «كنت سأقول ستودارت المسكين، تعرفين... هو من قال: أنتن السيدات، تقفن ضد المواقف المستقلة - لا يهتم الرجل لأي شيء سوى الحقيقة وشيء كهذا. ولا يوجد مكان في المقاطعة حين يكون الفكر أضيق مما عليه هنا، لا أعني بهذا أن أرمي الحجارة، تعلمين... لكن أحداً ينوي أن يسير في الخط المستقل فإن لم أكن أنا فمن سيكون؟».

«من؟ لماذا؟ أي شخص مغرور ليس فيه دم وليس لديه مكانة اجتماعية. فأصحاب المواقف عليهم أن يستنفدوا تفاهتهم الخاصة في بيوتهم وألّا يسوقوها بين الناس. وأنت! ستزوج ابنة أخيك كابنة لك لأحد أفضل رجالنا. سيغضب السير جيمس بشد، وسيكون قاسيًّا عليه جدًّا إذا ما غيرت اتجاهك وعلقت لوحة لحزب الويج».

أجفل السيد بروك ضمنيًّا، لم يكن ارتباط دورثيا في أي وقت بأبعد مما خطر في باله من تهكمات متوقعة من قبل السيدة كادولدر. ربما كان من السهل لمراقبين جهلاء أن يقولوا: شجار مع السيدة كادولدر، ولكن أين يمكن أن يذهب رجل ريفي نبيل يتشاجر مع أقدم جيرانه؟ من يستطيع أن يتذوق الطعم العذب عندما يذكر اسم بروك، إنه كالخمر دون ختم. بالتأكيد يمكن أن يكون متحرراً من الأحقاد القومية والوطنية لدرجة مضنية تمامًا.

«أتمنى أن نظل أنا وجتم أصدقاء، لكنني آسف للقول بأن لا حظ له في زواجه من ابنة أخي». قال ذلك السيد بروك وقد شعر بارتياح حين رأى من النافذة سيليا قادمة إلى داخل الغرفة.

قالت السيدة كادولدر بدهشة حادة: «لم لا؟ «لم يمر أسبوعان منذ أن تحدثت معك في ذلك».

«لقد اختارت ابنة أخي رجلاً يناسبها، اختارته... تعرفين. لم يكن لي دخل في ذلك، ما أستطيع قوله بأن جتم رجل تتمناه كل فتاة، ولكن لا يوجد تفسير لهذه الأشياء. فإن جنسك غريب ومتقلب الأطوار... تعرفين».

«لماذا؟... تعني من سيتزوجها...؟». بدأ تفكير السيدة كادولدر يبحث عن احتمالات عديدة في اختيار الرجل المناسب لدورثيا. لكن دخول سيليا وقد أبهجها التنزه في الحديقة،

فحررت تحيتها السيد بروك من الإجابة الفورية، ونهض بسرعة قائلاً:

«بالمناسبة... يجب أن أكلم رايت حول الجياد»، وخرج مسرعاً من الغرفة. قالت السيدة كادولدر: «ابنتي العزيزة...! ماذا حول خطبة أختك؟».

«طلبت للزواج من السيد كزابون». أجابتها سيليا مستخدمة كعادتها أبسط العبارات للتعبير عن الحقيقة، وهي تستمتع بالتحدث إلى زوجة القس بمفردها.

«هذا مخيف، منذ متى بدأ هذا الأمر؟».

«عرفت به فقط البارحة، سيتزوجان خلال ستة أسابيع».

«حسناً يا عزيزتي أتمنى لك السعادة مع صهرك».

«أنا آسفة! إنه اختيارها على ما أعتقد نعم... هي تقول بأن لدى السيد كزابون روحاً عظيمة».

«مع أحر تمنياتي القلبية».

«آه يا سيدة كادولدر لا أعتقد أنه شيء حسن أن تتزوج الفتاة من رجل عنده روح عظيمة».

«حسناً يا عزيزتي. احذري. أصبحت تعرفين الشخص من مظهره، عندما يأتي رجل آخر يطلبك لا تقبلي به».

«أنا متأكدة أنني لن أفعل».

«لأن واحداً في العائلة يكفي، لو اهتمت أختك بالسير جتم. ماذا كنت لتشعري لو أنه زوج أختك؟».

«كنت سأحب ذلك كثيراً، أنا متأكدة أنه كان ممكناً أن يصبح زوجاً مناسباً فقط». أضافت سيليا مع احمرار قليل على وجهها فهي تحمر أحياناً عندما تتنهد. «لا أظن أنه يناسب دورثيا».

«أليس على قدر كاف من المستوى الرفيع؟».

«إن دودو صارمة جدًّا. هي تفكر ملياً في كل شيء، وتدقق بما يقوله الآخرون. كم كان سيسرها السير جيمس، كان لابد لها من أن تشجعه، أنا متأكدة أن ما حصل ليس شيئاً إيجابياً».

«من فضلك لا تغضبي من دودو. فهي لا تميز بين الأشياء، فهي كانت تفكر في البيوت الريفية كثيراً وأحياناً كانت قاسية معه لكنه لم يلحظ ذلك».

«حسناً»، قالت السيدة كادولدر وهي تضع شالها على كتفها، كأنها على عجلة «يجب أن أذهب مباشرة إلى السير جيمس جتم وأنبئه بذلك. لابد من أنه جلب أمه الآن، يجب أن أذهب، لن يخبره عمك. لقد خاب أملنا يا عزيزتي، يترتب على الشباب أن يفكروا في أهلهم عند الزواج. فأنا مثال سيئ، فقد تزوجت رجل دين فقيراً، فجعلت من نفسي موضع شفقة عند عائلة ديبرسي فأنا مجبرة أن أحصل على زيت لسلطتي... في أيّ حال فكزابون يملك مالاً كافياً، يجب أن أنصفه، أما بالنسبة إلى أسرته، فثلاثة منهم كالحبار الأسود، أما الرابع فهو كمعلق منحرف. بالمناسبة، وقبل أن أذهب، أريد يا عزيزتي التحدث إلى السيدة كارتر عن صنع المعجنات. أريد أن أرسل طاهيتي لتتعلم منها، ففقراء مثلنا لديهم أربعة أطفال لا يستطيعون أن يشغلوا طاهية جيدة، لا أشك بحسن صنيعها لي. طاهية السير جيمس كالتنين تحرق كل شيء».

التقت السيدة كادولدر بالطاهية كارتر لأقل من ساعة ثم انطلقت بعربتها إلى فريشت هول التي لم تكن بعيدة من منزلها الصغير، فزوجها يقيم في فريشت ويحتفظ بمساعده في تبتن.

عاد السير جيمس جتم من رحلته القصيرة، حيث غاب لبضعة أيام، وغير ملابسه، وهمَّ ليركب فرسه إلى تبتن كرينج. كان جواده واقفاً عند الباب عندما حضرت السيدة كادولدر، فظهر على الفور ماسكاً بيده سوطاً. لم تعد الليدي جتم بعد، أما السيدة كادولدر فلم تشأ البوح بمهمتها أمام ساسة الخيل، لذلك طلبت الذهاب إلى الغرفة الزجاجية الجانبية، لترى النباتات، وفي وقفة تأملية قالت: «عندي خبر سيئ!! أتمنى ألّا تكون قد ذهبت بعيداً في حبك كما بدا عليك». لا جدوى في الاعتراض على طريقة السيدة كادولدر في عرضها للأمور، لكن هدوء السير جيمس قد تغير قليلاً، وأحس بنذير غامض. «أعتقد أن السيد بروك سيكشف نفسه في النهاية، اتهمته بأنه سيرشح نفسه عن مدل مارش ممثلاً التيار الحر، فبدا متبلداً ولم ينكر ذلك، وتحدث عن خط المستقلين والترهات المعتادة».

قال السير جيمس وقد شعر بالارتياح: «هل هذا ما في الأمر».

ثمّ تابعت السيدة كادولدر نقاشها بمزيد من الجدية: «لماذا؟ لا تعني القول بأنك تتمنى له أن يكون معروفاً جماهيريًّا في تلك الطريقة جاعلاً من نفسه سياسيًّا أحمق».

«أظن أنه وقد أقنع بذلك، لن يحب التكلفة».

«هذا ما قلته. لا يمكنه أن يحتمي من المنطق، فبذور الحكمة تنمو دائماً في وعاء البخل. فالبخل صفة رئيسية عند الأسر، يصبح جنوناً آمناً عندما ينغمس في البخل، ولا بد من أن يكون هنالك شرخ في عائلة بروك نفسه وإلا يجب ألّا نرى ما يمكن رؤيته».

«ماذا؟ هل سيرشح بروك نفسه عن مدل مارش؟».

«بل أسوأ من ذلك. إنني أشعر حقًّا بالمسؤولية قليلاً، قلت لك مراراً إن الآنسة بروك تناسبك. عرفت أن لديها كثيراً من التفاهات الأنغليكانية المتقلبة لكنها تزول عند الفتيات عندما يكبرن، في أيّ حال لقد دهشت هذه المرة».

قال السير جيمس: «ماذا تعنين يا سيدة كادولدر؟»، وقد هدأت مخاوف السير جيمس من أن تكون الآنسة بروك قد التحقت بمروفيان برذرن أو بفرقة منافية للعقل غير معروفة للمجتمع الجيد، لأنه يعلم بأن السيدة كادولدر تعرض الأشياء بأسوأ الطرق دائماً.

«ماذا حصل للآنسة بروك أرجوك تكلمي».

«حسناً فقد طلبت للزواج». صمتت السيدة كادولدر لبرهة قصيرة، وهي تراقب ملامح وجه السير جيمس المتغيرة المعبرة عن الجرح البليغ الذي أصابه، وكان يحاول إخفاءه خلف ابتسامة توتر، ثم بالسوط وحذائه. لكنها أضافت مباشرة: «خطبت لكزابون». رمى السير جيمس سوطه ليلتقطه ثانية، ربما لم يعبر وجهه عن استياء كهذا من قبل، وهو يستدير إلى السيدة كادولدر فكرر: «كزابون؟؟؟».

«هكذا عرفت غرضي من الزيارة الآن».

«يا إلهي! إن ذلك مخيف، فهو ليس بأفضل من المومياء!»؛ يأتي الرأي من الند المتفتح في ريعان شبابه، والذي أصيب بخيبة أمل.

«تقول إن روحه عظيمة، إنه كمثانة كبيرة في داخلها بازلاء جافة تخشخش فيها»، قالت السيدة كادولدر.

«كيف لعجوز عانس أن يتزوج». قال السير جيمس: «أحدى قدميه في القبر».

«يريد أن يخرجها على ما أعتقد».

«يجب على بروك ألا يسمح بذلك، عليه أن يمنعها من الزواج حتى تبلغ السن القانونيّة، عندها ستفكر في طريقة أفضل. ما مهمة الوصي إذاً؟».

«إن من الصعب أن تجعل السيد بروك يتخذ قرارًا!».

«يمكن للسيد كادولدر أن يتكلم معه».

«ليس هو! إن همفري ينظر إلى الجميع وكأنهم على درجة عالية من النبل، لن أستطيع أن أقنعه ليسيء لكزابون. فهو يمتدح حتى المطران، على الرغم من أنني أقول: ليس ذلك جديراً برجل الدين في الكنيسة، ماذا تفعل المرأة بزوجها الذي لا يهتم بأمور العيش. إنني أخفي ذلك قدر استطاعتي، ولو على حساب الآخرين. هيا، هيا... ابتهج لقد تخلصت من الآنسة بروك، فهذه الفتاة ستريك النجوم في عز الظهر، فالسر بيني وبينك إن أختها سيليا تعادل اثنتين منها. وفي آخر المطاف من المرجح أنها ستكون أكثر ملاءمة منها لك. فهذا الزواج من كزابون هو كالذهاب إلى دير الرهبان».

«آه.. فأنا أدفع الثمن من أجل الآنسة بروك، يجب على صديقاتها أن يؤثرن عليها».

«حسناً... همفري لا يعرف حتى الآن، ولكن عندما سأخبره سيقول: إن كزابون رجل جيد وشاب يافع، فهؤلاء الناس الطيبون لا يميزون بين الخل والخمر حتى يشربوه ويصابوا بالمغص. في أيّ حال لو كنت رجلاً لفضلت سيليا وخصوصًا أن دورثيا قد ذهبت. الحقيقة أنك غازلت واحدة وفزت بالأخرى، أرى أنها معجبة بك كما ينبغي لرجل أن يعجب به، من الممكن أن تظن ذلك مبالغة لو قالها أحد سواي، وداعاً».

أوصل السير جيمس السيدة كادولدر إلى عربتها، ثم قفز إلى ظهر حصانه. لن يعلن عن مغادرته بسبب الأخبار السيئة التي أحضرتها صديقته. فقد ذهب مسرعاً بطريق معاكس لطريق تبتن كرينج، الآن لماذا السيدة كادولدر مشغولة هكذا بزواج الآنسة بروك؟ ولماذا عندما تفشل خطبة، تشعر أن عليها ترتيب خطبة جديدة؟

هل هناك خطة عبقرية أو لعبة للتخفي يمكن كشفها بالتلسكوب؟ لا على الإطلاق. ربما

مسح التلسكوب الأبرشيات في تبتن وفريشت وكل المنطقة التي زارتها السيدة كادولدر في عربتها الصغيرة، دون أن تحضر أيّ حوارات يمكن أن تثير الشكوك أو مشهد عادت منه على غير الهيئة التي ذهبت بها. في الحقيقة لو أن هذه العربة كانت موجودة أيام سيفن سايجز لعرف دون أي شك، ولأشار أحدهم إلى أنك تعرف القليل عن النساء. عندما تتبعهن وهن في مركباتهن الصغيرة، حتى عندما توجه المجهر إلى قطرة ماء تعطي انطباعات مضخمة، فعندما تكون العدسة ضعيفة يمكن أن ترى مخلوقاً يعيش بنهم على مخلوقات أصغر منه تؤدّي دوراً في تقويته، وكأنهم دفعوا ضرائب كثيرة. أما عندما تكون العدسة أقوى، فهي توضح لك أصغر وأدق الشعيرات الهدبية التي تسبب الدوامات لضحاياها، في حين أن المفترس ينتظر ليتلقف فريسته. يمكننا أن نقول مجازياً: إننا نحتاج إلى عدسة قوية لنرى زيجات السيدة كادولدر. ولو حصل ذلك لرأينا مسرحية بدوافع تافهة، تنجم عنها دوامات من الكلام والأفكار ليجلب لها الطعام الذي تحتاجه. كانت حياتها ريفية بسيطة، تخلو من الأسرار المهمة أو الخطيرة والشريرة، ولا تتأثر حياتها بالشؤون المهمة للعالم الكبير. وعلى الرغم من أنها تستمتع بتلك الأحداث الكبيرة عندما تتراسل مع أقربائها، فإن الطريقة التي يتزوج الشبان من سيداتهم تدفع بهم إلى الحضيض. إن حماقة اللورد تابيير الشاب التي ورثها من أجداده القدماء، ومزاج اللورد مكاثيريم العجوز النقرسي الغاضب ؛ أدخل تقاطع الأنساب تاجاً صغيراً إلى أحد فروع الأسرة، فورط أقرباء كثيرين بالنميمة والغيبة، كانت هذه مواضيع تحتفظ بها السيدة كادولدر بأدق تفاصيلها، ثم تعيد إنتاجها بطريقة بارعة تستمتع بها شخصيًّا، تعينها دقائق الأمور صغيرها وكبيرها. لم تتبرأ من أحد بسبب فقره: لو تناول أحد أفراد أسرة دبريسي عشاءه من إناء كبير لبدا لها ذلك مثالاً مثيراً للشفقة، ويستحق المبالغة. وأخشى ألّا ترعبها رذائله الأرستقراطية، لكن مشاعرها تجاه الأثرياء جدًّا كانت تنبع من كرهها الديني. ربما جمعوا أموالهم كلّها من أسعار البيع المرتفعة إذ إن السيدة كادولدر كانت تكره بشدة الأسعار المرتفعة، لأنه لم يكن كل شيء يدفع للكنيسة، لم يكن مثل هؤلاء الناس جزءاً من العالم الذي صنعه الله ؛ لغتهم كانت تؤذي السمع، يكثر فيها مثل هؤلاء كلماتهم. لم تكن بأفضل حال من الكوميديا المنحطة، إذ لا يمكن احتسابها ضمن نظام العالم الراقي. إذا ما أرادت أي امرأة أن تقسو على السيدة كادولدر لابد لها من أن تفهم تماسك أفكارها الرائعة، وتكون متأكدة تماماً أن هذه الأفكار والآراء يمكن لها أن تستوعب جميع شؤون الحياة التي تتماشى معها. فدماغ السيدة كادولدر كالفوسفور، يلتهم كل شيء يقترب منه فيحوله إلى الشكل الذي يناسبه. كيف للسيدة كادولدر أن تشعر بأن

الآنستين بروك وزواجهما المتوقع كان غريباً لها؟ خصوصًا أن عادتها لسنين طوال أن توبخ السيد بروك بصراحة، وتجعله يعلم بثقة بأنها تظنه مخلوقاً مسكيناً.

منذ أن وصلت الفتاتان إلى تبتن أول مرة، هيأت زواج دورثيا من السير جيمس مسبقاً ولو تحقق هذا الزواج لكان من المؤكد تماماً أنه من فعلها وتدبيرها.

إن عدم تحقق هذا الزواج سبب لها إزعاجاً، ولا سيما أنها خططت له مسبقاً وتصورته. كانت المرأة الدبلوماسية في تبتن وفريشت وكل شيء دون إمرتها كان خروجاً على المألوف، وفيه إساءة لها. فقد فقدت صبرها لتصرف الآنسة بروك وأدركت الآن أن نظرتها لدورثيا تأثرت برفق زوجها الضعيف بالناس. تلك النزوات الميثولوجية التي تجعل عندها كبرياءً لأنها أكثر تديناً من القس ومساعده، تأتي من مرض أشد خطورة وأعمق من رغبتها بتصديق ذلك.

قالت السيدة كادولدر لنفسها ثم لزوجها: «في أيّ حال لقد تخليت عنها، لو تزوجت السير جيمس لأصبحت امرأة ذات عقل وإدراك سليمين ولم أعارضها. وعندما لا تعارض المرأة لن يكون لديها حافز للعناد في عبثها. لكنّني الآن أتمنى لها السعادة بتضحيتها».

كان على السيدة كادولدر أن تفكر في فتاة أخرى تناسب السير جيمس وبما أنها قررت أن الآنسة بروك الصغرى ستكون هي تلك الفتاة التي تناسب السير جيمس، فلن يكون عندها خطوة أكثر حذاقة نحو نجاح خطتها من إشارتها وتلميحها للبارون بأن له مكانة عند سيليا بما أنه لم يكن أحد الرجال الذين يضعفون أمام تفاحة سافو التي تضحك من أعلى غصن الفتن التي:

«تبتسم كزهور الربيع العطري على جرف الماء

بعيدة من منال يد العاشقين».

هو لا يكتب القصائد لكنه صدم عندما عرف أنه غير مرغوب فيه لدى من رغب فيها. معرفته باختيار دورثيا للسيد كزابون فصلت ارتباطه بها. على الرغم من أن السير جيمس كان رجل صيد، فإن مشاعره تجاه النساء، كانت تختلف عن مشاعره تجاه الطيور والثعالب. ولم ينظر إلى زوجة مستقبله كما كان ينظر إلى فريسته الثمينة لمجرد متعة مطاردتها. لم يكن مطلعاً على عادات الشعوب البدائية. فعلى سبيل المثال.. يجب عليه أن يحارب ليضمن

استمرارية زواجه، ولكن على العكس لما لديه من طبيعة كريمة وزهو لطيف يربطنا بالمغرمين بنا، ولا يبعدنا عمن لا نحبه. ففكرة أن تحمل ودًّا له تكفي لتنسج خيوط الحب بين قلبيهما.

هذا ما حصل، فبعد أن قاد السير جيمس حصانه مسرعاً لنصف ساعة بعيدًا من تبتن كرينج، أبطأ ثم انحرف ليدخل في شارع مختصر ليقفل عائداً، انتابته مشاعر مختلفة، جعلته يقرر الذهاب إلى كرينج اليوم وكأن شيئاً لم يكن. كانت السعادة قد غمرته لأنه لم يتقدم بطلبها للزواج ورفضته. فقط تطلب أدبه الودي اللطيف أن يذهب ليرى دورثيا بشأن البيوت الريفية، وحسناً فعلت السيدة كادولدر إذ هيأته ليقدم التهاني؛ إذ ما كان ذلك ليحصل دون أن يظهر عليه الاستغراب؛ فهو لا يحب ذلك إطلاقاً: كانت فكرة الإقلاع عن الزواج من دورثيا مؤلمة جدًّا بالنسبة إليه. كان لديه شعور بالتصميم على القيام بالزيارة على الفور، يتغلب على جميع ما يظهر من مشاعره. ودون تمييزه الفطري للاندفاع، ظهر شعور أكيد في داخله بأن سيليا ستكون هناك، ويجب عليه أن يهتم بها أكثر مما كان يفعل من قبل.

«نحن الفانين، من نساء ورجال، نلتهم الكثير من الآمال الخائبة بين الفطور والعشاء، نحصر دموعنا، ويرتسم الشحوب قليلاً على شفتينا، ونجيب عن السؤال قائلين: «لا شيء!». يساعدنا كبرياؤنا، والكبرياء ليس بالشيء السيئ عندما يجبرنا على إخفاء آمالنا ولا نؤذي الآخرين».

الفصل السابع

Piacer e popone

Vuol la sua stagione.

مثل إيطالي

كما هو متوقع يمضي السيد كزابون وقتاً طويلاً في هذه الأسابيع في كرينج، فعرقلة تقدم عمله سببها التودد. بدأ يتأخر تقدم عمله في كتابه «مفتاح علم الأساطير»، بسبب مغازلته، التي جعلته يتطلع تلقائيًّا بشوق إلى النهاية السعيدة، لكنه تعمد هذا التأخير لأنه قرر بأنه قد آن الأوان ليتمتع بحياته بنعمة الاقتران بامرأة، وبجمالها الأنثوي الذي ينير العتمة التي نثرها التعب والملل طوال فترة عمله الجاد، ويضمن له السلوان من رعاية أنثوية في ما تبقى من سني عمره حين يبلغ من العمر أوجه. ومن ثم قرر أن يهجر طبيعته ليترك عواطفه تجري في جدولها، ولربما فوجئ حين وجده ضحلاً. كما هو الأمر في الأقاليم التي يسودها الجفاف، إذ يجري التعميد بصورة رمزية، وجد السيد كزابون أن الرش هو أقصى ما يمكن أن يناله من جدول عاطفة ضحلة، فاستنتج أن الشعراء قد بالغوا في قوة عواطف الرجال. في أيّ حال، لاحظ بسرور أن الآنسة بروك قد أظهرت عواطف متقدة ومتذللة له لتفي بتصوراته المسبقة للزواج. خطر في ذهنه مرة أو مرتين أن لدى دورثيا نقصاً في قدرتها على استيعاب تحمسه المتزن، لكنه لم يستطع تمييز هذا النقص بنفسه. ولم يقدر على اختبار امرأة تسره، لذلك لم يكن هناك سبب واضح ليركن إلى شيء سوى المبالغة في العادات الإنسانية.

«ألا أهيّئ نفسي الآن لأكون مفيدة أكثر؟»، قالت دورثيا له ذات صباح في بداية مغازلتهما. «ألا يمكنني أن أتعلم اللاتينية والإغريقية لأقرأ لك كما فعلت ابنتا الشاعر ميلتون لأبيهما دون أن تفهما ما كانتا تقرآن؟».

قال السيد كزابون مبتسماً: «أخشى أن يكون ذلك أمرًا مضنيًا لك؟».

«وحقًّا إذا كنت أتذكر جيداً فإن الفتاتين اللتين ذكرتهما اعتبرتا هذه القراءة في لغة

تجهلانها سبباً لثورتهما ضد الشاعر ميلتون!».

«نعم كانتا بالدرجة الأولى فتاتين مشاكستين، وإلا كانتا فخورتين بخدمة أبيهما. وفي الدرجة الثانية كان يمكنهما أن تدرسا وتتعلما سرًّا لتفهما ما تقرآن، فيصبح عملهما ممتعاً. أتمنى ألا تعتبرني مشاكسة ولا غبية؟».

اعتبرت دورثيا هذا إذناً ثميناً. لم تطلب من السيد كزابون مباشرة أن يعلمها اللغتين لخوفها أن تصبح جميع الأشياء مضنية بدلاً من أن تكون مساعدة، ولم يكن نابعاً من تكريس نفسها لزوجها في المستقبل أن تتعلم اللاتينية والإغريقية. تلك المجالات من المعرفة تخص الرجال، ولها أرضية راسخة، نرى من خلالها الحقيقة كما ينبغي. كما أنها كانت تشك في استنتاجاتها لأنها تشعر بجهلها. كيف لها أن تكون على ثقة؟؟ فالبيوت الريفية ذات الغرفة الواحدة لم تكن تبنى لأجل عظمة الخالق، في حين أن الرجال الذين عرفوا الكلاسيكية كانوا يوفقون بلا تحيز بين فكرة البيوت الريفية والتحمس لبلوغ العظمة حتى العبرية يمكن ربما أن تكون ضرورية على الأقل لجهة أبجديتها وبعض قواعدها لأجل الوصول إلى مركز الأشياء، والحكم على الواجبات الاجتماعية المترتبة على المسيحي، ولم تتنازل لمجرد الحصول على زوج حكيم. يا للفتاة المسكينة تمنت أن تكون هي حكيمة. كانت الآنسة بروك ساذجة جدًّا وتدعي الذكاء. أما سيليا التي لم يعتبرها الناس ذكية، فقد استطاعت أن ترى ادعاءات الناس الزائفة بسهولة. أن يكون لديك شعور بسيط فهو طريق النجاة والأمان أمام الانغماس بشعور أكبر مما ينبغي يتولد لديك في أيّ مناسبة.

قبل السيد كزابون أن يستمع ويعلّم في ساعة واحدة. وبدا وكأنه معلم مدرسة لأولاد صغار، أو كأنه محب جعل جهل حبيبته المرأة التي تناسبه. قليل من العلماء لا يرغبون في تعليم الأبجدية ضمن هذه الظروف، لكن دورثيا نفسها صدمت وأحبطت لغبائها الشخصي، والأجوبة التي حصلت عليها ردًّا على أسئلتها الغبية حول لهجات الإغريقية، إذ بعثت فيها شكوكاً مؤلمة يمكن أن تكون أسراراً لا يوجد لها تفاسير لدى امرأة. لم يشك السيد بروك في هذه المسألة، وعبر عن رأيه فيها بقوته المعتادة عندما دخل غرفة المكتبة يوماً وهما يقرآن:

«حسناً... أما الآن يا كزابون، فإن الدراسة المتعمقة في هذه العلوم الكلاسيكية والرياضية وشيء كهذا لمجهدة جدًّا لامرأة، مجهدة... كما تعرف».

«إن دورثيا تتعلم الحروف فقط»، قال السيد كزابون متهرباً من السؤال، «وهي تفكر في أن تريح عيني».

«ولكن بلا فهم.. أتعرف، ربما لن يكون سيئاً جدًّا، ولكن في ذهن النساء يعلو ويخبو بعض التوقد والموسيقى والفن الرفيع وشيء كهذا، يجب على النساء أن يتعلمن ذلك إلى حد معين. ولكن بطريقة بسيطة أتعرف؟؟ يجب على المرأة أن تجلس فتغني، أو تعزف مقطوعة إنجليزية جميلة. هذا ما أحب على الرغم من أنني سمعت معظم الأشياء - عندما ذهبت إلى الأوبرا في فيينا - كلوك وموزارت وكل شيء كهذا، لكنني محافظ تجاه الموسيقى، فهي ليست كالأفكار..كما تعرف، فأنا أظل أسمع الألحان القديمة الجيدة».

قالت دورثيا: «السيد كزابون ليس مولعاً بالبيانو، هذا ما يسرني فيه جدًّا». وهنا لا بد لنا من أن نعذرها لاهتمامها القليل بالفن النسوي الراقي، والموسيقى المنزلية باستثناء الترنيمات والأشغال الفنية المنزلية البسيطة التي كانت رائجة بشكل رئيسي في تلك الحقبة المظلمة. ابتسمت ونظرت إلى خطيبها بعين الرضا والشكر، لو ظل يطلب منها أن تعزف له مقطوعة «زهرة الصيف الأخيرة» لتطلب منها هذا استسلاماً أكثر. يقول إنه توجد نوتة قيثارة واحدة قديمة في لُوِيك وفوقها كتب كثيرة.

«آه... سيليا تتقدمك في هذا يا عزيزتي، سيليا تعزف الآن بشكل جميل جدًّا، وهي دائماً جاهزة لتتعلم، في أيّ حال بما أن كزابون لا يحب ذلك فأنت بخير. ولكن من المؤسف أنك لا تملك وسيلة ترفيهية كهذه، فتظل دائماً متوتراً - شيء كهذا - أنت تعرف، هذا لن ينفع».

قال السيد كزابون: «لا يمكنني اعتبارها وسيلة ترفيهية، إذ يؤذي سمعي الصخب الموزون. نغم مكرر له تأثير سخيف يجعل الكلمات التي في رأسي ترقص ببطء لتملأ الفراغ، هذا تأثير لا أحتمله أو أتصوره بعد طفولتي. أما بالنسبة إلى أنماط الموسيقى الراقية، فهي تصلح للاحتفالات الدينية والتعليم. لا أقول شيئاً حول هذه الأنواع من الموسيقى، لأنها لا تعنينا بشكل مباشر».

قالت دورثيا: «كلا، إنني أستمتع بمثل هذا النوع من الموسيقى، فقبيل عودتنا من لوزان أخذنا عمي لنسمع عزف آلة أرغن في فريبيرغ، لقد جعلتني أنشج».

قال السيد بروك: «أشياء كهذه ليست صحية يا عزيزتي».

«ستكون عندك الآن يا كزابون... عليك أن تعلم ابنة أخي لتقبل الأشياء بهدوء أكثر، هه.. دورثيا؟». أنهى كلامه بابتسامة لئلا يجرح مشاعر ابنة أخيه، لكنه كان يعتقد حقاً أنه

ربما من الأفضل لها أن تتزوج في أسرع وقت ممكن من رجل جدي وقور كالسيد كزابون، ولا سيما أنها لا تريد جتم.

«إن هذا رائع». قال هذا لنفسه وهو يخرج من الغرفة. إنه من الرائع أنها أحبته في أيّ حال، إنهما مناسبان لبعضهما، كان من الواجب أن أفعل ما في وسعي لأعوق زواجهما، فلتقل السيدة كادولدر ما تشاء. إنه متأكد تماماً بأنه سيصبح أسقفاً. كان هذا واضحاً وجليًّا في إحدى الكراسات التي كتبها في المذهب الكاثوليكي، على الأقل منصب العمدة، فهم مدينون له بمنصب العمدة. لا بد لي من أن أبرر الادعاء الفلسفي التأملي من خلال الإشارة إلى أن السيد بروك فكر قليلاً هذه المرة في خطابه الراديكالي حول دخل الأساقفة وأجبر على إلقائه في ما بعد. أي مؤرخ ذكي يمكن له أن يهمل فرصة سانحة ليبرز أبطاله على أنهم لا يتنبأون بتاريخ العالم ولا حتى بأفعالهم. فعلى سبيل المثال هنري من نافار، حين كان طفلاً بروتستانتيًّا، لم يفكر ولو قليلاً في العرش الكاثوليكي، أو ألفريد الأكبر حين كان يقيس طول لياليه المضنية بعدد الشموع المحترقة. لم يكن رجالات المستقبل النبلاء يقيسون أيامهم الخالية بالساعات، بل أقدم هنا حقيقة يمكن لها أن تطيل مدة احتراق فحمنا كيفما أخذ بها. لكنني أعطي ملحوظة حول السيد بروك أقل تأكيداً من سابقتها لو عرف مسبقاً بخطابه، لما وجد اختلافاً كبيراً. إن التفكير بسرور في أن زوج ابنة أخيه عنده دخل مرتفع من الكنيسة هو شيء، وإلقاؤه خطاباً ليبراليًّا شيء آخر، وإنه لمن ضيق الأفق ألّا تنظر إلى أي موضوع من جوانب مختلفة.

الفصل الثـامن

آه... أنقذها، فإنني الآن أخوها وأنت أبوها، لا بد من أن يكون لكل فتاة نبيلة رجل نبيل يرعاها.

إنه لمن المدهش أن يظل السير جتم يحب الذهاب إلى كرينج بعد أن واجه صعوبة رؤية دورثيا لأول مرة وهي مخطوبة لرجل آخر. بالطبع لقد اخترقه برق متشعب عندما قابلها لأول مرة، لكنه قدر على إخفاء اضطرابه طيلة لقائه بها، ولكن يجب القول إنه يمكن لاضطرابه أن يكون أشد لو اعتقد بأن منافسه يشكل شريكاً ممتازاً وجديراً لدورثيا، ولم يشعر وكأنه خُسف بالسيد كزابون، فهو فقط صدم عندما رأى دورثيا يسيطر عليها وهمٌ سوداوي كئيب، فتعذيبه لذاته فقد بعضاً من ألمه عندما امتزج بمشاعره وعواطفه. في أيّ حال وبينما كان يقول السير جيمس لنفسه إنه قد أقلع تماماً عن التفكير فيها - إذ على الرغم من عنادها الذي كان يشبه عناد ديدمونة، فإنّها لم تستطع أن تؤثر في الشريك المقترح الذي كان سيناسبها وفق قوانين الطبيعة - فإنه لم يستطع أن يكون إيجابيًّا تجاه فكرة زواجها من كزابون، وفي اليوم الذي رآهما سوية لأول مرة وبحسب معرفته الحالية لم يأخذ الأمر بجدية كافية. حقًّا يستحق السيد بروك اللوم إذ كان عليه أن يعرقل ذلك. من يمكنه التحدث إليه..؟ ربما يمكن فعل شيء الآن كتأخير الزواج على الأقل.

في طريق عودته إلى البيت عرج إلى بيت القس وسأل عن السيد كادولدر، ولحسن الصدفة كان القس في البيت فاقتيد الزائر إلى غرفة المكتب، حيث كانت كل أدوات صيد السمك معلقة، لكنه كان يجلس في غرفة صغيرة مجاورة يشتغل بعدته، فنادى على البارون لينضم إليه هناك.

كانا أفضل صديقين من أي مالك أرض ورجل دين في الريف، وهي حقيقةٌ مهمة ظهرت على تقاطيع وجهيهما السمحين؛ السيد كادولدر رجل ضخم ذو شفتين مليئتين ترسمان ابتسامة سمحة، ومظهر خارجي خشن وعادي، لكن تساهله السهل والمتماسك، كما أن مزاحه المؤثر والكثير كالهضاب المعشوشبة تحت ضوء الشمس، يهدئ من ثورة الغرور والأنانية، فيجعلها تخجل من نفسها.

قال مادًّا يده السمينة: «حسناً كيف حالك... عفواً افتقدتك من قبل. هل هنالك شيء خاص؟ تبدو قلقاً». ارتسمت على جبين وحاجبي السير جيمس تقطيبة كآبة أظهرها متعمداً ومبالغاً عندما قال: «إنه مجرد أمر يخص عائلة بروك. في الحقيقة أظن أنه يجب على أحد أن يتكلم معه». قال السيد كادولدر وهو يتابع ترتيب العجلات التي كانت تدور: «ماذا؟؟ أتعني ترشيحه؟ لا أظن أنه يعني ذلك، ولكن أين الضرر لو كان يحب ذلك؟ أي أحد يعارض حزب الويج لابد له من أن يكون سعيداً عندما لا يختار حزب الويج أقوى مرشح، ولن يستخدموا رأس صديقنا بروك كآلة الكبش الحربية ليهدموا الدستور».

قال السير جيمس بعد أن وضع قبعته ورمى بنفسه على كرسي وبدأ يفحص قدمه ونعل حذائه بمرارة أكبر: «لا أعني ذلك... أعني هذا الزواج، أعني تزويجه لتلك الفتاة اليافعة المتفتحة من كزابون».

«ما مشكلة كزابون؟؟ لا أرى فيه عيباً إذا ما كانت الفتاة تحبه».

«هي أصغر من أن تعرف من تحب، يجب على وصيها أن يتدخل، يجب عليه ألا يسمح لهذا الشيء أن يحصل بهذه الطريقة المتسرعة، أعتقد أن رجلاً مثلك لديه فتيات يمكنه أن ينظر إلى الأمر بطريقة مختلفة، وبقلب كقلبك... فكر في هذا جديًّا».

«أنا لا أمزح فأنا على أقصى درجة من الجدية»، قال القس مع ابتسامة مخفية مثيرة: «إنك سيئ كإلينور التي أرادت مني أن أذهب وألقي محاضرة على بروك، فذكرتها أن صديقاتها كان لديهن فكرة خاطئة عن الخطوبة التي رتبنها لنا عندما تزوجتها».

قال السير جيمس بغضب: «ولكن انظر إلى كزابون! لابد له من أن يكون في الخمسين من عمره ولا أظنه أفضل من خيال رجل، انظر إلى ساقيه».

«عجباً لأمركم أيها الشبان الوسام! تظنون أنكم تحصلون على كل شيء على طريقتكم في هذا العالم، إنكم لا تفهمون النساء، لا يعجبن بكم مقدار نصف ما تعجبون بأنفسكم، كانت إلينور تقول لأختها إنها تزوجتني لقبح مظهري، لقد كان ممتعاً ومذهلاً إذ سيطرت تماماً على حصافتها وحكمتها».

«أنت؟ كان من السهل عليك أن تستحوذ على قلب امرأة، لكن المسألة هنا ليست حول الجمال، أنا لا أحب كزابون». كانت هذه أقوى طريقة يعبر بها السير جتم عن اشمئزازه من شخصية الرجل.

قال القس ملقياً بعجلاته وواضعاً إبهاميه تحت إبطيه بانتباه شديد: «لماذا؟ ماذا تعرف عنه».

سكت السير جيمس وكعادته لم يتمكن من إعطاء أسبابه، كان مستغرباً من أن الناس لا يستطيعون فهمها دون أن يقولها، ولا سيما أنه كان دائماً يشعر ويعي ما هو معقول فقط.

قال أخيراً: «الآن يا كادولدر هل لديه أي قلب؟».

«حسناً نعم لا أعني من النوع المائع الذي تعتقد به ولكن أعني الجوهر، هو كريم مع أقربائه الفقراء. إنه يعيل العديد من النساء وينفق على تعليم أحد الشبان بكلفة عالية. يتصرف كزابون بحسه العادل، تزوجت خالته من بولندي، فكان زواجاً فاشلاً أعتقد أنها خسرت نفسها بلا مقابل، إذ تبرأ منها أهلها، ولو لم يحصل ذلك لما كان عند كزابون مال كثير كهذا، أي لكاد حصل على نصف ما يملك فقط. الآن، علمت أنه ذهب ليرى أبناء خالته، وماذا يمكن له أن يقدم لهم، ما كان لأي رجل أن يفعل ما فعله كزابون لو امتحنت معدنه، أما أنت يا جتم فكنت لتفعل ذلك ولكن ليس أي رجل آخر».

قال السير جتم وقد تلون وجهه: «لا أعرف، أنا لست متأكداً من نفسي»، سكت قليلاً ثم أضاف: «هذا ما كان صحيحاً ليفعله كزابون ولكن يمكن لرجل أن يتمنى فعل ما هو صحيح، لكنه تبين أنه ليس إلا كلمة السر لمخطوطة ورقية، لا يمكن لامرأة أن تكون سعيدة معه، وأعتقد أنها عندما تكون شابة كالآنسة بروك يجب على صديقاتها أن يتدخلن قليلاً ليمنعنها من فعلة حمقاء كهذه. أتضحك؟؟ أحس بالإساءة لأنك سعيد، أقسم بشرفي كنت لأحس بالشعور نفسه لو كنت أخاً لها أو عمها».

«حسنا، ولكن ماذا يمكنك أن تفعل؟».

«يجب أن أقول: يجب ألا يتم هذا الزواج حتى تبلغ السن القانونيّة أتمنى لو نظرت إلى الأمر كما أفعل أنا.. أتمنى لو تكلمت مع بروك حوله».

نهض السير جيمس، وكأنه أنهى جملته عندما رأى السيدة كادولدر تدخل المكتب، كانت تمسك بيدها ابنتها الصغيرة البالغة من العمر نحو خمس سنوات، فركضت إلى أبيها مسرعة وجلست على ركبته بارتياح.

قالت الزوجة: «سمعت ما كنتما تتحدثان به، لكنك لن تؤثر في همفري ما دام يسعى السمك لطعمه فكل إنسان ينبغي له أن يفعل... يا لحسن حظك.. عند كزابون جدول لسمك

الترويت ولا يأبه للصيد فيه، هل هناك من هو أفضل منه؟».

قال القس مع ضحكته المعتادة والهادئة: «حسناً يوجد شيء في ذلك، إنها لميزة جيدة جدًّا أن يكون لدى الرجل جدول لسمك الترويت».

قال السير جيمس الذي لم يتبدد غيظه بعد: «ولكن بشكل جدي؛ ألا تعتقدين أن القس يمكنه أن يفعل شيئاً لو تحدث في ذلك؟؟؟ يفعل حسناً».

أجابت السيدة كادولدر رافعة حاجبيها: «آه... قلت لك مسبقاً ما يمكنه أن يقول لقد فعلت ما في استطاعتي، لقد نفضت يدي من هذا الزواج».

«أولاً، قال القس وقد تجهم قليلاً، «سيكون ذلك نوعاً من الهراء لو توقعتما أنني أستطيع أن أقنع بروك وأجعله يتصرف بحسب ما تريدان. إن بروك رجل جيد لكنه كالعجين، فهو يتغير بحسب أي قالب، ولا يظل على شكل محدد».

قال السير جيمس: «يمكنه أن يبقى على شكل معين حتى يؤجل الزواج».

«ولكن يا عزيزي جتم، لماذا أستخدم نفوذي عكس مصلحة كزابون، إلا إذا تأكدت أن هذا يصب في مصلحة الآنسة بروك؟ لم أعرف عن كزابون أي أذى، وأنا لا آبه لغيرهما، ولكن هو أيضاً لا يأبه لعدة صيدي. أما بالنسبة إلى الخط الذي اختاره لنفسه حول القضية الكاثوليكية، فإن ذلك لم يكن متوقعاً منه، الخط كان دائماً ولا يزال كيّساً معي، ولا أرى لماذا ينبغي لي أن أفسد عليه أمنيته. فكل ما أستطيع قوله: يمكن للآنسة بروك أن تكون معه أسعد مما لو كانت مع أي رجل آخر».

«لقد نفد صبري معك يا همفري!! أنت تعلم أن من الأفضل لك أن تتعشى عند السور من أن تتناول العشاء مع كزابون لوحدكما، فلن يكون عند أحدكما شيء يقوله للآخر».

«ما علاقة هذا بزواجه من الآنسة بروك؟ إنها لا تفعل ذلك لإسعادي».

قال السير جيمس: «لا يجري دم أحمر نقي في جسده».

قالت السيدة كادولدر: «كلا لقد أخذ أحدهم نقطة منه، ووضعها تحت مجهر، فوجدها كلها فواصل منقوطة وجملاً اعتراضية».

«لماذا لا يصدر كتابه بدلاً من أن يتزوج»، قال السير جيمس باشمئزاز أخفاه خلف

شعور متين لرجل إنجليزي متحضر، «آه إنه يحلم بالهوامش، فقد أفقدوه عقله. إنهم يقولون حين كان ولداً صغيراً كتب ملخصاً لقصة أطفال خيالية: «إبهامي الصغير»، وظل يكتب ملخصات منذ ذلك الوقت. أخ... هذا هو الرجل الذي يقول عنه همفري إن امرأة يمكن لها أن تكون سعيدة معه».

قال القس: «حسناً هو من تحبه الآنسة بروك. أنا لا أتنبأ بفهم ذوق كل شابة».

قال السير جيمس: «ولكن ماذا لو كانت ابنتك».

«سيكون ذلك موضوعاً آخر، إنها ليست ابنتي، ولم يطلب مني التدخل، إن كزابون رجل حسن كمعظمنا، هو رجل دين عالم ومخلص للكنيسة، ألقى أحد الراديكاليين خطاباً في مدل مارش قال فيه إن كزابون قاطع قصب متعلم، وإن فريك هو البناء، وأنا صياد السمك، وأقسم إنني لا أرى أن أحدنا كان أحسن أو أسوأ من الآخر».

أنهى القس كلامه بابتسامة صامتة. كان دائماً يرى المزاح في السخرية منه. كان ضميره عظيماً ولطيفاً مثله، فقد فعل كل ما يمكن أن يفعله دون أي إزعاج.

من الواضح أنه لن يكون هناك تدخل بزواج الآنسة بروك من قبل السيد كادولدر، فشعر السير جيمس ببعض الحزن، لأنه سيكون لديها الحرية المطلقة باتخاذ القرار الخاطئ، إن عدم تراخيه بالاهتمام بمخططات دورثيا للبيوت الريفية كان دليلاً على حسن نواياه.

دون شك كان هذا الإصرار والتصميم أفضل دليل على نبله، لكن كبرياءنا يساعدنا فقط على أن نكون كرماء ليس أكثر مما يجعلنا الزهو حكماء. أصبحت الآن على معرفة تامة بموقف السير جيمس تجاهها فهي تثمن مثابرته على القيام بواجباته كمالك أرض، والذي دفعه إليها في بادئ الأمر كياسة المحب، واستمتاعها بها كان عظيماً وله أثر حتى في سعادتها الحالية، ربما أعطت بيوت السير جتم الريفية اهتماماً كان في استطاعتها أن تحتفظ ببعض منها للسيد كزابون أو ربما من سمفونية الأحلام المليئة بالأمل، معجبة بالثقة والتكريس العاطفي اللذين كان يتمتع بهما ذلك الرجل العالم، وكان لهما تأثير كبير على روحها بما أن ذلك حصل أثناء زيارات البارون النبيل اللاحقة. وبينما بدأ يبدي اهتماماً بسيليا وجد نفسه يتكلم باستمتاع أكثر فأكثر مع دورثيا، لقد أصبحت الآن حرة تماماً، ولا تشعر بأي نوع من الحساسية تجاهه، وبدأ يكتشف تدريجاً المتعة الموجودة في اللطف الصريح والرفقة الصريحة بين رجل وامرأة ليس عندهما مشاعر يخفيانها أو يعترفان بها.

الفصل التاسع

النبيل الأول: أرض قديمة كانت تدعى من قبل الكهنة القدماء «العطشى للقانون». كل الصراع الذي دار هناك جاء لأجل النظام والحكم العادل. أستحلفك، أين تقع مثل تلك الأراضي الآن؟؟.

النبيل الثاني: إنها تقع كما كانت في القديم... في الفطرة البشرية.

كان تصرف السيد كزابون حول الاستقرار مقنعاً جدًّا للسيد بروك، وجرت التحضيرات للزواج بيسر مقصرة أسابيع الود والمحاباة، لا بد للخطيبة من أن ترى بيت مستقبلها، وتملي أي تغييرات ترغب في إجرائها هناك. فالمرأة تملي قبل الزواج ليصبح عندها الاستعداد والرغبة للطاعة والخضوع في ما بعد. فبالتأكيد عندما نرتكب الأخطاء نحن الرجال والنساء على طريقتنا، قد نثير بعض الإعجاب ثم نصبح مغرمين بها.

في صباح يوم داكن من أيام شهر تشرين الثاني، انطلقت دورثيا بصحبة عمها وسيليا إلى لويك، كان منزل السيد كزابون وهو بيت لمن يملك المزرعة، يجاور كنيسة صغيرة، ويمكن مشاهدته من عدة أماكن من الحديقة، ويقابله بيت قديم للقس. في بداية حياته العملية كان يكسب السيد كزابون ما يكفي قوت عيشه فقط، لكن وفاة أخيه جعلته مالكاً لمزرعة، كانت في المزرعة حديقة صغيرة يتناثر فيها بعض أشجار البلوط هنا وهناك، وصفٌ من شجر الزيزفون الأخضر يمتد حتى الواجهة الجنوبية الغربية، وسياج قديم غائر في الأرض يفصل بين الحديقة والمتنزه، فالمنظر من نافذة غرفة الاستقبال يمتد دون عائق، حيث يرى المنحدر الأخضر حتى شجرالزيزفون الأخضر، لينتهي عند مزارع الذرة والمراعي، والتي غالباً ما كانت تبدو وكأنها تذوب في بحيرة وقت غروب الشمس. كان هذا الجانب الجميل المبهج من المنزل، أما بالنسبة إلى الجهة الجنوبية والشرقية فكانتا تبدوان كئيبتين حتى في صباح

مشرق، كانت الأرض هنا أكثر تحديداً، لم تعكس أحواض الزهور عناية كافية، وكانت هناك مجموعات من الأشجار الضخمة، خصوصًا أشجار الصنوبر المرتفعة جدًّا، إذ لم تكن تبعد أكثر من عشرة ياردات عن النوافذ. أمّا المنزل فقد بني من الأحجار المائلة للون الأخضر على الطراز الإنجليزي القديم، وهو ذو نوافذ ليست بشعة لكنها صغيرة وكئيبة المظهر، فمنزل كهذا تحيط به الأزهار الكثيرة والنوافذ المفتوحة ومناظر جميلة، لا بد من أن يكون فيه أطفال ليصبح منزلاً مليئاً بالفرح والسعادة.

في أواخر فصل الخريف هذا حيث تتساقط الأوراق الصفراء المتناثرة ببطء، فتتبعثر بين جوانب النباتات الدائمة الخضرة في سكون دون أشعة شمس، كان يسود المنزل أيضاً جو خريفي، ولم يظهر على السيد كزابون سرور يلقي بأثره على ذلك المشهد... يا إلهي.. قالت سيليا لنفسها: أنا متأكدة من أن فريشت هول تبدو أكثر زهواً من هذا المكان، فهي فكرت في الحجر الأبيض الأملس والرواق ذي الأعمدة والتراس المليء بالزهور، حيث يبتسم السير جيمس وهو يقف عليه وكأنه أمير يبدي سحراً فوق شجيرة من الزهور، بحيث تتحول بتلات الزهور ذات الروائح العذبة إلى ما يشبه المنديل. إنه السير جيمس الذي اعتاد مسايرة الآخرين في حديثه عن الأشياء التي يحبونها وليس عن العلم والتعليم..! كان لدى سيليا ذوق الشابة اليافعة الذي يفضله الرجال الوقورون الذين أثرت عوامل الطبيعة في زوجاتهم، ولكن لمن دواعي السرور أن نزعة السيد كزابون كانت مختلفة، وحتى لو لم تكن كذلك لما كان له حظ مع سيليا.

أما بالنسبة إلى دورثيا فهي على العكس، إذ وجدت في المنزل والأرض كل ما تتمناه: فرفوف الكتب القاتمة اللون في غرفة المكتبة الطويلة، والسجاد وكما هي الستائر التي بهت لونها مع مرور الزمن والخرائط القديمة الدقيقة الملفتة للنظر، كانت على جدران البهو وتحتها بعض الزهريات القديمة التي وضعت هنا وهناك، لم تسبب كل هذه الأشياء ضيقاً لصدرها، بل بدت لها ذات بهجة أكثر من الصورة في غرينتش التي أحضرها عمها معه من أسفاره، والتي قام بها منذ زمن بعيد، والتي كانت تشكل مادة لكتاباته في بعض الأوقات.

كان هذا التعري الكلاسيكي الصارخ وبسمات عرض النهضة الكورجستية المتكلفة يصعب على دورثيا تفسيرها، ولا سيما وهي تمعن النظر بمفاهيمها البيوريتانية التي لم يعلمها أحد كيف تربطها مع شؤون حياتها الخاصة. ولكن من الواضح أن مالكي لُويك لم يكونوا من الذين يسافرون كثيراً ولم تشكل هذه الأشياء مادة لدراسات السيد كزابون التاريخية.

جالت دورثيا في المنزل بشعور يغمرها بالسعادة فبدا كل شيء لها مقدساً ومبجلاً، فسيكون هذا بيتها الزوجي، وكانت تنظر إلى السيد كزابون بثقة عمياء كلما لفت انتباهها إلى بعض الترتيبات الخاصة، وسألها ما إذا أرادت أن تحدث بعض التغييرات. كان كل شيء يناسب ذوقها إذ تقبلته بامتنان ولم تر أي شيء يستحق التعديل.

لم تضايقها محاولاته في إبداء اللباقة والكياسة والاهتمام الرسمي بها، فملأت جميع الفجوات بالكمال الخفي مفسرة ما بدا منه كتفسيرها لأعمال كروبيدانس معزية التناقض إلى عدم سماعها التناغم والفجوات التي تركت لأسابيع الغزل كي تملأ بالإيمان... وبالحب... مع تأكيدات السعادة.

«الآن يا عزيزتي دورثيا أرجو منك أن تشيري علي بالغرفة التي ترغبين فيها كي تكون مخدعاً لك»، قال السيد كزابون موضحاً أن آراءه بطبيعة النساء تتسع لذلك الطلب.

قالت دورثيا: «إنه لطف منك أن تفكر في ذلك. لكنني أؤكد لك.. إنني أرغب في أن تستقر كل هذه الأمور، سأكون أكثر سعادة إذا ما بقي كل شيء على ما هو عليه تماماً كما كنت تستعملها لوحدك، أو كما ترغب فيها أن تكون في المستقبل، ليس لدي أي حافز لأتمنى أي شيء آخر».

قالت سيليا: «أوه... دو دو، ألن تأخذي الغرفة ذات النوافذ القوسية في الطابق العلوي؟».

اقتاد السيد كزابون الجميع إلى هذا الجانب. كانت الغرفة ذات النوافذ القوسية تطل على صف شجر الزيزفون الأخضر، وكان الأثاث كله ذا لون أزرق باهت، وكانت هناك مجموعة من الصور المعلقة للعديد من الرجال والنساء، كما علقت على قطعة من السجاد المزخرفة يظهر فيها منظر أيل شاحب اللون، كانت أرجل الطاولة والكراسي رفيعة، بحيث يمكن قلبها بسهولة، فكانت غرفة تجعل المرء يتخيل شبح امرأة عادت لتزور مكان تطريزها ونقشها، وتكمل هذا الأثاث القديم حقيبة من جلد العجل تحتوي على اثني عشر مجلداً من الأدب الرفيع.

قال السيد بروك: «نعم، ستكون هذه غرفة جميلة عندما تعلق فيها أشياء جديدة، ويجلب إليها بعض الأرائك الجديدة أيضاً وأشياء كهذه... فهي الآن شبه فارغة».

قالت دورثيا بتحرق: «كلا يا عمي، أرجوك ألا تتكلم حول تغيير أي شيء، هناك أشياء كثيرة في العالم تحتاج إلى تغيير... أحب الحصول على هذه الأشياء كما هي عليه، وأنت تحبها كما هي عليه أليس كذلك؟». أضافت وهي تنظر إلى السيد كزابون: «ربما كانت هذه غرفة أمك حين كانت في ريعان شبابها».

قال وهو يخفض رأسه ببطء: «نعم»

لقد كانت... هذه أمك»، قالت دورثيا التي استدارت لتتفحص مجموعة الصور الصغيرة، «إنها تشبه الصورة الصغيرة التي جلبتها لي، إنها فقط تحتاج إلى إطار أفضل أما هذه التي تقابلها فمن هي؟».

«أختها الكبرى لقد كانتا مثلك وأختك، الطفلتين الوحيدتين لأبويهما، اللذين صورتهما معلقة فوق صورتيهما، أترين؟».

«أختها جميلة»، قالت سيليا مفضلة إياها على أم السيد كزابون، مما أطلق هذا العنان لخيال سيليا، فرأت لأول مرة أنه يتحدر من أسرة كان جميع أفرادها شباباً في زمانهم، وأن النسوة كنّ يرتدين الأطواق.

قالت دورثيا وهي تنظر من قرب: «إنه وجه غريب، هاتان العينان الرماديتان قريبتان من بعضهما، وأنفها رقيق غير مستقيم، وشعرها ملفلف وضع عليه بعض المساحيق، ارجع إلى الخلف، تبدو لي جميع هذه الأشياء غريبة أكثر منها جميلة، إذ لا يوجد وجه شبه بينها وبين أمك».

«كلا ولا تشبه إحداهما الأخرى في مصيرها».

قالت دورثيا: «لم تذكرها لي!!».

«كان زواج خالتي غير ناجح، وأنا لم أرها قط». تعجبت دورثيا قليلاً لكنها وجدت أن من غير اللائق أن تسأل عن أيّ معلومات لم يقدمها السيد كزابون، فاستدارت إلى النافذة لتتأمل المنظر إذ بدأت أشعة الشمس تبدد العتمة قليلاً، فألقت أشجار الزيزفون الأخضر بظلالها.

قالت دورثيا: «ألا نتجول في الحديقة الآن»،

قال السيد بروك: «وأنت ترغبين في رؤية الكنيسة أليس كذلك؟ إنها كنيسة صغيرة جدًّا ومضحكة. أما القرية فهي صغيرة كذلك وتبدو وكأنها تقع ضمن قشرة حبة جوز. بالمناسبة إنها ستناسبك يا دورثيا، لأن البيوت الريفية تشبه صفاً من بيوت البر والإحسان، وهناك حدائق صغيرة تنتشر فيها أزهار المنثور، وأشياء من ذلك النوع».

قالت دورثيا وهي تنظر إلى السيد كزابون: «نعم من فضلك، أود رؤية ذلك كلّه». لم تحصل على شيء منه سوى بعض الصور للبيوت الريفية في لُويك التي لم تكن سيئة للغاية.

انطلقوا على الفور في مشية مجهدة، قادتهم بشكل رئيسي إلى ممر كثير العشب، تغطيه أشجار كثيفة إذ كان أقصر طريق إلى الكنيسة، ساد صمت وهم يقفون عند بوابة باحة الكنيسة بينما ذهب السيد كزابون إلى الأبرشية ليحضر المفاتيح، أما سيليا التي كانت تسير خلفهم بقليل، فقد وصلت إليهم عندما رأت السيد كزابون يذهب، قالت بطريقتها السهلة المتقطعة التي كانت تبعد الشك في قصدها الماكر:

«هل تعرفين يا دورثيا؟؟ إنني قد شاهدت شاباً هادئاً قد خرج من أحد الممرات».

«أهذا مدهش يا سيليا؟».

قال السيد بروك: «يحتمل أن يكون بستانيًّا شاباً أتعرفين... ولم لا؟ طلبت من كزابون أن يغير بستانيه».

قالت سيليا: «لا ليس بستانيًّا، رجل شاب بيده دفتر رسم، شعره بني فاتح أجعد، فقد رأيته من الخلف لكنه كان في ريعان شبابه».

قال السيد بروك: «ربما يكون ابن القس، آه.. ها هنا السيد كزابون، وتكر معه، سيقدم لكما تكر، إنكما لا تعرفانه حتى الآن». كان السيد تكر القس في منتصف عمره، أحد رجال الدين الثانويين الذين لا يرغبون في الأولاد، ولكن بعد التقديم لم يجرهم الحديث إلى السؤال حول عائلته، نسي الجميع صدمة ظهور الشاب المفاجئ عدا سيليا، فهي في داخلها تميل إلى اليقين أن ذلك الشاب النحيل ذا الشعر البني الفاتح المجعد، له علاقة قربى مع السيد تكر الذي بدا تماماً في عمره وذا مظهر بالٍ تماماً، كما توقعت لمساعد السيد كزابون أن يكون. إنه دون شك رجل ممتاز، سيدخل الجنة لأن سيليا تمنته ألا يكون مجرداً من الضمير والمبادئ، لكن زوايا فمه لم تكن جميلة، شعرت سيليا ببعض الكآبة وانقباض الصدر،

في ذلك الوقت كان عليها إمضاء بعض الوقت كإشبينة للعروس في لويك. ربما لم يكن لدى القس أبناء صغار جميلون يمكن لها أن تحبهم دون أن تأبه بالمبدأ. كان السيد تكر عديم الفائدة أثناء تجوالهم، وربما لم يكن السيد كزابون بلا بصيرة في هذا المجال، وكان القس يجيب عن جميع تساؤلات دورثيا حول القرويين وأبناء الأبرشية، إذ أكد لها أن الجميع كانوا جيدين في لويك. لم يكن أي من أولئك الذين يسكنون البيوت الريفية تلك بأجرة زهيدة إلا وعنده حديقة صغيرة خلف البيت يعتني بها على درجة عالية، ويحتفظ بخنزير على الأقل لأسرته، والأولاد الصغار يرتدون الملابس الجيدة، وتظهر الفتيات وكأنهن خادمات أنيقات، أو يبقين في البيت ينسجن القش، فلا يوجد آلات نسج هنا ولا مخالفة، على الرغم من أن نزعتهم تتجه نحو الحصول على المال، وليس إلى الروحانيات، ولكن لا ترتكب الرذائل هنا.

كان الدجاج المرقط كثيراً جداً هنا، إلى حدّ أن السيد بروك قد لاحظ ذلك: «يترك الفلاحون بعض الشعير للنساء ليجمعنه، أظن أن الفقراء يطبخون الدجاج كثيراً كما كان يتمنى ملك فرنسا لشعبه، الفرنسيون يأكلون الدجاج النحيف كثيراً... هل تعرف؟».

قالت دورثيا بسخط: «أظنها أمنية شحيحة منه، هل الملوك كالوحوش كي يتمنوا مثل هذه الأمنية معتبرين أنها مكرمة ملكية؟».

قالت سيليا: «وإذا تمنى لهم دجاجاً نحيفاً، فلن يكون ذلك لائقًا، إذ يجب عليه أن يتمنى لهم دجاجاً سميناً».

«نعم ولكن يبدو أن الكلمة قد سقطت من النص، أو أنها لم تسمع، فهي كانت في ذهن الملك، ولكن ربما لم ينطقها»، قال ذلك السيد كزابون مبتسماً وحانياً رأسه إلى سيليا التي رجعت إلى الخلف قليلاً، لأنها لا تحتمل رؤية السيد كزابون وهو يرفّ بعينيه. وفي طريق عودتهم إلى المنزل غرقت دورثيا في صمت، لأنها شعرت بخيبة أمل خجلت منها، فهي لم تجد شيئاً تفعله في لويك، وبعد دقائق عديدة برقت في ذهنها فكرة، كإمكانية أن يكون منزلها في الأبرشية، حيث تشارك الناس بؤسهم وتعاستهم، فيلقى على عاتقها واجبات أكثر، هكذا أعادت تصور مستقبلها مرة ثانية، فرسمت صورة كاملة لتكريسها لنفسها من أجل تحقيق أهداف السيد كزابون، والتي بموجبها تنتظر واجبات أكثر بكثير من هذه الواجبات، تتضح عندما تحصل على المعرفة الواسعة من خلال تلك الصحبة. تركهم السيد تكر ليقوم ببعض الأعمال المكتبية، إذ لا يستطيع أن يتناول الغداء معهم. وبينما كانوا يدخلون الحديقة من البوابة الصغيرة قال السيد كزابون: «تبدين حزينة قليلاً يا دورثيا. أتمنى لو

كنت سعيدة بما رأيت؟!!».

أجابت دورثيا بصراحتها المعتادة: «إنني أشعر بشيء ربما كان سخيفاً أو خطأ، أتمنى لو أن الناس يحتاجون إلى أشياء أكثر أقوم بها، لقد تعلمت طرقاً قليلة لتكون حياتي مفيدة لكل شيء، فبالطبع إن مفاهيمي للعطاء هي دون المستوى. يجب أن أتعلم طرقاً جديدة في مساعدة الناس».

قال السيد كزابون: «دون شك، لكل مكانة واجبات خاصة بها، فأنا أتمنى أن تكون مكانتك كسيدة لُويك لم تدع أي أمنية إلا وحققتها».

قالت دورثيا بجدية: «حقاً إنني أعتقد ذلك. لا تظنني حزينة».

«هذا حسن ولكن إن لم تكوني تعبة، فيمكننا أن نسلك طريقاً آخر إلى المنزل». لم تكن دورثيا متعبة إطلاقاً، انحرفوا بانعطاف شديد باتجاه شجرة الصنوبر الجميلة، التي ترمز لأعظم مجد موروث في هذا الجانب من المنزل، وعندما اقتربوا منها رأوا شخصاً وخلفه أشجار دائمة الخضرة وكان يرسم هذه الشجرة. أدار السيد بروك الذي كان يسير في المقدمة مع سيليا رأسه إلى الوراء وقال: «من ذلك الشاب يا كزابون؟». كانوا قد اقتربوا عندما أجاب السيد كزابون: «إنه شاب قريب لي، إنه حفيد خالتي». أضاف ناظراً إلى دورثيا: «خالتي جوليا التي شاهدت صورتها في الغرفة». رفع الشاب دفتره ونهض، جعل شعره المجعد الكثيف البني سيليا تميزه.

«دعيني يا دورثيا أقدم لك حفيد خالتي السيد لادسلو.. هذه الآنسة بروك». اقترب حفيد الخالة كثيراً حتى إنه عندما رفع قبعته استطاعت دورثيا أن ترى عينين رماديتين قريبتين من بعضهما، وأنفاً رقيقاً متعرجاً وشعراً ينحدر إلى الوراء، لكن فمه وحنكه بدا عليهما تعبير مخيف أكثر مما بدا على وجه جدته في الصورة الصغيرة جدًّا. لم يرد السيد لادسلو أن يبتسم وكأنه فتن بطريقة تقديم خطيبة ابن خالة أبيه وأقاربها، لكنه تظاهر بنوع من عدم الرضا والسرور.

«أرى أنك فنان؟»، قال هذا السيد بروك بعد أن أمسك بدفتر الرسم وقلبه بطريقته غير الرسمية المعتادة.

قال لادسلو الشاب وقد تلونت وجنتاه ربما لانزعاجه وليس لكياسته: «كلا إنني أرسم

القليل فقط، لا شيء يستحق المشاهدة هناك».

«آه.. ها هنا نقطة جميلة. لقد رسمت بهذه الطريقة مرة في حياتي، أتعلم... انظر هنا الآن فهذا ما أسميه شيئاً جميلاً، رسم بحرارة وحيوية». أمسك السيد بروك بصورة كبيرة وملونة رسم فيها أرضاً حجرية، وأشجاراً وبركة ماء ليريها للفتاتين فقالت دورثيا ليس ببرود بل باستنكار لما طلب منها: «لا يمكنني الحكم على هذه الأشياء، أنت تعلم يا عمي أنني لا أرى جمالاً في مثل هذه الصور التي تقول عنها إنها رائعة، فهي تمثل لغة لا أفهمها، أعتقد أن هناك علاقة بين الصور والطبيعة لا أستطيع تلمسها، تماماً كجملة بالإغريقية لا أستطيع فهمها فلا تعني لي شيئاً». نظرت دورثيا إلى السيد كزابون الذي حنى رأسه لها، بينما قال السيد بروك وهو يبتسم دون مبالاة: «يا إلهي..!! كم يختلف الناس بعضهم عن بعض، لكن عندك طريقة تعليم سيئة، هل تعلمين.. هذا يناسب الفتيات، الرسم والفنون الجميلة وغيرهما، لكنك اعتدت على رسم المخططات، فأنت لا تفهمين الفنون الجميلة وشيئًا من هذا القبيل. أتمنى أن تأتي إلى منزلي لأريك ما فعلت». ثم تابع حديثه بعد أن استدار إلى لادسلو الشاب الذي كان يجب إشغاله عن التأمل بدورثيا. لقد قرر لادسلو أن هذه الفتاة لا بد لها من أن تكون بغيضة لأنها ستتزوج من كزابون. وعندما عبرت عن غبائها وعدم فهمها للصور، أكد له ذلك وجهة نظره حتى ولو كان قد صدقها.

فهو اعتبر كلامها حكماً مقنعاً، وكان متأكداً من أنها نظرت إلى أعماله وكأنها لا ذوق فيها، كان اعتذارها ذكيًّا، كانت تضحك على عمها ونفسها في الوقت نفسه، فيا لصوتها الجميل، فهو كصوت روح عاشت في قيثارة الريح، لابد من أن يكون هذا نوعاً من أنواع عدم تناغم الطبيعة، إذ لا يمكن لفتاة أن يكون لديها أحاسيس وتتزوج من السيد كزابون.

لكن لادسلو استدار عنها ليشكر السيد بروك على دعوته بانحناءة خفيفة... «سنتفحص النحوت الإيطالية سوية»، تابع ذلك الرجل ذو الفطرة الطيبة: «عندي الكثير من تلك الأشياء التي تركتها جانباً لسنين طويلة، يصبح أحدنا خمولاً في هذا الجزء من البلاد.. كما تعرف».

«ليس أنت يا كزابون فأنت تنهمك بدراساتك، لكن أفكاري تنحدر لتصبح عديمة الجدوى.. هل تعلم؟ يجب عليكم أيها الشبان أن تحصنوا أنفسكم من الكسل. لقد كنت خمولًا جدًّا.. هل تعلم؟ وإلا لكنت في مكان آخر».

قال السيد كزابون: «هذا نصح مناسب، ولكن الآن سندخل المنزل، فربما تعبت

الفتاتان من الوقوف».

حالما أداروا ظهورهم تابع لادسلو رسمه وعندما فعل ذلك تغيرت تعابير وجهه لتبدو أكثر سروراً، ثم ازداد هذا السرور كلما تابع رسمه، حتى رفع رأسه مطلقاً ضحكة عالية، دفعه إليها تلقيهم لإنتاجه الفني، وفكرة حب ابن خالة أبيه الكئيب لتلك الفتاة، وكذلك تعريف السيد بروك للمكان الذي كان يمكن أن يكون فيه لولا كسله. جاء إحساس السيد ويل لادسلو بالضحك موافقاً لما بدا عليه من تعابير وجهه، فقد كانت تعبيراً عن استمتاعه بالهزل، ولم تمتزج بابتسامة، أو نظرة ساخِرة، أو بتمجيد لذاته.

قال السيد بروك وهم يتابعون السير: «ماذا سيفعل ابن أختك بنفسه يا كزابون؟؟».

«تعني حفيد خالتي، وليس ابن أختي».

«نعم... نعم... ابن خالتك في مهنته..هل تعلم؟».

«الجواب عن هذا السؤال تشوبه الشكوك المؤلمة، عندما غادر رجبي رفض أن يذهب إلى جامعة إنجليزية حيث تمنيت أن أضعه فيها، لكنه اختار دراسة ما أعتبره غريباً في هايدلبيرغ، والآن يريد السفر إلى الخارج ثانية دون أي هدف محدد، إذا ما استثنينا الهدف الغامض الذي يدعوه ثقافة، يمكنه اكتشاف ما لا يعرفه هو يرفض اختيار مهنة.. أيّ مهنة».

«أظن أن لا مال لديه إلا ما تقدمه له».

«شرحت له ولأصدقائه مراراً، أنني سأقدم له ما يكفي لتعليمه، فيصبح عالماً ومحترماً، لذلك أنا ملتزم بالإيفاء بتعهداتي». قال ذلك السيد كزابون بتصرف ينسجم مع استقامته كسمة لكياسة لاحظتها دورثيا بإعجاب. «إنه متعطش للسفر، ربما يتحول... بروس أو منجوبارك»، قال السيد بروك، «كانت عندي تلك الرغبة في يوم من الأيام».

«كلا... ليس لديه رغبة في الاستكشاف، ولا الاستفاضة في علوم الطبيعة، فيمكن أن يكون هدفاً مميزاً أتقبله باستحسان ولكن دون تهنئة على مثل هذا العمل الذي غالباً ما ينتهي بوفاة مبكرة ومأسويّة. لكنه بعيد جدًّا عن أيّ رغبة لمعرفة دقيقة لسطح الأرض، حيث يقول إنه لا يفضل معرفة منابع نهر النيل، لكنه يعتقد أن هناك بعض الأقاليم التي لم تكتشف تشكل أرضية خصبة لخيال الشعراء».

قال السيد بروك الذي كان بالتأكيد يتمتع بفكر موضوعي وواقعي: «حسناً لابد وأن يكون شيء وراء ذلك»..

«أخشى أن يكون مرد ذلك فقط لعدم دقته، ونفوره من الإلمام بالأشياء كلها، والتي يمكن أن تكون نذير شؤم له في كل حرف، دنيوية أو دينية حتى عندما لا يختار إحداها».

قالت دورثيا التي كانت تستمتع بالبحث عن شرح مناسب: «ربما وجد عنده تردداً وحيرة، لأن القانون والطب هما مهنتان جادتان. أليس كذلك؟ فحياة الناس ومصائرهم تعتمد عليهما».

«دون شك، ولكنني أخشى أن قريبي الشاب السيد ويل لادسلو حازم تماماً بنفوره من هذه المهن من خلال كرهه للعمل الجاد المستمر، ولذلك النوع من الاكتساب الذي يشكل أداةً يحتاج إليها، ولكن لا سحر فيها ولا جاذبية تدعوك للانغماس في نوع من الذوق الذاتي. لقد أكدت له ما قاله «أرسطو» بإيجاز عجيب: كل نهاية عمل لك تم إنجازه، سبقها جهد كبير، أو تطلب تسهيلات جانبية، أو ثانوية وصبر. لقد أشرت إلى مخطوطاتي التي تجسد صبر سني التحضير للعمل دون أن تنجز حتى الآن. أجاب عن التفكير الحذق مسمياً نفسه ابن الإله بيجاسوس وسمى كل شكل من أشكال العمل بسرج ورباط الفرس». ضحكت سيليا، فقد فوجئت حين وجدت السيد كزابون يقول شيئاً فيه متعة.

قال السيد بروك: «حسناً... هل تعلم يمكنه أن ينتهي به الأمر بأن يكون بايرون أو جاترتون أو تشرشل أو شيئاً كهذا لا يمكنك أن تحدد. هل ستتركه يذهب إلى إيطاليا، أو إلى أي مكان آخر يود الذهاب إليه؟».

«نعم... وافقت على أن أدعمه ماليًّا سنة أو سنتين، فهو لم يطلب أكثر من ذلك، سأدعه يجرب امتحان الحرية».

قالت دورثيا وهي تنظر إلى السيد كزابون ببهجة: «ذلك لطف منك. إن ذلك لنوع من النبل، في النهاية لا بد للناس من أن يكون في داخلهم موهبة دفينة لا يعونها، ألا يمكنك ذلك؟ يمكن أن يبدوا كسالى وضعفاء لأنهم في مرحلة النمو، أظن أنه يجب علينا أن نصبر مع بعضنا بعضاً».

قالت سيليا حالما انفردت مع دورثيا وهما تخلعان معطفيهما: «لأنك مخطوبة،

وستتزوجين فهذا جعلك تعتبرين الصبر جميلاً».

«هل تعنين أنني غير صبورة ياسيليا؟».

«نعم، عندما لا يقول ولا يفعل الناس ما تحبين». هكذا تحدثت سيليا بفخامة أقل منذ خطوبة دورثيا إذ بدا لها الذكاء أكثر تفاهة من أي وقت آخر.

الفصل العاشر

أصابه برد شديد... لو لم يكن لديه ثياب يرتديها سوى جلد دب لم يقتل بعد.

فولر

لم يؤد لادسلو الشاب الزيارة التي دعاه إليها السيد بروك. وبعد ستة أيام فقط، ذكر السيد كزابون أن قريبه قد بدأ جولة في القارة، متجنبًا السؤال بإبدائه غموضاً بارداً. لقد رفض ويِّل حقًّا أي وجهة له سوى توجهه إلى أوروبا بأكملها. إذ كان يؤمن أن العبقرية لا تحتمل القيود، فمن جهة لابد من أن يكون لها الدور الأقصى في التلقائية والعفوية، ومن جهة أخرى يمكن لها أن تنتظر تلك الرسائل القادمة من العالم والتي تدعوها للقيام بعملها الغريب لتضع نفسها في مناخ التفتح الحسي تجاه جميع الفرص السامية، فمناخات التفتح الحسي متعددة.

وقد جرب ويِّل الكثير منها. لم يكن مولعاً كثيراً بشرب الخمر، ولكن في مناسبات عديدة تناول منها لمجرد التجربة من أجل النشوة. لقد صام حتى وهن، ثم تعشى الكركند البحري، كذلك سبب لنفسه المرض عندما تناول جرعات من الأفيون. لم ينجم عن هذه التصرفات الشيء الكثير وقد أقنعه تأثير الأفيون بأنه لا يوجد أي تشابه بينه وبين ديكونسي. فترامي الظروف الإضافية التي تطور العبقري لم تأت بعد، ولم يطلبها العالم بعد. حتى إن حظ قيصر كان ذات مرة نذير شؤم كبير.

إننا نعلم أن كل التطورات تأخذ شكلاً خفيًّا وأن الأمور المؤثرة تقع على الأجنة الضعيفة. حقًّا إن العالم لمليء بالأشياء المتشابهة وبالبيوض الجميلة، والمشكوك فيها وتدعي ما هو ممكن. لقد شاهد ويِّل بوضوح مراحل الاحتضان الطويلة كافة والمثيرة للشفقة، دون أن يخرج منها أي مولود. ولو لم يكن ممتنًّا لكزابون لسخر منه ضاحكاً. فانكبابه الكادح، وصفوف كتبه وشمعته الصغيرة التي يستكشف بها آثار العالم المتقاذفة المترامية، فرض كل

هذا سلوكاً أخلاقيًّا مشجعاً على اتكال وبْل السخي نحو مقاصد العالم تجاهه، إذ تمسك بذلك الاتكال ليكون دليلاً على عبقريته. لا بشكل قوة الفعل والتصميم، ولكن بشكل خاص. فليقم بجولته في القارة دون أن نخبركم بمستقبله، لا مسوغ للتنبؤ بين أشكال الأخطاء المتعددة. ولكن في الوقت الحاضر، إن هذا الحذر من الحكم المتسرع جدًّا ليعني أكثر بالنسبة إلى السيد كزابون منه إلى حفيد خالته. أمّا بالنسبة إلى دورثيا، فقد كان مجرد فرصة أوقدت فيها ما لا يمكن اشتعاله لتضيء به خيال شبابها، وهل يتبع ذلك حضوره في عقول أولئك الذين عواطفهم أقل اتقاداً، والذين أطلقوا أحكامهم عليه حتى اليوم؟ أنا أحتج على أي استنتاج مطلق، وعلى أي رأي يستنبط من احتقار السيدة كادولدر لرجل دين يدعي عظمة روحه، وأيّ وجهة نظر ضعيفة للسير جتم في ساقي منافسه، ومن فشل السيد بروك في استنباط آراء رفيقه، ومن نقد سيليا للمظهر الشخصي لعالم في منتصف عمره. لست متأكدة، إذا وجدت العزلة المفرطة يوماً على الإطلاق، إذا ما كان أعظم رجل في عصره استطاع أن يتجنب انعكاس صورته التي لا يرغب رؤيتها في أذهان الآخرين، فحتى ميلتون عندما بحث عن انعكاس صورته في ملعقته، كان عليه أن يسلم برؤيته لوجه مرتبك، وفضلًا عن ذلك إذا كان السيد كزابون - وهو يتكلم عن نفسه أنه يملك فن الخطابة - حذقاً، فعندها لن يكون من المؤكد أنه قادر على العمل الجيد أو الإحساس بشعور نبيل... ألم يكتب فيزيائي قديم أو مترجم للغة الهيروغليفية أشعاراً معينة؟

هل تطورت نظرية النظام الشمسي بالأساليب النبيلة وبراعة الحوار؟ افترض لو تحولنا باهتمام أكبر من الوصف الخارجي لرجل ما متسائلين عن إدراكه، أو مقدرته لما يفعل، وما هي العقبات التي يواجهها في حياته اليومية، وما يطفئ آماله، أو ما يعمق الوهم الذاتي الذي تصنعه السنون في داخله، وبأي روح يصارع بها الضغوط الخارجية التي ستثقله يوماً ما فتوقف قلبه. لاشك في أن قدره مهم بالنسبة إليه. السبب الرئيسي ليكون له مكانة عندنا هو سعيه لكي تكون له مكانته الكبيرة لدينا. وبما أننا نعزوه بثقة مطلقة إلى اعتبار مقدس، فهو لا يقدم لنا السمو والرفعة فحسب، بل لمن حولنا أيضاً منتظراً منا الكثير مهما قدمنا من قليل. لقد كان السيد كزابون أيضاً مركزاً لعالمه الخاص، كان يعتقد أنه حين يفكر أن الآخرين محظوظون بالعناية الإلهية، وبسببه يعتبرهم بحسب ملاءمتهم لكتاب: «مفتاح علم الأساطير». هذه السمة ليست غريبة عنا وتستدعي عطفنا كما تفعل الآمال الكاذبة في المخلوقات البشرية. بالتأكيد إن زواجه هذا من الآنسة بروك أثر فيه أكثر مما أثر في أي شخص آخر أبدى عدم موافقته على هذا الزواج. فيا للسيد كزابون المسكين، إذ تخيل أن

عزوبيته الطويلة المكرسة للدراسة قد أورثته مخزوناً من الفوائد المتراكمة من المتعة، وأن تيار عواطفه لم يجف، لأننا جميعاً متفائلون أم متشائمون، تتشابك أفكارنا، فتظهر على شكل استعارات مجازية، فتتصرف بموجب قوتها بطريقة لا تقاوم، والآن... يعيش في خطر وقوعه في الحزن، سببه إيمانه الراسخ بأن ظروفه لم تجلب له السعادة.

لم يكن يعزى إلى أيّ مؤثر خارجي إحساس التشاؤم الذي سيطر عليه تماماً عندما تحتم على سعادته المتوقعة أن تكون متقدة، وتماماً عندما استبدل الملل المعتاد في مكتبته في لُويك بزياراته إلى كرينج. فقد كانت تجربة متعبة حكمت عليه بالوحدة واليأس، اللذين كانا في بعض الأوقات يهددانه أثناء عمله المجهد في مستنقع التأليف دون أن يبدو له أن الهدف يقترب، فوحدته كانت أسوأ أنواع الوحدة، حين تبتعد عن العطف. تمنى ألّا تعتبره دورثيا أقل سعادة مما يتوقع العالم لها زوجاً ناجحاً، أمّا بالنسبة إلى تأليف الكتب، فقد اعتمد على تبجيلها وثقتها الشابة به. أحب أن يجتذب اهتمامها اليافع بالسماع كوسيلة تشجيع لها. وفي حديثه لها عرض كل منجزاته وما ينوي إنجازه بثقة كثقة المعلم، وحرر نفسه في الوقت الحاضر من الحضور المثالي البارد الذي شغل ساعات العمل الشاقة الخالية من الإبداع في ظلّ ضغط ظلال العالم السفلي للأسطورة الإغريقية.

أما بالنسبة إلى دورثيا، فبعد صندوق الدنيا الذي كان يحكي تاريخ العالم ثم عُدل ليناسب الشابات - ولقد أدّى دوراً أساسيًّا في تعليمها. جاءت كلمات السيد كزابون في وصفه كتابه العظيم مليئة بالصور الذهنية... وهذا الحس بالوحي والإلهام لهو تقديم مدهش للرواقيين والإسكندرنيين، كأناس لديهم أفكار مطابقة لأفكارها، وقد حفظت جانباً حتى يأتي وقت تتعطش هي فيه لنظرية ربط يمكن لها أن تربط بها حياتها وعقيدتها بذلك الماضي المدهش، فتعطي من أعمق مصدر معرفة برهاناً لبعض أفعالها على أن تحصل في ما بعد على تعليم كامل. سيخبرها السيد كزابون كل ذلك إذا كانت تتطلع لاكتساب في ما وأعمق الأفكار، كما كانت تترقب الزواج فتمتزج أفكارها الغامضة حول الموضوعين. سيكون من الخطأ الفادح لو اعتقدنا أن دورثيا تهتم بمشاركة السيد كزابون في العلم لمجرد الإنجاز؛ فقد اعترف جميع الجيران في فريشت وتبتن بذكائها، وما كان لهذا اللقب أن يصفها بهذه الهالة لو كان ذكاؤها يوظف فقط لاكتساب العمل والمعرفة. فكل شغفها لاكتساب المعرفة يكمن في هذا الحافز التعاطفي الذي أعطى أفكارها ونزواتها فوزاً ساحقاً. لم تشأ أن ترتدي لباس المعرفة فيأتي فضفاضاً، فهي تهدف إلى تغذية أفعالها من العمق؛ فلو كتبت كتاباً لجاء على نحو

ما كتبت القديسة تيريزا تحت سلطة وتحكم ضميرها الحي، لكن توقها إليه يمكنه أن يملأ حياتها بالعمل فوراً باندفاع وتحمس، وبما أنها تمضي وقتها بالأفكار الاستدلالية، والرشاد الروحي والصلاة، التي تزيد من توقها واشتياقها دون أن تتحكم بها، فأي ضوء يرتقب سوى المعرفة؟ بالتأكيد احتفظ الرجال المتعلمون بزيت المصباح، فمن تعلم أكثر مما تعلمه السيد كزابون؟ هكذا خلال هذه الأسابيع القصيرة لم تقطع على دورثيا سلسلة أحلامها المبهجة والمفرحة، ولمّا كان حبيبها أحياناً يلاحظ منها صراحة، لم يكن يعزو ذلك إلى عدم اهتمام وحنان منها كمناخ الفصل اللطيف الذي شجعهما ليطيل رحلة زواجهما لتصل روما، فالسيد كزابون تواق لذلك لأنه كان يتمنى أن يتفحص بعض المخطوطات في الفاتيكان.

«مازلت آسف لعدم مرافقة أختك لنا». قال ذات صباح بعد أن تأكد رفض سيليا الذهاب معهم، وكانت دورثيا لا ترغب في مرافقتها لهما: «ستمضين وقتاً طويلاً لوحدك يا دورثيا، لأنني سأكون مجبراً على الاستفادة من معظم وقتي في روما، وكنت سأشعر بحرية أكبر لو كان معك مرافق». كانت كلماته «سأشعر بحرية أكبر»، قد أزعجت دورثيا، وهذه أول مرة يحمر وجهها بسبب الانزعاج عندما تتحدث إلى السيد كزابون: «لا بد من أنك أسأت فهمي جدًّا»، قالت: «إذا كنت تظن أنني يجب ألا آخذ من وقتك الثمين... إذا كنت تظن أنه يجب علي أن أقلع عن التدخل في شأن وقتك الثمين لتحقيق أسمى الأهداف».

قال السيد كزابون دون أن يلاحظ أن مشاعرها قد جرحت: «ذلك لطف شديد منك يا عزيزتي دورثيا ولكن لو كان معك مرافقة لتركتكما معًا برعاية الدليل السياحي، وهكذا يمكننا أن نحقق هدفين في آن».

«أرجوك ألّا تعود إلى هذا ثانية»، قالت ذلك دورثيا بغرور، لكنها خشيت على الفور أن تكون على خطأ، فاستدارت إليه ووضعت يدها على يده مضيفة بنظرة مختلفة:

«أرجوك ألّا تقلق عليَّ، سيكون عندي الكثير، إن تنترب مرافقة كافية لي، فهي ستهتم بي. فقط لا أحتمل أن تكون سيليا معي، فهي ستكون تعسة».

حان وقت ارتداء الملابس، سيكون في ذلك اليوم حفلة عشاء آخر في كرينج كتهيئة تامة للزواج، وكانت دورثيا مسرورة لأنها ستذهب لتلبس عندما يقرع جرس الساعة، وكأنها في حاجة إلى تحضيرات أكثر من تلك التي كانت تحتاج إليها كل مرة. كانت خجلة لانزعاجها من شيء لم تستطع تعريفه حتى لنفسها، فعلى الرغم من أنه لم يكن لديها نية للكذب، فإن

جوابها لم يعبر عن جرحها. وعلى الرغم من أن كلمات السيد كزابون كانت منطقية، فإنها تسببت بانبعاث شعور ملتبس بالعزلة.

قالت لنفسها: «بالتأكيد إنني أمر بحالة ضعف ذهني فيها كثير من الأنانية الغريبة، كيف يمكن أن يكون لي زوج أرفع مني مستوى، دون أن يدرك أنه يحتاج إليّ أقل ممّا أحتاجه».

بما أنها أقنعت نفسها بأن السيد كزابون كان على صواب، استعادت توازنها وكانت في هيئة وقورة وهادئة عندما دخلت غرفة الضيوف وهي ترتدي ثوبها الفضي، وقد أخذت بخصلات شعرها البني الداكن المتدلية من فوق جبينها إلى الوراء لتلفها مجتمعة فوق رأسها، بحيث لا يتماشى مع أسلوبها وسلوكها. في بعض الأوقات عندما تكون برفقة أحد، كانت تحل الطمأنينة عليها، فتبدو وكأنها صورة القديسة باربرة وهي تطل من برجها إلى الهواء الطلق، لكن هذا الهدوء المتعاقب مع قدرتها على الكلام، أعطى مشاعرها تميزاً أكثر، ولا سيما عندما يؤثر بها مؤثر خارجي.

لقد كانت بشكل طبيعي موضوع حديث الكثيرين في ذلك المساء، لأن حفلة العشاء كانت كبيرة ومتنوعة الأطعمة - خصوصًا بالنسبة إلى الرجال - أكثر من أي حفلة أقيمت في كرينج منذ أن التحقت الفتاتان بعمهما السيد بروك، كانت الحوارات تدور بين كل شخصين أو ثلاثة أشخاص دون انسجام، كان في الحفلة عمدة مدل مارش المنتخب حديثاً، وهو في الوقت عينه مالك مصنع، كما كان هناك زوج أخته الخيّر مالك المصرف، وقد ذاع صيته في البلدة، إذ كان بعضهم يدعونه مصلحاً دينيًّا، وآخرون يدعونه بالمنافق، ذلك بحسب مصادر مفرداتهم، كما كان هناك العديد من المهنيين.

قالت السيدة كادولدر: إن السيد بروك بدأ يدعو أهالي مدل مارش إلى الولائم، وهي تفضل أن ترى الفلاحين الذين شربوا نخبها ببساطة على موائد ضريبة العشر، وهم لا يشعرون بالخجل من أثاث أجدادهم في ذلك الجزء من البلاد. وقبل أن يتم الإصلاح في تطوير الوعي السياسي، كان هناك تمييز طبقي أكثر وضوحاً، وأكثر غموضاً بين الأحزاب، حتى إن دعوات السيد بروك المتنوعة كان يغلب عليها الطابع المرن الذي أتى كمحصلة من سفره الكثير، وتأثره الشديد بأفكار الآخرين.

بينما كانت الآنسة بروك تخرج من غرفة الطعام، سنحت الفرصة لإطلاق بعض عبارات الإعجاب: «إنها امرأة رائعة الآنسة بروك، إنها، أقسم بالله، امرأة رائعة»، قال هذا

السيد ستانديش المحامي العجوز، الذي اهتم طويلاً بمالكي الأراضي من الطبقة العليا، حتى أصبح هو نفسه مالكاً للأرض، وتفوه بذلك القَسَم بملء فيه، وبنبرة تعبر عن نبل يتمتع به رجل يحتل مكانة عالية في المجتمع، بدا وكأن الكلام قد وجه لمالك البنك السيد بولسترود. لكنه لم يستحسن الفظاظة فحيّاه فقط بانحناءة بسيطة. ثم تابع التعليق جيجلي العازب وهو في منتصف عمره ويسعى إلى الشهرة، وكانت تعابير وجهه كبيضة عيد الفصح، وشعره الخفيف قد صفف بعناية فائقة، وكان ذا مظهر متميز.

«نعم، لكنها ليست المرأة التي تناسب ذوقي، أحب المرأة التي تظهر مفاتنها أكثر لتمتعنا، فيجب أن يكون مظهر المرأة جذاباً فيه بعض الغنج، فالرجل يحب مثل هذا النوع من التحدي، فكلما شاكستك أكثر، أحببتها أكثر».

قال السيد ستانديش مظهراً الود: «يوجد بعض الحقيقة في ذلك، وبالله إنها طريقتهم المعتادة، أظن ذلك يفسر بعض النهايات الحكيمة، فالحيطة تجعلهن يظهرن هكذا، أليس ذلك يا بولسترود؟».

قال السيد بولسترود: «لا بد لي من أن أعزو الغنج إلى مصدر آخر... لابد لي من أن أعزوه إلى الشيطان».

«نعم، تأكد ولا بد من أن يكون شيطاناً صغيراً في كل امرأة». قال السيد جيجلي الذي بدت دراسته حول الجنس اللطيف ضارّة لفكره ولطريقة تفكيره: «أحبهن شقراوات ولديهن مشية خاصة بهن، ورقابهن طويلة كالإوز. ففي سركم، إن ابنة العمدة أقرب إلى ذوقي من الآنسة بروك وأختها سيليا، فلو كنت أنوي الزواج لاخترت الآنسة فنسي قبل أن أختار إحداهما».

قال السيد ستانديش: «حسناً قرر... قرر. إنك تنظر إلى رجال في بدايات منتصف أعمارهم».

«في البدايات فقط؟؟؟»، هز السيد جيجلي رأسه معبراً. لم يعارض بالتأكيد على أن المرأة التي اختارها ستقبل به، الآنسة فنسي التي نالت شرف إعجاب السيد جيجلي، بالطبع لم تكن حاضرة، فالسيد بروك الذي كان يعارض الحرية الزائدة للفتيات، ما كان يقبل لابنتي أخيه أن تقابلا أو تجتمعا بابنة مالك المصنع في مدل مارش، ما لم يكن ذلك اللقاء ضمن مناسبة عامة تظهر فيها كلٌّ من السيدة كادولدر والليدي جتم.

بالنسبة إلى السيدة رنفرو أرملة الكولونيل، فإنها لم تكن جيدة في أمور الحمل والولادة، لكنها كانت ذات غرابة في شكواها التي حيرت الأطباء، فغدت حالة تتطلب بموجبها المعرفة الاختصاصية. أما الليدي جتم التي عزت صحتها الجيدة إلى الأنواع الجيدة من شراب الأعشاب المصنعة منزليًّا والمتلازمة مع الإشراف الطبي المستمر، فقد بدأت تتخيل أعراض السيدة رنفرو وكذلك الأدوية المقوية التي كانت تتناولها: «أين يمكن لكل مفعول المقويات أن يذهب يا عزيزتي؟»، قالت الأرملة النبيلة وهي تستدير إلى السيدة كادولدر، عندما جذب انتباه السيدة رنفرو إلى جانب آخر، «إنها تقوي المرض»، قالت زوجة القس، «كثير من الناس ولدوا بصحة جيدة ولا يرغبون في الدواء».

«كل شيء يعتمد على نظام الجسم، فبعض الناس يحولون غذاءهم إلى سمنة وبعضهم يحولونه إلى دم وآخرون يحولونه إلى مادة صفراء. هذا رأيي في المسألة، فكل ما يتناوله الناس يعود بالفائدة عليهم».

«إذاً يجب أن نتناول الدواء الذي يخفف المرض. هل تعلمين أنك على صواب يا عزيزتي؟. وأظن أن ما تقولينه هو معقول».

«بالتأكيد إنه منطقي، لديك نوعان من البطاطا يتغذيان من تربة واحدة إلا أن أحدهما ينمو أكثر».

«آه..! مثل السيدة رنفرو.. هذه المسكينة، إنه مرض داء الاستسقاء... حتى الآن لا يوجد انتفاخ ظاهر، إنه في الداخل، لا بد لي من أن أقول: يجب عليها أن تتناول أدوية مجففة، أو حمام هواء جاف.. يجب أن تجرب أشياء عديدة تقوم على التجفيف».

«فلتجرب كراريس ذاك الشخص»، قالت هذا السيدة كادولدر بصوت منخفض، عندما رأت الرجال يدخلون. «لايحتاج إلى التجفيف».

سارعت الليدي جتم المرأة الفاتنة بالقول كي لا تبطل متعة الشرح: «من هو يا عزيزتي؟؟».

«العريس كزابون، فهو أصبح يجف بشكل أسرع من بعد الخطبة، إنها المشاعر المشتعلة على ما أعتقد».

قالت الليدي جتم بصوت أكثر انخفاضاً: «أظنه بعيداً من بنية الجسم القوية».

«وكذلك دراساته فهي جافة جدًّا كما قلت».

«حقًّا إذا ما قورن بالسير جتم إنه كملك الموت وقد تزين لهذه المناسبة، تذكري كلماتي بعد سنة من الآن، الفتاة ستكرهه... تعتبره حكيماً الآن، ولكن بعد مرور الوقت ستعتبره عكس ذلك تماماً، وسيزول ذلك كلّه».

«كم يصدمني ذلك...!! إنها عنيدة جدًّا، ولكن أخبريني، فإنك تعرفين كل شيء عنه، هل هناك شيء سيئ جدًّا؟! ما هي الحقيقة...؟؟؟».

«هو سيئ... كالدواء الخطأ، رديء الطعم، ويُرفض بالتأكيد».

قالت الليدي جتم، وقد فهمت شيئاً جديداً عن السيد كزابون من خلال فهمها للدواء: «لاشيء أسوأ من ذلك».

«في أيّ حال، إن جيمس لن يعرف شيئاً عن الآنسة بروك، قال: إنها لا تزال مرآة للنساء».

«هذا ظن كريم منه، فبالاعتماد عليه يمكن أن يحب سيليا الصغيرة أكثر، وهي تقدره، أتمنى أن تحبي سيليا الصغيرة».

«بالتأكيد!! فهي مغرمة بالقرنفل الأحمر، وتبدو طيعة أكثر، إلا أن قوامها ليس بالجميل جدًّا، لكننا كنا نتحدث حول الدواء، أخبريني عن الطبيب الجراح الجديد الشاب السيد ليدجيت. قيل لي إنه على درجة فائقة من الذكاء، يبدو عليه ذلك بالتأكيد، فجبهته جميلة في الحقيقة».

«إنه رجل نبيل، سمعته يتحدث مع هممفري».

«نعم، يقول السيد بروك إنه من عائلة ليدجيت الذين يعيشون في نورث ثمبرلاند. فهو ينتسب إليها، ولا يتوقع هذا الذكاء لطبيب متمرن كهذا، بالنسبة إليّ فأنا أحب الأطباء عندما تكون منزلتهم كمنزلة الخدم، فهم غالباً ما يكونون أذكياء، أؤكد لك لم تكن محاكمة هيك المسكين فاشلة، لقد عرفت أنه ليس على خطأ، كان فظًّا ويبدو كالجزارين، لكنه كان يعرف بنية جسمي، كان خسارة بالنسبة إليّ: أي غيابه المفاجئ... عجباً كم هو حديث مفعم بالحيوية بين الآنسة بروك والسيد ليدجيت؟؟».

«إنها تتحدث عن البيوت الريفية والمشافي»، قالت السيدة كادولدر التي كان سمعها وبديهتها سريعين جدًّا... «أظنه إنسانياً وكثير الإحسان، لذلك بروك يتبناه بالتأكيد».

قالت الليدي جتم عندما اقترب ابنها: «جيمس... اجلب السيد ليدجيت وقدمه إليّ، فإنني أريد أن أفحصه».

ابتهجت الأرملة الدمثة بفرصة التعرف بالسيد ليدجيت، ولا سيما أنها سمعت بنجاحاته التي حققها في معالجة الحمى بطريقته الجديدة.

كان للسيد ليدجيت شكل الطبيب، فهو يبدو عليه مظهر الجدية البالغة مهما قيل له من الثرثرة، ومنحته عيناه الثاقبتان الداكنتان قوة التأثير كمستمع، كان بسيطاً كهيكس المحزن، وخصوصًا في زينته اللا مبالية وكذلك حديثه.

ومع هذا كلّه، فقد وثقت الليدي جتم به كثيراً. لقد أكد لها وجهة نظرها ببنية جسمها وبخصوصيته، إنني ممتنة جدًّا لاعترافه أن بنية جميع الأجسام لها خصوصية. ولم ينف أن بنيتها يمكن أن تكون ذات خصوصية أكثر من غيرها. ولم يقر نظام التخفيف بالحجامة غير المنتظمة، ولا بالخمر البرتغاليّة ولا بلحاء الشجر، بل قال: أظن ذلك... وكان بين مستنكر ومؤيد. فقد شكلت فكرة عن مواهبه من خلال نبرة صوته.

قالت للسيد بروك قبل أن تغادره: «إنني ممتنة من نظام حمايتك».

قال السيد بروك: «حمايتي لمن؟؟».

«هذا السيد الشاب ليدجيت الطبيب الجديد. فقد بدا لي يفهم مهنته بشكل عجيب».

«آه... ليدجيت... إنه ليس في حمايتي، أنت تعلمين... عرفت عمّاً له، كان قد أرسل رسالة يوصيني به، أعتقد أنه من الصنف الأول الذي درس في باريس، وعرف براوسيس ولديه أفكار، هل تعلمين... هو يريد أن يرفع من شأن المهنة».

تابع السيد بروك: «لدى ليدجيت علم كثير وحديث جداً، وشيء كهذا». بعد ذلك ودع الليدي جتم، ثم عاد لينضم إلى مجموعة من أهالي مدل مارش.

قال السيد ستانديش: «تمهل... هل يبدو منطقيًّا الانتقال من العلاج القديم الذي جعل الرجال الإنجليز في الحال الذي هم عليها الآن».

«الثقافة الطبية عندنا في حالة انحسار». هكذا قال السيد بولسترود... الذي تكلم بصوت خافت لأنه كان معتل الصحة. «بالنسبة إليّ، إنني أحيي السيد ليدجيت وأتمنى أن يوضع المشفى الجديد بإدارته».

أجاب السيد ستانديش الذي لم يكن يجيب السيد بولسترود: «ذلك جيد جدًّا».

«إذا أردت أن يجري بعض التجارب الجديدة على بعض مرضاك في المشفى الجديد، فيقتل قليلاً من الناس لأجل فعل الخير، فأنا لا أعارض ذلك، لكنني لن أخرج نقوداً من محفظتي لتجرى التجارب علي، أحب العلاج المجرب».

«حسناً يا ستانديش.. إنك تعلم، كل مرة تتناول الدواء فيها تجربة كما تعلم»... قال السيد بروك موجهاً نظره إلى المحامي.

«إذا كنت تقصد هذا المعنى»، قال السيد ستانديش مشمئزاً من هذا الحديث غير القانوني، وبدا كرجل يمكنه أن يخدع زبونه الغني.

«سأكون فرحاً لتلقي العلاج الذي يشفيني دون أن يحولني إلى هيكل عظمي فأصبح كفقراء كرينج». قال السيد فنسي العمدة، وهو رجل منمق، يمكن استخدام جسمه السمين لإجراء بعض الفحوصات إذا ما قورن بالسيد بولسترود الفرنسيسكاني الشاحب الوجه.

«إنه أمر خطير أن يترك المرء دون بطانة تقيه من أسهم المرض، كما قال أحدهم، وأظنه تعبيراً جيداً».

بالطبع... لم يكن السيد ليدجيت يسمع، فقد ترك الحفلة مبكراً، واعتبرها متعبة، عدا التعرف إلى بعض الآخرين، خصوصًا التعرف إلى الآنسة بروك، التي زادها توردها الشاب، وزواجها القريب من ذلك العالم الشاحب، واهتمامها بالقضايا الاجتماعية، فتوناً وبهاء.

«إن تلك الفتاة اللطيفة مخلوق جميل، لكنها جدية أكثر مما ينبغي. أعتقد ذلك».

«إن من المزعج التحدث إلى مثل هؤلاء النساء، فهن دائماً يسألن عن الأسباب، على الرغم من أنهن جاهلات لدرجة. أنهن لا يفهمن فوائد الأسئلة، وغالباً ما يعتمدن على حسهن الفطري لحل المشاكل بحسب ما يتفق مع ذوقهن».

«بالتأكيد... إن الآنسة بروك لا تناسب ذوق كل من السيد ليدجيت والسيد جيجيلي في

النساء، آخذين في الاعتبار السيد جيجيلي، الذي كان ناضجاً فكريًّا، والذي كانت الآنسة بروك بنظره على خطأ، فسببت له هزة بثقته في القضايا الأخيرة، بما في ذلك إعطاء الشابة الأنيقة للأعزب ذي الوجه المجعد، لكن ليدجيت كان أقل نضجاً، ولربما يحصل على الخبرة في ما بعد، والتي يمكن أن تطور رأيه في النساء على أفضل وجه. وفي أيّ حال فهو لن يرى الآنسة بروك مرة أخرى قبل أن تتزوج. فبعد حفلة العشاء هذه بوقت قصير أصبح اسمها السيدة كزابون، وكانت في طريقها إلى روما.

الفصل الحادي عشر

لكن أفعالاً ولغة كهذه، يستخدمها الرجال،

وشخوص تختارها الكوميديا،

عندما ترسم هي صورة الأزمان،

وتلهو بحماقات البشرية، وليس بجرائمها.

بن جونسون

لقد فتن ليدجيت في واقع الأمر بفتاة تختلف جذريًّا عن الآنسة بروك، فهو لم يفترض قطّ فَقْدَ توازنه ووقوعه في الحب، لكنه قال عن تلك الفتاة «إنها الجمال نفسه، إنها حقًّا لرائعة وبارعة، فهكذا يجب أن تكون المرأة... يجب أن يكون لها تأثير الموسيقى الرائعة». كان يعتقد أن كلًّا من النساء البسيطات وحقائق الحياة الأخرى القاسية يجب أن تواجه بالفلسفة، وتقاس بالعلم، ولكن يبدو أن الآنسة روزموند فنسي تتمتع بسحر فتّان، فعندما يلتقي الرجل بامرأة يريد الزواج منها على وجه السرعة، يكون بقاؤه أعزب ناجماً عن قرارها وليس عن قراره. كان يعتقد ليدجيت أنه يجب ألا يتزوج لبضع سنوات؛ لا يتزوج حتى يشق طريقه بنفسه، وكان يرى الآنسة فنسي بعيدة من أفق تفكيره، فربما احتاج لوقت ليس أقصر من ذلك الذي احتاجه السيد كزابون كي يتزوج؛ فعلى الرغم من أن هذا الرجل المتعلم كان يملك مالاً كثيراً، وملأ مجلداته، وحظي بالشهرة التي تسبق الفعل، وكذلك حظي بزوجة يزين بها ما تبقى من حياته، فتكون قمراً صغيراً لا يسبب أي نوع من القلق والاضطراب، فإن السيد ليدجيت شاب فقير وطموح، وأمامه نصف قرن ليعيش، ولم يمض عليه نصف قرن. جاء إلى مدل مارش ليقوم بأعمال عديدة، لا تكون له سبب ثروة، ولا يمكن لها أن تؤمن له دخلاً كافياً، ويظل الزواج مهما كان ثمنه بالنسبة إلى رجل في مثل ظروف كهذه مسألة أشد أهمية من الزينة والزخرف. فعلى الرغم من أن السيد ليدجيت كان ميالاً إلى اعتبار الزينة والزخرف أهم ميزة لدى الزوجة، فإنه عرف في الآنسة بروك، ومن خلال محادثة واحدة، على الرغم

من جمالها الذي لا ينكر، أنها لم تر الأشياء من وجهة نظر النساء، فالراحة بالنسبة إلى هؤلاء النساء لهي كالراحة التي تتولد عند الذي يترك عمله ليذهب ويدرس الأطفال عوضاً من أن يسترخي، حيث الضحكات المرحة عوضاً عن تغريد البلابل، والعيون الزرق عوضاً عن السماء، بالتأكيد لا يوجد شيء أقل أهمية في الوقت الحاضر بالنسبة إلى ليدجيت من طريقة تفكير الآنسة بروك، ولا شيء أقل أهمية للآنسة بروك من ميزات الفتاة الشابة التي سحرت هذا الجراح الشاب. ولكن أي إنسان يرقب بدقة الالتقاء الخفي لأقدار الناس، لابد له من أن يرى بينها بداية التأثير البطيء، الذي يظهر كسخريتنا من نظرتنا اللامبالية لجارنا الذي لا نعرفه، فيقف القدر وهو يمسك بنا ساخراً. لقد ساهم المجتمع الريفي القديم بهذه الحركة، لم يصب فقط بالتدهور الحاد، حيث انتهت حال الرجال المتأنقين بالعيش مع المومسات والعديد من الأبناء، ولكن أيضاً ذلك التغير الأقل تميزاً، الذي يغير حدود الحالة الاجتماعية أو التداخل الاجتماعي، سيوجد وعياً جديداً للتوافق الاجتماعي. فانزلق بعضهم قليلاً، وارتقى بعضهم الآخر: فالذين أنكروا التذمر حصلوا على الثروة، أما الرجال الذين يصعب إرضاؤهم فقد أصبحوا ممثلين عن مناطقهم الإدارية، فمنهم من أخذتهم التيارات السياسية، ومنهم التيارات الكنسية، وربما وجدوا أنفسهم ضمن مجموعات مختلفة، في حين أن القليل من الشخصيات قد وقفوا في السر بصلابة كالصخر أمام هذا التقلب، ممثلين عناصر جديدة على الرغم من الجمود، وموجدين تغيرات على التبدل الثنائي والذاتي. أقامت البلدة والأبرشية الريفية تدريجًا شبكة اتصالات حديثة، كما أفسح الادخار المنزلي المجال أمام مصرف الادخار، وزالت عبادة الجنيه، في حين أن الإقطاعيين والنبلاء وحتى اللوردات الذين عاشوا، دون لوم، بعيداً من الفكر المدني، قد وعوا خطأ التقرب من الناس، وقدم مستوطنون من أقاليم بعيدة، لدى بعضهم مهارات كثيرة، وآخرون يتمتعون ببراعة مكر مؤذية، وفي الحقيقة إن مثل هذه الحركة والاختلاط، حصل في أيام إنجلترا القديمة، كما نجد في كتابات المؤرخ الإغريقي هيرودوتس الذي اعتقد بحسب ما جاء في كتاباته، أنه يحسن صنعاً إذ يجعل من قدر المرأة «ايبو» نقطة بداية لكتاباته، على الرغم من أن «ايبو العذراء» التي ضللت بالبضاعة الجذابة كانت على عكس الآنسة بروك، ولربما كانت في هذا المجال تشبه الآنسة روزموند فنسي التي كان لها ذوق رفيع في الملابس، ولا سيما أن قوامها كقوام الحوريات ولونها الأشقر وهبها حرية كاملة في انتقاء الألوان والأزياء. لكن هذه الأشياء تشكل جانباً من سحرها فقط، لقد استحقت أن تكون وردة مدرسة السيدة لمون، وهي المدرسة الرئيسية في الإقليم، حيث يتضمن التعليم جميع الخصائص التي تتمتع

بها الفتاة الكاملة؛ بما في ذلك التصرفات الثانوية، كالصعود والنزول من العربة، وكانت السيدة لمون دائماً تقدم كأفضل مثال على الفتاة الكاملة، إذ كانت تقول:

«لا يمكن لأيّ طالبة أن تتفوق على هذه الفتاة الشابة في ملكاتها الذهنية وكياسة الكلام، في حين أن موهبتها الموسيقية تظل استثنائية تماماً». لا نستطيع أن نتحكم بما يقوله الآخرون عنا، ولربما قد تعهدت السيدة لمون بوصف الآنسة جولييت أو الآنسة إيموجن. ولدى ظهور هاتين البطلتين صاحبتي الخيال الشعري، سيتبدد إجحاف القضاة في الآنسة روزموند، والذي أفرزه مديح السيدة لمون عندما ينظرون إليها مرة واحدة.

لا يمكن لليدجيت أن يبقى طويلاً في مدل مارش دون أن يكون له الرأي نفسه، أو دون أن يكون على معرفة بعائلة فنسي، على الرغم من أن السيد بيكوك الذي دفع له السيد ليدجيت مبلغاً ليعمل في عيادته لم يكن طبيب عائلة فنسي... فالسيدة فنسي لا تحب نظام التخفيف الذي يطبقه، إذ كان عنده مرضى كثيرون على علاقة معهم ومع معارفهم، فمن من مدل مارش لم يكن على علاقة مع عائلة فنسي؟ إذ هم مالكو مصانع لمدة طويلة، ويملكون منزلاً كبيراً احتفظوا به على مرور ثلاثة أجيال متعاقبة، والذين كانوا يتزوجون من أقاربهم من النبلاء؛ فأخت السيد فنسي وفقت في زواجها عندما اختارت السيد بولسترود الثري، الذي وإن لم يولد في البلدة نفسها، ولم يكن ذا أصل معروف، فقد نجح عندما التحق بإحدى أسر مدل مارش، ومن ناحية أخرى تنازل السيد فنسي قليلاً، عندما تزوج ابنة صاحب نزل، ولكن حتى في هذا الأمر نوع من المصلحة والتزاوج المالي، لأن أخت السيدة فنسي كانت الزوجة الثانية للسيد فيذرستون الثري العجوز، وتوفيت منذ أعوام عديدة دون أن تنجب أطفالاً، وهكذا يصبح أبناء وبنات أختها ورثة محتملين لزوجها الأرمل، ولما كان السيد فيذرسون والسيد بولسترود أهم مرضى السيد بيكوك، فإن خليفته السيد ليدجيت عامل كل منهما لسبب مختلف معاملة خاصة. كان لدى السيد رنج طبيب عائلة فنسي أسباب مقنعة في رأيه لاحتفاظ السيد ليدجيت بأسرار مهنته، ولا سيما أنه لم يبق شيء حوله إلا وأعلمت به عائلة فنسي وضيوفهم.

كان السيد فنسي يميل أكثر إلى مناقشة الأمور قبل اتخاذه للقرارات حولها، ولكن لا حاجة إلى التسرع للتعرف على رجل جديد. تمنت روزموند لو أن أباها يدعو السيد ليدجيت دون أن تبوح بذلك، فهي تعبت لرؤية الأشخاص نفسهم والوجوه نفسها، ومن شباب مدل مارش الذين عرفتهم منذ الطفولة؛ كانت في المدرسة مع فتيات يتحدرن من طبقة أعلى

من طبقتها، فهي كانت متأكدة من أنها تولي اهتماماً أكبر بإخوتهم مما توليه لهؤلاء الشبان المفروضين عليها من مدل مارش، ولكن لم تشأ أن تذكر رغبتها لأبيها، ومن جانبه لم يكن مندفعاً للأمر. عندما يريد مدير الإقليم أن يصبح عمدة لابد له من أن يدعو أناساً أكثر إلى حفلات عشائه، ولكن في الوقت الحاضر هناك الكثير من الضيوف على مائدته الكبيرة التي غالباً ما يبقى عليها الكثير من الطعام. بعد تناول عائلة فنسي لوجبة الإفطار، وذهاب السيد فنسي بصحبة ابنه الثاني إلى المخزن، وبعد أن قطعت السيدة مورغن شوطاً كبيراً من درس الصباح مع الفتيات الصغيرات في غرفة التدريس في المنزل، كان الطعام ينتظر خادم المنزل المتقاعس، الذي يفضل إزعاج الآخرين على إزعاجهم له عندما ينادونه أو يوقظونه للعمل، وهذا ما حصل في أحد الأيام صباحاً بينما كان السيد كزابون يزور كرينج. على الرغم من أن الغرفة كانت شديدة الحرارة بسبب الموقد المشتعل، مما أبعد الكلب لاهثاً إلى إحدى زوايا الغرفة، ظلت روزموند مكبة على تطريزها لمدة أطول من المعتاد، محركة جسدها بين الآونة والأخرى، بينما تضع عملها على ركبتيها بقليل من التعب والتردد، وأمها التي عادت من المطبخ جلست إلى الجانب الآخر من طاولة العمل بهدوء تام، حتى دقت ساعة الحائط، فتوقفت عن إصلاح طرف فستانها المزركش، وألقت ما بيدها، ثم قرعت الجرس: «اقرع على باب السيد فرد مرة ثانية يا بريتشارد، وقل له إنها الساعة العاشرة والنصف». قالت السيدة فنسي هذا دون أي تغيير طرأ على ابتسامتها التي ترتسم على وجهها الذي لم تترك عليه السنون الخمس والأربعون أي تجاعيد، دفعت بقبعتها الوردية إلى الوراء، ووضعت تطريزها على فخذيها وهي تنظر بإعجاب إلى ابنتها: «أمي»، قالت روزموند، «عندما ينزل فرِد أتمنى ألا يتناول سمك السردين، فإنني لا أطيق رائحته في أرجاء المنزل في مثل هذه الساعة من الصباح».

«آه، يا عزيزتي إنك قاسية على أخويك، إنه الخطأ الوحيد الذي أجده فيك. لديك أعذب مزاج في العالم، لكنك سريعة الغضب مع أخويك».

«لست سريعة الغضب يا أمي، لم تسمعيني أتحدث بغير طريقة السيدات».

«حسناً، لكنك تريدين أن تمنعي عنهم أشياء».

«إن الإخوة ليسوا لطفاء».

«آه، يا عزيزتي يجب أن تفسحي المجال للشباب، أشكر الرب إذا ما كانت قلوبهم طيبة، يجب على المرأة أن تتحمل الأشياء الصغيرة، ستتزوجين يوماً ما».

«ليس من رجل كفرِد».

«لا تنتقدي أخاك.. قليل من الشباب لا يسعفهم الحظ، على الرغم من أنه لم يحصل على شهادته، فإنني لا أستطيع أن أفهم السبب، إذ يبدو لي ذكيًّا جدًّا، وأنت نفسك تعلمين، كان يعتبر أحد أفضل الطلاب في الكلية، فهو مثلك متميز جدًّا يا عزيزتي، أتعجب لأنك لست مسرورة أن يكون لك أخ شاب لطيف جدًّا، دائماً تجدين الأخطاء لدى بوب لأنه ليس فرد».

«كلا يا أمي لأنه بوب».

«حسناً، يا عزيزتي لن تجدي أي شاب في مدل مارش دون نقص».

«لكن»... هنا ارتسمت على وجه روزموند ابتسامة، فظهرت على وجنتيها غمازتان، لم ترغب هي نفسها فيها، فكانت نادراً ما تتبسم في المجتمع «لكنني لن أتزوج من شاب من مدل مارش».

«إذاً... يبدو لي يا حبيبتي أنك رفضت أحسنهم، ولو كان هناك أفضل منهم، فلن يكون هناك فتاة أفضل منك تستحقه».

«عفواً، يا أمي أرجو ألّا تقولي:... أحسنهم».

«لماذا؟ ماذا يمكن لهم أن يكونوا إذاً؟».

«إنني أعني يا أمي هذا تعبير مبتذل، لم أكن يوماً متحدثة جيدة، ماذا يمكنني أن أقول؟».

«أفضلهم».

«لماذا؟... ذلك يبدو عاديًّا وشائعاً. لو كان لدي وقت لأفكر لقلت إنهم الشبان الأفضل، لكنك أنت المتعلمة لابد لك أن تعرفي».

هنا دخل السيد فرد دون أن تشعرا بدخوله، وهما منهمكتان بعملهما، فذهب يقف أمام المدفأة، وأدار ظهره إليهما، وراح يسخن نعل حذائه ثم قال: «ماذا يجب على روزي أن تعرف يا أمي؟».

قالت السيدة فنسي وهي تقرع الجرس: «إذاً كان صحيحاً أن نقول الشبان الأفضل، يوجد الآن العديد من أنواع الشاي والسكر الأفضل، كلمة الأفضل أصبحت الكلمة العامية لدى البائعين».

قالت روزموند بشيء من الرزانة: «هل بدأت تكره اللغة العامية إذاً؟».

«فقط الخطأ منها، كل الكلمات المنتقاة هي عامية تدل على المستوى».

«يوجد لغة إنجليزية صحيحة ؛ هي ليست عامية».

«أطلب منك المعذرة؛ الإنجليزية الصحيحة هي لغة المتزمتين المتحجرين الذين يكتبون التاريخ والمقالات، وأقوى عامية هي عامية الشعراء».

«إنك تقول أي شيء لتثبت رأيك».

«حسنًا، هل هو من العامية أم من الشعر المنثور؟».

«بالطبع يمكنك أن تسمي ذلك شعراً لو شئت».

«ها... يا آنسة روزي إنك لا تميزين بين لغة هومر والعامية. سأبتكر لغة جديدة: سأكتب بعض المفردات من العامية، وأخرى من الشعر على قصاصات ورق ثم أعطيك إياها لتفصلي بينها».

قالت السيدة فنسي بإعجاب وسرور: «يا عزيزي كم هو مضحك عندما تسمع الشبان يتحدثون».

«أليس لديك شيء آخر لوجبة إفطار يا بريتشارد؟؟»، قال هذا فرد للخادم الذي أدخل القهوة والخبز المطلي بالزبدة، بينما كان فرد يدور حول المائدة وينظر إلى لحم الخنزير والبقر وما تبقّى مبدياً رفضاً صامتاً، لكنه امتنع عن إبداء الاشمئزاز لأدبه.

«هل تحب البيض يا سيدي؟».

«البيض، كلا! اجلب لي قطعة من اللحم المشوي».

قالت روزموند عندما غادر الخادم الغرفة: «أحقًّا يا فرد؟ لو كنت تريد أن تتناول شيئاً ساخناً في إفطارك كان عليك أن تأتي مبكراً.. يجب أن تستيقظ الساعة السادسة لتذهب

إلى الصيد، لا أستطيع أن أفهم لماذا لا يمكنك الاستيقاظ مبكراً».

«هذا ما تريدين أن تفهميه يا روزي، إنني أستطيع أن أستيقظ مبكراً للذهاب إلى الصيد لأنني أحب ذلك».

«ماذا كنت ستظن بي لو أتيت بعد الجميع بساعتين وطلبت لحماً مشويًّا؟».

قال فرد... وهو يأكل الخبز المحمص بهدوء تام: «لظننتك شابة عجولة»

«لا أستطيع أن أفهم لماذا يصبح الأشقاء مشاكسين أكثر من الشقيقات؟؟».

«إنني لست مشاكساً إنكِ ترينني كذلك، المشاكسة تصف مشاعرك وليس أفعالي».

«أظنها تصف رائحة اللحم المشوي».

«ليس ذلك على الإطلاق، إنها تصف حاسة الشم في أنفك ممتزجة بمفاهيم لا يمكن إرضاؤها، اكتسبتها من كلاسيكيات مدرسة السيدة لمون، اُنظري إلى أمي فلا تجدينها تعارض أي شيء عدا ما تفعله هي، فهي تمثل رأيي بالمرأة اللطيفة».

قالت السيدة فنسي بحنو الأم: «بارك الله فيكما يا عزيزيّ... لا تتخاصما، هيا يا فرد أخبرنا عن الطبيب الجديد، فزوج خالتك مسرور منه».

«بشكل جيد، هو يسأل السيد ليدجيت جميع الأسئلة، ثم يتجهم وجهه عندما يسمع الأجوبة، وكأنها تقرص أصابع أقدامه.. إنها طريقته. آه... ها هي لحمتي المشوية».

«كيف استطعت أن تبقى خارج المنزل حتى ساعة متأخرة من الليل؟؟؟ قلت لك أن تذهب إلى زوج خالتك فقط».

«لقد تعشينا مع عائلة بلمَديل.. لعبنا الشدة، والسيد ليدجيت كان هناك أيضاً».

«وما رأيك به؟».

«أظنه ظريفاً جدًّا، يقولون إنه يتحدر من عائلة مرموقة جدًّا، وإن أقاربه أغنياء جدًّا».

قال فرد: «نعم. لقد كان أحد أفراد عائلة ليدجيت في جونز، أنفق مالاً لا حصر له، عرفت أن هذا الرجل هو ابن عم السيد ليدجيت من الدرجة الثانية، ولكن يمكن أن يكون

للأغنياء أقارب فقراء».

«إنه لشيء مميز أن يكون الشخص من عائلة مرموقة»، قالت روزموند ذلك بنبرة صوت حاسمة، تدل على أنها فكرت في الموضوع مسبقاً. شعرت روزموند أنه يمكنها أن تكون أكثر سعادة لو أنها ابنة صاحب مصنع في مدل مارش، كانت تكره كل شيء يذكرها أن جدها كان صاحب نزل، بالتأكيد عندما يتذكر أحد تلك الحقيقة يمكن أن يظن بالسيدة فنسي وكأنها مالكة أرض شديدة الجمال واللطف، اعتادت اللقاء بأصحاب النزوات.

قالت المرأة ذات الوجه المشرق: «أظنه من الغريب أن يكون اسمه ترشيوس، لكنه بالطبع هو اسم العائلة، و... الآن.. أخبرنا أي نوع من الرجال هو؟».

«طويل وداكن اللون وذكي، حديثه حسن، وأظنه مزهوًّا بنفسه».

قالت روزموند: «لا يمكنني أن أفهم ما تعني بمزهو بنفسه».

«الشخص الذي يحاول أن يظهر أن لديه آراء».

قالت السيدة فنسي: «لماذا؟ لا بد من أن يكون للأطباء آراء يا عزيزي، فلماذا هم موجودون إذاً؟».

«نعم يا أمي، آراؤهم التي ندفع لهم النقود لأجلها، لكن المزهو بنفسه هو الذي يفرض عليك آراءه».

قالت روزموند بقليل من التلميح: «أظن أن ماري جارث معجبة بالسيد ليدجيت».

«حقًّا، لا أستطيع أن أقول». قال فرد، واكفهر قليلاً، وهو يغادر الطاولة ليلتقط رواية أحضرها معه، ثم ألقى بنفسه على مقعد. «إذا كنت غيورة منها... اذهبي مراراً إلى ستون كورت وتفوقي عليها».

«أرجو ألّا تكون فظًّا هكذا يا فرد، إذا انتهيت اقرع الجرس من فضلك».

«إلا أنّ ما يقوله أخوك حقيقي يا روزموند»، بدأت السيدة فنسي بالكلام عندما انتهى الخادم من تنظيف الطاولة. «إن من المؤسف جدًّا ألّا يكون لديك صبر، فتذهبي لتري زوج خالتك مرات عديدة، ولا سيما أنه فخور بك كثيراً، ويتمنى لو تعيشين معه. لا يمكن أن يعلم أحد ماذا سيقدم لك ولفرد... الرب فقط يعلم كم أحبكما أن تكونا معي، ولكن يمكن أن أبتعد

عن ولديّ لمصلحتهما فقط، ويبدو الآن منطقيًّا أن زوج خالتك سيفعل شيئاً لماري جارث».

قالت روزموند وهي تطوي شغلها: «يمكن لماري جارث تحمل البقاء في ستون كورت لأنها تحب ذلك أكثر مما تحب كونها مربية، أتمنى ألّا يترك لي شيئاً مقابل تحملي سعال زوج خالتي وعلاقته السيئة».

«لن يعيش طويلاً يا عزيزتي، لن أتعجل على نهايته، ولكن ماذا يمكن أن يحصل للمرء وهو يعاني من الربو، ومن شكاوى داخلية. دعينا نتمنى حياة أفضل بعد موته، ولا أتمنى شيئاً سيئاً لماري جارث، لكن هناك عدالة يجب التفكير فيها. إن زوجة السيد فيذرستون الأولى لم تجلب له المال كما فعلت أختي. لذا لا يحق لأبناء وبنات شقيق زوجته الأولى أن يحصلوا على ما يمكن لبناتي وأبنائي الحصول عليه، ويمكنني أن أقول: إن ماري فتاة عادية وسيئة ملائمة أكثر كي تكون مربية أطفال».

قال فرد الذي يبدو أنه يقرأ ويستمع في الوقت عينه: «لن يوافقك أحد يا أمي».

«حسناً يا عزيزي»، قالت السيدة فنسي وهي تستدير: «لو بقي لها شيء من الثروة... فلا بأس، ولا سيما أن عائلة جارث فقيرة جدًّا، ويعيشون ببساطة. سأدعك تدرس يا عزيزي لأنه يجب علي الذهاب للتسوق».

قالت روزموند وهي تنهض مع أمها: «إن فرد لا يدرس يا أمي، هو فقط يقرأ رواية».

«حسناً، شيئاً فشيئاً سينغمس في دراسة اللاتينية وأشياء أخرى»، قالت هذا السيدة فنسي وهي تمسح على رأس ابنها برفق. «لا دخان بلا نار. إنها أمنية أبيك كما تعلم يا عزيزي فرد وأنا دائماً أقول له إنك ستصبح بوضع أفضل، وتعود إلى الكلية ثانية، وتحصل على شهادتك». أنزل فرد يد أمه إلى شفتيه، لكنه لم يقل شيئاً.

قالت روزموند وهي تمشي ببطء بعد أن ذهبت أمها: «أظنك لن تخرج لركوب الخيل هذا اليوم؟».

«كلا، لماذا؟».

«أبي يقول: يمكنني أن آخذ الحصان البني لأركبه الآن».

«يمكنك أن تذهبي معي غداً لو أردت، فأنا ذاهب إلى ستون كورت، تذكري».

«إنني أرغب جدًّا في ركوب الخيل، إذ لا فرق لدي إلى أين نذهب». اختارت روزموند ستون كورت من بين جميع الأماكن لتذهب إليها.

قال فرد، وهي تخرج من الغرفة: «يا روزي... إذا كنت ذاهبة للعزف على البيانو دعيني أشاركك».

«أرجوك لا تطلب مني ذلك في هذا الصباح».

«ولِمَ لا في هذا الصباح؟».

«حقًّا يا فرد... أتمنى لو تقلع عن العزف على الفلوت، إذ يظهر الرجل سخيفاً على آلة الفلوت، وأنت تعزف بدون لحن».

«عندما يقع أحد في غرامك في المرة القادمة سأخبره كم أنت لطيفة».

«لماذا تتوقعني أن أتلطف معك، فاستمع إلى عزفك على الفلوت أكثر مما أتوقع منك أن تتلطف معي فلا تعزف عليه».

«ولِمَ تتوقعين مني أن آخذك معي لركوب الخيل؟».

لقد أدى هذا السؤال إلى اتفاق بينهما، إذ إن روزموند قررت الذهاب لركوب الخيل، وظل فرد يستمتع لمدة ساعة تقريباً بالتدرب على بعض مقطوعات موسيقية أداها بضعف، على الرغم من انهماكه وطموحه لأداء أفضل.

الفصل الثاني عشر

كان لديه كتان على فُلكة المغزل أكثر

مما عرف جيرفس.

جوسر

إن الرحلة التي قام بها كل من فرد وروزموند في صباح اليوم التالي إلى ستون كورت، قادتهما عبر الطبيعة الخلابة إلى ريف وسط إنجلترا، الذي يتألف أغلبه من المروج والمراعي، وتحفّه الورود والشجيرات التي تثمر طعاماً للطيور. لكل حقل طابع خاص يميزه عن غيره، فتكون عزيزة على العيون التي ألفتها منذ الطفولة. كان في إحدى الزوايا بركة في وسط مرج من العشب الكثيف الشديد الرطوبة، تنحني فوقه أشجار لتميسَ مع نسمات الهواء العليلة، وبالقرب كانت شجرة من البلوط الضخمة تلقي بظلالها على بقعة خالية من العشب في وسط أحد المراعي، وجرف مرتفع تنمو عليه أشجار الدردار، ثم الانحدار الشديد لحفرة قديمة من الطين الأحمر الذي ينمو عليه نبات شوكي، والمنازل المتقاربة التي تتبعثر حولها أكوام القش والعلف حيث لا تستطيع أن تجد طريقاً لك إليها بسهولة، يسورها سياج وبوابة رمادية اللون تفصلها عن الغابة المجاورة، وزريبة منعزلة، سقفها من القش القديم الذي يغطيه الطحلب، فيظهر كالوديان والهضاب الرائعة، الاختلاف بين الضوء والظل. إنها الطبيعة التي نسافر من أجل رؤيتها في أواخر عمرنا، فنرى الكثير منها ولكن ليس أكثر جمالاً، هذه الطبيعة الخلابة تجلب السعادة لمن يعيشون وسط إنجلترا، فهي الأماكن التي كانوا يمشون بينها بخطى كخطى الأطفال، أو ربما هي الأشياء التي حفظوها عن ظهر قلب وهم يقفون بين ركبتي أبيهم، وهو يقود العربة بمرح.

ولكن الطريق العام وحتى الطريق الفرعي كانا في حالة ممتازة لأن لُوِيك لم تكن بلدة ذات طرق طينية يقطنها مستأجرون فقراء.

بعد ميلين من السفر دخل روزموند وفرد بلدة لويك، فبعدها بميل واحد سيدخلون ستون كورت، وفي منتصف الطريق استطاعا رؤية المنزل الذي كان يظهر وكأنه منزل مزارع، وليس منزل مزرعة فخمة، بسبب البيوت الريفية التي بنيت فجأة إلى يساره. لم يكن منظره من بعيد سيئاً، إن حقل الذرة مع صف أشجار الجوز على يمين المنزل قد أوجدا منظراً متوازناً من الجمال. في هذا المشهد استطاعا أن يريا عربة صغيرة على الممر الدائري أمام المنزل.

قالت روزموند: «يا للدهشة... أتمنى ألا يكون أقرباء زوج خالتي التعساء هناك».

«إنهم هناك، ها هي عربة السيدة وول، إنها آخر عربة صفراء على ما أعتقد، عندما أرى السيدة وول تركبها أستطيع أن أفهم كيف يمكن للون الأصفر أن يعبر عن العزاء، تبدو لي تلك العربة جنائزية أكثر من عربة دفن الموتى نفسها، لكن السيدة وول ترتدي ثوباً أسود اللون. كيف يمكن لها فعل ذلك يا روزي؟ لا يمكن أن يكون لها أصدقاء يموتون باستمرار».

قالت روزموند، وهي تفكر، وكأن تلك الفكرة الدينية كان لها تأثير أبدي: «لا أعرف بتاتاً، هي ليست بروتستانتية». ثم أضافت بعد دقيقة من الصمت: «وهي ليست فقيرة».

«كلا أقسم بالقديس جرجس، إنهم أغنياء كاليهود، تلك العائلتان، عائلة وول وفيذرستون، أعني من هم مثلهم لا يريدون أن ينفقوا أي شيء، وهم في الوقت عينه يحلقون حول زوج خالتي كالعقبان، ويخشون أن تفلت من أسرتهم أيّ قطعة من النقود، لكنني أعتقد أنه يكرههم جميعاً».

السيدة وول التي لم تكن محل إعجاب هؤلاء الأقرباء البعيدين، قالت هذا الصباح ليس بنبرة فيها نوع من التحدي، بل بصوت خافت كأنه قد كتم بكمامة قطنية، ما لم ترغب قوله.

«لينعموا برأيهم الجيد». كانت تجلس في بيت أخيها وهي ترقب كل شيء، حملت اسم جين فيذرستون لخمسة وعشرين عاماً قبل أن يصبح اسمها جين وول. مما منحها حق التكلم، ولا سيما حين يستخدم اسم أخيها من لا يملك ذلك الحق.

«ماذا تقصدين من ذلك؟؟». سألها السيد فيذرستون، وهو يمسك بعصاه بين ركبتيه، ويثبت شعره المستعار، وكان يرمقها بنظرات حانقة، فبدا وكأن ماءً بارداً صب عليه، ثم أخذ يسعل. كان على السيدة وول أن تؤجل جوابها حتى يهدأ ثانية، وتعطيه ماري جارث الدواء، ثم بدأ يفرك قبضة عصاه الذهبية، وينظر بمرارة إلى النار، كانت ناراً مضيئة، لكنها لم تؤثر

في وجه السيدة وول الشاحب، والذي لا لون له كصوتها، وفيه فقط شقان: عينان وشفتان لا تكادان تتحركان عندما تتكلمان.

«ألا يستطيع الأطباء أن يسيطروا على هذا السعال يا أخي؟ إنه يشبه سعالي لأنني أختك، وبنية جسمي تشبه بنية جسمك، وكل شيء، لكنني كنت أقول إن من المؤسف ألّا يمكن لعائلة فنسي أن تتصرف على وجه أفضل».

«هه، لم تقولي شيئاً ذا قيمة، لقد قلت إن أحداً قد استخدم اسمي».

«ولا شيء أكثر من هذا يمكن إثباته، إذا ما صدق ما يقوله الجميع، أخبرني أخي سليمان إنه حديث يتناقله جميع أهل مدل مارش، فكم هو طائش ابن فنسي الشاب، فهو يقامر بلعبة البليارد منذ أن التحق بأهله ثانية».

«هذا هراء، ما الخطأ في لعبة البليارد؟ إنها لعبة جيدة للرجال، وليس فنسي الشاب بالمتهور، ولو لعب ابنك البليارد الآن لجعل من نفسه أضحوكة».

«ابن أختك جون لم يلعب البليارد، أو أيّ لعبة أخرى يا أخي، وهو بعيد كليًّا عن خسارة مئات الجنيهات، التي إذا ما صدق ما يقوله الجميع، لا بد له من أن يحصل عليها من مصدر آخر غير جيب أبيه، السيد فنسي، فهم يقولون إنه مازال يخسر النقود طوال هذه السنين، فما كان لأحد أن يفكر بهذه الطريقة لو أنه تابع دراسته. لقد سمعت السيد بولسترود، وهو يلوم السيدة فنسي على حماقتها وطيشها وإفسادها لأبنائها هكذا».

«ما شأن بولسترود بي؟ فأنا لا أتعامل معه».

«حسناً، إن السيدة بولسترود هي أخت السيد فنسي، وهم يقولون أيضاً إن السيد فنسي سيتاجر بأموال البنك، ويمكنك أن ترى ذلك يا أخي بنفسك، عندما تبلغ المرأة الأربعين من عمرها، تظل تستخدم اللون الوردي في ملابسها، وتظل تقهقه ضاحكة لأدنى الأسباب... إن ذلك غير لائق على الإطلاق فأن تقحم أبناءك شيء، وأن تُوجد المال لتسدّد دينهم شيء آخر، ولقد قيل على الملأ إنه قد استدان نقوداً بضمان إرث سيفوز به. إنني لن أسمي ذلك الإرث، تسمعني الآنسة جارث، ويمكنها تأكيد ذلك، إنني أعلم أن الشبان يسرون بعضهم لبعض».

قالت ماري جارث: «كلا يا سيدة وول، إنني أكره سماع الإشاعات كما أنني أكره تكرارها». فرك السيد فيذرستون قبضة عصاه، ثم أدى ضحكة قصيرة متشنجة تشبه ضحكة حقيقية يؤديها ممثل عجوز في موقف سيئ ضمن فيلم صامت، قال، وهو لا يزال ينظر إلى النار «ومن

يقول إن فنسي الشاب لن يحصل على إرث، فلا بد لشاب يتمتع بروح طيبة مثله من أن يحصل على ذلك الإرث». ساد صمت قصير قبل أن ترد السيدة وول، وعند ردها بدا صوتها وقد رطبه الدمع قليلاً في وقت لا يزال وجهها جافاً: «لو كان ذلك، أو لم يكن يا أخي، فمن المؤلم لي، ولأخي سليمان أن نسمع اسمك يستخدم، ونرى مرضك يتفاقم هكذا، فيمكن أن يذهب بك فجأة، فقد أعلن على الملأ أولئك الذين لا ينتمون إلى عائلة فيذرسون أكثر مما ينتمي لها أندرو المبارك، أن ملكيتك ستنتقل إليهم في وقت أكون أنا أختك وسليمان أخوك موجودين، فإذا ما كان ذلك حقاً، لم خلق الله الأسر؟». هنا ذرفت السيدة وول بعض دموعها.

قال السيد فيذرستون، وهو ينظر إليها: «قولي ما عندك يا جين. هل تعنين أن فرد استدان نقوداً مدعياً أنه يعلم بوصيتي.. هه؟».

«لم أقل هذا يا أخي قط»، وأصبح صوت السيدة وول جافاً بلا رجفة. «لقد قال لي أخي سليمان الليلة الماضية عندما عاد من السوق، ليقدم لي نصيحة عن القمح القديم لكوني أرملة، إن ولدي جون الذي بلغ الثالثة والعشرين من عمره، على الرغم من أنه صارم في الأمور كلها.، قد استدان من جهات عديدة وليس من جهة واحدة».

«هذا هراء وثرثرة، إنني لا أصدق كلمة واحدة منها. إنها قصة ملفقة بأكملها، اذهبي إلى النافذة يا آنسة، أظنني سمعت صوت حصان، انظري ما إذا كان الطبيب قد حضر».

«لم ألفقها يا أخي، ولم يلفقها سليمان، فهو مهما يكن - وأنا لا أنكر أن لديه شيئاً من الغرابة في الأطوار - قد كتب وصيته، وقسم ملكيته بالتساوي بين أقربائه، وكأنهم أصدقاء له، على الرغم من أنني أعتقد أن هناك أوقاتاً يجب أن يأخذها الإنسان أكثر من غيرها، لكن سليمان لم يخفِ ما كان ينوي فعله».

قال السيد فيذرستون: «هو أشد حماقة»، وقد انتابته نوبة من السعال الشديدة مما تطلب من ماري جارث أن تقف بجانبه، لذلك لم تتمكن من أن تستبين خيل من التي وقفت تضرب بأقدامها على الأرض الحجرية أمام باب المنزل. وقبل أن يهدأ السيد فيذرستون من سعاله دخلت روزموند بتمهل كعادتها، ثم انحنت باحترام للسيدة وول التي قالت بجفاء: «كيف حالك يا آنسة»، ثم ابتسمت وهزت برأسها بصمت لماري، وظلت حتى تطمئن إلى انقطاع السعال، فيستطيع زوج خالتها أن يراها.

قال أخيراً: «يومك سعيد يا آنسة، تبدين بصحة جيدة، أين فرد؟».

«يربط الخيل. سيحضر حالاً».

«اجلسي اجلسي.. سيدة وول، يمكنك الذهاب».

حتى جيران بيتر فيذرستون، الذين كانوا يلقبونه بالثعلب العجوز، لم يتهموه بعدم صدقه بأدبه، على عكس أخته التي لم تكن تتمتع بعادة الترحيب بالآخرين والتي ميز بها نفسه عن أقربائه، فهي كانت تعتقد تماماً أن حرية التصرف التامة تتوافق مع المقاصد الإلهية حول الأسر. نهضت ببطء دون أن يبدو عليها أي علامة نفور، وقالت بنبرة صوتها المعتادة الخافتة: «أتمنى يا أخي أن يقدر الطبيب الجديد على فعل شيء لك، يقول سليمان:إن الناس يتحدثون بإعجاب عن ذكائه، أتمنى أن يبقى أحد دائماً برفقتك، وليس هناك أحد أكثر رغبة برعايتك من أختك وبناتها، فنحن رهن إشارتك.. هناك ربيكا وجوانا وإليزابيث كما تعرف».

«نعم، نعم، إنني أتذكر، سترين أنني أتذكرهم جميعاً، كلهن غم وبشاعة، إنهن يحتجن بعض النقود.. هه؟ لم يكن لدى نساء عائلتنا أي جمال، ولكن دائماً كان لدى عائلة فيذرستون المال، وكذلك أسرة وول كان لديهم نقود أيضاً، فكان السيد وول رجلاً ودوداً. إن النقود كالبيض الجيد، فإذا ما كان لديك نقود، وعليك أن تتركيها خلفك، فدعيها في عش دافئ، وداعاً يا سيدة وول».

هنا أنزل فيذرستون شعره المستعار من الجانبين، وكأنه يريد أن يسد أذنيه من الجانبين لئلا يسمع شيئاً، وخرجت أخته، وهي تفكر بكلامه المبهم، على الرغم من غيرتها من عائلة فنسي وماري جارث، ولا سيما أنه ظل في مخيلتها قناعة أن أخيها بيتر لا يمكنه أن يترك ملكيته تذهب لغير أقربائه، وإلا لما شاء الله أن تتوفى زوجتاه دون أن تلدا له أبناء. ولماذا كان هناك كنيسة الأبرشية في لويك؟ ولماذا تجلس أجيال عائلة وول وعائلة بودرلز على مقعد واحد في الكنيسة، ثم تجلس عائلة فيذرستون على مقعد آخر في يوم الأحد الذي يلي وفاة بيتر فيذرستون، وقد عرفوا جميعاً أن ملكيته قد ذهبت إلى غير أقاربه. لم يقبل العقل البشري في وقت من الأوقات الفوضى الأخلاقية، ولا سيما مثل هذه النتيجة المنافية للعقل، والتي لا يمكن إدراكها بدقة، عندما دخل فرد رمقه الرجل العجوز بنظرة غريبة يفسرها فرد الشاب دائماً على أنها مظهر كبرياء وفخر بزهو شبابه.

قال السيد فيذرستون: «أيتها الشابتان اذهبا. أريد التحدث إلى فرد».

قالت ماري: «تعالي إلى غرفتي يا روزموند لن يضايقك البرد إلا لفترة قصيرة». لم

تعرف الفتاتان بعضهما منذ مرحلة الطفولة فقط، لكنهما كانتا أيضاً في مدرسة المقاطعة نفسها... كانت ماري طالبة بموجب عقد... وكان لديهما ذكريات كثيرة مشتركة، لذلك أحبتا التحدث بمفردهما، ففي الحقيقة أن هذه الجلسة الانفرادية كانت تشكل أحد أهداف روزموند في زيارتها إلى ستون كورت. وما كان للسيد فيذرستون العجوز أن يبدأ الكلام حتى يغلق الباب، وظل يرمق فرد بالنظرة نفسها مكشراً كعادته، فكان يفتح فمه تارة ويغلقه تارة أخرى، وعندما تكلم كان صوته منخفضاً كصوت من يخشى أن يسمعه أحد، وليس كصوت ذلك الذي أغضبه من هو أصغر منه سنًّا. لم يكن ذلك الرجل الذي يشعر بالسخط الأخلاقي، حتى عندما يخطئ أحد بحقه. لقد كان من الطبيعي أن ينتهزه الآخرون، لكنه كان أكثر مكراً منهم.

«إذاً يا سيدي، لقد دفعت عشرة في المائة من المبلغ الذي وعدت بسداده عندما ترهن أرضي بعد موتي هه؟ لقد راهنت على ألّا أعيش أكثر من عام، لكنني أستطيع أن أغير وصيتي».

احمرّ فرد، فهو لم يستدن مالاً بهذه الطريقة لأسباب جيدة، لكنه كان يعي أنه يتحدث إلى أحد ما بثقة.. ربما بثقة أكبر مما يتذكر... حول توقعه لحصوله على أرض السيد فيذرستون كوسيلة مستقبلية لسداد دينه الحالي.

«لا أعرف عمّ تتكلم يا سيدي، بالتأكيد لم أستدن مالاً بضمان واهم كهذا، اشرح لي من فضلك».

«كلا يا سيدي، إنه أنت من يجب أن يشرح، لا أزال أستطيع تغيير الوصية، دعني أقل لك ذلك، إنني بكامل قواي العقلية، إذ أستطيع أن أحسب الضرائب المتراكمة في ذهني، وأستطيع كذلك أن أتذكر اسم كل أحمق أعرفه كما كنت أفعل منذ عشرين عاماً، يا للعنة... لم أبلغ الثمانين حتى الآن، إنني أقول يجب عليك أن تنفي الرواية».

أجاب فرد: «لقد نفيتها يا سيدي»، وقد بدأ ينفد صبره، ولم يتذكر أن زوج خالته لا يميز لفظًا بين كلمتي ينفي ويدحض، على الرغم من أنه لم يكن يخطئ بينهما، وكان يندهش حين كان كثير من الحمقى يأخذون تأكيداته كبراهين.«لكنني أنفيها ثانية، إن الرواية هي أكذوبة».

«هذا هراء، يجب عليك أن تجلب لي وثيقة، وتكون صادرة عن جهة رسمية».

«سمِّ لي تلك الجهة الرسمية، واجعلها تصرح باسم الرجل الذي استقرضت منه

النقود، عندها يمكنني نفي الرواية».

«أظنها جهة رسمية موثوقاً بها، تتمثل برجل يعرف كل شيء يحدث في مدل مارش، إنه زوج عمتك المتدين الخيّر، هيا!»... هنا تولد لدى فيذرستون إحساس داخلي غريب يدل على السرور: «السيد بولسترود».

«من غيره إذاً؟».

«إذاً تحولت القصة إلى أكذوبة، بما قاله عني، فهل أدعوه إلى تسمية الرجل الذي أقرضني النقود؟».

«هذا إذا كان هناك رجل فلا بد لبولسترود من أن يعرفه، ولكن إذا ما افترضنا أنك حاولت أن تقترض نقوداً، لكنك لم تفعل ذلك فلا بد لبولسترود من أن يعرف ذلك أيضاً... اجلب لي رسالة من بولسترود يقول فيها إنك لم تعد بإيفاء دينك من أرضي، هيا».

تغيرت جميع تقاطيع فيذرستون لتعبر عن رأيه الإيجابي. شعر فرد أنه وقع في دوامة مربكة: «إنك تمزح يا سيدي، إن السيد بولسترود كبقية الرجال يصدق كثيراً من الأكاذيب، ورأيه بي مجحف، إنني أستطيع أن أجعله يكتب أن لا علم له بما تقوله، على الرغم من أن ذلك يسبب حرجاً، لكنني لا أستطيع أن أطلب منه أن يكتب ما يظن بي». صمت فرد لمدة وجيزة، ثم أضاف مستثيراً بدهاء كبرياء زوج خالته: «يصعب على رجل نبيل أن يطلب ذلك». لكن النتيجة خيبت أمله.

«أعرف ما تعني، إنك تفضل إغضابي على أن تغضب بولسترود، وما لم أسمع به أنه يملك أرضاً هنا.. إنه رجل مضاربات تجارية يمكنه أن يخسر كل شيء عندما يتخلى عنه الشيطان يوماً، وهذا ما يعني دينه... يريد الله أن يأتي إليه، إن ذلك هراء، لقد فهمت شيئاً حين كنت أذهب إلى الكنيسة، وهو التالي: إن الله يكافئ بالأرض هو يعد بالأرض، ويعطي أرضاً، ويجعل الناس أغنياء بقطعان الأنعام. لكنك تأخذ الجانب الثاني، إنك تحب بولسترود والمضاربة أكثر مما تحب فيذرستون والأرض».

قال فرد بعد أن نهض، ووقف أمام النار يضرب حذاءه بسوطه: «معذرة يا سيدي. إنني لا أحب بولسترود ولا المضاربة». قالها بعبوس، وقد أحس أنه في ورطة.

«حسناً، حسناً إنك لا تحتاج إليّ، إن ذلك لجلي». قال فيذرستون العجوز، وقد كره

سرًّا أن تكون إمكانية فرد قد جعلته مستقلاً ومعتمداً على نفسه»، إنك لا تريد قطعة أرض تجعل منك مالك أرض في مقاطعة إنجليزية بدل أن تكون قساً جائعاً، ولا تريد حتى أن توهَب مئة جنيه، إن كل ذلك متساو لدي وأستطيع أن أكتب خمسة ملحقات للوصية لو شئت، وسأبقي مالي مدخراً، إن كل ذلك متساو لديك». تلون وجه فرد ثانية، فنادراً ما أهداه السيد فيذرستون نقوداً، ويبدو في هذه اللحظة أن التخلي عن إمكانية حصوله على مال في وقت قريب لهو أصعب من إمكانية حصوله على أرض بعد وقت طويل.

«أنا لست عاقاً يا سيدي، لم أقصد التغاضي عن أي نوايا طيبة تحملها تجاهي بل على العكس».

«حسناً، أثبت ذلك إذاً، اجلب لي رسالة من بولسترود يقول فيها إنه لا يصدق أنك تستخدم أرضي لسداد ديونك، عندها إذا وقعت في ورطة، فسوف أرى ما إذا كان بإمكاني أن أساعدك قليلاً، هيا!.. هذه صفقة، أعطني ذراعك سأحاول التجول في الغرفة». وعلى الرغم من انزعاج فرد فإنه كان لديه لطف كافٍ ليتعاطف مع الرجل العجوز غير المحبوب وغير الموقر، والذي بدا أنه يستحق الشفقة أكثر بسبب مشيته الصعبة نتيجة انتفاخ قدميه. وبينما كان يعطيه يده، تمنى لو أنه لم يكن مسنًّا، وبنية جسمه تتهاوى، وانتظر بمزاج هادئ أمام النافذة في البداية ليسمع تعليقات فيذرستون المعتادة حول طيور الدجاج، ثم أمام رفوف الكتب الشحيحة، التي بعضها مغلف بالجلد القاتم، وتروي أمجاد البطولات العظيمة لجوزفوس وكلببر والمسيح للكاتب كلوبستك، وبعض الأعداد من مجلات الرجال النبلاء.

«اقرأ لي أسماء الكتب، هيا إنك طالب في الكلية». قرأ فرد العناوين.

«لماذا تطلب الآنسة المزيد من الكتب؟ لِمَ تجلب لها كتباً أخرى؟»

«إنها تستمتع بها يا سيدي، أظنها مغرمة بالقراءة قليلاً».

قال السيد فيذرستون منتقصاً: «مغرمة، قليلًا. كانت معتادة على القراءة عندما أتت لتقيم معي، لكنني جعلتها تتوقف عن ذلك، هي تقرأ الصحيفة بصوت مرتفع في كل يوم فهذا كافٍ، لا أستطيع تحمّلها، وهي تقرأ لوحدها، لا تجلب لها كتباً أخرى هل تسمع؟».

«نعم يا سيدي». لقد تلقى فرد مثل هذا الأمر، ولكن لم يطعه سرًّا، وهو ينوي عدم إطاعته ثانية.

قال السيد فيذرستون: «اقرع الجرس. أريد الآنسة أن تأتي».

كانت ماري وروزموند تتحدثان أسرع من أصدقائهما الذكور. لم تجلسا، لكنهما وقفتا بجانب طاولة الزينة المجاورة للنافذة حيث خلعت روزموند قبعتها وعدلت شالها، ورتبت بأطراف أصابعها شعرها الأشقر. بدت ماري جارث بسيطة، وهي تقف جانباً بين الحورية وصورتها في المرآة، تحدق إحداهما بالأخرى بعينين زرقاوين كزرقة السماء، يمكن للمشاهد البارع أن يستنبط منهما أروع المعاني، أو يخبئها بهما إذا ما كانت أقل روعة. فقط القليل من الأطفال كانوا يبدون شقراً أمام روزموند، ورشاقتها التي تظهر جليًّا، وهي ترتدي لباس الفروسية المتموج اللون. في حقيقة الأمر كان معظم رجال مدل مارش، باستثناء أخويها، يعتقدون أن الآنسة فنسي هي أجمل فتاة في العالم، وكان يسميها بعضهم بالملاك على عكس الآنسة ماري جارث التي كانت تبدو كمذنبة عادية. كانت سمراء، وكان شعرها الغامق جعداً وخشناً، كانت قصيرة القامة، ومن الخطأ القول إنها كانت تمتلك كل المزايا المقنعة؛ لأن للبساطة محاسن ونواقص كالجمال، فهي تميل بالتظاهر بالود، أو تبدي عدم الرضا المقيت الذي لا تتظاهر به. في أيّ حال عندما ينعتك أحد بالمخلوق القبيح، وصديقك بالمخلوق الجميل، غالباً ما يولد تأثيراً بعيداً من الصدق الحقيقي والملاءمة في استخدام العبارة. لم تتمتع ماري بشعور جيد حين كانت في الثانية والعشرين من عمرها، ولا بمبدأ سام واللذين عادة ما تطلبهما الفتاة الأقل حظًّا. كانت تتضمن فطنتها نزعة تهكم مريرة تتجدد باستمرار، فلا تغيب أبداً باستثناء شعور حاضر بالامتنان من أولئك الذين يشجعونها على أن تكون كذلك، ولا يشجعونها على أن تكون قانعة. لقد لطف تقدمها في السن من بساطة مظهرها الذي كان خصلة إنسانية حميدة كما كانت تظهر أمهاتنا في كل المناسبات، فلو رآها رمبراندت لرسمها بسرور، ولجعل تقاسيمها الخشنة تعكس على اللوحة ذكاء حقيقيًّا، لأن النزاهة وقول الحق كانا أكبر فضيلة لدى ماري، لم تحاول خلق خيال لنفسها، لكي تعيش فيه من أجل مصلحتها، وكلما كانت في مزاج جيد كانت تمتلك روح دعابة لتسخر من نفسها، فعندما انعكست صورتها مع روزموند في المرآة قالت وهي تضحك:

«كم أبدو كبقعة سمراء بجانبك يا روزي، إنك أجمل رفيقة».

«كلا، لا أفكر في مظهرك، إنك مهذبة جدًّا ونافعة يا ماري. إن الجمال عنصر ثانوي في الحقيقة». قالت روزموند هذا، وهي تدير وجهها إلى ماري، لكن عينيها تنظران إلى رقبتها في المرآة.

قالت ماري بسخرية: «تعنين جمالي»، ثم قالت روزموند لنفسها: «يا لماري المسكينة.. تعتبر كل شيء حسن سيئاً»، ثم قالت بصوت مرتفع: «ماذا كنت تفعلين مؤخراً؟».

«أنا أعتني بالبيت، أعطي الدواء، أتظاهر باللطف والرضا، وأتعلم كيف يكون لي رأي سيئ بكل إنسان».

«إنها حياة بائسة بالنسبة إليك».

«كلا»، قالت ماري بجفاء مع حركة صغيرة برأسها: «أظن أن حياتي أسعد من حياة خادمتك الآنسة مورغن».

«نعم، لكن الآنسة مورغن مملة، وليست شابة».

«أظن أنها تمتع نفسها، ولست متأكدة من أن الأشياء تهون كلما تقدمنا في السن».

قالت روزموند بتأمل: «كلا، إنه لمن دواعي العجب، ماذا يمكن للناس أن يفعلوا دون مستقبل، لكن لديهم معتقداً دينيًّا يدعمهم، ولكن... وأضافت مبتسمة: «إن الأمر مختلف معك يا ماري، يمكن أن يتقدم لك خطيب».

«هل قال لك أحد إنه سيتقدم لي؟؟».

«بالطبع لا، أعني يمكن... هناك رجل يقع في حبك، لأنه يراك كل يوم». تعمدت ماري ألّا يظهر على وجهها أي تغير، فأجابت بلا مبالاة: «هل ذلك يجعل الناس يقعون في الحب؟ يبدو لي أنه سبب ليكره الناس بعضهم بعضاً».

«عندما نكون ممتعين ومقبولين، سمعت أن السيد ليدجيت يمتلك هاتين الصفتين».

قالت ماري وقد وقعت في هفوة دون أن تبالي: «أي السيد ليدجيت. تريدين أن تعرفي عنه؟؟»، أضافت قاصدة قطع الطريق أمام تلميحات روزموند: «أتساءل فقط كم تحبينه؟؟».

«ليست المسألة حبًّا الآن، إن حبي دائماً يحتاج إلى بعض اللطف كي يوقده، فصدري ليس رحباً لأحب من يتكلم معي دون أن ينظر إلي».

«أهو متغطرس إلى هذه الدرجة؟»، قالت روزموند برضا أكبر، «تعلمين أنه يتحدر من عائلة جيدة».

«كلا لم يتخذ ذلك سبباً».

«يا ماري إنك أغرب فتاة، لكنه أي نوع من الرجال هو؟ صفيه لي».

«كيف يمكن لواحدة أن تصف رجلاً، يمكنني أن أقدم لك بياناً مفصلاً: حاجبان كثيفان وعينان غامقتان وأنف مستوٍ، وشعر كثيف غامق اللون، ويدان كبيرتان قويتان، ودعيني أفكر... ومنديل قماش جميل يوضع في الجيب، كما تعرفين أن هذا وقت زيارته». احمرت روزموند قليلاً، لكنها قالت متأملة: «إنني أفضل الرجل المتعجرف ولا أطيق الرجل الثرثار».

«لم أقل لك إن السيد ليدجيت متعجرف، لكن لكل فرد ذوقاً يناسبه، كما كانت تقول المعلمة، وإذا كان لكل فتاة أن تختار الغرور الذي ترغب فيه لكانت أنت ياروزموند».

«التعجرف ليس كالغرور، أنا أدعو فرد بالمغرور».

«أرجو ألّا يقول أحد أسوأ من ذلك بحقه، يجب أن يكون أكثر حذراً، كانت السيدة وول تقول للسيد فيذرستون إن فرد ليس صارماً». تكلمت ماري بدافع أنثوي منحها قدرة أفضل على الحكم. لقد كان هناك خلاف غامض حول التعبير غير الصارم مما جعل ماري تتمنى لو أن روزموند تقول شيئاً يبدد ذلك الغموض، لكنها أحجمت متعمدة عن ذكر تلميحات السيدة وول: «إن فرد شخص مروع!»، قالت روزموند ما كانت تسمح لنفسها أن تقول هذه الكلمة لأي شخص سوى ماري.

«ماذا تعنين بأنه مروع؟».

«إنه كسول ومهمل، فيجعل والدي غاضباً جدًّا، ويقول إنه لا يتلقى الأوامر».

«أظن أن فرد على حق تماماً».

«كيف يمكن لك أن تقولي هو على حق تماماً يا ماري؟؟ كنت أظنك أكثر تديناً».

«لا يناسبه أن يكون رجل دين».

«ولكن يجب عليه أن يكون مناسباً».

«حسناً، إذاً فهو ليس كما يجب أن يكون، أعرف أناساً آخرين في مثل حالته».

«ولكن لا أحد يقبلهم، لا أحب الزواج من رجل دين، ولكن يجب أن يكون هناك رجال دين».

«لا يعني أن فرد يجب أن يكون أحدهم».

«ولكن لِمَ كان والدي ينفق على دراسته كي يكون رجل دين؟ افترضي لم يعد لديه ثروة يتركها له».

قالت ماري بجفاء: «أستطيع أن أفترض ذلك جيدًا».

قالت روزموند بهدف أن تثير هذه النقطة أكثر فأكثر: «إذاً إني أعجب لماذا تدافعين عن فرد»؟.

قالت ماري ضاحكة: «إنني لا أدافع عنه. سأحمي أيّ أبرشية تأخذه كرجل دين».

«ولكن بالطبع لو كان رجل دين لكان رجلاً مختلفاً».

«نعم، لكان مرائيًّا كبيراً، وهو لم يبلغ هذه المرحلة حتى الآن».

«لا فائدة من الحديث معك يا ماري، أنت دائماً تقفين إلى جانب فرد».

«لماذا لا أقف إلى جانبه؟»، قالت ماري هذا وقد أشرق وجهها. «إنه سيقف إلى جانبي، وهو الشخص الوحيد الذي يلاطفني».

قالت روزموند بلطفها الرزين: «إنك تسببين الإزعاج جدًّا يا ماري».

«لن أخبر أمي، ولو لأجل العالم كله».

قالت ماري بغضب: «ما الشيء الذي لن تخبريها إياه».

قالت روزموند بلطف شديد: «أرجوك ألا تغضبي يا ماري».

«إذا كانت أمك تخشى أن يتقدم فرد لي، قولي لها إنني لن أتزوجه حتى لو طلب مني الزواج، لكنه لن يفعل ذلك بحسب علمي، فهو بالتأكيد لن يطلبني».

«إنك عنيفة يا ماري!!!».

«وأنت دائماً تسببين الغضب للآخرين».

«أنا؟!! علامَ يمكن لك أن تلوميني؟».

«الناس الذين لا يلامون هم الأكثر إثارة لغضب الآخرين، الجرس يدق، وعلينا أن ننزل إلى الطابق السفلي».

قالت روزموند، وهي تضع قبعتها على رأسها: «لم أقصد الشجار».

«شجار!!! هذا هراء، إننا لم نتشاجر، إذا لم يغضب الفرد أحياناً، فما فائدة الصداقة إذاً؟».

«هل يجب علي أن أكرر ما قلته؟».

«كما تشائين، فأنا لا أقول شيئاً أخشى أن ينقل لأحد آخر، ولكن دعينا ننزل».

كان السيد ليدجيت قد تأخر هذا الصباح، لكن الزائرين ظلّا مدة أطول ليرياه، طلب السيد فيذرستون أن تغني له روزموند، وكانت كريمة جدًّا إذ غنت له أغنية ثانية يحبها «تابع جريانك أيها النهر المتلألئ» بعد أن غنت «البيت الجميل» - هي تكره هذه الأغنية - لكن الرجل العجوز العنيد انسجم مع هذه الأغنية العاطفية والوجدانية لأنها تناسب الفتيات، ولأن العاطفة تمثل عنصراً أساسيًّا للأغاني. وظل السيد فيذرستون يصفق للأغنية الثانية مؤكداً للآنسة روزموند أن صوتها عذب كغناء الشحرور، عندما مر حصان السيد ليدجيت قرب النافذة.

كان السيد ليدجيت قد سئم من الروتين الكريه الذي اعتاد عليه مع مريض مسن لا يستطيع أن يستوعب أن الدواء لن يعيد له الصحة والعافية، حتى لو كان الطبيب على درجة كافية من الذكاء، بالإضافة إلى أن عدم رضاه وقناعته بسحر مدل مارش، قد سببا له تأثيراً مزدوجاً لدى رؤيته روزموند، التي سارع السيد فيذرستون إلى تقديمها بفخر كابنة أخت له، على الرغم من أنه لم يخطر في باله أن يفعل الشيء عينه مع ماري جارث. لقد لاحظ السيد ليدجيت كل ما ظهر له من رشاقة روزموند، وكيف تجنبت برقة الملاحظة التي تضمنها تقديم الرجل العجوز لها، فهي لا تبدي غمازتيها في الوقت الخطأ، لكنها تبديهما في ما بعد عندما تتحدث مع ماري باهتمام فائق، مما جعل ليدجيت يلاحظ لطفاً فاتناً يرتسم على عيني روزموند بعد أن تفحص ماري أكثر من ذي قبل، لكن ماري بدت منزعجة لسبب ما.

قال السيد فيذرستون: «كانت الآنسة روزي تغني لي أغنية، ليس لديك ما تقوله ضد ذلك، آه..أيها الطبيب، إنني أحب ذلك أكثر مما أحب طبك».

«لقد جعلني ذلك أنسى كيف يمضي الوقت»، قالت روزموند هذا وهي تنهض لتتناول قبعتها التي علقتها جانباً قبل أن تبدأ الغناء، ليبدو رأسها الذي يشبه الوردة على غصنها الأبيض بكامل الجمال والروعة فوق لباس الفروسية.

«يا فرد... حقًّا يجب أن نذهب الآن».

«حسناً»، قال فرد الذي كانت لديه أسباب كافية تجعله يبدو تعساً، فأراد الذهاب.

«هل الآنسة فنسي موسيقية؟»، تساءل السيد ليدجيت، وهو يتابعها بنظره. كانت روزموند تدرك تماماً أن هناك من ينظر إليها بدقة، فلقد كانت بطبيعتها ممثلة لأدوار أثرت على بنية جسمها، كانت تمثل شخصيتها على درجة فائقة من الجودة إلى حدّ أنها لم تعِ ذلك.

قال السيد فيذرستون: «إنني أراهن على أنها أفضل فتاة في مدل مارش، فلتكن بعدها أيًّا من تكون، أليس كذلك يا فرد؟ دافع عن أختك».

«أظنني لست في محكمة يا سيدي، لن ينفع دليلي بشيء».

«لا يوجد في مدل مارش مستوى عال من الأغاني يا عم»، أجابته روزموند، وهي تمشي بخفة ورشاقة لتأخذ سوطها الذي كان بعيداً منها.

سبقها السيد ليدجيت، فوصل إلى السوط قبلها، وأمسك به ثم استدار وأعطاها إياه، انحنت ونظرت إليه، بالطبع كان ينظر إليها، فالتقت أعينهما لقاءً مميزاً لم يخطط له من قبل، ولكن بدا كانقشاع الغيمة المفاجئ. أظن أن السيد ليدجيت قد شحب لونه قليلاً أكثر من المعتاد، لكن روزموند احمرت بقوة، وأحست بنوع من الدهشة. بعد ذلك أرادت حقًّا الذهاب، ولم تعِ ثرثرة زوج خالتها عندما صافحته. إن هذه النتيجة التي اعتبرتها متبادلة بين الطرفين، وتدعى الوقوع في الحب كانت تماماً كما تأملتها روزموند من قبل. منذ وصوله إلى مدل مارش بدأت تنسج خيوط مستقبلها، فكان مشهد كهذا ضروريًّا للبداية. عندما تصاب سفينة الغرباء، وهم يحملون في مخيلتهم سحراً عرضيًّا بفتنة العذراوات، بحيث يتشبثون بأيّ طوافة، وتظل حقائبهم تواكبهم دون جدوى. كان يشكل وجوده ضرورة ملحة لرومانسية روزموند الاجتماعية التي كانت تتطلع إلى محب وعريس ليس من مدل مارش، وليس له أي أقرباء في مدل مارش، كان يطمح خيالُها حقًّا، أن يكون محبوبها باروناً. أما

الآن وقد التقت ذلك الغريب، فإن الحقيقة بدأت تأخذ مجراها أكثر من الخيال، ولم تشك روزموند أن ما هو آت من الوقت يشكل أعظم حقبة في حياتها. اعتبرت الأعراض التي طرأت عليها أنها أعراض حب مشتعل، فاعتبرت تلقائيًا أن السيد ليدجيت قد وقع في حبها من أول نظرة، وغالباً ما تحصل هذه الأشياء أثناء حفلات الرقص، ولكن، لِمَ لا تحصل في وضح النهار حيث تتجلى ملامح الوجه بشكل أفضل؟

على الرغم من أن روزموند لم تكن أكبر سنًا من ماري إلاّ أنها اعتادت على إيقاع الآخرين في غرامها، ولكن بالنسبة إليها ظلت غير مبالية وناقدة يصعب إرضاؤها تجاه الشاب اليافع والأعزب المتقدم في السن.

فجأة ظهر السيد ليدجيت، الذي يلبي طموحها وخيالها، فهو غريب تماماً عن مدل مارش، ويتميز بتحدّره من عائلة مرموقة تتمتع بعلاقات اجتماعية واسعة، يمكنها أن تفتح لها آفاقاً لتنخرط بالطبقة الغنية؛ ورجل موهوب ترغب بسرور في أن تكون جارية له على وجه الخصوص. في الحقيقة إنه رجل استطاع أن يحرك مشاعرها من جديد، ويدخل إلى حياتها متعة مفعمة بالحيوية والنشاط، أفضل من أي هوىً تنسجه في خيالها، ولا سيما أنها كانت بطبيعتها تعارض الواقع.

وهكذا ظل الأخوان في طريق عودتهما إلى منزلهما يميلان إلى الصمت. بالنسبة إلى روزموند التي كان يغلب على طابع شخصيتها الخيال المحدود، بدأت تنسج في خيالها تفاصيل مستقاة من الواقع عندما يحصل الزواج المفترض. فقبل أن يقطعا ميلاً واحداً، ذهبت بخيالها بعيداً لترى نفسها في لباس العرس، وتتصور بدايات حياتها الزوجية، وبدا أنها قررت أن يكون منزلها في وسط مدل مارش وراحت تتنبأ بالزيارات التي ستقوم بها لأقرباء زوجها المتحدّرين من أصول عريقة، الذين يمكن أن تتلاءم مع عاداتهم بالبراعة نفسها التي تلاءمت بها عند إتمامها لمرحلتها الدراسية في المدرسة، هكذا لتهيئ نفسها لطريق أكثر غموضاً، يحتمل أن يأتي. لم تفكر حتى الآن في الأمور المالية، إذ إنها ظلت تستحوذ على اهتمام أقل في مخيلتها. اهتمت بما كان يعتبر تهذيباً وليس بالمال، الذي سيترتب عليها دفعه.

أما بالنسبة إلى فرد فقد كان فكره منشغلاً بقلق، إلى حدّ أنه لم يمكن لأمله أن يخبو بسرعة، فلم يجد طريقة يتجنب بها تلبية طلب السيد فيذرستون الأحمق دون أن يترتب عليه تبعات كرهها أكثر من تلبيته لذاك الطلب. كان أبوه غاضباً سلفاً، وسيكون أكثر غضباً

إذا ما كان سبباً لفتور أكبر بين عائلته وعائلة بولسترود. لقد كان يكره الذهاب بنفسه إلى بولسترود والتحدث إليه، إلا أنه ربما بعد شربه للخمر تفوه بحماقات كثيرة حول ملكية السيد فيذرستون، ثم ضخمت عند نقلها إلى السيد فيذرستون. لذلك شعر فرد أنه جعل من نفسه إنساناً محتقراً لأنه تباهى بإرث متوقع سينتقل إليه من رجل بخيل عجوز، وغريب الأطوار كالسيد فيذرستون، ولأنه سيذهب ليطلب رسالة بناء على طلب فيذرستون نفسه، لكن تلك التوقعات...! كانت تدور في خلده، ولم يجد بديلاً إذا ما تخلى عنها، بالإضافة إلى ذلك فقد استدان مؤخراً ديناً جديداً سبب له القهر، ولا سيما أن فيذرستون أوشك على إيفائه ضمن شرط.

لم يكن الأمر ذا أهمية كبيرة، إذ إن دينه كان مبلغاً زهيداً، ولم يكن أمله في الإرث كبيراً؛ وقد عرف فرد رجالاً كثيرين، كان يخجل أن يبوح لهم بمشاكله الصغيرة، إذ تأمل أن شيئًا كهذا غالبًا ما يولد نزعة مرارة بغيضة. وعلى الرغم من كونه ابناً لصاحب مصنع في مدل مارش ووريثاً حتميًّا لأي شيء غير محدد، ثم شاباً مفعماً بالحيوية، وطموحاً ولديه شهية جيدة للحصول على أفضل الأشياء، فإن مظهره التعيس لا بد من أن يجعل حياته تعيسة. لم يخطر ببال فرد أن إقحام بولسترود في القضية كان من صنع فيذرستون، وما كان لذلك أي تأثير على موقفه، كان يبدو له جليًّا أن الرجل العجوز أراد أن يمارس سلطته من خلال تعذيبه قليلاً، ولربما ليمتع نفسه عندما يراه على خلاف مع بولسترود. توهم فرد أنه قد تعرف ما في أعماق نفس زوج خالته فيذرستون، على الرغم من ظنه في الحقيقة أن نصف ما رأى هناك ليس أكثر من انعكاس لرغباته. فالمهمة الشاقة لمعرفة نفس شخص آخر ليست من مهام شاب نبيل يتألف إدراكه من رغباته الخاصة بشكل رئيسي.

إن الفكرة المحورية في حوار فرد مع نفسه تتركز حول: هل يجب عليه أن يخبر أباه؟ أو يحاول حل المشكلة دون معرفة أبيه. ربما السيدة وول هي من كانت تحدث عنه، وإذا نقلت ماري جارث لروزموند ما قالته السيدة وول عنه، فمن المؤكد سيصل ذلك لأبيه، مما يجعله يسأل فرد بالتأكيد عن ذلك. فقال لروزموند، وهما يبطئان من سير فرسيهما: «هل أخبرتك ماري ما إذا كانت السيدة وول قد قالت شيئاً عني يا روزي؟».

«نعم حقًّا، إنها فعلت».

«ماذا؟!».

«بأنك لست حازماً جدًّا».

«هل كان ذلك كل شيء؟».

«أظن هذا كافياً يا فرد».

«هل أنت متأكدة من أنها لم تقل شيئاً آخر؟».

«لم تذكر ماري أي شيء آخر، لكنني أظن حقًّا، أنه يجب عليك أن تخجل من نفسك يا فرد».

«آه... يا للهراء لا تحاضري علي، ماذا قالت ماري حول ذلك؟».

«لست مجبرة على أن أقول لك، إنك تهتم كثيراً بما تقوله ماري، وأنت أكثر وقاحة من أن تسمح لي أن أتكلم».

«بالطبع، أنا أهتم بما تقوله ماري. إنها أفضل فتاة أعرفها».

«لم أحسبها الفتاة التي يمكنك الوقوع في حبها».

«كيف لك أن تعرفي ما الذي يوقع الرجال في الحب، الفتيات لا يعرفن أبداً!».

«على الأقل دعني يا فرد أنصحك ألا تقع في حبها، لأنها تقول بأنها لن تتزوجك، لو طلبت يدها».

«كان يمكنها أن تنتظر حتى أطلب يدها».

«لقد عرفت أن ذلك سيضايقك يا فرد».

«لا على الإطلاق، ما كانت لتقول ذلك لو لم تستفزيها».

وقبل أن يصل إلى البيت قرر فرد أن يخبر أباه بكل شيء ببساطة، فربما يتحمل مشقة التحدث مع بولسترود.

الكتاب الثاني

المسنّون والشباب

الفصل الثالث عشر

النبيل الأول: كيف تصنف رجلك؟ أهو أفضل الجميع؟.

وكيف يبدو تحت ردائه؟ أهو أفضل أم أسوأ؟.

أهو قديس أم مخادع؟ أهو صادق أم منافق؟.

النبيل الثاني: كلا، أخبرني كيف تقيّم ثروة كتبك، التي كالركام المتدفق عبر الأزمان؟ صنفها فوراً بحسب الحجم، وزينة غلافها، وطولها، وجلد غلافها الذي لا يغطي من تنوعها أكثر مما تغطي رقع التصنيف التي ابتكرها مكرك، لتصنف بها كُتّابك المغمورين.

قرر السيد فنسي نتيجة ما سمعه من فرد، أن يتحدث إلى بولسترود في غرفته الخاصة في المصرف عند الساعة الواحدة والنصف، أي عندما ينتهي من المراجعين الآخرين، ولكن.. حضر زائر في الساعة الواحدة، ولدى بولسترود الكثير ليتحدث معه، فمن المرجح أنه لن ينتهي من المقابلة في نصف ساعة فقط.

كان حديث صاحب المصرف فصيحاً ووافراً، وكان يتوقف مرات عديدة في أثناء كلامه للتأمل. لا يمكنك أن تتخيله مريضاً، وقد اصفر وجهه، لقد كانت بشرته صفراء شاحبة، وكان شعره الخفيف الرمادي الداكن اللون تتناثر بينه خصلات بنية، وكانت عيناه واسعتين رماديتين فاتحتي اللون، وجبهته عريضة، وكان من أصحاب الصوت المرتفع، يسمون صوته اللطيف بالصوت المنخفض، وكان في بعض الأوقات لا يتناسب مع صراحته. وعلى الرغم من ذلك، فلا يمكننا أن نعذر ذا الصوت المرتفع، على كتمان كل شيء سوى صوته، ما لم نعتبر أن الكتاب المقدس قد وضع الصراحة في الرئتين. كان السيد بولسترود مهذباً في استماعه للآخرين، ومحترماً لمشاعرهم، وينظر إليهم باهتمام بالغ مما يجعل أولئك

الذين يظنون أنهم جديرون في استماعه إليهم، يشعرون أنه يطلب الارتقاء بحديثهم، أما بعض الآخرين الذين اعتقدوا أن لا أهمية كبيرة لكلامه، فلم يحبوا تلك النظرة الحادة... إذا لم تكن فخوراً بمخزن خمرك لن تشعر بالرضا لدى رؤيتك لضيفك، وهو يمسك بكأسه ويرفعها إلى الضوء ليحكم عليها... تقتصر هذه المنة على أهل الجدارة المحسوسة. هكذا، لم يكن اهتمام بولسترود الدقيق مقبولاً لدى أصحاب الحانات والمذنبين، إذ أشار بعضهم إلى ذلك لكونه مرائياً، وأشار بعضهم الآخر إلى كونه بروتستانتياً، وباحثون آخرون سطحيون أرادوا الانتقاص من قيمة أبيه وجده آخذين في الاعتبار أن عائلة بولسترود لم تكن معروفة في مدل مارش قبل خمسة وعشرين عاماً، لذا لم تكن نظرته المتفحصة بالنسبة إلى ضيفه الحالي السيد ليدجيت ذات أهمية، فهو ببساطة قد كون فكرة حول مزاج صاحب المصرف، فاستنتج أن في داخله توقاً للاستمتاع بشؤون واقعية.

قال صاحب المصرف بعد أن صمت قليلاً: «سأكون مسروراً جدًّا إذا ما ظللت تزورني هنا بين الفينة والأخرى يا سيد ليدجيت. إذا ما كنت معيناً جيداً لي في أمر إدارة المستشفى، عندها سيكون هنالك الكثير من المسائل التي نحتاج إلى مناقشتها على انفراد، بالنسبة إلى المستشفى الجديد الذي يتم إنجازه قريباً. أمّا ما قلته حول فائدة عزل مرضى الحمى، فسيظل القرار لي، وعلى الرغم من أن اللورد ميدل كوت قد قدم الأرض والخشب الذي يستعمل في البناء فإنه لا يرغب في إبداء اهتمامه الكامل للمشروع».

قال السيد ليدجيت: «هنالك أشياء أخرى تستحق مجهوداً أكبر في هذه البلدة الإقليمية. مستشفى جيد لأمراض الحمى إلى جانب المستشفى القديم، ويحتمل أن يكونا نواة لكلية طب هنا. عندما نطور نظامنا الصحي، فأي شيء يمكن أن يساهم في مجال التعليم الطبي أكثر من انتشار كليات كهذه في أنحاء البلاد؟ يجب على كل رجل ولِد في الإقليم وعنده أفكار مفيدة، ويتمتع بانتماء وثيق إلى هذا الإقليم أن يفعل ما في استطاعته ليقاوم تيار السلبيات المألوفة في لندن، ويمكن لجميع الأهداف المهنية أن تجد أرضاً خصبة في الأقاليم».

كانت إحدى نِعم السيد ليدجيت صوته الجهوري الذي يمكن له أن يكون منخفضاً ولطيفاً في بعض الأوقات، وبحسب المناسبات، ومشيته التي كانت تدل على ثقته العالية بنفسه، وأمل بالنجاح لا يشوبه أي قلق. كما أنه كان يتمتع بقدرات ذاتية واستقامة سلوك، محصناً بازدرائه للعراقيل التافهة، لئلا يقع في ما ليس له خبرة فيه. لكن هذه الصراحة

المغرورة باتت مقبولة لما كان يبدو عليه من تعابير تدل على شعور بالود والمحبة، فلربما أحبه السيد بولسترود رغم أنهما كانا يختلفان بالصوت وبالسلوك. بالتأكيد لقد أحبه كما أحبته روزموند لكونه غريباً عن مدل مارش، ويمكن للرجل أن يبدأ بتحقيق أشياء كثيرة مع من هو حديث العهد في الإقليم، بما في ذلك تغيير الذات نحو الأفضل.

أجاب السيد بولسترود: «إنه لمن دواعي السرور أن أحقق لك الكثير مما تصبو إليه أعني أن أوكل إليك إدارة مشفاي الجديد، لهو أمر يحتاج إلى صاحب معرفة ناضجة، فأنا مصمم على ألّا يبقى هدفنا العظيم مقيداً بسلاسل الطبيبين الآخرين في مدل مارش، وأنا أعتبرها إشارة عظيمة على أن رحمة جلية ستكلل جهودي التي تواجه العراقيل حتى هذه اللحظة. بالنسبة إلى المستشفى القديم لقد فزنا بالهدف الأول؛ أعني انتخابك، والآن أتمنى ألّا تستاء جدًّا من الغيرة والكراهية من زملائك عندما تقدم نفسك مصلحاً».

قال السيد ليدجيت مبتسماً: «لن أتنبأ بالشجاعة. ولكنني أعترف بإحساسي بمتعة عندما أشاجر الآخرين، وإذا لم أؤمن بضرورة إيجاد طرق أفضل يجب تطبيقها في كل مكان، فأنا لا آبه فحسب بل أستهتر بمهنتي».

قال صاحب المصرف: «إن مستوى هذه المهنة منخفض في مدل مارش يا عزيزي، أعني في مضمار المعرفة والمهارة، وليس في مضمار الجانب الاجتماعي. فمعظم الأطباء تربطهم علاقات جيدة بالسكان المحترمين هنا، وإن الصحة المعتلة جعلتني ألجأ إلى المسكنات التي جعلتها الرحمة الإلهية في متناول أيدينا. لقد استشرت رجالاً متفوقين في العاصمة، وأنا أعي، بألم، تخلف الطب في أنحاء إقليمنا».

«نعم، بموجب القوانين الطبية المعمول بها الآن وكذلك تعليم الطب، لا بد لنا من أن نقنع أنفسنا عندما نلتقي طبيبًا جيّدًا بين الفينة والأخرى، لا يمكن لأي مقدار مهما كان حجمه صغيراً من جميع القضايا التي تشكل نقطة الانطلاق للتشخيص، ولا الدلائل الطبية، أن ينمو ويزدهر إلا ضمن ثقافة طبية، غالباً ما يكون الطبيب المتمرن في الريف ملمًّا بها أكثر مما يلم بها رجل يعيش على القمر».

لم يجد السيد بولسترود في طريقة تعبير السيد ليدجيت ما يناسب فهمه، وفي مثل هذه المناسبات غالباً ما يغير الرجل الحصيف الموضوع ليدخل في موضوع يمكن لموهبته أن تخدمه أكثر. قال: «أنا أعلم أن النزعة الغامضة للقدرة الطبية تذهب تجاه الوسائل المادية.

في أيّ حال يا سيد ليدجيت، أتمنى ألّا نختلف في وجهات نظرنا، فلا نقوم بقياس ما تهتم به، ولكن كيف يمكن لمنافستك أن تكون مصدر منفعة لي. أتمنى لو أنك تأخذ في الاعتبار الاهتمامات الروحية لدى مرضاك».

«إنني أفعل ذلك بالتأكيد، لكن هذه الكلمات تعطي معاني مختلفة للعديد من الناس».

«بالضبط... إن غياب التعليم، كما التعليم الخاطئ، لهما التأثير نفسه على مثل هذه الأشياء. هنالك أمر يدور في خلدي أريد تحقيقه، وهو إدخال نظام جديد يصار بموجبه إلى تطوير العمل المكتبي في المستشفى القديم. يقع البناء ضمن أبرشية السيد فيربرذر. هل تعرف السيد فيربرذر؟؟».

«لقد رأيته، وأعطاني صوته، يجب علي أن أشكره، يبدو أنه رجل ذكي ولطيف، وعلمت أنه ينتمي إلى المدرسة الأدبية الطبيعية».

«إن السيد فيربرذر لهو رجل يستحق التفكير فيه، يا سيدي العزيز أظن أن ليس هناك رجل دين في هذا البلد يمتلك موهبة أعظم من موهبته». ثم توقف السيد بولسترود عن الكلام لبرهة متأملاً.

قال السيد ليدجيت باهتمام: «لم أجد موهبة عظيمة في مدل مارش حتى الآن».

«ما أرغب فيه» - تابع السيد بولسترود، وهو يبدو أكثر جدية - «أن يستبدل وجود فيربرذر بتعيين القس تايك، وألا يطلب من أي رجل دين آخر المساعدة».

«إنني كطبيب لا أملك وجهة نظر حول هذه المسألة قبل أن أرى السيد تايك، وحتى حينها أريد أن أعرف الحالات التي تعامل معها». وابتسم السيد ليدجيت، لكنه كان حذراً.

«بالطبع لا يمكن أن تفهم فوائد هذه المسألة في الوقت الحاضر، ولكن».. وبدأ السيد بولسترود يتكلم بتأكيد أوضح، «من المرجّح أن القضية سوف تحال إلى مجلس إدارة المستشفى، وما يمكنني أن أطلب منك بثقة بموجب التعاون الذي أصبو إلى أن يكون بيننا، ألّا تتأثر بمن يعارضونني في هذه المسألة».

قال ليدجيت: «أرجو ألّا يكون لي علاقة بالخلافات الدينية».

«لقد اخترت الطريق الذي سأسلكه وهو العمل ضمن مهنتي فقط».

«إن طبيعة مسؤوليتي هي أوسع من ذلك يا سيد ليدجيت، فهذه المسألة بالنسبة إلي تشكل مسؤولية مقدسة، أما بالنسبة إلى معارضيّ فهم يجدونها مناسبة لتعظيم روح المعارضة العامة، لكنني لن أتخلى مقدار ذرة أو أحجم عن التعريف بنفسي بسبب الاتهامات الموجهة ضدي، والتي يكرهها جيل فاسد بأكمله. لقد كرست نفسي لهدف تطوير المشافي، وأعترف لك يا سيد ليدجيت بشجاعة أنني ما كنت لأهتمّ بشؤون المشافي إلا لأنني أثق في أن الأمر يتعلق بشأن شفاء المرضى من الأمراض المستعصية فقط، ولدي حوافز أخرى للعمل، لن أخفيها أمام الاضطهاد». وهنا ارتفع صوت بولسترود واغتاظ قليلاً، وهو يقول كلماته الأخيرة.

قال ليدجيت: «هنا نختلف بالتأكيد». لكنه لم يأسف عندما فتح الباب، إذ أصبح أكثر اهتماماً برؤية الشخص الاجتماعي اللامع بعد أن قابل روزموند، لم يكن يسبح بخياله مثلها كأي رجل يتذكر فتاة فاتنة بسرور، ويرغب في تناول العشاء معها. وقبل أن يذهب قدم له السيد فنسي دعوة ليست بالقريبة، أما روزموند فقد ذكرت في وقت الإفطار أن زوج خالتها السيد فيذرستون ممتن من الطبيب الجديد.

صب السيد بولسترود كأس ماء، وفتح علبة شطائر بعد أن أصبح لوحده مع شقيق زوجته: «هل لي أن أفرض عليك برنامج حميتي يا فنسي؟».

قال السيد فنسي: «كلا، كلا، لا أنسجم مع هذا النظام، فالحياة تحتاج إلى بعض الشحوم»، وهو عاجز عن ترك نظريته، في أيّ حال تابع وهو يؤكد نطقه للكلمة، وكأنه يحاول إبعاد كل ما يتعلق بها: «ما أتيت للتحدث به هو أمر يتعلق بابني فرد الشاب».

«إنه موضوع يختلف حوله كلانا، كما نختلف حول برنامج الحمية يا فنسي».

تعمد السيد فنسي المزاح: «أتمنى... ليس في هذا الوقت. تدور القصة حول نزوة صدرت من فيذرستون العجوز، حبكَها أحدهم لتنم عن حقده، و قدمها للرجل العجوز ليوغل صدره على فرد، لكن العجوز يحب فرد جدًّا، ويبدو من المرجح أنه يقدم شيئاً مفيداً لفرد، لقد أومأ لفرد أنه سيترك أرضه، مما جعل الناس غيورين من فرد».

«فنسي لابد لي من أن أكرر على مسامعك أنني لن أوافقك الرأي في ما قدمته لابنك الأكبر، لقد كان غروراً شديداً عندما وجهته إلى الكنيسة، ولم تكن على حق عندما أنفقت المال على تعليم مرتفع التكلفة، والذي لم يحقق أي نجاح سوى تزويده بعادات الإسراف السيئة ولا سيما وأنت أب لعائلة تتألف من ثلاثة أبناء وأربع فتيات، فها أنت تحصد النتائج».

كان السيد بولسترود شغوفاً بالإشارة إلى عيوب الآخرين، ولكن لم يكن السيد فنسي مهيأً لتحمل هذه الانتقادات. عندما يكون الرجل في موقع يمكن له أن يصبح عمدة في القريب العاجل، فهو مستعد كي يتخذ موقفاً راسخاً في السياسة لأجل المصالح التجارية يكون مدركاً أهميته بالنسبة إلى جميع القضايا بما فيها الشؤون الخاصة، وقد أقلقه هذا الاستنكار أكثر من أي شيء آخر. لم يكن من الضروري أن يقال له إنه يحصد النتائج، ممّا جعله يشعر بأن نير بولسترود يطوق عنقه. وعلى الرغم من أنه كان يستمتع بمعارضته للآخرين فإنه تعمد الإحجام عن ذلك.

«بالنسبة إلى ذلك يا بولسترود لا فائدة من الرجوع إليه، لست أحد الذين يحذون حذوك ويقلدونك، ولا أتظاهر بذلك. فلا يمكنني التنبؤ بما مررنا به في تجارتنا، على الرغم من أنه لم يكن هناك أي عمل حر أنجح من عملنا في مدل مارش. وكان ابني ذكيًّا، وكان أخي المسكين يعمل في الكنيسة، وكان يمكن لفرد أن يحقق نجاحاً كبيراً، فكان يمكنه أن يحصل على ترقية لو لم يقض بمرض معدته. إذاً لكان كاهن كاتدرائية الآن. أظن أنني كنت على صواب في ما فعلته لفرد، وإذا ما تحدثنا عن الدين فإنني أعتقد أنه يجب على الرجل ألا يقطع اللحم الذي لديه، ويهيئه سلفاً؛ فيجب على المرء أن يثق بالعناية الإلهية فيصبح كريماً، إنه شعور بريطاني حسن أن تحاول أن ترفع من مستوى العائلة قليلاً. وفي رأيي إن من واجب الأب أن يقدم لأبنائه فرصة حسنة».

«إنني أريد أن أتصرف كأفضل صديق لك يا فنسي، عندما أقول: إن ما قلته الآن يشكل كومة من الأمور الدنيوية، وحماقة غير معقولة».

«حسناً»، قال السيد فنسي معارضاً، بالرغم من القرارت.. «لم أرغب في أن أكون سوى دنيوي، وأكثر من ذلك فأنا لا أرى أحداً إلا دنيويًّا، أظنك لا تقوم بعملك بموجب ما تسميه مبادئ غير دنيوية، الفارق الوحيد الذي أراه أنه يمكن لدنيوي أن يكون أكثر نزاهة من دنيوي آخر».

«إن هذا النوع من الحوار غير مجد يا فنسي». هذا ما قاله السيد بولسترود الذي سند ظهره إلى الكرسي بعد أن أنهى تناوله لشطيرته، ووضع يده فوق عينيه ليبدو وكأنه تعب. «كنت ستقول شيئاً آخر».

«نعم، نعم، الأمر باختصار هو أن أحداً قد قال لفيذرستون نقلاً عنك أن فرد قد استدان مالاً، أو يحاول أن يستدين مالاً بضمان أرضه، وبالطبع أنت لم تقل شيئاً من هذه الترهات،

لكن فيذرستون العجوز يصر على فرد أن يحضر رسالة تكتبها أنت تنفي فيها ذلك. كل المطلوب، كتابة ملحوظة تقول فيها: إنك لا تصدق كلمة من هذا القبيل، في ما إذا استقرض أو حاول أن يستقرض بمثل هذه الطريقة الحمقاء. وأظن أن لا مانع لديك من أن تفعل ذلك».

«عذراً، لدي مانع... أنا متأكد جدًّا من أن ابنك بطيشه لم يحاول أن يجمع نقوداً بضمان مستقبله، وربما لن يكون أحد شديد الحماقة ليقرضه مالاً بضمان واهم كهذا. إن إقراض المال السهل يشبه الحماقات الأخرى في العالم».

«لكن فرد أقسم لي إنه لم يستدن مالاً بضمان أرض زوج خالته. إنه لا يكذب. وأريد أن أظهره أفضل مما عليه. لقد وبخته بقسوة، ولا يمكن لأحد أن يقول إنني أتغاضى عما يفعل، لكنه لا يكذب ربما كنت على خطأ، عندما اعتقدت أنه لا يوجد دين يمنع الرجل من أن يثق بشاب يافع، عندما لا تعرف عنه ما هو سيئ. ويبدو لي أنه ضعف ديني عندما تعرقل خططه، وأنت ترفض الاعتراف بأنه يقوم بشيء ضار لأنك لا تملك دليلاً على ذلك».

«لا أظنني أفعل معروفاً لابنك إذا ما مهدت الطريق ليحصل على ملكية فيذرستون في المستقبل، إذ لا يمكنني اعتبار الثروة كنعمة إلهية لأولئك الذين يعتبرونها كحصيلة حتمية لهم في هذا العالم. إنك لا تحب سماع هذه الأشياء يا فنسي، لكنني في هذه المناسبة يتوجب علي أن أقول لك إنه ليس لدي حافز لأساعد في نقل هذه الملكية من طريق الوصية بالطريقة التي أشرت إليها. إنني لا أتردد في القول بأن هذه الملكية لا تعود بالنفع الدائم لابنك، ولن تقوده إلى معرفة عظمة الرب، فلماذا إذن تتوقع مني أن أسطر لك شهادة خطية بقَسَم لا فائدة لها سوى المجاراة الحمقاء، وتأمين وصية حمقاء؟».

«إذا كنت تعني أن تعرقل كل إنسان من الحصول على المال باستثناء القساوسة والمبشرين، فعليك أن تتخلى عن بعض مساهماتك التي تجني منها منفعة لنفسك، هذا كل ما يمكنني قوله».

انفجر السيد فنسي بعنف: «يمكن أن يكون ذلك لأجل عظمة الرب، لكنها ليست لأجل تجارة مدل مارش، فمؤسسة بليمديل تستخدم الأصبغة الزرقاء والخضراء التي تجلبها من معمل براسنغ، وهي تفسد الحرير، وهذا كل ما أعرفه عنها. ربما عندما يعلم الناس أن معظم المردود يذهب لأجل عظمة الرب لربما أحبوها أكثر، لكنني لا آبه كثيراً، يمكنني أن أخاصم بحدة لو شئت ذلك».

صمت السيد بولسترود قليلاً قبل أن يجيب: «إنك تؤلمني كثيراً عندما تتكلم بهذه الطريقة يا فنسي، إنني لا أتوقع منك أن تتفهم دواعي عملي... إنه ليس من السهل أن تشق طريقاً أمام المبادئ في غمرة التعقيدات في هذا العالم، وما هو أصعب من ذلك حين توضح ذلك الطريق لمستهتر أو ساخر. عليك أن تتذكر - لو سمحت - أنني أتحملك فقط لأنك شقيق زوجتي، وإنه ليليق بك قليلاً أن تتهمني بأنني أمتنع عن تقديم المساعدة المالية التي تسهم في تحسين وضع أسرتك، يجب أن أذكرك أن لا حنكتك، ولا تدبرك فقط يمكنانك من الحفاظ على مكانتك في عالم التجارة».

«ربما ليس كذلك، لكنك لم تخسر في تجارة حتى الآن». قال السيد فنسي، وقد غضب بشدة (ونظراً إلى تعنته كان نادراً ما يغضب).

«وعندما تزوجت من هاريت لا أستطيع أن أفهم كيف توقعت أنه لا يمكن للعائلتين أن تتساويا. إذا كنت قد غيرت رأيك وتريد من عائلتي أن تنزل عن مستواها، فمن الأفضل أن تقول هذا، أما أنا فلم أتغير، إنني مجرد رجل كنيسة الآن كما كنت قبل أن تظهر المبادئ. إنني أفهم العالم كما هو في التجارة، وفي كل شيء. إنني أكتفي وأقنع بأن لا أكون في مستوى أقل من جيراني، ولكن إذا كنت تريدنا أن ننزل عن مستوانا فقل ذلك، عندها سأعرف ماذا أفعل».

«إن كلامك ليس منطقيًا، هل ستتنازل قليلاً لتحصل على الرسالة التي تتعلق بابنك؟».

«حسناً، إن أعطيتها، أو لم تفعل، فإنني أرى أن ليس من اللائق ألا تكتبها. يمكن لمضمون هذه الأفعال أن يكون دينيًا، لكن ظاهرها قبيح يمكنك أن تشهر بفرد عندما ترفض أن تقول بأنك لم تدع فرصة للتشهير به أن تقع. إن شيئاً من هذا النوع - أي روح شريرة كهذه - تتمنى لصاحبها أن يكون رجل دين واعظاً، ومالك مصرف في كل مكان، فشيء من هذا النوع يجعل الرجل ذا سمعة سيئة للغاية».

قال السيد بولسترود، وقد عبس وجهه، وشحب أكثر من المعتاد: «إذا كنت تلح على الشجار معي يا فنسي، فإن ذلك سيكون مؤلماً لهاريت ولي أيضاً. إنني لا أريد الشجار لأن من مصلحتي، وربما من مصلحتك أن نكون أصدقاء، إنني لا أحقد عليك، أو أفكر فيك سوءاً أكثر مما أفكر في غيرك، فرجل يتم صيامه وصلاته مع أسرته، ويؤمن بدينه ويقوم بأشياء أخرى كما تفعل أنت، يمكنه أن يجمع المال بالسرعة نفسها التي يجمع بها أولئك الذين يلعنون ويشتمون؛ الكثير من الناس يفعلون ذلك، تحب أن تكون زعيم دين موقر لا إنكار لذلك؛ إذ

تحب أن تكون أول من يدخل الجنة، وإلا ما أحببتها. لكنك زوج أختي، فيجب أن نبقى على وفاق، وأنا أعرف هاريت، فهي ستعتبر ذلك خطأ منك - إذا ما تشاجرنا - لأنك تعظم ما لا شأن له، وترفض أن تقدم لفرد خدمة، وأنا لن أقبل ذلك منك، وسأعتبر تصرفك غير لائق». ثم نهض السيد فنسي، وبدأ يزرِّر معطفه، ثم حدق بزوج أخته مبدياً انتظاره لجواب حاسم. لم تكن هذه أول مرة يلوم بها السيد بولسترود السيد فنسي، ثم يرى صورته غير مرضية تظهر في مرآة عقل صاحب المصنع غير مصقولة، وكان ذكاء السيد فنسي يعكس لمعان وعتمة أولئك الأشخاص الذين يتعامل معهم، ولربما خبرة السيد بولسترود السابقة مكنته من أن يتنبأ بكيفية إنهاء هذا الموقف. لكن الينابيع كريمة بعطائها حتى وقت المطر عندما لا يكون أي نفع لها كما هي ينابيع اللوم لا يمكنك كبحها، ولا السيطرة عليها. لم يكن من طبيعة السيد بولسترود أن يذعن على الفور للاقتراحات المزعجة، وكان عليه أن يخفف من وطأة نزاعاته قبل أن يغير رأيه أخيراً فقال: «سأتجاوز معك قليلاً يافنسي... سأشرح الموضوع لهاريت، ولربما سأرسل لك رسالة».

«حسناً، في أسرع وقت ممكن لو سمحت، أتمنى أن ينتهي هذا الموضوع قبل أن أراك غداً».

الفصل الرابع عشر

خذ هذه الوصفة الطهوية الدقيقة لتحضير حساء لحم لذيذ،

والتي تدعى الكسل، ويفضل تناولها الكثيرون،

فيجدونها شهية ولذيذة: بادئ ذي بدء إبحث عن لقيمات، كما يفعل الكلب،

ثم امزجها جيداً بقبضة يدك، ثم اخلطها بزيت التملق الكثيف،

ثم حولها إلى زبد بكذب تمجيد الذات اللئيمة،

عندها قدمها ساخنة: وإن أفضل أوانٍ تختارها لتحفظها بها هي أحذية الموتى.

يبدو أن استشارة بولسترود لزوجته هاريت قد أتت أكلها لصالح السيد فنسي. ففي صباح اليوم التالي حضرت الرسالة المطلوبة كدليل، فحملها على الفور فرد إلى السيد فيذرستون.

كان الرجل العجوز يقبع في فراشه، وذلك لبرودة الطقس، وبما أن ماري جارث في غرفة الجلوس، صعد فرد إلى الطابق العلوي مباشرة، وقدم الرسالة لزوج خالته الذي اتخذ جلسة مريحة له على السرير، وكان يتمتع بحالته الذهنية المعتادة، والتي كان يستخدمها في شكه بالآخرين واحباطه لهم. وضع نظارته على عينيه ليقرأ الرسالة، وهو يزم فمه.

«إنني لا أمتنع عن الإدلاء بقناعتي – كم هي رائعة كلمات هذا الرجل، إنه رائع كبائع المزاد – إن ابنك فردريك لم يستدن أي مبلغ من المال بضمان الإرث الذي وعد به السيد فيذرستون – وعد...؟؟ من قال إنني وعدت...؟؟، لم أعد بشيء... سأجري تعديلات على الوصية قدر ما أشاء، وبناء على طبيعة هذا التصرف، فمن غير المعقول أن نفترض أن شاباً ذا عقل وإدراك، يمكنه أن يحاول القيام بذلك... آه، ولكن الرجل لم يقل إنك شاب ذو

عقل وإدراك. دون ذلك يا سيدي... بالنسبة إلي يمكنني أن أؤكد بأن ابنك قد استدان مالاً بضمان أي ملكية يمكن أن تنتقل له بعد موت السيد فيذرستون، فليسعد الله قلبي، ملكية... تنتقل... وفاة... لا يشكل المحامي ستانديش شيئاً أمامه، ما كان ليتكلم أفضل من هذا لو أراد الاقتراض، حسناً». نظر السيد فيذرستون من فوق نظارته إلى فرد، وهو يعيد الرسالة إليه بإيماءة ازدراء: «لا تظنني أصدق شيئاً لأن السيد بولسترود يكتبه بطريقة منمقة، إيه؟؟».

تلون وجه فرد: «أردت الحصول على الرسالة يا سيدي، أظن أن إنكار السيد بولسترود لا يقل قوة عن المرجعية التي أخبرتك ما أنكره السيد بولسترود».

«بتفصيلاتها، لم أقل إنني أصدق أيًّا منهما، والآن ماذا تتوقع؟»، قال السيد فيذرستون بفظاظة، وقد أبقى نظارته على عينيه، لكنه أعاد يديه تحت الغطاء، «إنني لا أتوقع شيئاً يا سيدي». هذا ما قاله فرد وهو يكبح جماح غضبه: «أتيت لأجلب لك الرسالة، لو شئت لاستأذنت منك، وانصرفت».

«ليس بعد، ليس بعد، اِقرع الجرس أريد أن تأتي الآنسة».

حضرت الخادمة فقال السيد فيذرستون بلا صبر: «قولي للآنسة أن تحضر.. ما الذي شغلها عني».

عندما حضرت ماري تكلم بالنبرة نفسها: «لماذا لم تبقي هنا حتى أقول لك اذهبي؟ أريد صدريتي الآن؟ لقد قلت لك أن تبقيها دائماً على السرير». بدت عينا ماري محمرتين، وكأنها كانت تبكي، فمن الواضح أن فيذرستون في حالة غضبه الشديد هذا الصباح. وعلى الرغم من أن فرد بدأ يحصل على النقود التي يحتاجها فإنه فضل أن يقول للرجل الظالم: إن ماري جارث أفضل من أن تكون في خدمته، وعلى الرغم من أن فرد نهض عندما دخلت الغرفة، فإنها لم تره، وبدت وكأن أعصابها ترتعش خوفاً من أن يقع عليها شيء ما، ولكن لم يكن يخيفها شيء أسوأ من الكلمات السيئة التي كانت توجه إليها، وعندما توجهت لتناول الصدرية من على المشجب نهض فرد إليها، وقال: «اسمحي لي».

قال السيد فيذرستون: «دعها... اجلبيها أنت يا آنسة، وضعيها هنا».

أضاف السيد فيذرستون، عندما وضع الصدرية بجانبه: «اذهبي الآن ولا تعودي حتى أناديك». كان من عادته أن يستمتع بتفضيل شخص على حساب الآخر، وكانت ماري دائماً

في متناول يده كي تكون الضحية. فحين كان أقرباؤه يأتون كان يعاملها أفضل مما يعاملهم. ثم أخرج ببطء حزمة مفاتيح من جيب صدريته، وسحب ببطء كذلك صندوقاً معدنياً من تحت سريره»:... إنك تتوقع مني أن أقدم لك ثروة صغيرة. إيه؟». هذا ما قاله وهو ينظر من أعلى نظارته دون أن يتكلم، رافعًا غطاء الصندوق.

«كلا البتة، يا سيدي، لقد فعلت خيراً عندما وعدت بمنحي هبة في ذلك اليوم، ولم أكن لأفكر في الأمر قط». وكان ينتاب فرد أمل كبير ونظرة كلها ترقب للحصول على مبلغ كاف ليخرجه من القلق الذي ينتابه، فعندما وقع فرد في الدين كان دائماً يأمل في أن شيئاً ما سيحدث في الوقت المناسب دون أن يحدد طبيعته، ليساعده في سد دينه في الوقت المحدد. والآن وقد بدا الحدث السعيد في متناول يده، فسيكون من السخافة التفكير في أن المبلغ أقل من المطلوب، وذلك كسخافة المدين الذي يؤمن بنصف المعجزة لأنه ينقصه الإيمان بالمعجزة كلها.

قلب الرجل العجوز بأصابعه العديد من الأوراق النقدية الواحدة تلو الأخرى، ثم وضعها ثانية بينما كان فرد يجلس في كرسيه مخفياً تلهفه متماسكاً ليبدو كرجل نبيل في الصميم، وقد كره التملق لرجل عجوز من أجل المال. أخيراً رمقه السيد فيذرستون من فوق نظارته وقدم له رزمة صغيرة من النقود، استطاع فرد أن يتبين بوضوح أن عددها لا يتجاوز الخمس قطع فقط، ولكن ربما كانت كل منها بخمسين جنيهاً.

أخذها قائلاً: «إنني ممتن لك جدًا يا سيدي»، وكان سيلفها، ويضعها في جيبه دون أن يفكر حتى في قيمتها، لكن ذلك لم يرق للسيد فيذرستون الذي كان يحدق فيه عن قصد، «هيا ألا تعتقد أنها تستحق منك أن تعدها، إنك تأخذ النقود، وتنفقها وكأنك لورد».

«أردت أن أبدو ممتنًا لهديتك يا سيدي، لكنني سأكون مسروراً عندما أعدها». لم يكن فرد سعيداً بعد أن عدها، لأنها كانت أقل مما أمل. ماذا يمكن لكفاءة الأشياء أن تعني ما لم تكن في مستوى توقعات الإنسان؟ جعل هذا الإنفاق العبث والكفر يفغران فاهما من خلفه، فكانت صدمته شديدة جدًا عندما اكتشف أنه لم يحصل على أكثر من مائة جنيه، فلم يبدُ أن تعلمه الجامعي قد ساعده في أيّ حال، ثم قال، وقد طرأت تغييرات سريعة على تقاطيع وجهه الوسيم: «إنه لكرم شديد منك يا سيدي».

«أعتقد ذلك»، قال السيد فيذرستون وهو يقفل صندوقه، ويعيده إلى مكانه، ثم نزع

نظارته متعمداً، ومتباطئاً ليبدو وكأن كلماته قد أقنعته فكررها قائلاً: «أعتقد أنه كرم شديد».

قال فرد الذي أخذ وقته الكافي ليستعيد بهجته: «أؤكد لك يا سيدي أنني ممتن جداً».

«هكذا يجب أن تكون، إنك تريد أن تحصل على مكانك في هذا العالم، واعتقد أن بيتر فيذرستون هو الشخص الوحيد الذي يجب أن تثق به». هنا لمعت عينا الرجل العجوز لما تكونت لديه قناعة أن الشاب الوسيم يعتمد عليه، وأنه أحمق لأنه يفعل ذلك.

قال فرد، وقد دهش قليلاً عندما أحس بنزاهته آخذاً في الاعتبار كم عومل بقسوة: «حقًّا لم أولد لأحصل على فرص عظيمة، قليل من الرجال تعثروا أكثر مما تعثرت».

«حقًّا، إنك لتظهر بمظهر سيئ حين تركب حصان صيد مريضاً بالربو، وترى من فوقه رجالاً ليس لديهم نصف حكمتك، ويستطيعون إنفاق أي مبلغ من المال في صفقات خاسرة».

قال السيد فيذرستون مقهقهاً: «حسناً، يمكنك أن تشتري لنفسك حصاناً جيداً الآن. أظن أن ثمانين جنيهاً تكفي لذلك، ويبقى لك عشرون جنيهاً لتخرج بها نفسك من أي مأزق».

قال فرد عكس ما كان يشعر به: «إنك لطيف جدًّا يا سيدي».

«نعم إنني أفضل من زوج عمتك بولسترود، لا أعتقد أن تحصل على أي شيء من مضاربته. من خلال ما أسمع أنه يطوق عنق أبيك بحبل متين».

«لا يخبرني أبي أي شيء عن شؤونه يا سيدي».

«لديه بعض الحق في ذلك، لكن الناس يعرفون شؤونه دون أن يخبرهم بها، لن يترك لك الكثير: إنه من المرجح سيموت دون وصية، فليجعلوا منه عمدة على مدل مارش كما يشاؤون. لكنك لن تحصل على الكثير عندما يموت دون أن يكتب وصية. على الرغم من كونك الابن الأكبر له».

لم يعتقد فرد أن السيد فيذرستون صعب المزاج هكذا، حقًّا لم يسبق أن أعطاه مبلغاً كبيراً مثل هذا من قبل، قال فرد، وهو ينهض ليضعها في النار: «هل أتلف رسالة بولسترود هذه يا سيدي».

«نعم، نعم، إنني لا أحتاج إليها فلا ثمن لها بالنسبة إليّ». ألقى فرد الرسالة بالنار، وأذكى النار وهو يحرك الجمر باستمتاع. كان يرغب في مغادرة الغرفة، لكنّ شعورًا بالخجل

انتابه من نفسه ومن زوج خالته إذا سارع بالمغادرة بعد أن دس نقوده في جيبه. في هذه الأثناء، حضر وكيل المزرعة ليقدم تقريره لسيده فيذرستون، فشعر فرد بالفرج عندما أذن له بالانصراف، على أن يعود ثانية قريباً. لم يتمن إطلاق سراحه من زوج خالته فحسب، بل لكي يجد ماري جارث أيضاً. كانت تجلس في مكانها المعتاد قرب موقد النار، وفي يديها نسيجها، وإلى جانبها كتاب مفتوح، وصفت عيناها الآن وهدأت نفسها.

قالت وهي تنهض متباطئة عندما دخل فرد: «هل أنا مطلوبة في الطابق العلوي؟».

«كلا..لقد طلب مني الانصراف لأن سيمونس قد حضر». جلست ماري ثانية وتابعت نسيجها. كانت بالتأكيد تعامله بعدم اكتراث أكثر من المرات السابقة، لم تعرف كم تعاطف معها ساخطاً من فيذرستون حين كانا في الطابق العلوي، «هل يمكنني البقاء هنا لبرهة وجيزة يا ماري، أم أن هذا يضايقك؟».

قالت ماري: «اجلس من فضلك. لن تكون ثقيل دم كالسيد جون وول الذي كان هنا البارحة، وجلس دون أن يستأذن مني».

«يا للمسكين، أظنه يحبك».

«لا علم لي بذلك، بالنسبة إلي لأبغض شيء في حياة الفتاة أن يعتقد أنها تتبادل الحب مع أي رجل لطيف معها جدًّا، وتبادله ذلك بالامتنان. أظن أنني على الأقل نجوت من ذلك، لأنني وليس فقط لمثل هذا الغرور التافه، فأنا لا أظن بكل من يقترب مني أنه يحبني». لم ترد ماري أن تظهر أي انفعال، لكنها أنهت كلامها بنبرة مرتجفة يشوبها بعض الغيظ.

«اللعنة على جون وول... لم أشأ أن أغضبك، لم أعرف أي سبب يجعلك ممتنة مني، نسيت كم تكونين ممتنة من ذلك الذي يطفئ لك شمعة». كان فرد يتمتع أيضاً بكبرياء، فهو لم يبد معرفته بما سبب انفجار ماري العاطفي.

«إنني لست غاضبة، إلا أن معاملة الناس تغضبني بعض الأحيان. أحب أن يخاطبني الناس على أنني أتمتع بفطرة سليمة، فأنا متأكدة من أنني في أغلب الأحيان أتمتع بمقدرات ذهنية أفضل من تلك التي يتمتع بها حتى طالب الكلية». عاد لماري مزاجها فكانت تتكلم مع ضحكة مكبوتة، جميل سماعها.

«أريد أن أضحكك هذا الصباح»، قال فرد،«لقد كنت تبدين حزينة جدًّا، عندما

حضرت إلى الطابق العلوي، إنه لمن المخجل أن تبقي هنا لتضطهدي هكذا».

«إنني أعيش حياة مريحة بالمقارنة مع الآخرين، حاولت أن أكون معلمة... لكنني لم أنجح، فإنني مولعة بالعيش كما أحب، أظن أن أي اضطهاد لهو أفضل من أن يتظاهر المرء بقيامه بعمل يتقاضى عليه أجراً، لكنه لا يقوم به حقيقة. إنني أقوم بكل الأشياء التي يقوم بها الآخرون: ربما أفضل من بعض الآخرين؛ مثل روزي على سبيل المثال على الرغم من أنها تشبه مخلوقات رائعات الجمال في حكايات الجن يحبسهن الغول».

صرخ فرد بنبرة شك عميق تصدر عن أخ: «روزي...!!» .

قالت ماري مؤكدة: «نعم يا فرد، لا يمكنك أن تكون ناقداً لاذعاً هكذا».

«هل تعنين شيئاً محدداً الآن؟».

«كلا، إنني أعني شيئاً عاماً، و... دائماً».

«أي إنني عاطل عن العمل، ومسرف في الوقت نفسه، إلا أنه لا يناسبني أن أكون فقيراً، ولو كنت غنيًّا لكنت رجلاً جيداً».

قالت ماري ضاحكة: «لو كنت غنيًّا لقمت بواجباتك التي لم يخترها لك الرب».

«حسناً، لم أستطع القيام بواجباتي كرجل دين، كما أنك لم تستطيعي أن تكوني معلمة، يجب أن تشعري بمن هم مثلك يا ماري».

«لم أقل كان يجب عليك أن تكون رجل دين، هناك أعمال أخرى كثيرة.. يبدو من التعاسة الشديدة ألّا تنغمس في عمل محدد ترغب فيه».

قطع فرد حديثه، ووقف، ثم اتكأ على رف الموقد: «إلا أنني أقدر».

«لو كنت متأكداً من أنك لم تحصل على ثروة؟».

«ألم أقل لك تريدين الشجار معي، إنه لمن السيئ أن تنقادي لما يقوله الآخرون عني».

«كيف يمكنني أن أتشاجر معك؟ يجب أن أتشاجر مع جميع كتبي الجديدة». قالت ماري، وهي ترفع الكتاب الذي بجانبها. «على الرغم من أنك سيئ السلوك مع الآخرين إلا أنك حسن السلوك معي».

«لأنني أحبك أكثر من الآخرين، لكنني أعلم أنك تكرهينني».

قالت ماري معبرة بابتسامة: «نعم، قليلاً».

«إنك تعجبين برجل مذهل، عنده آراء حكيمة في جميع الأمور».

كانت ماري تنسج بسرعة، وبدت كأنها سيدة الموقف: «لا بد لي».

عندما ينحرف النقاش، غالباً ما نقع في مستنقع الحرج والإرباك، وهذا ما شعر به فرد: «أظن أن المرأة لا تقع في غرام من كانت قد عرفته على الدوام، فدائماً من يظهر فجأة هو الذي يوقع الفتاة بغرامه».

قالت ماري، وهي تلوي بشفتيها لتنم عن مكر: «دعني أفكر، لا بد لي من أن أرجع إلى خبرتي، هناك جولييت كمثال عما قلت، لكن أوفيليا ربما عرفت هاملت لمدة طويلة، وبرندا ترول، فهي عرفت موردنت ميترون منذ عهد الطفولة، لكنه ظهر في ما بعد كشاب جدير بالاحترام، ووقعت مينا في غرام كليفلاند الغريب. وكان ويفرلي حديث العهد بالنسبة إلى فلورا ماكلفور لكنها لم تقع في غرامه، وهناك أوليفيا، وصوفيا بريمورس، وكورين. قيل إنهن وقعن في غرام رجال لم يكن يعرفنهم. تتكون خبرتي من المزيد من المعرفة بالأشياء».

كانت ماري تنظر إلى فرد بنوع من الاحتيال، وكانت تلك النظرة محبوبة لديه، على الرغم من أن عينيها لم تكونا إلا كنافذتين تطلان ضاحكتين بسخرية. لقد كان، حقًّا، شاباً محبًّا، وكلما كان يكبر كان يكبر معه حبه لمن كان يلعب معها في طفولته، على الرغم من مساهمته في التعليم العالي التي رفعت من مكانته الاجتماعية ودخله، «عندما يكون الرجل غير محبوب من أي فتاة لن يستفيد شيئاً حين يقول: يمكنني أن أكون أفضل حالاً، ويمكنني أن أفعل أي شيء أريده إذا ما أحبتني فتاة».

«المستفاد من قوله إذا لم يفعل ما يقول: يمكن، أستطيع، سوف، هي أفعال مساعدة جديرة بالازدراء».

«لا يمكنني أن أرى كيف يمكن لرجل أن يكون طيباً جدًّا دون أن تحبه فتاة».

«أظن أن الطيبة تأتي قبل أن يتوقع الحب».

«أنت تعرفين يا ماري أن النساء لا يحببن الرجال لطيبتهم».

«ربما ليس كذلك، ولكن إذا أحببنهم، فهن لا يظنن بهم سوءاً».

«ليس من اللائق أن تقولي عني إنني سيئ».

«لم أقل شيئاً عنك على الإطلاق».

«لن أنفع لأي شيء يا ماري ما لم تقولي إنك تحبينني، وما لم تعديني بأنك ستتزوجين مني، لن تسمعي عني عندما أكون قادراً على الزواج».

«إذا كنت أحبك لن أتزوج منك بالتأكيد، لن أعدك بالزواج منك».

«أظن ذلك مكراً شديداً منك يا ماري، إذا كنت تحبينني يجب عليك أن تعديني بالزواج».

«على العكس، أظنني أكون ماكرة إذا ما تزوجتك حتى لو كنت أحبك».

«هل تعنين وأنا في وضعي الراهن لا أستطيع تغطية نفقات الزوجة؟؟ بالطبع. فعمري لا يزيد على ثلاثة وعشرين عاماً».

«فيما يتعلق في النقطة الأخيرة، إنك ستتغير، لكنني لست متأكدة ممّا لو طرأ عليك أي تغير آخر. يقول والدي: يحرم العيش على كل رجل عاطل عن العمل، فكيف له أن يتزوج».

«إذاً يجب علي أن أنتحر..!!!».

«كلا، أظنك تفعل خيراً لو اجتزت امتحاناتك، سمعت السيد فيربرذر يقول: إنها سهلة للغاية».

«أهذا كله..؟؟. حسن جدًّا. كل شيء سهل بالنسبة إليه، لا علاقة للذكاء بذلك، إنني أكثر ذكاءً من كثير من الرجال الذين نجحوا في هذه الامتحانات بعشرة أضعاف».

قالت ماري، وهي لا تستطيع أن تخفي سخريتها: «يا لدهشتي!!! بمن فيهم رجال الأبرشية، مثل السيد كراوز، لو قسمنا ذكاءك على عشرة فالناتج، ويا لدهشتي، يمكنه أن يحصل على درجة جامعية، ولكن يظهر أنك كسول أكثر من أولئك بعشرة أضعاف».

«ولكن إن كنت قد اجتزت الامتحانات لِمَ أردتني أن ألتحق بالكنيسة؟».

«ما أريدك أن تفعل ليس هو المسألة، أظن أن عندك ما يمليه عليك عقلك وضميرك.من هناك..؟؟ إنه السيد ليدجيت، يجب أن أذهب وأخبر السيد فيذرستون».

قال فرد ممسكاً بيدها، وهي تنهض: «ماري، إذا كنت لا تشجعينني، فإن حالتي ستتدهور بدل أن تتحسن».

قالت ماري محمرة: «لن أقدم لك أي تشجيع، لن يحب ذلك أصدقاؤك، وكذلك أصدقائي. سيعتبر والدي ذلك خزياً مني أن أقبل الزواج من رجل تترتب عليه ديون كثيرة، ولا يعمل!».

صدم فرد، فترك يدها، ومشت إلى الباب، لكنها استدارت عنده، وقالت: «يا فرد..! لقد كنت على الدوام لطيفاً وكريماً معي، إنني لست جحودة، ولكن لا تتحدث معي بتلك الطريقة ثانية».

«حسناً، حسناً»، قال فرد عابساً، وهو يأخذ قبعته وسوطه، وراح وجهه يشحب أكثر فأكثر، لقد وقع في غرام فتاة بسيطة لا تملك مالاً كثيراً كما يفعل الكثير من الشبان العاطلين عن العمل، لكن وجود ملكية السيد فيذرستون، وقناعته بأن ماري تهتم به، على الرغم ممّا يمكنها أن تقول، منعت أي يأس من أن ينتاب فرد.

عندما عاد إلى بيته أعطى أمه أربع قطع من النقود طالباً منها أن تحتفظ بها له.

«إنني لا أريد أن أنفق هذه النقود يا أمي، أريد أن أسد بها ديناً، لذلك أبعديها من متناول يدي».

«فليسعدك الرب يا عزيزي»، قالت السيدة فنسي. كانت شغوفة جدًّا بابنها الأكبر وابنتها الصغرى، التي هي في السادسة من عمرها، واللذين كان يعتقد الناس أنهما الأكثر مشاكسة بين أبنائها، فعينا الأم لا تخدع دائماً بتحيزها لبعض من أبنائها. وهي أفضل من يحكم من هو أفضل حنوًّا بين أبنائها، وكان فرد مولعاً جدًّا بأمه، وربما ولعه بشخص آخر جعله بالتأكيد قلقاً من أن ينفق المئة جنيه ليسدّ بعضاً من دينه البالغ مئة وستين جنيهاً، للدائن الذي يحتفظ بوثيقة وقع عليها والد ماري.

الفصل الخامس عشر

تقول: إنك لم تكترث للعيون السوداء،

ولم تجذبك العيون الزرقاء،

لكننا نراك اليوم سابحاً في عالم جديد أكثر من ذي قبل،

آه... رحت أتقفى أثر،

أجمل الجميلات في أماكن المتعة الجديدة،

حيث أرى آثار أقدامها هنا،

وأسمع صوت أقدامها هناك،

أرشديني إلى كنوزي...

عجباً...!!! لقد تحولت من مخلوق أزلي نافع،

إلى قوام جسد فانٍ.

نقية كحقيقة ضوء النجم العجوز...

يسمونها الكثيرون الطبيعة.

هكذا أراد دائماً وبإصرار، أن يسمي نفسه مؤرخاً عظيماً، ولحسن حظه فقد مات منذ مئة وعشرين عاماً ليوضع بين التماثيل العملاقة، التي تمر حياتنا التافهة من تحت أقدامها الضخمة. إنه يتباهى بملاحظاته الغزيرة، واستطراده في كتبه التي تشكل الجزء الذي لا يمكن تقليده من أعماله، وخصوصًا تلك الفصول الأولى من أعماله المتسلسلة حول الحقبة التي عاش فيها، حين كان يسحب أريكته إلى القرب من خشبة المسرح ليتحدث إلينا بلغته

الإنجليزية المتينة والجميلة. لكن فيلدينغ كان قد عاش حين كان اليوم طويلاً، ولما كان الوقت يقاس كالنقود بحسب حاجتنا إليه. حين كان وقت العصر طويلاً، ولما كانت الساعة تدق ببطء في أمسيات الشتاء. يجب علينا نحن المؤرخين المتأخرين ألّا نحذو حذوه، وإذا ما فعلنا كذلك فلربما غدا حديثنا ميسوراً نلقي به ببساطة، ونحن نجلس على مقعد بسيط في قفص الببغاء. بالنسبة إلي يمكنني أن أحل بعض ألغاز الحياة البشرية، وأرى كيف نسجت وحبكت، ويجب أن أسلط الضوء على هذا النسيج، ولا أشتته على كل الأشياء ذات الصلة به والتي تدعى بالكون. يجب أن أعرف الآن السيد ليدجيت، المواطن الجديد، بكل أولئك المهتمين به، فيصبح معروفاً لديهم أكثر مما هو معروف لدى أولئك الذين قابلوه منذ وصوله إلى مدل مارش. يجب أن يعترف الجميع بأنه يمكن للرجل أن يثنى عليه بإعجاب ويمجد، أو يحسد ويسخر منه، أو يعامل كأداة، ويوقع بغرامه، أو ربما يختار ليكون زوج المستقبل، ويظل على الرغم من ذلك كله غير معروف، باستثناء ما كونه عنه جيرانه من افتراضات خاطئة. كان يسود انطباع عام أن السيد ليدجيت طبيب أرياف عادي، وكان مثل هذا الانطباع في مدل مارش ذا أهمية لما كان الناس يتوقعونه منه، إذ كان كل طبيب عائلة على درجة عالية من الذكاء. وكما كان ليدجيت يعتبر أن لديه مهارة لا حدود لها في إدارته وتعامله مع الأمراض الضارة، والتي لا تستقر على حال. كان حدسه وسرعة بديهته دليلين على ذكائه الذي كان يشكل اعتقاداً راسخاً لا يتزحزح عند السيدات من مرضاه، وغالباً ما كان يستسلم لآراء غيره عدا تلك التي تصدر عن أولئك الذين يتمتعون بملكات ذهنية توازي ملكاته؛ إذ اعتبرت كل سيدة العلاج من طريق التقوية، والمطبق من قبل رينج، ونظام التخفيض المطبق من قبل تولر، خسارة طبية. فزمان النزف الشديد والتقرحات لم ينقض بعد ولا تزال النظريات هي السائدة فقط، عندما يمرض أحد ما بمرض سيئ فهو يعالج دون مضيعة للوقت، فعلى سبيل المثال كان يسمى أحياناً بالعصيان المسلح الذي يجب ألّا يعالج بالطلقات الخلبية، بل بسفك دمه مباشرة. وفي نظر الناس، فقد كان المعالجون بنظام التقوية ونظام التخفيض هم جميعًا رجالًا أذكياء.

وهكذا يجب أن ينعت الموهوبون. لم يذهب خيال أحد ليتنبأ أن علم السيد ليدجيت ومعرفته توازي معرفة وعلم الطبيب سبراغ والطبيب منشن، الطبيبين اللذين لم يستطيعا أن يقدما أي أمل حين كان الخطر محدقاً، وكان أبسط أمل يعادل جنيهاً واحداً. إنني أكرر ثانية... أنه كان يسود شعور عام بأن السيد ليدجيت لم يكن طبيباً عاديًّا، وهو يختلف عن أي طبيب آخر في مدل مارش. وكانت تلك حقيقة، فهو كان في السابعة والعشرين من عمره، أي عندما يكون الرجال غالباً في هذا العمر غير عاديين، يملؤهم الأمل بالإنجاز، وتكون قراراتهم حاسمة

في تجنب المخاطر، معتقدين أن شيطان الجشع مأمون، فهو لن يضع لقمة في أفواههم، ولن يمتطي ظهورهم بل إذا ما لزم الأمر عليهم التعامل معه، فإنه سيقود عربتهم.

لقد تيتّم السيد ليدجيت عندما التحق بمدرسة حكومية، ولم يكن والده الرجل العسكري قد ادّخر ثروة ليتركها لأبنائه الثلاثة، وعندما طلب الولد تيرشيوس أن يتعلم الطب، وجد مربوه أن الأسهل عليهم أن يلبوا رغبته بتدريبه على مهنة ليكون طبيب ريف من أن يعارضوا تلك الرغبة على حساب كرامة العائلة.

لقد كان أحد الأبناء النادرين الذين يحدثون انعطافة حاسمة في حياتهم فيتخذون قرارهم ليقوموا بعمل يرغبون فيه، وليس لأنه كان عمل آبائهم.

عندما ينجذب معظمنا إلى موضوع ما لا بد لنا من أن نتذكر ساعة ما في صباح أو مساء كنا نصعد فيها على كرسي لنطول كتاباً لم يقرأ من قبل حين كانت تنقصنا كتب نقرؤها، أو حين كنا نجلس وأفواهنا مفتوحة نستمع إلى متحدث جديد، أو كنا نستمع إلى الأصوات، حين كان الحب يداعب قلوبنا.

حصل شيء من هذا القبيل للسيد ليدجيت. لقد كان طفلاً نشيطاً، فكلما لعب قليلاً كان ينصرف إلى زاوية بمفرده، لينغمس مدّة خمس دقائق في قراءة أي كتاب تقع عليه يده. ومن حسن حظه أن الكتاب يكون لرسلس، أو جاليفر، ولكن حتى لو كان قاموس بيلي، أوالكتاب المقدس مع الأربعة عشر سفراً، فهو لن يتردد في قراءتها. لا بد له من أن يقرأ، عندما لا يركب الخيل، ولا يركض ولا يصطاد، ولا يستمع إلى حديث الرجال.

كان ذلك يشكل عنده حقيقة راسخة حين كان في العاشرة من عمره، وكان قد قرأ آنذاك كتاب كرايسل أو مغامرات الجنيه، الذي لم يكن حليب أطفال ولا شراب مزيج يفترض أن يحل محل الحليب. لقد تبين له أن الكتب هي غذاء، والحياة تفاهة، ولم تطور دراسته المدرسية ذلك الرأي، وعلى الرغم من أنه درس الكلاسيكيات والرياضيات فإنه لم يكن متفوقاً فيهما. لقد قيل عنه: إنه كان في إمكانه فعل ما كان يرغب فيه، لكنه وبالتأكيد لم يشأ فعل أي شيء مميز. فقد كان نشيطاً وذا إدراك سريع، ولكن لم يشرق بعد في داخله ذكاء متقد. كانت المعرفة بالنسبة إليه أمراً بسيطاً يمكن الإلمام بها بسهولة، من خلال نقاشه وحواراته مع الذين هم أكبر منه سنًّا، وقد تبين أنه حصل على معلومات أكثر مما يحتاجه لأجل حياة ناضجة.

ربما لم تكن هذه نتيجة استثنائية لتعليم مرتفع التكلفة، في وقت كان الرجال يرتدون البزات القصيرة وأزياء أخرى انقرضت، ولم تظهر ثانية. وفي يوم ماطر من أيام العطلة أجبر على البقاء في غرفة المكتبة ليلتقط كتاباً يمكن أن يبعث فيه السرور، ولما لم يجد ضالته، أنزل مجموعة من الكتب المغطاة بالأتربة، وذات الأغلفة الرمادية واللصاقات الداكنة، لقد كانت سلسلة من الموسوعة القديمة التي لم يلمسها من قبل. لقد كانت تلك الكتب على الرف الأعلى، فكان عليه أن يقف على كرسي لينزلها، لكنه فتح الكتاب الذي أنزله أولاً من على الرف، وكأن لديه ميلاً ليقرأ شيئاً مؤقتاً بديلاً عما يبحث عنه، وعلى الرغم من أنه لم يكن في الوضع المناسب للقراءة، فإن الصفحة التي بدأ يقرأ منها كانت بعنوان «علم التشريح»، وكان أول مقطع يلفت نظره، حول صمامات القلب. لم يكن لديه معرفة بأي نوع من الصمامات، وكل ما كان يعرفه عن الصمامات هي أنها أبواب قابلة للطي، ومن خلال هذا الشق، لمع في ذهنه معرفة جديدة بتقنية دقيقة تعمل في جسم الإنسان. لقد مكنه التعليم الذهني من قراءة بعض النصوص الكلاسيكية غير المحتشمة في المدرسة، وجعله غير متحيز في تفكيره، فكان يتلقف كل ما يتعلمه ويجمعه في رأسه، فلم يخطر في باله يوماً أن يشرح لنفسه كيف يدور الدم في جسده، ولا كيف يمكن للورق أن يستخدم بديلاً عن الذهب. لقد حانت لحظة النداء الداخلي.

وقبل أن ينزل من على كرسيه بدا العالم جديداً أمام عينيه من خلال حسه المسبق لتقدُّم لا ينتهي، وليملأ الأفق الذي يمتد أمامه بالجهل المطنب الذي اعتقد أنه كان المعرفة... شعر ليدجيت من تلك اللحظة بشغفه لاكتساب المعرفة.

لا نخشى أن نكرر مرات كثيرة، كيف أن الرجل يقع في حب امرأة، ثم يتزوجها، أو ينفصل عنها، سواء من الشعر أو بسبب الغباء. غير أننا لا نمل مما كان يسميه الملك جيمس بالرقة والجمال، ولا نتعب من العزف على قيثارة شعراء الغناء، ولا نهتم بالنوع الآخر من الجمال والرقة الذي يجب علينا أن نتودد إليه بأفكارنا الجادة، وبتخلينا عن رغباتنا التافهة... في قصة الحب هذه أيضاً تختلف التطورات: فهي أحياناً تتمثل في الزواج المقدس، وأحياناً أخرى في الإحباط والفراق النهائي، وليس نادرًا أن ترتبط أحياناً النهاية الكارثية بالحب الآخر الذي تغنى به شعراء الغناء.

من بين الرجال الذين يعيشون في خريف عمرهم، ويقومون بتنفيذ مخطط يومي صمم لهم بالطريقة نفسها التي صممت بها ربطة عنقهم، يوجد عدد كبير يرغبون في

تنظيم أعمالهم وتغيير العالم قليلاً. إن حكاية تنظيم أنفسهم ليصبحوا كعامة الناس لا تروى حتى في نطاق إدراكهم، لأنه ربما خبت حماستهم لكدحهم الذي لا يجزون عليه، كما خبت حماسة حب الشباب، حتى صاروا يوماً ينظرون إلى أنفسهم حين كانوا شباناً، وكأنهم أشباح، كانوا يعودون إلى منازلهم، ويحولون الأثاث الجديد إلى أشياء مروعة. لا شيء في العالم يبدو أكثر تحيزاً من تغيرهم التدريجي، فقد كانوا في البداية يستنشقونه دون أن يشعروا به، لربما كنا أحياناً نرسل أنفاسنا لتلوثهم عندما نلقي بأكاذيبنا، أو نستنبط النتائج السخيفة، أو ربما سبب ذلك ذبذبات نظرة امرأة.

أراد ليدجيت ألّا يكون أحد أولئك الفاشلين، وكان لديه أمل أفضل لأن اهتمامه العلمي أخذ فوراً شكل الحماس المهني. إذ تولد لديه حافز الشباب في ضرورة العمل لكسب رزقه، وألا يكبت بذلك العمل المؤقت الذي يقوم به خلال فترة التدريب على المهنة، فتابع دراسته في لندن وإدنبرة وباريس.

كانت تشكل مهنة الطب بالنسبة إليه إيماناً راسخاً على أنها أفضل مهنة في العالم، وتمثل أفضل رباط بين العلوم والفن، كما أنها من جهة أخرى توثق العلاقة المباشرة بين الفتح الفكري والقيمة الاجتماعية الجيدة. كانت تطمح طبيعة ليدجيت لبلوغ هذا التركيب، فقد كان مخلوقاً عاطفيًّا ذا أحاسيس ومشاعر إنسانية استطاع أن يصمد أمام جميع أنواع دراساته الخاصة التجريدية. لم يهتم بالحالات المرضية، لكنه أيضاً اهتم بجون وإليزابيث.

لقد كانت لمهنته جاذبية من نوع آخر تحتاج إلى تعديل، مما أعطاه فرصة لاتخاذ قرار حاسم، فيرفض زينتها الفاسدة وخداعها، ويحصل على شهادات قيمة، ولكن غير مطلوبة. ذهب لأجل الدراسة في باريس، وعنده تصميم أنه عندما يعود ثانية إلى بلده سيستقر في بلدة ريفية ليعمل فيها كطبيب عام، ويقاوم الفصل المنطقي بين المعرفة الطبية والمعرفة الجراحية لأجل متابعته في البحث العلمي، وتقدمه العام في الطب: لذلك سينأى بنفسه عن مختلف أصناف الخداع والغيرة والخنوع الاجتماعي السائد في لندن، ويفوز بالشهرة على الرغم من أن تحقيق ذلك سيكون بطيئاً معتمداً على قيمة استقلاليته في عمله، كما فعل جينر.

يجب علينا أن نتذكر أن هذه الحقبة من الزمن كانت مظلمة، إذ على الرغم من وجود كليات مهيبة، بذلت مجهوداً عظيماً لتؤمن نقاء المعرفة بجعلها نادرة، والابتعاد عن الوقوع في الأخطاء، ففرضت الأقساط الجامعية، والمواعيد الدقيقة – بحيث يصبح الالتحاق بهذه

الكليات مقتصراً على نوع محدد من الطلاب - فإن العديد من الشباب الجهلة قد تبوأوا مناصب عليا في بلدة صغيرة، الأمر الذي جعل الكثيرين من بعدهم يحصلون على الحق القانوني ليمارسوا مهنتهم في مناطق كبرى من البلاد. وظلت كليات الطب تظهر للعامة بأنها تتمسك بالمستوى الرفيع. تلك الكليات التي قبلت بالأطباء الأكفاء الذين تخرجوا في أوكسفورد وكامبردج ليعملوا فيها، لم تستطع أن تمنع التعامل بالشعوذة، لأن مهنة الطب تقوم بشكل رئيسي على إعطاء العديد من الأدوية والعقاقير. لقد انتهى الاعتقاد لدى العامة بأن تناول المزيد من الأدوية هو الأفضل والأنجع لو كانت أسعارها أرخص، فيمكنهم التهام الكثير منها بعد أن يصفها لهم الجهلة المهملون، الذين لم يحصلوا على مؤهلات علمية، آخذين في الاعتبار أن الإحصائيات تثبت كم هو عدد الأطباء الجهلة الذي يجب أن يكون متوافراً في جميع الظروف. بدا لليدجيت أن التغيير داخل الوحدات الطبية هو أهم من تغيير الأعداد. لقد أراد أن يشكل لنفسه وحدة طبية، يمكنها أن تحدث فرقاً كبيراً في التغييرات المنتشرة، وأن ترفع في يوم ما من المستوى العام. كما أنه أراد في الوقت عينه أن يحدث تغييراً كبيراً في علاج أحشّاء مرضاه، لكنه لم يرد أن يمارس مهنته بطريقة أفضل من العادية فحسب، بل كان لديه طموح كي يحدث تأثيراً أكثر إيجابية. لقد كان متحمساً ليثبت فكرة تشريحية، فيضع حلقة في سلسلة الاكتشافات.

هل يبدو لك الأمر غير مناسب أو غير لائق، عندما يحلم جراح في مدل مارش أن يكون مكتشفاً؟ معظمنا يجهل الكثير عن المنشئين العظام حتى يصبحوا جزءاً من مجموعة المتألقين، ويتحكمون بأقدارنا. ولكن هيرشل على سبيل المثال الذي «حطم حواجز السماء»، ألم يعزف يوماً على آلة الأورغن في الكنيسة؟؟ وأعطى دروساً في الموسيقى لعازفين غير ماهرين على آلة البيانو؟ كان كل من أولئك اللامعين يمشي على الأرض بين جيرانه، الذين كانوا دائماً يفكرون في مشيته وملابسه أكثر مما يفكرون في أي شيء آخر يمكن أن يهبه الشهرة الأزلية. وكان لكل من أولئك اللامعين تاريخه الشخصي مزيناً بقليل من الإغراءات والاهتمامات القذرة، التي يمكن لها أن تؤخره عن الالتحاق بأولئك اللامعين الخالدين. لم يكن ليدجيت يجهل مخاطر مثل هذه المعوقات، لكنه كان على ثقة عالية بأنه سيتجنبها قدر المستطاع، وكونه في السابعة والعشرين من عمره، شعر أن لديه خبرة كافية، فإنه لم يثر غروره من خلال تحقيقه للنجاحات المبهرجة في العاصمة، لكنه سيعيش بين الناس الذين لا يتنافسون حول أي فكرة عظيمة، التي كانت ومواظبته على عمله الجاد كتوأمين. لقد كان أملاً فاتناً أن ينير كلا الهدفين بعضهما بعضاً.

إن المراقبة والاستنتاج الدقيقين اللذين كانا يشكلان عمله اليومي، واستخدامه العدسة المكبرة التي تساعده على تشخيص بعض الحالات الصعبة، والتي ستساعده على توسيع نطاق تفكيره ليكون أداة يستخدمها لتطوير بحوثه الأكثر جدية، ألم تكن سبباً في تفوقه في مهنته؟ سيكون طبيباً ناجحاً في مدل مارش. وهكذا يمكنه أن يبقى في مضمار البحث العلمي الدقيق، ويمكنه أن يدعي نجاحاً حققه في هذه المرحلة من عمله. لقد تجنب تقليد أولئك الذين يدعون الصلاح والذين يجنون أرباحاً كثيرة من المخلل المسموم، في حين أنهم يكشفون عن سلع الآخرين الفاسدة، أو يملكون أسهماً في إحدى بيوت القمار ثم يتظاهرون بتمثيلهم لأخلاقيات العامة. لقد تعمد أن يبدأ إصلاح بعض جوانب نفسه، حيث كان ذلك أهون عليه من إثبات فكرة تشريحية. لقد كانت إحدى هذه الإصلاحات تتمثل في أن يتصرف بشجاعة بحسب القرارات القانونية الأخيرة، فيصف الدواء ولا يوزعه، أو يحصل على نسبة مئوية من الصيدلي. لقد كان ذلك إبداعاً لمن أراد أن يكون طبيباً عامًّا في الريف، فيواجه نقد زملائه اللاذع. وليدجيت تعمد الإبداع في علاجه، وكان على قدر كاف من الحكمة، كي يرى الطريقة الأكثر أمانًا له كي يمارس مهنته بشرف وبحسب معتقده، وهي أن يتخلص من الإغراءات النظامية التي تتعارض مع معتقده.

ربما كان ذلك الزمان بالنسبة إلى المراقبين وواضعي النظريات أكثر بهجة من زماننا هذا. إننا نرغب في الاعتقاد بأن أفضل حقبة في تاريخ البشرية هي تلك التي شهدت اكتشاف أمريكا. عندما توقع بحار شجاع الوصول بباخرته حتى وإن كانت محطمة، إلى سواحل مملكة جديدة.

وفي عام 1829 حين كان علم الأمراض الغامض بالنسبة إلى شاب موهوب ومغامر مثل قارة أمريكا الغنية، كان أكثر ما يطمح إليه ليدجيت، هو أن يساهم في توسيع القواعد المنطقية والعلمية لمهنته. فكلما غدا أكثر اهتماماً بأسئلة محددة عن بعض الأمراض - كطبيعة الحمى المرضية - كان يشعر بحاجته إلى المعرفة الأساسية لبنية الجسم التي بدأ «بيشات» بإضاءتها في مطلع القرن، والذي توفي وهو في الحادية والثلاثين من عمره، لكنه ترك إرثاً عظيماً مثل الإسكندر. لقد كان ذلك الرجل الفرنسي العظيم أول من وضح أن الجسم ليس مجرد أعضاء يصار إلى دراسة كل واحد منها بمفرده، ثم بمجموعها، بل يجب أن ينظر إليها كأعضاء تتكون من أنسجة تشكل الدماغ والقلب والرئتين وباقي الأعضاء المحكمة، كما هي أسباب الراحة في المنزل المصنوعة من مواد مختلفة، كالخشب والحديد والحجارة، فلكل

مادة تركيبها الخاص بها. لا يمكن لأي رجل أن يفهم ويقدر طبيعة البناء وأجزائه.. نقاط ضعفه.. وما يحتاج إليه من تصليحات... ما لم يعرف طبيعة المواد المصنوعة منها.

إن المفهوم الذي اعتمده بيشات أساساً لدراساته الموسعة حول مختلف أنواع الأنسجة، ساهم بقدر كبير في الإجابة عن أسئلة طبية كثيرة، كما أنه فسر روابط عديدة ووضح حقائق مخفية في بنية جسم الإنسان التي يجب أخذها في الاعتبار لدى دراسة أعراض أي مرض وتأثير أي دواء عليه. لكن النتائج التي جاء بها ذكاء الإنسان ووعيه كانت بطيئة التأثير والفاعلية، أما الآن.. وفي نهاية عام 1829، كانت تمارس مهنة الطب بموجب الطرق القديمة حيث لا تزال الحاجة إلى القيام بالكثير من الأعمال العلمية ليتابع ما بدأ بيشات بعمله.

إن هذا المشاهد العظيم لم يتجاوز حقيقة أن هذه الأنسجة لم تكن العنصر الوحيد الذي تتألف منه أعضاء جسم الإنسان، لكنها جعلت مشاهداً آخر يقول: ألا يوجد عناصر أساسية مشتركة يتكون منها جسم الإنسان؟

فتن ليدجيت بأعمال بيشات التي شغلت الكثيرين من مفكري أوروبا، فأراد أن يشرح بوضوح أكثر العلاقة الجوهرية التي تقوم بين أعضاء جسم الإنسان، ويعرف الأفكار البشرية بدقة أكبر. إلا أنه لم ينجز العمل حتى الآن لكنه فقط هيأ لأولئك الذين يعرفون كيف يقومون به. ما هو النسيج الأساسي؟ وضع ليدجيت السؤال في تلك الطريقة - ليس تماماً بالطريقة التي ينتظر من خلالها الجواب الصحيح - وغفل عن الكلمة الصحيحة التي غفل عنها الكثيرون من الباحثين، لكنه اعتمد على التقاطه للفواصل الهادئة ليتابع بحثه. سيصبح في إمكانه التقاط الكثير من الإشارات من خلال استخدامه المكثّف... ليس للمشرط فحسب، بل للمجهر أيضًا اللذين أصبحا يستخدمان في البحث العلمي بحماس متجدد. هكذا كانت خطة ليدجيت لمستقبله: أن يقوم بعمل جيد لمدل مارش، وآخر عظيم للبشرية. لقد كان بالتأكيد شاباً سعيداً في هذا الوقت... أي في عمر السابعة والعشرين، ولديه تصميم حاسم كي تكون أفعاله كلها ذات قيمة، ولديه أفكار تجعل الحياة ممتعة، بعيدة من طائفة دينية تقيم شعائر مكلفة، فهو لن ينفق الثمانمئة جنيه التي بقيت له بعد شرائه لعيادته الطبية ليقيم مثل هذه الشعائر. لقد كان في نقطة البداية لمهنة يجعل منها الكثيرون موضوعاً لتخمينات الرجال، الذين يحتمل ألّا يقدروا الظروف المعقدة للهدف الشاق لهذه المهنة، مع جميع المتاعب المحتملة، وتشابك الظروف المحيطة، والمطلوب من سمات أنيقة للتوازن الداخلي

التي بها يسبح الإنسان ليبلغ غايته أو يغرق.

تظل في هذا الإطار شخصية ليدجيت، فهو لا يزال في تطوير شخصيته كطبيب في مدل مارش وكمكتشف أزلي، وتحتوي شخصيته على الفضيلة كما الخطيئة، وهاتان صفتان يمكن لهما أن تقويا أو تضعفا. أرجو ألّا تكون أخطاؤه سبباً لابتعادك عنه، ألا يوجد بين أصدقائنا المحببين واحد أو أكثر يتمتع بثقة بالنفس أكثر مما ينبغي، فيغدو جديراً بالازدراء، أو آخر، على الرغم من عبقريته، لا يزال يتمسك بأفكار عادية، فترى إجحافه تارة ويخفى عنك تارة أخرى، أو يمكن لطاقاته المتقدة أن تهوي في ظلّ تأثير الآخرين؟

يمكن لكل هذه الأشياء أن تتخذ ضد ليدجيت... لكنها تظل شرحاً مسهباً لواعظ مهذب، يتكلم عن آدم ولا يرغب في ذكر أي شيء مؤلم للجالسين. إن الأخطاء التي تنتج هذه العموميات الحساسة لها مظهر وأسلوب ولهجة وتعابير متميزة يمكنها أن تشغل مقاطع من مسرحيات مختلفة.

تختلف أصناف غرورنا كما تختلف أنوفنا؛ إذ إن جميع أنواع الغرور لا تتشابه، بل إنها تختلف بحسب التركيبة النفسية التي تميز كل واحد فينا. لقد كان غرور ليدجيت من ذلك النوع الذي يشوبه التعجرف، فهو لم يكن وقحاً قط، ولم يعط ابتسامات متكلفة ومصطنعة، لكنه يدعي العظمة، وهو في الوقت نفسه مزدر بشدة. كان يساعد المغفلين ويتعاطف معهم، وهو على ثقة بأنهم لا يؤثرون فيه.

بينما كان في باريس فكر في الالتحاق بمجموعة القديس سايمون ليجعلهم يثوروا على مبادئهم. لقد كانت جميع أخطائه تمتاز بالسمات الموروثة كما أنها كانت كتلك التي يتميز بها الرجل ذو الصوت الجهوري، وتبدو ثيابه جميلة عليه، وإيماءاته ذات تميز فطري. إذاً أين يمكن للابتذال أن يتواجد؟ تقول شابة مفتونة بذلك الجمال اللا مبالي: كيف يمكن لأي نوع من الابتذال أن يكون داخل رجل ذي أصول عريقة، يطمح ليرقى إلى منزلة اجتماعية رفيعة، وكريم جدًّا ويتميز بأفكار عظيمة حول الواجبات الاجتماعية؟ كذلك يمكن للغباء أن يكون موجوداً لدى عبقري عندما تدخله في نقاش ليس من اختصاصه، أو كرجل تتوافر فيه العزيمة المثلى ليطور العدالة الاجتماعية المطلقة، دون أن يتخيل المتعة في ذلك، ولا يتجاوز موسيقى أو فن باخ، ولا التورية الرائعة لآخر سخرية. يظهر ابتذال ليدجيت في طبيعة إجحافه،الذي على الرغم من العواطف والنوايا النبيلة، يظهر لدى نصف الرجال العاديين في العالم.

إن التميز والحماس الفكري لم يؤثرا في عواطفه ولا في قراراته حول الأثاث والنساء، ولا في رغبته في أن يعرف عنه دون أن يقول إنه يتحدر من أسرة أفضل من بقية أسر الأطباء الجراحين. لا يفكر في الأثاث الآن، لكنه عندما يفعل فإن ذلك لا يشغله عن علم الأحياء ولا أنظمة التعديل، فيحرص على كل ما يختاره وهو الأفضل.

أما بالنسبة إلى النساء، فقد زج مرة في ورطة بسبب حماقة طائشة، لم تكرر ثانية، لأنه لن يرتكب حماقة ثانية لدى زواجه. ومن المهم بالنسبة إلى أولئك الذين سيتعرفون على ليدجيت أن يعرفوا تلك الحماقة التي ارتكبها، لأنها يمكنها أن تكون مثالاً على التحول العاطفي الذي كان يميل إليه أحياناً مع شهامته وطيبته اللتين تجعلانه رجلاً محبوباً ذا أخلاق.

يمكن للحادثة أن تروى بكلمات قليلة... لقد حصل له ذلك حين كان في باريس، في الوقت عينه الذي كان يقوم بعمله الاعتيادي، كان ينشغل بإجرائه الاختبارات التجريبية في مساء أحد الأيام، وبعد أن تعب من تجاربه، أصبح غير قادر على استنباط النتائج التي يريد التوصل إليها، ترك ضفادعه وأرانبه تأخذ قسطاً من الراحة، بعد أن عرضها لكثير من الصدمات الكهربائية، ثم ذهب ليكمل أمسيته في مسرح يدعى بورت سانت مارتين، حيث كانت تعرض مسرحية عاطفية شاهدها عدة مرات من قبل؛ ليس لأنه أعجب بالعمل المشترك الإبداعي لكتّاب عديدين، بل لأنه أعجب بممثلة، كان دورها في المسرحية أن تطعن حبيبها خطأ بدلاً من الدوق الشرير. أحب ليدجيت هذه الممثلة كما يحب أي رجل امرأة لا يتوقع أن يتكلم معها. لقد كانت من مقاطعة بروفانس، لها عينان غامقتان، وتقاطيع إغريقية. كما كان قوامها ممتلئاً ومهيباً، وصوتها كهديل الحمام العذب، فكان لها جمال ينم عن رزانة عذبة، حتى في شبابها. لقد حضرت مؤخراً إلى باريس، وكانت تحظى بسمعة طاهرة وعفيفة، وكان زوجها يمثل معها دور الحبيب التعيس. لم يكن تمثيلها أفضل من المطلوب، لكنه لا يزال يعجب المشاهدين. كانت مشاهدة ليدجيت لهذه المرأة مصدر استرخاء له، كما لو أنه جلس بين أزهار البنفسج، ليستمتع بالنسمات العليلة بعيداً من تجاربه المجهدة، التي سيعود إليها ثانية. ولكن في ذلك المساء وقعت في أثناء عرض المسرحية العاطفية كارثة جديدة لحظة تمثيل المرأة لطعنها حبيبها، والتي حدثت حقيقة وببطء... لقد طعنت المرأة زوجها حقيقة، فوقع صريعاً، فهزت المسرح صرخة... وقع البروفانسي مغمى عليه. لقد كانت الصرخة والإغماءة جزءاً من المسرحية، لكنهما كانتا حقيقيتين هذه المرة. فقفز ليدجيت وصعد إلى

خشبة المسرح إذ كان جادًّا بتقديم مساعدته، وعندما وجد أذى في رأسها حملها برفق. لقد هز باريس نبأ هذه الوفاة... هل كان قتلاً عن عمد؟؟؟

كان بعض المعجبين بالممثلة يميل إلى الاقتناع بأنها مذنبة، فأحبوها أكثر، هكذا كان ذوق الناس في ذلك الزمن، ولكن لم يكن ليدجيت أحد هؤلاء، فقد دافع بشدة عن براءتها، وتحولت عاطفة الإعجاب بجمالها الآن إلى إخلاص شخصي، وأفكار عطف على قدرها. كانت نظرية القتل العمد منافية للعقل، فلم يوجد أي حافز للقتل، إذ كان الزوجان يحبان بعضهما إلى حدّ الجنون، ولم يكن بالأمر الجديد أن زلة يمكن أن تؤدي إلى نتيجة مأسوية كهذه. انتهى التحقيق القانوني بتسريح مدام لور. قابلها ليدجيت مرات عديدة، فوجدها جديرة بالتقدير والحب، كانت تتكلم قليلاً، مما أضاف إلى بهائها سحراً آخر. لقد كانت كئيبة وبدت ممتنة له. كان وجودها كافياً كالضوء الذي يبدد ظلام المساء، وكان ليدجيت تواقاً بجنون ليعرف عواطفها وحريصاً على ألّا يحظى بها أي رجل آخر فيتزوجها، ولكن بدل أن تتابع تمثيلها في مسرح بورت سانت مارتين حيث تحظى بشعبية أكبر بسبب الحادث المؤلم، غادرت باريس دون أي إنذار تاركة وراءها مجموعة من المعجبين. ربما لم يبحث عنها بعيداً أي رجل آخر سوى ليدجيت، الذي ظن أن العالم قد تجمد، وهو يتأمل لور الحزينة، وقد جرحها أسى بالغ، وهي تائهة ولا تجد معزياً مخلصاً. ليس البحث عن الممثلات المتخفيات بصعوبة البحث عن الحقائق الخفية، ولم يمض وقت طويل قبل أن يستجمع ليدجيت معلومات تدل على أن لور قد غادرت إلى ليون. أخيراً وجدها تمثل بنجاح بارع في أفينيون وهي تحمل الاسم نفسه، وتبدو ببهاء أكثر روعة كزوجة تخلى عنها زوجها، وهي تحمل ابنها. تحدث إليها بعد المسرحية، واستقبلته بهدوئها المعتاد الذي رآه جميلاً، وكأنه ينظر إلى ماء عميق نقي، ثم غادرها بعد أن حصل منها على إذن ليراها في اليوم التالي، إذ كان مصمماً على أن يخبرها بأنه معجب بها، وأنه يريد الزواج منها. لقد عرف أن هذا يشبه اندفاع رجل مجنون، يتنافى حتى مع نقاط ضعفه. لا يهم... فهذا ما قرر فعله. لقد كانت تتنازعه شخصيتان؛ يجب عليه التوفيق بينهما، وتحمل إحداهما الأخرى. غريب أن يرى بعضنا الحقيقة وهم مفتونون بنظرة متغيرة، حتى عندما يذهب عقلنا إلى الأعلى نظل نرى أنفسنا الجادة على الأرض المنبسطة، تنتظرنا هناك في الأسفل. إن طلبه للور من أجل الزواج دون حنو وعطف سيناقض جلّ مشاعره تجاهها.

قالت له في اليوم التالي، وهي تجلس أمامه ضامّة ذراعيها، وتنظر إليه بعينين تائهتين كحيوان مجتر غير مدجن: «هل أتيت من باريس لتجدني؟ هل يتصرف جميع الرجال

الإنجليز هكذا؟».

«أتيت لأنني لم أستطع العيش دون أن أراك. إنك وحيدة. إنني أحبك. أريدك أن توافقي كي تكوني زوجة لي. سأنتظر، لكنني أريدك أن تعديني بأنك ستتزوجينني أنا، وليس أحداً آخر».

نظرت إليه لور بصمت، والكآبة تشع من تحت جفني عينيها الجميلتين حتى ملأه يقين منتشٍ، فجثا عند ركبتيها. «سأقول لك شيئاً»، قالت بطريقتها العذبة، وهي لا تزال تضمّ ذراعيها.

«لقد زلت قدمي حقًّا».

قال ليدجيت مستنكراً: «إنني أعلم، إنني أعلم. لقد كان حادثاً مميتاً... لقد كانت كارثة مروعة... قربتني منك أكثر».

صمتت لور قليلاً ثانية، ثم قالت ببطء: «لقد فعلت ذلك عن عمد». شحب وجه ليدجيت وارتعش، على الرغم من أنه كان رجلاً قويًّا، مرت دقائق قبل أن ينهض ويقف بعيداً منها.

أخيرا قال بعنف: «إذاً لقد كان هنالك سر. لقد كان قاسياً عليك: كنت تكرهينه؟».

«كلا! لقد أتعبني. كان يحبني أكثر مما ينبغي. أراد العيش في باريس وليس في بلدي. لم أوافق على ذلك».

قال ليدجيت، وهو يتأوه رعباً: «يا إلهي! وخططت لقتله؟؟!!».

«لم أخطط... جاءتني الفكرة وأنا أمثل.. فأردت تنفيذها».

وقف ليدجيت متسمراً، ثم وضع قبعته على رأسه وهو ينظر إليها دون وعي. لقد كانت هذه المرأة.. أول من أحب في حياته.. بين حشد من المجرمين الحمقى.

قالت: «إنك شاب طيب، ولكنني لا أحب أن يكون لي زوج. ولن أتزوج من رجل آخر».

عاد ليدجيت مرة ثانية إلى تجاربه الكهربائية بعد ثلاثة أيام فقط، معتقداً أنه لن يعيش الوهم ثانية. لقد نجته طيبة قلبه وإيمانه بأن حياة الإنسان يمكن أن تكون أفضل من التأثيرات المقسية للقلب. ولكن تولد لديه إيمان أكبر كي يثق بسداد رأيه وحكمه على

الأشياء، بعد أن اكتسب خبرة الآن، ومن الآن سينظر إلى المرأة بمنظار العالم، دون أن يقيم أي توقعات سوى تلك المبررة منها. وما كان لأي أحد في مدل مارش أن يتوقع أن يكون لليدجيت ماضٍ كهذا، وحقًّا إن أهل البلدة المحترمين هناك، لم يكونوا ينظرون إليه كما ينظر إليه أناس آخرون. ليس الفتيات العذراوات في تلك البلدة فحسب، بل الرجال الذين شابت أذقانهم أيضاً، إذ إنّهم غالباً ما يتسرعون في تخمينهم. كيف يمكنهم أن يستخدموا القادم الجديد في تحقيق غاياتهم مقتنعين بجهلهم؟. كيف أن الحياة قد كونته ليكون أداة مناسبة لهذا الهدف؟. يحتسب لأهل مدل مارش أنهم استوعبوا ليدجيت، وفهموه جيداً دون أي عناء.

الفصل السادس عشر

كل ما يُعشق في المرأة أجده فيك أيتها الجميلة...

فكل ما يمكن للمرأة أن تقدمه هو الجمال والرقة.

سير شارلز سيدلي

أصبح أمر تعيين السيد تايك كقسيس مأجور في المستشفى موضوعاً ممتعاً لدى أهل مدل مارش، وسمع به السيد ليدجيت ففهم مقدار سلطة بولسترود في البلدة. لقد كان صاحب المصرف يتمتع بسلطة أساسية، لكن هناك في الوقت نفسه فريقًا له، فحتى بعض الذين كانوا يؤيدونه لم يترددوا في أن يظهر الأمر وكأنه تسوية أو صفقة، إذ صرحوا بانطباعاتهم بأن تداول الأمور عمومًا، ولا سيّما في أوقات الأزمات التجارية، تتطلب أن تستعين حتى بالشيطان.

لم تأت سلطة بولسترود من كونه صاحب مصرف عرف جميع أسرار معظم تجار البلدة، واستطاع أن يمسك بمصادر أرصدتهم، لكنها أيضاً أتت من التبرع. لقد استطاع أن يستجمع لنفسه كرجل مجدّ مواظب على عمله دائماً، نصيباً أساسيًّا في إدارة الجمعيات الخيرية في البلدة. في الوقت نفسه، استطاع أن يؤسس كثيراً من الجمعيات الصغيرة الخاصة به. فكان يبذل جهداً كبيراً لأجل تدريب ابن الإسكافي تيك على حرفة، ويراقب ذهابه إلى الكنيسة. كما أنه كان يدافع عن المرأة الغسالة، السيدة سترايب، ويحميها من ابتزاز ستب، ويمعن النظر بنفسه في ما يروج من أجل تشويه سمعتها. كانت قروضه الخاصة كثيرة جدًّا، لكنه كان يدقق كثيراً في ظروف المدين قبل إعطائه للقرض وبعده. هكذا استطاع الرجل أن يكسب أمل وخوف جيرانه، وكذلك امتنانهم له. وعندما تتواجد السلطة في ذلك الإقليم المستقر تنمو وتنتشر في جميع أركانه مستخدمة كل الوسائل المتاحة لها. إن الحصول على أكبر سلطة ممكنة كان يشكل مبدأ بالنسبة إلى بولسترود ليوظفها في خدمة عظمة الرب. لقد مر بصراع روحي وجدل داخلي كبيرين ليضبط دوافعه، وليوضح لنفسه ما تتطلبه عظمة

الخالق. ولكن كما شاهدنا لم تثمن دوافعه حق قدرها. لقد كان في مدل مارش الكثير من أصحاب العقول المتشددة الذين يزينون الأمور بكليتها وليس بتفصيلاتها. كما أنه كانت لديهم شكوك بأن السيد بولسترود يجلس إلى مائدة مصاصي الدماء تحت عنوان التفوق والسيادة، مستدلين على ذلك بعدم قدرته على الاستمتاع بالحياة على طريقتهم؛ فهو يأكل ويشرب القليل فقط، لكنه يشغل نفسه في كل أمر.

أثير أمر القسيس في المستشفى، على طاولة السيد فنسي حين كان يتناول السيد ليدجيت العشاء هناك، وشاهد أن علاقة عائلة فنسي ببولسترود لم تمنع السيد فنسي من إبداء رأيه بحرية... كانت أسباب معارضته لتعيين السيد تايك نابعة فقط من رفضه لخطب، كانت مجرد تعاليم دينية. وكان يفضل تعيين السيد فيربرذر لأن خطبه كانت تتضمن تعاليم أقل. لقد أحب السيد فنسي فكرة إعطاء القس مرتباً شهريًّا، على أن يكون للقس فيربرذرالذي كان أفضل رجل على قيد الحياة وأفضل رجل دين في المعمورة، وهو أيضاً جديراً بالرفقة.

قال السيد جيجلي المحقق في أسباب الوفيات، والصديق المتملق للسيد فنسي: «ما الرأي الذي ستتبناه إذاً؟».

«إنني مسرور جدًّا لأنني لست أحد المدراء. سأحيل الأمر للمدراء وهيئة الأطباء سوية. سألقي ببعض المسؤولية على عاتقك يا طبيب». قال السيد فنسي، وهو ينظر أولاً إلى الطبيب سبراغ، الطبيب الرئيسي في البلدة، ثم إلى ليدجيت الذي كان يجلس في الجهة المقابلة. «يجب عليكم أيها الأطباء أن تستشيروا بعضكم بعضاً لأي شراب أسود تصفون، أليس كذلك يا ليدجيت؟».

قال ليدجيت: «لا أعرف إلا القليل عنهما، لا يعين أي رجل إلا إذا كان محبوباً. فلا يكون دائماً أنسب رجل لوظيفة ما دائماً هو الأفضل. إذا ما أردت إصلاح أمر ما، لن يمكنك فعل ذلك عندما تحيل الأشخاص الجيدين الذين يحبهم الجميع إلى التقاعد، فتبعدهم عن الأمر تماماً».

على الرغم مما كان يقال عن الطبيب منشن إنه حقق شعبية كبيرة، فإنه كان ينظر إلى الطبيب سبراغ على أنه يتمتع بالثقل الأكبر. لقد تمكن الطبيب سبراغ في هذه الأثناء من أن يعري وجهه الضخم من جميع أنواع التعبير، وكان ينظر إلى كأس نبيذه بينما كان ليدجيت

يتكلم. إن حب ليدجيت لبعض الأفكار الغريبة، ونزعته إلى إثارة المواضيع التي حسمها من هم أكبر منه سنًّا ونسوها، لم تكن بالتأكيد محل ترحيب طبيب ثبتت مكانته منذ ثلاثين عاماً بإتمامه بحثاً حول التهاب السحايا، وغُلّفت على الأقل نسخة منه بجلد العجل. بالنسبة إليّ فإنني أتعاطف مع الطبيب سبراغ... إذ ليس من دواعي السرور عندما ينتقص الآخرون ثقتك بنفسك.

في أيّ حال لم تتماشَ ملاحظة ليدجيت مع آراء الجالسين. قال السيد فنسي إنه لو عاد الأمر له لما عين أشخاصاً لم يحظوا بموافقة الآخرين في أي مكان.

قال السيد جيجلي: «من يأبه لإصلاحاتك...!! لا يوجد هراء أكثر من ذلك في العالم. لم تسمع بالإصلاح، فهو يعني خدعة تعيين بعض الرجال الجدد. أرجو ألّا تكون أحد رجال لانست يا ليدجيت. تريد أن تنزع مهمة التحقيق بالوفيات خارج المهنة القانونية، إن كلماتك تنم عن ذلك».

قال الطبيب سبراغ مقاطعاً: «إني أعارض رأي واكلي، ولا أحد غيره. إن نواياه سيئة، فيمكن أن يضحي باحترام المهنة التي يعرفها الجميع ليحصل على الشهرة الشخصية له. هناك رجال لا يهمهم إذا ما ركلوا كثيراً مقابل أن يحصلوا على الشهرة. لكن واكلي على حق في بعض الأحيان». أضاف الطبيب بحصافة: «يمكنني أن أذكر أمراً أو أمرين، كان واكلي على حق بهما».

قال السيد جيجلي: «حسناً، لا ألوم أي رجل يعمل جاهداً لأجل مصلحته، إنني أريد أن أعرف كيف يمكن لمحقق بالوفيات أن يصل إلى استنتاج، دون أن يكون قد حصل على تدريب قانوني على المهنة؟».

قال ليدجيت: «في رأيي، لا يجعل التدريب القانوني من الرجل إلا غير كفء في المسائل التي تتطلب معرفة من نوع آخر. يتحدث الناس عن الدلائل، وكأنها يمكن قياسها ووزنها بميزان العدالة العمياء. لا يمكن لأي رجل أن يحكم على أي دليل بأنه جيد، ما لم يكن ملمًّا بذلك الموضوع على درجة عالية، فالمحامي ليس من اختصاصه فحص الجثث. كيف له أن يعرف تأثير السم..؟ إذ يمكنك القول إن تفحصك للشعر يعلمك كيف تفحص محاصيل البطاطا».

قال السيد جيجلي ببعض السخرية والازدراء: «أظنك تعلم أن ليس من واجبات المحقق

في أسباب الوفاة أن يقوم بفحص الجثث، لكنه فقط يأخذ بتقرير الطبيب..!!».

قال ليدجيت الذي لا يزال جاهلاً كالمحقق نفسه: «يجب ألّا يعتمد علم القانون على معلومات الطبيب فقط، ويجب ألّا يعتقد المحقق أن مادة الإستريكين سامة ويمكن أن تتلف بطانة المعدة، إذا ما قال له طبيب جاهل».

لقد غفل ليدجيت عن حقيقة أن السيد جيجلي هو المحقق، وأنهى كلامه بسؤال بريء: «ألا تؤيدني الرأي أيها الطبيب سبراغ؟».

قال الطبيب: «إلى حد ما... هذا ممكن في منطقة مزدحمة بالسكان، وكذلك في العاصمة»، ولكن أتمنى أن يمر وقت طويل، قبل أن يفقد هذا الجزء من البلاد خدمات صديقي جيجلي، حتى ولو توافر فيه أفضل رجل يحل محلّه. إنني متأكد من أن فنسي يؤيدني الرأي».

قال السيد فنسي بمرح: «نعم، نعم، سمِّ لي محققاً ماهراً. وبرأيي تكون بمأمن عندما تكون مع محام، إذ لا يمكن لأحد أن يعرف كل شيء... كل شيء من عند الرب. وبالنسبة إلى السم ما تحتاج معرفته، فهو القانون. تعالوا، دعونا نلتحق بالنساء».

«لقد كان رأي ليدجيت الشخصي، أن السيد جيجلي هو المحقق الوحيد الخبير بجدار المعدة، فلم يخصص كلامه حوله. لقد كانت هذه إحدى الصعوبات التي يواجهها ليدجيت في تعامله مع مجتمع مدل مارش الطيب؛ إذ كان خطراً أن يؤكد على المعرفة كمؤهل لأي وظيفة ذات أجر. دعا فرد فنسي ليدجيت بالمتزمت، ويميل الآن السيد جيجلي إلى تسميته بالأكثر تزمتاً، خصوصًا في غرفة الاستقبال عندما انسجم مع روزموند التي انفرد بها بسهولة في نقاش، ولا سيما أن السيدة فنسي كانت تجلس إلى طاولة الشاي. لم تعهد لابنتها بأي عمل منزلي، ووجهها الطيب المتورد والشرائط الزهرية المتدلية من حول حنجرتها، ومعاملتها المرحة مع زوجها وأولادها، كانت بالتأكيد أحد الأشياء التي جعلت منزل عائلة فنسي أكثر جاذبية... تلك الجاذبية التي جعلت الوقوع بحب الابنة الأمر الأكثر سهولة. لقد زادت المسحة العامية المتواضعة والمسالمة التي تلمحها لدى السيدة فنسي من الرقة التي فاقت توقعات ليدجيت لدى روزموند. بالتأكيد قدمان صغيرتان، وكتفان منتصبتان، تولد الانطباع لدى الآخرين برقة الفتاة وعذوبتها، وعندما تقول شيئاً صحيحاً، فإنه يكون مذهلاً عندما تقوله بشفتين ساحرتين، وعينين فاتنتين. وكانت روزموند قادرة على أن تقول ما هو

صحيح لأنها كانت ماهرة في ذلك النوع من الأداء الذي يترافق مع نبرة صوت ساحرة بخاصة، عدا تلك التي تترافق مع الهزل. ولحسن الحظ لم تتعمد المزاح، وربما كان هذا يشكل علامة فارقة في ذكائها. لقد اندمجت مع ليدجيت في نقاش. أبدى لها أسفه لأنه لم يسمعها تغني في ستون كورت. فالشيء الوحيد الذي كان يستمتع به خلال إقامته في باريس هو سماع الموسيقى.

قالت روزموند: «هل درست الموسيقى...؟؟».

«كلا، أنا أعرف نغمات الكثير من الطيور، وأعرف الكثير من المقطوعات الموسيقية سماعيًّا، لكن الموسيقى التي لا أعرفها أبداً، وليس لدي فكرة حولها هي تلك التي تؤثر بي وتبهجني. كم العالم أحمق عندما لا يستمتع بما هو في متناول يده!».

«أجل... وإنك لن تجد في مدل مارش موسيقى.. فمن الصعب أن تجد موسيقيًّا جيداً. أنا أعرف رجلين فقط يعرفان الغناء جيداً».

«أظن أن الغناء الكوميدي على إيقاع متواتر هو نمط دارج يسحرك لحنه وكأنه يعزف على طبل».

قالت روزموند، مع إحدى ابتساماتها النادرة: «آه، لقد سمعت غناء السيد باوير، لن نجحف في حق جيراننا».

أوشك ليدجيت أن ينسى نفسه كي يشاركها الحديث، وهو يتأمل روعة هذا المخلوق وجماله، وتبدو ثيابها وكأنها صنعت من قطعة من زرقة السماء، وهي شقراء نقية، وكأن بتلات وردة ضخمة قد تفتحت للتو لتكشف عنها، ولا يزال هذا اللون الأشقر الطفولي يعكس عظمة هادئة. فمنذ أن غدت صورة لور ذكرى في مخيلة ليدجيت، لم يعد يحب الصمت المحدق، ولم تعد عينا الغزال الواسعة تفتنه. لقد كانت روزموند على العكس من لور لكنه عاد إلى طبيعته.

«أتمنى لو تسمعينني بعض الموسيقى هذه الليلة».

قالت روزموند: «سأسمعك محاولاتي لو أردت، سيلح علي والدي كي أغني، لكنني سأرتجف أمامك ولا سيما أنك سمعت أفضل المغنين في باريس. لقد استمعت إلى القليل منهم، ولم أذهب إلى لندن إلا مرة واحدة. لكن عازف الأورغن في سانت بطرس ماهر جدًّا،

وأنا أتدرب على يديه».

«أخبريني ماذا شاهدت في لندن».

«قليلاً جدًّا» - لو كانت فتاة ساذجة، لقالت «كل شيء» - ثم تابعت قائلة: «قليلاً من الأماكن العادية، كتلك التي دائماً تؤخذ إليها فتيات الريف البسيطات».

«هل تعتبرين نفسك فتاة ريف بسيطة؟»، قال ليدجيت وهو ينظر إليها بتأكيد إلزامي مما جعل روزموند تحمر مسرورة. لكنها ظلت ببساطة جادة، ثم أمالت برأسها قليلاً، وأمسكت بيدها شعرها المجدل في حركة كعادتها الجميلة تشبه حركة قدم قطة صغيرة، إذ كانت روزموند تشبه القطة الصغيرة. لقد كانت فتاة هيفاء رشيقة، اكتسبت العلم في وقت مبكر في مدرسة السيدة لمون.

قالت مباشرة: «إنني أؤكد لك أن تفكيري بسيط، فأنا من مدل مارش. أنا لا أخشى التحدث إلى جيراننا القدماء، لكنني أخشاك حقًّا».

«لا امرأة بارعة تعلم أكثر مما نعلم نحن الرجال، على الرغم من أن معرفتها تختلف عن معرفتنا. إنني متأكد من أنك تستطيعين أن تعلميني آلاف الأشياء - كما يستطيع طير رائع أن يعلم دبًّا إذا ما كانت لديهما لغة مشتركة. ولحسن الحظ أن هناك لغة مشتركة بين النساء والرجال، لذا يصبح تعليم الدببة ممكناً».

«ها هو فرد بدأ يعزف...! يجب أن أذهب وأمنعه من إيذاء سمعنا». قالت هذا روزموند، وهي تنتقل إلى الجهة الأخرى من الغرفة، حيث فتح فرد البيانو وراح يعزف بيد واحدة مقطوعة «شيري رايب». كان ذلك بحسب رغبة أبيه الذي أراد روزموند أن تعزف بعض الموسيقى. يمكن للرجال المقتدرين الذين اجتازوا امتحاناتهم أن يفعلوا هذه الأشياء في بعض الأوقات، كما يقوم بها فرد الجريء.

قالت روزموند: «أرجوك يا فرد أن تؤجل تدريبك حتى الغد، فإنك تؤذي سمع السيد ليدجيت... لديه أذن موسيقية». ضحك فرد... وتابع عزفه حتى النهاية، استدارت روزموند إلى ليدجيت، وابتسمت قائلة: «هل ترى، لا تتعلم الدببة دائماً».

قال فرد، وهو يقفز من على المقعد، ويديره تجاهها بترقب حار للاستمتاع: «إذاً هيا يا روزي! بعض الألحان المثيرة أولاً».

عزفت روزموند بطريقة مذهلة. كان معلمها في مدرسة السيدة لمون التي كانت بالقرب من بلدة إقليمية عارفاً بذكريات آثار دينية ضمن كنيسة وقلعة، كان ذلك المعلم أحد الموسيقيين البارعين الذين يتواجدون هنا وهناك في مقاطعاتنا، ويستحقون مقارنتهم بالمشاهير من الموسيقيين. لقد اقتبست روزموند بغريزتها البارعة فنيًّا طريقة معلمها في العزف، وكررت أداءه في العزف لبعض المقطوعات القيمة بدقة الصدى. كان ذلك مذهلاً لدى سماعه لأول مرة. كانت أصابع روزموند تعزف وكأنها تخفي روحاً خلفها، وحقًّا كانت كذلك، ولا سيما أن الأرواح تتابع حياتها في الصدى الأزلي. سحر ليدجيت وبدأ يقتنع بها كمخلوق نادر. لقد اعتقد بعد هذا كله أنه يجب ألّا يدهش المرء عندما يجد الاقتران النادر في الطبيعة ضمن ظروف لا تبدو مفضلة. وأينما يأتي هذا الاقتران، فإنه يعتمد على ظروف غامضة. جلس ينظر إليها، ولم يقف ليحييها تاركاً هذا للآخرين حيث تعمق إعجابه بها.

كان غناؤها أقل تميزاً، لكنه يعكس تدريباً جيداً، وهو عذب، سماعه يشبه العزف الموزون بدقة. لقد غنت أغنية «قابلني تحت ضوء القمر» وأغنية «كنت أتجول»، إذ يجب على الناس أن يشاركوا في ما هو دارج في زمانهم، ولا أحد سوى القدماء يمكن أن يكونوا كلاسيكيين. ولكن يمكن لروزموند أن تغني أغنية «سوزان ذات العيون السود»، بتأثير أغاني هايدن الخفيفة المرحة، أو أغنية «فوا، جي سابت»، أو أغنية «باتي، باتي» - أرادت فقط أن تعرف ما يحبه مستمعوها.

جال أبوها بنظره على الحاضرين، وهو مبتهج بإعجابهم. وكما كانت تجلس إلهة الإغريق نيوب في مواجهة متاعبها، جلست الأم وهي تضع ابنتها الصغرى في حضنها، وتلوح بيد ابنتها برفق بحسب إيقاع الموسيقى. أما فرد.. وعلى الرغم من شكوكه بروزموند... فإنه كان يصغي إلى عزفها باعتراف تام لها، متمنياً لو كان في مقدوره أن يعزف هكذا على آلة الفلوت. لقد كانت ألطف حفلة عائلية يحضرها ليدجيت منذ أن قدم إلى مدل مارش. لقد كانت عائلة فنسي دائماً مستعدة للاستمتاع، وكانوا يرفضون جميعاً أنواع الحصر النفسي، وينظرون إلى الحياة على أنها قدر مرح، مما جعل منزلهم متميزاً في معظم بلدات الإقليم ذلك الوقت.

عندما ساد مذهب المتزمتين الذي أثار بعض الشكوك حول المتع القليلة التي ظلت سائدة في الأقاليم. كانت دائماً تلعب لعبة الورق في منزل عائلة فنسي فطاولة لعبها جاهزة الآن، مما جعل بعض الحاضرين ينفد صبرهم من سماع الموسيقى دون أن يظهروا ذلك. وقبل أن يتوقف عزف الموسيقى دخل السيد فيربرذر، رجل وسيم وذو صدر عريض إلا أنه

قصير القامة في الأربعين من عمره، وكانت ملابسه السوداء رثة، لكن الذكاء كان يشع من عينيه الرماديتين. وشابه حضوره تغير لون الطيف، فأوقف الطفلة لويزا بحنو يشبه حنو الأب حين كانت تصطحبها الآنسة مورغن إلى خارج الغرفة، ثم حيا كل واحد من الحضور بكلمات خاصة، فبدا وكأنه يتكلم في عشر دقائق أفضل مما تكلم جميع الحضور طوال ذلك المساء. وطلب من ليدجيت وعداً كي يزوره.

«لن أعذرك إن لم تأت إلي، فلدي بعض حشرات الخنفساء أريدك أن تراها. نحن الهواة نهتم بكل رجل جديد حتى يرى كل ما لدينا». ثم سرعان ما انتقل إلى طاولة الورق، وهو يفرك يديه: «هيا تعالوا إلى الجد الآن... ألا تلعب يا سيد ليدجيت؟ إيه... إنك صغير على هذه اللعبة».

قال ليدجيت لنفسه: إن رجل الدين هذا الذي لا تقنع قدراته السيد بولسترود، يبدو أنه حظي بشعبيه مرتفعة لدى الحضور القليلي المعرفة في هذا المنزل، الذي يسوده مزاح لطيف ويظهر فيه الصغار والكبار بطلعة بهية، ويمضي الوقت فيه دون أن يستخدم الذكاء كثيراً، مما جعل ذلك المنزل يجذب الذين يقضون أوقات فراغهم. لقد استطاع ليدجيت تفسير ذلك.

كان يبدو كل شيء نضراً ومرحاً باستثناء الآنسة مورغن التي كانت ترتدي ألبسة بنية، ويظهر عليها الملل وكانت منعزلة. كما كانت تقول عنها السيدة فنسي: إنها تناسب أن تكون مربية أطفال. لم تكن لدى ليدجيت النية للقيام بزيارات عديدة، فهي بالنسبة إليه مضيعة لوقت المساء، والآن بعد أن يتحدث إلى روزموند قليلاً سيستأذن للانصراف.

«لن تحبنا في مدل مارش، أنا متأكدة». قالت هذا عندما بدأ اللاعبون يلعبون لعبة الورق. إننا مملون، وأنت اعتدت على شيء مختلف تماماً».

قال ليدجيت: «أظن أن جميع البلدات الريفية تتشابه، لكنني لاحظت أن كل ريفي يعتقد بأن بلدته أكثر مللاً من الأخريات. لقد قررت أن أتقبل مدل مارش كما هي، وسأكون مسروراً جدًّا لو تقبلتني البلدة بالطريقة نفسها. لقد وجدت فيها بالتأكيد بعض الأشياء التي تفتنني، وهي أعظم مما توقعت».

قالت روزموند ببساطة: «تعني ركوب الخيل بين تبتن ولُوِيك، فالجميع يستمتعون بذلك».

«كلا، أعني شيئاً أقرب إلي من ذلك».

نهضت روزموند وقالت: «هل تهتم بالرقص؟ لست متأكدة ممّا إذا كان الرجال الأذكياء يرقصون على الإطلاق».

«سأرقص معك لو أذنت لي في ذلك».

قالت روزموند بضحكة استنكارية... «آه!»

«كنت سأقول فقط: إننا نرقص في بعض الأوقات، وأردت أن أعرف إذا كنت تشعر بالحرج لو طلب منك أن تأتي للرقص».

«ليس بالشرط الذي ذكرته سابقاً».

بعد هذا النقاش أراد ليدجيت الذهاب، لكنه عندما ذهب إلى طاولة لعبة الورق «الويست» أثارت انتباهه طريقة لعب السيد فيربرذر حيث كان بارعاً فيها، وكذلك أثار انتباهه وجه فيربرذر الذي كان يبدو عليه الدهاء واللطف. وفي الساعة العاشرة أدخل العشاء - هكذا كانت عادة أهل مدل مارش - كما كان هناك شراب البانش، لكن السيد فيربرذر تناول كأس ماء فقط. كان يربح، فلم يكن هناك أي سبب لإنهاء اللعب، ثم خرج ليدجيت أخيراً.

ولأنها لم تبلغ الساعة الحادية عشرة بعد... أراد أن يذهب ماشياً في الهواء الطلق نحو برج القديس بوتولف، حيث تقع كنيسة السيد فيربرذر الضخمة والمستديرة والمعتمة في ضوء النجوم. كانت أقدم كنيسة في مدل مارش، وكان راتب القس حوالى أربعمائة جنيه في السنة. سمع ليدجيت بذلك وهو يتساءل الآن: في ما لو أن السيد فيربرذر يهتم بالنقود التي يربحها في لعب الويست ظنّا به «إنه يبدو شخصاً لطيفاً للغاية، ولكن ربما كان لبولسترود أسبابه المقنعة». ستصبح أشياء كثيرة أكثر سهولة بالنسبة إلى ليدجيت لو ثبت لبولسترود أن لديه دلائل كافية، «ماذا تعني تعاليمه الدينية بالنسبة إليّ، فكل ما يعنيني ما إذا كانت لديه أفكار بناءة. يجب علينا الاستفادة من مثل هذه العقول كما هي».

كانت هذه أول تأملات ليدجيت بعد أن غادر منزل عائلة فنسي، ولهذا أخشى ألّا يعتبره كثير من النساء محل إعجابهن. ثم فكر في روزموند وعزفها للموسيقى، فعندما جاء دورها خيمت على مخيلته صورتها طوال ما تبقى له من الطريق إلا أنه لم يشعر بإثارة تجاهها، أو أي تدفق جديد في حياته. لم يستطع أن يتزوج حتى الآن، ويتمنى ألّا يتزوج لبضع سنوات أخرى، ولذلك لم يكن مهيأً ليتمتع بوقوعه بحب فتاة جديدة، حصل أن أعجب بها. لقد أعجب بروزموند بشدة، لكن الجنون الذي قاده إلى حب لور لن يوقعه ثانية بحب أي فتاة

أخرى. لو كانت فكرة الوقوع في الحب واردة لكان ذلك أكثر أمنًا أن يكون مع الآنسة فنسي التي تتمتع بذكاء يتمناه كل شاب عند المرأة التي يحبها، وكذلك الرقة والعذوبة والطاعة أيضاً المطلوبة لأجل الاستمتاع بالحياة خصوصًا عندما تجتمع كلها عند امرأة.

كان ليدجيت متأكداً من أنه لو تزوج لكان لدى زوجته ذلك الإشعاع الأنثوي، الذي يميز الأنوثة، فتصنف مع الورود والموسيقى، فيغدو ذلك الجمال ظاهراً وعفيفاً بطبيعته بعد أن يقولب ليغدو مصدر سعادة نقية وعذبة. ولأنه لا ينوي الزواج خلال السنوات الخمس القادمة، كان يتركز اهتمامه حول قراءته لكتاب لويس الجديد في «الحمى» الذي كان محل اهتمامه، خصوصًا أنه عرف لويس في باريس، وتابع بحوثاً في علم التشريح ليحدد الاختلافات الدقيقة بين مرض الحمى التيفية والحمى النمشية. وصل إلى منزله وظل يقرأ حتى ساعة متأخرة من الليل، وهو يتفحص كثيراً من النقاط الجزئية، وينشئ روابط بينها، ثم يطبقها على بحث الأمراض الذي كان يقرؤه أكثر بكثير مما كان يفكر في الحب والزواج؛ الموضوعين اللذين شعر أن لديه معرفة عميقة بهما من خلال قراءاته في الأدب، ومن الخبرة التقليدية التي يكتسبها الرجال من نقاشاتهم الودية. فمرض الحمى ذو التطورات الغامضة، تطلب جهدًا خياليًّا خصباً ومنظماً، مترافقاً مع توظيفه لقوة منضبطة ليقوم بالربط والإنشاء، آخذاً في الاعتبار أرجح الاحتمالات والانصياع التام للمعرفة. ثم باتحاد أقوى مع الطبيعة المجردة، ويقف منعزلاً ليبتكر فحوصات يختبر من خلالها تطورات المرض.

يمتدح الكثير من الرجال بأن خيالهم مفعم بالحيوية بسبب إنتاجهم الغزير من الرسوم التي لا تقدم ولا تؤخر شيئاً، وكذلك الروايات الرخيصة التي تتحدث عن حكايات سخيفة راجت بين مجتمعات بعيدة، أو رسم لإبليس، وهو ينزل لأداء مهمة قذرة، ويظهر كرجل ضخم وبشع بجناحي خفاش، عليه لطخ من اللمعان الفوسفوري البراق، أو مبالغات في الخلاعة تظهر الحياة في حلم سقيم. لكن ليدجيت يعتبر هذه الأنواع من الإلهام سيئة وبذيئة، عندما يقارنها بالخيال الذي يؤدي إلى أفعال قيمة لا ترى حتى بأي نوع من العدسات، لكنها تلاحق بالظلمة الخارجية عبر الطرق الطويلة المؤدية إلى النتائج المهمة مستدلاً عليها بالضياء الداخلي، الذي هو أصفى نقاء في الطاقة، وقادر على إزهار أدق الذرات في عالمه المنير. لقد ألقى بجميع الابتكارات الرخيصة حيث يكون الجهل قادراً ومرتاحاً. لقد كان معجباً بذلك الابتكار الشاق الذي كان يشكل محور البحث فيؤطر هدفه، ويجري عليه التعديلات ليكون منضبطاً بدقة. لقد أراد أن يخترق غموض العمليات الصغيرة التي تؤدي إلى سعادة الإنسان وحزنه، وكذلك أراد أن يفهم تلك الطرق غير المرئية التي تعد أول مكمن للاكتئاب والهوس والجريمة، كما أنه أراد فهم ذلك التوازن المهيب والتحول اللذين يحددان نمو الشعور بالسعادة أو التعاسة.

بعد أن ألقى بكتابه، ومد بقدميه إلى جذوة النار التي في الموقد، وشبك يديه خلف رأسه ضمن توهج المتعة التي اتقدت في داخله. كما يحدث عندنا، حين ينحرف تفكيرنا من تفحصنا لموضوع معين ليتحول إلى إحساس منتشر بأن ذلك الموضوع يرتبط بوجودنا، فتبدو المتعة وكأنها تلقي بنفسها على ظهرها لترتاح بعد سباحة شاقة، فتطوف برباطة جأش وقوة لا تتعب، شعر ليدجيت بمتعة النصر الذي حققه في دراسته، كما أنه شعر بشيء من الشفقة على من هم أقل حظًا منه، ولم تكن لديهم مهنته.

فكر: «لو لم آخذ هذا التوجه عندما كنت صبياً، لانتهى بي الأمر إلى عمل تافه كسائس للخيل أو ما يشابهه، ولقضيت حياتي كلها مغمض العينين، ولما استمتعت في مهنة لا تتطلب مني نصف الإجهاد الفكري ولا تبقيني على علاقة طيبة مع جيراني، فلا مهنة أخرى تمنحني هذا كمهنة الطب. يمكن للمرء أن يعيش حياة علمية تحقق له التفوق، ويصبح صديقاً لأصحاب العقول المتزمتة في الأبرشية ما هو أكثر صعوبة على رجل الدين. لكن السيد فيربرذر يبدو حالة شاذة».

استدعت هذه الفكرة الأخيرة ذكرى عائلة فنسي وجميع صور ذلك المساء إلى مخيلة ليدجيت. لقد طافت في مخيلته على وجه القبول تماماً، وبينما كان يلتقط شمعة فراشه ارتسمت على شفتيه شبه ابتسامة خفيفة تلائم أفكاره السائغة. لقد كان رجلاً يتقد حماسة، لكن حماسته كانت تتركز الآن في مضمار عمله، وفي طموحه لجعل حياته مميزة تقوم كعامل أساسي في تطوير الحياة البشرية، كما هي الحال مع أبطال العلم الآخرين الذين لم يتوافر لهم شيء سوى مهنة طب عام منعزلة في الأرياف ليبدؤوا بها.

هل أقول يا لليدجيت المسكين، أم يا لروزموند المسكينة!! فقد كانا يعيشان في عالمين مختلفين لا يعرف أحدهما عالم الآخر. لم يخطر في بال ليدجيت أنه كان مصدر تأمل واشتياق لدى روزموند، التي لم يكن لديها أي سبب كي تؤجل زواجها، ولا دراسة الطب تبعد تفكيرها عن عادة التأمل تلك، فتتخلى عن التكرار الداخلي للنظرات والكلمات والعبارات التي تشكل جزءاً كبيراً من حياة الفتيات. لم ينظر إليها، ولم يتكلم معها بأي دافع سوى الإعجاب والمديح اللذين يجب على كل رجل أن يقدمهما لكل فتاة جميلة يلتقيها. لقد بدا له حقًا أنه استمتع بموسيقاها، لكنه ظل صامتاً لأنه خشي الوقوع بالفظاظة، إذا ما قال لها بأنه مندهش لروعة ما قدمته. إلّا أن روزموند سجلت كل نظرة وكل كلمة، واعتبرتها أحداثاً تمهد لقصة حب رومانسي... وهي تنظر إلى هذه الأحداث لما تشكل من أهمية في تنبؤها لتطور قصة الحب، ثم وصولها إلى ذروة الحبكة. لم يكن مهمًا في قصة الحب الرومانسي

لدى روزموند أن تتخيل كثيراً حياة البطل الخاصة وعمله الجاد، بالطبع كان لديه مهنة، كما أنه كان ذكيًّا، وهو على قدر كاف من الوسامة، أما ما هو أكثر إثارة في ليدجيت فهي الأسرة التي يتحدر منها، وتميزه عن جميع المعجبين في مدل مارش، وتحيل الزواج طريق ارتقاء نحو طبقة اجتماعية أرقى، ثم الاقتراب من المنزلة السماوية قليلاً التي لا علاقة لها بعامة الناس، وربما ينتهي الأمر بالاندماج بمن هم من الطبقة العليا في الإقليم الذين ينظرون بازدراء إلى سكان مدل مارش. لقد كان من سمات ذكاء روزموند، قدرتها على التمييز السريع والدقيق بين الطبقات الاجتماعية؛ فعندما شاهدت مرة الآنستين بروك مع عمهما في إحدى جلسات الإقليم، الدورية، حيث كانتا تجلسان بين أرستقراطيّي الإقليم حسدتهما على الرغم من لباسهما البسيط.

لو كنت تعتبر أن من المدهش كون ليدجيت من عائلة راقية المستوى، يمكنها أن تثير القناعة به كزوج مأمول، بغض النظر عن حبها له، فإنني سأطلب منك قدرتك على المقارنة أكثر لترى ما إذا لم يكن للقماش الحر والشارات العسكرية تأثير من ذلك النوع. إن عواطفنا لا تعيش ضمن حجرات مقفلة، ولكن عادة ما تضع شروطها على طاولة مشتركة متزينة لباس نزواتها، فتتناول غذاءها من المخزون الوافر بحسب شهواتها.

لقد كانت روزموند منشغلة تماماً ليس بترشيوس ليدجيت، كما كان منشغلاً بنفسه، بل كانت منشغلة بعلاقتها معه. إنه متوقع من فتاة اعتادت على سماع جميع الشبان، ربما سوف يحبونها، أو حقًّا كانوا يحبونها، أن تعتقد على الفور بأن ليدجيت لا يشكل حالة استثنائية. لقد حملت نظراته وكلماته لها معاني أكثر من تلك التي حملتها نظرات الشبان الآخرين وكلماتهم، ذلك أنها اهتمت بها أكثر: لقد واظبت على التفكير فيها، وعلى أن يكون مظهرها وسلوكها وعواطفها وجميع عناصر أناقتها مثالية، فيصبح ليدجيت معجباً بها أكثر مما عرفته عنه حتى الآن.

بالنسبة إلى روزموند، على الرغم من أنها ما كانت لتفعل شيئاً لا ترضى عنه، أو لا ترغب فيه، فإنها كانت تعمل بجد وكد، فهي الآن أكثر من ذي قبل ترسم صوراً طبيعية وعربات البيع وصوراً لصديقاتها، وكذلك تتمرن على عزف الموسيقى، وتحرص على أن تكون فتاة مثالية من الصباح حتى المساء، بحسب ما تعتقد وتحلّل في مخيلتها باستمرار حضور بعض الناس، كما أنها في بعض الأوقات ترحب بالضيوف الكثر الذين يحضرون إلى منزل عائلتها. كانت تجد بعض الوقت لقراءة أفضل الروايات وحتى الكتب ذات المرتبة الثانية، وكانت تحفظ الكثير من الشعر غيباً. وكانت قصتها المفضلة «لالا روك».

«إنها أفضل فتاة في العالم...! وسيكون سعيداً من يحظى بها!».. كانت هذه مقولة الرجال المتقدمين في السن، الذين كانوا يزورون عائلة فنسي، وفكر الشبان الذين رفضتهم دون أن يحاولوا مرة أخرى كما كانت العادة في البلدات الريفية. إذ لا يوجد منافسون كثر، لكن السيدة بلمديل كانت تعتقد أن روزموند تعلمت لدرجة سخيفة، فما فائدة ذلك العلم إذا ما وضع جانباً حالما تتزوج...؟؟ في حين أن عمتها السيدة بولسترود التي كانت تحمل الود لأسرة أخيها، كانت لديها أمنيتان صادقتان لأجل روزموند: أولاً أن تغدو أكثر جدية، وثانياً أن تحظى بزوج يمتلك ثروة تلبي رغباتها.

الفصل السابع عشر

ابتسم رجل الدين وقال:

كانت بروميس فتاة جميلة،

ولكن لأنها كانت فقيرة ماتت عزباء.

كان يعيش الكاهن كامدن فيربرذر، الذي ذهب ليدجيت لزيارته في اليوم التالي، في منزل قديم بني بالحجارة ليغدو مهيباً كالكنيسة التي تطل عليه. وكان جميع الأثاث في المنزل قديماً أيضاً، ينتمي إلى عصر عاش فيه أبوه وجده. كانت هناك كراسي طليت باللون الأبيض، وحفر عليها بعض الجذلات القديمة بلون ذهبي، فألقي عليها من قماش الحرير الأحمر وتركت فيها بعض الفتحات. كما كانت هناك صور منقوشة للعديد من رؤساء مجلس اللوردات وبعض المشاهير من محامي القرن الماضي. وكان هناك العديد من مرايا الحائط التي تعكس تلك الصور، فضلًا عن بعض الطاولات المصنوعة من الخشب الأطلساني وأرائك تشبه الكراسي القديمة المتقلقلة، وكلها كانت منقوشة من خشب السنديان الفاخر والمعتم الذي كان يكسو جدار الغرفة من الداخل. كانت تلك ملامح الغرفة التي قيد إليها ليدجيت، حيث استقبلته ثلاث نساء محافظات باحترام بسيط، لكنه صادق: السيدة فيربرذر، أم الكاهن شعرها أبيض، أنيقة جدًّا ترتدي ثياباً مزركشة وأنيقة، وتجلس وهي مستقيمة الظهر، ونظراتها خاطفة، وتبلغ السبعين من عمرها حتى الآن، وأختها الآنسة نوبل عجوز، جسمها نحيل وصغير، ذات طبيعة هادئة، وثيابها كذلك مزركشة، لكنها مهترئة ومرتقة، والآنسة ونيفرد فيربرذر أخت الكاهن الكبيرة ومظهرها كان كمظهره، هادئة وكتومة، وحالها كحال النساء اللواتي لم يتزوجن، فيقضين حياتهن في طاعة من هم أكبر منهن سنًّا. لم يتوقع ليدجيت أن يرى مجموعة غريبة من الناس كهذه، ولا سيما أنه كان يعلم أن فيربرذر أعزب، فتوقع أن يدخل غرفة دافئة، أثاثها مجرد كتب ومجموعة من الأحياء الطبيعية. بدا الكاهن بمظهر مختلف كما هو شأن الرجال عندما يقابلون من تعرفوا إليهم في مكان آخر لأول مرة

في منزلهم، فيظهر بعضهم، وكأنهم ممثلون يقومون عادة بأدوار لطيفة إلا أنهم في المشهد الجديد يمثلون دور رجل سريع الغضب. ولكن لم يكن هذا شأن فبربرذر؛ فقد كان أكثر لطفاً وصمتاً، لأن أمه كانت المتحدثة الرئيسية، أما هو فكان يلقي تعليقاته المرحة هنا وهناك. فقد كانت المرأة العجوز معتادة على أن تخبر جلساءها ما يجب عليهم أن يفكروا فيه، وألا يأخذوا بأي موضوع دون الرجوع إليها. لقد كانت ابنتها الآنسة وينفرد مصدر متعتها، لأنها كانت تلبي رغباتها. كانت الآنسة نوبل تحمل سلة صغيرة في يدها، ألقت في داخلها قطعة من السكر، كانت أولاً قد ألقت بها في صحنها متظاهرة بأنها قد أخطأت، ثم ألقت بنظرها من حولها وكأنها تختلس شيئاً، ثم ترتشف من فنجانها قليلاً مع صوت هادئ بريء كذلك الذي يصدر عن حيوان جبان صغير. لا تسيئوا الظن بالآنسة نوبل، فقد كانت تلك السلة تحتوي على ما ادخرته مما يحمل من طعامها لتعطيه لأبناء صديقاتها الفقيرات الذين تتنزه معهم في كل صباح جميل، إذ كانت تعتني وتدلل جميع الناس المحتاجين، وكانت هذه النزهة تشكل مصدر متعة لها، اعتبرتها التزاماً أدمنت عليه. ربما كانت تعي أنها مولعة بسرقة أولئك الذين يملكون الكثير، لتعطي من ليس لديه شيء، وتحمل في ضميرها ذنب تلك الرغبة المكبوتة. لابد للمرء من أن يكون فقيراً ليعرف متعة العطاء!!

رحبت السيدة فيربرذر بالضيف بأسلوب رقيق وحيوي، فأخبرته أنهم لا يحتاجون إلى مساعدة طبية في ذلك البيت. لقد أنشأت أبناءها على عادة ارتداء الفانيلات، وألا يأكلوا طعاماً أكثر مما يحتاجون، العادة التي اعتبرتها سبباً يجعل الناس يحتاجون إلى الأطباء. دافع ليدجيت عن الذين أطعمهم آباؤهم وأمهاتهم أكثر مما كانوا يحتاجون، لكن السيدة فيربرذر اعتبرت ذلك خطراً؛ إذ إن الطبيعة أكثر عدلاً من ذلك، وسيكون من السهل على أي مجرم أن يقول إنه يجب أن يشنق أجداده بدلاً منه. لو كان لأولئك السيئين آباء وأمهات سيئون لوجب شنقهم. لا حاجة للرجوع إلى ما تستطيع رؤيته.

قال الكاهن: «إن أمي مثل جورج الثالث العجوز، إنها تعارض ما وراء الطبيعة».

«إنني أعارض ما هو خطأ يا كامدن. تمسك بحقائق قليلة، ثم أخضع جميع تصرفاتك بموجبها. لمّا كنت شابة يا سيد ليدجيت، لم يسأل أحد عما هو صحيح وما هو خطأ. كان علمنا الشخصي كافياً، تعلمنا عقيدتنا وواجباتنا. كان يحمل جميع رواد الكنيسة الأفكار نفسها. أما الآن... حتى لو أخذت اقتباسات من كتاب الصلوات فإنه يمكن للآخرين أن يعارضوك».

قال ليدجيت: «لابد لأولئك الذي تمسكوا بآرائهم من أن يكونوا قد استمتعوا بزمانهم».

قال الكاهن بمكر: «لكن أمي دائماً تستسلم».

«كلا، كلا، يا كامدن يجب ألّا تجعل ليدجيت يظن خطأ بي. لن أبدي قلة احترام لأبوي، فإنا لن أتخلى عما علموني إيّاه، ويمكن لكل واحد أن يرى ما ينجم عن التغيير. عندما تتغير مرة واحدة لمَ لا يتكرر ذلك عشرين مرة؟».

قال ليدجيت، وقد أضحكته جدية المرأة الجادة: «يمكن للمرء أن يجد سبباً لكي يتغير مرة واحدة، ولكن ربما لا يجد سبباً كي يتغير مرة أخرى».

«عفواً من فضلك، إذا ما أردت رأيي بالمجادلة، إنها حاضرة دائماً عندما لا يكون لدى الرجل ثبات في الرأي، لم يتغير أبي في حياته قط، وهو عارض المواعظ الأخلاقية دون أن يجادل أحداً، وقد كان رجلاً جيداً، فقليل من كانوا أفضل منه. قدم لي رجلًا مليئاً بالمجادلة، أقدم لك عشاء جيداً من خلال قراءتي لك كتاب طهو. هذا رأيي، أظن أن الجميع سيتحملني».

قال السيد فيربرذر: «بالتأكيد، بما يخص العشاء يا أمي».

«إنه الشيء نفسه العشاء أو الرجل الجيد. إنني أقترب من السبعين من عمري يا ليدجيت، وأنا أعتمد على خبرتي. لن أتبع بريق الأفكار الجديدة، على الرغم من أنها كثيرة هنا كما هي الحال في الأماكن الأخرى. إنني أقول بأنها دخلت إلينا مع الأشياء المختلفة التي لا تنظف ولا تهترئ. لم يكن الأمر كذلك في أيام شبابي: رجل الكنيسة كان رجل كنيسة حقًّا، ورجل الدين كان بالتأكيد رجلًا نبيلاً على الأقل. أما الآن فيمكنه أن يكون منشقاً عن الكنيسة ويريد أن يعزل ابني بذريعة المبادئ. ولكن من كان يريد عزل ابني؟؟ إنني فخورة لأقول يا سيد ليدجيت إنه أحد أفضل رجال الدين في هذه المملكة، وليس على صعيد هذه البلدة الصغيرة ذات المستوى المنخفض، على الأقل في رأيي، فأنا ولدت ونشأت في إكستر».

قال السيد فيربرذر مبتسماً: «لا يمكن للأم أن تكون متحيزة أبداً. ماذا تعتقد أن تقول أم السيد تايك عنه؟».

قالت السيدة فيربرذر، وقد تبلد ذكاؤها هذه اللحظة بسبب ثقتها بأحكام الأم: «آه، يا للمسكينة، حقاً ماذا؟ إنها ستقول الحقيقة لنفسها. ثق بذلك».

قال السيد ليدجيت: «وما هي الحقيقة؟ إنني تواق لأعرف».

قال السيد فيربرذر: «لا شيء سيىء على الإطلاق. إنه رجل متحمس... ليس على درجة عالية من العلم، ولا أظنه حكيماً جدًّا... لأنني لا أوافقه الرأي».

قالت الآنسة وينفرد: «لماذا يا كامدن؟؟ فقط اليوم أخبرني كريفن وزوجته بأن السيد تايك قال بأنهما لن يحصلا على الفحم إذا ما استمرا في الاستماع إلى عظاتك».

وضعت السيدة فيربرذر نسيجها الذي كانت تتابعت عملها به بعد أن تناولت القليل من الشاي والخبز المحمص، ونظرت إلى ابنها، وكأنها تقول له: «هل تسمع ذلك؟»، ثم قالت الآنسة نوبل: «آه يا للمساكين، يا للمساكين...! لقد فقد كلًّا من العظات والفحم... ». لكن الكاهن أجاب بهدوء: «ذلك لأنهم ليسوا من رواد أبرشيتي. ولا أعتقد أن العظات تعدل فحماً يعطى لهم».

قالت السيدة فيربرذر التي لن تدع هذه الفرصة تمر: «يا سيد ليدجيت. إنك لا تعرف ابني: إنه يستخف بنفسه. إنني أقول له: إنك تستخف بالإله الذي خلقك، وجعلك أفضل الكهنة في العالم».

قال القس ضاحكاً: «هذه إشارة لي كي آخذ السيد ليدجيت إلى غرفة مكتبي يا أمي». أضاف مستديراً لليدجيت: «وعدتك كي أريك ما جمعته. هل سنذهب؟».

اعترضت السيدات الثلاث، يجب ألّا يذهب السيد ليدجيت قبل أن يتناول فنجاناً آخر من الشاي؛ فلا يزال في إبريق الآنسة وينفرد كثير من الشاي. لماذا كان كامدن على عجل كي يأخذ ضيفه إلى حجرته الصغيرة؟ إذ لم يكن هناك سوى قليل من الحشرات والطيور وجوارير مليئة بالذباب الأزرق وفراش العث دون أن يكون هناك سجاد على الأرض. لا بد لليدجيت من أن يجد عذراً، فلعبة للورق أفضل من ذلك. باختصار لقد كان من الواضح أن على الرغم من أن القس يحظى بتوقير وإعجاب النساء اللواتي من حوله كملك على الرجال والعظات، فإنه يرغم حتى الآن على الانصياع إلى توجيهاتهن. لذا، فإن ليدجيت وبسطحية الشاب الأعزب تعجب لماذا لم يعلمهم السيد فيربرذر أفضل من هذا.

«لم تعتد أمي على استقبال ضيوفي الذين لديهم اهتمامات بهوايات ما». هذا ما قاله الكاهن وهو يفتح باب غرفته التي حقًّا لم تحتوِ على أي نوع من الرفاهية تماماً كما وضحت

السيدات، باستثناء غليون قصير مصنوع من البورسلان وعلبة تبغ.

قال الكاهن: «عادة لا يدخن الرجال الذين يعملون في مهنتك». فابتسم ليدجيت وهز رأسه.

«أعتقد... ولا أولئك الذين يعملون في مهنتي. ستسمع أن بولسترود وجماعته يأخذون علي تدخين الغليون. لا يعرفون كم يسر الشيطان لو أقلعت عنه».

«أنا أعلم أنك حاد الطبع، وتحتاج إلى مهدئ.. أما طبيعتي فهي أهدأ، وسأصبح كسولاً إذا ما دخنته، وسأقع في الكسل الشديد، وتخور جميع قواي».

«وإنك تعني أن تكرس جميع قواك لأجل عملك. إنني أكبرك بعشرة أعوام أو اثني عشر عاماً، فقد وصلت إلى توصية أن أقبل نقطة أو نقطتين من الضعف بدلاً من أن أرفضهما، فتقوى علي... هل ترى؟». ثم تابع القس قائلاً، وهو يفتح العديد من الجوارير الصغيرة: «أنا فخور بأنني قمت بدراسة مجهدة في علم حشرات هذه المنطقة. إنني أفحص تلك الحيوانات والنباتات الإقليمية، لكنني قمت على الأقل بفحص الحشرات على أفضل وجه. إننا نتفرد بامتلاكنا للحشرات المستقيمة الأجنحة، لا أعرف ما إذا - لقد أمسكت بتلك القارورة الزجاجية - إنك تنظر إليها بدلاً من النظر إلى جواريري. ألا تهتم حقًّا بهذه الأشياء؟».

«ليس عندما تكون هذه الحشرة الضخمة الجميلة والتي لا دماغ لها موجودة، فلم يكن لدي الوقت مرة كي أفرغ نفسي لدراسة الطبيعة. لقد شدتني دراسة بنية الجسم مبكراً، فمهنتي تعتمد عليها بشكل رئيسي. ليس عندي هوايات بجانبها. فدراسة بنية الجسم بحر يمكن السباحة فيه».

قال السيد فيربرذر واستدار جانباً، وبدأ يملأ غليونه: «آه، إنك شاب سعيد إذاً، إنك لا تعرف ماذا تعني الحاجة الروحية إلى التبغ - تعديلات سيئة لنص قديم - كتبت نصوص قديمة حول الأنواع العديدة لحشرات اللفت في مجلة توادلر، وتحمل توقيع فيلوميكرون الشهير، أو ضمن بحث علمي حول الحشرات التي وردت في أسفار موسى الخمسة وتلك التي لم ترد، ولكن تعرف عليها الإسرائيليون أثناء ترحالهم في الصحراء، وفي بحث عن النمل كما ورد عن سليمان يثبت التوافق بين ما ورد في صحف سليمان ونتائج البحوث الحديثة. هل يزعجك دخاني؟».

دهش ليدجيت بصراحة هذا الحديث بقدر ما دهش بمضمونه - حتى إن الكاهن ظن

نفسه أنه لا يقوم بالعمل الصحيح. ترتيب لمحتويات الرفوف والجوارير، وكذلك خزانة الكتب المليئة بكتب تاريخ الطبيعة الثمينة جعلته يفكر في أرباحه من لعبة الويست، وإلى أيّ وجهة تأخذه. لكنه بدأ يتمنى أن تكون أفضل الأشياء التي فعلها السيد فيربرذر هي تلك النابعة عن حقيقته. لم تكن صراحة الكاهن من ذلك النوع المقزز التي تنبع من وعي مضطرب وتحاول أن تحبط حكم الآخرين، ولكن تبدو هذه الصراحة ببساطة وكأنها تعبير حر للرغبة لفعل أقل الأشياء. من الواضح أنه كان يعي بأنه يمكن لحريته بالحديث أن تعتبر سابقة لأوانها لذلك أردف قائلاً: «لم أقل لك حتى الآن يا سيد ليدجيت بأنني أعرفك أكثر مما تعرفني. هل تتذكر ترولي الذي عاش معك في باريس لفترة من الزمن؟ كنت أراسله، فأخبرني الكثير عنك. لم أكن متأكداً عندما حضرت أول مرة أنك الشخص نفسه. كنت مسرور جدًّا عندما اكتشفت بأنك هو. لكنني لا أغفل حقيقة أنك تعرف عني شيئاً».

اكتشف ليدجيت هنا بعض الرهافة في المشاعر، ولكن لم يفهم نصفها فقال: «بالمناسبة.. ماذا حدث لترولي؟ لقد انقطعت أخباره عني تماماً. كان ناشطاً في نظام المجتمع الفرنسي، وتحدث عن نيته في الذهاب إلى باك وودس لينشئ مجتمعاً - فيثاغورثيًّا - هل ذهب؟».

«كلا، على الإطلاق. إنه يمارس مهنة الطب في ألمانيا، وقد تزوج إحدى مريضاته الثريات».

قال ليدجيت مع ضحكة ازدراء: «إذاً كانت نظرياتي هي الأفضل. عليه أن يتحمل ذلك.. إن مهنة الطب نظام عبثي محتوم. كنت أقول إن الخطأ في الرجال - فالرجال هم الذين يقعون في الأكاذيب والحماقات - بدلاً من مقارعة الهواء خارج الجدران، ربما كان من الأفضل لو أعددنا جهاز تعقيم داخل تلك الجدران. باختصار أنا أخبرك بما دار بيننا من نقاش.. يمكنك أن تكون متأكداً من أن جميع نواياي كانت صادقة».

«إن مشروعك أصعب بكثير من إنشاء مجتمع فيثاغورثي، إنك لم تقف بمواجهة آدم فحسب، بل واجهت جميع الآدميين من حولك. كما ترى فإنني قضيت اثني عشر عامًا أو ثلاثة عشر عاماً أكثر مما قضيت لأكتسب معرفتي عن المصاعب. ولكن...!!». توقف السيد فيربرذر للحظات، ثم أضاف قائلاً: «إنك تحدق في تلك القارورة الزجاجية ثانية. أتريد المقايضة..؟؟ لن تحصل عليها دون مقايضة عادلة».

«عندي بعض فئران البحر، عينات جيدة موضوعة في كحول، وسأعطيك أيضاً كتاب روبرت براون الجديد:«الملاحظات الدقيقة لأنواع النبات»، إذا كنت لا تملكه بعد».

«لماذا؟ ولكن ما دمت تريد اقتناء هذه الحشرة الكبيرة، يمكنني أن أطلب ثمناً أعلى. أفترض لو طلبت منك جميع جواريري، أتوافقني الرأي حول جميع الأصناف التي فيها؟». بينما كان الكاهن يتكلم في هذه الطريقة كان يتنقل في أرجاء الغرفة، ويضع غليونه في فمه، ثم عاد إلى جواريره ليبدو وكأنه مغرم بها: «سيكون هذا نظاماً جيداً بالنسبة إلى طبيب يترتب عليه إرضاء مرضاه في مدل مارش. يجب عليك أن تتعلم الملل تذكر ذلك. في أيّ حال يمكنك أن تحصل على الحشرة الكبيرة بحسب شروطك».

«ألا تعتقد أن الرجال يبالغون في تقديرهم لأهمية مسايرتهم لهراء الآخرين، حتى يحتقرهم أولئك الحمقى الذين كانوا يسايرونهم؟». قال هذا ليدجيت، وهو يتحرك تجاه فيربرذر، وينظر دون اكتراث إلى الحشرات المرتبة بتسلسل دقيق مع أسمائها وقد كتبت بخط جميل: «إن أقصر الطرق هو أن تجعل الآخرين يشعرون بقيمتك، فيتحملونك عندما تثني عليهم أو لا».

«أؤيدك الرأي تماماً. ولكن عندها... يجب أن تتأكد من أن لديك قيمة.. يجب عليك كذلك أن تظل مستقلاً. فقط القليل من الرجال يستطيعون فعل ذلك. إما أن تنطوي على نفسك، فتغدو جيداً دون مقابل، أو أنك ترتدي عدتك وتذهب حيث يجرك رفاقك المقيدون معك. ولكن انظر إلى هذه الحشرات المستقيمة الأجنحة!».

بعد هذا كله كان على ليدجيت أن ينظر في جميع الجوارير بينما كان القس يضحك لنفسه، لكنه يستمر في الوقت عينه في فتح الجوارير.

بدأ ليدجيت بعد أن جلسا: «في ما يتعلق بما قلت حول ارتداء العدة، قررت منذ مدة أن أبتعد عن ذلك قدر استطاعتي، لهذا تعمدت ألّا أجرب أي شيء في لندن لبضع سنوات على الأقل. لم أحب ما رأيته حين كنت أدرس هناك.. فكثير من الهالات لا معنى لها، وخداع يحجب النظر. في الريف الناس أقل سعياً لأجل المعرفة، وعندهم أصدقاء أقل، ولهذا السبب فهم لا يؤثرون سلباً في احترام الشخص لذاته، فيكون الفرد أقل شجاراً مع غيره، ويمكنه أن يتابع حياته بهدوء أكبر».

«نعم، حسناً لقد بدأت بداية جيدة، إنك في المهنة الصحيحة، إنها المهنة التي تشعر

أنها تناسبك تماماً. بعض الناس يفوتهم ذلك، فيندمون متأخرين. ولكن يجب ألّا تكون مستقلًّا أكثر من اللزوم».

قال ليدجيت آخذاً في الاعتبار أن هذا يمكن أن يؤثر كثيراً فيه: «هل تعني علاقاتي العائلية؟».

«ليس تماماً. بالطبع.. إنها تجعل كثيراً من الأشياء أكثر صعوبة، لكن زوجة جيدة - امرأة ذات روح جيدة - يمكنها حقًّا أن تساعد الرجل وتبقيه أكثر استقلالية. هناك أحد أبناء أبرشيتي وهو رجل طيب، لكنه لا يكاد يجتاز صعوبة ما دون مساعدة زوجته. هل تعرف عائلة جارث؟ أظنهم ليسوا مرضى الطبيب بيكوك».

«كلا، لكنني أعرف الآنسة جارث في منزل فيذرستون العجوز في لُوِيك».

«ابنتهم..؟؟ فتاة رائعة».

«إنها هادئة جدًّا - كدت ألا ألاحظها».

«إلا أنها لاحظتك... كن على يقين».

قال ليدجيت: «إنني لا أفهم». ولم يستطع أن يقول «بالطبع».

«هي تدقق في كل شخص. لقد هيأتها للتأكد على إيمانها - إنها إحدى المفضلات لي».

صمت السيد فيربرذر لبضع دقائق، أما ليدجيت، فهو لا يهتم لمعرفة المزيد عن عائلة جارث. أخيراً أنزل القس غليونه، ومد رجليه، ثم أدار بنظره مبتسماً إلى ليدجيت وقال: «لكننا نحن أهالي مدل مارش لسنا أليفين كما تعتقد. لدينا علاقاتنا الغرامية السرية وأحزابنا. على سبيل المثال، أنا أنتمي إلى حزب وبولسترود ينتمي إلى حزب آخر. إن انتخبتني فستزعج بولسترود».

قال ليدجيت بتشدد: «ماذا يعيب بولسترود؟».

«أنا لم أقل إن هناك ما يعيب بولسترود، كل ما قلته إذا انتخبتني سيصبح بولسترود عدوًّا لك».

قال ليدجيت بثقة: «لا أعتقد أن ذلك يقلقني، لكنه يبدو أن لديه أفكاراً جيدة حول

المستشفيات، كما أنه ينفق مالاً كثيراً لأجل أهداف عامة مفيدة. يمكن أن يساعدني كثيراً في تحقيق أفكاري. بالنسبة إلى أفكاره الدينية – كما قال فوليتير: يمكن لتعويذة أن تقضي على قطيع من الغنم إذا ما استخدمت معها كمية من الزرنيخ. إنني أبحث عن الرجل الذي يجلب الزرنيخ، ولا أبالي بتعويذته».

قال السيد فيربرذر بلا انفعال: «حسناً، ولكن يجب عليك ألّا تسيء للرجل الذي يجلب لك الزرنيخ. إنك لن تسيء لي، أليس كذلك؟ أنا لا أفرض فرصي على واجبات الآخرين، إنني أعارض بولسترود في مجالات كثيرة. فأنا لا أحب المجموعة التي يجالسها: إنهم مجموعة جاهلة، وتفكيرهم ضيق الأفق، ويسعون لشقاء جيرانهم أكثر مما يسعون لجلب سعادتهم. إنهم يشكلون مجموعة روحية دنيوية: إنهم حقًّا يعتبرون بقية الجنس الإنساني ذبيحة يقتاتون عليها حتى يدخلوا الجنة». ثم أضاف: «أنا لا أقول إن مستشفى بولسترود الجديد هو شيء سيئ، وبالنسبة إلى رغبته في تجريدي من مكانتي في المستشفى القديم... إذا كان يظن أنني مولع بالإزعاج، فهو يمدحني. وأنا لست برجل دين مثالي، وما أنا إلا بديل لائق».

لم يكن ليدجيت متأكداً من أن القس يمكن أن يعيب نفسه. لا بد لرجل الدين المثالي أن يعتقد كالطبيب المثالي أن مهنته هي الأفضل، ويعتبر كل المعرفة قوتاً لعلم الأمراض وعلم المداواة الأخلاقية. هو فقط قال: «ما السبب الذي يعطيه بولسترود لعزلك؟».

«هو أنني لا أعلم أفكاره التي يسميها بالدين الروحي، إذ ليس لدي الوقت الذي أقضيه لأجلها. كلا الادعاءين حقيقيان. ولكن سيمكنني عندها إيجاد الوقت لأجل ذلك، وسأكون راضياً عندما أتقاضى أربعين جنيهاً. هذه هي حقيقة الأمر. ولكن دعنا نصرف النظر عن الأمر. فقط أردت أن أقول لك إذا كنت ستصوت للرجل الذي يجلب الزرنيخ يجب ألا تؤذيني نتيجة ذلك. فلا يمكنني التخلي عنك. إنك مثل بحار جاء ليستقر بيننا لهذا سأظل أؤمن بسكان تلك الأجزاء التي تقع في الجهة المقابلة من الكرة الأرضية. أخبرني الآن كل شيء عن باريس.

الفصل الثامن عشر

آه يا سيدي... إن أسمى الآمال تقترع مع أخسها...

فعندما تتنفس أقوى الحيوانات وأضخمها الهواء الفاسد،

تتعرض لمرض الطاعون...

أو عندما ينقص البحارة عصير الليمون،

يصابون بمرض الإسقربوط.

مضت عدة أسابيع على هذا الحديث قبل أن يصبح تعيين قس في المستشفى أمراً مهماً بالنسبة إلى ليدجيت، ودون أن يعطي لنفسه السبب، أجّلَ اتخاذ قراره لمن يعطي صوته. لو لم يهتم شخصيًّا بالسيد فيربرذر لما كان الأمر يشكل أهمية لديه. أي كان سيأخذ القرار الصحيح، فيمنح صوته لتايك دون تردد.

لكن حبه لقسيس كنيسة القديس بوتولف ازداد في أثناء علاقته به. لما كان ليدجيت قادماً جديداً إلى البلدة، ولديه أهداف يسعى لتحقيقها، كان على السيد فيربرذر أن ينبئه عوضاً من أن يسعى جاهداً ليجتذبه، فيبدي له كرماً وطيبة غير مسبوقة فتن بها ليدجيت، فكانت منسجمة مع الجوانب الأخرى من تصرف السيد فيربرذر وسلوكه الذي كان حسناً جدًّا، مما جعل شخصية فيربرذر تبدو مدهشة كمناظر الجنوب الطبيعية التي تتمزق بين روعة الطبيعة وإهمال المجتمع. لا يمكن إلا لقليل جدًّا من الرجال أن يكونوا بمثل شهامته وإخلاصه لأمه ولأخته وعمته، اللواتي أثرن في حياته الخاصة كثيراً، فقليل من الرجال من يشعرون بضغط الحاجات البسيطة، فيصرون بنبل على ألا ينصاعوا لتحقيق رغباتهم، متضرعين بحجة الحوافز المثالية. فقد كان السيد فيربرذر يعي أن حياته ستكون تحت مراقبة دقيقة، ولا سيما في مثل هذه الأمور، وربما ولّد شعوره النبيل هذا تحدياً أمام تشدد بعض الناقدين الذين لم تحسن علاقاتهم السماوية من تصرفاتهم العائلية، والذين لا

تدل أهدافهم المتغطرسة على سلوكهم وتصرفاتهم. لقد كانت عظاته قوية وبارعة تشبه عظات الكنيسة الإنجليزية في عصر ازدهارها وقوتها. وكان يلقي خطبه دون كتاب، كان يأتي الناس من خارج أبرشيته ليستمعوا إليه، ولما كان ملء الكنائس بالمصلين أحد أهداف رجال الدين الرئيسية، فقد كان قدوم هؤلاء المصلين يجعله متميزاً بين الآخرين. فضلًا عن ذلك فقد كان رجلاً محبوباً؛ إذ كان عذب المزاج، وحاضر البديهة وصريحاً دون تكشيرات تعبر عن مرارة، أو تعابير أخرى تنم عن مشاعرنا حين نتحدث، وتجعل نصفنا كبلوى لدى أصدقائنا. لقد أحبه ليدجيت بإخلاص وتمنى صداقته.

على الرغم من هذا الشعور القوي تابع تجنبه مسألة التعيين في المستشفى، كما ظل يحاول إقناع نفسه بأن لا علاقة له بالأمر، وأنه لن يطلب منه صوته. كان ليدجيت يضع مخططات المستشفى الجديد بناء على طلب بولسترود، فكانا يستشيران بعضهما بعضًا بين الآونة والأخرى. وكان بولسترود يفترض مقدماً أنه يمكنه أن يركن إلى ليدجيت كمساعد له، ولكن لم يتحدث إليه بما يتعلق بتعيين تايك أو فيربرذر، بما أن مجلس إدارة المستشفى قد اجتمع، وقيل لليدجيت بأن أمر تعيين قسيس للمستشفى قد ترك لمدراء وأطباء المستشفى، ليجتمعوا في يوم الجمعة.

كان عليه أن يتخذ قراراً شخصيًّا في هذا الأمر العادي الذي يخص مدل مارش. كان ينظر لبولسترود كرئيس للوزراء، ويرى شأن تايك من الأهمية ما يجعله يبقى في عمله أو يغادره، فلم يكن يرغب حتى في التفكير بتخليه عن العمل، ولا سيما أنه قد تبين له من خلال تأكيدات فيربرذر أن السيد بولسترود لن يتساهل مع معارضيه، «اللعنة على سياساتهم التافهة!». لقد ردّد هذه العبارة كثيراً أثناء حلاقته لذقنه في كل صباح على مدى ثلاثة أيام.

عندما بدأ يشعر أنه يجب أن يحكم ضميره حول هذه المسألة... بالتأكيد كان هناك الكثير ليقال ضد انتخاب السيد فيربرذر: كانت مشاغله الخاصة التي لا تتعلق بعمله كقسيس كثيرة. كما أن ليدجيت فوجئ بلعب القس من أجل المال، فعلى الرغم من أنه كان يستمتع باللعب، إلا أن هدفه كان أيضاً كسب المال، مما كان يؤثر في تقدير ليدجيت له. كان السيد فيربرذر يتبارى في هذه اللعب لحبه لها، وكان يقول: إن ذكاء الرجال الإنجليز راكد لأنهم لا يلعبون تلك اللعب، لكن السيد ليدجيت كان متأكداً من أن فيربرذر كان سيلعب أقل لو لم يكن هدفه المال. كان هناك غرفة للعب البليارد في جرين دراجون تعتبرها بعض النساء والأمهات والزوجات متعة رئيسية في مدل مارش.

كان القس لاعب بليارد من الطراز الأول، وعلى الرغم من أنه لم يكن يتردد كثيراً على جرين دراجون، قيل: إنه ذهب إلى هناك عدة مرات وربح مالاً. أما بالنسبة إلى تعيينه في المستشفى فإنه لم يبد اهتماماً في الأمر إلا لأجل الأربعين جنيهاً. لم يكن ليدجيت من المتزمتين البيوريتانيين، لكنه لم يرغب في اللعب، ولا سيما أن ربح المال من خلاله كان يبدو له خسة، فضلًا عن ذلك كانت لديه مُثلٌ تجعله يعتبر هذا السلوك كريهاً، فحتى اليوم كانت تتحقق أمانيه في الحياة دون أن تسبب له مشاكل، كما أن حافزه الأول كان أن يصبح كريماً لشلنين ونصف لا أهمية لها لدى رجل نبيل، وهو لم يخطط مرة للحصول على شلنين ونصف. كان يعي دائماً أنه ليس غنيًّا، لكنه لم يشعر مرة أنه فقير، ولم تتوافر لديه القدرة على التخيل بأن الحاجة إلى المال يمكن لها أن تحدد تصرفات الرجال. لم يكن المال حافزاً بالنسبة إليه لذلك لم يكن على استعداد لكي يوجد أعذاراً ليطارد أعمالاً يكسب منها مالاً قليلاً؛ إذ كان كل هذا كريهاً بالنسبة إليه، وهو لم يُحص يوماً الفرق بين دخل القس ونفقاته، وربما لم يجر مثل هذا الحساب على نفقاته ودخله.

والآن عندما حان وقت الانتخاب، كان لهذه الحقيقة الكريهة دور ضد فيربرذر أكثر من قبل. يمكن للمرء أن يعرف ما يمكنه فعله لو كانت شخصيات الرجال أكثر تماسكاً، وخصوصًا إذا ما كان الصديق يناسب أي عمل أراد أن يمارسه. كان ليدجيت مقتنعاً بأنه إذا لم يكن هناك معارضة على تعيين فيربرذر، فسيصوت له بغض النظر عن رأي بولسترود: إذا لم يكن يرغب في أن يكون تابعاً إلى بولسترود. وعلى الجانب الآخر كان هناك تايك... رجل كرس جلّ وقته وجهده لأجل عمله. كان مساعد كاهن في كنيسة صغيرة في أبرشية القديس بطرس، وكان لديه وقت لأداء مهام أخرى. لم يكن لأحد أن يقول شيئاً ضد السيد تايك سوى أنهم لا يطيقون تحمله، وكانوا يتهمونه بالمرح الزائد. من وجهة نظر ليدجيت كان بولسترود على حق.

ولكن كلما كان ليدجيت يميل إلى اتجاه كان يصادفه شيء يجعله يجفل، ولأنه كان رجلاً محترماً كان يشعر بالسخط عندما يجبر على الغضب. لم يرد أن يحبط آماله بخلافه مع بولسترود، لم يحب فكرة التصويت ضد فيربرذر وحرمانه من المرتب الشهري، ولا سيما إنه قد خطر بذهنه أنه يمكن لهذا المرتب أن يوقف القسيس عن اللعب من أجل المال.

فضلًا عن ذلك لم يسر ليدجيت إحساسه بأنه عندما يصوت للسيد تايك سيصب ذلك في مصلحته الشخصية، ولكن هل يمكن للأمر أن ينتهي بإرضائه؟ سيقول الآخرون ذلك،

ويدّعون بأنه يتملق لبولسترود ليغدو ذا أهمية، وليكسب مكانة مرموقة في المجتمع. ماذا بعد ذلك؟ لقد عرف أنه لو كانت مكانته الشخصية هي الشيء الوحيد الذي يتعلق بالأمر، لما عنته صداقة وعداوة صاحب المصرف شيئاً. ما كان يعنيه هو مكانته في العمل وطريقة نقل أفكاره، وفي آخر المطاف ألم يكن يفضل هدف الحصول على مستشفى جيد يمكنه أن يثبت فيها الفروق بين أنواع الحمى ويفحص النتائج العلاجية لها، على أي أمر يتعلق بتعيين القس في ذلك المستشفى؟.

لأول مرة شعر ليدجيت بضغوط الحياة الاجتماعية وتعقيداتها. فبعد أن انتهى من حواره الداخلي، وخرج في طريقه إلى المستشفى، تمنى أن يظهر أمر ما خلال النقاش يتم بموجبه تعيين القس دون اللجوء إلى التصويت. لقد اعتقد مطمئناً إلى ما يمكن أن تفرزه الظروف وذلك أنه سيبرز أمر جديد بقوة ويحل المسألة، ولا سيما أن التصويت قد عقدها.

في أيّ حال لم يتخذ قراره النهائي لمن يصوت، فطوال الوقت كان سبب امتعاضه الضغوط التي أجبر عليها. ولو فكر في الأمر مسبقاً لبدا له الأمر تافهاً، ولا سيما أن قراراته واضحة وصارمة في ما يتعلق باستقلاليته وانتقائه لأهدافه، ولوجد نفسه منذ البداية تائهاً بين البدائل التافهة والكريهة، فحين كان طالباً كان ينظم حياته الاجتماعية على نحو مختلف تماماً.

تأخر ليدجيت عن خروجه إلى المستشفى، لكن الطبيب سبراغ والطبيبين الجراحين والعديد من المديرين حضروا في وقت مبكر، وكان السيد بولسترود من بين الذين لم يحضروا بعد. أظهر الحوار أن المسألة معقدة، ولم تكن الأكثرية مؤكدة لصالح تايك كما كان يعتقد. وكان للطبيبين الرأي نفسه، وعلى الرغم من أن تفكيرهما كان مختلفًا، فإنهما كانا يتفقان في السلوك. وكان الطبيب سبراغ صارماً وبديناً، وكما توقع الجميع موالياً للسيد فيربرذر. كان الجميع يعتقد أن الطبيب لا يؤمن بدين، لكن مدل مارش تحملت إلى حد ما هذا النقص فتعاملت معه، وكأنه رئيس مجلس اللوردات، ربما يعزى ذلك إلى ثقل مهنته، أو ربما إنكاره للدين جعل جيرانه يسمونه بالعنيد وحاضر البديهة... صفتان يتسم بهما من يصف الدواء. إنه لمن المؤكد وفي كل الأحوال لو قدم أي طبيب إلى مدل مارش، وهو يحمل سمعة أن لديه أفكاراً دينية ويصلي وتظهر عليه علائم التقوى الواضحة، لدارت حول مهارته الطبية الشكوك.

لقد كان من حظ السيد منشن أن عواطفه الدينية كانت شمولية، فهو لم يكن يتخذ

مواقف صارمة تجاه الكنيسة الأنغليكانية، أو من ينشق عنها، ولم يكن على عقيدة محددة - ولو أصر السيد بولسترود كما اعتاد على طريق العقيدة اللوثرية التبريرية التي تؤمن بأنه يجب على الكنيسة أن تستمر أو تنهار - بل على النقيض كان الطبيب منشين متأكداً من أن الإنسان ليس مجرد آلة أو اتحاد بسيط لعناصر مختلفة. وعندما ألحت السيدة ويمبل على العناية الإلهية في علاج مرض معدتها، ظل الطبيب منفتح الذهن ولم يعارض ذلك، وعندما هزأ صانع الخمر التوحيدي بقانون العقيدة المسيحية، اقتبس الطبيب منشن بيت شعر من قصيدة ألكسندر بوب «ما قال حول الإنسان»، إذا لم يكن يحب نكات الطبيب سبراغ، وكان يفضل الاقتباسات المعبرة والمحددة، كما أنه كان يحب أنواع التطوير والتحسين، وكان يعرف بأنه على علاقة قربى بأحد الأساقفة، وكان أحياناً يقضي عطلته في القصر.

كانت يدا الطبيب منشن ناعمتين وبشرته بيضاء، وكان مربوع القامة، لم يكن يختلف في مظهره عن رجل دين معتدل. في حين أن الطبيب سبراغ كان طويل القامة جدًّا، وأدت ثنيات بنطاله عند ركبتيه إلى إظهار نعليه. تسمعه دائماً يدخل ويخرج، يصعد وينزل وكأنه أتى ليفحص سطح البناء. باختصار.. كان جسده ثقيلاً، فكان يبدو وكأنه يصارع مرضاً، فيلقي به، في حين أن الطبيب منشن كان كمن اكتشف المرض مختبئاً وسيطوقه. كانا يتمتعان على درجة واحدة بميزة الشهرة الطبية الفريدة، وكان كل منهما يخفي ازدراءه لمهارة الآخر، معتبرين أنفسهما مؤسسي مدل مارش.

لم يكونا يترددان بالتكاتف ضد جميع المبتكرين وتدخل غير المتهنين. على هذا الأساس كلاهما كان يكره بولسترود على الرغم من أن الطبيب منشن لم يدخل في خصومة مريحة معه، ولم يختلف معه دون أن يقدم شرحاً مفصلاً للسيدة بولسترود التي اكتشفت بأن الطبيب منشن وحده فهم نظام جسمها.

إن الصيدلاني الذي يتعاقد مع الفقراء والرجل من عامة الشعب الذي يتدخل في مهنة الأطباء، يدلي بإصلاحاته - على الرغم من أنه كان يربك الجراح أكثر من الطبيبين - كان كلاهما محل سخط الأطباء. شارك الطبيب منشن الاستياء الجديد ضد السيد بولسترود، إذ أراد أن يتمنن ويتفضل على ليدجيت. وقف الطبيبان القديمان: السيد رينج والسيد تولر جانباً يتجاذبان أطراف الحديث الودي، اتفقا به على أن السيد ليدجيت شخص مغرور بنفسه يسعى جاهداً لتحقيق أهداف بولسترود فقط، لكنهما كان يمتدحانه أمام أصدقائهما من خارج المهنة. لقد قدم ليدجيت إلى البلدة بعد أن تقاعد السيد بيكوك دون تزكية سوى

مؤهله العلمي، الذي قضى فيه جل وقته، فلم يكن مهتماً بأنواع أخرى من المعرفة. كان من الواضح أن هدف ليدجيت من عدم إعطائه للأدوية هو أن يلقي بالتهم على زملائه، وأن يبقي علاقته بهم غامضة، ولا سيما أنه لم يدرس في إحدى الجامعات الإنجليزية، ولكن عوضاً عن ذلك أتى بخبرته من إدنبرة وباريس، حيث ربما تكون الخبرة عميقة، ولكن ليست كافية.

هكذا أصبح بولسترود في هذا الموقف يعتمد على ليدجيت، ووضع ليدجيت يعتمد على تايك. قال الطبيب سبراغ بصراحة فور دخوله: «إني أصوت لفيربرذر. إنه يستحق المرتب، لماذا لا يأخذه؟ إنه لا يملك الكثير وعليه أن يؤمن حياته إلى جانب إنفاقه على منزله، بالإضافة إلى إنفاقه المال على الأعمال الخيرية كقسيس. ولو وضعتم أربعين جنيهاً في جيبه فلن يضركم ذلك بشيء. إنه رجل طيب وعلى الرغم من شأنه المتواضع كقس فإنه سيقوم بمهامه على أكمل وجه».

قال السيد باودرل العجوز، تاجر الحديد المتقاعد: «تمهل، تمهل، يا طبيب. علينا أن ندعك تقول ما تريد، ولكن ما يجب علينا اعتباره ليس دخل الناس، بل أرواح المرضى». هنا بدت على وجه السيد باودرل وصوته شفقة مخلصة: «إن السيد تايك رجل إنجيلي حق. إنني سأصوت ضد ضميري لو صوَّتُ ضد السيد تايك».

«لم يطلب معارضو السيد تايك من أحد أن يصوت ضد ضميره». هذا ما قاله السيد هكبت، دابغ الجلود الثري وفصيح الكلام، وقد نظر بتجهم إلى السيد باودرل البريء، «ولكن في رأيي ينبغي لنا كمديرين أن نقرر ما إذا كان شأننا ينحصر فقط في أخذنا برأي واحد يملى علينا. هل يمكن لأحد الأعضاء أن يؤكد لنا أنه فكر في الاستعاضة عن خدمات القسيس الذي كان يعمل هنا دون أن يملي عليه ذلك الذين يعتبرون جميع الهيئات في هذه البلدة وسيلة لتحقيق مآربهم؟ إنني لا أتهم نزعات أحد: فلندعها بينه وبين خالقه، لكنني أؤكد وجود مؤثرات لا تتوافق مع الاستقلالية الحقيقية في العمل هنا، ووجود خضوع زاحف تمليه الظروف، لا يستطيع الرجال الذين يخضعون لهذه الإملاءات أن يقروا بذلك لأنهم ليسوا في وضع مالي ولا أخلاقي يؤهلهم للقيام بذلك. إنني رجل من عامة الشعب لكنني لا آبه لانقسام الكنيسة..».

«اللعنة على الانقسامات..!»، انفجر السيد فرانك هولي المحامي ورجل الدين الذي نادراً ما حضر اجتماعات اللجنة، لكنه الآن حضر مسرعاً وسوطه في يده: «لا شأن لنا بها

هنا. كان فيربرذر يقوم بالعمل، كل العمل دون أجرة، وإذا ما كان هناك مرتب يدفع فيجب أن يدفع له حصريًّا. ستكون مهمة مقيتة لو سلبناه ذاك العمل».

قال السيد بلمديل: «سيكون من اللائق لو جنب الرجال هنا ملاحظاتهم من أجل مصالحهم الشخصية. أنا سأصوت للسيد تايك، لكنني لا أعلم ما إذا كان السيد هكبت قد أشار إلى أنني زاحف ذليل».

«أنا لا أقصد أحداً بالتحديد. لقد قلت بوضوح، لو كان لي أن أكرر القول، أو أقول ما كنت أقوله..».

قال السيد فرانك هولي: «آه، هنا منشن!»، فاستدار الجميع تاركين هكبت ليشعر بعدم جدوى موهبته الخاصة والاستثنائية في مدل مارش.

«تعال يا طبيب.. يجب أن أضعك في المكان المناسب!».

قال الطبيب منشن، وهو يهز برأسه ويصافح الجميع: «أتمنى ذلك!! مهما يكلف ذلك مشاعري».

قال السيد فرانك هولي: «لو كانت توجد مشاعر هنا لوجب تكريسها لأجل الرجل الذي يخسر عمله الآن.. على ما اعتقد».

قال الطبيب منشن وهو يفرك يديه: «إنني أعترف بأن مشاعري مع الطرف الآخر أيضاً. فأنا أحترم الاثنين معاً. إنني أعتبر السيد تايك رجلًا لا مثيل له، وأعتقد أنه موثوق المشاعر والأهداف. وبالنسبة إلي فأنا أتمنى أن أعطيه صوتي، ولكن بعد دراستي للأمر وجدت أن السيد فيربرذر يأخذ الأولوية. إنه رجل لطيف وودود ورجل دين نشيط، كما أنه أمضى وقتاً أطول بيننا».

نظر السيد باودرل العجوز بحزن وصمت وعدل السيد بلمديل ربطة عنقه بتشنج.

«أرجو ألّا تعتبر السيد فيربرذر أنموذجاً مثاليًّا لرجل الدين»، قال السيد لارجر صاحب شركة النقل الذي حضر للتو. «إنا لا أظن به سوءاً، لكنني أعتقد أن علينا واجباً تجاه عامة الناس، فلا نتحدث عن شؤون أخرى في هذه الاجتماعات، برأيي أن السيد فيربرذر رجل غير صارم ولا أرغب في الحديث عن خصوصياته، لأن الحديث هنا يأخذ أبعاداً كثيرة».

قال السيد هولي الذي كان يشتهر في البلدة باستخدامه مفردات بذيئة: «ولمقدار شيطاني أفضل من الكثرة. لا يستطيع المرضى تحمل الصلاة والعبادة الكثيرة ،والتشدد

بتلك الطريقة الدينية تؤذي الروح، أليس كذلك؟». هذا ما أضافه بعد أن استدار على عجلة إلى الأطباء الأربعة.

لم يعط جواباً بسبب دخول ثلاثة رجال رحب بهم بحرارة، لقد كانوا كل من إدوارد ثيسغر، كاهن كنيسة القديس بطرس، والسيد بولسترود، وصديقنا السيد بروك من تبتن، الذي وضع اسمه مؤخراً ضمن قائمة مجلس الإدارة لكنه لم يحضر من قبل، فكان حضوره الآن نتيجة لجهود السيد بولسترود. ظل ليدجيت الشخص الوحيد الذي لم يحضر بعد. جلس الجميع وترأس السيد بولسترود الجلسة، وقد ظهر عليه كالمعتاد الشحوب وعلامات ضبط النفس. تمنى السيد ثسيغر تعيين زميله السيد تايك المتحمس الذي يعمل وقتاً كافياً في كنيسة صغيرة، مما يوفر له وقتاً كافيًا للعمل في المستشفى. كان يفضل أن يتوافر لدى من يأخذ هذا العمل حماسة وتحفز، فقد كانت تشكل هذه الأعمال، فرصاً لممارسة التأثير الروحي، وبما أن هناك مرتباً يعطى لمن يقوم بمثل هذه الأعمال فقد كانت هناك حاجة أكبر للتدقيق لكي لا يصبح هدف هذه الأعمال الحصول على المرتب الشهري. وبسبب احتشام الكاهن ثيسغر الشديد كان يصعب على معارضي رأيه إظهار معارضتهم له سوى بـ... صمتهم!!!

كان السيد بروك يعتقد أن نوايا الجميع حسنة. لم يتدخل بشأن المستشفى من قبل، على الرغم من اهتمامه الشديد بكل ما يصب في مصلحة مدل مارش، كما أنه كان مسروراً بلقائه الجميع لأي مسألة عامة. «هل تعرفون؟؟»، هذا ما ردده السيد بروك مع إيماءة تنم عن فهمه التام، «إنني منشغل جدًّا بالعمل كقاض، وبتجميعي للوثائق والمستندات، فأنا أعتقد أنني أقضي وقتي في مصلحة العامة. باختصار... أقنعني أصدقائي بأن وظيفة قسيس بمرتب - مرتب كما تعرفون - لهو شيء جيد جدًّا، وإنني سعيد لقدومي إلى هنا لأنتخب السيد تايك الذي على حد علمي هو رجل لا مثيل له، ورسولي وفصيح، وكل شيء من هذا القبيل - وأنا آخر رجل يحجب صوته عنه - في هذه الظروف كما تعرفون».

قال السيد فرانك هولي الذي لم يخف من أحد، وكان محافظاً وكثير الشك بنوايا المنتخبين: «يبدو لي أنك أقنعت بجانب واحد للقضية فقط يا سيد بروك، يبدو أنك لا تعرف بأن أحد أجدر الرجال لدينا قد مضى عليه سنوات عديدة، وهو يعمل هنا كقسيس دون مقابل، ويبدو أن السيد تايك سيحل محله».

قال السيد بولسترود: «اسمح لي يا سيد هولي، لقد تم إخبار السيد بروك بكل ما يتعلق بشخصية فيربرذر ومكانته».

قال السيد هولي مندفعاً بشدة: «من قبل أعدائه».

قال السيد شيفر: «أعتقد أنه لا توجد عداوات شخصية هنا».

رد السيد هولي مباشرة: «أقسم بأنه يوجد...!!».

قال السيد بولسترود بنبرة هادئة ولطيفة: «أيها الرجال النبلاء..! يمكن تلخيص وقائع المسألة الموضوعية للقضية على النحو التالي، وإذا ما كان من بين الحاضرين من يشكك في أن كل رجل سيعطي صوته لم يتم إعلامه، يمكنني الآن أن أكرر وألخص الميزات التي يتسم بها كلا الطرفين».

قال السيد هولي: «أنا لا أرى فائدة لذلك، أظن أن الجميع يعرفون لمن يصوتون. وإن أي رجل ينشد العدالة لا ينتظر حتى آخر لحظة ليستمع إلى طريق القضية. ليس لدي وقت لأضيعه، وإنني أقترح بأن يجرى التصويت مباشرة».

جرى نقاش قصير لكنه حماسي، قبل أن يكتب كل رجل اسم مرشحه على قصاصة ورق، ثم يضعها في كأس زجاجي، وفي الوقت عينه رأى بولسترود السيد ليدجيت يدخل، فقال بصوت واضح مرتفع: «إنني أرى بأن الأصوات منقسمة بالتساوي في الوقت الحاضر». ثم نظر إلى ليدجيت وقال: «لا يزال هناك صوت مرجح لم يعط بعد. إنه صوتك يا سيد ليدجيت: هل ستكتب اسم مرشحك؟».

قال السيد رينج، وهو ينهض: «لقد انتهى الأمر الآن، جميعنا يعرف لمن يصوت السيد ليدجيت».

قال السيد ليدجيت ببعض الجرأة، وهو يمسك بقلمه دون أن يكتب شيئاً: «يبدو في كلامك مأرب غامض يا سيدي».

«مجرد ما أعني هو أنك ستصوت إلى جانب السيد بولسترود. هل تعتبر هذا المقصد مهيناً؟».

«يمكن أن يكون مهيناً للآخرين، لكنني لن أمتنع عن التصويت إلى جانبه لهذا السبب». وكتب ليدجيت مباشرة تايك.

هكذا أصبح الكاهن ولتر تايك قسيساً في المستشفى، وتابع السيد ليدجيت عمله مع

بولسترود. لم يكن حقًّا متأكداً ممّا لو كان السيد تايك هو المرشح المناسب، ولا سيما أنه يعي بأنه لو لم يكن يخضع لتأثير تحيز ما لصوّت للسيد فيربرذر. ظل تعيين القسيس في المستشفى أمراً مؤلماً في ذاكرته، كما أنه حول بيئة مدل مارش التافهة إلى معاناة صعبة أمامه. كيف سيمكن لرجل أن يكون راضياً عن قرار اتخذه ضمن ظروف كهذه؟ إذ لا يمكنه أن يكون راضياً أكثر من رضاه على قبعته التي اختارها من بين قبعات ذات أشكال كثيرة ليرتديها باطمئنان. لكن السيد فيربرذر قابله بالود نفسه الذي كان يقابله به. دائمًا لا تنسجم شخصية صاحب الحانة المذنب مع شخصية المرائي المتظاهر بالصلاح والتقوى، لأن معظمنا لا يستطيع أن يميز بوضوح بين سوء معاملتنا وسوء حواراتنا، أو غباء نكاتنا. لكن كاهن كنيسة القديس بوتولف لم يقع في النفاق قط، وبفضل اعترافه لنفسه بأنه كان يشبه جميع الرجال أصبح يتميز عنهم بكثير، فهو كان يعذر الآخرين عندما يسيئون الظن به بما أنه كان يحكم على تصرفاتهم بلا تحيز حتى لو كانوا ضده.

قال يوماً لليدجيت: «إنني أعلم بأن العالم كان ضدي، لكنني لست رجلاً قويًّا وجباراً، لن أكون يوماً رجلاً ذا شهرة، إن اختيار هرقل لهو خرافة جميلة، لكن بروديكس هون الأمر على البطل وكأن الحلول الأولى كانت كافية، ومن جهة أخرى.. أتى ليحصل على امرأة ويرتدي قميص نيسوس. أعتقد بأن قراراً جيداً يمكن أن يضع الرجل في المكان الصحيح لو ساعدته قرارات الآخرين».

لم يكن كلام القس دائماً مشجعاً... لقد نجا من الوقوع في المراءاة، لكنه لم ينج من الاحتمالات التي نصل إليها بسرعة وكأنها نتجت عن فشلنا. لقد اعتقد ليدجيت بأن فيربرذر ضعيف الإرادة إلى حدّ أنه يثير الشفقة.

الفصل التاسع عشر

L' altra vedete ch'ha fatto alla guancia
Della sua palma, sospirando, letto.

Purgatorio, vii.

لمّا كان جورج الرابع يحكم من ويندزر، ولمّا كان دوق ويلينغتون رئيساً للوزراء، وكان السيد فنسي رئيس بلدية مدل مارش كانت السيدة كزابون، التي ولدت وهي تحمل اسم دورثيا بروك، تقضي شهر عسلها في روما. في تلك الأيام كان العالم متخلفاً أربعين عاماً في عدم معرفته للخير والشر عما هو هذه الأيام.

لم يكن يحمل المسافرون معهم معلومات كافية عن الفن المسيحي لا في رؤوسهم، ولا في جيوبهم، وحتى ألمع ناقد إنجليزي في هذه الأيام فإنه قد اعتقد قبر العذراء هو الذي زين برسوم ورود زهرية.. ذلك لروعة مهارة الرسام. إن الرومانسية التي ساعدت في ملء الفراغات المملة بالحب والمعرفة، لم تخترق بعد الأزمنة بخميرتها، فتدخل في طعام الناس، فهي لا تزال تختمر كحماسة متميزة ومفعمة بالحيوية لدى بعض الفنانين الألمان أصحاب الشعر الطويل، وكذلك لدى شباب الأمم الأخرى الذين عملوا أو تكاسلوا إلى جانبهم، والذين حوصروا بالحركة التي كانت تنتشر.

في صباح أحد الأيام اللطيفة كان هناك شاب لم يكن شعره طويلاً جدًّا، لكنه كثيف وأجعد وكان إنجليزي الملامح، قد أدار ظهره للتو لبلفديير تورسو في الفاتيكان، وكان ينظر إلى منظر الجبال الرائع من دهليز دائري مجاور. لقد كان منسجماً تماماً إذ لم يلاحظ اقتراب ألماني ذي عينين داكنتين... وهو مفعم بالحيوية، وعندما وصل إليه وضع يده على كتفه وقال: «هيا تعال إلى هنا مسرعاً قبل أن تغير وضعيتها».

انطلق الشخصان مسرعين ومرا بالقرب من «مليجر» تجاه القاعة التي فيها «أريادن» المستلقية والمصنوعة من الرخام، فيبدو جمالها مبهجاً للحواس، وتلفها ألبسة كالبتلات برقة وشفافية، ولقد كان اسمها آنذاك كليوباترة... لقد وصلا في الوقت المناسب ليجدا شخصاً

يتكئ على قاعدة التمثال بالقرب من تمثال الرخام؛ لقد كانت فتاة متوردة لم يخب جمالها أمام جمال أريادن، وكانت ترتدي ألبسة رمادية سميكة على الطراز البروتستانتي، وكانت تلقي بعباءتها الطويلة والمثبتة عند عنقها وراء كتفيها، وتسند وجنتها على يدها الجميلة التي كانت تدفع قليلاً قبعتها الصوفية البيضاء إلى الخلف، مما أحاط وجهها وشعرها البني الداكن المجدل بهالة خاصة. لم تكن تنظر إلى التمثال وربما لم تكن تفكر فيه.

كانت تنظر بعينيها الواسعتين حالمة إلى أشعة الشمس الساطعة على الأرض. لكنها أدركت حضور الغريبين اللذين توقفا فجأة وكأنهما يتأملان تمثال كليوباترة، ودون أن تنظر إليهما انصرفت جانباً لتلتحق بخادمة ومرافق للسياح كانا يتجولان في القاعة.

قال الألماني باحثاً عن إعجاب في وجه صديقه، وتابع دون أن ينتظر جواباً منه: «ماذا تقول في ذلك التناظر الجميل، يوجد هناك جمال عريق لا يشبه جمال هذا الجسد حتى بعد موته، لكنه مكبل برضى تام في كماله المبهج: فهنا يتمثل جمالها الحي متنفساً ومدركاً لقرون المسيحية في حضنه. ولكن يجب أن ترتدي ثياب الراهبات. أظنها تبدو ما تسميه بروتستانتية، سألبسها ثياب الراهبات في رسمي. في أيّ حال فإنها متزوجة، لقد شاهدت خاتماً في إصبع يدها اليسرى، وإلا لحسبت ذاك الشاحب أباها... لقد شاهدته منذ قليل وهو يغادرها، والآن وجدتها واقفة بهيبة وجلال. ربما كان غنيًّا ويرغب في أن يكون لها رسم، آه.. لا جدوى من النظر إليها هنا... إنها تذهب.. دعنا نلحق بها إلى بيتها».

قال صديقه عابساً قليلاً: «لا، لا».

«إنك غريب الأطوار يا لادسلو، إنك تبدو مندهشاً جدًّا، هل تعرفها؟».

قال ويل لادسلو، وهو يمشي باتئاد في القاعة وفكره منشغل في حين ظل صديقه الألماني إلى جانبه يراقبه بشغف: «أعلم أنها متزوجة من ابن خالة أبي».

«ماذا...؟؟ رجل الدين؟ يبدو وكأنه عم... علاقة قرابة أكثر فائدة».

قال لادسلو، وهو مرتبك قليلاً: «إنه ليس عمي، إنني أقول لك إنه ابن خالة أبي».

«لا تكن نزقاً. إنك لن تغضب مني لأنني أعتقد أن زوجة ابن خالة أبيك أجمل شابة كالعذراء شاهدتها في حياتي؟».

فأجاب غاضباً. «هذا هراء، لقد رأيتها مرة واحدة فقط لدقيقتين، عندما قدمها لي ابن خالة أبي تماماً قبل مغادرتي إنجلترا. لم يكونا قد تزوجا عندئذٍ. لم أعرف أنهما قادمان إلى روما».

«لكنك ستذهب لرؤيتهما الآن، ستعرف عنوانهما... بما أنك تعرف اسميهما، هل نذهب إلى الاستعلامات...؟؟ يمكنك أن تتحدث حول الرسم».

«عليك اللعنة يا نومن! ماذا سأفعل..؟؟ لست وقحاً مثلك».

«هاه... ذلك لأنك هاو للفن وقليل خبرة. لو كنت فناناً لاعتقدت أن زوجة ابن خالة أبيك لوحة فنية أثرية مفعمة بالحس المسيحي، في نوع من قوى أنتيجون المسيحي تتحكم بها العاطفة الروحية».

«نعم، وإن رسمك لهو نتيجة رئيسية لوجودها، بعد أن بلغ الجمال الرباني كماله نفد عندما استخدمته برسمك على القماش الكتاني. إنني قليل خبرة، إذا أحببت أن تقول ذلك: لا أظن أن العالم ينشد إلى الأهمية الغامضة لصورك».

قال الرسام ذو الطبيعة الطيبة، وهو يضع يده على كتف لادسلو دون أن يغضب من نبرة استهزائه غير القابلة للتغيير: «لكنه كذلك يا عزيزي، إنه ينشد من خلالي، أنا أدولف نومن، إن هذا مؤكد».

«هل ترى...؟؟ إن وجودي يفرض وجود العالم بأسره، أليس كذلك؟ ودوري أن أرسم.. وكرسام لدي فكرة عبقرية لتكون خالة أبيك، أو أخت جدتك مادة لإحدى لوحاتي، وهكذا ينشد العالم لتلك الصورة من خلال أناملي بسنارة هي أنا، يصطاد بها معنى تلك الصورة...! أليس كذلك؟».

«ولكن كيف إذا ما أعاقت ذلك سنارة أخرى هي أنا..؟؟؟ عندئذٍ تكون المسألة أبسط من ذلك».

«ليس على الإطلاق.. نتيجة الصراع هي واحدة: لوحة أو لا لوحة – منطقيًّا».

لم يستطع ويل الخروج عن طبعه الهادئ، فانقشعت غيمة من على وجهه عن ضحكة ساطعة.

قال نومن بنبرة تمنٍّ: «هلم يا صديقي هل تساعد؟».

«كلا إن هذا هراء يا نومن! الفتيات الإنجليزيات لسن نماذج لرسوم الآخرين. وتريد للوحاتك أن تكون معبرة أكثر من اللزوم. يمكنك أن ترسم منظراً طبيعيًّا أفضل أو أسوأ، يستطيع كل خبير في الفن أن يعطي رأيه فيها معجباً أو منتقصاً. وماذا تعني لوحة امرأة؟ إن لوحاتك ولوحات بلاستك في نهاية المطاف لأشياء قليلة البراعة. إنها تشوش وتلبد الفهم بدلاً من أن تنميه. إن اللغة وسيلة أفضل».

قال نومن: «نعم بالنسبة إلى أولئك الذين لا يستطيعون الرسم. إنك محق تماماً. لم أرشحك كي ترسم يا صديقي».

وجه الرسام اللطيف كلامه اللاذع، لكن لادسلو تعمد ألّا يظهر وكأنه قد لسع. ثمّ تابع وكأنه لم يسمع.

«تعطي اللغة صورة أدق فهي أفضل مما هو غامض. في النهاية يكمن معنى الأشياء في مضمونها، وتحدق الصور في وجهك بنقصها اللافت للنظر. ألحظ ذلك أفضل عندما أنظر إلى لوحات النساء. كأن المرأة مظهر خارجي ملون فقط...! يجب عليك أن تنتظر لأجل الحركة والصوت، فكل نفس لها يختلف: إنهن يتغيرن بين لحظة وأخرى. على سبيل المثال التي شاهدتها للتو... أخبرني كيف ترسم صوتها...؟ فصوتها أروع بكثير من كل ما رأيت منها».

«فهمت، فهمت، إنك تغار. لا يستطيع رجل أن يدعي أنه قادر على أن يرسم من هي مثالية لديك. إن الأمر جاد يا صديقي..! خالة أبيك.. زوجة عمك... ما هو مأسويّ إلى حد ما!».

«سنتشاجر يا نومن لو سميت تلك المرأة خالتي ثانية».

«ماذا يمكن أن أسميها إذاً؟».

«السيدة كزابون».

«هذا جيد. أفترض لو تعرفت إليها بالرغم منك، ووجدت أنها تتمنى أن ترسم».

«نعم أفترض!». قال هذا ويل لادسلو بنبرة ازدراء خافتة محاولاً أن ينهي الموضوع...

كان يعي أنه قد تضايق من أسباب تافهة، كان نصفها من صنعه. لماذا أثار كل هذا الجدل حول السيدة كزابون..؟؟ ثم شعر أن شيئاً يتعلق بها قد حدث له. يوجد شخصيات دائماً تخلق اصطدامات ونقاط لقاء في مسرحيات لا أحد يرغب في أن يمثل معهم فيها. تصطدم مشاعرهم بأهدافهم الهادئة ببراءة.

الفصل العشرون

استيقظ طفل متخلى عنه...

فجال بنظراته الخائفة حوله...

فما رأى.. إلا ما يمكن رؤيته...

لقاء عيون المحبين!!!

بعد ساعتين كانت تجلس دورثيا في مخدعها داخل شقة جميلة في فيا سيستينا.

يؤسفني أن أضيف بأنها كانت تتنهد بألم لتخفف وطأة الألم الذي يعتصر قلبها، كما تفعل أي امرأة يتحكم بها كبرياؤها ومراعاتها لمشاعر الآخرين عندما تختلي بنفسها. إلا أن دورثيا لم تع شكواها لتعرضها حتى لنفسها، ففي غمرة ارتباك أفكارها ومشاعرها كانت هناك فكرة تحارب كي تصل مرحلة الوضوح، وهي تجسد صرخة اتهام للذات بأن إحساسها بالتوحد والدمار كان نتيجة لإفلاسها الروحي. لقد تزوجت من الرجل الذي اختارته، فهكذا اغتنمت فرصة خسرتها معظم الفتيات، فهي تأملت زواجها وتفحصته كبداية لواجبات جديدة: منذ البداية اعتبرت أن السيد كزابون يتمتع بمقدرة عقلية أقوى بكثير من مقدرتها الفعلية، مما يجعله ينشغل دائماً بدراسات لا يمكنها مشاركته فيها. فضلاً عن ذلك... ها هي بخبرتها الضيقة والقصيرة تشاهد روما، مدينة التاريخ الحاضر، حيث يظهر ماضي نصف الكرة الأرضية، وهو يمشي في موكب جنائزي مع صور وتماثيل الأسلاف الغريبة والتي جمعت من أصقاع بعيدة.

لكن هذه القطع المذهلة زادت من غرابة حياتها العرسية التي تشبه الحلم. مضى على دورثيا الآن خمسة أسابيع في روما، وفي كل صباح لطيف يلتقي فيه الخريف الشتاء يداً بيد كزوجين مسنين سعيدين، سيظل أحدهما وحيداً في برد الشتاء. تجولت في بادئ الأمر مع السيد كزابون، ثم انتهى الأمر بها أنها أصبحت تقضي وقتها مع الخادمة تترب

ودليل السياح. لقد زارت أفضل معارض الصور وشاهدت المواقع والمناظر الرئيسية وأكثر قطع الآثار مهابة، وتجولت في أعظم الكنائس، وفي أغلب الأوقات كانت تختار الذهاب إلى كمبانيا، حيث تشعر أنها وحيدة مع الأرض والسماء بعيدة من حفلة الآثار التنكرية الممثلة للعصور والقابضة للصدر، والتي أصبحت حياتها مسرحية قصيرة استخدمت فيها أزياء مبهمة.

بالنسبة إلى أولئك الذين نظروا إلى روما بقوة مثيرة للمعرفة، تنفخ روحاً متنامية لجميع الهياكل التاريخية، تتقفى أثر التحولات التي تجمع بين جميع الأضداد. تظل روما المركز الروحي وترجمان العالم. ولكن دعهم يتصورون مقارنة تاريخية أخرى... صدم هذا الانكشاف المذهل عن المدينة الامبريالية البابوية الفتاة التي نشأت على المبادئ البيوريتانية المتزمتة الإنجليزية والسويسرية، وأطعمت قليلاً فقط من التاريخ البروتستانتي وفن اللوحات البسيطة. إنها فتاة أحالت طبيعتها المتحمسة معرفتها القليلة إلى مبادئ، لتجمع في قوالبها كل تصرفاتها، إنها فتاة أضفت أحاسيسها المرهفة على الجمادات الإحساس بالمتعة أو الألم. إنها فتاة تزوجت مؤخراً، فوجدت نفسها تنتقل من حالة القبول المتحمس للواجبات التي لم تجرب لتنغمس بانشغال مضطرب بقدرها. يمكن أن يقع ثقل روما الغامضة على فتيات ذكيات، فتشكل خلفية رائعة لرحلة المجتمع النصف إنجليزي الرائعة. ولكن لم تكن دورثيا قوية كي تصمد أمام مثل هذه الانطباعات العميقة. آثار.. وكنائس... قصور... وتماثيل... تقع وسط حاضر بائس، وبدا جميع أولئك الذين كانوا يعيشون، وجرى الدم في عروقهم، يغرقون في عمق الخرافات المتفسخة، ويبتعدون عن التوقير والتبجيل. كانت الحياة التيتانية معتمة لكنها تواقة تحدق من على الجدران والأسقف إلى الأفق الواسع الذي تملؤه التماثيل البيضاء التي تبدو عيونها الرخامية، والتي يظهر فيها الضوء، وكأنه قادم من عالم غريب. إن حطام كل هذه المثاليات الطموحة الحسية والروحية ممتزجة بإشارات النسيان والتفسخ، صدموها فجأة كصعقة كهربائية، ثم فرضوا أنفسهم عليها مع ذلك الألم النابع من الأفكار المشوشة الغزيرة التي تفحص انسياب العواطف. لقد سيطرت تلك الأشكال الشاحبة منها والمتقدة على أحاسيسها الفتية، واتخذت لها مكاناً في ذاكرتها، حتى عندما لا تكون تفكر فيها، منشئة روابط وثيقة لتظل هناك طوال سني عمرها. ترغب طباعنا في أن تجلب معها صوراً خيالية تتبع بعضها بعضًا، كصور صندوق الدنيا السحري، وفي حالة بؤس ممل ظلت دورثيا طوال حياتها ترى ضخامة كنيسة القديس بطرس والقبة البرونزية الضخمة، والتصميم المبهج في وقفة الأنبياء والرسل الذين يظهرون في لوحة الفسيفساء على سطح

القبة، والقماش الأحمر الذي علق من أجل احتفالات عيد الميلاد المجيد، وكان ينتشر في كل مكان كالمرض الذي يصيب شبكية العين.

لم يكن في الانشداه الداخلي الذي أصاب دورثيا شيء استثنائيّ... كثير من الأرواح، وفي طفولتها المبكرة، يلقى بها بين المتناقضات وتترك حتى تقف على قدميها بينما ينصرف الآباء إلى العمل. لا يمكنني أن أفترض أن السيدة كزابون، عندما وجدت في نوبة بكاء شديد بعد ستة أسابيع من زواجها، كانت في حالة مأسوية. فمن الطبيعي أن يشعر المرء بالإحباط والوهن عندما يدرك أن مستقبله الحقيقي الجديد يختلف عما كان يتخيله، ولا نتوقع كذلك من الناس أن يتأثروا بقمع ما هو مألوف وطبيعي. ذلك العنصر المأسوي الذي يقع في حقيقة التواتر، لم يدخل نفسه في مشاعر الإنسان الجلفة، وربما لا تستطيع حدود مقدرتنا تحمل الكثير منه. لو كانت لدينا رؤية واضحة وإحساس بحياة الناس العاديين لاستطعنا سماع نمو العشب ودقات قلب السنجاب ولمتنا من صوت الزئير بعد الصمت. وإن أسرعنا يمشي ويتنقل ممتلئاً بالغباء.

في أيّ حال كانت دورثيا تبكي، ولو طلب منها أن تقول السبب لأجابت مستخدمة كلمات كتلك التي استخدمتها. وستكون محاولتها لإعطاء جواب أكثر دقة صعبة تشبه محاولة لإعطاء تاريخ للضوء والظل، لأن المستقبل الجديد الذي حل محل خيالها قد استمد مادته من التفاصيل القليلة الأهمية. إن نظرتها للسيد كزابون وعلاقتها به بدأت تتغير تدريجاً، وببطء يشبه سير عقارب الساعة، وتبتعد عمّا كانت تحلم به قبل زواجها. لقد كان من المبكر جدًّا بالنسبة إليها كي تقدر، أو على الأقل كي تعترف بالتغيير الذي حصل لها. بل كان من المبكر أن تعيد النظر بالتكريس الذي كان يشكل جزءاً أساسيًّا في حياتها النفسية، وأنها كانت متأكدة من أنها ستستعيده عاجلاً أم آجلاً.

لا يمكن تسمية ما تعيشه بالعصيان الدائم، الذي هو حياة فوضوية خالية من تصميم محترم على فعل الأشياء الممكنة بالنسبة إليها، لكنها الآن تعيش في فترة مفصلية، ترفع فيها قوة طبيعتها من إرباكها. عادة ما تكون الأشهر الأولى من الزواج فترة اضطراب صعب بغض النظر عمّا إذا كان ضحلاً أو عميقاً، فإنه غالباً ما يتحول في المستقبل إلى سلام سعيد.

أليس السيد كزابون صاحب معرفة كما كان من قبل؟ هل تغيرت أشكال تعبيره أم أن آراءه أصبحت أقل جدارة بالثناء والتمجيد؟ يا لتقلب النساء...! هل خدعه تقسيمه للزمن..؟؟ أم خدعته قدرته على العرض... ليس للنظريات فحسب، لكن لأسماء أولئك

الذين وضعوها كذلك، أو قدرته على إعطاء جميع العناوين التي تطلب منه... أم أن روما لم تكن المكان الذي يقدم فيه العالم بأسره إنجازاته؟ فضلًا عن ذلك.. ألم تكمن حماسة دورثيا في توقعها في التخفيف من الثقل وربما الحزن اللذين يقع على كاهل السيد كزابون تحقيقهما؟ لقد أصبح هذا الثقل أكثر وضوحاً.

إن جميع هذه الأسئلة أساسية، ولكن على الرغم من أن الأمور ظلت كما هي، فإن قوة الضوء تغيرت، ولا يمكن لك رؤية شروق الفجر في وضح النهار. لا يمكن تغيير الحقيقة بأن علاقتك بالشخص الذي ارتبطت به، وظننت أن طبيعتك تنسجم مع طبيعته خلال فترة الخطوبة التي لم تستمر أكثر من أسابيع معدودة، ربما تتغير خلال سني الزواج نحو الأفضل أو الأسوأ. إلا أن من المؤكد لن تظل كما هي عليه. سيكون شعورنا مدهشاً تجاه هذه التغيرات إذا لم يكن لدينا تغيرات أخرى من النوع نفسه نقارنها بها. عندما تشارك المسكن مع من يسرك تناول العشاء معه، أو عندما تشاهد السياسي المفضل لديك في الوزارة ربما تحدث عندك تغيرات سريعة كسرعة التغيرات التي تحدث بعد الزواج. في هذه الحالات نبدأ أيضاً مع معرفة القليل وتصديق الكثير، وننتهي أحياناً على عكس ذلك الواقع.

إلا أنه يمكن لمثل هذه المقارنات أن تخدعنا، إذ إنه لا يوجد رجل أكثر عجزًا من السيد كزابون على أن يسبّب الوهم لدى الآخرين. لقد كان رجلاً ذا شخصية واضحة كأي حيوان مجتر، وهو لم يسع ليكوّن تصورات لدى الآخرين حوله. كيف كان ممكناً ألّا تفهم دورثيا بوضوح بعد أسابيع من زواجها، لكنها شعرت بكآبة خانقة؛ ذلك أن الهواء العذب والصور الخيالية الكثيرة التي حلمت بأن تجدها في فكر زوجها، قد حل محلها غرف انتظار صغيرة وطرق متعرجة ضيقة لا يبدو أنها ستوصلها إلى أي شيء.

أعتقد أن هذا يعود لفترة الخطوبة، التي يُنظر فيها إلى كل شيء على أنه مشروط وسابق لأوانه، وينظر كذلك لأقل مقدار من الفضيلة أو الإنجاز، على أنها تضمن وجود مخازن ضخمة مليئة بالسعادة ستظهر خلال السنين الطويلة. ولكن حالما تُجتاز عتبة الزواج، تتركز الآمال حول ما هو حاضر. وحالما تنطلق في رحلة زواجك، سيكون من المستحيل ألا تدرك بأنك تشق طريقاً ولا ترى البحر، لكنك تستكشف في الحقيقة حوضاً مغلقاً.

غالباً ما أسهب السيد كزابون خلال نقاشاته ما قبل الزواج في شرحه لتفاصيل كثيرة، لم تستطع دورثيا أن تجد الروابط بينها. ويعود عدم الانسجام لعدم وجود تواصل بينهما. وقد استمعت بصبر شديد مدعومة بإيمانها بمستقبلها، لجدل يمكن أن يأخذ ضد فكرة

السيد كزابون الجديدة حول آلهة فلسطين القديمة «ديغون» وآلهة صيادي السمك، معتقدة بأنها ستفهم لاحقاً الموضوع بعد الذي أثر به، وغدا شديد الأهمية بالنسبة إليه تماماً كما يفهمه هو الآن. مرة أخرى تكمن القضية بالطبع في إهماله لأكثر أفكارها إثارة، وكانت تعزو ذلك إلى انشغاله بتحضيرات الزواج التي شاركته فيها. ولكن الآن وبما أنهما في روما وقد فاضت مشاعرها من الأعماق بنشاط عنيف، وقد أتت الحياة بمشكلة جديدة وعناصرها أيضاً جديدة أصبحت الآن تدرك أكثر فأكثر مع خوف أكيد بأن مزاجها كان ينزلق بشدة نحو نوبات غضب داخلية ونفور، أو نحو تعب يائس. لم تملك دورثيا الوسائل كي تقيم المقارنة بين هوكر الحكيم، أو أي بطل معرفة آخر مع السيد كزابون. بدأت طريقة زوجها في التعليق على الأشياء الغريبة الأخاذة من حولهم تؤثر فيها بنوع من الخوف النفسي. ربما كان قادراً على تبرئة نفسه على أفضل وجه، ولكن فقط تبرئة نفسه. وما كان يافعاً بالنسبة إليها... غدا مهترئاً عنده، فمثل هذه القدرة على استيعاب الأفكار والعواطف التي بعثتها في داخله حياة النوع البشري، كانت قد خبت منذ زمن بعيد لتتحول إلى مستحضر جاف ومعرفة محنطة لا حياة فيها. عندما قال: «هل يمتعك هذا يا دورثيا؟ هل سنظل مدة أطول..؟؟ لا مانع لدي أن نبقى إذا كنت ترغبين في ذلك». بدا لها الذهاب والبقاء مملين على الدرجة نفسها؛ أو «هل ترغبين في الذهاب إلى فرنسينا يا دورثيا؟ إنها تحتوي على لوحات جصية، نحتها ورسمها الفنان روفائيل، إذ يعتقد معظم الناس أنها تستحق الزيارة».

«ولكن هل تأبه بها؟». كان هذا دائماً سؤال دورثيا.

«أعتقد أنها ذات قيمة عالية، تمثل بعضها صورة الإله كيوبيد مع الأميرة بسيشة، وربما تمثل إبداعاً رومانسيًّا لحقبة أدبية وأظن أنها لا يمكن أن تعد إنتاجاً أسطوريًّا حقيقيًّا. ولكن إذا كنت تحبين لوحات الحائط كتلك، يمكننا أن نذهب إلى هناك بسهولة، وعندها يمكنك مشاهدة أعمال روفائيل الرئيسية، إذ سيكون مؤسفاً أن لا نشاهدها خلال زيارتنا إلى روما. إنه الرسام الذي أعتبر أنه قادر على أن يجمع بين جمال الشكل وسمو التعبير. هكذا استطعت على الأقل أن أصبح متمكناً من تقديم الفن».

إن هذا الجواب أعطي بنوع من طريقة رسمية دقيقة، بدا وكأن رجل دين يقرأ بموجب إحدى قواعد الحمد الدينية، لم يساعد على تبرير عظمة المدينة الخالدة ولا على إعطائها أملاً بأنها لو عرفت أكثر عن تلك المدينة، لكان العالم بأسره مصدر ضياء وسرور لها. لا يوجد أي رابط يبعث الاكتئاب أكثر من ذلك الذي يربط بين مخلوق شاب متحمس، وشخص

عطلت فيه معرفة السنين القدرة على الاهتمام والتعاطف.

في مواضيع أخرى كان السيد كزابون يبدي عناداً نابعاً من مكانته وفضولاً عادة ما يعتبر نتيجة للتحمس، وكانت دورثيا متلهفة كي تتبع توجه أفكاره التلقائية بدلاً من أن تشعر أنها شغلته عنها. لكن قناعتها التي كانت تنبع من ثقتها الجميلة بأنها ستجد طريقاً مفتوحاً تتابعه من خلالها، بدأت تتراجع تدريجًا. يا لكزابون المسكين؛ فقد ضاع بين الغرف الصغيرة والسلالم اللولبية، وفي غموض مربك حول «كابيري»، وخلال تعرضه لتشابه غير مدروس لعلماء الميثولوجيا، فهو فقد رؤيته لأي هدف دفعه للقيام بهذه المهام. أنسته شمعته الملصقة أمامه عدم وجود نوافذ من حوله، وملاحظاته حول المخطوطات المريرة عن أفكار الرجال الآخرين حول آلهة الشمس، أصبح غير مبال بالشمس.

إن هذه السمات الراسخة وغير المتبدلة في جسد كزابون كالعظام، ربما ظلت دورثيا لا تشعر بها لمدة أطول، أو سمحت لمشاعرها الأنثوية أن تتدفق، لو أنه أمسك يديها واستمع إليها بحنو متفهماً كل مكونات خبرتها، ثم بادلها الشيء ذاته لاندمجت حياة كل منهما في الأخرى وانصهرت في بوتقة حبهما ومعرفتهما المتحدين، أو لو أنها استطاعت أن تغذي عواطفها بمداعبات طفولية، تعشقها كل امرأة لطيفة بدأت تهيل قبلاتها على رأس دميتها الأصلع لتبعث فيها روحاً سعيدة تقتطعها من ثروة حبها. كانت تلك نزعة دورثيا مع كل توقها لتعرف ما هو بعيد عنها، وكي لا تكون عطوفة، فقد كان لديها حنو كبير لما هو قريب منها يجعلها تُقبل كِمّ معطف السيد كزابون، أو تمسح على أربطة حذائه. فلو أبدى أي إيماءة قبول باحتشام ناجح دون أن يقول شيئاً، ثم قدم لها كرسيًّا بأسلوب مؤدب ستعتبر هذه الطرق من التعبير فجة ومروعة.

بعد أن انتهى من تحضيراته الدينية بعناية فائقة في الصباح، كان مهيأً فقط لمتع الحياة التي تناسب ربطة العنق اليابسة في تلك الفترة الزمنية، والتي تناسب أيضاً دماغاً مليئاً بأفكار لم تنشر بعد. وضمن هذا التضاد الفكري بدت أفكار وقرارات دورثيا، وكأنها ثلج يذوب فيطفو، ثم يضيع في الماء الدافئ الذي تشكلت منه أول مرة. لقد أهملت لتجد نفسها مجرد ضحية مشاعر وكأنها لا يمكن لها أن تعرف شيئاً إلا عبر هذا الوسيط. لقد تفتقت جميع قواها لتتوزع في نبضات غضب وصراع وكآبة، ثم مرة أخرى في رؤى متعددة لنكران الذات أكثر كمالاً، ومحولة جميع الأمور الصعبة إلى واجبات. يا لدورثيا المسكينة... لقد كانت مصدر إزعاج لنفسها بشكل رئيسي، ولكن في هذا الصباح ولأول مرة كانت

مصدر إزعاج للسيد كزابون.

بينما كانا يتناولان القهوة، حاولت أن تتخلص مما كانت تسميه في داخلها... أنانيتها، فأدارت بوجهها مبتهجة إلى زوجها، عندما قال: «عزيزتي دورثيا...! يجب أن نفكر الآن في كل ما لم نفعله كتهيؤ لمغادرتنا. وددت لو ذهبنا في وقت مبكر لنقيم احتفالات عيد الميلاد في لُويك، ولكن الاستطلاعات أخذت وقتاً أكثر مما توقعت. في أيّ حال... أظن أنك قضيت وقتاً ممتعاً هنا. من بين جميع مواقع أوروبا التاريخية، ظلت روما أحد أكثر المواقع دهشة وثقافة. سأظل أعتبر زيارتي الأولى لها أهم حدث في حياتي، ولا سيما أنها كانت بعد سقوط نابليون، الحدث الذي فتح القارة للزائرين. فأنا أعتقد أنها إحدى المدن التي ينطبق عليها المبالغة والغلو. ولا سيما عندما يقال: - اذهب إلى روما ثم مت - ولكن في حالتك أقترح تعديلاً فأقول زوري روما وأنت عروس، ثم اقضي حياتك وأنت زوجة سعيدة».

أدلى السيد كزابون بحديثه القصير هذا بنية تنبع من ضمير صادق، وهو يرفّ بعينيه قليلاً ويحرك رأسه إلى الأعلى وإلى الأسفل، ثم ختم قائلاً وهو مبتسم، إنه لم يجد في الزواج حالة طرب أو استمتاع، إلا أنه لم يجد في نفسه إلا رجلاً لا عيب فيه، يمكن له أن يجعل فتاة شابة فاتنة الجمال سعيدة كما ينبغي.

قالت دورثيا محاولة أن تركز على ما يهتم به زوجها: «أتمنى أن تكون راضياً عن إقامتنا، أعني بما يتعلق بنتائج دراساتك».

«نعم»، قالها السيد كزابون بنبرة صوت تنم عن نصف رضى، «لقد وجدت أكثر مما توقعت، وقد وجدت مواضيع عديدة، وعلى الرغم من أنني لا أحتاج إليها بشكل مباشر، فإنني لم أستطع تجاوزها لأنني سأكتب عنها. لقد كان العمل متعباً، على الرغم من مساعدة كاتبي، لكن صحبتك قد منعتني لحسن الحظ من متابعة أفكاري بعد ساعات الدراسة التي كانت فخًّا في حياة الوحدة».

«إنني سعيدة... إذ أحدث وجودي تغييراً في حياتك». قالت ذلك دورثيا، وفي مخيلتها ذكريات أماسي كان خلالها السيد كزابون أشد إرهاقاً بعد انغماسه في دراساته أثناء النهار من أن يتفتح ثانية. لكنّها خشيت أن تكون هناك حدة في جوابها فتابعت: «أتمنى أن أقدم لك نفعاً أكبر عندما نعود إلى لُويك، كما أنني أتمنى أن يكون في وسعي التدخل في ما تهتم به».

قال السيد كزابون مع انحناءة بسيطة: «دون شك يا عزيزتي... تحتاج النقاط التي

أبديتها هنا للتصنيف، فيمكنك لو سمحت أن ترتيبها بإشرافي».

قالت دورثيا وقد تحرق قلبها لهذا الموضوع، فهي الآن لا تستطيع التوقف عن الكلام: «وجميع نقاطك.. جميع تلك الصفوف من المجلدات؛ ألن تفعل الآن ما كنت تقول...؟؟ ألن تقرر أي قسم منها ستستعمل...؟؟ وتبدأ بكتابة كتابك الذي سينقل علمك الغزير ومعرفتك الواسعة للعالم بأسره..؟؟ سأكتب ما تملي علي، أو سأنسخ وأرتب ما تشير به علي. لا يمكنني أن أقدم أي نفعٍ آخر». أنهت دورثيا كلامها بتنهيدة خفيفة، وعينين مغرورقتين بالدموع، وبطريقة أنثوية غامضة، وغير قابلة للتعليل.

كان الشعور الواضح والمتزايد وحده مزعجاً جدًّا للسيد كزابون، ولكن كانت هناك أسباب أخرى تجعل كلمات دورثيا التي كانت مكرهة على استخدامها، من بين الأمور التي كانت تضايقه وتمزقه. لم تكن ترى مشاكله الداخلية وكذلك لم ير مشاكلها أيضاً. لم تتعرف حتى الآن صراعات زوجها الخفية والتي تستدعي عطفنا وشفقتنا. لم تصغ الآن بصبر إلى دقات قلبه، بل أحست فقط بدقات قلبها تدق بعنف. كانت دورثيا تكرر اقتراحاتها المكبوتة، والتي يمكن تفسيرها على أنها مجرد وهم وخيال بالغ الحساسية بصوت مرتفع في أذن السيد كزابون.

عندما تكرر مثل هذه الاقتراحات عن عمد تلقى معارضة بذريعة أنها قاسية وغير عادلة. إننا نغضب حتى من قبولنا الكامل لاعترافاتنا المخزية - فكيف يكون حالنا عندما نسمع كلمات جلية وقاسية تصدر عن مراقب قريب منا...؟؟ تلك التمتمات المربكة.. التي نحاول أن نسميها مرضاً.. ونكبحها على أنها مجرد خدر مؤقت في جسدنا.. ولا سيما أن المتهم الخارجي القاسي هذا.. هو على شكل امرأة، لا بل عروس شابة.. كانت تقدم نفسها كجاسوس يراقب كل شيء بقدرة الاستنتاج الشريرة، بدلاً من أن تنظر فقط إلى كتاباته وأوراقه الكثيرة بخشية وذكاء دون نقد، كما يفعل طائر الكناري.

إن السيد كزابون تجاه هذا الجانب على درجة واحدة مع دورثيا في حساسيته وسرعته في تخيله للواقع. لقد فهم منذ البداية من طريق الاستنتاج قدرتها على حب الشخص المناسب، إلا أنه بدأ الآن يتنبأ.. وبخوف مفاجئ من أن يحل محل تلك القدرة افتراض، أو توقع ما، وأن يحل محل الحب انتقادات لاذعة، يمكن أن تنتهي بنهايات سعيدة... إلا أنها غامضة دون أن تعي كم يكلفها الوصول إلى تلك النهايات.

ظهر على وجه السيد كزابون علامة غضب سريعة لأول مرة منذ أن عرفته دورثيا، إذ قال وهو يحاول أن يكبح جماح غضبه: «يا حبيبتي.. يمكنك الاعتماد عليّ... لأنني خبير بالأوقات والفصول التي يحتاجها أي عمل لا يقاس بحدس الجاهلين السطحي. لقد كان سهلاً علي أن أحصل على شيء ما من سراب فكرة لا أساس لها، ولكن غالباً ما تحيا تجربة المستكشف الدقيق من قبل الثرثارين غير الصبورين الذين يحققون أصغر الإنجازات فقط لأنهم لا يستطيعون القيام بغيرها. ولكان الأمر أفضل لو أنهم نصحوا كي يعوا أن حقيقة الأمر بعيدة من منالهم كليًّا، وأن عناصر بحوثهم يمكن أن تقاس من خلال دراسات ضيقة وسطحية».

قال السيد كزابون كلامه هذا باستعداد وحيوية لم يعتد عليه من قبل، ولم يكن ذلك تطور حقيقي في شخصيته، لكنه كان حديثاً هيئ في داخله، وانطلق كما ينبعث محتوى حبة الفاكهة، عندما تتعرض لحرارة مفاجئة. لم تكن دورثيا زوجته فحسب، بل كانت تشخيصاً لذلك العالم الشخصي الذي يحيط بالكاتب القدير. كانت دورثيا ناشطة بدورها ساخطة، ألم تكبح كل ما يجول في داخلها باستثناء رغبتها في أن تشارك زوجها بعض اهتماماته الرئيسية؟ «كانت قدرتي على الحكم على الأشياء سطحية جدًّا كما كانت قدرتي على تكوين وجهات النظر». هكذا أجابت باستياء واضح لا يحتاج إلى تكرار. «لقد أريتني صفوف كتبك التي غالباً ما حدثتني عنها، كثيراً ما قلت إنها تحتاج إلى تلخيص. لكنني لم أسمعك قط تتحدث عن كتابات تحتاج إلى النشر. كانت تلك حقائق بسيطة وواضحة فلم تذهب تقديراتي بعيدًا منها. وما طلبت منك إلا أن أكون عوناً فقط».

نهضت دورثيا لتبتعد عن الطاولة، أما السيد كزابون فلم يعلق بشيء والتقط رسالة كانت إلى جانبه، وكأنه يحاول استخدامها ثانية. لقد فوجئ كلاهما من وضعهما المشترك..!!! إذ إن كلًّا منهما كان لديه غضب خادع تجاه الآخر..! لو كانا في منزلهما وبين جيرانهما لكان الصدام أخف وطأة، ولكن خلال شهر العسل يكون الشعور تجاه الخلاف خانقاً ومربكاً، لأن هدف شهر العسل هو عزل شخصين لوحدهما على أساس كل منهما يعتبر الآخر دنياه. أما أن تغير نزعاتك وتضعك في عزلة أخلاقية كي تحصل على مشاحنات صغيرة، وأن تعتبر المحادثة صعبة المراس، وأن تقدم كأس ماء دون أن تنظر إلى من تعطي، لا يمكن اعتباره مرضياً أو مقنعاً حتى بالنسبة إلى أضعف العقول. بدت هذه المشاجرة لحساسية دورثيا القليلة الخبرة وكأنها كارثة غيرت كل توقعاتها. أما بالنسبة إلى السيد كزابون فإنها كانت

ألماً جديداً فهو لم يقض شهر عسل من قبل، ولم يجد نفسه يعيش في شراكة مع أحد آخر ليعاني عبودية أكبر مما يمكنه أن يتصور، ولا سيما أن هذه العروس الفاتنة لم تجبره فقط على مراعاة مشاعرها، وهو ما دأب على فعله، بل استطاعت أن تربكه بقسوة تماماً حين كان يحتاج إلى العطف والحنان. وبدلاً من أن يقيم سوراً هشًّا أمام الحضور الخيالي غير متعاطف في حياته، هل جعل هذا الحضور حقيقة مادية ملموسة؟

لم يشعر أي منهما أن الفرصة تسنح له كي يتحدث. أفأن تتراجع عما رتب له، فتقلع عن الخروج سيكون مظهر غضب دائم تجنبته دورثيا، ولا سيما أنها بدأت مسبقاً تشعر أنّها هي المذنبة. مهما كان سخطها عادلاً، لم يكن هدفها المطالبة بالعدالة، لكنها أرادت أن تقدم الحب والحنان. فعندما حضرت العربة عند الباب رافقت السيد كزابون إلى الفاتيكان، ومشت معه عبر الطريق الحجري المنقوش، وعندما افترقت عنه عند بوابة المكتبة، ذهبت تتجول في المتحف دون أن تهتم كثيراً بما حولها. لم تكن لديها رغبة في الذهاب إلى أي مكان آخر. إن أول مرة شاهدها فيها نومن كانت عندما افترقت عن السيد كزابون، ودخل معها معرض التماثيل الكبير، حيث كان على نومن أن ينتظر لادسلو ليقيم رهانهما حول تمثال غامض ينتمي إلى القرون الوسطى على ليتر من الخمر. بعد أن انتهيا من تفحصهما للتمثال انصرفا مختلفين، ثم افترقا وتخلف لادسلو قليلاً، بينما ذهب نومن إلى قاعة التماثيل، حيث رأى دورثيا ثانية في حالة اكتئاب غامض، مما جعل وقفتها مميزة. إنها لم تنظر إلى أشعة الشمس الساطعة على الأرض أكثر مما نظرت إلى التماثيل. إذ كانت تتطلع إلى ضياء السنين القادمة في منزلها وفوق حقول إنجلترا، وكذلك فوق أشجار الدردار وعلى الطرق المحفوفة بالأشجار، فأحست تجاه تلك السنين بإخلاص ممتع، ليس جليًّا وواضحاً كما كان من قبل. ولكن كان في مخيلة دورثيا جدول، رأت أن جميع أفكارها وعواطفها ستجري فيه عاجلاً أم آجلاً، فتصل بين الوعي التام والحقيقة الكاملة التي هي الخير الأقل تحيزاً. لقد كان من الواضح أنه كان هناك شيء أفضل من الكآبة والغضب.

الفصل الحادي والعشرون

كان حديثها صريحاً وأنثوياً...

فلم تستخدم كلمات رنانة...

لتبدو حكيمة...

جيفري جوسر

هكذا راحت دورثيا تبكي حالما خلت لنفسها، إلا أنها نهضت فور سماعها قرعًا على الباب، مما جعلها تجفف دموعها بسرعة قبل أن تقول: «أُدخل». أحضرت تنترب بطاقة، وقالت بأن هناك رجلاً ينتظر في صالة الانتظار. كان قد قال له مرافق السياح بأن السيدة كزابون فقط في المنزل، لكنه قال بأنه أحد أقرباء السيد كزابون... هل ستقابلينه؟؟

قالت دورثيا دون توقف: «نعم، أدخليه إلى غرفة الجلوس، لقد بنت انطباعاتها الرئيسية حول لادسلو الشاب، عندما قابلته أول مرة في لُويك من خلال ما قيل لها حول كرم السيد كزابون تجاهه، كما أنها كانت مهتمة بتردده حول مستقبله. لقد كانت منفتحة لأي شيء يمنحها فرصة كي تتعاطف مع الآخرين، فجاءت الزيارة هذه لتخرجها من عزلتها والسخط الذي ينتابها، ولتذكرها بطيبة زوجها، ولتجعلها تملك الحق الآن كي تكون شريكته في جميع أفعاله. انتظرت لدقيقة أو دقيقتين، ولكن عندما انتقلت إلى الغرفة المجاورة، كانت لا تزال علائم البكاء على وجهها، لتجعله يبدو أكثر حسناً وإغراءً. لقد استقبلت لادسلو بابتسامة فاتنة تعكس ودًّا لا يشوبه الغرور، ثم مدت يدها له. كان يكبرها بعدة سنوات، ولكن في تلك اللحظة بدا أصغر منها لأن وجهه الأبيض احمر فجأة، وكان يتكلم بخجل وحياء ليس كعادته عندما يتكلم مع أصدقائه، في حين أن دورثيا كانت هادئة تماماً، محاولة أن تشعره بالارتياح.

قال: «لم أعرف أنك والسيد كزابون في روما حتى هذا الصباح، عندما شاهدتك في متحف الفاتيكان. لقد عرفتك مباشرة، لكنني استنتجت أن عنوان السيد كزابون يمكن أن

يكون موجوداً في قسم الاستعلامات، فوددت أن أقدم التهاني لكما في أسرع وقت».

«اجلس من فضلك، إنه ليس هنا الآن، لكنني متأكدة من أنه سيكون مسروراً عندما يعلم بحضورك». قالت ذلك دورثيا وهي تجلس بين موقد النار والنافذة، مشيرة إلى كرسي في الجهة المقابلة، وقد كانت تخيم عليها طمأنينة المرأة الحنونة. ولكن أكثر ما كان يدهش فيها علائم الأسى التي بدت على وجهها.

«إن السيد كزابون منشغل جدًّا، ولكنك ستترك عنوانك، أليس كذلك؟ وهو سيكتب لك».

قال لادسلو وقد بدأ يستعيد ثقته بنفسه، وهو ينظر إلى علائم البكاء على وجهها: «إنك لطيفة جدًّا، عنواني على البطاقة. ولكن إذا كنت تسمحين لي سأعود ثانية غداً، عندما يكون السيد كزابون موجوداً».

«هو يذهب من أجل القراءة في مكتبة الفاتيكان كل يوم، من الصعب أن تراه دون موعد خصوصًا في هذه الأوقات، فنحن نتهيأ لمغادرة روما، وهو منشغل جدًّا، عادة يكون خارج المنزل مباشرة بعد الفطورحتى قبيل العشاء. لكنني متأكدة من أنه سيدعوك لتتناول العشاء معنا».

دهش لادسلو صامتاً للحظات، فهو لم يكن يحب السيد كزابون، ولو لم يكن خروجاً على قواعد الأدب والاحترام لضحك عليه وسخر منه كما يسخر من خفاش امتلأ بالمعرفة. إن فكرة زواج هذا المعلم الكهل، الذي يستفيض في شرح أتفه الأشياء، التي أهميتها كأهمية الآثار المزيفة التي أهملت في مخازن الحانوت الخلفية، من هذه الفتاة الشابة أولاً، ثم افتراقه عنها أثناء شهر عسلهما، ليتبع عبثه العفن، قد أثارت استياء لادسلو الساخر بعد أن استغرق في التفكير فيها: فقد تنازعته رغبتان: إما أن ينفجر بضحك عال، أو أن يذمه محتقراً. لقد أحس للحظة أن هذا الصراع الداخلي بدأ يظهر على ملامح وجهه، ولكن بجهد كبير استطاع أن يحوله إلى ابتسامة مرحة فقط.

استغربت دورثيا لكنها ابتسمت أيضاً. كانت ستبعث ابتسامة لادسلو السرور والبهجة فيك، لو لم تكن غاضباً مسبقاً. لقد كان تدفق ضياء داخلي يبعث النور في الوجه والعينين يتخلل جميع الانحناءات والخطوط وكأن ساحرة لمسته بسحرها، لتزيل آثار الكآبة إلى الأبد. كان لابد وأن تترك الابتسامة أثراً مرحاً على دورثيا. لقد بدت ابتسامتها على الرغم من تبلل رموش عينيها الغامقة بالدموع مرحة أيضًا، ولا سيما عندما قالت متسائلة: «هل هناك

شيء يضحكك؟».

قال ويل وقد وجد بسرعة سبباً: «نعم. إنني أتذكر كيف كنت أبدو عندما رأيتك أول مرة، أي عندما سحقت الصورة التي كنت أرسمها بنقدك».

قالت دورثيا مستغربة أكثر: «نقدي...!؟ بالتأكيد، لا... دائماً أشعر بأنني جاهلة في الرسم».

«ظننتك تعرفين الكثير عندما قلت أكثر شيء جارح، إنني أراهن على أنك لا تتذكرين ما قلت لكنني لا أزال أتذكر بأنك قلت إن العلاقة بين رسمي والطبيعة لا تزال خفية عنك. إنك عنيت ذلك». لقد أصبح في إمكان ويل أن يضحك بالإضافة إلى ابتسامته.

قالت دورثيا معجبة بلباقة ويل: «لقد كان ذلك حقًّا جهلاً مني، لقد قلت ذلك فقط لأنني لا أستطيع أن أرى أي جمال في الصور. يقول عمي: إن جميع الناس يرونها جميلة. ولقد تجولت في روما، وأنا أحمل الجهل ذاته. إلا أنه يوجد بعض الصور التي أستمتع بها حقًّا. عندما أدخل غرفة لأول مرة، وأرى جدرانها مليئة باللوحات الجدارية، أو بلوحات نادرة، أشعر بنوع من الخشية والخوف، فأغدو وكأنني طفلة في مراسم مهيبة حيث المواكب والملابس الفخمة، فأرى نفسي في عالم يختلف عن عالمي. ولكن عندما أبدأ بتفحص الصور الواحدة تلو الأخرى، أشعر أن الحيوية والمهابة تبدآن بفراقها أو أنها تظل تبعث في نفسي الإحساس بالعنف والغرابة. أظن سبب ذلك هو غبائي. إنني أشاهد الكثير دفعة واحدة ولا أفهم نصفه. إن ذلك يجعل الشخص يشعر بالغباء، إنه من المؤلم أن يقال لك عن شيء إنه جميل جدًّا، ولا تستطيع تذوق جماله... كحال الأعمى عندما يتكلم الناس عن السماء».

قال ويل - ومن المستحيل عليه الآن الشك في صحة اعترافات دورثيا - : «هناك الكثير من الأحاسيس يجب على الفرد أن يمتلكها تجاه الفن. يمثل الفن لغة قديمة بأساليب كثيرة وعظيمة يشوهها التصنع، وفي بعض الأوقات يحصل المرء على المتعة الرئيسية فقط عندما يفهمها. إنني أستمتع جدًّا بالفن المتعدد الأنواع هنا، لكنني أعتقد إذا ما تمعنت بمتعتي، لوجدتها محاكاة بخيوط مختلفة. لابد من أن يوجد في داخل كل منا رغبة في الرسم وتعلمه».

قالت دورثيا باهتمام جديد: «أتعني أن تكون رساماً؟ أتعني أن تجعل من الرسم مهنة لك؟ سيسر السيد كزابون عندما يعلم بأنك اخترت مهنة».

قال ويل بفتور: «كلا، كلا، لقد قررت تماماً ألّا أمارس هذه المهنة، فإنها تقيدني ضمن طريقة عيش واحدة فقط. لقد قابلت الكثير من الفنانين الألمان هنا، لقد سافرت من فرانكفورت مع أحدهم. بعضهم ممتازون جدًّا، ولكن يجب ألّا أنظر إلى العالم من خلال الرسم كما يفعلون».

قالت دورثيا بود: «إنني أفهم ذلك، ويبدو أنه يوجد في روما أشياء كثيرة يحتاج إليها العالم أكثر من الصور، ولكن لو كنت تملك موهبة الرسم، ألن يكون صحيحاً أن تتخذها مهنة لك؟ فربما تستطيع أن ترسم صوراً أفضل من تلك، أو ربما تختلف عنها بعض الشيء، فلا يصبح لديك الكثير من الصور المتشابهة في مكان واحد».

لا يمكنك أن تخطئ بهذه البساطة التي اندفع إليها ويل: «لا بد من أن يتوافر لدى الرجل موهبة نادرة ليقوم بتغييرات من ذلك النوع، وإنني أخشى ألا تمكنني موهبتي من أن أقلد من سبقوني على نحو جيد، أو مقبول على الأقل. إنني لا أنجح في أي شيء بفضل الكد والعمل الشاق، فإذا كنت لا أحصل على الأشياء بسهولة فذلك لأنني لا أسعى لأجلها».

قالت دورثيا بلطف، إذ إنها فوجئت بنظرة ويل للحياة وكأنها إجازة دائمة: «لقد سمعت أن السيد كزابون يقول بأن عدم صبرك يؤسفه»، فقال: «نعم إنني أعرف وجهة نظر كزابون، فأنا أختلف معه بالرأي».

إن مسحة الازدراء التي حملها جواب ويل، جرحت مشاعر دورثيا. كان سبب انزعاجها من السيد كزابون الخلاف الذي وقع بينهما في الصباح. قالت بتفاخر: «إنه بالتأكيد يختلف عنك، لم أفكر في المقارنة بينكما؛ إن قدرة السيد كزابون على المواظبة على العمل ليست عادية، أو هينة».

لقد عرف ويل أنها جرحت، لكن هذا ما زاد كرهه الكامن للسيد كزابون شدة. إنه شيء لا يطاق أن تحب دورثيا هذا الرجل إلى درجة العبادة: مثل هذا الضعف للمرأة لا يسر أي رجل سوى زوجها. وغالباً ما يقع الناس في الإغواء بسهولة، فيختطفون نجاح جيرانهم ولا يعتبرون ذلك جريمة.

أجاب مباشرة: «نعم، حقًّا لأنها كذلك، لذلك فمن المؤسف أن يلقى بها تماماً كما حصل للثقافة الإنجليزية، لأنها لم تحصل على ما أنجز في سائر العالم. لو تعلم السيد كزابون الألمانية لوفر على نفسه كثيراً من المتاعب».

قالت دورثيا وقد اضطربت وأصابها القلق: «إنني لا أفهمك».

قال ويل مرتجلاً: «إنني أعني فقط... بأن الألمان رواد العالم في علم التاريخ، إنهم يسخرون منا... فنحن ما زلنا نتلمس الطريق في الغابة بالاعتماد على بوصلة جيب، في وقت شقوا طرقاً عريضة وجيدة. لمّا كنت مع السيد كزابون وجدته يصم آذانه أمام تلك الحقيقة... إنه يتضايق من قراءة بحث في اللاتينية، كتبه كاتب ألماني. لقد أسفت لذلك كثيراً».

أراد ويل أن يؤلم قليلاً، فيسحق التبجح بذلك الجهد، إلا أنه لم يقدر الألم الذي سيلحق بدورثيا. لم يعرف السيد لادسلو الشاب الكثير من الكتاب الألمان، لكن معرفته الضحلة بهم كافية لتثير الشفقة على السيد كزابون الذي كان يجهلهم تماماً.

شعرت دورثيا المسكينة بألم عندما ظنت أن جهد زوجها قد يكون لا نفع له مما تركها عاجزة عن أن تحدد لو أن هذا القريب الشاب الذي كان ممتنًّا من زوجها، كان يجب عليه ألّا يفصح عن ملاحظاته. لم تتكلم لكنها ظلت جالسة تنظر إلى يديها مستغرقة في تلك الفترة الجديرة بالشفقة. في أيّ حال كان ويل خجلاً مما سببه من أذى، وتصور من خلال صمتها أنه سبب لها أذى أكبر، كما أنه كان يعي أنه آذى بغيبته من أحسن إليه.

تابع قوله منتقلاً من الانتقاص إلى المديح المنافق: «إنني آسف لذلك تماماً، لأنني أكن الود والاحترام لابن خالة أبي. ما كان لذلك أن يحدث أثرًا عند رجل ككزابون».

رفعت دورثيا عينيها، وقد بدا فيها لمعان أكثر من قبل بعد أن ابتهجت، وقالت بطريقتها السردية الحزينة: «أتمنى لو أنني تعلمت الألمانية حين كنت في لوزان... لقد كان هناك الكثير من معلمي الألمانية. ولكن الآن لا يمكنني أن أكون ذات نفع». ظهر للادسلو من خلال كلمات دورثيا ضوء جديد، لكنه لا يزال غامضاً ومبهماً. لم يكن من السهل الجواب على التساؤل كيف أن دورثيا قبلت بكزابون زوجاً لها، ولا سيما أن لادسلو استبعد التفكير فيه عندما رآها أول مرة، وظن بها فتاة سيئة الطبع بالرغم من مظهرها الحسن. مهما تكن... إلا أنها ليست سيئة الطبع، إنها ليست ذكية برزانة، ولا تهجو بطرق غير مباشرة إنما هي فتاة بسيطة للغاية، ومليئة بالأحاسيس والمشاعر، فهي ملاك مخدوع. ستكون ممتعة مشاهدة قلبها وروحها يتبدلان ببراءة وصراحة. لقد خطرت بباله قيثارة عولس ثانية.

لا بد من أنها خلقت لنفسها قصة حب من خلال هذا الزواج، ولو كان السيد كزابون

تنّيناً حملها بمخالبه وأخذها إلى مخبئه بدون حق، لكان عملاً بطوليًّا أن يحررها لادسلو من بين مخالب كزابون، ثم يقع عند قدميها، لكن السيد كزابون أصعب من التنين. فقد كان محسناً وله علاقات كثيرة تربطه بمجتمعه، وفي تلك اللحظة كان يدخل الغرفة بطريقة لا تثير الشكوك، بينما كانت دورثيا مفعمة باليقظة والأسف. أما لادسلو فقد كان مفعماً بتعجبه وتخميناته بمشاعرها. أحس كزابون بدهشة لا يمازجها سرور، لكنه لم يبتعد عن طريقته بالتحية، عندما نهض ويل وبين ظروف وجوده. كان السيد كزابون أقل سعادة من المعتاد مما جعله يبدو ربما أكثر شحوباً وخبواً، إذ كان الفرق جليًّا وواضحاً بين مظهره ومظهر ابن خالته الشاب. لقد رأى كزابون لادسلو وكأنه شمس ساطعة، مما زاد من تغيير ملامح وجهه. ومن المؤكد أن تقاطيع وجهه كانت تتغير باستمرار، فكان حنكه تارة يبدو ضخماً وتارة صغيراً، وكانت انحناءة أنفه تميز وجهه دائماً. وعندما أدار وجهه بدا شعره وكأنه يشع ضياء، مما يجعل بعض الناس يعتقدون أنه عبقري. وبينما وقف السيد كزابون تكسوه العتمة والخبو، أدارت دورثيا عينيها بتوتر إلى زوجها، فربما كانت تعي هذا الفرق بينهما، كما أنها تنبهت إلى الخطر الذي أثار إحساسها بالشفقة على نصيب كزابون في الحياة بعيداً من أحلامها، إلا أن وجود ويل هناك كان مصدر حرية بالنسبة إليها، فعمره واستعداده للاستماع للأدلة، والحجج المقنعة، يتناسبان مع طبيعتها ومكانتها. لقد شعرت أنها في حاجة ماسة إلى أحد تتكلم معه، فهي لم تقابل أحداً من قبل يبدو ذكيًّا ومرناً هكذا، وقادراً على تفهم كل شيء.

تمنى السيد كزابون بوقار أن يقضي ويل وقته في روما على وجه مفيد وممتع، ولا سيما أنه اعتقد أن ويل كان ينوي المكوث في جنوب ألمانيا. ثم طلب منه المجيء في اليوم التالي ليتناولوا العشاء سوية، حيث يمكنهم التحدث أكثر لأنه الآن متعب. فهم لادسلو ذلك، ثم انصرف بعد أن قبل الدعوة. تبعت عينا دورثيا زوجها بقلق، بينما راح يستلقي على طرف الأريكة واضعاً ذراعه على المسند وسانداً رأسه على كفه، وناظراً إلى الأرض، ثم جلست إلى جانبه وهي محمرة قليلاً، وعيناها تلمعان وقالت: «سامحني لأنني تسرعت بالحديث معك هذا الصباح، إنني كنت على خطأ. أخشى أن أكون قد جرحتك، فجعلتك أكثر تعباً».

قال السيد كزابون وقد حنى رأسه قليلاً، ولكن ما يزال عدم الارتياح يبدو في عينيه: «إنني مرتاح لأنك تشعرين بذلك يا عزيزتي».

«ولكن هل تعذرني؟»، قالت دورثيا مع تنهيدة سريعة. ولم تتردد بالمبالغة في الاعتراف بخطئها. ألا يشهد الحب عودة الندم من بعيد، فيقع على رقبته ويقبلها؟

قال السيد كزابون: «عزيزتي دورثيا، من لا يقبل الاعتذار ليس من السماء ولا من الأرض، ألا تعتقدين أن هذا القول لا ينطبق عليّ». وكان ملحًّا على نفسه كي يقدم حديثاً متماسكاً ويبدي ابتسامة شاحبة.

كانت دورثيا صامتة لكن الدمعة التي في عينها مع تنهيدتها ألحت على السقوط، ثم سقطت.

قال السيد كزابون: «إنك منفعلة يا عزيزتي، وأنا أشعر بكثير من الاضطراب النفسي». في الواقع كان يدور في خلده أن يقول لها بأنه كان عليها ألّا تستقبل لادسلو في غيابه، إلا أنه أحجم عن ذلك لأنه سيكون من الفظاظة أن يتذمر من شيء آخر لحظة اعتذارها عن خطئها، ولأنه أراد أن يجنب نفسه الإزعاج من الحديث، وكذلك لأن كبرياءه لم تكن تسمح له أن يظهر نزعة غيرته التي لم يستنفدها كلها في غيرته من أقرانه من المفكرين، فقد ظل عنده ما يكفي ليوظفها في اتجاه مختلف. يوجد نوع من الغيرة لا تحتاج إلا إلى شرر لتشتعل: لا تكاد تكون عاطفة، لكنها آفة تتوالد ضمن كآبة الأنانية.

أضاف وهو ينظر إلى ساعته: «أعتقد أن الوقت قد حان كي نغير ثيابنا». ثم نهضا دون أن يلمح أحدهما للآخر بما مر خلال النهار، وعند ذلك لم يغب عن ذاكرة دورثيا طوال حياتها بإشراق كما نتذكر حقبة من عمرنا يموت خلالها أمل، أو يولد دافع جديد فينا. بدأت اليوم تعي أنها كانت تعيش وهمًا تافهًا، حين كانت تنتظر استجابة السيد كزابون لمشاعرها، كما أنها وعت بحدسها وجود جانب حزين في حياته، مما يستدعي وقوف أحدٍ إلى جانبه، وهي في حاجة إلى أحد بجانبها.

كلنا يولد في حماقة أخلاقية، ثم نتخذ من العالم ضرعاً ترضع منه أنفسنا السامية: بدأت دورثيا تتخلص من تلك الحماقة، ولكن لا يزال أسهل عليها أن تفكر كيف تكرس نفسها لأجل السيد كزابون وتصبح حكيمة وقوية في ظل قوته وحكمته من أن تتخيله مركزاً تنبعث منه الأضواء وتنعكس عنه الظلال في طرق مختلفة.

الفصل الثاني والعشرون

Nous causâmes longtemps; elle était simple et bonne.
Ne sachant pas le mal, elle faisait le bien;
Des richesses du cœur elle me fit l'aumone,
Et tout en écoutant comme le cœur se donne,
Sans oser y penser je lui donnai le mien;
Elle emporta ma vie, et n'en sut jamais rien».

ALFRED DE MUSSET

كان ويل لادسلو مرحاً ومبتهجاً خلال العشاء في ذلك اليوم، ولم يفسح المجال لكزابون كي يظهر استنكاره، فعلى العكس رأت دورثيا أن ويل كان يجتذب كزابون إلى الحديث بطريقة لطيفة ومهذبة، كما أنه كان يستمع إليه باحترام لم تعهده عند أي أحد آخر، ولا سيما أن المستمعين في تبتن لم يكونوا على درجة عالية من الذكاء والتهذيب. تحدث ويل كثيراً، لكنه كان يلقي بحديثه بسرعة، وكأنه قرع أجراس صغيرة مرحة بعد أن دق الجرس الأكبر. إذا لم يكن ويل دائماً في حال جيدة، فإن هذا اليوم هو أحد أفضل أيامه. تحدث عن الأحداث الصغيرة التي تصدر عن الفقراء في روما التي لا يراها إلا من يتنقل بسهولة وحرية بينهم. لقد توافق رأيه مع رأي كزابون بما يتعلق في آراء ميدلتون الضعيفة حول العلاقة بين الديانة اليهودية والمذهب الكاثوليكي، ثم انتقل إلى حديث تشوبه الحماسة والمرح مبيناً المتعة التي حصدها من خلال تنقله في روما المتعددة الجوانب والثقافات، والتي تمنح الذهن مرونة بإقامة المقارنات، وتطلعك على عصور العالم مجتمعة. علق ويل على دراسات السيد كزابون بأنها شمولية جدًّا بما يتعلق في تاريخ العالم، وربما لم يدرك ذلك السيد كزابون نفسه، ولكن بالنسبة إليه فقد أكد ما قد منحته طريقة جديدة لفهم التاريخ بأكمله.

لقد أثارت القطع الأثرية خياله فجعلته استدلاليًّا. ثم في بعض الأحيان كان يوجه كلامه لدورثيا وكان يناقش ما تقول، وكأنه يقول: يمكن اتخاذ وجهات نظرها أحكاماً نهائية على ما كانوا يناقشونه، بما في ذلك رأيها في مادونا ديفو لينو، أو الاووكون. إن التوجه نحو إبداء الآراء في العالم بأسره أسبغ على المحادثة روح المتعة، فضلًا عن ذلك فإن السيد كزابون كان فخوراً بزوجته العروس التي كانت تتكلم أفضل من معظم النساء تماماً كما فعل عندما اختارها.

بما أن الأمور كانت تسير على نحو لطيف، قرر السيد كزابون أن يوقف أعماله في المكتبة لبضعة أيام، ثم بعد أن يتبعها بعمل قصير لم يبق سبب لبقائهما في روما. جعل هذا ويل يلح على أن السيدة كزابون يجب ألّا تغادر روما قبل أن تزور مرسماً أو مرسمين فيها. ألن يأخذها السيد كزابون؟ يجب ألا تفوت مثل هذه الفرصة، فهي ذات خصوصية مميزة، فحبه ينمو كما تنمو النباتات مع ديدانها وهي تتغذى مع بقايا النباتات والكائنات الحية القديمة. سيكون ويل سعيداً لمرافقتهما ليس إلى أماكن تسبب الإرهاق والتعب ولكن فقط لزيارة بعض العينات.

لم ير السيد كزابون بدًّا من أن يسأل دورثيا التي كانت تنظر إليه بجد، في ما لو كانت ترغب في زيارة لهذه الأماكن، فإنه سيظل في خدمتها طوال النهار، وقد تم الاتفاق على أن يأتي ويل في صباح اليوم التالي لينطلق معهما.

لم يكن في إمكان ويل أن يتغاضى عن زيارة ثورولدسن الشهير والذي حتى السيد كزابون تساءل عنه. ولكن قبل أن ينقضي النهار اقتادهما إلى مرسم صديقه أدولف نومن الذي اعتبره كأحد المجددين الرئيسيين للفن المسيحي، فهو لم يستعد فحسب بل طور فكرة أبرز الأحداث كالمغامرات التي كان يرصدها الناس عبر العصور المتعاقبة، كما أضاف ويل بأنه غدا تلميذ نومن في الوقت الحاضر.

قال ويل: «إنني أنجز بعض الرسوم الزيتية بإشرافه، فأنا أكره التقليد، ولا بد لي من أن أضع لمساتي الخاصة. لقد رسم نومن القديسين وهم يجرون عربة الكنيسة، أما أنا فقد رسمت تيمورلنك الذي رسمه مارلو، وهو يقتاد الملوك الذين احتلهم في عربته. لست رساماً كنسيًّا كنومن وأنا أسخر من مبالغته في بعض المعاني. إلا أنني الآن أنوي التفوق عليه من خلال توسيع مقاصدي فأنا سأقدم تيمورلنك في عربته، وهو يسوق السلالات الملكية وهي مكبلة بالقيود، ففي رأيي أن هذه تمثل تفاسير أسطورية جيدة».

هنا نظر ويل إلى السيد كزابون الذي تقبل هذا النوع من الرمزية باضطراب فأبدى إيماءة حيادية: «لا بد من أن تكون لوحتك كبيرة جدًّا، ولا سيما أنها تعبر عن معان كثيرة كهذه». قالت دورثيا: «إنني أحتاج إلى شرح إضافي على الرغم مما قدمته من معان، هل تنوي تقديم تيمورلنك على أنه يمثل الزلازل والبراكين؟».

قال ويل ضاحكاً: «نعم، وهجرة الناس وترك الغابات وأمريكا والقطارات البخارية وكل

شيء يمكن أن تتوقعيه».

قالت دورثيا مبتسمة، وهي تنظر إلى زوجها: «كم هو اختزال صعب. ستحتاج إلى كل معرفتك لتفهم مثل هذه اللوحة». رمش السيد كزابون بعينيه، وهو ينظر إلى ويل، كان لديه شك بأنه يسخر منه، ولكن لم يستطع أن يشمل دورثيا بشكه.

وجدوا نومن يرسم، ولكن لم يكن أمامه نموذج يرسمه. كانت لوحاته مرتبة بحسب معانيها، وبدا مرحه الصريح من خلال قميصه الأبيض وقبعته المخملية البنية، فكل شيء بدا كأنه قد هيئ لاستقبال فتاة إنجليزية جميلة في ذلك الوقت. قدم نومن شرحاً مختصراً عن لوحاته المكتملة منها وغير المكتملة، وهو يراقب كل من كزابون ودورثيا. كان ويل يتدخل بين الآونة والأخرى مبدياً بعض الإطراء والمديح، وهو يشير إلى محاسن أعمال صديقه. أما دورثيا فقد حصلت على معلومات جديدة لدى مشاهدتها صور العذراء، وهي تجلس تحت العروش المظللة ضمن بيوت بسيطة كخلفية لها، وكذلك لدى مشاهدتها لصور قديسين وهم يمسكون تماثيل منحوتة في أيديهم، أو أمسك بعضهم بسكاكين طعنوا بها رؤوسهم صدفة. بدت لها هذه اللوحات مروعة، على الرغم من أنها جمعت بطريقة منطقية وكانت تقدم معاني طبيعية، ولكن من الواضح أن هذه اللوحات كانت تشكل كل جزء من المعرفة لم يعر لها السيد كزابون أي اهتمام.

قالت دورثيا موجهة كلامها لويل: «أظن أن الرسم يحمل جمالاً أكثر من أن ينظر إليه كلغز، ولكنني أجد أنني أفهم هذه اللوحات أسرع مما أفهم لوحاتك الغزيرة المعاني».

قال ويل: «لا تتحدثي عن رسومي أمام نومن، سيقول لك: كلها هراء، وهي أكثر كلمة يستخدمها جديرة بالازدراء».

قالت دورثيا: «هل هذا حقًّا»، وأدارت بنظرها البريء إلى نومن الذي كشر قليلاً وقال: «إنه لا يعني ذلك جديًّا في رسومه»، كان نطق نومن لبعض الكلمات ينم عن شيء من التهكم، مما جعل ويل لا يحبها، لكنه ضحك. بدأ السيد كزابون الذي كان يشمئز من لهجة الرسام الألماني يبدي بعض الاحترام لحصافته وحكمته. ولم يتلاش هذا الاحترام عندما سحب نومن ويل جانباً ونظر إلى لوحته القماشية الكبيرة أولاً، ثم إلى كزابون فتقدم منه قليلاً وقال: «يعتقد صديقي لادسلو بأنك ستعذرني، لو قلت بأن رسماً لوجهك أضعه في لوحة القديس توماس أكويناس هناك، سيكون ثميناً جدًّا بالنسبة إليّ، أعلم أنه مطلب صعب،

ولكن نادراً ما أرى ما أحتاج... المثالية تتجسد في الحقيقة».

قال السيد كزابون، وقد ابتهجت أساريره قليلاً: «لقد أدهشتني كثيراً يا سيدي، ولكن إذا كانت ملامح وجهي التي لا أعتقد أن شيئاً مميزاً فيها، يمكن لها أن تكون مادة تستخدمها في رسم ملامح طبيب ملائكي، فسيكون لي الفخر بقبول طلبك أي إذا لم تأخذ المسألة وقتاً طويلاً، وإذا لن يكون لدى السيدة كزابون مانع من التأخير».

بالنسبة إلى دورثيا لن يسعدها شيء أكثر من أن يقال عن السيد كزابون بأنه أكثر الرجال حكمة وجدارة، ففي تلك الحالة سيصبح إيمانها المتقلقل راسخاً ثانية. هيأ نومن أدواته كاملة، فبدأ رسمه قبل أن ينتهوا من الحديث. جلست دورثيا صامتة، وقد شعرت بسعادة لم تعهدها منذ زمن طويل، وبدا الجميع من حولها سعيداً كما أنها قالت لنفسها: ..لو أنها كانت أقل جهلاً فقط، لكانت روما مليئة بالجمال ولتحول حزنها إلى أمل يرفرف بجناحيه. لا يمكن لأحد أن يكون أقل شكاً من طبيعتها حين كانت طفلة. كانت تعتقد بإقرار الدبابير بالفضل وحساسية عصفور الدوري الجدير بالاحترام، وكانت تسخط جدًّا عندما تظهر خستهم.

كان الفنان البارع يسأل السيد كزابون أسئلة تتعلق بالنظام السياسي الإنجليزي، مما كانت تستدعي أجوبة مطولة، وفي هذه الأثناء اتخذ ويل مكاناً له ليجلس على بعض الدرجات المطلة على المرسم.

قال نومن: «إذا سمحت لي أن أضع هذه اللوحة جانباً لنصف ساعة، ثم آخذها.. تعال وانظر يا لادسلو، أعتقد أنها رائعة».

أبدى ويل دهشة تنم عن أن إعجابه أكبر من أن يعبر عنه في الكلام، ثم قال نومن بأسف جدير بالشفقة: «آه، لو استطعت أن آخذ من وقتكم وقتاً أطول، ولكن لديكم ارتباطات أخرى - لا يمكنني أن أطلب ذلك - حتى لو تأتون غداً».

قالت دورثيا: «دعنا نبقَ..! ليس لدينا ما نفعله اليوم سوى التجوال، أليس كذلك؟». ثم أضافت وهي تنظر متوسلة إلى السيد كزابون: «سيكون من المؤسف ألّا يرسم وجهك على أفضل وجه ممكن».

قال السيد كزابون بتهذيب: «أنا في خدمتك لأجل ذلك يا سيدتي، بما أنني سلمت عقلي للكسل، فلا بأس أن أسلم جمجمتي كذلك».

قال نومن: «إنك دون أدنى شك إنسان جيد... إنني سعيد الآن!» ثم تحدث بالألمانية إلى ويل مشيراً إلى اللوحة بين الآونة والأخرى. ثم نظر من حوله بغموض بعد أن وضع اللوحة جانباً، وكأنه يبحث عن مكانة يمنحها لضيوفه، ثم استدار إلى السيد كزابون وقال: «ربما ترغب العروس الجميلة أي السيدة الفاضلة في أن أملأ فراغي، فأرسمها - ليس في الصورة نفسها بالطبع - ولكن في لوحة منفردة».

لم يراود السيد كزابون الشك في أن زوجته ستمانع، وقالت دورثيا مباشرة: «أين سأجلس؟».

طلب منها نومن بلطف شديد أن تظل واقفة، وتسمح له كي يكيف لها وقفتها بحسب حاجته، فتجاوبت معه دون أن يظهر عليها أي تأثيرات ضحك أو انفعالات داخلية أخرى، ثم قال نومن: «أريدك أن تقفي وقفة القديسة كلارا، فتتكئين هكذا وخدك على يدك - هكذا، انظري إلى تلك المنضدة من فضلك!».

كانت تتنازع ويل رغبتان: الأولى رغبة في أن يقع عند قدمي القديسة، ويقبل ثوبها، والثانية أن يلكم نومن حين كان يكيف وقفتها، فيوقعه أرضاً. كان هذا كله وقاحة وصفاقة منه، وقد ندم بأن أتى بها إلى هنا. كان نومن يعمل بجد واجتهاد، في حال أن ويل كان يتنقل في المرسم، ويشغل السيد كزابون قدر استطاعته، لكنه لم ينجح بجعله الرجل منشغلاً وكأن الوقت قصير، ولا سيما أنه أبدى قلقه من أن تكون السيدة كزابون قد تعبت. فهم ذلك نومن وقال: «لو سمحت لي يا سيدي الآن، أن أتابع رسم لوحتك في ما بعد لأعتقت السيدة».

هكذا استعاد السيد كزابون صبره ثانية، ثم اتفق على أن تعقد جلسة ثانية في اليوم التالي، ولا سيما عندما تبين بأن لوحة رأس القديس توماس أكويناس ستكون أفضل بكثير. تم تعديل لوحة القديسة كلارا في اليوم التالي أكثر من مرة. أسعدت النتيجة الكلية السيد كزابون جدًّا إلى حدّ أنه اشترى اللوحة التي يظهر فيها القديس توماس أكويناس، وهو يجلس بين علماء اللاهوت، ضمن خلاف لا يمكن قراءته في اللوحة إلا من خلال المشاهدين الذين كانوا يستمعون إليهم في أعلى اللوحة. أفصح نومن عن عدم رضاه عن لوحة القديسة كلارا، فاعترف بأنه لم ينجح برسم لوحة تماثلها في القيمة.

لن أخبركم عن النكات التي صدرت عن نومن حول السيد كزابون في ذلك المساء، ولا عن قصائده الحماسية التي نظمها حول سحر دورثيا، والتي شاركه بها ويل، ولكن بطريقة مختلفة. أول ما بدأ نومن يصف جمال دورثيا اغتاظ ويل واستشاط غضباً لما أبدى من

وقاحة، فقد كان جريئاً إلى حدّ الوقاحة في اختياره للكلمات، فما شأنه أن يصف شفتيها؟ لم تكن امرأة يمكن التحدث عنها كسائر النساء. لم يقل ويل ما أراد قوله، لكنه انفعل أيضاً، إلا أنه ابتهج بمباهاته بأنه استطاع على الرغم من تردده في أن يصطحب السيد كزابون وزوجته إلى مرسم صديقه، فيمنح نومن فرصة كهذه ليتعرف رقتها، وربما عذوبتها، فتغدو جميع عباراته عاجزة عن وصف جمالها. فمن المؤكد أن جميع أهالي تبتن وما حولها بمن فيهم دورثيا نفسها سيندهشون لو علموا ما قيل عن جمالها، ففي ذلك الجزء من العالم كانت تعرف الآنسة بروك على أنها فتاة متوسطة الجمال فقط.

قال ويل: «دعنا نتوقف عن الحديث في هذا الأمر يا نومن، فلا يمكن الحديث عن السيدة كزابون كما تتحدث عن صورك». فحدق به نومن:

«أنا سأتكلم عن لوحة الأكويناس، فليس رأس كزابون نموذجاً سيئاً. ويمكنني أن أقول إن الفيلسوف العظيم نفسه، أحب التملق عندما طلب منه أن يرسم رأسه. لاشيء يشبه علماء اللاهوت المحنطين هؤلاء في تكبرهم! لقد كان كما توقعت، فهو اهتم بلوحتها أقل مما اهتم بلوحته».

قال ويل بطيش، وهو يصك أسنانه: «إنه أحمق مغرور ومتحذلق لعين». لم يكن نومن على علم بمنة السيد كزابون، لكن ويل نفسه كان يفكر فيها، ويتمنى لو استطاع أن يردها بصك واحد.

هز نومن كتفيه وقال: «حسن إذ يغادران قريباً، فهما يسببان لك الإزعاج».

يتركز أمل ويل على أن يرى دورثيا لوحدها، فهو يريدها أن تهتم به أكثر، كما أنه يريد أن يستحوذ على ذكرى جميلة في مخيلتها. لم يكن صبوراً في ظلّ ضغط ذلك الشعور الودي الذي تبين له أنه يمثل أحاسيسها المعتادة. عشق امرأة بعيدة المنال، تؤدي دوراً أساسيًّا في حياة الرجال، ولكن في معظم الحالات يتطلع العابد لاعتراف الملكة له، ولإشارة تقبل تبعث السرور بنفسه دون أن تهبط إليه من مكانها. هذا ما كان يصبو إليه ويل تماماً، ولكن كان هناك كثير من التناقضات في ما يصبو إليه خياله. لقد كان من الممتع أن ترى عيني دورثيا، وهي تنظر إلى السيد كزابون متوسلة. كانت ستفقد جزءاً من هالة قدسيتها لو لم تنغمس في واجباتها الزوجية، وعلى الرغم من ذلك فإن تلقي الزوج لتلك الخدمات لم يكن يطاق إذ كان يشبه تلقي الرمل الجاف الرحيق. كانت رغبة ويل بالتهكم على السيد كزابون تعذبه

لأنه كان يعي الأسباب التي تجعله يحجم عن ذلك.

لم يدع ويل للعشاء في اليوم التالي لذلك أقنع نفسه بواجب الزيارة، وبأن أفضل وقت هو منتصف النهار، عندما لا يكون السيد كزابون في المنزل. لم تتردد دورثيا باستقبال ويل فربما أتى من أجل الوداع، وخصوصًا أنها لم تع أن استقبالها السابق له قد أزعج زوجها. عندما دخل كانت تنظر إلى أحجار كريمة اشترتها لأجل سيليا. رحبت بويل، وكأن زيارته أمر عادي، ثم قالت وهي تمسك بقلادة أحجار كريمة بيدها، «إنني مسرورة جدًّا لمجيئك. ربما تفهم بالأحجار الكريمة فتقول لي ما إذا كانت هذه جيدة. تمنيت لو كنت معنا عندما اشتريناها، لكن السيد كزابون رفض متذرّعاً بضيق الوقت. سيكمل عمله غداً، سنغادر بعد ثلاثة أيام. لقد ترددت كثيراً في شراء هذه الأحجار.. أرجوك أن تجلس وتنظر إليها».

«لست خبيراً بها، ولكن من دون شك أنها قطع متقنة، ولونها جميل فهي ستناسبك».

«إنها من أجل أختي، ولون بشرتها يختلف عن لون بشرتي. لقد رأيتها معي في لُويك: لون شعرها فاتح وهي جميلة – على الأقل أعتقد ذلك. لم نفترق طويلاً هكذا في حياتنا. إنها فتاة لطيفة جدًّا، ولم تشاغب في حياتها قط. عرفت قبل أن آتي إلى هنا بأنها تريدني أن أشتري لها بعض الأحجار الكريمة، فسأسف إن لم تكن جيدة من حيث نوعها»، أضافت دورثيا هذه الكلمات الأخيرة وهي تبتسم.

قال ويل وهو يجلس بعيداً منها، ويراقبها وهي تغلق العلب: «يبدو أنك لا تهتمين بالأحجار الكريمة».

قالت دورثيا: «كلا، بصراحة إنني لا أعتبرها شأناً مهماً في الحياة».

«أخشى أن تكوني ضد الفن عمومًا. ماذا تقولين؟ توقعتك تستمتعين بكل أنواع الجمال».

قالت دورثيا ببساطة: «أظنني لا أستمتع بأي شيء. يجب علي أن أجعل الحياة جميلة – أعني حياة كل فرد – فما يؤلم الإنسان هو ذلك الفن الواسع الغزير الذي لا يؤثر في حياتنا، فإن ذلك يفسد استمتاعي بكل شيء، عندما أجد الجميع قد عزلوا أنفسهم عنه».

قال ويل بانفعال: «إنني أدعو ذلك بالتعصب العاطفي. يمكنك أن تقولي الشيء نفسه عن أي منظر طبيعي، أو مقطوعة شعر، أو كل ما هو جميل. إذا ظللت على هذا النحو ستشقين بطيبتك، ثم تتحولين إلى شريرة عندما تجدين نفسك عاجزة عن التأثير على الآخرين.

إن أفضل فضيلة تكتسبينها هي عندما تستمتعين - عندما تستطيعين. إنك تبذلين قصارى جهدك لتجعلي الأرض أفضل كوكب، فللمتعة إشعاعات. لا جدوى ترتجى إذا ما حاولت أن تعتني بالعالم، وعندما تشعرين بالبهجة والسرور لدى مشاهدتك للفن والجمال.. اعلمي أن العالم معتنى به كثيراً. هل ستحولين جميع شباب العالم إلى فرقة فنانين تؤدي مقطوعة مأسوية؟؟ أظن إيمانك بفضيلة التعاسة هو خطأ كبير، كما أنني أعتقد بأنك تريدين أن تضحي بحياتك كشهيدة». لقد ذهب ويل أبعد مما كان ينوي، فتنبه لذلك.

لكن دورثيا كانت تفكر بطريقة مختلفة، فأجابت دون أن ينتابها أي شعور خاص:«حقًا، إنك تخطئ في فهمي. إنني لست مخلوقة كئيبة، ولست دائماً حزينة، فإنني أغضب وأشاكس أي لست كسيليا.. إنني أحياناً أنفجر غضباً، ثم أهدأ ثانية. إنني دائماً أؤمن بأشياء عظيمة دون تفكير. فأنا أرغب في الاستمتاع بالفن هنا، لكن هناك أشياء كثيرة لا أجد لها تفسيراً... أشياء كثيرة تبدو لي عبارة عن تكريس للقبح عوضاً عن الجمال.. ربما تكون اللوحات والتماثيل المنحوتة رائعة الجمال، لكن إحساسي بها غالباً ما يكون متدني المستوى وقاسياً، وربما مشيناً أحياناً. إنني في بعض الأحيان أرى أشياء تبدو لي فاتنة الجمال - كشيء أقارنه بجمال الألب، أو كغروب الشمس عند هضبة بنشيان - ولكن ما يبعث الأسى والحزن هو وجود أشياء قليلة ذات شأن عظيم، وتعب عليها رجال عظام بين أشياء كثيرة لا قيمة لها».

«بالطبع، يوجد دائماً عدد كبير من الأعمال الرديئة، فالأشياء النادرة تحتاج إلى تربة خصبة تنمو فيها».

«آه، يا عزيزي... »، قالت دورثيا معتبرة هذه الفكرة معبرة عن قلقها الرئيسي الراهن: «أظن إنجاز الأشياء المتميزة دائماً صعب المنال. كنت أفكر طوال إقامتي في روما بأن حياة معظمنا ستكون أقبح من تلك اللوحات لو رسمت على الحائط». ثم فتحت دورثيا فمها وكأنها تريد أن تقول شيئاً ما، لكنها غيرت رأيها فتوقفت.

«إنك شابة يافعة، إن من المفارقة العجيبة أن تفكري بهذا النحو». قال ويل هذا بحماس، وقد هز رأسه كعادته: «إنك تتحدثين وكأنك لم تمري بمرحلة الشباب. إن ذلك شيء مريع، إذ إنك تبدين وكأنك رأيت في صغرك مثوى الأموات في الأساطير الإغريقية. لقد نشأت ضمن بعض تلك المفاهيم المروعة التي تختار المرأة لتلتهمها كميناطورز. والآن ستذهبين وتسجنين خلف الجدران في لُويك، أي ستدفنين حية. إنني أغدو متوحشاً مجرد أن أفكر في ذلك، تمنيت لو أنني لم أرك كي لا أفكر في هذا».

خشي ويل ثانية من أن يكون قد ذهب أبعد مما يجب، ولكن ما تعني كلماته يعتمد على مشاعره وكانت نبرة أساه الغاضبة تحمل مودة لقلب دورثيا الذي كان يتقد حماسة، ولم يتأثر بمن حولها، فشعرت بعرفان بالجميل وقالت مبتسمة: «إنه جميل منك أن تقلق علي. سبب ذلك لأنك لم تحب لُوِيك من قبل: لقد أحببت نوعاً آخر من الحياة، لكنني اخترت لُوِيك للعيش فيها».

قالت جملتها الأخيرة بإيقاع مهيب، ولم يعرف ويل ما يقول.. مادام احتضانه لحذائها، وقوله لها بأنه على استعداد للموت لأجلها، لن ينفعها بشيء. من الواضح أنها لم تكن في حاجة إلى شيء من هذا القبيل، ثم صمت للحظة أو اثنتين قبل أن تقول دورثيا ما كان يجول في خاطرها.

«أردت أن أسألك عن شيء ذكرته في المرة الماضية. ربما يكمن نصف أهميته في طريقة تحدثك المرحة. لاحظت أنك تقول الأشياء بعنف. إنني عادة ما أبالغ عندما أتكلم بسرعة».

قال ويل وقد لاحظ أنها تتحدث بحياء لم يعتده فيها من قبل: «ما ذلك الأمر؟ إن لساني يتسم بالغلو، فإنه يشتعل ناراً عندما يبدأ بالكلام. أعترف أنه يجب علي أن أتراجع».

«أعني ما قلته حول معرفة اللغة الألمانية – أعني المواضيع التي يعمل عليها السيد كزابون. كنت أفكر فيها، ويبدو لي أنه يجب أن تتوافر المواضيع أمام السيد كزابون، كما هي متوافرة أمام العلماء الألمان، أليس كذلك؟». لقد تأتى حياء دورثيا من وعيها الغامض للوضع الغريب، إذ سألت شخصاً ثالثاً حول دقة دراسة السيد كزابون.

«ليس المواضيع نفسها تماماً، فإنه ليس مستشرقاً، كما تعرفين! وهو لا يدعي بأن لديه أكثر من ترجمات للكتب».

قالت دورثيا بحيوية أكثر، وقد أجبرت على الحوار الذي كان يدور في خلدها: «يوجد كتب قيمة حول آثار العصور القديمة كتبها منذ زمن بعيد، علماء لم يعرفوا شيئاً عن الإبداعات الحديثة، لكنها لا تزال تستخدم. فلماذا لا يكون كتاب السيد كزابون قيماً وثميناً كتلك الكتب؟».

قال ويل محاولاً أن يرد عليها: «يعتمد ذلك على الموضوع الذي يقوم بدراسته، الموضوع الذي اختاره السيد كزابون متغير كالكيمياء. والاكتشافات الجديدة تولد آراء جديدة. فمن

يحتاج أن يقرأ عن النظام الذي يقوم على العناصر الأربعة؟ ألا تؤيدينني الرأي، إذا ما قلت بأنه لا فائدة الآن لو لاحقنا رجال القرن الماضي - رجالاً مثل برينت - ثم نصحح أخطاءهم، ونحن نعيش في حجرة من قش، ثم نريد أن نحيي نظريات جوس ومزريم الناقصة؟».

قالت دورثيا مع نظرة بين الحزن والغضب: «كيف يمكنك أن تتحدث باستخفاف هكذا؟! إذا كان الأمر كما تقول، فما الأمر الذي يبعث الحزن أكثر من عمل دؤوب ذهب سدى؟ أعجب لماذا لا يقع الأمر عليك أكثر إيلاماً، إذا ما كنت تعتقد حقًّا أن رجلاً كالسيد كزابون يمتلك عزيمة ومعرفة، فشل في عمله بعد أن قضى لأجله أفضل سني عمره». وبدأت تتفاجأ من نفسها إذ وصلت إلى مرحلة افتراضية كهذه، كما أنها بدأت تشعر بالسخط على ويل، إذ قادها إلى ذلك.

«لقد سألتني عن الحقيقة وليس عن المشاعر، ولكن إذا أردت أن تعاقبيني لأجل الحقيقة، فأنا أستسلم. لست في وضع يسمح لي بالتعبير عن مشاعري تجاه السيد كزابون: فلو فعلت ذلك فسيكون كمديح المتقاعد».

قالت دورثيا بعد أن احمرت: «أرجوك أعذرني، أنا أعلم كما تقول بأنني أخطأت، إذ أقحمت نفسي بالموضوع. حقًّا، إنني على خطأ تماماً. إن الفشل بعد المواظبة والمثابرة لهو أفضل من عدمه».

قال ويل محاولاً أن يغير الحالة التي كانا فيها: «إنني أوافقك الرأي تماماً، إلى حد أنني قررت أن أغامر بالرغم من الفشل. ربما كان كرم السيد كزابون معي خطراً، وإنني أنوي أن أتخلى عن الحرية التي منحني إياها ذلك الكرم. أعني أن أعود إلى إنجلترا قريباً وأعيش على طريقتي؛ أي أعتمد على نفسي فقط».

قالت دورثيا وقد استعادت لطفها: «هذا جميل، إنني أحترم هذا الشعور، أعتقد أن السيد كزابون لم يفكر إلا في مصلحتك».

قال ويل لنفسه: «عندها عناد وغرور يحلان محل الحب الآن وقد تزوجته». ثم قال وهو ينهض: «لن أراك ثانية».

قالت دورثيا بإلحاح: «أبقَ حتى يأتي السيد كزابون، إنني سعيدة إذ التقينا في روما. أردت التعرف عليك».

قال ويل: «وأنا أغضبتك، فجعلتك تسيئين الظن بي».

«بالطبع لا.. تقول لي أختي بأنني أغضب عندما لا يقول الناس ما أحب. لكنني أتمنى ألّا أسيء الظن بهم... في النهاية أجبر على أن أسيء الظن بنفسي لعدم صبري».

«لكنك لا تحبينني، فقد جعلت من نفسي مصدر إزعاج لك».

قالت دورثيا بلطف شديد: «ليس كذلك على الإطلاق. إنني أحبك كثيراً».

لم يكن ويل راضياً إذ كان يعتقد أنه كلما كان غير مرضٍ ازداد أهمية. لم يقل شيئاً لكنه بدا يائساً وعابساً.

تابعت دورثيا بمرح: «ويهمني أن أرى ما ستفعل. إنني أؤمن بشدة باختلاف طبيعة الأعمال. إذا لم يكن لدي هذا الإيمان لكنت ضيقة الأفق. هناك أشياء كثيرة أجهلها بالإضافة إلى الرسم. لن تصدق كم هو قليل ما تعلمته من الموسيقى والأدب اللذين تعرف عنهما الكثير. إنني أعجب ما العمل الذي ستختاره...؟؟ هل ستكون شاعراً؟».

«كي يكون الإنسان شاعراً لا بد له من أن يمتلك روحاً سريعة الإدراك، لا يفوتها التمييز بين الأشياء، ومرهفة الإحساس إلى حدّ يصبح التمييز لديها كي تلعب على أوتار العواطف... روحاً تنصهر فيها المعرفة لتتحول إلى أحاسيس، ثم تنبعث تلك الأحاسيس كمعرفة جديدة، يمكن أن يصل الإنسان بعد هذه المرحلة بعد انفجار عاطفي فقط».

«ولكنك لا تتحدث عن القصائد، أظنها ضرورية لأجل كمال الشاعر. إنني أفهم ما تقول عن المعرفة عندما تتحول إلى عواطف لأن ذلك ينطبق تماماً على ما مررت به من تجربة. لكنني متأكدة من أنني لن أنجز قصيدة في حياتي».

«إنك قصيدة - وذلك أفضل ما في الشاعر - وهي كذلك أفضل ما يبعث الإيحاء لدى الشاعر في أحسن حالته الشعرية». قال ذلك ويل وقد بدا عليه ابتهاج يشبه الابتهاج الذي يبدو علينا في كل صباح، وفي أوقات الربيع.

«يسعدني سماع ذلك»، ثم قالت دورثيا وقد تلفظت بكلماتها، وهي تضحك كما تفعل الطيور، كما بدا امتنان لعوب بعينيها وهي تنظر إلى ويل: «كم كنت لطيفاً معي!».

قال ويل ذلك بحماس: «أتمنى أن أفعل ما تسمينه لطفاً - أخشى ألّا تسنح لي الفرصة

كي أقدم لك أي خدمة».

قالت دورثيا بود: «نعم، سيأتي الوقت عندما أتذكر كم تمنيت لي السعادة. تمنيت لو نصبح أصدقاء عندما شاهدتك أول مرة... بسبب علاقتك بالسيد كزابون». بدا الدمع في عينيها وكذلك في عيني ويل. ولو كان لأي شيء يفسد تلك المشاعر المتأججة في تلك اللحظة لكان ذكر السيد كزابون كافياً لذلك.

قالت دورثيا: «يوجد شيء واحد الآن يمكنك فعله»، ثم تابعت بعد أن نهضت وبدأت تمشي في الغرفة: «أريد منك أن تعدني بأنك لن تحدث أحدًا بذلك الموضوع.. أعني بما يتعلق بكتابات السيد كزابون. لقد كنت أنا أول من بدأ بالحديث. لقد كان خطئي، عدني...!»

عندما أنهت كلامها كانت قد عادت من مشيتها في الغرفة، ووقفت أمام ويل بوقار.

قال ويل وهو يحمر: «إنني أعدك بالتأكيد»، إذا كان لن يتفوه بأيّ كلمة جارحة بحق السيد كزابون، ويرفض أن يتلقى أي مساعدة منه، لكان ممكناً له أن يكرهه أكثر.

يقول غوته: «يجب على الشاعر أن يعرف كيف يكره». وكانت تلك النزعة تتوافر لدى ويل. قال: يجب عليه أن يذهب الآن دون أن ينتظر السيد كزابون، إذ سيعود ثانية ليودعه. مدت دورثيا يدها وتبادلا تحية بسيطة. ولكن عند رواق العربات قابل السيد كزابون الذي عبر عن أفضل أمنياته كحفيد خالته، حياه مودعاً دون أن يترك المجال لعودته في اليوم التالي، حيث سيكون يوماً مليئاً بالتحضيرات لأجل السفر.

قالت دورثيا لزوجها: «أريد أن أقول لك شيئاً حول حفيد خالتنا لادسلو، سيزيد إعجابك به». لقد ذكرت فور دخوله بأن ويل قد غادر للتو، وسوف يعود ثانية، لكن السيد كزابون قال: «لقد قابلته في الخارج وودعنا بعضنا». قال ذلك بطريقة نستخدمها عندما لا يثير فينا أي موضوع أيّ رغبة في التعليق عليه. لذلك انتظرت دورثيا. «ما هذا يا حبيبتي؟» قال السيد كزابون، إذ كان دائماً يقول يا حبيبتي ولو كان في أكثر حالته جفاءً.

قالت دورثيا وهي تنظر بترقب إلى وجه زوجها الحيادي: «لقد قرر التوقف عن التنقل مباشرة، كما أنه قرر التخلي عن كرمك له، كان يعني أنه سيعود ثانية إلى إنجلترا مباشرة، ويقوم بالعمل الذي يختاره. ظننتك تعتبر ذلك مؤشراً جيداً».

«هل ذكر نوع العمل الذي ينوي القيام به؟».

«كلا ولكنه تحدث عن الخطر الذي سيواجهه إذا استمر بتلقي المساعدات منك. بالطبع سيكتب لك حول ذلك. هل تظن به خيراً بسبب قراراته؟».

قال السيد كزابون: «سأنتظر رسالته».

قالت دورثيا، وهي تضع يدها على يد زوجها: «لقد قلت له بأنني متأكدة من أن كل ما فعلته له يصب في مصلحته. تذكرت طيبتك في ما قلت عنه، عندما رأيته لأول مرة في لُويِك».

قال السيد كزابون وهو يضع يده الأخرى على يد دورثيا، ليعبر عن قبوله لملاطفتها له وفقاً لما يمليه عليه ضميره، لكن نظرته لها كانت تعبر عن ارتباكه: «لقد كان علي واجب تجاهه».

«أعترف بأن أمر الشاب لا يهمني، وأظن أننا لا نحتاج إلى أن نناقش مستقبله، فليس من شأننا أن نقرر متجاوزين الحدود التي ذكرتها آنفاً». لن تذكر دورثيا ويل ثانية.

الكتاب الثالث

انتظار الموت

الفصل الثالث والعشرون

قال: إن جيادك من الشمس... وسوطك سوط أبولو البديع...

مهما يكونون إما أن أهزمهم أو أقطع رأسي.

كما رأينا، كان يشغل بال فْرِد فنسي... دَين، وعلى الرغم من أنه لا يوجد عبء يثقل قلب هذا الشاب المرح لساعات طويلة، فإنه كانت هناك ظروف تحيط بهذا الدَّين فتجعله مثيراً للإزعاج والقلق. كان الدائن السيد بامبردج تاجر جياد للمناطق المجاورة. وكان يقصد رفقته شباب مدل مارش الذين عرفوا بإدمانهم على المتع والمرح. كان يقصده فرد في عطله من أجل متعه ذات التكلفة التي تفوق قدرته المالية، لكن السيد بامبردج كان مجاملاً جدًّا، وكان يثق به عندما يستأجر الجياد ويعده بسداد التكلفة إذا ما أصيب أحدها وإلى حدّ أنه يقدم له بعض المبالغ ليعوض خسارته في لعب البليارد. كان الدين يبلغ مئة وستين جنيهاً. لم يكن بامبردج قلقاً حول نقوده لأنه كان متأكدًا من أن له مناصرين، لكنه طلب دليلاً على ذلك فقد أعطاه فرد في البداية صكًّا للسداد يحمل توقيعه ثم بعد ثلاثة أشهر جدد هذا الصك بآخر يحمل توقيع كيلب جارث. في كلتا المناسبتين شعر فرد بالثقة أنه سيسدد ذلك الدين لوفرة المصادر المالية التي يمكن أن يركن إليها في مخيلته.

من الصعب أن يعتبر وجود واقع حقيقي لثقته المفترضة هذه، ولا سيما أن مثل هذه الثقة ليست واقعية... إنها ميل مريح يجعلنا نؤمن بأن الحكمة الإلهية، أو حماقة أصدقائنا، أو أحد ألغاز حظوظنا، أو ثقتنا بمكانتنا العظيمة بين الناس، يمكن أن تأتي بحلول تتلاءم مع ذوقنا في اختيارنا للملابس وتفضيلنا لأجمل الأشياء. كان فْرِد متأكداً من أنه سيتلقى هدية من زوج خالته، أو يحالفه الحظ في اللعب، أو أن يستبدل بجياد جياداً أخرى فيحقق ربحاً من خلال فروقات أسعارها... هي أفكار يمكن أن تجلب له بعضاً الربح.

وفي جميع الظروف حتى عندما يفترض بأنه لن يحالفه الحظ بأي من افتراضاته الخيالية، كان هناك في ذلك الوقت جيب أبيه كملجأ أخير له، لتغدو أسهم آماله غزيرة

الوفرة. كانت معرفة فرد بإمكانية أبيه غامضة، أليست التجارة مطاطة؟ أولاً تعوض خسارة سنة أرباح أخرى؟ كانت تعيش عائلة فنسي حياة تبذير دون أي تفاخر ومباهاة، ولكن بموجب عادات الأسرة وتقاليدها، لم يكن الأطفال يعرفون للمال قيمة وظل الكبار يحتفظون بمفهومهم حين كانوا صغاراً يمكن أن يجلب لهم أي شيء إذا أرادوا. كان لدى السيد فنسي عادات مكلفة جدًّا فكان ينفق المال الكثير على الصيد ومؤونة خمره وعلى مأدبة العشاء، وكان للأم حسابات مفتوحة مع تجار البلدة مما أعطى شعوراً مبهجاً وممتعاً بأنه يمكن للعائلة أن تحصل على كل شيء دون أن تشعر بالتكلفة.

ولكن عرف فرد أن من طبيعة الآباء أن يضيقوا على أبنائهم في المصروف. وكان يواجه بعاصفة كلما صرح بدين، كما أنه كان يكره المناخ المتوتر في البيت. كان ابناً أبر من أن يعصي أباه، فكان يحتمل ثورة أبيه لأنه كان متأكدًا من أنها عابرة، ولكن في الوقت نفسه كان يزعجه أن يرى أمه تبكي وأن يبدو عابساً بدلاً من أن يكون مرحاً؛ فقد كان طبعه لطيفاً جدًّا إلى حدّ أنه عندما يبدو متجهماً لدى توبيخه كان يفعل ذلك بدرجة رئيسية تماشياً مع الظرف. أسهل طريق له كان أن يستبدل بالصك صكًّا آخر يحمل توقيع أحد أصدقائه. لم لا؟ مع فيض آماله التي لا حد لها، لا يوجد سبب يمنعه من الاتكاء على الآخرين، ولكن غالباً ما كان أصحاب السمعة الطيبة يائسين من أن يسعف الحظ شاباً مقبولاً.

عندما نكون في حاجة إلى معروف ما، فإننا نستعرض قائمة أصدقائنا، ونعطي ودهم حق قدره، وننسى إساءتهم البسيطة ونرى في كل منهم رغبة في مساعدتنا وإسعادنا. ويبقى هناك عدد مستبعد لأن رغبتهم في المساعدة ليست شديدة، ولا يلجأ إليهم حتى يرفض الآخرون تقديم المساعدة.

فقد استبعد فرد جميع أصدقائه إلا واحداً، لأنه اعتبر اللجوء إليهم غير لائق، ولا سيما أنه كان مقتنعاً ضمناً بأن له الحق في ألّا يلجأ إلى أي وسيلة غير لائقة، كما أنه كان يعتبر وقوعه في أي وضع حرج، لا يبعث في نفسه السرور، حالة من العبث تتناقض مع حدسه البهيج الذي زرعته فيه الطبيعة... إذ كانت مثل هذه الأوضاع تسبب له حرجاً بليغاً (كارتدائه بنطالاً قصر بعد غسله، أو تناوله لحماً بارداً أو عدم امتلاكه حصاناً). وكان فرد ينتفض لمجرد التفكير في أن الناس سينظرون إليه نظرة دونية عندما يطلب بعض النقود ليسد دينه. هكذا كان الصديق الذي اختاره ليلجأ إليه فقيراً وطيباً جدًّا اسمه كيلب جارث. كانت عائلة جارث تكنّ الحب لفرد كما أنه يبادلها بالمثل، فحين كان وأخته روزموند صغيرين

كانت عائلة جارث في وضع أفضل، فالصلة البعيدة التي ربطت العائلتين من خلال زواج فيذرستون من شقيقة السيد جارث أولاً، ثم من شقيقة السيدة فنسي، أدى الى صلة تعارف متينة بين الأطفال أكثر منها بين الكبار... كان الأطفال يشربون الشاي سوية بأقداحهم التي كانت على شكل ألعاب كما كانوا يقضون أيامهم سوية. كانت ماري طفلة عابثة وحين كان فرد في السادسة من عمره اعتبرها أفضل فتاة في العالم، فكان يجعل منها زوجة له عندما يلبسها خاتماً من حديد اقتطعه من مظلته المكسورة. احتفظ بحبه لعائلة جارث وبعادته في زيارة منزلهم الذي كان يعتبره منزله الثاني طوال مراحل دراسته، على الرغم من أن التعامل بين الأسرتين كان قد توقف منذ زمن بعيد حتى حين كان كيلب جارث ثريًّا كان السيد والسيدة فنسي يعاملانه وزوجته بفوقية لأنه كان يوجد تمييز طبقي في مدل مارش. وعلى الرغم من أن مالكي المصانع القدماء لم يكونوا يتعاملون إلا مع من هم من طبقتهم شأنهم في ذلك شأن من كان دوقاً، فإنهم كانوا يشعرون بفوقية اجتماعية متجذرة فيهم كانت تظهر بأناقة في تصرفاتهم. وبعد أن فشل السيد جارث في عمل بناء البيوت الذي قام به لأجل وكلائه وألحقه بأعماله السابقة؛ مساح وسمسار ومقيّم للأراضي والبيوت، قلص جميع نفقاته ليسد دينه. لقد حققت له جهوده المشرفة قدراً عظيماً، لأنها كانت سابقة لا مثيل لها. ولكن لا يمكن للتقدير وحده في أي مكان من العالم أن يجعل من مقلد الأغنياء من الطبقة الراقية أن يمتلك أثاثاً فاخراً أو يقيم حفلات العشاء. لم تشعر السيدة فنسي بالارتياح ولا السرور مرة مع السيدة جارث، كما أنها كانت تقول بأنها يجب أن تعمل كي تعيش... قاصدة بأن السيدة جارث كانت تعمل معلمة قبل زواجها، أما في ما يتصل بعلاقتها بالكاتب ليندلي موراي وكتاب «أسئلة مانجنل» فهي تشبه نظرة تجار القماش والألبسة إلى الأقمشة القطنية، ومعرفة ساعي البريد بالأماكن الغريبة عليه، فلا يوجد امرأة غنية تحتاج مثل هذه الأشياء.

منذ أن أصبحت ماري تعمل في منزل السيد فيذرستون، تأججت كراهية السيدة فنسي لعائلة جارث. ولا سيما أنها كانت تخشى أن يرتبط ابنها بالفتاة ماري، التي كان أبواها يعيشان ببساطة، ولأن فرد كان يعي هذه الحقيقة لم يذكر أي شيء عن زياراته إلى السيدة جارث، والتي تكررت في المدة الأخيرة، فإن انقاد مشاعره تجاه ماري جعلته يميل تجاه أقاربها.

ذهب فرد يحمل طلبه إلى مكتب السيد جارث في البلدة. لقد حقق السيد جارث طلبه بسهولة، وبدون تردد، فعلى الرغم من تجربة السيد المؤلمة، فإنها لم تجعله حريصاً في ما

يتعلق بشؤونه الخاصة، وكذلك لم تفقده أصدقاءه حتى عندما يثبتون جدارتهم. لقد كان يحسن الظن بفرد، فكان يقول لنفسه: «إنني متأكد من أن الشاب واضح وعاطفي، ويحمل في ثنايا شخصيته طباعاً طيبة، فيمكنك الوثوق به في جميع الأمور». هكذا كان حوار كيلب النفسي. لقد كان أحد الرجال النوادر الذين يقسون على أنفسهم ويحسنون لغيرهم. كان يصيبه الخجل من جراء أخطاء جيرانه، ولم يكن يتفوه بها لأنه لم يشأ أن يشغل فكره بتصورات مسبقة لمثل هذه الأخطاء. وإذا أراد أن يلوم أحداً، كان يحتاج إلى تقليب أوراقه التي في متناول يده ليشرح عدة رسوم بيانية مستعيناً بعصا، أو أن يعد النقود في جيبه قبل أن يبدأ بعملية اللوم. كما كان يفضل إنجاز أعمال الآخرين على أن يكتشف أخطاءهم. إنه نظامي وانضباطي سلبي. عندما شرح فرد ظروف ديونه ورغبته بسدادها دون أن يسبب إزعاجًا لأبيه، وتأكده من أن النقود ستأتي وأنه لن يسبب الإحراج لأحد، أرجع كيلب نظارته إلى الخلف واستمع إليه وهو يمعن النظر بعيني الشاب البراقتين فصدقه دون أن يميز بين المستقبل وحقيقة الماضي؛ لكنه اغتنم الفرصة ليشير بود إلى كيفية التصرف والسلوك. وليعطي تحذيراً قويًّا قبل أن يعطي توقيعه. أخذ كيلب الورقة وأنزل نظارته قليلاً، ثم قام بقياس الفراغ الذي يحتاجه وأمسك بقلمه فتفحصه، ثم غمسه في المحبرة ونظر إليه ثانية ثم أبعد الورقة قليلاً عنه ورفع نظارته ليبدي امتعاضاً (اعذروني لمثل هذه التفصيلات - كنتم ستحبونها لو عرفتم كيلب جارث) ثم قال بهدوء: «لقد كان سوء حظك أن تكسر رجل الحصان أليس ذلك؟ ثم تلك المبادلات لا تخدمك عندما تتعامل مع فارس حاد الذهن، يجب أن تكون حكيماً أكثر في المرات القادمة يا ولدي».

ثم أنزل كيلب نظارته قليلاً وبدأ يخط إمضاءه بالطريقة التي اعتاد عليها، لأنه اعتاد أن يحسن صنيع ما يقوم به. تأمل الأحرف الكبيرة والمتناسقة ثم أمال رأسه قليلاً، وبعد ذلك أعطاها إلى فرد، ثم قال وداعاً.. وتابع تدقيقه لمخططات مزرعة السير جيمس جتم؛ إما لأن كيلب كان منشغلاً بتلك المخططات مما أنساه ذاك التوقيع، أو لغاية يخفيها لنفسه فلم يشأ أن يبوح بذلك الأمر إذ ظلت السيدة جارث تجهل ذلك.

منذ ذلك اليوم... بدأت ظروف فرد تتغير، مما جعله يغير نظرته إلى الحياة، فكانت للمئة جنيه التي أعطاه إياها زوج خالته فيذرستون تأثير في نفسه يجعله يتلون كلما تذكر ذلك.

كان رسوبه في الكلية قد جعل أباه غير متساهل معه في شأن ديونه المتراكمة فوقعت

عاصفة غضب غير متوقعة في المنزل، حيث أقسم السيد فنسي إنه إذا ما ترتب عليه شيء آخر من هذا النوع، فلسوف يجبر فرد على ترك المنزل ويحصّل عيشه كما يشاء. ولم يلاطف ابنه ثانية لأنه أغضبه جدًّا عندما قال: إنه لا يرغب في أن يكون رجل دين. لذلك... لا يفضل أن يتابع دراسته. كان فرد يعي أن أسرته كانت ستعامله بقسوة أكثر لو لم يعتبر نفسه -وكذلك أسرته - وريث السيد فيذرستون، هكذا جلب لفرد تباهي وولع الرجل العجوز به، تماماً عندما يسرق شاب نبيل بعض المجوهرات، فنسمي تلك الجريمة بهوس السرقة، فنتحدث عنها بطريقة فلسفية ونحن نبتسم، دون أن يخطر في بالنا أن نرسله إلى دار الإصلاحية ليعامل كابن مهمل اعتاد على سرقة اللفت. حقًّا.. لقد حقق المفهوم الضمني لدى أهل مدل مارش بما سيقدمه السيد فيذرستون بطريقة تعامله معه، كما كان يفكر دائماً في ما يمكن أن يفعله زوج خالته السيد فيذرستون في الحالات الاضطرارية، أو في حالات الحظ المحدودة، إذ كانت هذه أفكاراً خيالية ولا حدود لها، لكن تلقيه لتلك الأوراق النقدية كان حقيقة ملموسة ولو قورنت بدينه لظهر عجز وجب على فرد سده من خلال رحمة إلهية تنزل عليه، أو ضربة حظ تحالفه، لأنه طلب مسبقاً من أبيه كي يحضر له رسالة براءة من دين صغير اتهم به... و لم يستطع أن يطلب منه سداد ذلك الدين فعليًّا. لقد كان لدى فرد من الذكاء ما يكفيه ليتنبأ بأن الغضب يمكن أن يلغي التمييز، وإنكاره لتلقيه وصية زوج خالته سيؤخذ على أنه باطل. لقد ذهب إلى أبيه، وأخبره بشأن مضايقاته دون أن يخبره بالأمر الآخر.. فبمثل هذه الحالات دائماً تفرز الصراحة الكاملة انطباعاً بوجود نفاق مسبق.. تعهد فرد على نفسه ألا يكذب، ولا سيما أنه كان يبدي امتعاضاً لما يسميه بكذب روزموند... إذ لا يمكن لأحد سوى الإخوة أن يفكروا على هذا النحو في الفتيات اللطيفات. وبدلاً من أن يجلب التهم الزائفة لنفسه بدأ يجر إليها المشاكل أو يستعين بضبط النفس المزعج. لقد اتخذ فرد خطوته الحكيمة في ظلّ الضغط النفسي الشديد الذي عاشه عندما أودع أمه الثمانين جنيهاً. لقد كان من المؤسف أنه لم يدفعها مباشرة للسيد جارث، لكنه أراد أن يضيف عليها ستين جنيهاً، لذلك أبقى عشرين جنيهاً في جيبه لتكون كبذور الذرة، يزرعها بتقديراته ويسقيها من حظه لتنتج له أكثر من ثلاثة أضعافها، إنها مضاعفة سيئة خصوصًا عند من يملك روح شاب نبيل لا حدود لها وتكون جميع الأرقام في متناول الذهن واليد. لم يكن فرد مقامراً إذ لم يكن يعاني من مثل هذا المرض عندما يكون التوتر النفسي وقت الربح أو الخسارة ضرورياً كجرعة خمر بالنسبة إلى مدمن الخمر، إلا أنه يمتلك نزعة وميلاً إلى لعب القمار لأوقات قليلة فقط دون أن يدمن عليه كما يدمن بعضهم على الكحول، ولكن متابعة

مزاولة لعب القمار بطريقة صحية وسليمة، يصحبها خيال خصب يصنع الأحداث بحسب الرغبات. يكون الأمل ممتعاً عندما يقدم الانسان على فعل أي شيء لأن النجاح مؤكد فتزداد المتعة كلما ازداد عدد المساهمين في اللعبة. أحب فرد اللعب خصوصًا لعبة البليارد كحبه للصيد وسباق الخيل عبر الحقول، ولقد أحبها أكثر من سائر الألعاب فقط من أجل المال والأمل في الربح، إلا أنه خسر العشرين جنيهاً ووجد نفسه على أبواب موعد سداد دينه دون أن يكون لديه نقود سوى الثمانين جنيهاً التي أودعها مع أمه. لقد كان الحصان المصاب بالربو هدية قدمها زوج خالته السيد فيذرستون.

سمح له أبوه أن يقتني على الدوام لنفسه حصاناً إذ كانت من تقاليد السيد فنسي أن يعتبر هذا الأمر حاجة منطقية حتى ولو كان الابن مضايقاً ومزعجاً. فلما كانت ملكية هذا الحصان لفرد ليسد دينه... قرر أن يضحي بهذه الملكية التي بدونها تغدو الحياة رخيصة، اتخذ قراره بروح إقدام وتصميم بطوليين... بطولة فرضها عليه خوفه من أن ينقض عهده مع السيد جارث، وحبه لماري وخشيته مما ستقول عنه. سيذهب إلى سوق الخيل في هاونزلي في الصباح التالي حيث يبيع حصانه ببساطة، ويعود حاملاً نقوده بعربة أجرة. وعلى الرغم من أنه سيبيع الحصان بأكثر من ثلاثين جنيهاً فإنه لا يعلم ما قد يحصل هناك، إذ يمكن من التفاهة أن يضيع نفسه بضربة حظ احتمال كسبها فقط واحد في المئة. وكلما فكر في الأمر أكثر وجد فرصة أمله تضيق، وتردد أكثر في تنفيذ المغامرة. سينطلق بصحبة بامبردج والطبيب البيطري هوروك، إذ سيستفيد من آرائهما دون أن يسألهما عن الأمر بشكل مباشر، وقبل أن ينطلق أخذ فرد الثمانين جنيهاً من أمه.

معظم الذين رأوا فرد يغادر البلدة بصحبة بامبردج وهوروك بالطبع وهو في طريقه إلى سوق الخيل الموسمي في هاونزلي، ظنوا أن السيد فنسي الشاب كان يقصد بعض المتع، ولو لم يكن يعي أن أمامه شؤوناً خطيرة لانغمس في المتع. إذا ما اعتبرنا فرد بأنه ليس قاسياً ولا فظ الطباع، وبأنه ينظر بازدراء إلى حديث أولئك الذين لم يدرسوا في الجامعة، وبأنه كتب قصائد شعر تصور حياة الريف وغير مبهجة للحواس وبأنه يعزف على آلة الفلوت... لكان انجذابه إلى بامبردج وهوروك حقيقة غريبة، حتى لا يمكن أن يكون لحب الخيول ذلك التأثير العجيب للتسمية الذي يحدد قدر الإنسان. لو لم يسموا صداقتهم بالسعي وراء المتع لما اعتبرها أحد إلا صداقة رتيبة ومملة. إن وصولهم إلى هاونزلي في مساء ماطر، ونزولهم في ريد ليون الذي يقع في شارع يغطيه رماد الفحم، وتناولهم العشاء في غرفة تحتوي على

خريطة وسخة للبلاد وصورة هزيلة لحصان في إسطبل، وكذلك صورة الملك جورج الرابع ومباصق مصنوعة من الرصاص، كان من الممكن أن يدعو إلى الظن بأن العمل يبدو شاقًا لو لم يكن هدفه المرح.

كان لدى السيد هوروك غموض واضح يثير خيال الآخرين وتصوراتهم، ولباسه يعطي انطباعًا بتعامله مع الخيول.. إذ كان يرتدي قبعته رافعاً مقدمتها لتظهر وجهه الذي منحته إياه الطبيعة بعينين مغوليتين وتقاطيع بارزة، ترتسم عليه ابتسامة استبدادية لا تتغير وتبدو استبدادية عندما تظهر أمام صاحب فكر شديد الحساسية، يبدو وكأنه يعلم كل شيء وهو يمتلك مزاجاً أجف من أن ينساب وربما أكثر صلابة من أن يطوى، كما يمتلك القدرة على إطلاق الأحكام النقدية التي لو عرفتها لقيمتها أفضل شيء في الكون. إننا نرى مثل هذه التقاطيع في كل المهن ولكن ربما لا يكون لها تأثير على جميع شباب إنجلترا بقدر ما تظهر مؤثرة عند مقيّم الخيول.

عندما طرح فرد على السيد هوروك سؤالاً حول خصلة الشعر التي على قدم حصانه استدار وهو يجلس على سرج حصانه، وراقب حركة حصان فرد لثلاث دقائق، ثم استدار إلى الأمام وحرك لجام حصانه وظل صامتاً دون أن يظهر على وجهه أي تغير يذكر.

ما قام به السيد هوروك من حركات، كان له تأثير كبير على حديثهما إذ تأججت مشاعر مختلطة لدى فرد... رغبة جنونية لإجبار هوروك بأن ينطق بما يفكر فيه يقيدها قلق حول صداقتهما. دائماً كانت هناك فرصة لهوروك كي يقول شيئاً ثميناً جدًا في اللحظة المناسبة.

كان السيد بامبردج أكثر صراحة وكان يلقي بآرائه من دون حساب. كان صوته مرتفعاً ونشيطاً، وفي بعض الأوقات قيل عنه بأنه يشبع رغباته بشكل رئيسي كإطلاق الشتائم وشرب الخمر وضربه لزوجته. بعض الذين خسروا معه كانوا يدعونه برجل فاسد أخلاقيًا، لكنه كان يعتبر تجارة الخيول أفضل مهنة وربما حاورهم على نحو معقول بأن لا شأن لها بالأخلاق. لقد كان دون أدنى شك رجلاً ثريًا يتحمل شرب الخمر أكثر مما يتحمله الآخرون ثم يتبجح شامخاً كشجرة الغار. إلا أن حواراته كانت محدودة تشبه اللحم القديد مع خمر البراندي الذي يجعلك تشعر بأنه يمكن أن يدخل الدوار للنفوس الضعيفة.

لو حضر السيد بامبردج بعض التجمعات في مدل مارش لمرات قليلة لأضفى عليها

نوعاً من البهجة والسرور. ولقد كان شخصاً مميزاً في الحانة وفي غرفة البليارد في جرين درجون. لقد عرف بعض النكات حول أبطال حلبة سباق الخيل، والعديد من الخدع الذكية التي يقوم بها من رتبة المركيز والفيكونت، والتي أثبتت بأن الدم سبب التفوق حتى لو كان صاحبه رجلاً مقامراً محترفاً، لكن ذاكرته الدقيقة مكنته من أن يتذكر جميع التفاصيل التي تتعلق بكل حصان اشتراه أو باعه. وحتى بعد بضع سنوات فإنه يظل يذكر مؤكداً عدد الأميال التي يمكن أن يقطعها كل حصان ويقسم للذين يستمعون إليه بأنهم لم يشاهدوا شيئاً مثله. باختصار كان السيد بامبردج رجلاً يبعث المتعة والسرور.

لقد كان فرِد ماكراً... فهو لم يخبر صديقيه بأنه ذاهب إلى هاونزلي ليبيع حصانه. كان يرغب في الحصول على تقييم حقيقي لحصانه، لكنه لم يعرف أنه لن يكون في مقدوره الحصول على تقييم صريح من مثل هؤلاء المقيمين اللامعين. لم يكن إطراء السيد بامبردج نقطة ضعف فيه، ولم تدهشه من قبل حقيقة هذا الحصان الكثير الصهيل إلى حدّ تكون الكلمة الأكثر تعبيراً عن الهلاك لتصفه بها.

«لقد أخطأت عندما استبدلت حصانك عند الآخرين دون أن تستشيرني يا فنسي...! إنك لم تمتط بحياتك حصاناً أفضل من ذلك الحصان الكستنائي ولقد استبدلت به هذه البهيمة...!! ولو أسرعت به يصبح صوته كالصوت الذي ينبعث من عشرين ناشراً للخشب.. لم أسمع في حياتي مثل هذا الحصان إلا مرة، وكان فرساً أغبر كان يملكه بيجويل صاحب معمل الذرة، وكان يستخدمه لقيادة عربته منذ سبع سنوات وأراد مني أن أشتريه، لكنني قلت له: شكراً يا بيج إنني لا أتعامل بآلات النفخ الموسيقية. كان ذلك ما قلته له. لقد انتشرت نكتتي في جميع أنحاء البلاد ولكن ما الفائدة؟ كان ذلك الحصان كزمارة بلاستيكية إذا ما قورن بحصانك هذا».

قال فرد منفعلاً أكثر من عادته: «لماذا...؟ لقد قلت الآن إن حصانه أسوأ من حصاني...!».

قال السيد بامبردج مؤكداً: «إذاً...!! لقد كنت أكذب...!!! ليس بينهما ما يستحق بنساً واحداً».

همز فرد حصانه فجرى قليلاً، وعندما هدأ ثانية قال السيد بامبردج، «كلا... ولكن كان جري الحصان الأغبر أفضل من جري حصانك...!!».

«لكنني راض عن سرعة جريه»، هذا ما قاله فرد الذي كان في حاجة إلى رفيقيه ليدعماه. «إنني أقول بأن جريه لا غبار عليه أليس كذلك ياهوروك؟».

نظر هوروك أمامه وكأنه يظهر في لوحة رسمها فنان بارع. فقد فرد الأمل بالحصول على رأي صادق، ووجد انتقاص بامبردج وصمت هوروك مشجعين، ويدلان على أنهما يعتقدان أن الحصان أثمن مما قالا. في المساء نفسه وقبل أن ينتهي السوق الموسمي، وجد فرد فرصة كي يتخلص من حصانه مقابل، جعله يهنئ نفسه على بصيرته، إذ أحضر ثمانين جنيهاً. حضر مزارع شاب يعرف السيد بامبردج من ريد ليون ودخل في نقاش حول بيعه لحصان صيد قدمه باسم دايموند، موضحاً بأنه كان معروفاً لدى الجميع؛ إذ إنه كان سيتزوج وينوي الإقلاع عن الصيد وكان في حاجة إلى حصان أجرة ليجر عربته في المناسبات. كان حصان الصيد في إسطبل أحد الأصدقاء في مكان ليس بالبعيد وكان لا يزال هناك وقت ليراه الرجال قبل أن يحل الظلام كي يصلوا إلى إسطبل ذلك الصديق، كان عليهم أن يمروا عبر طريق خلفي يمكن لعابره أن يتسمم دون أن يتناول السم، فهو يشبه أي طريق قذر في تلك الحقبة غير الصحية. لم يحصن فرد نفسه من تأثير القاذورات بشربه للبراندي كما فعل الآخرون، لكن أمله برؤيته للحصان الذي يمكنه من تحقيق بعض الربح كان يشجعه ليمر بالطريق نفسه في صباح اليوم التالي. لقد كان متأكداً من أنه إذا لم يحصل على الحصان بشكل جيد، سيحصل عليه بامبردج. فقد شعر فرد بأن ضغوط الأحداث كانت تشحذ ذكاءه وتعطيه طاقة لا حدود لها. انتقد بامبردج من شأن حصان دايموند بطريقة ما كان يفعلها لو لم يفكر فرد في شرائه لأن الحصان كان يملكه صديق له. مع أن كل من رأى الحصان كان يذهل لرؤية مزاياه. كي تغتنم جميع الفرص التي توفرها صحبتك لمثل هؤلاء الرجال عليك أن تعرف كيف تستخدم قدرتك على الاستدلال ولا تأخذ الأشياء كما هي عليه. كان لون الحصان رماديًّا أرقش، وحصل أن عرف فرد بأن أحد الرجال اللورد مدلي كوت يبحث عن مثل هذا الحصان. بعد كل هذه الانتقاصات صرح بامبردج في المساء، وحين لم يكن المزارع حاضراً، أنه رأى خيلاً أقل شأناً من هذا الحصان تباع بثمانين جنيهاً. بالطبع لقد ناقض نفسه أكثر من عشرين مرة ولكن من المرجح عندما تعرف ما هو حقيقي يمكنك أن تفحص اعترافات من هو في مقابلك. لقد تبين فرد أن حكمه على الخيول ليس سيئاً، تأمل المزارع حصان فرد وبالإضافة إليه قرر أن يأخذ خمسة وعشرين جنيهاً مقابل حصانه. عندما ذهب فرد راكباً حصانه الجديد الذي يستحق ثمانين على الأقل، وفي جيبه خمسة وخمسون جنيهًا سيصبح لديه مئة وخمسة وثلاثون جنيهاً ليسد بها القسم الأكبر من دينه ولا يبقى

غير خمسة وعشرين جنيهاً تلقى على عاتق السيد جارث.

حين كان يرتدي ثيابه في الصباح رأى عدم تفويت هذه الفرصة عليه، أي إنه لو نصحه كل من بامبردج وهوروك بالعدول عن الذهاب لما وقع في شرك أهدافهما ولعرف أنهما يخبئان شيئاً آخر ليس في مصلحته. في ما يتعلق بالخيول يصبح عدم الثقة طريقك الوحيد. ولكن لا يمكن للشك أن يوظف وإلا لتوقفت الحياة. يجب علينا أن نفعل الشيء الذي نعتقد به، ومهما كانت تسميته بأنه نتيجة لحكمنا على الأشياء، وحتى لو اعتمد حكمنا هذا اعتماداً حقيراً على أحكام غيرنا. وثق فرد بنجاح صفقته وحتى قبل أن يبدأ السوق الموسمي للخيول نجح بالحصول على الحصان الرمادي الأرقش مقابل حصانه بالإضافة إلى ثلاثين جنيهاً؛ فقط أكثر بخمسة جنيهات مما توقع. لكنه شعر بتعب وقلق بسيطين ربما نتيجة لحوار داخلي. ودون أن ينتظر إقامة الاحتفالات بالسوق الموسمي، انطلق في رحلته التي تبلغ أربعة عشر ميلاً قاصداً أن يقطعها بهدوء ويبقي حصانه مرتاحاً.

الفصل الرابع والعشرون

لا يجلب أسف الآثم إلا القليل من الارتياح لمن وقع عليه أذاه.

من قصائد شكسبير

إنني آسف أن أقول بأنه فقط بعد ثلاثة أيام من الأحداث المشجعة التي حصلت لفرد في هاونزلي... وقع في ضنك شديد لم يعهده في حياته من قبل. لم يكن ذلك لخيبة أمله في ثمن الحصان الذي اشتراه، بل لأنه قبل أن تتم الصفقة مع أحد رجال اللورد مدلي كوت بدأ الحصان دايموند الركل بشكل مفاجئ داخل الإسطبل، إذ كاد يقتل سائس الخيول إلى أن انتهى به الأمر أن سبب لنفسه العرج عندما علقت قدمه بحبل كان معلقاً على جدار الإسطبل.

لم يكن استدراك هذا الأذى الذي يشبه اكتشاف الطباع السيئة بعد الزواج التي كان يعلم بها الأصدقاء قبل حفل الزواج لسبب أو لآخر ممكناً. فما عاد فرد يتمتع بمرونته المعتادة تحت وطأة سوء حظه. ببساطة كان يعلم أنه يملك خمسين جنيهاً ولا فرصة أمامه كي يحصل على نقود أكثر في الوقت الحاضر، كما كان يعلم أن عليه أن يسدد دينه خلال خمسة أيام. حتى لو طلب من أبيه تحت ذريعة إنقاذ السيد جارث.

شعر وبألم شديد أن أباه سيرفض بغضب، ذلك من تبعات ما يسميه تشجيعاً للتهور والخداع. لقد كان ينتابه غضب شديد إلى حدّ أنه لم يعد قادراً على فعل أي شيء سوى أن يذهب إلى السيد جارث ليقول له الحقيقة حاملاً معه الخمسين جنيهاً فيجعلها في مأمن من متناول يده، لأن أباه كان في المخزن ولم يعلم بعد بالحادث، لكنه عندما علم به ثار غضبه لأن ما اعتبره حيواناً وحشيًّا قد أدخل إسطبله. وقبل أن يواجه ما هو أقل إزعاجاً قرر فرد أن يستجمع قواه لما هو أصعب. لقد أخذ فرس أبيه وقرر أن يذهب إلى ستون كورت ويخبر ماري بكل شيء بعد أن أخبر أباها. في الحقيقة ربما بسبب وجود ماري وحبه لها كان ضميره متقداً جدًّا في تفكيره المتواصل في الدين وعدم تأجيل سداده كعادته في تعامله مع كثير من

الأشياء. لكنه هذه المرة قرر أن يتصرف بأسرع طريقة ممكنة. حتى أولئك الرجال الذين هم أقوى من فرد فنسي لا يستطيعون أن يقنعوا من يحبون إلا بنصف استقامتهم.

«لقد تحطم مسرح حياتي»، هذا ما قاله أحد القدماء البارزين عندما مات أفضل أصدقائه. وإنهم لمحظوظون من لديهم مسرح يطلب منهم مشاهدوه أن يقدموا أفضل عروضهم. بالتأكيد لو لم تعرف ماري صفات الرجل الأفضل، والذي يستحق صفات الإعجاب لكان الأمر مختلفاً بالنسبة إلى فرد في ذلك الوقت.

لم يكن السيد جارث في مكتبه فذهب فرد إلى بيته الذي كان متطرفاً عن البلدة وبسيطاً يخلو من الزخرف، أمامه بستان يتبعه. لقد كان بيتاً نصفه خشبي وطرازه قديم، إذ كان بيتاً ريفيًّا قبل أن تتسع البلدة، لكنه الآن تحيط به حدائق بيوت البلدة. إذا ما كان لبيوتنا مظهر خارجي خاص بها، ويشبه بيوت أصدقائنا، فإننا نحبها ونعجب بها، فهكذا كانت أسرة جارث الكبيرة - والتي تتألف من أربعة أبناء وابنتين - تحب منزلها القديم الذي بيع أفضل أثاثه منذ زمن طويل، والذي أحبه فرد، ولا سيما أنه كان يعرف أدق ثناياه حتى الغرفة العلوية التي كانت تفوح منها دائماً رائحة التفاح والسفرجل، فهو حتى هذا اليوم لم يقدم إليه دون أن ينتابه إحساس بالسرور، ولكن هذه المرة راح قلبه يخفق لأنه سيعترف بأخطائه أمام السيدة جارث التي كان يخشاها أكثر من زوجها، فهي لم تكن تميل للسخرية والاندفاع مثل ابنتها ماري كما أنها متروية وغير متهورة في إدارتها لمنزلها، فهي كما قالت عن نفسها بأنها تحملت المسؤولية، وتعلمت كيف تتحكم بنفسها في سن مبكرة من شبابها، كذلك كانت تملك فطنة نادرة متقدة، ومع إعجابها الشديد بفضائل زوجها أدركت في سنٍ مبكرة عدم مقدرته في إدارته لشؤونه ومصالحه الشخصية، وتقبلت ما يترتب على ذلك برحابة صدر. كانت تتمتع من الشهامة ما يكفيها للتخلي عن جميع أنواع التفاخر والتباهي بأواني الشاي وثياب الأطفال المزركشة، فلم تكن تشكو لجاراتها من حاجة السيد جارث للحيطة والحذر اللتين لو توافرتا لديه لغدا كغيره من الرجال، مما جعل جاراتها يحسبنها إما متكبرة أو غريبة الأطوار، فكن يحدثن أحياناً أزواجهن قائلات: «سيدتك جارث اللطيفة»، وفي المقابل كانت تنتقدهن في بعض الأوقات ولا سيما أنها كانت إحدى أمهر سيدات المنزل في مدل مارش اللواتي لا ينتقصن، وتميل قليلاً إلى القسوة على بنات جنسها، لكنها، من جهة أخرى، كانت متساهلة مع الرجال حين يصدر عنهم أخطاء أو يقعون في فشل ما، وغالباً ما تسمي ذلك طبيعيًّا، فيجب الاعتراف بأن السيدة جارث كانت تعارض قليلاً ما تعتبره تافهاً أو

حماقة. إن تحولها من مربية إلى سيدة منزل بعث في نفسها ثقة عالية، وعلى الرغم من أنها نادراً ما نسيت أن لغتها وثقافتها أعلى مستوى من لغة نساء البلدة وثقافتهنّ، فإنها كانت ترتدي قبعة بسيطة، وتطهو عشاء أسرتها، وترتق جوارب أبنائها، وكانت تصطحب بعض التلاميذ، وهم يحملون كراريسهم إلى المطبخ، فهي تعتقد أن من المفيد لهم أن يروها وهي تصنع رغوة وتصحح أخطاءهم دون أن تنظر إليها، فامرأة مثلها تشمر عن ساعديها لتقوم بجميع أعمال منزلها، لهي ضليعة بقواعد اللغة، وباختصار هي قادرة على أن تقوم بالتعليم وأعمال أخرى في آن. كلما كانت تؤدب الأطفال، كانت تظهر على جبهتها تجهماً بسيطاً لا يخفي سماحة وجهها الخير، وتأتي الكلمات من فمها على نحو حماسي ورنان. بالتأكيد كانت بعض تصرفات السيدة جارث مرحة ومضحكة، لكنها تظل تحتفظ بشيء من الغرابة كالخمر الجيد، فهو يحتفظ بطعم الجلود التي يحفظ فيها.

كانت لديها مشاعر أمومة تجاه فرد فنسي، فهي دائماً تبرر أخطاءه، على الرغم من أنها لا توافق على ارتباط ابنتها ماري به، فهي صارمة في محاكمتها لشؤون ابنتها كشأنها مع بنات جنسها. إن مشاعرها الاستثنائية هذه تجاهه جعلته في وضع أصعب فهو يخشاها الآن، ولا سيما أن ظروف زيارته هذه المرة قد تبيّنت وأتت أسوأ مما توقع؛ فالسيد جارث قد ذهب مبكراً ليتابع بعض الإصلاحات في موقع ليس ببعيد، والسيدة جارث كانت تقوم بعدة مهام منزلية وفي وقت واحد، فلقد كانت تصنع الفطيرة على طاولة نظيفة في طرف غرفة جيدة التهوية، وترقب من خلال فتحة الباب حركة ابنتها سالي عند فرن الشواء وإناء العجين، وتدرس أصغر ابن وابنة لديها وهما يقفان إلى الجهة الأخرى من الطاولة، وقد وضعا أمامهما كتبهما وكراريسهما، كما كانت تقوم بين الآونة والأخرى بأعمال غسيل الثياب في الجهة الأخرى من المطبخ.

كانت السيدة جارث، وقد رفعت أكمامها فوق مرفقيها، تصنع الفطائر بمهارة مستخدمة المدرج، وتزين أطرافها بأصابعها، وهي تعلم طفليها بعض قواعد اللغة بطريقة ممتعة. كانت تشبه ابنتها ماري، لكنها أكثر جاذبية وجمالاً، وتبدو تقاطيع وجهها أدق وأكثر تناسقاً، لكن بشرتها شاحبة قليلاً، وبنيتها قوية، كما كانت تتمتع بنظرات ثاقبة، فكانت تبدو، بقبعتها البيضاء المزركشة، كسيدة فرنسية نراها تتسوق وهي تحمل في يدها سلة، فإذا ما نظرت إلى السيدة جارث لتمنيت أن تكون ابنتها مثلها فهي تشكل سمة حسنة لابنتها كما هو المهر المقدم، فلطالما كانت الأم تقف وراء التنبؤ بحسن جمال ابنتها «إنها ستغدو مثلي قريباً جدًّا».

قالت السيدة جارث وهي تزين إحدى فطائرها بطريقة تحاول من خلالها جذب انتباه ابنها بن المفعم بالحيوية وذي الجبهة العريضة: «دعونا نعيد ذلك الآن، دون أن نهمل أهمية الكلمة في تعبيرها عن وحدة الفكرة».

(كانت السيدة جارث، كأشهر معلمات عصرها، تستخدم أساليب التدريس القديمة، فكان المجتمع يصنفها مع زمرة المُدرسة ليندلي موراي).

قال بن بعناد: «آه، إنها تعني... إنك تعنين... ما تفكرين فيه، إنني أكره القواعد، ما فائدتها؟».

أجابت السيدة جارث بحدة: «إنها تعلمك كيف تتكلم وتكتب بدقة، فيمكن أن يفهمك الآخرون، هل تحب أن تتكلم مثل جوب العجوز؟».

قال بن مشاكساً: «نعم، إن ذلك أفضل».

قالت السيدة جارث: «إن النطق هو أقل الأشياء أهمية في قواعد اللغة، إن قشور التفاح تأكلها الخنازير يا بن، لو أكلتها لأعطيتها فطيرتك. إن جوب يتحدث حول أشياء بسيطة فقط، فكيف لك أن تتحدث أو تكتب حول أشياء معقدة وأنت لا تعرف قواعد اللغة ولا مفرداتها أكثر مما يعرف؟ إنك ستستخدم الكلمات الخطأ، وتضعها في المكان الخطأ، فبدلاً من أن يفهمك الناس سيعتبرونك شخصاً مملاً ويتركونك، فماذا ستفعل عندئذٍ؟».

قال بن: «إنني لا أهتم، سأتركهم».

قالت السيدة جارث وقد اعتادت على مثل هذا الجدل العقيم من ابنها: «أظنك قد تعبت يا بن، أصبحت غبيًّا». بعد أن انتهت من صنع فطائرها ذهبت لتتابع أعمال تنظيف الثياب، ثم قالت: «تعال إلى هنا، وقص علي حكاية سنيستاس التي أخبرتك إياها الأربعاء الماضي».

قال بن: «إنني أعرفها... لقد كان مزارعاً».

قالت لتي وهي تدفع بن بمرفقها: «لقد كان رومانيًّا يا بن، دعني أقل الحكاية»...

«إنك غبية، لقد كان مزارعاً رومانيًّا وقد كان يحرث».

قالت لتي: «نعم، ولكن قبل ذلك أراده الناس... ».

«حسناً، ولكن يجب أن تقولي في البداية ماذا كان يفعل - أصر بن - لقد كان رجلاً عاقلاً مثل أبي، فهذا ما جعل الناس يطلبون نصيحته، ولقد كان رجلاً شجاعاً ومحارباً، وهكذا كان يمكن لأبي أن يكون، أليس كذلك يا أمي؟».

قالت لتي غاضبة: «دعني الآن يا بن أقص الحكاية كما أخبرتنا إياها أمي. من فضلك يا أمي قولي لبن ألا يتكلم ولا يقاطعني».

قالت الأم وهي تعصر رداءً: «إنني خجلة منك يا لتي... عندما بدأ أخوك، كان عليك أن تنتظري لتري ما إذا كان قادراً أن يقص الحكاية. كم كنت فظة، وأنت تدفعين أخاك بمرفقك، وكأنك تريدين أن تسيطري عليه! إنني متأكدة من أن سنيستاس سيخجل جدًّا، لو رأى ابنته تفعل ذلك».

لقد قالت السيدة جارث هذه العبارات بوقار، فشعرت لتي بأن الحياة مؤلمة عندما وقعت بين صعوبة الكلام وازدراء أمها الذي كان يستخدمه الرومانيون. «الآن يا بن».

«حسناً، حسناً، لقد كان هناك قتال شديد، وكانوا جميعاً حمقى و.. لا أستطيع أن أحكيها كما قصصتها أنت، ولكن أرادوا لرجل أن يكون قبطاناً وملكاً وكل شيء».

قالت لتي وهي تبدو جريحة وتتمنى أن تنتقم أمها لها: «ديكتاتوراً..».

قال بن بازدراء: «حسناً، ديكتاتور..! لكنها ليست كلمة مناسبة. لم يطلب منهم أن يكتبوا على الألواح الخشبية».

قالت السيدة جارث بجدٍ شديد: «هيا... هيا يا بن، إنك لست جاهلاً، انتظر، لقد قرع الباب، أسرعي يا لتي وافتحيه».

لقد كان فرد، وعندما فتحت لتي الباب أخبرته بأن أباها لم يعد إلى المنزل بعد، لكن أمها في المطبخ، لم يكن أمام فرد خيار آخر سوى أن يذهب ليرى كعادته السيدة جارث في المطبخ كلما وجدها هناك، فوضع يده حول عنق لتي واصطحبها دون أن يمازحها كالمعتاد. لقد دهشت السيدة جارث عندما رأت فرد في مثل ذلك الوقت، لكنها لم تظهر دهشتها، واكتفت بقولها وهي تتابع عملها بهدوء: «إنك مبكر جدًّا اليوم يا فرد، وإنك لتبدو شاحب الوجه، هل حدث أي شيء؟».

قال فرد ولم يرد أن يضيف شيئاً آخر على ذلك: «أريد التحدث إلى السيد جارث. وأتحدث إليك أيضاً». هذا ما أضافه بعد أن صمت قليلاً لأنه لم يراوده الظن بأن السيدة جارث لم تكن على علم بدينه، ولأنه سيتحدث إلى السيد جارث أمامها، أو ربما يجبر على التحدث إليها بمفردها.

قالت السيدة جارث: «سيحضر كيلب بعد دقائق»، وقد توقعت أن خلافاً قد وقع بين فرد وأبيه. «أظنه لن يتأخر لأنه ترك بعض أعماله على مكتبه، يجب عليه إنجازها هذا الصباح، هل ستنتظر معي ريثما أفرغ من عملي هذا؟!».

قال بن وقد أخذ سوط فرد من يده، وراح يجربه على السلحفاة: «لكننا لا نحتاج أن نتابع قصة سينستاس أليس كذلك؟».

«كلا، اخرج الآن، ولكن ضع من يدك ذلك السوط، كم أنت قاس عندما تضرب سلحفاة عجوزاً بذلك السوط...! أرجوك يا فرد خذ منه ذلك السوط».

قال فرد وهو يمد يده: «هيا، أعطني إياه يا عزيزي».

«هل ستدعني أركب حصانك اليوم؟؟؟»، قال بن وهو يعيد السوط إلى فرد دون أن يظهر أنه قد أجبر على ذلك.

«ليس اليوم، بل في وقت آخر لأنني أركب حصاناً آخر هذا اليوم».

«هل سترى ماري اليوم؟».

قال فرد متردداً قليلاً: «نعم، أظن ذلك».

«قل لها أن تعود بسرعة لنلعب ونمرح سوية».

قالت السيدة جارث عندما رأت فرد متضايقاً: «كفى... كفى يا بن، اِذهب الآن»...

«هل لتي وبن التلميذان الوحيدان عندك الآن يا سيدة جارث؟»، قال هذا فرد، عندما ذهب الطفلان وكان في حاجة ليقول شيئاً كي يمضي الوقت. لم يقرر بعد ما إذا كان عليه أن ينتظر السيد جارث، أو يغتنم فرصة مناسبة كي يخبر السيدة جارث لوحدها، ويعطيها النقود، ثم ينطلق مسرعاً.

قالت السيدة جارث مبتسمة: «عندي تلميذ واحد الآن هو فاني هكبت ويأتي في الحادية عشرة والنصف. لا أحصل على دخل جيد في هذه الأيام، لا يأتي إلي الكثير من التلاميذ، ولكنني ادخرت اثنين وتسعين جنيهاً من أجل تعليم ألفرد، حيث يمكنه أن يذهب إلى السيد هانمر فلقد بلغ السن المناسب لذلك».

لم تكن هذه الأخبار مصدر سرور لدى فرد، إذ إن السيد جارث سيخسر أكثر من هذا المبلغ مقابل ضمانه لفرد، لذلك صمت فرد فتابعت السيدة جارث ببساطة وهي تجر زركشة قبعتها: «الشبان الذين يذهبون إلى الكلية يكلفون أكثر من ذلك، ويظن كيلب أن ألفرد سيصبح مهندساً، فهو يريد أن يعطي الشاب فرصته. ها هو قد حضر... إنني أسمعه يدخل، دعنا نذهب الى غرفة الاستقبال».

عندما ذهبا إلى الغرفة كان كيلب قد خلع قبعته وجلس إلى مكتبه.

قال مندهشاً وهو يمسك بقلمه، ولم يغمسه في المحبرة بعد: «ماذا يا عزيزي فرد، إنك مبكر هذا اليوم». ولكن عندما لاحظ اكفهرار وجه فرد، أضاف يقول مباشرة: «هل حدث شيء في البيت؟».

«نعم يا سيد جارث لقد أتيت لأخبرك شيئاً، يؤسفني أن أقول إنه سيجعلك تظن بي سوءاً.لقد أتيت لأقول لك وللسيدة جارث إنني لا أستطيع أن أفي بوعدي، فأنا لا أستطيع أن أفي دَيني، لم أكن محظوظاً إذ كل ما لدي الآن خمسون جنيهاً بدلاً من مئة وستين».

أخرج فرد النقود من جيبه، ووضعها أمام السيد جارث، وهو يقول الحقيقة كلها باندفاع ووضوح، وقد انتابه شعور صبياني وإحساس بالتعاسة. دهشت السيدة جارث بصمت، ثم نظرت إلى زوجها، وهي تنتظر منه توضيحاً لما سمعته. احمر وجه كيلب، ثم قال: «آه... لم أخبرك يا سوزان، لقد ضمنت فرد تجاه مبلغ استدانه قدره مئة وستون جنيهاً، ولقد كان متأكداً من أنه سيسدده».

ظهر تغير مؤكد على وجه السيدة جارث لكنه يشبه ذلك التغير الذي يحصل تحت سطح الماء، فيظل هادئاً. نظرت إلى فرد وقالت: «أظنك طلبت من أبيك بقية المبلغ، لكنه رفض أن يعطيك شيئاً».

قال فرد وهو يعض على شفتيه، ويتلعثم بكلماته؛ «كلا، لأنني أعلم ألّا جدوى من طلبي

ما لم يرد ذلك عليه نفعاً، وما أحببت أن أذكر اسم السيد جارث أمامه».

قال كيلب متردداً وهو ينظر إلى النقود، وهو يعدها بأصابعه متشنجاً: «لقد حدث هذا في أسوأ الأوقات، إننا على أبواب أعياد الميلاد، وإنني أمر بظروف مالية صعبة، فيجب علي أن أخفض من النفقات، فماذا يمكننا أن نفعل يا سوزان؟ سأحتاج كل النقود التي نملكها في المصرف، فالمبلغ مئة وعشرة جنيهات، لقد التقفها الشيطان!».

قالت السيدة جارث بأسى وحزم: «يجب أن أعطيك الاثنين والتسعين جنيهاً التي ادخرتها من أجل تعليم ألفرد. وأظن أن ماري قد ادخرت عشرين جنيهاً من دخلها الشهري، وهي ستقدمها كذلك».

ولم تنظر السيدة جارث إلى فرد ثانية، فهي كانت تبحث عن كلمات توجهها إليه، فتؤثر فيه كثيراً. وكامرأة مسؤولة كانت تبحث عما يجب فعله، لكنها لم تمل بتفكيرها إلى حسم الموقف بصدام أو بلومها لفرد على نحو مؤلم، بل جعلت فرد لأول مرة يشعر بالندم وتأنيب الضمير، الألم الذي سببه له الموقف منذ البداية وجعله يشعر أنه سيبدو بالتأكيد غير محترم أمام عائلة جارث لأنه لم يفكر في الأذى الذي ألحقه بهم، فمثل هذا التفكير ليس متوقعًا من الشبان الذين في عمره.

فمعظمنا قد نشأ وهو يحمل مفهوم سبب عدم ارتكابنا الأخطاء بحق الآخرين، لا يتعلق بتفكيرنا بما نلحقه بهم من ضرر، لكنه في هذه اللحظة وجد نفسه كرعديد يستولي على مدخرات امرأتين في آن.

قال متمتماً: «بالتأكيد إنني سأسد كامل المبلغ في النهاية».

قالت السيدة جارث التي كانت تكره أن تستخدم كلمات في مثل هذه المناسبة المؤلمة،: «نعم، في النهاية، لكن الأولاد يجب أن يتعلموا في سن الخامسة عشرة، وليس في النهاية». لم تكن رغبتها ضحلة في إيجاد مبررات لفرد كما هي الآن.

قال كيلب: «لقد كنت مخطئاً يا سوزان، لقد أكد لي فرد أنه سيسدد الدين، وإلا ما كان لي شأن في ذلك كله. أظنك بحثت في جميع الوسائل الشريفة كي تحصل على النقود». أضاف هذا وهو يحدق في وجه فرد. كان كيلب أكثر لباقة من أن يذكر اسم السيد فيذرستون.

«حقًّا لقد حاولت كثيراً، ولقد كان من المفترض أن يكون لدي مئة وثلاثون جنيهاً، لو

لم يعاكسني الحظ في حصان كنت سأبيعه. لقد أعطاني زوج خالتي ثمانين جنيهاً، فدفعت ثلاثين جنيهاً منها مع حصاني مقابل حصاناً، كنت سأبيعه بثمانين جنيهاً أو حتى أكثر من ذلك، فقد قررت أن أبقى دون حصان، ولكن تبين أنه رديء، فآذى قدمه. تمنيت لو ذهبنا، أنا والحصانان، إلى الجحيم قبل أن أسبب لكما أي ضرر، فأنا لا أُبالي لأي أحد سواكما مثلما أبالي لكما، فقد كنت والسيدة جارث نبيلين معي جدًّا. في أيّ حال لا فائدة من قول ذلك ولا بد من أنكما تنظران إلي كشاب رعديد».

استدار فرد وخرج من الغرفة مسرعاً، فقد شعر وكأنه غدا يتصرف كالنساء، وأن تأسفه لن يقدم نفعاً لعائلة جارث. كانا ينظران إليه وهو ينزل من السلم ويخرج من البوابة.

قالت السيدة جارث: «لقد خاب أملي في فرد فنسي، لم يخطر لي يوماً أنه سيحملك تبعات دينه، لقد كنت أعرفه طائشاً، ولكن لم أتوقعه أنانيًّا، فيحمل تبعات مغامراته لمن هو أكبر أصدقائه وأقلهم مالاً».

«آه لقد كنت أحمق يا سوزان».

قالت الزوجة وهي تهز برأسها، وتبتسم: «حقاً لقد كنت كذلك. لكنني ما كنت سأبث ذلك النبأ في السوق، لماذا تخفي عني مثل هذه الأشياء؟ فإنك تفعل ذلك كما تفعل مع أزرار قميصك؛ إذ لا تخبرني عنها إلا بعد أن تسقط. لو أخبرتني من قبل لهيأت خطة تجعلنا في وضع أفضل من الذي نحن عليه الآن».

«قال كيلب وهو ينظر بعطف: «إنني أعرف أنك تتمزقين حزناً، إنني أعرف ذلك يا سوزان، لا أجبرك على أن تنفقي النقود التي ادخرتها لألفرد».

«حسناً... إنني ادخرتها.أنت الذي سيعاني إذ سيتحتم عليك تعليم ابنك، ولكن يجب عليك أن تقلع عن عاداتك السيئة؛ اعتاد بعض الرجال الشرب، وأنت اعتدت العمل بلا أجر، يجب أن تقلع عن ذلك قليلاً، كما يجب عليك الذهاب إلى ماري وتطلب منها ما ادخرت من نقود».

دفع كيلب كرسيه إلى الخلف وهو منحن إلى الأمام، ويهز رأسه قليلاً، ويفرك أصابعه برفق.

قال بصوت منخفض: «يا لتعاسة ماري! إنني أخشى أن تكون ماري تحب فرد».

«كلا، إنها دائماً تسخر منه، ولا أظنه يعتبرها سوى أخت له».

لم يعلق كيلب لكنه ببساطة أنزل نظارتيه قليلاً، وسحب كرسيه إلى الأمام، ثم قال: «أتمنى لو خلصني الشيطان من هذا المأزق، يا ليت هذا حصل في هانوفر. إن حدوث مثل هذه الأشياء لمصدر تعاسة في عملنا!».

رافق الجزء الأول من كلامه جميع أنواع التعابير الرجولية المختزنة لديه، ولقد نطق به وهو يزمجر مما يجعلنا نتصور حالته بسهولة، ولكن لا نستطيع أن نشرحها لمن لم يسمعه وهو ينطق بكلمة «عملنا».

كان السيد جارث يهز رأسه كلما تأمل قيمة الكدح والجهد اللذين يبذلهما الكادحون واللذين يقتات عليهما سائر أفراد المجتمع. ولقد سيطرا على مخيلته طوال سني طفولته، فكان صوت المطرقة وصيحات العمال وأزيز اضطرام النار وهدير الآلات، كانت كلها تشبه الموسيقى بالنسبة إليه، كما أن قطع وتحميل الخشب ومنظر الأشجار الضخمة على جوانب الطرق بعد أن تقطع والرافعة على رصيف الميناء، وأكوام المنتجات في المخازن، وقوة العمال العضلية، حيثما وجدت جميع هذه المناظر أثرت فيه كما يؤثر الشعر دون تأثير وتدخل الشاعر، ولقد زودته بفلسفة دون تدخل أي فيلسوف، وكانت تشكل بالنسبة إليه ديناً دون تدخل علم اللاهوت. لقد كان طموحه منذ صغره أن يساهم بمثل هذه الأعمال التي حرص على تبجيلها من خلال تسميتها بالعمل، وعلى الرغم من أنه عمل لمدة وجيزة بإشراف مساح للأراضي، وعلى الرغم من أنه كان يتعلم معظم الأشياء بنفسه، فإنه تعلم مساحة الأراضي والمناجم والبناء أكثر بكثير مما كان يعرفه معظم المختصين في البلاد.

لقد كان تصنيفه لوظائف الناس بسيطاً يشبه تصنيف المشاهير حيث لا يمكن قبوله في زمننا هذا، فقد صنفها بموجب المهن والسياسة والتبشير والتعلم والتسلية. لم يكن لديه ما يقوله ضد الأصناف الأربعة الأخيرة، لكنه كان ينظر إليها كما ينظر الوثني المتعبد إلى الآلهة التي ليست آلهته. لقد تقبل جميع المراتب لكنه لم يشأ أن يختار لنفسه مرتبة لا علاقة لها بمهنة محددة كتلك التي تترك عليه شيئاً كزيت الآلات، أو تراب الغابات والحقول. وعلى الرغم من أنه يعتبر نفسه مسيحيًّا أرثوذكسيًّا، وعلى الرغم من أنه كان يدافع عن القدرة الإلهية إذا ما أقحم في هذا الموضوع، فإن الفضيلة كانت تتمثل بالنسبة إليه في العمل المتقن وإنجاز العمل بإخلاص إذا ما تعهد به، أما الرذيلة فكانت تتمثل لديه في العامل المهمل والكسول. ولكن لم يكن كيلب رجلاً يميل إلى الرفض، وكان يبدو له العالم مدهشاً وعجيباً،

فهو كان دائماً مهيأً كي يقبل أكبر عدد من الأنظمة، كعدد السموات، ما لم تتدخل بطرق التصريف ومتانة البناء ودقة مسح الأبنية والأراضي ودقة التنقيب عن الفحم الحجري. في واقع الأمر كان يتمتع بروح مبجلة وذكاء عملي ثاقب لكنه لم يكن ناجحًا في إدارة الشؤون المالية. لقد كان يعرف قيمة الأشياء تماماً، لكنه كان فاشلاً في إدارته للشؤون المالية، وعندما تحقق من فشله هذا قرر الابتعاد عن جميع الأعمال التي تتطلب مثل هذه الموهبة. لقد كرس نفسه تماماً للأعمال الكثيرة التي يستطيع القيام بها دون أن يتطلب ذلك منه أي نوع من التعامل بالمال، ولقد كان أحد أولئك المشاهير في منطقته وكان يختاره الجميع كي ينفذ لهم أعمالهم، لأنه كان يقوم بعمله بدقة وكان يكتفي بأجر قليل، وغالباً لم يكن يأخذ أي أجر قط، فلا عجب إذاً أن تكون عائلة جارث فقيرة وتعيش حياة بسيطة دون تذمر.

الفصل الخامس والعشرون

لا يهدف الحب لإمتاع نفسه،

ولايأبه قط لذاته،

ولكن يقدم للآخرين طمأنينته،

ويبني جنة وسط يأس الجحيم.

لا يصبو الحب إلا لإسعاد ذاته،

ويوثق الآخرين لأجل بهجته،

فيجد متعه في ضياع طمأنينة الآخرين،

ورغم وجود الجنة يبني جحيماً.

وليم بليك - أغاني خبرة الحياة

أراد فرد أن يصل إلى ستون كورت في وقت لا تتوقعه ماري، ولا يكون زوج خالته في الطابق السفلي، فتكون ماري جالسة لوحدها في ردهة الاستقبال. ترك حصانه في فناء المنزل كي لا يسمع صوته عند البوابة، ثم دخل ردهة الاستقبال دون أن يصدر صوتاً سوى صوت قبضة الباب. لقد كانت ماري تجلس في زاويتها المعتادة، وهي تضحك على ذكريات السيدة بيوزي مع جونسون، وعندما رفعت رأسها كانت الابتسامة لا تزال ترتسم على وجهها، ثم ما لبثت أن خبت واختفت عندما رأت فرد يقترب صامتاً، ثم وقف متكئاً على رف موقد النار، وهو يبدو شاحباً. ظلت هي كذلك صامتة تنظر إليه مستغربة.

بدأ قائلًا: «ماري، إنني لا أنفع لأي شيء، وإنني لوغد».

قالت ماري، وهي تحاول أن تبتسم: «أظن أن صفة واحدة كافية لنعتك في وقت واحد»...

«أعلم أنك لن تحسني الظن بي بعد اليوم، ستعتبرينني كذاباً، أو ربما غير شريف. ستعتقدين أنني لم أبالِ بك ولا بأمك ولا بأبيك، إنك دائماً تظنين بي سوءاً، وإنني لأعلم ذلك».

«لا يمكنني إنكار كل هذا إذا ما أعطيتني أسباباً مقنعة لذلك. ولكن أرجوك أن تخبرني حالاً ماذا فعلت، فإنني أفضل أن أعرف الحقيقة على أن أتخيلها».

«لقد اقترضت مئة وستين جنيهاً، وطلبت من أبيك أن يكفل سدادي لها، واعتقدت أن ذلك لن يكون ذا أهمية، فقد كنت متأكداً من أنني سأسد ذلك الدين، ولقد بذلت قصارى جهدي، لكنني لم أكن محظوظاً، لقد تبين أن الحصان كان سيئاً، فلم أستطع أن أسد سوى خمسين جنيهاً، ولا أستطيع أن أطلب من أبي بقية المبلغ، فهو لن يدفع لي جنيهاً واحداً، أما زوج خالتي فقد أعطاني مئة جنيه منذ وقت ليس بالبعيد، فماذا أستطيع أن أفعل؟ لا يوجد لدى أبيك أي مبلغ فائض، وليس أمام أمك سوى أن تدفع الاثنين والتسعين جنيهاً التي ادخرتها بالإضافة إلى ما تدخرينه أنت».

«يا لأمي وأبي المسكينين». قالت هذا ماري وقد اغرورقت عيناها بالدموع، وخنقتها عبرة حاولت إخفاءها. كانت تنظر أمامها دون أن تبالي بفرد، وقد تذكرت جميع الظروف التي تمر بها أسرتها، وظل فرد كذلك صامتاً للحظات، وهو يشعر بتعاسة لم يعرفها من قبل.

ثم قال: «ما أردت إيذاءك حتى ولو كان ذلك مقابل العالم كله يا ماري، وإنك لن تسامحيني».

قالت ماري منفعلة: «القضية ليست أن أسامحك أو لا...! فهل تسامحي لك سيجر أي نفع لأمي، عندما تضيع ما ظلت تدخره من عملها خلال أربع سنوات لتدفعها للسيد هانمر مقابل تعليم ألفرد؟ هل تعتقد ذلك كله سيغدو سارًّا إذا لم أسامحك؟».

«قولي ما تشائين يا ماري، فإنني أستحق ذلك كله».

قالت ماري بعد أن هدأت قليلاً: «لا أريد أن أقول شيئاً. لن ينفع غضبي بشيء». جففت دموعها، وألقت بكتاب إلى جانبها، ثم التقطت نسيجها، أما فرد فقد تتبعها بعينيه على أمل أن تلتقيا بعينيها كي يظهر ندمه. ولكن كان من السهل على ماري أن تتجنب رفع نظرها إلى الأعلى.

قال بعد أن جلست ثانية، وراحت تنسج بسرعة: «تعنين خسارة أمك لنقودها؟ أردت أن أسألك يا ماري: هل تعتقدين إذا ما أخبرت السيد فيذرستون، حول تعليم ألفرد، فهل سيقدم أي مبلغ من النقود؟».

«لم تعتد أسرتي على التسول. إننا نفضل أن نعمل كي نحصل على النقود، وفضلًا عن ذلك لقد قلت إن السيد فيذرستون أعطاك مؤخراً مائة جنيه، وهو لم يقدم لنا أيّ هدية من قبل، وأنا متأكدة من أن أبي لن يطلب منه شيئاً، وحتى إذا أردت أن أطلب منه فلن يكون هناك أي فائدة ترتجى».

«إنني تعس جدًّا يا ماري، لو عرفت كم أنا تعس، لأسفت لأجلي».

«هناك أشياء أخرى علي أن أتأسف لأجلها. دائماً يعتقد الأنانيون أن متاعبهم لهي أهم من أي شيء آخر في الكون، وإنني أعاني من ذلك كل يوم».

«ليس من الإنصاف أن تسميني أنانيًّا. لو عرفت ماذا يفعل الشبان الآخرون، لاعتبرتني أفضل منهم».

«أعرف الكثيرين من الناس الذين ينفقون نقوداً دون أن يعرفوا كيف يسدونها، لابد من أن يكون هؤلاء أنانيين، فهم دائماً يفكرون في ما يتمنون، وليس في ما يلحقون بالآخرين من ضرر».

«يمكن لأي رجل أن يكون غير محظوظ يا ماري، فيجد نفسه عاجزاً عن سداده لدينه. ولا يوجد في العالم رجل أفضل من أبيك، ولكن مازال يقع في المشاكل».

قالت ماري بغضب وسخط عميقين: «كيف تتجرأ أن تقارن نفسك بأبي يا فرد؟ إنه لم يقع في ورطة جراء سعيه وراء ملذاته، بل لأنه كان دائماً يقوم بأعمال الآخرين، ولقد نجح كثيراً، وعمل بجد شديد كي يعوض خسارة الآخرين».

«وهل تعتقدين أنني لم أحاول أن أقوم بأي شيء يا ماري؟ ليس من الشهامة أن تظني

سوءاً برجل، وعندما يكون لديك قدرة على التأثير فيه، أعتقد أنه يجب عليك أن تستخدميها كي تحسني من وضعه، لكنني لا أراكِ تفعلين ذلك. في أيّ حال أنا ذاهب». ثم قال فرد متخاذلاً: «لن أكلمك في الأمر ثانية، وإنني أعتذر عن كل ما سببته من مشاكل، هذا كل ما في الأمر».

ألقت ماري نسيجها، ثم رفعت نظرها إلى الأعلى. دائماً يظهر نوع من عاطفة الأمومة حتى مع حب الفتيات، وخبرة ماري القاسية في الحياة، قد شذبت طبيعتها الأنثوية. عندما نطق فرد بكلماته الأخيرة، شعرت بانقباض مفاجئ يشبه ما تشعر به الأم عندما يتراءى لها ابنها العابث بعيداً منها، وعندما رفعت نظرها إلى الأعلى، ورأت اليأس في وجهه، تغلب عطفها وشفقتها عليه على غضبها وكل شعورها بالقلق.

«آه يا فرد، كم تبدو متعباً، اجلس قليلاً، ولا تذهب الآن، دعني أخبر زوج عمتي أنك هنا لقد كان يسأل عنك، فهو لم يرك منذ أسبوع كامل». قالت ماري بخوف وهلع، وقد تلفظت بكلماتها دون أن تعي ما تقول، لكنها تلفظت بها بمزيج من التوسل والتودد، وهي تنهض ذاهبة إلى السيد فيذرستون. بالطبع شعر فرد، وكأن الغيوم بدأت تنقشع، ويبزغ بصيص أمل: تحرك ثم وقف في طريقها.

«قولي كلمة واحدة يا ماري، فإنني أفعل أي شيء، قولي إنك لن تظني بي سوءاً، وإنك لن تتخلي عني».

قالت ماري بنبرة كئيبة: «أتظن أن من دواعي سروري أن أظن بك سوءاً، أتعتقد أنه لا يؤلمني أن أراك إنساناً طائشاً وكسولاً. كيف تتحمل أن تكون إنساناً جديراً بالازدراء في حين أن الآخرين يعملون ويكافحون، وهناك أشياء كثيرة يمكن القيام بها. كيف يمكنك أن تكون غير مفيد والعالم كله نفع وفائدة؟ وبالسمات الحسنة التي تمتلكها يا فرد يمكنك أن تكون ذا شأن عظيم».

«سأحاول أن أكون أي شيء تريدينه يا ماري، لو قلت إنك تحبينني».

«سأخجل عندما أقول إنني أحببت رجلاً يعتمد دائماً على الآخرين، وينتظر ما يقدمونه له، وما عساك أن تكون عندما تبلغ الأربعين من عمرك؟ أظنك ستكون مثل السيد باوير إذ ستكون كسولاً مثله تقيم في ردهة السيدة بيك، وقد أصابتك السمنة، تنتظر أحداً يدعوك إلى العشاء وتقضي صباح كل يوم وأنت تتعلم أغنية هزلية، أو لا..لا.. تتعلم لحناً على آلة الفلوت».

بدأت ترتسم الابتسامة على شفتي ماري حالما بدأت تتساءل حول مستقبل فرد (الأرواح الشابة دائما متغيرة)، وقبل أن تنهي كلامها بدا على وجهها المرح واضحاً، أما بالنسبة إليه فكان ذلك يشكل فترة التوقف عن الإحساس بالألم، يمكن لماري أن تضحك منه، ومع نوع من الابتسامة حاول أن يمسك يدها، لكنها هربت مسرعة إلى الباب، ثم قالت: «سأخبر زوج عمتي فلا بد من أن تراه لبعض الوقت».

لقد كان فرد متأكداً من أن مستقبله لن يؤول إلى ما تنبأت به ماري ساخرة. باستثناء استعداده لفعل أي شيء تريده ماري، لم يتحدث مرة أمامها حول تركة السيد فيذرستون المحتملة له، والتي كانت تتجاهلها باستمرار، والتي كانت تعامله وكأنه يعتمد على نفسه، ولكن إذا ما ورث الملكية فلابد لها إذاً من أن تعترف بوضعه الجديد. لقد مر كل ذلك في مخيلته ببطء قبل أن يصعد إلى الطابق العلوي كي يرى زوج خالته. لم يمكث سوى فترة قصيرة، ثم استأذن بالذهاب متذرعاً بزكام ألمّ به، ولم ير ماري ثانية قبل أن يغادر المنزل، وفي طريق عودته إلى المنزل بدأ يشعر أنه مريض حقًّا، وليس كئيباً فقط.

عندما وصل السيد جارث بعد المغرب إلى ستون كورت، لم تفاجأ بذلك، على الرغم من ندرة زيارته لها، وكذلك لم يكن يرغب في السيد فيذرستون. أما العجوز فكان يضطرب من لقاء شقيق زوجته الذي لا يستطيع إزعاجه، والذي لا يزعجه فقره، ولا يطلب من السيد فيذرستون، وكان يفهم في شؤون الزراعة والمناجم أكثر من السيد فيذرستون، لكن ماري شعرت أن أهلها يحتاجون إلى رؤيتها، فإن لم يحضر أبوها لاستأذنت السيد فيذرستون للذهاب إليهم في اليوم التالي لساعة أو ساعتين. بعد أن ناقشا الأسعار وهما يشربان الشاي نهض السيد جارث مستأذناً من السيد فيذرستون للذهاب، وقال لماري «أريد أن أتحدث إليك يا ماري».

أخذت ماري شمعة إلى غرفة أخرى لا يوجد فيها مدفأة، وبعد أن وضعت الشمعة على الطاولة استدارت نحو أبيها، ووضعت ذراعيها حول كتفيه، وقبلته بطريقة طفولية... كان يحبها، فانفرجت أسارير وجهه كما تنفرج أسارير وجه الكلب حين يمسد على ظهره. لقد كانت ماري طفلته المحببة، وعلى الرغم ممّا كانت تقوله سوزان، فإن السيد جارث كان واثقاً بأنه من الطبيعي أن يعتقد فرد والآخرون أن ماري أحب فتاة لدى أبيها.

قال كيلب متردداً كعادته: «أريد أن أخبرك شيئاً يا عزيزتي. ليست أخباراً جيدة، ولكن ربما يكون هناك ما هو أسوأ».

«أحول النقود يا أبي؟ أظن أعرف ماهي!!».

«أحقًّا؟ كيف يمكن ذلك؟ أرأيت، لقد وقعت في الحماقة ثانية، لقد ضمنت ديناً، فترتب علي الآن سدادها، فبات على أمك دفع مدخراتها، وهذا أسوأ ما في الأمر، إنها لا تكفي المبلغ كله. إننا في حاجة إلى مبلغ قدره مئة وعشرة جنيهات وأمك تملك اثنين وتسعين جنيهاً، وأنا لا أملك شيئاً في المصرف، وهي تعتقد أن لديك بعض المدخرات».

«نعم لدي أكثر من أربعة وعشرين جنيهاً، ولقد توقعت قدومك لذلك وضعتها في حقيبة يدي، أترى نقوداً بيضاء وذهبية».

أخرجت ماري النقود من حقيبتها، ووضعتها في يد أبيها. «لكننا نحتاج إلى ثمانية عشر جنيهاً فقط، أرجعي الباقي إلى محفظتك يا ابنتي العزيزة. ولكن كيف عرفت بالأمر؟». سألها كيلب وقد بدأ يفكر ما إذا كان في الأمر تأثير على عواطف ماري: «لقد أخبرني فرد هذا الصباح».

«آه، هل أتى بهدف؟».

«نعم أظن ذلك. لقد كان مضطرباً جدًّا».

قال الأب متردداً: «أخشى ألّا يكون فرد جديراً بالثقة يا ماري، ربما كانت نواياه أفضل من أفعاله، لكنني أظنه من دواعي الأسف أن ترتبط سعادة أحد به، وهكذا حال أمك».

قالت ماري دون أن ترفع نظرها، ولكن وضعت يد أبيها على خدها: «وكذلك أنا يا أبي».

«لا أريد أن أتدخل يا عزيزتي، لكنني كنت أخشى أن يكون شيء يربطك بفرد، فأردت أن أحذرك يا ابنتي». أصبح صوت كيلب هنا أكثر رقة. لقد كان يدفع قبعته إلى الأمام على الطاولة، ثم يسحبها ثانية وهو ينظر إليها، ولكن أخيراً أدار نظره إلى ابنته.

«مهما كانت المرأة جيدة، لا بد لها من أن تحيا الحياة التي يرسمها لها زوجها. لقد كان على أمك أن تتحمل الكثير بسببي».

قبلت ماري يد أبيها ثم ابتسمت. «حسناً حسناً، لا أحد كامل ولكن...». هز السيد جارث رأسه هنا محاولاً أن يختار الكلمات بدقة: «ما أفكر فيه... ما يمكن أن يحدث لامرأة عندما لا تكون متأكدة من زوجها، ولا سيما عندما لا يكون لديه مبادئ تجنبه ارتكاب الأخطاء بحق

الآخرين، هذا كل ما في الأمر». يمكن للشبان أن يلتقي بعضهم ببعض قبل أن يعرفوا الحياة، وربما يعتبرونها إجازة من العمل عندما يلتقون، ولكن سرعان ما تتحول إلى أيام عمل يا عزيزتي. في أيّ حال إن لديك إحساساً بالمسؤولية أكبر مما يتوافر لدى الآخرين، ولم نحجر عليك، وربما لم تتوافر الفرصة لأقول إن الأب يخاف على ابنته، ولا سيما أنك لوحدك هنا».

قالت ماري وهي تنظر بحزن إلى عيني أبيها: «لا تخف علي يا أبي، لقد كان فرد دائماً جيداً معي، فهو طيب القلب وعاطفي وليس مرائياً على الرغم من سعيه وراء متعه، لكنني لن أرتبط برجل جنى على نفسه، ويمضي وقته ينتظر الآخرين كي يقدموا له فرصة. لقد تعلمت منك ومن أمي كيف أفخر بنفسي جدًّا».

قال السيد جارث وهو يأخذ قبعته: «هذا صحيح، هذا صحيح. إنني أشعر بارتياح الآن. ولكن صعب علي أن أذهب بمدخراتك يا ابنتي أليس كذلك؟».

قالت ماري بأقوى صوت احتجاج: «أبي! خذ معها ملء جيوبك حباً مني لكل من في المنزل».

كانت هذه آخر كلماتها قبل أن يغلق أبوها الباب وراءه.

قال فيذرستون العجوز مستخدماً قوة حدسه المزعجة، عندما عادت إليه ماري: «أظن أن أباك أراد مدخراتك. أظنه يمر بظروف صعبة، وأنت تتقدمين في عمرك، فيجب عليك أن تدخري نقوداً لأجلك».

قالت ماري ببرود: «إنني أعتبر أمي وأبي أفضل مني يا سيدي».

همهم السيد فيذرستون، فلا يمكنه أن ينكر أن أيّ فتاة عادية مثلها يمكن لها أن تكون مضحية، لذلك فكر في ردّ آخر مزعج ومضايق وشديد الصلة بالموضوع: «إذا أتى فرد فنسي غداً، لا تثرثري معه، ولكن دعيه يأتِ إلي».

الفصل السادس والعشرون

هو يضربني وأنا أصرخ في وجهه قائلاً: آه.. أيتها الرغبة الفاضلة.. ألا يمكن لعكس ذلك أن يحدث؛ فأنا أضربه وهو يصرخ في وجهي.

ترويلوس وكريسيدا

لم يذهب فرد إلى ستون كورت في اليوم التالي لأسباب حاسمة؛ فمن تجواله في تلك الشوارع القذرة التي لم يرجع منها بالحصان دايموند فحسب، والذي كان صفقة خاسرة، بل عاد بوعكة صحية سببت له صداعاً في رأسه ويأساً ليوم أو يومين، ساءت حالته بعد عودته من ستون كورت، وعندما دخل غرفة الطعام استلقى على الأريكة، وأجاب عن سؤال أمه القلقة قائلاً: «أشعر أنني مريض جدًّا، وأعتقد أن من الأفضل أن ترسلي بطلب الطبيب رينج».

جاء رينج، ولم يلحظ شيئاً مقلقاً، لكنه تحدث عن نوع من الاضطراب، ولم يقل إنه سيأتي في اليوم التالي. لقد كان له بعض المستحقات المالية على أسرة فنسي، لكن أكثر الرجال يقظة يتبلدون بسبب الروتين، ففي كل صباح متعب وهم يقومون بعملهم، يستمتعون بسماع قرع بابهم. كان السيد رينج صغير الحجم وأنيقاً ويميل لونه إلى الأصفر، ويرتدي شعراً مستعاراً جميلاً، وكان يقوم بعمل مضن، وكان عصبي المزاج، كما كانت زوجته فاترة الهمة، وعنده سبعة أطفال. لقد كان متأخراً، قبل أن ينطلق في رحلته التي طولها أربعة أميال ليجتمع بالدكتور منشن في الطرف الآخر من تبتن، فبموت الطبيب الريفي هيكس ازداد ضغط العمل في ذلك الطرف في مدل مارش. الرجال يخطئون، فلماذا لا يخطئ الأطباء العاديون؟ لم يهمل الطبيب رينج العلب البيضاء، والتي في هذه المرة تحتوي على مواد سوداء شديدة الأهمية، لكن تأثيرها لن يأتي بالنفع لفرد المسكين، الذي لا يرغب في أن يعترف بأنه مريض. عندما استيقظ في الصباح التالي ونزل إلى الطابق السفلي كي يتناول إفطاره لم يستطع أن يفعل شيئاً سوى أنه جلس يرتجف قرب موقد النار، فأرسل بطلب السيد

رينج، لكنه كان قد خرج ليقوم بجولته الصباحية كالمعتاد، وعندما رأت السيدة فنسي ابنها المدلل يبدو مرهقاً وتعساً، بدأت تبكي، وقالت إنها سترسل بطلب الطبيب سبراغ.

«لا تقلقي يا أمي لا يوجد شيء يقلق»، قال ذلك فرد وهو يمد يده الحارة والجافة إليها. «سأرتاح بعد قليل، بالتأكيد، أصابني البرد أثناء تنقلي في تلك الشوارع القذرة والشديدة الرطوبة».

قالت روزموند التي كانت تجلس قرب نافذة غرفة الطعام وتنظر إلى شارع بوابة لُوِيك الراقي جدًّا: «ماما... ها هو ليدجيت يتحدث إلى أحد، لو كنت مكانك لاستدعيته، لقد عالج إيلين بولسترود، فشفيت، وإنهم يقولون إنه يستطيع أن يعالج أي مريض فيشفى».

قفزت السيدة فنسي إلى النافذة، وفتحتها على الفور، وهي لا تفكر إلا بفرد. لقد كان ليدجيت يقف على بعد ذراعين من السياج المعدني فاستدار عندما سمع صوت إطار النافذة المفاجئ، وقبل أن تناديه، وبعد دقيقتين كان داخل الغرفة، ثم خرجت روزموند بعد أن انتظرت كي تظهر قلقها الشديد وإحساسها بما كان يحدث.

استمع ليدجيت إلى سرد غريزي مفصل من السيدة فنسي مؤكدة على التفاصيل خصوصًا على ما قاله السيد رينج، وما لم يقله حول عدم مجيئه ثانية. أدرك ليدجيت فوراً أنه يسبب حرجاً للسيد رينج، لكن جدية حالة فرد جعلته يتجاوز هذا الاعتبار. لقد كان مقتنعاً أن فرد قد بلغ مرحلة احمرار الجلد من حمى التيفوئيد، وأنه يتناول الدواء الخاطئ، فيجب أن يذهب إلى الفراش مباشرة ويخضع لرعاية صحية منتظمة، ويجب استخدام أدوات عديدة وخاصة كان ليدجيت شديد الحرص والتأكيد عليها. يا لهلع السيدة فنسي المسكينة، لقد خففت كلمات السيد ليدجيت من خطورة الحالة. لقد اعتبرت تصرف السيد رينج مخذلاً وهو الذي كثيراً ما استدعي بهدف العلاج حيث فضلوه على السيد بيكوك مع أنه كان صديق العائلة. لماذا يهمل السيد رينج أولادها، فهي لا تجد لذلك تفسيراً، فهو لم يهمل أبناء السيدة لارجر عندما أصابتهم الحصبة، ولم تتمنَ السيدة فنسي أن يفعل ذلك، وإذا وقع شيء...

انفطر، في هذه اللحظة، قلب السيدة فنسي، فتشنجت حنجرتها أسىً، وزلزل الحزن محياها البهيج.

حدث هذا في ردهة المنزل بعيداً من سمع فرد، لكن روزموند فتحت باب غرفة

الاستقبال، وتقدمت بقلق. اعتذر ليدجيت عن السيد رينج قائلاً ربما كانت الأعراض غامضة البارحة، وأن هذا النوع من الحمى يكون ملتبسًا وصعب التحديد في بدايته. سيذهب إلى الصيدلي ليطلب منه دواء فلا يضيع وقت، وهو سيكتب إلى السيد رينج ليعلمه بما جرى.

«ولكن يحب أن تأتي ثانية، فلا بد من أن تشرف على فرد إذ لا يمكنني ترك ابني تحت رحمة شخص ربما يأتي أو لا يأتي، لا أطيق من كان تشخيصه ضعيفاً، أحمد الرب، فالسيد رينج أنقذني من مرض ذات الجنب، لكنه كان أحسن صنيعاً لو تركني أموت لو، لو...».

«سأجتمع بالسيد رينج هنا، هل أفعل؟». قال ليدجيت ذلك معتقداً تماماً أن السيد رينج ليس مهيأ على قدر كاف ليتعامل بحكمة مع مثل هذه الحالة.

قالت روزموند وهي تقترب من أمها كي تساعدها، وتمسك ذراعها: «أرجوك أن ترتب لهذا يا سيد ليدجيت».

عندما حضر السيد فنسي إلى المنزل كان غاضباً من السيد رينج، ولم يأبه إذا لم يأت إلى بيته ثانية، فيجب على ليدجيت أن يتابع حالة فرد إذا أحب رينج أو لم يحب. ليس بالأمر السهل أن تدخل الحمى إلى البيت، ويجب أن يخطر الجميع كي لا يحضروا إلى العشاء في يوم الخميس، ويجب على ريتشارد ألا يحضر خمراً، فشراب البراندي هو الأفضل للحمى. «سأشرب البراندي»، أضاف السيد فنسي مؤكداً: «فالأمر لا يحتمل العبث أو اللهو». إن فرد ولد غير محظوظ، فهو يحتاج قليلاً من الحظ كي يتغلب على ذلك، وإلا ما عرفت إذا ما بقي عندي ابن أكبر».

قالت الأم وهي تعض على شفتيها: «لا تقل هذا يا فنسي!! إذا كنت لا تريد أن يؤخذ مني ابني».

قال السيد فنسي بأقل حدة: «سيظل هذا يقلقك حتى مماتك، هذا ما أراه، سيعلم رينج بما أفكر فيه». (ما كان يعتقده فنسي أن الحمى كان يمكن السيطرة عليها لو أن السيد رينج اهتم بأسرة عمدة البلد كما ينبغي).

«إنني آخر رجل استسلم لفكرة استدعاء أطباء جدد، إن كانوا أتباعاً لبولسترود أو غيره، ولكن سيعرف رينج بما أفكر وليتقبلها كما يشاء».

لم يتقبل رينج الأمر بارتياح، على الرغم من أن ليدجيت عرض له المسألة بأقصى ما

يتمتع به من أدب، لكن الأدب عندما يأتي ممن يأخذ مكانك صدفة لا يجر إلا المزيد من الغضب والسخط خصوصًا إذا لم يكن ذلك الرجل محبوباً مسبقاً. لقد كان أطباء الريف حادّي الطباع وشديدي الحساسية تجاه الشرف، والسيد رينج أحدهم. لم يرفض أن يجتمع بليدجيت في المساء، لكنه كان مضطرباً، إذ كان عليه أن يسمع السيدة فنسي وهي تقول: «آه يا سيد رينج ماذا فعلت حتى تعاملني هكذا؟ أي تذهب ولا تعود ثانية وتترك ولدي يموت».

السيد فنسي الذي كان يتصدى بعنف لأعدائه، والذي كان غاضباً جدًّا، نهض عندما سمع رينج يدخل، وذهب إلى الردهة ليعلمه بما يعتقد به:

«إنني أقول لك يارينج: إن هذا ليس مزاحاً»، قال العمدة الذي اعتاد على توبيخ من أساء إليه بطريقة رسمية، وقد أعطى نفسه الحق وهو يضع إبهاميه تحت إبطيه. «أتدع الحمى تدخل مثل هذا المنزل ولا تبالي. كان عليك أن تفعل ولكنك لم تتصرف... هذا رأيي».

ولكن تحمل رينج للتأنيب الاندفاعي كان أسهل عليه من أن تعطى له التعليمات، أو يشعر أن ليدجيت الشاب يعتقد ضمنيًّا أنه في حاجة إلى التعليمات، لأن السيد رينج قال بعد ذلك: «في واقع الأمر، إن ليدجيت يتباهى بآراء غير واقعية»، ثم كظم غيظه في ذلك الوقت، لكنه كتب بعدها معلناً رفضه المجيء ثانية. ربما كانت الأسرة جيدة، لكن السيد رينج لن يضع نفسه محل تحقير أحد بسبب قضية تتعلق بمهنته، ولقد كان يتوقع أن ليدجيت سيقع في هفوة، وأن محاولاته غير المحبذة في معارضته لزملائه في بيع الدواء سترتد عليه. فراح يلقي بتعليقاته على خداع ليدجيت متهماً إياه بالشعوذة والدجل، ليحصل على الشهرة الزائفة لدى السذج من الناس، على أنه يعالج أمراضاً لا يقدر عليها أطباء بارعون. ولقد آلم ذلك ليدجيت كثيراً. إن الاتهام بالجهل لا يسبب الانتقاص والإهانة فحسب، بل يكون دائماً محفوفاً بالمخاطر. لم يكن ليدجيت يتحمل أكثر التوقعات حماقة أثناء عمله فقط، بل كان شديد الانفتاح مما يسبب لنفسه إيذاءً كما يتمنى السيد رينج.

هكذا أصبح ليدجيت طبيب عائلة السيد فنسي، فغدا ذلك حديثاً يتكرر في مدل مارش؛ قال بعضهم: لقد تصرفت عائلة فنسي بطريقة مخزية، وأن السيد فنسي قد هدد السيد رينج، وأن السيدة فنسي قد اتهمته بدس السم لابنها، كما قال آخرون إن وجود السيد ليدجيت قرب منزل السيد فنسي كان بفضل العناية الإلهية، وأنه خبير بعلاج الحمى، وأن السيد بولسترود كان محقًّا بالاستعانة به. كما اعتقد كثيرون أن قدوم ليدجيت إلى البلدة قد رتب له السيد بولسترود، والسيدة تافت التي كانت دائماً تنسج وتجمع المعلومات الصغيرة

المضللة، لقد اعتقدت أن ليدجيت ابن حقيقي للسيد بولسترود، حقيقة تؤكد معتقداتها بالأشخاص الإنجيليين.

لقد أسرت هذه المعلومة يوماً للسيدة فيربرذر التي بدورها نقلتها لابنها قائلة: «لا يدهشني شيء من بولسترود، ولكن يؤسفني أن أفكر سوءاً بليدجيت».

قال السيد فيربرذر بعد أن انفجر ضاحكاً: «لماذا يا أمي. إنك تعلمين جيداً أن ليدجيت يتحدر من أسرة جيدة في الشمال، وهو لم يسمع ببولسترود قبل مجيئه إلى هنا».

قالت العجوز بدقة: «هذا شيء مقنع بالنسبة إلى ليدجيت يا كامدن، ولكن بالنسبة إلى بولسترود يمكن أن يكون حقيقياً خبر أن يكون له ولد آخر».

الفصل السابع العشرون

دع عروس الشعر تتغنى بحب إله جبل الأولمبس...

فلسنا سوى مخلوقات فانية...

وينبغي لنا أن نتغنى بالإنسان...

لقد أوضح لي صديق فيلسوف بارع أنه يستطيع أن يغير وجه قطعة قديمة من أثاثك من خلال تسليطه ضوء العلم الصافي عليها. لقد أوضح لي حقيقة بسيطة ذات دلائل ومعان كثيرة.قائلاً، لو نظرت إلى ساعة الحائط، أو أي سطح معدني واسع في منزلك، بعد أن لمعته خادمتك، لرأيت في جميع أركانها خدوشاً دقيقة وأخرى كبيرة، ولو وضعت أمام إحداها شمعة مضاءة لتكون مركزاً للإشعاع، لرأيت أن تلك الخدوش تنظم نفسها على شكل دائري حول تلك الشمس الصغيرة. إن الخدوش منتشرة في واقع الأمر على سطح المرآة بأكمله، وأن الشموع وحدها تظهر وكأن الخدوش نظمت نفسها في دوائر. إن مثل هذه الأشياء رمزية، فالخدوش تقوم مقام الأحداث والشمعة تشبه غرور أي إنسان غائب كالآنسة فنسي على سبيل المثال. لقد كانت روزموند تتمتع بعناية إلهية خاصة جعلتها تبدو أكثر سحراً من الفتيات الأخريات، وجعلت من مرض فرد، وخطأ السيد رينج، سبباً يقربها من ليدجيت. كان سيبطل هذا الترتيب لو أن روزموند قبلت الذهاب إلى ستون كورت، أو إلى أي مكان آخر عملاً برغبة أبويها، خصوصًا أن السيد ليدجيت لم يجد حاجة إلى ذلك، وعندما أرسل كل من الآنسة مورغن والأطفال إلى بيت في مزرعة في صباح اليوم التالي، رفضت روزموند أن تترك أبويها.

يا للأم المسكينة، كانت تؤثر في كل مخلوق في الدنيا، أما السيد فنسي، الذي كان يدلل زوجته، فقد كان قلقاً عليها أكثر من قلقه على ابنه فرد، فلولم يكن يصر عليها لما كانت تذهب إلى النوم. لقد خبت كل حيويتها، وما عادت تأبه لملابسها، التي كانت دائماً نظيفة ومتلألئة، فغدت كطير مريض أرهقت عيناه ونفش ريشه، وما عادت تتفاعل بأحاسيسها مع ما كان يبهجها من الأصوات والمناظر. لقد مزق قلبها هذيان حمى فرد بعد أن ثارت على

السيد رينج، أصبحت تتصرف بهدوء تام، ولم تكن تبكي إلا حين كانت تتحدث إلى ليدجيت. لقد كانت تتبعه خارج الغرفة وتضع يدها على كتفه وهي تبكي متوسلة: «انقذ ابني، لقد كان ولداً باراً على الدوام يا ليدجيت، ولم يوجه مرة كلمة قاسية إلى أمه»، وكأن فرد المسكين يعاني من تهم كيلت ضده. لقد تحركت كل سلسلة ذكريات الأم، فهذا الشاب الذي يخفت صوته عندما يتحدث إليها، أحبته قبل أن تلده.

كان ليدجيت يقول لها دائماً: «عندي أمل كبير يا سيدة فنسي، تعالي معي ودعينا نتكلم حول الطعام».

هكذا كان يقتادها إلى غرفة الاستقبال حيث تجلس روزموند فيفاجئها بشاي أو بحساء أعد لها كي يحدث لها بعض التغيير. فقد كان متفاهماً جدًّا مع روزموند حول هذه المسائل، وقد كان دائماً يتحدث إليها قبل ذهابه إلى غرفة المريض، وكانت تستشيره بما يمكن أن تفعله لأجل أمها، كما كان تجاوبها مع تلميحاته لما يريد فعله يثير الإعجاب، فما كان من المدهش أن تصبح رغبته في رؤية روزموند ممتزجة مع اهتمامه بمرض فرد، خصوصًا بعد أن مرت مرحلة الخطر، وبدأ يشعر بثقة عالية أن فرد سيتعافى كليًّا. أما في الأوقات الحرجة، وحين كانت تراوده بعض الشكوك، كان ينصح باستدعاء الطبيب سبراغ الذي استطاع أن يتخذ موقفاً محايداً إكراما لرينج، ولكن وبعد استشارتين أصبح يميل إلى جانب ليدجيت نتيجة لتحسن حالة فرد ومواظبة ليدجيت على القيام بواجباته، فقد كان يأتي إلى منزل العائلة في كل صباح ومساء، ثم بدأت زياراته تبعث البهجة في المنزل بينما أصبح فرد واهناً، إلا أنه بدأ يعي ويدرك حنو من هم حوله. حتى إن السيدة فنسي بدأت تشعر أن مرضه كان سبباً لتوظيف جميع مشاعر حبها لابنها.

لقد وجد الأبوان فرصة إضافية للدعابة والمرح، لمّا كان ليدجيت ينقل رسائل فيذرستون العجوز القابع في فراشه التي تتضمن تمنياته لفرد بالشفاء العاجل، وكذلك نفاد صبر فيذرستون وحزنه لعدم رؤية فرد. كانت السيدة فنسي توصل هذه الرسائل لفرد كلما وجدته قادراً على سماعها، وكان يدير وجهه النحيل الذي يظهر من بين شعره الأشقر الكثيف والطويل، وكانت عيناه تغدو أكثر اتساعاً، وهو يتوق لسماع كلمة عن ماري متسائلاً عما تشعر به عندما علمت بمرضه. لم يكن ينطق بكلمة لكن أمه كانت تدرك بعينيها ما كان يجول في خاطره، ولم تدرك الأم بقلبها اشتياق فرد فحسب، بل كانت مستعدة كي تقوم بأي تضحية لأجل إرضائه.

كانت تردد ذلك ببساطة: «لو أرى ابني قويًّا ثانية، ومن يدري ربما أصبح سيد ستون كورت فعندها سيستطيع الزواج من أيّ امرأة يحبها».

قال فرد، وقد حوله المرض إلى طفل، فكانت الدموع تنهمر من عينيه كلما تحدث: «لن يكون ذلك يا أمي ما لم يرغبوا بي».

«كلْ قليلاً من الجلاتين يا عزيزي»، قالت ذلك السيدة فنسي وهي تتوقع سراً رفضه. لم تترك فرد لوحده ما دام زوجها في المنزل، وهو ما جعل روزموند وعلى غير عادتها، تقضي وقتاً طويلاً لوحدها. أما ليدجيت لم يخطر له أن يقضي وقتاً أطول معها إلا أن الأحاديث القصيرة التي كانت تدور، نجم عنها جو يسوده خجل غريب، فكان كل منهما مجبراً على النظر إلى الآخر أثناء تحدثهما إلى بعض، وفي بعض الأوقات لم يستطيعا مواصلة نظرهما إلى بعض على الرغم من ضرورة الحوار.

بدأ ليدجيت يشعر أن هذا النوع من هذا الشعور المتبادل لم يكن مستحسناً، ففي يوم من الأيام أنزل نظره إلى الأسفل كدمية أصابها الخلل، ولكن تبين في ما بعد أن هذا التصرف لائق، ففي اليوم التالي أنزلت روزموند نظرها إلى الأسفل فكانت النتيجة، عندما التقى نظرهما أن كليهما أصبح أكثر خجلاً. لا تفسير لذلك علميًّا، ولا سيما أن ليدجيت لم يقصد المغازلة. ولقد برز شعور بالارتياح عندما بدأ الجيران زيارة المنزل الذي أصبح آمناً ولم يعد خطراً، وأصبحت لقاءات ليدجيت وروزموند لوحدهما أقل بكثير.

بعد أن حلت هذه المودة المتبادلة والمربكة بينهما، لم يكن التخلي عن تبعاتها ممكناً، فغدا الحديث عن الطقس والمواضيع الأخرى أمراً أجوف لا قيمة له، ولم يعد التصرف أمراً هيناً ما لم يصحبه سحر متبادل، وهكذا تغلغل الشعور بالارتياح إلى قلبي روزموند وليدجيت فأضفى ثانية على حديثهما نوعاً من البهجة.

بدأ الزائرون يأتون ويذهبون كما كانوا يفعلون من قبل، وعادت الموسيقى تعزف في غرفة الاستقبال، وعاد معها كرم ضيافة السيد فنسي الزائد، وكلما اغتنم الفرصة جلس ليدجيت إلى جانب روزموند مطولاً لكي يستمع إلى عزفها داعياً نفسه أسيرها، إلا أن تفاهة فكرة زواجه الفوري كانت تقف حائلاً بينه وبين الزواج، وتشكل ضماناً لعدم تحقيقه، أما لعبة الوقوع في الحب فقد كانت مقبولة إلى حد ما، ولا سيما أنها لا تتعارض مع مهنته، أما الغزل فما كان بالضرورة أن يغرق صاحبه. وأما روزموند فلم تستمتع في حياتها بأيام كهذه الأيام،

إذ كانت تتباهى برجل يستحق الإيقاع به، ولم تميز بين الغزل والحب: لا بالنسبة إليها ولا بالنسبة إلى غيرها، وكانت تبدو وكأنها تبحر بزورق تجره الرياح إلى مقصدها متمنية بيتاً في لُويك جيت. لقد كانت مصممة أن تبعد عن منزلها كل الذين لا ترغب فيهم من ضيوف أبيها، وكانت تتخيل غرفة الاستقبال في منزلها المأمول يملؤها أثاث متنوع. بالتأكيد.. احتل ليدجيت جلَّ تفكيرها، فبدا لها قريباً من الكمال، فلو عرف أصول العزف الموسيقي لبدا وهو مفتون بعزفها أفضل من قبل، ولو كان خبيراً أكثر بتنوع ذوقها من اللباس لكان من الصعب عليها أن تجد فيه نقصاً. كم كان مختلفاً من بلمديل وكايس لارجر، اللذين لم يعرفا الفرنسية ولم يكن بإمكانهما أن يناقشا موضوعاً ذا أهمية، باستثناء الصباغة والنقل، المهنتين اللتين كانا يخجلان من ذكرهما. لقد كانا من الطبقة الأرستقراطية في مدل مارش، يتباهيان بقبضات سياطهم المصنوعة من الفضة وجواربهما الحريرية، ولكنهما يخجلان دائماً من تصرفاتهما ويميلان إلى المرح، حتى فرد كان أعلى مرتبة منهما، فهو يتمتع بسلوك ولغة طلاب الجامعات. أما ليدجيت فكان الجميع يستمعون إليه دائماً، فهو يتصرف ويتحدث بكبرياء مهذبة، ويرتدي الثياب المناسبة دون تكلف أو تصنع. كانت روزموند تتباهى وتشعر بالفخر كلما دخل الغرفة، وكلما يقترب منها، والابتسامة ترتسم على وجهه، كان ينتابها إحساس عذب لأنها كانت تشكل هدف الثناء والتقدير المحسود. لو عرف ليدجيت مقدار التباهي والتفاخر اللذين غرسهما في ذلك البرعم المتفتح، لغمرته السعادة كأي رجل آخر يجهل علم الأحياء وعلم الأنسجة. لقد أعجبه افتتان النساء بالرجال قبل تعرفهن طبائعهم. ولم تكن روزموند إحدى أولئك الفتيات اللواتي لا فائدة ترتجى منهن، ويخدعن أنفسهن دون وعي، ويتصرفن بحسب أهوائهن وليس بحسب قيم المجتمع وآدابه المحافظة والاحتشام والكياسة. هل تعتقد أن معرفتها وتأملها بأثاث المنزل والمجتمع كان يظهر جليًّا في حواراتها مع الآخرين وحتى مع أمها؟

وعلى العكس فقد كانت تعبر عن دهشتها عندما تسمع أن شابة ما قد عرف عنها تصرف غير ناضج ولا محتشم، فكانت حقًّا لا تتقبل ولا تصدق هذا الاحتمال، وهي لم تكن تدعي ما لا تعرفه، وإن كانت تعرف مزيجاً من الموسيقى والرقص والرسم، وتكتب الملاحظات المميزة، وتملك كتاباً خاصاً تجمع فيه مقطوعات شعرية منتقاة... لا تظن بها سوءاً، فلم تكن ماكرة، ولا فيها شيء من الخسة ولا الجشع، وهي لم يكن تفكر في النقود إلا بما هو ضروري ومقبول لدى الآخرين، ولم يكن من عادتها أن تصطنع الكذب أو الرياء، وعندما لا يكون حديثها معبراً عن الحقيقة بدقة، لا يكون عمدًا، لكنها تفعل ذلك كي تسر الآخرين. لقد وضعت الطبيعة كثيراً من عناصرها في الطالبة المفضلة لدى السيدة لمون التي

اعتبرها الجميع، عدا فرد، فتاة نادرة تجمع بين الجمال والذكاء والكياسة.

بدأ ليدجيت يشعر بارتياح أكبر كلما التقاها، فلم يعد يشعر بارتباك ولا قيود، فأصبحت عيونهما تتبادل النظرات المبهجة، وما كانا يقولانه كان عذباً وسلساً بالنسبة إليهما، أما بالنسبة إلى الآخرين فقد كان سطحيًّا، ولكن حتى هذه اللحظة لم يتحاورا لوحدهما في أمر يستلزم استبعاد الآخرين عنهما.

ففي حقيقة الأمر لم يتجاوزا مرحلة الإطراء، وكان ليدجيت مطمئناً لاعتقاده أنهما لم يفعلا أي شيء آخر. فإذا لم يستطع الرجل أن يحب ويظل حكيماً، فهو يستطيع أن يطري ويظل حكيماً في الوقت عينه.

حقًّا، إن جميع الرجال في مدل مارش عدا السيد فيذرستون مملون، والسيد ليدجيت لم يهتم بشؤون التجار ولا لعبة الورق فما عساه أن يفعل في أوقات فراغه...؟غالباً ما يدعى إلى منزل السيد بولسترود ولكن نادراً ما يخرجن الفتيات من غرفة الدراسة، أما طريقة السيدة بولسترود في توفيقها بين التقوى والدنيوية وتفاهات الحياة والزخرف والتمييز بين الثياب الرثة القديمة والقماش الفاخر، فلم تكن أفضل من جدية زوجها الثابتة وغير المتغيرة.

أما عائلة فنسي، فعلى الرغم من عيوبها، فإنها كانت الأكثر حيوية. فقد نشأت روزموند كوردة متفتحة جميلة مزدانة بصفات تثير إعجاب الرجال. أما ليدجيت، فبالإضافة إلى أعدائه من الأطباء، ونتيجة لعلاقته بالآنسة فنسي، أصبح له أعداء آخرون؛ فمرة حضر إلى غرفة الاستقبال متأخراً، وقد سبقه إليها العديد من الزائرين، وكان السيد نيد بلمديل، الذي كان أحد أفضل الشباب في مدل مارش، لكنه ليس أحد أكثرهم ثقافة، يتحدث بانفراد إلى الآنسة روزموند، وقد أحضر معه كتاباً تذكاريًّا في غاية الروعة والجمال قد خط بالحرير، إذ كان يمثل تطوراً حديثاً في ذلك الوقت، وكان يعتبر نفسه محظوظاً أنه أول من رآه بصحبتها، وهو يمعن النظر في صور الرجال والنساء بوجناتهم وابتساماتهم النحاسية في التذكار، ويشير إلى أبيات الشعر الهزلية والقصص العاطفية الممتعة. لقد بدت روزموند فاتنة، أما السيد نيد فكان مبتهجاً بما كان لديه من قطعة فنية وأدبية كأداة للتخاطب، وأفضل ما يستخدم في جذب اهتمام فتاة جميلة، كما كانت لديه أسباب أخرى عميقة تجعله راضياً عن مظهرها الخارجي. أما بالنسبة إلى المهتمين جدًّا بالمظاهر الخارجية فقد كان ذقنه غاية في الصغر، إذ كان يسبب له إرباكاً لدى استخدامه الوشاح الحريري.

قال نيد مبقياً الكتاب مفتوحاً، وهو ينظر إلى إحدى الصور بفتور: «أعتقد أن السيدة (س) النبيلة تشبهك».

«لها جسم ممتلئ، لا بد لها من أنها قضت وقتًا طويلاً وهي جالسة كي أصبحت هكذا». قالت روزموند دون أن تقصد السخرية، لكنها تفكر كيف أن يدي بلمديل الشاب محمرتان، وتتساءل لماذا لم يأت ليدجيت حتى الآن، ثم تابعت حوارها مع نيد.

قال نيد، وهو يرفع نظره من الصورة إلى روزموند: «لم أقل إنها جميلة مثلك».

قالت روزموند وقد تعمدت أن تصد الشاب مرة أخرى: «ظننتك مغازلاً بارعاً».

لقد حضر ليدجيت لتوّه، فأغلق الكتاب قبل أن يصل إلى طاولة روزموند. وعندما جلس في الجهة المقابلة لها، فجأة فتح بلمديل فمه للصدمة التي أصابته وتغير كتغير مقياس الضغط الجوي المفاجئ. لم تفرح روزموند لقدوم ليدجيت فحسب، بل لما كان له من تأثير أيضاً، إذ كانت تستمتع بإشعال نار الغيرة.

قالت عندما صافحته: «لقد تأخرت كثيراً. افتقدتك أمي منذ قليل، كيف تجد حال فرد؟».

«طبيعي، إنه يتحسن ولكن ببطء.. أردته أن يخرج إلى ستون كورت مثلاً، ولكن يبدو أن أمك تعارض ذلك».

قالت روزموند برفق: «يا للمسكين!! ستجد فرد وقد تغير كثيراً» ثم أضافت وهي تستدير إلى الشاب الآخر: «إننا نعتبر السيد ليدجيت ملاك رحمة بعث إلينا أثناء هذا المرض». ابتسم السيد نيد متوتراً، بينما سحب ليدجيت الكتاب وفتحه مع ضحكة ساخرة وكأنه يعجب من حماقة الإنسان.

قالت روزموند باعتدال متعمد: «ما يضحكك بسخرية هكذا؟».

«إنني أعجب أي واحدة منها ستكون الأسخف، أهي الكتابة أم الزخرف؟؟»، قال ليدجيت بأقوى نبرة ثقة يملكها، وهو يقلب صفحات الكتاب بسرعة فائقة، وكأنه يريد أن يرى كل ما في الكتاب بلحظات، ويظهر فائدة يديه الكبيرتين البيضاوين كما كانت تعتقد روزموند، «انظري إلى هذا العريس وهو يخرج من الكنيسة، هل رأيت في حياتك مثل هذا

الابتكار المزيّن كما كان يقول الاليزابيثون؟ هل بدا أي خرزدجي متكلفاً هكذا؟ بالرغم من كل هذا فإن الحكاية تجعل منه أفضل رجل على سطح الأرض».

قالت روزموند، وقد احتفظت باعتدال ابتهاجها: «إنك قاس. إنك تخيفني!!». أما بلمديل المسكين فقد اهتزت مشاعره فخفف من إعجابه بالنقوش.

قال بغيظ وانفعال: «يوجد الكثير من المشاهير في هذا الكتاب التذكاري وهم يمثلون جميع المناسبات. وهذه أول مرة أسمع فيها أحداً يسميه سخفاً».

قالت روزموند لليدجيت مبتسمة: «أظن أنه يجب علي أن أدعوك بالفظ، أظنك لا تعرف شيئاً حول السيدة بلسينغتون ول.ي.ل». لم تكن روزموند نفسها تستمتع بهؤلاء الكتاب، لكنها لم تقحم نفسها من خلال إبدائها إعجابها بهم، وكانت يقظة كي لا تبدي أبسط إشارة لا ترتقي إلى ذوق ليدجيت الرفيع.

قال الشاب بلمديل مبتهجاً قليلاً لاغتنامه هذه الفرصة: «لكن السير ولتر سكوت... أظن أن السيد ليدجيت يعرفه».

قال ليدجيت وهو يغلق الكتاب ويدفعه بعيداً منه: «إنني لا أقرأ الأدب هذه الأيام. لقد قرأت كثيراً حين كنت صغيراً، وأظن ذلك يكفيني بقية حياتي، كنت أحفظ قصائد سكوت عن ظهر قلب».

قالت روزموند: «أريد أن أعرف متى توقفت عن ذلك. لأنني سأكتشف ما لا تعرفه».

قال السيد نبد وهو يغلي غيرة: «سيقول السيد ليدجيت إن ذلك لا يستحق المعرفة... ».

قال ليدجيت دون أن يظهر حذاقته، لكنه كان يبتسم لروزموند بثقة حانقة: «على العكس.. سيستحق المعرفة لو أخبرتني إياها الآنسة فنسي».

ذهب هنا الشاب بلمديل إلى طاولة لعب الورق، معتقداً أن السيد ليدجيت أحد أكثر الرجال غروراً ومللاً، فمن سوء حظه أن التقاه في هذا المساء.

قالت روزموند وهي تخفي سرورها: «كم أنت متسرع...!! ألا ترى أنك أسأت إليه؟»...

«ماذا...؟! هل هو كتاب السيد بلمديل..؟! أنا آسف إنني لم أفكر في هذا».

«بدأت أصدق ما قلته عندما أتيت أول مرة إلى هنا إنك فظ وأحمق، وتريد أن تعلمك الفتيات».

«حسناً، هناك فتاة أحب أن تعلمني ما تريد. ألا أستمع إليها برغبة...؟؟؟!!».

بالنسبة إلى روزموند بدا حديثها مع ليدجيت، وكأن خطوبة تربطهما، لأن فكرة الخطوبة تعشش في مخيلتها منذ وقت بعيد، وكما نعرف أن مثل هذه الأفكار تترسخ وتغدو كأنها حقيقة، ولا سيما أن تطورات الأحداث تساعد على ذلك. حقًّا كان لدى ليدجيت فكرة معاكسة حول بقائه دون ارتباط، لكنها كانت انعكاس أفكار سطحية أخرى قابلة للانحسار والتلاشي. لقد كانت الظروف تقف إلى جانب فكرة روزموند التي برزت من خلال تصرفاتها الحيوية النشيطة، وأطلت عبر عينيها الزرقاوين، أما فكرة ليدجيت فقد ظلت في عتمة الظلمة وتلاشت كما يتلاشى قنديل البحر دون أن يعي.

عندما عاد إلى منزله في ذلك المساء نظر إلى قوارير الأدوية ليرى تطور تفاعل الدواء فيها دون اهتمام شديد، ثم كتب ملاحظاته اليومية بأقصى دقة اعتاد عليها. لقد كانت الأفكار التي تسيطر على مخيلته، وكان يصعب عليه التخلص منها، ذات بنية مثالية لشيء يختلف عن مزايا روزموند وفضائلها، كما كان تشكل الأنسجة الأولية لتجاربه غامض بعض الشيء بالنسبة إليه. وفضلاً عن ذلك، فقد بدأ يشعر ببعض النشوة لتحسن علاقاته، على الرغم من بقاء نصف العداوة خفيًّا بينه وبين زملائه الأطباء، والتي على ما يبدو ستصبح ظاهرة، ولا سيما أن الآن سيعلن عن طريقة بولسترود في إدارة المستشفى الجديد، كما كان هناك ما يبعث على التشجيع إذ يمكن تعويض رفض مرضى السيد بيكوك له بما كسبه من قبول في مناطق أخرى.

بعد أيام قليلة، عندما صادف روزموند في شارع لُوِيك، نزل من على حصانه ليسير إلى جانبها، ويحميها من قطيع كان يمر بجانبها، استوقفه خادم يركب حصاناً ويحمل رسالة تطلبه إلى منزل ذي أهمية لم يحضر إليه السيد بيكوك من قبل، ولقد كانت هذه المرة الثانية، فالخادم كان يتبع لسير جتم، أما المنزل فكان لُوِيك منر.

الفصل الثامن والعشرون

النبيل الأول: جميع الأوقات تناسب سعيك وراء منزلك الزوجي لتجلب البهجة المتبادلة.

النبيل الثاني: هذا صحيح، فالتقويم لايتضمن يوماً شريراً لأن الأرواح قد وحّدها الحب، وحتى الموت يصبح عذباً، إذا ما جاء كالموج المتدحرج بينما هما يحتضنان بعضهما، ولا يتنبآن بفراق يحل في حياتهما.

عندما عاد السيد والسيدة كزابون من رحلتهما، عادا إلى لُويك منر في منتصف كانون الثاني، ولدى وصولهما إلى باب المنزل كان قليل من الثلج يتساقط، وفي صباح اليوم التالي، بينما كانت تجلس أمام مخدعها، رأت صفًّا طويلاً من أشجار الزيزفون تخرج جذوعها من الأرض البيضاء وتمتد أغصانها البيضاء في السماء الداكنة والساكنة. أما السهل الممتد فقد بدا قريباً يكسوه الثلج الأبيض، وقد اقتربت منه الغيوم المتناسقة كثيراً، وقد بدت قطع أثاث المنزل لها وكأن حجمها صغر كثيراً عمّا رأتها من قبل... فالغزال الذي على البساط المزخرف بدا كشبح يسبح في عالم الأشباح الملون بالأزرق والأخضر، كما بدت كتب الأدب الرفيع على رفوفها كئيبة، وكأنها نسخ مقلدة لا تهز في نفوس قرائها أيّ مشاعر. أما نار حطب البلوط الجاف المتقدة والمضيئة في موقدها فقد بدا وهجها متجدداً ومتنافراً يشبه تجدد الحياة وتنافرها، ويشبه دورثيا نفسها عندما دخلت، وهي تحمل حقائب جلدية حمراء تحتوي على أحجار كريمة لسيليا.

لقد كانت مفعمة بالحيوية عندما انتهت من وضع مساحيق الصباح على وجهها، فبدت شابة مفعمة بالصحة والحياة، يظهر عليها جمال أخاذ وإشراقة نفيسة تظهر على شعرها المجدول، وعينيها البندقية اللون، كما كانت الحياة الدافئة الحمراء تنبعث من شفتيها ومن حنجرتها، وتنبعث رائحة العبق الأبيض من فوق الفراء الأبيض الذي كان يلف عنقها، ويتدلى على ردائها الطويل الأزرق الرمادي برقة تزيد من رقتها، فتمتزج الحساسية الواعية بالبراءة والطهر اللذين احتفظا بعذوبتهما بعيداً من نقاء الثلج البلوري وصفائه.

بعد أن وضعت حقائب الأحجار الكريمة على الطاولة عند النافذة القوسية أبقت بلا وعي يديها عليها، فقد رأت نسيجاً أبيض ساكناً، رأت من خلاله عالمها المرئي السيد كزابون الذي استيقظ باكراً، يشكو من خفقان في قلبه، كان يجلس مع القس تكر في مكتبته، وبعد قليل ستحضر سيليا في مظهر عرائسي وكأخت أيضاً، وخلال الأسابيع القادمة سيحضر العديد من الزائرين المهنئين ليضفوا سعادة إضافية على هذه المرحلة الانتقالية من حياة العروسين، ويبعثوا فيها حيوية وحركة. بينما بدأ الشك يتغلغل في حلم الإنسان الحالم، بدأت واجبات دورثيا الزوجية، التي كانت تراها عظيمة جدًّا من قبل، تصغر وتضمحل في نظرها كحال الأثاث والمنظر الطبيعي الذي كان يحجبه الضباب الأبيض. أما الهضاب الواضحة التي كانت تأمل السير عليها بحميمية بالغة فقد أصبحت من الصعب رؤيتها حتى في خيالها. فطمأنينة الروح العذبة، وهي في أوج طمأنينتها، اهتزت وأرعبها تشاؤم الحس الداخلي. متى ستبدأ أيام الحياة الزوجية المليئة بالواجبات والحيوية التي تقوي من خلالها حياة زوجها، وترقى بحياتها هي؟ ربما لن تأتي أبداً كما توقعتها ولكن ربما ما يشبهها. وبارتباطها المقدس هذا يمكن لواجباتها الزوجية أن تظهر من خلال إيحاء جديد فتعطي معنىً جديداً للحب الزوجي.

بينما يوجد ثلج وضباب كثيف منخفض، كان ينتاب عالم تلك المرأة النبيلة إحساس باضطهاد مكبوت... إذ كان يقدم كل شيء لها ولا يطلب منها أي شيء، ويجب عليها في الوقت نفسه أن تحتفظ بمرارة الإحساس المتنامي في داخلها والمتشعب بالارتباط بالوجود...

«ماذا سأفعل؟».

«أي شيء يسرك يا عزيزتي»... كانت هاتان العبارتان تمثلان حياتها الماضية منذ أن توقفت عن دروسها الصباحية، وتدربها على عزف المقطوعات الصغيرة السخيفة التي كانت تكرهها، والزواج الذي كان من المفترض أن يقودها إلى عمل ذي قيمة، لم يخلصها بعد من قمع المرأة النبيلة... فهو حتى لا يشحذ سعادتها بمتعة تأملها بنقاط ضعفها المبهمة، فوقف شبابها النابض المتفتح هناك سجين الأخلاق، فجعل من نفسه منظراً طبيعيًّا ذا أفق ضيق بارد ولا لون له مع الأثاث الذي صغر حجمه والكتب التي لم تقرأ قط، وشبح الغزال في العالم الشاحب الذي راح يختبئ من ضوء النهار.

في أول لحظة نظرت فيها دورثيا إلى الخارج لم تشعر بشيء سوى الاضطهاد المقيت، ثم جالت في خاطرها ذكرى جلية، فابتعدت عن النافذة، وراحت تسير في الغرفة. إن

الأفكار والآمال التي عاشت في خيالها، عندما رأت هذه الغرفة أول مرة منذ ثلاثة أشهر، هي الآن ليست إلا ذكريات، تنظر إليها كما ننظر إلى الأشياء الزائلة والعابرة. لقد بدا نبض الأشياء من حولها أبطأ من نبض حياتها، كما بدأ معتقدها الديني يصرخ وحيداً في عزلته، وهي تصارع كي تخرج من الكابوس الذي خيم عليها، فرأت فيه كل شيء يذبل ويتلاشى من حولها. لقد بدت كل الأشياء من حولها، وكأنها تموت وذهب سحرها أدراج الرياح حتى وقع نظرها على مجموعة الصور، فرأت بينها أخيراً ما كان له معنىً وبعث فيها نبضاً... لا زالت صورة خالة السيد كزابون جوليا التي مرت بزواج غير موفق، وهي جدة ويل لادسلو، حيةً في خيال دورثيا، فقد كان لوجه المرأة اللطيف خصوصية لا يمكن فهمها، إذ كان ذلك الوجه ينم عن صلابة في الرأي. هل كان أصدقاؤها فقط هم الذين اعتبروا زواجها غير موفق، أم قد تبين لها نفسها أنه كان خطأ، فراحت تذوق مرارة دموعها تحت رحمة صمت الليالي؟

كم هي كبيرة، التجارب التي مرت بها دورثيا منذ رأت هذه الصورة أول مرة...؟ لقد شعرت بها صديقة جديدة لها، تصغي إليها، وتستطيع أن ترى كيف تنظر دورثيا إليها. هنا صورة امرأة خبرت صعوبات حول الزواج. كلا لقد قتمت الألوان، وبدت الشفتان والذقن أكبر من قبل، وبدا الشعر والعينان وكأن ضوءاً ينبعث منهما، كما بدا الوجه وكأنه ذكوري يبتسم لها محملقاً فيها، وكأنه يقول لها: إنك شديدة الجمال والجاذبية حتى كأن لا يمكن لأحد أن يدع حركة جفنيك تمر دون أن يستمتع بالنظر إليها. لقد جاء هذا العرض المشرق كوهج عذب إلى دورثيا، فأحست برغبتها في ابتسامة، وعندما انصرفت من أمام الصورة جلست ونظرت إلى الأعلى، وكأنها تتحدث مع أحد ثان أمامها، لكن الابتسامة ما لبثت أن اختفت حالما بدأت دورثيا تتأمل، وأخيراً قالت بصوت مرتفع: «إنه من القساوة أن أتكلم هكذا...! كم كان مؤسفاً ومروعاً أن أتكلم هكذا...!».

نهضت مسرعة وخرجت من الغرفة تركض عبر الممر باندفاع لا يقاوم كي ترى زوجها متسائلة ما إذا ما كان في استطاعتها أن تفعل شيئاً له. ربما ذهب السيد تكر، وبقي السيد كزابون لوحده في المكتبة. لقد شعرت وكأن كل الكآبة التي حلت عليها كل هذا الصباح ستختفي إذا رأت زوجها سعيداً بقدومها. عندما وصلت أعلى الدرج كانت سيليا تصعد، وكان السيد بروك يتبادل التحية والتهاني مع السيد كزابون.

«دودو»، قالت سيليا بصوتها المتقطع الهادئ، ثم عانقت أختها التي لفت ذراعيها حولها، ولم تقل شيئاً آخر، ربما اغرورقت عيون الفتاتين بالدموع، ثم ركضت دورثيا إلى

الأسفل لتحيي عمها.

قال السيد بروك بعد أن قبل جبهتها: «لا أحتاج كي أسألك كيف حالك يا عزيزتي، أظن أن جو روما قد لاءمك... السعادة... واللوحات.. والقطع الأثرية القديمة.. وشيء كهذا. إنه من دواعي سروري أنك عدت إلينا ثانية، وإنك تفهمين كل شيء عن الفن أليس كذلك؟ لكن كزابون يبدو شاحباً قليلاً، لقد قلت له ذلك، شاحباً قليلاً، أليس كذلك؟ الدراسة الكثيرة في عطله تجهده. لقد حدث لي ذلك ذات مرة». لا يزال السيد بروك يمسك بيد دورثيا، لكنه أدار وجهه إلى السيد كزابون «علم الطبوغرافيا والآثار والمعابد. لقد اعتقدت أنني أملك مفتاحاً لحل ألغازها، ولكن تبين لي أنها ستأخذ مني جهداً كبيراً، ولن أحصل على أيّ نتيجة. يمكنك أن تبذل جهداً كبيراً في مثل هذه الأشياء، وربما لن تصل إلى نتيجة كما تعلم». أدارت دورثيا عينيها إلى زوجها أيضاً لتتبين بقلق ما إذا لاحظ الذين رأوه بعد عودته أي تغير لم تلحظه هي.

قال السيد بروك وقد لاحظ تعابير وجهها: «لاشيء يثير القلق يا عزيزتي... بقليل من لحم البقر والضأن سيتحسن. لقد كان من الأفضل أن تبدو شاحباً كي ترسم صورة أكويناس، أليس كذلك؟ لقد وصلتنا رسالتك في الوقت المناسب، لكن أكويناس كان ذكيًّا وماكراً أكثر مما ينبغي، أليس كذلك؟ هل من أحدٍ قرأ كتابات أكويناس؟».

قال السيد كزابون ردًّا على أسئلة السيد بروك وهو يواجهها بصبر وحذاقة: «حقًّا، إنه ليس كاتباً لا يفهمه أصحاب العقول البسيطة»

قالت دورثيا محاولة إنقاذ الموقف: «هل ترغب بشرب قهوتك في غرفتك يا عمي؟».

«نعم، ويجب أن تذهبي إلى سيليا، فهي لديها أخبار جيدة، تعلمين أنني أترك الأمر كله لها».

لقد بدا المخدع الأزرق اللون أكثر بهجة عندما جلست سيليا، وهي ترتدي رداءها الطويل، وهو يشبه رداء أختها، تتفحص الأحجار الكريمة برضا هادئ بينما انتقل الحديث إلى مواضيع أخرى.

قالت سيليا وقد بدا عليها خجلها اللطيف الذي اعتادت دورثيا على رؤيته في أبسط المناسبات: «هل تعتقدين أن الذهاب إلى روما لقضاء شهر العسل أمر جيد؟»

قالت دورثيا بهدوء، ما كان لأحد أن يعلم ماذا كان يعني قضاء شهر العسل في روما بالنسبة إليه: «إنها لا تناسب الجميع فعلى سبيل المثال إنها لا تناسبك».

«تقول السيدة كادولدر: إنه من العبث أن يذهب الناس في رحلة طويلة عندما يتزوجون، وهي تقول: سيملون من بعضهم كثيراً، ولا يستطيعون أن يتشاجروا بارتياح كما يفعلون في بيوتهم، وتقول الليدي جتم: إنها ذهبت إلى مدينة باث». تغير لون وجه سيليا مرات عديدة.

المناورة في الحديث لا بد من أن يكون خلفه مأرب، وأعمق معنى من تلون وجه سيليا واحمراره.

قالت دورثيا بنبرة يشوبها ود الأخت لأختها: «سيليا...!! هل حدث شيء؟ هل لديك أخبار تودين أن تقوليها لي؟».

قالت سيليا، وقد اختبأ خلف عينيها بعض المكر: «لقد كان ذلك بسبب سفرك يا دودو، إذ لم يكن أحد سواي يتحدث مع السير جيمس».

قالت دورثيا وهي تضع وجه أختها بين يديها، وتنظر إليها بقليل من الاضطراب. لقد بدا زواج سيليا أكثر جدية من قبل: «لقد فهمت، هذا ما تمنيته وتوقعته».

قالت سيليا: «لقد حدث ذلك منذ ثلاثة أيام فقط. والليدي جتم لطيفة جدًّا».

«وأنت سعيدة جدًّا؟».

«نعم، إننا لن نتزوج قريباً، لأن كل شيء يجب أن يهيأ، وأنا لا أريد أن أتزوج في القريب العاجل لأنني أعتقد أن من البهجة أن نرتبط بخطوبة، لأننا سنظل متزوجين بقية حياتنا».

قالت دورثيا بحنان وحنو: «إنني أعتقد أنك ما كنت لتتزوجي من رجل أفضل منه يا كيتي. إن السير جيمس رجل نبيل وطيب»».

«لقد تابع عمله في البيوت الريفية يا دودو، وهو سيخبرك عنها عندما يأتي، ستكونين مسرورة لرؤيته؟».

«بالطبع سأكون مسرورة جدًّا. كيف لك أن تسأليني هذا السؤال؟».

قالت سيليا مشيرة إلى ثقافة السيد كزابون كنوع من الكآبة التي يمكن لها مع مرور الأيام أن تشبع من هم حوله: «لقد كنت قلقة من أنك أصبحت على درجة عالية من الثقافة».

الفصل التاسع والعشرون

لم أجد في أحد عبقرية يمكن لها أن تسعدني...

فتناقضاتي غير المحظوظة قد جففت تماماً مصدر تلك السعادة.

جولد سميث

في صباح أحد الأيام، وبعد أسابيع من وصولها إلى لُويك... دورثيا، ولكن لماذا دورثيا..؟؟؟ هل كان رأيها في هذا الزواج الأوحد المصيب؟؟ فيعارض جميع اهتماماتنا وجهدنا.

فهمنا أن الشابات المتفتحات، على الرغم من مشاكلهن سيذبلن أيضاً، وسيتعرفن إلى من هم أكبر، ويقضمن الأسى والمرارة التي نبذل قصارى جهدنا كي نتجنبها. على الرغم من العينين الرامشتين والشامتين البيضاوين اللتين تعترض عليهما سيليا، وعلى الرغم من عدم امتلاكه عضلات قوية مما يجعل السير جيمس يأسف لذلك، فإن السيد كزابون كان يتمتع بثقة عالية بنفسه، وكان مثلنا متعطشاً روحيًّا. لم يفعل شيئاً استثنائيًّا بزواجه - لا شيء سوى ما يفرضه المجتمع، ويعتبره مناسبة لتقديم التهاني وباقات الورود. لقد خطر له أنه لا يجب أن يستمر في عزوبيته أطول من هذا، فعقد عزمه على أن يحصل على زوجة.

رجل ذو مكانة مرموقة لا بد له من أن يختار بعناية شابة متقدة، وكلما كانت أكثر شباباً كانت أفضل، لأنها تكون لديها قابلية للتعلم والخنوع، كما يجب أن تكون بمستواه الاجتماعي نفسه وتتمتع بمبادئ دينية ونزعة للفضيلة ووعي متفتح، فبمثل هذه الشابة سيتمكن من تحقيق استقرار جيد، ولن يعارض ما يحقق لها السعادة. وفي المقابل سيحصل على السعادة الجارية، ويلقي خلفه ما مضى من حياته التي غدت مادة لقصائد القرن السادس عشر، فالزمان قد تغير من ذلك الوقت ولم يعد شاعر يحتاج إلى مثل حياة كزابون مادة لقصائده. فضلاً عن ذلك فإنه لم ينجح في استصدار نسخ لأفكاره الميثولوجية، لكنه كان دائماً عازماً

على أن يحل نفسه من الالتزام بذلك من خلال زواجه المرتقب، فإحساسه بمرور السنين مسرعة أمامه، وأن العلم يغدو تدريجاً أكثر عتمة، وإحساسه بالوحدة، كانت أسباباً كافية له كي لا يضيع وقتاً آخر وهو يلحق متع الحياة، فتتركه السنون خلفها، وعندما رأى دورثيا أيقن أنه حصل على أكثر مما كان يتمنى؛ إذ يمكنها أن تكون مساعدة له مما قد يجعله يستغني عن استئجار موظفة لم يوظفها حتى الآن، فقد كان ينتابه خوف من ذلك، على الرغم من أنه كان يعلم أن عليه رجاحة العقل. لقد منت عليه العناية الإلهية برحمتها فزودته بزوجة يحتاجها، زوجة شابة ورزينة، وتثمن عالياً، ولا تطمح إلى ما تطمح إليه بنات جنسها. زوجة تثق أن زوجها يمتلك فكراً ناضجاً، ومعطاء.

لم يفكر السيد كزابون قط ما إذا وهبت العناية الإلهية دورثيا اهتماماً ما وهبته له؟ لا يطلب من الرجل ما هو مستحيل، أي إن عليه أن يفكر في مؤهلاته التي تجعل الفاتنة سعيدة، كما يفكر في مؤهلاتها التي تجعله سعيداً، فكأنه يختار لزوجته الزوج المناسب، ولا يختار لنفسه الزوجة المناسبة فقط، أو كأنه يوفر لذريته ما هو فاتن وساحر في ذاته. عندما قبلت به دورثيا بحماس، كان ذلك طبيعيًّا، واعتقد السيد كزابون أن سعادته آتية.

لم يذق طعم السعادة في حياته من قبل؛ أن يحصل المرء على سعادة بالغة دون أن يتوافر لديه جسم قوي لا بد من أن يتمتع بروح طموحة، فالسيد كزابون لم يكن له جسم قوي، وكانت روحه حساسة، لكنها غير طموحة، وهي أضعف من أن تحيك من وعيها وثقافتها سعادة عاطفية، فهي راحت ترفرف على أرض موحلة ولدت عليها، وهي تفكر في جناحيها ولا تطير أبداً.

لقد كانت خبرته تثير الشفقة لكنها تهرب منها، وتخاف أن يعرفها أحد، فقد كانت تلك الحساسية المتكبرة الضيقة الأفق هي التي لا تمتلك مرونة لتتحول إلى عطف وحنو وتتحرك لتغدو كتيار جارف في نهر الانشغال بالنفس أو الشك الأناني. والسيد كزابون كان لديه الكثير من الشكوك، فهو قادر على السيطرة على نفسه إذ إنه مصمم أن يكون رجلاً شريفاً بحسب العرف الاجتماعي، وأن يكون جديراً بكل ما يقال عنه.

لقد حصل على هذه النهايات نتيجة سلوكه وحسن إدارتها، لكن صعوبة إتمامه لكتاب المفتاح إلى جميع الأساطير دون أن يتضمن أي شكوك، رمى على كاهله ثقلاً إضافيًّا. وأما الكراريس التي كان يمتحن بها جمهوره ويوثق بها تقدمه في بحوثه، لم يعرف أحد قيمتها، وكان يعتقد أنه حتى رئيس الشماسين لم يقرأها، وقد كان ينتابه شك مؤلم في ما يظن بها

مفكرو براسينوس، كما كان مقتنعاً بمرارة أن صديقه القديم كارب هو من كتب ذلك الكتاب القديم المنقح، الذي ظل مقفولاً عليه في درج مكتب السيد كزابون وفي عتمة خزان ذاكرته.

لقد كانت الانطباعات يصعب التخلص منها، ولقد جلبت المرارة الكئيبة التي ولدها الطموح البالغ، فحتى معتقده الديني قد اهتز مع ثقته بقدرته على الكتابة، وعزاؤه في الخلود بحسب المعتقد المسيحي، بدا معتمداً على خلود كتابه مفتاح جميع الأساطير الذي لم يكتمل.

بالنسبة إليّ إنني أشعر بالأسف الشديد تجاهه فمن الصعب أن يكون المرء على ثقافة عالية ولا يستمتع، وأن يحضر هذه الحياة العظيمة ولا يتحرر من نفسه الصغيرة الجائعة المرتعشة، ولا يلحقه نصيب من هذه العظمة التي نشهدها، ولا يحول وعينا إلى فكرة واضحة، أو عاطفة متقدة، أو قدرة على فعل الأشياء، لكنه يظل دائماً عالماً ملهماً طموحاً، إلا أنه جبان وكثير الشكوك، وقصير النظر.

أن يصبح السيد كزابون كاهناً كبيراً في كاتدرائية أو حتى أسقفاً لن يخفف من توتره.

لقد قال الإغريقيون القدماء إن من خلف الأقنعة الكبيرة ومكبرات الصوت، تخطف عيوننا نظراتها المعتادة، وتكون شفاهنا الجبانة تحت السيطرة المضطربة. إن هذه الحالة الفكرية التي قضى من عمره خمسة وعشرين عاماً بموجبها وحبس معها قناعات كثيرة، أراد السيد كزابون أن يضيف إليها سعادة أخرى بزواجه من شابة لطيفة، ولكن حتى قبل زواجه، وكما رأينا من قبل، وجد نفسه تحت وطأة اكتئاب جديد ناجم عن اكتشافه أن النعيم الجديد لن يكون نعيماً بالنسبة إليه، فتاقت ميوله للعودة إلى عاداته القديمة السهلة، وكلما ذهب بعيداً بالألفة والمودة، برأ نفسه من الالتزام بها وتصرف باحتشام، مما يجعل ذلك يسيطر على جميع القناعات الأخرى؛ فالزواج كالدين والمعرفة لا بل كالكتابة، قدره أن يكون حاجة اجتماعية، وإدوارد كزابون كان يعتمد تحقيق كل الاحتياجات على درجة عالية من الكمال.حتى جذب دورثيا إلى غرفة كتبه كي تعمل معه، كما أراد قبل زواجه، رغب في تأجيله، فلولا توسلاتها ربما لم يكن لذلك أن يحصل لكنها نجحت في جعله أمراً طبيعيًّا أن تأخذ مكانها في ساعة مبكرة ذلك الصباح داخل المكتبة، وتعمل ما يطلب منها إما بالقراءة أو النسخ. لقد كان تصنيف المكتبة سهلاً لأن السيد كزابون شرع في إنجاز مهمة جديدة: لقد بدأ يكتب كراساً جديداً صغيراً حول بعض المؤشرات المكتشفة حديثاً التي تتعلق بأسرار المصريين القدماء، والتي بها يمكن تصحيح ما أكده الكاتب ووربيرتون.

لقد كانت المراجع كثيرة جدًّا ومؤكدة، والجمل يجب أن تكتب بوضوح لأن طلاب كلية برسينوس سيقرؤونها، والكثير من الأجيال القادمة. لقد كان هذا الإنتاج التذكاري ممتعاً جدًّا بالنسبة إلى السيد كزابون، وما كان يصعب من مهمته هو الاستشهاد بالأقوال، أو تضارب العبارات الجدلية في ذهنه، ومنذ البداية كان جزء من العمل مخصصاً باللاتينية مما جعل كل شيء غير مؤكد سوى ما يوجه لكارب. لقد كان من دواعي الأسف المؤلم لدى السيد كزابون عندما وجه مرة كتاباً لكارب، ارتكب فيه خطأ صغيراً كان السبب في وضعه محل سخرية، إذ ضحك منه بايك وتنج ساخرين.

وكما قلت آنفاً كان السيد كزابون في أكثر أوقاته انشغالاً، والتحقت به دورثيا مبكرة في غرفة المكتبة حيث تناول إفطاره هناك لوحده، وكانت سيليا في هذا الوقت تقوم بزيارتها الثانية إلى لُويك، ربما تكون الأخيرة قبل زواجها، كانت تجلس في غرفة الاستقبال منتظرة السير جيمس.

لقد تعلمت دورثيا كيف تقرأ مزاج زوجها، فقد تبينت أنه أكثر توتراً في الصباح مما كان عليه في الساعة الماضية. كانت تسير بصمت نحو طاولتها عندما قال بنبرة صوت تنم عن أنه طلب منها كي تقوم بواجب لن يسرها.

لقد كانت رسالة من صفحتين، ونظرت مباشرة إلى التوقيع: «دورثيا هذه رسالة لك، وقد جاءت ضمن رسالة موجهة إلي»،

«السيد لادسلو! ماذا يمكنه أن يقوله لي؟». تعجبت وقالت بدهشة سارة، وهي تنظر إلى السيد كزابون: «يمكنني أن أتنبأ بما كتب لك».

قال السيد كزابون وهو يشير إليها بقلمه متوتراً دون أن ينظر إليها: «إنك تستطيعين لو قرأت الرسالة من فضلك، ولكن يمكنني أن أقول أيضاً ومسبقاً إنني أرفض طلب زيارته إلى هنا. أظن أن عذري يكمن في رغبتي وحاجتي لتمتعي بحرية كاملة دون أن تنتهك، كما حالها الآن، خاصة من ضيوف تملؤهم حيوية غير منطقية، فتجعل وجودهم مملًّا ومتعباً».

لم يحدث أي صدام بين دورثيا وزوجها منذ ذلك الصدام الذي حدث في روما، وترك في ذهنها أثراً قويًّا، فكان أسهل عليها أن تهدئ عواطفها من أن تتحمل نتائج إظهارها وتأجيجها، لكن رغبتها في استقبالها للزائرين يمكن أن تكون ضد رغبة زوجها، الذي دافع عن نفسه بمبرر وحِدة أقوى من أن تتمعن فيها وتتأملها إلا بعد أن أظهرت استياءها. لقد

كانت دورثيا ترضى أن تكون صبورة مع جون ميلتون، لكن لم يخطر لها أنه يمكنه أن يتصرف على هذا النحو، فللحظة بدا السيد كزابون أنه لا يميز... وبغباء، وأنه غير عادل إلى حدّ بغيض ومشين. يا للشفقة، فتلك الطفلة الوديعة كان عليها أن تكظم غيظها كثيراً فلا تدع الموقف يتفاقم ولا ينفجر في هذه المرة. لقد هزته كلماتها الأولى وجعلته ينظر إليها ليرى الشرر يتطاير من عينيها: «لماذا تنكر علي رغبة يمكن أن تزعجك؟ إنك تتحدث إلي وكأنني شيء وجب عليك أن تعارضه. انتظر حتى أرى ما هو أبعد من رغباتك».

أجاب كزابون بتوتر: «دورثيا! لقد تسرعت»

لقد كانت هذه المرأة أصغر سنًّا من أن تصبح زوجة تتحمل أعباء الحياة الزوجية، ما لم تكن ضعيفة لا تملك معالم شخصية محددة، وتتقبل ما يملى عليها دون اعتراض.

قالت دورثيا: «أظن أن من الظلم أن تسرع بافتراضك الخاطئ حول مشاعري». وكانت النبرة نفسها إذ لم تتغير حتى الآن، لأنها تعتقد أن من الخسة ألّا يعتذر لها زوجها.

«لن نتحدث في هذا الأمر أكثر لو سمحت يا دورثيا، فلا متعة ولا قدرة لي في هذا الجدل». هنا غمس السيد كزابون قلمه، وتظاهر وكأنه يريد أن يتابع الكتابة، وعلى الرغم من أن يده كانت ترتعش كثيراً حتى إن الكلمات لم تأتِ مقروءة. هناك أجوبة تبدو هراء، وتتركها تذهب أدراج الرياح، فتتخلى عن النقاش عندما تشعر أن العدالة إلى جانبك، وهي ساخطة في الزواج أكثر منها في الفلسفة.

تركت دورثيا رسالتي لادسلو على طاولة زوجها دون أن تقرأهما، وذهبت إلى مكانها، فالغضب والسخط جعلاها تمتنع عن قراءة هاتين الرسالتين، كما نهرب من الهراء الذي نظن فيه الطمع والجشع، وهي على الأقل لم تتكهن بالأسباب الحقيقية التي جعلت زوجها يتوتر من هاتين الرسالتين، وكل ما عرفته أنهما جعلتاه يسيء إليها.

بدأت مباشرة عملها، ولم ترتعش يدها، عندما راحت تنسخ ما طلب منها البارحة، بل على العكس، فقد شعرت أنها تسطر الحروف في غاية الجمال، فبدا لها أنها تفهم تركيب اللغة اللاتينية أكثر من قبل. صاحب غضبها شعور بالفوقية ظهر على شكل عاطفة لم تكبح جماحها لتهمس في داخلها قائلة:

«ملاك مجنح سرمدي»... مخلوق مسكين...!!

لقد ساد الهدوء لنصف ساعة، ولم ترفع دورثيا نظرها من على طاولتها إلا عندما سمعت صوت وقوع كتاب على الأرض، فاستدارت لترى السيد كزابون على سلم الكتب ممسكاً بأحد الرفوف ويعتريه إرهاق جسدي. نهضت مسرعة، واقتربت منه، فقد كان يعاني من صعوبة بالتنفس، فقفزت فوق مقعد صغير لتقترب من مرفقه وتقول وقد تنبهت جميع أحاسيسها: «هل يمكنك أن تستند علي يا عزيزي؟». ظلّ ساكناً دون حركة، ولا يستطيع الكلام لدقيقتين أو ثلاث ليلتقط أنفاسه، وعندما نزل ثلاث درجات جلس على كرسي كبير أحضرته دورثيا عند أسفل السلم، لم يعد يلهث، لكنه كان منهكاً، وكأنه سيغمى عليه قرعت دورثيا الجرس بقوة، فنقل السيد كزابون إلى الأريكة، ولم يغمَ عليه، وكان يتحسن تدريجاً عندما دخل السير جيمس، الذي تلقى النبأ حال وصوله إلى ردهة المنزل أن السيد كزابون «جاءته نوبة في غرفة المكتبة».

«يا إلهي لقد كان هذا متوقعاً تماماً». هذا ما خطر له مباشرة، فلو طلب من تنبؤه الشخصي أن يقدم تفصيلات، لبدا له أن هذه النوبات نتيجة حتمية.

سأل السير جيمس الخادم ما إذا أرسل بطلب الطبيب، لكن الخادم لم يعلم ما إذا كان سيده قد طلب الطبيب، أليس من الصواب أن يطلب الطبيب؟

عندما دخل السير جيمس المكتبة استطاع السيد كزابون أن يقدم بعض الإشارات المهذبة، فنهضت دورثيا التي كانت راكعة إلى جانب زوجها بسبب الصدمة، واقترحت أن يرسل بطلب الطبيب.

قال السير جيمس: «أقترح أن ترسل بطلب ليدجيت، لقد استدعته أمي، فوجدته شديد الذكاء، على الرغم من أن تجربتها مع الأطباء غير موفقة منذ وفاة والدي». توسلت دورثيا إلى زوجها فأبدى موافقته من خلال صمته. هكذا أرسل بطلب السيد ليدجيت، وقد حضر خلال وقت قصير جدًّا، لأن الرسول كان خادم السير جيمس الذي عرف السيد ليدجيت، عندما التقاه في شارع لُوِيك يقود حصانه، ويعطي ذراعه للآنسة فنسي. لم تعرف سيليا التي كانت تجلس في غرفة الاستقبال عن المعضلة حتى أخبرها السير جيمس، الذي بحسب رأي دورثيا، لم يعتبر ما حصل للسيد كزابون نوبة، ولكن شيئاً من ذلك القبيل.

«عزيزتي المسكينة دودو...! كم هذا مروع...!»، هذا ما قالته سيليا بعد أن أحست بأسى يوازي سعادتها السابقة، وكانت يداها مشبوكتين تلفهما يدا السير جيمس، كما يلف كأس

الزهرة برعمها. «إنها صدمة أن يكون السيد كزابون مريضاً، لكنني لم أحبه قط، فأنا أظنه لا يحب دورثيا كما ينبغي في وقت يجب عليه ذلك. إنني متأكدة من أنه ما كانت لتتزوجه فتاة أخرى، ألا تعتقد ذلك؟».

قال السير جيمس: «لقد اعتبرت ذلك دائماً تضحية فادحة من أختك».

«نعم، لكن دودو المسكينة لا تفعل ما يفعله الآخرون، ولا أظنها ستفعل».

قال السير جيمس ذو القلب النبيل: «إنها مخلوق نبيل». وقد تولد لديه هذا الانطباع للتو عندما رأى دورثيا تضع ذراعها تحت عنق زوجها بلطف، وتنظر بحزن صامت، وهو لا يعلم كم كان هذا الأسى يحمل من ندم وتوبة.

«نعم»، قالت سيليا معتبرة ذلك جميلاً من السير جيمس، لكنه لم يكن مرتاحاً مع دودو «... هل أذهب إليها؟ هل تعتقد أنه يمكنني مساعدتها؟».

قال السير جيمس برحابة صدر: «أظن أنك تفعلين حسناً قبل أن يحضر ليدجيت، فقط لا تبقي طويلاً».

بينما كانت سيليا غائبة مع دورثيا، كان يصعد السلم وينزل متذكراً شعوره وقت خطوبة دورثيا، فتجدد شعوره بالاشمئزاز لعدم اكتراث السيد بروك بخطوبة دورثيا. لو نظر كادولدر والآخرون إلى خطبة دورثيا كما فعل السير جيمس، لربما منع هذا الزواج، فقد كان من الحماقة أن تترك شابة تقرر مصيرها بعينين مغمضتين دون أن يفعل أي شيء لإنقاذها. لقد ظل السير جيمس وقتاً طويلاً لا يشعر بأي آسى، لأن قلبه يمتلئ بالرضا لخطوبته من سيليا، لكنه يمتلك طبيعة شهمة (هل تعتبر خدمة المرأة من الأمجاد المثالية لدى الفرسان القدماء؟). لم يتحول حبه غير الموفق إلى مرارة، فموت هذا الحب ترك ذكريات عطرة عائمة تتشبث بأي أثر مقدس لدورثيا. لقد استطاع أن يبقى صديقاً أخويًّا لها، ويتقبل تصرفاتها بكرم وسخاء.

الفصل الثلاثون

Qui veut delasser hors de propos, lasse.

PASCAL

لم تحصل للسيد كزابون نوبة أخرى قوية، وبعد أيام قليلة بدأ يتعافى، ويستعيد وضعه الطبيعي، لكن ليدجيت كان يعتقد أن حالته تستحق رعاية شديدة، فهو لم يستخدم سماعته فقط، التي لم يستخدمها الأطباء كثيراً في ذلك الوقت، بل كان يجلس إلى جانب مريضه ويراقبه بهدوء، وكان يرد على أسئلة السيد كزابون واستفساراته بأن سبب مرضه كان خللاً في نظام حياة المفكرين ألا وهو العمل الجاد والرتيب، وأن العلاج يكمن في قناعته بعمل معتدل وسعيه للحصول على العديد من المتع والرفاهية.

أما السيد بروك، الذي كان يجلس مرة، اقترح أن يذهب السيد كزابون في رحلة صيد سمك كما كان يفعل كادولدر، وأن يؤمن لنفسه للترفيه صنع بعض اللعب وبعض القطع الخشبية.

قال السيد كزابون المسكين بقليل من المرارة: «باختصار تريدني أن أستعيد طفولتي. إن هذه الأشياء...» أضاف وهو ينظر بمرارة إلى ليدجيت - «... بالنسبة إليّ تبعث الارتياح كما يبعث جني القطن لدى السجناء في الإصلاحية».

قال ليدجيت مبتسماً: «أنا أعترف، إن المتعة وصفة غير مقنعة... إنها تشبه قولنا لبعض الناس: حافظوا على السعادة. ربما يجب علي أن أقول لك: أن تعاني من الملل أفضل لك من العمل».

قال السيد بروك: «نعم... اجعل دورثيا تلعب معك لعبة الطاولة كل مساء، وكذلك لعبة ريشة الطائرة، فلا أعرف أفضل من لعبة ريشة الطائرة تناسب وقت النهار، وإنني أتذكر أنها كانت لعبة دارجة، لكن عينيك ربما لا تساعدانك، إلا أنك يجب ألّا تترك الفراش كما تعرف. يمكنك أن تقوم ببعض المطالعة الخفيفة كعلم الأصداف... فأنا أعتبرها مطالعة

هينة، أو دع دورثيا تقرأ لك بعض القصص القصيرة مثل كتاب سومليت، ورودريك رندوم، وهمفري كلينكر، إنها كتب وقحة، لكنها متزوجة الآن، فيمكنها أن تقرأ أي شيء. إنني أتذكر حين كانت هذه الكتب تضحكني جدًّا، فهناك قصة مضحكة حول بنطلون الحوذي. لا يوجد لدينا مثل هذه الكتب المسلية الآن، لقد قرأت كل هذه الكتب، ولكن ربما كانت غريبة بالنسبة إليك».

«كغرابة أكل الشوك».. لا جواب مثل هذا يمكن أن يعبر عن شعور السيد كزابون... طأطأ رأسه مستسلماً لاحترامه لعم زوجته، فأعتقد أن الأعمال التي ذكرها السيد بروك «تخدم احتياجات بعض العقول».

«ألا ترى..؟؟»، قال المحلف القوي لليدجيت بعد أن خرجا من الغرفة: إن كزابون ضيق الأفق قليلاً، فقد تضايق عندما منعته عن عمله الذي أظنه مجهداً جدًّا، فهو يقوم بالبحث كما تعرف، إنني لن أستسلم لعمل كهذا، فقد كنت دائماً متعدد الجوانب، لكن رجل الدين عادة ما يكون مقيداً قليلاً، فلو يعينونه أسقفاً الآن، ولا سيما أنه كتب كراساً (لبيل)، لقام بجهد أكبر ولتحرك أكثر، وربما سمن قليلاً، لكنني أنصحك أن تتحدث إلى السيدة كزابون، فهي على قدر عال من الذكاء، إنها ابنة أخي، قل لها إن زوجها يحتاج إلى بعض الحيوية، وأن تحول اهتماماته، وحثها كي تقوم بنشاطات ممتعة».

دون نصيحة السيد بروك قرر ليدجيت التحدث إلى دورثيا، وهي لم تكن موجودة حين كان عمها يلقي باقتراحاته السارة التي ستخلق الحيوية في لُويك، لكنها كانت غالباً ما تجلس بجانب زوجها، وعلائم القلق والحيطة التي كانت ترتسم على وجهها، مما يمكن أن يؤثر في صحته.

كانت هي تمثل مسرحية يرغب ليدجيت في رؤيتها، وكان يقول لنفسه: إنه سيكون محقًّا عندما يخبرها بحقيقة صحة زوجها، لكنه بالتأكيد كان يعتقد أنه يجب أن يتحدث إليها وحدها، فالطبيب يرغب في مراقبة أوضاع المريض النفسية، ولذلك يسهل عليه أن يتنبأ بالتحدث في لحظة حاسمة عن الموت والحياة. لقد اعتاد ليدجيت أن يكون هجائيًّا وساخراً عندما يتحدث عن هذا الأمر، لكنه تعمد ألّا يكون كذلك في هذه المرة.

سأل عن السيدة كزابون، ولكن عندما قيل له إنها ذهبت تتمشى قليلاً، كان يغادر المنزل عندما ظهرت دورثيا فجأة ومعها سيليا، وقد توردت وجنتاهما بسبب هواء فصل الربيع.

عندما طلب ليدجيت التحدث إليها بمفردها فتحت دورثيا باب المكتبة الذي كان الأقرب وهي لا تفكر في شيء سوى ما يمكن أن يقول حول صحة السيد كزابون. لقد كانت هذه أول مرة تدخل فيها المكتبة منذ أن مرض زوجها، ولم يشأ الخادم أن يفتح الستائر إذ كان هناك ضوء كاف للقراءة يدخل من الجزء العلوي للنوافذ.

قالت دورثيا، وهي تقف في وسط الغرفة: «أتمنى ألا يكون هذا الضوء الخافت يضايقك، منذ أن منعت قراءة الكتب أصبحت المكتبة مستبعدة، لكنني أتمنى أن يعود السيد كزابون إلى نشاطه في القريب العاجل. ألا تتحسن صحته..؟؟».

«نعم، تحسن أسرع مما توقعت... فهو حقًّا في حالته الطبيعية».

قالت دورثيا التي التقطت شيئاً ما في أذنها كتغير صوت ليدجيت: «ألا تخشى أن يعود المرض إليه...؟؟».

قال ليدجيت: «في مثل هذه الحالات يصعب على المرء الحديث حولها. الشيء الوحيد الذي يمكنني أن أكون واثقاً منه هو وجوب مراقبة السيد كزابون كي لا يجهد نفسه».

قالت دورثيا بنبرة توسل: «أرجوك أن تتكلم بوضوح تام».

«ليس في وسعي الاعتقاد أن هناك شيئاً لا أعرفه، ولو عرفته لجعلني أتصرف على نحو مختلف». جاءت الكلمات تشبه صرخة فكانت دليلاً على معاناة نفسية ليست بعيدة.

«اجلس...!!». أضافت، وهي تجلس إلى أحد أقرب الكراسي وتلقي بقبعتها وقفازيها جانباً دون كياسة، لأنها تواجه قضية مصير الآن.

قال ليدجيت: «ما ستقولينه الآن يمثل وجهة نظري، أظن أن إحدى مهام الطبيب هو أن يعرقل من هذا الأسف قدر استطاعته، لكنني أرجو أن تفهمي أن حالة السيد يصعب الحديث حولها. ربما يعيش خمسة عشر عاماً، أو أكثر دون أن تتدهور صحته أكثر مما هي عليه الآن».

شحب وجه دورثيا جدًّا... وعندما صمت ليدجيت قالت بصوت منخفض: «تعني إذا بقينا حذرين جدًّا...!!!».

«نعم، من جميع الإثارة الفكرية والعمل المجهد».

قالت دورثيا بفطنة سريعة: «سيكون تعساً لو توقف عن عمله».

«إنني أعلم ذلك، والحل الوحيد هو أن نحاول جاهدين بمختلف الوسائل المباشرة وغير المباشرة كي نخفف... ونتوع أعماله ضمن ظروف سعيدة، فلا يوجد خطر مباشر، كما قلت من قبل، نتيجة لحالة القلب التي سببت له تلك النوبة الأخيرة، ولكن من جهة أخرى ربما يتطور المرض بشكل أسرع، ففي مثل هذه الحالة يكون الموت مفاجئاً في بعض الأحيان، فيجب ألا يهمل أي جانب يمكن أن يؤثر في وضعه».

ساد الصمت للحظات بينما كانت دورثيا تجلس دون حراك، وكأنها تحولت إلى لوح رخامي على الرغم من أن الحياة في داخلها أصبحت مكثفة جدًّا، إلى حدّ أنه لم يسبق لفكرها أن استعرض مثل هذا العدد الهائل من المشاهد والدوافع وفي وقت قصير كهذا.

قالت بالصوت المنخفض نفسه الذي تحدثت به من قبل: «أتوسل إليك أن تساعدني، قل لي ماذا أستطيع أن أفعل؟».

«ما رأيك في السفر إلى الخارج، أظنكما كنتما في روما».

الذكريات التي جعلت هذا الحل ميؤوساً منه، هزت دورثيا، فأخرجتها من سكونها الشاحب.

قالت بقنوط يشبه قنوط الأطفال وانهمرت الدموع من عينيها: «آه... إن ذلك لن يجدي نفعاً، وإنه سيكون أسوأ من أي شيء آخر. لن يجدي أي شيء ما لم يكن ممتعاً له».

قال ليدجيت وقد اهتزت مشاعره بشدة، لكنه لا يزال مستغرباً زواجها، فلم يسبق له أن عرف نساء مثل دورثيا: «أتمنى لو استطعت أن أخفف عنك هذا الألم».

«لقد كنت على صواب عندما أخبرتني، إنني أشكرك لأنك أخبرتني بالحقيقة».

«أريدك أن تكوني على يقين بأنني لن أخبر السيد كزابون بأي شيء، فإنني أعتقد أن من الأفضل ألّا يعلم أي شيء سوى ألا يجهد نفسه، ويتبع بعض التعليمات، فأي نوع من القلق سيكون ضاراً لحالته». نهض ليدجيت، وكذلك فعلت دورثيا في الوقت نفسه، ثم خلعت معطفها ورمت به جانباً، وكأنه كان يخنقها، ثم حياها ليدجيت منحنياً وغادر، عندها تولد لديها دافع، لو كانت لوحدها لتحول إلى صلوات وجعلها تقول وفي صوتها حشرجة:

«آه... إنك رجل حكيم أليس كذلك؟ إنك تعرف كل شيء حول الحياة.. انصحني، فكر في ما يمكنني فعله، لقد كان يعمل طوال حياته، وإنه رجل طموح. إنه لا يبالي بأي شيء آخر، وأنا لا أبالي بأي شيء آخر كذلك».

ظل ليدجيت يتذكر الانطباع الذي ولده هذا التوسل، وهذه الصرخة النابعة من روح إلى روح دون وعي سوى أن تينك الروحين تحركهما طبيعة الأطفال، وكلتاهما تنغمسان في درجة واحدة في الورطة في حياة قليلة المتع كثيرة المشاكل، ولكن ماذا يستطيع أن يقول الآن سوى أنه سيرى السيد كزابون في اليوم التالي، وعندما خرج تدفقت دموع دورثيا، فخففت من حزنها المكبوت، ثم جففت عينيها متذكرة أن كربها يجب ألا يظهر أمام زوجها، وجالت بنظرها في الغرفة وهي تفكر أن تطلب من الخادم كي يعيدها إلى سابق عهدها، فربما رغب السيد كزابون في أن يدخلها في أي لحظة.

كان على طاولته رسائل لم يمسها أحد منذ ذلك الصباح الذي وقع فيه مريضاً، وبينها كما تذكرت دورثيا رسائل لادسلو والرسالة التي أرسل بها إليها ظلت مغلقة. تذكر هذه الرسائل سبب لها شعوراً بالألم مما رافقها من مرض مفاجئ، الذي جعلها تشعر أن غضبها كان بسببها.. وإذ كان الوقت كافياً لتقرأها عندما بعثت إليها، ولم يكن لديها رغبة في أن تأخذها من غرفة المكتبة، ولكن الآن خطر لها أن تبعدها عن أنظار زوجها مهما سبب له ذلك من مضايقة، فيجب ألّا يغضب ثانية فبحثت أولاً عن الرسالة التي أرسلت إليه لترى ما إذا كان من الضروري الرد عليها كي تؤخر الزيارة المشؤومة.

لقد كتب ويل من روما مبتدئاً رسالته بامتنانه وشكره العميقين للسيد كزابون، فهو لم يكن جاحداً ولقد كان من الواضح أنه لو لم يكن ممتنًا وشاكراً للسيد كزابون، لكان وغداً مجحفاً وجد صديقاً كريماً. لن يطيل شكره بعبارات شكر مهذبة كأنه يقول: إنني رجل نزيه، لأن ويل بدأ يكتشف عيوبه التي كان يشير إليها دائماً السيد كزابون، والتي تحتاج إلى تصحيح، فمكانته المتقدة منعها كرم قريبه من أن تبرز وأن تصبح جلية. لقد كان واثقاً أنه يجب عليه أن يسد الدين على أكمل وجه، إذا ما كان ذلك السداد ممكناً من خلال إظهار تأثير التعليم الذي اكتسبه، ومن خلال عدم حاجته في المستقبل إلى النزوع في اتجاه أي عطاء يقدم له، ويمكن أن يرغب فيه الآخرون. إنه قادم إلى إنجلترا كي يجرب حظه، كما يخاطر معظم الشباب للقيام به، ولا سيما أن رأس مالهم يكمن في عقولهم. طلب منه صديقه نومن أن يتجشم عناء حمل الصورة التي رسمها للسيد كزابون، بعد إذنه، والسيدة كزابون، ويحضرهما معه إلى لُويك. إذا ما أرسلت رسالة إلى باريس خلال أسبوعين ستؤخره من الحضور في وقت غير مناسب. لقد أرسل ويل رسالة أخرى إلى دورثيا يتابع فيها نقاشه الذي بدأه معها في روما حول الفن.

عندما فتحت دورثيا رسالتها لمست فيها متابعة حية لاعتراضه على نزعتها المتشددة وحاجتها إلى الاستمتاع الجدي والحيادي بالأشياء لتكون بغزارة حيويته الشبابية. لقد جعل قراءة هذه الرسالة ذلك مستحيلاً الآن، فعليها أن تفكر ملياً في ما يجب فعله بما يتعلق بالرسالة الأخرى، فربما لا يزال هناك وقت كاف كي تمنع ويل من القدوم إلى لُويك، فانتهى الأمر بدورثيا أن أعطت الرسالة إلى عمها، الذي لا يزال موجوداً في المنزل، راجية إياه أن يكتب لويل، ويخبره أن السيد كزابون مريض، وأن صحته لا تسمح باستقبال أي زائر. لا أحد يرغب في كتابة الرسائل أكثر من السيد بروك، إلا أن صعوبته الوحيدة تكمن في كتابة الرسائل القصيرة، ففي هذه الحالة استغرقت أكثر من ثلاث صفحات، وقال ببساطة لدورثيا: «تأكدي من أنني سأكتب له يا عزيزتي، فهو شاب ذكي جدًّا هذا الشاب لادسلو، ويمكنني القول إنه سيكون له مستقبل متميز. إنها رسالة جيدة، فهي تدل على إحساسه المرهف بالأشياء... في أيّ حال سأخبره بوضع كزابون».

لقد كان قلم السيد بروك ككائن مفكر يخط الجمل، خصوصًا الجميلة منها، قبل أن تفلت من ذاكرته، فجاءت معبرة عن الأسى وتطلب الحلول، فعندما قرأها السيد بروك بدت له كلماتها معبرة ومناسبة، وقرر نتيجة لأمر لم يخطر له من قبل - لمّا وجد بروك أن من المؤسف ألا يحضر إلى لُويك في ذلك الوقت، ولكي يبقى السيد بروك منشغلاً مع أحد معارفه، فيطلعون سوية على الرسوم الإيطالية المهملة، وقد وجد في نفسه اهتماماً بشاب بدأ حياته بكثير من الأفكار، أن يدعو السيد لادسلو في نهاية الصفحة الثانية من الرسالة لزيارته في تبتن كرينج، ولا سيما أن استقباله في لُويك بات صعباً، فلم لا...؟ يمكنهما أن يجدا أشياء كثيرة يفعلانها سوية، فقد كان لهذه الفترة نشاط خاص، ولا سيما في الأفق السياسي الذي بدأ يتسع، فقد حرر قلم السيد بروك خطاباً نشر في ما بعد في صحيفة مدل مارش بيونير. عندما أغلق السيد بروك الرسالة شعر أنه مبتهج لتوارد أفكار المشاريع الغامضة. فهناك شاب قادر على وضع الأفكار موضع التنفيذ، وهناك صحيفة مدل مارش بيونير يمكنها أن تشق الطريق أمام مرشح جديد، وهناك وثائق يستفاد منها، فمن يعلم ما يمكن أن ينجم عن ذلك كله؟ لأن سيليا ستتزوج قريباً، فسيكون من دواعي سروره أن يجالسه شاب على الأقل لمدة وجيزة من الزمن، لكنه ذهب دون أن يقول لدورثيا ماذا كتب في الرسالة، لأنها كانت منشغلة مع زوجها، ولأن هذه الأشياء لا تشكل في واقع الأمر أهمية بالنسبة إليها.

الفصل الحادي والثلاثون

كيف لك أن تعرف صوت رنين ذلك الجرس الذي هو أضخم من أن تقرعه؟

فقط أعزف بآلة الفلوت تحت خليط من المعدن الجيد؛

ثم أصغي بدقة وانتباه حتى تنبعث النغمة الصحيحة،

فتنساب كجدول معدني... عندها سيهتز الجرس الضخم؛

وسيتردد عدد كبير من الموجات الصوتية العذبة والمنخفضة في آن.

أخبر ليدجيت الآنسة فنسي نبأ مرض السيد كزابون في ذلك المساء، مؤكداً على المشاعر القوية التي أبدتها دورثيا تجاه ذلك الرجل المجد الذي يكبرها بثلاثين عاماً.

«بالطبع... تكرس نفسها لأجل زوجها»، قالت روزموند معبرة عن نتيجة طبيعية يعتبرها رجل عالم أقل ما يمكن أن يتوافر في المرأة، لكنها كانت تفكر في الوقت نفسه أنه يجب ألّا تكون حزينة هكذا لمجرد كون سيدة لُويك منر ستفقد زوجها قريباً. «هل تعتقد أنها جميلة جداً؟».

قال ليدجيت: «بالتأكيد إنها كذلك، لكنني لم أفكر في ذلك».

قالت روزموند، وقد ظهرت غمازتاها: «أعتقد أنه ليس من المعقول، ولكن كم أصبحت مشهوراً...! فمن قبل ذهبت إلى منزل السير جتم، والآن إلى السيد كزابون».

قال ليدجيت بنبرة اعتراف اضطراري: «نعم. لكنني لا أرغب في الذهاب إلى مثل هؤلاء الناس، وكذلك الفقراء. إن هذه الحالات عادة تكون مملة، فلا بد للمرء من أن يراعي الآخرين فيستمع إلى ثرثرة كثيرة».

قالت روزموند: «ليس أكثر مما في مدل مارش، وعلى الأقل إنك تسير في ممرات

عريضة، وتشم عبق الزهور في كل مكان».

قال ليدجيت: «هذا صحيح يا آنسة»، ثم حنى رأسه إلى الطاولة ليلتقط بسبابته منديلها الناعم، الذي كان يظهر من حقيبة يدها، وكأنه يحاول أن يستمتع بعطره، وهو ينظر إليها مبتسماً.

في أيّ حال إن حرية الإجازة الملائمة التي حام خلالها ليدجيت حول زهرة مدل مارش ما كان لها لتدوم طويلاً، إذ لم يكن ممكناً له أن يجد عزلة اجتماعية أشد منها في أي مكان آخر، ولا سيما عندما يستمر اثنان في مغازلة بعضهما دون أن يقعا في ورطات كثيرة أو شجار أو اصطدام عاطفي تستمر بها الحياة. مهما فعلت الآنسة فنسي، فلا بد له من أن يلاحظ، فربما كانت الأكثر تميزاً لدى المعجبين والمنتقدين على حد سواء. ولا سيما أن السيدة فنسي قد ذهبت الآن، بعد شجار مع فرد، وبعد أن تعافى، إلى ستون كورت ليبديا امتنانهم للسيد فيذرستون، ويراقبا ماري جارث التي كانت تحظى بقبول أقل لدى فيذرستون.

فعمة الآنسة فنسي، السيدة بولسترود، التي قلما تأتي إلى لُويك جيت، قد جاءت لترى روزموند، فهي لوحدها الآن، والسيدة بولسترود تحمل ودًّا كبيراً تجاه أخيها، وكانت دائماً تعتقد أنه كان من الممكن أن يتزوج من امرأة أفضل من زوجته، لكنها كانت تتمنى السعادة لأبنائه. لقد كانت تربط السيدة بولسترود بالسيدة بلمديل مودة صداقة طويلة وألفة، إذ تشتركان بتفضيلهما لنوع الحرير، ونماذج من الألبسة الداخلية، والأواني الخزفية الصينية، ورجال الدين، وكانتا تأتمنان أسرار مشاكلهما الصحية والمنزلية لدى بعضهما، إلا أن السيدة بولسترود كانت تمارس بعض الفوقية تجاه السيدة بلمديل في بعض الجوانب خصوصًا في الجدية، وإعجابها بالذكاء، وامتلاكها منزلاً خارج البلدة، وهو ما كان يضفي على حوارهما طابعاً خاصاً دون أن يؤدي إلى خلاف، ونوايا كلتيهما حسنة، ولا تعيان إلا القليل من دوافعهما.

بينما كانت السيدة بولسترود تقوم بزيارة للسيدة بلمديل، قالت إنها لا تستطيع أن تبقى طويلاً لأنها ستذهب لترى روزموند المسكينة، فتساءلت السيدة بلمديل ذات العينين الحادتين المستديرتين كعيني الصقر المروض: «لماذا تقولين روزموند المسكينة؟».

«إنها جميلة جدًّا، ولقد نشأت في مناخ لا يتوافر فيه الوعي، فالأم، كما تعرفين، طائشة ومتقلبة مما يجعلني قلقة على الأطفال».

قالت السيدة بلمديل مؤكدة: «حسناً يا هاريت، إذا كان لي أن أعبر عن رأيي، فلا بد من أن أقول إن الجميع سيعتبرونك والسيد بولسترود سعيدين بما حدث، لأنكما بذلتما قصارى جهدكما كي تقدما السيد ليدجيت».

قالت السيدة بولسترود بدهشة حقيقية: «سلينا، ماذا تعنين؟».

قالت السيدة بلمديل: «لا شيء، لكنني أنا مرتاحة لأجل نيد، فهو قادر على أن يحظى بمثل هذه الزوجة أكثر من غيره، لكنني أتمنى أن يبحث عن غيرها في مكان آخر. فلا تزال الأمهات يقلقن على أبنائهن، ولا يزال بعض الشباب يقعون في حظ سيئ. بالإضافة إلى ذلك، لو طلب مني إبداء رأيي لقلت: إنني لا أفضل قدوم الغرباء إلى البلدة».

قالت السيدة بولسترود مؤكدة: «لا أعلم يا سلينا. لقد كان السيد بولسترود غريباً في وقت ما وإبراهيم وموسى كانا كذلك غريبين في الأرض، ويطلب منا إكرام الغرباء، وخصوصًا» - أضافت بعد أن صمتت قليلاً - «... عندما يكونون مقبولين».

«لا أعني الجانب الديني يا هاريت، بل أتكلم كأم».

«سلينا...! إنني متأكدة من أنك لم تسمعيني أتحدث ضد زواج ابنة... أخمن: ابنك».

قالت السيدة بلمديل التي لم تثق تماماً من قبل بهاريت في هذا الموضوع: «آه... إنه كبرياء الآنسة فنسي، ولا شيء غيره. لا يوجد في مدل مارش شاب يناسبها، ولقد سمعت أمها تقول مراراً، وليس من الأخلاق المسيحية، على ما أعتقد، وبناء على ما سمعتُ ؛ لقد وجدت رجلاً متكبراً بنفسه مثلها».

قالت السيدة بولسترود محاولة عدم إظهار جهلها بالأمر: «إنك لا تعنين أن هناك شيئاً بين روزموند والسيد ليدجيت؟».

«أيعقل ألّا تعرفي يا هاريت؟».

«إنني لا أكاد أزور أحداً، وأنا لا أحب القال والقيل، فحقًّا لم أسمع أي شيء. إنك تلتقين بأناس كثيرين وأنا لا ألتقيهم، ولأن علاقاتك تختلف عن علاقاتنا».

«حسناً، إنها ابنة أخيك، وهو المفضل لدى السيد بولسترود ولديك، أنا متأكدة يا هاريت...! إنك أردته مرة خطيباً لكيت عندما تكبر».

قالت السيدة بولسترود: «لا أستطيع أن أصدق أن هناك شيئاً جديًّا في الوقت الحاضر. وإلا لأخبرني أخي».

«حسناً، يتعامل الناس بطرق مختلفة، لكن كل ما أستطيع قوله هو أن لا أحد يرى الآنسة فنسي والسيد ليدجيت سوية دون أن يعتبرهما مرتبطين بخطوبة، في أيّ حال هذا ليس شأني. هل أخرج رسم القفازات؟».

بعدها ذهبت السيدة بولسترود إلى ابنة أخيها لأنها قد وصلت للتو. لقد كانت ترتدي ثياباً جميلة، إلا أنها شعرت ببعض الأسى عندما رأت روزموند، وهي تدخل مرتدية ثياباً ثمينة.

إن السيدة بولسترود نسخة أنثوية عن أخيها، ولا تشبه زوجها في صوته المنخفض، كما أن نظراتها بريئة ولا تجيد التملق للآخرين.

«إننا لوحدنا يا عزيزتي كما أرى»، قالت وهما تدخلان غرفة الاستقبال معاً، وهي تجول بنظرها بحزن. كانت روزموند متأكدة من أن لدى عمتها شيئاً تريد قوله، فجلستا متجاورتين. لقد كان الريش المتدلي من قبعة روزموند باهر الجمال إلى حدّ أن السيدة بولسترود تمنت مثله لكيت، جالت بنظرها متمعنة به وهي تتحدث.

«لقد سمعت شيئاً عنك أدهشني ياروزموند».

قالت روزموند وعيناها تنظران إلى ياقة عمتها المطرزة: «ما هو يا عمتي...؟».

«لا أكاد أصدق أن تكوني مخطوبةِ دون علمي، ودون أن يخبرني أبوك بذلك»، هنا استقرت أخيراً عينا السيدة بولسترود على روزموند التي احمرت بشدة، وقالت: «إنني لست مخطوبة يا عمتي!».

«كيف إذاً...؟؟؟ أهو حديث الناس...؟؟؟؟».

قالت روزموند وقد غمرها السرور: «أظن أن حديث الناس لا يعني شيئاً»...

«يا عزيزتي كوني حذرة، لا تستهيني بجيرانك جدًّا. تذكري أنك بلغت الثانية والعشرين من عمرك، ولست ثرية، أنا متأكدة من أن أباك لن يترك لك شيئاً. السيد ليدجيت متعلم وذكي أنا أعرف أن لذلك جاذبية وسحراً، فأنا أحب الحديث مع مثل هؤلاء الرجال، وعمك

يجده نافعاً جدًّا، ومهنته تكسبه مالاً كثيراً هنا، وكوني متأكدة من أن هذه الحياة هي كل شيء، ولكن قلما يكون الطبيب حقًّا متديناً، فغالباً ما يكون متباهياً بذكائه وعلمه، ولا يناسبك الزواج من رجل فقير.

«السيد ليدجيت ليس رجلاً فقيراً يا عمتي، فهو يتحدر من أسرة عريقة جدًّا».

«لقد قال لي: كان فقيراً».

«ذلك لأنه اعتاد معاشرة الأغنياء».

«عزيزتي روزموند...! يجب ألا تفكري بعيشة الأغنياء».

خفضت روزموند نظرها، وأخذت تلعب بحقيبة يدها. لم تكن طبيعتها حادة، ولم تعتد على تقديم الردود القاسية، لكنها كانت ترغب في العيش كما تحب.

قالت السيدة بولسترود، وهي تنظر باهتمام إلى ابنة أخيها: «إذاً هذا صحيح. إنك تفكرين في ليدجيت، يوجد بعض التفاهم بينكما، ولا يعلم به أبوك. كوني صريحة يا عزيزتي روزموند. هل حقًّا طلب يدك السيد ليدجيت؟».

لم تكن مشاعر روزموند سارة. لقد كانت متساهلة مع مشاعر ليدجيت ومقاصده، ولكن الآن وقد طرحت عمتها السؤال فما أحبت أن تكون عاجزة عن قول «نعم». لقد جُرحت كبرياؤها ولكن تملكها لنفسها قد أعانها.

«أرجوك يا عمتي أفضل ألا أتحدث في الأمر».

«إنني أثق أنك لن تهبي قلبك لرجل ليس جديراً به، يا عزيزتي... فكري في الشابين اللذين تقدما لخطبتك، ورفضتهما ولا يزال أحدهما في متناول يدك إذا أردت. لقد عرفت شابات كثيرات في غاية الجمال انتهى الأمر بهن بزواج سيّئ لأنهن فعلن ما تفعلين، والسيد بلمديل شاب لطيف، ويعتبره الكثيرون شاباً وسيماً، وهو ابن وحيد، وأعماله الحرة أفضل من أيّ مهنة. إن الزواج ليس كل شيء، فعليك أن تلجئي إلى الرب أولاً، ولكن على الفتاة أن تبقي قلبها تحت سيطرتها».

قالت روزموند وهي تشعر أنها بطلة رومانسية وقد أدت الدور بشكل جميل: «يجب ألا أهبه للسيد بلمديل، فلقد رفضته مسبقاً، ولو كان لي أن أحب لأحببت مباشرة، وما تغيرت».

قالت السيدة بولسترود بصوت حزين، وهي تهم بالذهاب: «لقد اتضح الأمر لي يا عزيزتي، لقد وهبت حبك دونما رجعة».

قالت روزموند مؤكدة: «كلا يا عمتي فإن الحقيقة ليست كذلك».

«إذاً كيف لو كنت واثقة بأن السيد ليدجيت مرتبط بك جديًّا؟». في هذه المرة كانت وجنتا روزموند تتقدان بشدة فشعرت أن مشاعرها قد جرحت، فاختارت الصمت، ثم ذهبت عمتها، وهي مقتنعة تماماً.

كان السيد بولسترود خبيراً في شؤون الحياة وحيادياً في الوقت نفسه. كان يفعل ما تمليه عليه زوجته دون أسباب، وهي تريد منه الآن في أقرب فرصة أن يكتشف، ومن خلال حديثه مع ليدجيت، ما إذا كان ينوي الزواج في القريب العاجل. لقد كانت النتيجة سلبية تماماً، فقد اكتشف السيد بولسترود أن السيد ليدجيت لا ينوي الارتباط بزواج، فأحست السيدة بولسترود أن واجباً حقيقيًّا يترتب عليها، فاستطاعت أن ترتب لقاء منفرداً مع السيد ليدجيت، انتقلت خلاله من الحديث حول صحة فرد فنسي وتعبيرها عن قلقها الصادق حول عائلة أخيها الكبيرة، إلى إبدائها الرأي حول المخاطر التي يواجهها الشبان عندما ينوون الاستقرار في حياتهم، فغالباً ما يكون الشبان طائشين ومخيبين للآمال، ولا يردون إلا القليل من الجميل مقابل المال الذي أنفق عليهم، أما الفتاة فهي تتعرض لظروف كثيرة تتداخل مع أمنياتها، «خصوصًا عندما يتوافر لديها سحر جذاب، ولدى والديها علاقات كثيرة - قالت السيدة بولسترود - سيهتم بها الشبان، ويحتكرونها جميعهم لأجل متعهم الآنية، فهكذا يبعدون الآخرين عنها. إنني أعتقد أن مسؤولية ثقيلة أن تتدخل بآمال أيّ فتاة يا سيد ليدجيت». هنا ثبتت السيدة بولسترود نظرها عليه بقصد تحذيره إن لم يكن توبيخه.

قال ليدجيت وهو ينظر إليها، وربما بادلها نظرة مشابهة: «من الواضح... ومن جهة أخرى لا بد من أن يكون الرجل أحمق جدًّا إذا ما أخذ بمفهوم أنه يجب ألا يبالي بفتاة شابة خشية أن تقع في غرامه، أو خشية أن يظن الآخرون أنها وقعت في غرامه».

«آه يا سيد ليدجيت...!! إنك تعرف جيدًا ما هي محاسنك، وأنت تعرف جيداً أن شبابنا هنا لا يستطيعون مواكبتك، فإذا ما ترددت إلى بيت يوجد فيه فتاة، فإنك ستؤثر فيها، وتمنعها من قبول أحد المتقدمين إليها من أجل الزواج».

لقد أشبع غرور ليدجيت لما يمتلك من محاسن تفوق محاسن شباب مدل مارش، أقل مما

ضايقته معاني كلمات السيدة بولسترود. لقد شعرت أنها تكلمت بالتأثير القوي الضروري، وباستخدامها كلمة تؤثر تكون قد ألقت بغطاء فخم على كومة من الأجزاء الظاهرة للعيان.

كان ليدجيت يستشيط غضباً، فدفع بشعره إلى الوراء بإحدى يديه، ودفع بيده الأخرى إلى جيبه، ثم طأطأ رأسه وأومأ للكلب الأسود الصغير، الذي لم يكترث لملاطفته الجوفاء.

لم يكن من اللائق أن يذهب لأنه كان يتناول العشاء مع ضيوف آخرين، وقد انتهى لتوّه من شرب الشاي، لكن السيدة بولسترود، حين كانت على يقين بأنه فهم مقصدها تماماً، أنهت النقاش.

أعتقد أن أمثلة سليمان قد غفلت عن أن تتضمن: كما يكون تأثيرالجريش على سقف الحلق الملتهب، يكون وقع الغمز واللمز على الإدراك المتوتر.

في اليوم التالي، حين كان السيد فيربرذر يودع ليدجيت في الشارع افترض أنهما سيلتقيان في منزل السيد فنسي ذلك المساء، فأجاب ليدجيت بفظاظة «لا..!!» وأن لديه عملاً يجب أن يقوم به، ويجب أن يتوقف عن الخروج من منزله مساءً».

قال القس: «ماذا؟ هل ستكبل بأغلال؟ هاه..وهل ستسد أذنيك؟ حسناً، إذا أردت ألّا تكون أحد ضحايا الحوريات الأسطورية، فأنت محق باتخاذك الاحتياطات في الوقت المناسب».

لو سمع ليدجيت تلك الكلمات قبل بضعة أيام لما اعتبرها أكثر من أنها طريقة القس في التعبير عن الأشياء، أما الآن فكلماته تؤكد أنه قد جعل من نفسه أحمق، فتصرف بطريقة أسوء فهمها. إلا أنه كان يعتقد أن ذلك لم يكن من روزموند، بل على العكس قد أخذت الأشياء تماماً ببساطة كما كان يعنيها، كما كانت لديها قدرة على التخطيط، ونفاذ بصيرة في ما يتعلق بجميع آداب السلوك، لكن جميع الذين تعيش بينهم كانوا حمقى وثرثارين. في أيّ حال يجب ألا يستمر الخطأ أكثر من ذلك، فقرر ألّا يذهب إلى منزل السيد فنسي إلا لأجل العمل.

أصبحت روزموند تعيسة، فعدم الارتياح الذي حركته عمتها في داخلها ازداد ثم ازداد كثيراً، حتى إنه في الأيام العشرة الأخيرة، وعندما لم تر ليدجيت، تحول إلى رعب وخشية من أن يتحول أملها إلى إسفنجة مميتة تمسح ببساطة الآمال الخيالية الهائلة، فيصبح العالم موحشاً وكئيباً بالنسبة إليها كوحشة يحولها الساحر لمدة وجيزة إلى حديقة جميلة.

لقد أدركت الآن أنها بدأت تشعر بآثار لكمة الحب المخيب للآمال، وأنه لا يمكن لأي رجل آخر أن يناسب متعة تشييد هذا البناء كما كانت تستمتع خلال الأشهر الستة الماضية. يا لروزموند المسكينة لقد فقدت شهيتها، وشعرت بالبؤس كأريدن التي تركت وحيدة مع صناديقها المليئة بالثياب الكثيرة دون أمل بعربة تنقلها.

هناك عناصر رائعة كثيرة وخليطة في العلم تتشابه وتدعى بالحب، وتنتفع من ذروة الغضب الذي يشكل عذراً لكل ما في الأدب والمسرح. لحسن الحظ، روزموند لم تفكر في اتخاذ أي إجراء، ولكن على العكس فهي كانت تصفف شعرها جميلاً كالمعتاد، وحافظت على هدوء نفسها. أفضل افتراض فكرت فيه هو أن عمتها السيدة بولسترود قد تدخلت لتمنع زيارات ليدجيت. أي شيء يكون أفضل من عدم مبالاته. كل من يتخيل أن عشرة أيام وقت قصير جدًّا للتمعن بطرق الحدس الروحي وخيبة الأمل، لا بد من أن يكون جاهلاً بما يمكن أن يذهب إليه ذهن أيّ شابة.

في أيّ حال... وفي اليوم الحادي عشر، بينما كان ليدجيت يغادر ستون كورت... طلبت السيدة فنسي أن يخبر زوجها بالتغير الظاهر الذي طرأ على صحة السيد فيذرستون، وأنها تتمنى حضوره إلى ستون كورت في ذلك اليوم. لقد كان في استطاعة ليدجيت أن يذهب إلى مكان عمل السيد فنسي، أو يكتب رسالة على ورقة دفتر جيب ويتركها على باب منزله، إلا أن هذه الطرق البسيطة لم تخطر في باله، ويمكننا أن نستنتج أنه لم يكن يعارض الذهاب إلى المنزل عندما لا يكون فيه السيد فنسي في منزله، ويترك رسالة مع الآنسة فنسي. يمكن لأي رجل بسبب دوافع عديدة، أن يقدم صحبته للآخرين، وهو لن يرضيه فقدان الآخرين لصحبته، وسيكون من السهل أن يضم العادات الجديدة إلى العادات القديمة، فيمازح روزموند حول ممانعته ورفضه للتبذير، وثباته في قراره بالصيام لفترة طويلة حتى عن الأصوات الجميلة. يجب الاعتراف بأن التوقعات الآنية لجميع الدوافع المحتملة للإشارات التي أبدتها السيدة بولسترود قد نسجت وحبكت في مخيلته كما يحبك الشعر المتشابك.

لقد كانت الآنسة فنسي لوحدها، فاحمرت خجلاً عندما جاء ليدجيت الذي شعر في المقابل بحرج شديد، وبدلاً من المزاح، بدأ مباشرة حديثه حول سبب قدومه، وطلب منها بجدية أن توصل الرسالة لأبيها. إن روزموند التي أحست لأول وهلة بعودة سعادتها، جرحتها بعمق تصرفات ليدجيت، فخبا احمرار وجهها، وتسمرت مكانها دون أن تنطق ببنت شفة، وقد ساعدها التطريز الذي كان في يدها على أن تتجنب رفع نظرها إلى أعلى من مستوى ذقنه. في جميع الإخفاقات تشكل البداية نصف الكل. بعد أن جلس للحظتين طويلتين جدًّا،

كان يحرك خلالهما سوطه ولم يتفوه بشيء، هم بالذهاب، أما روزموند فقد كانت متوترة بسبب صراعها بين كبح عواطفها، ورغبتها في إظهارها، ثم أسقطت تطريزها وكأنها أجفلت فجأة، ووقفت أيضاً تلقائيًّا. انحنى مباشرة ليلتقط التطريز، وعندما نهض كان قريباً جدًّا من وجه جميل جدًّا يطل من فوق رقبة مرمرية بيضاء اعتاد على رؤيته، وهو يتحرك برضى ذاتي تام، ولكن عندما رفع نظره إلى الأعلى رأى رجفة يائسة أثرت في أعماقه مباشرة، وجعلته ينظر إلى روزموند مندهشاً ومستفسراً. في هذه اللحظة كانت طبيعية جدًّا، تماماً كما كانت في الخامسة من عمرها إذ أحست أن عينيها اغرورقتا بدمعتين، وأن لا جدوى من محاولتها كي تفعل شيئاً سوى أن تبقيهما لتكونا كقطرتي ماء فوق وردة زرقاء، أو تتركهما تسقطان على وجنتيها.

لقد كانت تلك اللحظة الطبيعية تشبه لمسة ريشة شفافة ناعمة إذ حولت المداعبة إلى حب. إن ذلك الرجل الطموح الذي كان ينظر إلى الوردتين خلف الماء، كان ذا قلب دافئ ومندفعاً جدًّا. لم يعرف أين ذهب إطار التطريز، ولقد أحدثت فكرة فجوة عميقة في داخله كان لها تأثير إعجازي في تدفق الحب المدفون ليس في ضريح مفتوح، لكنه قالب رقيق سريع الاختراق. لقد كانت كلماته متلعثمة ومبعثرة، لكن صوته جعلها متقدة تطلب الاعتراف والمجاهرة.

«ما الأمر..؟؟ إنك تبدين كئيبة؟ أخبريني من فضلك».

لم يتحدث إلى روزموند هكذا من قبل، ولست متأكدة ما إذا كانت قد أدركت معاني كلماته، لكنها نظرت إلى ليدجيت، وسقطت دمعتاها على وجنتيها، ولم يكن هناك جواب أفضل من صمتها. أما ليدجيت الذي نسي كل شيء، وتحكم به اندفاع عواطفه الذي حركه اعتقاده المفاجئ أن هذه المخلوقة الجميلة الشابة تعتمد عليه لأجل سعادتها، قد لفها بذراعيه وضمها برفق وحنو، فهو اعتاد أن يكون لطيفاً وحنوناً مع الضعفاء والذين يعانون، ثم طبع قبلة على كل من الدمعتين الكبيرتين. لقد كانت طريقة غريبة للتوصل إلى التفاهم، لكنها كانت طريقة قصيرة. لم تغضب روزموند، لكنها رجعت إلى الوراء قليلاً وكانت السعادة تغمرها. أما ليدجيت فقد جلس بجانبها وراح يتحدث بأقل تلعثم، وكان على روزموند أن تعترف قليلاً، وهو يصب كلمات الحب والامتنان بسخاء. بعد نصف ساعة ترك المنزل وهو خاطب وروحه ليست ملكه لكنها ملك المرأة التي ارتبط بها.

عاد ثانية في المساء ليتحدث إلى السيد فنسي الذي عاد لتوه من ستون كورت، وكان متأكداً من أنه لن يمضي وقت طويل قبل أن يسمع نبأ انتقال ملكية السيد فيذرستون.

إن استخدام الكلمة «انتقال الملكية» كان موفقاً بالنسبة إليه، خصوصًا وقد خطرت له للتو، فرفعت سروره أكثر مما يكون عليه عادة في المساء. إن لاستخدام الكلمة الصحيحة قوة، وهي تؤثر في أفعالنا. ما كان يعتبر السيد فنسي موت السيد فيذرستون إلا مجرد إجراء قانوني يحتاجه السيد فنسي كي يثير مرحه دون أن يحتاج إلى التظاهر المتقطع بالوقار والاحترام، ولا سيما أن السيد فنسي كان ممتلئاً رهبة لوفاة موص، ربما غنى له ترتيلة مقابل ملكية؟ لقد كان السيد فنسي على استعداد كي يتقبل كل شيء بمرح في ذلك المساء، فهو أخبر ليدجيت أن فرد يشبه عائلته، وأنه سيصبح فتى رفيع المستوى ثانية. وعندما طلب منه موافقته على خطوبة روزموند قدمها بسهولة، ثم انتقل ليعطي ملاحظات عامة حول حاجة الشباب والشابات للزواج، ومن الواضح أنه ختم ذلك كله بتناوله كأساً من شراب مسكر.

الفصل الثاني والثلاثون

سيأخذون بالاقتراح كما تلعق القطة الحليب.

العاصفة - وليم شكسبير

إن الثقة بالانتصار، التي تولدت لدى السيد فنسي، بعد أن طلب السيد فيذرستون من فرِد وأمه البقاء معه، كانت شعوراً ضعيفاً إذا ما قورنت بتلك العاطفة المتأججة في صدور أقارب الرجل العجوز، وهم يجسدون الروابط الأسرية أثناء وجودهم الكثيف في ستون كورت في هذه الأيام، وقد أضحى السيد فيذرستون طريح الفراش.

لما كان بيتر المسكين يجلس على كرسيه في حجرته الخشبية الفاخرة، وكانت تظهر بعض الخنفس إلى جانب الموقد، الذي كان الطباخ يصب عليه الماء المغلي، لم يكن يرحب بأقاربه أكثر من ذلك الخنفس، ولقد كان أولئك الأقارب يعانون من سوء التغذية، ليس بسبب بخلهم بل بسبب فقرهم. لكن أخاه سليمان وأخته جين كانا غنيين، ولكن على الرغم من سمة الصراحة لدى العائلة، والوقاحة التي اعتادوا أن يستقبلهم بها السيد فيذرستون، لم يخالجهم شك في أنه، عند كتابته لوصيته، لن يتجاهل حقهم في ثروته، فهو على الأقل لم تبلغ وقاحته حد طردهم من منزله، وسيكون غريباً جدًّا أن يبعد أخاه جونا وأخته مارثا والآخرين، الذين لم يفكروا في حقهم بالإرث، فهم عرفوا طبيعة بيتر، فهو يعتبر المال بيضاً يجب حفظه جيداً في عش دافئ.

كان لجونا ومارثا وبقية المستبعدين آراء مختلفة وانطباعات عديدة، كعدد الانطباعات التي تتولد لدينا عندما ننظر إلى نقوش أو لوحات جدارية بنظرة خلاقة. فكل الآراء ممكنة من جوبتر إلى جودي. أما بالنسبة إلى الفقراء والآخرين غير المرغوب فيهم، فقد كانوا يعتقدون أن بيتر الذي لم يقدم لهم شيئاً في حياته، لا بد من أن يتذكرهم في النهاية.

كان يرى جونا أن الرجال يرغبون في أن يضمنوا وصاياهم مفاجأتهم، في حين أن

مارثا قالت مرة إنه لن يتفاجأ أحد إذا ما ترك جل ماله لمن لا يتوقعه. لم يفكروا في شيء سوى أن أخاهم، الذي أرقده مرض الاستسقاء في الفراش، يجب أن يدرك أن الدم لن يغدو ماء، وإذا لم يغير وصيته فلا بد من أن يكون بجانبه كثير من النقود.

في أيّ حال كان من الطبيعي أن يتواجد بعض الأقرباء في المنزل، يراقبون من لا تربطهم صلة قربى بالرجل العجوز، ما كان يعرف بالوصايا المزورة، أو الوصايا المتنازع عليها يمكن أن تمنح فرصة ذهبية لمن لم يوصِ لهم بشيء، فحتى أولئك الذين لا تربطهم صلة قربى يمكن أن ينتهي الأمر بحصولهم على جزء من التركة، وبينما بيتر المسكين يرقد هناك عاجزاً...!

اتفق الجميع على أن يظل أحد دائماً يراقب الأحداث، كما رأى بعض أبناء العم وبعض أبناء الإخوة والأخوات، وهم يتجادلون بما يمكن للرجل العجوز أن يفعل بوصيته، شعروا بأهمية ضرورة وجودهم في المنزل، وأن ستون كورت لن يكون شيئاً سوى مكان مناسب لهم يزورونه.

لم يكن في استطاعة مارثا التي تعاني من صعوبة في التنفس وتعيش في جوكي فلاتس أن تتحمل عناء الزيارة، لكن ابنها كان يمثلها باستمرار، فيراقب خاله جونا كي لا يغتنم فرصاً غير محتملة، لكنها قد تحصل. لقد كان لدى عائلة فيذرستون طبع متأصل في عروقهم، يقوم على وجوب مراقبة كل منهم للآخر، وأنه من المستحسن أن يتظاهر الجميع وكأن الرب يراقبهم. هكذا ظل منزل ستون كورت يشهد وصول أحد أفراد العائلة أو مغادرة الآخر، وكان على ماري جارث أن تتحمل عبء نقل رسائلهم للسيد فيذرستون، الذي ما كان يستقبل أيًّا منهم، ثم كانت تعود بمهمة أكثر إزعاجاً لها ومضايقة، لتخبرهم بعدم رغبته في رؤيتهم، وكمديرة للمنزل، كان عليها أن تطلب منهم البقاء وتناول الطعام، لكنها اختارت أن تستشير السيدة فنسي في مثل هذه المسائل، ولا سيما أن السيد فيذرستون يرقد في فراشه.

«آه يا عزيزتي... يجب عليك أن تحسني التصرف، فهو في مرضه الأخير، وهناك ملكية. والرب أعلم، إنني لا أتذمر من أي ممثل واحد بينهم في هذا المنزل، عليك فقط أن تحتفظي بما هو الأفضل لوقت العزاء، فيجب أن يظل دائماً لحم العجل المحشو، وقطع الجبن ذات النوع الجيد متوافرة في المنزل، فيتوقع أن يظل المنزل مفتوحاً للزائرين أثناء المرض حتى آخر لحظة»، قالت هذا السيدة فنسي السخية، وهي لا تزال على مرحها وتوقدها المعتادين.

إلا أن بعض الزائرين قد حضروا إلى المنزل، ولم يغادروه بعد بسبب حسن الضيافة التي وجدوها، وما قدم لهم من لحم الخنزير والعجل، فعلى سبيل المثال جونا المزعج، الذي يوجد مثله كثيرون في معظم الأسر - ربما حتى في أكثر الأسر الأرستقراطية، فتجدهم يتحملون ديناً ضخماً، ولا تزال أجسادهم منتفخة من إفراطهم في الإنفاق - كان يدعى إلى المأدبة لأنه أصبح فقيراً وهو لم يكن يتفاخر بها لتواضعه، إذ كانت أفضل من الاحتيال والنصب، ولا تتطلب بقاءه طويلاً ما دام يحظى بموقع جيد في المأدبة، حيث يتلقى طعاماً وافراً. فقد اختار في ستون كورت إحدى زوايا المطبخ ليجلس فيها لأنها أفضل مكان أحبه، ولأنه أراد أن يتجنب أخاه سليمان الذي كان يسيطر عليه في الرأي.

إن جلوسه على أريكة فاخرة مرتدياً أفضل بزة يملكها، مبتهجاً باستمرار، كان يبعث في نفسه شعوراً بالارتياح لأنه كان مقيماً في المنزل، يخيم على مخيلته أسطول من صور الجلوس في حانة جرين مان في أيام الآحاد. لقد أخبر ماري جارث أن عليه ألا يبرح منزل أخيه ما دام بيتر المسكين على قيد الحياة.

إن إحدى مشاكل الأسرة... هي أن أفرادها إما أن يكونوا أذكياء وإما حمقى، وجونا كان من بين أولئك الأذكياء، فكان يمازح الخادمات عندما يوقدن المدفأة، لكنه كان يعتبر الآنسة جارث شخصية مثيرة للريبة، فكان يتابعها بنظرات باردة. لم تأبه ماري لتلك النظرات، ولكن لسوء الحظ كان كرانش الشاب الذي حضر من جوكي فلاتس ليمثل أمه ويراقب خاله جونا، يشعر أن من واجبه البقاء في المنزل والجلوس في المطبخ بصحبة خاله. لم يكن كرانش الشاب يمثل تماماً نقطة التلاقي بين الأذكياء والحمقى من أفراد الأسرة، لكنه يقترب أكثر إلى زمرة الحمقى، فكان يلقي بنظرات غامضة يخفي خلفها عواطفه ورغباته، سوى تلك التي تتمتع بها الشخصية القوية. حين كانت تدخل ماري جارث المطبخ، كان جونا يتتبعها بعينيه الفاحصتين، وكان كرانش الشاب يدير رأسه في الاتجاه نفسه ملحًّا كي تلاحظ كيف كان يختلس النظرات ليبدو مثل الغجر حين كان «بورو» يقرأ عليهم من كتاب العهد الجديد.

لقد كان هذا يفوق طاقة ماري، فكان يجعلها تتأفف في بعض الأوقات ويغضبها. مرة اغتنمت الفرصة فوصفت مشهد المطبخ لفرد، الذي لم يستطع إلا أن يذهب مسرعاً لرؤيته متظاهراً بالمرور عبر المطبخ، فحالما التقت عيناه بالعيون الأربع خرج مسرعاً عند أقرب باب يؤدي إلى غرفة صنع الجبن واللبن، هناك، تحت السقف العالي وبين الأواني، انفجر ضاحكاً، فدوى صدى ضحكته عالياً في المطبخ، ثم هرب عبر باب آخر. هيأ السيد جونا

الذي لم ير بشرة فرد البيضاء من قبل ولا ساقيه الطويلتين، ولا دقة تقاسيم وجهه، العديد من السخريات ربط من خلالها ذكاء مظهر فرد بأخس الصفات الأخلاقية.

«توم، إنك لا ترتدي بنطالاً كالذي يرتديه المهذبون، وليس لديك نصف جمال هاتين الساقين الطويلتين الجميلتين»، قال جونا لابن أخته وهو يغمز في الوقت عينه ليشير إلى أن هناك معاني أخرى لا يمكن إنكارها، يقصدها من وراء ما قاله. نظر توم إلى ساقيه، لكنه فضل أن يترك الأمر غير محسوم إذا ما كان يفضل مزاياه الخلقية على ساقين طويلين يحسد عليهما، وبنطلون طويل يوبخ بسببه.

في غرفة الاستقبال الخشبية الفخمة، كان هناك زوجان من العيون المراقبة وأقارب تواقون للسهر، فكان الكثيرون منهم يأتون فيتناولون الغداء، ثم ينصرفون، لكن الأخ سليمان وجين التي أصبح اسمها السيدة وول بعد أن أصبحت في الخامسة والعشرين من عمرها، وجدا أن من الأفضل أن يبقيا لساعات طويلة كل يوم، ولا همّ لهما سوى مراقبة ماري جارث الماكرة (التي كانت أمكر من أن يكتشف فيها أمر ما) ويتظاهران بالنحيب الكاذب بين الفينة والأخرى، ولا سيما عندما يتذكران أنه غير مسموح لهما الذهاب إلى غرفة فيذرستون.إن كراهية الرجل العجوز لأقاربه أتت من عدم قدرته على أن يمتع نفسه بتوبيخه لهم وتوجيهه الألفاظ النابية. لما عجز عن لسعهم انحبس السم في دمه وتكثف.

دخلا فجأة إلى غرفة فيذرستون وهما يرتديان ثياباً سوداء، مكذبين الرسالة التي نقلتها لهم ماري جارث، والسيدة وول تحمل في يدها منديلاً أبيض، وعلى وجهيهما علائم شبه حداد، بينما كانت السيدة فنسي بوجنتيها المتوردتين تقدم الدواء لأخيهما، كما كان فرد ببشرته البيضاء وشعره الأجعد القصير الذي يشبه شعر المقامر، يتراخى على كرسيه. حالما التقط السيد فيذرستون مشهد الحداد الذي ظهر فجأة أمامه، استشاط غضباً، فقويت عزيمته أكثر مما تقوى تحت تأثير الدواء. كان قد أجلس وأسند في فراشه، وكانت إلى جانبه عصاه ذات المقبض الذهبي، فأمسك بها، ثم حركها إلى الأمام والخلف قدر استطاعته محاولاً منع الشبحين البشعين من الدخول، وهو يصرخ بصوت خشن: «ارجعي، ارجعي سيدة وول، ارجع يا سليمان».

«آه... أخي بيتر»، صرخت السيدة وول، لكن سليمان وضع يده عليها ليسكتها. لقد كان رجلاً ذا وجه سمين، يقارب السبعين من عمره، وله عينان صغيرتان وحادتان، ولم يكن ذا مزاج لطيف، لكنه كان يعتبر نفسه أكثر غموضاً من بيتر، فلا يمكن لمعارفه أن يخدعوه،

لأن مقدار شكه بهم يفوق مقدار جشعهم وطمعهم به. «أخي بيتر»... قال متملقاً...!! ولكن بصوت حزين، وبنبرة رسمية. «لاشيء سوى أنني أريد أن أتحدث إليك حول المزارع الثلاث الصغيرة والمغزى...!! الرب يعلم ما أفكر فيه».

«فهو يعرف أكثر مما أريد معرفته». قال بيتر بعد أن أمسك بعصاه من الطرف الثاني جاعلاً القبضة الذهبية للضرب مهيأة إذا ما تطور الموقف من الشجار إلى القتال، وهو يحدق برأس سليمان الأصلع.

«هناك أشياء تأسف لها لأنك تريد أن تتحدث بها معي يا أخي»، قال سليمان دون أن يتقدم نحو بيتر، «يمكنني الجلوس معك هذا المساء، وكذلك جين معنا، فيمكنك أن تأخذ وقتك كي تقول ما تريد أو تدعني أتكلم».

قال بيتر: «نعم، يجب أن آخذ وقتي، ولا أحتاج وقتك».

بدأت السيدة وول بصوتها المشوش كالمعتاد: «ولكن أن تأخذ وقتك كي تتناول العشاء يا أخي».

«وعندما ترقد ساكتاً، ربما تكون تعباً من الغرباء، وربما تفكر بي وبأولادي». ولكن هنا خفت صوتها تحت تأثير الفكرة التي وجهتها لأخيها الصامت.

قال فيذرستون العجوز: «كلا، لن أفعل، لن أفكر في أي منكم، لقد كتبت وصيتي أقول لك إنني كتبت وصيتي». أدار رأسه هنا إلى السيدة فنسي، فتناول جرعة أخرى من دوائه.

قالت السيدة وول، وقد أدارت وجهها إلى الاتجاه نفسه: «يخجل بعض الناس عندما يشغلون أماكن هي من حق الآخرين»،

قال سليمان ساخراً قليلاً: «أختي...! أنا وأنت لسنا مقبولين، ولا جميلين، ولا ذكيين. يجب أن نكون متواضعين، فنفسح المجال لغيرنا ليتقدمنا».

لم يطق فرد ذلك، فقال وهو ينهض ناظراً إلى السيد فيذرستون: «هل أغادر الغرفة مع أمي، فندعك لوحدك مع أصدقائك».

قال فيذرستون بقسوة: «أقول لك اجلس، ابقيا حيث أنتما. وداعاً يا سليمان»، ثم أضاف وهو يحاول أن يضرب بعصاه ثانية: «وداعاً يا سيدة وول، لا تأتي ثانية».

قال سليمان: «سأكون في الطابق السفلي يا أخي شئت أم أبيت، وسأقوم بواجبي ويفعل

الرب ما يشاء».

قالت السيدة وول متابعة: «نعم، في ذهاب الملكية خارج نطاق الأسرة، على الرغم من وجود شبان جديرين يحفظون بقاء الأسرة، فإنني أشفق على من هم ليسوا كذلك، وعلى أمهاتهم، وداعاً أخي بيتر».

«تذكر أنني الأكبر سنًّا من بعدك في الأسرة، وأصبحت غنيًّا مثلهم منذ البداية، وأملك أرضاً تحمل اسم فيذرستون»، قال سليمان معولاً كثيراً على فكرته التي تشبه تلك التي تخطر في بال أحد بعد منتصف الليل. «ولكنني أستأذنك الآن».

أسرعا في الخروج عندما رأيا السيد فيذرستون يعدل شعره المستعار ويغمض عينيه مكشراً، وكأنه يتظاهر بالصم والعمى.

واصلا حضورهما إلى ستون كورت يوميًّا، وكانا يجلسان في الطابق السفلي متظاهرين بالقيام بواجب ألقي عليهما، ففي بعض الأوقات كانا يتجاذبان أطراف الحديث بصوت منخفض، بعيداً من مراقبة الآخرين أو ردود فعلهم، ولكن إذا ما سمعهما أحد، تخيل نفسه مصغياً إلى حديث لا إرادي، فيوشك أن يقتنع بقدرة البلاهة على العمل، أو تتبخر فتدع الصمت يسود. لو كان جين وسليمان متسرعين لأسفا لذلك، أما جونا فلم يكن مثلهم إذ كان متسرعاً.

كانت المراقبة اليومية في الغرفة الخشبية الفخمة تختلف بحسب الضيوف الموجودين، إذا ما كانوا أقرباء مقربين أو بعيدين ولأن بيتر فيذرستون يرقد الآن في فراشه في الطابق العلوي، كان ممكناً أن تناقش ملكيته مع جميع المواضيع التنويرية الأخرى التي كانت تثار في ذلك الوقت.

عبر بعض الجيران القرويين في مدل مارش عن تعاطفهم وتأييدهم للعائلة ضد أسرة فنسي، فحتى بعض النساء كن يتأثرن فيذرفن الدموع حين كن يتحدثن مع السيدة وول، ولا سيما عندما يتذكرن خيبات الأمل التي أصبن بها في الماضي بسبب ملحقات الوصايا وبعض الزيجات، التي كانت لصالح بعض الرجال المسنين وناكري الجميل، والذين تقدم بهم السن على أمل أن يحصلوا على زواج أفضل. كانت تتوقف مثل هذه النقاشات فجأة كما يتوقف الجسم عن الحراك عندما تتوقف الرئتان عن التنفس، حين كانت تدخل ماري جارث الغرفة فتستدير جميع العيون نحوها وكأنها وارثة محتملة، أو كمن يستطيع الحصول على

خزانة النقود. لكن الشبان الذين كانوا من الأقارب، أو من معارف العائلة أعجبوا بها ضمن هذه الظروف الصعبة كفتاة تحسن التصرف، ويمكن أن تصبح جائزة مقبولة لأحدهم إذا ما خسروا كل الفرص الممكنة، فهكذا نالت نصيبها من عبارات الشكر والامتنان والاهتمام المهذب، خصوصًا من السيد برثروب ترمبل الذي كان أعزب مميزاً وبائعاً في المزاد في تلك المناطق يهتم كثيراً في بيع الأراضي وقطعان الماشية، فهو شخصية معروفة جدًّا، وحقًّا كان اسمه يوزع كثيراً على البطاقات في مناطق شاسعة، وكان يشعر بالأسى لمن لم يكن يعرفه. لقد كان حفيد عم بيتر فيذرستون، فكان يتلقى معاملة أفضل من تلك التي كان يتلقاها الأقرباء الآخرون، لأنه كان يشكل مصدر نفع في ما يتعلق بالعمالة الحرة، فأراد السيد فيذرستون أن يكون أحد حملة نعشه. لم يكن السيد بروثروب ترمبل جشعاً، وما كان يجسد إلا مزاياه النبيلة التي كان يعيها، وفي حال المنافسة يمكن أن تجعله يتغلب على منافسيه، فكان يعتبره بيتر فيذرستون أفضل رجل على قيد الحياة، فلابد من أنه فعل معروفاً له، وكان كل ما يقوله له لم يستغله، أو يتملق له، ولكن كان يقدم له أفضل النصائح التي توصل إليها من خلال تجاربه وخبرته التي امتدت لعشرين عاماً منذ أن بدأ تدربه المهني وهو في الخامسة عشرة من عمره، وكان يستخدم معرفته الواقعية، ولم يكن يختال بنفسه. لكنه كان معتاداً في مهنته أن يبعث البهجة والسرور عندما يقيم الأشياء بأثمان مرتفعة، ولقد كان ناضجاً يستخدم لغة راقية بعيدة من السوقية، فلا يحتاج أن يصحح نفسه. وكان يمتلك سمة مميزة، إذ كان يتمتع بصوت مرتفع يمنحه القوة والسيطرة، فكان يتحرك باستمرار ذهاباً وإياباً، ويجر صدريته إلى الأسفل كرجل يعتد بنفسه، ويصفف شعره بسرعة، ويميز جميع حركاته بتحريكه المستمر لأختامه التي كان يحملها بيده. وكان يظهر أحياناً على سلوكه نوع من العنف لكنه كان موجهاً مباشرة ضد الآراء الزائفة التي يوجد منها الكثير.

لقد عُرف أن معظم أفراد فيذرستون يتمتعون بإمكانات محدودة للفهم، لكن كونه رجلاً شعبيًّا فقد كان يتقبل كل شيء بموضوعية واعتدال، حتى عندما يتجاذب الشاب أطراف الحديث مع جونا وكرانش في المطبخ، ولم ينتابه شك في أنه استطاع أن يثير الأخير بقوة، عندما طرح عليه أسئلة حول جوكي فلاتس. حين كان يقول كل واحد: «لأن بولسترود ترمبل بائع في المزاد يرغب في معرفة طبيعة الأشياء كلها»، كان يبتسم ويؤنق نفسه بسكوت ليتظاهر أنه يقترب مما يقولون. لقد كان، على وجه العموم كبائع في المزاد، رجلاً نزيهاً، وليس خجولاً من مهنته، ويشعر أنه إذا ما قدم إليه بيل الذي هو الآن سير روبرت، لما أخطأ بتقييم مكانته.

«لا بأس... لو تناولت شريحة من لحم الخنزير وكأساً من الجعة، إذا ما سمحت لي يا آنسة جارث»، قال وهو يدخل غرفة الاستقبال في الساعة الحادية عشرة والنصف، بعد أن حصل على امتياز استثنائي برؤية السيد فيذرستون، ووقف أمام موقد النار بين سليمان والسيدة وول، وقد أدار ظهره إلى الموقد: «...ليس من الضروري أن تذهبي، دعيني أقرع الجرس».

قالت ماري: «شكراً، لدي مهمة يجب أن أقوم بها».

قالت السيدة وول: «حسناً يا سيد ترمبل.. إنك مفضل جدًّا».

قال بائع المزاد وهو يلعب بأختامه: «ماذا...؟؟؟ رؤيتي للسيد العجوز...؟ كما ترين اعتمد علي كثيراً». ضغط على شفتيه معاً وقطب حاجبيه متأملاً: «هل لأحد أن يفسر لي ماذا كان يقول أخونا؟»، قال سليمان بنبرة لامبالاة تنم عن مكر الأغنياء.

قال ترمبل بصوت جهوري يشوبه المزاح والسخرية معاً: «نعم، يمكن لكل منا أن يسأل. يمكن لكل واحد أن يستفسر، كما يمكن له أن يعطي ملاحظاته»، تابع بصوته الجهوري الطنان: «هكذا يقول المتفوهون حتى عندما لا ينتظرون جواباً، وهذا ما نسميه استعارة». ابتسم بائع المزاد البليغ لبراعته.

قال سليمان: «لن آسف إذا ما عرفت أنه قد تذكرك يا سيد ترمبل، فإنني لست ضد الذين يستحقون، إنما أنا ضد أولئك الذين لا يستحقون».

قال ترمبل باهتمام: «آه...!! هنا يكمن الأمر، أترى..؟؟ هنا يكمن الأمر، فلا يمكن إنكار الذين لا يستحقون، يصبحون هم الوارثين، وحتى وارثو الفضلة من الإرث، إنها أنظمة الوصية». ضغط على شفتيه مرة ثانية وقطب قليلاً.

قالت السيدة وول التي أثرت فيها كلمات السيد ترمبل الباعثة على الاكتئاب فحولتها إلى امرأة يائسة: «هل تقصد يا سيد ترمبل أن أخي قد أخرج الأرض من أسرتنا؟».

«يمكن للرجل أن يهب أرضه لجمعية خيرية ليستفيد منها بعض الناس»، عندما فهم سليمان سؤال أخته لم يعط أي جواب.

قالت السيدة وول ثانية: «ماذا..؟؟؟؟ أرض بلو كوت؟؟؟ آه.. يا سيد ترمبل.. لا يمكنك

أن تعني ذلك، فذلك سيكون ضد إرادة الرب الذي أثراه».

بينما كانت السيدة وول تتكلم انتقل السيد ترمبل من جانب الموقد تجاه النافذة، وهو يتلمس خلسة بأصابعه سوطه تارة وشاربيه تارة، وشعره تارة أخرى، ثم انتقل إلى طاولة الآنسة ماري، وفتح كتاباً كان قد وضع هناك، فقرأ العنوان بصوت مرتفع وبزهو، وكأنه يعرضه للبيع:

«آن جريستين أو فتاة الضباب لمؤلفه ويفرلي». وبعد أن قلب صفحة من الكتاب قرأ بصوت رنان: «لم تنته القرون الأربعة... إن أحداثها التي تتضمنها الفصول القادمة من هذا الكتاب، وقعت في هذه القارة». نطق الكلمة الأخيرة مؤكداً عليها بإعجاب بعيداً من الطريقة السوقية.

لقد أضاع دخول الخادم في هذه اللحظة وهو يحمل في يده طبقاً، فرصة الإجابة عن سؤال السيد وول، وبينما كانت هي وسليمان يراقبان حركات السيد ترمبل، كانا يفكران في أن التثقيف الرفيع المستوى يتداخل سلباً مع الشؤون الجادة.

لم يكن السيد ترمبل يعلم حقًّا أي شيء حول الوصية، ولكن كان من الصعب أن يبوح بجهله هذا ما لم يجبر على ذلك.

قال مؤكداً: «سأتناول قضمة من لحم الخنزير وكأساً من شراب الجعة، كرجل أعمال أتناول وجبة خفيفة كلما سنحت لي الفرصة. سأرجع هذه اللحم»، ثم أضاف قائلاً بعد أن ابتلع بعض اللقم بسرعة، «إن أي لحم خنزير في الملكات الثلاث لهو برأيي أفضل من لحم خنزير فريشت هول، وإنني أظن أنني حاكم جيد».

قالت السيدة وول: «بعضهم لا يحب السكر في لحم الخنزير، لكن أخي المسكين دائماً يضيف السكر إليه».

«كل واحد حر بما يصبو إليه، ولكن يا إلهي كم هي نكهة طيبة، سأكون سعيداً إذا ما اشتريت من هذا الصنف، فهو يبهج الرجل إذا ما وضع على طاولته مثل هذا النوع من لحم الخنزير».

هنا تغير صوت السيد ترمبل ليشوبه نوع من الاحتجاج العاطفي، ثم دفع بطبقه إلى الأمام، وصب قليلاً من شراب الجعة في كأسه، ثم سحب كرسيه إلى الأمام ليغتنم الفرصة ولينظر إلى ساقيه، فضرب عليهما معبراً عن رضا وابتهاج. يتمتع السيد ترمبل بكل هذه الحركات والإيماءات الأقل طيشاً، والتي تميز جميع العروق السائدة في شمال إنجلترا.

قال عندما عادت ماري: «أرى أن لديك كتاباً ممتعاً يا آنسة جارث، إنه من تأليف الكاتب ويفرلي الذي هو السير ولتر سكوت. لقد اشتريت أحد أعماله، إنه عمل قديم ومؤلف متفوق بعنوان «أيفانهو». لن تجدي كاتباً يتفوق عليه بسرعة، أعتقد أنه لن يتفوق عليه أحد قريباً، كنت أقرأ للتو مقدمة آن جيرسين، إنها بداية رائعة «لا تبدأ الأشياء مع السيد ترمبل، بل تفرض نفسها فجأة في حياته الخاصة والعملية». إنك قارئة كما أرى. هل تشتركين في مكتبة مدل مارش...؟؟».

قالت ماري: «كلا، إن السيد فنسي هو من جلب هذا الكتاب».

«إنني أهتم بالكتب جدًّا، إنني أملك ما لا يقل عن مئتي كتاب غلافها من الجلد، وأنا أتفاخر بها، فقد اخترتها بعناية فائقة، كما أن لدي لوحات للرسامين موريلو، وربينز، وتنييرز، وتيشيان، وفاندايك وآخرون. سيسرني أن أعيرك أي عمل ترغبين فيه يا آنسة جارث».

قالت ماري، وهي تخرج مسرعة: «إنني ممتنة جدًّا لك. ولكن ليس لدي الوقت الكافي للقراءة».

«لا بد لي من أن أقول إن أخي قد أوصى لها بشيء في وصيته». قال هذا السيد سليمان بصوت خافت جدًّا، وهو يشير برأسه إلى الباب، بينما كانت ماري تغلق الباب وهي تخرج.

قالت السيدة وول: «على الرغم من أن زواجه كان غير موفق، فهي لم تقدم له شيئاً، وإن هذه الشابة ليست إلا ابنة أخيها، وهي معتدة بنفسها كثيراً، وأخي يدفع دائماً لها مرتبها».

قال السيد ترمبل منهياً شرابه، وقد بدأ بترتيب صدريته: «إنها فتاة ذكية في رأيي. لقد رأيتها وهي تمزج الدواء، إنها تعي ما تفعل يا سيدي. إن هذه نقطة جيدة بالمرأة، وهي كذلك نقطة جيدة لصاحبنا في الطابق العلوي، يا لروحه العزيزة المسكينة والمسنة. وكل رجل يعتبر حياته ذات قيمة يجب أن تكون زوجته كممرضة، وهذا ما يجب علي فعله عندما أتزوج، وأعتقد أنني عشت مدة طويلة كافية وأنا أعزب كي تجعلني ألا أرتكب خطأ في هذا المضمار. يجب على بعض الرجال أن يتزوجوا كي يرفعوا من مستواهم قليلاً، ولكن عندما أحتاج إلى ذلك أتمنى أن أجد من يقول لي ذلك، أتمنى أن أجد أحداً يخبرني بتلك الحقيقة. أتمنى لك صباحاً سعيداً يا سيدة وول، وأتمنى لك صباحاً سعيداً يا سليمان. وأتمنى أن نلتقي في ظروف تنذر بأقل حزناً».

الفصل الثالث والثلاثون

أغمِضْ عينيه...

وأسدلْ الستائر...

ودعنا نغرق جميعاً في التأمل.

هنري السادس - الجزء الثاني

بعد منتصف الليل أخذت ماري جارث دورها في مراقبة السيد فيذرستون في غرفته، وجلست هناك وحيدة تعد الساعات الأولى من اليوم. غالباً ما اختارت هذا العمل، الذي كانت تجد فيه بعض المتعة، على الرغم مما كان يصدر عن الرجل العجوز من نزق كلما احتاج إلى مساعدتها. كانت تمر عليها بعض الأوقات تستطيع من خلالها أن تجلس ساكنة، فتستمتع بالهدوء المطبق والضوء الخافت، بينما كانت النار الحمراء مع صوت احتراقها كوجود مقدس مستقل عن العواطف التافهة والرغبات البلهاء والكدح والجد لأجل اليقين، ما كان يحرك ازدراءها يوميًّا. لقد كانت ماري معجبة بأفكارها، وكانت قادرة على إمتاع نفسها كثيراً في ساعات الليل وهي تلقي يديها في حضنها، لأنه كان لديها سبب حقيقي يجعلها تقتنع بأن الأمور لن تجري بحسب رضاها. لم تضع وقتاً في التفكير والقلق في تلك الحقيقة، ولقد تعاملت مع الحياة مبكراً كمسرحية هزلية، اتخذت بفخر قراراً بشأنها أنها لن تمثل فيها دور الشريرة أو المخادعة. ربما كانت ماري ستصبح فتاة ساخرة لو لم يكن لها أبوان تعتز بهما، ولم يكن في داخلها بئر مليئة بالامتنان المؤثر لأنها لم تعتد أن تتقدم بطلبات غير منطقية. جلست في تلك الليلة كعادتها تستعيد أحداث ذلك اليوم في ذاكرتها، وكانت ترتسم الابتسامة على شفتيها مستمتعة بسخرية بالغرابات التي أضاف إليها خيالها نوعاً من المتعة الزائدة. كان الناس تافهين بخيالاتهم وهم يضعون على رؤوسهم قبعات الحمقى دون أن يدركوا ذلك معتقدين أن أكاذيبهم لا ترى، بينما من السهل عليهم أن يروا أكاذيب غيرهم، مستثنين أنفسهم من كل شيء، وكأن العالم يبدو أصفر اللون تحت ضوء المصباح،

وهم فقط يبدون متوردين. ولكن كانت هناك بعض الخيالات تمثل أمام عيني ماري، لم تكن مصدر هزل ولا سخرية لديها. كانت مقتنعة في سرها، على الرغم من عدم توافر دلائل لديها - باستثناء ما كانت تراه من طبيعة فيذرستون المولعة بتواجد أفراد أسرة فنسي من حوله باستمرار - أنهم من المرجح سيصابون بخيبة أمل حالهم كحال جميع أقربائه الذين نأى بنفسه بعيداً منهم. كان ينتابها ازدراء قوي بسبب خوف السيدة فنسي من أن تلتقي هي وفرد على انفراد، ولكن لم يمنعها ذلك من التفكير بقلق في الطريقة التي يمكن أن تؤثر في فرد، إذا ما تبين أن زوج خالته سيتركه فقيراً طوال حياته. كانت تسخر من فرد عندما يكون معها، لكنها لم تستمتع بحماقاته في أثناء غيابه، إلا لأنها لا تزال تستمتع بأفكارها؛ فتفكير يافع متقد لا تسيطر عليه العواطف، لا بد من أن يشق طريقه في الحياة ويراقب قواه الذاتية باهتمام. وكانت السعادة تملأ ماري. ولكن لم يكن يعتري تفكيرها إجلال ولا شفقة نحو الرجل العجوز المستلقي على الفراش، فمثل هذه العواطف لهي أسهل على المرء أن يتظاهر بها من أن يشعر بها حقًّاً نحو مخلوق مسن ليست حياته من شيء إلا بقايا رذائل. كانت دائماً ترى الجانب السلبي في شخصية فيذرستون، فلم يكن فخوراً بها، بينما كانت هي مصدر فائدة له. عندما تقلق على روح دائماً تقسو وتشتم الآخرين، يجب أن يترك أمرها لقديسي الأرض، ولم تكن ماري أحد هؤلاء القديسين، وهي لم ترد عليه بكلمة قاسية، لا بل خدمته بكل إخلاص. على الأقل لم يكن فيذرستون قلقاً حول روحه، وقد رفض مقابلة السيد تكر لأجل هذا الأمر. لم يشتم في هذه الليلة مرة واحدة، وظل مستلقياً بهدوء وسكون لساعة أو اثنتين حتى سمعته ماري يخشخش بمفاتيحه على علبة معدنية كان يحتفظ بها على الفراش.

حوالى الساعة الثالثة قال بصوت مختلف: «ياآنسة..! تعالي هنا». استجابت ماري فوجدته قد أخرج العلبة المعدنية من تحت غطاء الفراش، على الرغم من أنه كان يطلب منها دائماً أن تفعل ذلك من أجله، وقد اختار المفتاح، ففتح العلبة وأخرج منها مفتاحاً آخر، ثم نظر إليها بعينين حادتين جدًّا، وقال: «كم منهم يوجد في المنزل...؟؟؟؟».

قالت ماري، وقد اعتادت على طريقة كلام الرجل العجوز: «هل تعني أقرباءك يا سيدي...؟؟». وعندما أومأ برأسه، تابعت قائلة: «السيد جونا فيذرستون، وكرانش الشاب نائمان هنا».

«آه.. هما مقيمان هنا أليس كذلك...؟ وأظن الباقين يأتون كل يوم، سليمان وجين، وجميع الشبان الآخرين. إنهم يأتون ليتلصصوا، ويعدوا، ويحسبوا الأشياء».

«لا.. يأتي جميعهم كل يوم، السيد سليمان والسيد وول يأتيان كل يوم، أما الآخرون فيأتون بين الفينة والأخرى». أصغى الرجل العجوز لما قالته بتكشيرة، ثم قال بعد أن أسكن تعابير وجهه: «..إنهم حمقى، أتسمعين يا آنسة...؟؟؟، إنها الثالثة صباحاً، وأنا أتمتع بجميع قواي العقلية تماماً كما كنت طوال حياتي، وأنا أعرف كل ما أملك ونقودي وكل شيء، وقد هيأت كل شيء كي أغير رأيي، وأفعل ما أريد في آخر المطاف. هل تسمعين يا آنسة؟ إنني أتمتع بجميع قواي العقلية».

قالت ماري بهدوء: «حسناً يا سيدي».

هنا خفض صوته لينم عن مكر غير معهود من قبل: «لقد حررت وصيتين، وأنا سأحرق واحدة، وأنت ستفعلين ما أقوله لك. هذا مفتاح خزنتي الحديدية، التي توجد في تلك الخزانة. تسحبين بقوة ذلك الغطاء المعدني جانباً حتى يعلق كالقفل، ثم يصبح في مقدورك أن تضعي المفتاح في القفل الأمامي، فتفتحينه، افعلي هذا ثم أخرجي أول ورقة من الأعلى: إنها آخر وصية مطبوعة بأحرف كبيرة».

قالت ماري بحزم: «كلا، يا سيدي، لا أستطيع أن أفعل ذلك».

قال الرجل العجوز، وقد بدأ صوته يرتعش تحت صدمة هذه المقاومة: «ألا تفعلين...؟؟؟؟ إنني أقول لك أن تفعلي ذلك..!!».

«لا أستطيع لمس خزنتك أو وصيتك، يجب أن أرفض فعل شيء يمكن أن يقودني إلى موضع شك».

«لقد قلت لك:... إنني أتمتع بجميع قواي العقلية، ألا أفعل ما أريد؟؟؟ لقد كتبت وصيتين لغاية في نفسي، إنني أقول لك خذي المفتاح».

قالت ماري بحزم أشد بعد أن قويت ممانعتها للأمر: «كلا يا سيدي، لن أفعل».

«أقول لك:... لا يوجد وقت يمكن إضاعته».

«إنني لا أحتمل ذلك يا سيدي، إن نهاية متاعب حياتك تصبح بداية لمتاعبي، فلن ألمس خزنتك ولا وصيتك». ثم ابتعدت قليلاً عن السرير، أما الرجل العجوز فقد صمت محدقاً لبرهة قصيرة، وكان يمسك بأحد المفاتيح المعلقة بالحلقة، ثم أفرغ العلبة المعدنية أمامه

بيده النحيلة، ثم قال من طريق المزاح: «آنسة انظري هنا... خذي النقود... والذهب... خذيها... انظري هنا... أؤكد لك... خذيها كلها، وافعلي ما أقوله لك». حاول جاهداً أن يقدم لها المفتاح، ماداً يده إلى أبعد نقطة يستطيع الوصول إليها، إلا أن ماري ابتعدت أكثر. «لن ألمس مفتاحك أو نقودك يا سيدي، أرجوك ألّا تطلب مني فعل ذلك، وإذا فعلت سأنادي أخاك». ترك يده تقع، أما ماري فهذه أول مرة في حياتها ترى فيذرستون العجوز يبكي كالطفل، ثم قالت بألطف صوت استطاعت التحدث به: «أرجوك أرجع نقودك يا سيدي»، ثم عادت إلى كرسيها قرب المدفأة على أن يقتنع الرجل أن لا جدوى من الاستمرار في الحديث، ثم قال بشغف: «انظري إذاً، نادي الشاب فرد فنسي». عندها تسارعت دقات قلب ماري، وانطلقت أفكار كثيرة في ذهنها حول عما يمكن أن يفضي إليه حرق الوصية الثانية، فكان عليها أن تتخذ قراراً صعباً وبسرعة: «سأناديه لو سمحت لي أن أنادي جونا والآخرين».

«لا أحد آخر إنني أقول، الشاب فقط، سأفعل ما أريد».

«انتظر حتى يطلع الصباح، ويستيقظ الجميع، أو دعني أنادي سيمنس الآن ليذهب، وليحضر المحامي، يمكن أن يكون هنا في أقل من ساعتين».

«المحامي...؟؟؟؟ ماذا أريد من المحامي؟؟؟ يجب ألّا يعلم أحد بالأمر، إنني أقول: سأفعل ما أريد».

قالت ماري مقتنعة: «دعني أنادي شخصاً آخر يا سيدي». إنها لم تحب الوضع الذي كانت فيه وحيدة مع الرجل العجوز، وقد بدأ يظهر عليه نشاط عصبي شديد مما جعله يقوى على الكلام مراراً دون أن ينتابه السعال كالمعتاد، على الرغم من أنها حاولت أن تتجنب المشاكسة التي تثير غضبه.

«أرجوك اسمح لي أن أنادي شخصاً آخر».

«دعيني لوحدي أقول لك يا آنسة، خذي النقود، فلن تأتيك الفرصة ثانية إنها مئتان، ويوجد أكثر في العلبة، ولا أحد يعرف كم كان فيها، خذيها وافعلي ما أقول لك». لأن ماري تقف قرب النار، كان ضوؤها الأحمر يقع على الرجل العجوز المدثر فوق وسادته، وهو يمسك بيده النحيلة والنقود ملقاة على الغطاء أمامه. لم تنس في حياتها مشهد رجل يريد أن يفعل ما يشاء في آخر حياته، والطريقة التي عرض النقود لها، جعلتها تتكلم بحزم لم تعتده من قبل: «لا فائدة يا سيدي لن أفعل ذلك. أرجع نقودك، لن ألمس نقودك، سأفعل أي شيء آخر

يرضيك، ولكن لن ألمس نقودك، أو مفاتيحك».

«أي شيء آخر، أي شيء آخر»، قال فيذرستون العجوز بصوت يشبه صهيل الحصان، وكأنه في كابوس يحاول الصراخ، ولكن لا يزال صوته في حدود المسموع فقط. «لا أريد أي شيء آخر، تعالي هنا، تعالي». اقتربت ماري منه بحذر.. لأنها كانت تعرفه جيداً. لقد رأته يلقي بمفاتيحه، ويحاول أن يمسك بعصاه، وينظر إليها كضبع عجوز شوهت عضلات وجهه بما اقترفت يداه، فوقفت بعيدة منه لتكون في أمان منه، وقالت بهدوء: «دعني أعطيك بعض الدواء. حاول أن تتماسك، ربما لو تنام الآن وغداً يمكنك أن تفعل ما تشاء في وضح النهار».

رفع عصاه، وعلى الرغم من أنها كانت تقف أبعد من متناول يده، قذف بها بكل قوته، فوقعت متدحرجة عند طرف السرير، تركتها ماري ملقاة على الأرض، وعادت إلى كرسيها. ستذهب ماري إليه بعد قليل بالدواء، فالإعياء يجهده ويجعله هامداً. كان الوقت يمضي نحو أبرد لحظات الصباح، والنار أخذت تخبو تدريجاً، فاستطاعت ماري رؤية ضوء الصباح يبزغ من بين ستائر النافذة، وبعد أن أضافت بعض قطع الحطب إلى الموقد، ووضعت شالها على كتفيها، جلست إلى كرسيها ثانية على أمل أن يكون السيد فيذرستون قد استغرق في النوم، فلو ذهبت بالقرب منه، ربما لأزعجته. لم يقل أي شيء بعد أن ألقى عصاه، لكنها رأته يأخذ مفاتيحه ثانية، ويضع يده اليمنى على النقود، ولكن لم يسحبها؛ فاعتقدت أنه نام، ولكنها بدأت تقلق بما مرت به أكثر من اقترابها من الحقيقة، متأملة تصرفاتها، التي أجبرت عليها مستبعدة قضية اللحظة الحاسمة.

بدأ الحطب الجاف يبعث لهباً يضيء جميع زوايا الغرفة، فرأت ماري الرجل العجوز مستلقياً بهدوء، ورأسه قد استدار جانباً، فسارت نحوه بخطى هادئة، ورأت وجهه ساكناً على نحو غريب، جعلها اختلاط لهب النار بالأشياء للحظة غير متأكدة، وخفقان قلبها السريع أخر إدراكها، فحتى عندما أمسكت به وأنصتت إلى تنفسه لم تصل إلى يقين، فذهبت إلى النافذة ورفعت الستائر بهدوء ليقع ضوء السماء على الفراش. بعد لحظة قرعت الجرس بقوة، وبعد وقت قصير جدًّا عُرف، دون أي شك، أن بيتر فيذرستون قد مات، ويده اليمنى تمسك بالمفاتيح ويده اليسرى بكومة من النقود والذهب.

الكتاب الرابع

ثلاث مشاكل في الحب

الفصل الرابع والثلاثون

الرجل الأول: مثل هؤلاء الرجال كالريش، أو كقطع الخشب، أو كالقصب...

لا وزن لهم، ولا عزم...

الرجل الثاني: ولكن خفة الوزن هي العلة أيضاً، ولها ثقل كذلك...

إذ تجد القوة مكانها حيث لا يكون هناك قوة؛

وعندما يُتخلى عن التقدم، ويمكن للسفينة أن تغرق...

إذا ما فقد مدير دفتها قوة التركيز الذهني كي يحافظ على توازنها».

في صباح أحد أيام شهر أيار، شيع جثمان بيتر فيذرستون إلى مثواه الأخير، فلم يكن مناخ بلدة مدل مارش دافئاً أو مشمساً في هذا الشهر، وفي ذلك الصباح خصوصًا كانت الريح الباردة تقذف أزهار الحدائق المجاورة إلى فناء كنيسة لُوِيك الأخضر، وكانت الغيوم تسير مسرعة تاركة بين الآونة والأخرى المجال لضوء الشمس الذهبي أن يسطع على جميع الأشياء القبيح منها والجميل.

كانت الأشياء في فناء الكنيسة متنوعة، فكان رهط من الريفيين ينتظرون الجثمان ليلقوا النظرة الأخيرة، فقد انتشر الخبر على أنه سيكون تشييعاً متميزاً، وأن الرجل العجوز قد ترك توجيهات مفصلة حول كل شيء، وأنه أراد أن يكون له تشييع يفوق أمانيه وتوقعاته. إن هذا صحيح، وفيذرستون العجوز لم يكن ذلك الجشع الذي تتحكم بعواطفه نزعة الادخار الجائعة التي لا تشبع، والذي يجري صفقة مسبقاً مع من يكفله. لقد أحب المال وكذلك إنفاقه ليرضي ذوقه الخاص، وربما أحب ذلك ليجعل الآخرين يشعرون بقوته رغم إرادتهم.

إذا ما جادل أحدهم بأنه لا بد من أن يكون هناك جانب خير في شخصية فيذرستون، لن أنكر ذلك، ولكن يجب أن أقول: إن للخير طبيعة حساسة، فهو يمكن أن يحبط بسهولة عندما تكبحه الرذائل في مقتبل العمر ويجنح للانطواء على نفسه، فيمكن أن يعتقد به أولئك الذين يشكلون شخصية الرجل العجوز الأناني نظريًا أكثر مما يعتقد به أولئك الذين أطلقوا

أحكاماً أضيق معتمدين على معارفه الشخصية.

في أيّ حال لقد رغب أن يكون له تشييع متميز؛ فقد أراد أن يشارك فيها بعض الذين يفضلون البقاء في بيوتهم، ولقد رغب أيضاً في أن تسير النساء خلف جثمانه إلى القبر، فأخته مارثا المسكينة كان عليها أن تتحمل عناء سفرها من جوكي فلاتس، وكانت مع أختها جين سعيدتين لو أن أخاهما الذي لم يرغب في رؤيتهما وهو على قيد الحياة، أراد حضورهما وقت دفنه دون أن يرغب كذلك في وجود السيدة فنسي التي تنم ثيابها الثمينة عن آمال مفترضة، وخدودها المتوردة عن أنها ليست من الأقرباء، لكنها من أقرباء زوجته.

جميعنا يجنح إلى الخيال بطريقة أو أخرى، لأن الخيال يشكل حضناً للرغبات، وفيذرستون العجوز الذي ضحك كثيراً على طريقة تملق وتزلف الآخرين، لم ينج من صحبة الخيال، فعندما كتب برنامج دفنه فإنه بالتأكيد لم يوضح في نفسه متعته في سلسلة الأحداث التي ستتضمن الدفن والتي كانت تستند إلى التوقعات فقط. إن ضحكه على المضايقات التي حررها بيده الميتة الآن لم يوقف المزج بين وعيه وجسده الميت، ولأنه كان يفكر في الحياة الأخرى فإنه رسم بعض الرضى لنفسه في كفنه. هكذا كان فيذرستون خياليًّا على طريقته... في أيّ حال ملأت عربات الدفن الثلاث بحسب أوامر المتوفى، وركب حملة النعش على ظهور الخيل مرتدين وشاحات وأشرطة قبعات ثمينة، وحتى أسرجة الخيل كانت حزائنية وكذلك ثمينة جدًّا.

لقد بدا الموكب ضخماً جدًّا داخل فناء الكنيسة الصغير، والوجوه الكئيبة، والألبسة السوداء التي كانت ترتجف في الهواء، لم تكن منسجمة مع سقوط أزهار الأشجار، وأشعة الشمس الساطعة على الورود. كان رجل الدين الذي استقبل الموكب، هو السيد كادولدر الذي كان أيضاً هذا بموجب طلب السيد فيذرستون مدعماً كالعادة بأسباب غريبة هي أنه كان يزدري رجال الدين داعياً إياهم بالتافهين، وطلب ألا يدفن جثمانه رجل دين يتقاضى أجرة. لم يكن وارداً أن يقوم بهذه المهمة السيد كزابون، ليس لأنه يرفض القيام بمثل هذا الواجب فقط، بل لأن فيذرستون كان يحمل ضغينة خاصة تجاهه كأسقف يعيش بالأبرشية التي يعمل فيها، ويملك حق الحجز على الأرض على سبيل ضريبة العشر، ولأنه يقدم عظات الصباح التي كان يتضايق منها الرجل العجوز، وهو يجلس في صفه مجبراً، فكان يكره أن يقف أحد فوق رأسه ليعلمه. غير أن علاقته مع كادولدر كانت مختلفة، إذ كان السيد كادولدر يطلب معروفاً أنه يصطاد سمك الترويت من الجدول الذي يمر بأرضه بعد مروره بأرض كزابون.

في أيّ حال لقد كان أحد أصحاب الطبقة العليا ويعيش على بعد أربعة أميال من لُويك، وكان كذلك جاراً لعمدة المدينة ولأغنيائها.

إن دفنه من قبل السيد كادولدر يبعث الرضى، ولا سيما أن اسمه يمكن أن يلفظ بطرق عديدة لوشئت. لقد كان هذا التمييز لقس أبرشية تبتن وفريشت من سواه، هو الذي جعل السيدة كادولدر تصطحب معها مجموعة ليشاهدوا دفن السيد فيذرستون من إحدى نوافذ الطابق العلوي لمنزل السيد كزابون. لم تكن لديها رغبة في زيارة ذلك المنزل، ولكن كما قالت أحبت أن ترى مجموعة من الحيوانات الغريبة، كما هو متوقع في هذا التشييع الجنائزي، فقد أقنعت السير جيمس والسيدة جتم الشابة كي يأخذاها وزوجها بعربتهما إلى لُويك، فتكون الزيارة أكثر لطفاً.

قالت سيليا: «سأذهب إلى أي مكان معك يا سيدة كادولدر. ولكن لا أحب تشييع الجثمان...!!!».

«يا عزيزتي عندما يكون لديك رجل دين في العائلة، عليك أن تغيري ذوقك، لقد فعلت ذلك من زمن بعيد، فعندما تزوجت همفري، قررت أن أحب الخطب الدينية فقط، ثم انتهى بي الأمر أن أحببت مراسم الدفن كذلك».

قالت الأرملة الغنية والدة السير جتم بتأكيد حتمي: «لا... وكي تكوني متأكدة... كلا».

إن نافذة الطابق العلوي التي كان ممكناً من خلالها مشاهدة الموكب الجنائزي، كانت نافذة الغرفة التي يشغلها السيد كزابون بعد أن منع عن العمل، لكنه عاد لممارسة حياته الاعتيادية الآن، على الرغم من التحذيرات والوصفات الطبية، وبعد أن حيا السيدة كادولدر بأدب ولباقة انسل عائداً إلى المكتبة ليصحح خطأ حول كاش ومزرايم.

ولولا زائروها لظلت دورثيا في المكتبة وما كانت لترى مشهد فيذرستون، الذي كان بعيداً من حياتها، ثم ظلت تتذكره كلما استعادت في مخيلتها ذكرى مؤثرة، كذكراها لسانت بطرس في روما، حيث كانت تصاب بالقنوط والكآبة. إن جميع المشاهد التي تشكل قدر جيراننا تشكل خلفية لقدرنا، فضلًا عن ذلك، فإن مشهد الحقول والأشجار يرافقنا مدى الحياة، يشكل جزءاً من وعينا الدقيق والحسّاس.

إن اتحاد شيء غريب ومبهم مع أعمق أسرار خبرتها يعكس ذلك الإحساس بالوحدة التي سببته حماسة طبيعة دورثيا. لقد عاش رجال الطبقة العليا من المجتمع في الأزمنة

البعيدة في وضع اجتماعي على مستوى عال، منعزلين بعيداً في مواقعهم فوق الجبل المرتفع، وكانوا ينظرون إلى الأسفل بنظرة التمييز الطبقي، حيث يكتظ عامة الناس، ودورثيا لم تكن مرتاحة إلى ذلك المشهد البارد فوق الجبل.

قالت سيليا بعد أن دخل الموكب الكنيسة، وهي تقف خلف ذراع زوجها، ووجنتها تلامس معطفه: «لن أنظر أكثر من هذا... وأظن أن دودو تحب أن ترى مثل هذه الأشياء، فهي تحب الأشياء الكئيبة والناس القبيحين».

قالت دورثيا، وهي تراقب كل شيء باهتمام كما يفعل ناسك الكنيسة في رحلة عطلته: «إنني أحب أن أعرف بعض الأشياء حول الناس الذين نعيش بينهم. يبدو لنا أننا لا نعرف شيئاً حول جيراننا إلا إذا كانوا يعيشون في بيوت ريفية، فلا بد لأحدنا من أن يتساءل عن نوع الحياة التي يحيونها، وكيف يتقبلون الأمور والأشياء. إنني ممتنة جدًّا للسيدة كادولدر لأنها جاءت ونادتني من المكتبة».

قالت السيدة كادولدر: «إنك على حق يجب أن تكوني ممتنة لي، إن فلاحي لُوِيك الأغنياء فضوليون كالجواميس والثيران الأمريكية، ويمكنني القول إنك لا ترينهم في الكنيسة، وهم مختلفون تماماً عن الفلاحين المستأجرين لأراضي عمك أو أراضي السير جيمس، فهم وحوش، عندما لا يكون الفلاحون مالكي أراضي لا يستطيع المرء أن يصنفهم».

قال السير جيمس: «معظم هؤلاء الذين يسيرون في الموكب ليسوا من لُوِيك كما أرى».

«أظنهم من الموصى لهم في التركة، إنهم من أماكن بعيدة عن مدل مارش. لقد قال لي لوف كود إن الرجل العجوز قد ترك مالاً كثيراً وأراضي شاسعة».

قالت السيدة كادولدر: «وكثير من الشبان لا يستطيعون الإنفاق على دفنهم..». ثم استدارت عندما سمعت صوت الباب يفتح: «ها هو السيد بروك... لقد شعرت أننا لسنا مكتملين، وها هو التفسير. لقد أتيت لترى موكب التشييع الغريب بالطبع».

«كلا.. كلا.. لقد أتيت لأهتم بكزابون، وأرى كيف أصبح، وأنقل أخباراً قليلة، أخباراً قليلة يا عزيزتي...»، وهو يومئ باتجاه دورثيا التي كانت تأتي نحوه.

لقد دخلت إلى المكتبة ورأيت كزابون يقرأ الكتب، لقد قلت له: إن هذا غير جيد. قلت: هذا غير جيد. فكر في زوجتك يا كزابون، ولقد وعدني أن يأتي إلى هنا، لم أنقل له أخباري،

فهو يجب أن يأتي إلى هنا».

علقت السيدة كادولدر: «إيه، إنهم الآن يخرجون إلى الكنيسة. يا إلهي كم هم مجموعة مختلطة من الناس. الطبيب ليدجيت على ما أعتقد، وتلك امرأة ذات مظهر جميل، وذلك الشاب الجميل لا بد من أن يكون ابنها. من هم يا سير جيمس..؟ هل تعرف؟».

«إنني أرى فنسي عمدة مدل مارش، ربما كانا زوجته وابنه، وهو ينظر بالتواتر إلى السيد بروك الذي هز رأسه قائلاً: «نعم أظنها عائلة راقية، وفنسي رجل جيد له فضل على الصناعة، لا بد من أنك رأيته في منزلي».

قالت السيدة كادولدر مستفزة إياه: «آه، إنه أحد أفراد لجنتك السرية».

قال السير جيمس مشمئزاً من صيادي الثعالب: «ولكنه رجل صيد».

قالت السيدة كادولدر: «وهو أحد أولئك الذين سرقوا حياة الخياطين اليدويين في تبتن وفريشت، ولذلك تبدو عائلته جميلة وأنيقة، إن أصحاب تلك الوجوه الوردية القاتمة لهم مزخرفون بامتياز. يا إلهي إنهم يبدون كمجموعة قوارير... انظروا إلى همفري، يمكن تخيله كملاك مجنح قبيح يطل من فوقهم بلباسه الأبيض».

قال السيد بروك: «ولكن عادة يكون الموكب الجنائزي كئيباً. إذا ما اعتبرته على هذا النحو».

«ولكنني لا آخذه على هذا النحو، إذ لا يمكنني أن أرتدي حلة الكآبة كثيراً لئلا تبلى. لقد مات الرجل العجوز، ولم يأسف عليه أحد من هؤلاء».

قالت دورثيا: «كم هو محزن...!! يبدو لي هذا الموكب أكثر شيء يبعث على الحزن والأسى رأيته في حياتي. كم هو مؤثر في هذا الصباح، لا أستطيع أن أصدق أن أحداً يمكن أن يموت، ولا يترك وراءه أحداً يحبه». كانت ستقول أكثر من ذلك، لكنها رأت زوجها يدخل إلى الغرفة ويجلس. لم يكن التغيير الذي يحدثه حضوره دائماً باعثاً على السعادة فيها، فقد كانت تشعر أنه كثيراً ما كان يعارض في داخله ما كانت تقوله.

قالت السيدة كادولدر: «بالتأكيد، يوجد وجه جديد يطل من وراء ذلك الرجل الضخم، وهو أغرب من فيهم جميعاً. رأسه صغير ومستدير، وله عينان جاحظتان، ووجه كوجه الضفدع. لا بد من أن يكون من نسل آخر على ما أعتقد».

قالت سيليا بفضول يقظ، وهي تقف خلف السيدة كادولدر منحنية فوق رأسها: «دعيني أرَ...! كم هو وجه غريب...!»، ثم أضافت بدهشة مختلفة عن سابقتها: «..لماذا لم تقولي لي إن ويل لادسلو قد عاد...؟؟».

صدمت دورثيا، ولاحظ الجميع أثر الصدمة على وجهها، ثم نظرت إلى عمها، بينما نظر السيد كزابون إليها. «نعم لقد جاء معي، إنه ضيفي ويقيم معي في كرانج»، قال السيد بروك بطريقته البسيطة المعتادة ملتفتاً إلى دورثيا، وكأن ما قاله هو ما كانت تنتظره تماماً. «ولقد أحضرنا الرسم على العربة، وإنني أعرف أن المفاجأة ستسرك يا كزابون. إنك تبدو فيها تماماً كالحقيقة مثل أكويناس كما تعرف، وشيء كهذا، وستسمع لادسلو الشاب يتحدث حولها إنه بارع في الحديث، فهو يوضح هذا وذاك، إنه يقدر الفن وكل شيء من هذا القبيل، إنه حسن المعاشرة كما تعرف ويستطيع أن يتعامل معك في كل المستويات، وهذا ما كنت أحتاجه منذ وقت طويل».

حنى السيد كزابون رأسه بأدب بارد مسيطراً على غضبه، ولكن فقط بصمت. لقد تذكر رسالة ويل تماماً، وكذلك دورثيا. ولقد لاحظ أنها ليست بين الرسائل التي أبقيت على طاولته حتى تعافى، فاستنتج سرًّا أن دورثيا قد كتبت لويل لادسلو كي لا يأتي إلى لُويك، فأحجم خجلاً عن إثارة الموضوع ثانية. لقد عرف الآن أنها طلبت من عمها كي يدعو ويل إلى كرانج، أما هي فقد شعرت أنه من المستحيل أن تدخل في إعطاء التفسيرات. عندما أدارت السيدة كادولدر نظرها من فناء الكنيسة رأت منظراً كئيباً جدًّا لاتستطيع فهمه ولا سيما أنها ترغب في أن تعرف كل شيء، فلم تستطع أن تكبح سؤالها: «من هو السيد لادسلو...؟؟».

«إنه أحد أقرباء السيد كزابون»، أجابها السير جيمس مباشرة. إن طبيعة السير جيمس الطيبة جعلته ذكيًّا، وذا فهم سريع للمسائل الشخصية، فأدرك مباشرة من خلال النظرة التي رمقت بها زوجها أن شيئاً مقلقاً كان يعتري تفكيرها.

أوضح السيد بروك: «إنه شاب لطيف جداً. لقد فعل السيد كزابون كل شيء لأجله، إنه يحمل جميل ما أنفق عليه يا كزابون، وإنني أتمنى أن يقيم معي مدة طويلة، فسوف نقوم بعمل خاص بوثائقي. لدي الكثير من الأفكار والحقائق كما تعرف، وكما أرى إنه الرجل المناسب الذي يمكن أن يصنفها، فهو يتذكر الاقتباسات الصحيحة وكل شيء من ذلك القبيل، لقد دعوته منذ فترة من الزمن حين كنت مريضاً يا كزابون، فقد قالت دورثيا: لايمكنك استقبال أي أحد في البيت، هل تعرف...؟؟ طلبت مني أن أكتب إليه».

يالدورثيا المسكينة. لقد شعرت أن كل كلمة قالها عمها كانت كحبيبات الرمل في عيني كزابون، ولن يكون مناسباً الآن أن توضح أنها لم تطلب من عمها كي يدعو ويل لادسلو. لم تستطع على الأقل أن توضح لنفسها الأسباب التي تجعل زوجها يكره وجوده معهما، كراهية فرضت عليها بألم عندما كانا في المكتبة، لكنها شعرت بأنه إذا ما قيل شيء قبيح حول الموضوع، يمكن أن يوضح فحواه للآخرين. فالسيد كزابون لم يُبن حقًّا هذه الأسباب لنفسه، لكن شعوراً قلقاً كان يراوده كما هي الحال معنا جميعاً باحثاً عن تفسير ليكون له معرفة شخصية، لكنه تقصد إخفاء ما يمكن أن يظهر على وجهه من انعكاسات لهذا الأمر، فدورثيا كانت الوحيدة التي رصدت التغيرات على وجه زوجها، قبل أن يعبر عن امتنان أكثر وقاراً وشكر أعمق من المعتاد.

«إنك مضياف جدًّا يا سيدي، وإنني مدين لك لحسن ضيافتك لأحد أقربائي».

لقد انتهت مراسم الدفن الآن، وخرج الجميع من فناء الكنيسة.

قالت سيليا: «يمكنك أن تري الآن ياسيدة كادولدر، إنه يشبه صورة خالة السيد كزابون المعلقة في مخدع دورثيا. إنها تبدو جميلة جدًّا».

قالت السيدة كادولدر بجفاء: «إنه فتى وسيم، ماذا يعمل ابن أخيك يا سيد كزابون...؟؟».

«عفواً... إنه ليس ابن أخي، إنه حفيد خالتي». هنا تدخّل السيد بروك قائلاً: «إنه يجرب جناحيه كأي شاب يحاول النهوض بنفسه، وسيكون من دواعي سروري أن أقدم له الفرصة، إنه جيد في الأعمال المكتبية مثل هوبز وميلتون وسويفت، إنه من ذلك النوع من الرجال».

قالت السيدة كادولدر: «لقد فهمت... إنه قادر على كتابة الخطب».

قال السيد بروك: «سأذهب وأحضره الآن، يا كزابون، إنه لن يأتي حتى أحضره. سننزل لنرى الصورة. إنك تظهر فيها كما تظهر في الحقيقة كمفكر بارع ومتعمق في التفكير يضع سبابته على الكتاب، بينما يظهر فيها القديس بونافنتشر أو شخص آخر سمين ينظر إلى الثالوث. كل شيء فيها رمزي، وهي تمثل أسلوباً رفيعاً للفن. لقد أحببت ذلك إلى حد معين ولكن ليس أكثر مما ينبغي، فإنه لمن المجهد متابعة مثل هذه الأمور كما تعرف، لكنك تبدو متألقاً فيها ياكزابون، ويبدو لون بشرتك حيًّا ومتماسكاً وشفافاً وشيئاً كهذا، لقد اهتممت بمثل هذه الأمور كثيراً جدًّا في يوم من الأيام. في أيّ حال سأذهب وأحضر لادسلو».

الفصل الخامس والثلاثون

Non, je ne comprends pas de plus charmant plaisir
Que de voir d'heritiers une troupe affligée
Le maintien interdit, et la mine allongée,
Lire un long testament ou pâles, étonnés
On leur laisse un bonsoir avec un pied de nez.
Pour voir au naturel leur tristesse profonde
Je reviendrais, je crois, exprés de l'autre monde».

REGNARD: Le Legataire Universel.

عندما دخلت الحيوانات سفينة نوح في أزواج، يمكن للمرء أن يتخيل أن الحيوانات المتحالفة كانت تراقب بعضها بعضاً سرًّا، وأنها كانت تتمنى أن تتغذى من ذات العلف الوافر جدًّا، فلا يكون مقسماً على شكل حصص. أخشى أن يكون دور تلك العقبان في تلك المناسبة من الصعب تمثيله في الفن، فتلك العقبان كانت حناجرها معراة على نحو مريع، ومن الواضح أنها لا تتقيد بالطقوس الدينية، كالإغراء نفسه الذي أحدثه المسيحيون المتوحشون الذين شاركوا في موكب جنازة فيذرستون. فكان تفكير الجميع يتركز حول مخزن واحد متمنياً كل واحد منهم أن يحصل على أكبر قدر منه، عدد الأشخاص الذين أصبحوا أقرباء من طريق الزواج كان كبيراً... وتضاعف العدد بموجب التوقعات والآمال فقط، مما أحدث مزيجاً لطيفاً من حس الغيرة والآمال المثيرة للشفقة. فالغيرة من أسرة فنسي أوجدت نوعاً من رفقة الضيافة مع جميع أقرباء بيتر فيذرستون، حتى إذا اختفى الاعتقاد بأن أحداً من الأقارب لن يحصل على الحصة الكبرى، حل محله خشية من أن فرد فنسي، ذا الساقين الطويلتين، سيرث الأرض، لذلك سيطر عليه شعور قوي واستمتاع بغيرة مبهمة كذلك الشعور الذي انتابه تجاه ماري جارث.

وجد سليمان فرصة ليظهر أن جونا غير جدير، واتهم جونا سليمان بالجشع. أما جين الأخت الكبرى، فقد ارتأت أن أبناء مارثا يجب ألا يتوقعوا الكثير، كما توقع أبناء أسرة وول. أما مارثا التي كانت تشعر بالأسى لأن جين في وضع مالي أفضل منها، فقد كانت متوترة بسبب الترتيب العمري. كان هؤلاء الأكثر قرابة من بيتر فيذرستون متضايقين جدًّا بسبب

الآمال غير المنطقية للأقرباء الأبعد منهم، وكانوا يستخدمون قدرتهم الحسابية في تقسيم المبالغ الكبيرة إلى مبالغ صغيرة يرثها الأقرباء البعيدون عندما يكون عددهم أكثر مما يكفي.

اثنان من أبناء عمومته حضرا ليسمعا الوصية، وثالث كان يجلس إلى جانب السيد ترمبل، وقد كان هذا الثالث تاجر أقمشة حريرية يتمتع بسلوك مهذب، وشديد الاعتداد بنفسه. أما أبناء العم الاثنان فقد كانا رجلين عجوزين يعيشان في براسنغ، كان أحدهما قد أدرك إدعاءات الآخرين حول النفقات غير المناسبة من خلال تقديم الهدايا كالمحار والطعام الفاخر لابن عمه بيتر الثري. أما الآخر فكان كئيب المزاج، كان يضع يديه وحنكه على عصاه، وهو مدرك بحقوق المطالبة التي تقوم على الجدارة بشكل رئيسي وليس على سوء الأداء؛ كلاهما لم يكونا يلامان على إقامتهما في براسنغ، ويتمنيان لو أن جونا لم يكن فيها (عادة ما تظهر فطنة وذكاء العائلة أمام الغرباء).

«لماذا يكون ترمبل متأكداً من أنه سيحصل على خمسمئة جنيه، وأنا لا أعجب من أن أخي قد أعجبه ووعده بها». قال سليمان بصوت مرتفع لأخته في المساء الذي سبق يوم تشييع الجثمان.

قالت مارثا المسكينة التي لا تفكر في مئات الجنيهات إلا عندما تحسب أجور السكن المستحقة عليها: «عزيزي...!!».

ولكن في الصباح أصيبت جميع تخمينات الحضور بالقلق والاضطراب نتيجة حضور شخص غريب في حالة حداد برز بينهم، وكأنه هبط عليهم من القمر. لقد كان هذا الغريب هو الذي وصفته السيدة كادولدر. لقد كان رجلاً يراوح عمره ما بين الثانية والثلاثين، والثالثة والثلاثين، وكانت له عينان بارزتان، وشفتان رقيقتان، وفم منحن قليلاً إلى الأسفل، وشعر أملس ناعم يتدلى فوق حاجبيه، مما جعل وجهه يشبه وجه الضفدع، فلا يظهر عليه تغير في التعبير. من الواضح أنه وريث جديد، وإلا لمَ دعي كصاحب حِداد؟ هنا تكمن احتمالات جديدة تثير قلقاً جديداً، مما جذب انتباه الآخرين في الموكب الحزين.

جميعنا يذل عندما نفاجأ باكتشاف حقيقة قائمة بثبات، وربما كانت تحدق بنا سرًّا بينما كنا نصنع عالمنا بعيداً منها كليًّا. لم يسبق لأحد أن رأى هذا الغريب سوى ماري جارث، التي لم تعرف عنه شيئاً سوى أنه قدم إلى ستون كورت مرتين، حين كان السيد فيذرستون في الطابق السفلي، وقضى معه عدة ساعات، وقد ذكرت ذلك لأبيها، فربما كانت عينا كيلب

الوحيدة، وكذلك عينا المحامي، اللتان تفحصتا الغريب في غاية التعرف أكثر مما تكون بدافع الشك والكراهية.

لقد كان السيد كيلب جارث منغمساً بأنواع من ظنونه انطلاقاً من بعض الآمال التي يعقدها، وليس من طمعه. وبهدوئه المعتاد، فرك ذقنه مبدياً ابتسامة لطيفة ومطلقاً نظرات ذكية كأنه يقيم شجرة ويثمنها، ما جعل وجهه نقيضاً لجميع وجوه الآخرين إما المزدرية وإما المتفاجئة. عندما دخل الحزين غير المعروف، الذي عرف باسم ريج، الغرفة الخشبية الفاخرة، جلس على كرسي قرب الباب ليكون أحد الحضور عندما تقرأ الوصية. عندها صعد السيدان سليمان وجونا بصحبة المحامي إلى الطابق العلوي ليبحثوا عن الوصية، وعندما رأت السيدة وول مقعدين فارغين بينها وبين السيد ترمبل، رغبت في الانتقال إلى جانبه، وهو يمسك بسلسلة ساعته بهدف ألّا يظهر ما يثير شبهة الآخرين حوله.

قالت السيدة وول بأخفض صوتها، وهي تدير بقبعتها الثمينة نحو أذن السيد ترمبل: «أظنك تعلم كل ما فعله أخي يا سيد ترمبل».

قال بائع المزاد رافعاً يده ليخفي ذلك السر: «عزيزتي ما قيل لي قد قيل لي سرًّا».

قالت السيدة وول، وقد وجدت بعض الارتياح في هذا النقاش: «فمن كان متأكداً أن الحظ يحالفه، ربما سيصاب بخيبة أمل».

قال السيد ترمبل، ولا يزال محافظاً على سرّه: «غالباً ما تكون الآمال مضللة».

«آه...!!»، قالت السيدة وول ناظرة إلى أسرة فنسي، ثم انتقلت إلى جانب أختها، «من المدهش كم كان أخونا بيتر كتوماً». ثم قالت بصوتها الخافت ثانية: «لا أحد منا يعلم كيف كان يفكر؟». «أتمنى ألّا يخيب أملنا، يا مارثا».

كان لدى السيدة كرانش المسكينة، والمصابة بالربو التحسسي، حافز يجعل ملاحظاتها غير استثنائية، ولها معنى يجعل همساتها تصدر بصوت مرتفع يشبه صوت آلة موسيقية صاخبة.

أجابت: «لم أكن في حياتي جشعة، يا جين. ولكن لدي ستة أطفال، ودفنت آخرين، ولم أتزوج من رجل غني، عمر أكبرهم تسع عشرة سنة، فأترك لك الحكم، المخزن دائماً فارغ والأرض غير صالحة للزراعة، ولكن إذا ما طلبت، أو توسلت فإنني دائماً أفعل ذلك مع الرب،

على الرغم من أن أحد أخوي أعزب والآخر ظل بلا أولاد بعد زواجين، فبمقدور أي واحد أن يحكم».

في هذه اللحظة رمق السيد فنسي السيد ريج بنظرة، ثم أخرج علبة نشوقه، ونقر عليها بإصبعيه، لكنه أعادها دون أن يفتحها لأنه ليس من اللائق أن يفتحها في مثل هذه المناسبة.

قال هامساً في أذن زوجته: «لن أستغرب ما إذا كان لدى بيتر فيذرستون شعور أفضل مما نتوقع. لقد برهن تشييع جثمانه أنه لن ينسى أحداً... إنه لمن الممتع أن يطلب المرء من جميع أصدقائه أن يشيعوا جثمانه، وإذا كانوا متواضعين فهو لا يخجل منهم. سأكون مسروراً جدًّا إذا كان قد ترك مبالغ صغيرة للجميع، فذلك سيكون أفضل لهم جميعاً».

«كل شيء يبدو حسناً جدًّا: القماش الحريري الثمين، وكل شيء»، قالت السيدة فنسي معبرة عن رضا كان قد غمرها. «...يؤسفني أن أقول إن فرد كان يعاني من قدرته على إخفاء ضحكة لن تكون أقل حرجاً من علبة نشوق أبيه. لقد سمع فرد السيد جونا يتحدث عن ابن عشق، وبينما كان يفكر في هذا الأمر أثر فيه وجه الرجل الغريب، الذي كان يجلس أمامه. عندما لاحظت ماري جارث تبسم فرد، ولجوءه للتظاهر بالسعال انتقدته بذكاء، فطلبت منه أن يتبادلا أماكنهما ليصبح في زاوية معتمة. كان ينتاب فرد شعور طيب تجاه الجميع بمن فيهم ريج، ولما كان رقيق المشاعر تجاه كل هؤلاء الذين هم أقل منه مستوى، ما كان ليتصرف بسوء تجاههم، إنما لا يزال من السهل عليه أن يضحك.

لقد جذب دخول المحامي والأخوين انتباه الجميع. كان المحامي السيد ستانديش، ولقد حضر إلى ستون كورت هذا الصباح معتقداً أنه يعرف تماماً من سيكون سعيداً، ومن سيصاب بخيبة أمل قبل أن ينقضي النهار. فالوصية التي يُتوقع قراءتها، كانت إحدى ثلاث وصايا كتبها السيد فيذرستون. لم يكن السيد ستانديش يغير سلوكه كثيراً.. فقد كان يتحدث إلى الجميع بالصوت نفسه والنبرة نفسها، وكأنه لا يرى أي فوارق بينهم، وكان يتحدث عن محصول القش، الذي «سيكون جيداً إن شاء الرب»، وعن آخر أنباء الملك، ودوق كليرنس الذي كان بحاراً عريقاً، ورجلاً مناسباً لحكم جزيرة كبيرة كبريطانيا.

لقد اعتقد فيذرستون العجوز مرات كثيرة - بينما كان يجلس إلى الموقد - أن ستانديش سيفاجأ يوماً حقًّا، لو حرق تلك الوصية الأخيرة التي خطها محام آخر، ولما استطاع أن يحافظ على تلك النهاية، وبالتأكيد لقد فوجئ ستانديش، لكنه لم يأسف على الإطلاق بل

على العكس لقد استمتع بنكهة فضوله، فاكتشاف الوصية الثانية ستزيد من دهشة أسرة فيذرستون.

بالنسبة إلى آراء سليمان وجونا فقد ظلت مكبوتة إذ بدا لهم أن الوصية القديمة سيكون لها بعض الصلاحية، ولربما سيكون هناك تداخل بين أقدم مآرب بيتر المسكين وأحدثها، فتحدث تعقيدات قانونية لا نهاية لها قبل أن يحصل أي واحد على أي شيء، فيفضي الأمر بالجميع إلى عدم الرضى. لقد تظاهر الأخوان بالحياد عندما دخلا مع السيد ستانديش، لكن سليمان أخذ منديله الأبيض تحسباً من وجود مقاطع مؤثرة ولا سيما أن البكاء وقت العزاء أمر طبيعي حتى، وإن كان... دون دموع!!

ربما كانت ماري جارث أكثر شخص انتابه شعور بالإثارة والاستمتاع، لأنها حددت مصير الوصية الثانية التي ربما تحمل تأثيراً قويًّا على قدر بعض الحضور (لم يعرف أحد سواها ماذا حصل تلك الليلة).

قال السيد ستانديش، الذي كان يجلس إلى الطاولة في وسط الغرفة، وكان يأخذ وقته في كل أمر بما في ذلك السعال بهدف تنقية صوته:

«إن الوصية التي بين يدي، فقد كتبت من قبلي، ووقعت من صديقنا المتوفى في: التاسع من شهر آب 1825، لكنني أجد وصية أخرى لا أعلم بها تحمل تاريخ العشرين من تموز 1826، أي بعد أقل من سنة بقليل من الوصية الأولى، ويوجد المزيد... (كان السيد ستانديش يدقق في الوثائق كثيراً) ملحق للوصية الثانية يحمل تاريخ: الأول من آذار 1828».

قالت مارثا وهي لا تقصد أن يسمعها الآخرون، لكنها اضطرت أن تقول شيئاً في ظلّ ضغط هذه التواريخ المفصلة بدقة: «يا للعجب...!! يا للعجب...!!».

تابع السيد ستانديش: «سأبدأ قراءة الوصية الأولى، يبدو أنها كانت تمثل رغبة المتوفى لأنه لم يتلف الوثيقة». شعر الجميع بالبداية على أنها طويلة، وهز كثيرون رؤوسهم بالإضافة إلى سليمان وهم ينظرون إلى الأرض، فكل العيون تتجنب النظر إلى العيون الأخرى لأنها تنظر إلى الطاولة، أو إلى رأس السيد ستانديش الأصلع باستثناء ماري جارث. حين كان الجميع يحاولون النظر إلى شيء محدد كان آمناً أن تنظر إليهم جميعاً، واستطاعت أن ترى تغير ألوانهم عندما نطق بأولى كلمات الوصية، فبدوا وكأن ارتجاجاً أصابهم باستثناء السيد ريج، الذي كان يجلس بهدوء ثابت، ولما كان الجميع منشغلين بمشاكل أكثر أهمية، وبتعقيدات

استماعهم للوصايا التي ربما تلغي الواحدة منها الأخرى، كانوا قد توقفوا عن التفكير فيه.

احمر فرد، ووجد السيد فنسي أن من المستحيل أن يترك من يده علبة نشوقه إلا أنه أبقاها مغلقة. جاءت الوصايا الصغيرة أولاً، وعلى الرغم من المعرفة المسبقة أن هناك وصية أخرى، وأن بيتر المسكين قد أمعن التفكير فيها أكثر، فذلك لم يمنع ازدياد الشعور بالاشمئزاز والسخط. إذ إن المرء يرغب أن يعامل جيداً في كل الأوقات. في الماضي والحاضر والمستقبل، وها هو بيتر كان قادراً منذ خمس سنوات على أن يترك مئتي جنيه لكل أخت وأخ، ومئة جنيه لكل ابن أخ، وابن أخت. لا ذكر لأسرة جارث، ولكن كانت هناك مئة جنيه للسيدة فنسي وروزموند. ويترك للسيد ترمبل العصا ذات القبضة الذهبية وخمسين جنيهاً. أما أبناء الأعمام الآخرون بالإضافة إلى أبناء العم الحاضرين فيتلقى كل منهم مبلغاً متواضعاً اعتبره أحدهم نوعاً من الوصية التي لا تدع للرجل مكاناً، وكان هناك أقساط من الإساءات لصالح أشخاص لا يعانون من مشاكل، وصلة قربتهم للمتوفى بعيدة. لقد حسب مجموع تلك المبالغ بسرعة لتبلغ حوالى ثلاثة آلاف جنيه.

أين أراد بيتر أن تذهب النقود وبقية الأرض...؟؟!! وما هو الشيء الذي ألغي..؟؟ والذي لم يلغ..؟؟ وهل كان الإلغاء للأفضل أم للأسوأ؟ تبقى جميع المشاعر مشروطة، ويمكن أن تكون خاطئة. لقد كان الرجال أقوياء وقادرين على التحمل، فالتزموا الصمت تحت وطأة الشك المربك. أرخى بعضهم شفاههم السفلية، وبعضهم الآخر شدها إلى الأعلى كل بحسب ما اعتادت عليه عضلاته. ولكن جين ومارثا غرقتا في مستنقع أسئلة كثيرة، فراحتا تبكيان... السيدة كرانش المسكينة هزها عزاؤها لتلقيها مئتي جنيه دون أن تقدم أي عمل مقابلها، كما هزها أن إدراكها نصيبها كان ضئيلاً جدًّا، أما السيدة وول فقد استشاطت غضباً لأنها حصلت على نصيب ضئيل، ولا سيما أنها شقيقة المتوفى، في وقت حصل شخص آخر على أكبر بكثير من مبلغها. التوقع العام الذي ساد هو أن النصيب الأكبر سيحصل عليه فرد فنسي، لكن أسرة فنسي دهشت عندما علمت أن عشرة آلاف جنيه، موظفة في استثمار، يرثها فرد. هل ستأتي الأرض كذلك؟ عض فرد على شفتيه، فقد كان من الصعب عليه أن يخفي ابتسامته، وشعرت السيدة فنسي بأنها أسعد امرأة وتتمنى ألّا يكون هناك إلغاء. لقد ظل هناك باقي الممتلكات الشخصية والأرض، فكلها ذهبت لشخص واحد، ولقد كان ذاك الشخص: يا للاحتمالات...!! ويا للتوقعات...!! لقد ذهبت كلها لرجل قريب منذ زمن بعيد، ويا للنداءات اللا متناهية التي لا يمكن أن تدع تعبيراً يمر، وهي عاجزة عن قياس حماقة

فانية...!! إن صاحب باقي كل ذلك الإرث هو جوشوا ريج...!! وقد منح التخويل القانوني لتنفيذ الوصية وقد حصل على اسم فيذرستون بعد ذلك. لقد كان هناك صراع في الغرفة بدا وكأنه هرولة مروعة،إذ حدق الجميع على الفور بالسيد ريج الذي لم تصبه أيّ دهشة.

صرخ ترمبل: «إنها أقوى وصية كتبت»، مفضلاً أن يعتبره الآخرين جاهلاً في الماضي. «لكن هناك وصية أخرى حررت بعد سابقتها، فلم نستمع لآخر أمنيات المتوفى».

كانت ماري جارث تعلم أن ما كانوا يستمعون إليه لم تكن الأماني الأخيرة للمتوفى. فالوصية الثانية تلغي كل شيء، ما عدا المبالغ الصغيرة المذكورة أعلاه مع بعض التعديلات التي يتضمنها ملحق الوصية، وتنتقل ملكية كل الأرض في أبرشية لُويك مع جميع الأسهم وأثاث المنزل إلى جوشوا ريج. أما باقي الأراضي فتخصص لبناء دور للمسنين من الفقراء، وتدعى دور فيذرستون للمسنين الفقراء، ويجب أن تبنى على قطعة أرض من مدل مارش اشتريت من أجل هذا الهدف من قبل الموصي، فهو يتمنى كما توضح الوصية أن يرضي الرب بإعلان هذه الوصية.

لم يحصل أحد على جنيه واحد، ولكن حصل السيد ترمبل على العصا ذات القبضة الذهبية. لقد مر بعض الوقت قبل أن يستعيد الجميع قوتهم على التعبير، ولم تتجرأ ماري جارث بالنظر إلى فرد، وكان السيد فنسي أول المتحدثين بعد أن استخدم علبة نشوقه بسرعة، وقد تحدث بسخط صارخ: «إنها أكثر وصية مبهمة سمعت بها... لا بد لي من أن أقول إنه لم يكن في كامل قواه العقلية عندما كتبها... يجب أن أقول إن وصيته الأخيرة لا قيمة لها». أضاف السيد فنسي معتقداً أن هذا التعبير سيضع الأمور في نصابها، «أليس كذلك يا ستانديش؟».

قال السيد ستانديش: «أظن أن صديقنا المتوفى كان يعي كل ما كان يريده. كل شيء نظامي. هنا توجد رسالة مرفقة بالوصية، من كلمنز في براسنغ، لقد دونها محام محترم».

قال برثروب ترمبل: «لم ألاحظ أي أضطراب في عقل السيد فيذرستون وتفكيره في آخر أيامه، لكنني أسمي هذا غرابة في الأطوار. كنت دائماً أخدم الرجل العجوز عن حب ورحابة صدر، كان دائماً يبدي امتناناً، وقد وعد أن يظهر ذلك واضحاً في وصيته، عصا ذات قبضة ذهبية تمثل امتناناً مضحكاً بالنسبة إلي، ولكن لحسن الحظ فوق الاعتبارات الجشعة».

قال السيد جارث: «إنني لا أرى شيئاً في الأمر يثير الدهشة. يمكن لأي واحد أن تكون

لديه أسباب أكثر للتعجب لو جاءت الوصية كما تتوقعونها من رجل منفتح وصريح. بالنسبة إلي أتمنى لو يكون هناك شيء يدعى وصية».

قال المحامي: «إن هذا لوجدان غريب ينبع من رجل مسيحي... يا إلهي...! أود أن أعرف كيف ستبرهن على ذلك..؟؟ يا جارث».

«أوه»، قال جارث متكئاً قليلاً إلى الأمام، وهو يحرك أصابع يديه بلطف، وينظر إلى الأرض. لقد كانت الكلمات أصعب شيء بالنسبة إليه في هذا الأمر.

ولكن هنا تحدث جونا فيذرستون بصوت مرتفع: «حسناً، لقد كان أخي دائماً مرائيًّا محترفاً، لكن هذه الوصية ستلغي كل شيء، فلو عرفت الأمر هكذا لما أتيت على عربة تجرها ستة خيول من براسنغ. سأرتدي قبعة بيضاء، ومعطف جوخ من الغد».

بكت السيدة كرانش: «ياللقسوة... يا للقسوة، لقد تكبدنا نفقات السفر، وبقي ذلك الولد المسكين عاطلاً عن العمل لفترة طويلة ليجلس هنا. إنها المرة الأولى التي أسمع بها أن أخي بيتر يتمنى رضى الرب، ولكن لو أجبرت على الصمت لقلت إن هذا الأمر لقاس جدًّا، ولا أستطيع أن أفكر في أي شيء آخر».

«إن هذا الأمر لن يجر عليه خيراً أينما ذهب، هذا ما أعتقده»، قال هذا سليمان بمرارة حقيقية، على الرغم من أن نبرته لم تساعده على أن يكون بارعاً. «لقد كان بيتر كائناً سيئاً، ودور المسنين للفقراء لن تشفع له، ولقد أراد أن يظهر وقاحته في النهاية».

قالت السيدة وول: «وطيلة ذلك الوقت كانت له أسرة شرعية تتكون من إخوة وأخوات وأبناء وبنات أخوات، ولقد جلس معهم في الكنيسة كلما أراد. فكان في إمكانه أن يترك لهم ملكيته باحترام، فلا تستخدم من أجل التبذير والتهور، بعيداً من الشح، ولا سيما أنهم يستطيعون أن يوفروا كل بنس ويستثمرونه، أما أنا فقد كنت أتحمل عناء المجيء إلى هنا مرات عديدة لأكون إلى جانبه كأخت كريمة، وهو كان يخدر الآخرين بأفكاره، ولو شاء الرب لعاقبه على ذلك. أخي سليمان إنني ذاهبة لو أخذتني معك».

قال سليمان: «لا رغبة لدي كي تطأ قدمي هذا المنزل ثانية، لدي أرض أملكها، ومنزل أملكه فلتذهب الوصية إلى الجحيم».

قال جونا: «يا لبؤس الأمر...!! كيف يلعب الحظ بأقدار الناس، لقد برهنت أنك كنت بلا رُوح، من الأفضل لك أن تكون كلباً في معلف البهائم، ولكن لأولئك الذين فوق الأرض أن

يتعلموا درساً؛ أن وصية لرجل أحمق واحد تكفي أسرة بكاملها».

قال سليمان: «هناك طرق كثيرة يمكن للمرء أن يكون من خلالها أحمق، لن أترك نقودي كي يلقى بها في المجاري، ولن أتركها للقطاء من أفريقيا. إنني أحب أفراد أسرة فيذرستون الحقيقيين، وليس أولئك الدخلاء الذين يلصق عليهم اسم فيذرستون». وجه سليمان هذه التعليقات بصوت مرتفع إلى السيدة وول، وهو ينهض ليصطحبها معه.

لقد كان جونا قادراً على أن يلسع بفطنته أكثر من ذلك، لكنه أدرك أن لا نفع يرتجى من الإساءة لمالك ستون كورت الجديد، الذي ظل هادئاً، ولم يقدم حسن ضيافة للرجال الأذكياء الذين سيشاركهم اسمهم.

لم يكترث السيد جوشوا ريج كثيراً بتلميحات الآخرين، ولكن ظهر عليه تغير ملحوظ في سلوكه، وهو يسير بهدوء نحو السيد ستانديش ليطرح عليه أسئلة قانونية ببرودة شديدة. كان صوته قويًا وحادًا، وكانت لهجته رديئة. أما فرد الذي ما عاد يضحكه ذلك الرجل، إذ ظنه أسوأ وحش رآه في حياته، فقد شعر بالإعياء.

كان تاجر الأقمشة الحريرية في مدل مارش، ينتظر فرصة يغتنمها ليتحدث مع ريج: فلا يعلم كم من السراويل سيحتاج المالك الجديد، وكم سيستفيد من مرابحها أكثر مما كان ينتظر من الوصية، وكونه ابن عم من الدرجة الثانية فقد كان لديه فضول المعرفة.

بعد انفجاره في تلك المرة، ظل السيد فنسي هادئاً باعتزاز، ولكن بسبب سيطرة المشاعر الحزينة عليه لم يخطر له أمر انصرافه حتى رأى زوجته تقترب من فرد، وتبكي صامتة، وهي تمسك بيد ابنها، فنهض على الفور، وقال لها بصوت خافت بعد أن أدار ظهره للجميع: «لا تفسحي المجال أمام الآخرين يا لوسي، فلا تظهري نفسك كحمقاء أمام هؤلاء الناس يا عزيزتي». ثم أضاف بصوته المعتاد المرتفع: «اذهب وأمر بتجهيز العربة يا فرد، فليس لدي وقت أضيعه».

قبل هذا الموقف، كانت ماري جارث قد جهزت نفسها مع أبيها. لقد قابلت فرد في البهو، فأصبح لديها الشجاعة الآن كي تنظر إليه. كان يظهر عليه ذبول شاحب يصيب بعض وجوه الشباب في بعض الأحيان، وكانت باردة جدًّا عندما صافحته. لقد كانت ماري أيضاً مرتبكة، فهي كانت تدرك أنها أثرت على مستقبل فرد وقدره دون أن تعي ذلك.

قالت ماري بحزن مؤثر: «وداعاً، كن قويًّا يا فرد. إنني أؤمن بأنك ستكون في حال أفضل بدون تلك النقود. ما النفع الذي جرته لبيتر فيذرستون؟».

قال بنكد: «لا بأس، ماذا علي أن أفعل؟ يجب علي الآن أن ألتحق بالكنيسة». عرف أن ذلك سيغيظ ماري، إذ يجب عليها أن تقول ما ينبغي أن يفعله. «كنت أتوقع أن يصبح في مقدوري سداد الدين لأبيك مباشرة، فأصحح خطئي. ولا سيما لن يبقى لديكم حتى مئة جنيه. ماذا ستفعلين الآن يا ماري؟».

«سآخذ عملاً آخر بالطبع حالما يتوافر لي ذلك، لدى أبي ما يكفي للإنفاق على باقي الأسرة. وداعاً».

لم ينقض إلا وقت قصير، حتى خلت ستون كورت من أفراد أسرة فيذرستون وجميع الزائرين الذين اعتادوا ارتيادها منذ زمن بعيد. لقد جلب غريب آخر ليستقر في مدل مارش، ولكن في حالة ريج فيذرستون كان هناك استياء نجم عن العواقب المباشرة الملموسة، أقوى من تأثير وجوده الحالي على المستقبل. لم يستطع أحد أن يتنبأ كيف سيعامله أهالي مدل مارش.

وهنا أنا مدعوة كي أفكر كيف يمكن أن نرفع من شأن موضوع بسيط. عادة تكون المقارنة التاريخية كافية في هذا الموضع، والاعتراض الوحيد عليها هو أنه يمكن للراوي المجد عندما لايتوافر له المكان الكافي كي يضمن جميع التفاصيل، أن يعتبر أن لها خصوصية، على الرغم من توافر ثقة فلسفية لديه تمكنه من أن يدرك قيمتها. إنه طريق أقصر وأسهل للوصول إلى النبل والمنصب، ولتدرك أنه عندما لم تكن هناك رواية حقيقية يمكن أن تروى بطريقة رمزية، تضع القرد مكان الحاكم العسكري، والعكس بالعكس، فإن ما رويته وما سأرويه حول الناس العاديين يمكن أن يشرف باعتباره رواية رمزية.

فحتى عندما تعرض عادات سيئة وعواقب وخيمة يمكن للقارئ ألّا يعتبرها أكثر من أنها غير أنيقة رمزيًّا، وربما وجد نفسه يصاحب أشخاصاً لهم أسلوبهم في الحياة. هكذا بينما أعرض حقيقة المغفلين لايحتاج خيال القراء أن يظل بعيداً من معاشرة الشخصيات النبيلة الراقية، ويمكن للمبالغ التافهة الصغيرة أن ترتقي بمستوى عال من التحويلات التجارية فقط في لغة الشيفرة.

بالنسبة إلى تاريخ أي إقليم، جميع سكانه من الطبقة الغنية الراقية، فإن هذا التاريخ يمتد إلى زمن بعيد أقدم من زمن الإصلاح. وكما ترون أن بيتر فيذرستون قد مات، ودفن قبل أشهر من تسلّم لورد كراي لمنصبه.

الفصل السادس والثلاثون

غريب أن ترى هزل هؤلاء الرجال،

فهذه الأرواح العظيمة والطموحة ينبغي لها أن تكون حكيمة؛

لما كانت طبيعة الأرواح العظيمة تعشق

أن تكون حيث تصبح أكثر تميزاً؛

وهم يصنفون أنفسهم على أنهم أعلى منا بكثير

فهم يعتقدون كذلك تجاه هؤلاء الذين يعايشونهم كثيراً،

تخيل كيف نعجب ونثمن كل ما يفعلون أو يقولون؛

مما يجعلهم يجاهدون كي يضاعفوا إعجابنا بهم،

وهم يعتقدون أنهم لايستطيعون فعل ذلك ما لم يكبحوا جماح أفكارهم.

دانيال - مأساة فيلوتاس

بعد قراءة الوصية ذهب السيد فنسي إلى منزله، لكن رأيه قد تغير في كثير من الأمور. لقد كان صاحب ذهن منفتح، ولكن كان يسيطر عليه مزاج غير مباشر كلما أراد أن يعبر عن نفسه، فكلما كان يصاب بخيبة أمل لدى تسويقه لأقمشته الحريرية، كان يشتم سائق عربته، وعندما كان يغضبه زوج أخته السيد بولسترود، كان يدلي بملاحظاته القاسية في نظريات السلوك، ومن الواضح الآن أنه يتعامل مع تقاعس فرد بقسوة زائدة ومفاجئة تمثلت بإلقاء قبعته المزركشة الثمينة خارج غرفة التدخين على أرض ردهة المنزل.

قال الشاب حين كان يذهب إلى فراشه: «حسناً، يا سيدي، أتمنى أن تكون قد قررت الذهاب إلى كليتك في الفصل القادم لتجري امتحانك. لقد اتخذت قراري لذلك أنصحك ألّا تضيع الوقت في اتخاذ قرارك».

لم يجب فرد فقد كان شديد الاكتئاب. منذ أربع وعشرين ساعة كان يفكر أنه لن يقع على عاتقه واجبات سوى أن يذهب إلى الصيد، ويمتلك كلب صيد مدرباً على أعلى المستويات، ويمتطي حصاناً أصيلاً، ويكون محترماً بسبب هذا كله. وفضلًا عن ذلك سيكون في مقدوره سداد دينه للسيد جارث، وأنه لن يكون لدى ماري أي سبب يمنعها من الزواج منه، وكل هذا كان من المفترض أن يحدث له دون الدراسة، أو منغصات أخرى، فتكون كهبة إلهية تتمثل بنزوة رجل عجوز، ولكن الآن، وبعد أن انقضت الأربع والعشرون ساعة زالت جميع تلك التوقعات القوية.

لقد كان وقع الأمر قاسياً عليه، فبينما كان يعاني آثار كدمات الصدمة وخيبة الأمل، كان الناس يعاملونه، وكأن في مقدوره أن يمنع ما حدث له. إلا أنه خرج من الغرفة صامتاً، وأمه قد توسلت لأجله: «لا تكن قاسياً على الولد المسكين يا فنسي، فهو سيصبح شاباً جيداً، على الرغم من أن ذلك الرجل الماكر قد خدعه، وأنا متأكدة من ذلك كما أجلس أمامك هنا. سيصبح فرد شاباً جيداً، وإلا لما تعافى من مرضه، وإنني أسمي ذلك سرقة، فكأنما أعطاه الأرض عندما وعده بها، فما الوعد إذاً...؟ إذا كان جعلك للآخرين يصدقون ما تقول ليس وعداً، فما الوعد إذاً...؟ وهل ترى كيف ترك له عشرة آلاف جنيه، ثم أخذها منه ثانية؟»

قال السيد فنسي بنكد: «أخذها ثانية..؟؟!! إنني أقول لك إن الولد ليس بولد محظوظ يا لوسي، ولقد كنت دائماً تفسدينه».

قالت السيدة فنسي، وقد استعادت ابتسامتها المبهجة بسرعة: «حسناً يا فنسي لقد كان ابني الأول، ولقد فرحت به كثيراً، وقد كنت فخوراً به جدًّا».

قال الزوج بلطف: «من يعلم كيف سيغدو الأطفال الرضع عندما يكبرون؟ يمكنني أن أقول إنني كنت أحمق».

«ولكن من لديه أبناء أجمل وأفضل من أبنائنا؟ إن فرد أفضل بكثير من أبناء الآخرين، فيمكن أن تدرك من خلال حديثه أنه درس في الكلية، وأما روزموند أين تجد فتاة تشبهها...؟؟ يمكنها أن تقف إلى جانب أي سيدة على الأرض، فتبدو أفضل منها. ألا ترى كيف أن السيد ليدجيت يقضي معظم وقته معها في كل مكان، وكيف وقع في حبها فوراً، لكنني أتمنى لو أن روزموند لم تختر لنفسها خطيبها، فربما التقت أحد الرجال الأفضل منه كثيراً، أعني عائلة صديقتها في المدرسة الآنسة ويلوباي، إذ تربطهم علاقات وليسوا أقل

مستوى من عائلة ليدجيت».

قال السيد فنسي: «اللعنة على العلاقات، لدي الكثير منها، فأنا لا أريد صهراً لا يملك شيئاً سوى علاقاته لتزكيه».

قالت السيدة فنسي: «لماذا يا عزيزي...؟؟ لقد غمرتك السعادة وقتها!!».

«كان هذا... حقًّا».

«لم أكن في المنزل عندئذ، ولكن أخبرتني روزموند أنك لم تقل كلمة ضد الخطوبة، ولقد بدأت تشتري أفضل أنواع الكتان والقماش القطني لأجل ملابسها الداخلية».

قال السيد فنسي: «ليس بإرادتي، لدي ما يكفيني من أعمال ومشاق لهذا العام، مع ابن كسول وعاطل عن العمل، دون أن أدفع تكاليف ملابس العرس، وهذا الوقت من أصعب أوقاتي. لقد فسد الجميع، وأنا لا أصدق أن ليدجيت يملك جنيهاً واحداً، فلن أوافق على زواجهما. دعيهما ينتظران كما فعل من هم أكبر منهما من قبل».

«سيكون الأمر قاسياً على روزموند يا فنسي، وأنت تعلم أنك لن تستطيع أبداً أن تغضبها».

«نعم أستطيع، كلما انتهت الخطوبة بوقت أبكر، كان أفضل».

«لا أصدق أنه يستطيع أن يحصل على دخل، وهو على هذه الطريقة في الحياة. إنه يخلق أعداء لنفسه، وهذا ماسمعت عنه».

«ولكن تربطه علاقة قوية ببولسترود يا عزيزي، فالزواج سيسعده على ما أعتقد».

قال السيد فنسي: «يسعد الشيطان...!! لن يدفع بولسترود نفقات معيشتهم، وإذا كان ليدجيت يعتقد أنني سأقدم لهما النقود لينفق على منزله، فلا بد من أن يكون على خطأ. هذا كل ما في الأمر، وإنني أتوقع قتلي لخيلي، لأنني لن أستطيع إطعامها، من الأفضل لك أن تخبري روزي بما قلت».

لم يكن هذا سلوكاً نادراً لدى السيد فنسي؛ أي أن يكون اندفاعيًّا وقت المرح، ثم يدرك أنه كان متسرعاً، فيستخدم الآخرين كي يحقق تراجعه المسيء. في أيّ حال لم تعارض السيدة فنسي زوجها يوماً، لم تضع وقتاً قبل أن تخبر روزموند في اليوم التالي بما قاله

أبوها، ولقد استمعت روزموند، وهي تتفحص بعض أعمالها الحريرية، ثم أدارت رقبتها الجميلة، التي لا يمكنك أن تعرف أنها رقبة عنيدة جدًّا إلا بخبرة طويلة.

قالت أمها بعاطفة مذعنة: «ماذا تقولين يا عزيزتي...؟؟».

قالت روزموند بهدوء تام: «لا يعني أبي أي شيء من هذا القبيل، كان يقول دائماً: إنه يتمنى لو أتزوج رجلاً أحبه، وسأتزوج من السيد ليدجيت. لقد انقضت سبعة أسابيع منذ أن أعطى أبي موافقته، وأنا أتمنى أن نحصل على منزل السيدة بريتن».

«حسناً يا عزيزتي سأدعك تتدبري أمرك مع أبيك، فإنك دائماً تتدبرين شأنك مع الآخرين، ولكن إذا ذهبنا لشراء القماش الدمشقي، فسنقصد محل سادلر لأنه أفضل من محل هوبكنز. إن منزل السيدة بريتن كبير جدًّا، على الرغم من أنني أتمنى أن تحصلي على منزل مثله، لكنه يحتاج إلى أثاث كثير جدًّا، وسجاد وكل شيء بالإضافة إلى الصحون والأكواب والكؤوس، وكما تسمعين فإن أباك لن يقدم أيّ نقود. هل تعتقدين أن السيد ليدجيت يتوقع ذلك...؟؟».

«لا يمكنك أن تتخيليني، وأنا أسأله..!! بالطبع يعرف واجبه».

«ولكن ربما كان يتوقع بعض النقود يا عزيزتي. كل ما نفكر فيه أن يكون لك مستقبل جيد، وكذلك فرد، وكل شيء يبدو صعباً الآن ومتعباً بالتفكير في أي شيء، وأخوك مصاب بخيبة أمل شديدة».

«لا شأن لذلك بزواجي يا أمي. يجب على فرد أن يتخلى عن تقاعسه. إنني ذاهبة إلى الطابق العلوي لأعطي هذا القماش للآنسة مورغن، فهي تعرف كيف تخيطه جيداً. يمكن لماري جارث أن تقوم ببعض الأعمال لأجلي الآن. إنها ماهرة في الخياطة، وهذا أفضل شيء أعرفه فيها، والتطريز القطني، الذي أحبه على ثيابي، يأخذ وقتاً طويلاً».

لقد كان اعتقاد السيدة فنسي أن روزموند لن تقنع أباها راسخاً جدًّا، فباستثناء ملاطفته لمدعويه إلى مآدب العشاء، كان يحدث صخباً غاضباً على طريقته الاعتيادية، وكأنه رئيس للوزراء، ولقد كانت ضغوط الحياة تثقل كاهله، كما كان شأنها مع معظم الرجال المنمقين الذين يحبون المتع، والظرف الذي يدعى روزموند، كان ضاغطاً بشكل خاص من طريق التعنت والإصرار الذي يمكن الكائن اللطيف ذا الطبيعة الناعمة النقية، من أن تشق

طريقها بين الصخور. لم يكن الأب صخرة، فلم يكن لديه ثبات سوى ثباته على الدوافع المتغيرة، التي تدعى عادات، ولم يكن هذا مرغوباً فيه باهتمامه بخطوبة ابنته: بشكل رئيسي استفساره الكامل عن أوضاع السيد ليدجيت، وتصريحه بعدم قدرته على تقديم المال، وعدم تقبله للزواج السريع، أو الخطوبة الطويلة. كان هذا واضحاً وصريحاً في قوله، لكن قراراً اتخذ في ساعات الصباح الباردة، جاء ضمن ظروف سلبية كثيرة تشبه الصقيع في الصباح الباكر، وقلما ظل متماسكاً في ظلّ تأثير دفء النهار. لقد عانى تعبيره غير المباشر عن وجهة نظره في هذه المسألة من ضغوط كثيرة. لقد كان السيد ليدجيت فخوراً تجاه التلميحات والإشارات الملغومة، ولم يكن استسلامه وارداً.

لقد كان السيد فنسي متضايقاً منه قليلاً، ومتكبراً قليلاً لأنه يريد الزواج من روزموند، ويتجنب قليلاً إثارة مسألة النقود لأن وضعه الحالي ليس مساعداً. وكما كان يخشى قليلاً الحوار مع رجل أفضل منه ثقافة وعلماً ونشأة يخشى أيضاً أن يفعل ما لا تحب ابنته.

ما كان السيد فنسي يفضل القيام به هو كرم الضيافة دون أن ينتقده أحد على ذلك. كان يقضي النصف الأول من يومه في عمله، الذي يمنع خلاله مناقشة الرجوع عن أي قرار اتخذه، أما النصف الثاني من يومه، فكان يقضيه في تناول العشاء وشرب الخمر ولعب الورق ومتع أخرى، فهكذا تمر الساعات دون أن تترك له فرصة الرجوع عن قراره، ولا سيما أن ذلك القرار كان متأخراً جدًّا.

كان الحبيب المقبول يقضي معظم أمسياته في لُوِيك جيت، والغزل لا يعتمد على النقود، التي يقدمها آباء العشيقات، ولا على دخل مأمول من مهنة ما، لذلك استمر هذا الغزل تحت أنظار السيد فنسي. غزل الشباب يشبه عش عنكبوت متشابك متدل، ونقاط ارتكازه لا تكاد تدرك، فيتجلى الغزل من خلال ملامسة أطراف الأصابع الآنية، والتقاء الأشعة الصادرة عن العيون الزرقاء بالعيون الداكنة، والعبارات التي لا تنتهي، والتغيرات الطفيفة التي تطرأ على الوجنات والشفاه والرعشات الخفيفة.

أما عش العنكبوت، فهو مصنوع من اليقين الراسخ والمتع التي لا حدود لها، وتوق الواحد للآخر، ورؤى الكمال، والثقة المطلقة. وليدجيت وقع في نسج هذا العش من داخله بسرعة فائقة، على الرغم من خبرته التي يفترض أن تنتهي بانتهاء مسرحية لور، وعلى الرغم من علم الطب والأحياء الذي يقوم على فحص العضلات المنهكة وفحص العيون الموضوعة في طبق كعيني سانتا لوشيا، وأحداث أخرى ترتبط بالبحث العلمي لتبدو كلها منسجمة مع الحب الشاعري أكثر من انسجامها مع الكسل الحقيقي، أو الإدمان على أردأ أنواع النثر. أما

بالنسبة إلى روزموند فكانت تتفتح بين زنبقات الماء، وتحيا حياة، وكأنها خلقت لأجلها، وهي كانت أيضاً منهمكة في نسج خيوط ذلك العش.

كان هذا كله يحصل في زاوية غرفة الاستقبال حيث يوجد البيانو، وحيث تبدو الرقة، وقد حولتها الأنوار إلى قوس قزح، جلية أمام أنظار الحاضرين بمن فيهم فيربرذر، فنبأ خطوبة الآنسة فنسي من السيد ليدجيت المؤكد، أصبح رائجاً في أنحاء مدل مارش دون الحاجة إلى إعلانه رسميًّا. أما العمة بولسترود التي كان يسيطر عليها الفضول، فقد اختارت هذه المرة أن تتحدث إلى أخيها مباشرة، فذهبت إلى مقر عمله متجنبة لقاء السيدة فنسي. لكن..لتكن أجوبته مقنعة...!!

«لم تشأ أن تخبرني يا والتر، أنك سمحت لكل هذا أن يحصل دون أن تستفسر عن أحوال السيد ليدجيت». هذا ما قالته السيدة بولسترود، وهي تحدق إلى أخيها الذي كان في أكثر أوقات عمله نكداً: «فكر في هذه الفتاة، التي ترعرعت في ترف، فما عساها أن تفعل بدخل ضعيف؟».

«قولي لي يا هاريت... عندما يقدم الرجال إلى هذه البلدة دون أن أستشار. هل أغلقت بابك أمام ليدجيت؟ لقد قدمه بولسترود إلى الجميع، وأنا لم أطر عليه، فيجب عليك أن تكلمي زوجك بدلاً مني».

«حسناً يا والتر... كيف يمكن أن يلام بولسترود وأنا متأكدة من أنه لم يتمن هذه الخطوبة..؟؟».

«آه... لو لم يأخذ بولسترود بيده لما دعوته».

«لكنك استدعيته ليعالج فرد، وأنا متأكدة من أن ذلك كان رحمة». قالت ذلك السيدة بولسترود، وقد تشتت ذهنها في تعقيدات الموضوع.

قال فنسي متفحصاً: «إنني... ما الرحمة...؟؟ إنني قلق أكثر حول عائلتي. لقد كنت أخاً جيداً يا هاريت قبل أن تتزوجي بولسترود، ويجب أن أقول: إنه لا يكن المودة لعائلتك كما نرجو ذلك منه». كان السيد فنسي يتصرف قليلاً كعضو في جمعية القديس أوغناطيوس، ولكن لا يوجد عضو فذ يستطيع أن يحوِّل السؤال ببراعة مثلما فعل فنسي، فكان على هاريت أن تدافع عن زوجها بدلاً من أن تلوم أخاها، فانتهى حوارهما دون أن يحرز أي تقدم، كما

كان يحدث من شجار بينه وبين بولسترود في غرفة الاجتماعات في الكنيسة.

لم تنقل السيدة بولسترود شكوى أخيها إلى زوجها، لكنها تحدثت في المساء حول ليدجيت وروزموند. لم يشاركها حماسها، لكنه تحدث بلا مبالاة حول المخاطر التي يمر بها الطبيب المتمرن في بداية عمله والحاجة إلى الحذر والحيطة.

قالت السيدة بولسترود محاولة استفزاز مشاعر زوجها: «أعتقد أن علينا أن نصلي لأجل تلك الفتاة، التي نشأت على تلك الطريقة».

قال السيد بولسترود مؤكداً: «حقاً يا عزيزتي... أولئك الذين ليسوا من هذا العالم لا يستطيعون إلا فعل القليل كي يصطادوا أخطاء الخبراء المتعنتين. يجب علينا أن نعوّد أنفسنا على ما يأتينا من أسرة أخيك. أتمنى لو أن ليدجيت لم يدخل في مثل هذا الارتباط؛ لكن علاقتي به هي في حدود الاستفادة من مواهبه تنفيذاً لإرادة الرب التي علمتنا أن نسير وفق النظام الديني... وفق الإرادة الإلهية». لم تقل السيدة بولسترود شيئاً آخر مرجعة إحساسها بعدم الرضى لحاجتها إلى القيم الروحية الدينية. لقد كانت تعتبر زوجها كأحد أولئك الذين يجب أن تكتب حياتهم بعد موتهم.

بالنسبة إلى ليدجيت، أما وقد تمت الموافقة عليه، فقد كان مستعداً لتقبل جميع النتائج، التي كان يتنبأ بها بوضوح تام. بالطبع سيتزوج خلال عام وربما نصف عام، ولم يكن هذا ما قد نوى عليه، ولكن إن لم تتعرقل شؤونه الأخرى فإنها ستبرهن نفسها من جديد، كما يجب بالطبع أن يهيئ للزواج على نحو غير اعتيادي. فيجب أن تستبدل بالغرفة التي يعيش فيها منزلاً جديدًا، وعندما سمع ليدجيت روزموند تتحدث بإعجاب حول السيدة بريتن في لُوِيك جيت، تنبّه إلى أمر ما، بعد وفاة السيدة بريتن، فباشر بتوقيع اتفاق للحصول عليه.

لقد فعل هذا بطريقة عرضية، تشبه طريقته في إعطاء أوامره التفصيلية للخياط كي يحصل على ثياب في غاية الأناقة والجمال، دون أي تبذير أو أي إسراف بالإنفاق، عوّدته مهنته التعامل مع جميع درجات الفقر، وأن يتعاطف مع الفقراء، فكان يجيد التصرف عندما يكون جالساً إلى مأدبة يقدم فيها الحساء بإناء كسرت قبضته، ولا يتذكر من مأدبة عشاء فاخرة دُعي إليها سوى رجل أدلى بحديث مفيد، ولكن لم يخطر له أن يعيش بطريقة، كما يسميها، اعتيادية يتناول فيها الخمر بكؤوس خضراء، وما كان يتشدد باعتناقه للنظريات الاجتماعية الفرنسية.

يمكن لنا أن نعتنق أفكاراً متطرفة بتشدد، بينما تكون حفلات عشائنا، وانتقاؤنا لأثاث منازلنا وثيابنا على نحو يربطنا بالطبقة الغنية من المجتمع، ولم يكن ليدجيت يجنح للآراء المتطرفة أو التافهة، ولم يكن راديكاليًّا في تعامله مع أي أمر باستثناء ما يتعلق بالإصلاح الطبي والاكتشافات التشريحية.

أما في ما يتعلق بحياته الخاصة فقد كان يعيشها بموجب عاداته الموروثة، التي يستند قسط منها إلى التباهي بالذات والغرور الدفين، وقسط آخر على السذاجة المستمدة مما يفضله من أفكار تسيطر عليه منذ زمن بعيد. كانت تتمحور جميع حواراته الداخلية، في ما يتعلق بخطوبته التي كانت تهيمَن دائماً على مخيلته، حول ندرة الوقت أكثر منها حول قلة المال. فبالتأكيد عندما يقع الرجل بحب فتاة لا يمكن للمخيلة أن ترسم أجمل منها، لا بد لها من أن تستهلك جميع ساعات الفراغ التي قد تخدم عبقريًّا ألمانيًّا بطيئاً في اكتشافاته العظيمة. شكل هذا حافزاً كي لا يؤخر الزواج أكثر مما ينبغي، وهذا ما أوضحه يوماً للسيد فيربرذر ليفحص بعض الأحياء المستخرجة من البحيرة بمجهر أفضل من ذلك الذي يملكه، وعندما وجد الأدوات والنماذج المخبرية غير مرتبة على طاولة ليدجيت قال ساخراً: «لقد فسد إله الحب، فقد بدأ بوضع النظام والتناسق، والآن يستعيد الفوضى».

قال ليدجيت رافعاً حاجبيه ومبتسماً بعد أن بدأ بنصب مجهره: «نعم في بعض المراحل. ولكن نظاماً أفضل سيحل في ما بعد».

قال القس: «قريباً..؟».

«أتمنى ذلك حقًّا، فهذه الحالة غير المستقرة تستهلك الوقت، وعندما يكون لدى المرء أفكار علمية تشكل كل دقيقة فرصة له. إنني متأكد من أن الزواج أفضل شيء للرجل الذي يريد أن يعمل بجد، إذ يتوافر له كل شيء في المنزل، ولا تشغله شؤونه الشخصية، فيحصل على الهدوء والحرية».

قال القس: «إنك رجل محسود لفوزك بروزموند والحرية والهدوء...! كلها ملكك، فها أنا لا أملك شيئاً سوى غليوني، وأحياء مائية، الآن هل أنت جاهز؟».

«لم يذكر ليدجيت للقس سبباً آخر يجعله يقصر مدة الخطوبة التي كانت تضايقه بسبب مشاركته الإجبارية حفلات فنسي، وانغماسه في أحاديث أهالي مدل مارش، وابتهاجهم المطول، ولعبهم للورق وعبثهم، على الرغم من جريان الحب في عروقه. لقد كان عليه أن

يراعي أسئلة السيد فنسي ويحترمها، التي تنم عن جهله الواضح، خصوصًا تلك الأسئلة التي تتعلق بأنواع الخمور وأفضل طرق تخميرها، ولا سيما تلك التي تمنع عنك رائحتها الكريهة. كما كانت صراحة السيدة فنسي وبساطتها، التي كان يشوبها بعض القلق، تسبب بعض الإساءة المهذبة لذوق خطيب ابنتها، فكان على ليدجيت أن يعترف لنفسه أنه كان يتنازل قليلاً أمام عائلة روزموند، لكن تلك المخلوقة اللطيفة كانت تعاني الشيء نفسه، فعلى الأقل كانت هناك فكرة سارة واحدة أن زواجه منها قد يمنحها التغيير المطلوب.

قال لها ذات مرة في أحد الأماسي بينما كان يجلس إلى جانبها، وينظر إلى وجهها عن قرب برقة (ولكن يجب أن أقول أولاً إنه وجدها لوحدها في غرفة المعيشة التي كانت نافذتها الكبيرة وذات الطراز القديم، مفتوحة على عبق ورد الصيف الذي ينبعث من الحديقة الخلفية، وقد ذهب والداها إلى حفلة، وخرج الآخرون يجرون وراء الفراشات):

«عزيزتي! إن جفونك حمراء».

قالت روزموند: «هل هي كذلك؟ إنني أعجب لماذا؟». لم تكن من طبيعتها أن تبدي أمنياتها أو حزنها، لكنها ظهرت برقة وإغراء.

قال ليدجيت واضعاً يداه بلطف على يديها: «وكأنك تستطيعين أن تخفي علي الأمر. ألا أرى قطرة دمع على رمش عينيك؟ يبدو أن هناك أشياء تضايقك ولا تقولين لي، هذا ليس بحب».

«لماذا يجب أن أقول لك ما لا تستطيع تغييره؟ فإنها أحداث يومية ولربما يقع ما هو أسوأ في ما بعد».

«مضايقات عائلية، لا تخشي البوح بها، فإنني أستطيع أن أخمن ما هي».

«أصبح أبي سريع الغضب مؤخراً، وفَرِد يغضبه، ولقد وقع شجار هذا الصباح لأن فَرِد يهدد بتخليه عن الدراسة تماماً، ويريد أن يقوم بشيء أدنى من مستواه، وبالإضافة...»، ترددت روزموند، وبدأت وجنتاها تحمر قليلاً، ولم يرها ليدجيت تعاني من مشكلة منذ صباح الخطوبة، ولم يشعر من قبل بالتعاطف معها مثل هذه المرة. قبل شفتيها المترددة برقة، وكأنه يشجعهما على الكلام.

تابعت روزموند، وكأنها تهمس: «أشعر أن أبي غير مسرور تماماً من خطوبتنا. وقد قال مساء البارحة إنه سيتحدث معك من كل بد، وقال يجب أن نقلع عن الخطوبة».

قال ليدجيت بحماس وبغضب: «هل ستقلعين؟».

قالت روزموند بعد أن أستعادت هدوءها في هذه اللحظة العاطفية: «أنا لا أقلع عن أمر اخترته».

قال ليدجيت وهو يقبلها ثانية: «فليباركك الرب!». لقد كان الثبات عند هذا الهدف في هذا الموقف رائعاً، فتابع قائلاً: «لقد فات الآوان كي يقول أبوك أن نقلع عن الخطوبة، إنك في عمر النضوج، وأنا أطلبك لي. إذا كان هناك ما يجعلك تعسة، فهو سبب يجعلنا نعجل بزواجنا».

التقت نظرة فرحة أطلت من عينيها الزرقاوين بعينيه، فأضاء شعاعها كل مستقبله كشمس مشرقة. يبدو أن هذه السعادة المثالية يجب عليها أن تمتد لبضعة أسابيع قادمة لتشبه السعادة المثالية في ألف ليلة وليلة، التي تنقلك من جهد الحياة إلى الجنة حيث يوهب لك كل شيء دون مقابل.

قال بإلحاح متقد: «لماذا نؤخره؟ لقد حصلت على المنزل الآن، ويمكننا تهيئة كل شيء بسرعة، ألا يمكن ذلك؟ إنك لن تأبهي بالملابس الجديدة، فيمكن شراؤها في ما بعد».

قالت روزموند مع ضحكة أقوى من المعتادة على هذا التناقض الساخر: «كم لديكم أفكار رائعة أيها الرجال الأذكياء! هذه أول مرة أسمع بملابس العرس بعد الزواج».

قال ليدجيت ظنًّا منه أن روزموند ربما تتقصد تعذيبه، أو ربما لم تعجبها فكرة الزواج المستعجل: «إنك لا تعنين أننا يجب أن ننتظر لعدة أشهر من أجل الثياب، تذكري أننا نتطلع إلى سعادة أكبر من هذه عندما نكون لوحدنا بعيدين من الآخرين، ونحيا حياتنا بحسب إرادتنا ورغباتنا. هيا يا عزيزتي، أخبريني متى ستكونين ملكاً لي فقط». لقد عبرت كلمات ليدجيت عن توسل وألم، وكأنها ستجرحه إذا ما أخرت الزواج كثيراً، فغدت هي أكثر جدية ومتأملة قليلاً، وهي تستعرض في ذاكرتها كل ما تحتاج إليه من خياطة ثياب وتطريزها ليكون جوابها على الأقل تقريباً.

ألح ليدجيت بعد أن ترك يديها ليلفها بذراعيه: «ستة أسابيع يجب أن تكون كافية، قولي هذا يا روزموند»، وبسرعة رفعت بيدها الصغيرة شعرها لتظهر رقبتها الفاتنة، ثم قالت بجدية:

«يجب أن يُهيأ أثاث المنزل والأغطية القطنية والكتانية، ويمكن لأمي أن تهتم بهذا الأمر عند سفرنا».

«نعم تأكدي من أننا سنسافر لأسبوع أو أكثر بقليل».

قالت روزموند مؤكدة: «بالطبع أكثر من ذلك. كانت تفكر في ثياب السهرة التي سترتديها لدى زيارتها للسير جودوين ليدجيت، فقد قررت سرًّا أن تفرغ لهذه الزيارة على الأقل ربع مدة رحلة شهر عسلهما، وحتى لو اضطرها الأمر أن تؤجل زيارته إلى عمه، الذي حاز درجة الدكتوراه في اللاهوت، التي على الرغم من أنها تبعث الملل، فإنها يمكنها أن تبعث السرور إذا ما كانت أصوله عريقة. كانت تنظر إلى حبيبها مستفسرة بعناد عندما تكلمت، أما هو فقد فهم أنها ترغب في إطالة رحلة زفافهما.

«كل ما تتمنينه يا عزيزتي عندما يتحدد موعد الزواج، ولكن دعينا نقرر ماذا نفعل لنضع نهاية لجميع معاناتك. ستة أسابيع يجب أن تكون كافية».

قالت روزموند: «أستطيع بالتأكيد أن أسرع في تحضير الثياب... هل ستخبر أبي بذلك...؟؟ أعتقد أن من الأفضل لو كتبت له». احمر وجهها ونظرت إليه كما تنظر الورود إلينا عندما نسير بينها مسرورين تحت ضوء المساء الغامض. ألا يوجد روح تفوق الوصف نصفها حورية ونصفها الآخر طفلة...؟؟ تلك البراعم التي تشع وتتنفس في وسط اللون القاتم... لمس أذنها، وجزءاً من رقبتها بشفتيه، ثم جلسا ساكنين للحظات طويلة...

كانت تنساب من حولهما كانسياب جدول ماء تقبله أشعة الشمس. كانت روزموند تعتقد أن لا أحد يمكنه أن يحب أكثر منها، وكان يعتقد ليدجيت أنه بعد جميع أخطائه الشاذة وتفاهاته العابثة قد وجد امرأة كاملة، وشعر أن عاطفة زواج شفافة وهبته مخلوقة في تمام الكمال تناسب تأملاته الرفيعة، وأعماله المهمة دون أن تتدخل بها، كما تستطيع في الوقت عينه أن توجد بسحرها نظاماً في المنزل مبقية أصابعها دائماً تمسك بالعود، لتحول الحياة إلى حياة رومانسية في أي وقت، كما كانت تعي حدودها الأنثوية ولا تتجاوزها قيد أنملة، وتظل طيعة ومستعدة لتنفيذ أي أوامر تنسجم مع هذه الحدود.

لقد اتضح له أكثر من ذي قبل أن فكرة بقائه أعزب كانت خاطئة، فالزواج لن يكون عائقاً، بل سبباً للتقدم. وفي اليوم التالي وبينما كان يرافق مريضاً إلى براسنغ، رأى مجموعة أوان وأطباق طعام كاملة، فأعجبته جدًّا إلى حدّ أنه اشتراها مباشرة، فقد كان

ليدجيت يكره الأواني البشعة، ولقد كانت تلك الأواني والأطباق ثمينة دون شك، فربما كانت أسعارها مرتفعة في ذلك الوقت إلا أن أثاث المنزل على وجه العموم مكلف، لكنه كان يشترى مرة واحدة في الحياة.

قالت السيد فنسي، عندما ذكر لها ليدجيت ما اشتراه مع بعض الوصف: «لا بد من أنها جميلة، ربما تمنت روزي فقط ألّا يكسر أي منها».

قال ليدجيت: «يجب على المرء أن يستأجر خدماً لا يكسرون الأشياء»... من المؤكد أنه كان تفكيراً تنقصه رؤية واضحة لأحداث قادمة. وعلى الرغم من أن التفكير في تلك الفترة كان حكراً على رجال العلم، فإنه بالطبع لم يكن مهماً تأجيل ذكر أي شيء للأم التي كانت تنظر إلى الأشياء بمرح وسرور، وإنها كانت زوجة سعيدة ما كان لينتابها شعور سوى إحساسها بالفخر والتباهي بزواج ابنتها. لقد كانت لدى روزموند أسباب مقنعة بأن الطلب لأبيها يجب أن يكون مكتوباً. لقد أرادت أن تهيئ لوصول الرسالة، فسارت مع أبيها إلى مقر عمله في الصباح التالي لتخبره أن ليدجيت يرغب في الزواج قريباً جدًّا.

قال السيد فنسي: «هذا هراء يا عزيزتي، ماذا يملك كي يتزوج؟ من الأفضل لك أن تقلعي عن الخطوبة. لقد قلت لك من قبل بوضوح تام: لماذا اكتسبت كل هذا العلم إذا كنت ستتزوجين من رجل فقير..؟؟ إن هذا لأمر قاس على الأب حين يراه».

«السيد ليدجيت ليس فقيراً يا أبي، فقد اشترى عيادة السيد بيكوك، التي كما يقولون دخلها يقارب الثمانمئة أو التسعمئة جنيه في العام».

«هذا كله هراء، وماذا يعني شراء عيادة...؟؟ ويمكن شراء طيور السنونو في العام القادم أيضاً...!! فكلها ستضيع من بين يديه».

«بل على العكس يا أبي... إنه سيوسع عيادته. اُنظر كيف طلبته أسرتا جتم وكزابون».

«أتمنى أن يعلم أنني لن أقدم له شيئاً في وقت لا نزال نعاني من خيبة الأمل التي أصابت فرد، والبرلمان سيحل، والآلات تتعطل في كل مكان، ونحن على أبواب الانتخابات».

«يا أبي العزيز...!! ما علاقة هذا بزواجي...؟؟».

«كثيراً جدًّا، ويمكننا جميعاً أن نغرق نتيجة ما أعرفه فحال البلاد هكذا، وبعضهم

يقول:.. إنها نهاية العالم، ولأشنق إن لم تكن الحال كذلك. في أيّ حال... إنه ليس الوقت المناسب كي أسحب نقوداً من عملي، وأتمنى أن يعرف ليدجيت ذلك».

«إنني متأكدة من أن ليدجيت لا ينتظر شيئاً من هذا القبيل يا أبي، وعنده علاقات مع أناس مهمين فلا بد من أن يشتهر سريعاً بطريقة أو بأخرى، وهو منهمك بالاكتشافات العلمية».

ظل السيد فنسي صامتاً... «لايمكنني التخلي عن مصدر سعادتي الوحيد يا أبي، والسيد ليدجيت رجل نبيل، ولا يمكن لي أن أحب رجلاً ليس نبيلاً كاملاً، ولا تود أن تراني أتزوج كما فعلت أرابيلا هولي، وأنت تعلم أنني لا أغير رأيي». مرة أخرى ظل الأب صامتاً، «عدني يا أبي أن توافق على ما نتمنى، فإننا لن نتخلى عن بعضنا، وأنت تعلم أنك كنت دائماً ضد الخطوبة الطويلة والزواج المتأخر». لقد تطلب الأمر مثل هذا الإلحاح كي يجعل السيد فنسي يقول: «حسناً، حسناً يا ابنتي... يجب عليه أن يكتب لي أولاً قبل أن أجيبه». عندها تأكدت روزموند من أنها حققت هدفها.

لقد تضمن جواب السيد فنسي بشكل رئيسي طلباً بالتأمين على حياة ليدجيت، فتمت الموافقة عليه مباشرة، فقد كان هذا طلباً جيداً في حال موت ليدجيت، ولكن لا أهمية له في الوقت الحاضر، وتابعت روزموند شؤونها بحسب ما تشتهي، وتابعت شراءها لجميع احتياجاتها - ولكن ضمن الاعتبارات المنطقية - فعروس ستزور أسرة بارونات، لا بد من أن يكون لديها مناديل جيب فاخرة، فاكتفت روزموند بستة لم يكن تطريزها من أفخر النماذج.

عندما وجد ليدجيت أن نقوده - الثمانمئة جنيه - قد نقصت كثيراً منذ أن حضر إلى مدل مارش، امتنع عن شراء صحون باهظة الثمن كان رآها خلال زيارته محل كيبل في براسنغ. لقد منعه اعتداده بنفسه أن يبدي افتراضه بأن السيد فنسي سيقدم بعض النقود لشراء الأثاث، ولأنه من الضروري أن يدفع جميع النقود مباشرة، إذ يمكن لبعض المبالغ أن تدفع لاحقاً، لم يضع الوقت في التفكير في ما يمكن أن يدفعه والد خطيبته على شكل مهر. وما كان ليتصرف على نحو متهور أو طائش ولكن يجب شراء الأساسيات، وسيكون مضيعة للنقود إذا ما اشترى أنواعاً رديئة.

الشيء الوحيد الذي كان يتطلع إليه ليدجيت هو أن يتابع تقدمه العلمي وعمله في مهنته بنجاح، لكنه لا يستطيع أن يرى نفسه يحقق ذلك النجاح في منزل كمنزل السيد

رينج، حيث الأبواب كلها مفتوحة وقماش المائدة محروق، وألبسة الأطفال قذرة، والناس يتناولون طعاماً بأطباق رديئة النوعية، إضافة إلى أن زوجة رينج امرأة كسولة تحولت إلى مومياء، وحبست نفسها في منزلها بعد أن التفعت بشال كبير، ولا بد من أن يكون بدأ حياته بأثاث منزلي نوعه رديء. لقد كانت روزموند منشغلة كثيراً بالتفكير على الرغم من أن حدسها كان يحذرها من الذهاب بعيداً بخيالها.

قالت يوماً بينما كانا يناقشان رحلة الزفاف: «أحب كثيراً أن أتعرف إلى عائلتك. ربما اخترنا جهة تسمح لنا برؤيتهم في طريق عودتنا. أيًّا من أعمامك تحب أكثر؟».

«أظنه عمي جودوين، فهو رجل عجوز ذو طبيعة مرحة».

«كنت تقضي معظم وقتك في كولينكهام أيام طفولتك، أليس كذلك...؟؟ إنني أحب أن أرى المكان الذي ترعرعت ونشأت فيه. هل يعرف أنك ستتزوج...؟؟».

قال ليدجيت بلا مبالاة بعد أن استدار بكرسيه قليلاً ودفع بشعره للوراء: «كلا».

«أخبره يا ابن الأخ الجحود وغير المطيع، ربما طلب منك أن تأخذني إلى كولينكهام لتريني مكانك القديم، وسيكون في إمكاني عندها أن أتخيلك حين كنت طفلاً. تذكر لقد رأيتني في منزلي، وهو على نفس الحالة التي كان عليها أثناء طفولتي، فليس من العدل أن لا أرى منزلك، ولكن ربما ستخجل مني قليلاً، لقد نسيت ذلك».

ابتسم لها ليدجيت بحنو وقبل الاقتراح مباشرة فمتعة مشاهدتها للمكان تستحق بعض التعب، ولأنه بدأ يفكر في هذا الآن، فإنه أحب أن يرى المكان بصحبة روزموند.

«سأكتب له إذاً، لكن أبناء عمي مملون».

لقد كان من الممتع في عائلة تحمل لقب البارون، ما يجعلها تعتقد أنه سيكون في إمكانها أن تفعل الشيء نفسه. ولكن بعد يوم أو يومين كانت الأم ستفسد كل شيء عندما قالت: «أتمنى أن عمك سير جودوين لن يزدري روزموند يا سيد ليدجيت. أعتقد أنه سيقدم مبلغاً ما، فألف أو ألفين لن تكون مبلغاً كبيراً بالنسبة إلى البارون».

«ماما»، قالت روزموند وقد احمر وجهها خجلاً، فأشفق عليها ليدجيت جدًّا لأنه ظل صامتاً، وذهب إلى الطرف الثاني من الغرفة لينظر إلى صورة جدارية متظاهراً بعدم

سماعه شيئاً. تلقت الأم محاضرة من ابنتها في اليوم التالي، وكانت مطيعة كعادتها، لكن روزموند رأت لو أن أبناء عم ليدجيت المملين حضروا إلى مدل مارش لتفاجأوا بأشياء كثيرة لدى أسرتها، لذلك يترتب على ليدجيت أن ينتقل إلى وضع أفضل خارج مدل مارش، ولن يكون هذا الأمر صعباً على من عمه بارون، ويستطيع أن يتوصل إلى اكتشافات علمية. لقد تحدث ليدجيت بحماس لروزموند حول أقصى أمنياته في الحياة، ولقد وجد من المتعة أن تستمع إليه مخلوقة ستوفر له عذوبة الحب والجمال والراحة، فمثل هذه الهبات والنعم توهب لنا عادة من السماء، أو نستمدها من الحدائق المزهرة والبساتين.

كان ليدجيت يعتمد دائماً على التفاوت النفسي بين الخضوع الفطري لدى أنثى الأوز، وهي تستجيب بجمال وروعة لقوة ذكر الأوز.

الفصل السابع والثلاثون

أضعاف ثلاثة تبلغ سعادة تلك المرأة...

التي وقّر في قلبها طمأنينة ويقين...

لأنها تغرى ولا يغوى قلبها ولا تخاف من حظ سيئ...

لكنها تقف أمام الموج العارم كسفينة راسخة...

تشق طريقها بثبات دون أن تحيدها عنه رياح العواصف،

ولا تفتنها السعادة بمناخ هادئ.

فمثل هذا الثبات لا يخاف ضغينة...

ولا حقد الأعداء ولا يطلب فضل الأصدقاء...

لكن ثبات قوتها لا يخضع لإرادتها ولا لمشيئة غيرها.

أسعد إنسانة تلك التي ينتابها أكبر قسط من اليقين والثبات،

لكنه أسعد رجل ذاك الذي تحبه مثل تلك المرأة.

سبنسر

إن الشكوك التي ألمح إليها السيد فنسي كانت... إما الانتخابات العامة، وإما نهاية العالم... أولاً: لأن الملك جورج الرابع قد مات، وحُل البرلمان، وقد انتقص من مكانة ويلينغتون وبيل، والملك الجديد ضعيف، فقد كانت تمثل تلك الشكوك بضعف الآراء السائدة حول حالة عدم الاستقرار في الإقليم. في الريف كيف يستطيع الرجال في ضوء سراج الليل أن يروا أيًّا من آرائهم في الفوضى الناجمة عن وزارة المحافظين، وهي تقول بإنجازات ليبرالية، وعن النبلاء المحافظين والمنتخبين، فهم ينوون أن يتحولوا إلى ليبراليين، بدلاً من بقائهم أصدقاء للوزراء الخونة والجبناء، وعن الصرخات الصادرة طلباً للعلاج، التي كان لها تأثير

بعيد في المصالح الخاصة، وغدت محل شكوك الجيران الرافضين... لقد وجد قراء صحف مدل مارش أنفسهم في وضع شاذ، فأثناء إثارة قضية الكاثوليكيين أقلع الكثيرون عن قراءة صحيفة البيونير، التي كانت تحمل شعاراً لشارلز جيمس فوكس، وكانت تمثل عربة التقدم لأنها وقفت إلى جانب بيل في قضية البابوية، وهكذا تخلت عن ليبراليتها بسبب تقبلها اليسوعية وبيل، لكنهم لم يكونوا راضين عن صحيفة الترمبت منذ أن وقفت ضد روما، وبسبب ضعف تفكير المجتمع، فلم يعرف أحد من يجب أن يدعم من، ضعفت كثيراً جدًّا.

بموجب مقال متميز للبيونير، آن الأوان لاحتياجات المجتمع الصارخة أن تخرج الرجال من تقاعسهم لأداء واجباتهم في المجتمع... أولئك الرجال الذين حصلت عقولهم على اتساع الأفق والقدرة على التركيز والقرار الحكيم والقدرة على التحمل، وعدم التولع والنشاط والحيوية، في حقيقة الأمر جميع السمات التي تستند إلى خبرة الإنسان الكئيبة لا يمكن لها أن تجتمع سوية. السيد هكبت، الذي كان الناس يتناقلون كلامه المنمق بسرعة، فيخلق حالة من عدم اليقين، نقل عنه ما قاله في مكتب السيد هولي: إن ذلك المقال صادر عن السيد بروك في تبتن، وإن السيد بروك اشترى صحيفة البيونير منذ بضعة أشهر.

قال السيد هولي: «هذا يعني تلاعباً، أليس كذلك؟ إنه يخطط كي يصبح رجلاً معروفاً لدى عامة الناس بعد أن كان يسير خلسة كالسلحفاة. يا لسوء حظه. كنت أراقبه لبعض الوقت. إنه سيهاجم كثيراً، فهو مالك أرض سيئ جدًّا. ما شأن رجل ريفي يتملق للعمال بغية كسب رضاهم؟ بالنسبة إلى صحيفته، فأنا أتمنى فقط أن يقوم بالكتابة لوحده، عندها ستستحق ثمنها».

«لقد عرفت أن لديه شاباً ذكيًّا جدًّا يقوم بتحريرها، فهو قادر على كتابة مقالات رئيسية بأرقى الأساليب توازي مقالات الصحف الصادرة في لندن، وهو يؤيد الإصلاح جدًّا».

«دع بروك يصلح عقود تأجير أراضيه. إنه سمسار لعين وجميع البيوت التي على أرضه آيلة للزوال. أظن أن ذلك الشاب سمكة شاردة من لندن».

«اسمه لادسلو، قيل إنه إنتاج أجنبي».

قال السيد هولي: «أعرف ذلك النوع، إنه جاسوس. سيبدأ بتلويحه حول حقوق الإنسان، ثم ينتهي بقتل فتاة. إنه يمثل هذا النوع من الرجال».

قال السيد هكبت متنبئاً بخلاف سياسي مع محامي عائلته: «يجب أن تأخذ في الاعتبار الإساءات يا هولي. يجب علي ألّا أؤيد آراء متطرفة. في واقع الأمر أنا أقف إلى جانب هكسيسن، ولكن لا يمكنني أن أغمض عيني أمام اعتبار عدم تمثيل البلدات الكبيرة»

قال السيد هولي، إذ لم يصبر على الشرح: «اللعنة على البلدات الكبيرة... إنني أعرف الكثير حول الانتخابات في مدل مارش. دعهم يسحقوا كل البلدات الصغيرة غداً، لتتسع البلدات الكبيرة في المملكة... فهي فقط تزيد نفقات دخولها في البرلمان. إنني أستند إلى الحقائق».

لم يكن استياء السيد هولي من فكرة تحرير صحيفة البيونير من قبل جاسوس، ومن فكرة أن بروك ينشط سياسيًّا، لم يكن هذا الاستياء يوازي انزعاج أفراد أسرة السيد بروك. ظهرت النتيجة تدريجاً، كما يكتشف المرء أن جاره قد أنشأ مصنعاً مزعجاً ستظل رائحته تخز أنفه دون علاج قانوني.

لم يتم شراء صحيفة البيونير حتى قبل وصول ويل لادسلو، عندما قدم له مالك الصحيفة، التي لا تأتي بأرباح، بعد أن عزم على الانفصال عنها، وفي الفترة التي لحقت دعوة بروك للادسلو بدأت تنبت وتنمو بذور رغبته في نشر أفكاره في أنحاء العالم، إذ كانت تعتمل في نفسه منذ شبابه.

أصبح التقدم حثيثاً نتيجة ابتهاجه لقدوم ضيفه، الذي كان أعظم مما توقع لأنه تبين أن ويل ليس مولعاً بالأدب والفن، الذي انغمس فيه السيد بروك مرة في حياته فحسب، بل كان متحمساً جدًّا لاقتحام مجال السياسة، وأن يتعامل معها بذهن وروح متقدين مستفيداً من ذاكرته الدقيقة باستدعاء الاقتباسات المناسبة. «إنه يبدو لي مثل شيلي»، قال هذا السيد بروك مغتنماً فرصة لإرضاء السيد كزابون، «لا أعني أي شيء بغيض، كالانحلال أو الإلحاد أو أي شيء من هذا النوع.. إن جميع آراء لادسلو جيدة.. كما أعتقد. في واقع الأمر لقد تحدثنا كثيراً في الليلة الماضية، لكنه يحمل الحماس نفسه لأجل الحرية والتحرر، وإن ذلك لأمر حسن إذا ما ظل تحت الإشراف... تحت الإشراف.. كما تعرف. أظنني سأكون قادراً كي أضعه في الطريق الصحيح، وهذا من دواعي سروري لأنه أحد أقربائك يا كزابون».

إذا كان المقصود من ذلك الطريق الصحيح عملاً يقوم به لادسلو، فقد تمنى السيد كزابون صامتاً أن يكون ذلك العمل أبعد ما يكون عن لُوِيك. لم يكن يحب ويل، حين كان

يقدم له المساعدة، لكنه بدأ يكرهه أكثر عندما رفض ويل مساعدته. هذا ما يحصل لنا عندما تنتابنا غيرة شديدة. إذا ما كانت مواهبنا من النوع الذي يتركز في التنقيب في الكتب والمراجع، عندها يكون قريبنا، الذي نحمل تجاهه أسباباً مؤسفة تدفعنا لرفضه ومضاربته، يحمل في ثنايا صدره تجاهنا ازدراء خفيًّا، وينتقدنا جميع المعجبين به بطريقة غير مباشرة، ولأننا نحمل في أنفسنا مقداراً ضئيلًا من الاستقامة، فإننا لا نتعفف على جرحه وإلحاق الأذى به فحسب، بل نجزل له العطاء حين يطلب مساعدتنا، فيصبح إعطاؤنا خدّنا له تفضلاً يجب علينا إدراكه، ويلطف من شعورنا بالأسى والألم. أما الآن وقد انتزع هذا الفضل وبطريقة نزوية من السيد كزابون، فقد ظل مجرد ذكرى. فلم تكن كراهيته لويل نابعة من غيرته كزوج عجوز، لكنها كانت تمثل شيئًا عميقاً نشأ بسبب المطالب والازدراءات التي امتدت لأعوام كثيرة، لكن حضور دورثيا الزوجة الشابة التي أثبتت قدرتها على النقد اللاذع، زاد من مستوى الارتباك الذي كان غامضاً من قبل.

شعر ويل لادسلو من جانبه أن كراهيته تفاقمت على حساب امتنانه، وقضى وقتاً طويلاً بحوار داخلي محاولاً تبرير هذه الكراهية. كان يعلم جيداً أن كزابون يكرهه، فقد لاحظ في أول مرة يدخل بها إليه كراهية ترتسم من على فمه، وسمًّا ينبعث من نظراته، ما كان كافياً ليبرر إعلان الحرب على الرغم من الاستفادة القديمة.

لقد كان في الماضي ممتنًّا جدًّا لكزابون، لكن زواجه الأخير، أثر حقًّا في شعور ويل بالامتنان. إذ وقع في حيرة بين أمرين: أيشعر بالامتنان لما قدم له..؟ أم يفسح المجال أمام النقمة على ما ارتكب بحق شخص آخر..؟ لقد أخطأ كزابون بحق دورثيا عندما تزوجها، إذ كان عليه أن يعرف نفسه أكثر من ذلك، وإذا ما اختار لنفسه أن يشيب ويهرم في كوخ، لا ينبغي له أن يغوي فتاة كي تكون في صحبته.

قال ويل، وقد رسم لنفسه صورة تمثل أسى دورثيا: «إنها أكثر تضحيات مروعة تأتي من فتاة عذراء». كما لو كتب نحيب كورس، لكنه لن يرفع نظره عنها، إذ سيظل يحرسها حتى لو تخلى عن كل شيء في الحياة، ويجب عليها أن تعلم أن لديها عبداً واحداً في الحياة. كان على ويل أن يستخدم عبارة سير توماس براون، «الإسراف العاطفي» بحقه وحق الآخرين. هناك حقيقة بسيطة هو أن لا شيء كان يجذبه كوجود دورثيا.

في أيّ حال لم يكن هناك أيّ دعوة،إذ إن ويل لم يدعَ إلى لُويك، لكن السيد بروك كان يقوم بما هو مقبول، رغم أن كزابون كان يأخذ ذلك بعين الريبة والشك، وكان يصطحب

معه لادسلو إلى لُويك عدة مرات دون أن يتجاهل تقديمه في أماكن أخرى كقريب لكزابون كلما سمحت الفرصة، وعلى الرغم من أن ويل لم ير دورثيا على انفراد فإن اللقاءات كانت كافية لأن تستعيد إحساسها بشبابها من خلال مصاحبتها لمن هو أشد ذكاءً منها إلا أنه على استعداد أن يتقبل سيطرتها عليه. لم تجد دورثيا المسكينة قبل زواجها مكاناً في عقول الآخرين لما كانت تهتم به، وهي كما نعلم لم تستمتع كثيراً بأوامر زوجها الفوقية كما توقعت، فلما كانت تتحدث باهتمام مع السيد كزابون، كان يستمع إليها بصبر وكأنه كان يستمع إلى اقتباس من كتاب «دلكتس» عرفه منذ أيام طفولته، وكان في بعض الأحيان يقول بأدب: إن المذاهب القديمة وبعض العظام في التاريخ كانوا يحملون آراء شبيهة بآرائها، ليبدي وكأنه كان لديه كثير جدًّا منها، وفي أوقات أخرى كان يقول لها: إنها كانت على خطأ، ثم يعيد التأكيد على ما أثارته تعليقاتها.

لكن ويل لادسلو دائماً يجد في ما كانت تقول أكثر مما كانت تجد فيه نفسها. لقد كان لدى دورثيا قليل من الغرور، ولكن كان لديها أيضاً حاجة أنثوية متحمسة كي تحكم برحمة من خلال إمتاع روح أخرى. لما كان لقاؤها بويل نادراً ويشبه فتحة في جدار سجنها، لتدخل إليها هواءً مشمساً، وبدأت هذه المتعة تحبط خشيتها الحقيقية، مما يمكن أن يظن زوجها بوجود ويل كضيف على عمها، لكن كزابون ظل صامتاً حول هذا الأمر. إلا أن ويل أراد أن يتحدث إلى دورثيا على انفراد، ولكم يصبر حتى تأتيه الفرصة المناسبة.

مهما تكن الحوارات الدنيوية ضعيفة بين دانتي وبتريس، أو بتراك ولورا، فإن الزمن يغير طبيعة الأشياء، فتفضل القصائد على الحوارات. فالضرورات تبرر الخطط، لكن الخطط تقيدها خشية الإساءة إلى دورثيا. خطر له أخيراً أن يرسم لوحة في لُويك، ففي صباح أحد الأيام، حين كان على السيد بروك أن يمر بلُويك وهو في طريقه إلى مركز الإقليم، طلب منه ويل أن يوصله إلى لُويك، ودون أن يعلم أحد جلس في مكان يمكنه من رؤية دورثيا، إذا ما خرجت للمشي، ولقد كان يعرف أنها عادة تخرج للمشي لمدة ساعة في الصباح. إلا أن الخطة أحبطها الطقس، إذ تجمعت الغيوم بسرعة مذهلة، ثم هطل المطر، فاضطر ويل للجوء إلى المنزل. وبناءً على علاقته المتينة، تعمد الذهاب إلى غرفة الاستقبال لينتظر هناك دون أن يعلم به أحد، وعندما رأى الخادم برات، الذي كان يعرفه من قبل، في ردهة المنزل قال: «لا تقل لأحد إنني هنا، سأنتظر حتى وقت الغداء، فأنا أعرف أن السيد كزابون لا يحب أن يزعجه أحد عندما يكون في المكتبة».

«سيدي ليس هنا، وفقط السيدة كزابون في المكتبة. من الأفضل أن أخبرها بوجودك، يا سيدي». قال هذا برات ذو الوجنتين المحمرتين، الذي يتحدث دائماً إلى تنترب، وغالباً ما يوافقها على أن الوضع لا بد من أن يكون مملًّا بالنسبة إلى السيدة.

قال ويل، وقد غمرته سعادة شديدة إلى حدّ أنه ظهر عليه عدم الاهتمام بسهولة: «حسناً، لقد منعني هذا المطر من الرسم». بعد دقيقة كان داخل المكتبة، حيث قابلته دورثيا بابتسامة عذبة لم تستطع أن تخفيها. قالت على الفور: «لقد ذهب السيد كزابون إلى رئيس الشمامسة، لا أعلم ما إذا كان سيعود قبل العشاء بوقت طويل، لم يكن متأكداً كم سيغيب. هل أردت أن تقول شيئاً خاصاً له؟».

«كلا، لقد أتيت لأرسم، لكن المطر اضطرني للدخول إلى هنا، وإلا لما كنت سأزعجكم، ولا سيما أنني أعتقد أن كزابون هنا، وأنا أعرف أنه لا يحب أن يزعجه أحد في مثل هذه الساعة».

«إنني مدينة للمطر إذاً، فإني سعيدة جدًّا لرؤيتك». نطقت دورثيا كلمات المجاملة هذه ببراءة بسيطة تشبه براءة طفلة، لم تكن مسرورة لدى زيارتها للمدرسة.

قال ويل: «إنني حقًّا قدمت على أمل أن أراك لوحدك»، وقد دفعه سبب ملهم كي يكون بسيطاً مثلها، إذ لم يستطع الانتظار حتى يسأل نفسه، ولم لا؟. «أردت الحديث عن الأشياء التي تكلمنا حولها في روما، فالأمر دائماً مختلف، عندما يتواجد أناس آخرون».

قالت دورثيا مؤيدة بوضوح: «نعم، اجلس». جلست على مقعد قاتم اللون وخلفها كتب بنية اللون، لتبدو في ثوبها الصوفي الرقيق الأبيض البسيط دون أن ترتدي أيّ زينة سوى خاتم زواجها، وكأنها أقسمت أن تكون مختلفة عن سائر النساء، وجلس ويل في الجهة المقابلة لها على بعد ذراعين عنها، وكان الضوء يسطع على خصلات شعره اللامع والأجعد وعلى جانب وجهه المشاكس بشفتيه وذقنه الجريئة والمتحدية. نظر كل منهما إلى الآخر، ليبدو وكأنهما وردتان تفتحتا في تلك اللحظة.

عندها نسيت دورثيا حساسية زوجها الغامضة تجاه ويل: بدت وكأن ماء عذباً وقع على شفتيها العطشاوين، فراحت تتحدث مع الشخص الوحيد الذي وجدته يستمع إليها لأنها حين كانت تنظر إلى الماضي من خلال الحزن كانت تبالي في عزائها، فقالت مباشرة: «لقد خطر لي كثيراً أن أتحدث إليك ثانية، أذكر كم بحت لك من أسرار».

«إنني أتذكرها جميعاً»، قال ويل ذلك برضى نابع من صميم أحاسيسه لأنه كان في حضرة مخلوق يستحق أن يحب إلى درجة الكمال. أعتقد أن مشاعره في هذه اللحظة تأججت حتى بلغت درجة الكمال... لأننا نحن البشر، نمر بلحظات مقدسة عندما يرتوي حبنا بكمال المحبوب، قالت دورثيا: «..حاولت أن أتعلم الكثير منذ أن كنا في روما. أستطيع الآن أن أقرأ اللاتينية قليلاً وبدأت أفهم قليلاً من الإغريقية. أستطيع أن أساعد السيد كزابون بشكل أفضل الآن، إذ إنني أستطيع أن أجد له المراجع، وأريح عينيه في طرق عديدة، لكن اكتساب العلم والمعرفة أمر صعب، إذ يبدو الأمر وكأن الناس قد خارت قواهم، وهم يسعون وراء الأفكار العظيمة فما عادوا يستمتعون بها لأنهم أنهكوا كثيراً».

قال ويل بسرعة فائقة: «لو كان لدى المرء مقدرة على اكتساب الأفكار العظيمة، فمن المرجح أنه سيدركها قبل أن يشيخ». لكن دورثيا كانت أيضاً سريعة مثله بشفافية أحاسيسها ورهافتها، فعندما رأى تغير وجهها أضاف مباشرة: «ولكن من الصحيح أن أفضل العقول يجهدها السعي وراء الأفكار».

قالت دورثيا: «لقد صححت خطئي، فأنا عبرت عن نفسي بشكل خاطئ، وكان علي أن أقول إن أولئك الذين يملكون أفكاراً عظيمة يجهدهم جدًّا العمل بها وتطبيقها. كنت أفكر في هذا حتى حين كنت فتاة صغيرة، فكنت دائماً أرى أن الاستفادة من حياتي ستكون من خلال مساعدة لمن يقوم بأعمال عظيمة، فتخف عنه أعباؤها». لقد أقحمت دورثيا بالحديث عن سيرتها الذاتية دون أن تبوح بأسرارها، لكنها لم تخبر من قبل ويل أي شيء يسلّط ضوءاً ساطعاً على زواجها. لم يهز كتفيه، وبسبب الحاجة للمتنفس الرجولي، فكر بتوتر أشد في تقبيل الشفاه الجميلة للجماجم المقدسة، والمقدسات الكنسية. كما كان عليه أن يحرص كي لا يضلل كلامه تلك الفكرة، وقال: «لكنك تذهبين بمساعدتك إلى حد بعيد... فتنهكين نفسك، ألست خرساء؟؟ إنك تبدين شاحبة.. من الأفضل لكزابون أن يوظف سكرتيراً، يمكنه أن يحصل على رجل يستطيع أن يقوم بنصف عمله. فيمكن أن يريحه أكثر، عندها يمكن أن تساعديه في أعمال بسيطة».

قالت دورثيا بنبرة احتجاج حادة: «كيف لك أن تفكر هكذا...؟! لن أكون سعيدة إن لم أساعده بعمله. ماذا عساني أن أفعل..؟؟ لا شيء يستحق المجهود في لُويك، والشيء الوحيد الذي أرغب فيه هو أن أساعده أكثر، وهو يرفض أن يوظف سكرتيراً، من فضلك لا تذكر هذا ثانية».

«كلا، بالتأكيد لن أفعل، إنني أعرف مشاعرك لكنني سمعت السيد بروك والسير جتم يعبران عن الرغبة نفسها».

قالت دورثيا: «نعم.. لكنهما لا يفهمان. إنهما يريدان أن أقضي أطول وقت في ركوب الخيل، وأن أعمل في الحديقة، وأنشئ بيوتاً زجاجية جديدة كي أملأ أيامي. كنت أعتقد أنك تدرك أن لكل فرد احتياجات مختلفة». ثم أضافت بلا صبر: «فضلًا عن ذلك فالسيد كزابون لا يحتمل أن يسمع بسكرتير».

قال ويل: «إن خطيئتي مبررة، لقد سمعت في الماضي السيد كزابون يبحث عن سكرتير، وفي واقع الأمر قد عرض علي الأمر، لكنني رفضته، إذ تبين أنني لا أصلح له».

كانت دورثيا تحاول أن تستخلص من هذا المبرر دليلاً على اغتياظ زوجها عندما قالت وهي تبدي ابتسامة لعوباً: «لم تكن جادًّا في عملك بقدر كاف». قال ويل رافعاً رأسه للوراء، كما يفعل حصان فيه كبرياء وخيلاء، ثم حثه الشيطان العجوز الذي لا يقاوم على أن ينتقص من عظمة كزابون المسكين: «ولقد وجدت منذ الحين أن السيد كزابون لا يرضى أن يطلع أحد على عمله ويعرف بدقة ماذا يفعل؟ إنه كثير الريبة والشك، ولا يثق في نفسه. ربما لست جديراً جدًّا لكنه لا يحبني لأنني لا أتفق معه». لم يكن ويل كريماً بلا قصد لكن ألسنتنا كأزند البنادق يجب أن تسحب قبل أن تضغط عليها المقاصد. ولقد كان أمراً لا يحتمل أن تصبح كراهية كزابون له تنطبق كذلك على دورثيا، ولكن لا يزال عندما يتكلم معها لا يتساهل بالتأثير فيها. إلا أن دورثيا كانت هادئة على نحو غريب، لا تنفعل بسرعة كما حدث لها في روما، والسبب يكمن في العمق. لم تعد تعاني من فهمها للحقائق، لكنها دربت نفسها على أدق طرق إدراكها. والآن عندما تنظر إلى فشل زوجها وإلى إدراكه لفشله أكثر، تبدو وكأنها تنظر إلى كراسة واحدة حيث يتحول الواجب إلى عطف. ربما قوبلت حاجة ويل للتحفظ بقسوة أكثر لولا ترشحه لعطفها كراهية زوجها، التي لابد من أنها ظلت قاسية عليها حتى وجدت سبباً مقنعاً لها. لم تجب مباشرة ولكن بعد أن نظرت إلى الأسفل متأملة قالت بإلحاح: «لا بد من أن السيد كزابون قد تغلب على كراهيته لك. كما يظهر على تصرفاته، وإن ذلك ليثير الإعجاب».

«نعم.. لقد أبدى بعض العدالة في المسائل العائلية. لقد كان أمراً مقيتاً عندما حرمت جدتي من الإرث، لأنها تزوجت كما يسمونه زواجاً غير متكافئ. على الرغم من أنه لم يكن هناك شيء يقال ضد زوجها سوى أنه لاجئ بولندي، كان يدرس بغية كسب قوت عيشه».

قالت دورثيا: «أتمنى لو أنني أعرف كل شيء عنها. إنني أتعجب كيف تحملت عناء الانتقال من الثراء إلى الفقر. إنني أتساءل ما إذا كانت سعيدة مع زوجها. هل تعلم الكثير عنهما؟».

«كلا، فقط أن جدي كان بطلاً وجريئاً، وكان يتقن لغات عديدة وموسيقي، وكان يحصل على عيشه من خلال تدريسه المتنوع والمتعدد. لقد توفي كلاهما في عمر مبكر، ولا أعرف الكثير عن أبي سوى ما قالت لي أمي عنه، أنه قد ورث الموهبة الموسيقية عن أبيه. إنني أتذكر مشيته البطيئة ويديه الطويلتين النحيفتين، ويظل يخيم على ذاكرتي حين كان مستلقياً مريضاً وأنا كنت جائعاً جدًّا، ولم يكن لدينا سوى كسرة خبز».

قالت دورثيا باهتمام بالغ لافّةً يديها حول حضنها: «آه.. كم هي حياة تختلف عن حياتي..؟؟! كنت دائماً أحصل على الكثير من كل شيء، ولكن أخبرني هل كان يعرف كزابون بكم آنذاك؟».

«كلا، لكن أبي أعلم كزابون بأمرنا فكان ذلك اليوم آخر يوم نجوع فيه. بعدها توفي أبي واعتنى بي وبأمي كثيراً، إذ كان السيد كزابون يعبر دائماً عن واجب الاعتناء بنا بسبب الظلم القاسي الذي لحق بأخت أمه، لكنني أخبرك الآن ما هو ليس جديدًا عليك»، تمنى ويل من أعماق نفسه أن يخبر دورثيا بما هو جديد بما في ذلك فهمه للأشياء، وبشكل رئيسي أن السيد كزابون لم يفعل شيئاً سوى أنه سد ديناً عليه. كان ويل أكرم من أن يسيطر عليه شعور عدم الامتنان، وكان يجد لنفسه طرقاً كثيرة كي يهرب من خلالها من شعور الامتعاض إذا ما سيطر عليه. أجابت دورثيا: «كلا. دائماً يتجنب السيد كزابون الحديث عن تصرفاته المشرفة». لم تشعر أن تصرفات زوجها قد انتقص من قدرها، لكن فكرة ما تطلبت العدالة منه تجاه ويل لادسلو، سيطرت تماماً على تفكيرها، فبعد لحظة صمت أضافت: «لم يخبرني أنه ساعد أمك. هل لا تزال على قيد الحياة؟».

«كلا، لقد توفيت في حادث منذ أربع سنوات. إنه ليثير الفضول أن أمي كانت بعيدة تماماً من عائلتها، ولكن لم يكن ذلك لأجل زوجها. لم تخبرني شيئاً عن عائلتها سوى أنها تركتهم لتسعى وراء رزقها، فقد ذهبت لتعمل على خشبة المسرح في حقيقة الأمر. لقد كانت عيناها غامقتي اللون، وشعرها ملفلفاً، فلم يظهر عليها تقدم السن. كما ترين لقد ورثت الطباع المتمردة من جميع أطراف أسرتي». أنهى ويل كلامه بابتسامة، في حين أن دورثيا ظلت تنظر باهتمام شديد كطفلة ترى مسرحية لأول مرة.

ولكن ظهر على وجهها ابتسامة أيضاً، عندما قالت: «أظن ذلك يشكل اعتذاراً منك على تمردك على أمنيات السيد كزابون. يجب أن تتذكر أنك لم تفعل أفضل ما توقعه منك، وإذا كان لا يحبك، كما كنت تقول قبل قليل، لكنني أقول: إذا ما أبدى مشاعر ألم وأسى تجاهك، ينبغي لك أن تأخذ في الاعتبار كم هو يجهد في بحثه. ربما». ثم تابعت بنظرة توسل: «لم يخبرك عمي كم كان مرض السيد كزابون خطيراً، سيكون من التفاهة إذا ما ضخمنا نحن الأصحاء الأعباء والإساءات البسيطة، أمام أولئك الذين يحملون أعباء عظيمة».

قال ويل: «إنني أتعلم منك، لن أثير ذلك الموضوع ثانية». ظهر على نبرة صوته رقة، صدرت عن فهم لقناعة لا يعبر عنها. ما أدركته دورثيا هو أنها منغمسة في عزلة شفقتها وولائها لزوجها. كان ويل على استعداد كي يعجب بعطفها وولائها إذا ما أشركته معها في إظهارها.

تابع قائلاً: «حقًّا لقد كنت في بعض الأوقات شابًا مشاكساً، لكنني إذا ما استطعت لن أقول أو أفعل ما يرضيك».

قالت دورثيا بابتسامة عريضة أخرى: «هذا لطف منك، سيكون لي مملكة أسن فيها قوانين، عندها ستخرج مسرعاً عن طاعتي. ستمل قريباً من إقامتك في كرينج».

«هذا ما أردت أن أذكره لك، وكان أحد الأسباب التي دفعتني لأراك على انفراد. لقد عرض عليّ السيد بروك أن أبقى قريباً منه. لقد أشترى إحدى صحف مدل مارش، وهو يتمنى أن أديرها له، وأساعده في شؤون أخرى».

قالت دورثيا: «ألم تكن هذه تضحية بإمكانياتك؟».

«ربما، لكنني دائماً كنت ألام على تفكيري في الإمكانيات دون أن أستقر على أمر، وها هو أمر يعرض علي. إذا كنت لا تريدنني أن أقبله: سأقلع عنه. أما بالنسبة إليّ فأنا أفضل البقاء في هذا الجزء من البلاد على الذهاب، إذ لا أعرف أحداً في أي مكان آخر».

«إنني أرغب في بقائك»، قالت دورثيا هذا على الفور وبالبساطة نفسها التي كانت تتحدث بها في روما. لم يكن سبب في ذهنها يمنعها من أن تقول ذلك، قال لادسلو هازًّا رأسه إلى الوراء ناهضاً ليذهب إلى النافذة ليرى ما إذا توقف المطر: «وأنا سأبقى». إلا أن دورثيا بعد لحظة وبحسب عادتها التي تقوى باستمرار، بدأت تعي أن مشاعر زوجها

وأحاسيسه تختلف عن مشاعرها وأحاسيسها، فتلون وجهها بشعورها بالخجل من إبدائها، ما يمكن أن يعتبر ضد مشاعر زوجها، ولأنها اقترحت هذه المعارضة لويل. لم يدر وجهه إليها، ما جعل من السهل عليه أن يقول: «ولكن برأيي إذا ما كان لهذا الموضوع تبعات فيجب على كزابون أن يحيطك بها علمًا. لقد تحدثت دون أفكر في أي شيء سوى مشاعري التي لا شأن لها بالقضية الحقيقية. ولكن يخطر لي الآن أن السيد كزابون لن يعتبر العرض منطقيًّا. ألا تستطيع الانتظار الآن لتخبره به؟».

قال ويل وقد انتابته خشية من أن يدخل السيد كزابون عليهما: «لا أستطيع الانتظار اليوم، لقد توقف المطر تماماً الآن، لقد أخبرت السيد بروك أن لا يحضر لأجلي، فإنني أفضل أن أسير خمسة أميال. سأذهب عبر «هالسل كمن» لأرى أشعة الشمس وهي تسطع على العشب المبلل، إنني أحب ذلك كثيراً». اقترب منها ليصافحها مسرعاً راغباً - ولكن لا يجرؤ - بالطلب منها، «ألاّ تذكر الموضوع للسيد كزابون.إنه لن يتجرأ على قول ذلك. أما طلبه منها أن تكون أقل صراحة وبساطة يشبه التنفس على الزجاج الذي تريد أن ترى النور من خلاله. كما كانت تنتابه خشية أخرى من أن تصبح نفسه تعيش في ظلمة أبدية، بينما تظل عيناها تشعان ضياءً.

قالت دورثيا مع لمسة حزن، وهي تنهض وتمد يدها له: «تمنيت لو استطعت البقاء». هي أيضاً كان يجول في ذهنها فكرة لم ترغب في البوح بها، بالتأكيد ينبغي لويل ألّا يضيع الوقت في استشارة السيد كزابون، ولكن بالنسبة إليها ربما بدا إلحاحها على هذا الأمر إملاءً غير ملزم. لذلك قالا فقط: «وداعاً». وخرج ويل من المنزل، وسار عبر الحقول مسرعاً ليتجنب احتمال ملاقاة عربة السيد كزابون التي لم تصل قبل الساعة الرابعة.

لم تكن الساعة المناسبة لعودته إلى المنزل. لقد كان الوقت مبكراً كي يحصل على دعم نفسي وهو يرتدي ملابس العشاء تحت وطأة الملل، وكان ذاك الوقت أيضاً متأخرًا كي يخلص تفكيره من عبث النهار ومتاعبه، ليكون مستعدًّا للدراسة الجدية. في مثل هذه المناسبات يستلقي عادة على كرسي مريح في المكتبة لتقرأ له دورثيا صحف لندن بينما هو مغمض عينيه. في أيّ حال لم يزاول هذه المتعة هذا اليوم لأنه اعتبر أنه قد تلقى الكثير من الأخبار العامة، لكنه تحدث بابتهاج غير اعتيادي، عندما سألته دورثيا عن جهوده، وأضاف بأسلوب رسمي لم يتخل عنه مرة حتى عندما لم يكن يرتدي صدريته وربطة عنقه.

«لقد سررت اليوم بلقاء أحد معارفي القدماء، دكتور سبانينغ، ولقد أثنى علي شخص

يستحق أن يثنى عليه. لقد تحدث ببراعة حول بحثي الأخير عن أساطير المصريين القدماء مستخدماً مفردات لا أجد من اللائق أن أكررها». وهو ينطق بآخر عبارة قالها، اتكأ السيد كزابون على مسند كرسي وحرك رأسه إلى الأمام والخلف. من الواضح كان تعبيرًا رجوليًّا يلخص عادة خلاصة الحديث، قالت دورثيا مبتهجة لرؤية زوجها، وهو أقل إجهاداً في مثل هذه الساعة: «إنني مسرورة لحصولك على هذه المتعة، قبل عودتك كنت آسفة لخروجك من المنزل اليوم».

قال السيد كزابون، وهو يسند ظهره إلى الوراء ثانية: «لماذا يا عزيزتي؟».

«لأن السيد لادسلو كان هنا، وذكر أنه تلقّى عرضاً من عمي، وأنا أتمنى أن أعرف رأيك فيه..».

لقد شعرت أن زوجها مهتم بهذه المسألة. على الرغم من جهلها بالعالم من حولها، كان لديها انطباع غامض أن العمل الذي عرض على ويل جاء نتيجة للروابط الأسرية، لذلك من المؤكد أن للسيد كزابون حقًّا في أن يستشار. لم يتكلم لكنه حنى رأسه فقط. «كما تعلم إن عمي عنده كثير من المشاريع، ولقد تبين أنه اشترى إحدى صحف مدل مارش، وقد طلب من ويل البقاء معه ليديرها له، بالإضافة إلى مساعدته في شؤون كثيرة أخرى». كانت دورثيا تنظر إلى زوجها، وهي تتكلم. رفّ بعينيه في البداية، ثم أغمضهما وكأنه يريد أن يريحهما، أما شفتاه، فقط ظهر عليهما الاضطراب. أضافت بوداعة بعد صمت قصير: «ما رأيك؟ هل جاء السيد لادسلو بهدف معرفة رأيي؟»، قال السيد كزابون بعد أن فتح عينيه قليلاً ليرمق زوجته بنظرات حادة جدًّا. حقًّا لم تكن مرتاحة لسؤاله، لكنها أصبحت أكثر جدية فلم ترفع نظرها عنه، وأجابت مباشرة: «كلا، لم يقل إنه جاء ليسألك رأيك، ولكن عندما ذكر العرض بالطبع توقع أنني سأخبرك به».

ظل السيد كزابون صامتاً... «أخشى أن يكون لديك اعتراض عليه، ولكن من المؤكد أنه يمكن أن يكون شاب بمواهب كثيرة مثل هذه مفيداً جدًّا لعمي، إذ يمكن أن يساعده في فعل أشياء جيدة على نحو أفضل، والسيد لادسلو يتمنى أن يحصل على عمل ثابت. قال إنه ملام جدًّا لأنه لا يبحث عن عمل من هذا النوع، وهو يرغب في البقاء هنا لأنه لا يوجد أحد في مكان آخر يمكن أن يهتم به». شعرت دورثيا أن هذا الاعتبار يمكن أن يليّن موقف زوجها. وفي أيّ حال لقد ظلّ صامتاً لكنها عادت للحديث ثانية حول دكتور سبانينغ، وتناول الإفطار عند رئيس الشمامسة، إلا أنه لم يعد لديه الرغبة في الحديث حول هذه المواضيع.

في الصباح التالي ودون أن تعرف دورثيا، أرسل السيد كزابون الرسالة التالية التي بدأها بـ:

«عزيزي السيد لادسلو»؛ كان دائماً قبل هذه المرة يخاطبه باسم ويل.

«لقد أخبرتني السيدة كزابون أنك تلقيت عرضاً، وبناء على استنتاج غير مبالغ فيه، أفهم أنك قد سررت به إلى حد ما، وأنه يستلزم إقامتك في مكان مجاور، لذلك لي الحق أن أقول إن هذا يمس مكانتي بطريقة يجعل الأمر غير طبيعي ولا مبرر بالنسبة إليّ، عندما يُقيّم ذلك المساس بموجب تأثير الشعور الحقيقي، بل يجعله ملزماً لي، عندما يُقيّم المساس نفسه بموجب مسؤوليات، كي أقول مباشرة إن قبولك للعرض المذكور أعلاه سيسيء لي جدًّا. لا يمكن لأحد أن ينفي حقي بالاعتراض على هذا الأمر وهو يعرف العلاقات التي بيننا. تلك العلاقات التي ألقي بها في الماضي بسبب تصرفاتك الأخيرة التي لم تنقطع نتيجة أحداث قديمة لا يزال لها تأثير على المستقبل. لن أبدي رأيي هنا في أحكام أي شخص، إذ يكفيني أن أوضح لك أن هناك آداباً ولياقات اجتماعية، يمكن أن تمنع شخصاً يربطه بي نوع من علاقة قربى، من أن يصبح في مقام ليس أدنى من مقامي فحسب. بل يصبح في أحسن حالاته مغامراً يدعي إحاطته بعلوم السياسة والأدب. في أيّ حال إذا ما اخترت عكس رغبتي، فإن ذلك سيمنعك من القدوم إلى منزلي.

المخلص إدوارد كزابون

آنذاك.. كانت دورثيا منشغلة ببراءة بمرارة زوجها تفكر في العطف الذي تحول إلى إرباك نتيجة ما قاله لها ويل حول أبويه وجديه، كانت تقضي جميع ساعاتها الخاصة في مخدعها ذي اللون الأزرق المخضر اللون، فقد أصبحت تحب كثيراً لونه الشاحب. لم يتغير شيء في ذلك المخدع، ولكن بينما يحل الصيف على الحقول الغربية خلف صفوف أشجار الدردار، كانت تمتلئ تلك الغرفة الفارغة بذكريات حياتها الداخلية، كما تمتلئ السماء بالملائكة التي تمثل انتصاراتنا وانكساراتنا الروحية. لقد اعتادت على أن تقاسي كي تجد حلًّا من خلال نظرها إلى الطريق المشجر الممتد إلى الضوء القادم من الحقول الغربية، حتى إن المنظر حصل على طاقة تواصل، إلى حدّ أن الأيل الشاحب في الصورة، بدأ يرسل نظرات مذكرة تعني بصمت «إننا نعلم»، وحتى أولئك الذين يظهرون في اللوحات التي رسمت بدقة

أصبحوا جمهوراً غير نادمين على الحياة التي قضوها، لكنهم لا يزالون يهتمون بحياة البشر، وخصوصًا الخالة جوليا المكتنفة بالأسرار والتي على دورثيا أن تسأل زوجها عنها.

الآن... ومنذ حوارها مع ويل لادسلو، تجمعت كثير من الصور في ذهنها حول الخالة جوليا التي هي جدة ويل. وجود تلك الصورة اللطيفة التي تشبه الوجه الذي تعرفه ساعدها في توجيه مشاعرها. كم هو خطأ أن تتخلى أسرة عن ابنتها وتحرمها من الإرث لأنها اختارت لنفسها رجلاً فقيراً...!!

لطالما شغلت دورثيا من هم أكبر منها سنًّا بأسئلتها حول الحقائق التي كانت تدركها، فاستطاعت أن تجد لنفسها وضوحاً مستقلًا يتعلق بالأسباب التاريخية والسياسية الكامنة وراء تمتع الأبناء الكبار بحقوق متميزة، وأيضاً لماذا تصبح الأرض وقفاً؟ كانت تؤثر فيها هذه الأسباب خشية أن تكون أكثر وزناً مما نعرف، ولكن ها هنا قضية روابط تركت تلك الأسباب دون أن تخالف. ها هنا ابنة يملك ولدها حقًا قديمًا حتى بموجب دستور الأرستقراطيين وضعها أناس ليسوا أرستقراطيين أكثر من بائعي الخضار، ولا يملكون أرضاً ستتسع لمرج وإسطبل صغيرين. هل الإرث مسألة محبة أم مسؤولية...؟؟ لقد مالت دورثيا بطبيعتها نحو المسؤولية. تعتمد المطالبة بالإرث على أعمالنا كالزواج والأبوة.

قالت لنفسها: إنه صحيح أن السيد كزابون عليه دين تجاه عائلة لادسلو، وإنه يجب عليه أن يدفع ثمناً كالإساءة التي لحقت بهم. بدأت الآن تفكر في وصية زوجها التي كتبها حين تزوجا، ليترك لها معظم أملاكه وتتغير إذا ما أصبح لهم أطفال، يجب أن تعدل هذه الوصية. ولا يوجد وقت يضاع. لقد تحولت قضية عمل لادسلو، التي ظهرت للتو، إلى مناسبة كي توضع الأمور في نصابها. لقد كانت متأكدة، بموجب تصرفاته القديمة، أن زوجها سيكون مستعدًّا لتقبل وجهة نظر عادلة إذا ما اقترحتها؛ هي التي أوصى لها بمعظم الأملاك على نحو غير عادل.

راح يزداد إحساسه بالحقوق، وهو سيعلو فوق كل شيء يمكن أن يدفع بالكراهية الفطرية. كان يراودها شك أن مشروع عمها لم يلق أي ترحيب من زوجها السيد كزابون، مما جعلها تعتبره مناسبة لفهم جديد يجب أن يبدأ، فبدلاً من أن يبدأ ويل وهو مفلس، فيقبل بأي فرصة تعرض عليه، يجب أن يتلقى دخل مناسباً يدفعه زوجها طوال حياته، وبتغيير الوصية يمكن أن يؤمن بعد وفاته للادسلو حياة تليق به. إن رؤية ما يجب عمله ظهرت كنور مفاجئ في حياة دورثيا ليوقظها من سذاجتها السابقة ومن جهلها بعلاقات زوجها مع الآخرين. لم تعد تعتبر رفض لادسلو لمساعدة زوجها في المستقبل أمراً صحيحاً، ولم يعرف السيد كزابون الواجب

المترتب عليه.

قالت دورثيا: «لكنه يعرف... هنا تكمن قوة شخصيته العظيمة. وماذا نفعل بمالنا؟ إننا لا نستفيد إلا من نصف دخلنا. لا تجلب لي نقودي سوى ضمير قلق».

لقد شغل فكر دورثيا كثيراً أمر تقسيم أملاك السيد كزابون، وإعطاؤها القسم الأكبر، فقد كانت تعتبر ذلك أمراً مبالغاً به. لم تكن تعي أشياء كثيرة هي واضحة للآخرين، فاحتمال وقوعها في الخطأ كان وارداً جدًّا، كما كانت تحذرها سيليا. إلا أن عدم وعيها لما هو ليس من أهدافها حملها بأمان عبر الجرف، حيث يعدم الرؤية الخوف.

إن الأفكار، التي ظهرت جليًّا في وحشة مخدعها، قد خيمت عليها طوال اليوم الذي كتب فيه السيد كزابون رسالته لويل لادسلو. لقد بدا كل شيء لها معرقلاً حتى وجدت فرصة مناسبة تفتح بها قلبها لزوجها. يجب أن يثار أي موضوع بعناية... ولا سيما أن فكره منشغل جدًّا بأمور شتى، ومنذ مرضه لم تنس الخوف من أن تغضبه. إلا أن الحماس الشاب عندما يبدأ يطيل التفكير في عمل قريب، يبدأ العمل نفسه يتقدم باستقلالية، حتى ينتصر على العوائق المثالية. لقد انقضى النهار بالكآبة المعتادة على الرغم من أن السيد كزابون ظل صامتاً، ولكن هناك ساعات في الليل يمكن أن تشكل فرصة للحوار، فكلما وجدت دورثيا زوجها مستيقظاً اعتادت أن تنهض لتشعل شمعة وتقرأ له حتى ينام ثانية، وفي هذه الليلة ظلت مستيقظة منذ بداية الليل مبتهجة بقراراتها. نام كالمعتاد لبضع ساعات، قبل أن تنهض وتجلس بهدوء لساعة كاملة في الظلام، وعندما استيقظ قال: «دورثيا بما أنك مستيقظة، هل لك أن تشعلي شمعة؟».

كان سؤالها الأول قبل أن تطيعه: «هل تشعر بالمرض يا عزيزي؟».

«كلا على الإطلاق، لكنني سأكون ممتنًّا إذا ما قرأت لي بضع صفحات من كتاب لاوث. ولا سيما أنك مستيقظة».

قالت دورثيا: «هل لي أن أتحدث إليك قليلاً بدلاً من ذلك؟».

«بالتأكيد».

«كنت أفكر في المال طوال النهار، إذ إنني دائماً أملك أكثر مما ينبغي؛ أكثر من حاجتي».

«آه يا عزيزتي دورثيا، إن هذه ترتيبات إلهية».

«ولكن إذا كان لدى أحد ما أكثر مما يحتاج من المال نتيجة ظلم حل بمن سواه، أعتقد أن الصوت الإلهي، الذي يدعو إلى تصحيح ذلك الخطأ، يجب أن يطاع».

«ما مضمون تعليقاتك يا عزيزتي؟».

«إنك كنت سخيًّا جدًّا في اتخاذك إجراءات تتعلق بي... أعني بما يتعلق بالأملاك، فذلك يسبب لي تعاسة».

«كيف ذلك، ليس لي أقارب سوى قليل منهم تربطني بهم علاقات قربى بعيدة».

«لقد سيطر علي تفكير الخالة جوليا، وكيف تركت تعيش في فقر، فقط لأنها تزوجت من رجل فقير، وهذا ليس مخجلاً لأنه لم يكن دون مستواها. إنني أعلم أنك لهذا السبب أنفقت على تعليم ويل لادسلو، وأعنت أمه». انتظرت دورثيا لبضع لحظات جواباً يمكن أن يساعدها كي تتابع حديثها. لم يأت شيء، فأصبحت كلماتها التالية تضغط عليها أكثر لتخرج واضحة في صمت الظلام: «..بالتأكيد يجب أن نعتبر أن له حقًّا أكثر من ذلك، حتى في نصف تلك الأملاك التي أعلم أنك خصصتها لي. أعتقد أنه يجب أن يقدم له شيء دفعة واحدة، وأعتقد أنه ليس صحيحًا أن يظل فقيراً في حين أننا نحن أغنياء. إذا كان هناك أي اعتراض على العرض الذي تلقاه، فإن منحه المكان المناسب والنصيب الذي يستحقه سيضع جانباً جميع المحرضات التي تقوده إلى القبول بذلك العرض».

قال السيد كزابون بحدته المعتادة: «ربما حدثك السيد لادسلو في هذا الأمر!».

قالت دورثيا مؤكدة: «كلا، كيف لك أن تتصور ذلك، وهو الذي رفض مساعدتك له. أظنك تشعر بقسوة تجاهه يا عزيزي. كل ما أخبرني به كان حول والديه وجديه، وأجوبة عن جميع تساؤلاتي. إنك إنسان عادل جدًّا. لقد فعلت كل شيء تعتقد أنه صحيح ولكن يبدو من الواضح لي أن ما هو أكثر من ذلك لهو أيضاً صحيح، ويجب أن أتحدث به لأنني سأكون الإنسانة التي تحصل على ما يسمى بالمنفعة إذا لم يفعل ما هو أكثر». ساد صمت ملحوظ قبل أن أجاب السيد كزابون، ليس بسرعة كما من قبل، ولكن بإلحاح حاد: «حبيبتي دورثيا، ليست هذه المرة الأولى، ولكن من الأفضل لو كانت الأخيرة، تفترضين فيها أحكاماً على مواضيع خارج نطاق فهمك. لن أتطرق الآن إلى مسألة الإرث خصوصًا في ما يتعلق منه في الزواج

الذي يؤدي عادة إلى الحرمان من الإرث العائلي. يكفي أن أقول إنك لست مؤهلة للتمييز، لكنني أتمنى أن تفهمي أنني لا أقبل إثارة الموضوع ثانية حتى لو جاء بإملاءات أقل حول المسائل العائلية، التي أعتبرها تخصني فقط. ليس من شأنك أن تتدخلي بيني وبين السيد لادسلو، ولا تشجعي على لقاءات بينكما، يكون محور مواضيعها انتقاد تصرفاتي».

يالدورثيا المسكينة.. التي لفها الظلام، غرقت في نوبة من الصراع العاطفي. لم يمنع خوفها من أن غضب زوجها يمكن أن يؤذيه عندما يظهر على وجهها استياؤها حتى لو لم ينتابها شك وندم، وهي تدرك أن في تلميحاته الأخيرة حقًّا وعدالة. عندما سمعته يلهث بعد أن انتهى من حديثه جلست خائفة وبائسة، وفي داخلها صدرت صرخة بكماء تطلب نجدة تعينها على تحمل هذا الكابوس الذي حبس كل الطاقات داخل الخوف. لم يحدث شيء سوى أنهما ظلّا مستيقظين دون كلام لوقت طويل.

في اليوم التالي تلقى السيد كزابون الرسالة التالية من ويل لادسلو:

عزيزي السيد كزابون

لقد أعطيت رسالتك كل الاهتمام لكنني لا أستطيع أن آخذ بآرائك حول علاقتنا المتبادلة. مع اعترافي لك بسخائك لي في الماضي، لا بد لي من أن أعترف أن واجباً من هذا النوع لا يمكن أن يقيدني على عكس ما ترى أنت. إذا ما سلمنا بأمر رغبات محسن، عادة تشكل مطلباً، فلا بد من أن يكون هناك تحفظ تجاه طبيعة تلك الرغبات، إذ يمكن أن تتعارض مع بعض الاعتبارات الإلزامية، أو يمكن لاعتراضات المحسن الخبير أن تفرض فرضاً على حياة المحسن إليه فتحولها إلى حياة جوفاء، أشد قسوة من كرم المحسن نفسه. إنني أستخدم مجرد تأكيدات واضحة وجلية. في الوضع الحالي لا يمكنني أن آخذ برأيك في أمر قبولي بالعمل، الذي لن يكون مثرياً، لكنه ليس مشيناً، والذي تعتبره منقصاً من مكانتك الأشد متانة من أن تثلم بهذه الطريقة البسيطة. على الرغم من أنني أعتقد أنه لن يطرأ تغيير على علاقتنا، وبالتأكيد لم يطرأ شيء حتى اللحظة يمكن أن يلغي امتناني لك لما قدمت لي في الماضي، اُعذرني لأنني لا أرى أن هذا الامتنان يمكن أن يمنعني من مزاولة حرية اختيار المكان الذي أعيش فيه وتحسين ظروف عيشي من خلال اختياري للعمل الذي أرغب فيه. على الرغم من أسفي على ما بيننا من اختلاف حول علاقتنا التي بموجبها كنت دائماً تحسن إلي، فإنني أظل ممتنًّا لك.

المخلص ويل لادسلو

لقد شعر السيد كزابون المسكين أن لا أحد سواه لديه سبب عادل للشك والاشمئزاز، فقد كان متأكداً أن ويل لادسلو الشاب تعمد تحديه وإزعاجه، وكذلك تعمد كسب ثقة دورثيا، ويحثها على عدم احترام زوجها وكرهه. هناك سبب خفي وراء تغير ويل السريع ورفضه لمساعدة كزابون له، وتوقفه عن السفر، فجاء تصميمه المتحدي على البقاء في الجوار وقبوله للعمل، بموجب تصميم سابق، في مشاريع السيد بروك، ليوضح جليًّا أن ذلك الدافع الخفي له صلة بدورثيا. لم يشك السيد كزابون، ولو للحظة، في ازدواجية دورثيا، إذ لم يكن لديه شكوك حولها، ولكن كانت تتوافر لديه معرفة إيجابية بأن رغبتها في تكوين آراء حول تصرفات زوجها كانت ترافقها نزعة لتفضيل ويل لادسلو والتأثر بما يقول. لقد منعه تكتمه الفخور من أن لا يخدعه الاعتقاد بأن دورثيا قد طلبت من عمها أن يدعو ويل إلى منزله.

الآن وبعد تسلمه لرسالة ويل، يترتب على السيد كزابون أن يمعن التفكير بواجباته، ولا سيما أنه لم يتساهل مرة في تسميته لأفعاله بأي اسم سوى «الواجب»، لكن تنازع الدوافع في هذه الحالة أجبره على الإنكار. هل يطلب مباشرة من السيد بروك أن يسحب عرضه لذلك الشاب المشاكس؟ أو هل يستشير السير جتم، ليشاركه الرأي في الاحتجاج على خطوة تمس العائلة بأكملها؟ في الحالتين كان السيد كزابون يعي أن احتمال الفشل يعادل احتمال النجاح. كان من المستحيل عليه أن يذكر اسم دورثيا في القضية، ودون أمر ملح للغاية. إن السيد بروك، وبعد سماعه لجميع الدلائل الواضحة، سيقول على الأرجح: «لا تخش يا كزابون، ثق بذلك... ويل الشاب سيحفظ لك الجميل... ثق بذلك. لقد وضعت إصبعي على الشيء الصحيح». وعدل السيد كزابون بانزعاج عن الحديث مع السير جتم، ولا سيما أنه لم يكن بينهما أيّ مودة، كما أنه سيفكر في دورثيا مباشرة حتى لو لم يذكر اسمها. لقد كان السيد كزابون المسكين كثير الشك في مشاعر الآخرين تجاهه وكزوج بخاصة.

جعله للآخرين يفترضون غيرته هو اعتراف منه بصحة افتراضهم بعيوبه: إذا ما أراد أن يوضح لهم أنه لم يجد الزواج مصدر سعادة، فمن المرجح أن لا بد لحديثه من أن يتضمن عدم موافقته السابقة على زواجه.

سيكون الأمر سيئاً كما لو أعلم «كارب» و«بريزينس» كم كان متأخراً في تنظيم كتابه: «المفتاح إلى علم الأساطير». كان يحاول السيد كزابون طوال حياته ألّا يعترف حتى لنفسه بالأذى الداخلي الذي لحق به نتيجة الشك والغيرة. ففي أكثر المواضيع الشخصية حساسية كانت عادة تكتمه للشك جلية. هكذا ظلّ السيد كزابون صامتاً بفخر ومرارة، لكنه منع ويل من المجيء إلى لُويك، وكان يهيئ فكريًّا لاتخاذ إجراءات أخرى محبطة.

الفصل الثامن والثلاثون

C'est beaucoup que le jugement des hommes sur les actions humaines; tot ou tard il devient efficace.

GUIZOT.

لم ترق للسير جتم توجهات السيد بروك الجديدة، وكان من الأسهل عليه أن يرفضها من أن يمنع تحقيقها، ويحتسب له قوله عندما جاء ليتناول الغداء مع السيد والسيدة كادولدر: «لا أستطيع التحدث إليكما أمام سيليا لأن ذلك يمكن أن يجرحها، ولن يكون ذلك حقًّا من اللائق».

قالت السيدة كادولدر قبيل أن ينطق صديقها بآخر كلمة: «أعرف ماذا تعني، زعيم كرينج..!! إنه شيء مخيف أن يشتري مزامير ليعزف في آذان الجميع، فالاستلقاء في الفراش ولعب الدومينو، كما يفعل اللورد كليسي المسكين لهو أفضل وأكثر خصوصية».

قال القس، وهو يرجع إلى الوراء مبتسماً، وكأنه سيفعل الشيء نفسه لو كان هو الذي هوجم: «أرى أنهم بدأوا يهاجمون صديقنا بروك في صحيفة الترمبت».

«إنهم يسخرون من مالك أراض تبعد مئة ميل من مدل مارش يتلقى أجور أراضيه، ولا ينفق عليها شيئاً».

قال السير جيمس مع تقطيبة بسيطة من جبينه تعكس غضبه: «أتمنى لو أقلع بروك عن ذلك كله».

قال السيد كادولدر: «هل سيترشح للانتخابات حقًّا..!!».

«لقد رأيت السيد كادولدر البارحة أنه عضو في حزب الأحرار، ويرفع علم بروكهام، ويدعم المعرفة المفيدة، وهذا أسوأ ما أعرف عنه، وهو يقول: إن السيد بروك يعد حزباً قويًّا جدًّا، وإن صاحب البنك السيد بولسترود هو أهم رجل عنده، لكنه يعتقد أن السيد بروك سيفشل في الانتخابات».

قال السير جيمس باهتمام: «بالضبط. لقد استطلعت الأمر لأنني لم أكن ملمًّا في سياسات مدل مارش من قبل، فاهتماماتي كانت تنصب فقط على سكان الإقليم، وما يصبو إليه بروك هو إخراج أوليفر لأنه...؟؟

ولكن هولي قال لي: لو أرادوا أن يسجنوا أحداً من حزب الأحرار لكان باكستر، فهو أحد المرشحين الذين نزلوا من السماء...!!

في أيّ حال إن هولي رجل فظ، ولقد نسي أنه كان يتحدث إلي. لقد قال لو أراد بروك أن يشتري فراءً فاخراً، لكان أمكنه الحصول عليها بأثمان أرخص مما ينفقه على الحملات الانتخابية».

قالت السيدة كادولدر معبرة بيديها عن استيائها: «لقد حذرتكم من ذلك كله... لقد قلت لهمفري منذ زمن بعيد: سيقع السيد بروك في مستنقع طيني، ولقد حدث له ذلك الآن».

قال القس: «حسناً، ربما فكر في الزواج».

«لكان هذا عبث أكثر مقتاً من التملق في السياسة».

قالت السيدة كادولدر: «يمكنه فعل ذلك في ما بعد... عندما يخرج من مستنقع الطين، وهو مصاب بالملاريا».

قال السير جيمس: «ما يهمني هو وقاره»...

«بالطبع.. أنا من يهتم أكثر بسبب ارتباطي بالعائلة، لكنه منغمس بالحياة الآن، ولا أحب أن أفكر في ما ينجم عن ذل، فهم سينبشون كل ماضيه المنسي».

قال القس: «أظن أن لا فائدة من محاولات إقناعه، إذ يوجد مزيج من التحدي والممانعة لدى بروك، هل حاولت معه في الموضوع..؟؟».

قال السير جيمس: «كلا... أشعر أن ليس من اللياقة أن أُملي عليه، لكنني تحدثت إلى لادسلو الشاب وقلت له إن بروك يستخدمك في جميع مهامه. يبدو أن لادسلو قادر على كل شيء، فرأيت أن أستمع إلى ما يقوله، وهو الآن ضد مواقف بروك، وأظن أنه سيغير من رأي بروك، فيتنازل عن الانتخابات».

قالت السيدة كادولدر هازة رأسها: «أعرف! المرشح المستقل لم يحفظ خطاباته بشكل جيد عن ظهر قلب».

قال السير جيمس: «لكن لادسلو أمره محير..!! لقد دعوناه مرتين أو ثلاث مرات ليتناول العشاء معنا كضيف لبروك، وأحد أقرباء كزابون، ولقد اعتقدنا أنه في زيارة خاطفة، لكنني أجده حديث الناس الآن في مدل مارش كمحرر لصحيفة بيونير. لقد اجتمعتما به، وهناك حكايات كثيرة تنسج حوله ككاتب غريب... أو جاسوس أجنبي... ولم لا...؟؟!!».

قال القس: «إن كزابون لا يحب ذلك...!!».

أجاب السير جيمس: «هناك دم أجنبي يجري في عروق لادسلو. أتمنى ألّا يتبنى أفكاراً متطرفة، فيتبناها بروك».

قالت السيدة كادولدر: «آه، إن لادسلو هذا شاب خطير..! بأغانيه المنمقة ولسانه المعسول، فهو كبطل عاشق متآمر من أبطال بايرون. إن هذا يخيفني، وإن توماس أكويناس لن يكون محباً له. لقد رأيت ذلك عندما أُحضرت اللوحة».

قال السير جيمس: «إنني لا أرغب في أن أفاتح السيد كزابون في الموضوع، فلديه حق التدخل أكثر مني، لكنه أمر مقلق، والمسألة على عكس ما يجب أن تكون، إنني أعجب بشخص يتباهى بأقرباء محترمين له...! وهو أحد كتاب الصحف...! انظرا لتريا... كايك، مدير صحيفة الترمبت، فقد رأيته مع هولي منذ أيام؛ إن كتاباته معبرة، لكنني أعتقد أنه رجل منحط حتى إنني تمنيت لو أنه كان من أتباع الحزب الآخر».

قال القس: «ماذا تتوقع من هذه الصحف التافهة في مدل مارش، لا أظنك تجد رجلاً في أي مكان يكتب بأسلوب راق، وباهتمام بأجر زهيد».

«بالضبط، هذا ما يزعج إذ كان على بروك أن يوظف أحد أقربائه في مثل هذا العمل، وإنني أحترم لادسلو إذ قبل بهذا العمل».

قالت السيدة كادولدر: «إنها خطيئة أكويناس. لماذا لم يستخدم من صلاحياته ليجعل لادسلو يشغل منصب ملحق، أو يرسله إلى الهند؟ فهكذا تتخلص بعض الأسر من متاعب شبانها».

قال السير جيمس مضطرباً: «لا أحد يعلم إلى أي حد سيصل الأذى مداه. وإذا لم يقل كزابون شيئاً فما عساني أن أفعل؟».

قال القس: «آه يا عزيزي سير جيمس... لا تجعلنا ننغمس في ذلك كثيراً، فما الأمر إلا مجرد سحابة ستنقشع، وبعد شهر أو شهرين ستجد بروك ولادسلو قد أصابهما الملل من بعضهما، عندها سيطير لادسلو وسيبيع بروك صحيفة البيونير، وسترجع الحال إلى ما كانت عليه».

قالت السيدة كادولدر: «هناك فرصة واحدة جيدة فقط، هي أنه لا يحب أن يرى نقوده تنفد. لو عرفت تكاليف الانتخابات، لأخفته».

«لا فائدة ترجى من إثقاله بكلمات النفقات، فلن أحدثه عن القسط في الوريد، لكنني سأصب عليه إناء مملوءًا من علقات الدم، فما نكرهه نحن البخلاء أن نرى ستة بنسات تؤخذ منا».

قال السير جيمس: «إنه يرى ماضيه يحرث دفعة واحدة ضده..!! وإنه حقًّا لمؤلم أن أرى ذلك أمام ناظري، وإنني لأعتقد أن أفضل شيء يقوم به المرء هو أن يقدم أفضل ما لديه لأرضه خصوصًا ومستأجريها خصوصاً في الأوقات العصيبة».

قال القس: «ربما صحيفة الترمبت تحثه على التغيير، وربما أضحى الأمر خيراً. عندها سأكون مسروراً، لا بد لي من أن أسمع تذمراً أقل إذا ما دفعت ضريبة الكنيسة، وما كنت أعرف ماذا أفعل لو لم يكن لي سبيل عيش في تبتن».

قال السير جيمس: «أريد له رجلاً خبيراً، فإنني أريده أن يستأجر السيد جارث مرة ثانية. لقد أقال جارث منذ اثنتي عشرة سنة، ومنذ ذلك الحين أصبح كل شيء خطأ. إنني أفكر في تعيين السيد جارث مديراً لأعمالي، وقد وضع خطة هائلة لأبنيتي ولا سيما أن لوف كود لا يرقى للمستوى المطلوب، لكن جارث لن يتعهد إدارة تبتن ثانية ما لم يترك بروك أمرها كليًّا له».

قال القس: «له الحق في ذلك. إن جارث رجل مستقل، وعريق. حين كان يوماً يقدم لي تقييماته قال لي رأيًا سديداً: إن رجال الدين لا يفقهون بالأعمال الحرة، وهم يؤذون عندما يتطفلون، لكنه قال لي ذلك بهدوء واحترام، وكأنه كان يتحدث إلي حول بحارين، لو ترك بروك أمر إدارة تبتن له لجعلها أبرشية مختلفة، عما هي عليه الآن. أتمنى أن يتحقق ذلك بمساعدة صحيفة ترمبت».

قال السير جيمس: «لو ظلت دورثيا إلى جانب عمها لكانت هناك فرصة. ربما مارست بعض سلطاتها عليه في وقتها، ولا سيما أنها كانت دائماً غير متساهلة حول الأراضي. لقد

كانت لديها أفكارٌ بناءة جدًّا حول هذه القضايا، لكن كزابون قد استحوذ عليها كليًّا، وسيليا تشكو كثيراً إذ قلما نتناول العشاء معها منذ تلك النوبة». أنهى سير جيمس كلامه، وقد ارتسمت على وجهه نظرة عطف واستياء في آن، وشنجت السيدة كادولدر كتفيها، وكأنها تقول إنها ما رأت شيئاً جديداً في هذا الأمر.

«يا لكزابون المسكين... لقد كانت نوبة سيئة للغاية. لقد بدا محطماً عندما رأيته منذ أيام عند رئيس الشمامسة».

تابع السير جيمس، وهو لا يرغب في الحديث عن النوبات: «في واقع الأمر.. إن بروك لا يتعمد الإساءة لمستأجري أراضيه أو أي أحد آخر، لكن له طريقته في إعطاء الأسعار وتقليص النفقات».

قالت السيدة كادولدر: «هذه رحمة..!! إن ذلك يساعده على أن يجد نفسه في صباح أحد الأيام لا يدرك أفكاره الخاصة، ولكن يعي ما في جيبه».

«لا أومن برجل جيبه مليء بسبب بخله على أرضه، ربما يظلم الشح والبخل كما تظلم الفضائل الأخرى: فلن يغتني الرجل إذا ما أبقى خنازيره نحيلة»، قالت هذا السيدة كادولدر التي نهضت لتنظر من النافذة: «ما عليك إلا أن تتحدث حول سياسي مستقل حتى تراه أمامك».

قال زوجها: «مَن؟ بروك..؟!».

«نعم أنت ستثقل عليه بما كتب بصحيفة الترمبت يا همفري، أنا سأصب علقات الدم عليه، وأنت يا سير جيمس ماذا ستفعل..؟؟».

«في حقيقة الأمر.. أنا لا أرغب في أن أبدأ المواجهة مع بروك، إذ لا يشوب الارتياح علاقتنا المتبادلة. أتمنى أن يتصرف الناس كما يتصرف النبلاء». هذا ما قاله البارون النبيل معتقداً أن هذه الطريقة ناجعة في العلاقات الاجتماعية.

قال بروك مصافحاً الجميع: «ها أنتم جميعاً هنا. كنت ذاهباً يا جتم، وإنه شيء لطيف أن أرى الجميع، ما رأيكم بالأوضاع؟ يمر الوقت سريعاً، حقاً صدق لافيت عندما قال: لقد انقضى قرن، وكأنه البارحة، وعلى الضفة الأخرى يعيش أناس متقدمون علينا بقرن من الزمن».

قال القس آخذاً بيده الصحيفة: «نعم، هنا صحيفة الترمبت تتهمك بالتخلف، هل قرأت ذلك؟».

قال السيد بروك واضعاً قفازيه في قبعته، وبسرعة مثبتاً نظارتيه أمام عينيه: «آه، ماذا؟... كلا، كلا». لكن السيد كادولدر أبقى الصحيفتين في يده ليقول مبتسماً: «اُنظر هنا.. إنهم يتحدثون عن مالك أرض لا يبعد عن مدل مارش سوى مئة ميل، ويتلقى أجور أرضه، ويقولون: إنه أكثر رجل متخلف في الإقليم. أعتقد أنك علمتهم هذه الكلمة في صحيفة البيونير».

قالِ السيد بروك بابتهاج يبقيه تجاهله، وعدم اكتراثه في الأمور: «آه، ذاك كايك... إنه رجل أميّ... متخلف... مدمر... إنهم يريدون أن يصوروني مدمراً».

«أظنه يعرف معنى الكلمة... ها هنا لكمة أو لكمتان، إذا أردنا أن نصف رجلاً متخلفاً بكل ما تحمله الكلمة من سوء، يجب أن نقول إنه رجل يدّعي أنه مصلح لدستورنا، بينما تفسد جميع مسؤولياته، فالمحسن المحب للإنسانية الذي لا يحتمل أخرق يشنق، لا يأبه لخمسة من مستأجري الأراضي يتضورون جوعاً. رجل يصرخ ضد الفساد ويجمع أجور أراضيه من الفلاحين المستأجرين، يزأر حتى يحمر وجهه ضد الإدارات المحلية العفنة، ولا يبالي إذا ما كان كل حقل له بوابة عفنة. رجل قلبه مفتوح لليدس ومانشستر، هو دون شك الذي يحدد عدد الذين يشترون مقاعدهم بمالهم الخاص، وما يتمنع عن إعطائه هو جزء من أراضيه كي يساعد به المستأجرين ليشتروا بعض السلع، أو كي يصلحوا أبواب أكواخهم لتقيهم برد الشتاء،أو يجعلون أكواخهم كبيوت الإيرلنديين الريفية. ولكننا جميعًا نعرف معنى كلمة المحسن، هو رجل تزداد أعماله الخيرية باطراد، أما ما تبقى هو حول ما يمكن أن يفعله المشرع الخبير». أنهى القس كلامه، ثم وضع الصحيفة على الطاولة، وشبك يديه خلف رأسه، وهو ينظر للسيد بروك بروح حيادية.

قال السيد بروك متناولاً الصحيفة ومحاولاً امتصاص الصدمة كما فعل جاره، لكنه احمر مبتسماً بانزعاج: «هيا... إن ذاك كله حسن. ذلك يظل يزأر حتى يحمر وجهه ضد الإدارات العفنة، إنني لم ألقِ خطاباً حول الإدارات المحلية العفنة في حياتي، وبالنسبة إلى الزئير حتى يحمر وجهي ذلك ما لم أفعله، وهؤلاء الرجال لا يعرفون معنى السخرية الجيدة. هل تعرف السخرية...؟؟ يجب أن تكون حقيقية إلى درجة محددة، إنني أتذكر أنهم قالوا في إدنبرة: إنها يجب أن تكون حقيقية إلى درجة محددة».

قال السير جيمس محاولاً إثارة الموضوع بحذر: «حسناً إن ذلك لهجوم حول البوابات، لقد شكا لي داغلي منذ أيام أن ليس لديه بوابة جيدة لمزرعته. لقد صمم جارث نموذجاً جديداً للبوابات، وإنني أتمنى لو تجربها إذ يجب على المرء أن يستخدم خشبه في هذه الطريقة».

قال السيد بروك، وهو ينظر في الصحيفة: «إنك تريد مزارع فاتنة، يا جتم. إنها هواياتك، لذلك لا تبالِ بالتكاليف».

قالت السيدة كادولدر: «كنت أعتقد أن أكثر هواية مكلفة هي الترشح للانتخابات البرلمانية. إنهم يقولون إن المرشح الأخير من مدل مارش جايلز - ألم يكن اسمه؟ - قد دفع عشرة آلاف جنيه، ولم ينجح لأنه لم يقدم الرشوة الكافية. كم هي صورة مؤلمة لرجل».

قال القس ضاحكاً: «يقول أحدهم إن الرشوة لا تكاد تذكر في إيست رتفورد مقارنة بمدل مارش».

قال السيد بروك: «كلا، كلا، لا شيء من هذا القبيل..!! إن المحافظين يدفعون الرشوة، فهولي... يرشي بتعامله مع الآخرين وتملقه لهم، إنهم يجلبون المصوتين سكارى إلى صناديق الاقتراع، لكننا سنتغلب على ذلك في المستقبل، هل تعرف؟ إن مدل مارش متخلفة قليلاً، إنني أعترف أن الأحرار متخلفون قليلاً، لكننا سنثقفهم، ونهيئهم، فأفضل الناس إلى جانبنا».

أشار السير جيمس: «هولي يقول: معك رجال سيؤذونك، هو يقول صاحب البنك بولسترود سيؤذيك».

تدخلت السيدة كادولدر: «وذلك سيحدث عندما تطعن.. إن فساد نصف البيوض يعني كراهية رئيس لجنتك، يا للسماء.. فكّر، من الذي يجب طعنه بسبب الآراء الخاطئة. إنني أتذكر قصة رجل تظاهروا بترئيسه، ثم طمروه بالتراب عن قصد».

قال القس: «إن الطعن لا شيء أمام البحث عن ثقوب في معطف أحد ما.. إنني أعترف بأن ما أخشاه هو أننا إذا ما عملنا في أيام الحملة الانتخابية، لخشيت محاسبتهم لي على أيام صيد السمك. أقسم إن الحقيقة هي أقسى ضربة يمكن للمرء أن يرجم بها».

قال السير جيمس: «الحقيقة هي، أن الرجل إذا ما دخل في الحياة العامة، فلا بد من أن يكون مهيأ لعواقبها. إذ يجب أن يقي نفسه من تشويه السمعة والافتراءات».

قال السيد بروك: «يا عزيزي جتم إن هذا كله حسن جدًّا هل تعرف؟ ولكن كيف تقي نفسك من الافتراءات وتشويه السمعة؟ يجب أن تقرأ التاريخ، اُنظر إلى اضطهاد النفي والشهادة وأشياء كهذه، كلها تحصل لأفضل الرجال، ولكن ماذا لدى هوراس؟».

قال السير جيمس بانفعال أكثر من المعتاد: «بالضبط. ما أعني الوقاية من الافتراء وتشويه السمعة هو أن تكون قادراً على الإشارة إلى الحقيقة كنقيض».

«وليس من الشهادة أن يدفع المرء ثمن ما جلب لنفسه». قالت السيدة كادولدر، لكنه يثبت أن مضايقة السير جيمس هي التي أثارت حفيظة السيد بروك.

قال وهو ينهض آخذاً قبعته، ومتكئاً على عصاه: «حسناً أنت تعرف يا جتم، لكل منا نظامه المختلف، فجميعكم يحب الإنفاق على مزارعه، وأنا لا أريد أن أبرهن أن نظامي جيد في ظلّ جميع الظروف».

قال السير جيمس: «يجب أن يجرى تقييم من وقت إلى آخر. المراجعة جيدة من حين إلى آخر، ولكن أحب إجراء التقييم العادل، ماذا تقول يا كادولدر؟».

«أنا أؤيدك.. لو كنت مكان السيد بروك لقطعت الطريق أمام صحيفة الترمبت فوراً، وطلبت من جارث أن يقدم لي تقييماً جديداً للمزارع، ولأعطيته موافقتي على وضع بوابات جديدة، والقيام بإصلاحات أخرى. هذا رأيي في الوضع السياسي». هذا ما قاله القس واضعاً إبهاميه تحت إبطيه، وهو يضحك إلى جانب السيد بروك. «إن القيام بهذا العمل لهو نوع من المراءاة». – قال بروك – «لكنني أريد أن تسمي لي مالك أرض يتعب مستأجري أراضيه بسبب تأخرهم عن دفع الأجور أقل ما أفعل. إنني أبقي المستأجرين القدماء حيث هم يبقوا، إنني متساهل جدًّا، دعني أقل لك... متساهل جدًّا، وأنا لدي آرائي وبموجبها أتخذ مواقفي، فالرجل الذي يفعل ذلك يتهم بغرابة الأطوار، وعدم الثبات، والتماسك وشيء من هذا القبيل. عندما أغير طريقة تصرفاتي فإنني سأتبع آرائي». تذكر السيد بروك بعد ذلك أن هناك طرداً نسي إرساله من كرينج لذلك حياهم مسرعاً، ثم انصرف.

قال السير جيمس: «لم أشأ أن أكون صريحاً مع السيد بروك، ولكن بالنسبة إلى المستأجرين القدماء ففي واقع الأمر لم يأت مستأجر جديد يستأجر الأراضي، وهي على وضعها الحالي».

قال القس: «برأيي أنه سيستعيد وعيه في الوقت المناسب، ولكن كنت تجرينه إلى جهة يا إلينور، ونحن نجره إلى جهة معاكسة؛ أردتِ إخافته من إنفاق النقود، ونحن أردنا إخافته من عدم إنفاقه لها. من الأفضل أن نتركه يجرب نفسه كي يكون شعبيًّا، ثم ليرى نفسه كمالك للأرض عشرة في طريقه. أظن أن صحيفة البيونير، أو لادسلو، أو حديث بروك لأهالي مدل مارش كلها تعادل وزن قشتين، ولكن ما هو مهم هو أن يكون أصحاب الأبرشيات في وضع مريح».

قالت كادولدر: «عفواً، كلاكما في الطريق الخطأ، كان عليكما أن تثبتا له أنه يخسر النقود بسبب سوء الإدارة عندها كان علينا أن نسحبه معاً. إذا ما جعلتموه يمتطي ظهر السياسة فإنني أحذركما من العواقب، إذ من السهل على المرء أن يركب أرجوحة في بيته ثم يسميها أفكاراً.

الفصل التاسع والثلاثون

إذا تفعل ما أفعل،

وترى الفضيلة في امرأة..

وتجرؤ على حبها وتقول ذلك...

وتنسى هذا وذاك...

وإذا كنت تخفي هذا الحب...

من دنس الرجال الذين...

لا يهبون يقينهم فيه..

وإن فعلوا فهم يسخرون منه...

عندها تكون قد فعلت شيئاً أكثر شجاعة...

من تلك الأفعال التي قام بها أولئك الجديرون،

لذلك سينبع شيء أكثر شجاعة...

من شأنه أن يبقي ذلك الحب خفياً.

دكتور دون

لم يكن تفكير السير جيمس مثمراً، وذلك لضعف حيلته... لكن رغبته العارمة في التأثير على السيد بروك جعلته يفكر جديًّا في استخدام تأثير دورثيا على عمها، فوضع خطة صغيرة متذرِّعاً بعدم رغبة سيليا كي يحضر دورثيا إلى منزله، ثم يدعها في كرينج بعد أن يحيطها علماً بتفاصيل الوضع الذي يتعلق بإدارة الأراضي.

هذا ما حدث يوماً حوالى الساعة الرابعة بينما كان السيد بروك ولادسلو يجلسان في المكتبة فتح الباب، وأعلن عن حضور السيدة كزابون. قبل دقيقة كان ويل يغرق في ملل عميق، وقد أجبر على مساعدة السيد بروك في ترتيب وثائقه، التي تتعلق بشنق سارقي الأغنام. هكذا كان تفكير ويل متقداً كحال عقولنا عندما تكون في أقصى حالات نشاطها؛ إذ كان يرسم لموطئ قدم في مدل مارش، ويسعى لتقصير إقامته في كرينج. بينما كانت تلك الأفكار مسرعة في خاطره، تذكر ملحمة سرقة الخراف التي كتبها هوميروس. عندما أعلن قدوم دورثيا انتفض، وكأن صعقة كهربائية أصابته، وشعر بخدر أصاب أطراف أصابعه، وكل من كان ينظر إليه كان لا بد من أن يرى تغير لون وجهه، وتقاطيعه، وتغيراً في إشعاع نظراته، ولاعتقد أن لمسة سحر أصابت كل ركن في جسده. وحقاً هذا ما قد حصل لأن السحر المؤثر له طبيعة مبهمة، فمن سيقيس مهارة هذه اللمسات التي تعبر عن نوع الروح والجسد، والتي تجعل عاطفة الرجل تجاه امرأة تختلف عنها تجاه الأخرى، كما تجعل متعة النظر إشراقة الصباح على الوادي وقمة الجبل الأبيض تختلف عن متعة النظر إلى الفوانيس الصينية والألواح الزجاجية. كذلك كان ويل يختزن كثيراً من الميزات الساحرة، فوتر الكمان الذي رسم بمهارة إلى جانبه يمكن له أن يغير بضربة واحدة العالم من حوله، ووجهة نظره بسرعة كما يتغير مزاجه. لقد أحيا قدوم دورثيا ذاك الصباح.

قال بروك مقبلاً ابنة أخيه: «حسناً يا عزيزتي إن هذا لمسر الآن، لا... حسبك تركت كزابون بين كتبه، أليس كذلك؟ يجب عليك كامرأة ألا تتعلمي أكثر مما ينبغي».

قالت دورثيا، وهي تصافح ويل بسرور دون أن تحييه بحرارة، لكنها تابعت مجيبة عمها: «لا خوف من ذلك يا عمي. إنني بطيئة جدًّا. عندما أكون منشغلة في قراءة الكتب أكون متقاعسة بأفكاري. لقد وجدت التعلم أصعب بكثير من رسم المخططات للبيوت الريفية». جلست إلى جانب عمها مقابل ويل، كما بدا عليها أن شيئاً يشغل فكرها، مما جعلها غير مكترثة به، فأصيب بخيبة أمل شديدة، وكأنه تصور دافع قدومها يتعلق به.

«لماذا يا عزيزتي...؟؟ لقد كانت موهبتك رسم المخططات، ولكن كان من الحسن أن

تتوقفي عن ذلك لفترة وجيزة، فالهوايات تميل لملازمتنا، وكما تعلمين أنه ليس من الجيد أن نلتزم بها دائماً، ويجب علينا أن نمسك برسنها دائماً. لم أفسح لنفسي أن تستحوذ علي موهبة، فقد كنت دائماً أتحكم بها، هذا ما أقوله للادسلو، إننا نشترك في هذا الجانب هل تعرفين إنه يحب أن يجرب كل شيء. إننا نعمل على العقوبات الرئيسية، إننا سننجز الكثير».

قالت دورثيا متوجهة مباشرة: «نعم، قال لي السير جيمس إنه يأمل في رؤية تغير كبير في إدارتك للأراضي قريباً جدًّا، وإنك تفكر في إجراء تقييم للأراضي وإصلاحها وتحسين البيوت الريفية، كي تبدو تبتن مكاناً مختلفاً تماماً، آه كم أنا سعيدة». راحت مصفقة بكفيها كما لو كانت طفلة إذ غاب عنها هذا الإحساس بطفولتها منذ زواجها.. «لو بقيت في هذا البيت حتى الآن لتابعت ركوبي للخيل، وذهابي معك لمشاهدة كل ذلك. كما قال سير جيمس لي إنك ستوظف السيد جارث الذي امتدح مخططاتي للبيوت الريفية».

قال السيد بروك، وقد تلون وجهه قليلاً: «إن جتم متسرع قليلاً يا عزيزتي.. متسرعاً قليلاً كما تعلمين، لم أقل قط إنني سأفعل أي شيء من ذاك القبيل، ولم أقل إنني لن أفعل ذلك».

قالت دورثيا بصوت واضح لا تردد فيه يشبه صوت مغن شاب ينشد أغنية: «هو فقط يشعر أنه واثق بأنك ستفعل ذلك، لأنك تنوي دخول البرلمان كعضو يهتم بتحسين ظروف حياة الناس، وأول شيء يحتاج إلى التحسين هو حالة الأرض والعاملين عليها. فكر في كيت داونز الذي يعيش مع زوجته وسبعة أطفال في بيت يتألف من غرفة معيشة وغرفة نوم واحدة لا تكاد تكون أكبر من هذه الطاولة، وفكر في عائلة داغلي في منزلهم الريفي حيث يعيشون في المطبخ الخلفي، ويتركون الغرف الأخرى للجرذان. إن هذه الأسباب تجعلني أكره الأوضاع هنا، وتجعلك تظنني غبية يا عمي العزيز. كنت أرجع من القرية محملة بالأوساخ والقباحة القذرة، وكأنها آلام أصابتني، فأرى اللوحات في غرفة المعيشة كمحاولة شريرة لإيجاد متعة في شيء زائف... في حين أننا لا نبالي بالواقع المرير الذي يعيشه جيراننا. أظن أن ليس من حقنا أن نجري تغيرات نحو الخير، قبل أن نغير الشر الكامن في نفوسنا». لقد استجمعت دورثيا قواها العاطفية، ونسيت كل شيء سوى تدفق مشاعرها دون تمحيص، وذلك ما اعتادت عليه من صراع دائم بين القوة والخوف، ولكن لم يظهر لها منذ زواجها.

صاحب إعجاب ويل لبرهة من الزمن إحساس بارد في التحكم، فمن النادر أن يشعر الرجل أن من الخجل ألّا يستطيع أن يحب امرأة حبًّا جمًّا عندما يرى فيها عظمة.. فقد أوجدته الطبيعة للرجال، لكنها تحوله في بعض الأحيان إلى مشاهد مأسوية، ولا سيما

عندما تنفذ مآربها؛ كما هي الحال مع السيد بروك الذي سيطرت على وعيه الرجولي حالة من التمتمة أمام فصاحة ابنة أخيه، إذ لم يجد طريقة يعبر بها عن نفسه سوى تغيير جلسته، وتثبيت نظارتيه، وتقليب الأوراق التي كانت أمامه، ثم أخيراً قال:

«لك بعض الحق في ما تقولين يا عزيزتي، لك بعض الحق، ولكن ليس كل الحق، آه يا لادسلو أنت وأنا لا نحب أن يجد الآخرون أخطاء في صورنا وتماثيلنا، والسيدات الشابات عادة يكن متحمسات قليلاً، ويرين الأشياء من جانب واحد فقط، الفن الراقي والشعر... وأشياء كهذه، ما يرفع الأمة. إنك تعرفين قليلاً من اللاتينية الآن، ولكن ماذا؟»، وجه الكلمتين الأخيرتين للذي دخل ليخبره أن مربي الحيوانات قد وجد أحد أبناء داغلي يحمل أرنباً قتل للتو. «نعم إنني قادم، أنا قادم. سأمنعه بسهولة». هذا ما قاله السيد بروك لدورثيا، وهو يخرج مبتهجاً.

قالت دورثيا لويل فور خروج عمها: «أتمنى أن يكون رأيك إيجابيًّا حول ما يريد السير جيمس».

قال ويل، وهو ينهض ويمسك بظهر كرسيه بعد أن نفد صبره: «نعم، إنه كذلك، سمعتك تتحدثين حوله، لن أنسى ما قلته، ولكن هل يمكنك أن تفكري في شيء آخر في هذه اللحظة. ربما لن تسمح لي فرصة كي أتحدث إليك حول ما في ذهني».

قالت دورثيا بقلق: «أرجوك أن تخبرني ما الأمر»، وقد نهضت هي الأخرى لتذهب إلى النافذة التي أطل منها الكلب مونك محركاً ذنبه. سندت ظهرها إلى إطار النافذة، ووضعت يدها على رأس الكلب، على الرغم من أنها لم تحبذ لمس الحيوانات الأليفة فإنها كانت تداعب شعور الكلاب، وتعمد إلى إبعادها برفق. تتبعها ويل بعينيه، وقال: «أظنك تعرفين أن السيد كزابون قد منعني من الذهاب إلى منزله».

قالت دورثيا بعد أن صمتت للحظة ومن الواضح أن مشاعرها قد اهتزت: «كلا لم أعلم ذلك، إنني آسفة جدًّا، جدًّا لهذا». أضافت بأسى، فقد كانت تفكر في ما يعرفه ويل... الحوار الذي دار بينها وبين كزابون في الظلام، وقد ابتليت بيأس عميق من قدرتها على التأثير في تصرفات كزابون، لكن تعبير الأسف الذي ظهر على وجهها أقنع ويل أن تصرفات كزابون لم تكن موجهة إليه، وأن دورثيا لا يمكن أن يكون قد انعكس عليها حقد وغيرة كزابون، فأحس بمزيج من الفرحة والغيظ. الفرحة لأنه يستطيع أن يعشش في ذهنها دون شك أو قيد، أما الغيظ فلأن علاقته بها ضعيفة، ولم تتبلور إلى حد كاف إذ لم تكن متينة، وكان يعامل بكرم

لا يشوبه تردد مما لا يشبع غروره وكبرياءه، لكن خشيته من أي تغير يطرأ على دورثيا كانت أقوى من عدم رضاه، فبدأ يتحدث بنبرة توضيحية: «حجة السيد كزابون هو أنه غير راض على إقامتي هنا... إذ يعتبرها غير لائقة بي كابن خالة له. لقد قلت له: إنني لا أستطيع أن أتنازل في هذا الأمر. إنه لمن المؤلم بالنسبة إليّ أن يعرقل مسار حياتي آراء مجحفة أعتبرها تافهة، يمكن للمنة أن تتسع حتى تغدو وشم عبودية نوشم بها، ونحن صغار عندما لا نعي معناها. ما كنت لأقبل بالمهمة ما لم أعتبرها مفيدة ومشرفة، فأنا لا أربط منزلة العائلة بأي أمر آخر». شعرت دورثيا بالخزي لأنها تعرف أن زوجها على خطأ لأسباب أكثر من تلك التي أشار إليها ويل.

قالت برجفة ظهرت على صوتها لم تكن مألوفة: «من الأفضل لنا ألّا نتحدث في الأمر». فقال ويل، وكأنه طفل يشكو: «بما أنك وكزابون اختلفتما، هل تنوين البقاء..؟؟». «لقد كانت تنظر إلى العشب بتأمل حزين: «نعم، ولكن لن يكون باستطاعتي رؤيتك بعد الآن».

قالت دورثيا محدقة به: «كلا، لكنني سأسمع أخبارك. سأعرف ماذا تفعل من عمي».

قال ويل: «لكنني لن أعرف شيئاً عنك...».

«لن يخبرني أحد عنك».

قالت دورثيا، وقد ارتسمت ابتسامة على شفتيها أخفت حزنها: «إن حياتي بسيطة جدًّا. إنني دائماً في لُوِيك».

قال ويل بطيش: «إنه سجن مخيف».

قالت دورثيا: «كلا، لا تظن ذلك. ليس لدي طموح». لم يقل شيئاً لكنها ردت على التغير الذي طرأ على تعابير وجهه: «أعني بالنسبة إليّ، سوى حبي لعدم أخذي أكثر مما أستحق دون أن أقدم شيئاً للآخرين، ولكن عندي معتقدي، وهو يريحني».

«ما هو؟؟»، قال ويل وقد أصابته الغيرة من ذلك المعتقد، ذلك عندما نرغب في ما هو خير تام، حتى عندما لا نعي تماماً ماهيته، ولا نستطيع فعل ما نصبو إليه، نكون جزءاً من القوة الإلهية ضد الشر، فننشر النور ونكافح لأجل تبديد الظلام».

«إن هذا تصوف جميل. إنه...».

قالت دورثيا معبرة عن رفضها بيديها: «أرجوك... لا تدعُهُ بأي اسم، ستقول إنه فارسي، أو شيء آخر يرتبط بالجغرافيا.. إنه يشكل حياتي، وقد اكتشفته، ولا أستطيع التخلي عنه، كنت دائماً أتبع ديني منذ أن كنت طفلة. لقد كنت أصلي كثيراً أما الآن فنادراً ما أصلي. أحاول ألّا يكون لدي رغبات تخصني فقط لأنها ربما تكون غير مفيدة للآخرين، ولأن لدي منها الكثير مسبقاً. لقد أخبرتك، وربما كنت تعرف، كيف تمر أيامي في لُوِيك».

قال ويل بتعجب وحيرة ونظرا إلى بعضهما كطفلين مولعين بعضهما ببعض يتحدثان عن الطيور بسرية: «بارك الله فيك إذ أخبرتني».

قالت دورثيا: «ما هو دينك؟ لا أعني ما تعرفه عن الدين، ولكن أكثر معتقد يساعدك؟».

قال ويل: «أن أحب ما هو جيد وجميل عندما أراه، لكنني متمرد، فلا أنصاع إلى ما لا أحب كما تفعلين أنت».

قالت دورثيا مبتسمة: «ولكن إذا كنت تحب ما هو خير، فذلك يحمل المعنى نفسه».

قال ويل: «إنك بارعة..».

قالت دورثيا لاهية: «نعم... السيد كزابون دائماً يقول لي إنني بارعة أكثر مما ينبغي، وأنا لا أشعر أنني بارعة. ولكن كم سيغيب عمي، يجب أن أذهب وأبحث عنه. حقًّا يجب أن أذهب، فهي تنتظرني».

تطوع ويل أن يخبر السيد بروك الذي حضر، وقال إنه سيذهب مع دورثيا بعربتها إلى أسرة داغلي ليتحدث إلى داغلي حول جنحة ابنه، الذي قبض عليه وهو يحمل أرنباً. أعادت دورثيا الحديث حول الأراضي، لكن السيد بروك لم يكترث، فأبقى الحوار خاضعًا لسيطرته. « أين جتم الآن»، أجاب: «إنه يبحث عن زلات يا عزيزتي، ولكن يجب أن أبقي على لعبتي إذا لم تكن لأجل جتم، وهو لا يستطيع أن يقول إن تلك النفقات هي لأجل المستأجرين، وكما تعلمين تمس مشاعري قليلاً. إن سرقة الصيد الآن، إذا نظرت إليها غالباً ما فكرت في متابعة الأمر منذ زمن بعيد: فلافيل، الواعظ فلافيل استدعي لأنه قتل أرنباً بريًّا، مر في طريقه حين كان يمشي هو وزوجته. لقد كان سريعاً جدًّا... فضربه على رقبته».

قالت دورثيا: «أظن ذلك كان وحشيًّا جدًّا».

«حسناً إن الأمر يبدو لي محزناً بعض الشيء على طريقة الواعظ الديني، وقال جونسون: يمكنك أن تحكم على أفعال المرائي، وأقسم أن فلافيل يبدو رجلاً في مستوى راق، ويبدو كرجل مسيحي حقًّا، والشاعر يانغ... أظنك تعرفين يانغ. حسناً، لقد توسل فلافيل بحذائه الأسود المطاطي مدعياً أن الرب أرسل له ولزوجته عشاءً، وأنه كان له الحق بقتله، على الرغم من أنه لم يكن صياداً ماهراً أمام الري كما كان نمرود. إنني أؤكد لك أن الأمر كان مضحكاً، فكان في إمكان فيدلينغ أن يكتب عنه، أو يمكن لسكوت أن يفعل ذلك، ولكن حقًّا عندما أفكر في الأمر أفضّل أن يتناول ذاك الرجل قطعة من الأرنب ويشكر الرب عليها. إنها مسألة إجحاف، إجحاف بحق القانون، حول العصا والأحذية المطاطية وأشياء أخرى. في أيّ حال إن الأمر لم يكن مقنعاً، والقانون هو القانون. ولكن أجبرت جون على التزام الهدوء، وأنهيت القضية. لكنني أشك لو أن جتم لم يكن أكثر قسوة، والآن ينازلني، وكأنني أقسى رجل في الإقليم. ها قد وصلنا إلى بيت داغلي».

نزل السيد بروك عند بوابة المزرعة وتابعت دورثيا مسيرها في العربة. إنه لمن العجب أن تبدو الأشياء أكثر قبحاً لنا عندما نشك في مسؤوليتنا تجاهها، فحتى صورتنا في المرآة تبدو مختلفة لنا بعد سماعنا لملاحظات صريحة، ومن جهة أخرى أنه من المدهش أن يتقبل ضميرنا انتهاكاتنا لأناس لا يشكون وليس لديهم أحد يشكو بالنيابة عنهم. لم يبدُ منزل داغلي لسيد بروك كما هو اليوم، ولا سيما أن صداعاً أصابه بسبب الأخبار التي كشفت عنها صحيفة الترميت، ونقلها السير جيمس.

حقًّا يمكن لأي مراقب أن يبتهج لرؤيته هذا المنزل الذي يسمى فريمانز أند، وهو تحت تأثير الفن الجميل الذي يحول صعوبات حياة الناس إلى لوحة فنية رائعة؛ فالمنزل القديم له نوافذ بارزة من فوقها سقف أحمر قاتم، ومدخنتان تغطيهما نباتات متسلقة، وكانت الشرفة الأمامية ممتلئة بأكوام من العيدان، وكانت النوافذ تسدها ألواح خشبية رمادية أكلتها الديدان، ونمت بالقرب منها نباتات ياسمين على شكل غير منظم، وغطى جدار الحديقة العفن نبات الخطمي الشوكي الوردي اللون، فكان المنظر مادة غنية بالألوان الممتزجة.

كما كانت هناك عنزة هرمة، احتفظ بها بلا شك لأسباب تتعلق بالخرافات، وكانت مستلقية عند باب المطبخ الخلفي. منظر القش فوق حظيرة الأبقار المكسو بالطحلب، وأبواب مخازن الحبوب الرمادية المكسرة، ومنظر العاملين الفقراء في ثيابهم الرثة، الذين انتهوا لتوّهم من تخزين الذرة لتكون جاهزة للقشر، ومنظر البقر الهزيل، الذي قيد ليكون جاهزاً

للحلب مع منظر نصف الحظيرة البني اللون الذي ترك فارغاً، ومنظر الخنازير مع البط الأبيض، وهي تتجول في فناء مهمل تبدو وكأنما أرهقت من بقايا طعام رديء، منظر كل هذه الأشياء مجتمعة في ضوء السماء ظهرت فيها غيوم كقطع الرخام يمكن لها أن تكون مادة للوحة غاية في الجمال، تحرك فينا أحاسيس غير تلك التي يحركها الاكتئاب الذي يأتي من الاهتمام في الزراعة، وينقصه الرأسمال الزراعي كما يظهر جليًّا في صحف تلك الحقبة باستمرار. لكن المشاكل المرتبطة بهذا الأمر ظهرت بقوة في ذهن السيد بروك، فأفسدت عليه جمال هذا المنظر. كان السيد جاغلي يشكل جزءاً من هذا المنظر الطبيعي، وهو يحمل شوكته الزراعية، ويرتدي قبعة حلب البقر القديمة جدًّا، والمسطحة من الأمام، كما كان معطفه بشقوقه أفضل ما يمتلكه، وما كان ليرتديه في مناسبة هذا اليوم من أيام العمل لو لم يكن ذاهباً للتسوق، وعاد متأخراً أكثر من عادته لأنه أغدق على نفسه غداء تناوله من على طاولة شعبية في حانة بلو بيل. أما كيف وقع في هذا التبذير، فربما يصبح مادة لتساؤله، وتعجبه في صباح اليوم التالي، ولكن قبل العشاء حدث شيء ما يتعلق بحالة البلاد استدعى توقفاً قصيراً في عمل الحصاد قبل أن تقتطع فار دبس، فالقصص حول الملك الجديد والفواتير الكثيرة على الجدران، تبدو أنها حذرت من كسل قليل. لقد كانت حقيقة حول مدل مارش، وكانت تعتبر أن اللحم الجيد يتطلب شراباً جيداً، ما فسره داغلي بطاولة يملؤها شراب الجعة يتبعها شراب الروم والماء. لم تكن هذه الخمور أصلية إذ لم تؤثر في داغلي سوى أنها أثارت سخطه، فجعلت لسانه طليقاً أكثر من المعتاد، فأقحم في الحوار السياسي، منبهاً لمعوقات طرق زراعته المحافظة التي تتألف من كل ما هو سيئ، وأي تغيير سيكون سيئاً. لقد كان محمر الوجه، وكان يحدق بعينين غاضبتين، وظل واقفاً يمسك بشوكته الزراعية، بينما اقترب مالك الأرض متبختراً في مشيته واضعاً يده في جيب سرواله، وملوحاً بعصاه الرفيعة.

قال السيد بروك، وهو مدرك بوجوب كونه لطيفاً حول مسألة الولد: «داغلي أيها الرجل الطيب».

«هل أنا رجل طيب..؟؟ شكراً يا سيدي، شكراً»، قال داغلي هذا بسخرية نزقة جعلت كلب الأغنام يتحرك من مكانه ويحرك أذنيه، ولكن عندما رأى الكلب مونك يدخل الفناء عاد إلى مكانه ثانية واتخذ لنفسه وضعية المراقب. «إنني مسرور أن أسمع أنني رجل طيب». لقد أدرك السيد بروك أن ذلك اليوم كان يوم التسوق، وأن مستأجره المهم ربما كان يتناول

الغداء، ولكن لم يجد سبباً يمنعه من متابعة الأمر ولا سيما أنه اتخذ الحيطة، فسيعيد ما يقوله للسيدة داغلي: «ابنك الصغير جاكوب أمسك به، وقد قتل أرنباً، يا داغلي لقد طلبت من جونسون أن يحبسه في اصطبل فارغ لساعة أو ساعتين فقط لإخافته، ولكن سيجلب إلى منزله قبل حلول الظلام، وأنت ستهتم به، أليس كذلك؟ وستؤنبه بقسوة أليس كذلك؟».

«كلا لن أفعل، ومن الأفضل لي أن أموت على أن أجلد أبني إرضاء لك، أو لأحد آخر حتى ولو كنت مكان عشرين مالك أرض، فذلك أمر سيئ». كان صوت داغلي مرتفعاً كفايةً كي يجذب زوجته من الباب الخلفي للمطبخ... المدخل الذي قلما استخدم، ولا يفتح وقت المناخ السيئ، ثم قال السيد بروك مهدئاً: «حسناً، حسناً حسناً سأتحدث إلى زوجتك.. لم أعن الضرب». واستدار ذاهباً إلى المنزل، لكن داغلي، الذي كان يميل إلى ما قاله السيد الذي انصرف عنه الآن، تبعه على الفور يرافقه الكلب فاغ الذي مشى حانياً رأسه بنكد متهرباً من الكلب مونك. قال السيد بروك مسرعاً: «كيف حالك يا سيدة داغلي؟ لقد جئت لأخبرك عن ولدك. لا أريدك أن تضربيه بالعصا». لقد كان حذراً... لذلك تحدث بصراحة ووضوح هذه المرة. السيدة داغلي امرأة أجهدها العمل، فنحل جسدها، واختفت من حياتها جميع مظاهر البهجة والسرور حتى إنها لا تملك ثوباً ليوم الأحد، يمكن أن يجلب لها بعض الرضا، فيهيئها للذهاب إلى الكنيسة. لقد وقع بينها وبين زوجها سوء تفاهم منذ أن عاد إلى المنزل، وكانت معنوياته متدنية، فكانت تتوقع منه الأسوأ، لكن زوجها سبقها بالإجابة:

تابع داغلي بصوت مرتفع: «كلا، كلا.. لن يضرب بالعصا، إن أردت ذلك أم لم ترد». وكأنه يريد أن يضرب بقوة: «لم يطلب منك أحد القدوم لهذا المنزل لتتحدث حول العصي، فإنك ترفض أن تعطي عصا، ولو لأجل الإصلاح، فاذهب إلى مدل مارش، واضرب نفسك».

قالت الزوجة: «من الأفضل لك أن تمسك لسانك يا داغلي، ولا تخرج ما في جوفك، فعندما ينفق رجل مثلك كرب أسرة ما لديه من نقود في السوق، ويشتري خمراً يكون قد أساء بقدر كاف ليوم واحد... لكنني أريد أن أعرف ماذا فعل ابني يا سيدي؟».

قال داغلي بسخط أكبر: «لا تأبهي لما فعل، إن من شأني أنا أن أتحدث وليس من شأنك أنت، وأنا سأتحدث. سأقول ما أقول. بعشاء أو بدونه، وما سأقول هو بما أنني أعيش على أرضك، وقد عاش من قبل أبي وجدي، وقد وضعنا مالنا فيها، ويمكن لي ولأولادي أن نموت فيها لأجل ثياب نلبسها لأننا لا نجد مالاً نشتري به، وإذا لم يضع المالك حدًّا..».

قال السيد بروك بصوت منخفض ولكن ليس بحكمة: «أيها الرجل الطيب إنك ثمل.

في يوم آخر، في يوم آخر..». أضاف وهو يستدير، وكأنه يهم بالذهاب، لكن داغلي واجهه مباشرة، ووقف الكلب فاغ على قدميه عندما ارتفع صوت سيده ليهين السيد بروك، بينما اقترب مونك من سيده ليراقب بوقار. ثم توقف العاملون عن عملهم ليستمعوا، وبدا من الحكمة أن يكون هادئاً من أن يهرع هارباً، ويطارده رجل يوبخه بقسوة: «إنني لست ثملاً، ولست أنت كذلك». - قال داغلي - «أستطيع أن أحتمل خمرتي، وأنا أعي ما أقول، وإنني أعني أن المالك سيضع حدًّا للأمر، فهم يقولون إنه سيكون هناك تعديل، وإن مالكي الأراضي الذين لم يقدموا خيراً لمستأجري أراضيهم سيعاملون بطريقة تجعلهم يهربون راكضين، ويوجد في مدل مارش ما يسمى التعديل، ويعرفون من سيهرب راكضاً، فهم يقولون: نعرف من هو مالك أرضك. وأنا أقول: أتمنى أن يأتيكم خير لأنكم تعرفونه، أما أنا فلم يأتني خير. إنهم يقولون إنه بخيل جدًّا، وأنا أقول: هذا صحيح، وهم يقولون إنه رجل التعديل، وهذا ما يقولون، ولقد عرفت ما هو التعديل: هو أن تجعل أنت ومن مثلك تهرعون هاربين برائحتكم الكريهة. يمكنك أن تفعل ما تريد، فأنا لا أخشاك، ومن الأفضل أن تدع ابني وشأنه، وتهتم بشأنك قبل أن يلحق بك التعديل. هذا ما لدي كي أقوله». ختم السيد داغلي ضارباً شوكته في الأرض بقوة صعب عليه سحبها. عند هذه الحركة الأخيرة بدأ الكلب مونك ينبح بصوت مرتفع، وكانت اللحظة المناسبة للسيد بروك كي يخرج من الفناء بأسرع ما يستطيع مندهشاً من حدة الموقف. لم يهن على أرضه من قبل، وكان يعتبر نفسه مفضلاً لدى المستأجرين، فجميعنا يفعل ذلك عندما نفكر في لطفنا أكثر مما نفكر في ما يريده الآخرون منا. عندما تشاجر مع كيلب جارث منذ اثنتي عشرة سنة، كان يعتقد أن المستأجرين سيكونون مسرورين لأن المالك سيدير الأمور بنفسه.

بعض الذين تتبعوا قصة خبرته ربما يستغربون ظلمة ليل السيد داغلي، ولكن لم يكن في تلك الحقبة شيء أسهل من أن يكون الفلاح جاهلاً، على الرغم من وجود قس يعمل في الأبرشيتين، وهو رجل نبيل حتى العظم، وراع للأبرشية يعظ بثقافة أعلى من ثقافة القس، ومالك أرض تدخل في كل شيء خصوصًا في الأدب الرفيع والإصلاحات الاجتماعية وجميع أنوار مدل مارش لا تبعد سوى ثلاثة أميال.

بالنسبة إلى التسهيلات التي لم يستغلها الناس للحصول على المعرفة، حاول أن تختار رجلاً عاديًّا يعيش في وهج ثقافة لندن، وخذ في الاعتبار ماذا سيحصل لهذا الرجل إذا لم يتعلم سوى القليل من الحساب الذي يتلقاه من رجل دين يعمل في أبرشية تبتن، ويقرأ فصلًا من الإنجيل بصعوبة بالغة لأن أسماء كإسايا أو أبولوس تبقى صعبة النطق بها، حتى بعد

تهجئتها مرتين. لقد قرأ داغلي المسكين بعض الآيات في بعض الأمسيات من أيام الأحد، ولم يكن العالم أكثر عتمة مما كان عليه من قبل. لقد عرف بعض الأشياء تماماً، بشكل رئيسي عادات الزراعة القذرة، وغرابة تقلب المناخ، والمخزون، والمحاصيل الزراعية في «فري مانزاند»، الذي سمي هكذا من طريق السخرية ليدل على أن الرجل حر وفي استطاعته أن يتخلى متى يشاء، ولكن لن يجد أرضاً تضمه.

الفصل الأربعون

كان حكيماً في عمله اليومي:

لأجل ثمار الجد وليس لأجل العقائد والحكومات...

قد وظف جلّ أحاسيسه.

إنها تبلغ الكمال في جميع أجزائها...

وجائزتها تكمن في إنجازها...

وبدونها كيف يمكن للقوانين أو الفنون أو المدن ذات الأبراج أن تُشاد؟

لدى مراقبتنا لتأثير شيء ما، كتأثير بطارية كهربائية على سبيل المثال، غالباً ما نضطر إلى تغيير موقعنا ليتسنى لنا فحص مجموعة أو خليط ما، حيث نرى أن هذا الموقع هو الأفضل لهدفنا، والموقع الذي أذهب إليه الآن هو طاولة أسرة كيلب جارث في الردهة الأمامية الكبيرة حيث طاولة المكتب وكمية كبيرة من الخرائط والمخططات؛ أب وأم وخمسة أبناء لا تزال ماري في المنزل تنتظر عملاً جديداً. بينما الابن كريستي، الذي كان يجلس إلى جانبها كان يتلقى علماً رخيص التكاليف، ونفقات قليلة في اسكتلندة، ونتيجة خيبة أمل أبيه تابع دراسته بدل من تفرغه للعمل.

وصلت رسائل البريد، تسع رسائل دفع تكلفتها ثلاثة بنسات لساعي البريد، فنسي السيد جارث طعامه وشايه نتيجة انغماسه في قراءتها الواحدة تلو الأخرى، ثم وضعها جانباً، وكان في بعض الأحيان يهز رأسه ببطء، وأحياناً أخرى يلوي فمه معبراً عن حوار داخلي، ولكن لم ينس أن يزيل الختم الأحمر الكبير دون أن يكسره، الذي كانت تلتقطه لتي كما يفعل كلب صيد متلهف. تابع الآخرون حديثهم بهدوء كي لا يضايقوا كيلب. رسالتان كانتا لماري، فبعد أن قرأتهما دفعت بهما إلى أمها لتظل جالسة تلهو بملعقة الشاي، وهي شاردة الذهن حتى انتبهت لنفسها فجأة، فعادت إلى تطريزها الذي أبقته في حضنها أثناء تناولها للطعام.

قال بن وهو يجر يدها: «لا تخيطي يا ماري، اصنعي لي طاووساً من هذا الفتلات». كانت تصنع فتلة لهذا الهدف.

قالت ماري ممازحة بعد أن وخزت يده بلطف بإبرتها: «كلا، كلا يا ماكر، حاول أن تصنعه بنفسك لقد رأيتني أفعل ذلك مرات عديدة. يجب أن أنتهي من هذا العمل، إنه لروزموند فنسي، وهي ستتزوج في الأسبوع القادم، وهي لا تستطيع أن تفعل ذلك بدون هذا المنديل». أنهت ماري كلامها بمرح، وقد أسرتها الفكرة الأخيرة.

«لماذا لا تستطيع أن تتزوج؟»، قالت هذا لتي، وقد جذبها هذا اللغز، وقربت رأسها جدًّا إلى ماري مما جعل الأخيرة تهددها بوخزه أنفها بالإبرة.

قالت ماري بشرح ممل مما جعل لتي ترجع إلى الوراء بعد أن فهمت قليلاً من الأمر: «لأن هذا هو المنديل الثاني عشر، وبدونه سيكون لديها أحد عشر».

قالت السيدة جارث واضعة الرسائل على الطاولة: «هل اتخذت قرارك يا عزيزتي؟».

قالت ماري: «سأذهب إلى المدرسة التي في يورك، إلا إذا كنت غير مناسبة للتعليم في المدارس بدلاً من التعليم في المنازل، وأنا أحب التعليم في المجموعات، وكما ترين أنا مجبرة على التدريس، فلا تتوافر أمامي أي فرصة أخرى».

قالت السيدة جارث بصوت متضايق: «إنني أعتبر التعليم أمتع مهنة في العالم. كنت سأفهم اعتراضك عليه لو لم تكن متوافرة لديك خبرة واسعة فيه، وكنت لا تحبين الأطفال».

قالت ماري بأدب: «أظننا لا نتفهم أسباب كراهية الآخرين لما نحب يا أمي، لست مولعة بالتعليم داخل الصفوف، وأنا أفضل العالم الرحب خارجه، وهذا خطأ مني».

قال ألفرد: «إن من الغباء أن تظلي في مدرسة للبنات طوال الوقت، كمجموعة من الأغبياء، كطالبات السيدة بيلارد، كل اثنتين تمشيان معاً في رتل واحد».

قال جم: «وليس لديهن ألعاب تستحق اللعب بها، فهن لا يقدرن على الرمي أو القفز، فلا أعجب من أن ماري لا تحب تعليمهن».

قال الأب، وهو ينظر من فوق نظارتيه متوقفاً قبل أن يفتح الرسالة التالية: «ما الذي لا تحبه ماري؟».

قال ألفرد: «وجودها بين فتيات غبيات».

قال كيلب بلطف، وهو ينظر إلى ابنته: «هل هو العمل الذي تلقيته يا ماري؟».

«نعم يا أبي... المدرسة التي في يورك. لقد قررت أن آخذ العمل، فهو الأفضل، خمسة وثلاثون جنيهاً في السنة بالإضافة إلى أصغر مجموعة متدربين مبتدئين على البيانو».

قال كيلب، وهو ينظر إلى زوجته: «يا ابنتي المسكينة... تمنيت لو بقيت معنا في البيت، سوزان».

قالت السيدة جارث بوقار وهي مدركة ما تقول: «لن تكون ماري سعيدة ما لم تقم بواجبها».

قال ألفرد: «ماذا يمكن أن يسعدني في مثل هذا العمل المقرف»، فضحك كل من ماري وأبيها بصمت، لكن السيدة جارث... بأسى.

«جد كلمة ألطف من كلمة مقرف لتصف بها أي شيء لا تحبه يا عزيزي ألفرد. أظن أن ماري ستساعدك لتذهب إلى السيد هانمر بالنقود التي ستحصل عليها».

«يبدو لي أن هذا شيئًا مخجلاً جدًّا، لكن أختي لبنة عظيمة»، قال هذا ألفرد، وهو ينهض من كرسيه ليجري إلى الوراء ويقبلها، ما جعل ماري تحمر خجلاً وتضحك، لكنها لم تستطع منع دموعها من أن تنهمر. أما كيلب الذي كان ينظر من بين نظارتيه ظهرت عليه علائم بهجة ممتزجة بالأسى، وقد عاد إلى فتح رسائله، حتى السيدة جارث التي لوت شفتيها عن رضى هادئ، سمحت لتلك اللغة غير اللائقة أن تمر دون أن تصححها، على الرغم من استغلال بن لموقفها وغنائه: «أختي لبنة عظيمة، لبنة عظيمة، لبنة عظيمة...!»، وهو يضرب بقبضتيه على ذراع ماري. لكن عيني السيدة جارث استدارت نحو زوجها الذي كان مستغرقاً في قراءة رسالته، إذ ظهرت على وجهه وعينيه تعابير أثارت اهتمامها، ولكن لم يحب أن يسأل عما كان يقرأه، فبقيت تراقبه باهتمام حتى رأته يهتز فرحاً، وهو يعيد قراءة الرسالة من أولها، ثم نظر إليها من وراء نظارتيه وقال: «ماذا تعتقدين يا سوزان؟».

ذهبت لتقف وراءه واضعة يدها على كتفه، فراحا يقرآن الرسالة سوية. لقد كانت من السير جتم، وهو يقدم له عرضاً يدير بموجبه أراضي العائلة في فريشت وكل الأماكن الأخرى، ومضيفاً أن السيد بروك طلب منه أن يستشير السيد جارث إذا ما كان يرغب في

عودة مزاولته لإدارة الأراضي في تبتن. أضاف البارون في رسالته أنه يرغب في رؤية تبتن وفريشت في ظلّ إدارة واحدة، وأنه يرغب في أن يرى الشروط التي تقوم عليها تلك الإدارة مقبولة لدى السيد جارث إذ يرغب في رؤيته في منزله عند الساعة الثانية عشرة من اليوم التالي.

قال كيلب رافعاً نظره نحو زوجته التي رفعت يدها من على كتفه إلى أذنه، ووضعت ذقنها على رأسه: «إن أسلوبه لطيف... أليس كذلك يا سوزان...؟ أستطيع أن أدرك أن السيد بروك لم يشأ أن يطلب مني»، تابع مبتسماً.

قالت السيدة جارث، وهي تنظر إلى خمسة أزواج من العيون تحدق بالأبوين: «ها هنا شرف لأبيكم يا أولاد؟ لقد طلب منه الذين فصلوه من عمله في الماضي أن يعود إلى عمله ثانية، ما يثبت أنه كان يقوم بعمله على أكمل وجه لذلك شعروا بالحاجة إليه».

قال بن راكباً على كرسيه بثقة فرحة إذ غابت القيود الأبوية الصارمة: «إنني أحب سينسيناتوس... يا للفرحة...!».

قالت لتي متخيلة العمدة وأتباعه في ثيابهم: «متى سيأتون ليأخذوه يا أمي؟». ربتت السيدة جارث على رأس لتي مبتسمة، ولكن عندما رأت زوجها يجمع رسائله، وكأنه سيغيب لقرن من الزمن في عمله ضغطت على كتفه، وقالت مؤكدة: «أذكرك أن تطلب أجوراً مناسبة يا كيلب».

قال كيلب بصوت يوحي أنه لن يكون منطقيًّا إذا ما اعتقدت أن شيئاً آخر يمكن أن يصدر عنه: «آه... نعم. سيكون بين الأربعمئة والخمسمئة في السنة مقابل العملين سوية». ثم تذكر هنا وقال: «اكتبي يا ماري إلى المدرسة لتبلغيهم رفضك للعمل، ابقي لتساعدي أمك، إنني سعيد كسعادة بنج، لقد فكرت في ذلك».

لا نصر يوازي نصر بنش سوى نصر كيلب، لكن موهبته لم تكمن في إيجاده العبارات المنمقة، على الرغم من أنه كان يهتم بكتابته لرسائله، ويعتبر زوجته كنز مفردات ولغة صحيحة.

وقعت جلبة وصخب بين الأطفال الآن، وقدمت ماري التطريز القطني لأمها كي يكون بعيداً من متناول أيديهم، وهم يجبرونها على الرقص، أما الأم فراحت فرحة تجمع الأطباق

والأكواب، في حين أن كيلب، الذي دفع كرسيه إلى الوراء وكأنه يهم بالانتقال إلى مكتبه، ظلّ جالساً يمسك رسائله بيده، وينظر إلى الأرض بتأمل ويشد بأصابع يده اليسرى كلغة صامتة كان يعبر بها عن داخله، وأخيراً قال:

«إنه لمن دواعي الشفقة أن كريستي لم يلتحق بالعمل الحر، يا سوزان. سأحتاج إلى المساعدة، وألفرد سوف ينطلق لدراسة الهندسة، لقد قررت ذلك»، وراح ثانية يتأمل مقص أظافر يديه لبرهة، ثم تابع: «سأجعل بروك يوقع على عقود جديدة مع المستأجرين، وأقوم بإدارة المحاصيل، وسأقدم رهاناً على أننا سنستطيع الاعتماد على قرميد جيد من الطين في بوت كورنر، وكنت أتطلع إلى ذلك وهو ما سيخفف من نفقات الإصلاحات، إنه عمل رائع يا سوزان! لو لم يكن لدي أسرة لقمت به دون مقابل».

قالت زوجته مشيرة بسبابتها: «أحذرك... أن تفعل».

«كلا... كلا، لن أفعل. إنه شعور لطيف ينتاب الرجل عندما يدخل مضمار العمل الحر، وتسنح له الفرصة أن يقدم جهداً كي يحسن من ظروف البلاد، ويساعد الرجال في زراعتهم، ويكون مدبراً جيداً فينشئ المباني المتينة ليحسن من وضع أولئك الذين يعيشون فيها، ومن سيأتي من بعدهم. إنني أفضل هذا كله على الثراء، فإنني أعتبره أكثر عمل مشرف». هنا وضع كيلب رسائله على الطاولة، ثم دس أصابعه بين أزرار صدريته، وجلس منتصباً، لكنه تابع بصوت يشوبه خشية حانياً رأسه قليلاً. «إنها نعمة عظيمة من الرب ياسوزان».

قالت زوجته بتحمس: «إنها كذلك يا كيلب، وإنها رحمة لأبنائك أن يكون لديهم أب يقوم بمثل هذا العمل: إن الأب إذا قام بعمله جيداً، سيظل الناس يتذكرونه على الرغم من نسيانهم له». ولم تستطع أن تضيف شيئاً حول الأجور.

في المساء، بينما كان كيلب يجلس متعباً من عمله في أثناء النهار وكتاب جيبه مفتوح على ركبتيه، وبينما كانت ماري وأمها منشغلتين بخياطتهما، ولتي تجلس في الزاوية تهمس بحوار مع دميتها، حضر السيد فيربرذر يقطع ظلال وضياء شهر آب فوق عشب كثيف، ومن بين أشجار التفاح.

نعرف أنه كان محبًّا لأسرة جارث، وأنه اعتقد يوماً بجدارة فكر ماري لليدجيت، لقد كان كبقية رجال الدين في مدل مارش، مشبعاً بفضيلة عدم التمييز الطبقي بين سكان مدل مارش، فكان دائماً يقول بأن أمه السيدة جارث أفضل من أيّ سيدة في البلدة، إلا أنه لا

يزال يمضي أمسيات أيامه في منزل السيد فنسي، حيث الزوجة هي أقل مرتبة من السيدة، تترأس غرفة استقبال فاخرة وطاولة لعب ورق.

التعاون بين الناس في تلك الأيام لم يحدده الاحترام، لكن القس كان يحترم أسرة جارث، وزيارته لهم لا تفاجئهم في أيّ حال، قال وهو يصافحهم... «إنني هنا يا سيدة جارث. لدي ما أقوله لك وللسيد جارث بالنيابة عن فرد فنسي، فالحقيقة أن الشاب المسكين»، تابع قوله، وهو يجول بنظره على الثلاثة الذين كانوا يستمعون إليه، «لقد أسرّ إلي».

بدأ قلب ماري يخفق بسرعة... لقد تساءلت إلى أي حد ذهب فِرد بإفشاء سره. قال كيلب: «لم نر الشاب منذ أشهر. لا أعرف ماذا حصل له».

قال القس: «لقد كان مسافراً في زيارة. لأن المنزل كان يضايقه، وقال السيد فنسي لأمه: إن الشاب المسكين يجب أن يبدأ الدراسة الآن، لكنه جاء البارحة ليبوح بسره لي، وأنا مسرور لأنه فعل ذلك لأنني رافقته في حياته منذ أن كان في الرابعة عشرة من عمره، وأشعر أنني في منزلي حين أكون بينهم، حتى إن الأولاد كأنهم أبناء وبنات أخ بالنسبة إلي، لكنها قضية يصعب إبداء النصح فيها. في أي حال لقد طلب مني أن آتي لأخبركم بأنه ذاهب، وأنه تعس جدًّا بسبب الدين الذي عليه لكم، وأنه عاجز عن سداده مما يجعله غير قادر على القدوم إلى هنا كي يودعكم».

قال كيلب مشيراً بيده: «قل له إن ذلك لا يعادل قرشاً، لقد تلقينا الضربة، وتجاوزناها، والآن سأصبح ثريًّا كثراء اليهودي».

قالت السيدة جارث مبتسمة في وجه القس: «ما يعني أنه سيكون لدينا ما يكفي لتربية الأولاد أفضل تربية، ونبقي ماري في المنزل».

قال السيد فيربرذر: «ما أمر اكتشاف الكنز؟».

«سأكون وكيل مقاطعتي فريشت وتبتن، وربما قطعة أرض في لُويك أيضاً؛ إنها كلها تتبع للعلاقات الأسرية نفسها، والعمل ينتشر كانتشار الماء حالما يبدأ بالتدفق. إنه ليسعدني كثيراً يافيربرذر». أرجع كيلب رأسه هنا قليلاً إلى الوراء، وسند ذراعيه إلى جانبي أريكته: «..إنني حصلت على فرصة ثانية في إدارة الأراضي وتنفيذ بعض الأفكار وتطويرها. لقد كنت أقول لسوزان: إن أكثر شيء يضايقني هو الجلوس على ظهر حصان، والنظر إلى الأخطاء المرتكبة

في الأراضي دون أن أكون قادراً على مد يدي كي أصلح تلك الأخطاء. لا أعلم ماذا يفعل أهل السياسة، وإنه ليغضبني جدًّا أن أرى إدارة سيئة لأرض يتجاوز مساحتها مئات الفدادين».

لقد كان من النادر أن يتطوع السيد جارث ويقدم حديثاً طويلاً كهذا، لكن السعادة جعلته يشعر بالتألق، فكانت عيناه تشعان ضياءً وكلماته تنساب دون جهد.

قال القس: «أهنئك من أعماق قلبي يا جارث، إن هذا أفضل خبر يمكنني أن أحمله إلى فرد فنسي ولا سيما أنه عانى كثيراً من الجرح الذي سببه لكم بسبب النقود أي تلك التي سلبكم إياها كما يقول، والتي كنت في حاجتها لتحقيق أهداف أخرى. أتمنى لو لم يكن فرد كسولاً، إذ لديه مزايا حسنة وأبوه يقسو عليه قليلاً».

قالت السيدة جارث ببرود: «أين هو ذاهب؟».

«ينوي أن يجرب حظه ثانية في الدراسة، وهو ذاهب ليدرس قبل بداية الفصل، وقد نصحته بفعل ذلك. أنا لا أضغط عليه كي يدخل سلك الكنيسة بل على العكس، ولكن إذا ذهب ودرس لينجح، فهذا سيكون دليلاً على قدرته وإرادته، وهو ضائع تماماً إذ لا يعرف شيئًا آخر يمكن أن يقوم به. إنه سيسعد أباه، ولقد وعدت أن أقنع السيد فنسي بحاجة ابنه إلى شق طريق مختلف له في الحياة. يقول فرد بصراحة أنه لا يناسبه أن يكون رجل دين... وأنا سأفعل كل شيء يمكن أن يمنع رجلاً من أن يختار لنفسه مهنة خاطئة. لقد نقل لي ما قلته له يا آنسة جارث، هل تتذكرين ذلك؟» (اعتاد السيد فيربرذر أن يخاطب ماري باسمها الشخصي، ولكن من لباقته أراد أن يعاملها باحترام لأنها بحسب ما كانت تقول السيدة فنسي: إنها تعمل للحصول على قوت عيشها).

شعرت ماري بعدم ارتياح، لكنها تعمدت أن تأخذ المسألة ببساطة فأجابت مباشرة: «لقد قلت أشياء كثيرة قاسية لفِرد فإننا رفقاء طفولة».

«بالاستناد إلى قوله أنه سيكون أحد أتفه رجال الدين الذين يحولون المهنة إلى تفاهة. حقًّا لقد كان ذلك جارحاً حتى إنني قد شعرت أنني قد جرحت قليلاً».

ضحك كيلب، «لقد ورثت لسانها منك يا سوزان..!!»، قال ذلك بقليل من المتعة.

قالت ماري بسرعة خشية غضب أمها: «ليس تهكمه يا أبي... إنه لمن السيئ أن ينقل فرد كلامي إلى السيد فيربرذر».

قالت السيدة جارث التي تعتبر الحديث بسوء عن منازل الكرامة والوقار سوء تصرف شديد: «بالتأكيد، لقد كان كلاماً متسرعاً يا عزيزتي. يجب ألا نستهين بقسنا بسبب سوء تصرف راعي الأبرشية».

قال كيلب إذ لم يرد أن ينتقص من ذكاء ماري: «لكنها على حق في بعض ما تقول، أي عمل سيئ ينجم عن عمل أي رجل يفقد ثقة الناس بزملائه، فالأشياء مترابطة مع بعضها أضاف ناظراً إلى الأرض، ومعبراً عن عدم ارتياحه من خلال تحريكه لقدميه، وكأنه يقول إن الكلمات لا تكاد تعبر عن الأفكار. إن هذا واضح!» – قال القس مبتهجاً – «عندما يكون غير جدير بالاحترام، فنحن نبرمج عقول الرجال بحسب قلة الاحترام. إنني أؤيد وجهة نظر الآنسة جارث إذا أدنت بها أو لم أدن، ولكن بالنسبة إلى فرد فنسي فمن العدل أن يعذر قليلاً، فكل سلوك فيذرستون ساعد على إفساده. فقد كان عمله شريراً عندما لم يترك له جنيهاً واحداً، لكن فرد أحسن صنيعاً إذ لم يتأثر بذلك، وما يهمه أكثر هي إساءته لكم يا سيدة جارث. إنه يعتقد أنكم لن تظنوا به خيراً بعد اليوم.

قالت السيدة جارث بتصميم: «لقد أصبت بخيبة أمل بسبب فرد، لكنني سأكون جاهزة ثانية لأظن به خيراً عندما يقدم لي سبباً وجيهاً يدفعني للقيام بذلك».

في هذه اللحظة خرجت ماري من الغرفة مصطحبة معها لتي. «يجب علينا أن نسامح الشبان عندما يعتذرون». هذا ما قاله كيلب مراقباً ماري، وهي تغلق الباب وراءها، «كما تقول يا سيد فيربرذر لقد كان شرًّا في سلوك ذلك الرجل العجوز. أما الآن وقد خرجت ماري فلا بد لي من أن أخبرك شيئاً لا أحد يعرفه سوى أنا وسوزان وأنت لن تخبر به أحداً، لقد أراد العجوز الوغد أن تحرق إحدى الوصيتين في الليلة التي مات فيها حين كانت تجلس بالقرب منه لوحدهما، ولقد قدم لها مبلغاً من المال كان يحتفظ به في علبة بجانبه مقابل أن تفعل ما أراد، لكنك تعرف ماري لا تفعل شيئاً كهذا، فلم تلمس خزنته الحديدية، أو أي شيء من هذا القبيل. وكما ترى الآن فقد كانت الوصية الأخيرة هي التي طلب منها أن تحرقها، فلو فعلت ماري ما أراد لحصل فرد فنسي على عشرة آلاف جنيه، فقد تذكره الرجل العجوز في آخر لحظة في حياته، ولقد أثر ذلك كثيراً في ماري. فلم يكن لها ذنب في ذلك، ولقد كانت على صواب في ما فعلت، لكنها تشعر، كما تقول، وكأنها هدمت بيت أحد رغماً عنها حين كانت تدفع عن نفسها. إنني أتعاطف معها إلى حد ما، ولو كان في استطاعتي أن أحدث تغييراً يخدم الشاب المسكين بدلاً من أحمله عبئاً ثقيلاً نتيجة الأذى الذي ألحقه بنا لكنت

مسروراً أن أفعل ذلك. ماذا تقول الآن يا سيدي؟ لا تؤيدني سوزان، فهي قالت... قولي ما ترينه يا سوزان..!!».

قالت السيدة جارث متوقفة عن عملها، وناظرة إلى السيد فيربرذر: «ما كان لماري أن تقوم بتصرف يختلف عن الذي قامت به، حتى لو عرفت ما سيجر ذلك من تأثير على فرد».

«ولم تكن تعرف بذلك على الإطلاق. يبدو لي ضياع يلحق بأحد نتيجة عملنا الصحيح يجب ألّا يؤثر في ضميرنا».

لم يجب القس مباشرة فقال كيلب: «إنه الإحساس، فابنتي تحس هكذا، وأنا أشاركها ذلك الإحساس. إنك لا ترغب في أن يدهس حصانك كلباً، لكن ذلك يؤثر فيك عندما يقع».

قال السيد فيربرذر الذي بدا مفكراً في الأمر أكثر من أن يكون متحدثاً: «إنني متأكد من أن السيدة جارث ستؤيدك بذلك. يصعب على المرء أن يحكم على الشعور الذي تتحدث عنه تجاه فرد أنه خاطئ، فلا يوجد أحد يدعي مثل هذا الشعور».

قال كيلب: «حسناً... حسناً، إنه سر، فإنك لن تخبر فرد».

«بالتأكيد لن أفعل، لكنني سأنقل له الخبر الآخر المفرح أنك تستطيع أن تعوض الخسارة التي سببها لك».

غادر السيد فيريرذر المنزل بعد ذلك بقليل، وعندما رأى ماري عند البوابة مع لتي أراد أن يودعها، فبدا منظرهما جميلاً تحت ضياء غروب الشمس، الذي أظهر لمعان التفاح المتدلي من على أغصان الأشجار القليلة الأوراق، وماري ترتدي ثياباً بنفسجية وشرائط سوداء، تمسك بسلة، ولتي بثيابها الرثة القديمة تلتقط التفاح المتساقط.

إذا أردت أن تعرف كيف تبدو ماري يمكنك أن تعرفها عندما ترى وجهاً في الشارع في اليوم التالي... فهي لن تكون بين بنات صهيون المتكبرات واللواتي يمشين رافعات الرؤوس تملأ عيونهن البهجة، وأنيقات جدًّا في مشيتهن، دع أولئك يذهبن، ثم ابحث بنظرك عن فتاة سمراء ممتلئة قليلاً، وتنظر من حولها دون أن تفترض أن أحداً ينظر إليها.

لو كان لها وجه عريض وجبهة عريضة وحاجبان داكنان وشعر أجعد قاتم اللون ونظرة مرحة تخفي سرها في فمها، ومرح لا أهمية له، فاعتبر تلك الفتاة العادية. أنها ليست ذات طباع سيئة، إنها ماري جارث. لو جعلتها تبتسم لأرتك أسناناً في غاية الجمال، ولو

أغضبتها لما أسمعتك صوتها، ولكن ربما قالت لك أقسى كلام سمعته في حياتك، ولو قدمت لها معروفاً لما نسيته قط. لقد كانت ماري معجبة بالقس الوسيم ذي الوجه السمح في ثيابه الأنيقة والنظيفة أكثر من إعجابها من أي رجل عرفته في حياتها. لم تسمعه قط يتفوه بحماقة على الرغم من معرفتها ببعض تصرفاته غير الحكيمة، وربما كان الكلام الأحمق بالنسبة إليها أسوأ من التصرف الأحمق.

على الأقل كان من الملاحظ أن الصفات الشخصية من القس لم تثر الكراهية في نفسها، كما لو كانت السمات نفسها متوافرة في شخصية فرد عندما يكون رجل دين. يوجد عدم إنصاف في إطلاق الأحكام لدى عقول أكثر من ماري جارث، إننا نستخدم عدم تحيزنا في حكمنا على المساوئ والمحاسن دون أن نعي ذلك. هل يمكن لأحد أن يعرف أيًّا من الرجال تود ماري؟ هل الذي تعامله بقسوة... أم الذي تعامله عكس ذلك؟

قال القس، وهو يأخذ تفاحة من السلة التي قدمتها له، ووضعها في جيبه: «هل عندك أي رسالة تودين أن أنقلها لرفيق طفولتك يا آنسة جارث؟ شيئاً يخفف ذلك الحكم القاسي؟ إنني ذاهب الآن لرؤيته».

قالت ماري هازة برأسها ومبتسمة: «كلا، إذا كان علي أن أقول إنه لن يكون رجل دين تافهاً، فلا بد لي من أن أقول أكثر من تافه. إلا أنني مسرورة جدًّا لسماعي أنه سيذهب للعمل».

«ومن ناحية أخرى إنني مسرور لأنك لن تذهبي إلى العمل. ستكون أمي مسرورة جدًّا إذا ما أتيت إليها في بيتنا. إنك تعلمين أنها مولعة بالحديث إلى من هم في عمر الشباب، وأن لديها الكثير مما تقوله حول الأيام الخوالي. إنك حقًّا تحسنين صنيعاً».

قالت ماري: «أظنني أحب ذلك كثيراً، لو سمحت لي الفرصة. كل شيء يبدو لي مفرحاً في آن. كنت أعتقد أن الاشتياق لأسرتي سيظل دائماً جزءاً من حياتي، فافتقادي لذلك الاشتياق يجعلني أشعر بالفراغ، أظنه عمل على إشغالي أكثر من أحاسيسي».

«هل يمكنني أن أذهب معك يا ماري؟»، همست لتي، أكثر طفلة مضايقة تستمع إلى كل شيء، لكنها سعدت جدًّا عندما قبل السيد فيربرذر وجنتها، وقرص ذقنها، وذلك ما نقلته لأمها وأبيها في ما بعد.

لو رأى أحد القس يسير إلى لُويك لشاهده يهز كتفيه باستهجان مرتين. أظن أن قليلاً من الرجال الإنجليز يقومون بمثل هذه الإيماءة... عادة لا يكونون من أصحاب الأجسام الممتلئة، وهم عادة يكونون أصحاب طباع وأمزجة لطيفة، ويتحملون أخطاء الرجال الصغيرة بما فيها أخطاؤهم الشخصية. كان القس يحاور نفسه إذ كان يفكر في ما إذا كان هناك شيء آخر بين فْرِد وماري جارث بالإضافة إلى كونهما رفيقي طفولة، لكنه أجاب متسائلاً: إذا ما كان النوع من هذه الأنوثة التي يصبو إليه ذاك الشاب. فالرد الأولى على ذلك يكون هز الكتفين، ثم ضحك على نفسه أنه ربما قد أصبح غيوراً، وكأنه رجل قادر على الزواج هو ما جعله يقول إنه واضح كوضوح الشمس إنني لست قادراً. الآن يهز كتفيه الهزة الثانية.

ماذا يمكن لرجلين مختلفين جداً أن يريا في تلك «الكتلة السمراء» كما تسمي ماري نفسها؟ بالتأكيد ليست بساطة مظهرها هي التي تفتنهما... (ودع عندها جميع الفتيات البسيطات المظهر، أن يتنبهن من خطر تشجيع المجتمع لهن كي يثقن بنقص جمالهن). كل فرد في أمتنا العريقة يشكل كمالاً رائعاً، ويشكل التبادل بين المؤثرات والحسن هو نتيجة لفردين كاملين أحدهما محب والثاني محبوب.

لمّا كان السيد والسيدة جارث يجلسان لوحدهما قال كيلب: «سوزان اكتشفي ماذا أفكر؟».

قالت السيدة جارث مبتسمة له: «التناوب بين المحاصيل... أو أبواب الأكواخ الخلفية في تبتن».

قال كيلب بأسى: «كلا... إنني أفكر في قدرتي على عمل شيء جيد لفْرِد فنسي. لقد ذهب كريستي، وسيذهب ألفرد قريباً جدًّا، وجتم يحتاج إلى خمس سنوات كي يلتحق بمضمار العمل الحر، وأنا سأحتاج إلى مساعدة، فيمكن لفرد أن يلتحق بي، ويتعلم طبيعة الأشياء، ويعمل بإشرافي، فربما يتحول إلى رجل نافع ومفيد إذا تخلى عن فكرة أن يصبح كاهناً. ماذا تظنين؟»

قالت السيدة جارث بقناعة: «أظن أن أسرته سترفض هذا تماماً».

قال كيلب بثبات يتعمد إظهاره عندما يكون مقتنعاً برأي: «ماذا يهمني من رفضهم؟ إن الشاب في سن ينبغي فيها أن يحصل على قوت عيشه، ولديه وعي كاف، وذكاء كاف بالإضافة إلى أنه يحب أن يعمل في الأرض، وأظنه قادراً على أن يتعلم العمل جيداً إذا ما صب جهده فيه».

«هل سيفعل...؟!! أمه وأبوه يريدانه أن يكون سيداً راقياً، وأظنه يشاركهما الشعور نفسه. جميعهم يعتبروننا أقل درجة منهم. وإذا جاء العرض منك،فإنني متأكدة من أن السيدة فنسي ستقول: إننا أردنا فرد لماري».

قال كيلب بتقزز: «ستكون الحياة حكاية فارغة إذا ما قامت على ثرثرة من ذلك النوع».

«لكن هناك كبرياء وهو أمر مناسب يا كيلب».

قال كيلب بحماس مشيراً ليظهر تأكيده: «إنني أسميها كبرياء غير مناسبة إذا ما تركت أفكار الأغبياء تمنعني من قيامي بالأفعال الخيرة. لا يوجد عمل... يمكن أن ينجز على أتم وجه، وأنت تأبهين لما يقوله الحمقى. يجب أن تكوني مقتنعة في داخلك أن خطتك صحيحة لذلك يجب أن تتبعيها».

قالت السيدة جارث التي كانت سيدة صارمة، لكنها كانت تعرف أن زوجها أشد صرامة منها في بعض الجوانب الأخرى: «لن أعارض أي خطة تقررها يا كيلب».

«يبدو أن أمر ذهاب فرد إلى الكلية قد حسم. ألن يكون من الأفضل أن ننتظر لنرى ماذا سيختار بعد ذلك...؟؟ إنه ليس من السهل أن تجعل الناس ضد إرادتهم ومشيئتهم. وأنت لست متأكدًا الآن من عملك، وما ستحتاجه».

«حسناً، ربما كان من الأفضل أن ننتظر قليلاً، ولكن في ما يتعلق بحصولي على عمل يكفي لاثنين، فأنا متأكد من ذلك. دائماً لدي بعض الأعمال المتفرقة، وكان يظهر عمل جديد. فقط البارحة، أظنني لم أخبرك لقد تقدم لي رجلان بطلبين منفصلين كي أقيم أرضاً واحدة، وهل تعرفين من هما؟»، قال كيلب متناولاً قليلاً من نشوقه، ومحتفظاً به بين أصابعه، وكأنه جزء من مظهره. كان يرغب في قليل من النشوق كلما خطر له، لكنه كان ينسى أن استمتاعه به كان بحسب طلبه. وضعت زوجته نسيجها، وبدت مهتمة.

«ماذا... ريج؟ أو ريج.. فيذرستون...؟؟ أحدهما، لكن بولسترود سبقه لذلك سأقوم بالعمل من أجل بولسترود. لا أعرف حتى هذه اللحظة ما إذا كان البيع سيتم بقرض من البنك أو نقداً».

قالت السيدة جارث: «هل سيبيع ذاك الرجل الأرض التي تركت له وأخذ اسمه بسببها؟»

«الشيطان يعلم...» - قال كيلب الذي لم يرد سبب الأعمال المخزية لأي قدرة سوى قدرة الشيطان - «ولكن ما أعلمه أن لدى بولسترود رغبة قديمة جدًّا في الحصول على قطعة أرض. وأنه من الصعب أن يحصل المرء على مثل تلك القطعة من الأرض في هذا الجزء من البلاد. نثر كيلب نشوقه بحذر بدلاً من أن يشمه، ثم أضاف: «إن تبعات الأشياء لتثير الفضول... ها هي الأرض التي توقعها الجميع لفرد، ولم يترك له الرجل العجوز مقدار موطئ قدم، لكنه تركها كلها لابنه الذي أخفى أمره سرًّا، وأحب أن يزعج الآخرين بزرعه فيها، كما لو أزعجهم بقاؤه حيًّا. أظنها ستثير الفضول إذا ما أصبحت لبولسترود في نهاية المطاف. كان الرجل العجوز يكرهه، ولم يتعامل معه ماليًّا قط».

قالت السيدة جارث: «ما الذي يجعل رجلاً تعساً يكره رجلاً آخر لم يتعامل معه في حياته قط؟».

قال كيلب بنبرة صوت عميقة وهزة رأسه الحزينة التي كان يستخدمها كلما أتى إلى هذه العبارة: «أف، ما فائدة السؤال عن مبررات رجل كهذا...؟؟!! روح الإنسان..؟؟ عندما تتعفن روح الإنسان ينجم عنها جميع أنواع الفطور السامة، ولا أحد يعرف من أين أتت تلك الأبواغ».

لقد كانت إحدى طرائف السيد جارث، أنه كلما صعب عليه أن يعبر عن أفكاره، كان يلتقط مفردات متفرقة يربطها بأفكار عديدة، وكلما انتابه شعور بالخشية، خيم عليه شبح لغة الكتاب المقدس، على الرغم من أنه كان يصعب عليه اقتباس مقطع واحد منه.

الفصل الحادي والأربعون

لم أنجح بالتهديد والوعيد،

لأن المطر يهطل كل يوم.

الليلة الثانية عشرة

لقد تطلب أمر شراء بولسترود الأرض المحادية لستون كورت من جوشوا ريج فيذرستون، الذي أشار إليه كيلب جارث، تبادل رسالة أو رسالتين بينهما. من يستطيع أن يحدد تأثير كتابة ما..؟؟ نقشت على صخرة تركت ملقاة لعصور عديدة على شاطئ مهجور تحت قرع طبول، ودهس أقدام محتلين كثيرين، ثم انتهى بها الأمر أن أفضت إلينا أسراراً لاغتصاب عرش، وفضائح أخرى حكي عنها في عصور موغلة في القدم. غالباً ما تتكرر مثل هذه الحالات في حياتنا القصيرة. لما كان من الممكن أن تقع الصخرة، التي ركلها أجيال من الخبثاء، تحت أنظار باحث يستطيع أن يحدد تواريخ الاجتياحات والكشف عن الأديان، يمكن لقليل من الحبر، وقطعة من الورق استخدمت طويلاً كلفافة أو سدادة مؤقتة يمكن أن تقع تحت أنظار من لديه معرفة كافية لتحولها إلى بداية كارثة. إذا ما راقب أوريل تاريخ الكواكب من على الشمس لخرج بنتيجة واحدة هي أن كل شيء يقوم على المصادفة.

بعد إقامة هذه المقارنة الدقيقة، لن أتردد في لفت الانتباه لوجود أناس بذيئين يحدد تدخلهم تطور العالم، على الرغم من استيائنا منهم، وتكون من المساعد لو استطعنا أن ننقص عددهم، وربما نحقق بعض التقدم إذا استطعنا أن نتجاهل وجودهم. يمكن اعتبار جوشوا ريج عضواً زائداً في المجتمع. لكن أولئك الذين يشبهون بيتر فيذرستون لا يتمنى أحد أن يستخدم نسخهم مادة لكتاباته النثرية، أو الشعرية. النسخة هذه المرة تشبه الأم. عندما يكون هناك امرأة لها ملامح ضفدع مصحوبة بوجنتين متوردتين، وجسم ممتلئ يعجب بها بعض الرجال، فتكون النتيجة مثل هذه الحالة صبيًّا يشبه وجه الضفدع، لا يكون محل إعجاب أي مخلوق عاقل، خصوصًا عندما يحضر إلى مكان فجأة ليحطم آمال الآخرين، فإن ذلك أردأ ما يمكن أن يصدر عنه.

إلا أن سمات شخصية ريج فيذرستون بسيطة، وفيها إثارة، فمن ساعات الصباح المبكرة حتى المساء يظل في هيئته الباردة والملساء والناعمة كالضفدع الذي يشبهه، ولا بد لبيتر العجوز من أنه ضحك في داخله كثيراً على ابنه الأناني، والرابط الجأش أكثر بكثير. سأضيف أنه كان يهتم ويعتني بأظافره كثيراً، وأنه ينوي الزواج من فتاة عالية الثقافة والتعلم، وعلى الرغم من أنها ليست معروفة حتى الآن، فإنها يجب أن تكون حسنة المطلع والبهاء، وتتحدر من الطبقة المتوسطة، فهكذا تقارن بساطته وأظافره بأغلب الشبان الأغبياء، على الرغم من أنه تلقى تعليمه من موظف بسيط ومحاسب في بيوت تجارية تقع في ميناء بحري. كان يعتبر أفراد عائلة فيذرستون ريفيين بسطاء، وغريبي الأطوار، وهم بدورهم كانوا يعتبرون نشأته في بلدة تتبع ميناء بحريًا كأمر غريب بالنسبة إليهم، وكيف لأخيهم بيتر فيذرستون أن يتورط في مثل هذا الأمر.

لم تكن الحديقة والممرات المفروشة بالحصى من قبل، كما كانت تبدو من خلال نافذتي غرفة الاستقبال الخشبية الفاخرة في ستون كورت، بوضع أفضل من حالها الآن، وريج فيذرستون ينظر إليها واقفاً يضع يديه خلف ظهره كمالك لها. لم يكن هدف وقفته هذه معروفاً، أهو للتأمل...؟؟ ويدير ظهره لرجل وقف في منتصف الغرفة، وقد باعد بين رجليه قليلاً، ووضع يديه في جيب بنطلونه. إنه رجل على نقيض ريج البارد والأملس في كل خصائصه، فهو رجل يقارب الستين من عمره متورد، وكثير الشعر، وقد ظهر الشيب على شاربيه الكثيفين كشعره الأجعد، وجسمه المربوع كسته ثياب بالية، ويظهر عليه التيه، يجعله يبدو أحد أولئك الذين يتعمدون جعل أنفسهم ظاهرين للعيان حتى في أثناء عرض الأعمال النارية معتبرين تعليقاتهم على تصرفات كل الآخرين، وكأنها أمتع من التصرفات نفسها. كان اسمه جون رفلز، هكذا كان مظهره وحالته النفسية، كلاهما تحمل رائحة عفن غرف المسافرين في الفنادق التجارية التي كانت رائجة في تلك الحقبة من الزمن.

قال بصوت عريض: «هيا يا جوش، اُنظر إلى المسألة هكذا ها هي أمك تطعن في السن، وأنت تستطيع أن تقدم لها مبلغاً كبيراً يمكن أن يريحها».

«ليس وأنت على قيد الحياة. لا يمكن لشيء أن يريحها، وأنت على قيد الحياة». ثم أجابه ريج بصوته المرتفع البارد، «إنك ستأخذ ما أعطيها».

«إنك تكرهني يا جوش وأنا أعرف ذلك، ولكن تعال نتفق كرجلين دون هراء. مبلغ من النقود سيساعدني في تطوير حانوتي، ورفع مستواه. إن تجارة التبغ تزدهر في هذه الأيام.

سأقطع أنفي إن لم أوظف فيها كل جهدي. سألتصق بها كالتصاق العث في الصوف، وذلك لأجل منفعتي. سأكون دائماً متواجداً في المكان المناسب، فلا شيء سيسعد أمك أكثر من هذا. لقد شقيت كثيراً في حياتي، وأنا الآن في الخامسة والخمسين من عمري أريد أن أرتاح بقية حياتي، وأسعد فيها، وإذا ما تعرقل عملي في تجارة التبغ سأستأجر منهم أصحاب علم وخبرة، وسأحافظ عليهم، إذ لا يمكن أن تحصل عليهم بسرعة. لا أريد إزعاجك من وقت إلى آخر لكنني أريدك أن تقدم لي شيئاً واحداً كي أوظفه في المكان الصحيح. فكر في هذا يا جوش كرجل لرجل، وأجعل من حياة أمك المسكينة سهلة ومريحة. لقد كنت بحق جوبيتر مولعاً بالمرأة العجوز».

قال السيد ريج بهدوء دون أن يرفع نظره عن النافذة: «هل انتهيت؟».

قال رفلز، وقد أمسك بقبعته التي كانت أمامه على الطاولة: «نعم لقد انتهيت».

«إذاً اسمعني فقط: كلما قلت أكثر، قلّ تصديقي لك. وكلما طلبت مني أن أقدم أكثر، أصبح عندي أسباب أكثر تمنعني من القيام به. هل تظنني نسيت ركلك لي عندما كنت صبياً، وأكلك لأفضل طعامي وطعام أمي..؟ هل تظنني نسيت أخذك كل شيء لتبيعه وتتركنا لنغرق في الفقر المدقع؟ سأكون مسروراً عندما أراك تجلد على العربة. لقد كانت أمي حمقاء معك. لم تكن على حق عندما جعلت لي زوج أم، وهي الآن تعاقب على ذلك. ستتلقى نصيبها الأسبوعي، ولاشيء أكثر من ذلك، وسيتوقف ذلك النصيب إذا ما تجرأت وأتيت إلى هذه الأرض ثانية، أو لحقت بي إلى هذا البلد ثانية. إذا دخلت تلك البوابة مرة ثانية ستطردك الكلاب وسياط الخيالة».

عندما نطق ريج كلماته الأخيرة استدار نحو رفلز، ونظر إليه بنظرة ثاقبة. لقد كان التناقض جليًّا كما كان منذ ثمانية عشر عاماً، حين كان ولداً انعزاليًّا يسهل ركله، وكان رفلز ضخماً كأدونيس في الحانات والغرف الخلفية للمطاعم، لكن الحظ يحالف ريج الآن، وربما توقع الذين يستمعون إلى هذا الحوار، هروب رفلز ككلب مهزوم. ليس كذلك على الإطلاق لقد أبدى إيماءة على وجهه تشبه تلك التي يبديها عندما يخسر لعبة، ثم انفجر ضاحكاً، وأخرج زجاجة من جيبه.

قال متملقاً: «هيا يا جوش، أعطنا مقدار ملعقة من البراندي، وأجور العودة عندها سأذهب، أقسم على ذلك، سأذهب منطلقاً كرصاصة، أقسم بجوبيتر!».

قال ريج مخرجاً من جيبه حزمة من المفاتيح: «تذكر، إذا رأيتك ثانية لن أتكلم إليك، لا شأن لي معك، وإذا أردت أن تقيم علاقة معي لن تحصل على شيء لأنك حقود وقح ومؤذ».

قال رفلز متظاهراً بحك رأسه رافعاً حاجبيه محاولاً إظهار ارتباك: «هذا مؤسف يا جوش، إنني أحبك أقسم بجوبيتر إنني كذلك! إنني لا أحب شيئاً أكثر من مضايقتك، إنك تشبه أمك جدًّا، لكن البراندي وأجور العودة ضرورية».

مد الزجاجة نحو ريج الذي ذهب ليفتح خزانة خشبية أنيقة بمفاتيحه، لكن رفلز أخذ زجاجته عن الأرض بعد أن أفلتت من غطائها الجلدي، فلما رأى ورقة سقطت على سياج المدفأة، أخذها ودسها بين الغلاف الجلدي والزجاجة لتصبح آمنة. عاد ريج وملأ الزجاجة بالبراندي، وأعطاه أجرة العودة دون أن ينظر إليه أو يتكلم معه، وأقفل الخزانة ثانية ثم ذهب نحو النافذة، وراح ينظر إلى الخارج بسذاجة كما كانت عليه الحال في البداية. بينما تناول رفلز جرعة صغيرة من الزجاجة، ثم أغلقها ودسها في جيبه، وكشر ناظراً إلى ظهر ابن زوجته. قال رفلز، وهو يفتح الباب: «وداعاً، يا جوش وإلى الأبد».

رآه ريج يغادر الحديقة، ويسير في الشارع. تغير الطقس عندها، وبدأ المطر يهطل قليلاً، فأنعش أزهار السياج والعشب على جانبي الطريق، وأجبر العاملين الذين كانوا يحملون الذرة على أن يسرعوا. لقد كان رفلز يسير متوتراً في البلدة إذ كان مضطراً للسير على أقدامه في الريف ليبدو نقيضاً لهدوء الريف والعمل، وليبدو قرداً هرب من معرض الوحوش، ولكن لم يكن يحدق به أحد سوى العجول الرضيعة، ولا أحد يكره منظره سوى جرذان الماء التي كانت تهرب كلما اقترب منها.

كان محظوظاً جدًّا إذ صادف عربة أجرة عندما وصل إلى الشارع الرئيسي، فنقلته إلى براسنغ، حيث أخذ القطار الجديد، ولقد أبدى للركاب من حوله سعادته بإنشاء هذا الخط خدمة لمنطقة هسكيسون، كان رفلز في مثل هذه المناسبات يتعمد إظهار حقيقة أنه تلقى تعليمه في أكاديمية، وأنه قادر على اجتياز المصاعب في كل مكان وبسهولة.

حقًّا لم يكن أحد من الآخرين يسمح لرفلز أن يحقره، أو يعذبه، فقد كان متأكداً من أنه أمتع سائر المسافرين من حوله. قام بدوره هذا، وكأن رحلته قد كللت بالنجاح، وكان يتناول رشفات من البراندي بين الآونة والأخرى. أما الورقة التي دسها بين الغطاء الجلدي والزجاجة كانت تحمل توقيع نيكولوس بولسترود، لكن رفلز لم يشأ أن يحركها من وضعها الحالي المفيد.

الفصل الثاني والأربعون

كم أستطيع أن أزدري هذا الرجل، لولم يقيّدني عطاؤه الخيّر.

هنري الثامن - وليم شكسبير

إحدى الزيارات الطبية التي قام بها ليدجيت، كانت إلى لُوِيك بموجب رسالة تلقاها، وكانت تطلب منه أن يحدّد موعداً لزيارته. لم يطرح السيد كزابون أسئلة حول حالته الصحية على ليدجيت، كما أنه لم يخف على دورثيا قلقه حول المدى الذي ينبغي له فيه أن يقلّص من أعماله، أو نشاطه الحياتي اليومي في هذا الأمر، كما هو في جميع الأمور الأخرى، كان يغضب من عطف الآخرين عليه، كان يشعر بمرارة إذا ما انتابه شك في أنّ أحداً قد عطف أو أشفق على أمر يعرفه، أو حتى يخمّنه وإنّ فكرة ما يستدعي العطف والتعاطف معه، نتيجة لتنبيه أو أسف يصدر عنه، كانت لا تطاق بالنسبة إليه كليّاً. فكلّ صاحب فكر محترم لا بد من أنّه قد مرّ بمثل هذه التجربة، وربما لا يمكن التغلب عليها إلا من طريق الصحبة الصادقة والعميقة، التي يمكنها أن تجعل جميع الجهود المبذولة في العزلة تبدو قاسية وتافهة، بدلاً من أن تكون موضع احترام.

إلا أن السيد كزابون يطيل التفكير الآن في أمر، من خلاله تسببت حياته وحالته الصحية بالتزامه الصمت بكثير من الانزعاج الشديد، وكذلك من خلال تأليفه الباهت وغير الناضج. حقًّا يمكن أن يدّعي هذا الأخير طموحه الأساسي، لكن بعض أنواع التأليف تكون أغلب نتائجها كتلة من المشاعر المعقدة، تراكمت في وعي المؤلف، إذ يمكن لأي واحد أن يعرف أن هناك نهراً لمجرد رؤيته خطوطاً تجمع فيها طين مزعج. هكذا كانت طريقة السيد كزابون في عمله الفكري الصعب، إذ لم تكن أهم نتائجه «مفتاح علم الأساطير»، التي لم تكن سوى إدراكه الكئيب بأن الآخرين لم يمنحوه المكانة التي لم يبرهن على أنه يستحقها - إذ لم يكن إحساسه بالشك الدائم لصالحه، إلا أنه كان مصدر متعة له - والغياب المؤثر للعاطفة عن جهوده وقت الإنجاز، والرفض الذاتي للاعتراف بأنه لم يحقق أي شيء.

هكذا كان طموحه الفكري، الذي بدا للآخرين وكأنه قد أنهكه وسبّب له الهزال، لم يشكل له أماناً ضد الجروح،على الأقل تلك التي سبّبتها له دورثيا، وقد بدأ الآن يضع احتمالات مستقبلية كانت بالنسبة إليه أكثر مرارة من أي شيء آخر شغل فكره من قبل.

لقد كان يائساً تجاه بعض الحقائق.. تجاه وجود لادسلو، وبقائه الاستفزازي بالقرب من لُويك، وتفكيره الوقح بشأن المالكين الأصليين، والمتميّزين بالمعرفة الواسعة.. كما كان يائساً تجاه طبيعة دورثيا التي كانت دائما تأخذ شكلاً جديداً من النشاط الحيوي، وحتى في حالة خنوعها وصمتها، لتغطي أسباب الحماس كانت تثير إزعاجاً لدى التفكير فيها.. كما كان يائساً تجاه بعض الأفكار والرغبات المحددة التي سيطرت على تفكيرها، وهي تتعلق بمواضيع ربما لا يستطيع أن يناقشها معها. لا يمكن إنكار أن دورثيا شابة لطيفة وصاحبة فضيلة، فهي تمثل أفضل زوجة يمكن أن يتمناها لنفسه، ولكن تبين أن هذه الشابة قد تحولت إلى مصدر متاعب أكبر مما توقع.

كانت تقوم على رعايته، وكانت تقرأ له، وكانت تؤدّي له سائر حاجاته، كما كانت تقلق على مشاعره، لكن يقيناً قد سيطر على عقل زوجها أنها قد حكمت عليه، وأن التزامها الزوجي كانت بمثابة كفارة عن أفكار لا يمكن قبولها، ورافق ذلك مقارنة تنظر من خلالها إليه وإلى أفعاله بإعجاب على أنها جزء من العالم. لقد مرّ عدم رضاه كغمامة صيف عبر مظاهر حبها اللطيفة، ثم تعلق بذاك العالم الذي لا يلقى تقديراً على الرغم من أنها جلبته بالقرب منه.

يا لكزابون المسكين...! لقد كانت هذه المعاناة أقسى من أن يتحملها لأنها بدت تضليلاً وخداعاً. فالمخلوقة الشابة التي أخلصت له بثقة تامة، قد تحولت بسرعة إلى زوجة ناقدة، وبما أن مجالات النقد المبكر والنفور قد ولّدت انطباعاً لم تستطع أيّ رعاية أو اهتمام أو خنوع بعد ذلك أن تزيله.

وإن تفسيره، الذي يقوم على الشك في صمت دورثيا كما لو أنه يمثل تمرداً مكبوتاً ؛ كما كانت أيّ إشارة غير متوقعة تصدر عنها تمثل تأكيداً على فوقيته ؛ كما كانت أجوبتها المهذبة تحمل حذراً مربكاً، وحين كان تطوّعها، كان ذلك يمثل تأكيداً على صبرها وتحملها.

إن العناد الذي استخدمه في كفاحه ليخفي داخله هذه المسرحية،جعلها تبدو جليّة أكثر بالنسبة إليه، فإننا نصغي باهتمام بالغ إلى ما نتمنى ألّا يسمعه الآخرون، بدلاً من

التأمل في نتيجة مأساة السيد كزابون. أعتقد أن من الطبيعي ألا يمكن للطخة صغيرة، قريبة من أعيننا أن تمحو مجد العالم، وتترك لنا هامشاً صغيراً نرى من خلاله الفراغ فقط؟... أنا لا أعرف لطخة متعبة كتلك. إذا اختار السيد كزابون أن يظهر عدم رضاه وشكوكه على أنه لم يعد محبوباً دون نقد، من يستطيع أن ينكر أن هذه الشكوك وعدم الرضى ليست نتاجاً لأسباب حقيقيّة؟ بل على العكس فقد كان هناك سبب قوي لم يأخذه في الاعتبار يدل على أنه كان محبوباً. كان يشك في هذا الأمر تماماً كما كان يشك في الأمور الأخرى دون أن يعترف بشكه، وتماماً مثلنا، كان يشعر كم سيكون لطيفاً لو كان لديه صاحبة لا تكتشف ذاك الشك.

لقد ثارت هذه المشاعر المحتقنة في ما يتعلق بدورثيا قبل أن يعود لادسلو إلى لُويك، وما حدث منذ ذلك الوقت قد حوّل بنية قوة الشك لدى السيد كزابون إلى غضب محتدم. بالإضافة إلى الحقائق التي كان يعرفها، فقد أضاف حقائق خيالية في حاضره ومستقبله أصبحت أكثر واقعية بالنسبة إليه أكثر من سابقتها، لأنها كانت تستدعي كراهية أكبر والإحساس بمرارة مسيطرة.

إن الشك والغيرة من نوايا لادسلو، والشك والغيرة من انطباعات دورثيا كانت دائمًا محتدمة. ليس من العدل الافتراض أنه دخل طور إساءة الفهم بدورثيا.. فعادته في التفكير والتعامل، تماماً مثل السمو المنفتح لطبيعتها، أنقذته من ارتكاب مثل هذا الخطأ.

وما كان يغار منه هو وجهة نظرها وتغيّر الرأي الذي يمكن أن يطرأ على تفكيرها المتحمس فيؤثر على أحكامها، والتوقعات المستقبلية التي يمكن أن تقودها. أما بالنسبة إلى ويل، فعلى الرغم من أنه لم يكن لديه شيء محدد يجعله يدعي ضده، حتى كتب رسالة التحدي الأخيرة، كان يشعر أنه مبرر له أن يعتقد أنه أهل لأي نموذج. يمكن أن يخلق مزاجاً متمرداً أو اندفاعاً غير منضبط. لقد كان متأكدًا تماماً أن دورثيا كانت السبب وراء عودة لادسلو من روما، وتصميمه على الاستقرار في جوارهما، وكان على درجة عالية من الذكاء تكفيه كي يتصور أن دورثيا قد شجعت بعفوية على هذا الأمر. لقد كان من الواضح تماماً أنها كانت مستعدة للارتباط بويل وأن تكون مرنة تجاه اقتراحاته.. فهما كلما تحادثا على انفراد نجم عن ذلك انطباع بغيض، وآخر مقابلة عرف بها السيد كزابون كانت تلك التي لم تفصح عنها دورثيا بعد عودتها من فريشت هول، وقد أدى ذلك إلى اشتعال غضب لم يشعر به السيد كزابون ضدهما من قبل. وإفصاح دورثيا عن آرائها حول المال في عتمة الليل لم يأت بشيء

سوى مزيج من نذر الشر في تفكير زوجها.

كما كانت الصدمة حول وضعه الصحي تثير الحزن دوماً، لقد استعاد نشاطه من جديد. واستعاد جميع قواه في العمل.. فقد كان المرض مجرد تعب أو إنهاك وربما لا يزال أمامه عشرون عاماً من العمل يمكن أن تبرر الثلاثين عاماً الماضية في التحضير. لقد زين ذلك العمل بطعم الانتقام من نظرات كارب وشركائه الساخرة السريعة ؛ فكلما كان السيد كزابون يحمل مصباحه بين قبور الماضي، يأتي أولئك الذين يمثلون الحداثة ليعترضوا ذلك الضوء الخافت، ويقاطعوا اكتشافاته الفذة، وكي يقنع كارب بخطئه، ويجعله يلتهم كلماته على الرغم من عسر هضمها، كان عليه أن يقوم بتأليف يحقق له النصر والفوز، ويستحضر مشهد حياة الأجيال القادمة على الأرض وجميع الكائنات الأبدية في السماء. عندما لم تحبط رؤيته المسبقة لسعادته اللامتناهية طعم الغيرة المثار المرير ومبرراته، لم يكن مدهشاً وجود السعادة التافهة العابرة لدى الآخرين، بينما هو يحلق في سماء المجد والعظمة التي تشعره بالرضى. ولو كانت الحقيقة مرضاً يتلف صحته وهي تعمل في داخله، لكانت هناك فرصة كبيرة أمام بعض الناس كي يكونوا سعداء عندما يذهب، وإذا كان أحد هؤلاء لادسلو لعارض ذلك السيد كزابون بقوة شديدة حتى ليبدو وكأن الإزعاج يساهم في فنائه.

إنها طريقة جوفاء وناقصة في عرض القضية. تتحرك الأرواح البشرية في قنوات عديدة، والسيد كزابون، كما نعلم، يمتلك سداد الرأي والكبرياء المشرفين في إشباع متطلبات الرفعة، التي تجبره على إيجاد طرق أخرى لتعامله تختلف عن طرق الغيرة وتبريرها.

الطريقة التي عرض السيد كزابون القضية من خلالها كانت هكذا..: «بزواجي من دورثيا بروك كان علي أن أرتب لها حياة سعيدة في حال وفاتي. إلا أنه لا يمكن أن تؤمن الحياة السعيدة من خلال الوفرة فقط، فاستقلالها بملكية تخصها يمكن أن تكون على العكس إذ يمكن في مثل هذه الظروف أن تعرضها هذه الملكية لخطر أكبر، فهي يمكن أن تكون ضحية جاهزة لأي رجل يلعب ببراعة على حماسها العاطفي، أو حماسها الدونكيشوتي الوهمي، رجل يتربص بها يحمل في ذهنه ذلك الهدف، رجل لا يحمل مبدأ سوى نزوة عابرة، وينتابه حقد شخصي تجاهي، إنني متأكد من هذا.. حقد قد تغذى على عدم الامتنان وكان يتغنى به دائماً بسخرية وتهكم، وإنني لمتأكد منه وكأنني قد سمعته.

حتى إذا بقيت على قيد الحياة فإنني لن أتساهل تجاه محاولات تأثيره غير المباشرة. لقد فاز هذا الرجل باهتمام دورثيا، ولقد أسر انتباهها، ولقد حاول بوضوح أن يؤثر في

تفكيرها بحجة أن له الحق في مطالب تتجاوز ما قدمت له. إذا مت، وهو ينتظر هذا هنا، فهو سيقنعها بالزواج منه. ستكون هذه الكارثة بالنسبة إليها، والنجاح بالنسبة إليه. إنها لن تنظر إليها ككارثة.. فهو سيجعلها تصدق كل شيء، ولا سيما أن لديها ميلاً للارتباط غير المعتدل الذي تلومني عليه في داخلها لعدم التجاوب معه، وأن تفكيرها منشغل مسبقاً في ما تعتقد أنه حقه في الإرث. إنه يفكر في مغنم سهل وكذلك في دخول عشي، فذلك ما سأمنعه... مثل هذا الزواج سيكون قاتلاً لدورثيا.

هل واظب على شيء سوى الإنكار والإزعاج...؟ وذلك ليحاول دائماً إظهار نفسه مقابل أبخس الأثمان. فدين يحاول أن يكون دائماً الصدى التلقائي لرغبات دورثيا وتقلباتها. متى كانت الدعوة للعلم ترتبط بالانحلال...؟ إنني لا أثق بأخلاقه البتة، وإنه لمن واجبي أن أمنع تماماً تحقيق مآربه.

لقد تركت الترتيبات التي اتخذها السيد كزابون عند زواجه مجالاً مفتوحاً أمامه، ولكن لدى التفكير بها، كان ينشغل فكره عميقاً بالاحتمالات الكثيرة جدًّا حول حياته الخاصة إلى حدّ أن التوق إلى أقرب حذر ممكن قد تغلب أخيراً على صمته المتكبر، وقد أجبره على أن يطلب رأي ليدجيت حول طبيعة مرضه. كان قد ذكر مسبقاً لدورثيا أن ليدجيت سيأتي بموجب موعد في الساعة الثالثة والنصف، ولدى جوابه عن سؤالها القلق ما إذا كان يشعر بالمرض أجاب: «كلا...! فقط أردت أن أعرف رأيه في بعض الأعراض الاعتيادية. لا حاجة في رؤيتك له يا عزيزتي. سأطلب أن يرسل به إلي في ممشى أشجار الطقسوس حيث أكون عندها أزاول تماريني المعتادة».

عندما دخل ليدجيت ممشى أشجار الطقسوس، رأى السيد كزابون يشد ظهره إلى الوراء ويداه خلف ظهره حانياً رأسه إلى الأمام بحسب عادته. لقد كان الطقس لطيفاً وقت العصر، وكانت تتساقط أوراق من على أغصان أشجار الزيزفون، المرفوعة بصمت عبر الأوراق الدائمة الخضرة الداكنة، بينما كان الضوء يتشابك مع الظل جنباً إلى جنب، ولم يكن هناك أصوات سوى نعيب الغربان الذي كان بمثابة ترنيمة بالنسبة إلى الآذان التي اعتادت على سماعه، أو بمثابة تهليلة حزينة أخيرة.

ليدجيت، الذي كان يدرك إطار النشاط عندما يكون في بدايته، شعر ببعض التعاطف نحو الشخص الذي كان يحاول أن يستدير ليقترب منه، قد بدأت عليه علائم شيخوخة مبكرة أكثر من قبل؛ كتفا الطالب المنحنية وأطرافه الهزيلة وتجاعيد الفم الحزين.

قال لنفسه: «يا للمسكين...! بعض الرجال في عمره أقوياء كالأسود إذ لا يمكن لأحد أن يتنبأ بعمرهم إلا عندما تتقدم بهم السن».

قال السيد كزابون بأدبه المعتاد: «السيد ليدجيت!! إنني ممتن جدًّا لك على دقتك في المواعيد. سنتابع حديثنا ونحن نسير ذهاباً وإياباً لو سمحت».

«أتمنى أنك لم تطلب رؤيتي نتيجة عودة أعراض غير سارة؟» قال ليدجيت محاولًا أن يملأ فراغ الصمت.

«كلا... ليس في الوقت الحاضر. كي تكون هناك قيمة لذلك الطلب، لابد لي من أن أذكر أن حياتي تستمد أهميتها من الأعمال غير المكتملة التي استهلكت معظم أفضل سنواتها. باختصار لقد مضى علي وقت طويل وأنا أنجز عملاً، سأكون مسروراً أن أتركه خلفي، إذا ما تيقنت أن أحداً سيقوم بطباعته من بعدي. لو حصلت على نوع من هذا التأكيد، لكان هذا التأكيد يشكل إطاراً مفيداً لمحاولاتي، ولكان مرشداً لتوجهات عملي الإيجابية والسلبية».

توقف هنا السيد كزابون، وحرك إحدى يديه من خلف ظهره، ثم دس أصابعها في فتحات أزرار صدريته. بالنسبة إلى مفكر خبير بقدر البشرية، لاشيء يمكن أن يمتعه أكثر من انعكاس صراعه الداخلي على كلامه الرسمي الدقيق، الذي يخرج على إيقاع حركات رأسه، ونغمات صوته المعتادة.

هل هناك حالات كثيرة أكثر مأسوية من صراع الروح مع ضرورة التنازل عن العمل الأكثر أهمية في حياته...؟؟ أهمية ينبغي لها أن تختفي كما يأتي الماء، ثم يذهب حيث لا يوجد إنسان يحتاجه.. ولكن لم يكن يوجد شيء عظيم لدى السيد كزابون يمكن أن يؤثر في الآخرين، والسيد ليدجيت، الذي كان يزدري العلم التافه، شعر بمتعة بسيطة تمتزج بأسفه وأساه على السيد كزابون.

لم يكن يعي المأساة، لذلك لم يتعاطف مع قدر يبدو فيه كل شيء تحت مستوى المأساة، باستثناء الغرور المشتعل لدى المعاني.

قال متمنيًّا أن يرفع معنويات السيد كزابون الذي بدا محبطاً بسبب تردده: «إنك تشير إلى العراقيل المحتملة نتيجة لتدهور الصحة..».

«نعم... هو كذلك. إنك لم توضح لي أن الأعراض التي تجبرني على أن آخذها في

الاعتبار باهتمام دقيق، هي أعراض مرض مميت، ولكن يا سيد ليدجيت مهما كانت تلك الأعراض فإنني أرغب في معرفة الحقيقة دون تحفظ، وإنني أطلب منك أن تقدم لي بدقة النتائج التي توصلت إليها.. إنني أطلب ذلك منك كخدمة تقدمها لصديق. إذا كنت تستطيع أن تخبرني أن حياتي لا يهددها أي شيء سوى الحالات الطارئة، فإنني سأبتهج ابتهاجاً عظيماً، وإلا، فإن معرفتي للحقيقة ستظل مهمة بالنسبة إليّ».

قال ليدجيت: «إذا... لا يمكن لي أن أظل متردداً في أداء واجبي.. ولكن أول شيء يجب أن أؤكده لك، هو أن النتائج التي توصلت إليها مستبعدة على نحو مؤكد... ليس مؤكداً نتيجة العصمة من الخطأ، لكن أمراض القلب من الصعب جدًّا التنبؤ بها... من الصعب جدًّا على المرء أن يزيد من فرص العيش».

انتفض السيد كزابون بقوة، وحنى رأسه. «أعتقد أنك تعاني من هبوط في القلب.. إنه مرض اكتشفه أول مرة لينيك.. هو الرجل الذي اخترع سماعة الطبيب منذ سنين قليلة. لا يزال المرض في حاجة إلى خبرة ومراقبة طويلة ومكثفة، ولكن بعد الذي قلته، فإن من واجبي أن أقول لك: إن الموت نتيجة لهذا المرض يكون عادة مفاجئاً..!! في الوقت عينه.. لا يمكن التنبؤ بمثل هذه النتيجة، ربما يمكن لحالتك الصحية أن تظل مستقرة بوجود حياة مريحة ومقبولة لخمسة عشر عاماً أو أكثر. ولا يمكنني أن أضيف أي معلومات إلى هذه المعلومات الطبية والتشريحية».

لقد كانت غريزة ليدجيت لطيفة جدًّا إلى حدّ جعله يخبر السيد كزابون بصراحة تامة بعيداً تماماً من الحذر مما جعل السيد كزابون يشعر باحترام شديد تجاهه.

قال السيد كزابون بعد أن صمت قليلاً: «أشكرك يا سيد ليدجيت. لدي شيء آخر أود أن أسأل حوله.. هل أوضحت ما قلته ليلاً للسيدة كزابون...؟؟».

«بشكل جزئي... أعني بما يتعلق بالاحتمالات... ». أراد ليدجيت أن يوضح ماذا أخبر دورثيا، لكن السيد كزابون وبرغبة مؤكدة على أن ينهي المحادثة، لوح بيده قليلاً وقال ثانية: «إنني أشكرك». متابعاً حديثه حول جمال الطقس والطبيعة في ذلك اليوم.

لما تأكد السيد ليدجيت من أن مريضه يرغب في البقاء لوحده غادر مباشرة، وتابع الرجل الموشح بالسواد سيره، ويداه خلف ظهره ورأسه منحنٍ إلى الأمام بين أشجار الطقسوس الداكنة التي منحته بكآبة صحبة خرساء، وبينما كان ظلّ الطيور الصغيرة وأوراق الشجر

التي اعترضت أشعة الشمس، ينسل بصمت كما لو كان في حالة حزن شديد وأسىً.

هو رجل وجد نفسه لأول مرة ينظر في عيون الموت المحدقة به، وهو يمر في لحظات تجربة نادرة. عندما نشعر بحقيقة مكان عام يختلف عما ندعي أننا نعرفه، كاختلاف رؤية الماء فوق الأرض عن رؤية المحموم للماء الذي لا يمكن له أن يبرد اللسان المحترق.

«لا بد لنا جميعاً من أن نموت». عندما يتحول المكان العام فجأة إلى شعور خطير... «لا بد لي من أن أموت، وحالاً». عندها يمسك الموت بنا بأصابعه القاسية، وبعد ذلك يمكن أن يأتي إلينا ليلفنا بذراعيه كما تفعل أمهاتنا، فتصبح آخر لحظة من حياتنا معتمة كأول واحدة منها. بالنسبة إلى السيد كزابون الآن، فقد وجد نفسه وكأنه يقف عند حافة نهر مظلم، ويسمع صوت رشقات الماء الصادرة عن حركة المجداف دون أن يميز الأشكال، لكنه يتوقع الاستدعاء. في مثل هذه الساعة لا يغير التفكير من خط حياته، لكنه يتابع مسار خياله في الجانب الآخر من الموت محدقاً إلى الوراء... ربما بإحساس مقدس خاشع، وربما بقلق تافه نابع من تأكيد ذاتي. ما كان عليه منهج السيد كزابون، ستوضحه لنا أفعاله. لقد أراد أن يكون مسيحيًّا مؤمناً بما يتعلق في تقييم الحاضر وآمال المستقبل، مع بعض التحفظات العلمية الخاصة.

ولكن ما نكافح لأجله، على الرغم من أننا ندعوه بالأمل البعيد، هي رغبة فورية.. فالمدينة المستقبلية التي يكدح لأجلها الرجال، قائمة مسبقاً في خيالهم وحبهم. ورغبة السيد كزابون الفورية لم تقم على المزج بين الوحدة السماوية وضياء المجرة للأحوال الأرضية؛ فاشتياقه العاطفي تعلق بأحلام واهية المستوى، وكالضباب في أماكن ضبابية.

لقد عرفت دورثيا بذهاب ليدجيت، فخرجت إلى الحديقة تدفعها الرغبة للحاق بزوجها، لكنها ترددت قليلاً خشية أن تسيء لمشاعره بتطفلها ؛ فحماسها الذي كان دائمًا جارفاً، قد أدى بالاشتراك مع ذاكرتها الدقيقة في زيادة خوفها، وتحول قوتها العنيدة إلى اضطراب، وسارت ببطء حول مجموعة من الأشجار حتى رأته يقترب منها. عندها ذهبت تجاهه، وربما مثلت دور ملاك أرسل من السماء على موعد كي يؤكد على وجوب ملء الساعات القليلة المتبقية بالحب المخلص، الذي يتشبث بالأسى. لقد رد على نظرتها ببرود شديد حتى إنها شعرت بقلبها قد تجمد، وعلى الرغم من ذلك فقد استدارت ودست يدها تحت ذراعه. إلا أن السيد كزابون أبقى يديه خلف ظهره وسمح ليدها الغضة أن تندس بصعوبة تحت ذراعه القاسية.

لقد شعرت دورثيا برعب شديد سببه لها رد فعله القاسي معها، تلك كانت كلمة قاسية لكنها ليست قاسية جدًّا.. فمثل هذه التصرفات يمكن أن ندعوها بالتفاهات، حيث تضيع بذور السعادة إلى الأبد، وحتى ينظر الرجال والنساء بعضهم إلى بعض بوجوه متجهمة وعاجزة لما جرته عليهم خسارتهم من دمار وخراب، ويقولون.. لا تحمل الأرض على جنباتها حصاداً للسعادة، وهم يستدعون معرفتهم المنكرة. يمكن أن تسأل لماذا، باسم الرجولة، تصرف السيد كزابون هكذا؟ اعتبر أن طريقته كانت تمثل فكراً ينفرمن العطف.. هل رأيت مرة تأثير الشك والريبة في مثل هذا الفكر، الذي يضغط عليه الأسى، فيصبح مصدراً حقيقيًّا للقناعة والرضا، إما في الحاضر أو في المستقبل لمن يساء له، عندما يشفق عليه؟!!. بالإضافة إلى ذلك، فقد عرف القليل فقط عن مشاعر دورثيا، ولم يفكر في مثل هذه المناسبة الحالية، فقد كانت مشاعرها بالنسبة إليه تشبه مشاعره تجاه نقد كارب له. لم تسحب دورثيا يدها من تحت ذراعه، لكنها لم تتجرأ على الكلام، والسيد كزابون لم يقل: «إنني أرغب في أن أكون لوحدي».. لكنه توجه بصمت إلى المنزل، وعندما دخل من الجهة الشرقية عبر الباب الزجاجي، سحبت دورثيا يدها، وتباطأت عند ممسحة الأرجل لتدع زوجها حرًّا. دخل إلى المكتبة وأقفل على نفسه وحيداً.

صعدت إلى الطابق العلوي ودخلت إلى مخدعها، ثم فتحت النافذة المقوسة، لتدع روعة السكون بعد الظهيرة الممتد عبر زقاق حيث ظلال أشجار الزيزفون الشرقية يدخل غرفتها. لكن دورثيا لم تع شيئًا من هذا المشهد، وألقت بنفسها على كرسي دون أن تنتبه أنها تجلس تحت أشعة الشمس القوية.. لو كان في ذلك مضايقة لها، فكيف لها أن تعي ذلك، إذ لم تكن تشكل جزءاً من تعاستها الداخلية؟ لقد كانت في ثورة غضب، هي الأقوى منذ أن تزوجت. بدلاً من الدموع.. خرجت من فمها كلمات: «.. ماذا فعلت؟.. من أنا كي يعاملني هكذا؟ إنه لا يعرف على الإطلاق ماذا في ذهني.. إنه لا يهتم أبداً. ما فائدة أي شيء أفعله؟ إنه يتمنى لو لم يتزوجني».. بدأت تسمع نفسها، واستسلمت كمن أضاع طريقه وهو منهك.

جلست ورأت بنظرة واحدة جميع آمالها الفتية التي لن تجدها ثانية أبداً. وتماماً كما هي تجلس في الضوء التعيس رأت نفسها وعزلة زوجها... كيف مشيا منفصلين، فأجبرت على تفحصه. لو سحبها إلى جانبه لما تفحصته، ولما قالت: «هل يستحق أن أعيش من أجله؟». ولكن لشعرت ببساطة بانفصاله عن حياتها. لقد قالت الآن بمرارة... «إنه خطأه وليس خطئي»... لقد انسحبت الشفقة من صميم قلبها. هل كان خطأها عندما آمنت به؟ وعندما

آمنت بقدره... وماذا كان هو بالضبط؟ لقد كانت قادرة على تقييمه، فهي التي انتظرت نظراته مرتجفة، فحبست روحها في سجن لا تزوره إلا خلسة وخفية، ورغبت في أن تسعده.

في مثل هذه الأزمات تبدأ بعض النساء يكرهن. اقتربت الشمس إلى الغروب، عندها فكرت دورثيا في ألا تنزل إلى الطابق السفلي ثانية، بل سترسل خبراً لزوجها يقول: إنها ليست على ما يرام وتفضل البقاء في الطابق العلوي. إنها لم تسمح من قبل لكراهيتها أن تتحكم بها هكذا، لكنها تعتقد الآن أنها لا تستطيع أن تراه دون أن تخبره بمشاعرها، ويجب أن تنتظر لتفعل ذلك دون مقاطعة. ربما يصدم ويتألم لرسالتها. إنه من الأفضل أن يصدم ويتألم.

قال غضبها كما اعتاد القول: إن الرب معها... وإن جميع السموات إلى جانبها، على الرغم من أنها كانت ممتلئة بالأرواح التي كانت تراقبها. قررت أن تقرع جرسها عندما قرع الباب.

لقد أرسل السيد كزابون قائلًا: إنه سيتناول عشاءه في المكتبة، فهو يرغب في البقاء لوحده تماماً هذا المساء... «إذاً لن أتعشى يا تنترب».

«آه يا مدام.. دعيني أجلب لك قليلاً من الطعام؟»

«كلا... لست على ما يرام، هيئي كل شيء في غرفتي ولكن أرجوك ألّا تزعجيني ثانية».

جلست دورثيا بلا حراك ولا شعور، متأملة في صراعها الداخلي بينما كان المساء يغرق في عتمة الليل ببطء، لكن صراعها كان يتغير باستمرار كصراع ذلك الرجل الذي يبدأ بحركة نحو الإضراب، وينتهي بسيطرته على رغبته.إن الطاقة التي تحرض على الجريمة ليست أكثر مما هو مطلوب لاستلهام الحل، وهو الخضوع عندما تؤكد الروح النبيلة نفسها عادة. تلك الفكرة التي خرجت دورثيا كي تقابل بها زوجها.. اتهامها له أنه كان يريد أسرها لأجل عمله، وأن جوابها قد فطر قلبه، لا يمكن أن يظل طويلاً دون أن يقف إلى جانب خياله كما تنظر إلى غضبها صورة خيالية باحتجاج حزين. إن هذا يكلفها ابتهالاً مع أحزان مصورة،وصرخات صامتة، لتكون هي رحمة لتلك الأحزان.. لقد أتى الخضوع، ولمّا كان البيت ساكناً وهادئاً، وعرفت أن الوقت قد اقترب من موعد ذهاب السيد كزابون للنوم، فتحت بابها بهدوء، ووقفت في الخارج صامتة في الظلام، منتظرة قدومه إلى الطابق العلوي، وفي يدها شمعة.

إذا لم يأت فوراً، فكرت في أن تنزل إلى الطابق السفلي وتغامر بالقرع على الباب. عندها لن تتوقع أي شيء آخر، لكنها سمعت باب المكتبة يفتح، وراح الضياء يقترب ببطء إلى أعلى الدرج دون صوت لوقع أقدام على السجاد. عندما وقف زوجها في مواجهتها، رأت وجهه أكثر شحوباً وإنهاكاً. أجفل قليلًا عندما رآها، ونظرت هي إليه بتوسل دون أن تتكلم فقال بدهشة لطيفة ظهرت على صوته: «دورثيا... هل كنت تنتظرينني؟».

«نعم لم أشأ أن أزعجك».

«تعالي يا عزيزتي..!! تعالي إنك شابة، وينبغي ألا تقضي حياتك بالانتظار»... عندما وقع ذلك الكلام الحزين اللطيف الهادئ على أذني دورثيا، شعرت بشيء يشبه الشكر الذي يبرز في داخلنا، عندما لا ننزلق إلى إيذاء مخلوق أعرج. وضعت يدها تحت ذراع زوجها وذهبا سوية عبر ممر عريض.

الكتاب الخامس

اليد الميتة

الفصل الثالث والأربعون

لهذا الجسد ثمن باهظ:

فقد صنعه الحب بأفخر أنواع العاج...

لا يطابق فيه شيء من الزي الحديث،

وفيه نبل ونقاء وأنوثة كريمة تلائم جميع الأزمان.

هذه أيضاً سلعة باهظة الثمن؛

خزف مزخرف ببراعة يبهج نظر السادة:

إذ ترى الكمال في الابتسامة...

وهي جميلة كالخزف المزخرف!!

وتوضع على منضدة تناسب أكثر الأماكن ثراء.

نادراً ما كانت دورثيا تغادر المنزل دون صحبة زوجها، لكنها في بعض المناسبات كانت تذهب لوحدها إلى مركز مدل مارش بهدف التسوق، أو القيام بعمل خيري، كما يحصل لأيّ سيدة ثرية تعيش على بعد ثلاثة أميال من مدل مارش. بعد يومين من مشهد ممر شجرة الطقسوس، قررت أن تغتنم فرصة كي ترى ليدجيت، لتعرف منه ما إذا كان زوجها قد شعر حقًّا بأعراض مقلقة ظلت خفية عنها، وإذا ما ألح كي يعرف الكثير عن حالته.

كانت تشعر بقليل من الذنب لسؤالها شخصاً آخر عن حالته، لكن خشيتها من عدم معرفتها للأمور، وخشيتها من أن جهلها يمكن أن يجعلها قاسية أو غير عادلة تغلبت على جميع شكوكها. لقد كانت متأكدة من أن تفكير زوجها كان يمر بأزمة، فقد بدأ في اليوم التالي طريقة جديدة في ترتيب نقاط بحثه، وبدأ يشركها من جديد في تنفيذ خطته. كان على دورثيا المسكينة أن تستعين بخزان من الصبر.

كانت الساعة الرابعة عندما ذهبت إلى منزل السيد ليدجيت في لُوِيك جيت، وعندما شكت في وجوده، تمنت لو كتبت له قبل قدومها، فهو لم يكن في المنزل.

قالت دورثيا التي لم تعرف روزموند من قبل: «هل السيدة ليدجيت في المنزل؟».

«نعم إن السيدة ليدجيت في المنزل».

«سأدخل لأتحدث إليها لو سمحت لي... هل لك أن تسألها ما إذا كانت تستطيع لقائي؟!!... أعني أن ترى السيدة كزابون للحظات».

عندما ذهب الخادم لينقل الرسالة، سمعت دورثيا صوت موسيقى ينبعث من النافذة المفتوحة، ثم صوت رجل يتحدث، ثم صوت عزف على البيانو، لكن العزف توقف مباشرة، ثم عاد الخادم ليقول: «إن السيدة ليدجيت يسرها أن ترى السيدة كزابون».

عندما فتح باب غرفة الاستقبال، ودخلت دورثيا، ظهرت فوارق كانت سائدة في حياة الريف آنذاك، عندما لم تكن عادات الطبقات المختلفة تتمازج كما هي الحال في أيامنا هذه. دع أولئك الذين يعرفون كيف كانت تبدو ثياب دورثيا في أيام فصل الخريف يخبروا... لقد كان رداء أبيض صوفيًا رقيقاً، لطيف الملمس والمنظر، وكان دائماً يبدو وكأنه قد غسل للتو، وتفوح منه رائحة العطر، وكان يشبه المعطف، فإذا ما دخلت على جمهور كابنة لإموجين أو كيتون لكان ذلك اللباس مناسباً تماماً، وكانت العظمة والوقار تلفان أطرافها وعنقها، وتظهر على شعرها وعينيها البريئتين وقبعتها الكبيرة والمستديرة، التي لم تزد غرابة عن هالة الملائكة الذهبية.

أما في حضور جمهور يتألف من شخصين، فلا يمكن لأيّ بطلة مسرحية أن تحظى باهتمام أكثر من السيدة كزابون، فقد كانت بالنسبة إلى روزموند كأحد أفراد آلهة الإقليم، الذين لا يختلطون بأهالي مدل مارش، وتستحق أبسط تصرفاتها وملامح مظهرها الاهتمام والتدقيق، وفضلًا عن ذلك... كانت روزموند مقتنعة بأن السيدة كزابون يجب أن تتاح لها الفرصة كي تتعرف إليها. فما فائدة الجمال والفتون إذا لم يشاهده أفضل القضاة، وبما أن روزموند قد حظيت بأرفع مراتب الثناء والإطراء، فقد أصبحت واثقة تماماً من الانطباع الذي يمكن أن تتركه لدى أولئك الذين يتحدرون من أصول عريقة وثرية.

مدت دورثيا يدها بطيبتها المعتادة، ونظرت بسرور إلى عروس ليدجيت اللطيفة، وهي مدركة أن هناك رجلاً يقف في الطرف الآخر من الغرفة، لكنها رأته مجرد شخص يرتدي معطفاً.

انشغل الرجل كثيراً بحضور دورثيا، حتى إنه لم يستطع التفكير في الفوارق بين السيدتين؛ فوارق تبدو واضحة جلية لمراقب هادئ. كلتاهما كانتا طويلتين، فتقابلت عيونهما في مستوى واحد، لكن تصور روزموند بشقرتها الطفولية وتاج خصلات شعرها الرائع، وفستانها الأزرق الفاتح ذي الطراز الساحر والدقيق جدًّا إلى حدّ لا يمكن لمصمم أزياء أن ينظر إليه إلا أن يفتن، وياقتها العريضة المزخرفة التي تتمنى روزموند لو يعرف كل من يراها ثمنها، ويديها الصغيرتين يكسو أصابعهما كثير من الخواتم، وسيطرتها الواعية على تصرفاتها التي تشكل تعويضاً ثميناً للبساطة.

قالت دورثيا مباشرة: «أشكرك كثيرًا لسماحك لي بمقاطعتك. إنني أحتاج أن أرى السيد ليدجيت قبل عودتي إلى المنزل إذا كان ممكناً، أتمنى أن تقولي لي أين يمكنني أن أجده، أو تدعيني أنتظره إذا كنت تتوقعين مجيئه قريباً».

قالت روزموند: «إنه في المستشفى الجديد، لا أعرف متى سيعود، ولكن يمكن أن أرسل وراءه».

قال ويل لادسلو متقدماً: «دعيني أذهب لأحضره». كان قد خلع قبعته قبل أن تدخل دورثيا، لقد احمرّ وجهها لدهشتها، لكنها مدت يدها لتصافحه مبتسمة بابتهاج: «لم أعرفك... لم يخطر في بالي أن أراك هنا».

قال ويل: «هل أذهب إلى المستشفى لأخبر السيد ليدجيت أنك تريدين رؤيته؟».

قالت دورثيا: «سيكون من الأسرع لو أرسلنا له عربة. هل لك أن تطلب من سائق العربة لو تلطفت؟»... كان ويل يسير نحو الباب عندما استدارت دورثيا التي سيطرت على تفكيرها ذكريات كثيرة ذات صلة وقالت: «سأذهب بنفسي... أشكرك، أتمنى ألّا يمضي وقت طويل قبل عودتي إلى البيت ثانية، سأذهب إلى المستشفى لأرى السيد ليدجيت. أرجوك أن تعذريني يا سيدة ليدجيت، إنني ممتنة جدًّا لك».

لقد سيطرت على تفكيرها فكرة مفاجئة، فغادرت الغرفة دون أن تدرك ما حولها، ودون أن تدرك أن ويل فتح لها الباب، ومد ذراعه ليصطحبها. أخذت ذراعه لكنها لم تقل له شيئاً، أما ويل فقد كان مضطرباً جدًّا وتعساً، ولم يجد شيئًا يقوله. صحبها إلى العربة بصمت، ثم قالا وداعاً، وغادرت دورثيا.

لقد استغرقت في التفكير حول ما كان جديداً عليها تماماً خلال الخمس دقائق التي استغرقتها رحلتها إلى المستشفى. فإن قرارها وانشغالها بمغادرتها الغرفة، جاء نتيجة إحساسها المفاجئ بنوع من الخداع.

لو سمحت لنفسها أن تلتقي بويل لادسلو، ولا سيما أنها لم تكن قادرة على أن تذكر ذلك لزوجها بسبب أن سعيها وراء لقاء ليدجيت كان سرًّا. كل هذا كان واضحاً في ذهنها، ولكن في الوقت عينه كان يسيطر عليها ارتباك غامض. لأنها الآن وحدها في العربة، تستطيع أن تتذكر صوت الرجل الذي كان يصاحب العزف على البيانو، فهي لم تستطع ملاحظته عندما سمعته. كما وجدت نفسها تفكر بحيرة كيف كان ويل لادسلو يقضي وقته مع السيدة ليدجيت في أثناء غياب زوجها، ثم تذكرت أنه قد قضى في الماضي أوقاتاً معها ضمن ظروف مشابهة، لذلك... لماذا يبدو الأمر غريباً؟ لكن ويل هو أحد أقرباء السيد كزابون، فكان عليها أن تعامله ببعض اللطف، ولكن عليها أيضاً أن تدرك إشارات تدل على أن السيد كزابون لم يكن يرغب في وجود قريبه أثناء غيابه من المنزل.

قالت دورثيا المسكينة لنفسها بينما انهمرت دموعها التي جففتها بسرعة: «ربما أخطأت في كثير من الأشياء..». لقد شعرت بتعاسة محيرة، فقد تشوهت صورة ويل على نحو عجيب.

توقفت العربة عند بوابة المستشفى، وبعد ذلك بقليل كانت تسير مع ليدجيت حول العشب، واستعادت تصميمها على إجراء هذه المقابلة.

في هذه الأثناء كان ويل لادسلو مضطرباً، وقد عرف سبب ذلك بوضوح، فقد كان حظه في مقابلة دورثيا نادراً، وهذه أول مرة تأتيه فرصة فتضطره. ليس لأنها لم تفكر فيه بدرجة رئيسية فحسب بل لأنها رأته لا يفكر فيها بدرجة رئيسية. لقد شعر أنه ألقي بعيداً بين أهالي مدل مارش الذين لا يشكلون جزءاً من حياتها، ولكن بالطبع لم يكن ذلك خطأه، وهو يأخذ مكانته في البلدة ولا بد له من أن يبني علاقات أكثر ممكنة، ولا سيما أن وظيفته تتطلب منه معرفة الجميع ومعرفة كل شيء، وليدجيت أكثر من يستحق أن يعرف ولا سيما أن لديه زوجة موسيقية، فهما يستحقان أن يزارا... ها هو تاريخ الحالة التي بموجبها هبطت الإلهة ديانا على عابدها.

لقد كان ذلك مثيراً للرعب... كان ويل مدركاً أنه لم يأت إلى مدل مارش إلا لأجل دورثيا، وأن وضعه كان يهدد بفصله عنها بتلك الحواجز التي تمثل بالأفكار العاطفية المعتادة،

التي هي أشد قسوة من كل المسافة بين روما وبريطانيا، على استمرارية الاهتمام المتبادل.

يمكن تحدي الإجحاف بحق المكانة والحالة من خلال الرسالة لكزابون، لكن الإجحاف... كالأجساد النتنة، له كيان مزدوج كلاهما صلب وماكر... صلب كالأهرامات، وماكر كالصدى العشرين للصدى، أو كتذكرك زهرة الزنبق التي ملأ عبقها الظلام، وكان مزاج ويل من النوع الذي يتحسس وجود المكر.

ما كان لرجل ذي إدراك أكثر غموضاً أن يشعر كما شعر ويل أنه بإحساس دورثيا لا يناسبها أن تعامله بحرية مطلقة، وأن صمتها في أثناء مرافقته إلى العربة كان بارداً. ربما كانت نتيجة لكراهيته وغيرته، كان السيد كزابون يؤكد على دورثيا أن ويل أصبح أدنى منها مستوىً اجتماعيًّا.

اللعنة على كزابون...!!!

دخل ويل غرفة الاستقبال ثانية ليأخذ قبعته، وكان يبدو عليه الاضطراب عندما اقترب من السيدة ليدجيت، وهي تجلس على الطاولة، ثم قال: «من المؤسف أن يقاطع عزف الموسيقى أو الرسم... سآتي في يوم آخر لنكمل عزف مقطوعة لونجي دال كاروبيني».

قالت روزموند: «يسعدني أن أتعلم ذلك... ولكن يجب أن تعترف أن المقاطعة كانت لطيفة. إنني أغبطك على علاقتك بالسيدة كزابون، هل هي ذكية جدًّا...؟ إنها تبدو كذلك».

قال ويل: «حقًّا...؟؟ لم أفكر في ذلك».

«إنه الجواب عينه الذي قدمه لي ترشيوس، عندما سألته أول مرة ما إذا كانت جميلة. ففيمَ تفكرون أيها الرجال عندما تكونون مع السيدة كزابون؟».

«نفكر فيها». قال ويل ولم يرد أن يغيظ السيدة ليدجيت الفاتنة، «عندما يرى أحدنا امرأة كاملة، لا يفكر في مزاياها، بل يفكر في وجودها فقط».

قالت روزموند وقد ظهرت غمازتاها وهي تتحدث بلطف: «سأشعر بالغيرة عندما يذهب ترتيس إلى لُوِيك، فهو عندما يعود لن يفكر بي».

«لا يبدو أن هذا التأثير قد انتاب السيد ليدجيت حتى الآن، فالسيدة كزابون لا تشبه النساء الأخريات كي تقارن بهن».

«ظننتك عابداً تقيًّا... أعتقد أنك تراها كثيراً».

قال ويل بمرارة: «كلا... العبادة مسألة نظرية أكثر منها تطبيقية، لكنني أمارسها الآن إلى حد الكفاية. حقاً يجب علي الانصراف».

«أرجوك أن تأتي ثانية في مساء أحد الأيام، فالسيد ليدجيت يحب سماع الموسيقى، وأنا لا أستمتع بها من دونه».

عندما عاد زوجها إلى البيت قالت روزموند له وهي تقف أمامه ماسكة بيديها ياقة معطفه: «كان السيد لادسلو هنا يغني معي عندما جاءت السيدة كزابون. لقد ظهر عليه الاضطراب. هل تعتقد أنه لم يحب أن تراه في بيتنا...؟ بالتأكيد إذ إن مكانتك أعلى من مكانته، وعلى الرغم من انتمائه إلى عائلة كزابون».

«كلا... كلا، لا بد من أن يكون هناك شيء آخر إذا ما اضطرب حقًّا. طبيعة لادسلو تشبه طبيعة الغجر، فهو لا يفكر في الغنى، وعلى الرغم من حبه للموسيقى، فإنه ليس مقبولاً دائماً».

«هل تحبه...؟».

«نعم... إنه شاب طيب، هو مشتت قليلاً، لكنه محبوب..!».

«هل تعلم؟ أظنه يحب السيدة كزابون».

قال ليدجيت مبتسماً، وهو يقرص أذنيّ زوجته: «يا له من أحمق مسكين...!!» بدأت روزموند تعي الكثير عن العالم من حولها... وبخاصة ما كان قد خفي عليها قبل الزواج، إذ كانت تعتبره مجرد مأساة، فيمكن للنساء أن يسيطرن ويستعبدن الرجال حتى بعد الزواج.

في ذلك الوقت، كانت الفتيات الريفيات اللواتي تعلمن في مدرسة السيدة لمون يقرأن القليل من الأدب الفرنسي الذي جاء بعد راسين، والمطبوعات العامة آنذاك لم تسلط الضوء على فضائح الحياة.

يمكن للغرور... بالاشتراك مع تفكير المرأة ووقتها... أن يشيد بناء كبيراً من مجرد تلميحات بسيطة، خصوصًا عندما تكون تلك التلميحة تشير إلى سيطرة دائمة، فكم هو

ممتع أن تأخذ سجناء وهي على عرش الزواج، وزوجها يتوج ولي عهد لذلك العرش وتابعاً لها، بينما السجناء ينظرون يائسين إلى الأبد، وربما خاسرين راحتهم. وإذا ما خسروا معها شهيتهم، فذلك سيكون الأفضل. إلا أن حب روزموند هو في الوقت الحاضر لصالح ولي عهدها بشكل رئيسي، وكان كافياً لها بأن تستمتع بخضوعه لها. عندما قال: «الأحمق المسكين...!!»، سألت بفضول لعوب: «لماذا؟».

«ماذا عسى الرجل أن يفعل عندما يقع في غرام إحدى الحوريات..؟ هو فقط يترك عمله، ويدفع الفواتير».

«إنني متأكدة من أنك لا تترك عملك، فأنت دائماً في المستشفى... إما أنك تفحص المرضى الفقراء، أو تفكر في بعض شجارات الأطباء، وعندما تكون في المنزل فأنت دائماً مكبّ على مجهرك وملفاتك. اعترف بأنك تحب هذه الأشياء أكثر مني».

قال ليدجيت واضعاً يديه على كتفي زوجته وناظراً إليها بجاذبية عاطفية: «أليس لديك طموح يجعلك تتمنين لو يكون زوجك في وضع أفضل من كونه طبيباً في مدل مارش..؟».

«لماذا تتحرك كبرياؤنا لتكون فتنسى...!!! ما الجيد في أن نفعل ما يستحق أن يكتب، ونكتب ما يستحق القراءة وبعث البهجة في العالم..؟؟؟ ما أريده يا روزي... هو أن أفعل ما يستحق الكتابة، وأن أكتب ما أفعل، ويجب على الرجل أن يعمل كي يفعل ذلك، أليس كذلك يا مدللتي؟».

«بالطبع، أتمنى أن تقوم بالاكتشافات.. إذ لا أحد يتمنى أن تحتل مكانة رفيعة في مكان أفضل من مدل مارش أكثر مني، ولا يمكنك أن أحاول عرقلة عملك، لكننا لا نستطيع أن نعيش كما يعيش النساك، هل أنت ساخط علي يا ترشيوس؟».

«كلا ياعزيزتي، كلا...! إنني راضٍ عنك تماماً».

«ولكن ماذا أرادت أن تقول لك السيدة كزابون؟».

«إنها تسأل عن صحة زوجها، لكنني أعتقد أنها ستكون كريمة جدًّا تجاه مستشفانا الجديد. أظنها ستقدم لنا مئتين في السنة».

الفصل الرابع والأربعون

لن أبحر ببطء عند الشاطئ... لكنني سأحملق بعيداً في البحر مستهدياً بالنجوم.

لمّا كانت دورثيا تسير مع ليدجيت حول الأحواض المزروعة في المستشفى الجديد، وعرفت منه أنه لم يكن هناك علامات تشير إلى تغير في حالة السيد كزابون باستثناء ما يشير إلى قلقه النفسي، الذي يدفعه لمعرفة حقيقة مرضه. ظلت صامتة للحظات متسائلة: هل قالت أو فعلت شيئاً أثار هذا القلق..؟؟ أراد ليدجيت ألّا يفوت الفرصة على تطوير هدفه المفضل، فقال، «لا أعلم ما إذا لفت أحد انتباهك أو انتباه السيد كزابون إلى احتياجات مستشفانا الجديد... جعلت الظروف الأمر يبدو كأنه أنانية مني كي أثير هذا الأمر، فهذا ليس خطأ مني، لكن الأطباء الآخرين حاربوا الأمر برمته. أعتقد أن لديك اهتماماً في مثل هذا الأمر، فأنا أتذكر عندما سعدت بلقائك أول مرة في تبتن كرينج قبل زواجك طرحت علي عدة أسئلة حول تأثير المنازل الرديئة على سكانها».

قالت دورثيا باندفاع: «نعم، حقًّا... سأكون ممتنة جدًّا إذا ما قلت لي كيف يمكنني أن أساعد في تحسين الأمور، فقد ابتعدت عن جميع هذه الأمور منذ أن تزوجت، أعني...» - قالت بعد لحظات من التردد - «الناس في قريتنا مرتاحون إلى حد معقول، ولقد انشغلت كثيراً في شؤون أخرى منعتني من متابعة المشاكل القديمة، ولكن هنا في مثل هذه الأماكن من مدل مارش، توجد الحاجة إلى عمل الكثير».

قال ليدجيت بتحمس: «هناك حاجة إلى عمل كل شيء. ويشكل هذا المستشفى عملاً رئيسيًّا، يعتمد كليًّا على جهود السيد بولسترود وعلى نقوده، ولكن لا يمكن لرجل أن يقوم بعمل من هذا النوع لوحده. بالطبع إنه يتطلع إلى مساعدة الآخرين، ولا سيما أن عِداءً حقيراً وتافهاً يصدر من خلال أشخاص في البلدة يسعون لإفشال المشروع».

قالت دورثيا بصراحة ساذجة: «ماذا يمكن أن تكون دوافعهم؟».

«يبدؤون أولاً بإضعاف شعبية السيد بولسترود، فنصف سكان البلدة لا يترددون في محاربته، وفي هذا العالم التافه فإن معظم الناس لا يعتبرون أمراً ما إيجابيًّا جدًّا، ويستحق التنفيذ حتى ينفذه أتباعهم. لم تكن تربطني علاقة مع بولسترود قبل قدومي إلى هنا، وإنني أنظر إليه دون تحيز، وأجد عنده بعض الأفكار الإيجابية، فهو بدأ بتنفيذ بعض المشاريع التي يمكنني أن أجعلها في خدمة الناس بعامة. ولو شرع عدد معقول من الرجال الذين تلقوا تعليماً جيداً بالعمل وهم يؤمنون أن عملهم سيساهم في إصلاح الحقل الطبي لوجدنا تحسناً سريعاً وشديداً يطرأ هنا. هذا رأيي... لو امتنعت من العمل مع بولسترود لكان ذلك بمثابة رفض مني لما يمكن أن يجعل مهنتي أكثر فائدة».

قالت دورثيا مباشرة وقد فتنها الأمر المتمثل في كلمات ليدجيت: «إنني أوافقك الرأي تماماً. ولكن ما هو السيئ في حق بولسترود؟ إنني أعلم أن عمي على علاقة طيبة معه..».

قال ليدجيت متوقفاً: «الناس لا يحبون نزعته الدينية».

قالت دورثيا ناظرة إلى شؤون مدل مارش في طور الاضطهاد: «إن هذا سبب يجعل المرء يزدري مثل هذه المعارضة. كي نكون عادلين في القضية تماماً، فلديهم أسباب أخرى تدفعهم لمعارضته... إنه مستبد وغير اجتماعي، ويهتم بالتجارة التي لها مشاكلها وصعوباتها الخاصة، ولا أفهم شيئا منها».

«إذًا... ما علاقة هذا كله بإنشاء مستشفى هنا أفضل من جميع المستشفيات في الإقليم؟؟!! المحرض الأساسي لتلك المعارضة، هو أن بولسترود قد سلمني الإدارة الطبية في المشفى، وبالطبع إن ذلك ليسعدني جدًّا ويقدم لي فرصة جيدة للعمل المفيد، وأنا أدرك تبرير اختياره لي. أما النتيجة فهي قيام الأطباء في مدل مارش بمناصبة العداء للمستشفى، فهم لم يرفضوا المشاركة فحسب، بل حاولوا أن يسودوا صورة المشروع برمته، ويمنعوا المساهمات».

صاحت دورثيا مزدرية: «كم هي دناءة...!! أعتقد أن على المرء أن يتوقع محاربة الآخرين له، إذ لا يمكن أن ينفذ شيء دون أن يتعرض لذلك، وجهل الناس هنا قوي جدًّا. أما أنا فلم أفعل شيئاً سوى أنني اغتنمت فرصة لم تتوافر للآخرين، ولكن لا يمكن تجاهل حقيقة أنني شاب وقادم جديد، وأملك معرفة أكثر من السكان الأصليين. وكما أرى فإن في استطاعتي أن أبتكر طريقة أفضل في العلاج، وإذا كنت أعتقد أنني أستطيع أن أتابع بعض البحوث والاكتشافات التي يمكن أن تثري مهنة الطب، فإنني سأكون وضيعاً إذا ما سمحت

لأي اعتبار شخصي أن يمنعني من تحقيق ذلك. والمسألة أشد وضوحاً من أن يشوبها شك وريبة وذلك لعدم وجود راتب شهري مقابل ذلك العمل».

قالت دورثيا بتودد: «إنني سعيدة إذ أخبرتني بهذا يا سيد ليدجيت. إنني متأكدة من أنني أستطيع أن أقدم بعض المساعدة. لدي بعض النقود... ولا أعرف ماذا أفعل بها، ولطالما سبّب لي هذا قلقاً شديداً. إنني متأكدة من أنه سيكون في استطاعتي تقديم مئتي جنيه في السنة لمثل هذا الهدف السامي. لا بد من أن تكون سعيداً جدًّا لأنك تعرف أن هناك أشياء مفيدة جدًّا، أتمنى أن أستيقظ كل صباح على معرفة شيء مثل هذا، إنه لمن المؤلم ألّا يجد الإنسان نتيجة أعماله».

كانت هناك نغمة حزينة في صوت دورثيا عندما نطقت كلماتها الأخيرة، لكنها أضافت بسرور: «أرجوك أن تأتي إلى لُويك لتخبرنا المزيد عن هذا. سأذكر الأمر للسيد كزابون... يجب أن أسرع إلى المنزل الآن».

لقد طرحت الموضوع في ذلك المساء، وقالت إنها ترغب في المساهمة بمئتين سنويًّا. إنها تتلقى سبعمائة سنويًّا كمصروف شخصي لها، أقر لها عند الزواج.

لم يبد السيد كزابون أيّ معارضة باستثناء ملاحظة تشير إلى أن المبلغ قد يكون غير متناسب مع المشروع إذا ما قيس بأهداف أخرى، ولكن عندما رفضت دورثيا ذلك وافقها. لم يأبه لإنفاق المال، ولم يتردد في إنفاقه، وإذا ما تردد مرة في إنفاقه، فذلك سيكون لصالح هدف آخر وليس بدافع حبه للمال.

لقد أخبرته دورثيا أنها رأت ليدجيت ونقلت له فحوى حوارها معه حول المستشفى. لم يناقشها السيد كزابون في الأمر كثيراً، لكنه كان متأكداً من أنها أرادت أن تعرف ما دار بينه وبين ليدجيت، «تعرف أنني أعرف... »، قال في داخله. لكن تلك المعرفة الصامتة قد رمت بثقتهما المتبادلة بعيداً.. لم يثق بعواطفها.. فأيّ وحدة أشد وحشة من عدم الثقة...؟؟؟؟

الفصل الخامس والأربعون

إنه لمن طبائع البشر أن يمجدوا أيام أجدادهم، ويهاجموا شر أيامنا الحاضرة بلغة خطابية؛ ما لا يستطيعون فعله بمهارة دون العون المقترَض وهجاء الأزمنة القديمة، وهم يلعنون رذائل أزمانهم مستخدمين تعابير رذائل الأزمنة التي يمتدحونها؛ ما لايصلح إلا للتعبير عن وحدة رذائل كل الأزمنة. لذلك لم يكن أي من هوريس أو جوفينال أو برسوس نبياً، على الرغم من أن كلماتهم تنبأت وأشارت إلى أزمنتنا.

سير توماس براون - سودودوكسيا إبدميكيا

تحتاج معارضة مستشفى الحمى الجديد، التي صورها ليدجيت لدورثيا، إلى إمعان النظر فيها من جوانب مختلفة وكثيرة، كما تحتاج المعارضات. ويعتبر دوافعها مزيجاً من الغيرة والإجحاف غير المبرر. لم ير السيد بولسترود في الأمر غيرة طبية فحسب، بل معارضة لشخصه ناجمة بشكل رئيسي عن كراهية ذلك الدين العظيم، الذي كافح كي يكون ممثلاً فعالاً له... وهي كراهية من المؤكد أنها وجدت اختبارات أولية بعيداً من الدين، كتلك التي تجدها بوضوح في الأزمات الناجمة عن تصرفات الإنسان. يمكن أن تدعى هذه وجهات نظر رئيسية، لكن المعارضين لديهم اعتراضات جاهزة وغير محدودة، فلا تتوقف عند حدود المعرفة، بل يمكن لها أن تنطلي دائماً على الجهل الهائل.

ما قاله المعارضون في مدل مارش عن المستشفى الجديد وعن إدارته، من المؤكد أنه كان له صدى كبير لأن العناية الإلهية تهتم بكل من لا يريد أن يكون منظماً، ولكن كانت هناك اختلافات مثلت كل طيف اجتماعي، سواء اعتدال الدكتور منشن المنمق، أم التأكيد الحاد لدى السيدة دولب، مالكة الخزان في سلوتر لين.

أصبحت السيدة دولُب مقتنعة أكثر بتأكيدها الحازم على أن الدكتور ليدجيت يريد للناس أن يموتوا في المستشفى... إذا لم يسمموا... بهدف تشريح جثتهم بموجب تصريح منهم أو بعدمه، فقد كانت حقيقة معروفة أنه أراد تشريح جثة السيدة روبي، التي كانت

امرأة محترمة، كأيّ سيدة أخرى في شارع بارلي، والتي كانت تملك مالاً مودعاً قبل زواجها.

هي قصة حزينة لطبيب... إذ كان من الجيد أن يعرف علتك قبل أن تموت، وليس أن يتفحص بفضول في داخلك بعد أن تموت. إذا لم يكن ذلك سبباً، فالسيدة دولُب كانت ترغب في أن تعرف ما هو ذاك السبب، ولكن كان هناك شعور سائد لدى الحاضرين بأن وجهة نظرها كانت تشكل وقاية من خطر، وإذا ما ألقي بها جانباً، فلن يكون هناك حدود لتشريح المزيد من الجثث كما حدث في بيرك وهير، فلا يراد لمثل هذا العمل أن يحدث في مدل مارش. وإذا ما افترضنا أن وجهة النظر السائدة في حانة تانكرد.. في سلوتر لين أنها لا تشكل أهمية بالنسبة إلى مهنة الطب.. فإن الحانة المعروفة قديماً بـ تانكرد، والمعروفة الآن باسم دولُب، وقد كانت في الأصل نادياً يدعى بنادي الاستفادة، الذي طرح فيه التصويت، قبل شهرين، على عزل الدكتور غامبت، صاحب الباع الطويل في مهنة الطب لأجل دكتور ليدجيت، الذي كان قادراً على الشفاء المدهش وإنقاذ من اعتبرهم الأطباء الآخرون حالات ميؤوساً منها كليًّا. لكن نتيجة الاستفتاء جاءت ضد ليدجيت بصوتي عضوين اعتبرا لأسبابٍ خاصة، أن إبقاء هؤلاء المغمى عليهم طويلاً لهو أمر يشبه الموت، وتزكية مشبوه بها، كما أنه ربما يتدخل في العناية الإلهية. في أيّ حال حدث خلال السنة بكاملها تغير في الوجدان العام، أدى إلى الإجماع على أن فكرة السيدة دولب كانت مؤشراً على البداية.

قبل أكثر من عام بوقت طويل، قبل أن تعرف مهارة السيد ليدجيت كان الحكم عليها منقسماً بشكل طبيعي، معتمدين بحسب اهتماماتهم، إما على جزء من المعدة أو الغدة الصنوبرية، ويركزون في توجيه آرائهم وأحكامهم إلى قلة الأدلة المتوافرة. فالمرضى الذين كانوا يعانون من أمراضًا مستعصية، وتحولت حياتهم إلى شقاء، كحالة السيد فيذرستون العجوز، قد اقتنعوا مباشرة بأن يجربوا علاجه، وكذلك الكثيرون من أولئك الذين لم يرغبوا في دفع فواتير أطبائهم، فكروا نتيجة ذلك في أن يفتحوا حساباً مع أطباء جدد، ويدفعون لهم بلا قيد، خصوصًا عندما يحتاج أطفالهم إلى الدواء حيث كان الأطباء القدماء في هذه المناسبات سيّئي الطباع وسريعي الغضب، وهكذا أصبح معظم الناس يميلون إلى تعيين ليدجيت مقتنعين أنه ذكي.

كان بعضهم يعتبر أنه قادر على العطاء أكثر من الآخرين... خصوصًا في الحالات التي تتعلق بأمراض الكبد... فعلى الأقل لن يكون هناك ضرر في تناولهم دواء منه، ولا سيما أنه إذا ثبت أن ذاك الدواء غير مجدٍ، سيظل الرجوع إلى حبوب التنقية التي تبقيهم على قيد الحياة ممكناً حتى ولو لم يزل اصفرار الوجه. لكن هؤلاء كانوا أناساً عاديين قليلي الأهمية.

فأسر مدل مارش الميسورة ما كان أفرادها ليغيروا أطباءهم دون سبب مقنع، فكل واحد منهم كان يستعين بدكتور بيكوك، لم يشعر أنه مضطر للاستعانة بطبيب جديد لمجرد نجاح في شخصيته، معارضاً فكرة مساواته بقدرات بيكوك.

ولكن لم يمض على ليدجيت وقت طويل في البلدة، حتى عرف عند مجموعة تكفي لتوليد توقعات أكثر دقة، ولتكثف الاختلافات لدى أنصاره... فبعض التفصيلات المؤثرة وأهميتها خفية، تشبه كمية من الإحصائيات لا تستند إلى مقارنة. ولكن يكفي أنك حصلت على ملاحظة إعجاب في النهاية. (إن قدماً مكعباً من الأكسجين يستهلكه رجل سنويًا – كم سيحدث هذا من رعب لو علمت به تجمعات مدل مارش...؟؟ أكسجين..؟! لا أحد يعرف ماذا سيكون ذلك..؟ هل من العجب أن يصل مرض الكوليرا إلى دانسك..؟؟؟ لا يزال بعضهم يعتقد أن الحجر ليس مجدياً...!!).

إحدى الحقائق التي انتشرت، كانت تقول إن ليدجيت لا يعطي دواءً. كان هذا مسيئاً لكل من الأطباء الذين برهنوا بذلك عن تميزهم الاستثنائي، وكذلك للجراحين المداوين، الذين صنف نفسه معهم ؛ فقط قبل ذلك بقليل كانوا يعتمدون على القانون الذي يعتقدون أنه إلى جانبهم ضد رجل... ومن دون أن يدعي أنه يحمل شهادة الطب من لندن، يجرؤ على أن يطلب ثمناً للدواء. ولكن لم يكن لدى ليدجيت خبرة كافية ليتنبأ بأن أسلوبه الجديد سيكون أكثر إساءة لعامة الناس، وللسيد مومزي، الخضري المهم في السوق الرئيسي، والذي على الرغم من أنه ليس أحد مرضاه، فإنه سأله بلطف حول الموضوع، فشرح له بطيش أسبابه مشيراً للسيد مومزي بأن شخصية الأطباء تهتز، وتتسبب بجرح لدى عامة الناس، إذ كانت طريقتهم الوحيدة في جمع المال هي من خلال كتابة فواتير الدواء.

قال ليدجيت من دون تفكير: «بهذه الطريقة يصبح الأطباء المجدون مؤذين كالأطباء الدجالين. فلكي يحصلوا على لقمة عيشهم، يزيدون جرعات الدواء لأتباع الملك، وهذا نوع من الخيانة يا سيد مومزي. فذلك يؤثر في نظام الجسد بطريقة مميتة».

لم يكن السيد مومزي مراقباً فقط.. فقد كانت لديه مقابلة مع ليدجيت. إذ إنه كان مصاباً بربو أيضاً، وكانت لديه أسرة آخذة في التزايد.. لذلك كان، من وجهة نظره ووجهة نظر الطب، رجلاً مهماً، وهو حقًّا بائع خضار متميز، فكان يصفف شعره على شكل هرم، وكان تعامله التجاري وديًّا، ويميل إلى الفكاهة والهزل مع نوع من الامتناع عن إبداء كل ما في ذهنه.

لقد كانت إحدى طرق السيد مومزي الفكاهية في مساءلته ما جعل جواب ليدجيت يأتي على ذلك النحو، ولكن دع الحكيم يحذر من التحفز الشديد لإعطاء شرح وتفسير.. إنه يضاعف مصدر الخطأ، ويطيل الحسابات التي سيثبت خطأها. ابتسم ليدجيت وهو ينهي حديثه واضعاً قدمه على الركاب، وضحك السيد مومزي أكثر مما كان سيضحك لو عرف من هم أتباع الملك قائلاً: «صباح الخير يا سيدي... صباح الخير يا سيدي». وكأنه عرف كل شيء بوضوح ولكن في حقيقة الأمر كانت آراؤه مشوشة. ظل لسنين عديدة يدفع ثمن أصناف محددة من الدواء حتى كان يعتقد أنه يتلقى مقابل كل نصف جنيه يدفعه كمية معلومة من الدواء. كان يفعل ذلك بقناعة ورضا معتبراً ذلك جزءاً من مسؤوليته الزوجية والأبوية، ومعتبراً كمية من الدواء هي أكبر من المعتاد... تستحق الذكر.

فضلًا عن ذلك وبالإضافة إلى الفائدة الكبيرة للدواء، التي كان يجنيها لنفسه ولأسرته، كان يستمتع بتشكيل وجهة نظره حول فاعلية الدواء السريعة، وكأنه يعطي رأياً ذكيًّا، يرشد به السيد غامبت،الطبيب الذي لا يقل مكانة عن رينج أو تولر، كما كان يعرف خاصة كطبيب مولد، ولم يكن السيد مومزي على دراية بأموره الحياتية، ولكن في ما يتعلق بالطب، فقد كان مضطراً أن يقول بصوت خافت.. إن السيد غامبت أعلى مرتبة منهم جميعاً.

هنا تظهر أسباب أكثر عمقاً من الحديث السطحي للرجل الجديد الذي بدا ركيكاً أكثر عندما نقل للسيدة مومزي في غرفة الجلوس فوق الحانوت، فهي امرأة اعتادت أن يعاملها الآخرون كامرأة كثيرة الولادة برعاية السيد غامبت، وحين كانت تتعرض لوعكات صحية مفاجئة أحياناً، كانت تستعين بالطبيب منشن. قالت السيدة مومزي متشدقة في كلامها: «هل يعني السيد ليدجيت... أنه لا فائدة من تناول الدواء...؟ أود أن يخبرني كيف يمكنني أن أتحمل وقت الضعف ما لم أتناول دواءً مقويًّا قبل ذلك بشهر. فكر في ما يجب علي أن أقدمه للزبائن يا عزيزي...!». استدارت هنا السيدة مومزي إلى صديقة كانت تجلس إلى جانبها: «فقرة لحم عجل كبيرة - شريحة لحم محشوة - ولحم عجل - ولحم خنزير - ولسان... إلى آخره. ولكن ما يشد عزمي هو الدواء الوردي وليس البني، إنني أعجب يا سيدة مومزي بخبرتك... إذ لديك صبر كي تصغي. كان علي أن أخبره فوراً أنني أعلم أكثر من هذا بقليل».

قال السيد مومزي: «كلا كلا كلا... ما كنت لأقول له رأيي. إن طريقتي هي أن أسمع كل شيء وأحكم عليه بنفسي، لكنه لم يكن يعرف مع من يتحدث، فلست ممن يُتحكم بهم.

يتظاهر بعض الناس أحياناً بإشارتهم إلي ببعض الأشياء.. عندما يقولون لي: مومزي... إنك أحمق. لكنني أبتسم لذلك، فأنا أسخر من مكانة الآخرين الضعيفة. إذ إن الطب آذاني وآذى أسرتي... لقد اكتشفت ذلك منذ زمن».

أخبر السيد غامبت في اليوم التالي، أن ليدجيت يشيع بين الناس أن لا فائدة للدواء... قال وهو يرفع حاجبيه مندهشاً... لقد كان رجلاً ضخماً، ويضع في بنصره خاتماً كبيراً: «حقًّا! إنني سأعالج مرضاه إذاً».

أجابت السيدة مومزي التي تتكلم برزانة.. وذلك من خلال تأكيدها على نطق الأحرف والكلمات: «هذا ما أقوله... هل يعتقد أن الناس يدفعون له المال كي يجلسوا معه ثم ينصرفون ثانية...؟». كانت السيدة مومزي تجالس السيد غامبت طويلاً، كما كانت تعرف عنه الكثير، بما في ذلك حركاته الجسدية وأشياء أخرى، لكنه بالطبع كان يعرف أنه لم يكن في كلامها أيّ إشارات أو تلميحات، فهو لم يتقاض أجراً على وقته الشخصي لذلك أجاب ممازحاً: «إن ليدجيت شاب وسيم... هل تعلمين؟؟».

قالت السيدة مومزي: «إنه ليس من النوع الذي يعجبني، إذ يمكن للآخرين أن يبعثوا السرور كذلك».

هكذا استطاع السيد غامبت أن ينصرف من بيت الخضري دون أن يخشى المنافسة، ولكن ليس دون شعور. لأن ليدجيت كان أحد أولئك المنافقين الذين يحاولون أن يمنعوا ثقة الناس بالآخرين من خلال الكشف عن عدم مصداقيتهم، وإنه يستحق على ذلك أن يكشفه أحد ما.

في أيّ حال فقد كان السيد غامبت يملك عيادة مقبولة يقصدها المرضى من تجار السوق، مما أدى إلى تخفيض الدفع النقدي لأجورالعلاج، فهو يعتقد أنه ليس من الجدارة أن يكشف عن ليدجيت قبل أن يعرف السبيل إلى ذلك بدقة.

إنه لم يتلق علماً واسعاً، فكان عليه أن يعمل جاهداً بين أطباء آخرين أكفاء، لكنه لم يكن طبيباً مولداً سيئاً، وكان يدعو جهاز التنفس بالرئتين. كان يشعر أن الأطباء الآخرين هم أكثر منه كفاءة ومقدرة، فالسيد تولر الذي كان شريكاً في أفضل عيادات البلدة، كان يتحدر من إحدى أقدم وأكبر أسر مدل مارش. فقد كان من أفرادها محامون وجميع المهن التي هي أعلى مستوىً من التجارة، وهو على عكس زميله رينج السريع الغضب، كان يتقبل الأمور التي

يمكن أن تضايقه برحابة صدر أكثر مما يمكن أن تتوافر لدى أي أحد في العالم بأسره، ولأنه نشأ في أسرة جيدة كان مرحاً، وكان يملك منزلاً جيداً، وكان مولعاً بالرياضة في أوقات فراغه، وكان يبادل السيد هولي الود، لكنه عدو لبولسترود. يمكن أن يبدو مستغرباً أنه، مع هذه العادات اللطيفة والمبهجة، ينبغي له أن يحقق العلاجات البطولية.. كالنزيف والقروح والتضميد، ويجعل مرضاه يجوعون، دون أن يأبه لعواطفه الشخصية، لكن هذا التعارض جعل وجهة نظر مرضاه ترجح لصالح قدراته، ولا سيما أنهم كانوا يعتقدون أن تصرفاته كسولة، ولكن طرق علاجه كانت فاعلة وناجعة جدًّا، فلا يمكن لأحد أن ينافسه في جديته في المهنة.

كان يتباطأ في مجيئه، ولكن عندما يأتي كان يفعل شيئاً مميزاً. لقد كان محبوباً جدًّا بين معارفه، وكلما كان يشير إلى مساوئ أحد غيره، كان يصوغ ذلك على نحو مبالغ فيه بطريقته الساخرة اللا مبالية. كان يتعبه التبسم وقول كلمة... «آه» كثيراً، فعندما أخبر أن خليفة بيكوك لا يرغب في إعطاء الأدوية، وذكر ذلك السيد هاكبت يوماً وهم يتناولون الخمر على مائدة العشاء، قال السيد تولر ضاحكاً: «هكذا سيتخلص دبتس من دوائه العفن، وعندها سأكون مولعاً بدبتس الصغير، فإنني مسرور لأنه محظوظ».

قال هكبت: «إنني أفهم ما تعني يا تولر، وأنا أؤيدك تماماً في رأيك. إنني أغتنم الفرصة لأعبر عن رأيي في ذلك الأمر. ينبغي للطبيب أن يكون مسؤولاً عن نوعية الدواء الذي يتناوله مرضاه. هذا هو نظام المحاسبة المعمول به حتى الآن، وليس هناك شيء أكثر إساءة من التباهي بنظام الإصلاح، إذ إنه لا يحدث تحسناً حقيقياً».

قال السيد تولر ساخراً: «التباهي يا هكبت..؟؟؟!!! إنني لا أرى أحداً يستطيع أن يتباهى بشيء لا يؤمن به أحد. لا يوجد إصلاح في القضية.. فالمسألة تكمن في ما لو كانت المنفعة المالية تعود إلى الطبيب من قبل الصيدلي أو المريض، أو أنه ستكون هناك أجور إضافية مقابل حضور الطبيب»».

قال السيد هولي: «آه... كي تكون متأكداً... إنه نوع جديد من هرائك القديم». ثم دافع بزجاجة الخمر إلى السيد رينج المعتدل في تناوله للطعام والشراب، لكنه يتناول الخمر بحرية عندما يكون في حفلة، فيصبح نتيجة ذلك سريع الغضب، فقال: «بالنسبة إلى الهراء يا هولي... إنها كلمة سهل التلاعب بها، ولكن ما أحتج عليه هو الطريقة التي يلوث الأطباء بها عشهم...!! ثم يطلقون صرخة في البلاد، محتجين على الطبيب العام الذي يصرف الدواء

وكأنه رجل غير محترم... إنني أردُّ هذه التهمة بازدراء، وأقول إن أكثر إساءة يمكن أن يقع فيها رجل نبيل ومحترم، هي أن يأتي بالطعن والتشهير بزملائه لتكون طريقة مبتكرة ليكافأ عليها في ذلك الوقت. هذا هو رأيي، وأنا مستعد أن أثبته ضد كل من يخالفني الرأي»... عند ذلك أصبح صوت السيد رينج حادًّا جدًّا.

قال السيد هولي وهو يدس يديه في جيبي بنطاله: «هنا ما لا يمكنني أن أجبرك عليه يا رينج...».

قال السيد تولر محتجاً بهدوء وهو ينظر إلى السيد رينج: «يا عزيزي... غالباً ما يداس على أقدام الأطباء أكثر مما يداس على أقدامنا، وإن أتيت إلى مسألة الكرامة، فهي مسألة تخص منشن وسبراك».

قال السيد هاكبت دون رغبة في إبداء رأيه: «ألا تنص قوانين الطب على ما يتعلق بمثل هذه المخالفات...؟! أين يقف القانون يا هولي؟»... قال هولي: «لا شيء يمكن فعله في هذا المجال. لقد نظرت في الأمر لأجل سبراك. يمكن أن تكسر أنفك احتجاجاً على قرار قاضٍ لعين».

قال السيد تولر: «آه... لا حاجة إلى القانون. في ما يتعلق بالعيادة، فإن المحاولة تصبح عبثاً. لن يوجد مريض يحب ذلك... بالتأكيد ليس مرضى بيكوك الذين اعتادوا على الفصد... ناولني الخمر».

لقد تحقق جزء من تنبؤات سيد تولر. إذا كان السيد والسيدة مومزي، اللذان لم يفكرا في الاستعانة بليدجيت، قلقين بشأن تصريحه المفترض حول إعطاء الدواء، لأصبح من المحتم على الذين يستعينون به أن يراقبوه باهتمام قليل ليروا ما إذا كان يستخدم جميع الوسائل المتاحة... في الحالة المرضية.

حتى السيد بودرل الطيب، الذي كان يميل في تفسيره الإيجابي إلى تثمين جهود ليدجيت التي ينجزها وفقًا لما يمليه عليه ضميره في أفضل خطة، انتابه قلق يشوبه شك عندما أصيبت زوجته بمرض الالتهاب الجلدي، ولم يستطع أن يمتنع من أن يشير إلى ليدجيت أن السيد بيكوك في حالات مشابهة، كان يصف لها أقراصاً من الدواء أدت إلى شفائها حتى إنها استطاعت أن تحضر احتفال مايكل ماس في أيلول بعد أن أصابها المرض في آب.

أخيراً ونتيجة صراع بين رغبته في عدم جرح ليدجيت ورغبته في ألّا تترك أي وسيلة يمكن استخدامها، أقنع زوجته بأن تستخدم دواء وجنز المطهر... فهو دواء مفضل لدى أهالي مدل مارش، وكان يقضي على جميع الأمراض عندما تكون في أوجها، فهو يعمل سريعاً من خلال تأثيره على الدم مباشرة.

كان ينبغي ألّا يذكر ليدجيت هذا الإجراء المشترك، ولا سيما أن السيد باودرل لم يثق به تماماً، لكنه كان يأمل لتأثيره مع الرحمة الإلهية. ولكن في هذه المرحلة المشكوك فيها من عمل السيد ليدجيت ساعده ما نسميه نحن المخلوقات البائدة بالحظ الجيد.

أعتقد أنه لا يوجد طبيب حضر حديثاً إلى مكان ولم يعالج أمراضاً بطريقة أدهشت الآخرين... علاجات يمكن تسميتها براهين على حسن الطالع وتستحق الثناء عليها كتلك التي تطبع وتنشر. لقد تحسن العديد من المرضى على يد السيد ليدجيت، كان بعضهم يعاني أمراضًا خطيرة، وقد عرف عن الطبيب الجديد أنه استطاع بطرقه الجديدة، أن ينقذ العديد من المرضى من الموت المحتم.

الهراء الذي كان يقال حول هذه الحالات كان يضايق ليدجيت، لأن من المؤكد أنه كان يمنح مكانة اجتماعية يتمناها الرجل غير الكفؤ وعديم الضمير، ومن المؤكد أن كراهية زملائه الأطباء الخفية هي التي كانت تنسبها إليه، لتكون تشجيعاً له على تباهيه الجاهل. لكنه أدرك بفهمه أن صراحته المتكبرة لم تكن ذات جدوى في مواجهته للمفاهيم الجاهلة، التي تشبه مواجهته للضباب.. والحظ الجيد يتطلب استخدام تلك المفاهيم الجاهلة.

لما قلقت السيدة لارشر من أعراض مرض خادمتها، طلبت من السيد منشن أي يعطيها تصريحاً لتدخلها بموجبه المستشفى.. وبعد الفحص كتب واصفاً الحالة بأنها ورم، لذلك يقترح أن تعامل المريضة نانسي نانش كمريضة غير مقيمة في المستشفى.

عندما تركت نانسي منزلها... وهي في طريقها إلى المستشفى، طلبت من صاحب المنزل، الذي تقيم فيه وزوجته أن يقرأ لها الورقة التي كتبها الطبيب منشن، فهكذا أصبح الأمر موضوع نقاش أصحاب الحوانيت المجاورة في شارع تشرش يارد مثيراً للشفقة، إذ تردد في البداية أن ذلك الورم كان بحجم بيضة البط وقساوتها، لينتهي الأمر في نهاية النهار بإشاعة أن ذلك الورم بحجم قبضة اليد.

اتفق معظم المستمعين على وجوب استئصال الورم، لكن أحدهم كان يقترح بنوع من

الزيت، وآخر اقترح مادة السكوجنل كطريقة دقيقة وناجعة يمكن أن تطري وتخفف من الورم في الجسم عندما يحقن منها قدر كاف داخل الورم.. فالزيت يطري الورم، ثم تقوم مادة السكوجنل بإذابته.

عندما ذهبت نانسي إلى المستشفى، كان ذلك أحد أيام ليدجيت في دوامه هناك، وبعد أن سألها وفحصها قال ليدجيت للجراح المعاون بصوت خافت: «إنه ليس ورماً... إنه عقدة تشنجية». أمر لها بضماد ودواء مقوّ، وطلب منها أن تذهب إلى المنزل وترتاح. كما أنه أعطاها ورقة كتب فيها ملاحظة للسيدة لارشر، التي قالت عنها نانسي إنها أفضل سيدة، ليخبرها بأنها تحتاج إلى غذاء جيد.

لكن حالة نانسي، وهي في غرفتها العلوية من المنزل، تدهورت على نحو عجيب، فالورم المفترض تحول إلى قرح مما تسبب بألم مبرح. فذهبت صاحبة المنزل وأحضرت السيد ليدجيت، الذي تابع زياراته المنتظمة لنانسي لمدة أسبوعين في منزلها، حتى تعافت تماماً من مرضها، وعادت إلى عملها. لكن الحالة ظلّت ينظر إليها من قبل سكان شارع تشرش يارد والشوارع المجاورة، حتى من قبل السيدة لارشر نفسها، على أنها ورم. وعندما استخدم ليدجيت العلاج الناجع للدكتور منشن، لم يرغب في أن يقول: «لم تكن الحالة إحدى حالات الورم، وكنت على خطأ عندما وصفتها هكذا»، بل أجاب: «...آه لقد رأيت أنها كانت حالة جراحية، وليست من النوع الخطير». في أيّ حال، لقد تضايق داخليًّا عندما سأل عن المرأة التي أذن لها بدخول المستشفى قبل يومين، فأخبره الجراح المساعد بما حدث تماماً، إذ لم يتردد بإغضاب الدكتور منشن.. فقد قال بشكل خاص، إنه ليس من اللائق أن يطعن طبيب عام في تشخيص طبيب آخر بتلك الطريقة الصريحة، ثم بعد ذلك وافق السيد رينج رأيه بأن ليدجيت لا يتقيد بالضوابط السلوكية. لم يجعل ليدجيت من هذه المسألة أرضية لتقويم الآخرين له، ولا لازدراء منشن، فمثل هذا التصحيح لحكم خاطئ، يحدث عادة بين الرجال الذين يمتلكون المؤهلات عينها. لقد ظل نبأ هذا الورم ينتشر، وهو الذي لم يكن يميز كثيراً من مرض السرطان، فاعتبر أسوأ من السرطان، لأنه كان من النوع الذي ينتقل داخل الجسم، حتى انتهى الإجحاف بحق طريقة ليدجيت في المعالجة، من خلال النجاح الذي حققه في علاجه لمرض نانسي ناش وشفائها السريع، بعد أن ظلت تعاني آلامًا مبرحة نتيجة الورم القاسي والعنيد لكنه أخيراً امتثل للعلاج.

ماذا عسى لليدجيت أن يفعل؟ إنه من الإساءة أن تقول للسيدة، إنها كانت على خطأ،

وربما حمقاء رداً على تعبيرها عن إعجابها بمهارتك. والحديث عن طبيعة الأمراض لا يضيف شيئاً إلى مهارة الطبيب سوى أنه يزيد من تجاوزه لآداب مهنة الطب. هكذا كان عليه أن يعود من الصيد بتحقيق نجاح سببه مديح جاهل لا يقوم على أساس صحيح.

في حالة مريض أكثر تميزاً، كحالة السيد بورثرب ترمبل.. تعمد السيد ليدجيت أن يظهر نفسه كشخص أكثر أهمية من طبيب متمرن، على الرغم من أنها كانت مزية مثيرة للريبة قد حصل عليها. لقد شخص مرض بائع المزاد البليغ على أنه ذات الرئة... وكان أحد مرضى السيد بيكوك كذلك أحيل إلى ليدجيت، فعبر عن مناصرته له. لقد كان السيد ترمبل رجلاً قويًّا ونشيطاً، وهو ما جعله مادة مناسبة لتطبيق نظرية التوقع عليه، إذ تتم مراقبة تطور المرض لديه دون تدخل علاجي، فمعرفة مراحل المرض ودراستها يمكن أن تفتح الباب أمام علاج مستقبلي جديد، ومن خلال طريقة وصفه لأحاسيسه، ظن السيد ليدجيت أن السيد ترمبل يرغب في أن يكون محل ثقة الطبيب، وأن يقدم كشريك في طريق العلاج.

استمع بائع المزاد دون دهشة للشرح الذي يوضح بأن جسمه يمكن أن يترك تحت المراقبة دون علاج ليكون مثالاً رائعاً لمرض يمكن أن تراقب جميع أطواره بوضوح تام، وأنه ربما بوعيه الفكري النادر يمكن أن يتطوع كي يجرى عليه تجربة فحص منطقية، فهكذا يصبح عدم انتظام وظائف الرئتين لديه مصدر نفع للمجتمع.

رضخ السيد ترمبل مباشرة للأمر، وسرعان ما تفهم بقوة أن مرضه لم يكن حالة عادية في علم الطب. «لا تخش يا سيدي...!! فأنت لا تتحدث إلى رجل يجهل قوة العلاج». قال ذلك بطريقة تعبيره الفوقية المعتادة، والتي تثير الشفقة بسبب صعوبة تنفسه. وتابع دون تردد، امتناعه عن تناول الدواء، لكنه تابع قياس درجة حرارة جسمه بمقياس الحرارة، متخيلاً وكأنه يقدم مادة للفحص المجهري، ومن خلال تعلمه لكلمات كثيرة جديدة بدأت تلائم وقار تكتمه. لقد كان ليدجيت على درجة كافية من الذكاء جعلته يشرك السيد ترمبل ببعض الأحاديث التقنية القصيرة. يمكنك أن تتخيل السيد ترمبل ينهض من على أريكته، ليتحدث عن مرض يظهر من خلاله قوته الذهنية بالإضافة إلى قوته الجسدية، دون أن يغفل عن مكافأته للطبيب الذي ميز نوع المريض الذي يتعامل معه.

لم يكن بائع المزاد رجلاً بخيلاً، فكان يحب إعطاء الآخرين استحقاقاتهم شاعراً بقدرته على فعل ذلك. لقد اقتبس الكلمات «طريقة التوقع... قرع جهاز الجرس...»، فقد كان يستخدم مثل هذه العبارات والكلمات ليؤكد أن السيد ليدجيت كان يعرف شيئاً أو شيئين

أكثر من زملائه الآخرين، وأنه كان ينظم أبيات شعر حول أسرار مهنته أكثر من معظم أقرانه.

لقد حدث هذا قبل أن يؤدي مرض فرِد فنسي إلى عداوة السيد رينج لليدجيت بدواعٍ شخصية. لقد أثار القادم الجديد المخاوف من أن يكون مصدر إزعاج على هيئة منافسة، ولقد كان من المؤكد مصدر إزعاج على هيئة نقد عملي، أو على هيئة ردود فعل على من هم أكبر منه سنًّا وأصعب منه مراساً، وكان لديهم شيء آخر يشغلون به أنفسهم بدلاً من الأفكار غير المجربة. لقد ذاع صيت عيادته في أكثر من بلدة، وحالما أدرك الجميع مكانة أسرته الراقية... راح يدعى كثيراً إلى مآدب العشاء في أفضل البيوت، حيث كان على الأطباء القدماء أن يلتقوه، فعندما تجبر على لقاء شخص لا تحبه، لا يفهم الأمر دائماً على أنه يجب أن ينتهي بعلاقة متبادلة.

لم يُجمع من قبل على أمر كما أُجمع على أن ليدجيت شاب متكبر، لكنه لا يزال مستعداً ليظهر خضوعه وتملقه لبولسترود، بهدف السيطرة عليه بشكل رئيسي. إلا أن فيربرذر الذي كان اسمه علماً رئيسيًّا بين معارضي بولسترود، كان صديقاً يدافع دائماً عن ليدجيت، فقد كان يشار إلى طريقة فيربرذر في صراعه غير المسؤول ضد الجانبين.

لقد كان يتم التهيؤ على نطاق كبير... وكان هناك اشمئزاز لدى إعلان القوانين والأنظمة التي يضعها بولسترود لإدارة المستشفى الجديد، فقد كانت تلك القوانين مضنية جدًّا، لأنه لم يكن متاحًا التدخل بإدارته. لقد رفض الجميع، باستثناء اللورد مدليكوت المساهمة في البناء، متذرعين بتفضيلهم المستشفى القديم.

لقد تحمل السيد بولسترود جميع التكاليف، ولم يأسف بسبب ذلك لأنه اختار الطريق الصحيح، الذي من خلاله يستطيع أن ينفذ أفكاره في التطوير دون معوقات يمكن أن يضعها في طريقه المجحفون، ولكن كان عليه أن ينفق مالاً كثيراً، ولا سيما أن إشادة البناء قد تباطأت. لقد تعهد بالبناء السيد كيلب جارث، وفشل أثناء التنفيذ.. إذ تقاعد من العمل قبل البدء بالإكساء الداخلي للمبنى، وفي إشارته للمستشفى كان دائماً يقول إن بولسترود يعرف الكثير حول أمور البناء.. فهو كان يريد مبنىً قويًّا يستخدم فيه خشباً صلباً، كما كانت لديه فكرة جيدة حول التصريف والمداخن.

في حقيقة الأمر أصبح المستشفى يشكل مصدر اهتمام مكثف وعالٍ بالنسبة إلى

بولسترود، فكان على استعداد أن يوفر مبلغاً كبيراً سنويًا ليتحكم بإنفاقه، من دون الرجوع إلى مجلس الإدارة، ولكن كان لديه هدف مفضل آخر يتطلب أيضًا مالاً لإنجازه.. إذ كان يتمنى أن يتخذ لنفسه أرضاً في مدل مارش، لذلك كان يتمنى أن يحصل على مساهمات من الآخرين لتغطية نفقات المستشفى.

لقد وضع في الوقت الحاضر أسساً لخطته في إدارة المستشفى.. ينبغي أن يوظف المستشفى في علاج الحمى بأنواعها، وليدجيت سيكون رئيساً يمسك بإدارة جميع الشؤون الطبية. إذ سيتمتع بصلاحية مطلقة لمتابعة جميع البحوث التي أثبتت له دراسته أهميتها وخصوصًا في باريس، وأما الأطباء الزائرون الآخرون فهم يتمتعون بصلاحية استشارية فقط، دون أيّ سلطة تمكنهم من نقد قرارات ليدجيت، وأما الإدارة العامة للمستشفى فينبغي أن تكون في أيدي خمسة أعضاء يرتبطون مباشرة ببولسترود، ويتمتعون بأصوات انتخابية في ضوء مساهمتهم، ويقوم مجلس الإدارة بتعيين عضو جديد للمجلس كلما شغر مكان، ولا يسمح لمساهمات عامة الناس أن تكون طريقاً يفتح أمام اشتراك الحكومة في إدارة المستشفى. لقد رفض جميع أطباء البلدة أن يكونوا أطباء زائرين للمستشفى فقط، قال ليدجيت للسيد بولسترود: «..حسن جدًا. لدينا طبيب جراح رئيسي، وهو صيدلاني في الوقت نفسه... ذهنه نقي ويده ماهرة... إننا سنحصل على ويب من كرابسلي، فهو طبيب ريف جيد لا يقل درجة عنهم، وإننا سنطلب منه المجيء مرتين في الأسبوع، وفي حالة أيّ عملية جراحية طارئة سنطلب من بروثرو أن يأتي من براسنغ. ينبغي لي أن أعمل بجدية أكثر، ذاك كل ما في الأمر. لقد توقفت عن عملي في المستشفى القديم. وستسير الخطة على أكمل وجه رغم أنوفهم... وغداً سيكونون مسرورين للعمل معنا. لا يمكن للأشياء أن تستمر على ما هي عليه.. فلا بد من أن يحدث إصلاح قريباً جدًا، وعندها سيكون من دواعي سرور الشبان أن يأتوا ويدرسوا هنا». كان ليدجيت يتمتع بمعنويات عالية جدًا.

قال السيد بولسترود: «إنني لن أحجم عن قراري، ويمكنك أن تثق بهذا يا ليدجيت. عندما أراك تنفذ مآرب سامية بنشاط، فإنك ستحصل على دعمي غير المنقطع. وإنني أقتنع... بثقة متواضعة... أن الرحمة التي حلت على جهودي حتى هذا الوقت في مواجهة روح الشر في هذه البلدة، لن ترفع. ليس لدي شك في أنني سأؤمن مديرين مناسبين لمساعدتي. لقد اتفقت مسبقاً مع السيد بروك على أن يقدم مساهمة سنوية.. إنه لم يحدد المبلغ، وربما لن يكون مبلغاً كبيراً، لكنه سيكون عضواً فعالاً في مجلس الإدارة».

ربما كان يعرف العضو بأنه فعال، ليس بناءً على ما يقدمه، لكنه دائماً يصوت إلى جانب السيد بولسترود. كراهية الأطباء لليدجيت، أصبحت لا تكاد تخفى. لم يقل الدكتور سبراغ ولاالدكتور منشن، إنهما لم يحبا علم ليدجيت أو عزمه على تطوير طرق العلاج، ولكن ما لم يحباه هو تكبره، الذي لم يستطع أحد إنكاره. كانوا يلمحون إلى أنه متكبر ومدعٍ بنفسه وأنه يكرس وقته لأجل ذلك الابتكار الطائش بهدف إثارة الضجيج من حوله والتباهي... وذلك ما كانوا يعتبرونه من صفات المشعوذ والدجال. متى ألقي بكلمة المشعوذ أو الدجال في الهواء لا يمكن لها بعد ذلك أن تختفي. في تلك الأيام كان العالم منبهراً بأفعال السيد سينت جون لونغ العجيبة، فقد شهد له رجال نبلاء على ما حققه في استخراجه لسائل يشبه الزئبق من دماغ أحد مرضاه.

أشار السيد تولر يوماً للسيدة تافت مبتسماً بأن... «لقد وجد بولسترود في ليدجيت الرجل الذي يناسبه، فالرجل الدجال في الدين، يحب بالتأكيد الأصناف الأخرى من الدجالين».

قالت السيدة تافت: «نعم... حقًّا، إنني أستطيع أن أرى ذلك... هناك الكثيرون من هذا النوع. أنا أتذكر السيد جشير، وهو يحاول أن يجعل الناس مستقيمين بمعادنه، بينما خلقهم الرب في اعوجاج».

قال السيد تولر: «كلا.. كلا. لم يكن جشير سيئاً، لكنه كان مقبولاً. لكن هناك سينت جون لونغ فذاك هو من ندعوه بالدجال.. إنه يروج لطرق علاج لا أحد يعرف عنها شيئاً، وهو يحاول أن يخلق ضجة من حوله من خلال تظاهره بأنه يقوم بأبحاث لا يقوم بها الآخرون. منذ أيام.. كان يتظاهر بأنه يقرع على دماغ رجل، وأنه يستخرج منه زئبقاً».

قالت السيدة تافت. بعد هذه المحادثة: «يا إلهي! كم هو استهتار مرعب بأجسام البشر!» انتشر نبأ في عدة بلدات مجاورة، أن ليدجيت يتلاعب بأجساد بعض المرضى ليحقق من خلال ذلك أهدافاً شخصية تخصه، فكم من المرضى يمكن أن يدخلهم المستشفى ليجري عليهم تجاربه الطائشة.

يصبح هذا متوقعاً... خصوصًا بعد أن قالت مالكة حانة تانكرد إنه يمكن أن يشرّح جثثاً عديدة دون أن يبالي. حين كان ليدجيت يشرف على مرض السيدة غوبي، التي توفيت بسبب مرض القلب دون أن تظهر عليها أعراض المرض، تجرأ بطلبه من أقربائها أن يشرّح جثتها، فقد تسبب هذا بإساءة انتشر خبرها سريعاً حتى خارج شارع بارلي حيث كانت تعيش

تلك السيدة.

عندما فتح ليدجيت موضوع المستشفى مع دورثيا، رأينا أنه كان يواجه عداوة وسوء فهم بروح عالية،مدركاً أنها خلقت بسبب نجاحه الجيد.

«إنهم لن يجبروني على ترك هذه المكانة» - قال ليدجيت هذا سراً للسيد فيربرذر في غرفة مكتبه - «فلدي فرصة جيدة هنا، إنني أكثر ما أهتم بالنهاية، وأنا متأكد جدًّا من أنني سأحصل على دخل يكفي احتياجاتنا، ومع مرور الزمن سأتابع بهدوء تام... ليس لدي اهتمامات سوى العمل ومنزلي، وإنني لأزداد يقيناً يوماً بعد يوم.. أنه سيكون من الممكن إثبات تجانس منشأ جميع الخلايا. إن راسبيل وكثيرين آخرين يقومون بالعمل نفسه، وأنا أضيع الوقت».

قال فيربرذر الذي كان يدخن غليونه مع تفكير عميق طوال الوقت الذي كان يتحدث به ليدجيت: «إنني لا أستطيع التنبؤ بأي شيء. ولكن بالنسبة إلى العداوة في البلدة.. فإنك ستتغلب عليها لو كنت حصيفاً».

قال ليدجيت: «كيف يمكن لي أن أكون حصيفاً...؟ إنني أفعل فقط ما أجده أمامي، إذ لا يمكنني أن أفعل شيئاً تجاه جهل الناس وحقدهم، أكثر مما يستطيع فعله فيساليوس. إن من المستحيل على أحد أن يحدد تصرفاته لأجل نتائج سخيفة لا يمكن لأحد التنبؤ بها».

«هذا صحيح تماماً... إنني لم أعن ذلك، لكنني أعني شيئين: أولهما أن تبقي نفسك بعيداً من بولسترود قدر استطاعتك. قم بعمل جيد بمساعدته، ولكن لا تربط نفسك به. ربما يبدو الأمر وكأنه تعبير عن شعور شخصي عندما يقول ذلك، وإنني لأعترف أن قدراً كبيراً من هذا الكلام صحيح، ولكن ليست المشاعر الشخصية دائماً على خطأ، خصوصًا إذا ما استطعت تهدئتها إلى حدّ يمكنك من أن تحولها إلى وجهة نظر».

قال ليدجيت بعدم اكتراث: «لا يشكل بولسترود شيئاً بالنسبة إلي... باستثناء تعاملنا لأجل المصلحة العامة. أما بالنسبة إلى التقرب منه فأنا لست مولعاً به كثيراً، ولكن... ما الشيء الآخر الذي أردت قوله؟»، قال ليدجيت وهو يمسح على فخذه بارتياح شديد دون أن يشعر بحاجة إلى النصيحة.

«احذر أن يقيدك المال..!! إنني أعلم أنك يوماً ألقيت كلمة تعبر بها عن عدم رضاك

عن لعب الورق من أجل كسب المال. إنك على صواب تماماً... ولكن حاول ألّا تحتاج إلى مبالغ صغيرة لم تكسبها بعد. إنني أتحدث بكلام ربما لم يكن ضروريًا، لكن الرجل يجب أن يفترض التفوق على نفسه من خلال تمسكه بمثله السيئ، ثم يلقي فيها العظات».

تقبل ليدجيت تلميحات السيد فيربرذر بود تام، على الرغم من أنه ما كان ليحتملها من أي رجل آخر. لم يستطع أن ينسى أنه قد ترتب عليه مؤخراً بعض الديون، التي لا يمكن تجنبها، فليس لديه طموح الآن سوى أن تستمر المعيشة بسيطة في منزله. لن يحتاج الأثاث الذي استدان ثمنه إلى تجديد، ولا حتى مخزن الخمر لمدة طويلة. كانت كثير من الأفكار تبعث في نفسه السرور بحق. رجل يتمتع بحماس لأهداف جديرة، وهو تحت وطأة عداوات تافهة، سببها تذكر رجال عظام، كان عليهم أن يشقوا طريقهم متكبدين الجراح، فسيطروا على تفكيره كما يسيطر القديسون على عقول أنصارهم.

في المساء نفسه الذي كان يتحدث فيه مع السيد فيربرذر، كان في منزله مستلقياً على أريكة طويلة ويضع يديه خلف رأسه، الذي أرخاه إلى الوراء، كما اعتاد أن يفعل دائماً في أثناء التأمل. بينما روزموند كانت تعزف على البيانو المقطوعات.. الواحدة تلو الأخرى، والتي كان يعرفها زوجها، فكانت تنساب مع مزاجه كانسياب نسمات البحر العذبة. عندها كان يظهر شيء لطيف على نظرات ليدجيت، فكان من السهل على أي واحد أن يعرف سبب ذلك.. وهو نجاحه في عمله.. إذ كان يظهر على عينيه الداكنتين وكذلك على فمه وجبهته هدوء صادر عن استغراقه في فكرة ما.. لم يكن فكره يبحث عن شيء... لكنه تعلق بأمر، وبدأت نظرته تعكس ما وراءها. تركت روزموند البيانو، وجاءت لتجلس على كرسي بالقرب من أريكة زوجها، مقابل وجه زوجها.

قالت وهي تحبك يديها أمامها... وهي تحنو على زوجها: «هل هذا العزف يكفيك يا سيدي؟».

«نعم، إذا كنت قد تعبت». قال ليدجيت بلطف بعد أن أدار نظره إليها، ولم يزحه عنها. لم يشكل وجود روزموند في ذلك الوقت أكثر من مقدار ملء ملعقة في بحيرة، ورغبته الأنثوية، في هذه الحالة، ليست متبلدة.

قالت وهي تنحني لتقرب وجهها من وجهه: «ماذا يشغلك..؟».حرك يديه ووضعها بلطف خلف كتفيها...

«إنني أفكر في رجل عظيم، لقد كان في عمري منذ ثلاثمئة عام، عندما أوجد حقبة جديدة في علم التشريح».

قالت روزموند هازة برأسها: «لا أستطيع أن أتكهن من هو. لقد درسنا شخصيات تاريخية في مدرسة السيدة ليمون ولكن ليس علماء في التشريح».

«سأقول لكِ: لقد كان اسمه فيساليوس، والطريقة الوحيدة التي تعلم بها علم التشريح كانت من خلال ذهابه إلى المقابر وأماكن الإعدام ليسرق الجثث تحت ظلمة الليل».

قالت روزموند وقد ظهرت على وجهها نظرة اشمئزاز مفاجئة: «آه... ».

«يسعدني أنك لست مثل فيساليوس. أعتقد أنه كان عليه أن يجد طريقة أقل رعبًا من تلك».

قال ليدجيت متابعاً جوابها باهتمام شديد: «كلا لم يستطع.. لم يستطع الحصول على هيكل عظمي كامل إلا من خلال سرقته لعظام المجرمين من عند المشنقة ودفنها بعيداً، ليقوم بإحضارها على مراحل تحت ظلام الليل».

قالت روزموند بين الهزل والقلق: «أتمنى ألّا يكون أحد أبطالك العظام... وإلا كان علي أن أوقظك في الليل لتذهب إلى مقبرة كنيسة القديس بطرس. إنك تعلم كم كان الناس غاضبين بشأن مسألة السيدة غوبي، فقد أخبرتني ذلك. لديك عدد كاف من الأعداء».

«وكذلك كان لدى فيساليوس.. يا روزي. لا عجب في أن يكون الأطباء الرجعيون في مدل مارش غيورين جدًّا في حين أن أطباء آخرين كانوا يزأرون في وجه فيساليوس لأنهم كانوا يؤمنون «بجلن» لأنه أثبت أن «جلن» كان على خطأ. لقد اعتبروه كذاباً ووحشاً فاتكاً، لكن الحقائق العلمية المتعلقة بالجسم البشري كانت إلى جانبه فاستفاد منها».

قالت روزموند ببعض الاهتمام: «ماذا حدث له بعد ذلك؟».

«لقد حارب كثيراً حتى النهاية، ولقد أنهكوه حتى جعلوه مرة يحرق أعماله، ثم تحطمت السفينة به وهو في طريقه من القدس إلى بادوا، ليحتل منصباً كبيراً. لقد مات بطريقة مأسوية..». ساد صمت للحظات قبل أن تقول روزموند:

«هل تعلم يا ترشيوس...؟ إنني في بعض الأوقات أتمنى لو لم تكن طبيباً».

قال ليدجيت وهو يجرها إليه: «كلا يا روزي... لا تقولي هذا. إنك كما لو تقولين إنك تتمنين لو تزوجت من رجل آخر».

«كلا، على الإطلاق، فإنك على درجة عالية من الذكاء تمكنك من القيام بأي شيء، إذ كان يمكنك بسهولة أن تكون شيئاً آخر، ولا يعتقد أبناء أعمامك في كولنغهام إلا أنك قد غرقت باختيارك لمهنتك في مستوىً دون مستواهم».

قال ليدجيت متهكماً: «فليذهب أبناء أعمامي إلى الجحيم. إنه تصرف شائن منهم لو قالوا لك هذا».

قالت روزموند: «مازلت أعتقد أنها ليست مهنة جيدة يا عزيزي... إننا نعلم أنها كانت عنيدة في رأيها..».

قال ليدجيت بحزن: «إنها أعظم مهنة في العالم يا روزموند... وأنت تقولين إنك تحبينني ولا تحبين الطبيب الرجل في داخلي، ليشبه هذا تماماً قولك إنك تحبين أكل الخوخ، لكنك لا تحبين نكهته. لا تقولي ذلك يا عزيزتي فإنه يؤلمني».

قالت روزي مبتسمة: «حسناً أيها الطبيب ذو الوجه الكئيب.. إنني سأصرح في المستقبل أنني شغوفة بالهياكل العظمية، وسرقة الجثث والعينات المجهرية والمشاجرة مع جميع الناس التي تنتهي بموتك ببؤس».

قال ليدجيت وقد أقلع عن احتجاجه ومعارضته، ثم ربت على كتفها مستسلماً: «كلا.. كلا، إن الأمر سيئ هكذا!!».

الفصل السادس والأربعون

Pues no podemos haber aquello que queremos, queramos aquello que podremos.

ما دمنا لا نستطيع أن نحصل على ما نحب، فلنحب ما نستطيع الحصول عليه.

مثل إسباني

بعد أن تزوج ليدجيت وأصبح المستشفى بإدارته، وجد نفسه يحارب لأجل إصلاح النظام الطبي في مدل مارش، وغدا أهالي مدل مارش يتعرفون الصراع الوطني لأجل نوع آخر من الإصلاح. في الوقت الذي كان فيه نظام اللورد جون رسل يناقش في المجلس العموم البريطاني، كان يجري نشاطاً سياسيًّا جديداً في مدل مارش، وظهر تعريف جديد للأحزاب يمكن أن يحدث تغييراً جذريًّا إذا ما أجريت انتخابات جديدة، ولا سيما أن بعضهم قد توقعها معتبراً أن مشروع قانون الإصلاح لا يمكن أن يقره البرلمان الحالي. هذا ما ناقشه ويل لادسلو مع السيد بروك، مهنئاً إياه على عدم تجربة قوته بعد في الحملة الانتخابية.

قال ويل: «كانت تتطور الأوضاع وتتضح كما لو كانت نجم مذنب. سيتحول المزاج العام بسرعة إلى ما يشبه نجماً مذنباً عندما يطرح موضوع الإصلاح، ومن المرجح أنه ستجرى انتخابات أخرى قبل أن ينقضي وقت طويل، وفي ذلك الوقت تبرز أفكار أكثر لدى أهالي مدل مارش، فما ينبغي أن نعمل عليه الآن هي صحيفة البيونير والاجتماعات السياسية».

قال السيد بروك: «إنك على صواب تام يا ويل. سنخرج بأفكار جديدة. أريد أن أبقي على موقفي المستقل تجاه الإصلاح، فلا أريد أن أمضي بعيداً في الأمر. أرى أن أتخذ موقفاً مع ويلفر فورس وروملي، وأعمل على موضوع تحرير العبيد، وقانون العقوبات الجزائية، وأشياء مثل هذه. بالطبع سأدعم كريي».

قال ويل: «إذا كنت تدعم مبادئ قانون الإصلاح، فعليك أن تكون مستعداً لقبول ما تقدمه لك الفرص. لو جر كل واحد جزءًا لصالحه لتفتتت القضية برمتها».

«نعم.. نعم، إني أوافقك الرأي، وسآخذ بوجهة النظر تلك. يجب أن أدعم كريي، لكنني لا أريد أن أحدث تغييراً في توازن الدستور، ولا أظن كريي يفعل ذلك».

قال ويل: «لكن هذا ما تريده البلاد... وإلا لما بقي معنا للتكتلات السياسية ولا للحركات الأخرى، التي تسعى لأجل اتخاذ مجلس برلماني لا تكون أغلبيته من ممثلي الطبقة المسحوقة، بل من هم يمثلون اهتمامات أخرى. أما بالنسبة إلى الكفاح من أجل تحقيق إصلاح ناقص، فهو كالسعي وراء كتلة ثلجية تنهار».

«هذا جيد يا لادسلو في هذه الحالة يجب أن تطرح الأمور. قم بتدوين هذا، كما يجب أن نوثق المشاعر السائدة في البلاد بالإضافة إلى ظهور الآلة والكرب العام».

«بالنسبة إلى التوثيق فيمكن لورقة مساحتها إنشان مربعان أن تتضمن الكثير من المعلومات التي نستنتج منها التعاسة، وقصاصات أخرى يمكن لها أن توضح أن التصميم السياسي لدى عامة الناس ينمو».

«حسناً... حسناً، نعم اكتب على نحو مطول يا لادسلو، إنها فكرة جيدة أكتبها في صحيفة البيونير. ضع العناصر ثم استنتج التعاسة، ثم عناصر أخرى ثم استنتج... وهكذا. نعم، فإن لديك طريقة ذكية في عرض الأفكار.. عندك بيرك، فعندما أفكر في بيرك لا أستطيع إلا أن أفكر في شخص يقدم لك منطقة إدارية يا لادسلو... إذا لم يتم انتخابك... ونحن دائماً نحتاج إلى المواهب في البرلمان. ما دام هناك إصلاح، ونحتاج دائماً إلى المواهب. فالعبارة التي استخدمتها الآن حولَ كرة الثلج وتدحرجها، لتشبه عبارات بيرك. إنني أريد شيئًا من هذا النوع... ليس الأفكار، لكن الطريقة التي تعبر عنها».

قال ويل لادسلو: «المناطق الإدارية ستكون شيئاً جيداً. إذا كانت بإدارة الشخص المناسب، وإذا كان هناك شخص مثل بيرك». لم يستأ ويل من تلك المقارنة الممتدحة له، حتى لو كانت من السيد بروك، لأنه من الصعب على المرء أن يدرك أنه يعبر عن نفسه أفضل مما يفعل الآخرون، ودون أن يلاحظ ذلك، وبسبب ندرة الحاجة إلى الإجابة بما هو صحيح، يصبح التصفيق في الوقت المناسب مشجعاً. شعر ويل أن مواهبه الأدبية أرفع من مستوى استيعاب أهالي مدل مارش.

في أيّ حال... لقد بدأ يحب العمل الذي قال عنه لنفسه عندما بدأ به: «ولم لا...؟». وبدأ يدرس الوضع السياسي باهتمامه المتحمس المعتاد، الذي يوظفه لدى دراسته للشعر والعصور الوسطى. لا يمكن إنكار حقيقة أنه لو لم تتوافر لديه الرغبة في العيش حيث دورثيا، وربما عدم معرفته أي شيء آخر يمكن أن يفعله، لما كان ويل يتأمل احتياجات الشعب الإنجليزي ولا ينتقد القيادة الإنجليزية، بل ربما كان يتسكع في شوارع إيطاليا يكتب مسودات بعض المسرحيات الأدبية، ثم يحاول كتابة النثر ليجده عديم الجدوى، ثم يحاول مع الشعر فيجده متكلفاً كثيراً، ثم يحاول رسم نسخ عن لوحات قديمة، ويتركها لأنه يجد ذلك مفيداً لينتهي به الأمر بالاعتقاد أن الثقافة الشخصية تمثل المبدأ الأساسي، ولِمَ كان يتفاعل مع السياسة بحرية وتقدم.

لإحساسنا بالواجب، يجب أن ننتظر عملاً ما يمكن أن يحل محل حبنا للفن، ويجعلنا نعتبر أن قيمة عملنا ليست مسألة تحيز. لقد قبل لادسلو بعمله، فعلى الرغم من أنه لم يكن على درجة من السمو تجعله يتمناه عملاً دائماً له، فإنه كان يتقد حماساً كلما تطرق لموضوع تمتزج فيه الحياة والعمل، كما كان التمرد يتقد في داخله ليثير النزعة الاجتماعية.

على الرغم من طرد كزابون له من لويك، فإنه كان سعيداً لتلقيه معرفة جديدة بطريقة حية، وجعله لصحيفة البيونير تنتشر حتى تصل إلى براسنغ. وعلى الرغم من صغر المنطقة التي كانت تنتشر فيها تلك الصحيفة، فإن الكتابة فيها لم تكن أدنى مستوى من تلك الكتابات التي تنتشر في جميع أرجاء العالم. لقد كان السيد بروك في بعض الأوقات مصدر إزعاج، لكن صبر ويل كان يتجدد بسبب تقسيمه لوقته بين زياراته إلى كرينج وتنقله بين أرجاء مدل مارش، مما منح حياته بعض التنوع.

قال لنفسه: «إذا ما تزحزح الإسفين قليلاً... ربما أصبح السيد بروك عضواً في الوزارة، سأصبح عندها مديراً لمكتبه. هكذا نظام تطور الأشياء، فالموجات الصغيرة تنتهي إلى موجات كبيرة. إن وضعي هنا أفضل من الحياة التي كان يدربني عليها السيد كزابون حيث أقوم بعملي بموجب أوامره المسبقة، ولا يكون في استطاعتي الاعتراض عليه لإبداء الرأي. إنني لا أهتم بالمكانة ولا بالأجور العالية».

كما قال عنه ليدجيت فهو يشبه الغجر، ويستمتع بعدم انتمائه إلى أي طبقة اجتماعية محددة. لقد أحب مكانته، وكان يستمتع بالدهشة التي يحدثها لدى الآخرين في كل مكان يذهب إليه. إلا أنه كان يفقد تلك المتعة عندما يشعر بابتعاد جديد يفرق بينه وبين دورثيا،

كما حدث له عندما التقيا صدفة في منزل ليدجيت، فيصب جام غضبه على كزابون الذي قال مسبقاً.. إن ويل سيخسر مكانته، «لم يكن يوماً لدي مكانة».. كان سيقول ذلك لو نقل إليه ذلك التنبؤ ولاحمر وجهه جدًّا، لكن حب التحدي شيء، وحب نتائجه شيء آخر.

في ذلك الوقت أخذت وجهة نظر أهالي البلدة حول محرر صحيفة البيونير الجديد تؤكد على وجهة نظر السيد كزابون، فعلاقات ويل لم تخدمه كما خدمت ليدجيت علاقاته المميزة؛ فكلما تقرب ويل لكزابون ذُكر أن كزابون قد أدار ظهره له، وما عاد يتعرف إليه... قال السيد هولي: «لقد كسبه بروك إلى جانبه... لأن أحدًا لم يتوقع ذلك. لا بد من أن يكون لدى كزابون أسباب شيطانية مقنعة تجعله يدير ظهره لشاب أنفق على تربيته وتعليمه، فهو كالسيد بروك يمتدح قطة حتى يبيع حصاناً». ويبدو أن بعض تصرفات ويل الغريبة دعمت موقف السيد كايك، محرر صحيفة الترمبت في تأكيده على ما عرف عن أن لادسلو ليس جاسوسًا بولنديًّا فحسب، بل في عقله خلل يمنحه حضور بديهة طبيعية، ورقة لسان عندما يتحدث، مستغلاً كل فرصة تتاح له، فيؤثر كثيراً في الرجال الإنجليز بعامة.

لقد كان من بواعث اشمئزاز كايك أن يرى شاباً صغيراً ينهض ليتحدث ضد الهيئات التي أُسست حين كان في المهد، وفي مقالة رئيسية في صحيفة الترمبت وصف كايك كلام لادسلو في أحد الاجتماعات التي ناقشت الإصلاح.. «كصخب شيطاني ومحاولة باهتة ليخفي وقاحة كلامه غير المسؤول، وفقر معرفته في ضوء الأعمال النارية».

قال دكتور سبراغ ساخراً: «لقد كانت مقالة البارحة قوية جدًّا يا كايك. ولكن ماذا تعني بالصخب الشيطاني؟».

قال كايك: «إنه مصطلح ظهر في أثناء الثورة الفرنسية».

لقد كانت هذه السمة الخطيرة على نقيض بعض عاداته، التي أصبح يلاحظها الناس ويتحدثون عنها. كان عنده ولع بالأطفال الصغار، نصف مصدره عاطفي، والنصف الآخر أدبي وفني، فكلما كانوا أصغر سنًّا وأكثر نشاطاً، كانت ثيابهم مضحكة أكثر كلما أحب ويل ممازحتهم وإسعادهم.

نعلم أنه كان في روما يحب التجول بين الفقراء، وأنه لم يقلع عن هذه الرغبة في مدل مارش. لقد جمع من حوله مجموعة من الأطفال المضحكين... بعض الأولاد الذين لا يرتدون قبعات، ويرتدون بنطلونات فضفاضة قصيرة ومهترئة جدًّا، وفتيات صغيرات يزحن

شعورهن عن عيونهن لينظرن إليه، ومعهن إخوة لهن يقومون على حراستهن، أعمارهم تقارب السابعة. كان يصطحب هذه المجموعة في رحلات تشبه رحلات الفجر إلى غابة هَلزل، ليجمعوا الكستناء، وعندما حل الطقس البارد، أخذهم في يوم مشمس ليجمعوا الحطب، كي يوقدوه في جوف الهضبة حيث صنع لهم الزنجبيل، وقدم لهم عرضاً مسرحيًّا يدعى بنش وجودي، مستعيناً بدمى صنعها في منزله. كان هذا تصرفاً غريباً منه، وهناك تصرفات أخرى... منها أنه حين كان يذهب إلى منازل يستأنس فيها كان يستلقي على السجاد وهو يتحدث، وحين كان يراه بعض الزائرين أحياناً، كانوا يصدقون فكرة أنه وليد مزيج من العروق المختلفة.

إلا أن مقالات ويل وخطاباته كانت تزكيه لدى أسر صنفتها التقسيمات الحزبية مع الذين يدعمون الإصلاح، لقد دعي إلى منزل السيد بولسترود، لكنه لم يستطع هنا أن يستلقي على السجاد، شعرت السيدة بولسترود من طريقة حديثه حول البلاد الكاثوليكية، التي تبدو وكأنها في هدنة مع أعداء المسيحية، أنه برهن أن لدى الرجال المثقفين نزعة تدفعهم نحو فساد عقولهم.

وفي منزل السيد فيربرذر الذي جعلت منه السخرية في مصاف السيد بولسترود تجاه الحركة الوطنية، أصبح ويل مفضلاً لدى السيدات، خصوصًا لدى الآنسة نوبل الصغيرة الحجم، والتي تصرف معها بلطف عندما رافقها ماسكاً ذراعها وهي تحمل سلتها ليوزع معها على الفقراء نصيبها من الحلويات.

إلا أن المنزل الذي كان يزوره كثيراً، ويستلقي فيه على السجاد كان منزل ليدجيت. ما كان الرجلان يشبهان بعضهما بعضاً، لكنهما كانا يتفقان في أغلب الأوقات. لقد كان ليدجيت جافاً، لكنه لم يكن سريع الغضب، وكان يتجاهل الكآبة لدى الأصحاء، ولم يكن لادسلو يلقي بحساسيته على من يتجاهلونها. أما مع روزموند فقد كان يتجهم ويشاكسها، ولم يكن يمتدحها مما كان يثير استغرابها ودهشتها. وعلى الرغم من هذا كله فإنه أصبح يشكل ضرورة بالنسبة إلى استمتاعها وذلك من خلال مصاحبتها في عزفها للموسيقى وأحاديثه المختلفة وتحرره من الانهماك الكئيب الذي جعل سلوك زوجها غير مرضٍ بالنسبة إليها، على الرغم من تدليله لها وحنوه عليها، فتؤكد على عدم حبها لمهنة الطب. كان ليدجيت يميل إلى الاستهزاء بإيمانها الخرافي بفاعلية مشروع القانون، بينما لم يهتم أحد بالحالة المتدنية لعلم التشريح، وكان أحياناً يهاجم بعنف ويل لادسلو من خلال أسئلة مزعجة.

في إحدى أمسيات شهر آذار، كانت روزموند تجلس إلى طاولة الشاي، مرتدية فستاناً كرزي اللون يغطي ياقته زغب الأوز، وبعد أن جاء ليدجيت متعباً في عمله، جلس بالقرب من موقد النار على أريكة ووضع قدمه على مسندها، ظهرت على جبينه تقطيبة، في حين كانت عيناه تنظران إلى صحيفة البيونير، وعندما لاحظت روزموند أنه مضطرب، تجنبت النظر إليه وشكرت الرب في داخلها لأنها لم تكن مزاجية الطبع. كان ويل لادسلو مستلقياً على السجادة يتأمل سارية الستائر، ويهمهم بصوت خافت لحن أغنية... «عندما رأيت وجهك لأول مرة». في حين كان الكلب الإسباني مستلقياً أيضاً إلى جانبه في مكان صغير، ينظر بغضب إلى ويل لأنه سلبه مكانه.

عندما جلبت روزموند الشاي لليدجيت ألقى الصحيفة من يده وقال لويل، الذي نهض وذهب نحو الطاولة: «لا فائدة ترجى من إطرائك المسرف على بروك كمالك أرض إصلاحي يا لادسلو، إنهم يبحثون عن زلاته في صحيفة الترمبت».

قال ويل وهو يشرب الشاي ويتمشى في الغرفة: «لا يهمني ذلك، من يقرأ صحيفة البيونير، لا يقرأ صحيفة الترمبت. هل تعتقد أن الناس يقرؤون ما يغير أفكارهم...؟ إذا ما حصل ذلك، فلا بد من أن يكون لدينا ساحرات يدبرن المكائد بإفراط... (امزج، امزج، امزج..أنت يا من تستطيع المزج) عندها لا يعرف أحد أي موقف يتخذ لنفسه».

«يقول فيربرذر... إنه لا يعتقد أن بروك سينتخب حتى لو تأكّد من ذلك، فالرجال الذين يدعون أنهم معه، سيخرجون رجلاً آخر في اللحظة المناسبة».

«لا ضرر من أن يحاول، فمن الجيد أن يوجد ممثلون محليون».

قال ليدجيت الذي اعتاد على استخدام هذه الكلمة بنبرة جافة: «لماذا...؟ «إنهم يمثلون حماقة السكان المحليين بشكل أفضل». فأجاب ويل ضاحكاً: «ويبقون على أفضل تصرفاتهم مع الناس. إن بروك ليس رجلاً سيئاً، لكنه فعل أشياءِ جيدة في أرضه، ما كان ليقوم بها لولا ترشحه للانتخابات البرلمانية».

قال ليدجيت مزدرياً: «إنه غير مناسب ليكون ممثلاً للشعب. سيخيب أمل كل من اعتمد عليه، فإنني أستطيع أن أرى ذلك في المستشفى، فهناك... يسيطر عليه بولسترود ويقوده».

قال ويل: «ذلك يعتمد على وجهة نظرك في ممثلي الشعب... إنه يناسب تلك المكانة،

وعندما يقرر، كما يفعلون الآن لا يهتمون بالرجل إنما يهتمون بالصوت الذي يدلونه فقط».

«هذه طريقتكم أيها الكُتاب السياسيون... يا لادسلو..! إنكم تهتفون لاتخاذ إجراء ما وكأنه علاج عالمي، وتهتفون لرجال هم جزء من المرض الذي يحتاج إلى العلاج».

قال ويل الذي يستطيع إيجاد أسباب ارتجالية عندما لم يفكر في المسألة من قبل: «ولم لا...؟ يمكن لبعض الرجال أن يمحوا أنفسهم عن سطح الأرض دون أن يعوا ذلك».

«هذا ليس عذراً كي تشجع على المغالاة الخرافية للآمال في هذه القضية، ثم تجعل الهتاف يلتهمها تماماً، وترسل منتخبين طائشين لا يصلحون إلا لحمل تلك القضية فقط. إنك تعمل ضد العفن، ولا يوجد شيء أكثر عفناً من إقناع الناس بأنه يمكن للمجتمع أن يعالج بتفاهات السياسة».

«هذا جميل جدًّا يا عزيزي.. ولكن يجب أن يبدأ العلاج في مكان ما، إذ لا يمكن إصلاح ألف علة أساءت للناس دون البدء بهذا الإصلاح بالذات. اسمع ما قال ستانلي منذ أيام.. لقد دار جدل كبير في البرلمان لمدة طويلة جدًّا، حول قضايا صغيرة تتعلق بالرشوة، متسائلين ما إذا تلقى هذا المنتخب أو ذاك جنيهاً واحداً، في حين أن الجميع يعلم أن مقاعد عديدة قد اشتريت بالجملة. انتظر لتجد الحكمة والضمير لدى وكلاء الشعب. إن هذا عبث... الضمير الوحيد الذي يمكننا أن نثق به، هو الشعور العام بخطأ يسود لدى إحدى طبقات المجتمع، وأفضل حكمة يمكن أن تكون ذات جدوى هي التي يمكن أن تكمن وراء الادعاءات المتزنة.هذا ما أرى... إنني أدعم الرجل الذي يدعم إدعاءاتهم، وليس صاحب الفضيلة الذي يرتكب الخطأ».

«الكلام العام حول قضية خاصة لهو قضية تسول يا لادسلو. عندما أقول إنني أستخدم دواء معالجاً فأنا لا أعني أنني سأستخدم الأفيون في علاج داء النقرس».

«إنني لا أتسول على القضية التي نحن بصددها، إذ لا نجرب شيئاً حتى نجد رجالًا أنقياء نتعامل معهم. هل تلك هي الفكرة...؟ إذا كان هناك رجل يقدم لك الإصلاح الطبي وآخر يعارضه، فهل ستسأل أيّاً من هما لديه دوافع أفضل، أوعقل أفضل...؟».

قال ليدجيت وقد وجد نفسه محاصراً بطريقة كان يستخدمها بنفسه ضد الآخرين: «بالطبع...! إذا لم يعمل المرء مع مثل هؤلاء الرجال المتوافرين، لا بد للأمور من أن تنتهي

بالجمود. أفترض أن أسوأ وجهة نظر في البلدة حول بولسترود هي حقيقية، فذلك لن ينقص من حقيقة أن لديه الحس والقرار الصحيحين لفعل ما أعتقد أنه يجب فعله في المسائل التي أعرفها وأهتم بها كثيراً جدًّا، ولكن لهذا السبب فقط أؤيده وأقف إلى جانبه». ثم أضاف ليدجيت مفاخراً بنفسه ومتذكراً ملاحظات فيربرذر: «وإلا لما شكل شيئاً بالنسبة إلي، وإنني لا أطري عليه إطراءً شديداً لأجل مصلحة شخصية، فأنا أنأى بنفسي عن ذلك».

قال ويل لادسلو مغتاظاً وهو يلتفت بسرعة. فلأول مرة يشعر أن ليدجيت قد أساء إليه: «هل تعني أنني أطري على السيد بروك لأجل مصلحة شخصية...؟». قال ليدجيت: «كلا... بتاتاً. كنت فقط أشرح تصرفاتي ببساطة. عنيت أن الرجل يسعى لأجل هدف خاص مع آخرين، تكون دوافعهم ووسائلهم مشبوهة، إذا كان متأكداً تماماً من استقلاليته الشخصية، وأنه لا يعمل لمصالحه الشخصية حتى لو كانت مالاً ومكانة».

«إذاً لماذا لا تنشر ليبراليتك لدى الآخرين...؟». قال ويل لادسلو وهو لا يزال مغتاظاً، استقلاليتي الشخصية مهمة بالنسبة إلي، كما هي استقلاليتك الشخصية بالنسبة إليك. لا يوجد لديك سبب يجعلك تظن أن لي مآرب شخصية من بروك، كما أنه ليس لدي سبب يجعلني أعتقد أن لك مآرب من تعاملك مع بولسترود. الدوافع مسألة شرف، أعتقد أن لا أحد يستطيع إثباتها. ولكن بالنسبة إلى النقود والمكانة في العالم». أنهى ويل بقوله:

«أعتقد أن من الواضح أنني لا أسعى وراء شيء من هذا القبيل».

قال ليدجيت مندهشاً: «لقد أسأت فهمي تماماً يا لادسلو» - كان قد انشغل مسبقاً بإثبات براءته، فغفل عما يمكن أن يستدل إليه - «أرجوك أن تعذرني لأنني أزعجتك دون قصد. في حقيقة الأمر كان علي أن آخذ في الاعتبار عدم اهتمامك الرومانسي بالمصالح الدنيوية. أما بالنسبة إلى القضية السياسية، فقد أشرت ببساطة فقط إلى النزعة الفكرية».

قالت روزموند: «كم أنتما مزعجان في هذا المساء... لا أستطيع أن أفهم علاقة النقود هنا. السياسة والطب يكفيان للإيقاع بين اثنين، يمكنكما أن تتشاجرا مع العالم بأسره بسبب هذين الموضوعين فقط». بدت روزموند حيادية وهي تنهض لتقرع الجرس، ثم ذهبت إلى طاولتها.

قال ليدجيت مادًّا يده لها عندما مرت بجانبه: «يا لروزي المسكينة...! الخلاف يزعج الملائكة. اعزفي بعض الموسيقى. اطلبي من لادسلو كي يغني معك».

بعد أن ذهب ويل قالت روزموند لزوجها: «ما الذي أغضبك هذا المساء يا ترشيوس...؟؟».

«أنا...!!؟؟ إنه لادسلو من غضب، إنه يشبه الوقود».

«لكنني أعني ما قبل ذلك. قد أغضبك شيء قبل أن تأتي إلى هنا، لقد كنت تبدو غاضباً، وهذا ما جعلك تختلف مع ويل لادسلو. إنك تحزنني عندما تكون هكذا يا ترشيوس».

قال ليدجيت وهو يمسد عليها تائباً: «أحقًّا...؟ إذاً أنا متوحش».

«ما الذي أغضبك؟».

«أشياء خارجية تتعلق بالعمل». في حقيقة الأمر كانت رسالة تلح على دفع فاتورة الأثاث. إلا أن روزموند كانت تنتظر مولوداً جديداً، وأراد ليدجيت ألا يزعجها.

الفصل السابع والأربعون

لا يؤخذ الحب الحقيقي عبثاً...

لأن أصدق الحب هو أثمن المكاسب...

لا يمكن لفن أن يصوّره...

فهو يزدهر حيث ترعاه عناصر الطبيعة...

كما كان في زمان النعيم...

تنبعث وردة صغيرة أصيلة...

جذرها إلى الأسفل...

وعينها تنظر إلى السماء...

شكلتها الأرض والسماء...

كان مساء أحد أيام السبت، عندما دار ذلك الحديث القصير بين ليدجيت وويل لادسلو، وظل تأثيره على لادسلو حتى بعد أن عاد إلى بيته، مما جعله يظل مستيقظاً حتى بعد منتصف الليل يفكر مليًّا تحت وطأة انفعال شديد في جميع الأفكار التي راودته قبل أن يستقر في مدل مارش، ويسخّر نفسه لأجل السيد بروك، فالتردد الذي انتابه لاتخاذ تلك الخطوة تحول إلى إحساس داخلي لديه، يتأثر بكل إشارة تدل على أنه كان من الحكمة لو لم يتخذ تلك الخطوة. لذلك انتابه انفعال شديد أقضَّ مضجعه ضد ليدجيت. ألم يجعل من نفسه أحمق في وقت كان يدرك أنه أفضل من أن يكون أحمق..؟ ولأجل أي نهاية..؟

حسناً... ليس نحو نهاية محددة حقًّا. كان يتمتع برؤية حالمة بالتوقعات، ولا يوجد إنسان يمتلك تلك الأحاسيس والأفكار، ولا يفكر في نتائج مشاعره وأحاسيسه، ولا يجد صوراً خيالية تنهض بتفكيره وتلطف بالأمل مشاعره، أو تخزها بالخوف والرعب.

ولكن هذا الذي يحدث لنا جميعاً يحدث أيضاً لأولئك الذين يختلفون عنا كثيراً، ولم يكن ويل أحد أولئك الذين تضعه فطنته في الطريق الرئيسي، فهو لديه طرقه الفرعية التي يمارس من خلالها المتع التي يختارها لنفسه، والتي يمكن أن يعتبرها رجل نبيل يتبختر على فرسه في الشارع الرئيسي تافهة جدًّا.

مثال على ذلك... الطريقة التي أوجد بها سعادة لنفسه من خلال مشاعره تجاه دورثيا. ربما بدت غريبة لكنها حقيقية رؤية السيد كزابون العادية والمبتذلة... والقائمة على الشك به بشكل رئيسي... احتمال أن تصبح دورثيا أرملة، وعندها يصبح الاهتمام الذي غرسه في ذهنها يمكن أن يتطور إلى قبولها به كزوج لها... ولكن في حقيقة الأمر لم تسيطر عليه هذه الفكرة، وهو لم يعايش في خياله مشهد هذا الحدث، ولم يتتبعه كما نفعل في خيالنا الذي يشكل جنتنا الحقيقية.

لم يكبح رغبته بالاستمتاع لأفكار يمكن أن تتهم بالدناءة، ولم يتساهل من قبل في تبرير نفسه من تهمة الجحود للجميل والفضل، فوعيه المتخفي بالعوائق الكثيرة التي تفصل بينه وبين دورثيا، وبوجود زوجها ساعده على صرف خياله عن التوقع بما سيحصل للسيد كزابون... كما كانت هناك أسباب أخرى كما نعلم... فإن السيد ويل لادسلو لا يتحمل مجرد التفكير في عيب يلصق به... فهو ذات مرة شعر بالرضى والسخط في الوقت عينه للحرية الهادئة التي نظرت بها إليه... وتحدثت عنها معه دورثيا، كما كان يحمل نظرة مثالية عنها، إذ كانت تجسد واقعها، لكنه لم يستطع أن يشتاق إلى تغيير، كان يجب أن يحدث فيها على الأقل بعض التغيير.

ألا ننأى بأنفسنا عن السير في طريق اللحن الجميل، أو نجفل لدى سماعنا أخباراً نادرة...؟ بعض قطع النحت أو الزخرفة التي صنعناها بفرح على الرغم من الصعوبات، كلفتنا سرقة نظرات خاطفة منها، أليس هذا أمراً مألوفاً وربما نمارسه يوميًّا؟

فطيبتنا تقوم على طبيعة عواطفنا واتساعها، فبالنسبة إلى ويل... هذا المخلوق الذي كان لا يعير كبير اهتمام لما يسمى أساسيات الحياة، ويهتم كثيراً بتأثيرها الأكثر دقة... فقد ينتابه مثل هذا الشعور تجاه دورثيا الذي كان بالنسبة إليه كثروة موروثة. ما يمكن الآخرين من بث عواطفهم قد أغنى خياله ببهجة إضافية... فهو كان مدركاً لهذا الزخم.. وإثباته أن حبه للشعر قد أغنى وفتن خياله من خلال تجاربه الشخصية.

قال لنفسه.. إن دورثيا دائماً وإلى الأبد، تتربع على عرش روحه، وأنه لا توجد امرأة

أخرى يمكن لها أن تصل إلى مقعد أعلى من قدميها، ولأنه لو استطاع أن يكتب التأثير الذي نقشته في داخله في مقاطع أزلية، لتباهى بنفسه متفاخراً بأنه أنتج مقطعاً يحتل مرتبة بعد مقطع أولد درايتن: «...يمكن أن تعيش الملكات حياة الآخرة وهن سعيدات على صدقات مديحهن المبتذل».

ولكن كانت هذه النتيجة موضع تساؤل، ماذا عساه أن يفعل لدورثيا؟ ماذا كان ينفعها إخلاصه؟ من المستحيل التنبؤ بذلك. إنه لن يبتعد عن ناظريها، فهو لم ير مخلوقاً بين أصدقائها يمكن أن تبوح له بأسرارها بثقة وبساطة.. كما فعلت معه. لقد قالت مرة إنها تود بقاءه، وهو سيبقى مهما نفث التنين من نيران حولها.

كانت هذه نهاية ترددات ويل لادسلو، لكنه لم يكن بعيداً تماماً عن التمرد والتناقض حتى عندما يتخذ قراراته الشخصية. في أغلب الأحيان كان يقع أسير الغضب والانفعال كما كانت حاله في تلك الليلة، وذلك نتيجة احتجاج خارجي، على أن جهوده العامة التي كان يبذلها مع رئيسه السيد بروك لم تكن بطولية كما تمناها أن تكون. وكان يرافق هذا الأمر نوع آخر من الانفعال والغضب على الرغم من تضحيته بالوقار لأجل دورثيا.

نادراً ما كان يراها لمّا كان عاجزاً عن معارضة هذه الحقائق المزعجة، فقد قام بمعارضة أقوى نزعة لديه وقال: «...إنني أحمق». في أيّ حال منذ أن بدأ حواره الداخلي يدور حول دورثيا انتهى الأمر به كما كل مرة تماماً... وفي تصوره، كم يمكن أن يكون إحساسه لطيفاً عندما يلتقي بها ويراها، فخطر له مباشرة أن اليوم التالي سيكون يوم أحد. لقد قرر الذهاب إلى كنيسة لُوِيك ليراها هناك.

لقد نام وتلك الفكرة تعشش في ذهنه، ولكن بينما كان يرتدي ثيابه في ضوء الصباح قال له صوت معارض داخلي: «..سيكون هذا بمثابة تحدٍ لمنع السيد كزابون لك من الذهاب إلى لُوِيك، ودورثيا لن تكون سعيدة».

«هذا هراء...!» – نزعة محاورة – «..ستكون وحشية منه أن يمنعني من الذهاب إلى كنيسة ريفية جميلة في صباح ربيعي، ودورثيا ستكون مسرورة».

«سيكون من الواضح للسيد كزابون أنك أتيت إما لتغضبه، أو لترى دورثيا».

«ليس صحيحاً أنني ذاهب لأغضبه، ولماذا ينبغي ألّا أذهب لأرى دورثيا؟ هل ينبغي أن

يستحوذ لنفسه على كل شيء ويظل دائماً مرتاحاً..؟ دعه يتألم قليلاً كما يحدث للآخرين، لقد أحببت دائماً جاذبية الكنيسة والمصلين فيها، بالإضافة إلى ذلك إنني أعرف عائلة تكر. إنني سأجلس في مقصورتهم».

عندما أسكت الصوت المعارض بقوة غير مبررة، سار ويل إلى لُويك وكأنه كان يمشي في طريقه إلى الجنة قاطعاً هلزل، وملتفاً حول غابتها حيث تتغلغل أشعة الشمس في براعم أغصان الأشجار، وتظهر جمال الطحلب، وحيث ينمو النبات الأخضر من خلال النبات اليابس. بدا كل شيء يعلم أن ذاك الصباح كان صباح يوم أحد، ويؤيد ذهابه إلى كنيسة لُويك.

بسهولة شعر ويل بالسعادة حيث لا شيء كان يخالف مزاجه، وفي هذا الوقت تحولت فكرة إغضاب السيد كزابون إلى مصدر متعة لديه، فراحت البهجة والسرور يرسمان ابتسامة لطيفة على وجهه، لتبدو للناظر مثل سقوط أشعة الشمس على سطح الماء، على الرغم من أن المناسبة لم تكن نموذجية.

لكن معظمنا يرى أن من يسد طريقنا هو بغيض، ولا نتردد بالشعور ببعض الاشمئزاز منه، ولاسيما أنه يستمتع بالتسبب به لنا. سار ويل وهو يضع كتابًا تحت إبطه ويداه في جيبي بنطاله. لم يكن يقرأ، لكنه كان ينشد قليلاً، وهو يتصور ما يمكن أن يحدث في الكنيسة.

كان يجرب بعض الألحان ليرى أيها تناسب كلمات قد كتبها هو، ففي بعض الأحيان كان يجرب ألحاناً موضوعة، وأحياناً أخرى كان يجرب ألحانه هو. لم تكن الكلمات ترتيلة، لكنها من المؤكّد كانت تناسب خبرته في أيام الأحد وكانت...

«يا إلهي... يا إلهي... كم هي سعادة رخيصة يتغذى عليها حبي...!

لمسة وشعاع ليس هنا.. وظلال قد غابت...

وحلم بتنهيدة يمكن أن تكون قريبة...

ونغمة صدًى داخلي...

وفكرة من يظن أنني عزيز في مكان كان معروفاً،

ورعشة من خوف مطرود..وشر لم يقع...

يا إلهي... يا إلهي... كم هي سعادة رخيصة يتغذى عليها حبي...!».

في بعض الأوقات كان يخلع قبعته، ويهز رأسه إلى الوراء، ويظهر حنجرته الصغيرة، وهو يغني ليظهر وكأنه تجسيد للربيع الذي ملأ عبقه الهواء، أو كمخلوق متألق امتلأ بوعود كثيرة غير مؤكدة.

كانت أجراس الكنيسة تدق، عندما وصل لُوِيك، ودخل مقصورة مساعد الكاهن قبل أن يصل أحد إلى هناك، لكنه ظل لوحده حتى بعد أن جلس جميع المصلين. كانت المقصورة مواجهة لمقصورة راعي الأبرشية عند مدخل الهيكل الصغير، وكان هناك متسع من الوقت كي يجعل ويل يخشى من ألّا تحضر دورثيا، فراح ينظر في وجوه الريفيين الذين يؤدون صلواتهم عبر السنين داخل الجدران البيض النظيفة والمقصورات القديمة والمعتمة، لا يكاد يذكر أي تغير، كما هي حال صفوف الأشجار التي يتكسر بعض أجزائها هنا وهناك مع تقدم عمرها، لكنها لا تزال تنمو كنمو الأشجار الغضة الصغيرة. كان وجه السيد ريج الذي يشبه وجه الضفدع غريباً ومبهماً. وعلى الرغم من الصدمة التي تسببها رتابة هذه الأشياء، فإنه لا يزال هناك أسر وول وبَودرل جنباً إلى جنب في مقصوراتهم، وخد الأخ صمويل المتورد لا يزال على عهده، والأجيال الثلاثة من سكان البيوت الريفية الأكثر أناقة جاؤوا.. يدفعهم إحساسهم تجاه من هم أفضل منهم، فالأطفال كانوا ينظرون إلى السيد كزابون، الذي ارتدى رداءه الأسود واعتلى أعلى منصة، رئيساً لأفضل الموجودين والأقسى إذا ما أسيء إليه.

حتى عام 1831 كانت لُوِيك في أمان.. فلم يثرها الإصلاح أكثر مما كان يثيرها فحوى قداس صلاة يوم الأحد. كان قد اعتاد المصلون في الأيام القديمة أن يروا ويل في الكنيسة، فلم يتنبه لوجوده أحد سوى جوقة المنشدين الذين توقعوا منه المشاركة في الإنشاد.

أخيراً... ظهرت دورثيا ضمن هذا الوضع الغريب، وراحت تسير عبر الممر القصير، وهي ترتدي قبعتها البيضاء ومعطفها الرمادي، تماماً كما كانت ترتدي حين كانت في الفاتيكان. على الرغم من أنها كانت تنظر إلى الهيكل، وعلى الرغم من ضعف نظرها، فإنها استطاعت مباشرة أن تميز ويل، ولكن لم تظهر عليها أيّ علائم تعبر عن مشاعرها باستثناء شحوب بسيط وانحناءة حزينة قامت بها عندما مرت من جانبه.

لدهشته... شعر ويل بعدم ارتياح مفاجئ، فلم ينظر إليها بعد أن انحنيا محيّيين. وبعد

دقيقتين عندما خرج السيد كزابون من حجرة الاجتماعات ليأخذ مكانه في مقصورته، وفي مواجهة دورثيا، شعر ويل بعجز تام قد أصابه، فما عاد يستطيع أن ينظر إلى أي شيء سوى فرقة الإنشاد من فوق باب حجرتهم الصغيرة. ربما أصاب دورثيا بألم شديد، فقد قام بخطأ فادح، وما عاد من الممتع إغضاب السيد كزابون، الذي كانت له فرصة مراقبته ومشاهدته، وهو لا يتجرأ على التلفت.

لماذا لم يتخيل هذا من قبل...؟ لكنه لم يتوقع أن يجلس وحيداً في تلك المقصورة المربعة الشكل دون أن يصاحبه أحد من عائلة تكر.. الذين من الواضح أنهم قد غادروا لُوِيك جميعاً، فقد عين رجل دين جديد.

لقد اعتبر نفسه غبيّا لأنه لم يتنبأ بأنه سيكون من المستحيل أن ينظر إلى دورثيا، وبأنها يمكن أن تنظر إلى مجيئه كوقاحة منه. في أيّ حال لم يكن أمامه فرصة للهروب، ووجد ويل نفسه وهو ينظر في كتابه، يشبه مديرة مدرسة، وشعر أن الصلاة في ذلك اليوم كانت أطول صلاة حضرها في حياته، وأنه تافه جدًّا، ومضطرب للغاية، وتعيس جدًّا.

هذا ما يحصل عليه الرجل عندما يعبد رؤية امرأة...!! لاحظ رجل الدين أن السيد لادسلو لم يشارك في نشيد هانوفر، فتوقع أنه يعاني من الزكام.

لم يلق السيد كزابون عظته في ذلك الصباح، ولم يتغير شيء في وضع ويل حتى أعلن عن انتهاء الصلوات، ووقف الجميع. كان تقليداً في لُوِيك أن يغادر الأغنياء أولاً. بقرار مفاجئ من ويل نظر إلى السيد كزابون، لكن كزابون كان ينظر إلى قبضة باب المقصورة الذي فتحه ليأذن لدورثيا كي تمر، ثم تبعها مباشرة دون أن ينظر إلى الناس. التقت نظرات ويل بنظرات دورثيا حين كانت تخرج من مقصورتها، فانحنت له ثانية، لكن نظرتها في هذه المرة كانت مرتبكة، فبدت وكأنها تحبس دموعها. خرج ويل لاحقاً بهما لكنهما تابعا مسيرهما تجاه البوابة الصغيرة التي تقود إلى الأرض الجانبية التي تكسوها شجيرات دون أن ينظرا وراءهما.

كان من المستحيل عليه اللحاق بهما، ولم يكن أمامه إلا أن يعود حزيناً في منتصف اليوم عبر الطريق نفسه الذي مشى عليه في الصباح والأمل يملؤه. لقد رأى أن الضياء قد زال من حوله ومن داخله.

الفصل الثامن والأربعون

بالتأكيد، إن الساعات الذهبية لتتحول إلى رمادية،

فتتوقف عن الرقص، ثم تجاهد عبثاً كي تمضي.

فأرى خصلات الشعر الأبيض تلوح لي في الهواء...

فيبدو كل وجه ينظر إلي منهكاً،

ثم يستدير ببطء في وجه العاصفة.

أصاب دورثيا اكتئاب عندما غادرت الكنيسة، بإدراكها لقرار السيد كزابون بعدم الحديث إلى حفيد خالته، وأن حضور ويل إلى الكنيسة قد عمق الهوة بينهما. لقد نظرت إلى قدوم ويل على أنه تصرف ضارّ، فقد اعتبرته تصرفاً وديًّا غايته التصالح مع ابن خالة أبيه، الشيء الذي تمنته كثيراً. ربما تصور، وكذلك هي، أنه يمكن أن يلتقي السيد كزابون بسهولة، فيتصافحا، عندها ربما تعود علاقة الود بينهما إلى مجاريها.

أما الآن فقد انتزع هذا الأمل من دورثيا، وويل قد طرد إلى الأبد، أما بالنسبة إلى السيد كزابون، فقد أصابه إحساس جديد بالمرارة نتيجة الصدمة التي أصابته بسبب حضور ويل، لكنه يرفض الاعتراف بذلك. لم يكن وضعه الصحي جيداً في ذلك الصباح، فقد كان يعاني من صعوبة في التنفس ونتيجة ذلك لم يلغ عظته، فهي لم تفاجأ لبقائه صامتاً طوال وقت الغداء، ولم تفاجأ أيضًا بعدم إشارته لحضور لادسلو.

من جانبها قررت دورثيا ألّا تتطرق لذلك الموضوع ثانية إطلاقاً. كانا عادة يقضيان الساعات التي تفصل بين الغداء والعشاء من يوم الأحد منفصلين.. إذ يسترخي السيد كزابون في المكتبة، وتجلس هي في مخدعها، حيث تكون في حاجة إلى إشغال نفسها بقراءة ما تفضله من كتبها، فقد كانت تجمع العديد منها على طاولتها بالقرب من النافذة المقوسة.. حيث كانت كتب متنوعة... منها كتاب هيردوتس الذي كانت تتعلم القراءة فيه مع السيد

كزابون، وكتاب باسكال الذي ألفته منذ زمن بعيد وكتاب السنة المسيحية للكاتب كبل.

لكنها حتى اليوم كانت تفتح الواحد تلو الآخر دون أن تستطيع قراءة أي منها، فقد بدا لها كل شيء فيها مملاً.. المعجزات قبل ولادة سايروس.. الآثار اليهودية القديمة.. يا إلهي..! كتابات الورع المنقوشة..التراتيل المقدسة.. جميعها متشابهة كلحن تافه يقرع على الخشب.

وحتى أزهار الربيع والعشب كانت تبعث الملل تحت غيوم بعد الظهيرة، التي أخفت وراءها أشعة الشمس على نحو متقطع. حتى الأفكار المثمرة التي أصبح التفكير فيها يشكل عادة، أصبحت دورثيا ترى فيها ملل أيام المستقبل الطويلة التي ستقضيها فقط برفقة تلك الأفكار.

كانت دورثيا تتعطش إلى نوع آخر من الصحبة، وقد انبثق ذاك التعطش من الجهد المستمر الذي كانت تحتاجه في حياتها الزوجية. كانت دائما تحاول أن تكون كما تمنى زوجها، دون أن تركن إلى سعادته بها. كلما تمنت شيئًا وأرادت أن تحصل عليه مباشرة كان دائمًا يصبح بعيداً من متناول يدها حتى لو كان يخصها ولا يشاركها به زوجها.

كان رأيها يختلف عن رأي زوجها في ما يتعلق بلادسلو، وانتهى الأمر باقتناعها بأنها كانت على صواب، وأن زوجها على خطأ، عندما رفض السيد كزابون بقسوة رأي دورثيا في حق لادسلو في ملكية العائلة لكنها كانت عاجزة عن فعل أي شيء..

بعد ظهيرة هذا اليوم، أفقدها العجز إحساسها أكثر من ذي قبل، لأنها كانت تشتاق إلى عناصر يمكن أن تتبادل معها الحنان. لقد اشتاقت إلى العمل الذي يمكن أن يكون مفيداً كأشعة الشمس والمطر، ولا سيما قد أدركت الآن أنها تعيش في جدث حيث تنتج أدوات العمل المروع التي لن ترى النور. اليوم وقفت عند باب القبر وهي ترى لادسلو يذهب بعيداً من عالم العمل النشيط والصداقة الحميمة، وعيناه تنظران إليها ولا تفارقانها.

لم تكن الكتب ذات جدوى... ولم يكن التفكير ذا جدوى. لقد كان يوم أحد، فلا تستطيع استخدام العربة كي تذهب بها إلى سيليا التي وضعت مؤخراً مولوداً.. فلم يكن هناك ملجأ تلجأ إليه من الفراغ الروحي والاضطراب، فكان عليها أن تتحمل عبء مزاجها المرهق كما لو كانت تتحمل صداعاً شديداً. عندما حانت ساعة قراءتها للسيد كزابون بعد الغداء، اقترح السيد كزابون أن يذهب إلى المكتبة حيث طلب أن توقد الشموع والموقد هناك، فقد بدا نشيطاً ومتقد الذهن. لاحظت دورثيا في المكتبة أنه قد أعاد ترتيب كراريسه على الطاولة. فأخذ

ووضع في يدها مجلداً مألوفاً لديها.. فقد كان يتألف من عناوين جميع كتبه وكراريسه.

قال وهو يجلس: «ستتفضلين علي يا عزيزتي... بدلاً من قراءة أي شيء في هذا المساء، ستقرئين من هذا المجلد وقلم الرصاص في يدك، وعند كل نقطة أطلب التأشير عليها، تضعين إشارة إلى جانبها. ستكون هذه الخطوة الأولى من عملية الغربلة التي فكرت فيها طويلاً، وأثناء هذا العمل سأوضح لك مبدأي في الاختيار الذي أتوقع منك بموجبه مساهمة ذكية لأجل تحقيق هدفي». هذا العرض، مضافاً إلى عروض كثيرة أخرى قدمها منذ لقائه التذكاري بليدجيت، لهو مؤشر على أن عدم رغبته في عمل دورثيا معه فتح باباً أمام الافتراض العكسي الذي يدل على أنه يطلب منها اهتماماً أكبر. بعد أن قرأت ووضعت إشارات لساعتين قال: «سنأخذ المجلد معنا إلى الطابق العلوي، وكذلك قلم الرصاص لو سمحتِ، فإذا ما قرأنا في الليل فإننا سنتابع مهمتنا هذه. أتمنى ألّا يكون هذا مجهدًا لك يا دورثيا؟».

«إنني أفضل دائماً أن أقرأ ما ترغب في سماعه يا عزيزي».. قالت هذا دورثيا مفصحة عن الحقيقة.. فما كانت تخشاه هو أن ترهق نفسها بقراءة ما لا يسره إطلاقاً. لقد استطاعت دورثيا بقوة مزاياها الشخصية أن تقنع من حولها بأن زوجها، وعلى الرغم من غيرته وشكه بها، فإنه قد وضع ثقة عالية في التزامها بوعودها وقدرتها على تكريس نفسها كي تحقق ما تراه الأصح والأفضل.

لقد بدأ يشعر مؤخراً أن هذه المزايا تشكل أهمية خاصة لمكانته ووضعه، فأراد أن يحتكرها لنفسه. وقت القراءة في الليل قد أتى. ونتيجة تعبها نامت دورثيا مباشرة وبعمق، لكن ضوءاً أيقظها بدا لها في البداية وكأنه ضوء غروب الشمس... بعد أن تسلقت هضبة شديدة الانحدار. فتحت عينيها لترى زوجها بعد أن ارتدى رداءه، جلس على أريكة بالقرب من موقد النار حيث لا تزال بعض الجمرات تصدر شعاعاً. لقد أشعل شمعتين متمنياً أن تستيقظ دورثيا، لكنه لم يشأ أن يوقظها بنفسه.

قالت وهي تنهض مباشرة: «هل تشعر بالمرض يا إدوارد؟».

«لقد شعرت بضيق تنفس بسيط وأنا مستلقٍ، فسأظل جالساً هنا لبعض الوقت».

ألقت ببعض قطع الخشب في موقد النار، ثم لبست رداءها وقالت: «هل ترغب في أن أقرأ لك...؟».

قال السيد كزابون بطريقة أكثر لطفاً وأدباً من المعتاد: «ستتفضلين علي كثيراً لو فعلت ذلك يا دورثيا. إنني نشيط وذهني متقد للغاية».

قالت دورثيا بعد أن تذكرت تحذيرات ليدجيت: «أخشى أن تكون الدهشة شديدة عليك».

«كلا... لا تنتابني أيّ دهشة غريبة، فالتفكير سهل..». لم تتجرأ دورثيا على الإلحاح، وقرأت لساعة أو أكثر على الطريقة نفسها التي اتبعتها في المساء لكنها كانت تمر على الصفحات بسرعة أكثر... إذ كان ذهن السيد كزابون أكثر اتقاداً، حتى إن دورثيا دهشت لمّا وجدته كطير يطير مسرعاً، بعد أن ظل يزحف على الأرض لسنوات طوال. قال في آخر المطاف: «أغلقي الكتاب الآن يا عزيزتي، فسوف نتابع عملنا غداً. لقد أجّلته أكثر مما ينبغي، وسأكون سعيداً عندما أراه قد اكتمل، ولكن كما ترين... فإنني أرمي من وراء المبدأ الذي بموجبه اخترت جميع مراجعي، أن أقدم توضيحاً دقيقاً وليس مشتتاً، لكل أطروحة أضمنها مقدمة كتاب، كما تظهرها المسودة الآن ألا تدركين ذلك بدقة يادورثيا...؟».

قالت دورثيا مرتجفة فقد شعرت بحزن ينتاب قلبها: «نعم...!».

«أعتقد أنني الآن يمكن أن آخذ قسطاً من الراحة». هذا ما قاله السيد كزابون الذي عاد إلى فراشه وطلب منها أن تطفئ الشمعتين. عندها استلقت هي أيضاً في الفراش، وكان الظلام يسود أرجاء الغرفة لا يكسره سوى الشعاع الصادر عن الجمرات التي كانت في موقد النار، قال:

«قبل أن أنام أريد أن أطلب منك طلبًا يا دورثيا».

قالت دورثيا بخوف ساد تفكيرها: «ما هو...!!؟؟».

«هو أن تقولي لي بوضوح، إذا ما مت، إنك ستنفذين أمنياتي، وإنك ستنبذين ما أكره، وإنك ستكرسين نفسك وجهدك لتحقيق رغباتي»، لم تدهش دورثيا، فقد كانت هناك أحداث كثيرة كانت تقودها للإحساس بنية لدى زوجها، يمكن أن تضعها تحت نير جديد، فلم تجب مباشرة...

قال السيد كزابون بحدة أقوى ظهرت في صوته: «هل ترفضين؟».

قالت دورثيا بصوت واضح، وحاجتها إلى الحرية تلح عليها في داخلها: «كلا... لا أرفض الآن. ولكن ليس من الاتزان كما أعتقد أن أعد بتنفيذ شيء أجهل واجبي تجاهه. إنني سأفعل كل ما يرجع إلى عاطفة الحب دون تردد».

«ولكن ستستخدمين حكمك، وأنا أطلب منك أن تنصاعي لحكمي أنا، هل ترفضين؟».

قالت دورثيا متوسلة، وقد حطمها خوفها من الرفض: «كلا يا عزيزي... كلا... لكنني أريد أن أنتظر لأفكر قليلاً. إنني أحب من أعماق قلبي أن أفعل ما يريحك، لكنني لا أستطيع أن أقطع عهداً فجأة دون أن أعرف ماهيته».

«إذاً لا تستطيعين أن تثقي بطبيعة أمنياتي».

قالت دورثيا متوسلة: «أمهلني حتى الغد..!»...

قال السيد كزابون: «إذاً حتى الغد...».

بعد وقت قصير جدًّا.. عرفت أنه قد استغرق في نومه، لكنها لم تستطع أن تنام هي ثانية.

بينما كانت مستلقية دون حراك كي لا توقظه، كان يدور في ذهنها صراع.. فقد كان يستجمع خيالها قواه في جانب، ثم ينتقل إلى جانب آخر. لم يكن لديها تصور داخلي بأن السلطة التي يتمنى زوجها أن يمارسها على تصرفاتها المستقبلية، لها صلة بأي شيء سوى نتاجه الفكري، ولكن كان واضحاً لها أنه يريدها أن تكرس نفسها كي تغربل تلك الأكوام من المعلومات المختلطة، فيصبح عملها شرحاً مشكوكاً فيه لمبادئ تحمل شكًا أكبر. أصبحت المسكينة لا تؤمن بتاتاً بأهلية الثقة في ذلك المفتاح، الذي شكل محور طموح وعمل حياة زوجها.

ليس مدهشاً أن يكون حكمها في هذه القضية أكثر واقعية من حكمه.. لأنها كانت تنشئ مقارنة بلا تحيز، وكانت تنظر بحسّ منطقي إلى الاحتمالات التي غامر بغروره من أجلها.

أما الآن فقد صورت لنفسها الأيام والشهور والسنين التي ينبغي لها أن تمضيها في تصنيف ما يمكن أن يسمى بـ (المومياء المحطمة)... وقطع من التقاليد التي كانت عبارة عن فسيفساء، صنعت من حطام آثار قديمة - تصنف لتكون طعاماً لنظرية ذبلت عند ولادتها...

كما يحدث لمولود جنّي.. بدون شك، إن الخطأ القوي عندما يتابع بنشاط أقوى، يجعل أجنة الحقيقة تتنفس. لكن نظرية السيد كزابون في العناصر التي وضعت بذور جميع التقاليد، ما كانت لتطعن نفسها بالاكتشافات دون علم.. فقد كانت تطفو مع أنواع كثيرة من الحدث ليست أشد مقاومة من دراسات أصول الكلمات وتاريخها، التي تبدو قوية بسبب تقارب نطقها، حتى يثبت أن ذلك التقارب في النطق قد جعل تلك الدراسة مستحيلة.

لقد كانت طريقة للفهم، لم تفحص من خلال ضرورة تشكيل أي شيء يتضمن صدمة أحد من مفهوم مفصل عن يأجوج ومأجوج. لقد كانت خطة تشبه خطة نسج نجوم، فلا يتوقع أن يعارضها أحد. كما كان على دورثيا أن تكبح تعبها ونفاد صبرها كلما فكرت في هذا اللغز المبهم الذي رافقها... بدلاً من أن ترافقها المعرفة الرفيعة المستوى التي كان من المفترض أن تحول حياتها إلى شيء ثمين...!! تستطيع الآن أن تفهم تماماً لماذا تعلّق بها زوجها... لتكون الأمل الوحيد الذي يمكن أن يضع عمله في صورة تناسب تقديمه للعالم. في البداية بدا لها أنه يتمنى أن يبعدها عن معرفة طبيعة عمله، ولكن تدريجاً، قسوة حاجة الإنسان الشديدة... توقع الموت المبكر...!!

وهنا تحولت شفقة دورثيا عن التفكير في مستقبلها، إلى التفكير في ماضي زوجها..‌. بل إلى صراع حاضره القاسي الذي هو نتاج ماضيه.. العمل الموحش، والطموح الذي يتنفس بصعوبة تحت ضغط عدم الثقة بالنفس، وابتعاد الهدف، وثقل الأطراف، والآن أخيراً يطارده سيف الموت...! ألم تتمنَّ أن تتزوج كي تساعده في عمله..؟ لكنها اعتقدت أن يكون العمل شيئاً أعظم، فتستطيع أن تكرس نفسها لخدمته في سبيل تحقيق الهدف. أكان صحيحاً أن تخفف حتى من حزنه...؟ وهل كان هذا ممكناً حتى لو وعدت بالسير مضياً من دون جدوى...؟

وعلى الرغم من هذا كله... هل تستطيع الرفض...؟ هل تستطيع أن تقول: «إنني أرفض أن أشبع هذا الجوع المفرط؟». إن العمل الذي ترفض تنفيذه بعد موته، هو العمل نفسه الذي كان ينبغي لها أن تعمله وهو على قيد الحياة. لو عاش لخمسة عشر عاماً كما قال ليدجيت لبقيت من المؤكد تساعده وتضيعه. لا يزال هناك فارق عميق يفصل بين التكريس لأجل زوج على قيد الحياة، والوعد بتكريس لا نهاية له لزوج متوفى. لو ظل على قيد الحياة، لما كان في استطاعتها أن تحتج أو ترفض أيًّا من طلباته. إلا أن فكرة قد جالت في ذهنها أكثر من مرة، على الرغم من أنها لا تؤمن بها؛ ألا ينوي أن يطلب منها شيئًا أكبر مما يمكن أن يخطر

لها، ولا سيما أنه أرادها أن تقطع عهداً له أنها ستنفذ أمنياته دون أن يوضح لها ما هي؟ كلا.. كلا.. فقلبه متعلق فقط بعمله.. فبه ستنتهي حياته، وتتابع هي حياتها لأجله. والآن إذا كان لها أن تقول: «كلا إذا مت فلن أضع إصبعي على عملك»... لبدا ذلك وكأنها تسحق قلباً معتلاً. لأربع ساعات... غرقت دورثيا في هذا الصراع حتى شعرت بالإعياء والتعب، وما عادت قادرة على اتخاذ أي قرار، فراحت تصلي بصمت، وعاجزة كطفلة، بكت طويلاً وظلت تتأمل كثيراً، فغرقت في نومها حتى وقت متأخر من الصباح، وعندما استيقظت وجدت أن السيد كزابون قد استيقظ مسبقاً، وأخبرتها تنترب أنه قد أدى صلواته وتناول إفطاره وهو في المكتبة الآن.

قالت تنترب المرأة ذات البنية القوية والتي كانت مع أخواتها في لوزان: «لم أرك من قبل شاحبة هكذا يا سيدتي».

قالت دورثيا مبتسمة بشحوب: «هل كنت متوردة يا تنترب؟».

«لا أقول متوردة... بل متفتحة كزهرة، لكنك دائماً تستنشقين تلك الكتب الجلدية فما عسى المرء أن يتوقع. ارتاحي قليلاً هذا الصباح سيدتي، دعيني أقول إنك مريضة، ولا تستطيعين الذهاب إلى تلك المكتبة المهمة».

قالت دورثيا: «كلا كلا كلا... دعيني أسرع، فالسيد كزابون يحتاج إلي خصوصًا...». عندما نزلت إلى الطابق السفلي كانت متأكدة من أنه ينبغي لها أن تعد بتنفيذ أمنياته.. ولكن... ولكن سيكون هذا أثناء النهار وليس الآن... عندما دخلت دورثيا المكتبة، استدار السيد كزابون من حول الطاولة التي كان يضع عليها بعض الكتب وقال:

«لقد كنت أنتظر قدومك يا عزيزتي... تمنيت لو بدأنا عملنا هذا الصباح، لكنني أجد نفسي مرهقاً قليلاً ربما نتيجة الجهد الكبير البارحة. سآخذ الآن دورة في الحديقة، لأن الهواء أصبح دافئاً».

قالت دورثيا: «يسعدني أن أسمع ذلك. أظن أن ذهنك كان متقداً أكثر مما ينبغي في الليلة الماضية».

«كنت سأسعد أكثر لو أرحتني بآخر أمر تحدثت عنه يا دورثيا. أتمنى أن تكوني الآن قادرة على إعطاء جواب؟».

قالت دورثيا لتحصل على وقت تتنفس فيه قليلاً: «هل لي أن ألحق بك إلى الحديقة الآن؟».

قال السيد كزابون: «سأكون عند أشجار الطقسوس خلال نصف الساعة القادمة». ثم تركها.

نتيجة لشعورها بالإعياء والتعب، قرعت دورثيا الجرس لتطلب من تنترب ثياباً ثقيلة. ظلت جالسة بصمت لبضع دقائق. لكنها لم تعان من ذلك الصراع ثانية، إذ شعرت أنها ستقول ببساطة «نعم».. لقدرها المشؤوم. لقد كانت أضعف وأشد خوفاً من أن توجه ضربة حادة لزوجها، أو أن تفعل شيئاً سوى أن تنصاع له تمامًا. بقيت جالسة دون حراك، بينما كانت تنترب تضع عليها رداءها وشالها.. وهو ما كان مستغرباً منها، إذ كانت دائمًا ترغب في ارتداء ملابسها بنفسها.

«فليسعدك الرب يا سيدتي»، قالت ذلك تنترب بحب متدفق لا يمكن كبحه، للمخلوقة اللطيفة الجميلة التي لا تستطيع تنترب أن تقدم لها شيئًا أكثر من حبك ردائها. لقد أثر ذلك كثيرًا في مشاعر دورثيا، فانفجرت باكية بدموع على كتف تنترب، إلا أنها انتبهت لنفسها بسرعة، فتماسكت وجففت عينيها، ثم خرجت إلى الحديقة عبر الباب البلوري.

«أتمنى لو أن كل كتاب في تلك المكتبة يتحول إلى مقبرة تحت الأرض لسيّدك..»، هذا ما قالته تنترب لرئيس الخدم برات، عندما وجدته في غرفة الإفطار. فقد ذهبت مرة إلى روما وزارت الآثار كما نعلم، وكانت دائماً ترفض أن تشير إلى السيد كزابون بأي اسم سوى «سيّدك»، عندما تخاطب الخدم الآخرين. ضحك برات. كان يحب سيده كثيراً، لكنه كان يحب تنترب أكثر.

بينما كانت دورثيا تسير في الممرات المفروشة بالحصى تريثت قليلاً عند أقرب مجموعة من الأشجار، مترددة كما حدث لها ذات مرة من قبل على الرغم من اختلاف السبب. ففي تلك المرة خشيت ألا يرحب بمصاحبتها، أما الآن فهي تخشى الذهاب إلى موقع ستلزم فيه نفسها بصحبة نفرت منها. لا القانون ولا حتى وجهة نظر العالم بأسره يجبرها على القيام بهذا... فقط طبيعة زوجها، وعاطفتها، وفقط الزواج المثالي، وليس نير الزواج.

لقد رأت بوضوح تام الحالة كاملة لكنها لا تزال مقيدة.. فهي لم تقو على ضرب الروح المجروحة التي توسلت إليها. إذا كان ذاك ضعفاً، فدورثيا كانت ضعيفة. لكن نصف الساعة

كانت تقارب على الانتهاء، فينبغي ألا تتأخر أكثر من ذلك. عندما اقتربت دورثيا من ممشى أشجار الطقسوس لم تر زوجها ولكن كان للمشي عدة تفرعات، فتابعت سيرها وهي تنظر، عساها أن ترى المعطف الأزرق الذي اعتاد ارتداءه، مع قبعة مخملية دافئة في الحديقة في أيام الشتاء. خطر لها أن يكون جالساً في البيت الصيفي الذي يقع في نهاية الممشى. وعندما انحرفت عند زاوية الممشى استطاعت أن تراه جالساً على مقعد الحديقة بالقرب من طاولة رخامية واضعاً يديه عليها، محنيًا رأسه ليضع جبهته على يديه، وقد غطى المعطف وجهه من الجانبين.

«لقد أرهق نفسه في الليلة الماضية..»، قالت دورثيا لنفسها وهي تظن في البداية أنه نائم، وأن البيت الصيفي رطب، فلم يستطع أن يرتاح فيه. إلا أنها تذكرت بعد ذلك أنه في الفترة الأخيرة كان يتخذ هذه الوضعية وهي تقرأ له، فكأنه قد وجدها وضعية مريحة له أكثر من غيرها، كما تذكرت أنه كان أحياناً يتكلم وهو يستمع بينما وجهه إلى الأسفل. ذهبت نحو البيت الصيفي وقالت: «لقد أتيت يا إدوارد.. إنني جاهزة...!!!!».

لم تصدر عنه أيّ ردة فعل، فاعتقدت أنه مستغرق في نومه. وضعت يدها على كتفه وكررت: «إنني جاهزة..». لكنه لا يزال دون حراك، وبخوف مفاجئ أصابها...!!!! انحنت نحوه وخلعت قبعته، ثم ألصقت وجنتها على رأسه صارخة بنبرة ألم: «استيقظ يا عزيزي... استيقظ...! اسمعني...!! لقد أتيت لأعطيك الجواب»... ولكن لن تعطي دورثيا الجواب أبداً.

بعد فترة من الوقت في اليوم نفسه كان ليدجيت يجلس بالقرب من فراشها حيث كانت تهذي، وتقول ما تفكر فيه، وتستعيد بذاكرتها ما كانت تفكر فيه في الليلة السابقة. لقد عرفته، ونادته باسمه، لكنها اعتقدت أن من الصحيح أن تخبره بكل شيء، وراحت تتوسل إليه مرات عديدة كي يشرح كل شيء لزوجها.

«قل له سآتي إليه فوراً.. إنني جاهزة لأعده... التفكير في الأمر فقط كان مخيفاً جدًّا، فقد جعلني مريضة. لست مريضة جدًّا، فإنني سأتحسن فوراً. اذهب وأخبره...». ولكن...!!!! لن يتحطم الصمت في أذنيّ زوجها أبداً.

الفصل التاسع والأربعون

لقد أوكل بمهمة شاقة يصعب على سحر الساحر حلّها...

من السهل إلقاء الحجارة في الآبار... ولكن من سيخرجها...؟

«أتمنى من الرب لو أننا استطعنا أن نمنع دورثيا من أن تعلم بهذا». قال ذلك السير جتم، وقد ظهرت على جبهته تقطيبة صغيرة، وارتسم على شفتيه اشمئزاز قوي. كان يقف على سجادة أمام المدفأة في المكتبة في لُويك كرينج، وهو يتحدث إلى السيد بروك. لقد كان ذلك في اليوم الذي تلا يوم دفن السيد كزابون، حيث لم تقو دورثيا بعد على مغادرة غرفتها: «ذلك سيكون صعباً يا جتم ولا سيما أنها منفذة الوصية، وهي تحب القيام بمثل هذه الأشياء. الملكية والأرض وأشياء كهذه... إن لديها بعض الأفكار كما تعلم». قال هذا السيد بروك واضعاً نظارتيه على عينيه بتوتر، وناظراً إلى ورقة مطوية في يده: «وهي تحب العمل إذ يمكن الاعتماد عليها كمنفذة للوصية. حقًّا، دورثيا تحب أن تعمل، ولقد أتمت الحادية والعشرين من عمرها في كانون الأول الماضي كما تعرف، وأنا لا أستطيع أن أمنع شيئاً». نظر السير جيمس صامتاً إلى السجادة للحظات، ثم رفع نظره ليحدق بالسيد بروك قائلاً: «سأقرأ لك ماذا نستطيع أن نفعله.. حتى تستعيد دورثيا قواها، يجب أن يظل كل شيء بعيداً منها، وحالما تستطيع الحركة يجب أن تلتحق بنا، فوجودها معنا أنا وسيليا والطفل سيكون أفضل شيء لها في الحياة، وستمضي وقتها جيداً. في الوقت الحاضر يجب أن تتخلص من ويل لادسلو. ينبغي لك أن ترسله خارج البلاد». عادت هنا نظرة الاشمئزاز إلى السير جيمس بكل قوتها. أما السيد بروك فقد وضع يديه خلف ظهره، ومشى نحو النافذة، ثم اعتدل قبل أن يجيب.

«.. من السهل أن تقول ذلك يا جتم، إن من السهل قوله.. أتعرف يا سيدي العزيز». تابع السير جيمس مقيداً سخطه ضمن حدود الاحترام: «أنت الذي أتيت به إلى هنا، وأنت تحتفظ به هنا،أعني من خلال العمل الذي قدمته له».

«نعم ولكن لا أستطيع عزله مباشرة دون أن أقدم له أسباباً لذلك يا عزيزي جتم. إن لادسلو شاب نافع جدًّا، ومرضٍ إلى أبعد الحدود. أعتبر نفسي بأنني قد قدمت خدمة جيدة

لهذا الجزء من البلاد من خلال إحضاره إلى هنا». أنهى السيد بروك كلامه مع إيماءة برأسه إذ استدار كي يظهرها لجتم.

«من المؤسف أن يكون مثل هذا الجزء من البلاد في حاجة إليه. هذا كل ما أستطيع قوله حول الأمر. في أيّ حال، ولكونه أحد أقرباء زوج دورثيا، أشعر أن من واجبي أن أعارض بقوة كل تصرف يصدر عن محبي دورثيا، ويؤدي إلى بقائه هنا. أتمنى أن تعترف أن لي الحق بالحديث حول كل ما يحفظ وقار أخت زوجتي». وقد بدأ هنا السير جتم ينفعل كثيراً.

«بالطبع يا عزيزي جتم... بالطبع، إلا أن لدى كل منا وجهة نظر مختلفة».

قال السير جتم مقاطعاً: «أتمنى أن لا تكون حول فعلة السيد كزابون هذه، إنني أرى أنه قد عرض دورثيا للفضيحة، وإنني أقول إنه لم يكن هناك تصرف ألأم وأشد وقاحة من هذا التصرف، فنوع هذا الملحق لوصية كتبها وقت زواجه وبمعرفة أقربائها لهو إهانة شديدة لدورثيا».

«حسناً... كما تعرف ياجتم فإن كزابون كان يكره لادسلو، وقد قال لي لادسلو السبب، ولم يكترث كثيراً لأفكار كزابون، وأنا أعتقد أن كزابون لم تعجبه مكانة لادسلو المستقلة. لقد قرأت الرسائل المتبادلة بينهما. كان كزابون المسكين مدفوناً بين الكتب، فهو لم يعرف العالم على حقيقته».

قال السير جيمس: «كان هذا يبدو جميلاً تحت اللون الذي أضفاه عليه لادسلو. أعتقد أن كزابون قد انتابته غيرة بسبب دورثيا، وسيعتقد الناس أنها قدمت له مبررًا لذلك، وهذا ما يجعل الأمر بغيضاً جدًّا... أعني اقتران اسمها بذاك الشاب».

قال السيد بروك بعد أن جلس ووضع نظارته على عينيه ثانية: «يا عزيزي جتم... إن هذا لن يؤدي إلى نتيجة... الأمر كله يرجع إلى غرابة كزابون. الآن... هذه الورقة المعنونة «الجدول الشامل»... كزابون معني بأمرها... تركت مع الوصية في درج طاولة المكتب، أعتقد أنه أراد أن تنشر دورثيا أبحاثه، وأنا متأكد من أنها قادرة على ذلك، فهي انغمست في دراساته على نحو عجيب».

قال السير جيمس بعد أن نفد صبره: «يا سيدي العزيز...! هذا ليس صلب القضية، فصلب القضية يكمن في أنك لا ترى معي أن أهم ما في الأمر هو إرسال لادسلو بعيداً من هنا؟».

قال السيّد بروك: «حسناً، إن الأمر ليس ملحاً لهذه الدرجة، ربما سيحدث هذا مع الزمن، أما بالنسبة إلى الإشاعات، فأنت تعلم.. بأن إبعاده لن يوقف الإشاعات، ودع الناس يقولون ما يشاؤون، فليس لديهم ما يثبت ادعاءاتهم التي تدعم أمانيه... يمكنني أن أتخلص من لادسلو إلى حد معين... أنتزع منه صحيفة البيونير وشيئاً من هذا القبيل، ولكن لن يكون في استطاعتي أن أرسله خارج البلاد ما لم يختر ذلك بنفسه، ما لم يختر ذلك.. هل تعلم...؟». تابع السيد بروك بهدوء، وكأنه كان يناقش طبيعة الطقس العام المنصرم، ثم يهز رأسه في النهاية بلطفه المعتاد.

قال السير جيمس بأقوى انفعال يصدر عنه: «يا إلهي...! دعنا نجد له عملاً، دعنا ننفق عليه المال إذا ما أراد الذهاب حتى إلى أمريكا، يمكن أن يأخذه كرمبس، ويمكنني أن أكتب إلى فولك حول ذلك».

«لا يمكن إرسال لادسلو في السفينة كما ترسل قطعان الأغنام أو الأبقار، يا عزيزي إن لدى لادسلو عقلاً مدبراً، وأعتقد أنه لو انفصل عني غداً، لسمعت عنه أكثر في البلاد، فهو موهوب ويعرف كيف يكتب المقالات جيداً، فسيحتضنه بعض الرجال كمحرض لي، محرض هل تعلم..؟».

«محرض...!!!»، قال السير جيمس بتأكيد مرير شاعراً أن تكرار هذه الكلمة دليل كافٍ لكراهيتها.

«كن منطقيًّا يا جتم، فدورثيا الآن كما تقول.. من الأفضل أن تذهب إلى سيليا في أسرع وقت ممكن. إذ يمكن أن تعيش معكم، وفي الوقت الحاضر تسير الأمور بهدوء. لا تدعنا نتعجل الأمور.. سيبقي ستاندش على مجلس بلديتنا، والأخبار ستكون قديمة قبل انتشارها، وعندها سيوجد عشرون سبباً تخرج لادسلو من هنا دون أن أفعل شيئاً بنفسي».

«إذاً أفهم أنك ترفض فعل أي شيء؟».

«أرفض...؟؟؟! أنا لم أقل إنني أرفض، لكنني لا أرى ما يمكن أن أفعله فلادسلو رجل طيب».

قال السير جيمس ناسياً نفسه بسبب غضبه: «إنني مسرور لسماع ذلك. أنا متأكد من أن كزابون لم يكن كذلك».

«لكان من الأسوأ لو أن ملحق الوصية منعها من الزواج ثانية نهائيًّا.. هل تعلم؟».

قال السير جيمس: «لم أعلم ذلك. ولكان ذلك أفضل».

«إنها إحدى نزوات كزابون المسكين، فقد أثرت على عقله تلك الأزمة الصحية. لن ينتهي الأمر إلى شيء، فهي لا تريد الزواج من لادسلو».

قال السير جيمس: «لكن ملحق الوصية هذا قد كتب بطريقة تجعل كل الناس يعتقدون أنها أرادت الزواج منه يوماً. لا أعتقد أن دورثيا من هذا النوع من النساء». ثم أضاف عابساً: «لكنني أشك في لادسلو. أقول لك بصراحة إنني أشك في لادسلو».

«لا أستطيع أن أتخذ أي إجراء سريع على هذه الأرضية يا جتم. في حقيقة الأمر كان ممكناً إرساله إلى جزيرة نورفولك أو مكان آخر مثل ذاك المكان، سيبدو وضع دورثيا سيئاً لدى كل من يعلم بهذا. سيبدو الأمر وكأننا لا نثق بها..لا نثق بها...!!».

على الرغم من أن السيد بروك قد أثار نقطة لا يمكن إنكارها، فإن ذلك لم يخفف من حدة غضب السير جيمس. فقد رفع يده حتى وصلت إلى قبعته ليوضح أنه لا ينوي الاستمرار في الجدل، ثم قال مع قليل من الحماس: «حسناً، يمكنني أن أقول فقط إنه قد ضحى بدورثيا مرة لأنه لم يبال بها من أحبها. سأفعل كل ما في استطاعتي، كأخٍ لها، كي أحميها».

«لا يمكنك أن تفعل شيئاً أفضل من أن تأخذها إلى فريشت في أسرع وقتٍ ممكن. إنني أوافق على هذه الخطة بأكملها». قال السير بروك، وقد سرّ لكسبه جولة الحوار. لم يكن مناسباً له أن ينفصل عن لادسلو في ذلك الوقت، إذ يمكن أن يفض البرلمان في أي يوم قريب، فيصبح عندها ضروريًّا إقناع المنتخبين بأفضل الطرق التي يمكن من خلالها خدمة البلاد على أفضل وجه. كان السيد بروك يؤمن بشدة أن هذه النهاية يمكن تحقيقها من خلال عودته إلى البرلمان؛ فهو كرس جلّ قدراته الفكرية لأجل خدمة البلاد.

الفصل الخمسون

«سيلقي علينا هذا المتشرد عظة ما».

«كلا، بروح أبي، لن يفعل ذلك..!! إنه لن يفعل».

قال قبطان السفينة... «إنه لن يلقي العظات هنا،

إنه لن يتألق بقراءة الإنجيل هنا،

ولا يعلم شيئاً. إننا نؤمن جميعاً بالرب العظيم».

قال هو:

«إنه سيتسبب ببعض الصعوبات».

حكايات كانتربري

مر على دورثيا في فريشت أسبوع كامل قبل أن تسأل أسئلة خطيرة، وأصبحت الآن كل صباح تجلس مع سيليا في أجمل غرف الطابق العلوي المفتوحة على غرفة زجاجية صغيرة، حيث تجلس سيليا مرتدية ألبسة بيضاء وبنفسجية لتبدو كباقة من أزهار البنفسج، وتراقب حركات الطفل المميزة، والتي كانت مريبة بالنسبة إليها، ولا سيما أنها لم تكن تمتلك أيّ خبرة في تربية الأطفال، فكانت دائماً تلجأ إلى المربية كي تفسر ما هو غامض بالنسبة إليها. كانت دورثيا تجلس إلى جانبها ترتدي لباس حدادها، وتظهر عليها تعابير حزن شديد أغضب سيليا التي كانت تعتقد أن دورثيا يجب أن تكون أقل حزناً ليس لأن الطفل كان في صحة جيدة فحسب بل لأن زوجها كزابون كان مملًّا جدًّا ومزعجاً في حياته، وبالإضافة إلى ذلك حسناً، حسناً! بالطبع قد أخبر السير جيمس سيليا بكل شيء مع تأكيده على أن دورثيا يجب ألّا تعلم ما لم يصبح ذلك إجباريًّا.

لقد كان السيد بروك محقًّا في تنبؤه بأن دورثيا لن تظل هادئة طويلاً.. في حين أن هناك أعباء جسيمة ملقاة على عاتقها. كانت تعرف فحوى وصية زوجها التي كتبها وقت

زواجهما، ومنذ أن أدركت الوضع الجديد أصبحت دائماً تفكر بصمت كمالكة لمنزل لُوِيك منر، بالإضافة إلى حقها في تعيين كاهن للكنيسة الملاصقة له.

في صباح أحد الأيام كان عمها في زيارته المعتادة لها بنشاط غير مسبوق منه، كان سببه - كما عزاه - هو أن حل البرلمان أصبح مؤكداً الآن، قالت دورثيا: «عمي... لقد حان الوقت كي أنظر في أمر تعيين كاهن في كنيسة لُوِيك، فبعد أن بدأ السيد تايك النهوض بأعباء الكنيسة، لم أسمع زوجي يقول إن في ذهنه أي رجل دين يمكن أن يخلفه. أعتقد أنني يجب أن آخذ المفاتيح الآن، وأذهب إلى لُوِيك لأبحث في أوراق زوجي، فربما أجد شيئاً يوضح أمنياته».

قال السيد بروك بهدوء: «لا تتعجلي يا عزيزتي... يمكنك أن تذهبي بعد مرور بعض الوقت. لقد جلت بنظري على جميع الأشياء... الطاولات والأدراج، لم يكن هناك شيء، لا شيء سوى البحوث المعمقة، وكما تعلمين بالإضافة إلى الوصية. كل شيء سيتم تحقيقه بعد فترة من الزمن. أما بالنسبة إلى تعيين كاهن، فقد وصلني طلب في هذا الخصوص، أعتقد أن السيد تايك رجل مناسب، لقد رشح لي بقوة، أريد أن أحدد موعداً قبل ذلك، إنه رجل رسولي، أعتقد أنه من الصنف الذي يناسبك يا عزيزتي».

قالت دورثيا التي كانت تفكر دائماً في ما يتعلق بعمل زوجها: «أود أن أحصل على معلومات حوله يا عمي، ثم أحكم عليه بنفسي إذ لم يترك السيد كزابون ما يعبر عن رغبته. ربما أضاف شيئاً على وصيته، فربما كان هناك بعض التوجيهات لي». قال السيد بروك وهو ينهض ليذهب وقد مد يده ليصافح ابنتي أخيه: «لا شيء حول الكاهن يا عزيزتي، لا شيء. ولا حتى حول بحوثه لا شيء في الوصية.. ينبغي ألّا تفكري في هذه الأشياء يا عزيزتي، فمع مرور الوقت كما تعرفين...». ظهر حزن شديد على شفتي دورثيا.

«إنني في وضع جيد تماماً يا عمي، أتمنى لو أشغل نفسي».

«حسناً.. حسناً، سنرى، ولكن يجب أن أسرع الآن فلدي عمل لا ينتهي، ولا سيما أن لدينا أزمة سياسية كما تعرفين... وهنا سيليا وولدها الصغير، وعندك خالتك الآن، وأنا كجدك». قال هذا السيد بروك بسرعة فائقة وهو يهم بالذهاب مسرعاً ليلحق بالسير جتم، فيقول له إنه لن تكون خطيئة السيد بروك إذا ما ألحت دورثيا على تدقيقها في كل شيء.

ارتمت دورثيا على كرسيها حالما خرج عمها من الغرفة، ونظرت متأملة يديها المحبوكتين.

قالت سيليا بصوتها الهادئ المتقطع: «انظري يا دودو انظري.. هل رأيت في حياتك شيئًا كهذا؟».

قالت دورثيا رافعة نظرها وهي نصف حاضرة: «ماذا يا كيتي؟».

«ماذا..؟ شفته العليا... انظري كيف ينزلها، وكأنه يحاول رسم وجه جديد. أليس هذا مدهشاً..؟ ربما كانت لديه أفكار صغيرة. أتمنى لو كانت المربية هنا.. آه...!! انظري إليه من فضلك». نزلت دمعة كانت تتجمع لمدة طويلة على وجنة دورثيا عندما رفعت نظرها وحاولت أن تبتسم... «لا تحزني يا دودو.. قبلي الطفل. فيمَ تفكرين...؟ إنني متأكدة من أنك فعلت كل ما في استطاعتك وأكثر مما ينبغي، فيجب أن تكوني سعيدة الآن».

«هل يسمح السير جيمس أن يصطحبني معه إلى لُوِيك، فإنني أريد أن أتفقد كل شيء لأرى ما إذا كان هناك أي كلمات كتبت لي».

«لن تذهبي ما لم يسمح بذلك السيد ليدجيت، وهو لم يسمح بذلك حتى الآن. هيا أيتها المربية خذي الطفل إلى ردهة الطابق السفلي... بالإضافة إلى ذلك.. في رأسك فكرة خاطئة يا دودو إذ يمكنني أن أرى ذلك، وإنها لتغضبني».

قالت دورثيا بوهن شديد: «أين خطئي يا كيتي؟». بدأت تشعر الآن أن سيليا أشد حكمة منها، وكانت حقًّا تتساءل بخوف أين الخطأ في تفكيرها. وجدت سيليا فرصتها وصممت على اغتنامها، فلا أحد يعرف دودو كما كانت سيليا تعرفها، ولا كيف يمكن التعاون معها. فمنذ أن ولدت سيليا طفلها تولد عندها قوة نفسية وحكمة هادئة، فبدا من الواضح أنه عندما يولد طفل تصطلح الأشياء حتى تبلغ نصابها، وتدرك المرأة أن حالتها السابقة كان ينقصها تلك القوة المركزية الضابطة.

قالت سيليا: «إنني أستطيع أن أرى ما تفكرين فيه يا دودو، وكذلك ما سيحصل. إنك تبحثين عن شيء يتعبك الآن فقط لأن السيد كزابون تمنى ذلك، وكأنك لم تشقي من قبل، وإنه لا يستحق ذلك، فإنك ستكتشفين أنه تصرف على نحو سيئ جدًّا. جيمس غاضب منه تماماً، ومن الأفضل لي أن أخبرك كي أهيئك».

قالت دورثيا بتوتر: «سيليا...! إنك تقلقينني جدًّا... قولي لي كل ما تعنين دفعة واحدة». برق في ذهنها أن السيد كزابون قد حرمها من الملكية، لكن ذلك لا يحزنها كثيراً.

«لقد ترك ملحقاً لوصيته أوصى فيها أن تخسري كل الملكية إذا ما تزوجت..أعني..».

قالت دورثيا مقاطعة أختها بعنف: «هذا لا أهمية له».

تابعت سيليا بهدوء: «ولكن إذا تزوجت من ويل لادسلو وليس من أي رجل آخر. بالطبع لن يكون لهذا أي أهمية، فإنك لن تتزوجي من ويل لادسلو، ولكن هذا ما يجعل تصرف كزابون أسوأ». احتقن الدم في وجه دورثيا ورقبتها على نحو مؤلم، لكن سيليا كانت تقدم لها ما اعتقدت أنه جرعة بسيطة من الحقيقة، فقد كانت تدرك أن ما سبب اعتلال صحة دورثيا هو مفاهيمها المثالية، فقد تابعت بصوتها المعتاد، وكأنها تتحدث عن ثياب الطفل: «هذا ما يقوله جيمس.. إنه يقول: إنه تصرف بغيض، فلا يشبه تصرف رجل نبيل، ولا يوجد رجل أفضل من جيمس في الحكم على الأشياء. حقًّا لقد أراد السيد كزابون أن يجعل الناس يعتقدون أنك ترغبين في الزواج من ويل لادسلو. حقًّا إن هذا ليبعث الاشمئزاز. فقط جيمس من يقول إنه فعل ذلك كي يمنع لادسلو من أن يتزوجك بهدف الحصول على مالك مفترضاً أنه قد طلبك. تقول السيدة كادولدر أنه يمكنك أن تتزوجي من إيطالي يحمل على كتفيه فئراناً بيضاً، ولكن ينبغي أن أذهب لأرى الطفل». أضافت هذا سيليا دون أن يطرأ أي تغيير على نبرة صوتها، ثم وضعت شالاً رقيقاً على كتفيها وخرجت مسرعة.

شعرت دورثيا بالبرد ثانية في هذا الوقت، فأسندت ظهرها إلى الوراء منهارة في كرسيها. ربما قارنت خبرتها في تلك اللحظة بوعيها الغامض والقلق أن حياتها تأخذ شكلاً جديداً، وأنها هي شرعت تتغير كليًّا إلى حدّ أن ذاكرتها لا يمكن أن تضبط نفسها أمام المكونات الجديدة. كل شيء كان يغير من طبيعته... تصرفات زوجها، إحساسها بواجبها تجاهه، كل صراع نشأ بينهما، والآن ما هو أكثر... علاقتها بويل لادسلو.

كان عالمها يمر بحالة تغير متشنج، فالشيء الوحيد الذي استطاعت أن تقوله لنفسها: «يجب أن أنتظر وأفكر من جديد». لقد أخافها تغير بدا لها وكأنه ذنب ارتكبته... لقد كان صدمة عنيفة من التمرد على زوجها الذي فارقها، تضمنت أفكاراً خفية أفسدت كل ما قالته وفعلته، ثم أدركت تغيراً آخر جعلها أيضاً ترتجف... لقد كان حنيناً قلبيًّا مفاجئاً لويل لادسلو. لم يخطر لها مرة أنه يمكن أن يكون وضمن أيّ ظروف... عشيقها.

تصور تأثير الاعتراف المفاجئ عليه عندما يعلم أن أحداً يفكر فيه على هذا النحو، ولكن ربما كان يتوقع شيئاً من هذا القبيل، ولكن لم يتوقع حدوثه ضمن هذه التغيرات

السريعة. لقد شعرت أنها أمضت وقتاً طويلاً قبل أن تسمع سيليا تقول: «هذا حسن أيتها المربية، إنه سيكون هادئاً في حضني الآن. يمكنك أن تتناولي الغداء، واطلبي من جرات أن تبقى في الغرفة المجاورة. ما أعتقده يا دودو...» - تابعت سيليا قولها عندما رأت دورثيا مسترخية في كرسيها - «هو أن السيد كزابون كان حاقداً. إنني لم أحبه قط وكذلك جيمس. أعتقد أن زاويتي فمه كانتا تمثلان الحقد. أما الآن وقد تصرف بهذه الطريقة، فأنا متأكدة من أن الدين لا يطلب منك أن تجهدي نفسك لأجله. أما أنه قد ذهب فتلك هي رحمة، وينبغي لك أن تكوني ممتنة لذلك. يجب ألّا نحزن أليس كذلك أيها الصغير...؟»، أسرت سيليا لرضيعها الذي كان يمثل مركزاً غير واعٍ للعالم المتوازن، والذي كانت له كفان كاملتان بما فيهما الأظافر، وشعر كثيف لو خلعت عنه قبعته لاحترت ماذا تفعل به. حقًّا لقد كان يشبه بودا في ثياب غربية. ضمن هذه الأزمة أعلن عن قدوم ليدجيت، وأحد أول الأشياء التي قالها كانت: «لا أراك في وضع جيد كما كنت من قبل يا سيدة كزابون. هل غضبت؟ دعيني أقس نبضك». كانت يد دورثيا باردة كبرودة الرخام. قالت سيليا: «أرادت أن تذهب إلى لُويك لتبحث بين الأوراق. يجب ألّا تذهب أليس كذلك؟». لم يتكلم ليدجيت للحظات، ثم قال وهو ينظر إلى دورثيا: «ليس تماماً. برأيي أن السيدة كزابون ينبغي لها أن تفعل ما يريح بالها، وذلك الارتياح لن يأتي في وقت يمنع فيه الشخص من العمل».

قالت دورثيا مجهدة نفسها: «شكراً. أنا متأكدة من أن هذا من الحكمة. توجد أشياء كثيرة ينبغي لي أن أقوم بها، لذلك... لماذا ينبغي لي أن أجلس هنا عاطلة عن العمل..؟؟». ثم عندما تذكرت أشياء لا تتعلق بغضبها، أضافت بانفعال: «إنك تعرف الجميع في مدل مارش. إنني أعتقد ذلك يا سيد ليدجيت، فإني أريد منك أن تخبرني الكثير، إذ إن أمامي أشياء مهمة ينبغي لي القيام بها الآن. يجب أن أعين كاهناً للكنيسة إنك تعرف السيد تايك، وكل...». ولكن دورثيا كانت مجهدة جدًّا، فانفجرت بالبكاء والنحيب، ثم أعطاها السيد ليدجيت جرعة من دواء.

قال السيد ليدجيت للسير جيمس: «دعوا السيدة كزابون تفعل ما تشاء»... إذ طلب رؤيته قبل أن تغادر المنزل، «أعتقد أنها تحتاج إلى حرية تامة، أكثر مما تحتاج إلى أي دواء». ساعده إشرافه على مرض دورثيا على التوصل إلى استنتاجات حقيقية، تتعلق بتجاربها الحياتية. كان متأكداً من أنها تعاني من ضغوط وصراعات نفسية، وأنها تشعر الآن بانتقالها إلى معتقل جديد يختلف عن ذلك الذي تحررت منه. كانت نصيحة ليدجيت الأسهل على سير جيمس

كي ينفذها ولا سيما عندما أخبرت سيليا دورثيا بالحقيقة المؤسفة التي تتعلق بالوصية، فلا يمكن فعل شيء الآن، ولا يوجد سبب يدفع لتأخير توقيع دورثيا على الوصية كي تصبح نافذة قانونيًّا. في اليوم التالي انصاع السير جيمس مباشرة لطلبها، إذ اصطحبها إلى لُويك.

قالت دورثيا: «لا أرغب في البقاء هناك في الوقت الحاضر، إذ لا أطيق ذلك، وإنني أشعر بارتياح أكثر في فريشت مع سيليا، كما يمكنني أن أفكر بطريقة أفضل في ما يجب علي أن أفعله في لُويك، وأنا أنظر إليها من بعيد. كما أرغب في قضاء بعض الوقت مع عمي في كرينج لأتنقل في جميع الأماكن التي كنت أسير فيها قديماً وبين الناس في القرية».

«ليس الآن لأن عمك معه مرافق سياسي، ومن الأفضل أن تبقي بعيدة من هذه الأشياء». قال ذلك السير جيمس الذي اعتبر تلك اللحظة كرينج كمقر للادسلو، لكنه لم يتبادل الحديث معها حول الوصية، فحقًّا كلاهما شعر بأن إثارة الموضوع بينهما أمر مستحيل. كان السير جيمس خجولاً في المسائل الخلافية حتى مع الرجال، وكانت دورثيا تقول شيئاً واحداً لو قررت الحديث حول الموضوع... إنه من المستحيل عليها أن تتحدث حول الوصية في الوقت الحاضر، لأنها ستتعرض لعدم عدالة زوجها، إلا أنها تمنت لو أن السير جيمس يعلم ما حدث بينها وبين زوجها حول حق لادسلو الأخلاقي في الملكية، عندها لكان واضحاً له.

إن الشرط الغريب الذي تضمنه ملحق الوصية، كان نتيجة لمعارضة زوجها المريرة لذلك الحق، وليس نتيجة أحاسيسه الشخصية التي يصعب التعبير عنها. أيضاً يجب الاعتراف أن دورثيا تمنت لو يعرف ذلك من أجل ويل لادسلو أيضاً، ولا سيما أن السير جيمس يعتبره مجرد مقصد لأفعال كزابون الخيرية.

لماذا يقارن برجل إيطالي يضع فئراناً بيضاء على كتفيه؟ بدت تلك الكلمة المقتبسة من كلام السيدة كادولدر، وكأنها استهزاء ساخر صيغ في الظلام بإصبع شيطان. بحثت دورثيا في لُويك بين كل ما على الطاولة وفي الأدراج، كما بحثت في جميع الأماكن التي يضع فيها زوجها كتاباته، إلا أنها لم تجد ورقة موجهة لها باستثناء الجدول الإجمالي، الذي ربما يشكل بداية لكثير من التوجيهات التي وضعت لها. في توكيله لدورثيا مهمة تنفيذ الوصية، وكما هو في كل الأمور، كان السيد كزابون بطيئاً متردداً، ربما لأنه اضطهدها في خطة تحويله لعمله كي تنفذه كما لو أنجزه هو متثاقلاً في وسط العتمة، فعدم ثقته بكفاءة دورثيا في ترتيبها لما قد هيأه لها، كبحها عدم ثقته بأي محرر آخر. إلا أنه بدأت أخيراً تنشأ في داخله ثقة بها من خلال طبيعتها... كونها قادرة على أن تفعل ما تقرره، فراح يتصورها برغبة وهي ترزح تحت

قيود وعدها، بأن تشيد ضريحاً له يكتب عليه اسمه.

لم يسم السيد كزابون الأعداد القادمة بالضريح، لكنه سماها: مفتاح علم الأساطير، إلا أن الشهور قد مرت مسرعة فتأخرت الخطة... لم يكن لديه وقت سوى ذلك الوقت الذي حصل فيه على وعد منها، قصد من ورائه أن يبقي قبضته الباردة على حياة دورثيا... لقد أفلتت القبضة التي أوثقها قسم أعطته من أعماق عطفها. لقد كانت قادرة على تنفيذ تعهدها بالقيام بالكدح الذي قومه حكمه عليها بأنه لن يجدي نفعاً لأي شيء، سوى تكريسها لإخلاصها الذي هو أسمى ما في الأمر، ولكن بدلاً من أن يتحكم الآن بحكمها واجب التكريس، أصبح فعالاً ومؤثراً، عندما اكتشفت وبمرارة أن عزلة خفية للتكتم والشك كانت تكمن في ارتباطها القديم.

فالرجل الذي عاش معاناة، لم يعد أمامها كي يوقظ عطفها، إنه بات من الأحداث الماضية المؤلمة لزوج أفكاره أدنى مما اعتقدت، وطلباته المفرطة لأجل ذاته قد أعمت عنايته المفعمة بالشك والوسواس لشخصه، وجعلته يهزم كبرياءه. أما بالنسبة إلى الأملاك التي كانت تمثل ذلك الرابط المنقطع، كانت ستسر لو تحررت منها، ولا يبقى لها سوى دخلها السنوي الذي أقر لها عند الزواج، ولم يكن هناك واجبات تترتب عليها كمالكة لها يجب ألّا تحجم عنها. كانت تدور أسئلة كثيرة حول هذه الملكية، وتفرض حالها بإلحاح... ألم تكن محقة عندما اعتقدت أن نصفها يجب أن يكون من نصيب ويل لادسلو؟ ولكن أليس من الممكن لها الآن أن تحقق العدالة؟ لقد اتخذ السيد كزابون وسائل مؤثرة قاسية ليمنعها من فعل ذلك، حتى لو أدى ذلك إلى نقمة تملأ قلبها عليه، وإلى أي فعل قائم على المراوغة ويبدو نصراً لغايته ولمآربه جعل منها متمردة. بعد أن جمعت جميع الأوراق ذات الأهمية، والتي أرادت فحصها، أقفلت جميع الأدراج كلها والتي لا تتضمن كلمات موجهة لها... لا تتضمن أيّ إشارة على أن قلب زوجها الوحيد والمستغرق في التأمل قد تقدم لها بعذر أو توضيح، وعادت إلى فريشت تحمل معها طلبه القاسي والصعب وتأكيداته الأخيرة على سلطته المهينة والضارة، فلم ينكسر صمتها.

بدأت دورثيا الآن تركز تفكيرها حول واجباتها الملحة، التي كان من طبيعة أحدها أن تجعل الآخرين يذكرونها به. التقطت أذن ليدجيت بشغف ذكرها تعيين كاهن للكنيسة، فبمجرد أن سنحت له الفرصة فتح معها الموضوع على أمل أن يصحح الخطأ الذي ارتكبه عندما أعطى صوته الانتخابي مرة دون رضا ضميره. قال: «بدلاً من أن أخبرك حول السيد

تايك.. أود أن أخبرك عن رجل آخر هو السيد فيربرذر هو قس كنيسة القديس بطرس. مرتبه من تلك الكنيسة زهيد جدًّا، يقيد معيشته ومعيشة أهله جدًّا. أمه وعمته وأخته جميعهن يعشن معه، ويعتمدن عليه، وإنني أعتقد أنه لم يتزوج بسببهن، لم أسمع في حياتي عظات جيدة كعظاته في فصاحتها السهلة والواضحة. بدأ يعطي عظاته في كنيسة القديس بول بعد أن ترك كنيسة أولد لاتيمر. إن خطبه جيدة إذ تتطرق إلى جميع المواضيع، فهي صادقة وواضحة وبسيطة. أعتقد أنه رجل متميز، وينبغي له أن يقدم أكثر مما فعل».

قالت دورثيا وقد بدأت تهتم بجميع أولئك الذين لم يحصلوا على المكانة التي يستحقونها: «لماذا لم يقدم أكثر من ذلك؟»

قال ليدجيت: «هذا سؤال صعب. إنني شخصيًّا أجد أن من الصعب أن أجعل ما هو صحيح فعال، ولا سيما أن هناك عدة حبال تشد في آن. أشار فيربرذر مرات عديدة إلى أنه اختار المهنة الخطأ، فهو يحب آفاقاً أوسع من مهنة رجل الدين الفقيرة، وأعتقد أنه ليس لديه اهتمامات يمكن أن تساعده.إنه مولع جدًّا بتاريخ الطبيعة ومواضيع علمية أخرى، ولا يستطيع التوفيق بين هذه الاهتمامات وعمله. لا يمكنه أن يدخر نقوداً، فدخله ضعيف جدًّا لا يكاد يكفي معيشته، وهذا قاده إلى لعب الورق ولا سيما أن مدل مارش مكان جيد للعب ورق الويست. إنه يلعب بهدف تحصيل المال، وهو يربح كثيراً، وبالطبع هذا يقوده إلى معاشرة من هم أدنى منه مستوى، فيجعلونه كسولاً، وعلى الرغم من هذا كله.. إذا ما نظرنا إلى وضعه بشكل عام، فإنني أعتبره أحد أكثر الرجال الذين لا يمكن لنا أن نوجه الملامة لهم، إذ لا يوجد في داخله أي نوع من اللؤم والازدواجية، وعادة ما تذهب هاتان الصفتان عندما يعيش المرء في محيط جيد».

قالت دورثيا: «أتساءل عما إذا ما كان يعاني في داخله بسبب تلك العادة...؟ وإنني أتساءل ما إذا كان يرغب في تركها».

«لا أشك في أنه سيتركها عندما ينتقل إلى وضع مالي أفضل، وهو سيستمتع باستثمار وقته لأجل تحقيق أمور أخرى».

«عمي يقول إن السيد تايك معروف كرجل يسوعي». قالت ذلك دورثيا بتأمل وكانت تتمنى لو أن من الممكن استعادة زمن الحماس الديني الحقيقي، وفي الوقت نفسه كانت تفكر في إنقاذ السيد فيربرذر من لعب الورق.

قال ليدجيت: «إنني لا أدعي أن السيد فيربرذر هو رجل يسوعي. فمكانته لا تقارن بمكانة اليسوعيين... فهو مجرد كاهن من ضمن الكثير من القائمين على الأبرشيات يحاول جاهداً أن يحسّن من ظروف حياتهم جميعاً. إنني أجد ما يسمى الآن باليسوعية يمثل الضرورة والإلحاح على قبول الكاهن كأهم رجل في الأبرشية. إنني أرى ذلك جليًّا لدى السيد تايك في المستشفى، فتعاليمه تأتي ملحة بقوة على الناس كي تجعلهم يدركون وجوده. فضلًا عن ذلك فإن وجود رجل يسوعي في لُويك يجعل من عظاته كعظات القديس فرانسيس للطيور».

قالت دورثيا: «هذا صحيح. إن من الصعب معرفة الأفكار التي يكونها الفلاحون والعاملون مما يلقى عليهم من عظات، أعني عندما ننظر إلى عظات السيد تايك، لن تكون هذه العظات مفيدة في لُويك أعني... الاستقامة والنبوءة في سفر الرؤيا. لقد كنت دائماً أفكر في الطرق المختلفة التي تعلم بها الديانة المسيحية، وكلما وجدت طريقة تقدمها على أنها رحمة أوسع، كنت أتشبث بها وأعتبرها أصدق طريقة؛ أعني بتلك التي تأخذ بأفضل الأشياء على الإطلاق، وتقدم معظم الناس على أنهم شركاء لها. بالتأكيد من الأفضل أن نعذر أكثر مما ينبغي على أن نشجب، لكنني أرغب في رؤية السيد فيربرذر وأحب أن أسمع عظاته».

قال ليدجيت: «افعلي، إنني أثق بتأثير ذلك، فهو محبوب جدًّا، لكن لديه أعداءه أيضاً، فهناك دائماً أناس لا يستطيعون أن يسامحوا رجلاً ذا مقدرة بسبب اختلافه عنهم. أما بالنسبة إلى ربح النقود من خلال لعب الورق فهي بدون شك وصمة عار. إنك لا تقابلين الكثيرين من أهالي مدل مارش، لكن السيد لادسلو الذي دائماً يرى السيد بروك، صديقاً حميماً للسيدات المسنات في أسرة فيربرذر، ويسره أن يتغنى بمدح القس. إحدى المسنات الآنسة نوبل العمة تمثل صورة رائعة للطيبة المنسية، ولادسلو يتودد إليها أحياناً لقد صادفته يوماً في الشارع الخلفي وأنت تعرفين شكل لادسلو. لقد كان يشبه دافنيس بمعطفه وصدريته، وكانت العازبة المسنة الصغيرة الحجم لا يصل طولها أعلى من ذراعه. كانا يبدوان وكأنهما زوجان خرجا من مسرحية رومانسية هزلية. إلا أن أفضل دليل على فيربرذر هو أن تريه وتستمعي إليه».

لحسن الحظ كانت دورثيا في غرفة جلوسها الخاصة عندما دار هذا الحوار، ولم يكن أحد موجوداً كي يجعل ذكر ليدجيت العرضي والبريء للادسلو مؤلماً بالنسبة إليها. لما كان اعتياديًّا لليدجيت أن يشارك في نميمة شخصية، نسي ما قالته روزموند حول لادسلو بأنه

يعشق السيد كزابون، ولا سيما أن اهتمامه كان في تلك اللحظة ينصب فقط على عائلة السيد فيربرذر، ولقد تعمد مؤكداً ما يمكن أن يقال في حق القس، وذلك كي يحبط الاعتراضات.

خلال الأسابيع التي لحقت موت السيد كزابون نادراً ما التقى بلادسلو ولم يسمع بالإشاعة التي تقول إن السكرتير المؤتمن لدى السيد بروك على علاقة خطيرة بالسيدة كزابون، كي يحذره من ذلك. بعد أن ذهب، علقت في ذهنها الصورة التي رسمها عن لادسلو، فأساءت لشأن تعيين فيربرذر في لُويك. كيف كان ويل لادسلو يفكر فيها...؟ هل سيسمع بتلك الحقيقة التي تجعل خديها يحمران بشدة، وكيف يكون إحساسه عندما يسمع ذلك...؟ لكنها استطاعت أن تتخيل كيف كان يبتسم للعازبة المسنة، وهو ينظر إلى الأسفل ليراها... رجل إيطالي بفئران بيضاء..؟! على العكس لقد كان مخلوقاً تغلغل في مشاعر الجميع، واستطاع تحمل أفكارهم بدلاً من أن يفرض آراءه بمقاومة صلبة.

الفصل الحادي والخمسون

الحزب هو أيضاً بنية طبيعية، وسترى كيف، بقوة المنطق أنهما متحدان.. فالكثيرون يمثلهم فرد واحد، والفرد هو جزء من الكثيرين، والكل ليس جزءاً، ولا يشبه الجزء أي شيء... لكل صنف خصائصه الطبيعية، فإما أن يكون كلاهما عظيمين أو كلاهما صغيرين فهناك صنف هو الأسمى، وآخر لا يسمو أبداً.

لكل صنف ما يميزه أيضاً... فهذا ليس ذاك...

فالخالق لا يشبهك أبداً، على الرغم من أن هذا وذاك يشبه بعضهما بعضاً، وعلى الرغم من أنّ أنت... وهو كواحد لواحد، أو ثلاثة لثلاثة.

لم يقع على مسامع لادسلو أي حديث حول وصية السيد كزابون، وكان الناس منشغلين بفضل البرلمان والانتخابات القادمة، إذ امتلأت الأسواق وليالي السهر بسبب تنافس عروض المتجولين فما عاد يلاحظ صخب الشؤون الخاصة.

لقد كانت الانتخابات الشهيرة القاسية على الأبواب، فعمق مشاعر الناس كان يمكن قياسه من خلال زيادة منسوب المشروبات الكحولية التي يتناولونها. كان لادسلو أحد أكثر المنشغلين في هذا الوقت، وعلى الرغم من أن دورثيا كانت دائماً تشغل تفكيره، فإنه كان يتمنى ألّا يحدثه أحد حول الأمر، وعندما سعى وراءه ليدجيت ليخبره بما جرى حول تعيين كاهن في لُويك، أجاب بنزق: «لماذا تقحمني في الأمر...؟؟ إنني لم أر السيدة كزابون، وليس من المرجح أنني سأراها ما دمت في فريشت. أنا لا أذهب إلى هناك، إنه مكان يتبع لحزب المحافظين حيث لا يرحب بي ولا بصحيفة البيونير أكثر مما يرحب بصياد يتسلل مع بندقيته..». في حقيقة الأمر أصبح لادسلو حساساً عندما أدرك أن السيد بروك بدأ يتعمد إبعاده عن كرينج بعد أن كان يرغب في قدومه كثيراً، وأكثر مما كان يرغب لادسلو نفسه. لقد شكلّ هذا تحولاً في سلوك السيد بروك أمام احتجاج سير جتم الناقم... ولما كان ويل مدركا لأبسط الإشارات، التي تذهب في هذا الاتجاه، استنتج أنه يراد له أن يعزل بعيداً

من كرينج بسبب دورثيا، ولا سيما أنّ محبيها كانوا ينظرون إليه بعين الريبة والشك، فقد كانت مخاوفهم تزيد على الحد، وسيكونون على خطأ تام لو تخيلوا أنه يمكن أن يقدم نفسه كمغامر محتاج يحاول الفوز بامرأة غنية. حتى هذا الوقت لم ير لادسلو الفجوة بينه وبين دورثيا، وحتى الآن لم يصل إلى حافتها ليراها على الطرف الثاني.

لقد بدأ يفكر مع حنق داخلي، في الذهاب بعيداً منها. لقد كان من المستحيل عليه أن يبدي اهتماماً أكبر بدورثيا دون أن يعرض نفسه لتهم غير مرغوب فيها، ربما حتى من قِبل ذهنها الذي يحاول الآخرون أن يسمموه. قال ويل: «لقد افترقنا إلى الأبد... وربما أذهب إلى روما. لن تساوي جنيهاً واحداً بالنسبة إليّ». ولكن ما نسمي يأسنا به، هو غالباً فقط تعطش لأمل جائع.

كانت هناك أسباب كثيرة تمنعه من الذهاب، منها أسباب عامة.. كالسؤال، لماذا يستقيل أثناء هذه الأزمة ويترك السيد بروك يترنح وهو في حاجة إلى المساعدة في هذه الانتخابات حيث توجد حاجة ماسة إلى الطواف المباشر وغير المباشر. ما كان من طبع لادسلو أن يترك لعبة الشطرنج في أشد مراحل لعبه، فتصبح الفرصة أمام أي لاعب... حتى لو كان مخه ونخاع عظمه طريًّا وبمقدار صلابة نبل رجولته... متاحة ليحصل على الأغلبية.

إن مساعدة السيد بروك وإبقاءه متمسكاً بفكرة ترشيح نفسه كمدافع عن وثيقة الإصلاح بدلاً من التأكيد على استقلاليته والقدرة على الانسحاب في الوقت المناسب لم تكن مهمة سهلة.

نبوءة السيد فيربرذر في مرشح رابع لم تتحقق بعد، فلا جمعية النواب البرلمانيين ولا أيّ قوة أخرى قادرة على أن تؤمن أغلبية إصلاحية، إذ لم يروا مشكلة تستحق التدخل بينما كان هناك مرشح ثان إصلاحي كالسيد بروك، الذي يقدم نفسه على نفقته الخاصة، ويقوم الصراع بين بنكرتون وعضو محافظ قديم، فيعود باجستر عضو حزب الأحرار ليلة الانتخابات الأخيرة، والسيد بروك العضو المستقل يقيد نفسه في هذه المناسبة فقط.

يكرس السيد هولي وحزبه جميع قواهم لأجل عودة بنكرتون، فيعتمد نجاح السيد بروك إما على تجار الرصاص، مما يؤدي إلى تراجع باجستر إلى الوراء، أو على الأصوات الجديدة من حزب المحافظين، التي تحولت لصالح الإصلاح. بالطبع فإن الاحتمال الأخير يكون هو المفضل.

إن تحوّل الأصوات الانتخابية لا يشكل اضطراباً خطيراً بالنسبة إلى السيد بروك. إن الانطباع الذي تشكل في داخله عن الملوحين له قد فتن بالعبارات التي أطلقوها له، كما أن الثقة بقدراته الفكرية أن تبقى متيقظة دائماً ولا سيما في أثناء الحوارات المتناقضة عندما تطفو في ذاكرته، قد سببت للادسلو كثيراً من المتاعب والمشقة.

قال السيد بروك: «كما تعلمون فإن هناك ترتيبات في مثل هذه الشؤون، إن الاتفاق مع الناس في منتصف الطريق... وتهدئة آرائك قائلًا، حسنًا الآن... هناك شيء في ذلك... وهكذا. إنني أتفق معك أن هذه مناسبة خاصة... فالبلاد وإرادته معها الاتحادات السياسية وشيء من هذا القبيل، لكننا أحياناً نقطع بسكين حادة أكثر مما ينبغي يا لادسلو. هذه العشرة جنيهات الآن لكل منزل. لماذا عشرة جنيهات؟ فسر لي الأمر... ولكن لماذا فقط عشرة جنيهات؟ إن هذا سؤال صعب الآن إذا تمعنت به».

قال ويل وقد نفذ صبره: «بالطبع إنه... لو كان عليك أن تنتظر حتى نحصل على وثيقة منطقية، فلا بد لك من أن تقدم نفسك كرجل ثوري، عندها أعتقد أن مدل مارش لن تنتخبك. أما بالنسبة إلى تقليص النفقات، فليس هذا الوقت وقت تخفيض النفقات»... كان دائماً السيد بروك ينهي كلامه بتأييده للادسلو، الذي لا يزال يبدو له مثل بيرك ممزوجاً بآراء شيلي. ولكن بعد فترة من الزمن تقوم حكمة وسائله بتأكيد نفسها، ثم ينجذب إلى استخدامها بأمل كبير يحدوه.

في هذه المرحلة من الانتخابات كان يتمتع بروح عالية ساعدته على دفع مبالغ كبيرة من النقود، ولا سيما أن قدرته على الإقناع لم تمتحن حتى الآن بأيّ طريقة أصعب من خطاب رئيس جلسة يقدم خطباء آخرين، أو حوار مع منتخب من مدل مارش، كان يشعره أنه رجل تكتيكي بالفطرة، وأنه من المؤسف إذ لم يدخل هذا المضمار من قبل.

في أيّ حال كان يشعر باحتمال الهزيمة أمام السيد مومزي، الذي هو ممثل رئيسي للقوة الاجتماعية في مدل مارش وتاجر، كما أنه وبشكل طبيعي أحد أكثر المترددين في إعطاء صوتهم... وهو يتمنى أن يقدم نوعية واحدة من الشاي والسكر،لأولئك الذين يقفون مع الإصلاح وضده على السواء، كما أنه يرغب في أن يوافق كلاهما جزئيًّا، وهو يشعر كما كان الممثلون البرلمانيون القدماء يشعرون، بأن أهمية انتخاب أعضاء ممثلين تشكل عبئاً كبيراً على البلدة، لأنه حتى لو لم يكن هناك بالضرورة خطر ناجم، فهنالك نتيجة مؤلمة ناجمة عن خيبة أمل مسبق لدى بعض الذين يمثلون جميع الأحزاب، ولولاها لكانت هناك أسماؤهم

في دفاتره. اعتاد أن يتلقى طلبات ضخمة من السيد بروك في تبتن، ولكن كانت هناك طلبات كثيرة أخرى تأتي من لجنة بنكرتون. لأن السيد مومزي كان يعتقد أن السيد بروك لم يكن ذكيًّا جدًّا، فهو من المرجح سيسامح... فقال إنه لن يعطي صوته الانتخابي لخصمه تحت الطلب، فقد قابل السيد بروك في ردهة منزله الخلفية. «بالنسبة إلى الإصلاح يا سيدي اُنظر إليه في ضوء الأسرة». قال وهو يخشخش بقطع الفضة في جيبه ويبدي ابتسامة خفيفة: «هل سيعين السيدة مومزي ويمكنها من تربية ستة أطفال، بعد أن أموت...؟؟ إنني أتساءل مفترضاً أنني أعلم الجواب سلفاً. حسن يا سيدي إنني أسألك... ماذا يجب علي أن أفعل كأب وزوج، عندما يأتيني رجالٌ ويقولون لي، افعل ما شئت يا مومزي ولكن إذا ما صوت ضدنا، فإننا سنبتاع حاجاتنا من مكان آخر... فعندما نحلي خمرنا، نود أن نشعر أننا ننفع البلاد من خلال تعاملنا مع التجار الذين يتبعوننا. لقد قيلت لي هذه الكلمات يا سيدي في المكان الذي تجلس فيه الآن. إنني لا أعنيك أنت يا سيدي».

«كلا كلا كلا...!! هذا تفكير قاصر.. هل تعلم؟؟؟ حتى لو شكا لي رئيس خدمي من بضاعتك يا سيد مومزي..». قال ذلك السيد بروك مخففاً... «حتى لو أسمع أنك أرسلت سكراً وتوابل سيئة، وأشياء من هذا النوع... فإنني لن آمره بالذهاب إلى مكان آخر».

«يا سيدي... إنني خادمك المتواضع، وإنني ممتن لك جدًّا». قال سيد مومزي شاعراً أن السياسة بدأت تتضح له قليلاً: «سيكون من دواعي سروري التصويت لرجل نبيل يتكلم بتلك الطريقة المشرفة».

«حسناً... كما تعلم يا سيد مومزي... ستجد أن من الصواب أن تضع نفسك إلى جانبنا. فالإصلاح سيمس الجميع مع مرور الوقت، إنه إجراء مرغوب فيه تماماً... وهو يشبه الألف باء تاء، هل تعلم - ينبغي أن يأتي ذلك أولاً قبل أن تطبع البقية. إنني أؤيدك عندما تنظر إلى الأشياء في ضوء مفهوم الأسرة، ولكن الآن... الروح العامة... إن جميعنا عائلة واحدة كما تعلم. كلنا نعيش في مكان واحد... شيء كإعطاء الصوت الانتخابي الآن... لماذا يساعد في صنع ثروات الرجال. لا أحد يعرف ماذا يمكن أن يكون تأثير الصوت الانتخابي». أنهى السيد بروك كلامه وقد انتابه شعورٌ بأنه قد ضاع في البحر على الرغم من أنه لا يزال يجد ذلك ممتعاً، لكن السيد مومزي أجاب بصوت حازم: «اعذرني يا سيدي.. لكنني لا أستطيع أن أحتمل ذلك. عندما أعطي صوتي، يجب أن أعرف ماذا أفعل. يجب أن أعرف ما هو تأثير ذلك على صندوق البيع وعلى دفتر حساباتي. إذا ما تحدثنا بطريقة محترمة... بالنسبة إلى

الأسعار، فإنني أعترف أن لا أحد يستطيع أن يعرف الأرباح، ثم تأتي المفاجأة بأنك اشتريت زبيباً، وهو بضاعة لا يطول بقاؤها. إنني لم أر بنفسي الوارد والصادر هناك، فهو إساءة لكبرياء الإنسان. ولكن بالنسبة إلى الأسرة الواحدة فيوجد هناك دائن ومدين. إنني أتمنى ألّا يعدل في ذلك شيء، وإلا سأنتخب من يبقي الأشياء على ما هي عليه. قليل من الرجال لا يكون لأجل التغير أكثر مني، في رأيي الشخصي هذا أفضل ما يكون لي ولأسرتي. إنني لست أحد أولئك الذين لا يملكون شيئاً يفقدونه أعني: بالنسبة إلى الاحترام في الأبرشية، والعمل الخاص وبالنسبة إلى شخصك الكريم كزبون.. كنت جيداً عندما قلت إنك لن تنسحب من عندي بصوت انتخابي أو بدونه، فقد كان مضمون ما قلته مرضياً». بعد هذه المحادثة صعد السيد مومزي إلى الطابق العلوي، وأخبر زوجته أنه كان قاسياً على السيد بروك، وأنه لن يتردد بعد الآن بالذهاب إلى صندوق الانتخابات.

بعد هذه الحادثة أحجم السيد بروك عن التباهي بأساليبه وترتيباته أمام لادسلو.. الذي من جانبه كان يشعر بالسعادة حين كان يقنع نفسه أن لا علاقة له بأي نوع من النقاش، باستثناء الحوارات ذات الطابع الجدلي، وأنه لا يوجد آلة أقسى من المعرفة. بالضرورة، كان لدى السيد بروك مساعدون، كانوا على دراية ومعرفة بطبيعة المصوتين في مدل مارش، وطرق استغلال جهلهم في خدمة الوثيقة - التي كانت تشبه تماماً طرق استغلال جهلهم ضد الوثيقة. لقد أصم لادسلو أذنيه.

عادة لا يمكن للبرلمان، كما هي بقية شؤون حياتنا كالأكل واللباس، أن يمضي قُدماً عندما يكون خيالنا منشغلاً أكثر مما ينبغي بتنفيذ أشياء أخرى. يوجد في العالم رجال كثيرون أيديهم ملوثة، على استعداد أن يقوموا بأعمال قذرة، في حين أن لادسلو أدعى لنفسه أن مساهمته في إنجاح السيد بروك بريئة جدًّا.

ولكن يبقى نجاحه في مساهمته في جلبه للآخرين إلى الطريق الصحيح أمرًا مشكوكاً به بالنسبة إليه. لقد كتب خطابات عديدة، وكذلك مذكرات لخطابات، لكنه بدأ يدرك أن قدرة السيد بروك الفكرية، لو حملت عبء تذكر فكرة ما لراحت تبحث عنها دون جدوى، ولما عادت إليها ثانية...!!

إن جمع الوثائق هو خدمة للبلد، ولكن تذكر مضمونها هو أمر مختلف. كلا.. إن الطريقة الوحيدة التي تجبر السيد بروك على التفكير في الحوار الصحيح وفي الوقت الصحيح هي عندما تقوم بها بكد واجتهاد حتى تسيطر على كامل قواه العقلية. لكن الصعوبة تكمن في

إيجاد مجال فارغ في تفكيره، إذ شغلت كل قواه العقلية من قبل. كان يدرك السيد بروك أن أفكاره تقف عائقاً في طريقه عندما يتكلم.

في أي حال كان ينبغي لمساعدة لادسلو أن توضع على المحك تحت الاختبار، فالسيد بروك، وقبل يوم من الترشيح، كان عليه أن يوضح موقفه للناخبين من مدل مارش من على شرفة بناء وايت هارت، الذي كان يقع متقدماً عند زاوية السوق التجاري، وأمامه فسحة كبيرة يتفرع منها شارعان معارضان.

لقد كان صباحاً لطيفاً ليوم أحد أيام أيار، وكان يبدو كل شيء محلىً بالأمل.. كان يسود لجنة باجستر ولجنة السيد بروك، تفاهمٌ قواه كل من السيد بولسترد، والسيد ستانديش المحامي المنتمي إلى حزب الويج «الأحرار»، وبعض أصحاب المصانع، كالسيد... فنسي والسيد بلمديل، مما أدى إلى وجود توازن مع السيد هولي وأعوانه، الذين كانوا يساندون بنكرتون في دريم دراجون. كان يشعر السيد بروك بارتياح ورضى شديدين وهو في طريقه إلى مركز البلدة ويرتدي صدريته البرتقالية اللون. ولا سيما قد أدرك أنه استطاع أن يضعف هجمة صحيفة الترمبت ضده من خلال إطلاقه الإصلاحات خلال الأشهر الستة الماضية كمالك للأرض. ولكن عندما يتعلق الأمر بمناسبات خطيرة، دائماً تبدو اللحظات بعيدة جدًّا حتى يحين الوقت.

قال السيد بروك بينما كان المنتخبون يحتشدون: «هذا يبدو جيداً... أليس كذلك؟ سيكون هناك مستمعون كثيرون لي في أيّ حال. إنني أحب هذا الآن. إذ إن جميعهم من الجوار كما تعلمون».

على عكس السيد مومزي، لم يعتبر النساجون والدباغون في مدل مارش السيد بروك جاراً لهم ولم يتعلقوا به وكأنه صندوق أرسل إليهم من لندن. لكنهم أصغوا، دون مقاطعة، للمتحدثين الذين قدموا المرشحين، فقد تحدث أحدهم، وقد كان شخصية سياسية جاء من براسنغ ليخبر أهالي مدل مارش بواجباتهم بتفصيل شديد، حتى إنه أصبح من المقلق معرفة ماذا يمكن أن يقوله المرشح نفسه.

في هذه الأثناء تضاعف عدد المحتشدين، وعندما اقترب الرجل السياسي من إنهاء حديثه شعر السيد بروك بتغير ملحوظ في أحاسيسه، وبينما لا يزال يمسك بنظارته ويقلب أوراقه التي كانت أمامه باضطراب شديد، كان يتبادل بعض الملاحظات مع أعضاء لجنته

لتبدو لحظة استدعائه إلى الحديث لا أهمية لها بالنسبة إليه.

«سآخذ كأساً أخرى من الخمر الإسباني يا لادسلو». قال مخاطباً لادسلو الذي كان يقف خلفه ويقدم له المقوي المفترض. لقد كان اختياراً خاطئاً لأن السيد بروك لم يكن مسرفاً في تناول الخمر، فإن يشرب كأساً ثانية من الخمر الإسباني بسرعة ودون فاصل، لهو أمر مفاجئ لنظام جسمه، فهو يشتت طاقته بدلاً من أن يستجمعها. يا للمسكين.. إذ إن كثيراً من الرجال الإنجليز يجعلون من أنفسهم تعساء بإلقائهم خطباً في اجتماعات مصغرة، لكن السيد بروك يرغب في خدمة بلاده من خلاله ترشحه للبرلمان... ما يمكن فعله من خلال اجتماعات مصغرة أيضاً، ولكن بعد أن أخذ القضية على عاتقه لابد له من أن يلقي خطباً كثيرة. ليس بسبب بداية خطابه أصبح السيد بروك قلقاً أو مضطرباً، فهو كان متأكداً من أن كل شيء سيسير على ما يرام، وأنه سيقوم بذلك على نحو تام، فقال بدقة وصياغة فاخرة وكأنه بيتا شعر اقتطعهما من شعر بوب: ركوب السفينة سيكون سهلاً عليه... أما منظر البحر الفسيح فسيبدو في ما بعد مثيراً للذعر له... والأسئلة الآن... أهمها العفريت الذي استيقظ في معدته «.. يمكن أن يسألك أحد عن جدول مواعيدك» فتابع قائلاً بصوت مرتف: «لادسلو أعطني مذكرة جدول أعمالي».

عندما ظهر السيد بروك على الشرفة جاءت الهتافات عالية جدًّا لتوازي بينها وبين صرخات المعارضين التي كانت معتدلة، حتى إن السيد ستانديش الرجل العجوز همس في أذن من كان يقف إلى جانبه: «بربي ليبدو هذا خطيراً..! لابد من أن يكون السيد هولي قد دبر أمراً ما!!». لا تزال الهتافات تبعث السرور، حتى إنه لم يستطع أي مرشح أن يكون مبتهجاً أكثر من السيد بروك، فقد كان يقف واضعاً يده اليسرى على سور الشرفة، وملوحاً بنظارته بيده اليمنى، بينما مذكرته في جيب صدريته. أكثر ما كان لافتاً للنظر في وقفته هي صدريته البرتقالية اللون، وشعره الأشقر القصير وملامح وجهه الهادئة. بدأ خطابه ببعض الثقة: «أيها الرجال... أيها المنتخبون من مدل مارش...!». لقد كان من الطبيعي أن يسود توقف قصير بعد هذه المقدمة... «إنني سعيد جدًّا أن أكون هنا... لم أكن يوماً في حياتي فخورًا وسعيداً هكذا... لم أكن سعيدًا هكذا أتعلمون..؟؟». لقد كانت هذه طريقة تعبير جريئة... ولكن لم تكن أمراً مناسباً.. لأنه ولسوء الحظ قد تاهت عن فكره المقدمة المناسبة، فحتى بيتان من شعر بوب يمكن أن يسقطا فيتوهان عن ذاكرتنا... وتختفي عندما ينتابنا الخوف ويتصاعد مفعول شراب الخمر الإسباني كالدخان من بين أفكارنا. لادسلو،

الذي كان يقف عند النافذة خلف المتحدث، فكر... «لقد انتهى كل شيء الآن. عندما لا يجدي أفضل شيء أي نفع، فلا يظل إلا التخبط كطريق واحد للنجاة»... عندما فقد السيد بروك مفاتيح الأفكار الرئيسية... عاد ليعتمد على ذاته ومؤهلاته التي تشكل دائماً مادة مناسبة ورشيقة لدى جميع المرشحين.

«إنني جار قريب منكم يا أصدقائي... لقد عرفتموني على مقاعد البرلمان لمدة طويلة... لقد انغمست كثيراً في القضايا التي تهم الشعب... أما الآن فصناعة الآلة.. وظهور الآلة... كثير منكم يهتم بصناعة الآلة.. ولقد بدأت أهتم بها مؤخراً. إن ظهور الآلة هذا لا يكفي كما تعرفون، فكل شيء ينبغي أن يمضي قدماً، التجارة والصناعة وتبادل السلع وكل شيء من هذا النوع.. منذ زمن آدم سميث يجب أن يستمر هذا... ويجب أن ننظر إلى العالم بأسره..ونراقب بوجهة نظر متفحصة... يجب أن ننظر إلى جميع الأماكن من الصين إلى البيرو كما يقول أحدهم.. إنه جونسون على ما أعتقد، الهائم على وجهه أتعرفون...؟؟ هذا ما فعلته إلى حد ما، ليس إلى حد البيرو، لكنني لن أبقى طوال حياتي في البيت إذا وجدت أن ذلك لن يجدي نفعًا. لقد ذهبت إلى ليفانت حيث وصلت بعض بضائعكم - ثم ذهبت إلى البلطيق... البلطيق الآن».

لو اجتهد السيد بروك بذاكرته لعاد إلى نفسه، واستطاع أن يعود من أبعد البحار بسهولة، لكن عملية شيطانية دبرت له من قبل أعدائه... ففي اللحظة نفسها ظهر أمامه فوق أكتاف المتجمهرين وعلى بعد عشرة ياردات منه صورة له رسمت على قطعة قماش كبيرة، وقد ظهر فيها وهو يرتدي صدريته البرتقالية اللون ونظارته، كما ظهرت فيها تقاسيم وجهه الهادئة، وبرز صوت في الهواء يشبه صوت طائر الوقواق، يكرر كالببغاء ما يقوله السيد بروك، فنظر الجميع إلى الأعلى تجاه نوافذ المنازل، التي تقع في زوايا الشوارع المتفرعة، إلا أنهم وجدوا بعضها فارغة وبعضها الآخر مليئة بالمستمعين المقهقهين. لقد كان يعلو الصدى البريء تقليد شيطاني، وهو يردد على نحو مقيت ما كان يقوله السيد بروك، ولكان هذا الصدى بريئاً على الإطلاق لو كان يتتبع بدقة ما كان يقوله المتحدث وبصوت الصدى الطبيعي، إلا أنه كان ينتقي بطريقة شيطانية كلمات محددة ليرددها، فعندما ردد الصدى: «البلطيق الآن» تعالى جدًّا صوت ضحك المحتشدين وعم بينهم، ولولا تأثير رزانة الحزب وتلك المسألة الرئيسية للمجتمع، التي حدد معالم تشابكها السيد بروك في تبتن، لانتاب الضحك لجنته.

لقد سأل السيد بولسترود شاجباً عما كان يفعله جهاز الشرطة الحديث العهد. ولكن لم يكن ممكناً معرفة مصدر الصوت، كما أن مهاجمة صورة المرشح ستكون أمراً مريباً جدًّا،

ولا سيما أنه من المرجح أن هولي قد دبر الأمر.

لم يكن السيد بروك في وضع يمكنه من إدراك أي شيء، باستثناء انزلاق الأفكار التي كانت في داخله... وقد كان يتردد في أذنيه صوت غناء ضعيف، فقد كان الشخص الوحيد الذي لم يدرك صوت الصدى، ولم يلحظ صورته التي كانت أمامه. تمسك بعض الأشياء بمفاهيمنا فتأسرها أكثر مما يأسر قلقنا ما نريد قوله. لقد سمع السيد بروك الضحك، لكنه توقع بعض محاولات الإزعاج من حزب المحافظين، كما أنه كان في هذه اللحظة مبتهجاً أكثر من المعتاد، لشعوره بإحساس قد وخزه نتيجة لعودة البضائع الضائعة في بحر البلطيق،قد عادت لترجع إليه بفائدة. «ذلك يذكرني»... تابع قوله وهو يدس يده في جيبه الجانبي بارتياح، «لو أردت متقدماً سابقاً... لكننا لم نطلب متقدماً سابقاً قط وهذا تصرف صحيح - لكن هناك جثم الآن، يمكنني أن أقول إنه كان علي أن أدعم جثم أو بِتّ، بِت الشاب، إنه لم يكن رجلاً ذا أفكار، ونحن نريد أفكاراً كما تعرفون»..».

قال أحد الرجال من المتجمهرين بصوت أجش: «الدمار لأفكارك، إننا نريد الوثيقة»...

ردد فوراً صوت الصدى قائلاً: «الدمار لأفكارك... إننا نريد الوثيقة»، تعالى صوت الضحك أكثر من ذي قبل، ولأول مرة، لأن السيد بروك كان ساكتاً، سمع بتميز الصدى المقلد. إلا أنه بدأ ساخراً ممن قاطعه، لذلك تشجع قائلاً بثبات:

«..عندك وجهة نظر في ما تقول يا صديقي، وإلا لماذا نلتقي ما لم نعبر عن أفكارنا... حرية الرأي... حرية الصحافة... التحرر، شيء من هذا النوع؟ الوثيقة الآن. إنكم ستحصلون على الوثيقة». سكت السيد بروك هنا للحظة كي يحضر نظارته ويخرج الورقة من جيب صدريته بطريقة يظهر فيها أنه رجل عملي ويبحث في التفاصيل. تابع صوت الصدى قائلاً:

«ستحصل على الوثيقة يا سيد بروك من خلال كل مقعد برلماني، ومقعد خارج البرلمان كما هو معروف خمسة آلاف جنيه وسبعة شلنات وأربعة بنسات». في وسط قهقهة الضاحكين احمر وجه السيد بروك، وترك نظارته تسقط، وراح ينظر من حوله بارتباك، فرأى صورته تقترب منه، وفي اللحظة التالية رآها بحزن وقد تلوثت بالبيض. ارتفعت معنوياته قليلاً وكذلك صوته.

«هزل ماجن، وخدع، واستهزاءٌ من رؤية الحقيقة... هذا كله حسن جدًّا»، هنا انكسرت بيضة على كتف السيد بروك، بينما قال صوت الصدى: «هذا كله حسن جدًّا»... ثم انهال بيض كثير، أكثره على الصورة لكن قليلاً منه على السيد بروك. دخل رتلٌ من رجال قدموا

مؤخراً بين الحشد، مطلقين الصيحات والصرخات والصفير، وخمسة منهم أحدثوا معظم الضجيج والصخب، فأصبح من الصعب السيطرة عليهم. لم يمنعوا أن يعلو صوت ذاك الضجيج والزئير، هكذا أجبر السيد بروك على الانسحاب مضطراً، ولكان الإحباط أقل إيذاء لو كان الموقف أقل صبيانية واستهتاراً.. ربما كان هناك عزاء يرتبط بالإهانة الحقيقية،التي يستطيع مراسل صحفي أن يثبت أنها عرضت أضلاع الرجل المتعلم للخطر، وأن يستطيع أن يجد شاهداً رأى نعل حذاء الرجل من فوق سور الشرفة.

عاد السيد بروك إلى غرفة لجنته ليقول متظاهراً بعدم المبالاة، «لقد كان هذا سيئاً أكثر مما ينبغي بقليل، أتعرفون..؟؟ كنت سأكسب آذان الناس قليلاً فقليلاً، لكنهم لم يعطوني الوقت، كنت سأدخل في تفاصيل الوثيقة رويداً رويداً أتعرفون»... أضاف رامقاً لادسلو بنظرة، «في أي حال ستسير الأمور على ما يرام في يوم الترشيح».

لكنك لم تحصل على الإجماع، فالأمور لن تسير على ما يرام، بل على العكس فقد بدت اللجنة متجهمة، وكان الرجل السياسي من براسنغ يكتب بانهماك شديد، وكأنه كان يحضر لحيلة جديدة.

قال السيد ستانديش مراوغاً: «إنه باوير من فعلها، إنني أعرف ذلك، فكأنه قام بإعلام دعائي بأنه ماهر جدًّا في تقليد الأصوات، وأنه قام بذلك بنجاح باهر... يا إلهي..! لقد بدأ هولي يدعوه إلى العشاء مؤخراً، وإن باوير يتمتع بموهبة كبيرة».

قال السيد بروك المسكين، الذي أقام مأدبات عشاء كثيرة لأجل مصالح بلاده: «حسناً... إنك لم تذكره لي يا ستانديش وإلا كنت قد دعوته إلى العشاء..!!».

قال لادسلو بطيش: «لا يوجد أحد خسيس وجدير بالازدراء في مدل مارش أكثر من باوير.. ويبدو أن الخسيسين دائماً هم الذين يغيرون كفة الميزان».

لقد فقد ويل صوابه تماماً وكذلك رئيسه، فذهب وأقفل على نفسه في منزله، وهو يفكر في قرار شبه نهائي وهو أن يترك صحيفة البيونير والسيد بروك. لماذا يجب أن يبقى؟ ولا سيما أن المياه لا يمكن أن تعود إلى مجاريها بينه وبين دورثيا، إذ يمكن لها أن تعود من خلال ذهابه بعيداً واحتلال مكانة مختلفة تماماً، وليس من خلال بقائه، وانزلاقه نحو ازدراء يستحقه كتابع للسيد بروك. ثم جاء حلمه بالعجائب التي يمكن أن يحققها في خمس سنوات. في خمس سنوات على سبيل المثال، الكتابات السياسية والحديث السياسي سيكون

لها قيمة أكبر الآن، فالحياة السياسية ستتسع وتصبح أكثر انتشاراً في البلاد، فيمكن عندها أن تمنحه مرتبة مميزةً تمكنه من ألّا يطلب من دورثيا أن تتنازل له. خمس سنوات... لو استطاع فقط أن يتأكد من أنها تهتم به أكثر من الآخرين، وإذا استطاع أيضًا فقط أن يجعلها تدرك أنه تحفظ طويلًا حتى استطاع أن يفصح عن حبه دون أن يقلل من قيمته، عندها يمكنه الذهاب بسهولة ليبدأ مهنة جديدة في عمر يناهز الخامس والعشرين، فقد كان يبدو ذلك ممكناً ولا سيما أن الموهبة تجلب الشهرة والشهرة تجلب كل شيء آخر، مما يبدو ممتعاً جدًّا. إنه يستطيع التحدث والكتابة والسيطرة على أي موضوع يختاره،كما كان دائماً يهدف إلى اتخاذ موقف إلى جانب العدالة والفكر، ويوظف لأجلهما كل حماسه. لماذا لا يرفع يوماً على أكتاف المحتشدين، ويشعر أنه قد فاز بذلك السمو والمقام الرفيع على نحو جيد؟ دون شك أنه سيغادر مدل مارش ويذهب إلى بلده، فيضع نفسه بين مشاهيرها من خلال دعوته للآخرين إلى موائد عشائه. ولكن ليس على الفور، ليس قبل أن يتبادل بعض الإشارات مع دورثيا. لن يكون راضياً حتى تعرف أنه لن يتزوجها حتى لو كان الرجل الذي تختاره لنفسها، لذلك يجب أن يحافظ في الوقت الحاضر على مكانته مع السيد بروك ويتحمله. ولكن خطر له مباشرة سبب جعله يدرك أن السيد بروك قد توقع رغبته في الانفصال عنه. لقد اشترك كل من التفويض الخارجي والأصوات الداخلية، في إقناع ذلك المحسن (السيد بروك) في أن يتخذ إجراءات أكثر صرامة من المعتاد، وذلك لأجل النوع البشري، بشكل رئيسي هو أن ينسحب لصالح مرشح آخر ترك لأجله فرصة التجول في شوارع المدينة، تسعى وراءه أصوات منتخبيها.

لقد دعا هذا بنفسه إجراءً صارماً، لكنه أدرك أن صحته كانت أضعف من أن تحتمل فاعلية شديدة. قال لادسلو شارحاً المسألة: «لقد شعرت بثقل في صدري... إن هذا لن يناسبني كي أتابع في الأمر».

«ينبغي لي أن أتوقف... لقد كان كزابون المسكين بمثابة إنذار، أتعلم؟ لقد حققت تقدماً كبيراً... لقد شققت قناة، لكن هذه الانتخابات كانت عملاً مجهداً أليس كذلك يا لادسلو؟ أتوقع أنها قد أتعبتك. في أي حال فقد شققنا قناة من خلال صحيفة البيونير ووضعنا الأشياء في مسارها وهكذا. يمكن لرجل أقل منك شأناً أن يتابع العمل فيها..أقل شأناً أتعلم...؟؟».

قال ويل وقد احمر وجهه فجأة وهو ينهض من على الطاولة، فاستدار من حولها بثلاث خطوات وهو يضع يديه في جيبيه: «هل ترغب في أن أتركها؟ إنني مستعد أن أفعل ذلك في أي وقت تتمنى».

«بالنسبة إلى التمني يا عزيزي لادسلو، فإنني أثق بقدراتك كل الثقة. ولكن حول صحيفة البيونير، كنت أستشير بعض الرجال الذين يعملون معنا، فهم يرغبون في تسلّمها.. ذلك يعوضني إلى حد ما.. إنهم يريدون شراءها في حقيقة الأمر. فبموجب هذه التطورات... ربما رغبت في تركها، يمكنك أن تجد مجالاً أفضل. ربما هؤلاء الناس لن يثمنوا آراءك كما أفعل أنا، فإنني أعتبرك صديقاً موثوقاً به ويدي اليمنى. لذلك كنت أتطلع للعمل معك في أشياءٍ أخرى. لقد فكرت في الذهاب إلى فرنسا، لكنني سأكتب لك رسائل أوجهها إلى ألثورب وأناس من ذلك النوع».

قال لادسلو متفاخراً: «إنني ممتنّ لك جدًّا. ما دمت ستتخلى عن البيونير، فإنني لا أريد أن أزعجك بالخطوات التي أريد أن أتخذها. لقد اخترت البقاء هنا في الوقت الحاضر».

بعد أن تركه السيد بروك قال ويل لنفسه، «لقد ضغط عليه باقي أفراد الأسرة ليتخلص مني، فهو لا يهتم الآن بذهابي. سأبقى هنا مادمت أرغب في ذلك سأذهب عندما أقرر بنفسي وليس لأنهم يخافونني».

الفصل الثاني والخمسون

تحمّل قلبه أخس الأعباء.

وردزورث

عندما عرف السيد فيربرذر أنه أصبح كاهناً في أبرشية لُوِيك، عمت البهجة الردهة ذات الطراز القديم، وحتى صور المحامين العظام كانت تصدر عنها نظرات غمرها الرضى. تركت أمه شايها وخبزها المحمص دون أن تلمسهما، لكنها كانت تجلس بأناقتها الجميلة المعتادة، مظهرة مشاعرها فقط من خلال تورّد وجنتيها وبريق عينيها، مما منح المرأة العجوز هويتها الحاضرة، ممتزجة بشبابها البعيد، ثم قالت بحزم: «ما يبعث الطمأنينة هو أنك تستحقها يا كامدن».

«عندما يحصل الرجل على عمل جيد يا أمي، يأتي نصف الاستحقاق في ما بعد». قال ذلك الابن ولقد غمرته السعادة دون أن يحاول إخفاءها. كان السرور على وجهه مفعماً بالحيوية والنشاط، فقد بدا أن لديه نشاطاً وحيوية كافية، لا لتظهر على محياه فقط، بل لتنير رؤيته الداخلية المنشغلة... يمكن لأي واحد أن يرى أفكاره بالإضافة إلى البهجة في نظراته. «الآن يا خالتي»... تابع قوله وهو يفرك يديه، ناظراً إلى الآنسة نوبل، التي كانت تصدر أصواتاً رقيقة كصوت القندس..«سيكون على الطاولة دائماً قطع من السكر لتسرقيها وتقدميها للأطفال، وستحصلين على جوانب جديدة كثيرة جدًّا لتقدميها هدايا، وسوف ترتقين جواربك أكثر من ذي قبل». هزت الآنسة نوبل رأسها لابن أختها مبدية ضحكة يشوبها بعض الخوف، مدركة أنها قد وضعت سلفاً بعض قطع السكر في سلتها.

تابع الكاهن: «أما بالنسبة إليك يا ويني.. فإنني لن أعرقل زواجك من أي أعزب في لُوِيك. السيد سليمان فيذرستون على سبيل المثال... حالما أعلم أنك وقعت في غرامه»... أما الآنسة وينفرِد، التي كانت طوال الوقت تنظر إلى أخيها وتبكي من قلبها، إذ كانت تلك طريقتها في التعبير عن بهجتها وسرورها، فقد ابتسمت والدموع تنزل من عينيها، ثم قالت:

«يجب عليك أن تضرب لي مثلاً يا كام، يجب أن تتزوج الآن».

قال ذلك الكاهن وهو ينهض ويدفع بكرسيّه بعيداً، ثم لينظر إلى نفسه: «من كل قلبي.. ولكن من تلك التي تحبني؟.. إنني رجل عجوز. ماذا تعتقدين يا أمي؟».

قالت المرأة العجوز: «إنك رجل وسيم يا كامدن، على الرغم من أن جسمك ليس جميلاً كجسم أبيك!!».

قالت الآنسة وينفرِد: «أتمنى لو تتزوج من الآنسة جارث يا أخي، إنها ستجعل حياتنا سعيدة في لُويك».

«حسن... إنك تحددين... وكأن الفتيات الشابات شد وثاقهن في السوق كالدجاج، ينتظرن من يختارهن، وكأنه لا يترتب علي إلا أن أطلب فقط، فيقبلن بي جميعهن... ». هذا ما قاله الكاهن دون أي تحديد.

قالت الآنسة وينفرِد: «إننا لا نريد الجميع. لكنك ستحب الآنسة جارث أليس كذلك؟».

قالت السيدة فيربرذر بتعقل ملكي: «أنا من ستختار لابنها.. ويجب أن ترحب بالزوجة يا كامدن، ستحتاج إلى لعب ورق الويست في المنزل عندما نذهب إلى لُويك، ولا سيما أن هِنريتا نوبل ليست لاعبة ورق»... كانت السيدة فيربرذر دائماً تدعو أختها المسنة والصغيرة الحجم بذلك الاسم العظيم.

«لن أحتاج إلى لعبة الويست يا أمي».

قالت السيدة فيربرذر ببراءة، دون أن تدرك ما تعنيه لعبة الويست بالنسبة إلى ابنها: «لماذا يا كامدن؟ في زماني... كانت تعتبر لعبة الويست تسلية لا تنكر لرجل دين جيد».

«سأكون منشغلاً جدًّا عن لعبة الويست، ستكون لدي أبرشيتان». قال الكاهن مفضلاً ألاّ يناقش محاسن تلك اللعبة. لقد قال مسبقاً لدورثيا: «إنني لا أفضل أن أترك أبرشية القديس بوتولف. إذا ما قدمت معظم المال لشخص آخر، فإن ذلك سيكون احتجاجاً كافياً على التعددية التي يريدون إصلاحها. إن القوة تكمن ليس في إعطاء القوة ولكن في حسن استخدامها».

قالت دورثيا: «لقد فكرت في ذلك، بالنسبة إلي أعتقد أنه سيكون من الأسهل علي أن

أقدم القوة والمال من أن أحتفظ بهما. يبدو أنه لن يكون من اللائق أن أحتفظ بحق تعيين الكاهن، ولكن مازلت أشعر أنه يجب علي ألّا أدعه لشخص آخر بدلاً مني».

«وأنا من يجب عليه أن يجتهد في عمله كي لا تأسفي لاستخدامك تلك القوة». قال هذا السيد فيربرذر. لقد كانت طبيعته من النوع الذي ينشط فيها الوعي عندما يجرحه نير الحياة. إنه لم يبد عدم اهتمام بالأمر، لكنه شعر بالخجل لأن طريقته في الحياة قد عكست إهمالاً في أدائه للواجب، في حين أن الآخرين الذين لم يهملوا في عملهم لم يجنوا فوائد.

قال لليدجيت: «كنت دائماً أتمنى لو أصبحت شيئاً آخر، بدلاً من أن أكون رجل دين. ولكن ربما من الأفضل لي أن أجرب كي أجعل من نفسي أفضل رجل دين أستطيع كونه، فهذه وجهة نظر يستفاد منها جدًّا، وبها تسهل الصعوبات كما ترى»... أنهى كلامه مبتسماً. عندها شعر الكاهن أن نصيبه من الواجبات سيكون سهلاً، لكن الواجب يقوم بخدعة غير متوقعة، فهو كصديق ثقيل إذا ما طلبنا منه بود أن يزورنا، يكسر قدمه عند بوابة منزلنا بعد أقل من أسبوع ظهر له الواجب متنكراً في شخص فرِد... فنسي في غرفة مكتبه.. فقد عاد للتو من كلية أومنباس بعد أن تخرج فيها حائزاً شهادة التخرج.

قال فرِد الذي ظهر الاستعطاف على وجهه الأشقر: «إنني خجل من إزعاجك يا سيد فيربرذر، ولكنك الصديق الوحيد الذي يمكنني أن أستشيره. لقد أخبرتك مرة بكل شي، وكنت شهماً جدًّا إذ جعلتني أعود إليك ثانية الآن».

قال الكاهن الذي كان منشغلاً بحزم أشياء صغيرة الحجم لنقلها، وتابع القول وهو يكمل عمله: «اجلس يا فرِد... إنني جاهز للسماع وفعل كل شيء أستطيع فعله...».

تردد فرِد للحظات ثم تابع متهوراً: «أردت أن أخبرك... يمكنني أن أعمل في الكنيسة الآن، وحقًّا، انظر ماذا يمكنني أن أفعل، إنني لا أستطيع أن أرى أي شيء آخر يمكنني أن أفعله. إنني لا أحب ذلك، ولكن أعلم أنه من الصعب جدًّا على أبي أن أقول له ذلك بعد أن أنفق كثيراً من النقود على تعليمي لأجل ذلك»... توقف فرِد ثانية للحظات، ثم تابع: «وأنا لا أستطيع أن أجد أي شيء آخر أقوم به».

«لقد تحدث إلى أبيك حول هذا الأمر يا فرد، ولقد حققت بعض التقدم معه، لكنه قال: لقد فات الأوان، لكنك قد اجتزت الجسر الأول الآن، فما هي الصعوبات الأخرى التي تواجهها؟».

«فقط أنني لا أحب ذلك العمل. فأنا لا أحب علم اللاهوت وإلقاء العظات والشعور

بالواجب أن أظهر جادًّا، إنني أحب التجول في البلاد، والقيام بما يفعله الرجال الآخرون. فأنا لا أعني أن أكون شاباً سيئاً بتاتاً، لكنني لا أتمتع بالصفات التي يتوقع الناس أن يجدوها لدى رجل الدين. ولكن ما عساني أن أفعل الآن؟ لا يستطيع أبي أن يقدم لي أي رأس مال، وإلا لعملت في الزراعة، وليس لي مكان في تجارته، وبالطبع لا أستطيع الآن أن أبدأ بدراسة القانون أو الطب الآن، ولا سيما أن أبي يتوقع مني أن أحصل على دخل. ومن السهل أن أقول.. لو ذهبت لأعمل في الكنيسة، ولكن من يقولون لي أن أفعل ذلك ربما يقولون لي أيضاً أن أذهب إلى المناطق المتخلفة».

تغير صوت فرِد هنا ليصبح معبراً عن احتجاج ضد ماري، حتى إن السيد فيربرذر ربما مال إلى الضحك قليلًا لو لم يكن فكره منشغلًا بأكثر مما قاله فرِد: «هل تجد أي صعوبة في التعاليم أو العقيدة؟»، قال هذا محاولاً بجدية أن يجد أسئلة لأجل فرد. «كلا إنني أعتقد أن التعاليم صحيحة. لست مهيأً لأي حوار ينقضها، وما هو أفضل من ذلك هو أن هناك من هم أذكى مني يؤيدونها تماماً. كما أنني أعتقد أنه سيكون من التفاهة مني لو أثرت شكوكاً حولها وكأنني قاضٍ أحكم عليها»، قال فرِد ببساطة تامة. «إذاً أعتقد أنه قد خطر لك أن تكون قساً مقبولاً في أبرشية دون أن تنغمس في علم اللاهوت؟».

«بالطبع لو اضطررت أن أكون رجل دين لقمت بجميع واجباتي حتى لو لم أحبها. هل تعتقد أنه سيكون هناك من يلومني؟».

«بالنسبة إلى العمل في الكنيسة تحت أي ظرف ما؟ إن هذا يعتمد على ضميرك... إن هذا يعتمد على حساباتك لأعباء الواجبات التي ستتحملها، واعتبارك كم ستتطلب منك مكانتك. يمكنني فقط أن أخبرك عن نفسي، لقد كنت دائمًا كسولاً، فعانيت الكثير نتيجة ذلك».

قال فرد وقد تلوّن وجهه: «لكن هناك عائقاً آخر... إنني لم أخبرك عنه من قبل على الرغم من أنني قد قلت لك بعض الشيء عنه مما يجعلك قادراً على أن تحذره. هناك شخصان مولعان به جدًّا... لقد أحببتهما جدًّا منذ كنا طفلين».

قال الكاهن وهو يتفحص بعض الملصقات عن كثب: «الآنسة جارث على ما أعتقد؟».

«نعم فإنني لن أتردد إذا ما قبلت بي. وأنا أعلم أنني سأكون شاباً جيداً».

«وهل تعتقد أنها تبادلك الشعور؟».

«إنها لم تقل ذلك قط، ومنذ مدة طويلة جعلتني أعدها ألّا أتحدث معها في الأمر ثانية. وقررت تماماً أن تقف ضد عملي كرجل دين. لقد رأيت السيدة جارث الليلة الماضية فقالت لي، إن ماري تقيم مع السيدة فيربرذر في منزل كاهن لُوِيك».

«نعم.. إنها تتفضل بتقديم مساعدتها لأختي. هل ترغب في الذهاب إلى هناك؟».

«كلا... إنني أطمع في أن أطلب منك منة عظيمة. إنني خجل من إزعاجك بهذه الطريقة، ولكن ربما تصغي ماري لما تقوله لو شرحت لها الأمر.. أعني أن أعمل في الكنيسة».

«إن هذا طلب هيّن يا عزيزي فرِد. سأرتضي ارتباطك بها، فأدخل في الموضوع لأعرف منها ردها على ذلك».

قال فرِد بتسرّع: «هذا ما أريدها أن تقوله لك، فأنا لا أعرف ماذا سأفعل قبل أن أعرف مشاعرها».

«هل تعني أن ذلك سيكون لك بمثابة دليل يقودك إلى الكنيسة؟... لو قالت ماري، إنها لن تقبل بي، فستكون جميع الطرق بالنسبة إلي خطأ».

«هذا هراء يا فرِد. عمر الرجال أطول من عمر حبهم، لكنهم لا يعيشون أطول من عمر نتائج أعمالهم».

«ليس من نوع حبي، لن أعيش من دون حبي لماري. لو أجبرت على تركها لكان ذلك بمثابة بدء حياتيَ على أقدام خشبية».

«ألن يجرحها تدخلي؟».

«كلا إنني متأكد من أنها لن تجرح، فهي تحترمك أكثر من أي شخص آخر، فهي لن تسخر منك كما تفعل معي. بالطبع ما كان لي أن أخبر أو أطلب من أي شخص آخر أن يكلمها، إذ لا يوجد شخص آخر صديق لكلينا سواك». سكت فرِد للحظات ثم قال محتجاً: «ويجب عليها أن تعترف بأنني قد اجتهدت كثيراً كي أنجح. كما يجب عليها أن تصدق بأنني يمكن أن أهجر نفسي لأجلها».

ساد الصمت للحظات قبل أن يضع السيد فيربرذر ما كان في يديه ليضع إحداهما على فرِد ويقول: «حسناً يا عزيزي. إنني سأفعل ما ترغب فيه».

في اليوم نفسه ذهب السيد فيربرذر إلى منزل الكاهن في لُوِيك على فرسه الهرمة التي اشتراها مؤخراً.. «من المؤكد أنني ساق نبتة هرمة..!!» كان يفكر... «وإن النباتات الفتية تدفع بي جانباً».

وجد ماري في الحديقة تجمع الزهور وتنثر بتلاتها على قطعة قماش. كانت الشمس تقترب من المغيب، فترسل الأشجار العالية ظلالها على ممرات العشب حيث كانت ماري تسير من دون قبعة. لم تلحظ قدوم السيد فيربرذر على العشب، وقد انحنت لتوها لتعطي محاضرة للكلب الصغير الأسود والبني اللون، الذي كان يصر على السير على قطعة القماش ويشم رائحة البتلات التي كانت ماري تنثرها عليها. رفعت قدميه الأماميتين بيدها اليمنى وأشارت إليه بسبابة يدها اليسرى، بينما عبس الكلب وبدا مندهشاً، «اذهب اذهب، فإنني خجلة منك» -قالت ماري بصوت حزين- «هذا ليس تصرف كلب مهذب. بالتأكيد سيظن الجميع أنك شاب تافه».

قال الكاهن وهو يقف على بعد ياردين منها: «إنك لست رحيمة بالشبان يا آنسة جارث..».

وقفت ماري واحمرّ وجهها ثم قالت ضاحكة: «هذا دائماً يقال مع كلمة اذهب».

«ولكن ليس مع بعض الشبان؟».

«مع بعضهم على الأقل كما أعتقد، ولا سيما أن بعضهم يصبحون رجالاً عظاماً».

«إنني مسرور بهذا الاعتراف، لأنني في هذه اللحظة أريد أن أتحدث إليك بخصوص شاب».

قالت ماري عندما عادت تقطف الأزهار وبدأت تشعر بنبضات قلبها تتسارع: «أتمنى ألّا يكون سخيفاً!!..».

«كلا على الرغم من أن حكمته ليست أفضل ما فيه، بل ربما عاطفته وإخلاصه. في أيّ حال فالحكمة تكمن في هاتين الصفتين أكثر مما يتخيل الناس. أتمنى أن تكوني قد عرفت من خلال هاتين الصفتين أي شاب أعني؟».

«نعم، لقد عرفت..». قالت هذا ماري بشجاعة وقد بدا وجهها أكثر جدية ويداها

باردتين، «لا بد من أن يكون فرد... فنسي».

«لقد طلب مني أن أسألك عن رأيك في عمله في الكنيسة، أتمنى ألّا تظني أنني تعهدت القيام بذلك».

قالت ماري تاركة الأزهار لتحبك يديها على ذراعيها دون أن تقدر على رفع نظرها: «على العكس يا سيد فيربرذر.. متى كان عندك شيء لتقوله لي، فإنني أتشرف بذلك».

«ولكن قبل أن أدخل في ذلك الموضوع، دعيني أثر نقطة أسرّها لي أبوك، وبالمناسبة لقد كان ذلك في المساء نفسه الذي نفذت فيه طلباً لفرِد بعد ذهابه إلى الكلية. لقد أخبرني السيد جارث بما حصل ليلة وفاة السيد فيذرستون... أعني كيف رفضت أن تحرقي الوصية. وقد قال: إن قلبك قد انفطر، لأنك كنت وسيلة بريئة منعت فرِد من الحصول على عشرة آلاف جنيه. لقد بقي ذلك في ذهني، ثم سمعت شيئاً يمكن له أن يخفف عنك ما تتحملينه بسبب ذلك، إذ يمكن أن يريك أنه ليس مطلوبًا منك شيء تفعلينه قد يغفر لك ذنبك».

صمت السيد فيربرذر للحظات ثم نظر إلى ماري... أراد أن يعطي فرِد فرصته كاملة، لكنه اعتقد أيضاً أن عليه أن يزيح عن ذهنها جميع الظنون التي تنتاب النساء عندما يخطئن بحق الرجل، من خلال زواجهن منه ككفارة عن ذنب ارتكبنه. بدأت وجنتا ماري تحمرّان بشدة.. في حين ظلّت صامتة.

«أعني أن ما فعلته لم يحدث اختلافاً في نصيب فرِد. لقد وجدت أن الوصية الأولى لم تكن قانونية على قدر كاف لو أحرقت الأخيرة. ما كانت لتؤخذ في الاعتبار لو طعن فيها. وكنت ستتأكدين لو كان قد تم الطعن فيها. هكذا بالنسبة إلى هذا الأمر يمكن لضميرك أن يرتاح».

قالت ماري بجدية: «أشكرك يا سيد فيربرذر. إنني ممتنة لك على تذكرك مشاعري!».

«حسناً يمكنني أن أتابع الآن. كما تعلمين فإن فرِد قد حصل على شهادته. لقد اجتهد كثيراً، ومعضلته الآن هي... ماذا يفعل؟ إن تلك المسألة صعبة بالنسبة إليه جدًّا حتى إنه يميل إلى تنفيذ أمنية أبيه، فيعمل في الكنيسة على الرغم من أنه... كما تعلمين أكثر مني... كان ضد هذا الأمر تماماً. لقد استفسرت منه حول المسألة، وأستطيع أن أعترف أنني لا أرى ما يمنعه أن يكون رجل دين. هو يقول، إنه يستطيع إقناع نفسه كي يقدم أفضل ما لديه في ذلك

المضمار بشرط واحد؛ إذا نفذ هذا الشرط، فإنني سأبذل قصارى جهدي في مساعدة فرِد. بعد بعض الوقت.. بالطبع ليس في البداية.. يمكن أن يعمل معي كمساعد لي، فسيترتب عليه أن يقوم بأعمال كثيرة حتى إن دخله سيصبح مثل دخلي حين كنت أعمل كقس. لكنني أكرر، إن هناك شرطًا، ودون تنفيذه، لا يمكن لكل هذا أن يتحقق. لقد فتح لي قلبه يا آنسة جارث وطلب مني أن أتوسل لأجله... يعتمد الشرط تمامًا على مشاعرك».

بدت ماري متأثرة جدًّا، مما جعله يقول بعد لحظات، «دعينا نمشي قليلاً... ». وبينما كانا يمشيان، أضاف قائلًا: «كي نتحدث بصراحة.. إن فرِد لن يقوم بأي عمل يمكن أن يضعف حظه بالزواج منك، ولكن لأجل تحقيق ذلك هو مستعد أن يقوم بأي شيء توافقين عليه».

«لا أستطيع أن أقول إنني سأصبح زوجته يا سيد فيربرذر، ولكن من المؤكد... لن أكون زوجته إذا أصبح رجل دين. ما تقوله لهو كرم وشهامة منك، وأنا لا أعني للحظة أن أصحح حكمك. فقط إنني أتمتع بطريقتي الأنثوية في الاستهزاء». قالت ماري هذا ولقد عاد إليها بريق لهوها من خلال جوابها، مما جعل اعتدال جوابها يبدو أكثر سحراً.

قال السيد فيربرذر: «يريد مني أن أنقل له تماماً ما تفكرين به».

قالت ماري دون أن تذهب عميقاً في جوابها: «لا يمكنني أن أحب رجلاً تافهاً... لدى فرِد ذكاء ومعرفة تكفيه كي يكون رجلاً محترماً إذا ما أراد ذلك، من خلال توظيفهما في عمل مفيد، لكنني لا أستطيع أن أتخيله وهو يقدم العظات والنصائح، وينطق بالمباركات ويدعو للمرضى دون أن أشعر وكأنني أنظر إلى ممثل مضحك. إن عمله كرجل دين سيكون فقط لأجل مكانته الاجتماعية، وإنني لأعتقد أنه لاشيء هناك جدير بالازدراء أكثر من تلك المكانة الاجتماعية السخيفة. كنت أرى ذلك في السيد كراوس، بوجهه الذي لا يعبر عن شيء ومظلته الأنيقة وخطبه القصيرة. ما الحق الذي يمتلكه مثل هؤلاء الرجال كي يمثلوا المسيحية - وكأنها كانت مؤسسة لرفع مكانة الأغبياء».. انتبهت ماري لنفسها. لقد استغرقت في حديثها وكأنها كانت تتحدث إلى فرِد وليس إلى السيد فيربرذر.

«إن الشابات قاسيات الطبع، فهن لا يشعرن بضغوط الحياة كما يفعل الرجال، على الرغم من أنه يجب علي أن أستثنيك من بينهن. لكنني لا أظن أنك تضعين فرِد... فنسي في مستوى منخفض كهذا...؟».

«كلا، حقًّا إنه ذكي جدًّا، لكنه لن يظهر ذلك عندما يكون رجل دين. إنه سيكون مجرد مُدّعٍ في عمله».

«إذاً... إن جوابك حازم، فهو عندما يكون رجل دين لن يكون لديه أي أمل؟».

هزت ماري رأسها. «لكنه إذا تشجع ليحصل على رزقه بطريقة مختلفة... فهل ستعطينه بعض الأمل؟ هل عندها سيركن إلى الفوز بك؟».

أجابت ماري بامتعاض خفيف: «أعتقد أن فرِد لا يحتاج أن يسمع ثانية ما قلت له من قبل، أعني ألّا يطرح مثل هذه الأسئلة، حتى يقوم بشيء جدير بدل من أن يقول، إنه يستطيع أن يفعل ذلك».

سكت السيد فيربرذر للحظة أو أكثر، ثم بعد أن استدار ووقف في ظل شجرة القيقب عند نهاية الممر العشبي، قال: «أفهم أنك تعارضين أيّ محاولة يمكن لها أن تقيدك، ولكن.. إما أن تمنعك مشاعرك تجاه فرِد... فتنسي من الارتباط بأي شاب آخر، أو أن لا تمنعكِ، إما أن يعتمد على بقائك عزباء حتى يفوز بك.. أو يخيب أمله لأي سبب ما. اعذريني يا ماري.. فقد كنت أعلمك الدين شفهيًّا بهذا الاسم، ولكن عندما تؤثر مشاعر المرأة في سعادة حياة إنسان آخر أو في حياة أكثر من شخص، أعتقد أنه سيكون من النبل منها أن تكون صريحة وواضحة».

بدورها... كانت ماري صامتة، لا تفكر بطريقة السيد فيربرذر، لكنها تفكر بنبرة صوته التي أخفت خلفها عاطفة حزينة ومكبوحة. عندما برقت في ذهنها فكرة أن كلماته تعبر بطريقة ما عن نفسه، بدأت تميل إلى الشك وتخجل من أخذها في الاعتبار. لم تفكر في حياتها أن رجلاً يمكن أن يحبها سوى فرِد، الذي قدم لها حين كان طفلاً، حلقة مظلة المطر كخاتم زواجهما، وهي لم تفكر أيضاً في أنها يمكن أن تكون ذات أهمية لدى السيد فيربرذر، الذي هو أذكى رجل من بين معارفها القلائل. لم يكن لديها وقت إلا ما يكفيها كي تشعر أن هذا ربما كان وهماً خادعاً، لكن شيئاً واحداً كان واضحاً ومحدداً... هو جوابها.

«ما دمت تعتقد أنه من واجبي يا سيد فيربرذر، فإنني أملك شعوراً قويًّا جدًّا تجاه فرِد يمنعني من التخلي عنه لأجل أي إنسان آخر. لن أكون سعيدة إذا عرفت أن خسارته لي ستسبب له التعاسة. لقد تجذر في نفسي امتنان له، لأنه أحبني دائماً حبًّا جمًّا، ولأنه يأسف جدًّا أذا ما آذيت نفسي منذ أن كنا صغاراً. لا أستطيع أن أتصور أي شعور جديد يمكن أن

يضعف هذا الشعور في نفسي. إن أحب إليّ هو أن أراه يستحق احترام الآخرين. ولكن أخبره من فضلك أنني لن أتزوجه حتى يحقق ذلك... وإلا سببت الخجل والحزن لأبويه. عندها سيكون حرًّا في اختيار إنسانة أخرى».

«إذاً... هكذا.. أكون قد أنجزت مهمتي تماماً». قال السيد فيربرذر، مادًّا يده ليصافح ماري، «..وسأعود إلى مدل مارش حالاً. بهذا الأمل الذي أمامه.. سنضع فرِد في مكانة تليق به بطريقة ما، وأتمنى أن أبقى حيّاً حتى أتمم زواجكما. فليسعدكما الرب..!».

«من فضلك ابق ودعني أحضر لك بعض الشاي».. قالت هذا ماري وقد امتلأت عيناها بالدموع، لأنها لاحظت شيئاً لا يمكن تعريفه في طريقة السيد فيربرذر، شيئًا يشبه كبح الألم جعلها تشعر بتعاسة مفاجئة، كما شعرت بها مرة عندما رأت يدي أبيها ترتجفان نتيجة لمعضلة أحلت به.

«كلا يا عزيزتي... كلا. يجب أن أعود».

بعد ثلاث دقائق كان الكاهن على ظهر فرسه ثانية، بعد أن قام بشهامة بواجب كان عليه أقسى من إقلاعه عن لعبة ورق الويست أو حتى أقسى من كتابة صلوات توبة.

الفصل الثالث والخمسون

ما هو إلا تسرُّع سطحي يتضمّن نفاقاً ومراءاة يدعونه الناظرون إليه من بعيد بالتناقض.. وهو يوظف آلية ميتة من الافتراضات والتعليلات لعدد ضخم من المغفلين المختبئين الذين يحوّلون المعتقد والسلوك إلى مصلحة متبادلة.

عندما تمنى السيد بولسترود أن يستحوذ على مصلحة جديدة في لُويك، كان من الطبيعي له أن تتولد لديه أمنية خاصة، هي أن يحظى الكاهن الجديد في لُويك على موافقته التامة، فقد كان يعتقد أن هذا المنصب ينبغي أن يكون مصدر عقاب وتوبيخ له على عيوبه وعيوب المجتمع بعامة، ولا سيما أن أفعاله القديمة قد حان وقت قطاف ثمارها الآن.. فقد جعلته مالكاً لستون كورت، في الوقت عينه الذي حضر به السيد فيربرذر لأول مرة إلى كنيسة لُويك الصغيرة والغريبة، وقدم أول عظاته للفلاحين والعمال والصناع المهرة. لم يكن في نية السيد بولسترود التردد إلى كنيسة لُويك ولا الإقامة في ستون كورت، قبل مرور مدة طويلة من الزمن، فقد اشترى المزرعة الرائعة الجمال والمنزل الجميل كمأوى له، وينوي توسعة الأرض التي تحيط به وتجميلها، حتى يصبح الموقع يمثل عظمة رائعة، ويناسبه للإقامة فيه، فينسحب جزئيًّا من التزاماته الحاضرة في إدارته للأعمال، ويلقي بثقل ملكية الأرض إلى جانب الحقيقة الإنجيلية بوضوح أكبر. فربما تزيد العناية الإلهية هذه الأرض اتساعاً من خلال صفقات شراء لا يمكن التنبؤ بها.

شعور قوي في هذا الاتجاه، قد تولد نتيجة لحصوله على ستون كورت بسهولة مدهشة ولا سيما أن الجميع قد توقع أن السيد ريد فيذرستون سيتشبث بها كجنة عدن. هذا ما توقعه بيتر المسكين العجوز نفسه.. فقد تخيل كثيراً أنه ينظر إلى الحمقى من فوقه، وأنه يرى وجه الموصى إليه، الذي يشبه وجه الضفدع، وهو يستمتع بالنظر إلى المكان الجميل القديم بمتعة ثابتة، وكذلك خيبة أمل الآخرين.

ولكن كم هي معرفتنا قليلة بما يمكن أن يقدم الجنة لجيراننا! إننا نحكم من خلال

رغباتنا الخاصة، وإن جيراننا ليسوا دائماً صريحين على قدر كاف حتى في تقديمهم لأي من التلميحات. جوشوا ريج الهادئ والحكيم، لم يسمح لأي من أبويه أن يعتبر ستون كورت أقل من سلعة رئيسية في تقديره، ولا سيما أنه كان يحب أن يعتبرها ملكاً له. ولكن كما نظر ورن هَتسنغ إلى الذهب، وفكر في شراء دَيلزفورد، كذلك نظر جوشوا ريج إلى ستون كورت وفكر في شراء الذهب. كان يملك رؤية جلية جدًّا لهدفه الرئيسي، فالطمع القوي الذي استثاره راح يأخذ شكلاً متميزاً من خلال بعض التطورات والأحوال المحيطة به، إذ كان هدفه الرئيسي أن يصبح صرافاً للنقود. فمنذ أن كان يعمل غلاماً ينقل بعض السلع والرسائل في ميناء بحري، كان ينظر إلى صرافي النقود من وراء نوافذهم الصغيرة، كما كان ينظر الأطفال إلى صانعي الحلوى من وراء نوافذهم، وراح الولع بهذه المهنة يتجذر في نفسه وتفكيره.. فكان هدفه، عندما يحصل على ملكية، أن يحقق أشياء كثيرة كان أحدها أن يتزوج من فتاة راقية، ولكن كانت هذه الخواطر كلها تشكل أمنيات يمكن للخيال أن يتفاعل معها.

إن المتعة الوحيدة التي ظلت نفسه تتعطش إليها هي أن يملك دكان صرافة على رصيف ميناء مزدحم جدًّا، ويكون من حوله أقفال كثيرة يمسك بمفاتيحها، بينما يظهر هادئاً وهو يناول عملات جميع الأمم المتكاثرة، والجشع العاجز ينظر إليه بحقد من وراء النافذة ذات الشبك الحديدي. لقد مكنته قوة تلك العاطفة من اكتساب كامل المعرفة الضرورية لإشباعها. ولمّا كان الآخرون يعتقدون أن جوشوا سيقيم في ستون كورت طوال حياته، بدأ جوشوا يعتقد أن الوقت قد حان ليقيم قريبًا من رصيف الميناء الشمالي ويعمل في أحسن مهنة حيث الخزائن النقدية والأقفال من حوله.

إننا ننظر إلى بيع جوشوا ريج لستون كورت من خلال وجهة نظر بولسترود، فهو يعتبر ذلك حلًّا مفرحاً ومبهجاً يرفع الحصار عن هدف فكر فيه طويلاً دون تشجيع خارجي، لقد فسره على هذا النحو، ولكن ليس بثقة عالية تمامًا حتى إنه أدى صلوات شكره بأسلوب حذر.

لم تنبعث شكوكه من علاقة الحدث بمصير جوشوا ريج، الذي يتبع لأقاليم لا تقع على الخريطة وليست خاضعة لسلطة الحكومة إلا ربما بموجب سلطة الاستعمار، ولكن ربما انبعثت تلك الشكوك من قناعته بأن هذا الشراء ربما كان تهذيباً لنفسه تماماً كما كانت بداية عمل فيربرذر ككاهن في لُوِيك.

لم يخبر السيد بولسترود أي رجل بهذا الأمر... لا ليخدعه، لكنه أخبر نفسه فقط، فقد

كانت هذه طريقته في شرحه للأمور، كما قد تكون طريقتكم أيضاً إذا ما اختلفتم معه برأي. فالأنانية عندما تدخل في نظرياتنا لا تؤثر في صدقها وإخلاصها، بل كلما أشبعت أنانيتنا، كلما نشطت اعتقاداتنا.

في أيّ حال إذا كان الأمر لأجل الحصار، أو لأجل عقاب الذات فقد أصبح السيد بولسترود مالكاً لستون كورت بعد أقل من خمسة عشر شهراً من موت بيتر فيذرستون، فما كان سيقوله بيتر، لو عرف بذلك، لأصبح مادة عزاء لا تنفد لدى أقربائه الذين أصيبوا بخيبة أمل. لقد انعكس الأمر على أخيهم المتوفى، فتحول التأمل بالإحباط الذي نجم عن مكره إلى نوع من البهجة لدى سليمان.

أما السيدة وول فقد شعرت بالنصر الكئيب عندما ثبت أنه ليس من الصحيح أن يوصل بالمنتمي إلى عائلة فيذرستون زيفاً ويقطع بالأصليين منها. أما الأخت مارثا لدى تلقيها الأنباء وهي في جوكي فلاتس قالت: «يا إلهي... يا إلهي! إذًا لن يتم إسعاد الرب ببناء دور المسنين».

كانت السيدة بولسترود الحنونة فرحة على وجه الخصوص بالفائدة التي ستعود على صحة زوجها، من خلال شرائه لستون كورت. مرت عدة أيام دون أن يذهب إلى هناك ليستطلع المزرعة بصحبة وكيل المزرعة، ولقد كانت الأمسيات ممتعة في تلك البقعة الهادئة حيث تبعث كومات القش، التي وضعت حديثاً هناك، روائح زكية تمتزج مع عبق أزهار الحديقة القديمة.

في إحدى الأمسيات... وبينما كانت الشمس لا تزال في الأفق ترسل أشعتها الذهبية بين أغصان أشجار اللوز. كان السيد بولسترود على ظهر حصانه... ينتظر خارج البوابة الأمامية السيد جارث، الذي حضر بموجب موعد ليعطي رأيه في التصريف الصحي لحظيرة الحيوانات، فكان في هذه الأثناء ينصح وكيل المزرعة في باحة أكوام القش. كان السيد بولسترود يتمتع بمزاج روحاني جيد، كما كان هادئاً أكثر من المعتاد، وتحت تأثير استجمام بريء. لقد كان مقتنعاً دينيًّا أن ذاته تخلو تماماً من الفضيلة، لكن ذلك الاعتقاد الديني الراسخ يمكن أن يكبح دون ألم عندما لا يأخذ الإحساس بالعيب شكلاً مميزاً في الذاكرة، ولا يحيي الشعور بالعار أو وخز تأنيب الضمير، بل يمكن أن يكبح برضى تام، عندما لا يكون عمق أخطائنا سوى مقياس لعمق تسامحنا، وبرهان حاسم على أننا أدوات مميزة صنعتها الإرادة الإلهية. للذاكرة طبائع عدد طبائع المزاج، وهي تغير مشهدها كما يغير صندوق العجائب

مشاهده. في هذه اللحظة شعر السيد بولسترود بأشعة الشمس تماماً كما كان يشعر بها حين كان شاباً يذهب خارج هايبري ليلقي العظات، فقد تمنى لو استطاع أن يقوم بذلك الآن، ولا سيما أن النصوص لا تزال هناك، وكذلك قدرته على شرحها. لقد قاطع حلم يقظته القصير عودة السيد جارث، الذي أيضاً كان على ظهر حصانه يهز لجامه، وقبل أن يبدأ تعجب قائلاً:

«فليبارك الرب قلبي..! ما هذا الرجل القادم الذي يرتدي ثوباً أسود؟ إنه يبدو كأحد أولئك الرجال الذين يمشون الخيلاء بعد انتهائهم من السباق»... أدار السيد بولسترود حصانه ونظر إلى الطريق الضيق، لكنه لم يجب بشيء. لقد كان القادم السيد رفلز، الذي نعرفه قليلاً والذي لم يتغير مظهره عن المرة السابقة، سوى أنه يرتدي في هذه المرة بزة سوداء، وقبعة ذات شريط حريري. أصبح الآن على بعد ثلاثة ياردات من السيد بولسترود، فاستطاعوا أن يعرفوا من نظراته أن السيد بولسترود قد ميزه، وقد لوح بعصاه إلى الأعلى قائلاً:

«أقسم إنك نيك...! لا يمكن لي أن أخطئك، على الرغم مما فعلت خمس وعشرون سنة بكلينا. كيف حالك..؟ ماذا..؟ ألم تتوقع رؤيتي هنا...؟ تعال وصافحني». لقد لاحظ السيد جارث أن السيد بولسترود يمر بلحظة تردد وصراع، لكنها انتهت بمد يده ببرود إلى السيد رفلز قائلاً:

«حقًّا.. لم أتوقع رؤيتك في هذا المكان الريفي المتطرف».

قال رفلز متباهياً: «حسناً إنه يخص ابن زوجتي. لقد جئت من قبل لرؤيته، وإنني لست مندهشاً لرؤيتك أيها الصديق القديم، لأنني ألتقط رسالة بطريقة يمكن أن تدعوها شأناً إلهيًّا. إنه لمن حسن الحظ الشديد أن أقابلك، لذلك لا أبالي برؤية ابن زوجتي، فهو ليس عطوفاً وأمه المسكينة قد توفيت الآن. كي أقول الحقيقة... لقد دفعني حبي لك للمجيء إلى هنا يا نيك.. لقد جئت لأحصل على عنوانك لأنه... انظر هنا...». أخرج رفلز ورقة مجعّدة وممزقة قليلاً من جيبه.

لو كان أغلب الرجال في مكان كيلب جارث... فمن المرجح لأجبرهم فضولهم على التريّث في البقاء لأجل سماع كل ما يستطيعون حول رجل تربطه علاقة وثيقة بالسيد بولسترود. يمكن أن توضح الكثير حول حياة صاحب البنك الغامضة بالنسبة إلى أهالي مدل مارش، لكن السيد كيلب كان يشكل حالة خاصة.. فبعض الميول البشرية يمكن أن تكون قوية لدى عامة الناس إلا

أنها غائبة تماماً عن تفكيره، وإحداها كانت تمثل الفضول الذي يهدف إلى معرفة الشؤون الشخصية، خصوصًا إذا كان خصلة مشينة تتعلق بشخص آخر... فقد كان يفضل كيلب ألّا يعرفها، وإذا أجبر على أن يخبر أحداً أدنى منه مستوى بأن أفعاله الشريرة قد اكتشفت، كان ينتابه الحياء أكثر مما ينتاب المجرم نفسه. لذلك وخز حصانه وقال:

«مساؤك سعيد يا بولسترود... ينبغي لي أن أعود إلى منزلي».

انطلق مسرعاً... «إنك لم تضع عنوانك بالكامل في هذه الرسالة».

تابع رفلز: «إن هذا لا يشبه تصرف رجل أعمال من الدرجة الأولى كما أعتقد. ذا شرابس يمكن أن تكون في أي مكان. هل تسكن قريباً من هنا؟ هل قطعت جميع علاقاتك بلندن كليًّا..؟ هل أصبحت مالك أراضٍ في الريف..؟ وتملك منزلاً ريفيًّا كبيراً لتدعوني إليه؟ يا إلهي...! كم من السنين مرت...! لا بد من أن تكون المرأة العجوز قد توفيت منذ وقت طويل... لقد ذهبت إلى ربها دون أن تتألم لمعرفة كم كانت ابنتها فقيرة؟ لكنني أقسم إنك شاحب جدًّا يا نيك... تعال... إذا كنت ذاهبًا إلى منزلك، فسأسير إلى جانبك».. بقدر تحول شحوب السيد بولسترود المعتاد إلى ما يشبه شحوب الموت، فمنذ خمس دقائق، برز امتداد حياته تحت غروب أشعة الشمس ليعيد ذكريات قديمة حدثت صباحاً.. فبدت الخطيئة مسألة مبدأ وتأنيب ضمير، والخزي مسألة سرية، وتحمل أعماله مسألة تتعلق برؤية شخصية، تنظمها بشكل رئيسي علاقات ومفاهيم روحية لأجل أهداف دينية. أما الآن وكأنه بطريقة سحرية برز أمامه هذا الجسد الأحمر الصارخ بتماسك لا يقوى عليه وبتداخل ماض، لم يخطر في باله أنه سيعاقب عليه. لكن تفكير السيد بولسترود كان منشغلاً، وفضلًا عن ذلك لم يكن رجلاً من النوع الذي يتصرف أو يتحدث باندفاع.

قال: «كنت ذاهباً إلى بيتي. ولكن.. يمكنني أن أؤجل ذهابي قليلاً، وأنت تستطيع أن ترتاح هنا لو سمحت».

قال رفلز عابسًا: «شكراً... إنني لا آبه بابن زوجتي الآن، وأنا أفضل الذهاب معك إلى منزلك».

«ابن زوجتك، إذا كان هو السيد ريج فيذرستون فهو لم يعد هنا، فأنا السيد هنا الآن».

فتح رفلز عينيه واسعة، وأطلق صفير دهشة طويلاً قبل أن يقول:

«حسناً إذاً.. لا مانع لديّ. لقد مشيت بما فيه الكفاية من طريق العربات، فلم أعتد على المشي الكثير ولا على الركوب كذلك. ما أحبه هو عربة جميلة مع جواد قوي ومفعم بالحيوية. لقد كنت دائماً ثقيلاً على السرج. كم هو مدهش أن تراني هنا يا صديقي القديم...؟!» -تابع حديثه وهما في طريقهما إلى المنزل- «إنك لا تقول هذا، لكنك لم تتقبل حظك يوماً بحرارة، فأنت دائماً كنت تفكر في التحضير للمناسبة. كم أنت بارع في تحسين حظك». بدا السيد رفلز مستمتعاً جدًّا بفطنته، فكان يتبختر في مشيته.. وهو ما كان مزعجاً جدًّا لصبر مرافقه الحصيف.

قال السيد بولسترود بغضب شديد: «إذا كنت أتذكر بدقة... فإن العلاقة التي كانت تربطنا قبل كثير من السنين، لم تشبهها مودة تفترضها الآن يا سيد رفلز، ولكن أيّ خدمة تطلبها مني فإنني سأتفهمها إذا ما تجنبت طبع الألفة الذي لم يصاحب علاقتنا القديمة، فليس من الحريّ أن يظل قائماً مع مرور أكثر من عشرين عاماً».

«إنك لا تحب أن تدعى باسم نيك؟ لماذا...؟ فإنني كنت دائما أحب أن أدعوك نيك من كل قلبي... كلما تذكرتك على الرغم من بعدك عني. أقسم إن مشاعري قد نضجت تجاهك كما ينضج مشروب الكونياك المعتق. أتمنى أن يكون لديك بعض منه في منزلك الآن. لقد ملأ جوش قارورتي منه في المرة الماضية».

لم يتعلم السيد بولسترود تماماً أن تعطش رفلز إلى الكونياك لا يقل عن تعطشه إلى التعذيب وأن أيّ تلميحة تصدر عنه لتضايق الآخرين تشبع رغبته، ولكن كان من الواضح أن أيّ معارضة إضافية لن تكون مجدية.. بإعطاء السيد بولسترود أوامره لرئيس الخدم كي يهيئ مكان نوم للضيف أضفى نوعاً من الهدوء على المكان.

لقد ساد شعور بالارتياح لأن هذا الخادم كان أيضًا يقوم بخدمة ريج، فربما فكر في أن السيد بولسترود استقبل رفلز فقط لأنه مجرد صديق للمالك السابق. عندما قدم الطعام والشراب أمام الضيف في الغرفة الخشبية الفاخرة ولم يكن هناك أي شاهد في الغرفة قال السيد بولسترود:

«إن عاداتك تختلف تماماً عن عاداتي يا سيد رفلز إلى حدّ أننا لا نستطيع أن نستمتع بصحبتنا بعضنا مع بعض، فأعقل شيء هو أن نفترق بأسرع وقت ممكن. أما في قولك إنك كنت تتمنى رؤيتي، فربما كان ذلك لأمر تود طرحه علي، ولكن بموجب ظروفك فأنا

أدعوك كي تبقى هنا هذه الليلة، وأنا سأعود إلى هنا غداً صباحاً قبل الإفطار، عندها سأكون مستعدًّا كي أصغي إلى ما تود قوله لي».

قال رفلز: «من كل قلبي... هذا مكان مريح، لا يناسب الإقامة فيه لوقت طويل، لكنني أستطيع أن أقضي فيه ليلة واحدة بصحبة هذا الشراب الجيد وعلى أمل أن ألقاك صباحاً. إنك مضياف أكثر بكثير من ابن زوجتي، لكنني مدين لجوش قليلاً لأنه زوجني أمه، ولا أخفي عليك سرًّا... إن ذلك لم يكن سوى لطف وكرم».

أمل السيد بولسترود أن يكون مزاح وتهكم سيد رفلز نتيجة للشراب الذي تناوله، فقرر البقاء حتى يصحو تماماً ليقول له بضع كلمات. انطلق إلى منزله وهو يحمل رؤية غامضة تماماً حول صعوبة ما يمكن القيام به نتيجة ما يمكن أن يتصرفه هذا الرجل. من الواضح أنه تمنى لو تخلص من جون رفلز، على الرغم من أن ظهوره ثانية لا يمكن أن يعتبر خارجاً عن الإرادة الإلهية. ربما أرسلته روح الشر ليكون كأداة فضيلة تتوعد السيد بولسترود بالدمار، ولكن ينبغي أن يسمح للتهديد والوعيد... كما ينبغي أن يكون العقاب من نوع جديد. لقد كان ساعة كرب بالنسبة إليه تختلف تماماً عن الساعات التي أمضاها وكان صراعه خلالها كامناً في نفسه، وانتهى أمره بأن تشكلت لديه قناعة أن خطاياه السرية قد غفرت له وأن طاعاته قد قبلت. فتلك الخطايا، حتى عندما ارتكبت، ألم يبرر نصفها رغبته الشخصية في أن يكرس نفسه وكل ما يملكه لأجل تعزيز النظام الديني المقدس؟ وهل بعد هذا كله يصبح مجرد صخرة إثم وحجرة إساءة؟ فمن سيفهم ما يعتمل في نفسه...؟ وعندما يكشف الستار عن خزيه وعاره، من لا يدحض حياته كلها والحقائق التي اعتنقها بكومة من العار والخزي؟

لقد اعتاد السيد بولسترود طوال حياته، ولدى تأمله، أن يكسو تفكيره بمخاوف نفسية مفرطة، بموجب دلائل دينية، من أن تنتهي حياته نهاية غير مألوفة. ولكن حتى عندما نتحدث ونتأمل في كوكب الأرض والمجموعة الشمسية، فإن ما نشعر به ونبرمج حركتنا بموجبه هو استقرار الأرض، وتعاقب الليل والنهار. والآن وضمن توالي العبارات النظرية الواضحة والعميقة، التي نستخدمها عندما نناقش الألم والقشعريرة الناجمين عن الحمى، يكمن التنبؤ بالعار بوجود جيرانه وزوجته. بالنسبة إلى الألم، كما هو تقييم الناس للخزي والعار، فإنه يعتمد على المهنة السابقة.و بالنسبة إلى الرجال الذين يهربون من عقاب الجريمة يكون قفص الاتهام عاراً عليهم. لكن السيد بولسترود كان يتوق ليكون مسيحيًّا مميزاً.

لم تتجاوز الساعة السابعة والنصف، عندما وصل صباحاً إلى ستون كورت، ولم يبد

له ذلك المكان القديم الجميل من قبل كمنزل جميل مبهج أكثر مما بدا له هذه اللحظة.. فأزهار الزنبق الأبيض قد تفتحت، وتلألأت أوراق نبات الكبوسين، الذي تسلق الجدار الحجري المنخفض، بقطرات الندى، وكانت جميع الأصوات المنبعثة من حوله تنطوي على طمأنينة في داخلها. لكن كل شيء أفسد في نظر المالك حين كان يسير في الممر الحجري الأمامي، منتظراً ظهور السيد رفلز الذي كان ملزماً أن يتناول الإفطار معه. لم يمض وقت طويل قبل أن يجلسا في الغرفة الخشبية الفخمة معاً إلى الطاولة، حيث وضع عليها الشاي والخبز المحمص اللذان كانا مصب اهتمام رفلز في تلك الساعة المبكرة.

على عكس ما توقع صاحبه لم يكن هناك اختلاف كبير في نفسيته بين الصباح والمساء.. فربما كان استمتاعه بالتعذيب أقوى في الصباح منه في المساء، لأن مزاجه كان أقل مرحاً، فبالتأكيد كانت تصرفاته أكثر مشاكسة في ضوء الصباح.

«بما أن لدي فقط وقتًا قصيرًا كي أقضيه معك يا سيد رفلز». هكذا بدأ بالقول صاحب المصرف الذي لم يستطع سوى أن يرتشف قليلًا من الشاي ويقطع كسرة من الخبز دون أن يأكلها.. «سأكون ممتنًا جدًّا لو قلت مباشرة ما الذي يجعلك تتمنى لقائي...؟ أتوقع أن يكون لديك منزل في مكان آخر، وأنك ستكون مسروراً لدى عودتك إليه».

«لماذا؟ إذا كان الرجل يملك قلباً، ألا يتمنى أن يرى صديقاً قديماً يا نيك..؟ يجب أن أناديك بنيك، فقد اعتدنا أن نناديك بنيك الشاب حين كنا نعرفك وأنت تتمنى الزواج من الأرملة العجوز. قال بعضهم إنك تتحدر من أسرة جيدة كأسرة نيك العجوز، لكنها كانت خطيئة أمك التي كانت تناديك بنيكولاس. ألست سعيداً برؤيتي ثانية...؟ كنت أتوقع أن تدعوني لأقيم معك في مكان جميل. لقد أصبحت من دون أسرة منذ أن ماتت زوجتي، وليس لي أي ارتباط بأي مكان، فإنني سأكون مسروراً لو أقمت هنا أو في أي مكان آخر».

«ها... يمكنني أن أسألك لماذا عدت من أمريكا...؟ أعلم أن أكثر أمنية عبرت عنها هي أن تذهب إلى هناك، عندما قدم لك مبلغ جيد من المال مقابل التزامك بالبقاء هناك طوال حياتك».

«لم أعلم أن تمنّي الذهاب إلى مكان يعادل أمنية البقاء فيه. إلا أنني مكثت هناك لعشر سنوات، إذ لم يناسبني البقاء هناك مدة أطول، وإنني لن أعود إلى هناك ثانية يا نيك..». غمز السيد رفلز هنا ببطء وهو ينظر إلى السيد بولسترود.

«هل تتمنى أن تستقر في عمل الآن؟ ما هو هدفك الآن؟».

«أشكرك... إن هدفي هو أن أمتع نفسي قدر ما استطعت. لم أعد آبه بالعمل أكثر مما مضى. لو كان لي أن أعمل شيئًا لعملت في تجارة التبغ، أو شيء من ذلك النوع يمكن أن يوفر للرجل صحة جيدة، ولكن شرط توافر الاستقلالية، فهذا ما أريد.. إنني لست قويًا كما كنت من قبل يا نيك على الرغم من أنني متورد الوجه أكثر منك. إنني أريد استقلالية تامة».

قال السيد بولسترود ربما بقدر من التحرق ظهر في صوته أكثر مما ينبغي بقليل: «يمكن أن يتم توفير ذلك لك إذا تعهدت بالبقاء بعيداً».

قال رفلز ببرود: «يجب أن يحصل ذلك ما دام يتلاءم مع حاجتي. إنني لا أجد سبباً يمنعني من أن أقيم بعض العلاقات هنا، فأنا لست خجلاً من نفسي كي أصبح صديقاً لأي أحد. لقد ألقيت حقيبة السفر في الطريق الرئيسية حالما وصلت. لقد غيرت ثيابي كاملة حقًّا. أقسم بشرفي، وليس فقط المظهر الخارجي. وببزة الحداد السوداء هذه، والحمالات وكل شيء، سأكون مصدر نفع لك بين الأغنياء هنا...».

دفع السيد رفلز هنا كرسيه ونظر إلى نفسه وبشكل خاص إلى حمالتي بنطاله. لقد كان هدفه الرئيسي أن يضايق بولسترود، لكنه حقًّا كان يعتقد أن مظهره الخارجي يمكن أن يعطي تأثيراً جيداً الآن، وأنه لم يكن فقط وسيماً وفطناً بل بمظهر الحداد الذي كان يكسوه، كان يعبر عن علاقات متينة.

«إذا كنت ترغب في الاتكال علي في أي حال يا سيد رفلز» –قال بولسترود بعد لحظات من الصمت– «فعليك أن تلبي مطالبي».

قال رفلز بلطف ساخر: «آه... عليك أن تتأكد من ذلك. ألم أفعل ذلك دائماً؟ يا إلهي لقد جنيت الكثير بسببي، وأنا لم أحصل إلا على القليل. كثيراً ما اعتقدت منذ ذلك الوقت أنني كنت قد أحسنت صنيعاً لو أخبرت المرأة العجوز أنني وجدت ابنتها وحفيدها.. لانسجم ذلك مع مشاعري على نحو أفضل. إنني أملك نوعاً من الرقة في قلبي، لكنني أعتقد أنك بالتأكيد قد دفنت المرأة العجوز، وما عاد الأمر يحدث اختلافاً بالنسبة إليها الآن، وأنك لا بد من أنك قد حصلت على ثروتك من خلال ذلك العمل المربح الذي كان يحمل النعمة لك. لقد أصبحت رجلاً غنيًا، وتشتري الأراضي، فأصبحت... باشا... إقطاعيًا، ولا تزال في خط المنشقين إيه؟ ولا تزال ربانيًّا... أو تذهب الى الكنيسة برفعة أكثر ونبل». في هذه المرة كانت

غمزة السيد رفلز ومد لسانه قليلاً إلى الخارج أسوأ من كابوس، لأنها كانت تبعث يقيناً يثبت أنها لم تكن كابوساً لكنها تعاسة مستيقظة. شعر السيد بولسترود بإعياء وقشعريرة، فلم يتكلم، لكنه كان يفكر بجدية ما إذا كان عليه أن يترك رفلز يفعل ما يريد، وأن يتحداه كمشوه لسمعته. سيثبت الرجل قريباً جدًّا على أن سمعته سيئة إلى حدّ يجعل الناس لا يصدقونه.

«ولكن ليس عندما يخبر حقيقة بشعة عنك»... قال ضميره الفطن. فبدأ ثانية... إنه ليس من الخطأ أن يبقي رفلز بعيداً منه، لكن السيد بولسترود أجفل من الكذب المباشر لدى إنكاره الحقيقة. إن النظر إلى الأخطاء القديمة المغتفرة أو شرح امتثال مشكوك فيه لعادات منحلة هو شيء، والدخول المتعمد في الكذب الضروري هو شيء ثانٍ.

ولكن عندما لم يتكلم السيد بولسترود، تابع رفلز بطريقة يستغل بها الوقت كله، «أقسم إنني لم أحصل على حظّ جيّد كالحظّ الذي حصلت عليه! لقد أربكتني الحياة في نيويورك. إن طباع الأمريكان باردة تماماً، فلا مكان لمشاعر الود لديهم. لقد تزوجت بعد أن عدت بامرأة لطيفة كانت تعمل في تجارة التبغ – وقد كانت مولعة بي – ولكن لم تكن تجارة التبغ مزدهرة كما نقول. لقد وفر لها العمل هناك أحد الأصدقاء، ولكن كان لديها ابن تسبب في إزعاج كبير في علاقتنا. أنا وجوش لم نتفق قط. في أيّ حال لقد استثمرت مكانتي تماماً، وكنت أتناول خمري مع صحبة جيدة. لقد كان كل شيء واضحاً بالنسبة إليّ، وإنني صريح كوضح النهار. إنك لن تسيء الظن بي إذ لم أبحث عنك من قبل. إنني أشكو من شيء يعرقلني قليلاً. كنت أعتقد أنك لا تزال تعمل في التجارة والكنائس في لندن، وأنا لم أجدك هناك. ولكن هل ترى فقد أرسلت إليك يا نيك، ربما رحمة لكلينا...».

أنهى السيد رفلز كلامه بنحنحة مرحة. لم يشعر أي رجل أن ذكاءه يمكن أن يتفوق على النفاق الديني، وإذا كان المكر الذي يعتمد على قصة المشاعر لدى الرجال يمكن أن يدعى ذكاءً، لكان له في ذلك نصيب، فعبارات السخرية التي تفوه بها كانت تخفي وراءها معاني كثيرة تشبه حركات حجر الشطرنج المتلاحقة.

في هذه اللحظة قرر السيد بولسترود التحرك، فقال بعد أن استجمع قواه: «ستحسن صنيعاً يا سيد رفلز لو عرفت أن الرجل يخطئ في حق نفسه لو حاول أن يحصل على ما هو ليس من حقه. على الرغم من أنني لست ملتزماً بك في أي حال، فإنني أرغب في تقديم دخل سنوي لك يستمر طوال حياتك، على أن يجزأ ذلك الى أربع دفعات في العام ما دمت تتعهد بالبقاء بعيداً من هذه المنطقة. إن الخيار متروك لك الآن، وإذا ما اخترت البقاء هنا،

حتى ولو لمدة وجيزة، فإنك لن تحصل على شيء مني. سوف لن أتعرف عليك...».

قال رفلز بهياج مصطنع: «ها ها... ذلك يذكرني بلص بذيء رفض أن يتعرف على رجل الأمن».

قال بولسترود بغضب شديد: «إنني لم أفهم تلميحاتك يا سيدي... لا توجد صلاحية للقانون علي، ليس من خلال قوتك أو قوة أحد غيرك».

«إنك لا تفهم المزاح يا صديقي العزيز. لقد عنيت فقط أنني لن أتخلى عن معرفتي بك. ولكن دعنا نكون جادين. مرتبك السنوي لن يناسبني، فإنني أحب حريتي»... نهض هنا رفلز وراح يمشي بخيلاء جيئة وذهاباً في الغرفة متظاهراً بالتأمل، أخيراً وقف في مواجهة بولسترود وقال: «سأقول لك، أعطني مئتي جنيه، هذا مناسب تمامًا، ثم سأذهب، أعدك بذلك. سآخذ حقيبتي وأذهب، ولكن لن أتخلى عن حريتي مقابل دخل سنوي تافه. سآتي وأذهب متى شئت وحيث شئت. ربما سيناسبني البقاء بعيداً وأتواصل معك من خلال صديق، وربما لن أفعل. هل النقود معك؟».

«كلا، معي مئة جنيه»، قال بولسترود وقد شعر أن التخلص السريع يسبب راحة أعظم من أن ترفض... وذلك لما قد يحمله المستقبل من متاعب. «سأرسل لك المئة الأخرى إذا أعطيتني عنواناً».

قال رفلز: «كلا سأنتظر هنا حتى تأتي بها. سأمشي قليلاً في الحديقة وأتناول وجبة خفيفة ريثما تعود»... شعر السيد بولسترود بجسده المريض يتحطم غضباً تحت تأثير قوة هذا الرجل العديم الإحساس والمشاعر. حاول في تلك اللحظة أن يختطف راحة مؤقتة بأي ثمن كان... كان ينهض هامّاً بفعل ما اقترحه رفلز، عندما قال الأخير رافعاً إصبعه وكأنه تذكر شيئاً فجأة.

«لقد بحثت ثانية عن سارة، لكنني لم أخبرك بذلك. إنني أشفق لحال تلك المرأة الشابة الجميلة. لم أعثر عليها لكنني استطعت أن أحصل على اسم زوجها، فكتبته ولكن يا للعنة فقد ضاعت مفكرة جيبي. في أيّ حال لو سمعت بذاك الاسم لتذكرته ثانية. إنني أمتلك قدراتي العقلية تماماً كما كنت في شبابي، ولكن الأسماء تختفي... بحقّ جوبتير...! في بعض الأوقات أكون في حال ليس أفضل من حال أوراق الضرائب اللعينة قبل أن تكتب عليها الأسماء. في أيّ حال لو سمعت بها أو بعائلتها لأعلمتك بذلك يا نيك. لابد من أن ترغب في

تقديم شيء لها، فهي ابنة زوجتك الآن».

قال السيد بولسترود وهو ينظر إليه بثباته المعتاد بعينيه الرماديتين الفاتحتين: «من دون شك... على الرغم من أن ذلك سينقص من مساعدتي لك»... بينما كان يخرج من الغرفة غمز رفلز ساخراً منه، ثم استدار نحو النافذة ليشاهد مالك المصرف ينطلق على فرسه وفقاً لأوامره. ارتسمت في البداية ابتسامة على شفتيه، ثم انطلقت من فمه ضحكة المنتصر...

«آه... ولكن يا للشيطان.. ماذا كان ذلك الاسم..؟»، قال بصوت مرتفع قليلًا وهو يحك رأسه ويقطب جبينه أفقيًّا. لم يهتم ولم يفكر في أمر نسيانه حتى خطر له أثناء ابتكاره لأنواع الإزعاج لبولسترود.. «إنه يبدأ بحرف ل، إنه يكاد يتألف كله من الحرف ل على ما أعتقد».. تابع بإحساس وكأنه يستعيد ذلك الاسم لكنه كان بعيداً من الإمساك به، فتعب بسرعة من هذه المتابعة الذهنية. فقليل من الرجال يكونون أقل صبراً من السيد رفلز لدى إشغال أنفسهم بالشؤون الخاصة، أو عادة يكونون في حاجة أكثر منه ليصغى إليهم من قبل الآخرين. لقد فضل أن يشغل وقته بالحديث مع وكيل المزرعة ورئيس الخدم اللذين جمع منهما المعلومات التي كان يحتاجها عن السيد بولسترود ومكانته في مدل مارش. إلا أنه بقي هناك وقت طويل ممل احتاج أن يملأه بتناول الخبز والجبن وشراب الجعة.

ولمّا كان يجلس لوحده مع هذه المأكولات في الغرفة الخشبية الفخمة، ضرب فجأة على ركبته وصاح قائلاً: «لادسلو..!» نشاط ذاكرته هذا، الذي حاول رفلز يائساً الاستعانة به، قد اكتمل دون جهد واعٍ. تكون هذه التجربة الاعتيادية مقبولة، حتى لو كان الاسم الذي تم تذكره لا قيمة له. أخرج رفلز مباشرة دفتر جيبه، وكتب الاسم. ليس لأنه كان يتوقع استخدامه، بل لأنه أراد ألّا ينساه إذا ما حصل شيء وإن احتاج إليه.

ما كان سيخبر بولسترود به، فلم يكن هناك جدوى ولا منفعة من إخباره به. وللتفكير في مثل ذلك الذي لدى رفلز هناك دائماً منفعة محتملة في الأسرار.

كان راضياً عن نجاحه الحالي، وفي الساعة الثالثة من ذلك اليوم، أخذ حقيبته من قرب البوابة الرئيسية واعتلى عربة الأجرة ليريح عيني بولسترود من رؤية تلك البقعة السوداء القبيحة في منظر ستون كورت، ولكن لم يخلصه من إحساسه بالخوف من أن تلك البقعة السوداء يمكن أن تظهر ثانية، فلا تنفصل حتى عن منظر موقد ناره.

الكتاب السادس

الأرملة والزوجة

الفصل الرابع والخمسون

Negli occhi porta la mia donna Amore;
Per che si fa gentil eio ch'ella mira:
Ov'ella passa, ogni uom ver lei si gira,
E cui saluta fa tremar lo core.
Sicche, bassando il viso, tutto smore,
E d'ogni suo difetto allor sospira:
Fuggon dinanzi a lei Superbia ed Ira:
Aiutatemi, donne, a farle onore.
Ogni dolcezza, ogni pensiero umile
Nasee nel core a chi parlar la sente;
Ond' e beato chi prima la vide.
Quel ch'ella par quand' un poco sorride,
Non si pub dicer, ne tener a mente,
Si e nuovo miracolo gentile».

DANTE: la Vita Nuova

في ذلك الصباح الذي كانت تنشر فيه كومات القش رائحتها في الهواء، لتوحي وكأن السيد رفلز كان ضيفاً يستحق أفضل العطور، عادت دورثيا إلى مسكنها في لُوِيك منر، فبعد مرور ثلاثة أشهر أصبحت إقامتها في فريشت مرهقة.. فجلوسها كتمثال القديسة كاثرين وهي تنظر منتشية إلى رضيع سيليا، ما كان يملأ ساعات النهار الطويلة. أن تبقى في حضور ذلك الرضيع الجاد ضمن تجاهل مستمر ما كانت لتحتمله كخالة ليس عندها طفل. لقد كانت دورثيا قادرة على أن تحمل الرضيع وتسير فيه مسافة ميل كامل لو كان هناك حاجة إلى ذلك، كما كانت قادرة على أن تحبه أكثر نتيجة ذلك العمل المضني، ولكن بالنسبة إلى خالة لا تعتبره يشبه بودا، ولا تستطيع أن تقدم له شيئاً سوى الإعجاب به، يبدو سلوكها له رتيباً، وتصبح مراقبتها له عملاً مضنياً. لقد كان هذا الاحتمال خفياً على سيليا، التي شعرت بترمل دورثيا دون أن يكون لها طفل جاء ملائماً مع ولادة آرثر... سمي الرضيع بهذا الاسم على اسم السيد بروك...

قالت سيليا لزوجها: «دودو مخلوقة لا تهتم بامتلاكها لأشياء تخصها... كالأولاد... أو أشياء أخرى! حتى ولو كان لديها رضيع لما كان وسيماً كآرثر... أليس كذلك يا جيمس؟»

«خصوصًا... لو كان يشبه كزابون»، قال هذا السير جيمس مضمناً جوابه نوعاً من الخداع ومعتبرًا ابنه الأول أفضل ابن».

قالت سيليا: «كلا! فقط تخيل! حقًّا لقد كانت رحمة... وأعتقد أن من الأفضل لدودو أن تكون أرملة، إذ يمكنها أن تشغف بابننا كما لو كان ابنها، كما يمكنها أن تتبنى أفكاراً كثيرة كما تتمنى».

قال السير جيمس المخلص: «من المؤسف أنها لم تكن ملكة».

«ولكن ماذا يمكن أن يكون وضعنا عندها؟ لا بد من أننا سنكون في وضع مختلف». ثم قالت سيليا معارضة لهذا الأمر، الذي لا يمكن تصوره: «إنني أحبها كما هي الآن».

عندما اكتشفت سيليا أن دورثيا تهيئ لمغادرتها الأخيرة لمنزل أختها إلى لُويك، رفعت حاجبيها مصابة بخيبة أمل، وبطريقتها الهادئة وغير اللافتة للنظر، وخزت بمخرز سخرية قائلة: «ماذا ستفعلين في لُويك يا دودو...؟ إنك تقولين بنفسك إنه لا يوجد شيء يمكن أن تفعليه هناك.. فالجميع في وضع جيد، فإقامتك هناك تحزنك جدًّا، ولا سيما أنك كنت سعيدة جدًّا هنا وأنت تتنقلين في تبتن مع السيد جارث، وتزورين أسوأ المناطق فيها. الآن... وعمي خارج البلاد، يمكنك أن تضعي الأمور بحسب ما تشائين بمساعدة السيد جارث، وأنا متأكدة من أن جيمس سيفعل كل ما تطلبين منه».

قالت دورثيا: «سأتردد كثيراً إلى هنا، وسأرى، بطريقة أفضل كيف يكبر الطفل..».

قالت سيليا: «ولكن لن تريه وهو يغتسل... وذلك أفضل وقت في اليوم». كانت شبه متجهمة؛ فقد بدا لها قاسياً أن تترك دودو الطفل في وقت يمكن لها أن تبقى.

قالت دورثيا: «عزيزتي كيتي...!! سآتي وأقضي ليلة هنا لأجل ذلك الهدف... لكنني أريد أن أكون لوحدي الآن، وفي بيتي. إنني أرغب في التعرف إلى عائلة فيربرذر أكثر، وأن أتحدث إلى السيد فيربرذر حول ما يمكن فعله في مدل مارش».

لم تتحول قوة إرادة دورثيا الحقيقية بأكملها إلى طاعة وخضوع تامين. كان لديها اشتياق عظيم للُويك، فقررت ببساطة الذهاب إلى هناك، دون أن تشعر بشيء يلزمها أن تقول الأسباب التي قادتها إلى ذلك، ولكن لم يوافقها أحد من حولها. تألم السير جيمس كثيرًا، فاقترح أن يهاجروا جميعا إلى كالنغهام لبضعة أشهر، ويأخذون معهم سرير الطفل

الذي يدعى الفلك المقدس، في ذلك الوقت كان من الصعب على الرجل أن يقترح شيئاً إذا ما رفض أمر سفرهم إلى كالنغهام.

الأرملة الغنية الليدي جتم، التي عادت لتوها من زيارتها إلى ابنتها في مركز المدينة، تمنت لو يكتب إلى السيدة فيغو ليقترح عليها أن تعمل مساعدة للسيدة كزابون.. إذ لم يكن من اللائق أن تبقى الأرملة الشابة دورثيا لوحدها في لُويك. كانت السيدة فيغو تعمل من قبل قارئة وكذلك رئيسة مكتب لدى بعض الشخصيات الملكية، فبالنسبة إلى معرفتها ورقة شعورها فحتى دورثيا لا يمكن لها أن ترفضها.

أسرت السيدة كادولدر القول مرة لدورثيا: «بالتأكيد سيصيبك الجنون في ذلك المنزل يا عزيزتي. ستتراءى لك الأشباح. ينبغي لنا جميعاً أن نبذل بعض الجهد كي نبقى عقلاء، وندعو الأشياء بالأسماء التي يستخدمها الآخرون. تأكدي أن الشباب والشابات، الذين لا يملكون نقوداً، لا بد لهم من أن يصبحوا مجانين.. فلا بد من أن يعتنى بهم عندها. فينبغي لك ألّا تنجري إلى ذلك، يمكن لي أن أقول: إنك تشعرين بالملل قليلاً مع هذه الأرملة الغنية، ولكن فكري كم ستصبحين مملة لمن من حولك إذا بقيت دائماً تؤدّين دور الملكة المأسوية، وتأخذين الأشياء دائماً بجدية. إن جلوسك وحيدة في مكتبة ذلك المنزل في لُويك ربما يجعلك تعتقدين أنك تتحكمين بالوضع، فلا بد من أن يكون حولك قليل من الناس لا يصدقونك عندما تخبرينهم بشيء. إن هذا دواء ناجع».

قالت دورثيا بقوة: «لم أدع الأشياء بالأسماء نفسها التي يستخدمها من هم حولي».

قالت السيدة كادولدر: «لكنني أعتقد أنك قد اكتشفت خطأك يا عزيزتي... وهذا دليل على تعقلك».

كانت دورثيا تعي اللسعات، ولكن لم تؤثر فيها... قالت: «كلا. إنني لا أزال أعتقد أن معظم الناس على خطأ في كثير من الأمور. بالتأكيد لا بد من أن يكون هناك أحد عاقل ويعي ذلك، مادام معظم الناس يتراجعون عن آرائهم».

لم تضف السيدة كادولدر شيئاً حول هذا الجانب لدورثيا، لكنها قالت لزوجها: «سيكون من الأفضل لها أن تتزوج ثانية حالما يتوافر زواج مناسب، وذلك لو استطاع أحد أن يضعها بين أناس مناسبين. بالطبع لن يتمنى أفراد عائلة شتم ذلك، لكنني أرى بوضوح أن وجود زوج لها، هو أفضل حل يمكن أن يبقيها متماسكة. لو لم نكن فقراء لدعوت اللورد ترايتن.

الذي سيصبح المركيز يوماً ما، ولا يمكن إنكار أنها ستكون المركيزة بجدارة.. فهي تبدو أكثر جمالاً في حدادها».

قال القس المتساهل: «يا عزيزتي أليبور دعي المرأة المسكينة وشأنها، فمثل هذه الحيل لن تجدي نفعاً».

«لا فائدة..! كيف يمكن للزيجات أن تحصل ما لم يعرّف الرجال على النساء؟. وإنه لمن المخجل أن عمها قد هرب الآن وأغلق منزله في كرينج، إذ كان ينبغي أن يدعى الكثيرون من الرجال إلى كرينج وفريشت في هذه الأوقات. إن اللورد ترايتن هو الرجل المناسب تماماً.. فلديه الكثير من الخطط، التي يمكن أن تحقق السعادة للناس بطريقة يسيرة جدًّا، فذلك ما يناسب السيدة كزابون تماماً».

«دعي السيدة كزابون تختار لنفسها يا أليبور».

«هذا هو هراؤكم أيها الرجال العقلاء...! كيف يمكنها أن تختار.. إذا لم يكن أمامها العديد من الرجال لتختار من بينهم...؟ خيار المرأة دائماً يعني أن تتزوج الرجل الذي يمكنها أن تحصل عليه. تذكر كلماتي يا همفري، إذا لم يعمل محبوها بجد، فإنها ستتزوج من رجل أسوأ من كزابون».

«أستحلفك بالرب ألا تتطرقي إلى هذا الموضوع ثانية يا أليبور! إنه موضوع مؤلم بالنسبة إلى السير جيمس، فهو سيشعر بالإساءة له بعمق شديد إذا ما تطرقت إلى هذا الموضوع دون حاجة ملحة».

قالت السيدة كادولدور فاتحة يديها: «إنني لم أتطرق إليه قط. لقد أخبرتني سيليا كل شيء حول الوصية من البداية دون أن أسألها».

«نعم نعم... لكنهم يريدون أن يقفل الموضوع تماماً، وإنني أعلم أن الشاب سيغادر المنطقة»... لم تقل السيدة كادولدور شيئاً، لكنها هزت رأسها ثلاث مرات أمام زوجها وقد ظهر على عينيها الداكنتين إيماءة سخرية.

نفذت دورثيا عزمها على الرغم من إلحاح الآخرين ومعارضتهم لها، ففي نهاية شهر حزيران فتحت جميع نوافذ منزل لُويك، فدخل ضوء الصباح إلى المكتبة ليرسل أشعة الشمس على صفوف الدفاتر والكتب، فتبدو وكأنها تشع على نفايات مهترئة ألقي بها بين

أحجار ضخمة، وهي تحمل ذكرى خرساء لاعتقاد منسي يذكر... كم دخل بصمت هواء المساء المحمل بعبق الزهور إلى مخدعها حيث كانت تحب أن تقضي معظم وقتها. في البداية تجولت في جميع الغرف متأملة الأشهر الثمانية عشر من زواجها، ومتخيلة وكأن هناك حديثاً يمكن أن يسمعه زوجها.. ثم بقيت في المكتبة، حيث لم تشعر بارتياح حتى رتبت بدقة وتسلسل جميع دفاتر الملاحظات.. قامت بهذا كله وكأنها كانت تتخيل أنه سيراها.

الشفقة، التي كانت تقيد وتضغط على محفزات حياتها معه، لا تزال عالقة مع صورته في مخيلتها حتى عندما عارضته بتفكير ساخط، وقالت له إنه لم يكن عادلاً. لقد قامت بتصرف بسيط، يمكن أن يثير الضحك قليلاً، لأنه بدأ وكأنه خرافي. لقد وضعت فهرس العناوين، الذي كتب عليه «لاستخدام السيدة كزابون» في مغلف بعد أن كتبت عليه: «لم أستطع أن أستخدمه. ألا تستطيع أن ترى الآن أنني لم أستطع أن أكرس روحي لأجل روحك من خلال بذل مجهود يائس في عمل لا أؤمن به... دورثيا». ثم وضعته في درج طاولتها.

ربما كان هذا الحوار الصامت الأكثر إلحاحاً لأنه كان يخفي خلفه اشتياقاً عميقاً، جعلها تقرر العودة إلى لُويك. كان ذاك الاشتياق هو رؤية لادسلو. كانت تعلم أنه لن ينتج أي شيء مفيد من لقائهما.. فقط كانت يائسة إذ كانت يداها مكبلتين، وهي لا تستطيع أن تعوضه عن الظلم الذي حل بقدره، لكن روحها كانت متعطشة لرؤيته، وإلا كيف يمكن لها أن تراه؟ إذا رأت أميرة، في أيام السحر، مخلوقاً يسير على أقدام أربع بين تلك المخلوقات التي تعيش ضمن قطعان، ثم عاد ليلقي عليها نظرة تشبه نظرات الإنسان، فتقع عليها معبرة عن اختياره لها وتوسله إليها، فبم عساها أن تفكر في أثناء سفرها، وعن أي شيء عساها أن تبحث عندما يمر القطيع من حولها...؟ من المؤكد... في تلك النظرة التي وجدتها، والتي ستتعرف عليها ثانية. لا يمكن للحياة أن تكون أفضل من بهرجة ضوء الشموع، وتفاهة ضوء النهار إذا لم تتأثر أرواحنا بالاشتياق والإخلاص.

حقًّا أرادت دورثيا أن تتعرف إلى أفراد أسرة فيربرذر عن كثب، وأرادت على وجه الخصوص أن تتحدث إلى الكاهن الجديد، ولكن حقًّا عندما تذكرت أيضاً ما قاله السيد ليدجيت حول لادسلو والآنسة نوبل القصيرة، عولت على مجيء لادسلو ليرى أسرة فيربرذر. في أول يوم أحد.

قبل أن تدخل الكنيسة رأته كما رأته آخر مرة كانت هناك، وحيداً في مقصورة رجل الدين، ولكن حالما دخلت.. اختفى شبحه. في أيام الأسبوع اللاحقة وحين كانت تتردد

إلى أسرة فيربرذر لتجتمع بالنساء، كانت تصغي، دون جدوى عسى أن تصدر كلمة حول لادسلو، ولكن تبين لها أن السيدة فيربرذر قد تحدثت عن جميع الناس في لُوِيك وخارجها... باستثناء لادسلو.

قالت دورثيا محتقرة نفسها، لأنه كان لديها سبب تخفيه يدفعها للسؤال: «ربما سيلحق بالسيد فيربرذر بعض مستمعيه من مدل مارش إلى لُوِيك في بعض الأوقات. ألا تعتقدين ذلك؟».

قالت السيدة العجوز: «إذا كانوا عقلاء، فإنهم سيفعلون ذلك يا سيدة كزابون. أرى أنك تضعين ثقتك في قدرة ابني على تقديم العظات الدينية... جدّه، أي: أبي، كان رجل دين ممتازاً، لكن أباه كان يعمل في القانون.. ومع ذلك فقد كان مثاليًّا ونزيهاً جدًّا وذلك ما جعلنا فقراء دائماً. يقولون: إن الثروة هي امرأة ونزوة، ولكن في بعض الأوقات تكون امرأة جيدة فتعطي لمن يستحق، وهذا ينطبق عليك يا سيدة كزابون إذ منحت وظيفة الكاهن لابني».

عادت السيدة فيربرذر إلى نسيجها بعد أن انتابها رضا مهيب، نتيجة للمجهود البسيط الأنيق الذي بذلته من خلال حديثها، ولكن لم يكن هذا ما أرادت سماعه دورثيا، يا للمسكينة... فهي لم تعرف حتى إذا كان لادسلو لا يزال في مدل مارش، ولم يكن هناك من تتجرأ أن تسأله باستثناء ليدجيت. إلا أنها الآن لا تستطيع أن ترى ليدجيت ما لم ترسل وراءه... أو تذهب هي لتبحث عنه.

ربما قد سمع لادسلو بذلك المنع الغريب الذي فرضه عليه كزابون قبل وفاته، فوجد من الأفضل ألّا يلتقيها ثانية، وربما كانت مخطئة برغبتها في مقابلته، فالجميع سيجدون أسباباً قوية تمنعها من لقائه. ولكن على الرغم من ذلك «فإنني لا أزال... أتمنى ذلك». جاءت هذه العبارة بعد تفكير حكيم، كما تأتي التنهيدة بعد حبس الأنفاس. ولقد حصل اللقاء إلا أنه كان بطريقة رسمية لم تتوقعها.

كانت دورثيا تجلس حوالي الساعة الحادية عشرة من صباح أحد الأيام في مخدعها، وقد وضعت أمامها على الطاولة خارطة الأرض المتصلة بمنزل لُوِيك، وأوراقاً أخرى كان من المفترض أن تساعدها في اتخادها قراراتٍ تتعلق بدخلها وبشؤون أخرى. لم تبدأ عملها بعد لكنها كانت تجلس حابكة يديها ،وهي تنظر خارج النافذة إلى الحقول البعيدة من فوق صف

أشجار الزيزفون. كانت جميع أوراق الأشجار ساكنة تحت أشعة الشمس، ولم يتغير فيها المنظر المألوف، فقد بدا لها وكأنه يمثل حياتها المملة والخالية من المحفزات.. خالية من المحفزات إذ لم تستطع طاقتها أن تبحث عن أسباب أخرى تجعلها تقوم بأفعال حماسية.

كانت تشكل قبعة حداد الأرامل إطاراً بيضويًّا لوجه المرأة، ويعلوها تاج مرتفع إلى الأعلى، أما الثوب فقد كان مصنوعًا من قماش الكريب الثقيل الذي يعطي مهابة، فقد جعل وجهها يبدو أكثر شباباً بعد أن استعاد حيويته وتورده، كما استعادت عيناها صدق بريق جمالهما. قاطعت الخادمة تنترب سلسلة أفكارها عندما جاءت لتقول: «إن السيد لادسلو في الطابق السفلي ويطلب الإذن بمقابلة السيدة إذا لم يكن الوقت مبكراً جدًّا».

قالت دورثيا بعد أن نهضت مباشرة: «إنني سأراه. دعيه يدخل إلى غرفة الاستقبال». لقد كانت غرفة الاستقبال أبهت الغرف لوناً بالنسبة إلى دورثيا، فهي أقل غرفة صاحبتها ذكريات حياتها الزوجية. كان القماش الدمشقي يناسب الخشب الأبيض والذهبي، كما كان فيها مرآتان طويلتان.. ومناضد فارغة.. فقد كانت غرفة لا يجذبك فيها جانب للجلوس فيه أكثر من الجوانب الأخرى. كانت تقع تحت غرفة مخدعها، فكان لها أيضاً نافذة قوسية تطل على ممر أشجار الزيزفون.

عندما اقتاد الخادم برات لادسلو إلى داخل الغرفة، كانت نافذتها مفتوحة، كما كانت هناك حشرة مجنحة تئز وتطير هنا وهناك دون أن تأبه للأثاث، مما جعل الغرفة تبدو أقل رسمية، ومأهولة إلى حد ما.

قال برات متباطئاً برفع الستائر: «إنني سعيد لرؤيتك هنا يا سيدي»...

«لقد جئت فقط لأقول وداعاً يا برات»... هذا ما قاله ويل الذي تمنى أن يعلم حتى رئيس الخدم أن اعتداده بنفسه يجعله أسمى من أن يتعلق بالسيدة كزابون التي هي الآن أرملة غنية.

قال برات متراجعاً: «يؤسفني أن أسمع ذلك يا سيدي...». بالطبع.. على الرغم من أنه خادم.. فما كان يجب أن يقال له شيء، فهو قد عرف الحقيقة، التي لا يزال يجهلها ويل، ورسم تخميناته التي حقًّا لن تختلف عما استنتجته تنترب عندما قالت: «لقد كان سيدك غيوراً كشخص خبيث حتى بلا سبب».

«إن السيدة تتطلع إلى من هو أعلى من لادسلو. وإلا لما كنت أعرفها. لقد قالت لي خادمة السيدة كادولدر إن هناك لورداً سيأتي ويتزوج منها عندما تنقضي مدة الحداد».

لم تنقض لحظات طويلة على ويل وهو يتمشى في الغرفة وقبعته في يده، قبل أن تدخل عليه دورثيا. لقد كان اللقاء مختلفاً جدًّا عن لقائهما في روما حين كان ويل مرتبكاً وكانت دورثيا هادئة. في هذه المرة كان تعساً لكنه مصمم، بينما كانت هي في حالة انفعال لم تستطع أن تخفيها. وعند الباب شعرت أن هذا اللقاء، الذي اشتاقت إليه كثيراً، كان في النهاية صعباً، وعندما رأت لادسلو يتقدم إليها... ظهر على وجهها احمرار عميق، ترافق مع صدمة مؤلمة نادراً ما أصيبت بها من قبل. لم يستوعب أي منهما كيف كان اللقاء، ولكن لم يقل أحدهما للآخر شيئاً.

صافحته للحظة، ثم ذهب ليجلس قرب النافذة.. فجلست هي على أريكة وجلس هو على أخرى مقابلها. لقد كان ويل، على وجه الخصوص، مرتبكاً، فليس كما كان يبدو لدورثيا، قد بدا له حقيقة كونها أرملة قد غيرت من طريقة استقبالها له، ولا سيما أنه لم يعرف بأي شأن آخر يمكن أن يؤثر في علاقتهما ببعض، باستثناء ما أوحى له خياله أن أصدقاءها يمكن أن يسمموا أفكارها بالشكوك تجاهه.

قال ويل: «أتمنى ألّا أكون سببت إزعاجاً بمجيئي إلى هنا... فأنا لم أستطع أن أحتمل مغادرتي لهذه المنطقة لأبدأ حياة جديدة دون أن أقابلك لأقول لك وداعاً»...

«أزعجتني..؟؟ من المؤكد لا. كنت سأعتبر أنه ليس من اللطف أن تغادر دون أن تراني». هذا ما قالته دورثيا بتلقائية حديثها المعتادة، مؤكدة على ذاتها من خلال ارتباكها وانفعالها.. «هل أنت ذاهب فوراً؟».

«قريباً جدًّا على ما أعتقد. إنني أنوي الذهاب إلى مركز المدينة لأعمل كمحام هناك، فهم يقولون إن هذا يشكل الخطوة الأولى في طريق التحضيرات نحو العمل السياسيّ. هناك حاجة كبيرة إلى العمل السياسي، وأنا أنوي أن أقوم ببعض منه. لقد استطاع رجال آخرون أن يحتلوا مناصب مشرفة دون أن يكون لديهم عائلة أو نقود».

قالت دورثيا بحماس: «إن هذا يجعله مشرفاً أكثر... فضلًا عن ذلك إنك تمتلك كثيراً من المواهب، لقد عرفت من عمي كم أنت ماهر في الحديث أمام الناس حتى إن الجميع كانوا يشعرون بالأسف حين كنت تغادرهم، وكيف تستطيع أن تشرح الأمور بوضوح، وأنك

تهتم كثيراً بأن يفهم الجميع. إنني سعيدة جدًّا. حين كنا في روما اعتقدت أنك تهتم فقط بالشعر والفن والأشياء التي تزين حياتنا، نحن الذين نحيا حياة جيدة، لكنني الآن قد عرفت أنك تهتم ببقية الناس».

بينما كانت دورثيا تتحدث.. تخلت عن ارتباكها، وعادت إلى طبيعتها. كانت تنظر إلى ويل بطريقة مباشرة مليئة بثقة سارة.

«إنك توافقين على ذهابي لسنين عديدة إذًا، وألّا أعود إلى هنا ثانية حتى أجعل من نفسي إنساناً متميزاً في العالم؟»، قال ذلك ويل محاولاً أن يصالح بين أقصى حالات كبريائه وأقصى جهد يبذله، حتى يحصل على تعبير يعكس شعوراً قويًّا لدى دورثيا.

لم تدرك كم مضى من الوقت قبل أن تجيب، وتدير وجهها لتنظر خارج النافذة إلى تلك الشجيرات، وكأنها ترى فيها عدد فصول الصيف التي سيكون خلالها ويل غائباً. لم يكن هذا تصرفاً حصيفاً، لكن دورثيا لم يخطر لها في حياتها أن تدرس تصرفاتها، بل كانت تفكر فقط في الانحناء أمام الضرورة الحزينة التي كانت تفصلها عن ويل.

كلماته الأولى... تلك التي كانت حول نواياه، أوضحت كل شيء لها.. فقد كان يعلم أنها كانت تفترض جميع تصرفات السيد كزابون تجاهه، أنها سببت له صدمة.. تماماً كما سببت لها. إنه لم يكن لها سوى الصداقة، ولم يكن في ذهنه أي شيء يمكن أن يبرر شعورها تجاه غضب زوجها من شعور كليهما، والصداقة التي لا يزال يشعر بها.

برز شيء في داخلها يمكن أن يدعى نحيباً صامتاً قبل أن تقول بصوت نقي إلا أنها ارتجفت أثناء نطقها للكلمات الأخيرة: «نعم... لا بد من أن يكون مناسباً لك أن تفعل ما تقول. سأكون سعيدة جدًّا عندما أسمع أنك استطعت أن تجعل من نفسك إنساناً متميزاً في العالم، ولكن ينبغي لك أن تكون صبوراً، فربما سيأخذ ذلك وقتاً طويلاً». لم يعرف ويل كيف استطاع أن يمسك نفسه عن الوقوع عند قدميها، ولا سيما عندما قالت... «وقتاً طويلاً» مع رعشة لطيفة. كان يقول: إن اللون المخيف وارتداءها ثوب الحداد كانا من المرجح يشكلان قوة تحكم كافية. في أيّ حال فقد ظلّ جالساً بهدوء، لكنه قال:

«لن أسمع عنك شيئاً، وأنت ستنسينني تماماً...».

قالت دورثيا: «كلا...!... إنني لن أنساك أبداً. إنني لم أنس أحداً عرفته في حياتي.

لم تكن حياتي مزدحمة، ولا يبدو أنها ستصبح كذلك، ولدي وقت طويل أتذكر فيه في لُويك أليس كذلك...؟» ابتسمت.

«يا إلهي..». لقد تفجرت عواطف ويل وهو ينهض بسرعة، وقبعته لا تزال في يده، ثم سار نحو طاولة رخام، حيث استدار فجأة ليسند ظهره إليها. تدفق الدم إلى وجهه ورقبته حتى بدا وكأنه غضب. لقد شعر وكأنهما مخلوقان يتحولان ببطء إلى ما يشبه الرخام... ولكن لا يزال قلباهما ينبضان، وعيونهما تواقة دون أمل. لن يكون من اللائق أن ينهي هذا اللقاء، الذي سعى إليه بمرارة، باعتراف يمكن أن يفهم من خلاله أنه يريد ثروتها. فضلاً عن ذلك كان حقًّا خائفاً من تأثير مثل هذا الاعتراف على دورثيا نفسها. نظرت إليه من بعد باضطراب متصورة أن كلماتها قد أساءت إليه، لكن طوال الوقت كانت تراودها فكرة حول احتمال حاجته إلى المال، واستحالة مساعدتها له. لو كان عمها في منزله، لكان من الممكن أن تفعل شيئاً..! كانت دائماً تفكر في حاجة ويل إلى النقود... في حين أنها كانت هي تملك ما يفترض أن يكون نصيبه. مما جعلها تقول، ولا سيما أنه قد ظلّ صامتاً ينظر بعيداً منها.

«إنني أتساءل... لو كنت تريد أن تأخذ تلك الصورة المعلقة في الطابق العلوي.. أعني صورة جدتك الجميلة. أعتقد أنه ليس من حقي أن أحتفظ بها إذا كنت ترغب في اقتنائها، إنها تشبهك على نحو عجيب».

قال ويل مضطرباً: «إنك لطيفة جدًّا.. كلا... إنها لا تهمني في شيء. فليس من المواساة أن يقتني المرء ما يشبهه، إلا أنها ستكون مواساة أكبر إذا ما أراد الآخرون اقتناءها».

«كنت أعتقد أنك تود إحياء ذكراها... كنت أعتقد..!»، توقفت دورثيا فجأة، فلقد أنذرها خيالها بالابتعاد عن تاريخ الخالة جوليا. «بالتأكيد... لا بد من أنك ترغب في اقتناء الصورة كذكرى لأسرتك».

«لماذا يجب أن أملك تلك... بينما لا أملك شيئاً آخر! فالرجل الذي لا يملك سوى حقيبة سفره.. عليه أن يحتفظ بذكرياته في رأسه».

كان ويل يتحدث من دون تحديد، فقد كان ينفس كربه. لقد كان مزعجاً له أن تقدم له صورة جدته في تلك اللحظة، ولكن بالنسبة إلى مشاعر دورثيا فقد كان لكلماته أثر لاذع، فقد نهضت وقالت بقليل من الصلف والعجرفة: «إنك أسعد مني كثيراً يا سيد لادسلو وأنت لاشيء لديك».حدق بها ويل مندهشاً، إذ مهما كانت الكلمات، فنبرة صوتها كانت توحي بنوع

من الطرد، فغير من وضعية اتكائه، وسار قليلاً نحوها، فتلاقت نظراتهما بجاذبية متسائلة بغرابة، لماذا كان هناك شيء يبقي تفكيرهما بعيدين من بعضهما بعضاً، وكان كل منهما يخمن ما يدور في ذهن الآخر. لم يفكر ويل في أن له حقًّا في الإرث الذي تملكه الآن دورثيا، وهو يحتاج إلى شرح لكي يفهم مشاعرها الحالية.

قال: «لم أشعر في حياتي أنه من سوء حظي ألّا أملك شيئاً حتى الآن... ولكن يمكن للفقر أن يكون بسوء مرض الجذام، فهو يفصلنا عن أكثر ما نهتم به»... لقد مزقت كلماته قلب دورثيا، فجعلتها ترق، فأجابت بنبرة حزينة:

«يأتي الأسى بطرق كثيرة، فمنذ عامين لم أفكر في هذا كله بتاتاً... أعني الطريقة غير المتوقعة، التي تأتي من خلالها المتاعب والمشاكل فتقيد أيدينا وتجعلنا صامتين عندما نشتاق للحديث. كنت أزدري النساء قليلاً لأنهن لا ينظمن حياتهن أكثر، ولا يقمن بأعمال أفضل. كنت مغرمة بفعل ما أحب، لكنني تقريباً تخليت عن ذلك». أنهت كلامها مبتسمة له.

«إنني لم أتخل عن فعل ما أحب، ولكن نادراً ما أستطيع القيام به». قال ذلك ويل وهو يقف على بعد ياردتين عنها وقد انتابت تفكيره رغبات وقرارات متضاربة كثيرة... راغباً في أن يبرهن بالدليل القاطع على أنها تحبه، إلا أنه كان يخشى من الوضع الذي يمكن أن يضعه فيه ذلك الدليل... «أكثر ما يمكن للفرد أن يشتاق إليه، يمكن أن يكون محوطاً بظروف قد لا تحتمل»... في هذه اللحظة دخل برات وقال: «السير جتم في المكتبة يا مدام».

قالت دورثيا مباشرة: «اطلب من السير جيمس أن يأتي إلى هنا». لقد بدا وكأنما أصابتهما الصدمة الكهربائية نفسها. لقد كان كل منهما مقاوماً، فلم ينظر إلى الثاني وهما ينتظران دخول السير جيمس. بعد أن صافح دورثيا انحنى قليلًا جدًّا للادسلو، فرد عليها الثاني بمثلها تمامًا، ثم توجه إلى دورثيا وقال: «ينبغي أن أقول وداعاً يا سيدة كزابون ربما لمدة طويلة».

مدت دورثيا يدها وقالت بود: «... وداعاً».

طريقة انتقاص السير جيمس من ويل، ووقاحة تصرفه تجاهه نالت من ثباتها ووقارها... إلا أن ذلك لم يمس تصرفاتها، فعندما غادر ويل الغرفة نظرت إلى السير جيمس وهي متماسكة بهدوء تام، وقالت:

«كيف حال سيليا؟». كان عليه أن يتصرف وكأن شيئاً لم يضايقه، وإلا ما جدوى التحكم في التصرف؟

حقًّا... لقد تضايق السير جيمس بشدة من التقاء دورثيا بويل كحبيب لها، حتى لو كان ذلك في مجرد نطاق التفكير، وقد تمنى ألّا يظهر استياءه، مما يمكن أن يعكس معارضته المحتملة. لو سأله أحد لماذا تضايق بتلك الطريقة، لست متأكدة من أنه سيقول في البداية شيئاً أدق أو أوضح من: «... لادسلو هذا!»، على الرغم من أنه يمكن أن يقول بعد تفكير عميق: إن ملحق وصية كزابون، الذي يمنع زواج دورثيا من ويل... إلا إذا كان ذلك بثمن... كان كافياً أن يجعل أيّ علاقة بينهما غير لائقة. كان مرد تنامي مقته وكراهيته لعدم قدرته على التدخل.

كان السير جيمس يشكل قوة لم يدركها هو نفسه من خلال دخوله في تلك اللحظة، فقد جسد أقوى الأسباب، التي حولت كبرياء ويل إلى قوة رافضة، وأبقته بعيداً من دورثيا.

الفصل الخامس والخمسون

مادام عندها أخطاؤها...

فإنني أتمنى أن يكون لديك مثلها...

ولاسيما أن لها رائحة الفاكهة...

كرائحة أفضل الزهور...

بل قل إنها كالنار المتجددة...

التي حولت المادة السوداء الصلبة إلى سبيل بلوري للشمس...

إذا كان الشباب فصلاً للأمل، فهو غالباً ما يكون كذلك فقط لأن من هم أكبر سناً يحدوهم الأمل بنا، ولأنه لا مرحلة من عمرنا، كمرحلة الشباب، نميل خلالها إلى الاعتقاد بأن مشاعرنا وفراقنا وقراراتنا ستدوم طوال حياتنا، وأنها لن تنتهي إلا بنهايتها.

كل أزمة تبدو أنها الأخيرة فقط لأنها حديثة العهد يقال لنا إن أقدم سكان البيرو ما كان ذعرهم من الزلازل ليتوقف حتى يعودوا يفكرون في الكثير القادم منها. لا تزال دورثيا تعيش مرحلة شبابها اليافع حيث لم تفقد عيناها، برموشها الطويلة، سحر بريقهما ونضارتهما، بعد أن ذرفت دموعاً غزيرة، بل ظلّت كوردة تفتحت للتو.

بدا فراقها عن لادسلو في ذلك الصباح أنه نهاية لعلاقتهما، فقد سافر بعيداً لسنين لا يعرف عددها، وإذا ما عاد فهو سيكون رجلاً آخر. لقد بقيا في منأىً كاملٍ عن تفكيرها بإمكانية لجوئه بتصميمه المغرور إلى الكذب المسبق كي يبعد الشكوك عنه، في نواياه كمغامر يلاحق امرأة غنية، فقد عزيت جميع تصرفاته إلى أن ملحق وصية كزابون كان بالنسبة إليه كما هو إليها، بمثابة تحريم قاس وجسيم لأيّ صداقة بينهما. بهجتهم اليافعة في تحدثهما بعضهما إلى بعض وقولهما ما لا يجعل الآخرين يأبهون بالسماع إليه قد انتهى إلى الأبد وأصبح بمثابة كنز من الماضي. لقد فكرت في هذا السبب بعمق شديد ولكن دون تركيز. لقد

ماتت تلك السعادة الفريدة أيضاً، ففي حجرتها الصامتة والمعتمة استطاعت أن تخفف من حزنها العاطفي، الذي تعجبت منه هي نفسها.

لأول مرة أنزلت الصورة من على الحائط وأبقتها أمامها راغبة بالدمج بين المرأة التي حكم عليها بقسوة، مع الحفيد الذي دافع عنه قلبها وحكمها عليه. هل يمكن لأحد ممن يستمتعون برقة النساء أن يعتبر أخذها للصورة البيضاوية الصغيرة، وجعل يدها فراشاً لها لتضع وجنتها عليها، وكأن ذلك سيخفف عن المخلوقة التي عانت من إدانة ظالمة..؟ هل يمكنه أن يعتبر هذا كله توبيخاً لها؟ إنها لم تعرف حينذاك أنه هو الحب الذي داهمها فجأة... ولمدة قصيرة، كما يأتي في الحلم مع تدرج ضوء الصباح على جناحيه قبل أن تستيقظ... فذلك الحب الذي كانت تنتحب وداعاً له... بينما كانت تختفي صورته تحت قسوة ضوء النهار الذي لا يقاوم... لقد شعرت أن هناك خطأً لا يمكن إنكاره وشيئاً ضائعاً في قدرها، وأن آراءها حول المستقبل قد تحولت بسرعة إلى قرارات وتصميم... فإن أصحاب الأرواح المتحمسة، الذين هم مستعدون دائماً لبناء حياتهم، يميلون إلى الالتزام بتنفيذ آرائهم.

عندما ذهبت يوماً لتقضي ليلة في فريشت... كما وعدت، لترى الطفل يأخذ حمامه، جاءت السيدة كادولدر لتتناول العشاء هناك بعد أن ذهب القس في رحلة صيد للسمك. لقد كان مساءً ساخناً، فحتى في غرفة الاستقبال المبهجة، حيث يمتد أمام نافذتها المرج الأخضر ليصل إلى حوض الزنبق المائي، وهضبة صغيرة زرعت بعناية، كانت الحرارة شديدة إلى حدّ جعل سيليا، التي كانت ترتدي رداءً أبيض صنع من الموسلين وترسل شعرها منسدلاً، أن تشفق على دودو بثيابها السود وقبعتها الضيقة. إلا أنها لم تقل شيئاً حتى انتهت من رعايتها لطفلها، وأصبح فكرها خالياً. جلست ممسكة بيدها مروحة قبل أن تقول بصوتها الهادئ:

«عزيزتي دودو...! اخلعي عنك تلك القبعة، فأنا متأكدة من أن ذلك اللباس يجعلك تشعرين بالمرض».

قالت دورثيا مبتسمة: «لقد اعتدت على هذه القبعة، فهي الآن بالنسبة إلي وكأنها محارة... فعندما أنزعها أشعر وكأنني عارية نوعاً ما».

«يجب أن أراك بدونها، إنها تجعلنا جميعاً نشعر بحرارة الطقس».. قالت هذا سيليا ملقية بمروحتها جانباً، وذاهبة نحو دورثيا. لقد كان منظر تلك السيدة الصغيرة بردائها الأبيض جميلاً وهي تخلع قبعة الحداد من على رأس أختها الأكثر وقاراً، وتلقي بها تحت

الكرسي. تماماً عندما ظهرت خصلات شعرها البني الغامق دخل السير جيمس، فنظر إلى الشعر المرسل وقال «آه...!» بنبرة تنم عن الرضى:

قالت سيليا: «إنها أنا من فعلت ذلك يا جيمس... لا ينبغي لدودو أن تستعبد نفسها بذلك الحداد، فيجب ألا ترتدي تلك القبعة ثانية وبين أحبائها».

قالت ليدي جتم: «يا عزيزتي سيليا... ينبغي للأرملة أن ترتدي ثياب حدادها لسنة على الأقل».

«إلا إذا تزوجت قبل ذلك». هذا ما قالته السيدة كادولدر التي كانت تستمتع بإغاظة صديقتها الأرملة. كان السير جيمس متضايقاً ومنحنياً إلى الأمام يلاعب كلب سيليا المالطي.

«أتمنى أن يكون ذلك نادراً جدًّا»... قالت ليدي جتم بنبرة احتراس من حدوث مثل هذا الشيء:... «لم تتصرف أيّ واحدة من معارفنا هكذا باستثناء السيدة بيفر»، ولقد سببت بتصرفها هذا ألماً شديداً للورد جرينزل، ولا سيما أنه لم يكن هناك أي اعتراض ضد زوجها الأول، مما سبب تساؤلاً أكبر، ولقد عقبت على ذلك بقسوة شديدة.. فهم يقولون إن الكابتن بيفر كان يشدها من شعرها ويشهر عليها مسدساتٍ محشوة بالرصاص».

«آه... لقد تزوجت من الرجل الخطأ»، قالت ذلك السيدة كادولدور التي كانت في مزاج ماكر متعمد: «إذاً... فالزواج دائماً سيئ، إن كان الأول أو الثاني، فالأولوية تكمن في تزكية سيئة لدى رجل ليس أمامه خيار ثانٍ. إنني أفضل أن أحصل على زوج ثانٍ على أن يكون لدي زوج أول متعب».

قالت ليدي جتم: «يا عزيزتي..! إن لسانك يوقع بك. إنني متأكدة من أنك ستكونين آخر امرأة تتزوج قبل أن تنتهي مدة حدادها إذا ما كتب للقس الموت».

«لن أقطع وعوداً. ربما كان ذلك احتياطاً ضروريًّا. أعتقد أن القانون يسمح بالزواج ثانية وإلا لغدونا هندوسيات بدلاً من أن نكون مسيحياتٍ. بالطبع لو قبلت المرأة برجل غير مناسب، فلا بد لها من أن تتحمل العواقب، ومن تتزوج مرتين، فهي تستحق قدرها، ولكن إذا كانت تستطيع الزواج من شاب يافع وسيم وشجاع فالأفضل أن يكون ذلك بأقرب وقت ممكن».

قال السير جيمس مع نظرة اشمئزاز: «أعتقد أنه قد أسيء اختيار موضوع حديثنا،

أعتقد أننا يجب أن نغيره».

«ليس على حسابي يا سير جيمس» قالت دورثيا مصممة على ألّا تفقد فرصة تحرير نفسها من إشاراتٍ غير مباشرة إلى رجال يناسبونها... «إذا كنتم تتحدثون بالنيابة عني، فيمكنني أن أؤكد لكم أنه لا يوجد موضوع يزعجني أكثر من الحديث عن زواجٍ ثانٍ، فهو لا يعنيني أكثر مما لو تحدثتم عن نساء يذهبن إلى صيد الثعالب.. لو كان يثير إعجابهن أو لا، فإنني لن ألحق بهن. أرجوكم أن تدعوا السيدة كادولدر تستمتع بالحديث حول هذا الموضوع كما تستمتع بحديثها حول المواضيع الأخرى».

قالت ليدي جتم بأبهى طرقها: «يا عزيزتي السيدة كزابون، أتمنى ألاّ تعتقدي أنه كان هناك أي تلميح إليك عندما ذكرت السيدة بيفر. لقد كانت مجرّد حادثة خطرت في ذهني، وهي كانت ابنة زوجة اللورد جرسنزل. لقد تزوج من السيدة تيفروي كزوجة ثانية له، فلا يمكن أن يكون أي تلميح إليك».

قالت سيليا: «آه... كلا!!!... لم يختر أحدنا الموضوع، لكنه جاء نتيجة لقبعة حداد دودو، ولقد قالت السيدة كادولدر فقط ما هو حقيقي من أن المرأة لا تستطيع أن تتزوج ثانية وهي لا تزال ترتدي قبعة الحداد يا جيمس».

قالت السيدة كادولدر: «تمهلي يا عزيزتي!.. أنا لن أسيء ثانية، فأنا لن ألمح ديدو أو زنوبيا فقط... حول ماذا كنا نتحدث؟ بالنسبة إلي فإنني أعارض النقاش في موضوع الطبيعة الإنسانية لأن ذلك من طبيعة زوجات القساوسة».

في مساء اليوم نفسه بعد أن ذهبت السيدة كادولدر قالت سيليا لدورثيا وهما لوحدهما: «حقًّا.. إن خلعك لقبعتك يا دودو قد جعلك تعودين إلى طبيعتك بأكثر من طريقة، فكنت تعبرين عن نفسك تماماً كما كنت تفعلين في السابق، حين كان يقال شيء يغضبك. إلا أنه كان من الصعب علي أن أحدد من الذي أسأت الظن به أهو السير جيمس أم السيدة كادولدر».

قالت دورثيا: «ليس أي منهما. فقد تحدث جيمس معي بلباقة، لكنه أخطأ بافتراضه إنني قد اكترثت لما قالته السيدة كادولدر. إنني آبه فقط إذا ما كان هناك قانون يلزمني بالزواج من شاب وسيم تزكيه هي أو أي أحد آخر».

«ولكن هل تعلمين يا دودو...؟ إذا ما تزوجت يوماً فمن الأفضل دائماً أن تتزوجي من شاب وسيم..». قالت هذا سيليا قاصدة أن السيد كزابون لم يكن يتمتع بهذه السمات وإنه من المستحسن أن يتم تحذير دورثيا في الوقت المناسب..

«لا تقلقي يا كيتي، فلدي أفكار كثيرة في حياتي، وأنا لن أتزوج ثانية». قالت ذلك دورثيا وهي تمسك بذقن أختها وتنظر إليها بحب قوي. كانت سيليا ترعى طفلها، ودورثيا جاءت لتقول لها تصبحين على خير. قالت سيليا: «حقًّا يادودو...؟ أبداً... لا أحد على الإطلاق حتى إذا كان رائعاً حقاً».

هزت دورثيا رأسها ببطء: «لا أحد على الإطلاق، فلدي خطط ممتعة، فأنا أنوي أن أقتطع أرضاً كبيرة وأقيم فيها التصريف الصحي، فأجعلها مستعمرة صغيرة حيث ينبغي للجميع أن يعمل وينبغي أن ينجز العمل جيداً. يجب أن أعرف الجميع وأكون صديقة لهم جميعاً. سأطلب من السيد جارث نصائح كثيرة جدًّا، فهو يستطيع أن يخبرني تقريباً كل شيء أحتاجه».

قالت سيليا: «إذاً ستكونين سعيدة مادام لديك خطة يا دودو..؟ ربما سيحب آرثر الصغير الخطط عندما يكبر، فعندها سيكون بإمكانه مساعدتك»... ثم أخبرت زوجها السير جيمس في الليلة نفسها أن دورثيا تعارض الزواج ثانية من أي رجل، وأنها ستقدم على تنفيذ خططها تماماً كما كانت تفعل في الماضي. لم يبد السير جيمس أي تعليق، ولكن في شعوره الداخلي كان هناك شيء يثيره ضد الزواج للمرة الثانية ولن يمنعه أي زواج مناسب من أن يشعر أن ذلك بمثابة تدنيس لدورثيا. كان يدرك أن العالم سيعتبر هذا الرأي محالاً، ومنافياً للعقل خصوصًا عندما يتعلق الأمر بامرأة في الحادية والعشرين من عمرها؛ فالناس يعتبرون زواج الأرملة الشابة أمراً أكيداً، وربما قريباً، وهم يبتسمون بخبث إذا ما تصرفت الأرملة وفقاً لذلك، ولكن إذا ما قررت دورثيا التعلق بوحدتها فإنه كان يشعر أن قراراً كهذا يعود إليها تماماً.

الفصل السادس والخمسون

كم هو سعيد...

إذا ولد وتعلم أن لا يخدم إرادة أحد...

وأن تفكيره الصادق هو درعه...

وأن صدقه البسيط هو مهارته الوحيدة...

هذا الرجل قد تحرر من قيد العبودية...

على أمل النهوض، أو من خوف السقوط...

فهو سيد نفسه بالرغم من أنه ليس سيد أرض...

ولا يملك شيئاً إلا أنه غنيّ بكل شيء...

سير هنري وتُن

لدى سماع دورثيا نبأ تثمين السيد جارث لفكرتها حول البيوت الريفية، تشكلت لديها ثقة بخبرته، راحت تتنامى أثناء إقامتها في فريشت، كما أن السير جيمس قد شجعها على التجول في المقاطعتين بصحبته وصحبة كيلب، الذي بادلها الإعجاب نفسه، إذ قال لزوجته: إن السيدة كزابون تتمتع بقدرات ذهنية على العمل الحر.. لا تتمتع به امرأة أخرى. يجب التذكر أن كيلب لم يقصد من خلال العمل الحر كسب المال بل قصد المهارة في العمل.

كرر كيلب: «شيء غير طبيعي... هناك شيء كنت دائماً أفكر فيه بنفسي حين كنت شاباً يافعاً: يا سيد جارث، إنني أحب أن أشعر، عندما أبلغ سن الشيخوخة لو كتب لي ذلك، أنني قد حسنت قطعة كبيرة جدًّا من الأرض، ببناء بيوت ريفية جيدة وكثيرة، لأن طبيعة العمل هي شيء صحي أثناء تنفيذه، وعندما يستكمل تنفيذه، يكون مصدر نفع للناس. بتلك الكلمات عبرتُ عن طريقة تفكيري في الأشياء».

قالت السيدة جارث وقد انتابها بعض الشك بإمكانية عدم تمسك السيدة كزابون بمبدأ الخضوع: «ولكن أتمنى أن تكون بطريقة أنثوية...».

قال كيلب وهو يهز رأسه: «آه... لا يمكنك أن تتوقعي! لا بد من أن تحبي سماع حديثها يا سوزان، فهي تتحدث بصراحة وبساطة، وصوتها يشبه الموسيقى. يا إلهي! إنه يذكرني بمقطوعات من ألحان الكنيسة» وفجأة يهبط عدد غزير من سكان السماء، يمجدون الرب، ويقولون: يرافقها لحن يشنف أذنيك».

لقد كان كيلب مولعاً جدًّا بالموسيقى، فكلما توافر لديه مبلغ كاف، ذهب ليستمع إلى أي موشحة دينية أصبحت في متناول يده، ثم يعود وهو يحمل في نفسه توقيرًا وتبجيلًا لذلك اللحن العظيم، مما يجعله يجلس بعد ذلك متأملاً.. وهو ينظر إلى الأرض ويتبادل لغة بكماء مع يديه.

بهذا التفاهم الجيد بينهما، كان من الطبيعي أن تطلب دورثيا من السيد جارث أن يتعهد العمل في الحقول الثلاثة، والعدد الكبير من الشقق المتصلة بمنزل منر، فهكذا قد تحقق أمله في العمل على صعيدين. فكما قال: «إن العمل يتكاثر». فقد بدأ عندها أحد الأعمال يتكاثر ببناء سكة حديدية.. إذ اقترح بناء خط حديدي عبر لُويك، حيث كانت ترعى قطعان الماشية بأمن وسلام، وهكذا الصراعات الوليدة حول نظام السكة الحديدية في شؤون السيد جارث، وحددت تاريخ علاقته مع شخصين عزيزين عليه. لا بد من أن يواجه بناء الخط الحديدي صعوبات، كما لو كان في قاع البحر، إذ سيطالب مالكو الأراضي تعويضاً لخسائرهم ليست المادية فحسب، بل العاطفية كذلك في جميع أنحاء الإقليم الذي تقع فيه مدل مارش.

أصبح موضوع بناء السكة الحديدية مثيراً كموضوع وثيقة الإصلاح أو الأخطار المحدقة لمرض الكوليرا، وأكثر المهتمين في هذا الموضوع كانوا من النساء ومالكي الأراضي. لقد كانت النسوة جميعهن.. المسنات والشابات منهن، تعتبر السفر بوسيلة نقل تعمل على البخار تحدياً وخطراً كبيرين، وكن يجادلن معترضات عليه قائلات: إنه لا يمكن لشيء أن يجبرهن على الركوب في عربة قطار. بينما كان اختلاف مالكي الأراضي في نقاشاتهم.. كما اختلف سليمان فيذرستون مع اللورد متلكوت، أو كما كان يختلف مالكو الأراضي حول بيع أراضيهم لعدو البشرية، أو لشركة مجبرة على الشراء، فهؤلاء الوكلاء الضارون يجب عليهم أن يدفعوا ثمناً باهظاً لمالكي الأراضي مقابل إلحاقهم الأذى بالجنس البشري.

ولكن منهم من هو أقل فطنة كالسيد سليمان والسيد وول، اللذين كانا يملكان أراضي، قد أخذوا وقتاً طويلاً حتى وصلوا إلى هذه النتيجة.. فقد توقف تفكيرهم عند فكرة السؤال:... ماذا يمكن أن يحدث لو قسم المرعى إلى جزءين مثلثي الشكل وأصبح ذلك أمراً محتوماً... بينما تكلفة بناء الجسور والتعويضات كانت ضئيلة جدًّا ولا تصدق. «ستضيع الأبقار جميع ولاداتها يا أخي».. هذا ما قالته السيدة وول بنبرة حزينة جدًّا: «إذا مر الخط الحديدي بالقرب منا، فلن أعجب إذا وضعت الفرس مهرًا قبل أوانها. سيكون من المحزن إذا قسمت ملكية أرملة ولا يقف إلى جانبها القانون. ما الذي سيوقفهم عندما يبدؤون بتقسيم الأراضي يميناً وشمالاً؟ إنه معروف جدًّا أنني لا أستطيع أن أقاتل».

«ستكون أفضل طريقة ألا نقول شيئاً، ونعين شخصاً يصرخ في آذانهم حتى يبعدوا عنا عندما يأتون ليتلصصوا ويقوموا بقياس الأراضي». قال سليمان: «لقد فعل أهالي براسنغ هذا على ما علمت. إنه لمن الكذب عندما يقولون إنهم مجبرون على شق طريق محدد، فليذهبوا ويشقوا ذلك الطريق عبر أبرشية أخرى. لا أؤمن بأي مبلغ يمكن أن يعوض خسارتنا التي نتكبدها في محاصيلنا جراء دهس الهمجيين لها. أين جيوب الشركات...؟».

«فليغفر الرب لأخي بيتر فقد حصل على مال من إحدى هذه الشركات» قالت السيدة وول: «ولكن كان ذلك مقابل التنقيب عن المنغنيز، ولم يكن مقابل بناء سكة حديدية تقطع الأراضي يميناً وشمالاً».

«حسناً...! هناك كلام يجب أن يقال يا جين». استنتج سليمان بصوت منخفض وبطريقة تحذيرية... «كلما وضعنا في طريقهم عراقيل أكثر، جعلناهم يدفعون لنا أكثر مقابل متابعتهم لعملهم إذا ما أجبرنا على ذلك».

لقد جاء هذا التعليل من السيد سليمان أكثر مما توقع هو نفسه. فمكره في شأن بناء السكة الحديدية، يشبه مكر الدبلوماسي في ربطه بين النزلة الصدرية والنظام الشمسي. إلا أنه بدأ بالترويج لأفكاره من خلال إثارته للشكوك. كانت أرضه أكثر بعداً من القرية، وبيوت العمال كانت عبارة عن بيوت ريفية متناثرة، أو متقاربة جدًّا بعضها من بعض... فتدعى (فريك) حيث تقع الطاحونة المائية. بالإضافة إلى حفر صخرية صغيرة تشكل مركزاً لصناعة بدائية.

نتيجة عدم المعرفة الواضحة بالسكة الحديدية، كان سكان بيوت الـ(فرِيك) ضد

إنشائها لأن العقل البشري في تلك الزاوية العشبية لم يكن يميل إلى الإعجاب بالمجهول، معتبراً أن ذلك سيكون ضد الإنسان الفقير، فأفضل طريق ينبغي أن يسلكه هو الشك. وحتى إشاعة الإصلاح لم تثر اهتمام ولا توقعات سكان بيوت الـ(فريك) إذا لم تتضمن وعوداً، كالوعد بتأمين علف مجاني يمكن أن يسمن خنزير هيرم فورد، أو كوعد صاحب الحانة بتقديم الجعة مجاناً، أو كوعد مالكي الأراضي المجاورة بدفع أجور أكبر خلال فصل الشتاء. فبدون تمرير وعود إيجابية واضحة، يظل الإصلاح بالنسبة إليهم يشبه تباهي البائع المتجول الذي كان موضع اتهام الجميع. لم يكن سكان بيوت الـ(فريك) فقراء جداً إلى حدّ المجاعة، وكان تعصبهم أقل مستوى من شكهم، وقد كانوا يعتقدون أن السماء لم تكترث لهم على وجه الخصوص.

لقد كان هذا النوع من التفكير لدى سكان الـ(فريك) هو الذي يحتاجه سليمان كي يستخدمه، فقد كان لديه كثير من الأفكار ذات الطبيعة نفسها، كما كان لديه شك في السماء والأرض أقوى وأكثر إثارة. كان يعمل سليمان في ذلك الوقت مراقباً للطرق، فعلى جواده البطيء غالباً ما كان يتجول قريباً من (فريك) ليشاهد العاملين وهم يقلعون الصخر هناك، فكان عادة يتوقف متأملاً بغموض مما يمكن أن يضلك، إذا ما رأيته، فلا يخطر في بالك أن سبب وقوفه هناك عدم وجود ما يدفعه للتحرك، وبعد أن يقضي وقتاً طويلاً في التمعن والنظر، كان يرفع نظره إلى الأفق، ثم يهز لجام حصانه ويلمسه بسوطه ليجعله يتحرك ببطء، فقد كانت حركة ساعد الساعة.. سريعة إذا ما قيست بحركة سليمان، الذي كان يتمتع بقدرة على التباطؤ الشديد. لقد كانت لديه عادة مستحبة في التوقف مع أي شخص يصادفه في طريقه بهدف التحدث إليه، كما كان يرغب في سماع الأخبار حتى تلك التي سمعها من قبل، لأنه كان يعتقد بقدرته على عدم تصديقها كلياً. في أيّ حال... فقد دخل في أحد الأيام في حوار مع سائق إحدى العربات:... هيرم فورد، وقد حظي ببعض المعلومات من عنده. إذ كان يرغب في أن يعرف ما إذا كان هيرم قد شاهد رجالاً يتلصصون حاملين معهم أدواتٍ وعصيّاً، ويدعون أنفسهم عمال السكك الحديدية، ولكن لم يعرف تماماً من هم، وماذا يريدون فعله. فأقل ما يدعون فعله هو أنهم سيقطعون لُويك إلى ستة أجزاء أو سبعة.

قال هيرم قلقاً حول عربته وخيله: «لن يصبح التنقل ممكناً من مكان إلى آخر»...

قال السيد سليمان: «نهائيًّا...!!!! كما أن تقطيع أرض جميلة كهذه الأرض... إنني أقول

فليذهبوا إلى تبتن. ولكن لا يعرف ماذا يراد من ذلك. إنهم يدعون تسهيل السفر والتنقل، ولكن في حقيقة الأمر هو إيذاء الأرض والناس الفقراء».

«إنهم رجال جاؤوا من لندن على ما أعتقد»... قال هذا هيرم الذي لديه فكرة غامضة حول لندن كمركز حقد على البلاد.

«إنني متأكد من ذلك. لقد سمعت بعضهم يقول إن الناس قد هجموا عليهم وهم يتجسسون في براسنغ وكسروا لهم مناظيرهم ثم طردوهم، فهكذا عرفوا أن عودتهم أصبحت مستحيلة».

قال هيرم، الذي كانت تقيد الظروف استمتاعه: «لا بد من أن ذلك كان ممتعاً جدًّا».

قال سليمان: «حسناً.. ما كنت لأتحرش بهم... لكن بعضهم يقول إن هذه البلاد قد شهدت أفضل أيامها... والدليل على انقضائها هو عبث هؤلاء الرجال فيها يميناً وشمالاً، مقطعين أوصالها بالسكك الحديدية، وهدف ذلك كله أن تلتهم طرق السفر الكبيرة جميع الطرق الصغيرة، فلا يبقى هناك سائقو عربات».

قال هيرم بينما كان سليمان يهز لجام حصانه ليذهب: «سأكسر سوطي على رؤوسهم قبل أن ينفذ ذلك».

لا تحتاج بذور النباتات الشوكية إلى الزراعة... لم يناقش موضوع تخريب البلاد من خلال بناء سكك حديدية في منطقتي ويتس وسكيلز فقط. ولكن حتى في حقل القش حيث وفر تجمع العمال فرصة مناسبة للحديث، قلما تتوافر طوال السنة الريفية.

في صباح أحد الأيام التي تلت لقاء السيد فيربرذر بماري جارث، حيث أفصحت عن مشاعرها تجاه فرِد فنسي، حدث أن أباها قد قاده عمل إلى مزرعة يودريل في تجاه (فريك).. فقد كان ذاك العمل هو أن يقوم بقياس قطعة أرض وتقييمها تتبع ملكيتها لمنزل لُويك منر، وليبين مزاياها لدورثيا (يجب الاعتراف أن هدفه كان أن يحصل على أفضل تعويض ممكن من شركة الخطوط الحديدية).

لقد ترك عربته في يودرل، وعندما سار مع مساعده وهما يحملان مقياس الأراضي إلى قطعة الأرض المعنية، صادف مجموعة وكلاء الشركة ينصبون مقياس التسوية، وبعد نقاش قصير تركهم مدركاً أنهم بعد قليل سيلحقون به حيث يقوم بعمله. حدث ذلك بعد

صباح غائم هطل فيه المطر قليلاً، ثم في الساعة الثانية عشرة، راحت الغيوم تتبدد لتمنح باقي اليوم جمالاً وسحراً حيث بدأت نسمات عليلة تهب عبر الممرات والأسوار المحيطة بالأراضي. كان عبق الهواء أكثر عذوبة لفرِد فنسي، الذي جاء عبر الممرات على ظهر حصانه، لو لم تتعب فكره محاولات فاشلة بما ينبغي أن يفعله، ولا سيما أن أباه كان يتوقع منه أن يعمل مباشرة في الكنيسة، وكانت ماري من جهة أخرى تهدده بالتخلي عنه إذا ما التحق بالكنيسة، فضلًا عن ذلك ما كان عالم العمل يبدي اهتماماً بشاب لا يملك رأس مال ولا خبرة.

لقد كان هذا أشد قسوة على مزاج فرِد فنسي لأن أباه بدأ يعامله برفق بعد أن اعتقد أن فرِد لم يعد متمرداً، فأرسله في هذه الرحلة اللطيفة ليبحث عن كلاب صيد. حتى عندما يثبت رأيه على عمل يقوم به، يظل واجب إخبار أبيه يلاحقه.

إلا أنه يجب الاعتراف أن ثبات رأيه على عمل ما... الذي يجب أن يأتي أولًا... يبقى يشكل المهمة الأصعب.. أي عمل غير ديني وراقٍ ولا يحتاج إلى خبرة، ومربح في الوقت عينه، لم يستطع محبوه أن يؤمنوه له؟

بينما كان يمتطي جواده عبر الممرات المحاذية لـ(فريك)، وفكره منشغل في هذه الأمر، جعل حصانه يتباطأ في سيره قليلاً ليفكر متردداً ما إذا كان في إمكانه الذهاب إلى لُويك بنية أن يرى ماري. وبينما كان على هذه الحال كان ينظر إلى الحقول من فوق أسوارها. فجأة.. أثارت انتباهه ضجة، فاستطاع أن يرى في الطرف الثاني من الحقل الذي كان على يساره ستة رجال أو سبعة يرتدون ملابس فلاحين، ويحملون بأيديهم مذاري القش في حالة هجوم على عمال السكك الحديدية، الذين كانوا يقفون في مواجهتهم، بينما كان كيلب جارث ومساعده يركضان ليلتحقا بمجموعة العمال. تأخر فرِد للحظات... لأنه كان يبحث عن البوابة التي تقوده إلى الحقل، فهو لم يستطع أن يصل إلى مجموعة الفلاحين، الذين لم يعد أمر نقلهم للقش يشكل أهمية لهم بعد أن شربوا الخمر طوال منتصف يومهم، فراحوا يطاردون العمال مرعبين إياهم بمذاري القش. أما مساعد كيلب، الذي كان في السابعة عشرة من عمره والذي انتزع مقياس التسوية بناء على طلب من كيلب، قد ألقي به أرضاً وبدا عاجزاً عن الحركة.

لقد كان في استطاعة العمال الهروب، لولا أن غطى تقهقرهم فرِد، الذي فاجأ الفلاحين وأجبرهم على التقهقر. «ماذا تريدون أيها الحمقى الوقحون؟» صرخ فرِد مطارداً

المجموعة ومفرقاً إياهم يميناً وشمالاً بسوطه «إنني سأحجزكم جميعاً في المحكمة. لقد ألقيتم بالشاب أرضاً وقتلتموه على حد علمي. إنكم ستشنقون جميعاً في الجلسة القادمة من تطبيق العقوبات».. قال فرِد الذي قد ضحك بعد وقت عندما تذكر ما قاله. هرب الجميع عبر البوابة إلى حقل القش، الذي كانوا يعملون فيه، وتفحص فرِد حصانه عندما وجد نفسه في بعد آمن، استدار هيرم فورد وصرخ متحدياً كصرخة هوميروس إلا أنه لم يكن يدرك ذلك. «إنك لجبان... انزل عن حصانك أيها السيد الشاب، فإنني... سأواجهك. إنني سأفعل. ما كنت لتجرؤ على المجيء دون حصانك وسوطك. إنني سأقطعك مباشرة. إنني سأفعل».

«انتظر لحظة، فإنني سأعود مباشرة، وسأواجهكم جميعًا الواحد تلو الآخر إذا أردتم». قال ذلك فرِد الذي أصبح واثقًا من قدرته على الملاكمة، لكنه أراد الآن أن يعود إلى كيلب والشاب المنهك، الذي أصيب كاحله، وكان يتألم جدًّا، لكنه لم يصب بأذى آخر، فوضعه فرِد على الحصان ليذهب إلى يودريل فيعتني به هناك. قال فرِد: «دعهم يضعوا الحصان في الحظيرة، وقل للمسّاحين إن في إمكانهم أن يعودوا من مخبأهم، فالمكان آمن الآن».

قال كيلب: «كلا كلا... ها هنا كسر... فدعهم يتوقفوا جميعاً عن العمل اليوم، وكذلك الأمر بالنسبة إلينا. خذ الأشياء أمامك على الحصان يا توم، فهم سيرونك قادماً، عندها سيرجعون جميعاً».

«إنني سعيد جدًّا إذ كنت هنا في الوقت المناسب يا سيد جارث»، قال فرِد، بينما انطلق توم على الحصان «لا أحد يعلم ماذا كان يمكن أن يحصل لو لم يحضر الفارس في الوقت المناسب».

«نعم نعم...! لقد كان ذلك من حسن الحظ»، قال ذلك كيلب دون اكتراث وهو ينظر إلى الموقع الذي كان يعمل فيه.. «لكن هذه فرصة الشيطان عندما يكون الرجال حمقى. لقد منعت من متابعة عملي في هذا اليوم، إذ لا أستطيع أن أتابع دون أن يساعدني أحد في استخدام أداة القياس»... بدأ يتحرك نحو الموقع وهو مغتاظ جدًّا وكأنه نسي وجود فرِد، لكنه استدار مباشرة وسرعان ما قال: «ماذا تفعل هذا اليوم أيها الشاب؟».

قال فرِد، وقد شعر أنه يتودد لماري عندما يساعد أباها: «لا شيء يا سيد جارث... إنني سأساعدك بكل سرور، هل يمكنني ذلك؟».

«حسناً يجب عليك ألا تتضايق من الانحناء ولا التعرق».

«إنني لا أتضايق من أي شيء. فقط أريد أن أذهب أولاً، وأنازل ذلك الشاب الضخم، الذي تحداني، فإن ذلك سيكون درساً جيداً له. لن أغيب أكثر من خمس دقائق».

قال كيلب بنبرة حسم: «هذا هراء... أنا سأذهب وأتحدث إلى الرجال بنفسي. إن سبب ذلك كله هو الجهل. لا بد من أن أحداً قال لهم أكاذيب، فالحمقى المساكين لا يعرفون أفضل من هذا».

قال فرِد: «إنني سأذهب معك إذا».

«كلا كلا... ابق حيث أنت، فإنني لا أحتاج إلى عنفوان شبابك، فإنني أستطيع أن أتدبر أمري».

كان كيلب يتمتع بقوة جسدية جيدة، ولم يعرف الخوف باستثناء خوفه من إيذاء الآخرين وخوفه من إلقاء الخطب، لكنه شعر أن من واجبه في هذه اللحظة أن يحاول إلقاء محاضرة قصيرة.

لقد كان يعتمل في نفسه صراع داخلي جاء نتيجة كونه رجلاً مجداً في عمله، ويحمل أفكاراً قاسية حول العمل، كما كان ينهمك معهم في العمل، فكلما أراد منهم أن يقوموا بعملهم على أكمل وجه كان يحسن إليهم، فيكون إحسانه إليهم عاملاً أساسيًّا من عوامل سعادته، كما كان يتعامل معهم أيضاً كصديق.

عندما تقدم نحو العاملين، لم يكونوا قد عادوا إلى عملهم بعد، لكنهم كانوا يقفون على هيئة تجمعات الريفيين يدير أحدهم كتفه للآخر، على بعد ياردين أو ثلاثة ياردات. كانوا ينظرون بتجهم إلى كيلب الذي كان يسير مسرعاً وقد وضع إحدى يديه في جيبه ودس أصابع أخرى بين أزرار صدريته، وعندما توقف بينهم كان مزاجه هادئاً كعادته في كل يوم.

«لماذا يا أعزائي...؟؟ كيف حدث ذلك؟». بدأ كعادته بعبارات قصيرة، كانت تبدو له مليئة بالمعاني لأن كثيراً من الأفكار كانت تدور خلفها في ذهنه كجذور غزيرة لنبتة بدأت للتو تطفو فوق سطح الماء... «كيف حدث لكم أن ترتكبوا خطيئة كهذه؟ لا بد من أن أحداً قد قال لكم أكاذيب، فأصبحتم تعتقدون أن أولئك الرجال هناك يريدون بكم سوءاً».

«آه...!!!» ،كان يردد الجميع بين الآونة والأخرى:

«إن هذا هراء، إذ لا يوجد شيء كهذا...! إنهم يتفحصون كي يقرروا أين يبنون السكة الحديدية. في الواقع يا أعزائي... إنكم الآن لا تستطيعون منع بناء السكة الحديدية.. فإنها ستنشأ إن أحببتم أو لم تحبوا، وإذا ما حاولتم منع ذلك، فإنكم ستضعون أنفسكم في مشاكل. إن القانون يأذن لهؤلاء الرجال بالدخول هنا إلى أراضيكم، فمالك الأرض لا يستطيع منعهم من ذلك، وإذا ما عبثتم معهم، فعليكم أن تتعاملوا مع مركز الأمن والقاضي بلاكسلي، والقيود، وسجن مدل مارش، وربما كنتم الآن هناك لو أن أحدًا قد أبلغ عنكم..». توقف كيلب هنا، وربما أعظم خطيب متفوه لا يستطيع أن يختار وقتاً أفضل للتوقف ولا صوراً أفضل لهذه المناسبة.

«لكنكم لم تقصدوا الإساءة، فقد أخبركم أحد ما أن السكة الحديدية هي شيء سيئ. إن هذه أكذوبة.. ربما تلحق الأذى هنا أو هناك ولهذا أو ذاك، فهذا ما تفعله الشمس في السماء. إلا أن السكة الحديدية تبقى شيئاً جيداً».

«آه... إنها جيدة للناس الكبار فهي تزيدهم مالاً» قال تمثي كوبا العجوز الذي ظلّ في المؤخرة يقلب القش... بينما راح الآخرون يستمتعون «لقد شهدت أشياء كثيرة تظهر منذ كنت شاباً... الحرب والسلم والأقنية والملك جورج القديم، والإقليم والملك جورج الجديد، الذي حصل على اسم جديد، لقد كان ذلك كله سواء بالنسبة إلى الفقير... ماذا تعني الأقنية بالنسبة إليه؟ إنها لم تجلب له لحماً ولا خنزيراً ولا مرتباً يقتات منه. لقد أصبح الزمان عليه عصيباً أكثر منذ أن كنت شاباً، وهكذا سيصبح مع السكك الحديدية.

إنهم جميعاً يتركون الرجل الفقير وراءهم، لكنهم جميعاً حمقى كالمتطفلين، وهذا ما قلته للشبان هنا.. إن هذا العالم هو عالم الأغنياء. ولكن هل تساند الأغنياء يا سيد جارث؟ «لقد كان تمثي عاملاً عجوزاً ونحيفاً لكنه قوي من النوع النادر في تلك الأيام، ويحفظ مدخراته في جورب، وكان يعيش في كوخ منعزل، وما كانت تؤثر فيه الخطابة لأن روحه كانت عدائية قليلاً، كما كانت ثقته شبه معدومة وكأنه لم تكن له أيّ صلة بعصر الفكر وحقوق الإنسان. كان كيلب جارث يعاني من صعوبات يعرفها كل من كان يحاول، في عصور الظلام أن يستخدم عقله في مجادلة الريفيين البسطاء، الذين يعيشون حقيقة وضع لا يمكن إنكارها، ويعرفونها من خلال مشاعرهم، ويمكنهم أن يدعوها تسقط كهراوة ضخمة أمام مجادلتك المنمقة مقابل منفعة اجتماعية لا يفهمونها.

لم يكن كيلب يملك مالاً في متناول يده ليستخدمه عندما يشاء ؛ فقد اعتاد على

مواجهة جميع الصعوبات بطريقة واحدة، وهي أن يقوم بعمله بإخلاص. أجاب قائلاً: إذا كنت لا تحسن الظن بي يا تيم، فلا تبال، فإن الأمر لا يتعلق بهنا أو هناك. ربما تكون الأشياء سيئة بالنسبة إلى من هو فقير... وإنها لسيئة، لكنني أريد الناس هنا ألا يفعلوا أشياء تجعل الأشياء أسوأ بالنسبة إليهم. ربما يحمل القطيع أمتعة ثقيلة، ولكن لن يجديهم نفعًا إذا ما ألقوا بها إلى جانب الطريق ولا سيما أن جزءاً منها هو طعام لهم».

قال هيرم الذي بدأ يعي النتائج: «لقد كنا فقط نمازحهم... ذاك كل ما قصدناه».

«حسناً... عدوني أنكم لن تتدخلوا ثانية، وأنا أعدكم أنه لن يقدم أحد شكوىً ضدكم».

قال تمثي: «إنني لم أتدخل، فلا يجب علي أن أعد...».

«كلا، لكن الآخرين. إنني منغمس في عملي هذا اليوم جداً مثلكم، ولا يمكنني أن أقضي وقتاً أكثر من هذا. قولوا إنكم ستكونون هادئين دون الحاجة إلى مركز الأمن».

«إننا لم نتدخل... إذ يمكنهم أن يفعلوا ما يشاؤون»... هذا ما قاله الجميع فرداً فرداً لكيلب، ثم عاد مسرعاً إلى فرِد الذي كان قد لحق به ووقف عند البوابة يراقبه.

لقد ذهب إلى العمل، وساعد فرِد كيلب بنشاط، فقد اتقد حماساً، وقد استمتع كثيراً عندما زلت قدمه في بقعة طينية تحت سياج الشجر، مما لوث بنطاله الصيفي. هل كانت البداية الناجحة هي التي أبهجته...؟ أم كان رضاه عن مساعدته لأبي ماري؟ لقد كان شيئاً أكثر من ذلك. لقد ساعدت أحداث الصباح خياله المنهك أن يوجد تصوراً لعمل يمكن أن يسحره. لست متأكداً إذا كانت بعض تلافيف مخ السيد جارث قد استعادت ذبذباتها تجاه الغاية التي أفصحت عن ذاتها لفرِد، ولا سيما أن الحادث المؤثر كان بمثابة شرارة عند وقود قابل للاشتعال، وإن فرد كان مقتنعاً أن السكة الحديدية قد جلبت اللمسة الثمينة. لقد تابعا عملهما بصمت ودون أن يقولا شيئاً باستثناء ما كان ضروريًا بالنسبة إلى عملهما.

في النهاية وبعد أن انتهيا من العمل وكانا في طريق عودتهما قال السيد جارث: «لا يحتاج الشاب إلى إجازة جامعية كي يقوم بهذا العمل يا فرِد».

«أتمنى لو قمت به حتى قبل أن أفكر في الإجازة الجامعية»، هذا ما قاله فرِد، ثم صمت قليلًا ليضيف قائلا بتردد.. «هل تعتقد أنني تقدمت بالعمر حتى إنني لم أعد قادرًا على أن أتعلم مهنتك يا سيد جارث؟».

قال السيد جارث مبتسماً: «إن عملي متعدد الجوانب يا ولدي... إن جزءاً كبيراً مما أعرفه قد حصلت عليه من خلال خبرتي. إنك لا تستطيع أن تتعلمه كما تتعلم من كتاب، وإنك لا تزال شاباً، فيمكنك أن تضع أساساً». نطق كيلب جملته الأخيرة مؤكداً عليها، لكن نوعاً من التردد قد جعله يتوقف قليلاً. لقد تولد لديه انطباع حديث أن فرِد سيعمل في الكنيسة.

قال فرِد بشغف: «هل تعتقد أنني أستطيع أن أتقنه إذا ما حاولت...؟».

«هذا يعتمد..». قال كيلب وقد أدار وجهه جانباً بعد أن خفض صوته ليبدو وكأنه رجل سيقول شيئاً دينيًّا خالصاً: «يجب أن تتأكد من شيئين: يجب أن تحب عملك كما يجب، فعليك ألّا تنظر إلى غيره، وأن تنتظر دورك لتقوم به. أما الشيء الآخر فهو أنك يجب ألّا تخجل منه... معتقداً أن قيامك بعمل آخر سيشرفك أكثر. يجب أن تكون فخوراً بعملك وتتعلمه بدقة ولا تقول: يوجد هذا ويوجد ذاك... ولو كان لدي هذا أو ذاك لأقوم به لحصلت على شيء منه. عندها... أي لو كان ذاك الرجل عندي لما أعطيته بنسين... ». هنا ظهرت المرارة على فم كيلب، وراح يطقطق بأصابعه: «... لو كان رئيس وزراء أو صانع أسقف القش، إذا لم يقم جيداً بالعمل الذي تعهد به..».

قال فرِد قاصداً أن يتقدم بنقاشه مع كيلب: «أشعر أنني لن أستطيع أن أفعل ذلك عندما أكون رجل دين».

قال كيلب مشدداً: «إذًا دع عنك ذلك يا ولدي... وإلا لن تستريح، وإن شعرت براحة فإنك ستكون مسكيناً فقيراً».

قال فرِد وقد تلون وجهه: «هذا تقريباً ما تفكر فيه ماري... أعتقد أنك تعرف مشاعري تجاه ماري يا سيد جارث. أتمنى ألّا يزعجك أنني أحببتها دائماً أكثر مما أحببت أي شخص آخر، وإنني لن أحب أي إنسان آخر كما أحبها».

من الواضح أن تعابير وجه كيلب قد هدأت بينما كان يتحدث فرِد، ثم هز رأسه ببطء شديد وقال:

«هذا يجعل الأمور أكثر جدية يا فرِد... إذا أردت أن تحصل على سعادة ماري».

قال فرِد بشغف: «إنني أعرف ذلك يا سيد جارث... وإنني سأفعل كل شيء لأجلها،

إنها تقول إنها لن تتزوجني لو عملت في الكنيسة، وإنني سأكون أكثر شيطان تعس في العالم إذا ما فقدت أملي في الحصول على ماري. حقًّا لو استطعت أن أحصل على مهنة أخرى أو عمل حر أو أي شيء آخر يناسبني، لعملت بجهد كبير ولاستحققت عندها حسن ظنك بي. إنني حقًّا أحب الأعمال التي يتم تنفيذها خارج الأبنية. إنني أعلم الكثير حول الأراضي والقطعان. كنت دائماً أعتقد أنه يجب أن أحصل على أرض تكون ملكاً لي، ربما اعتقدت أنني أحمق بسبب ذلك، وإنني متأكد من أنه سيكون من السهل علي أن أحصل على معرفة من هذا النوع... خصوصًا لو استطعت أن أعمل بإشرافك بطريقة ما...».

قال كيلب وقد ظهرت أمام عينيه صورة سوزان: «تمهل يا ولدي... ماذا قلت لأبيك حول هذا؟».

«لا شيء حتى الآن، ولكن ينبغي أن أخبره. إنني أنتظر فقط لأعرف ماذا يمكن أن أفعل بدلاً من أن ألتحق بالكنيسة. إنني آسف جدًّا لخيبة أمله، ولكن ينبغي للرجل أن يحكم على نفسه عندما يكون في الرابعة والعشرين من عمره. كيف كان يمكنني أن أعرف حين كنت في الخامسة عشرة ما هو جيد بالنسبة إليّ الآن. لقد كان تعليمي خطأً».

قال كيلب: «ولكن أصغ لهذا يا فرِد...! هل أنت متأكد من أن ماري تحبك أو أنها ستحظى بك؟».

قال فرِد معتذراً: «لقد طلبت من السيد فيربرذر أن يتحدث إليها لأنها منعتني من الحديث معها، فما استطعت فعل أي شيء آخر. إنه يقول إن لدي أملاً كبيراً إذا ما وضعت نفسي في وضع مشرف؛ أعني خارج الكنيسة. إنني أجرؤ أن أقول إنه ليس من اللائق مني يا سيد جارث أن أسبب لك حرجاً عندما أبوح لك بأمنياتي بماري قبل أن أفعل أي شيء لنفسي، فبالطبع ليس من حقي أن أطلب، ولا سيما أنني مدين لك مسبقاً بدين، لن أعفى منه حتى لو سددته لك..مالاً».

قال كيلب وقد شاب صوته عطف شديد: «نعم يا ولدي.. إن لك الحق. للشباب دائماً حقوق على الكبار أن يساعدوهم في تقدمهم. لقد كنت شاباً يوماً وكان علي أن أحقق نجاحاً من دون أيّ مساعدة، لكنني كنت أرغب في المساعدة لو كانت فقط لأجل الصداقة، ولكن يجب أن آخذ في الاعتبار... تعال إلي غداً في الساعة التاسعة... انتبه.. إلى المكتب».

ما كان السيد جارث ليأخذ خطوة مهمة دون أن يستشير زوجته سوزان، ولكن يجب

الاعتراف أنه قبل وصوله إلى المنزل قد اتخذ قراره. بالنسبة إلى كثير من المسائل، التي يقرر حولها الرجال عادة، كان أسهل رجل يمكن إقناعه في العالم لم يكن يختار اللحم الذي يتناوله، وإذا ما قالت سوزان إنه يجب عليهم الانتقال لأجل العيش في منزل ريفي يتألف من أربع غرف بغية الادخار، لقال: «دعونا نذهب»... دون أن يسأل عن تفاصيل.

إلا أنه حين كان كيلب يعبر عن مشاعره وحكمه... كان صارماً في حكمه، وعلى الرغم من تساهله وجبنه عندما يوبخ، فإن الجميع من حوله كان يعرف أنه في حالات استثنائية، وعندما يريد، يكون صارماً جدًّا. لم يشأ أن يكون صارماً جدًّا إلا عندما يتحدث بالنيابة عن شخص آخر. كانت سوزان تتخذ القرارات بنفسها في تسع وتسعين حالة، وفي الحالة المئة كانت تدرك أن عليها أن تقوم بدور صعب فتصبح تابعة.

قال كيلب حين كانا جالسين لوحدهما في المساء: «لقد تبين الأمر كما كنت أعتقد يا سوزان». كان قد أخبرها بالحدث الذي جعل فرِد يساعده في عمله، لكنه أخفى عنها النتائج الأخرى... «إن الولدين مغرمان ببعضهما... أعني فرِد وماري».

وضعت السيدة جارث نسيجها على ركبتها، وثبتت نظرها بقلق نحو زوجها:

«بعد أن انتهينا من عملنا... شرح لي فرِد كل شيء، إنه لا يستطيع أن يكون رجل دين، وقالت ماري إنها لن تتزوج منه إذا ما أصبح رجل دين، والشاب يريد أن يعمل مساعداً معي ويتفرغ للعمل الحر. لقد قررت أن آخذه وأجعل منه رجلاً».

قالت السيدة جارث بصوت عميق يعبر عن دهشة شديدة: «كيلب...؟؟!».

قال السيد جارث وهو يتخذ لنفسه جلسة صارمة ممسكاً بجانبي أريكته: «إنه عمل جيد... سيحصل لي مشاكل بسببه، ولكن أعتقد أنني سأتغلب عليها. الشاب يحب ماري، والحب الحقيقي هو شيء عظيم لامرأة جيدة يا سوزان، فإنه يغير كثيرًا من طباع الشبان القاسين».

«هل تحدثت ماري إليك حول الموضوع؟»، تساءلت السيدة جارث وقد جرحت في داخلها لأن ماري لم تقل لها بنفسها.

«لم تقل كلمة. لقد سألتها مرة عن فرِد، وقد حذرتها قليلاً، لكنها أكدت لي أنها لن تتزوج من رجل عاطل عن العمل واتكالي... ولا شيء غير ذلك. ولكن يبدو أن فرِد قد طلب

من السيد فيربرذر كي يتحدث معها، لأنها منعته من التحدث إليها بنفسه، ولقد وجد السيد فيربرذر أنها تحب فرِد، لكنها قالت إنه ينبغي ألا يكون رجل دين. قلب فرِد متعلق بماري تماماً، وهذا ما أستطيع أن أراه.. هذا يجعلني أحسن الظن بالشاب. كما أننا دائماً كنا نحبه يا سوزان».

قالت السيدة جارث: «إن هذا مؤسف بالنسبة إلى ماري كما أظن..».

«لماذا مؤسف؟».

«لأنها يا كيلب... يمكن أن تحصل على رجل يعادل عشرين شاباً من فرِد فنسي».

قال كيلب مندهشاً: «آه؟».

«إنني أعتقد تماماً أن السيد فيربرذر يرغب فيها، وكان ينوي أن يتقدم بطلبها، ولكن بالطبع وقد استعان به فرِد كوسيط فقد وضع نهاية لهذا الأمر».

كان هناك دقة شديدة في نطق السيدة جارث. لقد كانت مغتاظة ومصابة بخيبة أمل، لكنها قررت الامتناع عن الحديث غير المجدي.

ظلّ كيلب صامتاً للحظات تحت وطأة صراع كان يدور في مشاعره. كان ينظر إلى الأرض ويحرك رأسه ويديه، معبراً عن جدل داخلي كان يعتمل في نفسه. أخيراً قال: «..كان سيسعدني ذلك ويجعلني فخوراً يا سوزان، ولكنت سعيداً لأجلك كذلك. كنت دائماً أشعر أن ما حصلت عليه ليس في مستوى ما تستحقين. لكنك تزوجت مني، على الرغم من أنني كنت رجلاً بسيطاً».

قالت السيدة جارث مقتنعة بأنها ما كانت لتحب أحداً لا يتمتع بتلك الصفات: «لقد تزوجت من أفضل وأذكى الرجال الذين عرفتهم».

«حسناً ربما اعتقد الآخرون أنه كان من الممكن أن تتزوجي من هو أفضل مني. إلا أن ذلك لكان أسوأ بالنسبة إليّ. وهذا ما يؤثر بي جدًّا حول فرِد. إن قلب الشاب لسليم، وهو على درجة كافية من الذكاء إذا ما وضع في الطريق الصحيح. وهو يحب ويتشرف بابنتي أكثر من أي رجل آخر، وهي قد قطعت له نوعاً من الوعد بحسب العمل الذي سيلتحق به. إنني أقول بأن أمر ذلك الشاب في يدي، وإنني سأفعل أفضل ما في وسعي لأجله لذلك

فليساعدني الرب!... إنه واجبي يا سوزان».

ما كانت عادة سوزان أن تبكي، لكن دمعة كبيرة انحدرت من عينيها قبل أن ينتهي زوجها من حديثه. لقد كانت تحت ضغط مشاعر كثيرة، كان يشوب بعضها الحنان وبعضها الآخر الغضب. جففتها بسرعة قائلة: «فقط قليل من الرجال بالإضافة إليك، يعتقدون أن من واجبهم أن يضيفوا إلى متاعبهم متاعب أخرى بهذه الطريقة يا كيلب».

«لا قيمة لهذا أبداً..! ما يفكر فيه الرجال الآخرون. لدي شعور واضح في داخلي وهذا ما سأتبعه، وأتمنى أن يتعاطف معي قلبك يا سوزان كي نذلل جميع الصعوبات أمام ماري الطفلة المسكينة».

بعد أن استند كيلب إلى الوراء في أريكته، نظر باستعطاف إلى زوجته. نهضت وقبلته قائلة: «فليسعدك الرب يا كيلب..! إن لأبنائنا أباً عظيماً».

إلا أنها خرجت، وبكت بحرقة لتعوض عن كبح كلامها في نفسها. كانت متأكدة من أن تصرف زوجها سيفهم خطأً، أما حول فرِد فقد كانت متعقلة وفاقدة للأمل. نبوءة من منهما ستصدق...؟ تعقلها أم كرم كيلب المتحمس؟

عندما ذهب فرِد إلى المكتب في صباح اليوم التالي، كان عليه أولًا أن يجتاز امتحاناً لم يتهيأ لأجله.

قال كيلب: «الآن يا فرِد... سيكون لدينا أعمال مكتبية. لقد قمت بكثير من الأعمال الكتابية بنفسي، لكنني لا أستطيع أن أستمر دون مساعدة، ولأنني أريد أن تفهم الأعمال الحسابية، وتحفظ التقويمات في ذاكرتك.. أريدك أن تعمل مع كاتب آخر، لذلك يجب أن تكبّ على عملك. كيف أنت في الكتابة والحساب؟»... شعر فرِد برعشة غريبة في قلبه، فهو لم يعتد على العمل المكتبي، ولكن ينتابه مزاج مندفع فلم ينقبض.

«إنني لا أخشى الرياضيات يا سيد جارث، فقد كنت أجدها دائماً سهلة، وأعتقد أنك تعرف كتابتي».

قال كيلب وهو يمسك بقلم ويفحصه بدقة ثم يقدمه لفرِد، مع قطعة من الورق، بعد أن غمسه جيداً بالحبر: «دعنا نرَ».

«انسخ لي سطراً أو سطرين من ذلك التقويم مع المبالغ في النهاية».

كانت الفكرة السائدة في تلك الأيام، أن يكون في مقدور الرجل المثقف أن يكتب بطريقة مقروءة أو على الحد الأدنى توازي كتابة محاسب. نسخ فرِد السطور المطلوبة بطريقة توازي طريقة كتابة أسقف، أو رجل نبيل في تلك الأيام.. لقد كتبت الأحرف الصوتية في نسق واحد، أما الأحرف الساكنة فقد كانت تتميز بعضها من بعض، إما بارتفاعها إلى الأعلى وإما بانخفاضها إلى الأسفل، أما الخط المنسوخ فقد كان يتميز بالتماسك والأحرف كبيرة تأنف أن تجعل السطور قصيرة، فقد كانت مخطوطة رهيبة الشكل وسهلة القراءة لمن عرف مسبقاً فحواها.

نظر كيلب، فظهر على وجهه اكتئاب متنام، ولكن عندما قدم له فرِد الورقة زمجر، ثم طوى الورقة بيده... إن عمل شيء كهذا كان يشتّت كل لطافة كيلب. «يا للشيطان..» -صاح مزمجراً- «ما هذه البلاد التي ينفق فيها على شاب مئات الجنيهات بغية تعليمه، ثم تأتي في نهاية المطاف هكذا؟». ثم بنظرة أكثر انفعالاً قال بعد أن دفع بنظارته إلى الوراء، لينظر إلى الورقة ذات الحظ السيئ: «فليرحمنا الرب يا فرِد. لا أستطيع أن أصبر على هذا!»

«ماذا يمكنني فعله يا سيد جارث؟»، تساءل فرِد الذي انخفضت معنوياته جدًّا ليس بسبب تقييم خطه فحسب، بل برؤيته لنفسه وهو يصنف ضمن زمرة الموظفين المكتبيين. سأل كيلب بعنفوان وقد سيطر عليه سوء العمل: «ماذا تفعل؟ يجب أن تتعلم كيف تكتب الأحرف وتضعها على السطر. ما فائدة الكتابة إذا لم يكن أحد يستطيع قراءتها؟»، ثم أضاف: «... هل هناك في العالم عمل بسيط جدًّا يتطلب منك أن ترسل ألغازاً عبر البلاد؟؟؟ ولكن هكذا ينشأ الأولاد... إنني لا أضيع وقتي في قراءة رسائل يبعث بها بعض الناس إليّ ما لم تقرأها لي سوزان. إن هذا لأمر مقرف». هنا سحب كيلب الورقة من فرِد.

لو دخل أي رجل غريب في تلك اللحظة إلى المكتب، لتعجب من هيئة رجل الأعمال الساخط، والشاب الوسيم ذي المظهر الأنيق، وقد راحت تقاطيع وجهه تشحب في حين كان يعض شفتيه لشعوره بالمذلة والخزي.

كان فرِد يتصارع مع كثير من الأفكار، لقد كان كيلب في بداية اللقاء لطيفاً جدًّا ومشجعاً حتى إن ذلك الامتنان والأمل كانا في أعلى درجاتهما، فجاء ذلك التدهور ناسفاً... في الحقيقة إنه لم يفكر في العمل المكتبي كسائر الشبان، فقد أراد مهنة بعيدة عن المضايقات.

إنني لا أستطيع التنبؤ بالنتائج لو لم يعد نفسه بالذهاب إلى لُويك ليخبر ماري أنه قد التحق بالعمل مع أبيها، فهو لم يرد أن يصاب بخيبة أمل قال: «إنني آسف جدًّا»... كانت هذه كل الكلمات التي استطاع أن ينطق بها، لكن السيد جارث كان قد بدا يهدأ... فأجاب: «يجب أن نبذل قصارى جهدنا يا فرِد». بدا وقد عاد إلى صوته الهادئ المعتاد: «يستطيع كل رجل أن يتعلم الكتابة. لقد تعلمت ذلك بنفسي. أقدم عليها برغبة، واسهر الليل إن لم يكفك النهار... سنصبر يا ولدي».

«سيتابع كولم عمله في الدفاتر حتى تنتهي من تعليمك، ولكن يجب علي أن أذهب الآن». قال ذلك كيلب وهو ينهض: «يجب أن تخبر أباك باتفاقنا... إنك ستوفر علي مرتب كولم عندما تستطيع الكتابة..هل تعلم؟ وأنا سأدفع لك ثمانين جنيهًا في السنة الأولى. ثم أكثر في السنوات اللاحقة».. عندما أخبر فرِد والديه بالأمر، شكل صدمة لهما تركت أثراً عميقاً في ذاكرته. لقد ذهب مباشرة من مكتب السيد جارث إلى مخزن أبيه مدركاً أن أفضل طريقة محترمة يمكنه أن يتصرف من خلالها مع أبيه، هي أن ينقل له أكثر الأنباء إيلاماً بأقصى حدود الاتزان والرسمية الممكنة. فضلًا عن ذلك يجب أن يفهم أن قراره نهائي إذا كان اللقاء في أكثر ساعات اتزان أبيه، التي كان دائماً يقضيها في غرفته الخاصة ضمن المخزن.

دخل فرِد في الموضوع مباشرة، واعترف باختصار... ماذا فعل، وماذا ينوي فعله، ثم عبر عن أسفه لأنه سيسبب خيبة أمل لأبيه، كما وضع اللوم على نواقصه. لقد كان الأسى حقيقيًّا، فألهم فرِد كلماتٍ قوية وبسيطة. لقد أصغى السيد فنسي بدهشة شديدة دون أن يعبر حتى عن تعجب عميقٍ، لكن صمته... الذي يعكس عادة مزاجه غير الصبور، كان هذه المرة دليلاً على مشاعر غير اعتيادية. لم يكن في ذلك اليوم يتمتع بنفسية إيجابية بسبب تجارته، فالمرارة الخفيفة التي كانت تظهر على شفتيه تنامت بشدة لدى إصغائه. وعندما انتهى فرِد ساد الصمت ما يقارب الدقيقة، أعاد أثناءها السيد فنسي دفتراً إلى درج طاولته وأدار المفتاح بعنف، ثم نظر إلى ابنه بثبات وقال: «إذاً... لقد قررت أخيراً يا سيدي؟».

«نعم يا أبي».

«حسن جدًّا... تمسك به إذاً، فأنا ليس لدي شيء آخر أقوله. لقد ألقيت بتعليمك جانباً، فتنازلت عن مرتبتك الاجتماعية في الحياة، في وقت قدمت لك الوسيلة كي تصعد. هذا كل ما لدي».

«إنني آسف جدًّا يا أبي، لأننا نختلف. يمكنني أن أكون رجلاً محترماً جدًّا من خلال العمل الذي تعهدت بالقيام به تمامًا كما لو كنت قسًّا، لكنني ممتن جدًّا لما قدمته لي».

«حسن ليس لدي شيء آخر أقوله. لقد غسلت يدي منك. إنني أتمنى فقط عندما يكون عندك ابن، أن يرد لك الجميل مقابل المعاناة التي تقاسيها لأجله».

كان هذا جارحاً جدًّا لفرِد، فقد استغل أبوه فرصة غير عادلة، نملكها جميعاً عندما نكون في وضع يرثى له، ونرى ماضينا وكأنه عنصر يثير شفقتنا.

في حقيقة الأمر إن أماني السيد فنسي بابنه كانت تحمل في طياتها الكثير من المباهاة والطيش وحماقة الغرور، ولكن ما زال الأب المصدوم يملك معنوياتٍ صلبة، أما فرِد فقد شعر أنه قد طرد ملعوناً.

قال بعد أن نهض ليذهب: «أتمنى ألّا تعارض بقائي في المنزل يا سيدي...؟ ولا سيما أنه سيكون لدي مرتب يكفيني للإنفاق مقابل بقائي، وهذا بالطبع ما أتمنى أن أفعله».

«اللعنة على بقائك...!!»، قال هذا السيد فنسي، ثم تدارك نفسه بعد أن انتابه اشمئزاز جراء فكرة بقاء فرِد في المنزل مقابل دفعه للنفقات، «بالطبع ستريدك أمك أن تبقى، لكنني لن أحتفظ بحصان لك. هل تفهم؟ كما أنك ستدفع لخياطة ثيابك، إذ يمكن أن تكفيك بزة واحدة أو اثنتان، فأعتقد أنه سيكون في إمكانك دفع ثمنها». توانى فرِد... إذ بقي شيء يجب قوله: «أتمنى أن تصافحني يا أبي.. وتسامحني عن الغضب الذي سببته لك»... ألقى السيد فنسي نظرة سريعة على ابنه الذي اقترب منه، فمد له يده قائلاً بسرعة: «نعم نعم..دعنا لا نقل شيئاً آخر».

قدم فرِد لأمه شرحاً أكثر تفصيلاً، ولكن لم يكن لها عزاء ولا سيما كانت ترى أمام عينيها ما لم يخطر في بال زوجها ألا وهو زواج فرِد المؤكد من ماري جارث، وحياتها التي ستفسد بسبب ذلك عندما تبدأ عائلة جارث بغرس أفكارها وإدخال أساليبها إلى أسرتها باستمرار، وصورة ابنها الوسيم ومظهره الحضاري، الذي يفوق مستوى جميع أبناء مدل مارش. عندما سيصبح من المؤكد بسيط المظهر ومهملاً لثيابه مثل أفراد تلك العائلة. لقد بدا لها أن هناك مؤامرة من عائلة جارث تهدف من ورائها الاستيلاء على فرِد، لكنها لم تتجرأ على تضخيم هذه الفكرة، لأنه قد انفجر عليها كما لم يفعل من قبل أبداً لمجرد تلميحة بسيطة... لقد كان طبعها أكثر عذوبة من أن تبدي له أي غضب، لكنها شعرت أن سعادتها

قد تلقت كدمة، وظلّت لأيام عديدة تبكي كلما نظرت إلى فرِد وكأنه كان يشكل مادة لنبوءة مشؤومة. ربما كانت الأبطأ بين أفراد الأسرة في استعادتها لبهجتها المعتادة، لأن فرِد قد حذرها من أن تعيد فتح الموضوع المؤلم مع أبيه، الذي قبل قراره وسامحه. لو كان زوجها عنيفاً مع فرِد، لاتخذت موقفاً مدافعاً عن ولدها الحبيب.

كان الوقت في نهاية اليوم الرابع عندما تحدث السيد فنسي إليها قائلاً: «تعالي يا عزيزتي لوسي، لا تدعي قلبك ينفطر هكذا، فقد كنت دائماً تفسدين الولد وستظلين تفسدينه».

«لم يجرحني شيء هكذا من قبل يا فنسي»... قالت هذا الزوجة وقد بدأت حنجرتها وحنكها الجميلان يرتجفان ثانية..: «إنه فقط لمرضه».

«هه... لاتقلقي يجب أن نتوقع المتاعب من أبنائنا. لا تجعلي الأمر أكثر سوءاً، عندما تجعلينني أراك حزينة هكذا».

«حسنا لن أفعل..». قالت السيدة فنسي وقد رفع هذا التوسل من معنوياتها، فتحركت واتخذت لنفسها جلسة مريحة تماماً كما يعيد الطير ريشه المنفوش بعد الغضب.

قال السيد فنسي متمنياً أن يجمع بين الغضب والمرح والعائلي: «ليس من العدل أن نثير المشكلة حول شخص واحد... ها هي روزموند مثل فرِد».

«نعم... يا لها من مسكينة، فأنا متأكدة من أنها قد صدمت لفقدها رضيعها، لكنها قد تغلبت على ذلك بطريقة رائعة».

«رضيع... يا للأسف.. إنني أستطيع أن أرى ليدجيت يعبث بمهنته، ويغرق في الدين أيضاً من خلال ما أسمع. ستأتينا روزموند بقصة جميلة في أحد الأيام القادمة، لكنهما من المؤكد لن يحصلا على نقود مني. فلتساعده أسرته... إنني لم أرغب في هذا الزواج، ولكن لا جدوى من الكلام. اقرعي الجرس، واطلبي لنا شراب الليمون، ولا تكتئبي بعد الآن يا لوسي. سآخذك مع لويزا إلى ريفرستون غداً».

الفصل السابع والخمسون

ما كادوا يعدّوا إلا فصول صيف ثمانية...

عندما ظهر لهم اسم...

راح يتحرك هناك كتلك الأفكار...

في حين أن براعم الأزهار كانت تهتز، وتكوّن شكلها الخفيّ...

في وجه خلخلة الهواء المسرع إليها...

فذاك الاسم هو الذي أخبرهم عن إيفان دو المخلص...

و براودردين الجذاب وكذلك فيخيان فور...

جاعلاً العالم الصغيرالذي عرفته طفولتهم...

كبيراً بأرض ذات جبل وبحيرة وصخور...

ثم بحب وإعجاب ويقين أكبر لوولتر سكوت...

الذي كان يعيش بعيداً...

وأرسل لهم ثروته من المرح والحزن النبيل...

كان عليهم أن يتركوا ذلك الكتاب...

لكنهم... يوماً تلو الآخر...

راحوا يكتبون حكايتهم من تولي فيلون...

في خطوط متعرجة...

تشبه آثار سير عنكبوت ضخم...

عندما ذهب فرِد فنسي، سيراً على الأقدام، إلى منزل الكاهن في لُوِيك في مساء أحد الأيام بدأ يدرك أنه ينبغي، في هذا العالم، حتى للشاب الجريء أن يسير في بعض الأوقات على قدميه لحاجته إلى حصان يحمله.

انطلق في الساعة الخامسة مساءً، ومر في طريقه بالسيدة جارث كي يتأكد بنفسه من أنها قبلت بعلاقتهم الجديدة راغبة، فوجد كامل الأسرة ومعهم القطط والكلاب تحت شجرة التفاح الضخمة في البستان؛ إذ كانت السيدة جارث تحتفل بعودة ابنها الأكبر الذي يمثل فخرها وفرحتها، والذي كان قد عاد للتو لقضاء عطلة قصيرة بين أهله.

كان يعتبر كريستي التعليم أكثر ما يرغب فيه في العالم، أي:... أن يدرس جميع الآداب ليصبح بورسن جديداً. كما كان مادة مقارنة تثير نقد أمه المتعلمة لفرِد المسكين في درس إيضاحي.

كان كريستي نسخة ذكورية عن أمّه... عريض المنكبين، وجبهته عريضة، لا يزيد طوله على ارتفاع كتف فرِد بكثير، مما يجعل شعوره بالتفوق على فرد صعب التحقيق، لكنه كان دائماً بسيطاً جدًّا. ولم يكن يفكر في عدم رغبة فرِد في التعلم أكثر من تفكيره في الزرافة، متمنياً لو كان يملك طول فرِد.

كان مستلقياً على الأرض عند كرسي أمه، وتغطي عينيه قبعة قش كبيرة، بينما جيم إلى جانب أمه الآخر يقرأ قصة لكاتب محبوب كان سبباً رئيسيًّا في إسعاد حياة كثير من الشباب.

كانت الرواية بعنوان «إيفانهو»، وكان جيم يقرأ من مشهد الرماية من المباراة، لكنه كان يعاني كثيراً من مقاطعة بن له، إذ أحضر الأخير قوس سهامه القديمة، فجعل من نفسه مصدر إزعاج مخيفاً، طالباً من جميع الحضور أن ينظروا إلى تصويبه العشوائي، إلا أن الجميع قد رفضوا باستثناء الكلب براوني الذكي الهجين قليلاً، بينما كان الكلب نيوفاوندلاند العجوز يرمق بعين اللامبالاة وهو مستلق تحت أشعة الشمس.

بينما لِتي، التي كان يظهر على فمها وثيابها أنها ساهمت بجمع ثمار الكرز التي كانت على شكل كومة فوق طاولة الشاي، كانت تجلس على العشب مصغية للقراءة بعينين مفتوحتين.

إلا أن اهتمام الجميع قد تحول لدى وصول فرِد فنسي، وبعد أن جلس على أحد مقاعد الحديقة، قال إنه كان في طريقه إلى منزل الكاهن في لُويك.

بعد أن ألقى بن سهامه وقوسه على الأرض راح ليلتقط عوضاً عنها قطة صغيرة، قفز فوق قدم فرِد الممدودة وقال:

«خذني معك...!».

قالت لتي: «وأنا أيضاً...».

قال بِن: «لاتستطيعين اللحاق بي أنا وفرِد».

«بلى... إنني أستطيع، من فضلك يا أمي قولي له بأنه يجب أن أذهب». ألحت لِتي، التي كانت حياتها متنوعة نتيجة مقاومتها للانتقاص الذي كان يوجه لها كفتاة.

قال جيم وهو يبدو كأنه يغتنم إحدى فرص أولئك الساذجين: «سأبقى مع كريستي». في حين أن لِتي رفعت يدها إلى رأسها، ونقلت نظرها من واحد إلى الآخر بغيرة مترددة.

قال كريستي فاتحاً ذراعيه: «دعونا نذهب جميعاً لنرى ماري..».

«كلا يا ولدي العزيز...! ينبغي ألّا نذهب دفعة واحدة إلى بيت الكاهن، كما أن بزتك الاسكتلندية القديمة هذه لا تناسب، فضلًا عن ذلك فإن أباك سيعود إلى المنزل.

«يجب أن ندع فرِد يذهب وحيداً، فهو يستطيع أن يخبر ماري أنك هنا، فيمكنها أن تأتي غداً». ألقى كريستي نظرة سريعة إلى ركبتيه اللتين كانتا تغطيهما ملابس رثة، ثم رمق بنظره بنطال فرِد الأبيض الجميل. من المؤكد كانت خياطة بنطال فرِد تظهر مزايا الجامعة الإنجليزية، كما كان يتمتع، بطريقة راقية، بمعاناته من حرارة الطقس، وكذلك عندما يدفع بمنديله شعره إلى الوراء.

قالت سيدة جارث: «أيها الأولاد اذهبوا... إن الطقس أشد حرارة من أن تتعلقوا بصديقكم. خذوا أخاكم ودعوه يرى الأرانب». فهم الأكبر، فاقتاد بقية الأطفال فوراً. أما فرِد فقد أدرك أن السيدة جارث ترغب في منحه فرصه كي يقول ما يرغب في قوله، لكنه لم يستطع إلا أن يبدأ بالتعليق: «كم أنت سعيدة لوجود كريستي هذا».

«نعم... لقد عاد أسرع مما توقعت. لقد نزل من عربة الأجرة عند الساعة التاسعة تماماً، بعد أن خرج أبوه. إنني تواقة جدًّا لعودة كيلب كي يسمع كم حقق كريستي من تقدم مدهش، ولا سيما أنه دفع تكاليف دراسته في السنة الماضية من أجور تدريسه، وتابع دراسته بجد في الوقت عينه. إنه يتمنى أن يحصل على مهنة تدريس خاص، فيسافر إلى خارج البلاد».

قال فِرد الذي تركت عنده هذه الأخبار المفرحة أثراً شافياً: «إنه شاب عظيم! كما أنه لا يسبب إزعاجاً لأحد»... بعد أن صمت قليلًا أضاف: «لكنني أخشى أن تعتقدي أنني سأكون مصدر إزعاج للسيد جارث». أجابت السيدة جارث: «كيلب يحب الدخول في المشاكل، فهو أحد أولئك الرجال الذين يقدمون أكثر مما يطلب منهم».

لقد كانت تنسج، فربما كان في استطاعتها أن تنظر إلى فِرد أو لا. وذلك يعود لرغبتها. مما يشكل فرصة جيدة لمن يرغب في شحذ كلامه بالترحيب، وعلى الرغم من أن السيدة جارث تعمدت الانشغال بالأمرين في آن، فإنها كانت ترغب في أن تقول شيئاً يستحقه فِرد.

«إنني أعلم أنك تظنين بي على أنني لا أستحق شيئاً يا سيدة جارث، وذلك لأسباب وجيهة». هذا ما قاله فِرد بعد أن ارتفعت معنوياته قليلاً... عندما أدرك أنها ستلقي عليه محاضرة: «... لقد حدث أنني تصرفت على نحو سيئ جدًّا مع الذين لا أستطيع إلا أن أتمنى منهم أفضل المساعدة. ولكن بما أن السيد جارث والسيد فيربرذر لم يتخليا عني، فإنني لا أرى سبباً يجعلني أتخلى عن نفسي». اعتقد فِرد أن من الأفضل أن يقدم هذين الرجلين كمثل للسيدة جارث.

قالت السيدة جارث بتأكيد قوي: «بالتأكيد. فشاب، كرس لأجله رجلان نفسيهما، ليستحق اللوم إذا ما تخلى عن نفسه وجعل تضحيتهما تذهب سدىً».. تعجب فِرد قليلًا من كلامها العنيف لكنه قال فقط: «أتمنى ألّا يحدث هذا لي يا سيدة جارث ولا سيما أنني قد شجعت على الاعتقاد بأنني سأفوز بماري. هل أخبرك السيد جارث بهذا؟ آمل القول ألّا تكوني قد تفاجأت». أنهى فِرد كلامه ببراءة، مشيراً إلى حبه كدليل من المرجح أنه كافٍ.

«لم أدهش إذا كانت ماري قد قدمت لك التشجيع»، أجابت السيدة جارث التي اعتقدت أن من الأفضل لفِرد أن يعلم أن محبي ماري لم يوافقوا على ذلك سلفاً على الرغم مما يمكن لعائلة فنسي أن تفترض. «نعم إنني أعترف أنني قد دهشت».

«إنها لم تشجعني على الإطلاق... فهي لم تفصح لي عن شيء حتى بأبسط العبارات في العالم عندما تحدثت إليها». قال فِرد راغباً بتبرئة ماري.. «عندما طلبت إلى السيد فيربرذر التحدث إليها بالنيابة عني أذنت له أن يخبرني بأن هناك أملاً لي».

قوة اللوم والعتاب التي بدأت تتحرك في نفس السيدة جارث لم تفرغ شحنتها بعد، فقد كانت أشد تحريضاً من أن تستطيع التحكم بنفسها، إذ كان لا بد لذلك الشاب اليافع من

أن يزدهر تفتحاً على حساب خيبة آمال الناس الذين هم أكثر حزناً وحكمة... فيحول من طيور الكنار إلى وجبة غذاء دون أن يدرك ذلك، بينما تفترض أسرته طوال ذلك الوقت أن أسرتها تحتاج بشغف إلى هذا الفتى، فسرى غيظها بنشاط أقوى لأنها كظمته تماماً أمام زوجها. الزوجات المثاليات يجدن أحياناً في هذه الطريقة كبش فداء، فقالت بقرار حيوي «لقد ارتكبت خطأً فظيعاً يا فرِد عندما طلبت إلى السيد فيربرذر التحدث بالنيابة عنك».

«هل فعلت...؟؟»، قال فرِد وقد احمر وجهه بسرعة فائقة، فقد فزع... لكنه كان مرتبكاً لا يعرف ماذا عنت السيدة جارث، فأضاف بنبرة اعتذار: «لقد كان السيد فيربرذر دائماً صديقاً لكلينا، وعلى حد علمي أن ماري تصغي له باحترام، ولقد كان على أتم الاستعداد لأخذ الأمر على عاتقه».

«نعم، إن الشبان دائماً لا يرون أي شيء سوى رغباتهم وقلّما يدركون كم تكلّف هذه الرغبات الآخرين». قالت السيدة جارث، وهي لم تشأ أن تذهب أبعد من هذا المفهوم العام المقبول، فراحت تلقي بسخطها على نسيجها بتقطيب حاجبيها عليه بطريقة مهيبة.

قال فرِد الذي شعر أن أفكاراً مدهشة بدأت تكوّن نفسها: «لا أستطيع أن أدرك كيف يمكن أن يسبب هذا ألماً للسيد فيربرذر».

قالت السيدة جارث متفوهة كلماتها بأرقى وأوضح الطرق الممكنة: «بالطبع... إنك لا تستطيع أن تدرك». نظر فرِد للحظاتٍ في الأفق بقلق مفزع، ثم استدار بسرعة ليقول بحدة: «هل تعنين يا سيدة جارث أن السيد فيربرذر يحب ماري...؟».

أجابت السيدة جارث بعد أن وضعت نسيجها إلى جانبها ثم حبكت ذراعيها: «وإذا كان الأمر هكذا يا فرِد، أعتقد أنك آخر من يمكن أن يصاب بدهشة لهذا». لقد كانت إشارة غير معتادة لمشاعرها أن تضع نسيجها من يدها. في حقيقة الأمر كانت مشاعرها منقسمة بين رغبتها في تأديب فرِد وإحساسها أنها قد ذهبت أبعد مما ينبغي. أخذ فرِد قبعته وعصاه، ثم نهض مسرعاً قال بنبرة تحمل طلب إجابة: «إذاً... تعتقدين أنني أقف في طريقه وفي طريق ماري أيضاً؟». لم تستطع السيدة جارث الإجابة مباشرة إذ وضعت نفسها في وضع حرج يصعب عليها خلاله أن تعبر عن مشاعرها، إلا أنها لا تزال تدرك أن هناك أسباباً وجيهة لا تزال تخفيها. أما بالنسبة إلى شعورها أنها قد تجاوزت الحدود في الكلام فقد كان مخزياً. فضلًا عن ذلك فقد صدر عن فرِد صعقة غير متوقعة، وقد أضاف قائلاً: «... لقد بدا السيد

جارث مسروراً لارتباطي بماري. من المؤكد لم يكن يعرف شيئاً من هذا القبيل». لقد شعرت السيدة جارث بوخزة قوية جدًّا لدى ذكر اسم زوجها ؛ فخوفها من أن يسيء كيلب الظن بها لم يكن يحتمل بسهولة، فأجابت متفحصة نتائج غير متعمدة: «... لقد تحدثت بناءً على استنتاجات شخصية فقط، فلا علم لي بأن ماري تعلم أي شيء حول المسألة».

لكنها ترددت أن تطلب منه كي يبقي الموضوع طي الكتمان، إلا أنها أفصحت هي عنه في ما بعد لأنها ما اعتادت على التنازل بتلك الطريقة... وبينما كانت مترددة... كانت هناك أحداث متسارعة تقع تحت شجرة التفاح، حيث كانت أدوات شرب الشاي.. بينما كان بِن يقفز على كعبيه مع الكلب برواني فوق العشب، رأى القطة تجر الخيط الصوفي من النسيج، فصرخ مصفقاً بيديه، مما جعل الكلب ينبح، ففزعت القطة، وقفزت فوق طاولة الشاي فقلبت كوب الحليب، ثم قفزت من على الطاولة ثانية، فسحبت معها نصف كومة الكرز، التي كانت فوق الطاولة فالتقط بن نصف الجورب المنسوج، وألبسه رأس القطة كتصرف أحمق جديد، بينما جاءت لِتي تبكي إلى أمها محتجة على هذه القسوة.

لقد كانت أحداثاً مليئة بالأحاسيس والمشاعر وكأنها قصة جاك الذي بنى منزلاً. أجبرت السيدة جارث على التدخل، ثم جاء الأطفال الآخرون، فانتهى الحديث المنفرد بينها وبين فرِد، فشرع في الذهاب بسرعة فائقة أما السيدة جارث فلم تستطع التراجع عن قسوتها إلا بقولها: «..فليسعدك الربّ»... عندما صافحته. لقد كانت مدركة على نحو مزعج أنها كانت تتحدث كما لو كانت إحدى النساء الحمقاوات.. تخبر أولاً، ثم تطلب الكتمان، لكنها لم تطلب هذا الكتمان، ولكي تمنع ملامة كيلب لها، قررت أن تلوم نفسها فاعترفت له بكل شيء في المساء نفسه.

لقد كانت محاكمة كيلب الرقيق لها مثيرة للفضول عندما أقام، لكنها تقصدت أن توضح له كم يمكن أن يأتي ذلك بنفع كبير إلى فرِد فنسي.

دون أدنى شك... لقد كان لذلك الحديث تأثير قوي على فرِد بينما كان يسير إلى لُويك. ربما لم تتعرض طبيعة فرِد المتفائلة من قبل لكدمة كتلك التي سببها له ذاك الاقتراح، الذي فحواه أنه لو خرج من طريق ماري لحظيت بزوج حسن جدًّا. كما كان مجروحاً كذلك لأنه كان أحمق ومغفلاً عندما طلب من السيد فيربرذر أن يتدخل، ولكن لم تكن في طبيعة المحبين، كما لم تكن في طبيعة فرِد ألا يجعل قلقه الجديد حول مشاعر ماري يتغلب على مشاعرالآخرين وعلى الرغم من ثقته بكرم السيد جارث، وعلى الرغم من ثقته بما قالته

ماري له، فإن فرِد لم يستطع أن يتحمل وجود منافس له. لقد كان شعوراً جديداً، وقد رفضه تماماً، فهو على الأقل ليس مستعداً لكي يتخلى عن ماري لأجل مصلحتها، لكنه مستعد لمنازلة أي رجل أيًّا كان بغية الحصول عليها، لكن منازلة السيد فيربرذر لا بد من أن تكون رمزية، وهو ما يجعلها أكثر صعوبة على فرِد من المنازلة العضلية.

من المؤكد... كانت هذه التجربة بمنزلة تأديب قاسٍ لفرِد، لا تقل قسوتها عن قسوة خيبة أمله بوصية زوج خالته.

لم ينل الحديد من روحه، لكنه بدأ يدرك ماذا يمكن أن يفعل الطرف الحاد. لم يخطر لفرِد ولو لمرة أن السيدة جارث يمكن أن تكون مخطئة في أمر السيد فيربرذر، لكنه اعتقد أنها يمكن أن تكون مخطئة بما يتعلق بماري.. ولا سيما أن ماري تقيم في منزل الكاهن مؤخراً، فربما كانت أمها لا تعرف إلا القليل عما يدور في ذهنها.

لم يعد إلى طبيعته عندما رآها مسرورة مع النساء الثلاث في غرفة الاستقبال حيث كنّ يناقشن أحد المواضيع بحماس، فتوقفن عندما دخل، بينما ماري كانت تنسخ البطاقات المعلقة على أدراج الخزانة الكثيرة بخط جميل جدًّا كانت ماهرة فيه. لقد كان السيد فيربرذر في مكان ما من القرية، ولم تكن النساء الثلاث يعرفن أي شيء حول علاقة فرِد بماري؛ فكان من الصعب على أي منهما أن يقترح خروجهما والسير في الحديقة، حتى إن فرِد قد حدث نفسه بضرورة ذهابه دون أن يقول لها كلمة واحدة سرًّا.

لقد أخبرها في البداية بوصول كريستي، ثم بعمله مع أبيها، فشعر بارتياح عندما لمس أن الأخبار الأخيرة قد أفرحتها.. إذ سرعان ما قالت: «إنني سعيدة جدًّا». ثم عادت لتنحني على كتابتها كي تمنع الجميع من ملاحظة وجهها. ولكن لا يمكن لهذا الأمر أن يمر دون تدخل السيدة فيربرذر بقولها: «إنك لا تعنين يا عزيزتي آنسة جارث أنك سعيدة لعدول أحد الشباب عن العمل في الكنيسة، ولا سيما أنه قد تلقى تعليمه لأجل ذلك، لكنك قصدت أنك سعيدة لأنه فقط أصبح برعاية رجل ممتاز كأبيك».

«كلا..حقًّا يا سيدة فيربرذر إنني سعيدة لكلا الأمرين..»، قالت ماري متخلصة بذكاء من دمعة متمردة.. «إنني أملك فكراً غير متدين لدرجة مفزعة، فإنني لم أحب أي رجل دين باستثناء القس في ووك فيلد والسيد فيربرذر».

«لماذا يا عزيزتي...؟؟؟»، قالت السيدة فيربرذر وقد توقفت عن عملها بأعواد النسيج

الخشبية، ثم نظرت إلى ماري: «دائماً لديك أسباب مقنعة لآرائك، ولكن هذا يدهشني. بالطبع أنا أستثني أولئك الذيم يقدمون عظات في مذهب جديد، ولكن لماذا لا تحبين رجال الدين...؟».

«آه يا عزيزتي...!!»، قالت ماري وقد اعتلت وجهها فرحة بينما كانت تفكر للحظات، «إنني لا أحب الطوق حول رقابهم».

قالت الآنسة وينفريد وقد شابها بعض القلق: «لماذا..؟؟ إذًا أنت لا تحبين طوق كامدن».

قالت ماري: «كلّا إنني أحبها... لكنني لا أحب الأطواق حول رقاب رجال الدين الآخرين لأنهم هم الذين يرتدونها».

قالت الآنسة نوبل عندما شعرت أن ذكاءها ربما غير كافٍ: «ما هذا اللغز؟».

«يا عزيزتي... إنك تمزحين، فلا بد من أن يكون لديك أسباب أفضل من هذه الأسباب تجعلك تنتقصين طبقة محترمة من الرجال». قالت السيدة فيربرذر بوقار:

«إن الآنسة جارث تعتنق مفاهيم قاسية جدًّا حول مهن الرجال، فمن الصعب إرضاؤها».

قالت السيدة العجوز: «حسناً.. إنني مسرورة، لأنها على الأقل استثنت ابني».

كانت ماري تتساءل في داخلها عن نبرة فرِد الغاضبة، فعندما دخل السيد فيربرذر وسمع أنباء عمل فرِد مع السيد جارث، قال برضى تام: «هذا صحيح»، ثم انحنى لينظر إلى البطاقات التي نسختها ماري، ثم امتدح طريقة كتابتها.

شعر فرِد بغيرة شديدة جدًّا... بالطبع كان فرحاً لأن السيد فيربرذر قد أحسن تقويم عملها، لكنه تمنى لو كان السيد فيربرذر قبيحاً وسميناً كما يكون بعض الرجال في الأربعين من عمرهم.

لقد كان من الواضح كيف ستكون النهاية مادامت ماري قد وضعت السيد فيربرذر في منزلة أعلى من منازل الجميع، ولا سيما أن هؤلاء النساء دائماً يشجعن الطرف الآخر على إنشاء العلاقة معهن. كان متأكداً من أنه لن يجد فرصة كي يتحدث فيها مع ماري على انفراد.. عندما قال السيد فيربرذر: «ساعدني يا فرِد في حمل هذه الأدراج ونقلها إلى غرفة مكتبي، فإنك لم تر حتى الآن مكتبي الجديد. من فضلك تعالي أنت أيضاً يا آنسة جارث،

فإنني أريدك أن تري العنكبوت الضخم الذي وجدته هذا الصباح».

فهمت ماري مباشرة قصد الكاهن. فهو منذ ذلك المساء، الذي لا ينسى، لم ينحرف عن لطفه البريء تجاهها، فراح منذ ذلك الوقت تعجبها وشكها في سبات. كانت ماري معتادة على التفكير الدقيق بما هو محتمل، وإذا ما داعب معتقد ما غرورها، كانت تطرده كما لو كان شيئاً تافهاً، ولا سيما أنها تدربت كثيراً من قبل على مثل هذا الطرد. لقد حدث ما تنبأت به.. إذ عندما طلب من فرِد كي يرى غرفة المكتب، وطلب منها رؤية العنكبوت، قال السيد فيربرذر: «انتظرا هنا دقيقة أو اثنتين، فإنني ذاهب كي أحضر لوحة منقوشة كي نستغل طول فرِد، فيعلقها لي. إنني سأعود بعد دقائق»، ثم خرج. في أيّ حال... فإن أول كلمة قالها فرِد لماري كانت: «لا فائدة ترتجى من أي شيء أفعله يا ماري. من المؤكد أنك ستتزوجين السيد فيربرذر في النهاية». ظهر بعض الغضب في صوته.

«ماذا تعني يا فرِد؟» ،تعجبت ماري ساخطة وقد احمر وجهها بشدة، إذ لجمتها الصدمة تماماً.

«إنه من المستحيل ألّا تفهمي الأمر بوضوح، ولا سيما عندما تستطعين أن تري كل شيء».

«إنني فقط أرى أنك تسيء التصرف يا فرِد عندما تتحدث عن السيد فيربرذر بعد أن توسل لأجلك. كيف خطرت لك مثل هذه الفكرة...؟»

كان فرِد ماكراً على الرغم من غضبه. إذ لم ينتب ماري أيّ شكوك، فليس من الجيد إخبارها بما قالته السيدة جارث.

أجاب: «إنها نتيجة طبيعية. عندما ترين دائماً رجلاً يتفوق علي في كل شيء، وأنت تضعينه في منزلة أعلى من منازل الجميع. لن يكون لي فرصة مقبولة».

قالت ماري: «إنك جاحد جدًّا يا فرِد. أتمنى لو لم أقل للسيد فيربرذر إنني على الأقل أهتم بك».

«كلا لست جاحداً. سأكون أسعد شاب في العالم إذا لم يكن الأمر هكذا! لقد أخبرت أباك بكل شيء، وقد كان لطيفاً جدًّا، وعاملني وكأنني لو كنت ابناً له. أستطيع أن أقوم بالعمل بإرادة جيدة، في الكتابة وفي كل شيء لو لم يكن الوضع هكذا».

قالت ماري مدركة أن شيئاً ما قد قيل أو فعل: «هكذا...؟ هكذا كيف؟».

«هذا التأكد المخيف أنني سأهزم أمام السيد فيربرذر»... لقد كبتت ماري نزعتها للضحك.

«يا فرِد...!!»، قالت محاولة النظر في عينيه إذ كان قد أدار نظره عنها: «إنك تافه إلى حدّ ممتع. لو لم تكن ساذجاً فاتناً، لكان بالنسبة إلي ممتعاً أن أؤدي دور المغناج الماكرة، فأدعك تعتقد أن أحداً آخر، بالإضافة إليك، قد وقع في غرامي».

قال فرِد ناظراً إليها بعينين مليئتين بالحب وهو يحاول التقاط يدها: «هل حقًّا أنا أكثر من تحبين يا ماري...؟».

قالت ماري متراجعة وواضعة يديها خلف ظهرها: «إنني لا أحبك أبداً في هذه اللحظة. لقد قلت فقط لست في غرام أحد سواك، وهذا ليس دفاعاً عن أن أي رجل عاقل يمكن أن يفعل ذلك». أنهت حديثها فرحة.

قال فرِد: «أتمنى أن تقولي لي إنه لا يمكن لك أن تفكر فيه... ».

«لا تجرؤ على ذكر هذا لي ثانية يا فرد..». قالت ذلك ماري بعد أن عادت إلى جدها ثانية: «لا أعرف إذا كان غباءً منك أو شحاً ألّا ترى أن السيد فيربرذر قد تركنا لوحدنا كي نتحدث بحرية. إنني مصابة بخيبة أمل لأنك لا تدرك شعوره اللطيف».

لم يبق وقت يكفي لقول شيء أكثر من ذلك، قبل أن يعود السيد فيربرذر، وهو يحمل اللوحة المنقوشة، فكان على فرِد ان يعود إلى غرفة الاستقبال ولا يزال يغلف قلبه خوف غيور، لكنه لا يزال مرتاحاً بعض الشيء من حوار ماري. كانت نتيجة الحوار مؤلمة بالنسبة إلى ماري..

من الواضح أن انتباهها بدأ يأخذ منحىً جديداً، وبدأت ترى إمكانية تغييرات جديدة. لقد كانت في وضع ترى فيه نفسها تستخف بالسيد فيربرذر، وعندما يتعلق هذا الأمر برجل ذي مكانة مرموقة يكون دائماً خطراً على ثبات موقف المرأة المقرة بالجميل.

كان سبب ذهابها إلى أهلها في اليوم التالي مصدر ارتياح لها، لأن ماري كانت ترغب بجد في أن توضح دائماً أنها كانت تحب فرِد أكثر من غيره.

عندما يختزن فينا حنان عاطفي خلال العديد من السنين، تصبح فكرة استعاضتنا عنه بأي شيء في نظرنا عبارة عن تبخيس لحياتنا. كما أننا نستطيع أن نراقب عواطفنا وتماسكنا كاستطاعتنا مراقبة كنوز أخرى.

«لقد أضاع فرِد جميع آماله الأخرى، فيجب أن يحتفظ بهذا الأمل»، هذا ما قالته ماري في داخلها مع ابتسامة ارتسمت على شفتيها، إذ من المستحيل عليها أن تهجر صوراً خيالية من نوع آخر... ألقاباً جديدة وقيمة معترفًا بها... كانت دائماً تشعر بفقدانها. لكن هذه الأشياء لم تغر تفكيرها بدون وجود فرِد... فرِد المهجور والحزين على فقدانها.

الفصل الثامن والخمسون

لا يمكن للكراهية أن تعيش في عينيك...

لذلك لا يمكن لي أن أرى أيّ تغير فيك...

لقد كتبت في نظرات الكثيرين حكاية قلب زائف...

وكذلك في طبائعهم وعبوس وجوههم، وتجاعيدها الغريبة...

لكن السماء في خلقك قد قررت أن يدوم على وجهك الحب العذب...

مهما كانت أفكارك وخلجات قلبك...

لا يمكن لنظراتك إلا أن تبعث العذوبة والجمال...

من قصائد شكسبير

في الوقت الذي عبر فيه السيد فنسي عن شعوره المسبق حول روزموند، لم يخطر لها أنها ستضطر لطلب كالذي تنبأ به. لم يكن ينتابها القلق بعد، حول الطرق والوسائل، على الرغم من أن حياتها المنزلية كانت مترفة وغنية بالأحداث. لقد ولد ابنها قبل أوانه، إذ كان ينبغي أن تبقى جميع ثيابه وقبعاته المطرزة إلى جانبه في الظلام. لقد عزي سوء الحظ هذا لإصرارها على ركوب الخيل عندما طلب منها زوجها ألّا تفعل ذلك، لكنها لم تظهر غضبها في ذلك اليوم نتيجة ذلك الحدث... ولم تقل له بوقاحة إنها ستفعل ما ترغب فيه.

ما دعاها للتدرب على ركوب الخيل في ذلك اليوم، كان زيارة قام بها كابتن ليدجيت، الابن الثالث للبارون، الذي كان يحقره ترشيوس بنعته بالرجل الشديد التأنق والتافه، فهو كان يطلق شعره من جبهته حتى رقبته بطريقة جديرة بالازدراء، ما لم يكن يفعله ترشيوس نفسه، كما كان يظهر معرفته البديهية في ما ينبغي قوله في كل شأن. لقد لعن ليدجيت في داخله حماقته عندما وافق على زيارة عمه خلال رحلة زفافه، وقد أبدى امتعاضه لروزموند عندما قال لها ذلك سرًّا. بالنسبة إلى روزموند فقد شكلت تلك الزيارة مصدر ابتهاج خفي

وجميل وغير مسبوق. لقد كانت مبتهجة جداً لوجود ابن عم يحمل والده لقب بارون في منزلها، إلى حدّ أنها كانت تتخيل كيف كان جميع الناس يتناقلون هذا الخبر، وكيف تقدم الكابتن ليدجيت لضيوفها.

في أثناء ذلك كان ينتابها شعور هادئ لأن لقبه سيتغلغل فيهم وكأنه عبق عطر. لقد كان رضاها كافياً لإذابة بعض خيبة الأمل التي تأتي نتيجة الزواج من طبيب حتى لو كان من أصل جيد.. ولا سيما أن زواجها بدا واضحاً أنه أخذ يرفعها إلى مستوى أعلى من مستوى أهالي مدل مارش، كما بدا لها المستقبل مشرقاً ومليئاً بالزيارات والرسائل المتبادلة مع كولنغهام، ومصحوباً بتقدم غامض نتيجة ارتباطها بترشيوس، وخصوصًا لدى زيارة أخت الكابتن المتزوجة السيدة منجان مع خادمتها، ربما وبناء على اقتراح الكابتن، لتقيم ليلتين وهي في طريقها من البلدة، كان حريًّا بروزموند أن تجيد في عزفها للموسيقى واختيارها لشرائطها الحريرية.

بالنسبة إلى الكابتن ليدجيت، ربما ضيق جبهته واعوجاج أنفه ونطقه الثقيل،لم تكن سماتٍ حسنة لدى أي شاب نبيل لا يحمل رتبة عسكرية ولا شاربًا، ما يمكن أن يمنحه ما يثير إعجاب الفتيات الشقراوات المتفتحات كالورود. فضلًا عن ذلك فهو يتحدر من أسرة لا تحمل أعباء الهموم التافهة التي تحملها أسر الطبقة الوسطى، كما كان ناقداً جيداً للفتنة والجمال الأنثوي.

أصبحت روزموند الآن مبتهجة بإعجابه بها أكثر مما كانت في كولنغهام، فقد أصبح من السهل عليه أن يقضي ساعات في كل يوم يتجاذب معها أطراف الحديث ويتودد إليها. كانت مدة زيارته من أفضل أوقاته المليئة بالمزاح والمرح، ولا سيما أن رغبة ابن عمه الغريب ترشيوس لم تؤثر فيها.. على الرغم من أن ليدجيت، الذي كان يفضل الموت على فشله في حسن الضيافة، قد كبح كراهيته وتظاهر فقط بعدم سماعه لما قاله الكابتن تاركاً الرد عليه لروزموند. إنه لم يكن زوجاً ظنوناً، فكان يفضل رجلاً عديم الذكاء على زوجته مع تحمله لمصاحبته.

قالت روزموند في إحدى الأماسي عندما ذهب الضيف إلى لوم فورد ليرى هناك ضباطاً آخرين: «أتمنى لو تتكلم أكثر مع الكابتن وقت العشاء يا ترشيوس... إنك حقًّا تبدو في بعض الأوقات وكأنك لست موجوداً... تبدو وكأنك تنظر إلى ما وراء رأسه بدل من نظرك إلى وجهه».

قال ليدجيت بفظاظة: «يا عزيزتي روزي...! أتمنى ألّا تتوقعي مني أن أتحدث إلى مثل هذا الحمار المغرور. لو كسر رأسه لنظرت إليه باهتمام لا يتوافر لدي قبل كسره».

قالت روزموند بنبرة لطيفة يشوبها بعض الاستياء: «لا أستطيع أن أفهم لماذا تتحدث عن ابن عمك باحتقار هكذا..؟!!».

«اسألي لادسلو... ألا يعتقد أن هذا الكابتن هو أكثر رجل ممل قابله في حياته. لقد هجر لادسلو هذا المنزل منذ أن أتى هذا الكابتن إلى هنا».

لقد اعتقدت روزموند أنها كانت تعرف لماذا لم يحب لادسلو هذا الرجل.. لقد كان غيوراً، وهي أحبت فيه تلك الغيرة، فأجابت: «من المستحيل تحديد ما يناسب الرجال الغريبي الأطوار... ولكن برأي الكابتن ليدجيت هو رجل نبيل بجدارة، وإنني أعتقد أنه ينبغي لك احترام السير جودوين، أي ألّا تعامله بازدراء».

«لا يا عزيزتي... لكننا قد قدمنا له وجبات العشاء، وهو يدخل ويخرج كما يشاء. إنه لا يريدني».

«ولكن لا يزال ينبغي لك أن تبدي له اهتماماً أكثر عندما يكون في الغرفة. ربما لا يملك مثلك ذكاءً لا يضاهى، فمهنته تختلف عن مهنتك، ولكن سيكون من الأفضل لك أن تتحدث إليه قليلاً حول المواضيع التي تهمه. أعتقد أن محاورته لأمر سهل، وهو رجل تحلى بمبادئه».

«الحقيقة هي أنك تتمنين لو كنت مثله يا روزي»، قال ذلك ليدجيت مهمهماً، مع ابتسامة لا تعكس غضباً لكنها من المؤكد لا تنم عن فرح. كانت روزموند صامتة ولم تبتسم ثانية، لكن تقاطيع وجهها قد عكست ارتياحاً شديداً دون أن تبتسم.

كلمات ليدجيت تلك كانت تشبه أحجار قياس الطرق مشيرة إلى البعد الذي بلغه عن مكان حلمه الذي تظهر فيه رزوموند كأفضل امرأة مثالية توقر وتبجل تفكير زوجها، وكأنها حورية تمسك بمشطها ومرآتها، وتغني أغنيتها لتهدأ حكمته الوقورة. بدأ يميز بين ذلك الإعجاب الخيالي والانجذاب إلى موهبة الرجل، لأنها تمنحه مكانة اجتماعية راقية، وكأنها زهرة في عروة سترته أو لقب يزين اسمه. ربما أعتقد أن روزموند قد سافرت هي أيضاً، لأنها وجدت حديث السيد بلمديل الفارغ متعباً جدًّا، ولكن بالنسبة إلى معظم الناس هناك غباء غير محتمل، كما أن هناك غباء مقبول تماماً... وإلا كيف ستكون العلاقات الاجتماعية؟

لقد كان لغباء الكابتن ليدجيت رائحة قوية تفوح على نمط خاص، ويعبر عنها بلهجة منمقة، كما كانت تعزى مباشرة إلى السير جودوين. لقد وجدتها روزموند مقبولة جدًّا فاستخدمت الكثير من عباراتها.

لأن روزموند، كما نعلم... كانت مولعة بركوب الخيل، فكان هناك الكثير من الأسباب التي تدعوها لمتابعة ركوبها للخيل عندما أمر الكابتن ليدجيت خادمه كي يدفعه بحصانين إلى حانة جرين دراجون، وطلب منها أن تخرج معه على الفرس الرمادية ولا سيما أنه قد تعهد أن يكون لطيفاً معها، وأنه قد تدرب على مساعدة النساء في ركوب الخيل. في حقيقة الأمر كان قد اشترى تلك الفرس لأخته، فكان في طريقه إليها في كولنغهام.

لقد خرجت روزموند لأول مرة دون أن تخبر زوجها، وعادت إلى المنزل قبل عودته، لكن الرحلة سارت بنجاح تام حتى إنها قد ذكرت بأن صحتها قد تحسنت جدًّا نتيجة ذلك، وقد أخبرت زوجها بها وهي متأكدة من أنه سيؤذن لها بالذهاب ثانية.

ولكن على العكس، فقد كان ليدجيت أكثر من جريح...! إذ دهش تماماً لمغامرتها بنفسها عندما ركبت حصاناً غريباً دون أن تسأله رأيه. بعد أول دهشة مصحوبة باستعداد لغضب مزلزل منه كانت كافية لتحذير روزموند مما هو قادم، ساد صمت للحظات.

«في أيّ حال فقد عدت بسلام... ».

أخيراً... قال بنبرة حازمة: «... إنك لن تذهبي ثانية يا روزي، فهذا مفهوم. لو كان أهدأ وأكثر الأحصنة ألفةً في العالم، فلا بد من أن تكون هناك دائماً فرصة لوقوع حادث. وأنت تعرفين جيداً أنني طلبت منك أن تقلعي عن ركوب تلك الفرس الغبراء لذلك السبب».

«لكن هناك فرصة لوقوع حادث داخل المنزل يا ترشيوس».

قال ليدجيت بنبرة استعطاف: «يا عزيزتي لا تقولي هراءً... بالتأكيد إن من يقرر.. يفعل ذلك لأجلك. أعتقد أنه كافٍ أن أقول إنك لن تذهبي ثانية».

كانت روزموند تصفف شعرها قبل العشاء. فما بدا أي تغير على انعكاس وجهها في المرآة باستثناء إمالتها قليلاً لرقبتها. كان ليدجيت يتمشى في الغرفة واضعاً يديه في جيبيه، ثم توقف بالقرب منها وكأنه كان ينتظر منها تأكيداً.

«أرجو أن تثبت لي ضفيرتي شعري يا عزيزي و...»، قالت روزموند منزلة ذراعيها إلى

الأسفل مع تنهيدة وكأنها تقصد جعل زوجها يخجل من وقفته هناك وكأنه رجل وحشي. لقد اعتاد ليدجيت أن يثبت لها ضفيرتيها من قبل لأنه أكثر الرجال رشاقة ويملك أصابع رشيقة. لقد رفع جميع خصلات شعرها إلى الأعلى، ثم ثبتها بالمشبك بإحكام.. لأجل مثل هذه المنافع يأتي الرجال.. وما عساه أن يفعل بعد ذلك سوى أن يقبل مؤخرة عنقها الفاتنة التي كانت تظهر بانحنائها اللطيف؟ ولكن عندما نفعل ما قد فعلناه من قبل دائماً نقوم به بطريقة مختلفة. لا يزال ليدجيت غاضباً ولم ينس الموضوع.

قال وهو ينصرف: «سأخبر الكابتن أنه كان ينبغي له أن يدرك ضرورة عدم تقديم فرسه لك».

قالت روزموند وهي تنظر إليه وقد بدا على كلامها شيء مميز أكثر من المعتاد: «أرجوك ألا تفعل شيئاً من هذا القبيل يا ترشيوس. سيبدو الأمر وكأنك تعاملني كما لو كنت طفلة. عدني أنك ستترك الأمر لي».

لقد بدا بعض الصدق في معارضتها. قال ليدجيت «حسن» بطاعة فظة، وهكذا انتهى النقاش بوعده لها وليس بوعدها له.

في حقيقة الأمر لقد تعمدت ألّا تعد، فقد كانت روزموند تتمتع بذلك العناد المنتصر، الذي لم يضع طاقاته في عناد طائش. ما كانت تحب فعله كان الشيء الصحيح، وكانت تكرس ذكاءها كلّه للحصول على وسائل تحقيقه. لقد نوت ركوب الفرس الرمادية اللون ثانية، وقد فعلت ذلك في أول فرصة أتيحت لها في أثناء غياب زوجها، متعمدة عدم معرفته حتى وقت متأخر، عندما لا يبقى لمعرفته قيمة بالنسبة إليها. لقد كان الإغراء بالتأكيد عظيماً.. لقد كانت مولعة بتلك الرياضة والاستمتاع بركوب الفرس الأصيلة بصحبة الكابتن ليدجيت، ابن السير جودوين، على حصان أصيل آخر، فيراها كل الناس ما عدا زوجها، في هذا الوضع، فقد كان هذا كلّه ممتعاً يشبه استمتاعها بأحلامها قبل الزواج. فضلًا عن ذلك فهي كانت تثبت علاقتها بالأسرة في كولنغهام، إذ كانت من الحكمة أن تفعل ذلك.

ولكن عندما لم تتنبه الفرس الرمادية اللطيفة إلى وقوع شجرة في طريقها، أجفلت وسببت رعباً أشد لروزموند مما أدى إلى فقدانها لجنينها. لم يستطع ليدجيت أن يظهر غضبه أمامها، لكنه صب جام غضبه على الكابتن الذي انتهت زيارته بعد ذلك مباشرة.

في أثناء جميع محادثاتهما اللاحقة حول الموضوع، كانت روزموند تؤكد أن ركوب الخيل

لم يكن سبباً وأنها لو بقيت في المنزل لكانت النتيجة نفسها، لأنها كانت قد شعرت بالأعراض نفسها من قبل. لم يستطع ليدجيت أن يقول سوى: «.. يا عزيزتي المسكينة... ». لكنه كان في سره يتعجب من عناد هذه المخلوقة. لقد كان إحساسه الداخلي بعجزه يقوى أمام روزموند، فقد كانت معرفته المتفوقة وقوته الفكرية منحّاة جانباً في جميع المسائل العملية بدلاً من أن تكون كما كان يتوقع، صرحاً مقدساً يستشار في جميع المناسبات. كان يعتبر ذكاء روزموند من النوع الذي يستقبل، فهو يناسب النساء، أما الآن... فقد بدأ يكتشف حقيقة ذلك الذكاء. لا أحد أسرع من روزموند في إيجاد الأسباب والتأثيرات التي تناسب ذوقها واهتماماتها.. لقد رأت بوضوح أن ليدجيت متفوق جدًّا ضمن مجتمع مدل مارش، وأنها قادرة على تتبع أثر اجتماعي أقوى في خيالها عندما تمنح موهبته فرصة. أما بالنسبة إليها، فلم يكن لطموحها المهني والعلمي علاقة بهذه التأثيرات المرغوبة أكثر مما لو كانت اكتشافاً محظوظاً لزيت ذي رائحة كريهة.

وبغض النظر عن ذلك الاكتشاف الذي لا يربطها به شيء، كانت بالطبع تؤمن برأيها أكثر مما تؤمن برأيه هو. لقد دهش ليدجيت باكتشافها لقضايا تافهة لا حصر لها، بالمقارنة بتلك الحالة الجدية التي نجمت عن ركوبها للخيل، حيث لم يحملها الحنان ولا العاطفة على الطاعة... لم يراوده شك في أن العاطفة والحنان كانا هناك، ولم يراوده شعور مسبق أنه قد فعل شيئاً يدفعها لرفض ذلك العطف والحنان.

من طرفه كان يقول لنفسه إنه قد أحبها حبّاً جمّاً وأنه قد استطاع أن يتقبل سلبياتها.

ولكن حسناً..! لقد كان ليدجيت قلقاً جدًّا، ومدركاً لعناصر تزعجه كثيراً في حياته، تشبه مستنقعاً طينيًّا وقع فيه مخلوق اعتاد على التنفس والاستحمام والحركة السريعة في مطاردته لفريسته في أنقى المياه. لقد عادت روزموند بسرعة لتبدو في أبهى حللها وهي تجلس إلى طاولتها، وتستمتع بالتجول في عربة أبيها، معتقدة أنها من المرجح ستدعى إلى كولنغهام. كانت تدرك أنها أثمن جوهرة بين جميع الفتيات اللواتي يتواجدن في غرفة الاستقبال، كما كانت تعتقد أن الرجال كانوا يدركون ذلك دون أن تأبه للتفكير في ما إذا كانت النسوة شغوفات كي يكتشفن ما إذا كان قد تفوق عليهن أحد.

بعد أن تخلص ليدجيت من قلقه حولها، عاد ليغرق في ما كانت تسميه في داخلها: نكده.

بالنسبة إليها... كانت تلك الكلمة تشمل جميع ما يشغله فكريًّا في جميع المواضيع باستثناء كل ما يتعلق بها، كما كان يشمل تقطيب جبينه، وعدم تذوقه الأشياء العادية وكأنها مزجت بأعشاب ذات مذاق مر، مما حولها إلى ما يشبه أداة تنبؤ تنذر بشروره وغضبه. هذه الحالة الفكرية الأخيرة كان لها سبب محدد بين الأسباب الأخرى تجنب ذكره لروزموند... لئلا يؤثر ذلك في صحتها ومزاجها. لقد كان لكل منهما منهج فكري يختلف عن منهج الآخر، كما هو متوقع من اثنين يفكران دائماً في بعضهما. بالنسبة إلى ليدجيت، كان يعتبر نفسه وكأنه كان يقضي الشهر تلو الآخر، وهو يضحي بأكثر من نصف أهدافه وقدراته في رعايته لروزموند، متحملًا طلباتها الصغيرة ومقاطعتها دون صبر، وفضلًا عن ذلك... كان عليه أن يتحمل، دون أن يعبر عن مرارته، رؤية الوهم وهو يتلاشى، والنظر إلى تفكيرها الفارغ مقابل حماسه المتقد تجاه أهداف شخصية يحققها من خلال مهنته ودراسته العلمية.. حماس جعله يعتقد أن المرأة المثالية يجب عليها أن تعدّ ذاك الحماس وكأنه وقار جليل دون معرفة السبب. إلا أن تحمله كان ممتزجاً بعدم رضا ذاتي، لو عرفنا كيف نحيده، لاعترفنا بأكثر من نصف مرارتنا في ظلّ الأسى والمعاناة بما فينا الزوج والزوجة. تبقى حقيقة دائمة هي أننا لو كنا أقوى لكانت الظروف أقل تأثيراً علينا. لقد كان ليدجيت مدركاً أن تنازلاته لروزموند كانت في أغلب الأوقات هفوة لدى اتخاذه قراراً متساهلاً، فالشلل الزاحف يميل للجم الحماس الذي يتحكم في استمرار حياتنا، وبالنسبة إلى حماس ليدجيت، الذي كان يضغط بشكل دائم ليس على قليل من الأسى، بل على الشعور المؤلم للحضور التافه المهين، كإلقاء السخرية المُرَّة على جميع المساعي السامية.

لقد كان هذا الاهتمام الذي أحجم حتى الآن عن ذكره لروزموند، وكان يعتقد متعجباً أنه لم يدخل في تفكيرها، على الرغم من أنه لا توجد صعوبة أقل غموضاً. لقد كان تخميناً مع مستمسك جلي ما، تبينه مراقبون محايدون بسهولة أن ليدجيت كان يغرق في دينه، وأنه لم يستطع أن يبعد عن تفكيره أنه كان يغرق أكثر فأكثر في كل يوم في ذلك المستنقع الذي يجتذب الرجال نحوه بعد أن يغطي نفسه بالزهور وخضرة النبات الجميلة. من المدهش كيف يقع الرجل غريقاً حتى ذقنه بسرعة هناك، وهو في حالة يجبر خلالها على التفكير في الخلاص على الرغم من امتلاكه لنظام كوني في داخله. منذ ثمانية عشر شهراً كان ليدجيت فقيراً، لكنه لم يعرف قط الحاجة إلى مبالغ صغيرة، فكان يزدري بشدة كل من يتنازل خطوة لأجل الحصول عليها. إنه يمر بتجربة أسوأ من عجز بسيط.. فقد هاجمه بقسوة رجل فظ وحاقد... حيث كان قد اشترى واستخدم كثيراً من الأشياء الثمينة، التي

ليس به حاجة إليها، ولم يكن قادراً على تسديد ثمنها، على الرغم من شدة المطالبة بها. يمكن مشاهدة كيف حصل ذلك، دون الاستعانة بالحسابات الرياضية أو معرفة الأسعار، فعندما يقوم الرجل بالتحضير لمستلزمات زواجه، وتهيئة منزل للغرض نفسه، يجد أن ثمن الأثاث والنفقات الأخرى تصل إلى مبلغ يراوح ما بين أربعمئة جنيه والخمسمئة جنيه أكثر مما كان يملك، وعند نهاية العام الأول من زواجه، يجد أن الإنفاق على منزله وخيله وإلى آخره، يصل إلى ألف جنيه تقريباً، بينما دخل العيادة، بحسب الدفاتر القديمة، كان ثمانمئة جنيه، ثم اضمحل، كما يضمحل الماء في بحيرة الصيف، إلى خمسمئة جنيه فقط، فقد كان جزء كبير منه عبارة عن دخل لم يدفع، هكذا يبقى الاستنتاج الواضح، سواء أحبه أو لم يحبه، أنه واقع في الدين.

لقد كانت تلك الأزمان أقل تكلفة من زمننا هذا، وكانت الحياة في الأقاليم متواضعة إلى حدّ ما، لكن السهولة التي من خلالها يستطيع أن يتبين بأن نفقاته قد تضاعفت، ولا سيما أنه قد اشترى مؤخراً عيادة طبية، وكان يعتقد أنه ينبغي له أن يحتفظ بحصانين، وأن مائدته ينبغي أن تظل عامرة دائماً، وكان يدفع تأميناً على حياته وأجرة باهظة مقابل مسكنه وحديقة بيته، فذلك كله يمكن أن يلاحظه أي إنسان لا يؤمن أن هذه الجزئيات هي دون اعتباراته.

كانت روزموند المعتادة منذ طفولتها على حياة الترف، تعتبر أن المحافظة على حياة جيدة تتطلب شراء أفضل الأشياء. ولا سيما أنه لم يرد أي جواب عن ذلك، كما كان يعتقد ليدجيت أنه إذا ما كان للأشياء أن تحقق أو تنفذ، فلا بد لها من أن تجزى على أكمل وجه، وإلا فكيف يمكن لهما أن يعيشا.

لو ذكر له مسبقاً كم هي نفقات كل شخص في المنزل لقال عندها: «إنها ليست أكثر مما ينبغي». وإذا ما اقترح أحد الادخار من خلال استبدال بعض العناصر، على سبيل المثال... كاستبدال لحم الغزال بالسمك الرخيص، لكان الأمر بالنسبة إليه بمثابة ادخار قروش قليلة جدًّا. لقد كانت روزموند مولعة بتقديم دعوات العشاء حتى من دون مناسبة، كزيارة الكابتن ليدجيت، وعلى الرغم من أن ليدجيت كان يرى أن الزائرين متعبون، فإنه لم يتدخل، بل كان يبدو له هذا النوع من الحياة الاجتماعية ضروريًّا لأجل حكمة مهنته، ولا بد من أن يكون الاستمتاع مناسباً. صحيح أن ليدجيت كان يقوم باستمرار بزيارة الأسر الفقيرة، ويحدد برامجها الغذائية حسب العناصر البسيطة المتوافرة لهم، ولكن يا إلهي...!

ألم يكن ذلك ملاحظاً في ذاك الوقت، أليس ذلك ما نتوقعه من الرجال أن يتوافر لديهم كم هائل من الخبرة المتراكمة، ولا نقارن بين بعضهم بعضاً؟ إن النفقات كالبشاعة، والأخطاء تصبح شيئاً جديداً عندما نربط أنفسنا بها، ونقيسها من خلال ذلك الاختلاف الشاسع الذي يظهر جليًّا في مشاعرنا وأحاسيسنا المختلفة عن أحاسيس ومشاعر الآخرين.

كان يعتبر ليدجيت أنه لا يبالي بثيابه كثيراً، وكان يحتقر الرجل الذي يضع اعتباراً شديداً لها على الآخرين، فقد هجر ارتداء الملابس الجديدة التي كان يطلب الأكوام منها من قبل. ينبغي التذكر أنه لم يشعر حتى الآن بقسوة الدين المزعج، وكان يتصرف بحسب عادته، وليس بحسب النقد الذاتي، لكن وقت التدقيق قد أتى. إن حداثة الأمر عليه قد جعلته أكثر إزعاجاً، إذ كان مندهشاً ومستاءً جدًّا، لأن الظروف كانت غريبة جدًّا بالنسبة إلى أهدافه، ومنقطعة عن الأشياء التي كان يهتم بها، فقد نصبت له كمينًا وأوقعت به من حيث لا يدري ولا يحتسب. ولم يكن هناك الدين فقط بحد ذاته، بل التأكد من أنه نتيجة لوضعه الحالي سيتعمق ذلك الدين أكثر فأكثر.

لقد أرسل له تاجرا أثاث من براسنغ عدداً من الرسائل المزعجة. إذ كانا قد أرسلا له فواتيرهما قبل زواجه، ومنعته مصارف حياته الحالية من سدادها، مما جعل تلك الرسائل مصدر قلق وإزعاج له.لم يكن ممكناً لهذا الأمر أن يكون أكثر سخطاً على أحد مما هو على ليدجيت، ولا سيما أنه كان يتمتع بكبرياء قوية، وكراهية لطلب المساعدة من الآخرين، وكذلك كراهية لأن يكون مديناً لأحد، فقد كان يزدري حتى التفكير في نوايا السيد فنسي تجاه القضايا المالية، فلا شيء، باستثناء الضرورة القصوى، يمكن أن يدفعه للاستعانة بوالد زوجته، حتى لو لم يحط علماً، في مناسبات عديدة وبطرق غير مباشرة منذ زواجه، بأن أعمال السيد فنسي لم تكن في حالة ازدهار، وأن الرد على مساعدته سيكون عبارة عن امتعاض.

يثق بعض الرجال كثيراً في استعداد الأصدقاء للمساعدة، ولكن لم يخطر لليدجيت في حياته أن يفعل ذلك يوماً، فهو لم يفكر ماذا سيكون الاقتراض بالنسبة إليه، ولكن الآن وقد دخلت الفكرة رأسه، بدأ يفكر في التعرض لأيّ قسوة أخرى. في ذلك الوقت لم يكن يملك أيّ نقود، ولم يكن يتوقع تسلّم أيّ مبالغ مالية، ولا سيما أن عيادته لم تصبح أكثر ربحاً. لا عجب أن ليدجيت كان عاجزاً عن كبح جميع مظاهر القلق الداخلي خلال الأشهر الأخيرة، والآن وقد بدأت روزموند تستعيد صحتها تماماً بدأ يفكر في إقحامها في مشاكله.

اطلاع جديد على فواتير التجار، قد أجبر تفكيره على إنشاء مقارنة جديدة.. بدأ يعتبر، من وجهة نظر جديدة، ما هو ضروري وما هو ليس ضرورياً من بين مشترياتهما، كما بدأ يقتنع بأن لا بد من أن يكون هناك تغيير في بعض العادات المتبعة. كيف يمكن لمثل هذا التغير أن يتحقق دون تعاون روزموند؟ أول فرصة صارحها بها بالحقيقة كانت قد فرضت نفسها عليه.

عندما لم يكن لديه أيّ نقود، وعندما طلب النصيحة سرًّا عمّا يمكن لرجل في مكانته أن يقدم ضمانًا لدينه، قدم ليدجيت الشيء الوحيد الذي كان يستطيع تقديمه لمن هو أقل الدائنين تعجرفاً والذي كان صائغ فضة وبائع جواهر في الوقت عينه، وهو الذي وافق على أن ينقل إليه دين ليدجيت للمنجد، مقابل فائدة لمدة معلومة. لقد كان الضمان عبارة عن ثمن بيع جميع أثاث منزله مما يمكن أن يجعل الدائن متساهلاً لمدة معقولة تجاه دين يبلغ حوالي أربعمئة جنيه، وقبل صائغ الفضة السيد دوفر أن يخفضه مقابل أن يأخذ مجموعة أدوات المائدة الفضية، بالإضافة إلى أيّ قطعة أخرى تكاد تكون جديدة.

.. كأيّ ممتلكات تتضمن جواهر، وخصوصًا بعض الأحجار الكريمة البنفسجية اللون التي ثمنها ثلاثون جنيهاً وقد اشتراها ليدجيت كهدية زواج، يمكن أن تنقسم الأراء حول هذه الهدية بناء على حكمته.. إذ يمكن لبعضهم أن يعتبرها تعبيراً عن اهتمام سام، وأن أي خطأ ينجم عنه نتائج متعبة يعود مرده إلى قسوة حياة الريف الضيقة في ذلك الوقت، حيث لم تقدم عناصر الحياة المريحة لأصحاب المهن الذين لم يحالفهم حظ يناسب أذواقهم ؛ بالإضافة إلى أن ليدجيت يملك حساسية شديدة تجاه استدانته للمال من أصدقائه.

في أيّ حال لم تبد المسألة ذات أهمية بالنسبة إليه، عندما ذهب ليشتري أدوات المائدة الفضية.. وجد هناك مجوهرات باهظة الثمن، فاشترى مجوهرات تليق بعنق روزموند ويديها، مما جعل الحساب يزيد ثلاثين جنيهاً عما كان متوافراً لديه. ولكن في هذه الأزمة... لم يستطع خيال ليدجيت أن يتجنب التفكير في جعل هذه المجوهرات من ضمن الممتلكات المرهونة لصالح السيد دوفر على الرغم من إحجامه عن عرض هذا الاقتراح على روزموند عندما بدأ يدرك النتائج التي لم يعتد على تتبعها من قبل، كان يتهيأ ليتصرف ببصيرة مترافقة ببعض القسوة تماماً كما كان يفعل في تجاربه. لقد كان يشحذ نفسه بهذه القسوة بينما كان في طريقه من براسنغ، وهو يفكر في ما يجب أن يعرضه على روزموند.

كان الوقت مساءً عندما وصل إلى منزله، وكان يشعر بتعاسة شديدة... هذا الرجل

القوي ذو التسعة والعشرين ربيعاً ويمتلك مواهب كثيرة. لم يعترف لنفسه أنه قد ارتكب خطيئة جسيمة، لكن الخطأ كان يعتمل في نفسه، كما يعتمل أي مرض مزمن، مازجاً جميع مضايقته الصعبة مع كل موضوع، ومضاعفاً جميع الأفكار.

بينما كان يسير في الممر الذي يقود إلى غرفة الاستقبال، سمع عزفاً على آلة البيانو وغناءً... بالطبع.. لقد كان هناك لادسلو. لقد مرت أسابيع عديدة منذ أن افترق لادسلو عن دورثيا، لكنه لا يزال يعمل في مكانه القديم في مدل مارش.

لم يكن لدى ليدجيت أي اعتراض على قدوم لادسلو، ولكن في هذا الوقت هو متضايق عندما لم يجد بيته خالياً. عندما فتح الباب تابع المغنيان غناءهما مكتفيان برفع نظرهما نحوه وكأنهما لا يعتبران دخوله سبباً لتوقفهما عن الغناء.

بالنسبة إلى رجل مغتاظٍ من نير قد قيّده، كما كان عليه ليدجيت المسكين، لم تكن مشاهدته لشخصين يغنيان مبعث راحة في نفسه، ولا سيما أنه عندما دخل، كانت لا تزال آلام هذا اليوم تخزه. لقد كان وجهه شاحباً أكثر من المعتاد ويرتسم عليه العبوس، بينما سار عبر الغرفة ليلقي بنفسه إلى كرسي، وعندما شعر المغنيان أنهما قد قاربا على الانتهاء من غناء تلك المقطوعة استدارا نحوه...

قال ويل مقترباً منه ليصافحه: «كيف حالك يا ليدجيت..؟». صافحه ليدجيت لكنه كان يعتقد أنه لم تكن هناك حاجة للتحدث إليه..

«هل تناولت عشاءك يا ترشيوس؟ توقعت قدومك في وقت أبكر من هذا الوقت». قالت ذلك روزموند التي لاحظت أن مزاج زوجها سيئ جدًّا، وقد أخذت مكانها المعتاد عندما تحدثت إليه.

قال ليدجيت بفظاظة وهو لا يزال عابساً وينظر إلى ساقيه الممدودتين أمامه: «لقد تناولته. إنني أرغب في تناول الشاي من فضلك». لقد فهم ويل الأمر مباشرة.. قال وهو يتناول قبعته: «سأنصرف».

قالت روزموند: «الشاي في الطريق... أرجوك لا تذهب».

«بلى..إن ليدجيت متضايق». هذا ما قاله ويل الذي أدرك وضع ليدجيت النفسي أكثر مما أدركته روزموند، ولم يشعر باستياء نتيجة أسلوبه، إذ فهم بسهولة أن أسباب مضايقته

كانت خارجية.

قالت روزموند بمرح وبألطف نبرات صوتها: «هناك حاجة ملحة لبقائك... إنه لن يتكلم معي طوال المساء».

قال ليدجيت بصوت قوي: «بل بلى يا روزموند إنني سأفعل... لدي أمر مهم أريد أتحدث إليك حوله».

لا مدخل إلى ذلك الأمر يمكن أن يكون أفضل من ذلك المدخل الذي نوى عليه ليدجيت، لكن تصرفها غير المبالي كان مغيظاً.

قال ويل: «ها هو كما ترين...! إنني ذاهب إلى الاجتماع، الذي هو حول معهد الميكانيك. وداعاً». خرج من الغرفة مسرعاً.

لم تنظر روزموند إلى زوجها، لكنها نهضت لتجلس أمام أدوات الشاي. كانت تفكر في أنها لم تره ممتعضاً هكذا من قبل. أدار ليدجيت عينيه الداكنتين نحوها، وظل يراقبها بينما كانت تقدم الشاي بأصابعها الطويلة، وتنظر إلى الأشياء أمامها مباشرة، دون أن يظهر على وجهها أي قلق أو اضطراب على الرغم من أنه كان في داخلها احتجاج لا حدود له على جميع الناس الذين تكون تصرفاتهم غير لبقة.

في تلك اللحظة فقد فجأة إحساسه بجرحه نتيجة تفكيره المفاجئ بهذا الهدوء الأنثوي الجديد، الذي ظهر له وكأنه كائن خرافي يعيش في السماء، وقد فسره مرة على أنه دليل على حساسية عالية الذكاء.

بينما كان ينظر إلى روزموند عاد فكره إلى الممثلة لور فقال في داخله: «هل ستقتلني لأنني أتعبتها؟».. ثم أضاف: «إنها طريقة جميع النساء».

إن هذه القدرة على التعميم، التي تجعل الرجال في منزلة أعلى من منزلة الحيوانات البليدة في ارتكابهم للأخطاء، قد أعاقها تذكر ليدجيت لانطباعاته العجيبة عن تصرفات امرأة أخرى... أي نظرات دورثيا ومشاعرها تجاه زوجها عندما بدأ يشرف ليدجيت على علاجه، وبكائها العاطفي كي يخبرها أحد عما هو أفضل شيء يمكن أن يريح ذلك الرجل، الذي كان عليها لأجله أن تقمع كل نبضة فيها باستثناء تعطشها للوفاء والتعاطف.

لقد كانت تتلاحق هذه الانطباعات الحية في ذاكرة ليدجيت بينما كان يهيأ الشاي له، ثم أغمض عينيه لدى آخر فكرة تذكرها، عندما دوي في ذاكرته صوت دورثيا وهي تقول: «انصحني... فكر ماذا يمكنني أن أفعله... لقد عمل طوال حياته وهو يطمح. إنه لا يأبه لأي شيء آخر، وأنا لا آبه لأي شيء آخر».

ظلّ ذلك الصوت الأنثوي العميق يدوي في داخله وكأنه مفاهيم عبقرية ذات سلطة ميتة. ألا توجد عبقرية تبعث الإحساس النبيل، وتتحكم بالأرواح البشرية ونهايتها؟ كانت الأصوات كالموسيقى... كان يحاول الهرب منها، وعندما وقع في لحظة نعاس... سمع روزموند تقول بصوت رنّان معتدل: «هاك شايك.. يا ترشيوس»... واضعة إياه على طاولة صغيرة كانت إلى جانبه، ثم عادت إلى مكانها دون أن تنظر إليه.

لقد تسرع ليدجيت أكثر مما ينبغي في وصفه لها بالجمود، فهي، على طريقتها، كانت على قدر كافٍ من الحساسية كما كانت تتقبل الانطباعات. في هذه المرة كان يشوب انطباعها سوء وغيظ، ولكن، لأن روزموند لا يعلو وجهها تقطيبات ولا ترفع صوتها عالياً، كانت روزموند متأكدة بعد ذلك من أن لا أحد يمكنه أن يجد فيها عيباً.

ربما لم يشعر كل من ليدجيت وروزموند أنهما بعيدان عن بعضهما من قبل كما هما الآن، ولكن كانت هناك أسباب قوية تجعله يسرّع مصارحته لها على الرغم من أنه لم يبدأ بها بدقة ووضوح، ففي حقيقة الأمر لقد حثتها رغبة غاضبة لتكون أكثر حساسية على حسابه مما اضطره للحديث قبل أوانه ولكن لا تزال آلامه ممتزجة بآلامها. لقد انتظر حتى أزيحت أقداح الشاي وأضيئت الشموع وحلّ هدوء المساء... فأصبحت الفرصة سانحة كي يعود هدوؤه المحبَط إلى طبيعته، فقال بلطف: «عزيزتي روزي ضعي عملك جانباً وتعالي لتجلسي إلى جانبي..»، قال ذلك بلطف وهو يدفع بالطاولة جانباً ثم مد يده ليجر كرسيًّا إلى جانبه.

لقد أطاعته روزموند، فجاءت نحوه مرتدية ثوباً شفافاً من قماش الموسلين الفاتح اللون، يبدو من خلاله جسمها الرشيق وهو ليس بالطويل وأكثر جمالاً، وبعد أن جلست إلى جانبه ووضعت يدها على مسند كرسيه، نظرت إليه أخيراً، فالتقت عيناها بعينيه، فعنقها اللطيف ووجنتاها الناعمتان وشفتاها الرقيقتان لم يظهر عليها من قبل مثل ذاك الجمال الساحر، الذي لا تظهر مثل فتنته وعذوبته وسحر جماله إلا في فصل الربيع.

لقد راح يؤثر في نفس ليدجيت الآن، فراحت تمتزج اللحظات الأولى من حبه لها

مع جميع ذكرياته التي تدفقت في هذه الأزمة العميقة. لقد وضع يده الكبيرة بلطف على يدها قائلاً: «يا عزيزتي...!» بطريقة متباطئة منحت الكلمة بعض التأثير. أيضاً روزموند كانت تحت تأثير الماضي نفسه، ولا يزال زوجها يختلف عن ليدجيت الذي كانت تحرك موافقته البهجة. أزاحت شعره برفق عن جبينه، ثم وضعت يدها الأخرى فوق يده وكانت تنوي مسامحته.

«إنني مضطر كي أخبرك شيئاً سيؤذيك يا روزي، لكن هناك أشياء ينبغي للزوجين أن يفكرا فيها سوية. إنني أجرؤ على أن أقول هل خطر لك يوماً أنني في حاجة إلى نقود». صمت ليدجيت لكن روزموند أدارت وجهها لتنظر إلى مزهرية فوق رف موقد النار.

«لم أستطع سداد ثمن الأشياء التي اشتريناها قبل الزواج، إذ كان علي سداد نفقات حياتنا بعد الزواج. النتيجة دين كبير في براسنغ، ثلاثمئة وثمانون جنيهاً لا تزال ترهقني منذ فترة طويلة، وفي حقيقة الأمر إننا نغرق في الدين أكثر فأكثر في كل يوم، لأن الناس لا يدفعون لي بسرعة بسبب أن الدائنين يطالبون بنقودهم. لقد عانيت كثيراً جراء إبقاء الأمر سرًّا عليك عندما لم تكن صحتك جيدة، ولكن الآن ينبغي لنا أن نفكر في الأمر سوية، ويجب عليك أن تساعديني».

قالت روزموند وقد أعادت نظرها إليه: «ماذا يمكنني فعله يا ترشيوس؟». تشبه تلك الجملة القصيرة المؤلفة من أربع كلمات كثيراً من الجمل الأخرى في جميع اللغات، وهي قادرة على التعبير عن جميع الظروف الفكرية وتغييره من كونه معتماً لا فائدة ترتجى منه، إلى مستقبل جدلي متعب ومن امتلاكه لصحبة ذاتية تامة إلى منعزل حيادي، وذلك من خلال تغير طبقات الصوت.

نطقت روزموند بكلماتها بصوت عذب «ماذا يمكنني أن أفعل...؟؟» وبأكثر اعتدال يمكن أن يوفر في نطقها، فوقعت تلك الكلمات على حساسيته المتأججة وكأنها برد يجمدها. إنه لم يشتط غضباً، بل شعر بحزن شديد يغمر قلبه، وعندما تحدث ثانية جاء حديثه بنبرة صوت رجل يضغط على نفسه لينجز مهمته.

«من الضروري لك أن تعلمي أنه يجب علي أن أقدم ضماناً لمدة معلومة من الزمن، لذا سيأتي رجل ليحصي أثاث المنزل..». احمرت روزموند بشدة.. فقالت عندما استطاعت أن تقول شيئاً: «ألم تطلب من أبي مالاً؟».

فأجاب: «كلا».

قالت وهي ترفع يدها عن يد ليدجيت، ثم تنهض لتقف على بعد ياردين عنه: «إذاً سأطلب منه أنا...».

قال ليدجيت بحزم: «كلا يا روزي...! لقد تأخر الوقت على ذلك، فالإحصاء وقائمة الجرد سيبدآن غداً. تذكري أنه مجرد ضمان، فلن يحدث ذلك أي اختلاف، وهو إجراء مؤقت. إنني أؤكد أنه يجب ألّا يعلم أبوك بشيء قبل أن أقرر ذلك»، هذا ما أضافه ليدجيت بتأكيد قاطع.

من المؤكد لم يكن هذا لطيفاً، لكن روزموند أعادته إلى التفكير الشرير بالنسبة إلى ما يمكن أن تفعله في حالة عصيانها الهادئ والثابت. لقد بدت فظاظته لا تغتفر بالنسبة إليها. إنها لم تنتحب لأنها لم تحب ذلك، ولكن الآن بدأت ترتعش شفتاها وذقنها، ثم انهمرت دموعها.

ربما لم يكن في مقدور ليدجيت أن يتخيل تماماً وقع هذه المحاولة المفاجئة على مخلوقة شابة لا تعرف شيئاً سوى الإسراف، وجميع أحلامها تتمحور حول اهتمامات جديدة تنسجم مع ذوقها، ولا سيما أنه كان تحت ضغط مزدوج.. الصعوبات المالية الخارجية، ومقاومته الأبية للنتائج المهينة.

إلا أنه رغب في الإشفاق عليها قدر ما استطاع، إذ إن دموعها قد فطرت قلبه. إنه لم يستطع أن يقول شيئاً مباشرة، وروزموند لم تتابع نحيبها، إذ حاولت أن تسيطر على غضبها، فمسحت دموعها وهي تنظر إلى رف موقد النار.

قال ليدجيت بعد أن رفع نظره إليها: «حاولي ألّا تكتئبي يا عزيزتي..». لكنها اختارت أن تبتعد عنه في لحظة الإزعاج هذه، فقد كان من الصعب عليها أن تعبر عن أي شيء، ولكن ينبغي له من كل بد أن يتابع: «يجب أن نقوي أنفسنا كي نقوم بما هو ضروري... إنه أنا... إنه أنا من ارتكب الخطأ، إذ كان ينبغي لي أن أدرك أنني لا أستطيع العيش بهذه الطريقة، لكن أشياء كثيرة قد وقفت في طريقي في عيادتي. وقد وصلت الآن حقًّا إلى أدنى نقطة. يمكنني معالجة الوضع، ولكن يجب علينا في الوقت الحاضر أن نتوقف، فنغير من طريقة عيشنا. إننا سنتكيف مع الوضع الجديد، وعندما أقدم هذا الضمان سيكون لدي وقت كافٍ كي أتدبر أمري، وأنت على درجة عالية من الذكاء، فإذا ما وظفت تفكيرك في الإدارة فإنك ستعلمينني الحرص. لقد كنت وغداً لا أفهم في جمع الأسعار. تعالي يا عزيزتي.. اجلسي

وسامحيني..». كان ليدجيت يحمي رقبته تحت النير وكأنه مخلوق يملك موهبة لكنه يملك أيضاً حكمة غالباً ماتدفنها بالخنوع.

عندما نطق كلماته الأخيرة بنبرة توسل، عادت روزموند إلى كرسيها الذي كان بجانبه. لقد منحتها ملامة نفسه بعض الأمل بأنه سيمتثل لرأيها، فقالت:

«لماذا لا تستطيع أن توقف إجراءات جرد الأثاث..؟؟ يمكنك أن تردّ الرجال عندما يأتون غداً».

قال ليدجيت وقد عاد حزمه إلى قوته ثانية: «إنني لن أردّهم... هل كان الشرح مجدياً؟».

«لو تركنا مدل مارش؟ فإننا سنبيع أثاثنا، وهكذا يمكن أن يسدد الدين أيضاً».

«لكننا لن نغادر مدل مارش».

«إنني متأكدة يا ترشيوس من أن الأفضل لنا أن نفعل ذلك. لماذا لا نستطيع أن نذهب إلى لندن؟ أو بالقرب من درم حيث تستقر عائلتك؟».

«لا نستطيع أن نذهب إلى مكان دون نقود يا روزموند».

«لا يتمنى محبوك أن تكون مفلساً، ومن المؤكد أن أولئك التجار الغرباء سيتفهمون ذلك، وينتظرون إذا ما قدمت لهم عرضاً مناسباً تماماً».

قال ليدجيت بغضب: «إن هذا لا يجدي يا روزموند..!! يجب عليك أن تتعلمي كيف تتقبلين قراراتي في مسائل لا تفهمينها. لقد هيأت لبعض الإجراءات الضرورية، ويجب أن تنفذ بالنسبة إلى أحبائي وأصدقائي فأنا لا أتوقع منهم شيئاً، وأنا لن أطلب منهم شيئاً». ظلّت روزموند جالسة بلا حراك فالفكرة التي كانت تدور في خلدها هي أنها لو كانت تعلم كيف يمكن لليدجيت أن يتصرف، لما تزوجته.

قال ليدجيت محاولاً أن يكون لطيفاً ثانية: «لا وقت لدينا كي نضيعه في كلام لا قيمة له وغير ضروري. هناك بعض التفاصيل أريد أن أستعرضها معك. يقول دوفر إنه سيسترجع بعض أدوات الطعام، بالإضافة إلى أي من المجوهرات التي نختارها. إنه حقّاً يتصرف معي على وجه حسن».

«هل يجب علينا إذاً أن نبقى دون ملاعق أو سكاكين؟»، قالت هذا روزموند وقد رقت شفتاها لتغدوا برقة صوتها. لقد قررت ألّا تبدي أي معارضة أو اقتراحات.

قال ليدجيت: «كلا يا عزيزتي... حسناً انظري» -تابع وهو يسحب ورقة من جيبه ويفتحها- «هذا حساب السيد دوفر. انظري لقد أشرت إلى عدد من الأشياء التي إذا أعدناها، فإنها ستخفض من الدين مقدار ثلاثين جنيهاً وربما أكثر. إنني لم أضع إشارة على أيّ قطعة من المجوهرات». حقًّا! قد شعر ليدجيت أن أمر المجوهرات يبعث في نفسه مرارة شديدة، لكنه تغلب على هذا الشعور بجدل عنيف. لم يستطع أن يقترح على روزموند أن تعيد أيّ قطعة من الهدايا التي قدمها لها، لكنه حدث نفسه بأنه مضطر لوضع عرض السيد دوفر أمامها، فاندفاعها الداخلي يمكن عندها أن يسهل الأمر.

قالت روزموند بهدوء: «لا فائدة ترتجى من رؤيتي لها يا ترشيوس. أعد ما شئت». لم تنظر إلى الورقة، أما ليدجيت فقد احمر وجهه غضباً، فسحب الورقة وتركها تقع على ركبته.

خرجت بعدها روزموند من الغرفة بهدوء تاركة ليدجيت يفكر عاجزاً. ألن تعود؟ يبدو أنها لم تعد قادرة على التأقلم معه، فقد أصبحا مخلوقين من صنفين مختلفين لهما اهتمامات مختلفة... لقد أرجع رأسه إلى الوراء ودس يديه عميقًا في جيبيه بنوع من الغضب. لا يزال هناك علم، ولا يزال هناك أهداف جيدة يعمل لأجلها، ما زال عليه أن يجر الحبل بأقصى قوته، لأن القناعات الأخرى كانت تذهب في مهب الريح.

إلا أن الباب قد فتح لتعود روزموند وهي تحمل العلبة الجلدية التي كانت تحتوي على المجوهرات وسلة مزخرفة صغيرة تحتوي على علب أخرى، فوضعتها على الكرسي الذي كانت تجلس عليه، ثم قالت بوقار مهيب: «هذه جميع المجوهرات التي أعطيتني إياها. يمكنك أن تعيد ما تشاء منها ومن أدوات الطعام أيضاً. بالطبع لن تتوقع مني أن أبقى في المنزل غداً، فأنا ذاهبة إلى منزل أبي».

بالنسبة إلى كثير من النساء فالنظرة التي ألقاها ليدجيت عليها تعتبر أسوأ من نظرة الغضب.. فقد كانت تحمل في طياتها قبولاً يائساً بالبعد الذي كانت تنشئه بينهما. قال وقد شابت المرارة صوته: «ومتى ستعودين ثانية؟».

«في المساء. بالطبع لن أذكر الأمر لأمي»... كانت روزموند مقتنعة بأنه لا توجد امرأة يمكن أن تتصرف بلا عيب أكثر مما قد تصرفت هي، ثم ذهبت لتجلس إلى طاولة عملها.

جلس ليدجيت يفكر للحظة أو اثنتين فكانت النتيجة أن قال بصوت قد شابته عاطفة غريبة:

«الآن وقد اتحدنا يا روزموند... لا ينبغي لك أن تتركيني وحيداً لدى أول معضلة أواجهها».

قالت روزموند: «من المؤكد لن أفعل، فإنني سأفعل كل ما يجب علي فعله».

«ليس صحيحاً أن يترك الأمر إلى الخدم، أو أن أجبر على إخبارهم به، ولا سيما أنه يجب علي الخروج مبكراً ولا أعلم متى. إنني أعلم أنك تنكمشين من الذل الذي يسببه هذا الشأن المالي، ولكن يا عزيزتي روزموند، بالنسبة إلى الكبرياء، فإنني أشعر به كما تشعرين به، بالتأكيد من الأفضل أن ندبر الأمر بأنفسنا ولا ندع الخدم يعرفون عنه إلا أقل ما يمكن، وما دمت زوجتي فلا يوجد شيء يمنعك من مشاركتي خزيي.. هذا لو كان هناك ما هو مخزٍ».

لم تجب روزموند مباشرة، لكنها قالت أخيراً:

«حسناً، إنني سأبقى في المنزل».

«إنني لن ألمس هذه المجوهرات يا روزي. خذيها ثانية، لكنني سأكتب قائمة بأدوات الطعام التي سنعيدها، فيمكن أن تحزم وترسل مباشرة».

قالت روزموند بمسحة سخرية: «سيعرف الخدم ذلك».

«حسناً لا بد لنا من أن نواجه بعض المضايقات وذلك بحسب الضرورة. أين الحبر؟» قال، ذلك ليدجيت وهو ينهض ملقياً بورقة الحساب على الطاولة الكبيرة حيث ينبغي له أن يكتب.

ذهبت روزموند لتأتي بالمحبرة، وبعد أن وضعتها على الطاولة كانت تستدير لتنصرف عندما وضع ليدجيت، الذي كان يقف قريباً منها جدًّا، ذراعه على كتفيها وسحبها نحوه قائلاً:

«تعالي يا عزيزتي.. لنأخذ الأشياء بإيجابية. إننا سنكون بخلاء ومدققين فقط لبعض الوقت. قبليني».. لقد احتاجت حرارة قلبه المشتعل الكثير كي تنطفئ، وإنه لينقص من رجولة الزوج أن يشعر أن فتاة لا تملك خبرة قد وقعت في معضلات نتيجة لزواجها منه. تلقت قبلته، وردت عليها بمثلها ببرود، وبهذه الطريقة ظهر أن كل شيء على ما يرام في ذلك الوقت... ولكن في الظاهر فقط. إلا أن ليدجيت لم يستطع أن يتجنب تطلعه بخشية إلى محاورات مستقبلية ملزمة حول النفقات وضرورة التغيير التام في طريقة حياتهما.

الفصل التاسع والخمسون

قالوا في القديم: للروح هيئة كهيئة البشر،

لكنها أصغر حجماً، وأدق من جسد الإنسان،

لذلك تخرج للتنفس متى شاءت.

فترى بجانب وجهها الملائكي كائناً..

بشفتين شاحبتين تهمسان...

ملقنة في تلك الصدفة الصغيرة، التي هي أذنها.

تنتشر الأخبار عادة دون تفكير، ولكن بشكل مؤثر يشبه حمل النحل لغبار الطلع، إذ لا يدرك كم هو دقيق وهو يئز أثناء بحثه عن رحيق خاص. تنطبق هذه المقارنة على فرِد فنسي، الذي سمع في ذلك المساء حين كان في بيت الكاهن في لُوِيك، حواراً مثيراً دار بين السيدات حول الأخبار التي حصل عليها خادمهن القديم من تنترب، والتي تتعلق بذكر السيد كزابون الغريب للسيد لادسلو في ملحق وصيته الذي حرره قبل وفاته بوقت قليل.

لقد ذهلت الآنسة وينفرِد عندما عرفت أن أخاها كان يعلم مسبقاً بالحقيقة، فاعتقدت أن كامدن كان أفضل رجل لأنه عندما يعلم الأشياء ما كان يخبرهن بها، بينما ماري جارث قالت إنه ربما ساد الملحق غموض ما... لكن الآنسة وينفرد لم تصغ لكلامها.

لقد اعتبرت السيدة فيربرذر أن الخبر قد يرتبط برؤيتهن للسيد لادسلو مرة واحدة في لُوِيك، أما الآنسة نوبل فقد صدر عنها بعض الهمهمات.

ما كان فرِد يعرف إلا القليل عن لادسلو وأسرة كزابون، فلم يبال بالأمر كثيراً، ولم يفكر في تلك المحادثة حتى حدث يوماً أن رأى لادسلو ينصرف من منزل روزموند حيث ذهب فرِد بناء على طلب أمه ليوصل رسالة بطريقه لروزموند. ما كان يدور بين روزموند وفرِد من أحاديث إلا القليل، إذ إن زواجها قد أبعدها عن إزعاج إخوتها لها، ولأنه قد اتخذ الآن الخطوة التي اعتبرتها غبية.حيث ابتعد عن العمل في الكنيسة مستعيضاً به بالعمل مع

السيد جارث. لما اختار فرِد الحديث في مواضيع اعتبرها ليست ذات قيمة، سرد ما سمعه في منزل الكاهن في لُوِيك.

كان ليدجيت، مثل السيد فيربرذر، يعلم أكثر مما يقول بكثير، فبينما كان يفكر ذات مرة في العلاقة بين ويل ودورثيا، ذهبت أفكاره أبعد من الحقيقة، فقد تصور أن هناك رابطاً عاطفيًّا بينهما، فهكذا بدا له الأمر أكثر جدية من أن يصبح موضوع... قيل وقال... لقد تذكر امتعاض ويل عندما ذكر له السيدة كزابون، فأصبح أكثر حذراً. بشكل عام قد ساهم حدسه ومعرفته بالحقيقة في تعميق صداقته مع ويل وتحمله له، كما جعلاه يفهم سبب تردد ويل، الذي قاده للبقاء في مدل مارش بعد أن قال إنه ذاهب.

لقد كان منطقيًّا ألّا يتحدث ليدجيت مع روزموند في الأمر وذلك بسبب تباعدهما الفكري، فحقًّا هو لم يثق بتكتمها أمام ويل، ولقد كان محقًّا في ذلك على الرغم من أنه لم يكن يعرف تماماً كيف يمكن أن يضطرها تفكيرها للكلام.

عندما نقلت أخبار فرِد إلى ليدجيت قال: «انتبهي ولا تلمحي بشيء للادسلو يا روزي. فهو من المرجح سينفجر وكأنك تهينينه. بالطبع إنه شأن مؤلم».

أدارت روزموند رقبتها وربتت على شعرها بأصابعها مبدية عدم اكتراث بالأمر. ولكن في أول مرة بعدها جاء ويل في غياب ليدجيت، تحدثت بمكر حول عدم ذهابه إلى لندن كما هدد من قبل.

قالت مشيرة برأسها بإيماءة فاتنة وهي تقوم بالنسيج بنشاط سريع: «إنني أعرف كل شيء حول الأمر. لدي طير صغير سري. يوجد قوة مغناطيسية في هذه المنطقة».

قال ويل بكياسة طفيفة لكنه كان متحفزاً من داخله كي يغضب: «تأكدي أن لا أحد يعرف أكثر مما تعرفين...».

«إنها حقًّا أجمل قصة حب فاتنة.. السيد كزابون غيور، ومتنبئ بأنه لن يكون هناك أحد آخر يمكن للسيدة كزابون أن تتزوجه، وأنه لن يرغب أحد في الزواج منها كما يرغب ذلك الرجل، فهكذا وضع خطة ليفسد الأمر بأكمله من خلال جعلها تتخلى عن ملكيتها إذا ما تزوجت من ذلك الرجل، فـ... ثم وثم وثم.. لا يراودني أي شك بأن النهاية ستكون رومانسية تماماً».

قال ويل وقد احمر كل من وجهه وأذنيه، وبدأت ملامح وجهه تتغير وكأنه تلقى صدمة عنيفة: «يا إلهي العظيم... ماذا تعنين؟ لا تمزحي... قولي لي ما تعنين..!».

«أحقًّا لا تعرف؟»، قالت ذلك روزموند وباعدت ممازحة. وهي لا ترغب في شيء أكثر من أن تبوح بالأمر لتحدث أمراً ما... أجاب بلا صبر: «كلا...!».

«ألا تعلم أن السيد كزابون قد ترك في وصيته أنه إذا تزوجت السيدة كزابون منك يجب عليها عند ذلك أن تتخلى عن جميع ملكيتها...؟».

قال ويل بشغف: «كيف عرفت أن ذلك صحيح..؟».

«لقد سمع ذلك أخي فرِد من عائلة فيربرذر..». قفز ويل من على كرسيه، والتقط قبعته قالت روزموند وهي تنظر إليه من بعد: «أجرؤ على أن أقول إنها تحبك أكثر من الملكية..».

قال ويل بصوت أجش منخفض على عكس صوته الرفيع الناعم: «أرجوك ألّا تقولي أي شيءٍ آخر حول الموضوع إنها إساءة بذيئة لها ولي». ثم جلس وهو ذاهل ينظر أمامه ولكنه لا يرى شيئاً.

قالت روزموند: «إنك غاضب مني... إنه سيئ جدًّا أن تغضب مني. ينبغي لك أن تكون ممتنًّا مني إذ أخبرتك بالأمر».

قال ويل مباشرة متحدثاً بلا وعي وكأنه حديث شخص نائم: «وهكذا أنا...؟؟؟».

قالت روزموند ممازحة: «أتوقع أن أسمع عن الزواج...!!».

«أبداً! إنك لن تسمعي حول الزواج...!».

حين كان ينطق ويل بتلك الكلمات بعنف، نهض، ثم مد يده ليصافح روزموند وهو لا يزال في وضع كذاك الذي يسير وهو نائم، ثم انصرف.

بعد أن ذهب، تركت روزموند كرسيها وسارت نحو الطرف الآخر من الغرفة، وعندما وصلت هناك اتكأت على خزانة الأدراج لتنظر خارج النافذة متعبة، إذ كان يعتريها سأم شديد وعدم رضى... ذاك الذي يتحول لدى النساء إلى غيرة تافهة لا أرضية مقنعة لها، ولا سيما أنها منبعثة من عاطفة لا أعمق منها سوى أنانية غامضة، لكنها لا تزال قادرة على الدفع بالأحداث والكلام. «حقًّا لا يوجد شيء يستحق الاهتمام كثيراً...». قالت روزموند المسكينة في داخلها، وهي تفكر في العائلة التي في كولنغهام إذ لم يكتبوا إليها، وفي احتمال إزعاج ترشيوس لها حول النفقات عندما يعود. لقد عصته مسبقاً وسرًّا... عندما طلبت من أبيها المساعدة، فرد عليها قائلاً: «من المرجح... سأحتاج أنا إلى المساعدة...».

الفصل الستون

العبارات الجيدة دائماً جديرة بالثناء والإطراء...

القاضي شلو

بعد أيام قليلة، وعند أواخر أيام شهر آب، كانت هناك مناسبة قد جلبت بعض البهجة والمتعة لأهالي مدل مارش.. فإذا ما اختار العامة أن يشتروا أثاثاً أو كتباً أو لوحاتٍ تعود ملكيتها لإدوين لارجر، فهي فرصة لهم كي يفعلوا ذلك برعاية السيد بورثروب ترمبل المتميزة، إذ تظهر جميع هذه الأشياء في الإعلان الذي يوزع باليد على أنها أفضل ما في الوجود.

لم يكن هذا البيع مؤشراً على صعوبات تمر بها التجارة في تلك الأيام، بل على العكس فقد كانت نتيجة النجاح العظيم الذي حققه السيد لارجر في مجال النقل، مما مكنه من شراء قصر كبير بالقرب من ريفرستون، أسسه طبيب لامع ثري بأفخر طراز...

فقد امتلأت غرفة الطعام بلوحات ثمينة تتضمن رسوم أجساد بشرية، أثارت غضب السيدة لارجر حتى إنها لم تتقبل الأمر إلا عندما أكد لها أن مواضيع هذه اللوحات مستقاة من الكتاب المقدس.

لقد ظهرت فرصة شراء تلك السلع جلية في ورقة السيد ترمبل المكتوبة حيث مكنته خبرته في تاريخ الفن من أن يقول إنه من بين الأثاث الذي في ردهة، والذي سيباع دون السماح بالحجز المسبق، توجد لوحة رسمها أحد معاصري الفنان جِبُنز.

لقد كان يعتبر بيع المزاد في مدل مارش وفي تلك الأوقات نوعاً من الاحتفال، فقد وضعت طاولة تمتلئ بأفضل المأكولات الباردة، تشبه مائدة عزاء أحد الأثرياء، كما قدمت المشروبات الروحية لتقود إلى دفع سخي محتمل في شراء بعض السلع غير المرغوب فيها.

لقد كان بيع أثاث السيد لارجر أكثر سحراً وذلك بسبب الطقس الجيد، ولأن منزل كان

يقع على أحد أطراف البلدة وتلتصق به حديقة وحظائر وهو في شارع يدعى لندن رود، الذي يقود إلى المستشفى الجديد، ثم إلى منزل استراحة السيد بولسترود في منطقة شرابس. باختصار لقد كان المزاد جيداً كما لو كان سوقاً تجارياً، فقد اجتلب كل من كان لديهم وقت من جميع الطبقات الاجتماعية، إذ كانت فرصة أولئك الذين يقدمون أسعاراً بغية رفع السعر فقط تشبه فرصهم في رهان سباقات الخيل.

في اليوم الثاني حيث كان مقرراً بيع أفضل قطعة أثاث كان الجميع حاضرين حتى السيد شيجر كاهن كنيسة القديس بطرس، إذ حضر لوقت قصير بهدف شراء طاولة مزخرفة، فدخل في تنافس مع كل من السيد بامبردج والسيد هوروك.

كان هناك العديد من النسوة تحلقن حول طاولة الطعام الضخمة حيث كان يجلس السيد ترمبل وراء طاولة مكتب وبيده مطرقة، لكن الصفوف، التي كانت تتألف من الرجال بدرجة رئيسية، كانت تتغير بين الآونة والأخرى، من خلال دخول وخروج الكثيرين من الباب والنافذة الضخمة المقوسة المفتوحة على الحديقة.

لم يتضمن الجمع في ذلك اليوم السيد بولسترود، الذي لم تساعده صحته على تحمل التجمهرات والنسمات الباردة. لكن السيدة بولسترود تمنت لو حصلت على لوحة محددة تدعى - العشاء في إمّيس - وقد نسبت كما في الورقة المكتوبة للفنان غويدو، ففي اللحظة الأخيرة من اليوم الذي سبق البيع ذهب السيد بولسترود إلى مكتب صحيفة البيونير،حيث أصبح الآن أحد مالكيها ليطلب من السيد لادسلو خدمة سخية، تتمثل بتوظيف خبرته في اللوحات والرسوم، فيقيّم له ثمن اللوحة، «شرط ألّا يتعارض حضور هذا المزاد مع تحضيراتك للسفر الذي أعلم أنه سيكون قريباً جدًّا». «قال ذلك مالك المصرف المهذب للغاية.

كان هذا الشرط سيقع على أذني ويل بسخرية لو كان مزاجه يدفعه إلى السخرية في ذلك الوقت، فقد أشار إلى نبأ أحيط به مالكو الصحيفة قبل أسابيع عديدة، بأن ويل حرٌّ في تحديد اليوم الذي يسلم فيه الإدارة لمساعد رئيس التحرير، الذي كان يدربه منذ أن قرر مغادرة مدل مارش. إلا أن رؤاه غير المحددة في طموحه تظل ضعيفة أمام سهولة فعل ما هو اعتيادي أو تسلية مقبولة.

جميعنا يعلم صعوبة تنفيذ قراراتنا عندما نتمنى سرًّا أنها تتضح في النهاية لتكون غير مهمة. في مثل هذه الحالة الفكرية غالباً ما يكون أكثر الناس شكاً ميالاً إلى المعجزات..

فمن المستحيل علينا أن ندرك كيف يمكن أن نحقق أمنياتنا بينما لا تزال أشياء جميلة تحدث.

لم يعترف ويل بهذا الضعف لنفسه، لكنه تردد في ذلك. ما فائدة الذهاب إلى لندن في مثل ذلك الوقت من السنة..؟ ولا سيما أن رجال بلدة الركبي، الذين لا يزالون يتذكرونه، لم يكونوا هناك. وبالنسبة إلى كتابة المقالات السياسية فقد كان يفضل مواصلة عمله في صحيفة البيونير.

في أيّ حال.. في اللحظة التي كان السيد بولسترود يتحدث بها إليه كان يتنازعه قراران في قوة واحدة، أحدهما يدعوه للسفر والآخر يدعوه لتأجيل السفر حتى يرى دورثيا. لذلك أجاب بأن لديه أسباباً تدعوه لتأجيل سفره قليلاً، وأنه من دواعي سروره أن يذهب إلى المزاد. لقد كان ويل في مزاج تحدٍّ إذ أصابت ضميره في الصميم، فكرة أن الناس الذين كانوا ينظرون إليه، ربما كانوا يعرفون حقيقة توازي اتهامه بأنه شاب ذو سلوك وضيع، يصدم لدى ضياع ملكية من بين يديه.

كمعظم الناس الذين يؤكدون على حريتهم بتميز مألوف، كان متحفزاً للشجار مع أي أحد يمكن أن يشير إلى أن لدى ويل أسباباً شخصية تدفعه لذلك التأكيد على الحرية، ومتى كان تحت وطأة ذلك الانطباع المتعب، فقد كان من طبعه أن يقضي أياماً والتحدي يظهر على وجهه، وكذلك تغير لون بشرته الشفافة، وكأنه حيوان مفترس يبحث عن فريسته ليهجم عليها.

لقد كان هذا التعبير ظاهراً عليه أثناء المزاد على وجه الخصوص، فأولئك الذين عرفوه أثناء لطافته الفائقة أو استمتاعه المتألق، لصدموا بفارق كبير. لم ينتابه إحساس بالأسف ليستغل هذه الفرصة، كي يظهر أمام العامة من أهالي مدل مارش، الذين كانوا ينظرون إليه كمغامر. بينما هم يجهلون الفنان دانتي، والذين كانوا يسخرون من دمه البولندي بينما هم في حاجة عميقة إلى تحسين نسلهم.

كان يقف في مكان واضح، ليس بعيداً من بائع المزاد واضعاً كل سبابة في أحد جيبي صدريته ورافعاً رأسه إلى الوراء دون أن يأبه للكلام مع أحد، على الرغم من أنه رحب به ترحيباً شديداً كخبير من قبل السيد ترمبل، والذي كان يتمتع بأقصى نشاط خبرته العظيمة.

من المؤكد أن من بين جميع الرجال الذين تتطلب منهم مهنتهم مهاراتٍ في الكلام، كان أسعدهم بائع المزاد الأكثر ثراء، فقد راح يلقي بمزاحه الظريف، وينهل من موسوعة معلوماته القيمة.

بعض ثقال الدم والمتذمرون كانوا يتململون من الإلحاح على مزايا جميع السلع، لكن السيد ترمبل، الذي كان يتمتع بخفة دم، كان يثمن الأشياء بطبيعته ويعجب بها حتى إنه كان يتمنى لو وضع العالم تحت مطرقته، فهو يشعر أنه قادر على بيعه بأعلى الأثمان بموجب تزكيته له، لكنه في الوقت الحاضر قد اكتفى بأثاث غرفة استقبال السيدة لارجر.

عندما دخل لادسلو أعلن عن أن سياجًا ثانياً للمدفئة قد نسي مما استدعى إثارة حماس البائع، فراح يعلن عنه بطريقة مديح وكأنه أحد الأشياء التي هي في حاجة إلى المديح. كان سياجاً مصنوعاً من الحديد الملمع، مفتوحاً من الأعلى وهو على شكل مبضع ذي حافة حادة.

قال: «الآن أيتها السيدات... سأعرض عليكن سياج مدفئة لم يعرض في مزاد آخر إلا ويحجز قبل بيعه لأنه كما أقول، مصنوع من حديد الصب الملمع، ويمتاز بطراز جذاب قديم وشيء من هذا القبيل».

خفض هنا السيد ترمبل صوته وراح يؤنق نفسه بأصابعه: «...ولكن ربما لا يناسب الذوق العادي. اسمحوا لي أن أخبركم أنه مع الوقت سيظل هذا النمط من العمل اليدوي هو الوحيد الرائج... نصف جنيه قلت...؟ شكراً.. فلنقل نصف جنيه مقابل هذا السياج المتميز، ولدي معلومات خاصة تؤكد على أن هذا النمط من الطراز القديم يبحثون عنه في البيوت الراقية. ثلاثة شلنات... ثلاثة شلنات وستة بنسات... ارفعه عاليًا يا جوزيف، انظرن أيتها السيدات إلى جمال هذا التصميم، لا ينتابني شك في أنه قد صمم وظهر في القرن الماضي...! أربعة شلنات للسيد مومزي؟ أربعة شلنات».

قالت السيدة مومزي بصوت مسموع لتنبه زوجها المتسرع: «إنه ليس من الأشياء التي أقبل أن أضعها في غرفة استقبالي. إنني أتعجب من السيدة لارجر. لو وقع عليه رأس أي طفل مبارك لقطعه إلى نصفين، فحافته حادة كالسكين».

أجاب السيد ترمبل بسرعة: «هذا صحيح تماماً... إنه من المفيد أن يكون لديك سياج مدفئة ذو حافة حادة جدًّا، حيث يصبح في إمكانك قطع خيط نعل جلدي، لو كان لديك واحد، أو أن تقطعي خيطاً عندما لا يتوافر في متناول يدك سكين.. رجال كثيرون تركوا معلقين على حبال مشانقهم لأنه لم يتوافر سكين تقطع تلك الحبال. أيها الرجال ها هنا سياج، لو أجبركم سوء الحظ على شنق أنفسكم، فهو سيقطع الحبل بكم بسرعة مذهلة... أربعة شلنات وستة بنسات... خمسة شلنات... وستة بنسات.. شيء يناسب غرفة نوم إضافية

حيث يوجد فيها موقد نار وضيف فاقد لعقله... ستة شلنات... شكرًا يا سيد كلنتر، إنه يباع بستة شلنات، مباع، انتهى».

ألقى هنا بائع المزاد نظره، الذي كان يجول به من حوله بمشاعر خارقة للطبيعة على جميع الحضور، على الورقة، وكذلك خفض صوته عندما طلب قائلاً: «...السيد كلِنتَب. تحرك يا جوزيف».

قال السيد كلنتب ضاحكاً وبطريقة اعتذار لجاره: «إنه يستحق ستة شلنات... إذاً سيظل يذكرني بتلك النكتة»... لقد كان صاحب مشتل زراعي شهير إلا أنه خجول، فخشي أن يعتبر الحضور شراءه للسياج المعدني تصرفاً سخيفاً. بعدها أحضر جوزيف طبقاً مليئًا بممتلكات صغيرة الحجم... «الآن أيتها السيدات» -قال السيد ترمبل وهو يرفع أحد الممتلكات- «بالطبع يحتوي هذا الطبق على أشياء نفيسة.. مجموعة أشكال بسيطة تناسب طاولة غرفة الاستقبال، وأشكال أخرى يحتاجها الإنسان، فلا أشياء أهم من تلك الأشكال البسيطة.

نعم أيها السيد لادسلو، نعم تمهل قليلاً. أدر هذا الطبق على الحضور يا جوزيف، فهذه الجواهر الصغيرة يجب أن تفحص أيتها السيدات، فهذه القطعة التي في يدي تمثل ابتكاراً إبداعيًّا، فهي - كما أدعوها - لغز معبر. ها هي كما ترونها... إنها تبدو كعلبة جميلة على شكل قلب يمكن حملها في الجيب، وهكذا... يمكن أن تصبح على شكل وردة في غاية الجمال، فهي تصلح أن تكون زينة توضع على طاولة، أما الآن... - حوّل السيد ترمبل الوردة إلى سلسلة من أوراق على شكل قلب - كتاب طرائف...! يتضمن أكثر من خمسمئة طرفة، طبعت باللون الأحمر الجميل. أيها الرجال لو لم يكن لدي ضمير لتمنيتكم ألا تزايدوا عليها... فأنا أتمنى أن أملكها بنفسي.

ماذا يمكن أن يبعث المرح والفضيلة أكثر من الطرفة الجيدة...؟ إنها تمنع اللغة الرثة، وتقرب الرجال من مجتمع النساء المهذبات. إن هذا الكتاب الإبداعي بحد ذاته من دون العلبة الأنيقة وسلة البطاقات، ينبغي أن يرفع لوحده سعر مجموعة الأشياء.

حمله في الجيب يجعل الشخص يرحب به في كل المجالس. أربعة شلنات يا سيدي؟ أربعة شلنات لهذه المجموعة المتميزة من الطرف مع توابعها؟ إنها متعة تزيد من حدة الذكاء، فهي لاذعة في هجائها، وهي تنم عن الذكاء الهزلي دون أن تفقد الاحتشام. أربعة شلنات وستة بنسات.. خمسة شلنات»...

استمرت المزايدة بتنافس حام. كان أحد المزايدين السيد باوير، مما جعل الأمر مثيراً للسخط. لم يكن في استطاعة باويًر أن يشتري تلك الأشياء، لكنه أراد إعاقة الجميع من شرائها.

تابع الجميع بالمزايدة بمن فيهم السيد هوروك، إلا أنه في كل مرة كان يزايد فيها لا تتغير ملامح وجهه، حتى ليبدو وكأن تلك المزايدة لم تصدر عنه لو لم يتهكم السيد بامبردج، الذي أراد أن يعرف ماذا يمكن لهوروك أن يفعله بمثل هذه الأشياء، التي لا تصلح لبائع الخردوات، وقد حولت مهنته من حياة إلى هلاك.

لقد انتهى بيع الأشياء مقابل جنيه واحد للسيد سِبلكنز الشاب القادم من المناطق المجاورة، الذي كان يعبث بنقود جيبه، فشعر بحاجته إلى كتاب الطرف.

«اسمع يا ترمبل، إن هذا سيئ جدًّا... إنك تبيعنا نفايات العجائز». همهم بتلك الكلمات السيد تولر وهو يتقدم نحو بائع المزاد: «أريد أن أرى كيف تباع اللوحات، ويجب علي الانصراف بعد قليل».

«في الحال يا سيد تولر. لقد كان عملًا خيريًّا وأظن أن قلبك النبيل يتسع له. يا جوزيف! أسرع وأحضر اللوحة التي تحمل الرقم 235... الآن أيها السادة... أنتم أيها الخبراء، إنكم تستمتعون. هنا لوحة منقوشة لدوق ولينغتون، محوطاً بحاشيته في حقل واترلو، وعلى الرغم من الأحداث الأخيرة، التي شوهت سمعة بطلنا العظيم قليلاً، فإنني أجرؤ أن أقول:.. على الرغم من أن الرجل الذي يعمل في مهنتي ينبغي له ألّا يقع في التجاذبات السياسية، فإن موضوعًا جميلاً كهذا يتبع للنظام المعاصر، فإنني أقول إنه لا يمكن للفهم البشري أن يستوعبه، ولكن يمكن للملائكة أن تستوعبه، إلا أنه لا يمكن للرجال استيعابه يا سادتي، ليس الرجال».

سأل السيد باول دريل منذهلاً: «من رسمها...؟».

أجاب السيد ترمبل مع انقطاع نفسه لدى نطقه بكلماته الأخيرة، ثم شد شفتيه وهو يحدق من حوله: «من المؤكد أن الرسام ليس معروفاً...».

قال السيد باودرل بنبرة صوت تشوبها عاطفة جياشة وكأنه رجل مهيأ للنهوض بالقسط الأعظم من العمل الشاق: «إنني أعرض جنيهاً واحداً..!».

لم يزد أحد على السعر الذي وضعه إما بسبب الخوف أو الشفقة.

ثم أحضرت لوحتان ألمانيتان كان بانتظارهما السيد تولر، فبعد أن اشتراهما شعر بالسرور. كما بيعت من بعدهما لوحات أخرى لرجال بارزين من مدل مارش قد حضروا برغبة خاصة لاقتنائها، وكانت هناك حركة ناشطة للحضور، ولا سيما في دخولهم وخروجهم.. فبعضهم كان ينصرف بعد أن يشتري ما جاء لأجله، ثم يدخل آخرون... قد حضروا للتو أو أنهم عادوا بعد تناولهم لقليل من المأكولات والمشروبات التي كانت تنتشر تحت خيمة في الحديقة. لقد كانت تلك الخيمة هي التي يرغب في شرائها السيد بامبردج، فأحب أن ينظر إلى داخلها عدة مرات وكأنه يتفحصها مسبقاً. ولدى عودته منها آخر مرة شوهد وهو يصطحب معه رجلاً حضر للتو وقد بدا غريباً للسيد ترمبل وكذلك للجميع، فقد افترض الجميع من خلال طريقة حضوره أنه أحد أقرباء تاجر الخيل السيد بامبردج، وهو أيضاً يبدو عليه حب الشراب.

فضخامة شاربيه ومشيته المتبجحة وهزه لقدميه جعلت منه رجلاً لافتاً للنظر، لكن بزته السوداء المهترئة عند أطرافها سببت استنتاجاً مجحفاً بأنه لم يكن في استطاعته أن ينفق على النحو الذي يتمناه.

قال السيد هورك جانباً: «من أتى يا بام...؟».

أجاب السيد بامبردج: «اسأله بنفسك... إنه يقول لقد حضر للتو من سفره».

حدق السيد هورك بالرجل الغريب الذي كان يتكئ على عصاه بيد، ويستخدم نكاشة الأسنان بيده الأخرى، وهو ينظر من حوله بنوع من عدم الارتياح، فمن الواضح... أنه قد أثقل عليه الصمت نتيجة ظهوره.

بعد برهة قصيرة من الزمن أحضرت لوحة «العشاء في إميس» مما بعث الارتياح لدى ويل لما عاناه من تعب الانتظار فانسحب قليلاً ليسند كتفه إلى الجدار الذي كان خلف بائع المزاد. تقدم ثانية فلمحت عينه الرجل الغريب، الذي كان يحدق به مما سبب له دهشة غريبة. إلا أن السيد ترمبل قد نادى على ويل.

«نعم يا سيد لادسلو... نعم..! إن هذه اللوحة تهمك كخبير على ما أعتقد. إنه من الممتع – تابع بائع المزاد بحماس متقد – أن يكون لدينا لوحة كهذه نعرضها للسيدات والسادة...

إنها لوحة تستحق ثمناً يستطيع أن يقدمه رجل يملك مالاً يوازي قدرته على الحكم عليها. إنها لوحة تتبع المدرسة الإيطالية رسمها جايدو الشهير. إنه أعظم رسام في العالم، وهو رئيس أعظم الرسامين القدماء كما يدعون، لأنهم كانوا يتمتعون بشيء أو أكثر لا نتمتع به نحن، فهم كانوا يملكون أسراراً أضاعها الآن معظم رجال العالم.

دعوني أقل لكم أيها السادة:.. إنني قد شاهدت كثيراً من اللوحات العظيمة التي رسمها رسامون قدماء عظام وهي ليست على هذا المستوى... فبعضها يحمل مواضيع مخيفة، وليست مواضيع ذات اهتمام أفراد الأسرة كافة.

إلا أن هنا لوحة جايدو... يستحق الإطار لوحده العديد من الجنيهات... ترغب كثير من النساء في تعليقه في منازلهن، وهو يناسب حجرة طعام في مركز خيري، إذا ما رغب أي من الرجال القائمين عليه في التبرع به لذلك المركز. هل أحرفها لك قليلًا يا سيدي؟ نعم احرفها قليلاً يا جوزيف تجاه السيد لادسلو. كما ترون فإن السيد لادسلو يعرف مزايا هذه الأشياء، ولا سيما أنه قد سافر كثيرًا خارج البلاد».

أدار جميع الحضور نظرهم تجاه لادسلو الذي قال بهدوء: «خمسة جنيهات... ». انفجر بائع المزاد محتجاً بقوة.

«آه يا سيد لادسلو...! الإطار لوحده يستحق ذلك المبلغ. أيتها السيدات أيها السادة لأجل مصلحة هذه البلدة افرض لو كان بيننا في مدل مارش لوحة فنية ثمينة ولم يعرف بها أحد. خمسة جنيهات... خمسة جنيهات وسبعة شلنات... ستة جنيهات... خمسة جنيهات وعشرة شلنات. ليس بعد أيتها السيدات ليس بعد...! إنها جوهرة نفيسة، وكما يقول الشاعر.. كثير من المجوهرات قد ذهبت بأسعار بخسة لأن الناس لم يملكوا معرفة أفضل، ولأنها قدمت أمام جماعات... كنت سأقول.. أصحاب مشاعر متبلدة ولكن لا... ستة جنيهات... ستة جنيهات، إنها إهانة للدين أيتها السيدات، إنها تمسنا جميعًا كمسيحيين أيها الرجال النبلاء أن تباع هذه اللوحة بهذا السعر... ستة جنيهات وعشرة شلنات... سبعة جنيهات...».

كانت المزايدة سريعة، وتابع ويل مساهمته فيها متذكراً أن السيدة بولسترود كانت تتمنى اقتنائها، وهو يعتقد أنه يستطيع أن يرفع السعر حتى يبلغ اثني عشر جنيهاً لكن المزايدة قد رست عليه بعشرة جنيهات حيث شق طريقه تجاه النافذة المقوسة وخرج. اختار الذهاب إلى الخيمة ليشرب كأساً من الماء لأنه كان عطشاً، فوجد الخيمة فارغة من الزائرين، فطلب

من المرأة أن تحضر له ماءً بارداً، ولكن قبل أن تذهب بعيداً أقلقه دخول الرجل الغريب الذي كان يحدق به. لقد خطر لويل في هذه اللحظة أنه يمكن أن يكون ذلك الرجل أحد أولئك السياسيين المتطفلين، الذين تشبثوا بصحبته مرة أو مرتين أثناء خطبته التي ألقاها حول قضية الإصلاح، ويعتقدون أنه يمكنهم الحصول على شلن أو شلنين مقابل نقلهم لخبر ما، وفي ضوء هذا، قد ظهر هذا الرجل على نحو مزعج، ولا سيما أن مظهره يبعث الحرارة في مثل هذا اليوم الصيفي، فأزاح ويل نظره عن الرجل الغريب بينما كان يتكئ على مسند أحد كراسي الحديقة إلا أن ذلك لم يعن شيئاً لصاحبنا السيد رفلز، الذي لم يتردد قط بإقحام نفسه على الآخرين على الرغم منهم ما دام ذلك يلبي رغبته. تحرك خطوة أو خطوتين. حتى وقف أمام ويل وقال بملء فيه: «عفواً يا سيد لادسلو هل كان اسم والدتك سارة دانكرِك؟».

بعد أن وقف ويل على قدميه ابتعد خطوة إلى الوراء ثم قال بتجهم وخوف: «نعم يا سيدي لقد كان ذلك. ولكن ماذا يعني ذلك لك؟»

كان من طبيعة ويل أن أول ما يقوله هو جوابه المباشر عن السؤال ثم تحديه للنتائج. في قوله «وماذا يعني ذلك لك؟» يبدو في البداية أنه نوع من المراوغة، فكأنه يأبه لمن يعرف شيئاً عن أصله!

لم يكن السيد رفلز من جانبه متعطشاً للصدام كما ظهر في طريقة السيد لادسلو، فالشاب النحيل ذو البشرة الأنثوية الناعمة كان متحفزاً للانقضاض كالنمر عليه، وفي هذه الأثناء أبقى السيد رفلز استمتاعه بإزعاج صاحبه الخاضع لسيطرته.

«لا إساءة يا سيدي الطيب لا إساءة! إنني فقط أتذكر أمك. لقد عرفتها حين كانت طفلة صغيرة، لكنك تشبه أباك الذي حصل لي الشرف أن رأيته أيضاً. هل والداك على قيد الحياة يا سيد لادسلو...؟؟».

«كلا...!»، ارتعد ويل بالطريقة نفسها التي ارتعد بها من قبل.

«سأكون مسروراً إذا ما قدمت لك خدمة يا سيد لادسلو. أقسم بالإله جوبتير... إن ذلك من دواعي سروري. إنني أتمنى أن ألقاك ثانية..»، مع نطقه بآخر كلماته رفع السيد رفلز قبعته، ثم استدار لينصرف وهو يهز برجليه. ظل ينظر إليه ويل للحظات، فاستطاع أن يتبين أنه لم يدخل ثانية غرفة المزاد، لكنه تبين أن الرجل ظل يسير تجاه الشارع الرئيسي. لقد اعتقد للحظة أنه كان أحمق لأنه لم يدع الرجل يتابع كلامه... ولكن كلا! لقد فضل أن

يتابع حياته دون معرفة شيء من ذلك القبيل. بعد وقت قصير وبعد أن حلّ المساء، لحق رفلز بويل لادسلو في الطريق، إذ بدأ عليه إما أنه قد نسي فظاظة استقباله السابق، أو تعمد الانتقام من خلال تظاهره بالتسامح، ثم حيّاه بمرح وسار إلى جانبه مشيراً في البداية إلى لطافة البلدة وسكانها. لقد تحسب ويل من أن يكون الرجل ثملاً، فكان يفكر كيف يصرفه عندما قال رفلز:

«كنت مسافراً خارج البلاد يا سيد لادسلو. لقد تنقلت في العالم. لقد قابلت أباك في بولون، وإنك لتشبهه على نحو عجيب، وحق الإله جوبتير! فمك وأنفك وعيناك وشعرك وحتى تسريحتك... إنها لتشبهه تماماً... بأسلوب أجنبي بسيط، وإن جان بول لا يفعل ذلك. إلا أن أباك كان مريضاً عندما رأيته. يا إلهي يا إلهي! كانت يداه نحيلتين إلى حدّ أنك تستطيع أن ترى من خلالهما، ولقد كنت صبيًّا صغيراً آنذاك. هل تحسنت صحته بعد ذلك..؟».

قال ويل بفظاظة: «كلا...».

قال رفلز وهو يلمز ببطء ناظراً إلى ويل: «آه حسناً... كنت أتساءل دائماً ماذا حدث لأمك. لقد هربت من أسرتها حين كانت شابة يافعة تملؤها الحيوية والكبرياء، ولقد كانت جميلة جدًّا بحق الإله جوبتير! أنا أعلم السبب الذي دفعها للهروب...».

قال ويل وقد استدار إليه بوحشية: «إنك لا تعرف شيئاً مشيناً عنها يا سيدي...؟؟». لكن السيد رفلز في هذه اللحظة لم يكن شديد الحساسية تجاه تصرفات ويل المختلفة.

قال معبراً برأسه عن تأكيد قاطع: «لا على الإطلاق. لقد كانت أكثر شرفاً من أن تتحمل من كان من حولها. لقد كان هذا كل ما في الأمر» -لمز هنا رفلز قليلًا أيضاً- «فليسعدك الرب. إنني أعرف كل شيء عنهما... قليلاً مما يمكن أن تسميه تلصصاً محترماً... ومسرحاً على مستوىً عالٍ... لم يكن من المسارح المهترئة، بل كان على أحدث طراز. حانوت ممتاز ذو دخل مرتفع جدًّا دون أي شك. ولكن يا إلهي...! لم تكن سارة تعلم أي شيء حول ذلك... لقد كانت فتاة رائعة الجمال، وقد كانت تقيم في مدرسة داخلية جيدة. لقد كانت تناسب أن تكون زوجة لأحد اللوردات... لقد أخبرها أرجي دانكن كل شيء نتيجة حقده، لأنها لم تقبل به زوجاً، وهكذا هربت لتخرج نفسها من الموضوع بأكمله. لقد سافرت لأجلهم بطريقة محترمة... مقابل مرتب ضخم جدًّا. لم يأبهوا في البداية لهروبها... لقد كانوا أناسًا ورعين، ورعين وأتقياء جدًّا... وهي كانت تحب المسرح. وقتها كان الابن على قيد الحياة، فلم يكترث

بالابنة. ها نحن الآن أمام حانة بلوبول، ماذا تقول يا سيد لادسلو؟ هل ندخل ونتناول كأساً؟».

«كلا يجب أن أقول عمت مساءً...». قال ذلك ويل منصرفاً في ممر ضيق يقود إلى لُويك جيت، كما كان مسرعاً جدًّا ليهرب من رفلز.

سار طويلاً في شارع لُويك خارج البلدة، وقد فرح عندما حل الظلام. كان يشعر وكأن أحداً قد ألقى عليه قاذورات ويصرخ في وجهه. ما كان يؤكد أقوال رفلز له هو أن أمه لم تخبره بالسبب الذي دفعها إلى الهروب من أهلها.

حسناً ما أسوأ شيء يمكن أن يحصل له لو افترض أن حقيقة تلك العائلة كانت أكثر قبحاً؟ فأمه قد عانت وتحملت الكثير لتعزل نفسها عنهم. إلا أنه لو علم أقرباء دورثيا بالقصة... لو عرفتها أسرة جتم... لتذرعوا بسبب قوي يجعلهم يؤمنون أنه ليس جديراً بالاقتراب منها. في أيّ حال فليعتقدوا ما يشاؤون، فهم سيجدون أنفسهم على خطأ. إنهم سيكتشفون أن الدم الذي يجري في عروقه لم تلوثه الخسة ولا الدناءة تماماً كدمهم.

الفصل الحادي والستون

أجاب إملاك: «النقيضان، لا يمكن لكليهما أن يكونا صحيحين... ولكن يعزى للإنسان أنهما يمكن أن يكونا حقيقتين...».

رسلس

في الليلة نفسها التي عاد فيها السيد بولسترود من رحلة العمل التي قام بها إلى براسنغ، استقبلته زوجته الطيبة عند بوابة ردهة المنزل، فسحبته إلى غرفة جلوسه الخاصة.

قالت وهي تحدق به مضطربة: «يا نيكولاس...!! لقد جاء إلى هنا رجل غريب تماماً يسأل عنك... وقد أثار بي الذعر».

قال السيد بولسترود وقد انتابه خوف من الجواب الذي كان من المؤكّد أنّه يعرفه: «أي نوع من الرجال يا عزيزتي...».

«رجل ذو وجه أحمر وشاربين ضخمين، وقد كان وقحاً جدّاً في سلوكه. قال إنه كان أحد أصدقائك القدماء، وقال أيضاً إنك ستأسف إن لم تره. أراد أن ينتظرك هنا، لكنني قلت له إنه يستطيع رؤيتك في المصرف غداً صباحاً. لقد كان شديد الوقاحة...! إذ كان يحدق بي، وقال إن صديقه نيكولاس محظوظ باختيار زوجاته. لا أعتقد أنه كان سيذهب لو لم يحدث أن الكلب بلاتشر قد قطع قيده وجاء راكضاً إلى الممر الحجري، ولأنني كنت في الحديقة، قلت: «من الأفضل لك أن تنصرف فالكلب شرس جدّاً، وأنا لا أستطيع الإمساك به... هل حقّاً تعرف مثل هذا الرجل؟».

«أظنني أعرف من هو يا عزيزتي»... قال السيد بولسترود بصوته المنخفض الاعتيادي: «... تعس فاسق غير محظوظ، كنت قد ساعدته منذ زمن طويل في أي حال فإنني أعتقد أنه لن يضايقك ثانية. ربما سيأتي إلى المصرف ليتوسل دون شك».

لم يقولا شيئاً آخر حول الموضوع حتى اليوم التالي، عندما عاد السيد بولسترود من

البلدة وذهب ليغير ثيابه كي يتناول عشاءه. أرادت زوجته أن تتأكد من عودته من العمل، فدخلت غرفة الملابس للتأكد، فوجدته قد خلع معطفه وربطة عنقه ليقف متكئاً على خزانة الأدراج وهو هائم في نظره إلى الأرض. فزع متوتراً، ثم رفع نظره عندما دخلت.

«إنك تبدو مريضاً جدّاً يا نيكولاس. هل هناك أي مشكلة؟».

قال السيد بولسترود الذي جعل مرضه المتكرر زوجته تصدق أن ذاك هو سبب اكتئابه: «عندي صداع شديد...».

«اجلس ودعني أدلكه لك بالخل».

عضويّاً... لم يكن السيد بولسترود في حاجة إلى الخل، ولكن نفسيّاً فالاهتمام العاطفي قد هدأه. على الرغم من أدبه الدائم، فإنه كان من عادته أن يعتبر هذا الحنو الزوجي من واجبات زوجته، ولكن في ذلك اليوم بينما كانت تنحني فوق رأسه قال: «إنك لطيفة جدًّا يا هاريت...». بنبرة صوت حملت شيئاً جديداً إلى أذنها، فهي لم تعرف ماذا كان وراء الأمر، لكن عنايتها الزوجية الفائقة جعلتها تعتقد مباشرة أن مرضاً ما سينتابه قريباً جدّاً.

قالت: «هل هناك شيءٌ ما يقلقك؟ هل أتاك ذلك الرجل إلى المصرف؟»..

«نعم لقد حدث ما توقعت حدوثه. إنه رجل كان في إمكانه يوماً أن يكون في وضع أفضل، لكنه وقع في ملذات شرب الخمر».

قالت السيدة بولسترود مضطربة ولكن لأسباب محددة أحجمت عن إضافتها: «هل ذهب دون رجعة؟ لقد كان من المزعج أن يدعي أنه أحد أصدقائك». في تلك اللحظة لم ترغب في أن تقول أي شيء يدل على إدراكها الاعتيادي بأن علاقات زوجها القديمة لم تكن على مستوى علاقتها هي، لكنها لم تكن تعلم عنها الكثير.

حقيقة أن زوجها قد بدأ حياته بالعمل كموظف في المصرف، ثم بعد ذلك دخل إلى ما يسميه الأعمال الحرة في المدينة، فاستطاع أن يحصل على ثروة قبل أن يتم الثالثة والثلاثين من عمره، ثم تزوج بامرأة أكبر منه سنّاً.. كان هذا أقصى ما كانت تريد معرفته بالإضافة إلى التلميحات التي كان يطلقها السيد بولسترود بين الآونة والأخرى، حول انكبابه على الدين، ونيته ليصبح واعظاً في الكنيسة، ومساهمته في الجهود التبشيرية الخيرة.

كانت تؤمن به كرجل عظيم حوله تقواه عندما ارتبطت به وهو رجل عادي إلى رجل سام، واستطاع تأثيره المباشر أن يوجه تفكيرها نحو القضايا الأساسية والجادة، كما أن طيبته الكنسية كانت سبباً في رفع مكانتها الاجتماعية.

إلا أنها كانت أيضاً ترغب في الاعتقاد بأن في كل جانب من جوانب شخصية بولسترود، كان لهاريت فنسي يد في صنعها، ولا سيما أن عائلتها كانت لامعة جدّاً في وسط مدل مارش... ومن المؤكّد كلمعان أفضل من أي ضياء يسطع في شوارع لندن أو حدائق الكنائس المخالفة.

لم يكن تفكير أهالي الأقاليم غير الإصلاحي يثق بلندن، وبينما كان يمارس الدين الحقيقي في كل مكان، كانت السيدة بولسترود المخلصة تعتقد أن ممارسة الدين في الكنيسة ليست أكثر الطرق وقاراً واحتراماً. كانت تتمنى كثيراً لو أن جميع الناس يتجاهلون حقيقة أن زوجها كان يعيش من قبل في لندن، فهي كانت ترغب في عدم الحديث حول هذا الشأن حتى معه. كان يدرك تماماً هذه الحقيقة، وفي واقع الأمر فقد كان يخشى زوجته الحاذقة، التي كان وقارها المقلد وعدم دناءتها في الحقيقة صديقين على حد سواء، وهي ليس لديها شيء تخجل منه، فقد تزوج منها بموجب رغبة تامة لا تزال مستمرة. إلا أن مخاوفه كانت كتلك التي تنتاب رجلاً يهتم كثيراً بإبقاء تفوقه المتميز.. ففقدانه اعتبار زوجته الرفيع له مثل فقدانه لاحترام أولئك الذين لم يظهروا كراهيتهم له بسبب عدائهم للحقيقة، سيكون كبداية موت بالنسبة إليه. عندما قالت: «هل ذهب دون أن يعود؟».

أجاب محاولاً إظهار أكبر قدر من عدم الاكتراث في صوته: «أعتقد ذلك».

إلا أن السيد بولسترود كان بعيداً جدّاً من الثقة التامة. في المقابلة التي جرت في المصرف، اتضح من رفلز بما لا يقبل الشك أن تعطشه للتعذيب كان قويّاً جدّاً تماماً كالقوة لدى أي شجاع، فقد قال بصراحة إنه جاء إلى مدل مارش فقط لينظر من حوله، ويرى ما إذا كان الناس يناسبونه ليعيش بينهم.

من المؤكّد أن عليه ديناً ينبغي له سداده أكبر من ذاك الذي توقعه، لكنه لم ينفق المئتي جنيه حتى الآن، فستكفيه خمسة وعشرون جنيهاً كي ينصرف في هذا الوقت. الشيء الرئيسي الذي أراده هو أن يرى صديقه نيكولاس وعائلته، وأن يعرف كل جوانب الرفاهية التي يعيش فيها ذاك الرجل الذي كان يوماً على علاقة به.

بعد مرور بعض الوقت يمكن أن يعود ليمكث وقتاً أطول، إلا أنه في هذه المرة رفض رفلز أن يطرد من المنزل على حد قوله، وكذلك رفض أن يترك مدل مارش تحت أنظار السيد بولسترود. أراد الذهاب في اليوم التالي بواسطة عربة الأجرة إذا ما قرر ذلك.

شعر بولسترود أنه عاجز، فلا التخويف ولا التملق يمكن أن ينفعا.. فهو لن يستطيع أن يركن إلى أي خوف مستمر أو وعيد، بل بالعكس فقد شعر بتأكد تام ينتاب قلبه وهو أن رفلز سيعود حتماً ما لم يمت. وكان ذلك التأكد مصدر رعب بالنسبة إليه.

ليس خطر العقاب القانوني ما كان يعاني منه ولا خطر الفقر، إلا أنه كان يواجه خطر افتضاح أمر بعض حقائق ماضيه أمام جيرانه وزوجته،فيصبح موضع سخريتهم وازدرائهم وكذلك موضع سخرية وازدراء الدين، الذي ربط نفسه تماماً به.

الخوف من حكم الناس يقوي الذاكرة.. فهو يرسل ضياءً ساطعاً على الماضي الطويل المهمل، الذي ما كان يستدعى إلا في بعض المناسبات الملحة من خلال تعابير عامة، فحتى من دون ذاكرة تقيد الحياة إلى مركز واحد بطوق الاعتماد على النمو والتفسخ، لكن الذاكرة المكثفة تجبر الإنسان على امتلاك ماضيه الجدير باللوم.

بذاكرة تلسع كلسع الجرح الذي فتح ثانية لا يغدو ماضي الإنسان مجرد تاريخ ميت ولا تهيئة بالية للحاضر، وهو ليس خطيئة قد تاب عنها، فابتعدت عن الحياة، لكنه لا يزال جزءاً مرتجفاً من نفسه يجلب القشعريرة والمرارة وكذلك وخزات الخزي المستحقة.

نهض ماضي حياة بولسترود الثانية دون تغير سوى أن متعته قد فقدت مذاقها. ففي كل يوم وليلة، كان يرى مشاهد حياته الأولى تقف بينه وبين كل شيء آخر باستمرار ودون انقطاع إلا في أثناء يومه القصير، الذي كان يحوك استعادة الأحداث الماضية والمخاوف الأخرى، فينسجها على شكل حاضر رائع ومدهش، كان يرى مشاهد ماضيه أمامه تماماً كما لو وقفنا خلف نافذة غرفة مضاءة، لرأينا أمامنا على زجاج النافذة جميع المحتويات الغرفة بدلاً من أن نرى عشب الحديقة المظلمة وأشجارها. كانت تظهر له الأحداث الداخلية والخارجية المتلاحقة في مشهد واحد على الرغم من أنه لو فكر في إحداها كان ممكنًا أن تبقى الأخريات تنتظر في مساحة الوعي.

مرة ثانية رأى نفسه حين كان محاسباً شاباً يعمل في المصرف، محبوباً لذكائه في الحسابات وكذلك في الحديث ومولعاً بالتفاسير الدينية، وعلى الرغم من صغر سنه فإنّه

كان عضواً بارزاً في كنيسة كالفينية منشقة في هايبري لما كان يتمتع به من خبرة في جريمة الذنوب والشعور بالغفران.

مرة ثانية سمع نفسه وهو ينادى عليه:... أخانا بولسترود أثناء الاجتماعات للصلاة، وكذلك وهو يتكلم وراء المنصات الدينية ويلقي عظاته في منازل خاصة. مرة أخرى شعر بمنصب الكاهن وكأنه مكان عمله، وكذلك شعر برغبته في العمل التبشيري. لقد كانت تلك الأوقات أسعد أوقات حياته.. إذ تمنى لو استيقظ في تلك الحقبة ليجد باقي حياته مجرد حلم.

كان الأشخاص الذين تميز من بينهم بولسترود قليلين لكنهم كانوا ملتصقين به، فكانوا أكثر من صنع السعادة في نفسه، ولا سيما أن قدرته كانت تعمل ضمن مجال ضيق، لكنه كان يشعر بتأثيرها القوي. كان يؤمن دون جهد بتأثير العظمة على نفسه وبالعلائم التي تشير إلى أن الرب قد اختاره لمهمة خاصة.

ثم جاءت لحظة التحول؛ إذ ترافقت مع إحساسه بترفيع عندما دعي إلى قصر أغنى رجل بين المصلين، السيد دانكِرك، على الرغم من صباه فإنه كان يتلقى تعليمه في مدرسة خيرية تجارية. خلال وقت قصير جداً أصبح مقرباً هناك.. محترماً لورعه من قبل الزوجة، ومفضلاً لقدراته لدى الزوج الذي كانت ثروته نتاج التجارة المزدهرة في وسط العاصمة وأقصى غربها. كانت هذه بداية وانطلاقة تيار طموحه ليوجه الوسيلة في اتجاه التوحيد بين النعم الدينية المتميزة والعمل الناجح.

بعد فترة من الزمن توافرت له فرصة عظيمة.. إذ توفي شريك ثانوي مؤتمن، ولم يكن أحد يناسب المكان كما كان يناسبه صديقه الشاب بولسترود إذا ما أصبح محاسباً مؤتمنا به، فقبل بولسترود العرض.

كان العمل عبارة عن الإدانة بموجب الاسترهان، وكان ناجحاً جدّاً على الصعيدين في الربح والحجم، وبعد تأقلمه به في وقت قصير علم بولسترود أن أحد مصادر الربح الضخمة كان يتمثل في سهولة قبول أي بضائع تقدم دون مساءلة دقيقة عن مصدرها، كما كان هناك فرع في أقصى غرب العاصمة لم تظهر فيه دناءة ولا بذاءة تشير إلى وجود أي شيء مخزٍ.

لقد تذكّر لحظات انقباضه الأولى، وقد كانت سرية ومليئة بالجدل.. إذ اتخذ بعضها

شكل الصلوات. كان قد تأسس العمل الحر وبنى له جذوراً منذ وقت بعيد، أليس إنشاء حانة بيع الخمر شأناً، وجني المرابح من حانة قديمة شأناً آخر؟ كانت تجمع المرابح من الأرواح الضائعة.

ألم تكن طريقة الرب في إنقاذ من يختارهم. «إنك تعلم»... ما قاله بولسترود الشاب عندها، وكرره بولسترود العجوز الآن: «... إنك تعلم كم نفسي ضعيفة أمام هذه الأشياء، وكيف أنظر إليها جميعًا وكأنها أدوات أحرث بها حديقتك لأخلصها من الأعشاب البرية المتطفلة».

لم تنقص تلك الأقوال صوراً بلاغية ولا مقدمات ولا تجارب روحية غريبة.جعلت الاحتفاظ بعمله خدمة كان يسعى وراءها، فهناك صورة لثروة كبيرة بدأت تتكون في ذهنه، وظلّ انقباض بولسترود سريّاً. لم يتوقع السيد دانكرك أن يكون هناك أي انقباض على الإطلاق، فهو لم يخطر له أن التجارة يمكن أن تكون لها أي صلة بمفهوم النجاة والخلاص، وحقًّا وجد بولسترود نفسه يتابع حياته ضمن منهجين متناقضين، فنشاطه الديني لم يتضارب مع عمله مادام قد أجبر نفسه على الشعور بعدم التضارب.

بينما كان بولسترود منشغلاً ذهنيّاً بماضيه ثانية، كان ينتابه شعور بالالتماس، فحقًّا كانت السنوات تنسجها في سماكة معقدة لتشبه كومة من أعشاش العنكبوت التي تبطن الإحساس الخلقي، كلا... فكما تقدم السن يجعل الأنانية أكثر تعطشاً ولكن أقلّ استمتاعاً، كما ترتوي روحه أكثر بالإيمان أنه قد فعل كل شيء لأجل الرب دون أن يأبه لنفسه. على الرغم من هذا كله فهو إذا ما استطاع أن يعود ثانية إلى تلك الحقبة الفقيرة من شبابه، لاختار أن يكون تبشيريّاً.

إلا أن قطار الأسباب الذي أغلق على نفسه فيه قد انطلق. لقد كان هناك أزمة في ذلك المنزل الفخم في هايبري.. فمنذ سنوات عديدة هربت الابنة الوحيدة متحدية أبويها لتعمل في المسرح، ثم توفى الابن الوحيد، وبعد وقت قصير توفى السيد دانكرك.

الزوجة التي كانت ورعة وبسيطة والتي تركت وحيدة مع الثروة التجارية الكبيرة التي لم تعرف عن طبيعتها شيئاً، راحت تعتقد ببولسترود وتعجب به ببراءة كما تعجب النساء عادة بقس كنيستهن أو بالكاهن. كان من الطبيعي بعد وقت من الزمن أن يفكرا في الزواج بينهما. إلا أن السيدة دانكرك كان ينتابها تأنيب ضمير واشتياق لابنتها الوحيدة، التي

اعتبرت طويلاً كخسارة للأب وكذلك لوالديها.

لما فقدت الأم ابنها راحت تتخيل حفيداً، فتمنت أن تعود لها ابنتها، فلو وجدتها لكان هناك انتقال للملكية ربما لعدة أحفاد. يجب أن تبذل الجهود للسعي وراء إيجادها قبل أن يصبح في إمكان السيدة دانكرك الزواج ثانية.

وافقها السيد بولسترود، ولكن بعد الإعلان وكذلك بعد أن بذلت محاولات عديدة من نوع آخر، أيقنت الأم أن ابنتها لن يعثر عليها، فوافقت على الزواج دون حجز على الملكية.

الابنة كانت قد وجدت، لكن رجلاً واحداً فقط، بالإضافة إلى بولسترود، عرف تلك الحقيقة، فدفع له مالاً مقابل أن يبقى صامتاً ويسافر بعيداً.

كانت تلك الحقيقة الجلية هي التي أجبر بولسترود الآن على رؤيتها بالطريقة القاسية التي تبرز خلالها الأحداث نفسها أمام المشاهدين. إلا أنه بالنسبة إليه، في ذلك الوقت البعيد وحتى في وقته الحاضر.. أي في ذاكرته المتقدة، فإن الحقيقة متفرقة إلى سلاسل قصيرة، كل منها مبرر، كما أتت، ببراهين تثبت أنها صحيحة.

كان بولسترود يعتقد أن سبيله في الحياة، حتى ذلك الوقت، كان قد قيدته العناية الإلهية المميزة موضحة له أنه قد أريد له أن يكون أفضل وكيل يحسن الاستفادة من ملكية كبيرة وذلك بإبعادها من الفساد.

فالموت بالإضافة إلى تصرفات أخرى مفاجئة، كالثقة الأنثوية، قد أتت، فتبنى بولسترود كلمات كرامويل: «هل تسمي هذه أحداثاً جرداء...؟ فليشفق عليك الرب..!» الأحداث كانت صغيرة إلى حد ما، لكن الحالة الأساسية كانت هناك، ولا سيما أنها كانت مناسبة له.

كان من السهل عليه أن ينجز ما هو مطلوب منه تجاه الآخرين، وذلك بموجب تمعنه في مقاصد الرب منه. هل من الممكن أن يراد لهذه الثروة أن تذهب خدمة للرب لسيدة شابة وزوجها اللذين كان هدفهما في الحياة هو الاستمتاع بأتفه الأشياء، فربما يبددانها على التفاهات خارج البلاد، فهما كأولئك الذين ينحرفون عن طريق العناية الإلهية؟.

لم يقل بولسترود لنفسه مسبقاً: «... لن يعثر على الابنة». في أيّ حال عندما آن الأوان أخفى حقيقة وجودها، ثم بعد ذلك خفف على الأم بتعزيته لها متذرعاً باحتمال وفاة ابنتها.

لقد مرت ساعات كان بولسترود يشعر فيها أن أفعاله لم تكن صحيحة، ولكن كيف يستطيع أن يعود إلى الوراء...؟ كان لديه نشاط فكري، ولم يدع نفسه بشيء، لكنه كان يطلب المغفرة فتابع حياته بموجب قناعته بمبدأ الوسيلة، وبعد خمسة أعوام جاء الموت ثانية ليأخذ زوجته، فيعترض طريقه.

بعدها سحب تدريجاً رأس ماله، لكنه لم يقدم التضحيات الضرورية ليضع نهاية لذلك العمل الحر، الذي استمر بعد ذلك ثلاثة عشر عاماً قبل أن ينهار تمامًا.

في أثناء تلك الأعوام استخدم نيكولاس بولسترود مئة ألف جنيه بتحفظ تام فأصبح رجلاً مهمّاً جدّاً على صعيد الإقليم؛ صاحب بنك ورجل كنيسة ومحسناً في المشاريع الخيرية العامة وكذلك شريكاً من وراء الكواليس. فالتجارة حيث وجه قدراته في تجارة المواد الأولية كمادة الصباغ التي يستخدمها السيد فنسي في تلوين حريره. أما الآن وقد مضى على هذا الاحترام ثلاثون عاماً دون تهديد حيث ظل كل ما سبق مخدراً في الضمير، قد نهض ذلك الماضي الآن فملأ تفكيره وكأنما أصابه انفجار شعور جديد ليثقل على الكائن الضعيف.

في الوقت الحاضر... ومن خلال حديثه مع السيد رفلز، لقد تعلم شيئاً مهمّاً جدّاً، شيئاً قد دخل بنشاط إلى صراعه مع أمانيه ومخاوفه. عندها اعتقد أن هناك ما هو إنقاذ روحي، وربما حتى إنقاذ مادي.

الإنقاذ الروحي كان يحتاج إليه حقّاً. ربما يوجد منافقون غلاظ يتعمدون إيذاء المعتقدات والأحاسيس كي يخدعوا العالم، لكن بولسترود لم يكن أحد أولئك. لقد كان ببساطة رجلاً رغباته أقوى من معتقداته النظرية، وكان يربط بانسجام مقنع بين إرضاء رغباته وتلك المعتقدات. لو كان هذا نفاقاً، فهو يظهر فينا جميعاً بين الآونة والأخرى مهما كان نوع الاعتراض الذي نتبعه، وإذا ما كنا نؤمن بكمال مستقبل أصلنا البشري، أو بأقرب تاريخ كان قد ثبت لنهاية هذا الكون، إذا ما اعتبرنا الأرض منبتاً للفساد لأجل بقية ناجية بما فيها نحن أنفسنا، أو كان لدينا اعتقاد عاطفي في تماسك الجنس البشري.

لقد ادعى لنفسه أن الخدمة التي يستطيع تقديمها لأجل الدين على امتداد حياته كانت تشكل أرضية لاختياره لأفعاله، وقد كانت تشكل المحرض الذي كان يتركه يتدفق بفزارة في أثناء صلواته.

من يستطيع أن يستخدم المال ومكانته على نحو أفضل مما استخدمهما هو..؟ من

يستطيع أن يتفوق عليه في النقد الذاتي وتمجيد الهدف الإلهي..؟ ولا سيما أنه بالنسبة إلى السيد بولسترود، كان الهدف الإلهي شيئاً منفصلاً عن الاستقامة في العمل، ويفرض تميزاً ضد أعداء الرب الذين ليسوا إلا وسائل... وينبغي إبعادهم عن المال وعن التأثير في الآخرين.

أيضاً توظيف المال، الذي يجر ربحاً، فالتجارة التي تظهر فيها قوة أمير هذا العالم أعلى نشاطها، إذ راح يقيد هذا التوظيف الاستعمال الصحيح للمرابح من قبل يدي خادم الرب.

هذه المحاكمة الواضحة، لم تعد غريبة على معتقد إنجيلي أكثر من غرابة استخدام العبارات الفضفاضة للتعبير عن محرضات ضيقة على رجل إنجليزي. لا توجد نظرية دينية عامة عاجزة عن استيعاب أخلاقنا إذا لم تفحص بالعادة المتجذرة للمشاعر الإنسانية المباشرة لدى إنسان ما.

إلا أن الرجل الذي يؤمن بشيء آخر غير جشعه، لا بد من أن يكون لديه ضمير أو معيار يخضع نفسه له إلى حد ما. معيار السيد بولسترود كان خدمته لأجل هدف الرب... «أنا مذنب ولا قيمة لي ووعاء يستخدم لهدف نبيل، استخدمني...!» كانت تلك العبارات، القالب الذي قيد فيه حاجته، كي يكون رجلاً مهماً ومؤثراً. والآن جاء الوقت الذي بدأ فيه ذلك القالب يعاني خطر الكسر فيلقى به بعيداً.

ماذا لو أصبحت الأفعال، التي روض نفسه عليها... وجعلت منه أداة أقوى بتحقيق عظمة الرب... حجة للساخرين منه وظلمة لتلك العظمة؟ لو كانت هذه طريقة العناية الإلهية لألقي به خارج المعبد وكأنه من جلب عطايا قذرة.

لطالما تفوه باستغفارات كثيرة جداً ولوقت طويل جداً. إلا أنه في هذا اليوم، جاء وقت توبة لها مذاق أكثر مرارة، وعناية إلهية تهدده وتجبره على دفع كفارة لم تكن مجرد تحول عقائدي. لقد غيرت المحكمة الإلهية تعاملها معه، فلم يعد السجود كافياً لوحده، فيجب عليه أن يعوض عن الملك لأهله.

حقاً كان أمام ربه عندما حاول أن يقدم ذاك التعويض. لقد سيطر على جسده الحساس خوف شديد، كما أن اقتراب الخزي الحارق قد كوّن في داخله حاجة روحية جديدة. طوال الليل والنهار بينما كان الماضي المنبعث حديثاً يخيفه ويهدده ويوقظ ضميره في داخله، كان

يفكر في أيّ وسيلة يستطيع من خلالها أن يستعيد السلام والثقة، وفي أيّ تضحية يستطيع من خلالها أن يبعد عنه العقاب.

كان يعتقد في أثناء هذه اللحظات من الخوف، أنه لو قام على الفور بفعل خير صحيح لأنقذه الرب من عواقب خطاياه، فكأن الدين يتغير فقط عندما تتغير العواطف، وأن دين الخوف الشخصي يظل عند مستوى الإنسان الهمجي.

لقد شاهد رفلز وهو يذهب بعربة الأجرة إلى براسنغ، فكان هذا بالنسبة إليه بمثابة ارتياح مؤقت، إذ أزيح عنه ضغط الخوف القريب، لكنه لم يضع نهاية للصراع الروحي، والحاجة إلى اكتساب حماية. أخيراً اتخذ قرار حل صعباً، فكتب رسالة إلى لادسلو طالباً منه لقاءه في المنزل في ذلك المساء لأمر مهم وذلك في الساعة التاسعة.

لم يصب ويل بأي دهشة للطلب، إذ عزاه لأمر يتعلق بصحيفة البيونير، لكنه عندما دخل غرفة السيد بولسترود الخاصة، صدمته النظرة المؤلمة التي ارتسمت على وجه صاحب المصرف، وكان سيقول: «هل أنت مريض؟». لكنه أحجم عن تهوره، وسأل فقط عن السيدة بولسترود ورضاها عن اللوحة التي اشتراها لها.

«شكراً.. إنها راضية تمامًا. لقد خرجت مع ابنتها هذا المساء. لقد طلبت منك الحضور يا سيد لادسلو، لأن لدي موضوعاً خاصّاً وسريّاً للغاية أريد أن أوضحه لك. لا شيء أبعد عن تذكيرك، من حقيقة أن هناك ما يربط بين ماضيك وماضيّ..».

شعر ويل بشيء يشبه الصدمة الكهربائية. كان قبل ذلك في حالة حساسية شديدة وغضب لا يهدأ، بسبب موضوع الروابط القديمة، ولم يكن شعوره السبقي مقبولاً. كان يبدو له الأمر كتموجات حلم، بدأ أحداثه ذلك الرجل الغريب الفظ، وهاهو يتابعها صاحب الوقار هذا ذو الوجه الشاحب والمظهر المريض، والذي أصبح صوته المنخفض وعفويته الرسمية في الحديث في هذه اللحظة كريهة بالنسبة إليه ككراهة تذكره لذاك الرجل. أجاب مع تغير ملحوظ للون وجهه: «كلا... في الحقيقة لا شيء».

«إنك ترى أمامك يا سيد لادسلو، رجلاً يعاني من جرح عميق. لولا ضرورة الضمير.. وإدراك بأنني سأقف أمام محكمة من يرى ما لا يراه الإنسان، لما أجبرت على أن أفصح عن أمر أردتك لأجله أن تحضر هذه الليلة إلى هنا. بموجب القوانين البشرية لا حق لك علي على الإطلاق».

شعر ويل بعدم ارتياح أقوى من تعجبه. في حين أنّ السيد بولسترود ظلّ صامتاً لبرهة من الزمن وهو يسند رأسه إلى يده وينظر إلى الأرض، ثم ثبت نظره في ويل وقال: «لقد قيل لي إن اسم أمك سارة دانكرك، وإنها هربت من أهلها لتعمل في المسرح، كما قيل لي أيضاً إن أباك كان يعاني من مرض عضال. هل لي أن أسألك ما إذا كنت تستطيع أن تؤكد لي هذه الأقوال...؟؟».

«نعم، إنها كلها صحيحة»، أجابه ويل وقد أدهشته طريقة التساؤل إذ توقعها أن تكون أولية... بناء على تلميحات صاحب المصرف، إلا أن السيد بولسترود قد اتبع طريقة عواطفه هذه الليلة إذ اعتقد دون شك أن فرصة إعادة الحق إلى أهله قد جاءت، فتملكه اندفاع قوي نحو تعبير عن التوبة بدلاً من العقاب.

تابع بولسترود: «هل تعرف أيّاً من أقارب أمك...؟».

«كلا لم تكن ترغب في الحديث عنهم. لقد كانت امرأة كريمة وشريفة». قال هذا ويل وهو شبه غاضب.

«إنني لا أقصد الإساءة إليها. هل حدثتك عن أمها...؟».

«لقد سمعتها تقول إن أمها لم تعلم بسبب هروبها، وكانت دائماً تقول: أمي المسكينة... بنبرة عطف وشفقة».

قال بولسترود: «تلك الأم أصبحت زوجة لي..!!»، ثم توقف للحظة قبل أن يضيف: «لك حق علي يا سيد لادسلو، وكما قلت من قبل، إنه ليس حقّاً قانونيّاً، ولكنه حق يعترف به ضميري. لقد أصبحت غنيّاً نتيجة ذلك الزواج... نتيجة ربما ما كانت لتحدث... ومن المؤكّد ليس بالمستوى نفسه لو أنّ جدّتك اكتشفت وجود أمك. على ما أعلم أن تلك الابنة ليست على قيد الحياة الآن».

«كلا..»، قال هذا ويل وقد تملكه شعور قوي من الشك والاشمئزاز، حتى إنه لم يدرك ماذا فعل عندما نهض والتقط قبعته من على الأرض، ثم وقف. كان اندفاعه الداخلي يرفض العلاقة التي أفصح عنها.

قال السيد بولسترود مضطرباً: «أرجوك اجلس يا سيد لادسلو. من المؤكّد أنّ هذا الاكتشاف المفاجئ قد صدمك، إنني ألتمس صبرك بعد أن أخضعت نفسي لمحاكمة داخلية»...

جلس ويل بعد أن شعر بشفقة نصف سببها انتقاص رجل العجوز من قدر ذاته طوعيّاً.

«إنها أمنيتي يا سيد لادسلو... أن أصلح الحرمان الذي وقع على أمك. إنني أعلم أنك لا تملك ثروة، وإنني أرغب في أن أقدم لك من ذلك المخزن، الذي ربما كان من المرجح سيصبح ملكاً لك، لو كانت قد تأكدت جدتك من وجود أمك، واستطاعت أن تعثر عليها».

توقف السيد بولسترود، إذ شعر أنه كان يتصرف على نحو يثير الشك لدى من كان يستمع إليه، وعلى نحو تكفيري أمام الرب. لم يدرك الحال الفكرية التي كان يمر بها ويل، إذ كانت تتقد نتيجة تلميحات رفلز الواضحة، ونتيجة سرعتها في تركيب الأفكار التي أثارتها الاكتشافات المتوقعة التي يتمنى إعادتها إلى الظلمة. لم يبد ويل أي جواب للحظات حتى رفع السيد بولسترود نظره الذي كان قد خفضه إلى الأرض لدى انتهائه من الحديث، ليلقي نظرة فاحصة على ويل، الذي قابلها بمثلها قائلاً،

«أعتقد أنك قد عرفت بوجود أمي، وعرفت كذلك أين يمكن أن تجدها..». انقبض بولسترود إذ ظهر على وجهه ويديه ارتجاف ملحوظ، فهو لم يتوقع أن تقابل عروضه بهذه الطريقة، أو أن يحث على البوح باعترافات أكثر من تلك التي قرر بوحها مسبقاً، لكنه لم يجرؤ في تلك اللحظة على أن يقدم كذبة واحدة... على الرغم من أنه شعر فجأة بفقدانه الثقة في الأرض التي كان يقف عليها مسبقاً.

أجاب برجفة في صوته: «لن أنكر... أن توقعك قد كان صحيحاً، وأنا أرغب في أن أقدم لك تعويضاً لأنك أنت الذي بقيت تعاني بسببي. أتمنى أن تساعدني في تحقيق هدفي، الذي وراءه دوافع أسمى من حق مطالبة الإنسان، الذي كما قلت آنفاً.. إنه بعيد تماماً عن الحق القانوني. إنني مستعد لأقلص من نفقاتي ونفقات أسرتي، كي أقدم لك سنويّاً مبلغاً قدره خمسمئة جنيه طوال حياتي، وأوصي لك بمبلغ كبير تتلقاه عند وفاتي، وأنا مستعد لأكثر من هذا إذا ما كان ضروريّاً لأي مشروع تقيمه». لقد استخدم السيد بولسترود تفصيلات محددة، على أمل أن تؤثر في لادسلو، وتثير فيه مشاعر أخرى تدفعه نحو الرضى والقبول.

إلا أن ويل كان يبدو عنيداً جدّاً ويرتسم على شفتيه التجهم، وهو يضع أصابعه في جيبيه الجانبيتين. إنه لم يتأثر قطّ وقال بثبات: «قبل أن أجيب عن أي من عروضك يا سيد بولسترود... لابد لي من أن أطلب منك أن تجيبني عن بعض الأسئلة. هل كانت لك علاقة بذلك العمل الحر الذي كان مصدر الثروة التي تتحدث عنها؟»

كانت فكرة السيد بولسترود... : «لا بد من أن رفلز أخبره». كيف له أن يرفض الإجابة بعد أن تطوع بتقديم ما جرّ إلى هذا السؤال؟ أجاب:.. «نعم».

«وهل كان ذلك العمل، أم لم يكن، عملاً غير شريف تماماً، أو ليس لو كان قد اكتشف طبيعة ذلك العمل، لصنف جميع من كان لهم صلة بذلك العمل في زمرة اللصوص والمتهمين؟».

ظهرت على نبرة ويل مرارة قاسية، فهو أجبر على أن يقدم سؤاله بأكثر الطرق صراحة.

احمر وجه بولسترود لغضب لم يستطع كبحه، فهو كان متوقعاً... فقد كان متهيئاً لمشهد نقد ذاتي، لكن كبرياءه العميقة وطبعه المتكبر قد منعاه من التوبة، وأصابه رعب عندما استدار إليه هذا الشاب... الذي أراد أن يقدم له النفع كما يستدير القاضي.

لم يجب بصوت مرتفع، لكنه قالها بسرعة التحدي: «كان قد أسس العمل الحر قبل أن ألتحق به يا سيدي، إذ ليس من حقك أن تثير تساؤلاً من ذلك النوع».

قال ويل بعد أن نهض ثانية وفي يده قبعته: «بل إنه من حقي... إنه من حقي تمامًا أن أطرح هذا السؤال، ولا سيما في وقت ينبغي لي أن أقرر ما إذا سيكون هناك تعامل مالي بيني وبينك، فأقبل نقودك. إن شرفي غير الملوث لهو مهم عندي. إنه أمر مهم بالنسبة إليّ ألاّ يكون هناك لطخة عار تلحق بأصلي وعلاقاتي. أما الآن فإنني أجد هناك لطخة عار لا أستطيع محوها. لقد أدركتها أمي، فحاولت أن تبقي نفسها بعيدة منها قدر استطاعتها، وكذلك سأفعل. إنك ستحتفظ بنقودك ذات المصدر القذر. لو كنت أملك ثروة لقدمتها لمن يستطيع إثبات عكس ما قلته لي. ما ينبغي لي أن أشكرك لأجله، هو أنك قد احتفظت بالمال حتى هذا الوقت ليصبح في مقدوري أن أرفضه. ينبغي للرجل أن يدرك بنفسه أنه رجل نبيل. ليلة سعيدة يا سيدي».

كان بولسترود سيقول شيئاً، لكن ويل خرج من الغرفة بسرعة متعمدة، وبعد لحظة فقط أغلق باب الردهة خلفه. لقد سيطرت عليه نوبة تمرد أعنف مما ينبغي، نتيجة اكتشافه لطخة العار التي لحقت بأسرته، حتى إنه لم يفكر في ما إذا كان قد قسا على بولسترود أكثر مما ينبغي، أو عامل ذلك الرجل البالغ ستين عاماً بلا رحمة ولا شفقة عندما أراد أن يعيد الحق إلى أصحابه إلا أن الوقت قد بدد جهوده.

ما كان لشخص ثالث أن يستمع إلى حوارهما فيفهم سر تمرد ويل ولا اشمئزازه ولا مرارة كلماته. لا أحد سواه قد عرف عندها كيف أن كل شيء مرتبط بوجدان وقاره، له تأثير مباشر على علاقته بدورثيا وعلى معاملة السيد كزابون له. وضمن سرعة اندفاعه التي أدت إلى رفضه لعرض بولسترود، كان ينتابه شعور يتمثل باستحالة أن يقول لدورثيا إنه قد قبل ذلك العرض.

أمّا بالنسبة إلى بولسترود، بعد أن ذهب ويل فإنّه ظلّ يعاني من ردة فعل عنيفة، فراح ينتحب كالنساء. كانت هذه أول مرة يواجه فيها تعبيراً صريحاً عن سخرية صدرت عن أي رجل ذي مكانة أعلى من مكانة رفلز، ومع تلك السخرية التي كانت تجري في جسده كالسم، لم يترك مكاناً للإحساس بالمواساة. كان عليه أن يضع حدّاً لبكائه، فقد عادت زوجته وبناته بعد أن استمعن إلى خطبة تبشيرية مشرقية، وكن آسفات لأن الأب لم يستمع إلى الأشياء الممتعة التي حاولن أن يكررنها عليه.

ربما من بين جميع الأفكار المختبئة كانت هناك فكرة وحيدة بعثت فيه ارتياحاً قويّاً.. إذ إن، من المرجح أن يأبى لادسلو نشر ما حدث في ذلك المساء.

الفصل الثاني والستون

لقد كان حامل الدروع من الدرجة الثانية... ذاك الذي أحب ابنة ملك هنغاريا.

من قصص الحب الرومانسية القديمة

انصرف جل تفكير ويل نحو لقاء دورثيا مرة ثانية، ومن ثم مغادرة مدل مارش، ففي الصباح الذي تلا مشهد مقابلته بولسترود المثير، سطر رسالة قصيرة لها يقول فيها: إن العديد من الأسباب قد أخرت سفره إلى وقت أطول مما كان يتوقع، وإنه يلتمس منها موافقتها على حضوره ثانية إلى لُوِيك في ساعة تحددها هي، وذلك في أقرب وقت ممكن لأنه قد تحضر لسفره، لكنه لا يرغب في ذلك حتى تمنحه فرصة اللقاء. ترك الرسالة في المكتب وطلب من المراسل أن يحملها إلى منزل لُوِيك منر وينتظر الجواب.

لقد شعر ويل باستهجان طلبه في أن يقدم أقوالاً أخيرة للمرة الثانية، ولا سيما أن وداعه الأخير كان في حضور السير جتم وقد أعلن سفره حتى لرئيس الخدم.

من المؤكّد أنّه من الصعب على وقار الرجل أن يظهر ثانية في وقت لا يتوقع منه أن يفعل ذلك.. فالوداع الأول يكون عادة مثيراً للشفقة، لكن العودة لأجل وداع ثانٍ غالباً ما يكون مثيراً للجدل؛ فربما سخر الآخرون من دوافع ويل في تأجيل سفره.

على الرغم من هذا كله، فإنّه لا يزال يفضل أن يطلب لقاء دورثيا بطريقة واضحة ومباشرة، على أن يستخدم أي طريقة أخرى يمكن أن يفهم بها سبب اللقاء على أنه مجرد مصادفة في وقت أرادها أن تدرك أنه قد طلب ذلك اللقاء بإلحاح صريح.

عندما افترق عنها في المرة الماضية، كان يجهل حقائق منحت علاقتهما عنصراً جديداً، وكانت سبباً لقطع علاقتهما أقوى مما كان يتوقع. ما كان يعرف شيئاً عن ثروة دورثيا الخاصة، ولأنه لم يعتد على التفكير في مثل هذه المسائل فقد افترض زواجه منها،

بموجب ترتيبات السيد كزابون، يعني موافقتها على أن تكون مفلسة.

لم يتمن ذلك حتى في مكنونات قلبه أو حتى لو كانت مستعدة على أن تواجه النقيض الصعب لأجله. كما كان هناك الألم الحديث العهد والناجم عن كشف المعلومات حول أسرة أمه، التي لو عرفت لأضافت سبباً آخر يدفع محبي دورثيا لاعتباره أدنى منها مرتبة بكثير. لقد بدا له الأمل الخفي الذي كان يراوده على أنه سيعود يوماً وهو يشعر أنه قد بلغ مكانة تعادل ثروتها، استمرارية حالمة لحلم سابق. من المؤكّد أنّ هذا التغير يبرر له طلبه من دورثيا كي تستقبله ثانية.

إلا أن دورثيا لم تكن في المنزل في ذلك الصباح لتتلقى رسالة ويل، فنتيجة رسالة تلقتها من عمها يبلغها فيها أنه سيحضر إلى منزله بعد أسبوع، ذهبت إلى فريشت لتنقل الأخبار، ثم تذهب من هناك إلى كرينج لتقوم ببعض الترتيبات التي كان عمها قد طلبها منها، معتقدة على حد قوله «أن انشغالاً فكريّاً بسيطاً من هذا النوع لهو جيد بالنسبة إلى أرملة».

لو كان ويل قد استمع للمحادثة التي جرت في فريشت في ذلك الصباح، لتيقن من جميع افتراضاته، التي تتعلق بسخرية بعض الناس من تأجيل سفره.

حقّاً... على الرغم من ارتياح السير جيمس من وضع دورثيا، فإنّه كان يراقب تحركات لادسلو. إذ طلب من السيد ستانديش أن ينقل له الأخبار، فقد كان يثق به كثيرًا في هذا الشأن.

إن بقاء لادسلو في مدل مارش لشهرين بعد أن صرح بمغادرته الفورية قد بعث حقّاً المرارة في شكوك السير جيمس أو على الأقل قد بررت كراهيته لشاب كان قد رآه على أنه وضيع ومتقلب وقادر على إظهار طيشه المتجذر، والذي لا تقيده روابط أسرية أو مهنة صارمة.

إلا أنه قد سمع مؤخراً من السيد ستانديش شيئاً يثبت هذه الظنون حول ويل ويبطل الخطر الذي يمكن أن يلحق بدورثيا.

يمكن لظروف غير مرغوب فيها، أن تجعلنا نتصرف على نحو يخالف طبيعتنا.. هناك ظروف تجبر أكثر الناس وقاراً على العطاس، ويمكن أن نظل نتصرف بموجب عواطفنا بالطريقة المتناقضة نفسها. كان السير جيمس الطيب في ذاك الصباح على غير عادته،

راغباً في أن يقول شيئاً لدورثيا حول موضوع كان يتجنب الخوض فيه، وكأنه كان مصدر خجل لكليهما.

لم يستطع استخدام سيليا كوسيط لأنه أرادها ألاّ تعرف طبيعة الإشاعات التي كانت تدور في ذهنه، فقبل أن تصل دورثيا، حاول أن يتخيل كيف يمكنه أن يقدم لذلك الموضوع، على الرغم من خجله وتردد لسانه. فإنّ قدومها غير المتوقع جعله يفقد الأمل بقدرته على أن يقول أي شيء بغيض إلا أن الحاجة قد أوجدت طريقة مختلفة.. إذ إنه أرسل فارساً على حصان دون سرج عبر الحديقة العامة يحمل رسالة خطية للسيدة كادولدر، التي كان لها علم مسبق بالإشاعات، والتي كانت فوق الشبهات إذا ما كررت ذلك كلما استدعت الحاجة إلى ذلك.

احتجزت دورثيا بحجة أن السيد جارث، الذي كانت ترغب في رؤيته، سيحضر إلى المنزل بعد ساعة من الزمن، وقد ظلت تتحدث إلى كيلب بينما كان السير جيمس ينتظر زوجة القس، فعندما رآها قدم لها بعض التلميحات الضرورية.

قالت السيدة كادولدر: «كفى...! لقد فهمت إنك ستكون بريئاً. إنني سوداء على قدر كافٍ يجعلني لا ألطخ نفسي».

قال السير جيمس دون رغبة منه في أن تفهم السيدة كادولدر أكثر مما ينبغي: «لا أعني أنه بسبب ذلك... ولكن فقط من المفضل أن تفهم دورثيا أن هناك أسباباً تجبرها على عدم استبقاله ثانية، وأنا حقًّا لا أستطيع أن أقول لها ذلك. إنها ستأتي منك لطيفة».

حقّاً إنها أتت كذلك، فعندما ودعت دورثيا كيلب وعادت لتقابلهم تبين أن السيدة كادولدر قد جاءت مصادفة عبر الحديقة العامة فقط لتتحدث مع سيليا بطريقة لطيفة حول الطفل.

«هكذا السيد بروك سيعود قريباً...؟ إنه لمن المبهج...! أمنيتنا أن يعود وقد عوفي من حمى البرلمان وصحيفة البيونير. في ما يتعلق بصحيفة البيونير، لقد تنبأ أحدهم أنها ستكون قريبًا كدلفين يموت، وأنها ستغير ألوانها، لأنها لا تعي كيف تعين نفسها لأن من هو بحماية السيد بروك (الشاب الذكي لادسلو) ذهب أو سيذهب. هل سمع السير جيمس بذلك؟».

كان الثلاثة يسيرون على ممر الحصى ببطء، فقال السير جيمس وهو يستدير ليضرب شجيرة بسوطه إنه قد سمع شيئاً من هذا القبيل.

قالت السيدة كادولدر: «كله زيف.. من الواضح أنه لم يذهب ولن يذهب، فصحيفة البيونير ستبقى على لونها، والسيد أورلاندو لادسلو يتسبب بفضيحة حزينة سوداء بغنائه المستمر مع زوجة السيد ليدجيت، التي يقولون لي عنها إنها في غاية الجمال. يبدو أنه في هذه الأيام لا أحد يذهب إليهما في المنزل إلا وقد وجد ذلك الشاب مستلقياً على سجاد أو يغني مع آلة البيانو. إلا أن لسكان البلدات الصناعية دائماً سمعتهم السيئة».

قالت دورثيا بانفعال شديد: «لقد بدأت حديثك بوصف النبأ أنه زائف يا سيدة كادولدر، وإنني لأعتقد أن هذا أيضاً لهو زائف كذلك. على الأقل إنني متأكدة من أن هذا تفسير خاطئ. إنني لن أصغي إلى أي حديث سوء يقال عن السيد ليدجيت، فهو عانى أكثر مما ينبغي من الظلم».

حين كانت تثار دورثيا كانت قليلاً ما تأبه بما يفكر فيه الآخرون في مشاعرها، وحتى عندما تكون قادرة على التفكير، كانت تعتبر صمتها، تجنباً لسوء فهم الناس لها، تافهًا لدى صدور كلام جارح بحق ويل. لقد احمر وجهها جدّا وراحت شفتاها ترتجفان.

عندما رآها السير جيمس غاضبة ندم على خطته، لكن السيدة كادولدر وكما هي في كل المناسبات فتحت يديها وقالت: «فليسمع منك الرب يا عزيزتي! أعني:... فلتكن جميع الأنباء السيئة حول الجميع زائفة. إلا أنه ما يثير الشفقة هو أن يتزوج ليدجيت من إحدى فتيات مدل مارش. فلو اعتبرنا أنه حقّاً ابن أحد مهم، لربما عندها تزوج من فتاة ذات حسب أصيل، وليست شابة أكثر مما ينبغي وتستطيع تحمل مهنته. هناك كلارا هارفجر على سبيل المثال أقاربها لا يعرفون ماذا يفعلون بها، وهي تملك تركة. عندها لأصبحت بيننا. في أي حال...! لا فائدة من التفكير المنطقي لأجل الآخرين أين سيليا...؟ أرجوكما أن ندخل».

قالت دورثيا بقليل من الجفاء: «إنني ذاهبة مباشرة إلى تبتن... وداعاً».

لم يستطع السير جيمس أن يقول شيئاً عندما رافقها إلى العربة، فقد كان غير راضٍ تماماً عن نتيجه اختراعه الذي سبب له مسبقاً بعض الخزي الضمني.

مرت دورثيا بعربتها بين سياج الشجيرات الحاملة لثمار وحقول الذرة المقصوصة، دون أن ترى أو تسمع أي شيء من حولها. خرجت من عينيها دموع وانحدرت على وجنتيها دون أن تعيها. بدا لها العالم يتحول قبيحاً وكريهاً، فلم يكن من مكان لثقتها. «ليس صحيحاً... ليس صحيحًا..!»، سمعت صوتاً في داخلها يقول ذلك. ولكن طوال الوقت كانت ذاكرتها تفرض

عليها ذكرى واحدة كان يرافقها دائماً شعور مثير للاشمئزاز.. كانت ذكراها لذلك اليوم الذي وجدتَ فيه لادسلو مع السيدة ليدجيت وسمعت صوته يرافق عزف البيانو.

«قال إنه لن يفعل شيئاً لا أوافق عليه. أتمنى لو قلت له: إنني لا أوافق على ذلك...!» قالت هذا دورثيا المسكينة في داخلها، وقد انتابها شعور متناوب بين غضبها من ويل، ودفاعها العاطفي عنه.. «إنهم جميعاً يحاولون أن يسودوا سمعته أمامي، لكنني لن آبه لأي ألم ما لم يكن ملاماً. كنت دائماً أعتقد أنه طيب». كانت هذه أفكارها عندما شعرت أن العربة تمر من تحت قوس البوابة في كرينج، فمسحت وجهها بمنديلها، وراحت تفكر في واجباتها، ثم طلب منها سائق العربة أن يأخذ الخيل لنصف ساعة لأنه كان هناك خلل في إحدى حذوات الخيل، ولما أرادت دورثيا أن تأخذ قسطاً من الراحة خلعت قبعتها وقفازيها، بينما كانت تتكئ إلى تمثال عند بوابة الردهة وهي تتحدث مع خادمة المنزل. قالت أخيراً: «ينبغي لي أن أنتظر هنا قليلاً يا سيدة كيل. سأذهب إلى المكتبة لأكتب لك بعض الطلبات كما وردت في رسالة عمي... لو تفتحين لي النوافذ».

قالت السيدة كيل وهي تتبع دورثيا التي كانت تسير وهي تتحدث: «النوافذ مفتوحة يا مدام... إن السيد لادسلو هناك يبحث عن شيء...!».

لقد حضر ويل ليأخذ حقيبة تحتوي على لوحاته التي نسي أن يأخذها عندما حزم أمتعته وقت مغادرته، فهو لم يرغب في أن يتركها هناك.

قفز قلب دورثيا من مكانه وكأنه تلقى ضربة، إلا أنه لم يظهر عليها أي تغير، بل في حقيقة الأمر فإن وجود ويل هناك قد بعث فيها في تلك اللحظة شعوراً بالارتياح والرضى، يشبه الشعور الذي ينتاب أحدنا عندما نجد شيئاً ثميناً كنا قد فقدناه. عندما وصلت إلى الباب قالت للسيدة كيل: «ادخلي أولاً وقولي له إنني هنا».

كان قد وجد ويل حقيبة لوحاته، ثم وضعها على الطاولة في نهاية الغرفة ليقلب اللوحات ويمتع نظره في النظر إلى اللوحة التذكارية، التي تعكس الطبيعة الغامضة لدورثيا. بينما كان يبتسم وهو يرتب اللوحات ويفكر في الوقت عينه باحتمال أن يجد رسالة من دورثيا في مدل مارش، قالت السيدة كيل وهي تقف بالقرب منه: «إن السيدة كزابون تريد الدخول يا سيدي».

استدار ويل بسرعة.. وبعد لحظة كانت دورثيا تدخل المكتبة. بينما كانت السيدة كيل تغلق الباب وراءها... تقابلا، وكان كل منهم ينظر إلى الآخر وقد أثقل إدراكهما شعور ألجم

لسانهما، ولكن لم يكن الإرباك هو الذي أسكتهما، لأن كليهما كانا يدركان أنهما سيفترقان قريباً، ولا خزي ينجم عن الفراق الحزين.

ذهبت تلقائيّاً نحو مقعد عمها عند طاولة الكتابة، وبعد أن سحب ويل الكرسي لها قليلاً، رجع إلى الوراء خطوات قليلة ليقف في الجهة المقابلة لها.

قالت دورثيا وهي تعقد ذراعيها: «أرجوك أن تجلس... إنني سعيدة جدّاً لأنك هنا». بدا لويل وجهها كما رآه لدى مصافحتها له أول مرة في روما، ولا سيما أن قبعة الحداد قد أزيحت لدى خلعها لقلنسوتها، فاستطاع أن يتبين أن عينيها كانتا تدمعان منذ وقت قصير، إلا أن غضبها قد خبا لدى رؤيتها له، وهي قد اعتادت على أن ينتابها شعور بالثقة والحرية السعيدة التي تنجم عن الفهم المتبادل كلما التقيا، فكيف يمكن لكلمات الآخرين أن تمنع ذاك التأثير فجأة...؟ دع الموسيقى التي تؤثر في أجسادنا، وتملأ الطبيعة مرحاً لأجلنا تغني ثانية... فما معناها لو وجدنا فيها خطأ وهي غائبة عنّا؟

«لقد بعثتُ لك برسالة إلى لُويك منر أطلب فيه مقابلتك»... قال هذا ويل وهو يجلس في الجهة المقابلة لها: «إنني مغادر على الفور، لكنني لم أستطع الذهاب دون أن أتحدث إليك ثانية».

قالت دورثيا بصوت مرتجف قليلا: «كنت أعتقد أننا قد افترقنا عندما أتيت إلى لُويك منذ عدة أسابيع... كنت تعتقد أنك ذاهب آنذاك».

«نعم لكنني كنت أجهل أشياء أصبحت أعلمها الآن... إنها أشياء قد غيرت من تفكيري حول المستقبل. عندما رأيتك من قبل كنت أحلم أن أعود يوماً ما، لكنني الآن لا أعتقد أني سأعود ثانية»... سكت ويل هنا.

قالت دورثيا بتردد: «هل أردتني أن أعرف الأسباب...؟».

قال ويل بعنف: «نعم... »، وهو يهز رأسه إلى الوراء لينظر ساخطاً بعيداً منها: «بالطبع لا بد لي من أن أطلب ذلك. لقد أهنت كثيراً في نظرك ونظر الآخرين. لقد كان هناك شك قاسٍ في حق شخصيتي، وأنا أتمنى أن تتيقني أنه تحت أي ظرف... أنا لن أقلل من شأني، وأنه تحت أي ظرف... لن أفسح المجال لأي رجل أن يقول: إنني قد سعيت وراء الحصول على المال من خلال السعي وراء أي شيء آخر، وهكذا لا حاجة إلى الوقاية مني أبدًا، فحماية الثروة كانت كافية...!!».

نهض ويل عندما نطق كلمته الأخيرة، وذهب دون أن يدرك إلى أين، إلى أقرب نافذة بارزة منه، فهي نفسها التي كانت مفتوحة منذ ما يقارب العام عندما وقف مع دورثيا عندها وتحدثا سوية. كان قلبها يعتصر عطفاً وشفقة على سخط ويل ونقمته، فأرادت أن تقنعه أنها لم تظلمه قطّ، إلا أنه ابتعد عنها وكأنه كان يعتبرها جزءاً من ذلك العالم القاسي.

«لن يكون من اللطف منك إذا ما افترضت أنني قد ساهمت في أي قسوة ضدك». هكذا بدأت حديثها، ثم بطريقتها الحماسية أرادت أن تتوسل إليه، فنهضت من على كرسيها، وذهبت لتقف أمامه عند النافذة قائلة: «هل تعتقد أنني لم أثق بك...؟!».

عندما رآها ويل هناك، تفاجأ، فابتعد عن النافذة دون أن ينظر إليها. لقد آلمت دورثيا هذه الحركة، ولا سيما أنها تبعت صوته الغاضب. كانت ستقول إن القسوة قد أصابتها كما أصابته، وإنها كانت عاجزة، لكن خصوصية علاقتهما، التي لم يجرؤ أي منهما على أيضاحها، أبقتها دائماً في خوف من أن تقول أكثر مما ينبغي.

في تلك اللحظة... لم يراودها اعتقاد أن ويل قد أراد يوماً الزواج منها، فخشيت أن تقول شيئاً يشير إلى مثل ذلك الاعتقاد، إذ اكتفت بالرّد على ما قاله مؤكدة: «إنني متأكدة من أنه لم يكن هناك حاجة للوقاية منك».

لم يجب ويل بشيء، إلا أن نتيجة عواطفه المتقلبة الهيجان بدت له كلماتها محايدة في القسوة، فبدا شاحباً وتعساً بعد انفجار غضبه. ذهب إلى الطاولة، فحزم حقيبة لوحاته، بينما كانت دورثيا تنظر إليه من بعد. كانا يضيعان تلك اللحظات الأخيرة في صمت بائس، فما عساه أن يقول ما دام لم يكن في استطاعته أن يقول لها: إن حبه العاطفي لها هو ما كان يسيطر على مخيلته تماماً...؟ وما عساها أن تقول له مادامت عاجزة عن تقديم أي مساعدة له، وما دامت مضطرة للاحتفاظ بالنقود، التي كانت من المفترض أن تكون نقوده، وما دام لا يبدو في هذا اليوم أنه يتجاوب مع ثقتها المطلقة كما كان على عادته من قبل؟

إلا أن ويل أخيراً ابتعد عن حقيبة لوحاته ليقترب نحو النافذة ثانية.

«يجب أن أذهب...!!!»، قال ذلك وعيناه تلقيان نظرة تشبه تلك التي ترافق دائماً مشاعر الألم والأسى، وكأنهما أرهقتا بالنظر إلى ضوء ساطع قريب.

قالت دورثيا بحنو: «ماذا ستفعل في هذه الحياة..؟! هل بقيت نواياك كما كانت عندما افترقنا آخر مرة؟».

«نعم..»، قال ويل بنبرة تظهر وكأن سؤالها ليس ذا أهمية: «سأقوم بأول عمل يقدم إلي.

أعتقد أن المرء يعتاد على العمل مادام لا يشعر بسعادة ولا بأمل...».

قالت دورثيا وقد انتابتها رغبة خطيرة في النحيب: «كم هي كلمات حزينة...!»، ثم وهي تحاول أن تبتسم أضافت: «لقد كنا متفقين على أننا نتشابه بحديثنا القوي حتى ربما أكثر مما ينبغي».

قال ويل متكئاً على زاوية الحائط: «لا أتحدث بقوة أكثر مما ينبغي الآن... هناك أشياء يمر بها الرجل مرة واحدة في حياته، ويجب عليه أن يعلم في نهاية الأمر أن ما هو أفضل بالنسبة إليه قد انتهى. إنني أمر بهذه التجربة في ريعان شبابي الآن، وهذا كل ما في الأمر. وأكثر ما أتمناه لهو محرم علي... لا أعني أنه بعيد من منالي، ولكن يحرمه علي كبريائي وشرفي، وكل شيء أحترم نفسي لأجله... بالطبع سأتابع حياتي كرجل قد رأى الجنة في حلمه».

توقف ويل عن الحديث لأنه كان متأكدًا من أن دورثيا لا تخطئ فهم ما يقوله، وفي حقيقة الأمر شعر أنه كان يناقض نفسه، وأنه قد أساء لنفسه بصراحة حديثه لها، ولكن أن يقول رجل لامرأة إنه لا يودها لا يمكن أن يسمى وداً لها، إذ يجب الاعتراف أن هذا النوع من الود لهو ود هلامي.

إلا أن تفكير دورثيا قد ذهب بعيداً في الماضي، بنظرة تختلف عن نظرته، ففكرة في أنها هي من عناها ويل قد برقت في ذهنها للحظة، ثم تحولت إلى شك.. فذكريات الأوقات التي قضياها معًا قد شحبت واضمحلت أمام تذكرها وتخمينها للوقت الذي ربما قضاه ويل مع إنسانة أخرى. كل ما قاله يمكن أن يشير إلى تلك العلاقة، فكل ما كان بينها وبينه يمكن أن يفسر في ضوء الصداقة البسيطة، والعائق الصلب الذي وضعه أمامهما تصرف زوجها الجارح.

وقفت دورثيا صامتة وهي تنظر إلى الأرض حالمة، بينما ازدحمت الأفكار في مخيلتها لتقود إلى تأكد مقزز مبعثه أن ويل كان يشير للسيدة ليدجيت. ولكن لماذا مقزز...؟؟ أرادها أن تعرف أن تصرفه هنا أيضاً كان فوق الشكوك.

لم يفاجأ ويل بصمتها، فذهنه كان أيضاً منشغلاً باضطراب بينما كان يراقبها، كما كان ينتابه شعور غريب أن شيئاً لا بد من أن يحدث ليمنع فراقهما... معجزة ما، ونكن لن يكون من خلال حديثهما المتعمد. وعلى الرغم من هذا كله هل كانت تحبه...؟؟؟ لم يستطع التظاهر أمام نفسه أنه كان يفضل الاعتقاد بأنها لم تكن تحبه. لم يستطع إنكار أن توقه

لتأكيدها له أنها كانت تحبه قد كان منبت كل كلماته.

لم يدركا كم أمضيا من الوقت وهما يقفان على تلك الحالة. رفعت دورثيا نظرها وكانت ستقول شيئاً عندما فتح الباب ليدخل خادمها فيقول: «الخيل جاهزة يا سيدتي، ويمكنك الانطلاق في أي وقت تشائين».

قالت دورثيا: «حالاً».. ثم استدارت إلى ويل وقالت: «ينبغي لي أن أكتب بعض الطلبات لرئيسة الخدم».

«يجب أن أذهب...». قال ذلك ويل بينما كان الباب يغلق ثانية، وهو يتقدم نحوها.. «سأغادر مدل مارش بعد غد...!!».

قالت دورثيا بصوت منخفض وقد شعرت بثقل في قلبها يسبب صعوبة في حديثها: «كانت جميع تصرفاتك صحيحة».

مدت يدها له، فصافحها للحظة دون أن يقول شيئاً، لأن كلماتها قد بدت له باردة على غير عادتها. لقد تلاقت عيونهما، لكن عدم الرضى كان جليًّا في عينيه، بينما لم يظهر في عينيها سوى الحزن. استدار، ثم أخذ حقيبة لوحاته تحت ذراعه.

قالت دورثيا وهي تكبح نوبة من النحيب: «إنني لم أظلمك قط. تذكرني من فضلك».

قال ويل بغضب: «لماذا تقولين ذلك...؟؟ وكأنني أعاني من خطر نسيان كل شيء».

لقد انتابه شعور حنق منها في تلك اللحظة دفعه للمغادرة من دون تردد. لقد أثقل كل شيء في آن على دورثيا.. كلماته الأخيرة.. وانحناءته لها عندما وصل الباب.. والإحساس بذهابه دون رجعة.

جلست على الكرسي، وبقيت للحظات دون حراك كالصنم، بينما تسارعت الصور في مخيلتها، وتعاقبت خلجات مشاعرها مسرعة على الرغم من القطار المهدد الذي كان وراءها... البهجة الناجمة عن الاعتقاد بأنها هي التي أحبها ويل، لكنه قد تخلى عنها، وأنه لم يكن هناك حب آخر أقل إباحة أو يستحق لوماً أكبر، فاضطره الشرف للهروب بعيداً.

لم يحدث فراقهما اختلافاً، فالتقطت دورثيا نفساً عميقاً، وشعرت أنها قد استعادت قوتها، إذ كان في إمكانها أن تفكر فيه دون قيود.

في تلك اللحظة كان الفرق سهل التحمل، إذ إن الإحساس بالحب المتبادل قد استبعد الأسف. لقد كان شعورها وكأنه ضغط جليد متحجر قد ذاب، فأصبح لدى إدراكها مساحة أكبر يتمدد ضمنها، إذ عاد إليها ماضيها بإدراك أوسع. ربما لم تكن البهجة في تلك اللحظة الأقل كمالاً، بل كانت الأكثر كمالاً وذلك بسبب الفراق المحتوم، ولأنه لم يكن هناك لوم ولا تساؤل مزدر من أي عين أو أي شفة. لقد تصرف بطريقة يتحدى فيها اللوم ويجعل التساؤل محترماً.

لو كان أحد ينظر إليها لرأى فيها فكرة محصنة تقويها. فعندما تعمل الطاقة المخترعة بسهولة مرحة، تلبى الطلبات الصغيرة التي تظهر في الوجدان، فهي كما لو كانت كصدع مفتوح لضوء الشمس. كان من السهل على دورثيا في ذلك الوقت أن تنصرف إلى كتابة الطلبات.

قالت كلماتها الأخيرة لخادمة المنزل بنبرة مرحة، وعندما جلست في العربة كانت عيناها تتلألآن بريقاً ووجنتاها متوردتين من تحت القلنسوة الكئيبة. لقد ألقت بحجاب الحداد الأسود الثقيل وراءها، وراحت تنظر أمامها متسائلة عن الطريق الذي سلكه ويل. كان طبيعيّاً بالنسبة إليها أن تشعر بالفخر لأنه كان غير ملوم، وكذلك تشبعت مشاعرها بيقينها: «... لقد كنت على حق عندما دافعت عنه».

كان سائق العربة معتاداً على قيادة العربة بسرعة نتيجة عدم استمتاع السيد كزابون وعدم صبره على أي شيء بعيداً من طاولة كتابته، ولأنه كان دائماً يريد الوصول إلى نهاية رحلته بأقصى سرعة ممكنة، فهكذا انطلقت دورثيا في عربتها مسرعة. لقد كان ركوب العربة ممتعاً لأن المطر في الليل قد أخمد الغبار، ولأن السماء الزرقاء بدت بعيدة... بعيدة من قطع الغيوم الضخمة التي كانت تزحف بكثرة، وبدت لها الأرض تحت السماء الواسعة مكاناً سعيداً، فتمنت دورثيا لو أنها لحقت بويل لتراه ثانية.

عندما انعطفت العربة لتدخل في شارع آخر، كان هناك يحمل حقيبة لوحاته تحت ذراعه، ولكن بعد لحظة كانت تمر بجانبه عندما رفع لها قبعته محيياً، فشعرت بغصة لأنها كانت تجلس هناك على العربة مترفعة بينما تركته وراءها.

لم تستطع أن تنظر وراءها لتراه. بدا الأمر وكأن أشياء كثيرة لا قيمة لها قد فرقتهما عن بعض، وأجبرتهما على السير في طريقين متباعدين تأخذهما بعيداً من بعضهما بعضاً،

فلا تبقى جدوى من النظر إلى الوراء.

لم يكن في استطاعتها إبداء أي إشارة تدل على أنها تقول: «هل كان يجب علينا أن نفترق...؟، وكما أنها لم تستطع أن توقف العربة لتنظر إليه. كل الأسباب قد ازدحمت في داخلها، تمنعها من التفكير في مستقبل يمكن أن يعكس قرار هذا اليوم...!

«إنني أتمنى لو عرفت فقط من قبل، وإنني أتمنى لو أنه قد عرف، لكنا عندها سعيدين بتفكير أحدنا بالآخر على الرغم من فراقنا الأبدي. لو أنني فقط قدمت له النقود، وجعلت له الحياة أكثر سهولة...!» كانت تلك الرغبات هي التي عادت إليها بإلحاح. إلا أن العالم قد أثقل عليها، وعلى الرغم من طاقتها المستقلة، كانت فكرة حاجة ويل إلى مثل هذه المساعدة، وسوء حظه في هذه الحياة، تترافق دائماً مع رؤية عدم انسجام أي علاقة قريبة بينهما، والتي كانت دائماً تدور في أذهان جميع المقربين منها.

لقد شعرت بإلزام جميع المحرضات التي كانت تجبر ويل على تصرفاته. كيف كان له أن يحلم بها وهي تتحدى الحاجز الذي أرساه زوجها بينهما؟ كيف كان لها أن تقول لنفسها إنها ستتحدى ذلك...؟

لقد شاب اليقين ويل بمرارة أكثر، بينما كان ينظر إلى العربة وهي تتصاغر بعيدة منه. كان في إمكان مسائل بسيطة أن تثير غضبه وهو في تلك الحالة الحساسة، فرؤيته لدورثيا تمر بالقرب منه، بينما كان يسير كمسكين يبحث عن مكانة في عالم قد قدم له قليلاً مما يشتهي، جعلت تصرفه يبدو مجرد حاجة ملحة، فأخذ منه قوة اتخاذ القرار. بعد هذا كله لم يحصل على تأكيد بأنها كانت تحبه.. هل في استطاعة أي رجل أن يتظاهر بالسعادة في مثل هذه الحالة متحملاً عبء المعاناة لوحده...؟!

قضى ويل ذاك المساء مع أسرة ليدجيت، وفي المساء التالي كان قد ذهب.

الكتاب السابع

الإغواءان

الفصل الثالث والستون

تبدو هذه الأشياء الصغيرة عظيمة لدى الرجل البسيط.

غولد سميث

«هل شاهدت مؤخراً الكثير من النتاج العلمي لطائر العنقاء ليدجيت؟»، هذا ما قاله السيد تولر في أثناء إحدى حفلات عيد الميلاد التي كان يقيمها، مخاطباً السيد فيربرذر الذي كان يجلس إلى يمينه.

قال الكاهن الذي اعتاد تفادي مزاح السيد تولر في ثقته بالطب الحديث: «ليس الكثير، يؤسفني أن أقول ذلك، إنني بعيد منه، وهو منشغل أكثر مما ينبغي».

قال الدكتور منشن بدماثة ودهشة: «أهو كذلك...؟؟ يسعدني أن أسمع ذلك».

«نعم إنه يعطي الكثير من وقته للمستشفى الجديد». قال ذلك السيد فيربرذر الذي كانت لديه أسبابه التي تدفعه لمتابعة الحديث حول الموضوع عينه. «إنني أسمع ذلك من جارتي السيدة كزابون، فهي تذهب إلى هناك كثيراً. إنها تقول إن ليدجيت لا يعرف التعب وإنه يقوم بأشياء مدهشة مستفيداً من مؤسسة بولسترود، وهو يحضر جناحاً جديداً خاصاً بمرض الكوليرا إذا ما أتت إلينا».

قال السيد تولر: «وهو كذلك يحضر نظرياتٍ جديدةً يجربها على مرضاه على ما أعتقد».

قال السيد فيربرذر: «كن منصفاً يا تولر، إنك أذكى من أن تجهل فائدة عقل شاب جريء في الطب، وكذلك في كل مجال آخر. فبالنسبة إلى مرض الكوليرا... لا أعتقد أن أحداً منكم متأكد مما ينبغي له فعله. إذا ما سلك رجل طريقاً، وذهب فيه أكثر مما ينبغي بقليل، فغالباً ما يؤذي نفسه أكثر مما يؤذي أي إنسان آخر».

قال دكتور منشن وهو ينظر إلى السيد تولر: «إنني على يقين بأنه لا بد لك أنت والسيد رينج منه أن تكونا ممتنين له... إذ أرسل لكما صفوة مرض السيد بيكوك».

و ليدجيت يعيش حياة ترف بالنسبة إلى طبيب مبتدئ... قال السيد تولر المخمور: «أعتقد أن أقرباءه في الشمال قد نبذوه».

قال السيد جيجلي: «أتمنى ذلك، وإلا لما تزوج من تلك الفتاة الجميلة، التي كنا جميعاً مغرمين بها جدّاً. يا للعنة، إن أحدنا لا يحقد على من يأخذ أجمل فتاة في بلدته».

قال السيد ستاندش: «نعم بربي، وإنها لأفضلهن أيضًا...».

قال السيد جيجلي: «إن صديقي فنسي لم يرض تماماً عن ذلك الزواج إنني أعلم ذلك، إلا أنه لم يكن في مقدوره أن يفعل كثيرًا، فربما تأثرت العلاقات الأخرى، لا أستطيع أن أقول... ». كان هناك تحفظ شديد في طريقة حديث السيد جيجلي.

قال السيد تولر ساخراً قليلاً: «أعتقد أن ليدجيت لم ينظر إلى مهنته كمصدر للعيش». عند هذا طوي الحديث في الموضوع. لم تكن هذه أول مرة يسمع فيها السيد فيربرذر تلميحات تشير إلى أن إيراده من عيادته الطبية لا يمكن أن يغطي جميع نفقات حياته، لكنه كان يعتقد أنه من المرجّح كانت هناك مصادر أخرى تبرر المبالغ الضخمة التي أنفقت وقت زواجه، ويمكن أن تمنع أي عواقب سيئة ناجمة عن خيبة الأمل في عيادته.

في مساء أحد الأيام، عندما تجشم عناء الذهاب إلى مدل مارش بغية التحدث إلى ليدجيت، كما كانا يفعلان في الماضي، لاحظ عليه نشاطاً غير مسبوق وليس كعادته في البقاء صامتاً، ثم كسره كلما أراد أن يقول شيئاً. كان ليدجيت يتحدث دون توقف في غرفة عمله مثيراً للجدل ووجهات النظر المتناقضة حول بعض الآراء العلمية، ولكن لم يكن لديه أشياء حتمية يقولها أو يظهرها، فتكون دليلاً على صبره وجلده في مواصلة حديثه غير المنقطع، كما كان على سبيل المثال يؤكد في شرحه:

«لا بد من أن يكون هناك انقباض وانبساط للقلب في كل بحث... وأنه لا بد للعقل البشري من أن يتمدد ويتقلص بينما أفق التفكير البشري وأفق المادة الزجاجية». كان في ذلك المساء يتحدث بطريقة عامة كي يخفي جميع شؤونه الشخصية.

قبل أن ينقضي وقت طويل، انتقل إلى غرفة الاستقبال، حيث طلب ليدجيت من روزموند

أن تعزف لهما الموسيقى، فجلس على كرسيه صامتاً، ولكن كان يظهر على عينيه بريق غريب.. «ربما يتناول نوعاً من المخدر». كانت فكرة قد خطرت في ذهن السيد فيربرذر...

«ربما كان يعاني من ألم عصبي في جانب وجهه أو متاعب طبية».

لم يخطر له أن زواج ليدجيت لم يكن زواجاً سعيداً، إذ كان يعتقد، كما كان يعتقد الآخرون، أن روزموند كانت مخلوقة لطيفة وطيّعة على الرغم من أنها مملة، وتشبه كثيراً البطاقة المزخرفة التي تصنعها الفتيات عند انتهائهن من دراستهن في المدرسة، وأمه لم تستطع أن تسامحها لأنها تتجاهل وجود الآنسة هنريتا نوبل في الغرفة... «في أيّ حال لقد وقع ليدجيت في غرامها» -قال الكاهن محدثاً نفسه -«فلا بد أنها تناسب ذوقه».

كان السيد فيربرذر يدرك أن ليدجيت كان رجلاً ذا كبرياء، ولكن بما أنه كان يتمتع بطبيعة منسجمة، وربما لا يأبه إلا قليلاً بوقاره، باستثناء الوقار القاسي والأحمق، لم يكن يسمح لنفسه أن تنكمش، كما كان يفعل ليدجيت، خشية الاحتراق من البوح بأي من الأسرار الشخصية. بعد تلك المحادثة التي دارت في منزل السيد تولر عرف الكاهن شيئاً جعله يراقب بشغف فرصة يخبر من خلالها وبطريقة غير مباشرة ليدجيت أنه لو أراد مصارحة أحد بالصعوبات التي يمر بها لوجد عند السيد فيربرذر أذناً صاغية.

لقد جاءت تلك الفرصة في منزل السيد فنسي حيث أقيمت حفلة ليلة رأس السنة الميلادية، ودعي إليها السيد فيربرذر بإلحاح كي لا يتخلى عن أصدقائه في أول سنة له بعد أن أصبح رجلاً ذا شأن عظيم، وكذلك راعياً للأبرشية، ولا سيما أن هذه الحفلة كانت ودية للغاية..

فكل نساء أسرة فيربرذر كن حاضرات وجميع أطفال أسرة فنسي يتحلقون حول الطاولة، وقد أقنع فرِد أمه بأنها إن لم تدعُ الآنسة ماري جارث، فإن عائلة فيربرذر سيعتبرونها إهانة لهم.. إذ إنّ ماري كانت صديقة حميمة لهم. لقد حضرت ماري، فكان فرِد يتمتع بروح ومعنويات عالية بالرغم من أن بهجته كانت مذبذبة.. فسعادته الناجمة عن رؤية أمه لماري وهي تجلس بين الضيوف الرئيسيين، كانت ممتزجة مع غيرته الناجمة عن رؤيته لفيربرذر وهو يجلس إلى جانب ماري.

عادة ما يكون فرِد مرتاحاً لإنجازاته قبل أن يبدأ الخوف ينتابه من أن السيد فيربرذر قد يحل محله، ولا يزال ذلك الخوف يراوده. نظرت السيدة فنسي، ببهائها الرزين المتميز

إلى جسم ماري الصغير وشعرها الأجعد غير الأملس ووجهها غير المتورد، فتساءلت محاولة، دون نجاح، أن تتخيل نفسها تعنى بماري وهي ترتدي فستان العرس، أو تشعر برضىً عن أحفاد يشبهون أفراد أسرة جارث. في أيّ حال كانت الحفلة مبهجة وتبعث على السرور، وكانت ماري على وجه الخصوص متألقة وسعيدة لأن أقرباء فرِد كانوا أكثر لطفاً معها وسعيدة لأنهم رأوا كيف أن الآخرين يقدرون مكانتها، ولا سيما أنهم في مكانة القضاة الذين يحكمون على قدرها ورفعة شأنها.

لاحظ السيد فيربرذر أن ليدجيت يظهر عليه بعض الملل، وأن السيد فنسي لم يتحدث إلى زوج ابنته إلا قليلاً. أما روزموند فقد كانت في أبهى طلعتها وهدوئها، ومجرد ملاحظة دقيقة، كتلك التي ألقاها عليها الكاهن، يمكن أن تكشف عن أنها لم تكن مهتمة بوجود زوجها،ما يمكن أن تظلله زوجة محبة حتى لو أبقتها آداب التصرف والسلوك بعيدة منه، فكلما كان ليدجيت يشارك في الحديث كانت تنظر إليه كتمثال أميرة فاتنة الجمال وهي تنظر جانباً.

عندما طُلب ليدجيت، وذهب لساعة أو ساعتين، ثم عاد ليدخل الغرفة ثانية، بدت وكأنها لم تدرك الحدث كليّاً على عكس ما كان الأمر عليه منذ ثمانية عشر شهراً إذ كان تأثير مثل هذا الحدث فيها كتأثير رقم عندما يكتب إلى يسار الصفر.

في أي حال، وفي واقع الأمر كانت تدرك بقوة صوت ليدجيت وحركاته، إلا أن في عقلها اللاواعي وذي الطبيعة اللطيفة كان هناك إنكار متعمد قد أرضى معارضتها الداخلية له دون الإساءة للآداب الاجتماعية حين كانت النسوة في غرفة الاستقبال، وبعد أن طلب ليدجيت الذهاب وقت تناول الحلوى، قالت السيدة فيربرذر بينما كانت روزموند بالقرب منها: «لقد انغمست كثيراً في حياة زوجك يا سيدة ليدجيت».

«نعم...! إن حياة الطبيب لهي قاسية جدّاً خصوصاً عندما يكرس جلّ وقته لأجل مهنته... كما يفعل ليدجيت». قالت هذا روزموند التي كانت واقفة، ثم انصرفت بسهولة بعد أن أنهت كلامها.

قالت السيدة فنسي التي كانت تجلس بقرب السيدة العجوز: «إن حياتها مملة جدّاً، إذ لا يوجد من يسليها، لقد تأكدت من ذلك وشعرت به حين كانت روزموند مريضة، وكان علي أن أبقى بجانبها، وأنت تعلمين يا سيدة فيربرذر أن منزلنا تملؤه البهجة والسرور، وأنا

إنسانة مرحة، والسيد فنسي يحب دائماً أن يكون هناك أحداث متتالية في المنزل، فهذا ما اعتادت عليه روزموند. فالوضع يختلف تماماً عندما يقضي الزوج ساعات طويلة خارج منزله دون أن تعلم متى سيعود، ولا سيما أنه ذو نزعة كبرياء منغلقة على ما أعتقد». لم تخفض السيدة فنسي الطائشة من صوتها لدى قولها ذلك «إلا أن روزموند دائماً كانت ذات طبع ملائكي، فعلى الرغم من أن إخوتها كانوا دائماً يضايقونها، فإنها لم تكن فتاة كثيرة الصراخ، بل على العكس إذ منذ كانت طفلة كانت طيبة ولطيفة المزاج، كما أن جمالها جذاب للغاية، لكن جميع أطفالي يتمتعون بمزاج لطيف.. شكراً للرب».

لقد كان ذلك جليّاً جدّاً لكل من كان ينظر إلى السيدة فنسي عندما دفعت بشرائط قبعتها العريضة إلى الوراء مبتسمة وهي تنظر إلى فتياتها الثلاث الصغيرات اللواتي تراوح أعمارهن ما بين سبعة أعوام وأحد عشر عاماً. إلا أنه كان على نظرتها الفرحة أن تشمل ماري جارث التي أجبرتها الفتيات الثلاث على الجلوس في زاوية الغرفة لتقص عليهن حكاية. كانت ماري قد فرغت من سرد حكاية رامبل ستلتسكن الممتعة، التي عرفتها عن ظهر قلب،لأنها كانت لا تتعب من قراءتها من كتاب أحمر مفصل لديها لمن هم أكبر منها سنّاً.

راحت لويزا، المحببة لدى أمها، تركض إليها تصرخ بعينين مبتهجتين: «آه يا أمي يا أمي... لقد ضرب الرجل الصغير الأرض برجله بقوة، ولم يعد يستطيع إخراجها ثانية!».

«فليسعدك الرب يا طفلتي الجميلة... ستخبرينني الحكاية بأكملها غداً، اذهبي واستمعي إليها». وبينما كانت عيناها تتبع لويزا وهي تعود إلى زاوية الغرفة ثانية، فكرت لو أن فرِد أراد أن يدعو ماري ثانية، لما عارضته، فالأطفال قد استمتعوا جدّاً بوجودها.

ثم أصبحت زاوية الغرفة محتشدة أكثر، إذ انضم للحاضرين السيد فيربرذر، الذي جلس خلف لويزا ليجلسها في حجره، بينما ألحت جميع الفتيات عليه ليستمع إلى الحكاية نفسها، وأن ماري يجب عليها أن تعيد سردها كاملة. لقد ألح هو أيضًا، فراحت ماري تسردها دون تردد بطريقتها اللطيفة، وبذات الدقة التي سردتها من قبل.

أما فرِد، الذي جلس بالقرب منهم، فقد كان سيشعر بتأثير نصر ماري، لو لم يكن ينظر إليها السيد فيربرذر بإعجاب مؤكد وهو يجسد اهتماماً مكثفاً بالحكاية بهدف إسعاد الأطفال. قال فرِد في النهاية: «إذا لن نكترث بحكاية العملاق ذي العين الواحدة بعد اليوم يا لويزا».

قالت لويزا: «نعم إنني سأفعل. قصّها علينا الآن... ».

«يمكنني أن أقول إنني مستبعد تماماً الآن، اطلبي من السيد فيربرذر».

قالت ماري: «نعم».

«اطلبي من السيد فيربرذر كي يقص عليكن حكاية النملات، اللاتي هدم بيتهن عملاق يدعى توم، وأعتقد أنهن لن يبالين، لأنه لم يسمعهن يبكين أو يستعملن مناديلهن».

قالت لويزا وهي تنظر إلى الكاهن: «من فضلك..».

«كلا كلا كلا... إنني كاهن بروتستانتي حزين ومسن، فلو أردت أن أخرج حكاية من جعبتي، لأخرجت منها عظة عوضاً عنها. هل ألقي عليكن عظة؟». قال ذلك وهو يضع على عينيه نظارته ويرطب شفتيه.

قالت لويزا ممازحة: «نعم...!».

«إذاً دعوني أبحث عن واحدة ضد الكعك، وكيف أن الكعك هو شيء سيئ خصوصاً إذا كان حلواً وفيه خوخ»... أخذت لويزا الأمر بجد، فنزلت من على ركبة الكاهن، وذهبت إلى فرِد... «أعتقد أنه ليس من المناسب أن تلقى العظات في ليلة رأس السنة الميلادية». قال هذا السيد فيربرذر وهو ينهض لينصرف بعيداً. لقد اكتشف متأخرًا أن فرِد كان يشعر بالغيرة منه، وأنه هو نفسه لم يفقد تفضيله لماري على سائر النساء.

قالت السيدة فيربرذر بينما كانت تراقب حركة ابنها: «إن الآنسة جارث شابة لطيفة..».

قالت السيدة فنسي مجبرة على الإجابة لأن السيدة العجوز قد استدارت إليها منتظرة ذلك: «نعم..!» «من المؤسف أن مظهرها ليس أكثر جمالاً».

قالت السيدة فيربرذر بحزم: «لا يمكنني أن أقول ذلك، إنني أحب محيّاها، ويجب ألاّ نطلب الجمال دائماً. إنني أضع الأخلاق والطباع في المقدمة، والآنسة جارث تعرف جيداً كيف تحتل مكانتها في كل الأماكن»... كانت نبرة صوت السيدة العجوز حادة، لأنها كانت تعتقد أن ماري ستصبح زوجة ابنها في المستقبل.

ولأن ماري لم تكن الفتاة المناسبة لفرِد، لم يكن من اللائق إعلان علاقتهما في تلك الليلة، وهكذا لا تزال النسوة الثلاث اللواتي يعشن في منزل كاهن أبرشية لُويك، يتمنين أن يختار كامدن الآنسة جارث زوجة له.

ثم حضر ضيوف جدد، فأخليت غرفة الاستقبال كي تعزف فيها الموسيقى وبعض

الألعاب الأخرى، بينما كانت تهيأ طاولات لعبة ورق الويست في الغرفة الهادئة، التي تقع في الجانب الثاني من ردهة المنزل.

لقد لعب السيد فيربرذر قليلاً إرضاءً لأمه، التي كانت تعتبر اللعب في بعض المناسبات القليلة نوعاً من الاحتجاج على الفضيحة، وتعبيراً عن صراحة الرأي والتفكير، الذي في ضوئه يصبح التحريض وقاراً. ولكن في النهاية أعطى مكانه للسيد جيجلي، ثم غادر الغرفة، وبينما كان يجتاز ردهة المنزل، رأى ليدجيت كان قد دخل المنزل وراح يخلع معطفه الفخم.

قال الكاهن: «ها هو الرجل الذي كنت أبحث عنه..»، وعوضاً عن دخوله إلى غرفة الاستقبال، سار في ردهة المنزل، ثم وقف أمام موقد النار حيث كان الهواء الجليدي يحدث المزيد من توهج النار وإشعاعها.

«الآن... وكما ترى فإنني أستطيع أن أترك طاولة لعبة الويست بسهولة»... تابع حديثه مبتسماً وهو ينظر إلى ليدجيت: «الآن لا ألعب لأجل ربح النقود. إنني مدين لك بذلك كما تقول السيدة كزابون».

قال ليدجيت ببرود: «كيف؟!!».

«آه لقد أردتني ألاّ أعلم ذلك، وأنا أسمي ذلك تكتماً غير سخي، إذ ينبغي لك أن تدع الرجل يشعر بالسعادة، نتيجة المعروف الذي تقدمه له. إنني لا أوافق بعض الناس على عدم إبدائهم للامتنان، وأقسم إنني أفضل أن أكون ممتنّاً لكل من يقدم لي معروفاً».

قال ليدجيت: «لا أستطيع فهم ما تعنيه، إلا إذا كنت تقصد أنني قد تحدثت إلى السيدة كزابون مرة عنك، لكنني لا أعتقد أنها ستنكث بوعدها، فتذكر أنني قد قمت بذلك». قال ليدجيت وهو يسند ظهره إلى زاوية رف موقد النار، دون أن يبدو على وجهه أي اتقاد أو توهج.

«لقد كان بروك من صرّح بالأمر منذ بضعة أيام، عندما هنأني قائلاً إنه سعيد جدّاً لأنني أنا من أصبح كاهناً للأبرشية، فهكذا جاء ذكرك على أنك امتدحتني جدا كإنسان متبصر وشيء من هذا القبيل، حتى إن السيدة كزابون قد أقلعت عن الاستفسار عن أي شخص آخر».

قال ليدجيت بازدراء: «إن بروك لثرثار أحمق».

«حسناً لقد أسعدتني تلك الثرثرة إذًا. لا أفهم لماذا لم تردني أن أعلم أنك قد قدمت لي خدمة يا صديقي العزيز. وبالتأكيد لقد قدمت لي خدمة. إنه لمن المؤثر في رضى النفس أن يكتشف المرء أن فعل الخير قد استند إلى حاجته إلى المال. لن تغري الرجل إقامة الصلاة الربانية إرضاء للشيطان... إذا لم يكن في حاجة إلى خدمات الشيطان. لا حاجة لي اليوم أن أتعلق بالحظوظ الصغيرة».

قال ليدجيت: «لا أرى أن الإنسان يستطيع أن يحصل على أي مال دون حظ. وإذا ما حصل عليه الرجل من خلال مهنة فلا بد له من أن يأتي من طريق الحظ».

اعتقد السيد فيربرذر أنه يستطيع أن يفسر هذا الحديث المتناقض مع طريقة حديث ليدجيت السابقة، على أنه عناد ناجم عن معاناته في شؤون حياته. أجاب بروح مرحة: «إن هذه الحياة لتحتاج إلى صبر شديد، ولكن من الأسهل للرجل أن ينتظر بصبر عندما يكون لديه أصدقاء يحبونه، ولا يريدون شيئاً سوى مساعدته مادام ذلك ضمن قدراتهم».

«آه... نعم»، قال السيد ليدجيت بنبرة لامبالاة ومغيراً من وقفته لينظر إلى ساعة يده... «إن الناس يبالغون بصعوباتهم أكثر مما ينبغي».

كان يدرك تماماً أن ذلك كان عرض مساعدة له من السيد فيربرذر، إلا أنه لم يستطع تحمل ذلك. إننا.. بني البشر.. غريبو الأطوار جدّاً ؛ إذ بعد أن انتابه السرور لمدة طويلة نتيجة إحساسه أنه قد قدم معروفاً للكاهن، جعلته نية الكاهن في رد الجميل له يغرق في صمت عميق. بالإضافة إلى جميع هذه العروض... ماذا ينبغي أن يأتي؟ فمجرد ذكره لحالته سيلمح ذلك إلى أنه أراد أشياء محددة. في مثل هذه الحالة يصبح الانتحار أهون.

لقد كان السيد فيربرذر رجلاً متقد الذكاء، فعرف بسهولة معنى ذلك الجواب، كما كان هناك تضخيم شديد في سلوك ليدجيت، ونبرة صوته متطابقة مع مظهره حتى إنه إذا منعك من الإجابة منذ البداية، لكان عليك من المستحيل أن تتابع الحديث معه.

قال الكاهن ملتهماً شعوره الجريح: «كم الوقت عندك؟».

قال ليدجيت: «لقد تجاوزت الساعة الحادية عشرة»، ثم دخل غرفة الاستقبال.

الفصل الرابع والستون

النبيل الأول: حيث تكمن القوة... ضع الملامة معها أيضًا...

النبيل الثاني: كلا للقوة صلة...

إذ لا تستطيع أن تخيف الوباء القادم بأسوار القلاع...

أو أن تلتقط عيبك من خلال نقاش ذكي...

كل قوة نوعان في واحد...

فالسبب لا يكون مسبباً... ما لم يكن التأثير موجوداً...

والفعل الذاتي يحتاج إلى تأثير ضمني...

وكذلك الأمر لا يوجد إلا بوجود الطاعة...

حتى لو كان السيد ليدجيت ميالاً إلى البوح بشؤونه الخاصة، فإنّه كان يعلم أنه ليس في استطاعة السيد فيربرذر أن يقدم له المساعدة الفورية التي كان يحتاجها، فالفواتير السنوية كانت تأتيه من التجار، كما كان يهدده السيد دوفر بالسيطرة على أثاث منزله، وما كان يملك شيئاً يستند إليه سوى المدفوعات البطيئة والصغيرة، التي كان يتلقاها من المرضى الذين لم يشأ أن يسيء إليهم، أما بالنسبة إلى المبالغ التي تلقاها من فريشت هول ولُوِيك منر، فقد تم إنفاقها بسهولة، ولا مبلغ أقل من ألف جنيه يمكن أن ينقذه من حرج مؤكد، ويترك له مبلغاً بسيطاً يساعده على إعادة ترتيب وضعه المالي.

عادة ما تتبع أعياد الميلاد المجيدة سنة سعيدة حيث يتوقع أن يدفع التجار ثمن البضائع والخدمات التي قدموها لزبائنهم، فهكذا طرقت الضغوطات الدنيئة تفكير ليدجيت، حتى أصبح من الصعب عليه التفكير في أي موضوع آخر بما في ذلك الشؤون الاعتيادية الملحة. لم يكن في طبعه حاد المزاج؛ فنشاطه الفكري وطيبة قلبه المتحمسة وكذلك بنية جسمه القوية كانت دائماً تبقيه، في ظلّ الظروف الاعتيادية السهلة، فوق الانفعالات المفرطة والتافهة،

التي توجد الطباع السيئة، إلا أنه الآن قد غدا فريسة لأسوأ انفعال لا ينجم ببساطة فقط عن المضايقات، بل عن الإدراك الخفي الذي يقع تحت وطأة تلك المضايقات التي تبدد الطاقة، وتهين الانهماك، مما تسبب له بانتكاسة لجميع أهدافه السابقة.

«هذا ما أفكر فيه، وربما ذاك ما كنت أفكر فيه»... كانت هذه العبارة ما يهمهم به دائماً بمرارة في داخله، فحولت كل شأن صعب إلى شوكة مزدوجة تخز صبره النافد.

بعض الرجال النبلاء قد صنعوا شخصية فذة في الأدب تمثل عدم رضاهم بالعالم، فكانت فخّاً معتماً وقعت أرواحهم العظيمة فيه من طريق الخطأ، لكن إدراك الذات العجيبة وكذلك الإحساس بالعالم الفاقد لقيمته يمكن أن يكون لها عزاؤها.

عدم رضى ليدجيت كان أقسى من أن يحتمل.. إذ كان يدرك وجود كم هائل من الأفكار والتصرفات المؤثرة من حوله، بينما ضاقت ذاته في عزله تعسة نتجت من مخاوف شخصية واضطرابات تافهة، نجمت عن أحداث يمكن لها أن تهدئ من مثل هذه المخاوف.

ربما تظهر مشاكله على نحو تعس وخسيس، وتحت أنظار أناس متكبرين لا يمكنهم معرفة شيء عن الدين إلا عندما يوضع في ميزان ضخم، فمن دون شك لقد كانوا خسيسين. أما بالنسبة إلى الأغلبية، الذين لم يكونوا متكبرين ما كان لهم أن يهربوا من الخسة، ولكن لأنهم كانوا متحررين من الجشع المادي بجميع إغراءاته، والآمال الأساسية الناتجة منه، وترقبه للموت، وتلميحاته للطلبات، ورغبة تاجر الخيل في الاستفادة من العمل السيئ وبحثه عن القيام بدور كان من المفترض أن يكون ملك الآخرين واضطراره للاشتياق للحظ على هيئة بائسة.

لأن ليدجيت كان ينوء تحت فكرة تطويق هذا النير القذر لرقبته، فقد وقع في حالة مزاج مرير، كانت تزيد من ابتعاد روزموند عنه. بعد مصارحته الأولى لها بفاتورة البيع، بذل محاولات عديدة ليجرها للتعاطف معه وإقناعها باتخاذ إجراءات من شأنها أن تقلص النفقات، ولا سيما نتيجة اقتراب أعياد الميلاد فقد ازدادت أوامره أكثر فأكثر وغدت أكثر تحديداً.

قال: «نستطيع أن نكتفي بخادم واحد، ونعيش بنفقات قليلة جدّاً، سيكفيني حصان واحد»... لقد بدأ ليدجيت، كما رأينا وبرؤية أكثر وضوحاً، يفكر بطريقة عقلانية في نفقات معيشته، كما أصبحت بالنسبة إليه جميع مظاهر حياة الترف أقل أهمية، أمام كبريائه التي

جعلته يثور لكونه مديناً، أو بسبب طلبه من الناس كي يساعدوه ماديّاً.

قالت روزموند: «بالطبع تستطيع أن تصرف الخادمين الآخرين لو أحببت، لكنني أعتقد أن ذلك سيكون جارحاً بالنسبة إلى مكانتك إذ ما عشنا بطريقة فقيرة. ولا بد لك من أن تتوقع أن عدد مرضاك سينخفض في العيادة».

«يا عزيزتي روزموند...! إنها ليست مسألة اختيار. لقد بدأنا حياتنا بطريقة مكلفة جدّاً. بيكوك، كما تعلمين، كان يعيش في منزل أصغر من هذا المنزل بكثير. إنه خطئي، إذ كان ينبغي علي أن أكون أكثر إدراكاً، فأنا أستحق الجلد لأنني جعلتك تضطرين للعيش بطريقة فقيرة لم تعتديها من قبل، هذا لو كان لأحد الحق في أن يجلدني، لكنني كما أعتقد أننا قد تزوجنا لأننا أحببنا بعضنا، ويمكن لهذا أن يساعدنا على الصبر قليلاً حتى تتحسن ظروفنا. تعالي يا عزيزتي. ضعي ذلك العمل من يديك، وتعالي إلي».

حقّاً لقد كان مكتئباً منها في تلك اللحظة، لكنه خاف من المستقبل دون أن يكون هناك حب، فكان مصمماً على ألاّ يقع بينهما انفصال. لقد أطاعته روزموند، فأجلسها على ركبته إلا أنها في داخلها كانت بعيدة منه، فالمسكينة كانت ترى أن العالم لم يرتب نفسه كما كانت تهوى، وليدجيت كان جزءًا من ذلك العالم.

إلا أنه لف خصرها بإحدى يديه، ووضع الأخرى برقة فوق يديها ؛ فهذا الرجل الحاد قليلاً ، كانت طريقة تعامله مع النساء يشوبها العطف والحنو، ويبدو أنه كان دائماً حاضراً في ذهنه ضعف أسبابهن، وكذلك التوازن الرقيق في صحتهن من الناحيتين الجسدية والفكرية، ثم راح يتحدث بإقناع:

«بعد أن تفحصت الأشياء قليلاً الآن يا روزي، فقد وجدت أنه من العجيب كم من النقود تهدر في الإنفاق على منزلنا. أعتقد أن الخدم غير مبالين، وأننا نستقبل الكثير من الضيوف الأغنياء، ولكن لا بد من أن يوجد الكثيرون من طبقتنا يستطيعون أن يتدبروا حياتهم بأقل تكلفة.. إذ لا بد من أنهم يعتمدون على السلع الأرخص ثمناً على ما أعتقد، وأنهم يهتمون بالجزئيات الصغيرة، فعلى ما يبدو هناك نقود كثيرة تهدر بهذه الطريقة، فرينج يحيا حياة بسيطة جدّاً على الرغم من أنه يملك عيادة ضخمة جدّاً».

قالت روزموند بعد أن أدارت رقبتها قليلاً: «آه لو كنت تفكر في العيش على طريقة رينج! لكنني سمعتك تعبر عن اشمئزازك بطريقة العيش تلك».

«نعم إن ذوقهم سيئ في كل شيء، فهم يجعلون الاقتصاد يبدو قبيحاً، ونحن لا نحتاج إلى فعل ذلك. لقد قلت فقط إنهم يتجنبون الإسراف على الرغم من أن رينج يملك عيادة رئيسية».

«لماذا لا يكون لديك عيادة بزبائن كثيرين جدّاً...؟ فهكذا كانت عيادة السيد بيكوك. ينبغي لك أن تكون أكثر حذراً من أن تسيء إلى المرضى، كما ينبغي لك أن تبيع الدواء كما يفعل الآخرون. إنني متأكدة من أنك قد بدأت بداية جيدة، وأنك أصبحت مسؤولاً عن علاج أسر غنية كثيرة. غرابة الأطوار لن تجدي نفعاً، ويجب عليك أن تفكر في ما يرغب فيه الناس»، قالت ذلك روزموند صائحة بصوت حازم.

ثار غضب ليدجيت. لقد كان مستعدّاً لتقبل ضعف النساء ولكن ليس إملاءاتهن... يمكن أن تكون سطحية الروح المائية فاتنة حتى تصبح واعظة... إلا أنه تماسك، ثم قال بصلابة استبدادية: «ما ينبغي لي فعله في العيادة يا روزي لهو شأن أحكم عليه بنفسي، وهذه ليست قضيتنا الآن. يكفيك أن تعلمي أن دخلنا سيكون قليلاً جدّاً، لا يتجاوز الأربعمئة جنيه وربما أقل، وذلك سيكون لمدة طويلة، فينبغي لنا أن نعيد ترتيب حياتنا بموجب تلك الحقيقة»... ظلت روزموند صامتة للحظة أو أكثر وهي تنظر أمامها، ثم قالت: «ينبغي لزوج عمتي بولسترود أن يقدم لك مرتباً مقابل الوقت الذي تقضيه في المستشفى.. فليس من الصحيح أن تعمل مقابل لا شيء».

«كان مفهوماً منذ البداية أن خدماتي ستكون مجانية. وهذا أيضاً ليس موضوع نقاشنا الآن. لقد أوضحت الاحتمال الوحيد فقط»... هذا ما قاله ليدجيت فاقداً صبره، ثم عندما تنبه لنفسه تابع بهدوء أكثر...

«أعتقد أنني أرى مصدراً واحداً يمكن أن يخلصنا من قسط كبير من الصعوبات التي نواجهها. لقد علمت أن الشاب نيد بلمديل سيتزوج من الآنسة صوفي تولر، وهما غنيان، ولا يتواجد دائماً منزل جيد شاغر في مدل مارش. إنني متأكد من أنهما سيكونان مسرورين إذا ما أخذا منزلنا هذا مع معظم أثاثنا، وهما سيرحبان بدفع سخي مقابل استرهانه. أستطيع أن أطلب من ترمبل كي يتحدث إلى بلمديل حول الموضوع».

نهضت روزموند من على ركبة زوجها وسارت نحو الطرف الآخر من الغرفة، وعندما استدارت وسارت نحوه، كان من الواضح عليها أن دموعها قد بدأت تنهمر، وأنها كانت تعض

على شفتها السفلى، كما كانت تشد على يديها لتتمالك نفسها من البكاء. أما ليدجيت فقد كان بائساً هزّه الغضب، لكنه لا يزال يشعر أنه ليس من الرجولة أن يظهر غضبه في هذا الوقت.

«إنني آسف جدّاً يا روزموند، وإنني أعلم أن هذا مؤلم».

«كنت أعتقد أنك ستعمل لإعادة الأواني المفضضة، ومجيء ذلك الرجل كي يجرد الأثاث كان كافياً».

«لقد شرحت لك الأمر في ذلك الوقت يا عزيزتي؛ إذ إنّ ذلك كان مجرد ضمان، ووراء ذلك الضمان هناك دين، وذلك الدين يجب أن يسدد خلال الأشهر القليلة القادمة، وإلا سيباع أثاثنا. فلو أخذ بلمديل الشاب منزلنا ومعظم أثاثنا، سنكون قادرين على سداد ذلك الدين وبعض الديون الأخرى أيضاً، وسنتخلص من مكان باهظ التكلفة علينا، ويمكننا أن نأخذ منزلاً أصغر. إنني أعلم أن السيد ترمبل لديه منزل جيد جدّاً أجرته ثلاثون جنيهاً في العام، وأجرة هذا المنزل تسعون جنيهاً». قال ليدجيت كلامه هذا بطريقة فظة تشبه طرق المطرقة، طريقة نحاول بها أن نثبت حقيقة ملحة لا سبيل لتجاهلها في تفكير إنسان خيالي. انهمرت الدموع بصمت من فوق وجنتي روزموند، فجففتها بمنديلها، ثم وقفت تنظر إلى الزهرية الكبيرة التي كانت على رف موقد النار. لقد مرت بلحظاتٍ أكثرَ مرارة مما شعرت به من قبل، وأخيراً قالت دون استعجال ولكن بتأكيد حذر.

«لم يكن في استطاعتي أن أعتقد أنك يمكن أن ترغب في التصرف بهذه الطريقة».

«ارغبي فيها»... انفجر ليدجيت وهو ينهض من على كرسيه ليضع يديه في جيبيه ويبتعد عن موقد النار: «إنها ليست مسألة رغبة، فبالطبع أنا لا أرغب في ذلك، لكنها الشيء الوحيد الذي أستطيع أن أفعله». استدار هنا لينظر إليها.

قالت روزموند: «كان علي أن أعتقد أن هناك طرقاً كثيرة أخرى غير هذه الطريقة. دعنا نبع كل شيء، ونترك مدل مارش كليـّاً».

«نفعل ماذا...؟! ما فائدة تركي لعملي في مدل مارش...؟؟ كي أذهب إلى مكان لا أملك فيه شيئاً..؟؟!؟ سنكون مفلسين في أي مكان آخر تماماً كما نحن هنا الآن»، قال هذا ليدجيت بغضب أشد.

قالت روزموند باتهام تام بعد أن استدارت نحوه: «لو فرض علينا أن نكون في ذلك

الوضع... لكان ذلك نتيجة أفعالك يا ترشيوس. إنك لا تتصرف كما ينبغي مع أسرتك...!! فقد أسأت للكابتن ليدجيت. لقد كان السير جودوين لطيفاً معي جدّاً عندما ذهبنا إلى كولنغهام، فأنا متأكدة من أنك لو أبديت احتراماً جيداً له، وأخبرته بظروف حياتك لقدم لك شيئاً ما، ولكن بدلاً من أن تفعل ذلك، فإنك ترغب في التخلي عن منزلنا والأثاث للسيد نيد بلمديل».

كان شيء يشبه الحنق والغضب في عيني ليدجيت عندما أجاب بعنف جديد: «..حسناً إذاً لو كنت تفكرين في هذه الطريقة، فإنني أرغب في ذلك. إنني أعترف أنني أرغب في ذلك أكثر من أن أجعل من نفسي أحمق بالذهاب للتسول حيث لا فائدة ترتجى... افهمي إذاً... إن ذلك ما أحب فعله».

كان صوته يوازي قوة قبضة يده القوية على ذراع روزموند الرفيعة. إلا أنه على الرغم من هذا كله، لم تكن إرادته أصلب من إرادتها بمثقال ذرة. خرجت مباشرة من الغرفة وهي صامتة، ولكن كان يسيطر عليها تصميم قوي كي تمنعه عما كان يريد فعله.

خرج من المنزل، ولكن بينما كان دمه يفتر، شعر أن النتيجة الرئيسية لنقاشه معها كانت تتمثل فيه... في خوف أوجع نفسه من أن يتحدث مع زوجته بمواضيع مستقبلية قد تضطره إلى التحدث بعنف.

كان الأمر بالنسبة إليه وكأن شرخاً قد أصاب زجاجة، فغدا يخشى أن تحوله أي حركة إلى كسر عميق. سيتحول زواجهما إلى سخرية مريرة ما لم يتابع حبهما. لقد اكتشف منذ وقت طويل سلبية شخصيتها.. إذ ينقصها إحساسها، الذي يظهر من خلال تجاهلها لكل من أمنياته الخاصة وأهدافه العامة. أول خيبة أمل كبيرة قد تم تحملها.. إذ يجب التخلي عن التكريس العاطفي والحب الطيع للزوجة المثالية، ويجب متابعة الحياة بأقل التوقعات،كما يتابعها رجال قد فقدوا أطرافهم، ولكن الزوجة في الحقيقة لم تحقق طلباتها فحسب بل لا تزال تسيطر على قلبه، وكانت رغبته هو أن تستمر تلك السيطرة في الزواج. كان التأكد من... «أنها لن تحبني كثيراً!!» لتحمله سيولة أكثر من الخوف من... «لن أحبها بعد الآن».

منذ انفعاله الشديد ذاك كان ينصب توجهه الداخلي على إيجاد عذر لها، ويضع اللوم على الظروف القاسية التي كانت نتيجة لخطأه. حاول في ذلك المساء أن يداوي الجرح الذي سببه في ذلك الصباح من خلال ملاطفتها، ولم يكن من طبيعة روزموند أن تكون بغيضة

أو متجهمة، بل إنّها رحبت بإشارات حب زوجها لها، وكانت متحكمة بذاتها. إلا أن هذا كان مختلفاً عن حبها له.

لم يشأ ليدجيت أن يرجع عن خطته في ترك منزله، لكنه كان مصمماً على تنفيذها دون أن يتحدث حولها، لكن روزموند قد ألمحت إليها من خلال قولها على مائدة الإفطار: «هل تحدثت إلى السيد ترمبل...!؟».

«كلا»، قال ليدجيت، «لكنني سأمر عليه عند ذهابي هذا الصباح، فليس لدينا وقت كي نضيعه»... عدّ سؤال روزموند دليلاً على أنها قد سحبت اعتراضها، فقبل رأسها بحنو عندما نهض ليذهب.

حالما أصبح الوقت مناسباً للقيام بزيارة، ذهبت روزموند إلى منزل السيدة بلمديل، أم نيد، فدخلت مهنئة بلطف شديد بالزواج القادم. كانت وجهة نظر السيدة بلمديل تتمثل في أن روزموند قد عادت تمثل آثار حماقاتها في الماضي، وعندما أدركت أن المصلحة الآن إلى جانب ابنها لم يمنعها لطفها الشديد من أن تتصرف بكياسة.

«نعم يجب أن أقول إن نيد سعيد جدّاً، وصوفي تولر هي الفتاة الذي أستحقها كي تكون زوجة لابني. بالطبع... إن أباها قادر على أن يقدم لها شيئاً ثميناً، فهذا ما نتوقعه من مالك مصنع جعة مثله، والعلاقات الاجتماعية هي كل ما نستحقه، ولكن ليس هذا كل ما أنظر إليه، فهي فتاة لطيفة جدّاً، فلا كبرياء لديها ولا غرور. إنني لا أعني لقب الأرستقراطية ولا أرى أي جدوى من تدخل الناس في شؤون غيرهم ؛ فأنا أعني أن صوفي في مستوى أفضل فتيات البلدة، وهي مقتنعة بذلك».

قالت روزموند: «كنت دائماً أعتقد أنها إنسانة جيدة جدّاً».

«إنني أعتبرها مكافأة لنيد الذي لم يرفع رأسه أعلى مما ينبغي ليكون له علاقات مع أفضل الناس».. تابعت السيدة بلمديل وقد أهدأ من حدتها شعورها بأنها كانت تتبنى وجهة نظر صحيحة:... «وبعض الخاصة كعائلة تولر كان يمكن أن يعارضوا لأن بعض أصدقائنا ليسوا أصدقاء لهم. ومعروف أن عمتك السيدة بولسترود، التي أعرفها منذ عهد شبابنا، والسيدة بلمديل كانتا دائماً إلى جانب السيد بولسترود، وأنا ذاتي أفضل الأفكار الجادة، إلا أن عائلة تولر قد رحبوا بنيد بالطريقة نفسها».

قالت روزموند بنبرة مناصرة لجميع تعديلات وإصلاحات السيدة بلمديل: «إنني

متأكدة من أنه رجل ذو مبادئ، وجدير جدًّا بالاحترام...».

«إنه ليس من نموذج الكابتن في الجيش، أو من النوع الشجاع الذي ينظر إلى الناس على أنهم أدنى منه مستوىً أو ممن يتنمقون في أحاديثهم وغنائهم ومواهبهم الفكرية، وأنا سعيدة إذ إنه لا يملك مثل هذه المواهب، التي هي بمثابة تحضيرات تعسة في هذه الحياة والحياة الأخرى».

قالت روزموند: «آه نعم يا عزيزتي... إن المظاهر لا تجلب السعادة، أعتقد أنهما يتمتعان بجميع عناصر الحياة الزوجية السعيدة. أي منزل سيأخذان...!؟».

«بالنسبة إلى ذلك... يجب عليهما أن يقبلا بما يمكن أن يحصلا عليه. كان يفكران في المنزل الذي يقع في شارع القديس بطرس وهو ملاصق لمنزل السيد هكبت، فهو ملك له، وهو يقوم بإصلاحات جيدة فيه. أعتقد أنهما لن يحصلا على أفضل منه، وأعتقد أن نيد سيقرر في المسألة هذا اليوم».

«أعتقد أنه منزل جميل، فأنا أحب شارع القديس بطرس».

«حسناً إنه بالقرب من الكنيسة وفي موقع لطيف، لكن نوافذه ضيقة وجميعها غير مستوية. ألا تعرفين منزلاً غيره أوسع وأكثر فساحة منه؟»، قالت ذلك السيدة بلمديل محدقة بعينيها السوداوين في روزموند وقد انبعث منهما نشاط نتيجة فكرة خطرت لها للتو...!

«كلا... إنني أسمع القليل حول مثل هذه الأشياء».

لم تتوقع روزموند هذا السؤال والجواب عنه عندما قررت زيارتها، فهي أرادت فقط ببساطة أن تجمع بعض المعلومات، التي يمكن لها أن تساعدها على تجنب ترك منزلها في ظلّ ظروف لم ترغب فيها قطّ، وبالنسبة إلى عدم صدقها في جوابها فهي لن تفكر فيه أكثر مما فكرت في قولها: «إن المظاهر لا تجلب السعادة».. ولا سيما أنها كانت مقتنعة بأن هدفها كان مبرراً تماماً.. فنوايا ليدجيت هي التي كانت غير مبررة، كما كان في ذهنها خطة، لو نفذتها، لثبت بالبرهان المؤكد أنه كم كانت الخطوة التي كان ينوي اتخاذها في تنازله عن مكانته خاطئة.

عادت إلى منزلها بعد أن ذهبت متعمدة إلى مكتب السيد ترمبل، وقد كانت المرة الأولى لروزموند أن تفكر في القيام بشيء يتعلق بالبيع والشراء، لكنها كانت تشعر أنها قادرة على

ذلك، فأن تكون مجبرة على فعل ما كانت تكرهه تماماً كانت تشكل فكرة حولت عنادها الهادئ إلى ابتكار فعال. ها هي حالة لن يكون فيها العصيان كافياً ولا الممانعة الهادئة والساكنة.. فينبغي لها أن تتصرف بموجب قراراتها، فهي قالت لنفسها إن قراراتها كانت صائبة، وحقًّا لو لم تكن هكذا لما رغبت في أن تتصرف بموجبها.

كان السيد ترمبل في الغرفة الخلفية من مكتبه، فاستقبل روزموند بأرقى كياسته، ليس لأنه كان معجباً بسحر جمالها، بل بسبب خلقه ذي الطبيعة الطيبة، الذي حركه تأكده بأن ليدجيت كان يعاني صعوبات مالية، وأن هذه المرأة البالغة الجمال قد شعرت بقسوة تلك الظروف، فوجدت نفسها منغمسة بها دون أن تتحكم بذاتها.

طلب منها أن تشرفه فتجلس، ثم وقف أمامها يتصرف بعناية مفرطة مصدرها طبعه الخير. كان أول سؤال لروزموند هو استذكارها عن زوجها... ما إذا كان قد حضر إلى مكتب السيد ترمبل في ذاك الصباح ليعرض له منزله.

«نعم يا سيدتي لقد فعل، لقد فعل ذلك»... قال بائع المزاد الطيب محاولاً التلطيف بعض الشيء من خلال تكراره وأضاف: «وكنت سأبدأ بإنجاز طلبه لو كان ممكناً في هذا المساء فهو تمنى عليّ ألاّ أماطل لو استطعت».

«لقد حضرت لأطلب منك ألاّ تتابع في الأمر يا سيد ترمبل، وإنني أطلب منك ألاّ تذكر شيئاً عما قيل في الموضوع. هل ستنفذ لي طلبي؟»

«من المؤكّد أنني سأفعل يا سيدة ليدجيت. الثقة شيء مقدس عندي في العمل أو في أي شأن آخر. إذاً سأعتبر التفويض قد سحب؟»... قال السيد ترمبل ذلك وهو يرتب ربطة عنقه بيديه ناظراً إلى روزموند باحترام.

«نعم من فضلك، لقد علمت أن السيد نيد بلمديل قد أخذ منزلاً، وهو في شارع القديس بطرس وبالقرب من منزل السيد هكبت. وسيضايق السيد ليدجيت تنفيذ طلباته دون جدوى، وبالإضافة إلى ذلك فهناك ظروف أخرى قد تسيء للعرض دونما ضرورة».

«حسناً يا سيدة ليدجيت حسناً، فأنا تحت أمرك متى طلبت مني أي خدمة»... هذا ما قاله السيد ترمبل الذي أسره حدسه على أن مصادر جديدة قد فتحت له: «أرجوك أن تعتمدي علي، فإنني لن أتابع تنفيذ الأمر».

في ذلك المساء كان السيد ليدجيت مرتاحاً لرؤيته روزموند مبتهجة أكثر مما كانت عليه مؤخراً، وحتى إنها كانت مستعدة كي تفعل كل ما يمكن أن يبعث في نفسه السرور دون أن يطلب منها، ففكر: «إذا كانت هي سعيدة، وأنا أستطيع أن أتجاهل، فما عسى ذلك أن ينفع بشيء؟ إنه فقط مستنقع ضيق علينا تجاوزه في رحلة طويلة، ولو استطعت أن أصفي ذهني ثانية، فإنني سأفعل ذلك».

«كان مبتهجاً جدّاً حتى إنه بدأ البحث في تجاربه، التي كان ينوي القيام بها منذ وقت بعيد، فتجاهل ذلك اليأس الزاحف في نفسه، الذي يأتي في قطار الاضطرابات التافهة، شعر ثانية ببعض متعة فهمه لما توصل إليه في بحوثه، بينما كانت روزموند تعزف الموسيقى مما عمق تأمله لتكون كضرب المجذاف في بحيرة في المساء.

لقد كان الوقت متأخراً إلى حد ما،عندما دفع بعيداً جميع كتبه، وراح ينظر إلى النار مشبكاً يديه خلف رأسه وقد نسي كل شيء من حوله سوى تركيبة تجربة جديدة محكمة، بينما روزموند، التي تركت البيانو واستلقت على كرسيها تراقبه، قالت: «السيد نيد بلمديل قد أخذ منزلاً...!!». رفع ليدجيت نظره وحملق بصمت لوهلة... كما لو كان رجلاً قد أصابه الأرق، ثم اندفع بشعور غير سار سائلاً: «كيف علمت ذلك...؟؟».

«لقد ذهبت في زيارة إلى السيدة بلمديل هذا الصباح، فأخبرتني أنه قد أخذ منزلاً في شارع القديس بطرس بالقرب من منزل السيد هكبت».

ظلّ ليدجيت صامتاً، وسحب يديه من خلف رأسه ثم ضغط بهما على شعره المتدلي على جبينه بكثافة، كما كانت عادته عندما يضع مرفقيه على ركبتيه.

لقد شعر بخيبة أمل مريرة وكأنه قد فتح باباً لمكان مغلق، فوجده قد سدّ بجدار، لكنه شعر أيضاً أن روزموند كانت سعيدة لخيبة أمله، ففضل عدم النظر إليها أو التحدث معها حتى يتجاوز أول نوبة غضب. أخيرًا قال في قرارة نفسه:... كيف للمرأة ألا تهتم كثيراً بالمنزل وأثاث البيت..؟؟ فالزوج من دونهما لهو عبث.

عندما رفع نظره ودفع شعره جانباً ظهرت في عينيه الداكنتين تعاسة غير متوقعة تثير الشفقة، لكنه قال فقط بهدوء: «ربما ظهر شخص آخر. لقد أخبرت السيد ترمبل أن يتابع البحث إذا لم يوفق مع بلمديل».

لم تعلق روزموند، فهي ركنت إلى إمكانية عدم حدوث شيء بين زوجها وبائع المزاد، حتى يظهر ما يبرر تدخلها.. ففي أي حال لقد عرقلت الأمر الذي أخافها مباشرة، وبعد برهة من الصمت قالت: «كم من النقود يريد أولئك المضايقون...؟».

«أي أناس مضايقون...؟؟».

«أولئك الذين أخذوا القائمة والآخرون، أعني كم من المال سيكفيهم لئلا يضايقوك ثانية؟». جال ليدجيت بنظره عليها وكأنه كان يبحث عن أعراض مرض ما، ثم قال:

«آه لو استطعت الحصول على ستمئة جنيه من بلمديل مقابل الأثاث لربما تدبرت أمري، فسددت دين دوفر ودفعت للآخرين ما يكفي ليجعلهم ينتظرون بصبر، هذا إذا ما قلصنا مصاريفنا».

«لكنني أعني كم تحتاج كي نبقى في هذا المنزل...؟؟».

قال ليدجيت بنبرة ساخرة: «أكثر مما أستطيع الحصول عليه..!!»، فقد أغضبه إدراكه أن تفكير روزموند كان ينصب حول أمنيات غير واقعية بدل من بذل جهود ممكنة.

قالت روزموند بتعبير لطيف على أنها لم يعجبها أسلوبه: «لماذا لا تذكر المبلغ؟».

قال ليدجيت بنبرة تخمين: «حسناً... سيحتاج الأمر إلى ما ليس أقل من ألف جنيه كي أكون مرتاحاً، ولكن...!!».. أضاف مؤكداً: «ينبغي لي أن آخذ في الاعتبار ما أستطيع فعله مع عدم وجود ذلك المبلغ وليس مع وجود». لم تضف روزموند شيئاً.

في اليوم التالي نفذت خطتها فكتبت للسير جودوين ليدجيت. فمنذ زيارة الكابتن لهما، تلقت رسالة منه، وأخرى من السيدة منجان أخته المتزوجة، يعزيانها بفقدانها لجنينها كما عبرا عن أملهما لرؤيتها ثانية، فأخبرها ليدجيت أن هذه الكياسة لا تعني شيئاً، لكنها كانت مقتنعة في داخلها أن الفتور الذي أصاب علاقة زوجها بأسرته كان نتيجة تصرفاته الباردة والمزدرية معهم، فردّت على رسالتيهما بأكثر طرقها سحراً متوقعة بكثير من اليقين أنه سيتبع ذلك دعوة تتلقاها منهما.

إلا أنها لم تحصل إلا على صمت تام. من الواضح أن الكابتن لم يكن كاتباً ماهراً، واعتقدت روزموند أن الأخوات ربما كن في سفر خارج البلاد.

في أيّ حال... فقد آن أوان التفكير في استقبال الضيوف في المنزل. فإن السير

جودوين، الذي كان قد ربت مدللاً إياها تحت حنكها وقال إن جمالها يشبه جمال السيدة كرولي، التي وقع في غرامها عام ألف وسبعمئة وتسعين، وهو سيتجاوب مع أي طلب تتقدم له به السيدة روزموند. كما سيكون من دواعي سروره أن يتصرف، لأجلها، كما ينبغي مع زوجها.

كانت روزموند مقتنعة بسذاجة بما ينبغي للرجل العجوز أن يفعله كي يمنع عنها المعاناة المؤلمة، فكتبت ما كانت تعتبرها أكثر رسالة تنم عن الحكمة، لتؤثر في السير جودوين لأنها كانت دليلاً على وعيها التام، فقد أوضحت الحاجة الماسة لترشيوس كي ينتقل من مكان كمدل مارش إلى آخر أكثر ملاءمة لمواهبه، كما أوضحت كيف أن أهالي مدل مارش البغيضين قد عرقلوا تحقيق نجاحاته المهنية، ونتيجة ذلك وقع في صعوبات مالية وهو يحتاج إلى ألف جنيه كي يتخلص من عواقبها. لم تقل إن ترشيوس لم يعلم بنيتها على الكتابة لأنها كانت تعتقد أن منعه المفترض لكتابتها لا يتوافق مع ما قالته عن احترام زوجها الشديد للسير جودوين وأنه يعتبره أفضل أقاربه. مثل هذه الوسائل، كانت وسائل روزموند المسكينة إذ راحت تطبقها على شؤونها الخاصة.

كان قد حدث ذلك قبل حفلة رأس السنة الميلادية، وما كان قد وصل أي جواب من السير جودوين.

إلا أنه في صباح ذلك اليوم كان على ليدجيت أن يعلم أن روزموند قد نقضت أوامره التي أعطاها لبورثروب ترمبل. لما كان يعتقد أنه كان ينبغي لها أن تعتاد تدريجاً على فكرة ترك المنزل في لُوِيك جيت. تغلب على تردده في الحديث معها حول الموضوع، فبينما كانا يتناولان إفطارهما قال: «سأحاول أن أرى ترمبل هذا الصباح لأقول له أن يعلن عن المنزل في صحيفتي البيونير وترامبت، فلو أعلن عنه، ربما رغب أحد فيه، وما كان ليفكر بالتغيير لو لم يقرأ الإعلان. في هذه الأماكن من البلاد كثير من الناس يبقون في منازلهم القديمة على الرغم من كثرة عدد أفراد أسرهم، فقط لأنهم لا يعلمون أين يجدون غير منازلهم. ويبدو أن ترمبل لم يلتقط صيداً حتى الآن».

عرفت روزموند أن اللحظة الحاسمة قد حانت... قالت بهدوء حذر، كان من الواضح أنه دفاعي: «لقد طلبت من ترمبل أن يتوقف عن البحث».

حدق بها ليدجيت بدهشة صامتة. فقط قبل نصف ساعة كان يثبت لها شعرها

ويستخدم قليلاً لغة الحب، التي تقبلتها روزموند على الرغم من أنها لم ترد عليه، فكما لو كانت صورة خيالية لطيفة وهادئة تغمز بين الآونة والأخرى لمن أعجب بها. مع مثل هذه الطبيعة، التي لا تزال تتحرك في داخله، لم تتحول فوراً تلك الصدمة التي تلقاها إلى غضب عارم إلا أنها تمثلت في ألم مبهم. وضع من يديه السكين والشوكة اللتين كان يستخدمهما، ثم بعد أن أرجع نفسه إلى الوراء قليلاً، قال أخيراً بنبرة تشوبها السخرية: «هل لي أن أسألك لماذا ومتى فعلت ذلك؟».

«عندما علمت أن السيد بلمديل قد أخذ منزلاً، ذهبت إليه كي أطلب منه ألاّ يذكر منزلنا له، وفي الوقت نفسه طلبت منه ألا يتابع البحث أكثر من ذلك. إنني أعلم أنه سيكون جارحاً لك إذا ما عرف أنك تريد ترك منزلك وأثاثك، وأنا أعارض ذلك بقوة، وأعتقد أن ذلك سبب كافٍ».

«إذاً لم يكن هناك نتيجة لما ذكرته لك من أسباب إلزامية، ولم يكن هناك نتيجة للتوصل إلى نتيجة مختلفة، فأعطيت أمرًا بموجب ذلك؟». قال هذا ليدجيت بشغف وقد ظهر على جبهته وعينيه غضب عارم.

كانت عادة نتيجة غضب أي أحد على روزموند هو أن تنكمش بحنق بارد، وتقتنع بهدوء بأنها على صواب تام وأنها لا تسيء التصرف على الرغم مما يفعله الآخرون. أجابت: «أعتقد أن لي الحق التام في أن أتحدث بموضوع يعنيني على الأقل بقدر ما يعنيك».

«من الواضح أنه لك الحق في التحدث ولكن فقط معي. لم يكن لك حق أن تعارضي أوامري سرّاً وتعاملينني كأحمق». قال ليدجيت بنبرة صوته السابقة نفسها، بعدها أضاف مع بعض السخرية: «هل في مقدورك أن تفهمي ما هي النتائج؟ هل من المفيد أن أخبرك ثانية لماذا ينبغي لنا ترك المنزل؟».

«ليس من الضروري أن تخبرني ثانية»، قالت روزموند بصوت بارد يشبه برودة سقوط الماء: «إنني أتذكر ما قلته. لقد تحدثت بعنف كما تفعل الآن. ولكن هذا لا يغير رأيي في أنه ينبغي لك أن تجرب طرقاً أخرى بدلاً من أن تتخذ خطوة مؤلمة بالنسبة إلي. أما بالنسبة إلى الإعلان عن المنزل، فهو سيكون أمرا مخزياً لك جدّاً».

«وافترضي لو أنني لا آبه لرأيك كما أنت لا تأبهين لرأيي..».

«بالطبع تستطيع أن تفعل ذلك، ولكن كان ينبغي لك أن تخبرني قبل أن نتزوج بأنك ستضعني في أسوأ حالة عوضاً عن تخليك عن مشيئتك».

لم يقل ليدجيت شيئاً، لكنه أمال رأسه جانباً، وشد فمه بيأس. عندما رأت روزموند أنه ما كان ينظر إليها، نهضت لتضع فنجاناً من القهوة أمامه، ولكن لم ينتبه لذلك، وظل منغمساً في تفكيره والجدل الذي كان يعتلج في صدره، ويتحرك بين الفينة والأخرى على كرسيه واضعاً إحدى ذراعيه على الطاولة ليدلك رأسه بيده. كانت تصطرع في داخله أفكار وانفعالات كثيرة جدّاً، فكانت تمنعه من أن يطلق العنان لغضبه أو أن يحافظ على قراره الصلب. اغتنمت روزموند فرصة صمته.

«عندما تزوجنا شعر الجميع أن إمكانياتك المالية كانت قوية. لم يكن في وسعي آنذاك أن أتخيلك تبيع أثاثنا يومًا، وترغب في أخذ منزل في شارع برايد،حيث حجم الغرف لا يتجاوز حجم الأقفاص. لو اضطررنا للعيش في تلك الطريقة، دعنا عندها نغادر مدل مارش».

«إن هذا احتمال وارد جداً»... قال ليدجيت ساخراً قليلاً ولكن لا يزال الشحوب يظهر على شفتيه، بينما كان ينظر إلى قهوته دون أن يشرب منها: «ربما كانت هذه احتمالات واردة جدّاً... لو لم أكن مدينًا».

«لا بد لكثيرين من أن يكونوا قد وقعوا في دين كهذا، ولكن إذا كانوا محترمين، فالناس سيثقون بهم. إنني متأكدة من أنني سمعت أبي يقول يوماً عن أن أسرة توربت إنّهم كانوا قد وقعوا في دين، لكنهم تابعوا حياتهم بطريقة جيدة. ليس من الجيد أن يتصرف الإنسان باندفاع».قالت هذا روزموند بحكمة هادئة.

جلس ليدجيت دون حراك وقد شلته اندفاعات متناقضة.. لأنه لم يستطع أن يقدم حجة لروزموند يستطيع من خلالها أن يكتسب موافقتها... كانت رغبته في أن يضرب ويحطم بعض الأشياء ليستطيع أن يترك انطباعاً عليها أو أن يقول لها بقسوة بأنه هو السيد، وتجب عليها الطاعة.

إلا أنه لم يخش فقط تأثير مثل هذا الإفراط على حياتهما... إذ كان ينتابه خوف متنام من عناد روزموند المراوغ، الذي لا يسمح لفرض أي قوة أن يكون حاسماً، وفضلاً عن ذلك فهي قد طعنته في صميم مشاعره عندما قالت بأنها كانت قد خدعتها نظرة سعادة زائفة لزواجها منه. بنسبة لكونه السيد، فتلك ليست الحقيقة، فالقرار الذي ألزم نفسه به من

خلال المنطق والكبرياء المشرف، بدأ يضعف أمام قذائفها المتواصلة. ابتلع نصف قهوته، ثم نهض لينصرف.

قالت روزموند: «أطلب منك ألا تذهب إلى ترمبل في الوقت الحاضر حتى يتبين أنه لا يوجد هناك أي وسيلة أخرى». على الرغم من أنها لم تكن عرضة لمثل هذا الخوف، فإنها شعرت بأنه آمن لها ألاّ تبوح له بشأن كتابتها للسير جودوين: «عدني أنك لن تذهب إليه قبل بضعة أسابيع قادمة، أو حتى دون أن تقول لي ذلك».

ضحك ليدجيت قليلاً وقال بعد أن أدار نظره بحدة نحوها: «أعتقد أنه أنا من ينبغي أن يحصل على وعد بأنك لن تفعلي شيئاً دون أن تقولي لي». ثم ذهب نحو الباب.

قالت روزموند متمنية أن يستدير نحوها ثانية ويبدي بعض التنازل لها: «تذكر أننا سنتناول العشاء في منزل أبي».

إلا أنه قال فقط: «نعم...» بلا صبر ثم انصرف. لقد تقبلت الأمر منه على أنه بغيض جدّاً.. إذ لم يكتف بتقديم الأوامر المؤلمة لها، إلا أنه قام بذلك بانفعال فظ، وعندما قدمت له طلبها المعتدل كي يؤجل ذهابه ثانية إلى ترمبل، كان قاسياً منه ألاّ يؤكد لها ما كان ينوي فعله. لقد كانت مقتنعة أن كل ما تصرفته كان لأجل الأفضل، وأن كل إصرار أو كلام انفعالي صدر عن ليدجيت لم يجد شيئاً سوى أنه كان إساءة إضافية في ذهنها.

يا لروزموند المسكينة... لقد بدأت تربط بين زوجها ومشاعر خيبة الأمل لشهور طويلة، وقد أضاعت علاقتها الزوجية المستقرة جدّاً سحر الأحلام المبهجة والسارة. لقد حررها ذلك الزواج من مضايقات منزل أبيها، لكنه لم يقدم لها كل ما كانت تتمناه وترغب فيه.

فقد كان ليدجيت الذي أحبته كثيراً يمثل مجموعة حالات وهمية معظمها قد اختفى، فحل محلها الشؤون اليومية التفصيلية، التي كان عليها أن تعيشها ببطء وتتنقل خلالها من ساعة إلى أخرى ولا تخترقها بسرعة من خلال إضافة عناصر مفضلة لديها... عادات عمل ليدجيت واستغراقه العميق في مواضيع بحثه أثناء تواجده في منزله، الذي كان يبدو لها كئيباً كذوق العامة، وآراؤه الخاصة في الأشياء، التي لم تدخل يومًا في حوار غزلي، جميع هذه المؤثرات المنفرة، حتى من دون الأخذ بحقيقة أنه قد وضع نفسه في وضع سلبي في البلدة، ومن دون الأخذ بالصدمة الأولى التي سببتها مصارحته لها حول الدين لدوفر، كانت كافية لتجعل وجوده مملاً بالنسبة إليها.

كان هناك حضور من نوع آخر كان له متعة وبهجة خاصة منذ الأيام الأولى من زواجها

ولغاية أربعة أشهر ماضية، إلا أن ذلك أيضًا قد ذهب. ما كانت روزموند لتصارح نفسها كم تتعلق النتيجة الفارغة بالملل والسأم التامين، كما بدا لها أيضًا أن دعوة زيارة إلى كولنجهام وتوافر فرصة لليدجيت كي يعمل ويستقر خارج مدل مارش... ربما في لندن أو في مكان آخر يكونان فيه متحررين من الضغوط غير السارة... سيبعث فيها الرضا تماماً ويجعلها لا تبالي لغياب لادسلو، الذي تكن له امتعاضاً بسبب تمجيده للسيدة كزابون.

كانت تلك هي حال ليدجيت وروزموند في ليلة رأس سنة الميلادية عندما تعشيا في منزل أبيها، فهي كانت تنظر إليه ببرود شديد، نتيجة لتصرفه الغاضب في وقت الإفطار، بينما هو كانت تعتلج في نفسه تأثيرات الصراع الداخلي، الذي شكّل فيه المشهد الصباحي إحدى حلقات سلسلة طويلة.

سعيه بالإدعاء المتشائم، بينما كان يتحدث إلى السيد فيربرذر، على أن جميع طرق الحصول على المال لا تختلف وأن الحظ لهو إمبراطورية تخفض من مستوى الخيار، لتجعله في مستوى الوهم الزائف... إذ لم يكن ذلك السعي إلا عرضاً لتصميم مهزوز وردة فعل مشلولة لتحريض حماس قديم.

ماذا كان عليه أن يفعل؟ لقد أدرك بوضوح أعمق مما أدركت روزموند الكآبة التي ستنتج عن أخذها إلى منزل صغير في شارع برايد حيث سيكون من حولها أثاث هزيل وغير كاف، كما أنها ستكون غير راضية عنه.. فحياة الحرمان، والحياة مع روزموند كانتا تشكلان صورتين خياليتين،أصبحت إمكانية التزاوج بينهما مستحيلة منذ أن بدأ تهديد الحرمان يفرض نفسه. إلا أنه حتى لو استطاع تصميمه على مزاوجة تلك الصورتين... فبدايات ذلك التغير الصعب لم تكن في متناول اليد.

على الرغم من أنه لم يعط الوعد الذي طلبته منه زوجته، فإنّه لم يذهب إلى السيد ترمبل. لقد بدأ بالتفكير حتى في أن يقوم برحلة إلى الشمال ليرى السير جودوين. كان قد اعتقد مرة أنه لن يضطره شيء ليطلب نقوداً من عمه، ولكن لم يكن يعرف آنذاك أن ضغوط البدائل لهي أشد قسوة. لم يستطع الركون إلى تأثير رسالة يبعث بها، فلا يمكنه أن يقدم شرحاً دقيقاً،أو أن يجرب تأثير القرابة،إلا من خلال مقابلة شخصية مهما كانت مضايقة بالنسبة إليه.

حالما بدأ ليدجيت يتقبل هذه الخطوة على أنها الأسهل، ظهرت له ردة فعل غضب،

نتيجة تذكره أنه قد قرر منذ زمن بعيد أن يعيش بعيداً من مثل هذه الأفكار المذلة ومن قلق المصالح الشخصية والميول والرغبات وجيوب الرجال، الذين كان يتباهى بأنه لم يشترك معهم بأهدافه، فقد انتابه غضب ليس لنزوله إلى مستواهم فحسب، بل لمستوى توسله إليهم.

الفصل الخامس والستون

ينبغي لأحدنا أن ينحني دون شك،
ولما كان الرجال أكثر تعقُّلاً من النساء،
يجب عليكم أيها الرجال أن تكونوا أكثر صبراً.

جوسر - حكايات كانتربري

تنزع الطبيعة البشرية إلى التباطؤ في انسجامها مع فرح النصر، وحتى لدى التسريع بتقدم عامة الأشياء.. فلا عجب أن يكون السير جودوين ليدجيت العجوز في عام 1832 بطيئاً في كتابته لرسالة رداً على رسالة تلقاها.

انقضى ما يقرب من ثلاثة أسابيع من العام الجديد وروزموند تنتظر رداً على التماسها الفائز، لكنّها كانت تصاب كل يوم بخيبة أمل. ليدجيت، الذي كان يجهل تماماً توقعاتها، كان يتلقى الفواتير، وكان يشعر باستغلال دوفر لصلاحياته على الدائنين الآخرين قد أصبح وشيكاً جدّاً.

لم يذكر من قبل لروزموند شيئاً عن تفكيره العميق في السفر إلى كولنغهام، فقد تجنب التصريح بما يمكن أن يظهر على أنه تنازل من جانبه أمام رغباتها، بعد رفضه الساخط، لكنه كان حقّاً يتوقع سفره قريباً جدّاً، فاستخدامه للسكة الحديدية سيمكنه من إنجاز رحلته ذهاباً وإياباً في أربعة أيام فقط.

إلا أنه في صباح أحد الأيام، وبعد أن خرج ليدجيت وردت رسالة موجهة له، وقد عرفت روزموند أنها من الواضح كانت من السير جودوين، فملأها أمل كبير. ربما تضمنت تلك الرسالة ملاحظة خاصة لها، ولكن من الطبيعي أن يكون ليدجيت قد وجه له فيها رداً حول مسألة النقود أو أي مسألة أخرى، وبما أنه قد كتب شيئاً خاصاً له، فلا بد من أن يكون التأخير في الرد قد جاء بالرد الإيجابي.

لقد انتابتها بهجة عارمة، حتى إنها ما عادت ترغب في القيام بشيء سوى بالقليل من الخياطة في إحدى زوايا غرفة الطعام الدافئة، بينما كانت تلك الرسالة المهمة جدّاً أمامها على الطاولة.

حوالي الساعة الثانية عشرة سمعت خطوات زوجها في الممر محاولاً فتح الباب، فقالت بألطف نبرات صوتها: «تعال يا ترشيوس، فها هي رسالة لك».

«آه...!!»، قال دون أن يخلع قبعته، بعد أن لفها بذراعه ليسيرا حيث كانت الرسالة.

«عمي جودوين!»، صرخ بينما جلست روزموند لتراقبه وهو يفتح الرسالة، إذ توقعت أن يصاب بالدهشة. بينما جال ليدجيت بنظره على الرسالة بسرعة، رأت وجهه الأسمر الشاحب يبيض فجأة وأنفه وشفتيه ترتجف، ثم فجأة رمى بالرسالة أمامها وقال بعنف: «سيكون من المستحيل تحمل الحياة معك إذا ما بقيت تتصرفين سرًّا... تتصرفين ضد رغباتي وتخفين أفعالك...!!» دقق في كلامه، وأدار ظهره لها، ثم استدار وسار في الغرفة، ثم جلس وبعدها نهض مضطرباً وهو يضغط بعنف على ما كان في جيبيه. تغير لون وجه روزموند أيضاً عندما قرأت الرسالة التي جاءت على النحو التالي..

عزيزي ترشيوس:

لا تجعل زوجتك تكتب لي عندما يكون لديك أمر تريد أن تطلبه مني. إنه نوع من المراوغة التي لم أعهدها بك. لم أكتب في حياتي مرة لامرأة في شؤون تتعلق بالتعاملات المالية.

بالنسبة إلى شأن تقديم ألف جنيه أو نصف ذلك المبلغ لك.. فإنه ليس في وسعي أن أفعل شيئاً من هذا القبيل. أسرتي تستنزف مني كل نقودي، فابنان وثلاث بنات لا يتركون شيئاً يمكن أن أدخره. يبدو أنك قد أنفقت جميع نقودك بسرعة فائقة، فوقعت في معضلة مالية. كلما أسرعت في الانتقال إلى مكان آخر، كان من الأفضل لك. إلا أنه لا علاقات لي مع من يعملون في مهنتك، فلا أستطيع أن أساعد بهذا الشأن. لقد قدمت لك ما في استطاعتي كمربٍ لك، وتركت لك الخيار بدراسة الطب، وقد كان في وسعك الالتحاق بالجيش أو العمل في الكنيسة، عندها لاستطعت أن تحتفظ بنقودك لمدة أطول، ولكان أمامك عندها سلم أكثر صلابة تصعد إليه.

يلومك عمك تشارلز كثيراً جدًّا لأنك لم تلتحق بمهنته، لكنني لا أفعل ذلك.. إذ تمنيت لك دائماً الأفضل، ولكن ينبغي لك الآن أن تعتمد على نفسك تماماً.

عمك المحب
جودوين ليدجيت

عندما فرغت روزموند من قراءة الرسالة، جلست عاقدة ذراعيها دون حراك لتخفي في داخلها خيبة أملها القاسية، وتطوق نفسها باستسلام تام لثورة غضب زوجها.

توقف ليدجيت عن السير في الغرفة لينظر إليها ثانية، ثم قال بقسوة مريرة: «هل سيكون هذا كافياً ليقنعك بالأذى الذي يمكن أن تلحقيه بي من خلال تصرفاتك السرية...؟ هل تملكين الوعي الكافي كي تدركي عدم قدرتك على الحكم، والتصرف بالنيابة عني، والتدخل بجهلك في شؤون يعود أمر القرار فيها إليّ...؟». كانت كلماته قاسية، لكنها لم تكن هذه المرة الأولى التي يحبط ليدجيت بسببها. لم تنظر إليه، ولم تجبه بشيء. «كنت سأتخذ قراري النهائي في الذهاب إلى كولنغهام. كان سيكلفني ذلك ألماً شديداً، إلا أنه كان هناك احتمال أن ذلك سيأتي بنتيجة. إلا أنه لم يكن هناك أيّ فائدة في أن أفكر في أي شيء. كنت دائماً تتصرفين عكس إرادتي سرًّا. إنك دائماً تخدعينني بمسايرتك الزائفة، ثم أقع تحت رحمة أفعالك. إذا كنت تعنين أنك ستظلين تقاومين كل رغباتي، قولي ذلك وتحديني، فعلى الأقل سأعرف عندها ماذا أفعل».

إنها لحظة تعاسة في حياة الشبان عندما يتحول التقارب في علاقة الحب إلى قوة مثيرة للحنق. على الرغم من تحكم روزموند بذاتها، نزلت دمعة من فوق وجنتها وتدحرجت على شفتيها، ولم تقل شيئاً حتى هذه اللحظة، ولكن خلف هذا الهدوء كان يختبئ انفعال شديد.. فكان ينتابها اشمئزاز شديد من زوجها حتى إنها تمنت لو أنها لم تره. وقاحة السير جودوين ضدها وتبلد أحاسيسه جعلها تصنفه مع دوفر وجميع الدائنين الآخرين... الرجال القساة الذين لا يفكرون إلا في أنفسهم دون أن يأبهوا كم هم مضايقون لها.

حتى أبوها لم يكن طيباً، إذ كان في وسعه أن يفعل شيئاً أكثر لهما. في حقيقة الأمر كان هناك شخص واحد فقط في عالم روزموند ما كانت تعتبره يستحق اللوم.. وهي تلك المخلوقة الرشيقة ذات الجدلات الشقراوات واليدان المعقودتان أمامها، والتي لم تعبر عن نفسها بطريقة غير لائقة، ودائماً تتصرف لأجل الأفضل... إنها الأفضل لأنها كانت أكثر ما تحبه.

بعد أن توقف ليدجيت وراح ينظر إليها، بدأ يشعر بعجز يسبب الجنون الذي يصيب أصحاب العواطف المرهفة عندما تقابل عواطفهم بصمت بريء يصدر عن أصحاب التظاهر بالخنوع والتضحية، فيدفعون بهم إلى طريق الخطأ، ويفسدون حتى أكثر السخط عدالة من خلال إثارة الشكوك حول عدالته. كان في حاجة إلى استعادة يقينه على أنه كان على صواب، من خلال تلطيف كلماته.

بدا يحاول أن يكون حزيناً أكثر مما هو قاس: «ألا تستطيعين أن تري يا روزموند...؟ إنه لا شيء يمكن أن يكون مهماً جدًّا وأساسيًّا، كالحاجة إلى الصراحة والثقة المتبادلة بيننا...؟ لقد حدث مرات عديدة عندما عبرت عن رغبة مقررة، فأبديت موافقتك... إلا أنه بعد ذلك أتبين أنك قد خالفت رغبتي سرًّا. هكذا... لا أستطيع أن أعلم بماذا يمكنني أن أثق. سيكون هناك بصيص أمل لنا إذا ما اعترفت بهذا. هل أنا شخص وحشي حانق دون تفكير...؟؟ لماذا لا تستطيعين أن تكوني صريحة معي...!؟».

لا يزال الصمت يخيم...

«هل ستقولين إنك كنت مخطئة، وإنه يمكنني أن أعتمد عليك بألا تتصرفي سرًّا في المستقبل...؟»، قال ذلك ليدجيت بإلحاح ولكن ظهر على صوته شيء يشبه الطلب... استطاعت روزموند أن تدركه بسرعة، فتكلمت ببرود.

«لا أستطيع أن أقدم اعترافات، ولا أن أقطع وعوداً تلبية لمثل هذه الكلمات التي تستخدمها بحقي. إنني لم أعتد من قبل على مثل هذه اللغة. لقد تحدثت عن تدخلي السري، وجهلي المتطفل، وموافقتي الزائفة، وأنا لم أعبر عن نفسي لك بهذه الطريقة قط، لذلك أعتقد أنه ينبغي لك أن تعتذر. لقد قلت إن العيش معي مستحيل... بالتأكيد... فإنك لم تجعل مؤخراً حياتي سعيدة. أعتقد أنه كان ينبغي لي أن أتوقع بأنه سيترتب علي تفادياً لبعض الصعوبات التي جرها علينا زواجنا... ». نزلت دمعة أخرى عندما توقفت روزموند عن الكلام، فمسحتها بهدوء كما فعلت مع سابقتها.

ألقى ليدجيت بنفسه على الكرسي وقد شعر بالهزيمة. هل كان هناك مكان للاحتجاج في تفكيرها؟ وضع قبعته جانباً، وألقى بأحدى ذراعيه فوق مسند كرسيه، وراح ينظر إلى الأرض لبضع لحظات دون أن يتكلم بشيء.

لقد تغلبت عليه روزموند مرتين.. في المرة الأولى تمثلت في عدم إدراكها لعدالة موقفه، والثانية تتمثل بإدراكها للصعوبات غير المنكرة، التي ظهرت لها في حياتها الزوجية.

على الرغم من أن ازدواجيتها في تعاملها مع شؤون المنزل قد تجاوزت حدود معرفته، ومنعت أسرة بلمديل من معرفتها، فإنها لم تدرك أن تصرفاتها يمكن أن تدعى حقًّا بالخداع والزيف.

إننا لسنا ملزمين بتحديد أفعالنا بحسب تصنيفات صارمة أكثر مما نفعل بموادنا

التموينية وألبستنا. شعرت روزموند بالأسى والحزن، فكان على ليدجيت أن يدرك ذلك.

بالنسبة إليه فتأقلمه مع طبيعتها، التي كانت غير مرنة في انسجامها مع نقيضها، قد وضعه بين فكي كماشة. بدأ يتنبأ بخطر ضياع حبها له والحياة الكئيبة الناجمة عن ذلك. تحفز مشاعره جعل هذا الخوف يتبدى مع أول حركة عنف ناجمة عن غضبه. بالتأكيد كان ذلك تباهياً فارغاً منه لو أنه قال بأنه هو سيدها.

«إنك لم تجعل حياتي مؤخراً سعيدة...!!! الصعوبات التي جرها علي زواجنا...!!!»... كانت هذه الكلمات تخز مخيلته كما يحدث الألم حلماً مبالغاً به. لم يترتب عليه التنازل من أقوى تصميم لديه فقط، بل كان عليه أن يقبل قيود الكراهية المنزلية البغيضة.

قال بعد أن أدار وجهه إليها بنظرة كئيبة: «روزموند...!!! يجب عليك أن تفسحي المجال أمام كلمات الرجل عندما يصاب بخيبة أمل ويثار غضبه. لا يمكن أن يكون لكلينا اهتمامات متناقضة، وأنا لا أستطيع أن أفصل سعادتي عن سعادتك. لو كنت غاضباً منك فذلك يبدو لأنك لا ترين كيف أن الكتمان يفرق بيننا. كيف يمكن لي أن أرغب في القسوة عليك إن كان ذلك من خلال كلامي أو تصرفي؟ عندما أسبب لك الأذى فإنني أسبب ذلك لجزء من حياتي. لا يمكن أن أغضب منك لو كنت صريحة تماماً معي».

«لقد تمنيت فقط أن أمنعك من الانتقال بنا بسرعة إلى حياة البؤس دون ضرورة ملحة». قالت هذا روزموند وقد انهمرت الدموع من عينيها ثانية بعد أن رقت مشاعرها، عندما أدركت أن زوجها قد رق قلبه: «إنه لمن القسوة أن نصاب بالعار هنا بين جميع الناس الذين نعرفهم، وأن نعيش في مثل هذه الحياة التعسة. أتمنى لو مت مع الجنين».

تحدثت وبكت برقة حولت تلك الكلمات والدموع إلى نفوذ متسلط على رجل ذي قلب محب. سحب ليدجيت كرسيه ليضعه قرب كرسيها، وضغط برأسها الصغير إلى حنكه بيده الرقيقة القوية. لقد مسد عليها فقط دون أن يقول شيئاً لأنه ماذا كان هناك لكي يقال...؟ لم يستطع أن يعدها بأنه سيقيها من البؤس المفزع، لأنه لم يستطع رؤية وسيلة مؤكدة بفعل ذلك. عندما تركها ليخرج ثانية، قال لنفسه إن الأمر صعب عليها عشرة أمثال مما هو صعب عليه.. فهو لديه حياة يقضيها خارج المنزل ودائماً يطلب منه القيام بأعمال بالنيابة عن الآخرين. تمنى لو استطاع أن يجد عذراً لكل عيب فيها، ولكن كان من المستحيل عليه وهو في ذلك المزاج المتسامح أن يفكر فيها كما لو كانت حيواناً يتحدر من فصيلة أضعف. في أيّ حال لقد تغلبت عليه.

الفصل السادس والستون

إن الإغواء لهو شأن يا إسكلُس،

أما السقوط فهو شأن آخر.

واحدة بواحدة.

كان لدى ليدجيت سبب وجيه يدفعه للتفكير ملياً في خدمات عيادته الطبية، التي كانت تتضارب مع اهتماماته الخاصة. لم تعد لديه طاقة تكفيه كي يوظفها في بحوثه العلمية والتفكير فيها، ولكن في أثناء قيامه بعمله عند أسرة مرضاه كانت الحاجة إلى اتخاذ القرارات والتعاطف مع المرضى، تثير فيه حافزاً إضافيًّا كان يحتاج إليه كي يخرج من دوامته الداخلية.

لم يكن ببساطة الاستخدام الروتيني الرحيم، الذي يمكن الرجال الساذجين من أن يحيوا حياة كريمة، والرجال التعساء يعيشون بهدوء، من دون الطلب الدائم للتفكير السريع الفوري للأخذ في الاعتبار في حاجة الآخر ومحاولته. عندما ينظر الكثير منا إلى ما انقضى من حياتهم يقولون إن أفضل رجل قبلناه في حياتنا كان الطبيب أو ربما الجرّاح الذي يوجه براعته الجيدة فهمه العميق، إذ لبى حاجتنا إحسانه الخير أكثر مما لو لبته معجزات العاملين.

بعض تلك الرحمات المباركة والمضاعفة كانت دائماً تنزل على ليدجيت أثناء عمله في المستشفى أو في منازل بعض الأغنياء لتخدمه أكثر مما يخدمه المخدر ولتهدئه وتزيل عنه اضطراباته وإحساسه بالتفسخ الفكري.

في أي حال فإن شكوك السيد فيربرذر حول المخدر كانت حقيقة، فتحت وطأة أول ضغوط مغضبة لدى مواجهته لبعض الصعوبات، ولدى إدراكه لأول مرة بأن زواجه إن لم يكن يشبه عبودية العزلة، فلا بد من أن يكون مصدر إجبار له كي يكون محبًّا دون أن يأبه كثيراً لأن يكون محبوباً، فقد تناول مرة أو مرتين جرعة من المخدر، إذ لم تكن لديه رغبة عارمة مورثة

للهروب المؤقت من شبح البؤس والتعاسة. لقد كان قوي البنية إذ كان في استطاعته أن يتناول كميات كبيرة من الخمر، لكنه لم يرغب في ذلك.. فكلما كان يتناول الرجال من حوله الخمر، كان يتناول الماء والسكر، إذ كانت تنتابه شفقة مزرية حتى على المراحل الأولى من متعة تناوله. كذلك كان الأمر بالنسبة إلى لعب القمار، فكان قد حضر كثيراً من مجالات لعب القمار حين كان في باريس، لكنه كان ينظر إليها ويعتبرها مرضاً، فما كان يغويه الربح من وراء اللعب أكثر مما كان يغويه شرب الخمر.. إذ كان يقول لنفسه بأن الربح الوحيد الذي يهتم به هو ذاك الذي يحقق من خلال طريقة إدراك نبيلة وتركيبة معقدة تهدف إلى نتائج خيرة.

الطاقة التي كان يتوق إليها لم تتمثل بأصابع مثيرة، تمسك بكومة قطع نقدية، أو بنصر نصفه همجي ونصفه الآخر أحمق في عيون رجل يكسب بذراعيه فوزًا كاسحاً على عشرين مرافقاً مكتئباً. إلا أنه كما جرب تناول المخدر، بدأ تفكيره يتحول تجاه لعب القمار ليس بسبب رغبة المتعة، بل بسبب نظرة داخلية رافقتها رغبة في الحصول على مال بطريقة سهلة لا تضطره لمسألة الآخرين، ولا تحمله أيّ مسؤولية.

لو كان في ذلك الوقت في لندن أو باريس لربما اقتادته تلك الفكرة، التي تقوم على الحظ، إلى أحد دور القمار لا ليشاهد المقامرين فحسب، بل ليشارك معهم بشغف جماعي، وللسيطرة على مقته بحاجته الملحة إلى الربح إذا ما حالفه الحظ. بعد أن سيطرت عليه فكرة وهمية بطلب المساعدة من عمه ثم استبعدت، وقعت حادثة كانت بمثابة مؤشر قوي على تأثير، يمكن أن يدفعه لاغتنام أيّ فرصة يلعب فيها القمار. كانت تمثل غرفة لعبة البلياردو في حانة جرين دراجون منتجعاً دائماً لمجموعة محددة، كان ينظر لمعظمهم على أنهم رجال يسعون وراء متعهم مثل صديقنا السيد بامبردج. في هذا المكان... تكبد السيد فرِد فنسي المسكين قسطاً كبيراً من دينه الثقيل بسبب خسارته مالاً كثيراً في المراهنة. كان معروفاً بشكل جيد في مدل مارش، أن مالاً كثيراً كان يخسر ويربح بهذه الطريقة، ونتيجة ذلك كانت سمعة حانة جرين دراجون تتمثل في أنها كانت مكانًا للتبذير، فكانت تثير الإغراء في نفوس الكثيرين من المناطق البعيدة ليأتوا إليها. ربما تمنى الزائرون الدائمون، كأعضاء الجمعية الماسونية، لو كان فيها شيء عظيم يحتفظون فيه لأنفسهم، لكنهم لم يكونوا منغلقين، فكثير من الوجهاء وكذلك الشبان كانوا يأتون إلى غرفة لعبة البلياردو ليشاهدوا ماذا يجري هناك.

ليدجيت، الذي يتمتع بقوة جسدية تمنحه القدرة على لعب البلياردو وكان مولعًا باللعبة نفسها، قد حضر مرة أو مرتين خلال أيامه الأولى في مدل مارش، إلى حانة جرين دراجون،

ولكن بعد ذلك لم يعد يستمتع باللعبة، ولم تفتنه الحياة الاجتماعية هناك.

في أيّ حال، وفي مساء أحد الأيام، أراد أن يقابل السيد بامبردج في ذلك المكان، إذ كان تاجر الخيول قد تعهد بإيجاد مشترٍ لحصانه الذي قرر ليدجيت أن يستعيض عنه بحصان أجرة رخيص آملاً في أن يحصل من هذه الصفقة على عشرين جنيهاً، ولا سيما أنه أصبح يهتم بكل مبلغ صغير كي يعينه على بعث الصبر لدى دائنيه. فدخوله إلى غرفة لعبة البلياردو في أثناء مروره قرب الحانة سيوفر عليه بعض الوقت.

لم يصل السيد بامبردج بعد ولكن بالتأكيد سيحضر بعد مرور فترة من الوقت كما قال له صديقه السيد هوروك، فظلّ ليدجيت، ولعب قليلاً بهدف ملء الفراغ. في ذلك المساء كان ينبعث من عينيه شعاع غريب وحيوية غير معهودة كان قد لاحظها مرة على وجهه السيد فيربرذر. حقيقة وجوده الاستثنائية... لاحظها الجميع في الغرفة حيث كان يتواجد كثير من أهالي مدل مارش، فكثير من المشاهدين واللاعبين كذلك كانوا يراهنون بحماس. كان ليدجيت يلعب بشكل جيد، فشعر بثقة، وراح الحضور يراهنون على لعبه، ونتيجة فكرة برقت في ذهنه.. وهي أنه ربما استطاع أن يضاعف المبلغ الذي ينتظره جراء بيعه لحصانه، بدأ يراهن هو على لعبه، وراح يربح مرة تلو الأخرى... دخل السيد بامبردج، لكن ليدجيت لم يلاحظه. لم يكن مبتهجاً بلعبه فحسب، بل كان يفكر جديًّا في السفر في اليوم التالي إلى براسنغ، حيث يزاول لعب القمار على نطاق أوسع، وحيث يلتقط ربما طعماً مضاعفاً، دون أن يقع في شرك السنارة، فهكذا ينقذه من التوسل اليومي.

كان لا يزال يربح عندما دخل زائران.. أحدهما كان أحد أبناء هولي الشبان، الذي حضر لتوه من دراسته للقانون في المدينة، أما الآخر فقد كان فرِد فنسي، الذي كان قد قضى مؤخراً أمسيات عديدة في هذه المكان الذي اعتاد على ارتياده قديماً. ثم دخل إلى اللعب السيد هولي الشاب لاعب البلياردو المحترف، لكن فرِد فنسي، الذي دهش لرؤية ليدجيت وفوجئ لدى رؤيته يراهن مبتهجاً، وقف جانباً.. بعيداً قليلاً من المتحلقين حول الطاولة.

بدأ فرِد مؤخراً يدعم تصميمه بلا هوادة. فقد ظل يعمل لستة أشهر متواصلة من صميم قلبه، بإشراف السيد جارث، ونتيجة انكبابه على تدربه القاسي اقترب من التخلص من جميع عيوب كتابة يده، وربما كان هذه التدريب أحياناً بالنسبة إليه أقل قسوة، لأنه كان يزاوله في المساء في منزل السيد جارث حيث تراقبه ماري، ولكن لأن ماري ظلّت في الأسبوعين الأخيرين مع نسوة فيربرذر في منزل الكاهن، أثناء إقامة الكاهن في مدل

مارش حيث كان يقوم بخطط أبرشية، ولأن فرِد لم يجد شيئاً ممتعاً يقوم به، ذهب إلى حانة جرين دراجون سعياً وراء رغبته في لعب البلياردو، وكذلك رغبته في تداول الحديث حول الخيول والرياضة، وأشياء عامة أخرى. لم يخرج للصيد حتى ولو لمرة في هذا الموسم، إذ لم يكن يملك حصاناً يركبه. وكان يتنقل من مكان إلى آخر برفقة السيد جارث في عربته أو على جواد قصير القامة كان في استطاعة السيد جارث أن يعيره إياه.

لقد بدأ فرِد يفكر في أنه كان من السيّئ أن يظل تابعاً لغيره بأكثر قسوة مما لو كان يعمل كرجل دين. «سأخبرك ماذا يا سيدتي ماري.. إن تعلم مسح الأراضي ورسم المخططات، لهو عمل أشد قسوة من كتابة العظات»... قال متمنياً لو ثمنت ما كان يمر به لأجلها: «أما بالنسبة إلى هرقل وثيسيوس فمعاناتهما لا تعادل شيئاً أمام ما أفعله، فهما كانا يلعبان الرياضة ولم يتعلما كتابة السجلات».

والآن... ولأن ماري قد ابتعدت عن أنظاره لبرهة وجيزة، فإن فرِد، كأي كلب قوي لا يستطيع خلع وثاقه، قد فك قيده وهرب قليلاً دون أن يشاء الذهاب بعيداً ولا مسرعاً، ولا يوجد سبب يمنعه من لعب البلياردو، لكنه كان مقرراً ألا يراهن.

بالنسبة إلى النقود... كان يدور في ذهن فرِد في ذلك الوقت فكرة مشروع بطولي يقوم من خلاله بتوفير الثمانين جنيهاً التي قد قدمها له السيد جارث وذلك ليردها له... لم يكن من السهل عليه القيام به، وذلك من خلال تخليه عن إنفاق المبالغ غير الضرورية، ولا سيما أن كمية فائضة من الثياب كانت متوافرة لديه ولا يترتب عليه مصاريف منزلية، فبهذه الطريقة يستطيع أن يقطع شوطاً لا بأس به، خلال سنة فقط، في طريق سداده التسعين جنيهاً التي سلبها من السيدة جارث يومًا حين كانت تحتاج إليها أكثر من الآن.

في أيّ حال يجب القول إنه في هذا المساء حيث كانت الزيارة الخامسة، التي يقوم بها فرِد مؤخراً إلى غرفة البلياردو، كان في ذهن فرِد، وليس في جيبه، العشرة جنيهات التي أراد توفيرها من مرتبه النصف السنوي... إذ كان يتخيل متعة سداد السيدة جارث الثلاثين جنيهاً في وقت تكون فيه ماري قد عادت إلى المنزل.

كانت تلك العشرة جنيهات في ذهنه كرأس مال يمكن له أن يغامر بها إذا ما توافرت أمامه فرصة رهان جيدة، ولم لا؟ حسناً، مادامت الجنيهات تتطاير أمامه، فلما لا يلتقط بعضها؟ إنه لن يذهب بعيداً في ذلك الطريق ثانية، إلا أن الرجل بطبعه يود أن يثبت نفسه،

وبشكل عام ينطبق هذا على أولئك الذين يجرون وراء متعهم الشخصية، فما عساه أن يفعل في طريق السوء لو أراد أن يمنع نفسه من إمراض ذاته أو استجدائها واستعطافها، أو التحدث بأعلى درجات الضياع التي يمكن أن تسمح بها القدرة البشرية الضيقة النطاق، فذلك ليس لأنه أحمق. لم يدخل فرِد في الأسباب الرسمية، التي هي مصطنعة بطريقة غير دقيقة، وتمثل وخز عودة العادات القديمة ونزوات الشبان، ولكن في ذلك المساء كان يختبئ داخله شعور تنبؤ حتى إنه عندما بدأ يلعب كان عليه أن يراهن أيضاً، وكذلك كان عليه أن يستمتع بشراب البنش، وبشكل عام كان ينبغي له أن يهيئ نفسه على الإحساس بالوهم والتوعك في الصباح، فبمثل هذه الحركة غير المعرفة غالباً ما يبدأ مثل هذا الحدث. إلا أن آخر شيء كان يمكن أن يقع ضمن توقعات فرِد فنسي هو أن يرى زوج أخته الذي كان يعتبره دائماً متزمتاً، وكان يدرك تماماً فوقيته مبتهجاً وهو يراهن تماماً كما لو فعل هو نفسه.

شعر فرِد بصدمة أقوى من أن يحتملها، نتيجة معرفته بأن ليدجيت كان مديناً وأن أباه رفض أن يساعده، فتبددت فجأة رغبته في اللعب. كان التبادل في التصرف غريبًا.. ففرِد ذو الوجه الأشقر والعينان الزرقاوان، الذي عادة ما يكون مبتهجاً وغير مبال ومستعداً دائماً للاهتمام بأي شيء يمكن أن يبعث المتعة، لقد بدا.. لا إراديًا، وقوراً ومنذهلاً كما لو كان قد رأى شيئاً غير لائق، بينما ليدجيت، الذي عادة ما يتمتع بقوة هادئة، ونوع تأمل يبدو أنه كان يختبئ وراء انتباهه الدقيق، كان يتصرف ويراقب ويتكلم بذلك الإدراك الضيق المبتهج، الذي يذكر بحيوان ذي عينين حادتين ومخالب قابلة للانكماش.

ربح ليدجيت ستة عشر جنيهاً جراء مراهنته على لعبه، لكن وصول السيد هولي الشاب قد غير كثيراً من مجرى اللعب، إذ بدأ يلعب بمهارة فائقة، فراح يراهن ضد ليدجيت، الذي انحدرت ثقته العالية بلعبه نتيجة تحدّيه شكوك منافسه. كانت التحدي أعلى درجة من الثقة، لكنه لم يكن متمكناً. تابع مراهنته على لعبه، لكنه بدأ يخسر في أغلب الأوقات، إلا أنه تابع لعبه لأن تفكيره قد حصر ضمن صدع ضيق من اللعب المتهور، فبدأ وكأنه أكثر كسول جاهل بين الحاضرين. أدرك فرِد أن ليدجيت بدأ يخسر بسرعة، فراح يفكر جديًا في خطة يستطيع من خلالها أن يسحب ليدجيت جانباً دون أن يسيء له وربما يقترح له سبباً كي يخرج من الغرفة.

كان يرى الآخرين وهم ينظرون إلى الخروج الغريب لليدجيت عن طبيعته، حتى إنه قد خطر له أنه لو ربت على كتفه ليسحبه جانباً للحظة ربما كان كافيًا كي يوقظه من انهماكه.

لم يستطع أن يفكر في شيء سوى أن يدعي أنه يريد أن يرى روزموند، فأراد أن يعرف ما إذا كانت في المنزل هذا المساء، ولحظة أراد أن ينفذ حيلته الضعيفة، جاءه نادل حاملاً رسالة تقول إن السيد فيربرذر في الطابق السفلي، وإنه يريد التحدث إليه.

دهش فرِد مع قليل من عدم الارتياح، ولكن بعد أن بعث خبراً مع النادل بأنه سينزل مباشرة، ذهب بإبداع جديد إلى ليدجيت، وقال: «هل لي أن أتحدث إليك للحظة؟»، وسحبه جانباً: «لقد أرسل فيربرذر للتو بأنه يريد أن يتحدث إلي. إنه في الطابق السفلي. لقد خطر لي أنك ربما ترغب في معرفة وجوده هناك، وربما كان لديك شيء تقوله له».

اصطنع فرِد هذه الحجة لأنه لم يستطع أن يقول: «إنك تخسر على نحو سيئ، وإنك تجعل جميع الحاضرين يحدقون بك. من الأفضل لك أن تنصرف». لكن الإيحاء ما كان ليخدمه أكثر من هذا. لم يلاحظ ليدجيت وجود فرِد من قبل، فظهوره المفاجئ مع نبأ وجود فيربرذر في الطابق السفلي كان لهما تأثير الصدمة عليه.

قال ليدجيت: «كلا كلا...!! ليس لدي شيء محدد كي أقوله له. إلا أن اللعبة قد انتهت ولابد لي من أن أذهب.. لقد أتيت فقط لأرى بامبردج».

«بامبردج هناك لكنه يشاجر، ولا أعتقد أنه مهيأ للنقاش في أمر ما. انزل معي إلى فيربرذر، أتوقع أنه سيفرح بي، فيمكنك أن تقيني منه». قال هذا فرِد بقليل من الحذاقة.

شعر ليدجيت بالخجل، لكنه لم يستطع أن يقوم بتصرف يوحي بأنه قد شعر بذلك، فلم يرفض رؤية فيربرذر فذهب إلى الطابق السفلي.

في أيّ حال فقد تصافحوا فقط وتحدثوا حول الصقيع، ثم عندما خرج الثلاثة إلى الشارع، بدت على الكاهن رغبة في أن يقول لليدجيت وداعاً، إذ من الواضح أن هدف وجوده الحالي هو أن يتحدث إلى فرِد على انفراد، فقال بلطف: «لقد قاطعتك أيها الشاب لأن لدي حديثًا خاصًا معك. هل ستسير معي إلى كنيسة القديس بوتولف؟».

كانت ليلة جميلة، إذ كانت السماء تمتلئ بالنجوم، فاقترح السيد فيربرذر أن يذهبا إلى الكنيسة القديمة عبر شارع لندن، ثم قال بعدها: «كنت أعتقد أن ليدجيت لم يذهب من قبل إلى حانة جرين دراجون».

قال فرِد: «وكذلك أنا... لكنه قال إنه ذهب هناك ليرى بامبردج».

«ألم يكن يلعب إذاً...؟».

لم يرد فرِد أن يقول الحقيقة لكنه اضطر ليقول: «نعم، كان يفعل ذلك. لكنني أعتقد أن الأمر كان مجرد صدفة، إذ إنني لم أره من قبل هناك».

«إذاً كنت تتردد هناك مؤخراً؟».

«فقط حوالي خمس مرات أو ست».

«أعتقد أن لديك سبباً وجيهاً يمنعك من الذهاب إلى ذلك المكان».

قال فرِد وقد كره أن يلقن بتلك الطريقة: «نعم... إنك تعلم كل ما يتعلق بذلك الشأن. لقد بحت لك بكل ما يعتلج في صدري».

«أعتقد أن ذلك يمنحني الحق كي أتحدث حول الموضوع الآن. كلانا يعلم أن صداقة حميمة تربطنا، أليس كذلك؟ لقد أصغيت إليك، وأنت ستصغين إلي. هل لي أن آخذ دوري لأتحدث عن نفسي...؟».

قال فرِد وقد انتابه حدث لا يبعث إلى الطمأنينة: «إنني في غاية الامتنان لك يا سيد فيربرذر».

«أنا لا أنكر أنك ممتن لي، لكنني سأعترف لك يا فرِد لقد خطر لي أن أبطل الأمر كله، فأظل صامتاً معك الآن. عندما قال لي أحدهم: «لقد عاد فرِد فنسي يتردد إلى غرفة لعب البلياردو كل ليلة، ولن يضبط نفسه بعد الآن». خطر لي أن أفعل عكس ما أفعله الآن.. أي أن أمسك لساني وأنتظر سقوطك ثانية، فأراك تراهن أولا، وثم... ».

قال فرِد بسرعة: «لم أقم بأي رهان...».

«إنني سعيد لسماع ذلك، لكنني أقول إنه قد راودني إن أتفرج عليك فقط وأنت تأخذ المنعطف الخطأ، وتستنفد صبر السيد جارث، ثم تخسر أفضل فرص حياتك... الفرصة التي بذلت لأجلها جهداً كبيراً. يمكنك أن تدرك الشعور الذي انتابني جراء تلك المراودة... إنني متأكد من أنك تعرفه. إنني متأكد من أن إرضاء مشاعرك يقف عائقاً أمام إرضاء مشاعري أنا».

كان هناك توقف قصير، إذ يبدو أن السيد فيربرذر كان ينتظر إقراراً من فرِد في المسألة، كما أن انفعاله العاطفي المدرك قد منح كلماته وقاراً، إلا أنه لا يمكن لشعور أن يهدئ

من روح فرِد.

قال بعد لحظات من التردد.. إذ لم تكن قضية يمكن التباهي بالكرم فيها: «لا يمكن لأحد أن يتوقع مني أن أتخلى عنها».

«من الواضح أنه لا يمكن ما دامت عواطفها معك. إلا أن مثل هذه العلاقات حتى عندما تستمر طويلاً، دائماً تكون عرضة للتغيير. يمكنني أن أدرك بسهولة أنه يمكنك أن تتصرف بطريقة يمكن أن تضر بما يربطها بك... إذ ينبغي أن تتذكر أنها مرتبطة بك بشرط، وفي هذه الحالة يمكن لرجل آخر أن يقنع نفسه بأنه قد استحوذ عليها، فيستطيع بهذه الطريقة أن ينجح بالفوز بحبها وكذلك باحترامها اللذين تكون أنت قد خسرتهما. يمكنني أن أرى بسهولة مثل هذه النتيجة». ثم كرر السيد فيربرذر ذلك مؤكداً: «إن من يتمتع بتعاطف متميز يمكنه أن يغتنم الفرصة على الرغم من وجود العلاقة الطويلة». بدا لفرِد أنه لو كان للسيد فيربرذر منقار ومخالب عوضاً عن لسانه السليط، لما كان مزاجه الهجومي أعنف من ذلك. لقد كانت لديه قناعة مرعبة أن وراء كل هذه العبارات الافتراضية معرفة بأن مشاعر ماري قد تغيرت.

قال بصوت مضطرب: «بالطبع إنني أعلم أنه يمكن للأمر أن ينتهي معي بسهولة. إذا ما بدأت تقارن... ». توقف إذ لم يرغب في أن يفصح عن مشاعره، ثم قال بمرارة: «لكنني كنت أعتقدك صديقاً لي...!!!».

«وهكذا أنا، لذلك ها نحن هنا. إلا أنه قد انتابتني رغبة عارمة كي أكون عكس ذلك. لقد قلت لنفسي:... إذا كان من المحتمل أن ذلك الشاب يقوم بإيذاء نفسه، لماذا يجب عليك أن تتدخل؟ ألست مثله، أولا تكبره بستة عشر عاماً عانيت خلالها من الجوع والحرمان، فتمنحك حقًّا أكبر كي تعوض نفسك ما فاتها؟ إذا كانت أمامه فرصة خسارة أو سقوط، فدع ذلك يحصل له كي تفوز بالفائدة ربما على الرغم من قدرتك على منع ذلك».

كان هناك توقف انتابت فرِد خلاله قشعريرة باردة. ماذا سيأتي بعد ذلك؟ خاف من أن يسمع أن شيئاً قد قيل لماري... فشعر كما لو أنه كان يستمع إلى تهديد أكثر مما هو تحذير. عندما عاد الكاهن ليتحدث ثانية كان صوته قد تغير، فعاد إلى نغمته الطبيعية.

«لكنني أردت مرة شيئاً أفضل من ذلك، فعدت إلى نيتي القديمة... إذ اعتقدت أنه يمكن لي أن أثبت نفسي بها يا فرِد أكثر مما لو بحت لك بما كان يدور في خلدي. أنا الآن...

فهل تفهمني تماماً؟ أريدك أن تحقق السعادة لها وكذلك لك، وإذا ما كان لكلمة تحذير مني نصيب في تحقيق سعادتكما... فقد قلتها».

انخفض صوت الكاهن عندما قال كلماته الأخيرة. كانا يقفان على بقعة من العشب حيث ينعطف الشارع نحو الكنيسة، ثم رفع يده ليبدو وكأنه كان يوحي بانتهاء الحديث. كان قد تأثر فرِد للتو. فشخص قابل جدًّا للتأمل بفعل نبيل، كان قد قال إن هذا التأمل يسبب رجفة في الجسد، ويجعل الإنسان مستعدًّا لحياة جديدة. كمٌّ كبير من ذلك التأثير انتاب فرِد فنسي.

قال قبل أن يتوقف عن قوله: «سأحاول أن أكون كفؤاً... لك وكذلك لها». وفي هذا الوقت استجمع السيد فيربرذر قواه ليضيف قائلاً:

«يجب ألّا تتخيل أنني أعتقد أنها في الوقت الحاضر قد تراجعت عن تفضيلها لك يا فرِد. فليطمئن قلبك، فإذا ما بقيت في الطريق الصحيح، فجميع الأشياء تبقى في الوضع الصحيح».

أجاب فرِد: «لن أنسى في حياتي ما فعلته. لا يمكنني أن أقول ما يستحق القول... إلا أنني سأبذل قصارى جهدي كي لا يذهب فعل الخير سدىً».

«هذا يكفي. وداعاً، وليسعدك الرب».

بهذه الطريقة افترقا، ولكن كلاهما سار طويلاً قبل أن يتواريا عن ضوء النجوم. يمكن تلخيص قسط كبير من تفكير فرِد في هذه الكلمات: «من المؤكد سيكون أمراً جيداً بالنسبة إليها لو تزوجت من السيد فيربرذر... ولكن إذا كانت تحبني أكثر، وكنت زوجاً جيداً...!!!!».

ربما كان ينحصر تفكير السيد فيربرذر بهزة كتف واحدة وكلام واحد قصير: «... إذا ما فكرنا في الدور الذي يمكن لامرأة صغيرة أن تلعبه في حياة رجل.. سيكون التخلي عنها تقليداً للبطولة، وربما يكون الفوز بها بمثابة عقوبة...!!».

الفصل السابع والستون

أما الآن فهناك حرب أهلية تدور داخل الروح،

يفرض العرش المقدس بقرار بسبب الاحتياجات الصارخة،

أما الكبرياء التي هي وزير فخم،

لتوجد تركيباً متواضعاً، وتلعب دور الرسول،

ومقدم الأعذار عن المتمردين الجائعين بلسان منمق.

لحسن الحظ... انتهى ليدجيت بخسارة في غرفة لعبة البلياردو، فما عاد متشجعاً ليجرب حظه ثانية. بل على العكس إذ شعر باشمئزاز يعتمل في نفسه في اليوم التالي حين كان عليه أن يدفع أربعة جنيهات أو خمسة كخسارة إضافية تكبدها نتيجة لعبه، وقد حمل في ذاكرته أبشع صورة رسمها لنفسه ليس من خلال تواجده مع رجال حانة جرين دراجون، فحسب، بل من خلال تصرفه مثلهم أيضًا.

إذا ما وقع فيلسوف في الرهان، يصبح من الصعب تمييزه عن المراهن المادي النزعة.. فالاختلاف سيكون موجوداً بشكل رئيسي في تأمله اللاحق، وليدجيت قد أمل في شيء لا يرغب فيه، فأوحى إليه تفكيره المنطقي كيف يمكن أن يضخم الأمر ليغدو حطاماً من خلال تغيير بسيط للمشهد من حوله.. لو كان مقر قمار رسميًا، ذاك الذي ذهب إليه، حيث يمكن له أن يمسك بالحظ بيديه الاثنتين بدلاً من الإمساك به بالإبهام والسبابة.

في أيّ حال، على الرغم من أن المنطق قد خنق الرغبة في لعب القمار، فإنه بقي الشعور بأنه لو كان متأكداً من محالفة الحظ له لرغب في المقامرة أكثر من الأخذ بالبديل، الذي بدأ يفرض نفسه كأمر محتوم.

ذاك البديل كان يتمثل بطلب من السيد بولسترود. لقد تباهى ليدجيت مراتٍ كثيرةً أمام نفسه وأمام الآخرين، بأنه مستقل تماماً عن السيد بولسترود، وأنه قد كرس نفسَه لأجل

خططه فقط لأنها مكنته من تطبيق آرائه على مهنته ولأجل المصالح العامة.. فكلما تحدثا سوية تشبث بكبريائه متضرعاً بأنه كان يقدم خدمات اجتماعية جيدة،مستغلاً عطاءات مالك المصرف الذي كان ليدجيت يعتبر آراءه تستحق الازدراء، ودوافعه كانت تبدو له دائماً مزيجاً من المتناقضات العبثية... إذ كان يوجد لنفسه عوائق مثالية متينة تمنعه من تقديم أي طلب ضخم يصب في مصلحته الشخصية.

في أيّ حال، في الأيام الأولى من شهر آذار، بدأت شؤونه الخاصة تمر في مأزق حيث يبدأ الرجال يقولون إنهم قد أطلقوا إيمانهم عن جهل، وأن يدركوا أن الفعل الذي كان مستحيلاً عليهم قد أصبح ممكناً بيسر تام.

مع وضع ضمان دوفر القبيح قيد التنفيذ قريباً جدًّا، ومع عجز عيادته عن سداد دينه، وفضلًا عن ذلك، هناك وجهة نظر روزموند اليائسة نتيجة عدم رضاها، والتي كانت تطارده باستمرار، بدأ ليدجيت يرى أنه مضطر لطلب المساعدة من أحد ما، ففي بداية الأمر فكر في الكتابة إلى السيد فنسي، ولكن عندما سأل روزموند، اكتشف أنها قد طلبت من أبيها مسبقاً مرتين، وذلك كما كان يتوقع.

كانت المرة الأخيرة بعد خيبة الأمل التي نجمت عن رسالة السير جودوين، فقد قال الأب بأنه يجب على ليدجيت أن يجد مخرجاً لنفسه. «قال أبي إنه قد مرّ بصعوبات... سنة تلو الأخرى إذ كان يتاجر برأس مال مستدان، وإنه ينبغي له التخلي عن مسؤوليات عديدة. إنه لا يدخر حتى ولو مئة جنيه، بسبب نفقات أسرته. قال: دعي ليدجيت يطلب من بولسترود، فهما دائماً كالكف والقفاز».

حقًّا لقد توصل ليدجيت إلى نتيجة أنه إذ ما انتهى به الأمر إلى وجوب حصوله على قرض دون ضمان، فإن علاقته ببولسترود، التي كانت أفضل من علاقته بأي رجل آخر، يمكن أن تفسح المجال له لتقديم طلبه ليظهر على أنه ليس شخصيًّا بحتاً ؛ فبولسترود قد سبب فشل عيادته، وكذلك كان يوقر عالياً لأن شريكه طبيب.

ولكن من منّا قد قلل من قدره ومكانته لتصل إلى حد الاتكالية كما فعل ليدجيت، دون أن يحاول تصديق أن لديه مطالب يمكن أن تخفف من ذلك السؤال...؟ كان صحيحاً أن اهتمام بولسترود بالمستشفى قد أصابه بعض التراخي، لكن صحته قد تدهورت، فبدا عليه بعض علائم تأثر عصبي شديد، إلا أنه في ما يتعلق بالشؤون الأخرى فهو لم يتغير.. إذ إنه

كان دائماً مهذباً جدًّا، لكن ليدجيت قد لاحظ عليه بروداً لدى زواجه وخلال ظروف أخرى، برود فضله على أي دفء يمكن أن يسود العلاقة التي تربطهما.

أجّل تنفيذ ما نوى عليه يوماً بعد يوم، فعادته في التصرف بحسب استنتاجاته الواهنة تثير اشمئزازه لدى كل نتيجة وتصرف بموجبها. عادة ما كان يرى السيد بولسترود من وقت إلى آخر، لكنه لم يستغل مرة أيّ مناسبة لأجل أهدافه الشخصية.

فكر في لحظة:... سأكتب رسالة، إذ إنني أفضل ذلك على أي حوار مباشر، وفي لحظة أخرى فكر:... كلا... لو كنت أتحدث إليه لكان في استطاعتي أن أنسحب قبل أن يبدي أيّ إشارة رفض.

مرت أيام عديدة دون أن تكتب رسالة ولم يطلب أيّ مقابلة خاصة، ففي انكماشه من خزي اتكاله على بولسترود، بدأ يؤقلم تفكيره بخطوة أخرى، فقد بدأ على الفور يأخذ في الاعتبار إمكانية تنفيذ فكرة روزموند الصبيانية، التي كانت دائماً تثير غضبه، على أن يغادرا مدل مارش دون أن ينظر في ما هو أبعد من تلك المقدمة.

جاء السؤال: «... هل سيشتري أحد العيادة مني الآن حتى بأبخس الأثمان؟ عندها سيكون البيع كتهيئة ملحة للمغادرة».

إلا أنه كان يعترض اتخاذه تلك الخطوة، التي يعتبرها تخلياً جديراً بالازدراء عن عمله الحالي، وانحرافاً مذنباً عن القناة الحقيقية المؤدية إلى نشاط جدير، ليبدأ ثانية دون أيّ وجهة مبررة، عائق يتمثل باحتمال عدم توافر مشترٍ قادر على سداد المبلغ مباشرة. وماذا بعد؟

عندما تصبح روزموند في منزل فقير، على الرغم من وجوده في أكبر مدينة أو في أبعد بلدة، فإنها لن تجد الحياة التي ستنقذها من الكآبة، فتنقذه هو من الملامة، لأنه قد جرها للعيش فيه.

عندما يكون الرجل في أدنى مراتب حظه، يمكن له أن يمكث هناك طويلاً على الرغم من إنجازاته المهنية. وسط المناخ البريطاني لا يوجد تنافر بين التبصر العلمي والمنازل المؤثثة، بل يكون التنافر بشكل رئيسي بين الطموح العلمي وزوجة تعارض مثل ذلك العمل.

إلا أنه بينما كان التردد ينتابه، جاءته فرصة لتقرر عنه؛ إذ أتت رسالة من السيد

بولسترود، يطلب فيها منه أن يحضر إلى البنك ليقابله. كانت قد ظهرت مؤخراً علائم وسوسة المرض على مالك المصرف، وكذلك تراجع في عدد ساعات النوم، ما كان حقًّا عبارة عن مبالغة طفيفة لأعراض تشاؤم اعتيادي كان قد سيطر عليه كجنون مهدد. أراد أن يستشير ليدجيت في ذلك الصباح ودون أي تأخير على الرغم من أنه لم يكن لديه أي شيء يقوله إضافة إلى ما كان قد قاله من قبل.

استمع بشغف إلى ما قاله بولسترود تعبيراً عن مخاوفه على الرغم من أن هذا أيضاً كان مجرد تكرار، وفي هذه اللحظة التي كان فيها بولسترود يتلقى رأياً طبيًّا بإحساس مريح، بدا لليدجيت أمر إثارة حاجة شخصية له أسهل مما كان يتصوره من قبل. كان يلح على بولسترود أن يخفف من تركيزه في عمله.

«لا بد للمرء أن يرى كيف أن الضغط النفسي، مهما كان ضعيفاً، يمكن أن يؤثر في الجسم النحيل». قال هذا ليدجيت في إحدى مراحل استشارته عندما بدأ الحديث يتحول من التركيز في المواضيع الشخصية إلى المواضيع العامة تاركاً أثراً عميقاً لدى حتى الشبان والأقوياء نتيجة القلق الذي يعانون منه لفترة من الزمن: «فأنا بطبيعتي قوي البنية إلا أن تراكماً كثيراً من المشاكل قد هزني جداً مؤخراً».

«أعتقد أن جسماً سريع التأثر كما هي حالتي الآن سيكون عرضة لمرض الكوليرا إذ ما حل في إقليمنا، فما دام قد ظهر هذا المرض في المناطق المجاورة من لندن، فلا بد لنا من أن نطلب الرحمة لوقايتنا منه». قال هذا السيد بولسترود غير قاصد تجنب تلميحات ليدجيت لكنه حقًّا كان منشغلاً بنفسه.

«لقد ساهمت في جميع المناسبات في سبيل وقاية البلدة وهذا أفضل سبيل تطلب فيه الوقاية»... قال هذا ليدجيت بامتعاض شديد قد أثارته فيه الاستعارة المثلومة والمنطق الديني السيئ لمالك المصرف ما زاد من قوة تبلد تعاطفه، إلا أن تفكيره قد عاد ليعمل على ما هيأ له طويلاً في طلب المساعدة، فهو لم ينجز مهمته بعد، فأضاف قائلاً: «لقد أحسن أهالي البلدة عندما قاموا بالتطهير، وإيجاد طرق ووسائل لذلك، فأنا أعتقد أنه إذا ما حلت الكوليرا بيننا، فحتى الأعداء سيعترفون أن التحضيرات في المستشفى هي على مستوىً جيد».

قال السيد بولسترود بقليل من البرود: «حقاً...؟؟»

«في ما يتعلق بما تقوله يا سيد ليدجيت حول الاستراحة من جهد التفكير، فقد مرّ عليّ بعض الوقت وأنا أتأمل بهدف يتعلق في هذا الشأن... هدف من نوع حاسم. إنني أفكر، على الأقل، في انسحاب مؤقت من إدارة كثير من الأعمال الخيرية والتجارية على حد سواء. كما أنني أفكر أيضًا في تغيير مقر إقامتي لبعض الوقت.. فربما سأغلق أو أؤجر مقر إقامتي الحالي واتخذ مقرًّا جديداً في الساحل البحري... بالطبع ذلك بموجب نصيحة صحية. هل تزكي إجراءً مثل هذا؟».

«آه... نعم». قال ليدجيت وهو يسند ظهره إلى كرسيه، لكنه لم يستطع أن يكبح صبره أمام نظرات عيني مالك المصرف الشاحبة وانشغاله المسبق بنفسه.

«كنت أشعر لمدة من الزمن أنه ينبغي لي أن أفتح معك الموضوع المتعلق بمستشفانا». تابع بولسترود: «فبموجب الظروف التي أوضحتها آنفاً، سأجمد بالطبع جميع مساهماتي في الإدارة، فهي على عكس قناعاتي في ما يتعلق بالمسؤولية، بأن أتابع مهامّ ضخمة ترتبط بهيئة لا أستطيع متابعتها عن كثب، ولا التحكم بها على قدر كافٍ، لذلك في حالة اتخاذ قرار مغادرة مدل مارش، فإنني سأسحب دعمي للمستشفى الجديد، باستثناء ما يبقي على حقيقة أنني قد قدمت المساهمة الرئيسية في سبيل إنشائه، وكذلك مبالغ طائلة أخرى في سبيل نجاح عمله».

فكر ليدجيت عندما توقف بولسترود عن الكلام كعادته:.. «ربما خسر مالاً كثيراً»... فقد كان هذا أكثر التفسيرات عقلانية لحديث قد أحدث أكبر تغير مفاجئ لتوقعاته، فقال مجيباً: «أخشى أن يكون من الصعب تعويض خسارة المستشفى».

أجاب بولسترود بالنبرة نفسها الفصيحة المتعمدة: «من الصعب... باستثناء تغيير بعض الخطط. فالشخص الوحيد الذي يمكن أن يعول عليه هي السيدة كزابون، ولا سيما أنها ترغب في زيادة مقدار مساهمتها. لقد قابلتها لأتحدث معها حول الموضوع، ولقد أشرت إليها، كما سأشير إليك أيضاً، أنه سيكون من الجدير لو تم كسب دعم عام لصالح المستشفى الجديد من خلال تغيير في النظام». صمت ثانية لكن ليدجيت لم يتكلم.

«التغير الذي أعنيه هو الدمج بين المستشفيين ليصبحا المستشفى الجديد... طبعاً بالإضافة إلى المستشفى القديم... يقوم على إدارته مجلس الإدارة نفسه. سيكون من الضروري أيضًا أن تدمج إدارة المستشفيين الطبية. بهذه الطريقة ستزال كل الصعوبات التي

يواجهها مستشفانا الجديد، فالمصلحة الخيرية للبلدة لن تظل مجزأة». توقف بولسترود عن الكلام ثانية، ثم حول نظره من وجه ليدجيت إلى أزرار معطفه.

قال ليدجيت بنوع من السخرية ظهرت في نبرة صوته: «لا شك في أن هذا إجراء جيد... ولكن لا يمكن أن يتوقع مني أن أنضم إلى ذلك مباشرة، ولا سيما أن أحد الأطباء سيكون مصدر إزعاج أو مقاطعة لطرق معالجتي فقط لأنها تخصني».

«بالنسبة إلي يا سيد ليدجيت، وكما تعلم... فإنني ثمّنت جدًّا فرصة الإجراءات الجديدة والمستقلة التي وظفتها بكد واجتهاد.. فإنني أعترف أن الخطة الأصلية، التي دعمتها من صميم قلبي، تنسجم تماماً مع مشيئة الرب، ولكن ما دامت الدلائل الإلهية تتطلب مني الاعتزال فإنني سأفعل ذلك».

أبدى بولسترود سخطاً وغضباً في هذه المحادثة، فالاستعارات المثلومة والدوافع المنطقية السيئة، قد أثارتا ازدراء من كان يستمع إليه كما كانتا منسجمتين مع طبيعة عرض الحقائق، مما سبب صعوبة لليدجيت كي يفرغ سخطه وخيبة أمله، بعد إظهار انطباع سريع، اكتفى بالسؤال:

«ماذا قالت السيدة كزابون...؟».

قال بولسترود الذي هيأ شرحه الكهنوتي: «هذه النقطة الثانية التي أردت أن أعرضها عليك. كما تعلم فإنها امرأة سخية جدًّا وتكرم بسرور. إنها لا تملك ثروة طائلة كما أعتقد، لكن لديها دخلاً كبيراً تستطيع أن تستغني عن قسط منه. لقد أخبرتني أنه على الرغم من أنها قد خصصت قسطاً كبيراً منه لأغراض أخرى... فإنها ترغب في التفكير في ما إذا كانت تستطيع أن تحل محلي بالنسبة إلى المستشفى، إلا أنها تحتاج إلى وقت كاف كي تفكر مليًّا في الأمر، كما أنني أخبرتها أن ليس هناك من حاجة ملحة للتسرع، ولا سيما أن خططي لم تقر بعد».

كان ليدجيت جاهزًا للقول: «إذا ما أخذت السيدة كزابون مكانك، فسيكون هناك مكسب عوضاً عن الخسارة»... إلا أن تفكيره كان متثاقلاً مما قيد ذلك الإخلاص الفرح، فأجاب: «أفترض أنه يمكنني أن أناقش الأمر مع السيدة كزابون».

«تماما، فهذا ما عبرت به عن رغبتها، وقد قالت: إن قرارها سيرتكز كثيراً على ما ستقوله أنت، ولكن ليس في الوقت الحاضر.. فهي على ما أعتقد قد انطلقت للتوفي رحلة،

وها هي رسالة منها قد تلقيتها».. قال السيد بولسترود وهو يخرجها من جيبه ليقرأ منها: «إلا أنني منشغلة في الوقت الحاضر.. فأنا ذاهبة في رحلة مع السير جيمس والسيدة جثم إلى يوركشاير، لأطلع على أرض هناك، وربما سيؤثر هذا في مساهمتي في المستشفى... هكذا يا سيد ليدجيت وكما ترى فلا حاجة إلى التسرع في الأمر، لكنني رغبت في أن أطلعك مسبقاً على ما يمكن أن يحصل في المستقبل».

أعاد السيد بولسترود الرسالة إلى جيبه، وغير من وضعيته وكأنه قد فرغ من شؤون عمله. أما ليدجيت، الذي تجدد أمله في المستشفى، قد أصبح أكثر إدراكًا للحقائق التي يمكن أن تسمم آماله، فشعر أن سعيه وراء طلب المساعدة... إذا ما كان ينبغي القيام به، يجب أن يتم الآن وبقوة.

«إنني ممتن لك جدًّا لأنك قد أطلعتني على الأمر تماماً». قال هذا بنبرة تصميم... إلا أنه كان تلعثم في إلقائه، مما أظهر نوعاً من عدم الرغبة في الحديث: «... الهدف الأسمى بالنسبة إلي هو مهنتي، ولقد هيأت المستشفى على أفضل وجه ممكن مستعيناً بأقصى طاقات مهنتي، إلا أن الاستخدام الأفضل لا يكون دائماً في المستوى نفسه للنجاح العملي. كل سبب يجعل المستشفى غير معروف، بالإضافة إلى أسباب أخرى ترتبط بالحماس المهني، قد ساهمت بجعلي طبيباً غير مشهور.. فمعظم مرضاي لا يستطيعون دفع أجور معالجتهم، وأنا كنت سأحبهم أكثر وأسامحهم عن ذلك، لو لم يترتب علي أن أدفع لغيرهم». انتظر ليدجيت قليلاً، لكن بولسترود طأطأ رأسه فقط، ثم نظر إليه بثبات ليتابع قائلًا بذات التلكؤ والتلعثم، وكأنه كان يعض على نبات الكراث غير المرغوب فيه.

«لقد وقعت في ضائقة مالية، وأنا لا أجد مخرجاً من ذلك المأزق ما لم يقدم لي أحد، يثق بي وبمستقبلي، دينًا بلا ضمان. كان قد بقي لدي قليل من المال عندما قدمت إلى هذه البلدة، ولا يوجد أحد من أسرتي يستطيع أن يعيلني ماديًّا، فنفقات زواجي كانت أعلى بكثير مما توقعت، والنتيجة في هذه اللحظة هي أنني أحتاج إلى مبلغ قدره ألف جنيه كي أسدّد جميع ديوني.. أعني أن يخلصني من خطر بيع أثاث منزلي وممتلكاتي الأخرى، وكذلك أستطيع أن أسدّد جميع ديوني الأخرى، ثم يبقى لي القليل منه كي يعيننا، بالإضافة إلى دخلي البسيط، على سداد مستلزمات حياتنا. إنني أرى أن من غير الوارد أن يقوم والد زوجتي بتقديم مثل هذا المبلغ، ولهذا السبب فإنني أشرح وضعي لك، ولا سيما أنك الوحيد الذي ربما كان له ضلع في التأثير على رفاهيتي أو دماري..». كره ليدجيت سماع نفسه، لكنه قد تحدث الآن بطريقة مباشرة لا تحتمل الخطأ. أجاب السيد بولسترود بلا تسرع... ولكن

أيضاً بلا تردد:

«يؤسفني هذا جدًّا يا سيد ليدجيت على الرغم من عدم دهشتي لسماع ذلك. من جهتي، فأنا آسف لارتباطك بأسرة شقيق زوجتي، الذين كانت لديهم دائماً عادات التبذير والإسراف، وهم دائماً مدينون لي كي يبقوا في وضعهم الحاضر. نصيحتي لك يا سيد ليدجيت هي أن تشهر إفلاسك عوضاً من أن تضع على نفسك التزاماتٍ جديدة، فتظل تعاني من صراع مريب».

قال ليدجيت بمرارة وهو ينهض: «هذا لن يحسّن من وضعي... حتى لو أكثر شأن مقبول بذاته».

قال بولسترود: «إنها دائماً محاولة... والمحاولة يا سيدي العزيز هي نصيبنا في هذه الحياة، فهي طريقة تصحيح مطلوبة. إنني أرشح لك أن تثمن النصيحة التي قدمتها لك».
قال ليدجيت دون أن يعي ما قاله تمامًا: «شكراً... لقد شغلتك أكثر مما ينبغي. طاب يومك».

الفصل الثامن والستون

أي ثوب من الحسن يناسب الفضيلة...

إذا ما اكتست الرذيلة كذلك رداء الحسن وأجادت التصرف..؟

إذا ما الخطيئة والمكر والحماقة أجادت التصرف،

وكانت غاياتها جديرة بالثناء؟

فجميع هذه الأحداث الهائلة،

يتحكم بها العالم بقوة، وتثبت من خلال جميع الأجيال

أن الصراحة والوضوح يظلّان أفضل طريق للنجاح.

ألا ينبغي للتجربة الرزينة والعلمية، التي تنظر

بجميع عيون العالم من حولها،

ومن خلال جميع العصور التي تتمتع بالذكاء،

أن تتحقق بمأمنٍ من الخداع دون دليل!

من كتاب مسْفيلوس للكاتب دانيال.

ذلك التغير في الخطة، والتحول في الاهتمام، اللذان أوضحهما بولسترود أو أخفاهما في حديثه مع ليدجيت، قد اعتلجا في داخله نتيجة تجربة قاسية قد مر بها منذ زمن بيع أثاث منزل السيد لارجر، عندما تعرف رفلز إلى لادسلو، وعندما قدم مالك المصرف عرضه لإعادة جزءٍ من الإرث دون جدوى، آملاً في تحقيق العناية الإلهية، ومنع العواقب المؤلمة من الوقوع.

تأكده... من أن رفلز ما لم يمت، سيعود يوماً إلى مدل مارش قبل مرور زمن طويل...

كان مبرراً ؛ ففي ليلة عيد الميلاد المجيد ظهر ثانية في منزل مالك المصرف.

كان بولسترود في منزله ليستقبله، فمنعه من الالتقاء بأفراد أسرته، لكنه لم يستطع أن يمنع ظروف الزيارة من أن تعرض نفسه للشبهة وزوجته من القلق ؛ فقد برهن رفلز على أنه، في أثناء تلك الزيارة، كان أصعب من أن يسيطر عليه...؟

فاضطرابه النفسي المزمن، والتأثير المتفاقم لإدمانه على المسكرات كانت تهز بسرعة جميع أنواع تعابيره كلما وجه إليه أي كلام. أصر على بقائه في المنزل، وعندما فكر بولسترود في مخرجين.. كلاهما شر، فاعتقد أن هذا ليس هو المخرج الأسوأ.. إذ هو أقل شراً من ذهابه إلى البلدة، فأبقاه في غرفته طوال المساء حتى اصطحبه إلى الفراش، بينما كان رفلز طوال ذلك الوقت يمتع نفسه من خلال إزعاج ذلك المذنب الثري والوقور.. متعة كان يعبر عنها زيفاً، كالتعاطف مع متعة صديقه لاستضافته رجلاً كان قد قدم له خدمات جلّى، لكنه لم يتلق ثمنها. كانت هناك حسابات ماكرة تختبئ خلف ذلك المزاح الصاخب، إذ كان هناك تصميم خفي على الحصول على ثمن أكبر من بولسترود، مقابل تحريره من ذلك التعذيب الجديد، لكنه مكره هذا كان خفيًّا.

كان بولسترود يعذب حقًّا أكثر مما كانت طبيعة رفلز الخشنة تسمح له بالتخيل. لقد أخبر زوجته أنه كان ببساطة يهتم بهذا المخلوق البائس الذي وقع ضحية للرذيلة لئلا يؤذي نفسه، وقد ألمح لها، دون أن يكذب عليها بشكل مباشر، أن هناك رابطاً أسريًّا يجبره على تقديم تلك الرعاية له، وأن هناك مؤشرات تدل على اضطراب عقلي لدى رفلز يستدعي الحيطة والحذر.

كان عليه أن يقتاد ذلك المخلوق السيّئ الحظ في الصباح التالي. لقد شعر من خلال تلك التلميحات، أنه كان يزود السيدة بولسترود بتعليمات احترازية كي تنقلها إلى بناته وخدمه، فلا يدخل أحد إلى الغرفة سواه حتى لأجل تقديم الطعام والشراب.

جلس يصارع ألم الخوف من أن يسمع صوت رفلز القوي وهو يتحدث حول حقائق الماضي بوضوح، مما يجذب السيدة بولسترود للاستماع بالقرب من الباب. كيف له أن يمنعها من ذلك، وكيف له أن يخدع خوفه بفتحه للباب ليتأكد من وجودها؟ لقد كانت امرأة ذات عادات صريحة ونزيهة، فليس من المرجح لها أن تقوم بمثل هذا التصرف المتدني المستوى، كي تحصل على هذه المعلومات المؤلمة، لكن الخوف كان أقوى من حساب الاحتمالات.

هكذا دفع رفلز بالمعذب إلى أبعد مما ينبغي، وابتكر تأثيراً لم يكن في خطته.. فمن خلال إظهاره لمحاولات السيطرة عليه باليائسة، جعل بولسترود يشعر أنه لم يبق له ملجأ سوى الدفاع القوي. بعد أن أخذ رفلز إلى فراشه في تلك الليلة، أمر بولسترود كي تكون عربته المغلقة جاهزة في الساعة السابعة والنصف من صباح اليوم التالي.

وفي الساعة السادسة من ذلك الصباح كان قد ارتدى ثيابه، ونفس عن بعض كربه في أثناء تقديمه الصلوات مدافعاً عن محرضاته في تجنبه أسوأ الشرور إذا ما كان قد استخدمها على نحو خاطئ، أو تكلم زيفاً وكذباً أمام الرب، إذ كان بولسترود يتجنب الكذب الصريح الذي لا يتكافأ مع بعض خطاياه غير المباشرة.

إلا أن كثيراً من هذه الخطايا تشبه الحركات العضلية البارعة، التي لا يؤبه لها في مجال الوعي، على الرغم من أنها تأتي بالنهايات التي تشغل أذهاننا ونرغب فيها، فما نستطيع إدراكه بحيوية، فقط هو ما نستطيع أن نتصور بقوة أن العلم غير المحدود يستطيع الإطلاع عليه.

حمل بولسترود شمعة مشتعلة إلى جانب السرير الذي كان ينام فيه رفلز، والذي كان من الواضح يستغرق في حلم مؤلم. وقف صامتاً متمنيًا أن يوقظ ضوء الشمعة ذلك النائم تدريجاً وبلطف، فقد خشي أن تحدث الضجة صدمة إيقاظ مفاجئة. وقف ينظر لدقيقتين أو أكثر إلى الارتجاف واللهاث، الذي كان من الواضح أنه سينتهي باستيقاظ رفلز الذي كبت أنينه المخنوق عندما انتفض وراح يحملق من حوله مرتجفاً ولاهثا في رعب، إلا أنه لم يضف إلى ذلك ضجة أخرى، فوضع بولسترود الشمعة منتظراً إياه كي يستعيد كامل وعيه.

مضت ربع ساعة قبل أن يقول بولسترود بأسلوب آمر لم يبده من قبل،

«جئت لأوقظك في هذا الوقت المبكر يا سيد رفلز، لأنني قد أمرت كي تكون العربة جاهزة في الساعة السابعة والنصف، وإنني أنوي مرافقتك إلى أيلسلي حيث يمكنك أن تأخذ القطار، أو تنتظر عربة أجرة»... كان رفلز ينوي التكلم إلا أن بولسترود قد سبقه بتغطرس... قائلاً: «اصمت يا سيدي، واستمع إلى ما سأقوله... إنني سأزودك بالنقود الآن، وإنني سأدفع لك مبلغًا بين الآونة والأخرى بموجب طلب منك ترسله لي برسالة، ولكن إذا ما اخترت أن تظهر هنا ثانية، وإذا عدت إلى مدل مارش ثانية، وإذا ما استخدمت لسانك بأسلوب يسيء إليّ، فإنك ستقطف ثمار حقدك دون أي مساعدة تتلقاها مني. لن يدفع لك

أحد مقابل تشويه اسمي.. فإنني أعرف أسوأ ما تستطيع فعله ضدي، وإنني سأواجه ذلك بشجاعة إذا ما تجرأت وألقيت بعبئك علي ثانية. انهض يا سيدي، وأفعل ما آمرك به دون ضجة... وإلا أرسلت وراء رجل الشرطة كي يخرجك من منزلي، عندها يمكنك أن تروي حكايتك في جميع حانات البلدة، لكنك لن تحصل مني على ستة بنسات كي تدفع ثمن شرابك هناك».

نادراً ما تحدث بولسترود في حياته بمثل هذه الطريقة الانفعالية.. إذ فكر كثيراً في كلامه هذا وفي إمكانية تأثيره طوال الليل، وعلى الرغم من أنه لم يثق بالبديل الذي يمكن أن ينقذه من عودة رفلز ثانية، فإنه انتهى بنتيجة كان فحواها أن ذلك لهو أفضل ضربة يمكن أن يسددها. لقد نجحت هذا الصباح بإخضاع الرجل المنهك، إذ انزوى نظامه المسموم أمام تصميم بولسترود الصلب، فركب بهدوء في العربة قبل وقت إفطار العائلة.

لقد تصوره الخدم أحد أقرباء بولسترود الفقراء، ولم يدهشوا نتيجة رؤيتهم رجلاً صارماً، كسيدهم، يرفع رأسه عالياً في السماء، قد أصابه بعض الخجل من مثل هذا القريب، فأراد التخلص منه.

لقد كانت الرحلة التي قام بها مالك المصرف مع الصحبة المقيتة على طول الأميال العشرة بداية حزينة وكئيبة ليوم عيد الميلاد المجيد، ولكن في نهاية الرحلة استعاد رفلز قواه، وفارقه برضاه لأن مالك المصرف قد أعطاه مئة جنيه. لقد أجبرت بولسترود دوافع عديدة على هذا السخاء، لكنه لم يفكر فيها مليًّا عن كثب.

بينما كان واقفاً ينظر إلى رفلز وهو نائم، لقد خطر له بالتأكيد أن صحته قد تدهورت منذ أن تلقى أول مرة مئتي جنيه. لقد أولى اهتماماً خاصًا بتكراره للقرار الذي اتخذه، وأن لا يستهان به ثانية، وحاول أيضًا أن يدخل في ذهن رفلز حقيقة تقديم الرشوة له... لهي تساوي مغامرة تحديه. بعد أن تحرر من حضوره المثير للسخط، عاد بولسترود إلى منزله الهادئ، إلا انه لم يعد بثقة على أنه قد حصل على أكثر من فترة راحة. كان الأمر بالنسبة إليه وكأنه قد مرّ بحلم كريه، ما عاد يقدر على التخلص من تذكر صوره والمشاعر الكريهة التي ترافقها، فبدا وكأن أفعى خطيرة قد تركت آثاراً كريهة على كل شيء جميل في حياته ومن حوله.

من يعلم كم من عالمه الداخلي تصنعه أفكار... يؤمن أن رجالاً آخرين قد حملوها تجاهه حتى أصبح ذلك النسيج الفكري مهدداً بالدمار؟

كان بولسترود وحده الأكثر إدراكاً أن شكوكاً كانت تعتلج في ذهن زوجته، لأنها تجنبت بحذر شديد أي تلميح لها.

اعتاد أن يتذوق طعم الفوقية في كل يوم، وتقديم الاحترام التام، كما أن يقينه بأنه كان يراقب بشك خفي... على أنه كان يحتفظ لنفسه بسر مشكوك فيه، قد جعل صوته يترنح كلما تحدث عن التثقيف والتهذيب. إن تنبؤ الرجال بمزاج بولسترود القلق لهو أسوأ من رؤيتهم له ؛ فخياله قد زاد باستمرار حرارة كربه من العار الجلي.

نعم إنه جلي لأنه إذا لم ينجح تحديه لرفلز بإبقاء الأخير بعيداً منه.. على الرغم من أنه قد صلى كثيراً لأجل تلك النتيجة، التي ما كان يرغب فيها، لقد كان العار مؤكداً.

قال لنفسه، عبثاً، إنه لو كان مسموحاً به، لكان عقاباً وتأديباً إلهيًّا، فارتد عن الاحتراق المتخيل، كما أنه اقتنع بأنه لأجل المجد الإلهي لا بد له من أن يهرب من العار.

ذلك الارتداد اضطره أخيرًا كي يقوم بترتيبات الانتقال من مدل مارش، فإذا ما انتشر نبأ الحقيقة الشريرة عنه، فهو سيكون عن مسافة قصيرة من الاحتراق، الذي يسببه له ازدراء جيرانه القدماء واحتقارهم، بينما إذا ما كان في مكان جديد حيث لا يكون له فيه معارف واسعة مع كثير من الأهالي هناك، وإذا ما طارده معذبه هناك فهو سيكون أقل تعذيباً له.

إنه يعلم أن ترك المكان أخيراً سيكون مؤلماً جدًّا بالنسبة إلى زوجته، وأنه لو لم يكن مضطرًا لفضل البقاء حيث أنبت لنفسه جذورًا عميقة، لذلك جعل ترتيبات انتقاله في البداية مشروطة، متمنيًّا أن يدع جميع الأبواب مفتوحة أمام عودته بعد غياب قصير، إذ ما تدخلت العناية الإلهية وبددت مخاوفه.

كان يهيئ لنقل إدارة المصرف وللإقلاع عن جميع الشؤون التجارية متذرعاً بتدهور صحته، ولكن دون أن يستبعد عودته في المستقبل إلى العمل. سيسبب له هذا الإجراء بعض النفقات الإضافية وتراجعاً في عائداته أكثر من ذلك الذي أصابه جراء الركود التجاري والعبء الذي ألقاه عليه المستشفى الذي شكل بالنسبة إليه هدفاً مبدئيًّا.

شكلت هذه المواضيع مضموناً لحواره مع ليدجيت، ولكن في هذه المرة لم يذهب بترتيباته أبعد من أن تكون مرحلة يمكنه العودة إليها إذا ما ثبت أنها لم تكن ضرورية، فهو

ظل دائماً يؤجل الخطوات النهائية.. فوسط مخاوفه، كسائر الرجال، كان، كمن يعاني من خطر تحطم السفينة، أو خطر وقوعه من على العربة نتيجة هروب الخيل التي تجرها، ينتابه شعور التشبث بأن شيئاً لا بد من أن يحصل كي يمنع وقوع الأسوأ، فيكون إفساد حياته من خلال انتقال متأخر ومتسرع جدًّا خصوصًا أن ذلك الانتقال يشكل صعوبة في طريق إقناع زوجته بمشروع نفيهم الدائم من المكان الوحيد الذي تحب العيش فيه.

من بين الشؤون التي كان على بولسترود أن يهتم بها في حال غيابه كانت مزرعة ستون كورت بالإضافة إلى جميع الشؤون التي تتعلق بملكياته في مدل مارش، فقد استشار في ذلك الشأن السيد جارث ؛ إذ كما هو الشأن بالنسبة إلى كل من لديه مثل هذه الأملاك، كان يرغب في أن يكون لديه مدير يعنى بمصالح موكله، أكثر مما يعنى بمصالحه الخاصة.

بالنسبة إلى ستون كورت، فبما أن بولسترود كان يرغب في إبقائها ضمن ملكياته، ويضع ترتيبات بموجبها يواصل استمتاعه بالإشراف عليها وإدارتها لو أراد ذلك. لقد نصحه السيد جارث أن لا يعهد بإدارتها إلى وكيل المزرعة بل أن يؤجرها بموجب عقد سنوي، ويحتفظ بنصيب لنفسه في إدارتها.

قال السيد بولسترود: «هل لي أن أعتمد عليك بإيجاد مستأجر ضمن هذه الشروط يا سيد جارث...؟؟ وهل لك أن تذكر لي الأجرة السنوية التي تكفي سداد أتعاب إدارتك لهذه الشؤون الذي ناقشناها من قبل...؟».

قال السيد جارث بطريقته الباردة: «سأفكر في هذا الأمر. سأنظر كيف يمكن لي أن أحل هذه المسألة...؟».

لو لم يكن يفكر في مستقبل فرِد فنسي، ربما لما فرح السيد جارث بأعمال إضافية كانت تخشى عليه زوجته منها، ولا سيما أنه كان يتقدم في عمره، ولكن لدى مفارقته بولسترود بعد أن أنهى حديثهما خطرت له فكرة حول تأجير هذه المزرعة.

ماذا لو وافق بولسترود على وضع فرِد فنسي هناك بإدارة كيلب جارث؟ لكان ذلك فرصة تدريب ممتازة لفرد، ولحصل على دخل معقول جراء ذلك، ولبقي لديه وقت إضافي يمكنه من المساعدة في أعمال أخرى.

لقد ذكر فكرته هذه للسيدة جارث بابتهاج واضح حتى إنه قد صعب عليها أن تفسد عليه تلك المتعة بتعبيرها عن خوفها المستمر من تعهده بمسؤوليات جمة.

قال وهو يسند ظهره إلى كرسيه بينما كان وجهه يشع ضياءً: «ستكون فرحة الشاب مضاعفة...! تخيلي يا سوزان لو استطعت أن أقول له إن الأمر قد بت فيه! ولا سيما أن تفكيره كان ينصب دائماً حول تلك المزرعة قبل أن يموت فيذرستون بسنوات طويلة، فستكون عودة المزرعة بالنسبة إليه أمراً جميلاً، وكأنه قد فرض سيطرته عليها بطريقة كادحة بعد كل ما حصل، وذلك من خلال دخوله مضمار الأعمال الحرة، ومن المرجح أن بولسترود سيقبل به، ومن ثم تدريجاً يشتري الأسهم. أستطيع القول إنه لم يقرر بعد ما إذا كان سيتخذ مكاناً آخر مقرًّا دائماً له. إنني لم أفرح في حياتي بفكرة كهذه، فهكذا يمكن لهما أن يتزوجا يا سوزان».

قالت السيدة جارث بنبرة تحذير لطيفة: «لا تلمح بالفكرة إلى فرِد، حتى تتأكد من أن بولسترود سيوافق على الخطة.. أما بالنسبة إلى الزواج يا كيلب فنحن المتقدمون في السن لا ينبغي لنا التعجل بالأمر».

قال كيلب مشيحاً بوجهه جانباً: «آه... إنني لا أعلم. إن الزواج لأمر مروع، وفرِد سيحتاج قليلاً إلى حكمتي وشكيمتي. في أيّ حال فأنا لن أقول شيئاً حتى أعرف الأرض التي أقف عليها، فأنا سأتحدث إلى بولسترود ثانية».

لقد انتهز أول فرصة كي يقوم بذلك، وما كان شيء أحب لبولسترود من اهتمامه بابن أخ زوجته فرِد فنسي، ولكن كانت لديه رغبة عارمة كي يؤمن إشراف السيد جارث على كثير من جوانب العمل المتفرقة الكثيرة التي كان متاكداً من أنه سيكون خاسراً لو كانت بإدارة أقل تدبيراً من إدارة السيد جارث، فعلى هذا الأساس لم يبد أي معارضة على اقتراح السيد جارث، كما كان هناك اعتبار آخر يجعله غير آسف على موافقته.. إذ إن ذلك يعود بنفع على أحد أفراد عائلة فنسي.

بعد أن علمت السيدة بولسترود بديون ليدجيت راحت تبحث قلقة كي تعلم ما إذا كان زوجها قادراً على تقديم خدمة لروزموند المسكينة، كما أن معرفتها بأن متاعب ليدجيت المالية يصعب حلها قد أتعبها كثيراً، فأصبحت الخطة الأكثر حكمة بحسب رأي السيد بولسترود: «... فليدبرا شؤونهما بنفسيهما». ثم قالت السيدة بولسترود للمرة الأولى:

«إنني أعتقد أنك قاس بعض الشيء على أسرتي يا نيكولاس، وإنني متأكدة من أنه لا يوجد شيء يستدعي إنكاري لأسرتي. ربما كانوا منفتحين أكثر مما ينبغي، ولكن ما كان لأحد أن يقول بأنهم غير محترمين».

قال السيد بولسترود متألماً أمام عيون زوجته التي اغرورقت بالدموع: «يا عزيزتي

هاريت، لقد قدمت لأخيك كثيراً من النقود، ولا يتوقع مني أن أهتم بأبنائه المتزوجين»... بدا ذلك حقيقيًّا، فتحول احتجاج السيدة بولسترود إلى عطف تجاه ابنة أخيها المسكينة، التي كانت تتنبأ لها بقطف ثمار تعليمها المبذر.

إلا أنه لدى تذكره ذلك الحوار، شعر السيد بولسترود بأنه عندما ينبغي له أن يخبر زوجته بخطة رحيله عن مدل مارش، سيكون سعيداً كي يخبرها أنه قد وضع ترتيبات ربما تكون لصالح ابن أخيها فرِد. في الوقت الحاضر قال لها فقط إنه ينوي ترك منزله لبضعة أشهر، وأخذ منزل جديد على الساحل الجنوبي.

هكذا حصل السيد جارث على التأكيد الذي كان يرغب فيه.. أي في حال مغادرة السيد بولسترود مدل مارش لوقت غير محدود، فإن فرِد فنسي سيحصل على عقد إيجار ستون كورت بحسب الشروط المقترحة. كان كيلب مبتهجاً جدًّا للأمل الذي نجم عن سير الأحداث حتى لو أن تحكمه بنفسه لم يؤثر فيه تعنيف زوجته العاطفية، لباح بكل شيء لماري بهدف إسعادها وراحتها. في أيِّ حال فقد كبح جماح نفسه، فأبقى زيارته إلى ستون كورت سرية عن فرِد فنسي. بغية التدقيق والتمحيص بحالة الأرض ووضع تقييم مبدئي لها.

لقد كان تواقاً لتلك الزيارات أكثر مما كانت تتطلب منه سرعة الأحداث، فقد كانت تحفزه بهجة أبوية، وتسيطر على تفكيره تلك السعادة المحتملة التي اختزنها في داخله وكأنها هدية عيد ميلاد خفية لماري وفرِد.

قالت السيدة جارث: «ولكن افترض لو تبين أن الأمر كان كله قصراً في الهواء؟».

أجاب كيلب: «حسناً حسناً... فالقصر لن ينهار فوق رأس أحد».

الفصل التاسع والستون

إذا سمعت كلمة... دعها تمت معك.

من إكزليستكس

كان السيد بولسترود لا يزال يجلس في مكتبه في المصرف، بعد أن قابل ليدجيت، عندما دخل خادمه ليخبره، حوالي الساعة الثالثة، أن حصانه صار جاهزًا وأن السيد جارث واقف في الخارج يريد التحدث إليه. قال بولسترود: «بكل سرور... ». فدخل كيلب.

تابع مالك المصرف كلامه بأكثر أصواته دماثة: «اجلس من فضلك يا سيد جارث. إنني سعيد إذ وجدتني هنا في الوقت المناسب، إذ إنني أعلم أنك تعد دقائقك...!».

«آه... ». قال كيلب بلطف مشيحاً ببطء وجهه جانباً بينما كان يجلس، ويضع قبعته على الأرض.

راح ينظر إلى الأرض منحنياً قليلاً إلى الأمام، وواضعاً أصابعه الطويلة بين ساقيه، حيث كان يحركها إصبعاً تلو الآخر، لتبدو وكأنها كانت تشاركه بعض أفكاره التي كانت تملأ جبهته العريضة الهادئة.

كان السيد بولسترود قد اعتاد، كجميع الآخرين الذي عرفوا كيلب،على بطء حديثه لدى تناوله أي موضوع كان يشعر أنه مهم، فكان المرء يظنه أحياناً وكأنه يوشك على شراء بيوت في بلايندمانز كورت بهدف تخفيض سعرها، ليكون ذلك تضحية مقابل دخول الهواء والنور إلى تلك المنازل.

بسبب مثل هذا النوع من العروض، كان السيد جارث يشكل مصدر متاعب لأرباب عمله، لكنه غالباً ما كان يجد بولسترود مستعدًّا لمسايرته في تطوير مشاريعه، وغالباً ما كانا يتفقان سوية. عندما تحدث ثانية، فضل أن يقول بصوت منخفض:

«لقد حضرت للتو من ستون كورت يا سيد بولسترود...».

قال مالك المصرف: «أتمنى ألّا تكون قد وجدت خطأً ما هناك. فقد كنت بنفسي هناك البارحة، وأيبل قد أحسن صنيعاً في تركيب المصابيح هذه السنة».

«نعم...». قال كيلب وهو ينظر إلى الأعلى شاحباً: «هناك شيء خطأ... رجل غريب، وهو مريض جدًّا على ما أعتقد، ويحتاج طبيباً، فأتيت كي أخبرك بذلك. إن اسمه رفلز». لقد رأى الصدمة التي سببتها كلماته ترتسم على وجه بولسترود.

كان مالك المصرف يعتقد أنه كان على احتياطٍ دائم من أن تؤخذ مخاوفه غفلة... إلا أنه كان مخطئاً.

قال بنبرة تعاطف على الرغم من أن شفتيه قد ارتجفتا: «يالبائس المسكين...! هل تعلم كيف أتى إلى هناك...!؟».

قال كيلب بهدوء: «لقد أخذته بنفسي. لقد أخذته بعربة. لقد نزل من عربة الأجرة، وكان يسير قليلاً بعد مقر إيداع الحقائب، فلحقت به. لقد تذكر رؤيته لي معك في ستون كورت، فطلب مني أن آخذه معي. لقد وجدته مريضاً، فبدا لي من الأفضل أن أحمله معي تحت سقف عربة. وأعتقد الآن أنه يجب عليك ألّا تضيع وقتاً كي تستعين بنصيحة طبية لأجله». أخذ كيلب قبعته من على الأرض عندما أنهى كلامه، ثم نهض ببطء من على مقعده.

«بالتأكيد...!!»، قال بولسترود الذي كان ذهنه يتقد نشاطاً في تلك اللحظات: «ربما قدمت لي منة يا سيد جارث إذا ما طلبت من السيد ليدجيت أن يحضر إلي وأنت في طريق عودتك، أو انتظر، فربما يكون في المستشفى الآن. سأرسل خادماً على حصاني مع ملاحظة سأكتبها له فوراً، ثم سأنطلق بنفسي إلى ستون كورت. «كتب بولسترود ملاحظة بسرعة، ثم خرج بنفسه ليعطي أوامره للخادم، ولدى عودته، كان كيلب لا يزال على وقفته السابقة واضعاً إحدى يديه على مسند الكرسي وممسكاً قبعته بالأخرى.

الفكرة التي كانت تسيطر على ذهن بولسترود أنه ربما تحدث رفلز لجارث فقط عن مرضه. ربما يتساءل جارث، كما فعل من قبل، حول علاقة هذا الرجل الغريبة بي، لكنه لن يعرف شيئاً، ولا سيما أنه لطيف معي... ويمكنني أن أكون مصدر نفع له...

كان يتوق لتأكيد هذا التخمين، لكنه إذا ما سأل عمّا قاله رفلز أو فعله، لظهر عليه خوف.

«إنني ممتن لك جدًّا يا سيد جارث...!»، قال بنبرة صوته المهذبة الاعتيادية: «سيعود خادمي خلال لحظات، وأنا سأذهب لأرى ما يمكن فعله لهذا الرجل غير المحظوظ. ربما كان لديك شأن آخر تناقشه معي...؟ فإذا ما كان ذلك أرجوك اجلس...!».

«شكراً»، قال كيلب مشيحاً بيده قليلاً كي يعبر عن رفضه للدعوة: «أرغب في أن أقول يا سيد بولسترود: إنه ينبغي لك أن تكلف أحدًا غيري بشؤون عملك. إنني ممتن لك لاستقبالك الكريم لي... حول تأجير المزرعة في ستون كورت والشؤون الأخرى. يجب علي أن أتخلى عن ذلك كله...». تأكيد حاد طعن روح بولسترود.

كان كل ما يستطيع قوله في البداية: «هذا مفاجئ يا سيد جارث...!!!».

قال كيلب: «إنه كذلك... لكن الأمر أصبح محتوماً، لا بد لي من أن أترك ذلك كله».

تكلم بحزم لطيف جدًّا، واستطاع أن يرى بولسترود ينكمش جاثماً أمام ذلك اللطف، والشحوب يظهر جليًّا على وجهه... وعيناه تهربان من نظرات كيلب الموجهة إليهما. لقد شعر كيلب بشفقة قوية عليه، لكنه لم يستطع أن يجد حجة يتراجع بسببها عن قراره.

قال بولسترود وقد غدا الآن متلهفاً كي يعرف المزيد: «أعتقد أن ادعاءات كاذبة تمسني أطلقها ذلك المخلوق التعس، قد جرتك إلى هذا القرار...؟؟!!».

«هذا صحيح..! فلا يمكنني أن أنكر أنني قد تصرفت بموجب ما سمعت منه».

«إنك رجل حي الضمير يا سيد جارث، وإنني لأثق أنك رجل يخاف الرب. ومن المؤكد أنك لا ترغب في إيذائي من خلال تصديقك إشاعة كاذبة». قال هذا بولسترود وهو يبحث عن حجج يمكنه أن يزرعها في ذهن سامعه: «هذا سبب أضعف من أن يدفعك إلى إنهاء علاقة، أعتقد أنني أستطيع القول إنها يمكن أن تكون ذات منفعة متبادلة».

قال كيلب: «إنني لا أرغب في إيذاء أحد لو استطعت. حتى لو عرفت أن الرب يمكن أن يتغاضى عن ذلك، فأنا أتمنى أن أتعاطف مع أصدقائي، ولكن يا سيدي أنا مضطر أن أصدق بأن رفلز قد أخبرني الحقيقة، ولا يمكنني أن أكون سعيداً في العمل معك أو الانتفاع منك ؛ فذلك يؤذي تفكيري. ينبغي لي أن أطلب منك أن تبحث عن وكيل آخر».

«حسناً يا سيد جارث، ولكن من حقي أن أطلب منك أن تخبرني على الأقل ما هو أسوأ شيء قاله عني، إذ يجب أن أعرف الكلام البذيء الذي أصبحت ضحية له»... قال ذلك

بولسترود وقد بدأ بعض الغضب يمتزج مع عدم اكتراثه أمام هذا الرجل الهادئ الذي تخلى عن منفعته.

«لا حاجة إلى ذلك». قال هذا كيلب مشيحاً بيده وخافضاً رأسه قليلاً دون أن يغير نبرة صوته، التي كانت تحمل في طياتها نية العطف والشفقة على ذلك الرجل الجدير بالعطف: «ما قاله لي لن يخرج من بين شفتي ما لم تجبرني قوى خفية على ذلك. إذا كنت قد عشت حياة مؤذية بهدف الكسب والربح، وانتزعت حقوق الآخرين بالغش والخداع كي تستحوذ لنفسك على نصيب أكبر، فيمكنني أن أقول إنك قد تبت، وإنك ترغب في الرجوع عن ذلك لكنك لا تستطيع.. فلا بد من أن يكون هذا أمراً قاسياً عليك... ». توقف كيلب للحظات وهز رأسه: «إنها ليست من خصالي أن أجعل حياتك أشد قسوة عليك...».

قال بولسترود وقد أكره على إطلاق صرخة توسل حقيقية: «لكنك تفعل ذلك... إنك تجعلها أشد قسوة علي!! إنك تجعلها أشد قسوة علي بتخليك عني».

قال كيلب بلطف أشد رافعاً يده: «هذا ما أنا مضطر للقيام به... إنني آسف، فإنني لا أحكم عليك بالقول إنك رجل شرير وأنا رجل صالح. لا قدر الرب. إنني لا أعرف كل شيء، فيمكن للرجل أن يخطئ، وتكون نيته بريئة من ذلك على الرغم من أنه لا يستطيع أن يحفظ حياته بعيدة من ذلك الخطأ... إن هذا عقاب سيئ.

إذا كان الأمر كذلك معك، فأنا حزين لأجلك، لكن شعورًا داخليًّا ينتابني ويضطرني للتخلي عن العمل معك. هذا كل ما في الأمر يا سيد بولسترود، وكل شيء آخر قد دفن قدر ما استطعت، وأنا أتمنى لك يوماً سعيداً».

قال بولسترود بسرعة: «لحظة يا سيد جارث...! إذاً أستطيع أن أثق بتأكيدك الحازم على أنك لن تبوح لرجل أو امرأة بذلك الكلام الماكر والحقود، حتى لو كان في طياته شيء من الصحة؟». أثير غضب السيد جارث، فقال بسخط:

«لماذا قلت ذلك لو لم أكن أعنيه؟ إنني لا أخافك. إن مثل هذه الأقاويل لن تغري لساني».

«أعذرني، فإنني غاضب. إنني ضحية هذا الرجل الضال..».

«تمهل قليلاً..! ينبغي لك أن تفكر في ما إذا كنت قد دفعت به إلى الأسوأ عندما انتفعت من رذائله».

«إنك تظلمني بتصديقك المسبق له...». قال ذلك بولسترود وقد وقع تحت وطأة كابوس عدم استطاعته نفي ما قد قاله رفلز، إلا أنه لا يزال يهرب منه حتى لا يطلب منه كيلب تقديم نفي صريح لذلك.

قال كيلب رافعاً يده مستنكراً: «كلا... إنني مستعد كي أصدق ما هو أفضل عندما يثبت الأفضل، وأنا لن أحرمك من فرصة البرهان على ذلك. بالنسبة إلى نقل الحديث، فإنني أعتبر البوح بخطيئة الرجل جريمة ما لم أتثبت من ذلك، إذ ينبغي إنقاذ البريء. هذه طريقة تفكيري يا سيد بولسترود، وما أريد أن أقوله إنه لا حاجة لي للقسم. أتمنى لك يوماً سعيداً...».بعد بضع ساعات، حين كان كيلب في منزله قال لزوجته، صدفة، إنه قد اختلف في بعض الشؤون مع بولسترود ونتيجة ذلك قد أقلع كليًّا عن فكرة تعهده مزرعة ستون كورت، وإنه حقًّا قد استقال من تعهده بالقيام بأعمال أخرى له.

«لابد من أنك قد تدخلت أكثر مما ينبغي. أليس كذلك...؟»، قالت السيدة جارث متخيلة أن زوجها قد مسّ في هذا... نقطة حساسة، وأنه لم يسمح له بالقيام بما كان يعتقد أنه صحيح، وذلك بما يتعلق بوسائل ومواد العمل.

«آه...». قال كيلب مطأطئاً رأسه ومشيحاً بيده باتاً، فعرفت السيدة جارث من خلال تلك الإشارة، أنه لا يرغب في الحديث في الموضوع أكثر من ذلك.

بالنسبة إلى بولسترود، فقد امتطى جواده مباشرة، وانطلق إلى ستون كورت راغبًا في الوصول إلى هناك قبل ليدجيت. لقد ازدحمت في ذهنه الصور والتحسبات التي كانت تعبر عن آماله ومخاوفه، كتلك التي نسمعها نتيجة للاهتزازات التي تنتاب كياننا.

كان شعوره بالخزي، الذي غرق فيه أمام معرفة كيلب جارث بماضيه ورفضه لمناصرته، قد تناوب مع إحساسه بالأمان نتيجة لحقيقة أن رفلز قد باح بالسر لكيلب جارث وليس لأحد آخر، فبدا له أن العناية الإلهية ستنقذه من أسوأ العواقب، وهكذا ظل الطريق مفتوحاً أمام الأمل بالسرية والتكتم.. إذ لا بد من أن رفلز قد ابتلي بالمرض فاقتيد إلى ستون كورت بدلاً من أي مكان آخر... لقد ارتعد قلب بولسترود من رؤيته للاحتمالات التي فرضتها هذه الأحداث، فإذا ما تبين أنه سيحرر من جميع مخاطر الخزي، وإذا ما تنفس الصعداء... لوجب تكريس خيانته لأجل القداسة أكثر من ذي قبل.

لقد قطع على نفسه هذا العهد وكأنه سيأتي بالنتيجة التي كان يتوق إليها، فقد حاول

أن يؤمن بقوة الحل الديني... أي قدرته على تحديد الموت، كما كان يعلم أنه ينبغي له القول: «إن إرادتك ستتحقق» فغالباً ما كان يكرر ذلك. إلا أن الرغبة العارمة بقيت تتمثل في أن مشيئة الرب ستقود إلى موت ذلك الرجل.

إلا أنه عندما وصل ستون كورت لم يستطع أن يرى التغير في رفلز دون أن تصيبه صدمة، لكن نتيجة امتقاع لون وجهه وضعفه، اعتبر بولسترود ذلك التغير اختلالاً عقليًّا كليًّا. فبدل من طريقة تعذيبه الصارخة، ظهر على رفلز رعب خيالي شديد فحاول أن يخفف من غضب بولسترود متذرعاً بأن النقود قد نفدت... وأنه قد سرق... لقد سرق منه نصفها. لقد أتى إلى هنا فقط لأنه كان مريضاً ولأن أحداً كان يطارده، وأنه لم يخبر أحداً شيئاً. لقد أبقى فمه مغلقاً. لما كان بولسترود لا يعي أهمية تلك الأعراض، حوّل حساسية غضبه الجديد إلى طريقة يجبر بها رفلز على تقديم الاعترافات الحقيقية، فاتهمه بالكذب بقوله إنه لم يخبر أحدًا شيئاً... في وقت كان قد أخبر الرجل الذي أحضره بعربته إلى ستون كورت. أنكر رفلز كل هذا بتوسلات رصينة.

الحقيقة هي أن تماسك الوعي لدى رفلز كان قد اختلّ، وأن بوحه البسيط، تحت وطأة الخوف، لكيلب جارث كان ضرباً من اندفاعات وهمية قد غرقت في جانب مظلم.

ارتجف قلب بولسترود خوفاً مرة ثانية لدى ظهور تلك العلائم على رفلز حتى إنه لم يعد يستطيع فهمه، ولم يعد يثق بأيّ كلمة ينطق بها رفلز تتعلق بالحقيقة التي كان يريد معرفتها.. أي إذا ما كان قد قال شيئاً لأحد سوى كيلب جارث. لقد أخبرته الخادمة، دون أي إكراه أو ارتباك، أنه منذ أن غادر السيد جارث طلب منها رفلز شراب الجعة، ثم لم يقل شيئاً بعد ذلك ظاهراً عليه المرض الشديد.

نتيجة ذلك يمكن الاستنتاج أنه لم يتم الكشف عن الحقائق. كانت تعتقد السيدة أبيل، كسائر الخدم في ذلك المنزل، أن الرجل الغريب الأطوار هو أحد الأقارب المزعجين الذين يسببون المتاعب للأغنياء، ولقد عزت تلك القرابة، في البدء، إلى السيد ريج، فأينما وجدوا منزلاً يلجؤون إليه، يصبح وجودهم طبيعيًّا جدًّا. كيف يمكن أن يكون أحد أقرباء بولسترود كذلك، لم يكن ذلك واضحاً، لكن السيدة أبيل قد اتفقت مع زوجها أنه لا يمكن معرفة ذلك، ولا سيما أن ذلك المقترح قد شغل فكرها كثيراً، حتى إنها راحت تهز رأسها دون أن تقول شيئاً.

في أقل من ساعة وصل ليدجيت، فاستقبله بولسترود عند باب الغرفة الخشبية الفاخرة

حيث كان فيها رفلز، وقال: «لقد استدعيتك يا سيد ليدجيت لتعالج رجلاً غير محظوظ كان منذ سنين طويلة أحد الموظفين لدي، وبعد ذلك غادر إلى أمريكا، ثم عاد هنا ليصبح فاسقاً وعاطلاً عن العمل. ولأنه معدم عليّ واجب تجاهه. كان له علاقة ضعيفة مع ريج ؛ المالك السابق لهذا المنزل، فنتيجة ذلك وجد طريقه إلى هنا. أعتقد أنه مريض جدًّا، ومن الواضح أنه قد أصيب بخلل عقلي. إنني أشعر بالواجب كي أقدم له كل ما في استطاعتي».

ليدجيت، الذي كان يسيطر على تفكيره تذكره ما حدث له في اليوم نفسه مع بولسترود، ما كان يرغب في التفوه بأيّ كلمة غير ضرورية، فاكتفى بانحناءة بسيطة، ولكن قبل أن يدخل الغرفة استدار.. وقال: «ما اسمه..؟ معرفة الأسماء ضرورة تلزمها مهنة الطب وكذلك مهنة السياسيين».

«رفلز، جون رفلز»، أجابه بولسترود الذي كان يتمنى مهما بدا من رفلز ألّا يعلم ليدجيت أكثر من ذلك عنه.

«بعد أن انتهى من فحصه الدقيق للمريض، أمر ليدجيت أن يذهب إلى الفراش، وأن يبقى هناك ضمن أهدأ جو ممكن، ثم انتقل مع بولسترود إلى غرفة أخرى».

قال مالك المصرف قبل أن يبدأ ليدجيت بالتكلم: «أفهم أنها حالة خطيرة».

قال ليدجيت بتردد: «كلا.. ونعم...! إنه من الصعب تحديد التعقيدات التي مر عليها زمن طويل، ولكن من الواضح أن الرجل كان يتمتع ببنية قوية في الماضي. لا أتوقع لهذه الهجمة أن تكون خطيرة على الرغم من أنه يمر في حالة دقيقة. يجب مراقبته بدقة واستمرار».

قال بولسترود: «سأبقى بنفسي هنا... فالسيدة أيبل وزوجها لا يمتلكان الخبرة الكافية. يمكنني ببساطة أن أقضي الليلة هنا، إذا تفضلت علي، وأخذت معك ملاحظة أكتبها إلى السيدة بولسترود».

قال ليدجيت: «أعتقد أن ذلك ليس على درجة كبيرة من الأهمية. إذ يبدو أنه أليف وخائف بما فيه الكفاية. ربما ينتقل إلى مرحلة لا يمكن السيطرة بها عليه إلا أنه يوجد رجل هنا أليس كذلك؟».

قال بولسترود دون اكتراث: «لقد قضيت مرات عديدة بضع ليالٍ هنا بغية الاعتزال...

إنني أرغب في فعل ذلك الآن، والسيدة أبيل وزوجها يمكنهما أن يساعداني أو يريحاني إذا كان ذلك ضروريًا».

قال ليدجيت دون أن يشعر بدهشة لما بدا من غرابة من بولسترود: «حسن. إذاً سأحتاج أن أعطي توجيهاتي لك فقط».

قال بولسترود بعد أن فرغ ليدجيت من إعطاء أوامره: «إذًا تعتقد أن الحالة ليست ميؤوساً منها؟».

قال ليدجيت: «ما لم تطرأ تعقيدات جديدة كتلك التي لم أكتشفها حتى الآن. ربما ينتقل إلى مرحلة أسوأ، لكنني لن أتفاجأ إذا ما تحسن خلال بضعة أيام نتيجة تناول الدواء الذي وصفته بدقة. يجب أن يتم ذلك بدقة... تذكر أنه إذا ما طلب أي نوع من الخمر يجب ألا يقدم له. برأيي أن الرجال الذين هم في حالته غالباً ما يقتلهم العلاج أكثر من المرض نفسه، إلا أنه يمكن أن تظهر أعراض جديدة للمرض. سآتي إلى هنا ثانية في صباح الغد».

بعد أن انتظر ليدجيت كي تكتب الملاحظة ليحملها معه، انطلق دون أن ينتابه حدس في بادئ الأمر حول تاريخ رفلز، ولكن لدى استرجاعه في ذاكرته كامل الجدل الذي أعيد إثارته مؤخراً في مؤلفات الطبيب وير في أمريكا حيث ابتكر الطريقة المثلى في معالجة حالات التسمم الكحولي كهذه.

لمّا كان ليدجيت خارج البلاد، اهتم كثيراً في مثل هذه الحالة.. إذ اتخذ موقفًا صلباً ضد علاج مثل هذه الحالة بإعطاء كميات من الكحول للمريض أو كميات كبيرة من المخدر، وحدث أن عالج حالاتٍ عديدة بطرق تختلف عن تلك الطريقة، فجاءت النتائج إيجابية.

قال لنفسه: «إن الرجل مريض... ولكن لا يزال لديه قدرة كبيرة على التحمل. أعتقد أن بولسترود يقدم له الحسنات. من الغريب كيف تتلازم القسوة والحنو لدى الرجال...! يظهر بولسترود وكأنه أشد الرجال قسوة مع بعض الناس، في وقت لا يتململ من المتاعب وإنفاق المال الكثير جدًّا لأجل أهداف خيرية. أعتقد أنه يتمتع بقدرة على كشف من تشملهم الرعاية الإلهية... لقد اقتنع تمامًا أنها لا تشملني».

لقد انتابته هذه المزحة من المرارة المنبثقة من مصدر عميق، وراحت تتسع وتكبر مع أفكاره وهو يقترب من لُوِيك جيت. لم يعد إلى هذا المكان منذ أن فرغ من لقائه مع بولسترود

في ذاك الصباح، إذ وجده خادم بولسترود في المستشفى، فقد كانت هذه المرة الأولى التي يعود بها إلى منزله دون أيّ وسيلة تترك فيه أملاً في الحصول على مبلغ كافٍ لينقذه من فقدان كل شيء يجعل حياة زواجه محتملة... كل شيء ينقذه وزوجته روزموند، من العزلة الفارغة التي يمكن لها أن تجبرهما على أن يدركا كم هما عاجزان عن مساعدة بعضهما بعضاً.

لقد كان قادراً على تحمل عدم تلقيه لأي حنو من الآخرين، أكثر من قدرته على أن يرى حنوه لا يعوضه فقدانه للأشياء الأخرى. لقد كانت معاناة كبريائه من الخزي الماضي والقادم، حادة بما فيه الكفاية إلا أن نفسه لم تكن قادرة على تمييزها عن ذاك الألم القاسي، الذي كان يخيم عليها... ألم التنبؤ بأن روزموند ستعتبره سبب تعاستها وخيبة أملها. إنه لم يحب في حياته استخدام الأشياء الرخيصة التي يفرضها الفقر، ولم يخطر له يوماً أنه سيضطر لها، لكنه بدأ الآن يتصور كيف يمكن لمخلوقين أحبا بعضهما، واشتركا في أفكار عديدة أن يضحكا على أثاث رث يستخدمانه، وكم من البيض والزبدة يستطيعان أن يوفرا لنفسيهما. ولكن بدت ملامح حدوث هذا الشيء له بعيدة كبعد العصر الذهبي منه. لم يكن في تفكير روزموند المسكينة حيز صغير يكفي لقليل من الترف كي يكمن فيه.

نزل من على حصانه، وقد كان ينتابه حزن شديد، ثم دخل المنزل دون أن يتوقع أحداً يسعده سوى عشائه، وكان يدور في خلده أنه سيكون من الحكمة أن يخبر روزموند بطلبه من بولسترود، والفشل الذي أصابه جراء ذلك قبل أن يحل الظلام. سيكون من الأفضل تهيئتها للأسوأ دون أي مضيعة للوقت.

إلا أنه كان عليه أن ينتظر طويلاً قبل أن يصبح قادراً على تناول عشائه، لأنه لدى دخوله المنزل قد وجد أن وكيل دوفر قد وضع رجلاً في المنزل، وعندما سأل عن السيدة ليدجيت، قيل له إنها كانت في غرفة نومها، فلما صعد إلى الطابق العلوي، وجدها صامتة في فراشها وشاحبة، ولم يجد في وجهها جواباً عن كلماته أو نظراته. جلس بجانب الفراش، وبعد أن انحنى فوقها، قال متوسلًا بصوت باكٍ: «سامحيني لهذه التعاسة يا عزيزتي روزموند..! دعينا نحب بعضنا فقط».

نظرت إليه بصمت ولا يزال يرتسم على وجهها يأس عميق، ولكن بعد ذلك بدأت الدموع تنهمر من عينيها الزرقاوين، وراحت شفتاها ترتجفان. كان على الرجل القوي أن يتحمل أكثر ما في استطاعته في ذلك اليوم، فترك رأسه يقع بالقرب من رأسها، وراح يبكي.

لم يمنعها من الذهاب إلى بيت أبيها في الصباح، ويبدو الآن أنه لا ينبغي له أن يمنعها من القيام بأي شيء يمكن أن يسعدها. كانت قد عادت بعد أن مضى عليها نصف ساعة فقط في بيت أبيها، فقالت له إن أمها وأباها يتمنيانها أن تقيم معهما ما دامت الأوضاع في حالة تعسة، وكما قالت له فإن أباها لا يستطيع أن يفعل شيئاً حول الديون. فإذا ما دفع هذا الدين، فسيظهر جزء كبير آخر من جديد، لذلك من الأفضل لها أن تعود إلى منزل أبيها ثانية حتى يؤمن ليدجيت منزلاً مريحاً لها... «هل تعارض هذا يا ترشيوس...؟»

قال ليدجيت: «افعلي ما تشائين!! لكن الأوضاع لن تتحول إلى أزمة في وقت قصير. إذاً... لا حاجة إلى التسرع».

قالت روزموند: «لن أذهب حتى يوم غد... سأحتاج إلى توضيب ثيابي».

قال ليدجيت بسخرية مريرة: «انتظري وقتاً أطول من الغد، فلا أحد يعرف ما يمكن أن يحدث... ربما يكسر عنقي، فيسهل لك ذلك الأمور».

من سوء حظ ليدجيت وروزموند هو أن حنوه لها، الذي هو محرض عاطفي وتصميم قيم، قد قاطعه هذا السخط المتفجر الساخر أو المعارض. إذ اعتبرت ذلك كله غير مبرر، كما أن الاشمئزاز الذي ولدته في داخلها تلك القسوة الاستثنائية ربما جعل ذلك الحنو المثابر غير مقبول.

قالت ببرود: «أرى أنك لا ترغب في ذهابي... لماذا لا تستطيع قول ذلك دون ذلك النوع من العنف؟ سأبقى حتى تطلب مني الذهاب».

لم يقل ليدجيت شيئاً آخر، لكنه ذهب للقيام بجولته الطبية. شعر بالألم يعتصر قلبه كما شعر أنه محطم، كما كان خط أسود لم تره روزموند من قبل يرتسم في أسفل عينيه. لم تستطع روزموند النظر إليه. كان لترشيوس طريقة خاصة يتقبل بها الأشياء، تجعلها تبدو الأسوأ بالنسبة إليها.

الفصل السبعون

تسافر معنا أفعالنا بعيداً...

وماضينا يصنع حاضرنا...

كان هدف بولسترود الأول بعد أن غادر ليدجيت ستون كورت، هو أن يتفحص جيوب رفلز، إذ كان متأكداً من أنها تحمل دلائل على شكل فواتير من الأماكن التي ارتادها، إذا كان قد كذب في قوله إنه قد حضر مباشرة من ليفربول لأنه كان مريضاً ولا يملك مالاً.

كانت هناك فواتير عديدة قد حشيت في محفظة جيبه، تعود تواريخها جميعاً إلى قبل يوم عيد الميلاد المجيد، باستثناء واحدة كانت تحمل تاريخ ذاك اليوم، وكانت قد نفذت بفاتورة أجرة حصان حررت بخط يد. كما كانت توضح أجرة مكوث ثلاث ليالٍ في نزل في بيلكلي حيث لم تسدد تلك الأجرة، وهي بلدة تبعد أربعين ميلاً عن مدل مارش.

كان مبلغ الفاتورة ضخماً، ولما كان رفلز قد حضر دون أمتعة معه، بدا واضحاً أنه قد ترك أمتعته هناك مقابل الأجرة بغية تخفيض أجرة سفره وتنقله، و لاسيما أن جيبه كان فارغاً، ولم يوجد فيه سوى بعض البنسات القليلة. لقد تولد لدى بولسترود شعور بالطمأنينة من خلال تلك المؤشرات، التي تدل على أن رفلز قد بقي بعيداً عن مدل مارش منذ زيارته المعروفة في ليلة عيد الميلاد المجيد.

ما الذي يمكن أن يشبع رغبة رفلز بالتعذيب ومزاجه بتضخيم الأمور إذا ما باح بفضائح قديمة عن مالك مصرف في مدل مارش لغرباء بعيدين لا يعرفونه..؟! ما الأذى الذي يمكن أن يلحقه إذا ما تحدث؟ الجانب الأساسي الآن... هو أن يبقى تحت المراقبة، ما دام خطر ذلك الهذيان الجلي والناجم عن الرغبة في التحدث موجوداً، و لاسيما أنه قد أحدث تغيراً لدى كيلب جارث، فقد شعر بولسترود بقلق شديد من أن يحدث له مثل هذا الهذيان لدى وجود ليدجيت، فبقي معه جالساً لوحده طوال الليل، واكتفى بالطلب من خادمة المنزل أن تستلقي في فراشها دون أن تغير ثيابها كي تكون جاهزة متى طلبها مدعياً عدم

رغبته في النوم، ورغبته في متابعة أوامر الطبيب بنفسه وتنفيذها.

لقد نفذ تلك الأوامر بإخلاص على الرغم من أن رفلز بقي يلح بطلب شراب البراندي مردداً أنه كان يغرق، وأن الأرض كانت تموج من تحته. لم تغمض له عين، وكان الإعياء قد اشتد عليه، لكنه ظلّ ذاوياً ومسيطراً عليه.

لدى تقديم الطعام، الذي أمر به ليدجيت له ورفضه للأشياء التي كان يطلبها، كان يرتكز جل رعبه على بولسترود. كان يقلل من أهمية غضبه متوسلاً، ويبرر انتقامه منه بالتجويع، كما كان يقسم على أنه لم يبح بكلمة واحدة ضده لأي مخلوق. حتى هذا لم يعجب بولسترود مخافة أن يسمعه ليدجيت، ولكن في ساعات الصباح حدثت له هجمة هذيان مفاجئة ومقلقة أكثر.. إذ تخيل أن طبيباً قد أتى، فراح يقول له إن بولسترود يريد أن يجوعه حتى الموت... منتقماً منه لحديث لم يتفوه به.

إن استبداد بولسترود وقوة تصميمه قد خدماه كثيراً، فهذا الرجل ذو المظهر اللطيف هو مشوش جدّاً على نحو عصبي، وقد وجد المحرض المطلوب في ظروفه الشاقة والعسيرة، فطوال الليل وساعات الصباح العسيرة، بينما كانت تتحرك الجثة الحية بلا حرارة لتمسك بزمام الأمور بتبلدها البارد، كان تفكيره منشغلاً بأقصى درجات طاقته، في ما يجب أن يقي نفسه منه... وما يمكن أن يجلب له الأمان.

مهما قدم من صلوات ومهما أقام في داخله من ادعاءات حول الحالة الروحية لهذا الرجل البائس، والواجب الملقى على عاتقه كي يمتثل للعقوبة الإلهية التي خصصت له بدلاً من أن يتمنى الشر لأحد، فأثناء بذله كل ذلك المجهود كي يحول تلك الكلمات إلى فكرة واضحة ومترابطة، انبثقت وسيطرت على تفكيره، بإشراقة لا تقاوم، صور الأحداث التي كان يتمناها، وفي قطار تلك الصور جاءت اعتذاراتها معها. لم يستطع أن يقاوم رؤية موت رفلز، فرأى من خلاله نجاته. ماذا يعني التخلص من هذا المخلوق التعس؟ فهو لم يكن تائباً... ولكن ألم يكن يوجد مجرمون غير تائبين؟ إلا أن القانون هو الذي يقرر مصيرهم. هل ستأتي العناية الإلهية في هذه الحالة بالموت، ولا يوجد ذنب جراء التأمل بالموت كأمل مرغوب فيه... ولاسيما إذا ما أبقى يديه بعيداً من الاستعجال بقدومه، وإذا ما قام بدقة بكل ما وصف به. حتى هنا يمكن للخطأ أن يقع، فالوصفات البشرية ليست معصومة عن الخطأ.. فقد قال ليدجيت بأن طريقة العلاج قد أسرعت مرة بالموت... فلماذا لا تكون طريقته هو؟ ولكن بالطبع تبقى النية أساس مسألة الصواب والخطأ.

لقد قرر بولسترود أن يفصل نيته على رغبته، وقد نوى في داخله أن يلبي الأوامر. لماذا ينبغي له أن يثير جدلاً حول صحة تلك الأوامر؟ فذلك يشكل فخ الرغبات، التي تقوم على أي شك لا صلة له... واجدة لنفسها مجالاً رحباً للشك في المؤثرات، وللغموض الذي يظهر مع غياب القانون، على الرغم من هذا كله، فانه ما زال يطيع الأوامر.

ما زال قلقه يتوجه نحو ليدجيت، وكذلك تذكره لما حدث بينهما في ذلك الصباح قبل أن تنتابه أحاسيس لم يشعر بها في أثناء ذلك اللقاء. عندما لم يأبه إلا قليلاً بردود فعل ليدجيت المؤلمة على التغيرات المقترحة في المستشفى، أو على الترتيبات التي تتعلق بظروف وضعه الشخصي، فاعتبرها رفضاً مبرراً لطلب باهظ الثمن.

لقد استرجع ذلك المشهد مع فهم على أنه من المرجح قد جعل من ليدجيت عدوّاً له، ومع رغبة قد استيقظت في داخله، كي يسترضيه أو ربما أن يخلق إحساساً قويّاً بالامتنان له في داخله، فأسف جدّاً لأنه لم يقدم تضحية مالية على الفور، فإذا ما أثيرت شكوك غير مرغوب فيها، أو استجمعت معلومات من خلال نوبات الهذيان التي كانت تصيب رفلز، لشعر بولسترود أنه يملك دفاعاً عن نفسه في ذهن ليدجيت من خلال تقديم منفعة بالغة الأهمية له، ولكن ربما جاء الأسف متأخراً جدّاً.

يا للغرابة...! صراع مثير للشفقة يقيم في روح هذا الرجل التعس، الذي تاق لسنين عديدة أن يكون في وضع أفضل من الذي هو عليه الآن، والذي هذب عواطفه الأنانية وكساها ثياباً ثمينة، ليسير معها كرزمة ورعة حتى ظهر بينها الرعب الآن، فما عادت تستطيع الغناء لكنها راحت تطلق صرخات الاستغاثة لأجل الأمان.

كان قد انقضى نصف النهار قبل أن يصل ليدجيت. أراد أن يصل في وقت مبكر لكنه، كما قال، قد انشغل، وقد لاحظ بولسترود نظراته المرهقة، ودخل على الفور لمتابعة حالة مريضه، فسأل بدقة عن كل ما قد حصل.

كانت حالة رفلز تزداد سوءاً، وهو لم يكد يتناول أي طعام، كما كان طوال الوقت مستيقظاً ويهذي بإعياء، لكنه لم يكن عنيفاً. على عكس توقعات بولسترود المقلقة، لم يلاحظ وجود ليدجيت إلا قليلاً، وتابع هذيانه وكلامه غير المتماسك.

قال بولسترود على انفراد: «ماذا تعتقد في حالته...؟».

«إن الأعراض تبدو أسوأ مما كانت عليه».

«تبدو غير متفائل...؟».

«كلا... ما أزال أعتقد أنه سيتعافى. هل ستبقى هنا؟»، قال هذا ليدجيت ناظراً إلى بولسترود باستفسار واضح مما جعل بولسترود يشعر بالقلق، على الرغم من أنه في واقع الأمر... لم يكن ذلك السؤال نتيجة حدث شكوكي.

قال بولسترود متمالكاً نفسه ومتحدثاً بوضوح: «نعم... أعتقد ذلك. لقد علمت السيدة بولسترود بالأسباب التي تستدعي بقائي هنا، وإن السيدة أيبل وزوجها لا يمتلكان الخبرة الكافية كي يتركا وحيدين، ولاسيما أن هذا النوع من الخدمة لم تتضمنها واجباتهما تجاهي. أعتقد أن لديك تعليمات جديدة».

التعليمات الرئيسية الجديدة التي كان على ليدجيت أن يعطيها تمثلت في الإشراف على إعطاء كميات مخففة من الدواء المخدر في حال استمرت حالة عدم النوم لساعات عديدة أخرى، ولقد اتخذ إجراءً احترازيّاً، فأحضر في جيبه كمية من ذلك الدواء المخدر، فقدم لبولسترود تعليمات واضحة ومحددة، بكميات الجرعات التي ينبغي إعطاؤها، ومتى ينبغي أن يوقفها.. ولقد ألح على خطورة عدم إيقافها، كما كرر تأكيده على عدم تقديم أي نوع من الخمر.

قال: «أهم ما أرى في الحالة... هو خشيتي أن يكون مدمناً على المخدرات. يستطيع أن يتحمل كثيراً دون طعام كثير. إنه يمتلك قدرة كبيرة».

«إنك تبدو مريضاً يا سيد ليدجيت، وهذا أمر غير مألوف وغير معتاد لديك بحسب علمي بك». قال هذا بولسترود مظهراً ودّاً لا يشبه عدم اكتراثه في اليوم السابق... كما أن عدم اكتراثه الحاضر بإرهاقه الشخصي لا يشبه قلقه الاعتيادي بوضعه الشخصي. «أخشى أن تكون متضايقاً».

قال ليدجيت بفظاظة وقد أمسك بقبعته متهيئاً للانصراف: «نعم إنني كذلك».

قال بولسترود متسائلاً: «أخشى أن يكون أمراً جديداً... أرجوك اجلس».

قال ليدجيت بقليل من الغطرسة: «كلا شكراً... لقد ذكرت لك البارحة الظروف التي أمر بها، ولا يوجد شيء يضاف إلى ذلك سوى أن إجراءات التنفيذ قد بدئ القيام بها. يمكن للمرء أن يعبر عن كثير من المتاعب في جملة قصيرة...! إنني ذاهب».

قال بولسترود: «تمهل يا سيد ليدجيت.. تمهل. كنت أعيد النظر في هذه المسألة. لقد أخذتني الدهشة البارحة، فنظرت إلى المسألة بسطحية. إن السيدة بولسترود ينتابها القلق حول ابنة أخيها، وأنا لينتابني حزن شديد جراء التغير الكارثي الذي يصيب مكانتك. إن الواجبات الملقاة على عاتقي لهي هائلة، ولكن لدى إعادة النظر في القضية أعتقد أنه ينبغي لي أن أقدم تضحية صغيرة بدلاً من أن أتركك دون مساعدة. أعتقد أنك قلت بأن ألف جنيه ستكون كافية لإعفائك من الأعباء المترتبة، وستمكنك كذلك من أن تستعيد وضعاً متيناً لنفسك؟».

قال ليدجيت وقد تفجرت في داخله فرحة سيطرت على جميع مشاعره: «نعم... إن هذا المبلغ سيسدّد جميع ديوني، ويبقى لدي جزء منه. إنني أستطيع أن أقتصد من نفقات حياتنا، ثم مع الوقت يمكن لعيادتي أن تعوض ذلك النقص».

«إذا انتظرت لحظة يا سيد ليدجيت، فإنني سأحرر لك شيكاً بذلك المبلغ. أعلم أن هذا سيساعدك، ولكي يكون الأمر فعالاً في مثل هذا القضايا لا بد من أن تكون المساعدة كافية تماماً».

بينما كان بولسترود يحرر الشيك، استدار ليدجيت نحو النافذة، وهو يفكر بمنزله وحياته، التي سيبدأها بداية جيدة بعيدة من الإحباط، ولاسيما أن أهدافها الجيدة لم تحبط بعد.

قال مالك المصرف متقدماً نحوه وبيده الشيك: «يمكنك أن تكتب لي ملاحظة بهذا المبلغ يا سيد ليدجيت... ومع مرور الوقت، أتمنى أن تصبح في ظروف تسمح لك أن تعيد ذلك المبلغ تدريجاً. في الوقت الحاضر يسعدني أن تكون قد تخلصت من أزمات وتعقيدات شديدة».

قال ليدجيت: «إنني ممتن لك من أعماق قلبي. لقد أعدت لي روح العمل ببعض السعادة والفرص الجيدة».

لقد بدا له أنه أمر طبيعي جدّاً أن يعيد بولسترود النظر في أمر الرفض.. إذ عكس ذلك جانب السخاء في شخصيته، ولكن حالما جعل جواده ينطلق مسرعاً ليصل منزله بأسرع وقت، فيخبر روزموند بالأخبار الطيبة، ويحصل على المبلغ من المصرف ليسد دينه لوكيل دوفر، برق في ذهنه انطباع غير سار وكأنه قطعة ظلام مجنحة لنذير شؤم قد مرت

أمام عينيه، فكرة أن تناقضاً قد نشأ في داخله خلال الأشهر القليلة الماضية.. إذ أصبح سعيداً لتلقيه نقوداً من بولسترود، فأصبح مديناً له.

لقد شعر مالك المصرف أنه قد فعل شيئاً ليعطل أحد أسباب قلقه، لكنه قلما شعر بالارتياح، فهو لم يحدد أبعاد الحافز المريض، الذي جعله يتمنى لليدجيت عيشاً رغيداً، لكن ذلك الحافز كان يعمل في دمه. الرجل يقسم، لكنه لا يتخلى عن وسائل حنث يمينه.

هل حقّاً قصد بغريزته أن يحنث يمينه؟ كلا.. أبداً، لكن دوافع حنث ذلك اليمين كانت تعمل في داخله خلسة، ثم تشق طريقها إلى خياله، فترخي عضلاته في اللحظات المناسبة حين كان يكرر في داخله أسباب قسمه.

كيف كان لبولسترود أن يتمنى شفاء رفلز السريع ورجوعه لاستخدام سلطاته البغيضة؟ هكذا أصبحت صورة موت رفلز تبعث الارتياح، فراح يدعو، بطريقة غير مباشرة، للتحرر متوسلاً، في تلك الطريقة، أن تكون باقي أيام عمره في مأمن من تهديد الخزي، الذي يمكن أن يحرمه من كونه أداة لخدمة الرب.

لم تكن فكرة ليدجيت على شكل وعد بأن هذه الدعوة ستستجاب.. فبينما كان النهار ينقضي، كانت مشاعر بولسترود ينتابها التوتر بسبب حياة هذا الرجل المستمرة، التي لو رآها تنتهي بالموت، لانتابه السرور.. فالرغبة الملحة كانت تحرك الدوافع الإجرامية نحو تلك الحياة البهيمية، التي لم يكن له عليها سلطة.

قال في داخله إنه قد أصبح منهكاً جدّاً، فهو لن يبقى مستيقظاً بجانب المريض في هذه الليلة، ولكن سيترك أمره للسيدة أيبل، التي تستطيع أن تستدعي زوجها عند الضرورة.

في الساعة السادسة بعد أن انتابت رفلز نوبات متقطعة من النوم، كان قد استيقظ منها متعباً وهو يصرخ بأنه كان يغرق، بدأ بولسترود بإعطائه جرعات من المخدر بحسب تعليمات ليدجيت، وبعد نصف ساعة أو أكثر، استدعى السيدة أيبل، وأخبرها أنه لم يعد يقوى على متابعة المراقبة، وأنه يجب أن يخضع المريض لرعايتها، فراح يكرر لها تعليمات ليدجيت بما يتعلق بكمية كل جرعة.

لم تكن لدى السيدة أيبل معرفة مسبقة بوصفات السيد ليدجيت، فأحضرت وهيأت ببساطة كل ما طلب منها بولسترود، وفعلت كل ما أشار إليها به، ثم بدأت تسأل عما ينبغي

لها فعله إلى جانب إعطاء المخدر.

«لا شيء في الوقت الحاضر، باستثناء تقديم الحساء أو الماء الغازي. يمكنك أن تأتي إلي لأجل تعليمات أخرى. إنني لن أحضر إلى هذه الغرفة ثانية في هذه الليلة ما لم يحدث شيء مهم. يمكنك أن تطلبي المساعدة من زوجك عند الضرورة. يجب أن أذهب إلى فراشي مبكراً».

قالت السيدة أبيل: «إنك تحتاج إلى ذلك جدّاً يا سيدي، فأنا متأكدة من ذلك».

ذهب بولسترود دون أن ينتابه قلق حول ما يمكن أن يقوله رفلز في نوباته التي أصبحت تعتبر مسألة عدم وعي. ومن المرجح أنه لا يمكن لها أن تسبب اعتقاداً خطيراً. نزل أولاً إلى الغرفة ذات الجدران الخشبية الفخمة، وفكر لو أنه لم ينزع سرج حصانه لذهب إلى منزله مع ضوء القمر وترك الرعاية بين يدي العواقب الكونية، ثم تمنى لو أنه طلب من ليدجيت أن يحضر ثانية في ذلك المساء.. فربما قدم وجهة نظر مختلفة، واعتقد أن رفلز ينتقل إلى مرحلة أقل أملاً.

هل ينبغي له أن يرسل وراء ليدجيت إذا كانت حالة رفلز تزداد سوءاً وكان يموت ببطء...؟ شعر بولسترود أنه يستطيع الذهاب إلى فراشه، والنوم وهو ممتن للعناية الإلهية، ولكن هل كانت حالته حقاً تزداد سوءاً؟ ربما جاء ليدجيت وقال ببساطة إنه يتحسن كما كان يتوقع، وتنبأ أنه بعد قليل من الوقت سيبدأ في النوم بارتياح فتتحسن حالته. ما جدوى الإرسال وراءه؟ لقد أجفل بولسترود من تلك النتيجة.

لا وجهات نظر ولا أفكار يمكن لها أن تمنعه من رؤية الاحتمال الوحيد هو أنه إذا ما تعافى رفلز، فإنه سيكون الرجل نفسه الذي كان من قبل وقد تجددت قوته في التعذيب، ليضطره إلى إجبار زوجته على الرحيل، فتقضي حياتها بعيدة من أقاربها وأصدقائها وموطنها الأصلي، حاملة ضده في قلبها الشكوك المخزية.

جلس في هذا الصراع لساعة ونصف لوحده بالقرب من ضياء نار الموقد، ثم جعلته فكرة مفاجئة ينتفض وينهض ليشعل شمعة غرفة النوم، التي أحضرها معه.. كانت تلك الفكرة هي أنه لم يقل للسيدة أبيل متى يجب أن تتوقف عن إعطاء دواء المخدر.

لقد أمسك بالشمعة لكنه وقف متسمراً لوقت طويل. ربما أعطته مسبقاً جرعة أكبر مما

وصف السيد ليدجيت، وسيكون ذلك مبرراً بالنسبة اليه.. أي أن ينسى جزءاً من التعليمات، ولاسيما أنه في هذه الحالة المضنية.

صعد إلى الطابق العلوي والشمعة في إحدى يديه، ولا يعلم ما إذا كان عليه أن يدخل غرفته مباشرة ويذهب إلى سريره، أو يستدير تجاه غرفة المريض ليصحح خطأه. توقف قليلاً في الممر ووجهه مستدير نحو غرفة رفلز، فاستطاع أن يسمعه يئن ويتمتم. إذاً لم يكن نائماً. من يستطيع أن يعلم أن عدم اتباع وصفة ليدجيت لهو أفضل من اتباعها، ولاسيما أنه لم ينم حتى الآن؟ لقد دخل غرفته وبعد أن خلع جميع ثيابه، قرعت السيدة أيبل الباب، ففتحه بقدر كافٍ ليسمعها تقول بصوت منخفض:

«لو تسمح يا سيدي... ألا ينبغي أن أقدم بعضاً من شراب البراندي أو أي شيء آخر للمخلوق المسكين، فهو يشعر أنه يغرق، ولا يقبل أن يتناول أي شيء آخر. فإذا ما شرب قليلاً من الخمر فإنه سيمنحه قليلاً من القوة، وهو يقول إنه يغرق أكثر فأكثر في الأرض».

لدهشته لم يجب السيد بولسترود.. إذ كان يعتمل في صدره صراع.

«أعتقد أنه سيموت لحاجته الى شيء يدعمه إذا ما بقي في هذه الحالة. حين كنت أقوم على رعاية سيدي السابق المسكين السيد رابسون كنت أقدم له باستمرار خمراً برتغاليّاً وشراب البراندي، كأساً كبيرة منه في كل مرة»..أضافت هذا السيدة أيبل بنبرة اعتراض. إلا أن السيد بولسترود في هذه المرة كذلك لم يجب مباشرة، فتابعت:

«لا يوجد وقت كي يضاع عندما يكون الناس على عتبة الموت، وأنت لا تتمنى ذلك يا سيدي، إنني متأكدة من ذلك وإلا أعطيته زجاجة شراب الرم التي نملكها، ولكن ما دمت مستيقظاً فينبغي لي أن أفعل كل شيء بحسب أوامرك».

ألقى، عند تلك اللحظة، بمفتاح عبر فتحة الباب، وقال السيد بولسترود بصوت أجش:

«ذاك هو مفتاح مخزن الخمر. ستجدين كثيراً من شراب البراندي هناك».

في الصباح الباكر وحوالي الساعة السادسة، نهض السيد بولسترود، وقضى بعضاً من الوقت في أداء صلواته. هل يفترض أحد أن الصلوات الانفرادية الخاصة لا بد من أن تكون نزيهة... ولا بد لها بالضرورة من أن تذهب إلى جذور الأفعال..؟!

الصلوات الانفرادية الخاصة هي كلام في السر... والكلام يعبر عن أشياء.. فمن يستطيع أن يعبر عن نفسه تماماً كما هو عليه حتى من خلال ردود أفعاله؟ لم يحل السيد بولسترود في ذهنه ألغاز النزعات التي كانت تراوده خلال الأربع والعشرين ساعة الماضية.

لقد أصغى، بينما كان في الممر، فاستطاع أن يسمع تنفس شخير صعب، ثم خرج إلى الحديقة، ونظر إلى طبقة صقيع الصباح على العشب وأوراق الربيع اليانعة. عندما عاد إلى المنزل أدهشته رؤيته للسيدة أيبل. «كيف حال مريضك... أعتقد أنه نائم..!؟»، قال ذلك محاولاً إبداء بعض البهجة في صوته.

قالت السيدة أيبل: «إنه في نوم عميق يا سيدي.. لقد غط في نومه تدريجاً بين الساعة الثالثة والرابعة. هل تتفضل بالذهاب إليه لتراه؟ أعتقد أن تركي له لن يلحق به أي أذى. لقد ذهب زوجي إلى الحقل، وابنتي الصغيرة تلعب بالحصى».

صعد بولسترود إلى الطابق العلوي، ومجرد أن ألقى نظره على رفلز عرف أنه لا يغرق في النوم الذي يبعث الإحساس بالانتعاش، لكنه كان يغرق في النوم الذي ينساب نحو خليج الموت.

جال بنظره في الغرفة، فرأى زجاجة لا يزال فيها بعض شراب البراندي وعلبة شبه فارغة من دواء المخدر، فأخفى علبة المخدر، ثم حمل معه زجاجة البراندي إلى الطابق السفلي، وأعادها إلى مخزن الخمر.

بينما كان يتناول الإفطار، فكر في أن يذهب مباشرة إلى مدل مارش أو أن ينتظر وصول ليدجيت. قرر الانتظار، ثم قال للسيدة أيبل إنها يمكن أن تنصرف إلى عملها، فهو يستطيع أن يراقب في غرفة النوم.

بينما كان جالساً ينظر إلى عدوّي أمنه وطمأنينته وهو يغرق في صمت ميؤوس منه، شعر بارتياح لم ينتبه لشهور كثيرة. لقد لف جناح الكتمان ضميره فهدّأ من روعه، وبدا وكأن ملاكاً قد نزل ليبعث الطمأنينة في نفسه.

أخرج من جيبه مفكرته الخاصة ليعيد النظر بالعديد من التزاماته التي رتبها وشرع بتنفيذها نتيجة لقراره السابق بمغادرة مدل مارش، و لاسيما أن غيابه الآن سيكون لمدة محدودة فقط، فسيكون غيابه القصير مناسبة ملائمة لانسحابه من إدارة بعض المشاريع الاقتصادية، وكان يأمل كذلك في أن تأخذ السيدة كزابون على عاتقها قسطاً كبيراً من

المساهمة في المستشفى.

بهذه الطريقة مرّت الدقائق حتى حدث تغير في التنفس الشخيري، فجذب انتباهه كلياً نحو الفراش، وأجبره على التفكير بالحياة التي كانت تفارق صاحبها، والتي دعمت حياته هو في أحد الأيام، وكان يوماً سعيداً عندما وجدها أرضاً خصبة له ليتصرف كما يشاء.

إذاً فسعادته في ذلك الوقت هي التي دفعته ليكون سعيداً الآن عندما رأى نهاية تلك الحياة.

ومن يستطيع القول إن موت رفلز قد عُجّل به؟ من يعرف ماذا كان يمكن أن ينقذه؟

وصل ليدجيت في الساعة العاشرة والنصف، في الوقت التي يجعله يشهد لفظ الأنفاس الأخيرة. عندما دخل الغرفة، لاحظ بولسترود انطباعاً مفاجئاً على وجهه... لم يكن نتيجة الدهشة، بل نتيجة إدراكه أنه قد أخطأ في الحكم.

وقف صامتاً بالقرب من الفراش لبعض الوقت وعيناه تحدقان في الرجل الذي كان يموت، ولكن لم يظهر عليه أنه كان يجول في خاطره حوار داخلي.

قال وهو ينظر إلى بولسترود «متى بدأ حدوث هذا التغير...؟».

قال بولسترود: «لم أسهر على مراقبته في الليلة الماضية. كنت مرهقاً جدّاً، فتركته برعاية السيدة أيبل. قالت إنه غرق في النوم بين الساعة الثالثة والرابعة. عندما دخلت قبل الساعة الثامنة كان تقريباً في مثل هذه الحالة».

لم يطرح ليدجيت سؤالاً آخر، لكنه ظل يراقب صامتاً حتى قال: «لقد انتهى الأمر». في هذا الصباح كان ليدجيت يعيش حالة استعادة الأمل والحرية، فقد انطلق في عمله بكامل حيويته القديمة، وشعر أنه على قدر كافٍ من القوة التي تمكنه من تحمّل جميع نواقص زواجه.

كما أنه كان مدركاً لحقيقة أن بولسترود قد كان مصدر نفع له، لكنه لم يكن مرتاحاً لهذه المسألة، فهو لم يتوقع أن تنتهي كما انتهت عليه، فهو لم يعرف كيف يوجه سؤالاً لبولسترود دون أن تظهر عليه الإساءة تجاهه، ولماذا يسأل خادمة المنزل، فالرجل قد مات، ويبدو أن لا جدوى من الإلماح إلى أن جهل أو حماقة أحد قد قتلته. في آخر المطاف ربما يكون هو مخطئاً.

انطلق مع بولسترود إلى مدل مارش، فتحدثا عن أشياء كثيرة... بشكل رئيسي عن مرض الكوليرا وفرص نجاح وصفة الإصلاح في مجلس اللوردات، والقرار الصارم حول الاتحادات السياسية.

لم يقولا شيئاً حول رفلز، باستثناء ما ذكره بولسترود عن ضرورة دفنه في مقبرة كنيسة لُويك، وقال إن الرجل لم يكن له أقارب على حد علمه باستثناء ريج الذي قال عنه رفلز إنه لم يكن لطيفاً معه.

لدى عودته إلى منزله، تلقى ليدجيت زيارة من السيد فيربرذر. لم يكن الكاهن في البلدة في اليوم السابق، لكن أنباء وضع منزل ليدجيت في التنفيذ قد وصلت إلى لُويك في المساء، فقد حملها إلى هناك السيد سبايسر صانع الأحذية وحاجب الأبرشية، الذي بدوره تلقاها من أخيه مركب الأجراس في لُويك جيت.

منذ ذلك المساء الذي عاد فيه ليدجيت من غرفة لعبة البلياردو بصحبة فِرد فنسي، كانت وجهة نظر فيربرذر فيه كئيبة. اللعب في غرفة البلياردو مرة أو عدة مرات، يمكن أن يكون أمراً تافهاً لدى رجل آخر، ولكن لدى ليدجيت لهو مؤشر على أنه قد خرج عن طبيعته السابقة.

لقد بدأ القيام بأشياء كان يعتبرها سابقاً أموراً تافهةً جدّاً. مهما كان عدم الرضى الناجم عن الزواج، الذي لفت انتباهه إليه ثرثرة الآخرين، من التأثير على هذا التغير، فإن السيد فيربرذر قد شعر أنه مرتبط بشكل رئيسي بالديون التي كانت تتردد أنباؤها أكثر فأكثر، فبدأ يخشى من أن تكون فكرة أن ليدجيت يملك مصادر وأقارب أثرياء هي فكرة وهمية فقط.

الرّد السلبي الذي تلقاه عندما أراد أن يحوز ثقة ليدجيت أول مرة جعله يحجم عن القيام بمحاولة ثانية، لكن أنباء إجراءات التنفيذ في منزل ليدجيت جعلت الكاهن يتغلب على نفوره.

كان ليدجيت قد فرغ للتو من علاج مريض فقير كان قد اهتم بأمره جدّاً، فتقدم مادّاً يده لمصافحة الكاهن ببشاشة وسرور، مما أدهش السيد فيربرذر. هل يمكن لهذا أن يكون أيضاً رفضاً متكبراً للعطف والمساعدة...؟ في أيّ حال، العطف والمساعدة ينبغي أن يقدما.

«كيف حالك يا ليدجيت؟ لقد أتيت لرؤيتك لأنني سمعت شيئاً جعلني أقلق عليك». قال هذا الكاهن بنبرة أخوية خالية من اللوم والتأنيب، وفي هذه اللحظة كانا قد جلسا سويّاً، فأجاب ليدجيت مباشرة:

«أعتقد أنني أعلم ما تعني.. لقد سمعت أن إجراءات تنفيذ قد وضعت في المنزل...؟».

«نعم... أهذا صحيح..؟».

«كان صحيحاً». قال هذا ليدجيت وقد ظهرت عليه علائم الحرية، فبدا أنه لا يمانع من التحدث في الأمر الآن.. «إلا أن الخطر قد زال، والدين قد سدّد، وأنا قد خرجت من الصعوبات، فهكذا سأكون متحرراً من الديون، وآمل أن أكون قادراً على أن أبدأ خطة جديدة»».

«إنني مسرور جدّاً لسماع ذلك». قال هذا الكاهن، وهو يسند ظهره إلى كرسيه، بصوت خافت وسريع... غالباً ما يتبع زوال عبء ثقيل: «لقد سررت لهذا أكثر مما تسرّني جميع الأخبار في صحيفة التايمز. إنني أعترف أنني قد أتيت إليك بقلب مثقل جدّاً».

قال ليدجيت بود ولطف: «أشكرك لقدومك هذا.. أستطيع أن أستمتع بلطفك أكثر لأنني سعيد. من المؤكد أنني قد حطمت كثيراً، ولا أزال أتحسس آلام الكدمات التي تلقيتها من وقت إلى آخر. ثم أضاف مبتسماً بمسحة حزن: لكنني أستطيع أن أشعر الآن أن مسمار التعذيب قد زال عني».

صمت السيد فيربرذر للحظة ثم قال بشغف:

«يا صديقي العزيز دعني أطرح عليك سؤالاً واحداً، وسامحني إذا ما تجاوزت حدودي».

«لا أعتقد أنك ستسأل عن أي شيء يسيء إلي».

«لكن هذا ضروري كي يريح قلبي تماماً... إنك لم... هل؟ كي تسد دينك قد رتبت على نفسك ديناً آخر يمكن أن يرهقك باستمرار في المستقبل...؟».

قال ليدجيت وقد تلون قليلاً: «كلا... لا يوجد سبب يمنعني من أن أخبرك ما دامت الحقيقة هي كذلك... إن الرجل الذي أنا مدين له هو بولسترود. لقد قدم لي مبلغاً كبيراً... ألف جنيه... وهو يستطيع الانتظار حتى أسدّده».

«حسناً... إن ذلك لكرم». قال هذا السيد فيربرذر مكرهاً نفسه على الإطراء على الرجل الذي لم يكن يحبه، وقد أجفل شعوره المرهف لدى تفكيره في حقيقة أنه كان دائماً يحث ليدجيت على أن يتجنب أي ارتباط شخصي مع بولسترود، ثم أضاف مباشرة: «ولبولسترود اهتمامات حقيقية في أعمالك الخيرة بعد أن عملت معه بطريقة ربما تسببت في خفض دخلك بدلاً من أن يزيد. إنني سعيد لأنه قد تصرف بموجب ذلك».

شعر ليدجيت بعدم ارتياح بسبب هذه الافتراضات اللطيفة، فقد أوجدت بعداً آخر في داخله، حرّك شعوراً مقلقاً لديه كانت قد ظهرت أول علائمه المبهمة فقط قبل ساعات.. إذ ان الدوافع الكامنة وراء إحسان بولسترود المفاجئ ربما كانت أنانية.

جعل الافتراضات اللطيفة تمر، فهو لم يستطع أن يسرد قصة الإقراض، ولكنها كانت حاضرة في مخيلته بوضوح أكثر من ذي قبل، ولا سيما أن الكاهن قد تجاهل الحقيقة بلطف... أي أن هذه العلاقة المبنية على الدين لبولسترود كان قد قرر مرة تجنبها تماماً.

بدأ، بدلاً من أن يجيب، يتحدث عن خططه المالية، وعن أنه بدأ ينظر إلى الحياة بمنظار مختلف.

قال: «سأنشئ عيادة موسعة... حقّاً أعتقد أنني قد وظفت جهداً خاطئاً في هذا المجال، وإذا كانت روزموند لا تمانع، فسأتخذ معي طبيباً متمرناً. إنني لا أحب هذه الأشياء، ولكن إذا ما قام المرء بها بإخلاص، فإنها لن تصيبه بخيبة أمل. لقد عانيت من قروح شديدة في بداية حياتي العملية مما جعل الخدوش البسيطة هينة جدّاً علي».

يالليدجيت المسكين...! عبارة «إذا كانت روزموند لا تمانع»، التي سقطت تلقائيّاً من فمه كأنها جزء من تفكيره، كانت علامة معبرة عن النير الذي كان يحمله، لكن السيد فيربرذر، الذي امتزجت آماله مع آمال ليدجيت الحاضرة وما كان يعرف عنه شيئاً يمكن الآن أن ينشئ سجناً كئيباً، قد غادره بعد أن قدم له التهاني الودية.

الفصل الحادي والسبعون

المهرج: لقد كانت غرفة في الحانة... تلك التي حقّاً فتنتك كي تجلس فيها... أليس كذلك؟

فروث: لقد فعلت ذلك لأنها كانت غرفة مفتوحة لعامة الناس... وهي جيدة في فصل الشتاء.

المهرج: حسناً جدّاً إذاً... أتمنى أن تكون تلك هي الحقيقة.

واحدة بواحدة...

شكسبير

بعد مرور خمسة أيام على موت رفلز، كان السيد بامبردج يقف ليرفه عن نفسه تحت القوس الضخم الذي كان يؤدي إلى فناء حانة جرين دراجون. لم يكن مغرماً بالتأمل المنعزل، لكنه خرج للتو من منزله كأي شخص يريد الترفيه عن نفسه، من خلال الوقوف تحت القوس الضخم في وقت مبكر من المساء، وهو متأكد من أنه سيثير اهتمام بعض الصحبة كما لو كان حمامة وجدت شيئاً يستحق النظر إليه.

في هذه الحالة هناك هدف مادي يسعى وراءه، لكن عين التفكير وجدت قوتاً فكريّاً لها في هيئة ثرثرة. كان السيد هوبكنز تاجر القماش الخنوع أول من تصرف بموجب هذه الرؤية الداخلية، إذ كان يطمح وراء أحاديث يجريها مع الرجال لأن معظم زبائنه كانوا من النسوة. كان بامبردج فظّاً مع تاجر القماش، فعلى الرغم من إدراكه أن التاجر يود الحديث معه إلا أنه ما كان ليقدم قسطاً كبيراً من حديثه مع هوبكنز، وفي أيّ حال... ما إن انقضى وقت قصير، حتى تجمع العديد من المستمعين الأكثر أهمية، فكانوا إما من المارين بالصدفة فتوقفوا، أو أولئك الذين جاؤوا يمشون الهوينى ليروا ما إذا كان هناك شيء يجري في حانة جرين دراجون، فوجد السيد بامبردج فرصته كي يتحدث حول أشياء كثيرة ممتعة... حول الخيول الأصيلة التي رآها، وتلك التي اشتراها في أثناء رحلته التي قام بها إلى الشمال وقد

عاد منها للتو. كما أكد للحاضرين أنه إذا ما كان في استطاعة أحدهم أن يقدم له حصاناً جديراً بتلقيح فرس كميت بلغت الرابعة من عمرها، فأصبحت مؤهلة للحمل والولادة، ومن رغب في الذهاب لرؤيتها فهي موجودة في دونكستر، إذ إن السيد بامبردج سيكون ممتناً جدّاً لذلك الرجل حتى إنه سيمتعه بالنظر إليه وهو يطلق النار عليه حتى هيرفورد. كما حدثهم حول زوج من الخيل السوداء مما جعله يتذكر زوجاً آخر كان قد باعه للسيد فولكنر بمئة جنيه، ثم باعه السيد فولكنر فقط بعد ستة أشهر بمئة وستين جنيهاً، فأكد لهم السيد بامبردج أنه إذا ما كان في استطاعة أحد أن ينقض ما قاله سيكون له الحق بنعت السيد بامبردج بأقبح الأسماء حتى تجف حنجرته.

عندما وصل الحديث عند هذه النقطة من الحماس حضر فرانك هولي. لم يكن من الرجال المستعدين للتضحية بوقارهم بدخوله إلى حانة جرين دراجون، ولكن عندما رأى السيد بامبردج على الجانب الثاني من الشارع وهو يسير صدفة في الشارع الرئيسي، أسرع الخطى ليقطع الشارع متوجهاً نحو تاجر الخيول ليسأله ما إذا كان قد حظي بحصان من الدرجة الأولى لعربته، إذ كان السيد بامبردج قد كلف بذلك. طلب من السيد هولي الانتظار حتى يرى حصاناً رمادي اللون تم اختياره في بلكلي، وإذا لم تكن مواصفاته مطابقة لرغبته تماماً فإن السيد بامبردج من المرجح أنه لن يعثر على حصان يطابق تلك المواصفات.

بينما كان السيد هولي واقفاً يدير ظهره إلى الشارع يحدد موعداً كي يرى الحصان الرمادي ويشاهده وهو يجري... مر رجل متباطئاً على حصانه.

«بولسترود...!»، قال اثنان أو ثلاثة في الوقت نفسه بصوت منخفض. كان أحدهما تاجر القماش، فنعته بالسيد، ولكن لا أحد من الآخرين كان يأبه بإطلاقه مثل هذا النعت... أكثر من اكتراثه بذكر عربة أجرة ريفرستون عندما تظهر له من بعيد. رمق السيد هولي ظهر السيد بولسترود بنظرة لامبالاة، ولكن عندما تتبعها بامبردج بعينيه بدا على وجهه عبوس ساخر.

«وربي..! إنه ليذكرني». ثم بدأ يخفض صوته قليلاً: «لقد سمعت شيئاً آخر في بلكلي بالإضافة إلى حصان عربتك يا سيد هولي. لقد سمعت حكاية حول بولسترود. هل تعلمون كيف حصل على ثروته..؟ أي رجل يريد أن يعلم شيئاً من هذا بدافع الفضول فأنا أستطيع أن أقدمه له دون ثمن. إذا كان كل واحد قد نال عقوبته، فربما كان على بولسترود أن يؤدي صلواته في مقر تنفيذ العقوبات في بوتاني بي في أستراليا».

«ماذا تعني..؟»، قال السيد هولي داسّاً يديه في جيبيه، وهو يتقدم قليلاً نحو القوس الضخم، فإذا ما تبين أن بولسترود وغد، فسيثبت أن السيد هولي يتمتع بروح تنبؤية.

قال بامبردج مشيراً فجأة بسبابته: «لقد سمعت بها في حفلة من رجل كان صديقاً حميماً لبولسترود. سأقول لكم أين قابلته أول مرة. كان موجوداً في مزاد لارتشر، لكنني لم أكن أعرف عنه شيئاً حينها، فقد انسل من أمامي وهو كان يسعى وراء بولسترود دون أدنى شك.

لقد أخبرني أنه يستطيع أن يبتز بولسترود بأي مبلغ يشاء، فهو يعرف أسراره كلها. في أيّ حال فقد أفشى لي أسراره في بلكلي؛ إذ شرب زجاجة من المسكر القوي. فلتحل اللعنة علي إذا اعتقدته أنه أراد أن يدعي نفسه شاهد ملك، إلا أنه رجل من النوع المتبجح، فالتبجح يكسوه من أعلى رأسه حتى أخمص قدميه، حتى إنه يتبجح بورم الخيل العرقوبي وكأنه يجلب له النقود.

يجب على الرجل أن يعرف متى يجب عليه التوقف». أبدى السيد بامبردج ملاحظته هذه بنوع من الاشمئزاز مقتنعاً أن تبجحه هو يليق بعمله.

قال السيد هولي: «ما اسم الرجل..؟ أين يمكن أن يوجد».

«بالنسبة إلى أين يمكن أن يوجد، فقد تركته مع تبجحه في سراسينز هد، ولكن اسمه رفلز».

صاح السيد هوبكنز: «رفلز..! حضرت تشييع جثمانه البارحة. لقد دفن في لُويك. شارك في تشييعه السيد بولسترود. لقد كان تشييعاً كبيراً». كان لدى المستمعين اهتمام قوي، فتساءل السيد هولي وهو مقطب حاجبيه... حانياً رأسه إلى الأمام: «ماذا؟ أين مات الرجل...؟!».

قال تاجر القماش: «في ستون كورت.. قالت خادمة المنزل بأنه كان أحد أقرباء السيد، وقد حضر إلى هناك مريضاً في يوم الجمعة».

تدخل بامبردج: «ماذا؟.. لقد كان يوم الأربعاء عندما تناولت معه الشراب».

قال السيد هولي: «هل قام على علاجه أي طبيب...؟».

«نعم.. السيد ليدجيت وظل السيد بولسترود مستيقظاً إلى جانبه طوال ليلة واحدة. لقد مات في صباح اليوم الثالث».

قال السيد هولي ملحاً: «تابع يا بامبردج ماذا قال هذا الرجل حول بولسترود...؟».

كانت المجموعة قد زاد عددها مسبقاً، فكان حضور بائع البلدة ضماناً على أن شيئاً يستحق الإصغاء كان يحدث هناك، فقدم السيد بامبردج إفادته على مسمع سبعة رجال، وقد كانت بشكل رئيسي ما نعلمه بما في ذلك الحقيقة التي تتعلق بويل لادسلو مضافاً إليها لون وتفصيلات محلية... فقد كان مضمون تلك الإفادة ما يخاف بولسترود من كشفه، وما يتمنى أن يكون قد دفن إلى الأبد مع جثة رفلز... إذ كان شبحه يطارده منذ بداية حياته، ولكن عندما مر بالقرب من القوس الضخم لحانة جرين دراجون، كان واثقاً بأن العناية الإلهية قد حررته من ذلك الشبح.. نعم إنها العناية الإلهية. لم يعترف لنفسه حتى هذه اللحظة بأنه قد قام بأيّ حيلة من شأنها أن تؤدي إلى هذه النهاية... لقد قبل ما عرض عليه. كان من المستحيل إثبات أنه قد فعل ما عجّل في رحيل روح ذلك الرجل.

إلا أن هذا الحديث حول بولسترود انتشر في أرجاء مدل مارش كما تنتشر رائحة دخان النار. تتبع السيد هولي معلوماته من خلال إرساله بائعاً يثق به إلى ستون كورت بحجة الاستفسار حول القش هناك، ولكن في حقيقة الأمر كانت مهمته تنصب حول تجميع معلومات تتعلق برفلز ومرضه من السيدة أبيل.

بهذه الطريقة عرف السيد هولي أن السيد جارث قد حمل الرجل بعربته إلى ستون كورت، فبناءً على ذلك اغتنم السيد هولي فرصة رؤيته للسيد جارث كي يسأله ما إذا كان لديه وقت كي يقوم بالتحكيم إذا طلب منه ذلك، ثم ليسأله بطريق الصدفة عن رفلز. لم يخدع السيد جارث بقول أي شيء يمكن أن يؤذي السيد بولسترود باستثناء الحقيقة التي أرغم على الاعتراف بها... أي انه قد أقلع عن العمل مع السيد بولسترود في الأسبوع الماضي.

رسم السيد هولي استنتاجاته؛ فعندما اقتنع أن رفلز قد روى حكايته للسيد جارث، وأنه نتيجة ذلك أقلع السيد جارث عن عمله مع بولسترود، أخبر ذلك كله للسيد تولر فقط بعد بضع ساعات. انتقلت الإفادة كثيراً بين الناس حتى فقدت طابعها الاستنتاجي، واعتبرت وكأنها قد صدرت مباشرة عن السيد جارث، حتى إنه كان في مقدور مؤرخ مجتهد أن يستنبط أن السيد جارث كان الناشر الرئيسي لجنح بولسترود.

لم يتأخر السيد هولي في إدراكه أن لا ممسك للقانون على اعترافات رفلز ولا على ظروف وفاته. فذهب بنفسه إلى قرية لُوِيك كي يطلع على السجل، ويتحدث حول المسألة برمتها مع السيد فيربرذر، الذي لم تصبه دهشة أقوى من تلك التي أصابت المحامي لكشف أسرار قبيحة حول بولسترود، على الرغم مما كان يمتلكه من عدالة تمنع كراهيته الفطرية من التوصل إلى استنتاجات، ولكن بينما كانا يتحدثان، ربط آخر كان يدور بصمت في ذهن السيد فيربرذر، وقد أوحى بما سيقال علانية وقريباً جدّاً في مدل مارش كضرورة وضع الاثنين معاً.

لدى ذكر الأسباب التي أبقت بولسترود خائفاً من رفلز، برق في ذهن فيربرذر أن ذلك الخوف ربما يكون له علاقة بسخائه نحو طبيبه؛ وعلى الرغم من مقاومته لفكرة أن ليدجيت قد قبل ذلك السخاء كرشوة، فإنه تنبأ بأن يكون لهذا التعقيد تأثير مشين على سمعة ليدجيت. في أي حال لقد أدرك أن السيد هولي لا يعلم شيئاً حول التسديد المفاجئ للديون، كما أنه كان حذراً كي يبتعد تماماً من كل ما يؤدي إلى ذلك الموضوع.

«حسناً»، قال وهو يتنهد بعمق راغباً في إنهاء الحوار غير المحدود حول ما قد حدث، على الرغم من عدم إمكانية إثبات أي شيء قانونيّاً، «إنها قصة غريبة. هكذا إذاً صديقنا لادسلو الزئبقي المزاج له نسب غريب جدّاً..! شابة طموحة وموسيقار بولندي وطني شكّلا سلالة كافية له كي يبرز منها، ولكن لم يخطر ببالي قط أن يكون أحد أجداده مرابياً يهوديّاً مبتزّاً. في أي حال لا يعرف أي خليط سيظهر مسبقاً. ربما ستظهر بعض الأوساخ الحقيقية».

قال السيد هولي معتلياً حصانه: «إن ذلك ما كنت أتوقعه تماماً. أي أصل لعين، يهوديّاً كان أو كورسيكيّاً أو غجريّاً».

قال السيد فيربرذر مبتسماً: «إنني أعلم أنه أحد أولئك الذين تعتبرهم غريبي الأطوار يا هولي، لكنه حقّاً لهو شاب نزيه وغير دنيوي».

«نعم نعم... تلك هي إحدى التفافات حزبك... حزب الويج، الأحرار». قال هذا السيد هولي الذي اعتاد أن يقول، بطريقة اعتذار بأن السيد فيربرذر لهو رجل لطيف القلب حتى إنك ربما تعتبره من حزب المحافظين.

عاد السيد هولي إلى منزله دون أن يفكر في إشراف ليدجيت على علاج رفلز في ظل أي ضوء سوى كون ذلك دليلاً يقف إلى جانب بولسترود، لكن أخبار مقدرة ليدجيت على

التخلص من الحجز الذي كان قائماً في منزله... وقدرته على سداد جميع ديونه كاملة، قد انتشرت بسرعة كبيرة في مدل مارش مستجمعة حولها تخمينات وتعليقات كثيرة مما منحها شكلاً جديداً ودفعاً مثيراً، ثم راحت مباشرة تملأ آذان أشخاص آخرين فضلاً عن أذني السيد هولي، الذي لم يتأخر في رؤيته العلاقة المهمة بين هذا التوافر المفاجئ للمال ورغبة بولسترود في خنق فضيحة رفلز.

كون المال الذي أتى من بولسترود قد تمت معرفته دون خطأ على الرغم من عدم وجود دليل مباشر يثبت ذلك، ولكن لأنه عرف مسبقاً عن شؤون ليدجيت أنه لا أحد من أسرته ولا والد زوجته كان سيقدم شيئاً له، كما أن دليلاً مثبتاً لم يأت من موظف في المصرف بل من السيدة بولسترود البريئة نفسها، التي ذكرت القرض للسيدة بلمديل والتي بدورها ذكرت ذلك لزوجة ابنها، التي هي من أسرة تولر الذين قاموا بنشر الخبر، فغدا الأمر رائجاً كثيراً ومهمّاً... حتى إنه تطلب إقامة مأدب عشاء كي يقتات عليها، فقدمت الكثير من الدعوات وتم قبولها نتيجة قوة هذه الفضيحة المتعلقة ببولسترود وكذلك ليدجيت، فراحت الزوجات والأرامل وكذلك الشابات ينهين عملهن ليذهبن الى تناول الشاي أكثر من المعتاد، كما أن أماكن الشراب العامة من جرين دراجون ولغاية حانة دولب تجمعت فيها نكهة ما كانت تتوافر لدى إثارة قضية إلغاء اللوردات وثيقة الإصلاح.

لم يشك أحد في وجود سبب فضائحي يقف وراء كرم بولسترود لليدجيت. قام السيد هولي، في واقع الأمر منذ البداية، بدعوة أشخاص محددين من ضمنهم طبيبان، بالإضافة إلى السيد تولر والسيد رينج بغية إدارة حوار مغلق حول احتمالات مرض رفلز، وقد سرد لهم جميع التفاصيل التي تم جمعها من السيدة أبيل، وكذلك كل ما يتعلق بوثيقة ليدجيت التي نصت على أن الوفاة كانت نتيجة الإفراط بتناول الشراب المسكر، ثم صرح جميع الأطباء، الذين كانوا يتبعون الطرق القديمة في علاج هذا المرض، بأنهم لم يستطيعوا أن يروا أي شيء يمكن أن يشكل أرضية لتلك الشكوك. إلا أن الأرضية الأخلاقية للشك باقية... متمثلة بالمحرض القوي الذي من الواضح أنه قد جعل بولسترود يتمنى التخلص من رفلز، وكذلك تقديم المساعدة في تلك اللحظة الحاسمة لليدجيت على الرغم من معرفته بحاجته إليها لبعض الوقت، والميل إلى الاعتقاد بأن بولسترود عديم الضمير، وكذلك بوجود الميل إلى الاعتقاد بأن ليدجيت يمكن أن يرشى كما يرشى جميع الرجال المتغطرسين، عندما يجدون أنفسهم في حاجة الى المال، حتى لو أعطيت له النقود كي يلجم لسانه عن النطق بفضيحة

بولسترود المتعلقة بحياته القديمة، تظل الحقيقة تلقي بضيائها الكريه على ليدجيت الذي كان ينظر إليه لوقت طويل على أنه تابع لمالك المصرف لأجل أن يرقى بنفسه إلى مراتب أعلى، ويضعف الثقة بزملاء مهنته الذين هم أقدم منه خبرة.

على الرغم من عدم العثور على أي دليل مباشر على الذنب الذي نجمت عنه الوفاة في ستون كورت، انصب اجتماع الأفراد المنتقين من قبل السيد هولي بانطباع على أن للقضية مظهراً قبيحاً.

إلا أن هذا الاتهام الغامض للذنب المتعذر الجزم فيه، الذي كان كافياً كي يجعل الرؤوس تهتز دائماً وكذلك التلميحات القاسية... تنطلق حتى بين المهنيين من الدرجة الأولى، كان له قوة لدى الأذهان حيث سيطر الغموض على الحقيقة.

كان يرغب الجميع في التخمين بما جرى، أكثر من رغبتهم في معرفة الحقيقة، لأن التخمين يتحكم بالذات على نحو أسرع من تحكم المعرفة، كما أنه يملك حيزاً أكبر لعدم التطابق، حتى الفضيحة المؤكدة لماضي حياة بولسترود ذابت ضمن الغموض الهائل، الذي كان يكتنف بعض الأذهان، فكانت كما يصب المعدن في الحوار ليأخذ شكلاً رائعاً بحسب ما يريده الخالق.

كانت هذه طريقة تفكير تتميز بها بشكل رئيسي السيدة دولب، السيدة الجريئة مالكة حانة التنكارد في سلوتر لين، التي كانت دائماً تناقض فلسفة زبائنها السطحية معتبرة قوة التقارير التي كانوا يأتون بها من العالم الخارجي، تعادل قوة ما يظهر في ذهنها. أما كيف ظهر لها ذلك، فهي لم تعلم، لكنه مثل أمامها كأنما حُزّ بالطبشورة على لوح المدخنة... «كما يقول بولسترود، الذي امتلأ داخله بالسواد، لو علم شعر رأسه بأفكار قلبه لاجتثه من جذوره».

«هذا غريب..!»، قال السيد لمب وهو صانع أحذية متأمل وذو نظر ضعيف وصوت رفيع يشبه المزمار: «لقد قرأت في صحيفة الترمبت ما قاله دوق ولينغتون، عندما أدار ظهره ليلتحق بالرومان».

قالت السيدة دولب: «شيء شبيه تماماً... إن قالها وغد، فمن العقل أن يكررها آخر. إلا أنه عندما يكون مرائيّاً، كما هو عليه الآن، ويتظاهر بالكبرياء وكأنه لا يوجد في البلاد رجل دين يوازيه، كان عليه أن يستشير الشيطان، وحتى الشيطان لهو كثير عليه جدّاً».

قال بائع الزجاج السيد كراب الذي جمع معلومات كثيرة وراح يتلمسها بسذاجة: «إنه شريك في الجريمة، فلا يمكن إرساله خارج البلاد. ولكن ما أستطيع التوصل إليه، هو أنهم يقولون بأن بولسترود كان يحاول الهروب خيفة أن ينكشف أمره».

قال السيد دل الحلاق الذي دخل للتو: «سيتم إبعاده في جميع الأحوال. لقد حلقت هذا الصباح ذقن فليتشر الموظف لدى هولي... وكان يشكو من ألم في إصبعه... فقال لي إنهم يجمعون على التخلص من بولسترود. كما أن السيد ثيسيجر أصبح ضده أيضاً، ويريد إخراجه من الأبرشية. وهناك رجال في هذه البلدة يقولون إنهم يفضلون تناول العشاء مع مجرمين من سجن السفينة. كما قال فليتشر أيضاً: أتمنى أن يتم ذلك خلال وقت قريب جدّاً، فما هو أقسى على معدة الرجل من رجل يأتي ليجعل من نفسه صحبة سيئة لدينه، فيدعي أن الوصايا العشر لهي قليلة جدّاً بالنسبة له، بينما في واقع الأمر هو أسوأ من نصف المجرمين الذين ينفذون عقوبتهم على آلة التعذيب! هذا ما قاله فليتشر لنفسه».

قال السيد لمب بصوت مرتجف: «سيكون أمراً سيئاً للبلدة إذا ما أخذ بولسترود ماله معه». قال عامل الصباغة ذو الصوت الأجش الذي لا تتناسب يداه الحمراوان مع طلعة وجهه البهية: «هناك أناس أفضل منه وينفقون مالهم بطريقة أسوأ».

قال بائع الزجاج: «ولكن من خلال ما أستطيع فهمه، فهو لن يستطيع الحفاظ على ماله. ألا يقولون بأن هناك شخصاً يستطيع انتزاعها منه؟ ومن خلال ما أستطيع فهمه فهم يستطيعون أخذ جميع نقوده إذا أخذوه إلى المحكمة».

«لن يحدث شيء كهذا...!»، قال هذا الحلاق الذي شعر بأنه بدرجة أعلى من درجة أولئك الذين كانوا معه في الحانة، لكنه لا يزال يرغب في تلك الصحبة: «يقول فليتشر بأنه لن يحدث شيء من هذا. وهو يقول إنه ينبغي لهم أن يثبتوا من هما أبوا لادسلو، وحتى عندما يفعلوا ذلك فلن يكون هناك أي جدوى تماماً كما لو أثبتوا بأنني قد خرجت من المستنقع، إذ لن يحصل لادسلو على بنس واحد».

«انظروا جميعاً...!»، قالت السيدة دولب بغضب: «إنني أشكر الرب الذي أخذ مني أبنائي إذ هذا كل ما يستطيع أن يفعله القانون لمن لا أم له. إذاً عندها لا جدوى من معرفة من هما أبواك. أما بالنسبة الى الاستماع إلى ما يقوله محام دون أن يسأل محامياً آخر، فإنني لأعجب من رجل يحمل ذكاءً مثل ذكائك يا سيد دل. إنّه من المعلوم جيداً أن هناك دائماً

وجهين إن لم يكن أكثر، وإلا من سيلجأ إلى القانون؟ ذلك ما أود معرفته. إنها قصة حزينة، مع وجود القانون برمته، إذا لم يكن هناك جدوى من إثبات من هما أبواك. ربما يقول ذلك فليتشر إن أحب، لكنني أقول بأنني لا أوافقه الرأي...!؟؟».

تظاهر السيد دل بضحكة تنم عن الإطراء وكأنها امرأة أقوى من المحامين أنفسهم، فبدا وكأنه خاضع لسخرية مالكة حانة كان لها حساب طويل عليه. قال بائع الزجاج: «إذا ذهبوا به إلى المحكمة، وكان كل شيء حقيقياً كما يقول الناس، فهناك شيء ينبغي النظر فيه أكثر من المال.. هناك ذلك المخلوق المسكين الذي مات وذهب، إذ أستطيع أن أستنتج أنه كان في أحد الأيام رجلاً نبيلاً أكثر من بولسترود».

قالت السيدة دولب: «رجلاً نبيلاً..!؟ إنني أضمن ذلك. وكذلك كان رجلاً أكثر جاذبية، من خلال ما أسمعه. كما قلت من قبل عندما أتى رجل الضرائب السيد باولدوين ووقف حيث تجلس وقال: لقد كسب بولسترود جميع النقود التي جاء بها إلى البلدة عن طريق السرقة والخداع. فقلت له: إنك لا تسديني حكمة يا سيد باولدوين... إذ إن دمي يثور لدى رؤيتي له عندما جاء إلى سلوتر لين كي يشتري منزلي. فلا يبدو الناس كلون إناء العجين وهم يحملقون بك وكأنهم يريدون أن يروا عمودك الفقري دون مقابل... لقد كان هذا ما قلته، ويستطيع السيد باولدوين أن يشهد على ذلك».

قال السيد كراب: «وإنك محقة في ذلك أيضاً. لأن ما أستطيع التوصل إليه هو أن رفلز هذا كما يسمونه، كان رجلاً شهوانيّاً ومتورد الوجنتين، كالذي تتمنّى رؤيته، وهو أفضل من يعاشر... على الرغم من أنه ميت ومدفون في مقبرة كنيسة لُويك، وما أستطيع التوصل إليه كذلك هو أن هناك من يعلم أكثر من الذي تمت معرفته عن سبب وصوله هناك».

قالت السيدة دولب بقليل من الازدراء من سذاجة السيد كراب: «إنني أصدقك!! عندما يغرى الرجل ببيت منعزل، ويوجد فيه من يسهر على رعايته ليلاً ونهاراً وهم قادرون على الإنفاق على مستشفيات نصف الريف وممرضاته، ولا يستطيع الاقتراب سوى طبيب مفلس للغاية، ثم فجأة يمتلئ جيبه بالنقود، حتى إنه أصبح قادراً على سداد السيد بايل الجزار، الذي تراكمت فاتورته نتيجة لشراء أفضل اللحم منذ عيد مار ميخائيل الأخير... لا أريد لأحد أن يأتي ليقول لي بأنه لا يزال هناك أشياء أخرى تقع وهي أكثر من انعظات المأخوذة من الكتاب المقدس... إنني لا أريد أن أقف لأغمز وألمز وأفكر».

نظرت السيدة دولب بطريقة السيدة التي اعتادت على من حولها. كانت هناك موافقة

من قبل معظم الحضور على ما قالته، ولكن بعد أن تناول السيد لمب قليلاً من الشراب شبك يديه وضغط بهما على ركبتيه، ثم نظر إليهما بعين تأمل مشوشة، فبدا وكأن قوة كلام السيدة دولب الحارقة قد بخرت وجففت حضور بديهته، فأصبحت في حاجة كي يعيدها من خلال تناوله قليلاً من الخمر.

قال عامل الصباغة: «لماذا لا يحفرون قبر الرجل ويأتون بالمحقق؟ لقد اتخذ هذا الإجراء في الماضي مرات ومرات عديدة، إذا كان هناك فعل شرير لربما استطاعوا أن يكتشفوه».

قالت السيدة دولب مؤكدة: «ليسوا هم من يفعلون ذلك يا سيد جوناس، إنني أعلم من هم الأطباء...؟ إن مكرهم أشد من أن يكتشف. وهذا الطبيب ليدجيت، الذي كان يقوم بتشريح الناس حتى قبل وفاتهم، من الواضح لماذا يريد أن يطلع على داخل الناس الجيدين. تأكد من أنه يعرف الأدوية الى حدّ أنك لا تستطيع أن تراها أو تشمها لا قبل أن تشربها ولا بعد ذلك. لقد رأيت أدوية وصفها الطبيب كامبت الذي هو طبيبنا... و ذو شخصية جيدة، وقد ولّد نساء في مدل مارش أكثر مما فعل غيره... لقد رأيت بنفسي أدوية سائلة لا تحدث فرقاً إذا كانت داخل الكأس أو خارجه، وعلى الرغم من ذلك فإنه لا يزال يسبب لك المغص في اليوم التالي، لذلك سأدع لك الأمر كي تحكم عليه. لا تقل لي...!! كل ما أقوله... إنها رحمة أننا لم نتخذ ليدجيت طبيباً لنا وإلا لندم كثير من الأطفال على ذلك».

تحولت عناوين هذا الحوار إلى موضوع نقاش لدى جميع طبقات المجتمع في البلدة، فانتقلت إلى منزل الكاهن في لُوِيك من جهة، وإلى تبتن وكرينج من جهة أخرى، كما أنها وصلت إلى أسماع عائلة فنسي، وقد تم نقاشها من قبل جميع صديقات السيدة بولسترود وهن متعاطفات معها قبل أن يدرك ليدجيت تماماً لماذا كان الناس ينظرون إليه بطريقة غريبة، وكذلك قبل أن يشك السيد بولسترود في كشف أسراره.

إنه لم يعتد على علاقات ودية مع جيرانه، فهكذا لم يفتقد مظاهر الود، وفضلاً عن ذلك تابع القيام برحلات عمله ذات الطبيعة المتعددة، ولا سيما أنه قد قرر عدم تركه لمدل مارش، ونتيجة ذلك شعر أنه قادر على البت في أمور كان قد تركها معلقة.

قال لزوجته: «سنقوم برحلة إلى جلتنهام خلال شهر أو شهرين.. يوجد فرص روحية كثيرة يمكن اغتنامها في تلك البلدة فضلاً عن الهواء والماء، فستة أسابيع ستكون كافية

تماماً كي تنعشنا».

كان حقّاً يؤمن بالفرص الروحية، وقد عني أن يكرس حياته من تلك اللحظة فصاعداً، بسبب الذنوب التي عرض نفسه على نحو افتراضي، إذ كانت تطلب المغفرة افتراضيّاً «إذا كنت هنا مخطئاً».

لم يذكر شيئاً إضافيّاً يتعلق بالمستشفى لليدجيت خشية أن يوضح خطة جاءت على نحو مفاجئ جدّاً بعد وفاة رفلز.

كان يعتقد في مكنونات نفسه، أن شكوكاً قد أثيرت لدى ليدجيت حول عدم تنفيذ متعمد لأوامره، ولأن شكوكاً مثل هذه قد انتابته فلا بد من أن يكون قد شك بدافع ما، ولكن لم يتم أي توضيح له حول تاريخ رفلز، وبولسترود كان فطناً إذ لم يقم بشيء يمكن أن يؤكد تلك الشكوك غير المحددة.

أما من حيث التأكد من العلاج نفسه، أكان منقذاً أم قاتلاً، فليدجيت ذاته كان يجادل باستمرار ضد مثل هذا اليقين. لم يكن لديه الحق في الكلام، كما كان يمتلك جميع الدوافع التي تبرر صمته، وهكذا شعر بولسترود أنه محمي بالقدرة الإلهية.

الحادثة الوحيدة التي أثارت انتباهه كانت المواجهة المصادفة له مع كيلب جارث الذي، في أيّ حال، رفع قبعته ملقياً تحيته بجفاء.

في تلك الأثناء كان هناك تصميم قوي ينمو ضده لدى وجهاء البلدة. كان مقرراً أن يعقد في بناء البلدية اجتماع حول مسألة صحية ظهرت ملحة بأهميتها نتيجة لإصابة أحد أفراد البلدة بمرض الكوليرا.

ونتيجة قرار البرلمان الذي اتخذ بسرعة ليعطي صلاحيات باتخاذ إجراءات صحية، تم تعيين أعضاء مجلس إداري لمثل هذه الإجراءات في مدل مارش.

ولقد قام كل من الحزبين الويج (الأحرار) والمحافظين بكثير من الإجراءات وأعمال النظافة. السؤال الذي ظلّ قائماً هو: بأيّ طريقة يمكن تأمين قطعة أرض خارج البلدة كي تصبح مدفناً لضحايا المرض...؟؟ هل يدفع ثمنها من مال الضرائب..؟ أم من المال الخاص..؟

كان من المقرر أن يكون الاجتماع مفتوحاً، لذلك كان متوقعاً أن يحضره معظم الرجال المهمين في البلدة، ولقد كان السيد بولسترود أحد أعضاء المجلس، فقبل الساعة الثانية عشرة بقليل، انطلق من المصرف وفي نيته دعم خطة استخدام المال الخاص. و نتيجة التردد الذي انتابه في كثير من مشاريعه أبقى نفسه بعيداً من الأنظار لبعض الوقت، لكنه في هذا الصباح شعر بأنه ينبغي له أن يواصل مكانته السابقة كرجل فعال وذي تأثير على الشؤون العامة في البلدة التي كان يتوقع أن تنتهي فيها حياته.

من بين العديد من الرجال الذين كانوا يسيرون في الاتجاه نفسه رأى ليدجيت، فسارا معاً، وراحا يتحدثان حول هدف الاجتماع حتى دخلاه سوية.

بدا لهما أن كل ذي مكانة كان قد حضر قبلهما، ولكن ما زال هناك بعض الأماكن الفارغة حول طرف الطاولة الرئيسية الضخمة، فشقّا طريقهما نحوها. كان السيد فيربرذر يجلس في الجهة المقابلة ليس بعيداً من السيد هولي، وكان هناك جميع الأطباء، كما كان السيد ثسيجر يجلس على كرسيه والى يمينه السيد بروك. لاحظ ليدجيت تبادل نظرات غريبة بينما كان هو والسيد بولسترود يأخذان مكانيهما.

بعد أن افتتحت الجلسة رسميّاً من قبل رئيس المجلس، الذي أوضح مزايا الشراء بالمال الخاص لأرض كبيرة كافية لتكون مقبرة عامة، نهض السيد بولسترود، الذي اعتاد أهالي البلدة على صوته القوي لكنه منخفض وفصيح في مثل هذه الاجتماعات، ليطلب إذناً كي يعرض رأيه.

لمح ليدجيت ثانية تبادل النظرات الغريبة، قبل أن ينهض السيد هولي ليقول بصوته الصارم والصداح: «السيد رئيس الجلسة، إنني أطلب قبل أن يعرض أحد رأيه في هذه القضية، أن يؤذن لي الحديث حول قضية تتعلق بالشعور العام لا أعتبرها أنا كذلك فحسب، بل يفعل كثير من الرجال الحاضرين أيضاً على أنها ذات أولوية وأهمية أكبر». كانت طريقة كلام السيد هولي هائلة بخشونتها ورباطة جأشها حتى حين كانت تكبح اللباقة الاجتماعية قباحة الألفاظ التي كان يستخدمها. قبل السيد ثسيجر الطلب فجلس السيد بولسترود... بينما تابع السيد هولي: «ما ينبغي لي قوله أيها السيد رئيس الجلسة، هو أنني ببساطة لا أتحدث بالنيابة عن نفسي فحسب، بل أتحدث بموجب طلب عبر عنه لي ما لا يقل عن ثمانية رجال هم زملاء لي في بلدتي، وهم يجلسون الآن معنا... يتمثل رأينا بطلب مقدم إلى السيد بولسترود: وإنني الآن لأدعوه كي يتنحى عن جميع المهام المتعلقة بالشؤون العامة، والتي

يتولاها ليس كدافع ضرائب، بل كرجل نبيل يعمل بين رجال نبلاء. هناك ممارسات وأفعال، على الرغم من الظروف المحيطة بها، لا يستطيع القانون البت بها، على الرغم من أنها يمكن أن تكون أسوأ بكثير من تلك التي يعاقب عليها القانون. الرجال النزهاء وكذلك النبلاء إذا كانوا لا يريدون صحبة أناس يقومون بمثل هذه الأفعال، لهم أن يدافعوا عن أنفسهم بأقصى ما يستطيعون، وهذا ما ننوي أنا وزملائي الذين يمكنني القول إنني أمثلهم فعلاً. إنني لا أقول بأن السيد بولسترود قد أذنب بارتكابه أفعالاً مشينة، لكنني أدعوه كي ينفي أو يدحض الإفادة المشينة التي جاءت من رجل هو ميت الآن، وقد مات في بيته... الإفادة التي تدعي بأنه قد قام في الماضي بنشاطات شنيعة، وبأنه قد حصل على ثروته من خلال إجراءات غير مشرفة... وإلا فإنني أدعوه كي يتنازل عن مراتب كان قد تسلمها كرجل نبيل يعمل بين رجال نبلاء».

استدارت جميع العيون نحو بولسترود الذي ما إن ذكر اسمه حتى تملكه شعور أزمة أقوى من أن يتحملها جسمه النحيل. أما ليدجيت، الذي أصبح تحت تأثير صدمة نجمت عن تنبؤه بتفسير عملي مرعب، فقد شعر بحركة كرهه البغيض تتفحصها غريزته المداوية التي تفكر أولاً في جلب الإنقاذ والخلاص للمريض المعاني، عندما نظر ليرى التعاسة المرتسمة على وجه بولسترود الشاحب.

تشير النظرة السريعة لحياته على أنها في آخر المطاف فاشلة، وأنه كان رجلاً غير نزيه وأنه يجب عليه أن يذوي أمام نظرات أولئك الذين كان قد اعتاد أن يفترض لنفسه موقف الموبخ لهم...

إن الرب قد أخزاه أمام الرجال وتركه عرضة للاحتقار المنتصر الصادر عن أولئك الذين سعدوا بتبرير كراهيتهم له... شعوره بالمراوغة مع ضميره في تعامله مع حياة شريكه بالجريمة، كان عبارة عن عبث تام... مراوغة انقلبت عليه بسم قاتل من ناب مكتمل لكذبة مكشوفة... إذ مر هذا بكيانه كما يمر ألم الرعب، الذي لا يقتل ويترك الأذن مفتوحة أمام عودة موجة اللعنة.

إن شعوره المفاجئ بالانكشاف، الذي جاء بعد أن عاوده إحساسه بالأمان، لم يأت إلى نظام المجرم القاسي، بل إلى العصب الحساس لدى رجل، تكمن أقوى جوانب شخصيته في مثل هذه السيادة والسيطرة، التي شكلتها ظروف حياته.

ولكن في ذلك الجانب القوي من شخصيته تكمن قوة رد الفعل. يمر عصب عنيد عبر جسده الضعيف لرغبة الذات الطموحة في البقاء، إذ كانت تلك الرغبة دائماً تطل كاللهب لتبعثر جميع المخاوف العقدية، وبدأ الآن لهبها يتصاعد من تحت رماد شحوبه... حتى حين كان جالساً يطلب الشفقة من أهل الرحمة.

قبل أن تخرج آخر كلمات السيد هولي من فمه، شعر بولسترود بأنه يجب عليه أن يجيب، وأن جوابه يجب أن يكون حاسماً. لم يجرؤ على أن ينهض ليقول: «إنني لست مذنباً، والرواية كلها زائفة»... حتى لو تجرأ على القيام بهذا لبدا له، وهو تحت وطأة عورة الخداع الحالي، أنه تافه الى حدّ كما لو كان يسحب قطعة قماش رقيقة جدّاً تتمزق كلما جرها ليستر بها جسده العاري.

ساد للحظات قليلة صمت مطبق بينما كان الجميع ينظرون إلى بولسترود، الذي كان يجلس بهدوء تام مسنداً ظهره إلى المسند الخلفي لكرسيه، ولم يغامر بالنهوض، وعندما بدأ يتكلم ضغط بيديه على مسند كرسيه، إلا أن صوته كان مسموعاً تماماً على الرغم من أنه كان محشرجاً أكثر من المعتاد، كما كان ينطق كلماته بوضوح تام على الرغم من توقفه عند نهاية كل جملة وكأنه كان يلهث، ثم قال بعد أن نظر إلى السيد تشيجر ثم إلى السيد هولي:

«إنني أحتج أمامك، يا سيدي، كمسيحي متدين على الإقرار بالادعاءات التي أطلقت ضدي وهي صادرة عن كراهية مقيتة، أولئك الذين يقفون ضدي... يسعدهم أن يصدقوا أي إدعاء يطلقه لسان متهور عني، ثم تصبح ضمائرهم قاسية تجاهي. لو افترضنا أن الأقوال الشريرة التي حولتني إلى ضحية، تتهمني بتصرفات مشينة». هنا ارتفع صوت بولسترود، وأصبحت له نبرة أكثر حدة حتى بدا وكأنه بكاء خفيف... «من ذا الذي يتهمني؟ ليس أولئك الرجال الذين يحيون حياة ليست مسيحية، كلا.. بل أولئك الذين حياتهم مليئة بالخزي والافتراءات... أولئك الرجال الذين يستخدمون وسائل وضيعة كي يحققوا أهدافهم... والذين مهنتهم عبارة عن نسيج من الخداع... والذين ينفقون دخلهم لأجل متعهم الحسية، بينما كنت أنا أكرس دخلي كي أحقق أفضل أهداف هذه الحياة والحياة الأخرى».

بعد أن قال كلمة خداع، تعالى في القاعة صوت صخب نصفه همهمة ونصفه الآخر كان همساً، بينما وقف مباشرة أربعة رجال معاً: السيد هولي والسيد تولر والسيد جيجلي والسيد هكبت، إلا أن انفجار السيد هولي جاء سريعاً جدّاً كي يترك الآخرين صامتين وراءهم.

«إذا كنت تعنيني يا سيدي، فأنا أدعوك كما أدعو الآخرين جميعاً كي يدققوا في حياتي المهنية. بالنسبة الى كوني مسيحيّاً أو لست مسيحيّاً، فأنا أستنكر حوارك المرائي في المسيحية، وبالنسبة الى الطريقة التي أنفق بها دخلي، فليس من مبادئي أن أموّل لصوصاً، أو أخدع ذرية كي أسلبهم حقهم في الإرث كي أدعم به الدين، وأجعل من نفسي مفسداً للبهجة ولكن بقدسية. إنني لا أفسد روعة الضمير ولم أجد حتى هذه اللحظة معياراً جيداً أقيس به أفعالك يا سيدي، وإنني لأدعوك ثانية كي تقدم مباشرة تفسيراً مقنعاً للفضائح التي أثيرت ضدك، أو تتخلى عن جميع المناصب التي نرفض قبولك فيها كزميل لنا.

إننا نقول لك يا سيدي: نحن نرفض التعاون مع رجل لم تثبت براءة شخصيته من إدانات جرائم أثيرت ضده، ليس مما روي عن ماضيه، بل من خلال أفعال قام بها مؤخراً».

«اسمح لي يا سيد هولي... ». قال هذا رئيس الجلسة. بينما كان السيد هولي لا يزال يستشيط غضباً، ثم انحنى، بعد نفاد صبره، وجلس ويداه مدسوستان بعمق في جيبيه.

«أعتقد يا سيد بولسترود أنه ليس من المرغوب الإطالة في نقاشنا الحالي..!!»، هذا ما قاله السيد ثسيجر مستديراً نحو الرجل الشاحب والمرتجف: «ينبغي لي أن أتفق بالرأي مع ما جاء من السيد هولي معبراً عن شعور عام، إذ أعتقد أنه من واجبك كمسيحي أن تثبت براءتك من التشهير السيئ الموجه ضدك، إذا كان ذلك ممكناً. وبالنسبة إلي فإنني أرغب في أن أعطيك فرصة كاملة لسماعك، ولكن ينبغي لي أن أقول إن موقفك الحالي لا يتناسب أبداً مع تلك المبادئ، التي كنت تسعى لتقديم نفسك من خلالها، ولا مع الشرف الذي أنا ملزم بالاهتمام به. لذا، فأنا أقترح عليك في الوقت الحاضر كرجل دين يعمل لأجلك وكواحد يتمنى عودة الاحترام لكم كما كان في السابق، أن تخرج من الغرفة، فتتجنب تعطيلاً أكثر للأعمال».

بعد لحظات من التردد التقط بولسترود قبعته من على الأرض، ونهض ببطء لكنه أمسك بزاوية كرسيه مترنحاً بشدة حتى إن ليدجيت قد شعر بأنه ما عاد يقوى على المشي دون أن يساعده أحد.

ماذا عساه أن يفعل..؟؟ إنه لا يستطيع أن يرى رجلاً يغرق أمامه لحاجته الى مساعدة: فنهض وقدم ذراعه لبولسترود، وبهذه الطريقة اقتاده إلى خارج الغرفة، وعلى الرغم من أن هذا الفعل كان يمثل ربما أحد أنبل واجباته وتعاطفه النقي فإنه كان في هذه اللحظة يشكل

مرارة بالنسبة اليه لا يمكن وصفها، كما بدا وكأنه يضع توقيعه على ارتباطه ببولسترود، إذ أدرك الآن معناه بدقة كما ظهر لأذهان الآخرين.

لقد اقتنع الآن بأن هذا الرجل، الذي كان يتكئ مرتجفاً على ذراعه، قد قدم له الألف جنيه كرشوة، وأن خطته في علاج رفلز قد تم التلاعب فيها بطريقة ما لدواعٍ شريرة. لقد كانت الاستدلالات مترابطة تماماً، فأهالي البلدة عرفوا بالقرض، وصدقوا أنَّه كان رشوة، كما صدقوا أنه قد أخذها كرشوة.

يا لليدجيت المسكين، الذي كان تفكيره يصارع تحت القبضة المرعبة لهذا الإلهام المفاجئ. كان مرغماً أخلاقيّاً على أن يأخذ بولسترود إلى المصرف، ثم يرسل رجلاً ليحضر عربته، وينتظر حتى يرافقه إلى منزله.في هذه الأثناء أنجزت مهمة الاجتماع، ثم تفرق المجتمعون إلى مجموعات عديدة ليناقشوا شأن بولسترود وليدجيت.

السيد بروك، الذي لم يسمع عن ذلك إلا القليل جدّاً، وكان غير مرتاح تماماً لذهابه بعيداً في تأييد بولسترود بعد أن أصبح مدركاً تماماً لكل شيء، شعر بحزن لدى تحدثه الى السيد فيربرذر حول الجانب القبيح الذي بدأ ينظر إلى ليدجيت من خلاله. كان السيد فيربرذر يهم بالعودة إلى لُويِك سيراً على أقدامه.

قال السيد بروك: «اصعد إلى عربتي... فأنا ذاهب لأرى السيدة كزابون. من المفترض أنها قد عادت من يوركشاير في الليلة الماضية، إنها ترغب في رؤيتي، كما تعلم».

هكذا ذهبا معاً وراح السيد بروك يتحدث بطبيعته المتفائلة، متمنياً ألّا يكون هناك تصرف سيئ قد صدر عن ليدجيت... إذ كان يرى فيه شاباً فوق مستوى الناس العاديين، عندما جلب رسالة من عمه السير جودوين . لم يقل السيد فيربرذر إلا القليل... إذ كان حزنه عميقاً جدّاً، ونتيجة لتنبؤه بالضعف الإنساني ما كان له أن يثق بأن ليدجيت لم ينحدر عن مستواه تحت ضغوط الحاجة المذلة.

عندما وصلت العربة عند بوابة منزل السيدة كزابون.. كانت دورثيا موجودة في الحديقة، فأتت لمقابلتهما.

قال السيد بروك: «حسناً يا عزيزتي، لقد حضرنا للتو من اجتماع... اجتماع يتعلق بالشؤون الصحية».

قالت دورثيا التي بدت عليها علائم الصحة الجيدة والحيوية، فوقفت دون قبعتها تحت ضياء شمس نيسان: «هل كان السيد ليدجيت هناك؟ أريد أن أراه لأحصل منه على نصائح عظيمة تتعلق بالمستشفى الجديد. لقد اتفقت مع السيد بولسترود على أن أفعل ذلك».

قال السيد بروك: «آه يا عزيزتي... ». «لقد سمعنا أخباراً سيئة... أخباراً سيئة هل تعلمين...؟؟».

ساروا جميعاً نحو فناء الكنيسة عبر الحديقة... إذ كان السيد فيربرذر يتجه نحو منزل الكاهن... وهكذا سمعت دورثيا كامل القصة المحزنة.

أصغت باهتمام عميق، وكانت تطلب الاستماع مرتين إلى الحقائق والانطباعات المتعلقة بليدجيت. وبعد أن صمتت للحظات وهم يقفون أمام بوابة بناء الكنيسة قالت بحماس مخاطبة السيد فيربرذر:

«إنك لا تصدق أن السيد ليدجيت قد اقترف ذنباً دنيئاً، إنني لن أصدق ذلك...!! فلنكتشف الحقيقة، ولنبرئه...!!».

الكتاب الثامن

شروق الشمس وغروبها

الفصل الثاني والسبعون

الأرواح الكاملة...

مرايا مزدوجة الوجوه...

قادرة مسبقاً على صناعة مشهد غير متناهٍ للأشياء الجميلة...

مكررة وراءها الأشياء نفسها...

شهامة دورثيا الطائشة، التي قفزت مباشرة لتبرئة ليدجيت من الشكوك التي قامت على قبوله لنقود كرشوة، قد أخضعت لتفحص حزين عندما راحت تتمعن بجميع ظروف القضية في ضوء خبرة السيد فيربرذر.

قال: «إنها مسألة حساسة.. كيف نستطيع أن نبدأ البحث فيها؟ إما أن يكون ذلك علانية من خلال إنشاء محكمة، والتحقيق في أسباب الوفاة، أو سرّاً من خلال استجواب ليدجيت.

بالنسبة الى الإجراء الأول فلا توجد معطيات قوية وواضحة يمكن الاستناد إليها وإلا كان هولي قد تبناها مسبقاً، أما بالنسبة الى فتح الموضوع مع ليدجيت فأنا أعترف أنني أمتنع عن ذلك، فربما يأخذ الأمر كإهانة مميتة بالنسبة اليه.

لقد حدث لي غير مرة أن وجدت صعوبة في التحدث إليه في مسائل شخصية. كما ينبغي للمرء أن يحيط علماً بحقيقة سلوكه مسبقاً كي يكون واثقاً جدّاً من النتائج».

قالت دورثيا: «إنني مقتنعة أن سلوكه لم يكن مذنباً.. فأنا أعتقد أن الناس هم دائماً أفضل مما يعتقد بهم ممن هم حولهم...». إن بعض التجارب القاسية، التي مرت بها خلال السنتين الماضيتين، قد جعلت تفكيرها يعارض بقوة أي نوع من الشكوك غير المرغوب فيها بالآخرين، ولأول مرة شعرت بعدم الرضا عن السيد فيربرذر، فهي لم تحب هذا التقويم الحذر للعواقب الذي كان بديلاً عن الإيمان المتحمس بالجهود التي ينبغي بذلها لأجل تحقيق

العدالة والرحمة التي ربما سيطرت بقوتها العاطفية فقط.

بعد يومين كان السيد فيربرذر يتناول العشاء في منزل السيدة كزابون مع عمها وأسرة جتم، وبعد أن وضعت الحلوى على الطاولة، وكان الخدم خارج الغرفة، وكان يلوح برأسه من النعاس، عادت إلى الموضوع بنشاط متجدد:

«ينبغي لليدجيت أن يعلم لو أن محبيه قد سمعوا ما يشوه سمعته، فستكون أمنيتهم الأولى هي تبريره. لأجل ماذا نحيا إذا كنّا لا نخفف من وطأة حياة بعضنا بعضاً؟ لا يمكنني أن أتجاهل متاعب الرجل الذي ساعدني في متاعبي، وأعانني خلال مرضي».

لم يكن صوت دورثيا ولا أسلوبها أكثر حيوية مما كانت عليه من قبل حين كانت تجلس على رأس طاولة عمها منذ ثلاثة أعوام تقريباً، و لا سيما أن الخبرة التي اكتسبتها منذ ذلك الوقت قد منحتها الحق في التعبير عن رأي حازم.

إلا أن السير جتم لم يعد ذاك الخاطب الخجول والميال الى القبول والإذعان.. بل هو الآن زوج الأخت القلق الذي يحمل إعجاباً مكرساً لأخت زوجته، ويسيطر عليه قلق دائم لئلا تقع تحت وطأة وهم جديد سوءه يوازي سوء زواجها من كزابون.

أصبح يبتسم أقل كلما قال: «تماماً» كبداية لإبداء رأي مخالف على نحو مغاير لما كان عليه في أيام عزوبيته، ودهشت دورثيا لاكتشافها أنها قد قررت ألّا تخافه لأنه حقّاً قد أصبح أفضل أصدقائها. إلا أنه في هذه المرة قد خالفها الرأي.

قال معترضاً: «ولكن يا دورثيا...!! لا تستطيعين أن تتعهدي إدارة حياة رجل بتلك الطريقة. يجب أن يعلم ليدجيت... على الأقل سيعلم قريباً جدّاً.. أين موقعه. إذا كان يستطيع تبرئة نفسه، فهو سيفعل ذلك. يجب أن يتصرف بنفسه».

«أعتقد أنه ينبغي على محبيه الانتظار حتى يجدوا الفرصة المناسبة»... أضاف السيد فيربرذر.. «إن هذا ممكن... فغالباً ما شعرت بضعف شديد في نفسي، حتى انني أصبحت أدرك كيف يمكن لرجل في وضع مشرف، كالوضع الذي كنت أعتقد أن ليدجيت يعيشه يستسلم لمثل هذا الإغراء كقبوله للمال الذي قدم له بطريقة أو بأخرى، كرشوة لضمان صمته عن حقائق فاضحة حدثت منذ زمن بعيد. أقول إنني أستطيع فهم ذلك إذا كان تحت وطأة ظروف قاسية، وإذا ما كان قد أرهق جدّاً وأنا متأكد من أن ليدجيت قد كان كذلك. لا

أصدق شيئاً أسوأ من ذلك يصدر عنه إلا إذا كان هناك دليل قاطع يثبت ذلك. إلا أن إلهة الانتقام الرهيبة دائماً ما تأتي بعد الأخطاء، فيحول أولئك الذين يحبونها تلك الأخطاء إلى جرائم، ولا يوجد دليل لصالح الرجل بعيداً من إدراكه وتأكيداته».

قالت دورثيا عاقدة يديها: «آه... كم هذا قاس... أو لا تحب أن تكون الشخص الوحيد الذي يؤمن ببراءة ذلك الرجل إذا ما كذبه جميع الناس، على الرغم من أنه يملك شخصية تعبر عن ذاته...!؟».

قال السيد فيربرذر مبتسماً لتحمسها: «ولكن يا عزيزني السيدة كزابون... «شخصية المرء ليست قطعة من الرخام، فهي ليست شيئاً صلباً غير قابل للتغير، بل هي شيء حي ويتبدل ويمكن أن تتعرض للمرض كما تتعرض له أجسادنا».

قالت دورثيا: «إذاً يمكن إنقاذها ثم معالجتها.. لن أتردد في الطلب من ليدجيت كي يخبرني الحقيقة. ما دمت أريد مساعدته، فلماذا أتردد؟ وبما أنني لن أشتري الأرض يا جيمس، فأنا سأفعل ما عرضه علي السيد بولسترود وآخذ مكانه في دعم المستشفى، فسأستشير السيد ليدجيت كي أعرف تماماً ما ينبغي فعله كي يتم تنفيذ الخطط الحالية. هناك فرصة جيدة تجعلني أطلب ثقته، فهو سيكون قادراً على أن يخبرني ما يمكن أن يوضح جميع الظروف، وعندها نستطيع جميعاً أن نقف إلى جانبه لنخرجه من أزمته. يمجد الناس جميع أنواع الشجاعة باستثناء تلك التي يظهرونها بالنيابة عن جيرانهم». لقد ظهر على عيني دورثيا بريق ندي، كما أن تغير نبرة صوتها قد أيقظ عمّها الذي بدأ يصغي.

قال السيد فيربرذر وقد طرأ عليه بعض التحوّل بسبب حماسة دورثيا: «حقاً يمكن للمرأة أن تنفس عن بعض تعاطفها الذي قلما يكتب له النجاح إذا ما تعهدنا به نحن الرجال...».

قال السير جيمس مع تقطيبته الصغيرة: «يجب على المرأة بالتأكيد أن تكون يقظة وتستمع لأولئك الذين يعرفون العالم أكثر منها. مهما فعلت في النهاية يا دورثيا يجب عليك أن تتريثي في الوقت الحاضر ولا تتطفلي متبرعة على شؤون بولسترود هذه، فلا نعلم ماذا يمكن أن يظهر في المستقبل القريب. يجب أن توافقيني الرأي...!»، أنهى كلامه وهو ينظر إلى السيد فيربرذر.

«نعم نعم يا عزيزي..»، قال هذا السيد بروك دون أن يعلم إلى أي نقطة قد وصل

النقاش، ولكنه دخل في الموضوع بمساهمة كانت مناسبة:.. إنه من السهل أن يذهب المرء بعيداً أكثر مما ينبغي كما تعلمون، ولكن يحب ألا تأخذك أحلامك، أما بالنسبة الى التسرع بوضع مبالغ من النقود في مشاريع، فهذا لن يجدي نفعاً كما تعلمين. لقد أجبرني جارث على القيام بإصلاحات كبيرة جدّاً، فانتهى الأمر بي... أن أصبحت خالي الجيوب تماماً. يجب أن أتوقف عن ذلك. أما بالنسبة اليك يا جتم، فأنت تنفق ثروة طائلة على سياجات شجر البلوط تلك حول أرضك».

بعد أن استسلمت دورثيا بصعوبة لذلك الإحباط، ذهبت مع سيليا إلى غرفة المكتبة، التي كانت غرفة جلوسها الاعتيادية.

قالت سيليا: «الآن يا دودو... أصغي لما يقوله لك جيمس.. وإلا انتهى بك الأمر إلى ورطة كما كان يحدث لك دائماً، وسيحدث لك كذلك دائماً إذا ما بقيت تفعلين ما تشائين، كما أنني أعتقد أنها رحمة إذ لديك هنا جيمس يفكر لأجلك في آخر الأمر. لقد تركك تقومين بمشاريعك، لكنه فقط منعك من أن تؤخذي بها، وهذا ما هو جيد أن يكون لديك أخٌ عوضاً عن الزوج، فالزوج لا يسمح بأن تقومي بمشاريعك».

قالت دورثيا: «تتحدثين وكأنني أريد زوجاً...! أريد فقط ألا تحصى مشاعري عليّ في كل حركة أقوم بها». لم تخرج السيدة كزابون عن صبرها بعد كي تنفجر بالبكاء.

«الآن، حقاً يا دودو» -قالت سيليا بصوت أكثر حنقاً من المعتاد- «إنك تناقضين نفسك؛ فتكونين على شيء، ثم تصبحين في شيء آخر. كنت تذعنين للسيد كزابون بطريقة مشينة جدّاً، وأعتقد أنك كنت ستقلعين عن القدوم إلي لرؤيتي لو كان قد طلب منك ذلك».

قالت دورثيا ناظرة عبر دموعها المنهمرة: «بالطبع، لقد أذعنت له، لأن ذلك كان واجبي، وكانت تلك هي مشاعري نحوه».

«إذاً لماذا تعتقدين أنه من واجبك أن تخضعي قليلاً لرغبات جيمس؟»، قالت سيليا وقد بدأ يظهر على جدلها قدرة على الإقناع.. «فقط لأنه يتمنى ما هو خير لك، وبالطبع الرجال يعرفون ما هو أفضل في كل شيء باستثناء تلك الأشياء... التي تعرف النساء بها أكثر». ضحكت دورثيا، ونسيت دموعها... «حسناً، إنني أعني ما يتعلق بالأطفال وأشياء كتلك»... وشرحت سيليا: «إنني لا أذعن لجيمس كما كنت تفعلين مع كزابون، عندما أعلم أنه على خطأ».

الفصل الثالث والسبعون

يا للشفقة على ذلك الإنسان المرهق...

فهذه المحنة المتجولة يمكن لها أن تزورك أو تزورني...

بعد أن شارك ليدجيت السيدة بولسترود قلقها عندما أخبرها أن زوجها قد أصابته نوبة إغماء في أثناء الاجتماع - لكنه واثق أنه سيراه في حال أحسن عندما يأتي ثانية في اليوم التالي، ما لم ترسل هي وراءه- ذهب مباشرة إلى منزله ليمتطي جواداً وينطلق مسرعاً على بعد ثلاثة أميال من البلدة، كي يتوارى عن أنظار الآخرين.

شعر أنه قد أصبح عنيفاً وغير منطقي، كأنه يعاني من آلام اللسعات.. إذ كان مستعداً أن يلعن اليوم الذي أتى به إلى مدل مارش، فقد بدا كل شيء حدث له مجرد تحضير وتهيئة لهذا القدر المشؤوم والكريه، الذي حلّ كآفةٍ على طموحه المشرف، فيجعل حتى أولئك الرعاع يعتبرون سمعته قد شوهت على نحو غير قابل للإصلاح.

في مثل هذه اللحظات من الصعب على الرجل أن ينجو من الكراهية. لقد اعتبر ليدجيت نفسه صاحب معاناة، واعتبر الآخرين هم الذين قد آذوا قدره. لقد أراد لجميع الأشياء أن تنتهي على نحو مختلف، بينما الآخرون قد أقحموا أنفسهم في حياته، فأحبطوا أهدافه.

لقد بدأ زواجه كارثة غير مخففة، فخشي أن يذهب إلى روزموند قبل أن يخفف من كربه وثورة غضبه، وإلا فمجرد رؤيتها له ستثير غضبه أكثر وتجعله يتصرف دون مسؤولية.

يوجد فصول في حياة معظم الرجال... في أفضلها لا يمكن إلا أن يلقى ظل عائق على الأشياء التي تملأ رؤيتهم الداخلية.. ظهر عندها حنو قلب ليدجيت خائفاً يساء اليه، ولم يظهر كعاطفة تميل الى الرقة، لأنه كان يشعر بتعاسة. فقط أولئك الذين يعرفون تفوق الحياة الفكرية، يدركون أن في الحياة بذرة لفكرة مشرفة.

حياة تتضمن بذرة فكرة نبيلة وهدفاً... وهم يستطيعون أن يدركوا أنها أسى الإنسان الذي يقع من نشاط نقي إلى صراع ضياع الروح مع عبث وفوضى العالم.

كيف باستطاعته أن يعيش دون أن يبرئ نفسه أمام الذين يتهمونه بالحطة؟ كيف يستطيع أن يغادر مدل مارش بهدوء، فما يظهر أنه يتراجع أمام حكم عادل...!!!! وعلى الرغم من ذلك، فكيف يستطيع أن يبرئ نفسه...؟؟؟

على الرغم من أن ذلك المشهد الذي شهده ليدجيت أثناء الاجتماع الذي حضره للتو لم يوضح له كثيراً من التفصيلات، فإنه كان كافياً كي يوضح له وضعه.

كان بولسترود يخاف أن ينشر رفلز فضائحه. أما ليدجيت فسوف يستطيع الآن أن يستجمع جميع احتمالات القضية: كان يخشى أن يقع على مسامعي كشف لبعض الحقائق.. كل ما أراده أن يقيدني به من خلال منة كبيرة.. فلهذا قد تحول فجأة من القسوة إلى الكرم والسخاء. كما أنه ربما قد تلاعب بحالة المريض... فربما لم يتقيد بأوامري. أخشى أن يكون قد فعل ذلك. إلا أنه إذا كان قد فعل ذلك، أو لم يفعل فالناس يعتقدون أنه، بطريقة أو بأخرى، قد سمّم الرجل، وأنني قد تغاضيت عن الجريمة إذا لم أكن قد ساهمت بها. وعلى الرغم من ذلك... فهو لن يتحمل ذنب الإساءة الأخيرة، فربما كان تغيره الأخير مجرد تعاطف حقيقي معي... فيصبح تأثير الأفكار الأخرى كما كان يدعي. ما نسميه ممكناً يكون أحياناً حقيقيّاً، وما نجده سهل التصديق يكون زائفاً تماماً. في تعامله الأخير مع هذا الرجل، ربما أبقى بولسترود يديه نظيفتين تماماً على الرغم من أنني أعتقد عكس ذلك...!

لقد كان هناك تخدير لقسوته حتى لو أنكر جميع الاعتبارات الأخرى باستثناء تبرير موقفه.. إذا ما واجه لامبالاة أو نظرات باردة أو تجاهلاً كاتهام له، فإنه سيقدم شرحاً معلناً عن جميع الحقائق كما كان يعرفها، فمن سيقتنع؟ فسيكون عمله كالذي يؤدي دور الأحمق الذي يقدم دليلاً ضد نفسه، وسيقول: «إنني لم آخذ النقود كرشوة».. إلا أن الظروف ستكون أقوى من تأكيداته، وفضلاً عن ذلك، فإذا ما بادر ليخبر عن كل شيء يتعلق به، فلا بد من أن يتضمن ذلك إفصاحاً عن أشياء تتعلق ببولسترود مما سيثير شكوك الآخرين حوله.

سيقول إنه لم يعلم بوجود رفلز عندما ذكر حاجته الماسة الى النقود أول مرة لبولسترود، وأنه أخذ النقود ببراءة نتيجة ذلك الطلب دون أن يعلم أن محرضاً جديداً لتقديم القرض قد ظهر نتيجة استدعائه كي يعالج هذا الرجل. وفي آخر الأمر ربما تكون الشكوك حول دوافع بولسترود غير مبررة.

ثم جاء السؤال.. هل كان سيتصرف تماماً بالطريقة نفسها لو لم يأخذ النقود...؟؟؟

من المؤكد، لو لم يمت رفلز، وظل متجاوباً مع العلاج عندما وصل. ثم تخيل في حال عدم امتثال بولسترود لتعليماته الطبية، لقام ببحث صارم ودقيق، فإذا ما ثبتت صحة حدسه لترك القضية على الرغم من المنة الكبيرة التي قدمت له مؤخراً... لو لم يكن قد تلقى مالاً، ولو لم يسحب بولسترود اقتراحه في إعلان الإفلاس هل كان ليدجيت سيمتنع عن القيام بجميع أنواع المساءلة والاستقصاء حتى عندما وجد الرجل ميتاً..؟؟؟ هل كان سيصبح للإحجام عن الإساءة لبولسترود وللريبة المثارة حول طرق العلاج الطبي وللجدل السلبي المثار حول طريقته في العلاج لدى معظم زملاء مهنته بالقوة والأهمية ذاتهما لديه؟

كان ذلك الجانب يشكل الزاوية الأصعب لدى إدراك ليدجيت، بينما كان يعيد النظر في الحقيقة، ويقاوم جميع الاحتمالات. لو كان مستقلاً، لأصبحت مسألة علاج هذا المريض، والدور المتميز بما ينبغي له فعله أو يقترح فعله نظراً الى إيمانه بأنه أفضل ما يقدم لأجل الحياة التي التزم بها، يشكل موقف ثبات بالنسبة اليه لا يعرف فيها الاستسلام.

في أي حال فقد استقر رأيه على اعتبار عدم الامتثال للتعليمات، في أي وجه ظهرت به، لا يمكن أن يعتبر جريمة، فبموجب ما كان مقتنعاً به، فإن الامتثال لتعليماته ربما تكون نتيجته الموت أيضاً، وأنه مسألة لا تتجاوز كونها أحد قواعد الآداب العامة. بينما، مرة تلو الأخرى، في أوقات حريته، كان يحول الشك التشريحي إلى شك أخلاقي، كما كان يقول: «إن أنقى تجارب العلاج يمكن أن تكون حية الضمير.. وإن واجبي هو الاهتمام بالحياة وتقديم أفضل ما في استطاعتي لأجلها. يمكن أن يثير العلم شكوكاً أكثر من المبدأ، فالمبدأ يودي بالإنسان إلى الخطأ، لكن العلم يعلن ارتيابه وشكه بالخطأ ويبقى الضمير حيًّا... واأسفاه...!! لقد وقع الضمير العلمي في درجة حطة المال والأنانية».

«هل يوجد طبيب في مدل مارش يسائل نفسه كما أفعل أنا...؟؟»، هذا ما قاله ليدجيت المسكين في فورة تمرد جديد ضد اضطهاد حظه. «ولا يزال الجميع يجدونه مسوغاً ليقيم حاجزاً بيني وبينهم ولأغدو وكأنني منبوذ..! لقد شوهت مهنتي وسمعتي كثيراً... إنني أستطيع أن أرى ذلك. حتى لو استطعت تبرئة نفسي بدليل قاطع، فلن يحدث ذلك إلا اختلافاً بسيطاً لدى العالم المبارك هنا. لقد صنفت على أنني ملوث، ولقد بخس حقي كثيراً من قبلهم جميعاً على حد سواء».

لقد كان هناك، مسبقاً، رزمة كبيرة من المؤشرات كانت تقلقه حتى تلك اللحظة.. أي إنه حين كان يسدد دينه، ويستعيد وضعه السابق مسروراً، كان الرجال في البلدة يتجنبونه

أو ينظرون إليه باستغراب، وفي مناسبتين مختلفتين، عرف أن بعض مرضاه قد استدعوا طبيباً غيره. لقد أصبحت الأسباب الآن واضحة جدًّا. لقد بدأت مقاطعة الجميع له.

لا عجب في أن يتحول لدى ليدجيت سوء الفهم الميؤوس منه إلى عناد شديد، فالعبوس الذي كان يظهر في مناسبات عديدة على جبهته العريضة لم يكن دون معنى.

قبل أن يدخل البلدة ثانية بعد الرحلة التي قام بها خلال الساعات الأولى من ألمه اللاذع، كان قد قرر البقاء في مدل مارش على الرغم من أسوأ ما يمكن فعله في حقه. إنه لن يتقهقر أمام الافتراءات وكأنه يذعن لها. إنه سيواجهها حتى النهاية، ولن يظهر أي عمل يقوم به أنه خائف.

لقد كان نتيجة كرمه وقوة تحديه أن قرر عدم الإحجام عن إظهار الالتزام لبولسترود. حقًّا، لقد كان ارتباطه بهذا الرجل أمراً مشؤوماً... حقًّا، فلو كانت الألف جنيه لا تزال لديه ولم يسدّد بها دينه، لأعادها إلى بولسترود، وفضل التسول على هذا الإنقاذ الذي اعتبر على أنه رشوة... فعليك أن تتذكر أنه كان أكثر الرجال إباءً وكبرياءً... في أي حال، إنه لن يدير ظهره لذاك الرجل المحطم الذي كان قد تلقى منه عوناً، فاستخدمه، ولن يبذل جهداً يثير الشفقة كي يبرئ نفسه باتهامه شخصاً آخر. «سأفعل ما أعتقد أنه صحيح، ولن أشرح شيئاً لأحد. سيحاولون اضطهادي، ولكن...». كان يتابع بقرار عنيد شأن روزموند في كل هذا. هذا هو قيد آخر راح يطوقه في وقت كان ليدجيت المسكين أشد حزناً من أن يتحمل تسلطها التافه. لم تكن لديه الرغبة في إخبارها بالمتاعب التي ستكون قريباً جدًّا مشتركة بينهما، فقد فضل أن ينتظر حتى يأتي البوح الآني الذي ستفرضه الأحداث في وقت قريب جدًّا.

الفصل الرابع والسبعون

هب رحمة أن تتقدم السنّ بنا سوية

دعاء الزّواج من كتاب توبت

لا يمكن لزوجة في مدل مارش أن تجهل طويلاً حقيقة أن أهالي بلدتها يحملون وجهة نظر سيئة حول زوجها، فلا صديقة حميمة يمكن أن تحملها صداقتها معها على البوح لها بالحقيقة المرة المعروفة أو المعتقد بها حول زوجها، ولكن عندما تتلقفها امرأة فجأة لدى جيرانها على نحو كئيب ومحزن، فإنها تقوم باستدعاء الدوافع الأخلاقية التي تثير الرغبة في الحديث.

لقد كانت الصراحة واحدة، وأن يكون المرء صريحاً في لغة مدل مارش، فلا بد له من أن ينتهز أول فرصة كي يجعل أصدقاءه يعلمون أنه لم يشكل وجهة نظر سارة حول قدراتهم أو أسلوبهم أو مكانتهم، والصراحة لا تنتظر كي تسأل عن رأيها.

يأتي ثانية حب الحقيقة... إنها عبارة فضفاضة، لكنها تعني في هذا المضمار معارضة حية لرؤية زوجة تبدو أسعد من شخصية زوجها مما يظهر رضاها عن ذاتها ونصيبها على أنه أكبر مما ينبغي، والأمر المؤسف هو أنها عندما تعرف الحقيقة تظهر من خلال قبعتها وأطباق حفلات عشائها رضى أقل.

أقوى من هذا كله، كان هناك تبجيل التحسن الأخلاقي، الذي كان يدعى أحياناً بروحها، فيستفيد من مؤشرات تميل الى الكآبة، تظهر في أثناء التحديق المستغرق في التأمل الحزين في الأثاث، وبأسلوب يظهر أن المتحدث لا يستطيع أن يخبر عمّا كان يجول في خاطرها، وكذلك ما يتعلق بمشاعر مستمعيها.

خلاصة الأمر، يمكن القول أن عملاً خيريّاً متحمساً كان يعد له بفكر ذي فضيلة كي يجعل أحد المقربين تعساً لأجل مصلحتها.

يكاد ألا يكون في مدل مارش أي زوجة يستدعي سوء حظها الزوجي مثل هذا النشاط الأخلاقي أكثر من روزموند وعمتها السيدة بولسترود. لم تكن السيدة بولسترود موضع كراهية، ولم تجرح في حياتها عن قصد، مشاعر أي إنسان.

كان الرجال يعتبرونها امرأة جميلة ومريحة، كما كانوا يعتبرون اختيار زوجها لإحدى أفراد أسرة فنسي، عوضاً عن اختياره لامرأة كئيبة تناسب مستوى متعته الدنيوية المنحطة، أمراً يدل على مراءاته وتكبره.

عندما كشف أمر فضيحة زوجها، قالوا عنها: «آه... يا للمرأة المسكينة! إنها بريئة كبراءة النهار... إنها لم تظن به عيباً. تستطيعون أن تثقوا بذلك». النساء المقربات منها جدًّا قلن عنها: «هاريت المسكينة...». تخيلوا كيف ستكون مشاعرها عندما تعرف كل شيء، وخمنوا كم عرفت من الحقيقة.

لم تكن هناك نزعة حقد ولا ضغينة تجاهها، بل كان هناك قلق ذو طابع خيّر كي يتم التأكد مما هو أفضل لها، فيقدم لها ضمن تلك الظروف مما أبقى خيال من كان حولها منشغلاً بشخصها وتاريخ حياتها منذ أن كان اسمها هاريت فنسي حتى هذا الوقت.

لدى استعراض وضع السيدة بولسترود لم يكن ممكناً تجنب مناقشة وضع روزموند التي كانت تعاني من ذات الآفة التي تعاني منها عمتها، إلا أنه كان يوجه لها نقد أشد قسوة، وكانت تحظى بتعاطف أقل، على الرغم من أنها كانت أيضاً إحدى أفراد أسرة فنسي العريقة والمرموقة، والتي عرفت في مدل مارش، وكانت ضحية للزواج من متطفل. كان لأفراد أسرة فنسي نقاط ضعفهم، إلا أنهم ظلوا يحتلون مكانة مرموقة في مجتمعهم.. فلم يوجد أي شيء سيئ يتعلق بهم. كانت السيدة بولسترود تبرأ من أي تشابه بزوجها، فظلت أخطاؤها تخصها لوحدها.

قالت السيدة هكبت وهي تقدم الشاي في حفلة صغيرة: «لقد كانت دائماً تحب البهرجة.. على الرغم من أنها قد وجدت طريقة تقدم من خلالها دينها بغية أن تطابق زوجها. كانت دائماً تحاول أن تبقي رأسها مرفوعاً فوق أهالي مدل مارش بإعلانها أنها كانت دائماً تدعو رجال الدين، والرّب يعلم من أين كانوا يأتون، من ريفرستون وتلك الأماكن الأخرى».

قالت السيدة سبراغ: «إننا لا نستطيع لومها على ذلك، لأن القليل فقط من أفضل

الناس في مدل مارش اهتموا بمصاحبة بولسترود، وكان لا بد لأحد من أن يجلس معها إلى الطاولة».

قالت السيدة هكبت: «السيد شيجر كان دائماً يؤيده، وأعتقد أنه الآن يشعر بالأسف».

قالت السيدة تولر: «ولكن لم تكن له مكانة عميقة في قلبه... وهذا ما كان يعلمه الجميع فالسيد شيجر لم يقبل الذهاب إلى حد أبعد مما ينبغي، فهو يتمسك بالحقيقة الإنجيلية. فقط رجال الدين، مثل السيد تايك، الذين يستخدمون كتب التراتيل الدينية المعارضة وذلك النوع المتدني من التدين، هم الذين وجدوا في بولسترود ما يناسب ذوقهم».

قالت السيدة هكبت: «أعلم أن السيد تايك يعاني من كرب شديد بسببه.. فهم يقولون إن أسرة بولسترود تعيل نصف عائلة تايك».

قالت السيدة سبراغ التي كانت مسنة وأفكارها على الطراز القديم: «وبالطبع إن هذا لا يعارض عقيدته. إن الناس في مدل مارش لن يتباهوا بعد اليوم لكونهم أتباعاً للكنيسة الإنجليزية الميثودية».

قالت السيدة بلمديل ذات الوجه الذي يشبه وجه الصقر، والتي كانت تصغي حتى تلك اللحظة: «أعتقد أنه يجب ألّا نعزو تصرفات الناس السيئة الى دينهم..».

قالت السيدة سبراغ: «آه يا عزيزتي... لقد نسينا..! يجب ألّا نتحدث بهذا أمامك».

قالت السيدة بلمديل متلونة: «إنني متأكدة من أنه لا يوجد سبب يجعلني منحازة. إنه صحيح أن السيد بلمديل كان دائماً على علاقة طيبة مع السيد بولسترود، وكذلك كانت السيدة هاريت فنسي صديقة لي قبل أن تتزوجه بوقت طويل، لكنني دائماً كنت أحتفظ بآرائي لنفسي، وأقول لها أخطاءها. يا لها من مسكينة... ولكن ما دمنا نتحدث عن الدين يجب عليّ القول إن السيد بولسترود ربما فعل ما فعل وربما أسوأ من ذلك، وربما كان رجلاً بلا دين. و انا لا أقول إنه لم يكن هناك شيء من ذلك على الإطلاق. إنني أحب الاعتدال، لكن الحقيقة هي الحقيقة. أعتقد أن الرجال الذين يعقدون الجلسات الإقليمية الدورية ليسوا جميعاً متدينين جدًّا».

قالت السيدة هكبت بدهاء: «حسناً...!! كل ما أستطيع قوله هو أنني أعتقد أنه يجب عليها الانفصال عنه».

قالت السيدة سبراغ: «لا أستطيع قول ذلك..! لقد تزوجته كي تشاركه السراء والضراء كما تعلمين».

قالت السيدة هكبت: «ولكن لا يمكن أن يعني الضراء دخول زوجك سجن نيوجيت!» تخيلي العيش مع مثل هذا الرجل...! فأنا أتوقع أن يكون كالسم».

قالت السيدة تولر: «نعم إنني أعتبره تشجيعاً لارتكاب جريمة، إذا ما فرض على الزوجات الصالحات الاهتمام بمثل هؤلاء الرجال و رعايتهم».

قالت السيدة بلمديل: «وكم كانت هاريت المسكينة زوجة صالحة. إنها تعتقد أن زوجها أفضل الرجال. حقّاً إنه لم يرفض لها طلباً».

قالت السيدة هكبت: «حسناً، سنرى ماذا ستفعل.. يا للمخلوقة المسكينة، أعتقد أنها لم تعلم شيئاً حتى الآن، وأتمنى ألا أراها، لأنني سأموت خوفاً لو قلت شيئاً عن زوجها. هل تعتقدن أن أي شيء قد وصل إلى مسامعها...؟».

قالت السيدة تولر: «لا أعتقد ذلك. سمعنا أنه مريض..! وأنه لم يخرج من المنزل قط منذ اجتماع يوم الخميس، وأما هي فكانت في الكنيسة البارحة مع ابنتيها، وكانتا ترتديان قبعتين جديدتين من مدينة توسكان، وكانت تعلو قبعتها ريشة. لم أر أن دينها... قد غير من لباسها».

قالت السيدة بلمديل وقد أصابها وخز: «إنها دائماً ترتدي ألبسة أنيقة جدّاً. وأعلم أنها قد صبغت تلك الريشة باللون البنفسجي الفاتح كي تكون مناسبة. إلا أنه ينبغي لي القول إن هاريت تتمنى أن تفعل كل ما هو صحيح».

قالت السيدة هكبت: «بالنسبة الى معرفتها بما قد حصل، لا يمكن أن يبقى طويلاً سراً عليها. إن عائلة فنسي تعلم ذلك، فالسيد فنسي كان في الاجتماع. ولا بد من أنه قد تلقى صدمة عنيفة، فهما ابنته وأخته كذلك».

قالت السيدة سبراغ: «نعم هذا صحيح، لا أحد يعتقد أن في استطاعة ليدجيت أن يرفع رأسه ثانية في مدل مارش، فتبدو الأمور غامضة حول الألف جنيه التي تلقاها تماماً وقت موت الرجل... حقًّا إن ذلك ليجعل الإنسان يرتجف».

قالت السيدة هكبت: «لابد للكبرياء أن تهوي».

قالت السيدة بلمديل: «إنني لست آسفة على روزموند فنسي كما أنا آسفة على عمتها؛ فقد كانت في حاجة إلى درس».

قالت السيدة سبراغ: «أعتقد أن أسرة بولسترود سيذهبون للعيش في مكان آخر، فهذا عادة ما يحصل عندما يحدث شيء مخجل للأسرة».

قالت السيدة بلمديل: «وسيكون ذلك صفعة قاسية لهاريت.. لو كان ذلك يحطم امرأة، لكانت هي... إنني أشفق عليها من أعماق قلبي، وعلى الرغم من جميع أخطائها، فلا يوجد إلا نساء قليلات أفضل منها. منذ كانت فتاة كانت تتصرف بأكثر الطرق أناقة، كما كانت طيبة القلب جدًّا وصريحة صراحة النهار. يمكنك النظر في خزانة ثيابها متى شئت، وعلى هذه الطريقة قامت بتربية ابنتيها... كيت وإيلن. تستطعن أن تعرفن كم سيكون قاسياً عليها العيش بين غرباء».

قالت السيدة سبراغ: «يقول الطبيب إن ذلك هو ما يجب على أسرة ليدجيت فعله..!! وهو يقول إنه كان على ليدجيت البقاء في فرنسا».

قالت السيدة بلمديل: «يمكنني القول إن ذلك يليق بها تماماً. فهي تملك نوعاً من الخفة، لكنها أخذت ذلك من أمها، ولم تأخذه من عمتها السيدة بولسترود التي كانت دائماً تقدم لها النصائح الجيدة، وكما أعلم فإنها أرادت لها أن تتزوج من رجل غيره».

كانت السيدة بلمديل في حالة سببت لمشاعرها بعض التعقيدات.. فلم تكن هناك فقط علاقتها بالسيدة بولسترود، بل كانت هناك أيضاً علاقة عمل ذي فائدة.. كانت دار بلمديل للصباغة بالاشتراك مع بولسترود مما جعلها من جهة تميل إلى أن تكون ألطف في وجهة نظرها في شخصيته هذه هي الحقيقة، لكن ذلك قد جعلها، من جانب آخر، تخشى توجيه الملامة له. كما أن الارتباط الذي قد حدث مؤخراً بين عائلتها وعائلة تولر قد أدخلها ضمن أرقى طبقة في المجتمع، فأبهجها في جميع المجالات باستثناء الميل إلى الآراء الجادة، التي كانت تؤمن بها على أنها الأفضل، ولكن ضمن مفهوم مختلف.

لقد وقع ضمير المرأة الصغيرة الحاد في متاعب، لدى ضبطه تضارب أفضل هذين النقيضين وكذلك أحزانها وقناعتها، التي ظهرت ضمن الأحداث الأخيرة، التي من المرجح قد أذلت أولئك الذين كانوا في حاجة الى التواضع، لكنها أيضاً قد هوت ثقيلة على صديقتها القديمة، التي تمنت لو رأت أخطاءها وهي تعيش حياة مترفة.

يا لبؤس السيدة بولسترود المسكينة، لن تكون صدمتها بالفاجعة القادمة أقوى من القلق الذي كان ينتابها نتيجة ذلك السر، الذي كان دائماً يخالجها منذ زيارة رفلز الأخيرة إلى منزلها. إن قدوم ذلك الرجل البغيض مريضاً إلى ستون كورت، واختيار زوجها للبقاء هناك لمراقبته.. سمحت أن يفسر لها ذلك بأن رفلز قد كان يوماً موظفاً، وكذلك كان في السابق يتلقى المساعدات، مما أسس لعلاقة توجب تقديم المساعدة له في وقت عجزه التام، ومنذ ذلك الوقت كانت الطمأنينة تنتابها لدى سماعها حديث زوجها المفعم بالأمل حول صحته وقدرته على متابعة أعماله.

إلا أن ذاك الهدوء قد اهتز عندما عاد به ليدجيت إلى منزله مريضاً من الاجتماع، وعلى الرغم من تأكيداته التي كانت تبعث على الارتياح خلال الأيام القليلة التي تلت ذلك، كانت تبكي سرّاً نتيجة اقتناعها أن زوجها لم يكن يعاني من مجرد مرض جسدي، بل كان يعاني من شيء يوجع تفكيره.

لم يسمح لها أن تقرأ له، ونادراً ما كان يسمح لها بالجلوس معه مدّعياً بأن حساسية مفرطة للأصوات والحركات قد أصابته. على الرغم من هذا، فقد عللت إغلاقه للغرفة على نفسه بأنه أراد أن يشغل نفسه بأوراقه. لقد انتابها شعور مؤكد بأن شيئاً قد حدث.. ربما كان فقدان مبلغ كبير من المال...!! فبقيت الحقيقة غامضة بالنسبة اليها.

قالت لليدجيت في اليوم الخامس من الاجتماع إنها لا تجرؤ على أن تسأل زوجها، وإنها لم تغادر المنزل إلا عندما ذهبت إلى الكنيسة.

«أرجوك يا سيد ليدجيت أن تكون صريحاً معي، فأنا أود معرفة الحقيقة. هل حدث شيء للسيد بولسترود؟».

قال ليدجيت متملصاً، إذ شعر أن ليس من واجبه أن يخبر بما هو مؤلم: «صدمة نفسية بسيطة».

قالت السيدة بولسترود وهي تنظر إليه مباشرة بعينيها الواسعتين الغامقتي اللون: «ولكن ما الذي سبب ذلك...؟؟».

«هناك دائماً شيء سام في غرف الاجتماعات...» -قال ليدجيت- «ويستطيع الرجال الأقوياء تحمل ذلك، لكنه يؤثر في أنظمة أجسادهم. إنه من المستحيل التنبؤ بدقة بلحظة وقوع الصدمة أو القول إن القوة تنهار في لحظة محددة»... لم تقتنع السيدة بولسترود بجوابه، بل ظلت مقتنعة بأن كارثة قد حلت بزوجها، وأريد لها أن تظل تجهل ذلك، وكان من

طبيعتها أن تقاوم بقوة مثل هذا الإخفاء.

لقد استأذنت لابنتيها أن تبقيا مع أبيهما، ثم انطلقت إلى البلدة لتقوم ببعض الزيارات، فترى ما إذا كان قد عرف أن خطأ قد أصاب شؤون السيد بولسترود، فترى أو تسمع أي مؤشر أو دليل على ذلك.

ذهبت إلى منزل السيدة شيجر، لكنها لم تجدها هناك، ثم ذهبت إلى منزل السيدة هكبت في الجهة المقابلة لساحة الكنيسة.

عندما رأتها السيدة هكبت من نافذة الطابق العلوي، وتذكرت عدم رغبتها السابقة في رؤية السيدة بولسترود، شعرت في البدء بالميل إلى أن ترسل أحداً ليقول لها إن السيدة هكبت ليست في المنزل، ولكن ضد ذلك الشعور برزت في داخلها رغبة قوية ومفاجئة لمقابلتها مع تصميمها ألا تبدي لها أدنى إشارة أو تلميح لما كان يجول في خاطرها.

هكذا أدخلت السيدة بولسترود غرفة الاستقبال، ثم ذهبت إليها السيدة هكبت وهي تزم شفتيها وتفرك يديها أكثر مما كان يلاحظ عليها عادة، إذ كانت تشكل إجراءات احترازية تتخذ ضد حرية الكلام، وكانت مصممة على ألا تسأل عن حال السيد بولسترود.

قالت السيدة بولسترود بعد بعض المجاملات: «لم أذهب إلى أي مكان، باستثناء الكنيسة، لمدة أسبوع كامل، ولكن السيد بولسترود قد أصابه إعياء شديد في أثناء الاجتماع يوم الخميس مما جعلني لا أرغب في مغادرة المنزل».

راحت السيدة هكبت تفرك يديها عند صدرها، وتجول بنظرها على السجادة.

تابعت السيدة بولسترود: «هل كان السيد هكبت في الاجتماع..؟؟».

قالت السيدة هكبت دون أن تغير وضعيتها: «نعم لقد كان...! أعتقد أنه يجب شراء الأرض من طريق الاكتتاب».

قالت السيدة بولسترود: «نتمنى ألّا يكون هناك حالات أخرى من كوليرا لتدفن فيها! إنه مرض كريه، لكنني أعتقد أن مدل مارش بلدة تتوافر فيها عناصر صحية جيدة، وأعتقد أنها لم تتغير منذ طفولتي، وإنني لم أجد البلدة التي أحب أن أعيش فيها أكثر من مدل مارش وخصوصاً في إقليمنا هذا».

قالت السيدة هكبت مع تنهيدة قصيرة: «إنني سعيدة لأنك تعيشين دائماً في مدل مارش يا سيدة بولسترود. ولكن ينبغي لنا أن ندرب أنفسنا على التأقلم أينما وقع قدرنا. وعلى الرغم من أنني متأكدة من أنه لا يزال هناك أناس كثيرون يتمنون لك خيراً». تمنت السيدة هكبت أن تقول: «لو تسمعين نصيحتي، لانفصلت عن زوجك». ولكن بدا لها واضحاً أن المرأة المسكينة لم تكن تعرف شيئاً عن الرعد الذي سيصيب رأسها، وأنها لا تستطيع أن تقدم لها شيئاً سوى أن تهيئها قليلاً.

شعرت السيدة بولسترود فجأة أن قشعريرة وارتجافاً قد أصاباها.. إذ كان شيء غير طبيعي وراء كلام السيدة هكبت، ولكن على الرغم من ذلك، فإنها قررت التخلي عن رغبتها في معرفة أيّ شيء، فوجدت نفسها عاجزة عن متابعة هدفها، فاستبدلت الحديث بسؤالها عن أبناء السيدة هكبت، ثم بعد وقت قصير استأذنت بالذهاب قائلة إنها تنوي زيارة السيدة بلمديل.

في طريقها إلى هناك، حاولت إقناع نفسها أن نزاعاً حادّاً وعلى نحو غير معتاد قد وقع في الاجتماع بين السيد بولسترود وبعض موظفيه، وربما كان السيد هكبت أحدهم.. فربما فسّر هذا كل شيء.

إلا أنها حين كانت في حديث مع السيدة بلمديل، بدا ذلك التعليل المطمئن غير ممكن الاحتفاظ به. استقبلتها سيلينا بحنو مثير للشفقة، مع تصميم على أن تقدم لها أجوبة توضيحية حول المواضيع العامة التي لا علاقة لها بشجار عادي، كانت أهم نتائجه اضطراب صحة السيد بولسترود.

كانت السيدة بولسترود قد اعتقدت مسبقاً أن من الأسهل عليها أن تسأل السيدة بلمديل من أن تسأل أي أحد آخر، لكنها اكتشفت ما يدهشها وهو أن الصديقة القديمة ليست دائماً الشخص الذي يمكن أن يكون مؤتمناً على الأسرار بسهولة.. كان هناك حاجز تذكر مواقف ضمن ظروف أخرى... إذ كان هناك كرهها لأن تكون محل شفقة، وأن تخبرها إنسانة كانت قد اعتادت على السماح لها بالفوقية.

نتيجة كلمات قالتها السيدة بلمديل حول تصميمها على أنها لن تدير ظهرها لصديقاتها... اقتنعت السيدة بولسترود بأن ما قد حدث لا بد له من أن يكون أمراً سيئاً للغاية، فبدل من قدرتها على القول بصراحتها المعتادة: «ما الذي يدور في خاطرك؟»، وجدت نفسها راغبة في الانصراف قبل أن تسمع أي شيء أكثر وضوحاً.

بدأ ينتابها يقين مثير لأن الأمر السيئ كان شيئاً أكثر أهمية من فقدان المال، عندما أدركت أن السيدة بلمديل، تماماً كما فعلت السيدة هكبت من قبل، قد تجاهلت ما قالته السيدة بولسترود عن زوجها كتجاهلها لعيب شخصي.

قالت وداعاً بسرعة وتوتر، وطلبت من سائق العربة أن يذهب إلى مقر عمل السيد فنسي. في أثناء تلك الرحلة القصيرة... استمد الخوف قواه من إحساسها بالعتمة حتى إنها عندما دخلت مكتبة أخيها الخاصة، حيث كان أخوها يجلس وراء مكتبه كانت ركبتاها ترتجفان، وكان وجهها المشع توردًا عادة، يعلوه شحوب مميت.

لقد انتابه شعور ذو تأثير مشابه عندما رآها، فنهض من على كرسيه ليقابلها، فأخذ بيدها، وقال بتسرعه المندفع: «فليساعدك الرب يا هاريت...! إنك تعرفين كل شيء».

ربما كانت تلك اللحظة أسوأ من جميع اللحظات التالية، فقد تضمنت تلك التجربة القاسية التي تكشف عن انحياز الطبيعة لدى حدوث أزمة عاطفية، وتتنبأ بفعل أبعد ينهي صراعاً متوسط الحدة.

لو لم تتذكر رفلز، لربما بقيت تفكر في الخسارة المالية، ولكن الآن مع نظرات أخيها وكلماته، طرأت في ذهنها فكرة الذنب لدى زوجها، ثم تحت تأثير الرعب ظهرت صورة زوجها وهو يتعرض للخزي والعار... ثم بعد أن حرقها شعور بالخجل، الذي رأت فيه فقط عيون الناس، بخفقة من قلبها أصبحت إلى جانبه بحزن وخجل وعزلة ولكن دون لوم. كل هذا جال في خاطرها خلال لحظات قصيرة... بينما كانت تغرق في كرسيها رافعة نظرها إلى أخيها الذي كان يقف أمامها.

قالت بصوت منخفض جدّاً: «أنا لا أعلم شيئاً يا ولتر. ما الأمر...؟».

أخبرها كل شيء بصراحة مطلقة، وبتقطع.. وبطء.. موضحاً لها أن الفضيحة قد أصبحت أقوى من أي دليل خصوصاً في ما يتعلق بنهاية رفلز.

قال: «سيتحدث الناس.. حتى لو برئ الرجل في المحكمة، فهم سيتكلمون ويهمزون ويلمزون، وفي جميع أنحاء العالم يمكن للرجل أن يكون بريئاً كما يمكن أن يكون مذنباً. إنها صدمة محطمة تنال من ليدجيت كما تنال من بولسترود... إنني لا أدعي قول الحقيقة، وأتمنى لو لم نسمع باسم بولسترود أو ليدجيت. كان من الأفضل لك لو بقيت دون زواج وكذلك روزموند».

لم تجب السيدة بولسترود بأي شيء.

قال الأخ بخشونة ولكن بحنو ذي معنى: «ولكن يجب أن تصمدي قدر ما تستطيعين يا هاريت. الناس لا يلومونك، وأنا سأقف إلى جانبك على الرغم ممّا قد تقررين فعله».

قالت السيدة بولسترود: «أعطني ذراعك كي أذهب إلى العربة يا ولتر، فإنني أشعر بضعف شديد».

وعندما وصلت إلى منزلها، كان عليها أن تقول لابنتها: «أشعر بالمرض يا عزيزتي. يجب أن أذهب إلى الفراش. اعتني بأبيك، واتركيني في هدوء. إنني لن أتناول العشاء».

أقفلت على نفسها غرفتها، فقد كانت في حاجة الى بعض الوقت لتعتاد على ضميرها المحطم وحياتها المعقدة قبل أن تستطيع السير بثبات إلى المكان الذي منحها نصيبها في الحياة. بدأت تسلط على شخصية زوجها ضوءاً استكشافيّاً جديداً، فلم تستطع الحكم عليه بالتساؤل.. فالعشرون عاماً، التي كانت خلالها تؤمن به وتبجله بسبب إحقاقه للفضائل، عادت بجميع تفاصيلها، فبدت مجرد غش بغيض.

لقد تزوجها وهو يخفي وراءه ذلك الماضي السيئ من حياته، ولم يبق لديها يقين كي تؤكد براءته من أسوأ تهمة ألصقت به. لقد جعلت طبيعتها البريئة المتباهية الاشتراك مع العار المستحق أكثر مرارة لأي مخلوق.

إلا أن هذه المرأة القليلة التعليم، التي تشبه عباراتها وعاداتها قطعة تطريز غريبة، كانت تملك روحاً مخلصة في ولائها، فالرجل الذي شاركته رفاهيته لمدة تقارب نصف عمرها، وكان يدللها بطريقة غير متبدلة... الآن وقد حلّ به ذلك العقاب، لم يكن في إمكانها أن تهجره في أي شكل من الأشكال.

هناك شكل من أشكال الهجر يجلس فيه الهاجر مع الروح المهجورة على المائدة والأريكة نفسها مسبباً لها ذبولاً بسبب القرب غير المحبوب. عندما أقفلت على نفسها الباب، عرفت أنه يجب ألا تقفله، فهي مستعدة للنزول إلى الطابق السفلي حيث زوجها التعس، فتناصره حزنه، وتبدي رأيها بذنبه... إنني سأعلن الحداد، لكنني لن ألوم.

إلا أنها كانت في حاجة إلى الوقت كي تستجمع قواها، كما كانت كذلك في حاجة لكي تنتحب مودعة جميع أنواع السعادة والتباهي بحياتها. عندما قررت أن تنزل إلى الطابق السفلي، هيأت نفسها من خلال بعض التصرفات، التي قد تبدو مجرد حماقة لناظر قاسٍ..

إذ كانت هذه طريقتها في التعبير لجميع ناظريها، الموجودين وغير الموجودين، بأنها قد بدأت حياة جديدة تتقبل فيها الذل.

خلعت جميع مجوهراتها، وارتدت رداءً أسود غير مزركش، واستبدلت قبعتها التي كانت تحبها جدّاً وأقواس شعرها الضخمة بقبعة بسيطة غير مزركشة بعد أن أسدلت شعرها إلى الأسفل مما جعلها تبدو فجأة كامرأة إنجيلية.

بولسترود، الذي عرف أن زوجته قد ذهبت خارج المنزل، ثم عادت لتقول إنها لم تكن في صحة جيدة، كان يقضي وقته في اضطراب لا يقل درجة عن اضطرابها؛ فقد كان يأمل في أن تعرف الحقيقة من الآخرين، وقد أذعن لذلك الاحتمال لأنه كان أسهل عليه من الاعتراف. إلا أنه وقد تخيّل الآن أن لحظة معرفتها قد حانت، راح ينتظر النتيجة بكرب، فأجبر ابنتيه على تركه، وعلى الرغم من أنه سمح بدخول بعض الطعام لأجله إلا أنه لم يلمسه. لقد شعر أنه بدأ يهلك تدريجياً في تعاسة خالية من الشفقة، وربما لن يرى وجه زوجته، بعد اليوم، يعلوه الحب والحنان، وإذا ما عاد إلى الرب، فيبدو أنه لن يكون هناك أي جواب باستثناء ثقل العقاب.

كانت الساعة قد دقت الثامنة مساءً قبل أن يفتح الباب لتدخل زوجته، فلم يتجرأ على رفع نظره، بل ظل جالساً خافضاً نظره إلى الأسفل، وبينما كانت تتقدم نحوه، تبينت أنه قد صغر حجمه... إذ بدا ذابلاً جدّاً ومنكمشاً. مرّ بها عطف جديد وحنو قديم كموجة عارمة، ثم قالت بكآبة ولكن بلطف وهي تضع إحدى يديها على يده، التي كانت على مسند الكرسي، والأخرى على كتفه: «ارفع وجهك يا نيكولاس».

رفع عينيه إلى الأعلى وقد أصابتهما إجفالة ضعيفة، ثم نظر إليها للحظة وقد أصابته الدهشة.. إذ وجهها الشاحب... ورداء الحداد... وارتجاف شفتيها... كلها كانت تقول «لقد عرفت..!!». ثم استقرت عيناها ويداها عليه بلطف، فانفجر باكياً، ثم بكيا سويّاً وهي تجلس إلى جانبه.

حتى تلك اللحظة لم يقدر أحدهما أن يحدث الآخر بالعار الذي حمله معه أو الأفعال التي جلبته لهما. كان اعترافه صامتاً، كما كان وعدها بالوفاء والإخلاص كذلك صامتاً، فقد كانت متفتحة الذهن كعادتها دائماً، ومع ذلك... فهي لم تنكمش قط من الكلمات التي كانت ستعبر عن ضميرهما المتبادل كانكماشها من ألسنة اللهب... فلم تستطع أن تقول: «كم هو افتراء وشك زائف فقط...»، وهو لم يقل: «إنني بريء».

الفصل الخامس والسبعون

Le sentiment de la fausseté' des plaisirs présents, et l'ignorance de la vanité des plaisirs absents, causent l'inconstance.

PASCAL

كانت روزموند قد استعادت ومضة من سعادتها، عندما زال تهديد ذلك الشخص عن منزلها، وعندما سدّد دين أولئك المزعجين، لكنها لم تكن فرحة جدّاً... إذ لم تحقق لها حياتها الزوجية أيًّا من آمالها و لا سيما أن خيالها كان مفرطاً.

عندما تذكر ليدجيت أنه كان انفعاليّاً جدّاً معها في أثناء ساعات قلقه، وبعد أن أدرك الألم الذي قد تحملته روزموند، أصبح في هذا الوقت الهادئ نسبيّاً... لطيفاً معها قدر استطاعته، ولكنه هو أيضاً قد فقد بعضاً من طباعه القديمة، فكان يجد تأكيده على التغير الاقتصادي الذي طرأ على حياتهما مسألة بديهية، محاولاً تعويد روزموند على ذلك تدريجاً، كما كان يكبح جماح غضبه كلما أجابته برغبتها في الذهاب إلى لندن ليعيشا هناك، وفي كل مرة لم تقدم له هذا الجواب، كانت تصغي له بلا مبالاة، وتتساءل ما الشيء الذي يستحق أن تعيش لأجله؛ فالكلمات القاسية والمهينة التي صدرت عنه أثناء غضبه، كانت قد أساءت بعمق لتلك الكبرياء التي كان يعتبرها في البداية مصدر متعة، وما كانت تعتبره طريقة فاسدة لنظرته إلى الأشياء، ظلّ مقتاً مكبوتاً في داخلها مما جعلها تعتبر كل أصناف حنوه عليها تعويضاً بخساً للسعادة التي فشل في تحقيقها لها.

كانت علاقتهما بأهالي البلدة سيئة، كما لم يكن هناك أي تواصل لهما مع كولنغهام... ولم يكن لهما أي تواصل خارجي باستثناء بعض المراسلات مع لادسلو.

لقد شعرت بألم وخيبة أمل بسبب قرار لادسلو بمغادرة مدل مارش، فعلى الرغم مما عرفته عن إعجابه بدورثيا، فإنها تعلقت سرّاً باعتقادها بأنّه قد انتابه أو سينتابه إعجاب بها أكبر بكثير من إعجابه بدورثيا، فروزموند هي إحدى تلك النساء اللواتي يعتقدن أن كل رجل، عندما يقابل إحداهن، لا بد من أن يفضلها على من كان قد فضلها مسبقاً و لاسيما إذا كانت علاقته مع الأخيرة ميؤوساً منها.

إن السيدة كزابون امرأة جيدة جدّاً، لكن تاريخ اهتمام ويل بها يعود إلى حقبة أقدم من معرفته بالسيدة ليدجيت.

كانت تعتبر روزموند طريقته في الكلام معها، التي كانت مزيجاً من تتبع الأخطاء والكياسة الزائدة، إخفاء لمشاعر عميقة. وأثناء وجوده كانت تشعر بمداعبة لغرورها، وبنوع من الإحساس الرومانسي الذي لم يعد وجود ليدجيت قادراً على توفيره لها، فقد فتنها ما لا يفتن الرجال ولا النساء في مثل هذه المسائل، فقد بالغ ويل بإعجابه بالسيدة كزابون كي يجرح مشاعرها هي.

بهذه الطريقة كان تفكير روزموند المسكينة منشغلاً قبل مغادرة ويل.. إذ اعتقدت أنها كانت ستجد فيه زوجاً أفضل مما وجدت في ليدجيت. ما كان لفكرة أكثر زيفاً من هذه الفكرة، إذ إن عدم رضى روزموند في زواجها كان نابعاً من الزواج نفسه، وما كان يفرضه عليها من ضغوط وقدرة على التحمل، ولم يكن ناجماً عن طبيعة زوجها، لكن مفهوم الأفضل -غير الحقيقي- كان له سحر عاطفي حوّل سأمها وضجرها. لقد كونت لنفسها بعض الأفكار العاطفية كي تحدث تجديداً في حياتها المملة.. فلادسلو كان دائماً أعزب... ويعيش قريباً منها ما يجعله في متناول يدها، كما كان يملك عاطفة مفهومة نحوها، على الرغم من أنه لم يفصح عنها، فإنها يمكن لها أن ترسل، بين الآونة والأخرى، بريق لهب خلال مشاهد ممتعة.

لقد كانت مغادرته خيبة أمل لائقة، كما زادت من تعبها في مدل مارش، ولكن في بادئ الأمر كان يشغلها حلمها البديل الممتع والمخزن في داخلها، الذي ولد نتيجة علاقتها بالأسرة التي تعيش في كولنغهام. منذ ذلك الحين تعمقت متاعب حياتها الزوجية، كما أن غياب أصناف الراحة من حياتها شجع تفكيرها العميق والمؤسف في تلك القصة الرومانسية الوهمية التي عاشتها في خيالها ذات مرة.

غالباً ما يرتكب الرجال والنساء أخطاءً حزينة نتيجة الأعراض التي تصيبهم، فيبنون لأنفسهم آمالاً غامضة وصعبة تكون أحياناً عبقرية، وأحياناً أخرى دينية، وفي أغلب الأوقات تكون حول حب عظيم.

كان لادسلو قد أرسل لهما العديد من الرسائل الاعتيادية، نصفها موجه لها والنصف الآخر موجه لليدجيت، وكانت قد كتبت له أن فراقه عنها لا يبدو نهائيّاً، والتغير الذي تشتاق إليه الآن هو أن يذهب ليدجيت ليعيش في لندن، حيث سيكون كل شيء مقبولاً هناك، وأنها

تعمل على كسب هذه النتيجة بتصميم هادئ عندما جاء وعد مثير للبهجة فآلمها.

حدث ذلك بعد وقت قصير من الاجتماع الذي عقد في مبنى البلدية. لم يكن هناك شيء أقل تأثيراً من رسالة وجهها لادسلو ليدجيت، التي تحدث فيها بشكل رئيسي عن خططه الجديدة حول الاستعمار، وذكر فيها عرضاً أنه ربما يجد من الضرورة قيامه بزيارة إلى مدل مارش خلال الأسابيع القليلة القادمة... لقد كانت ضرورة مثيرة جداً، إذ قال إنها مفيدة كفائدة الإجازة لطالب مدرسة، وإنه يتمنى أن يجد هناك مكانه القديم على السجادة، وكذلك عزف موسيقى كثيراً بانتظاره، لكنه لم يكن متأكداً تماماً من موعد الزيارة.

بينما كان ليدجيت يقرأ الرسالة لروزموند، بدا وجهها كوردة عادت لها الحياة... فبدا أكثر جمالاً وتفتحاً. ما عاد شيء لا يطاق الآن. فالدين قد سد كله، ولادسلو في طريقه إلى هنا، وليدجيت سيتم إقناعه بمغادرة مدل مارش والاستقرار في لندن المختلفة تماماً عن بلدة في مقاطعة.

لقد كان ذلك الصباح مشرقاً قليلاً، ولكن سرعان ما اسودّت السماء فوق رأس روزموند.. فظهور تجهم جديد على وجه زوجها، الذي أخفاه عنها تماماً... لأنه خاف أن يعرض مشاعره المعذبة لحياديتها وسوء فهمها، كان قد تلقى تفسيراً غريباً على نحو مؤلم... وغريباً على جميع مفاهيمها السابقة مما يمكن أن يؤذي سعادتها.

نتيجة صراحة روحها الجديدة -معتقدة أن ليدجيت قد انتابته مجرد نوبة كآبة أقوى من المعتاد قليلاً جعلته لا يرد على ملاحظاتها ويتجنبها قدر المستطاع- قرّرت، بعد أيام من الاجتماع ودون أن تخبره، أن ترسل بطاقات دعوة لحفلة عشاء صغيرة، إذ رأت فيها خطوة حصيفة و لاسيما أن الناس قد ابتعدوا عنهما، وأرادت أن تستعيد عادات اللقاء القديمة، وعندما تقبل الدعوات، ستخبر ليدجيت بذلك، وتذكره بحكمة بالطريقة التي يجب على الطبيب أن يتصرف بها تجاه معارفه، فروزموند كانت تملك أكثر الميول رزانة نحو واجبات الآخرين... إلا أن جميع الدعوات رفضت، وآخر الردود وقع في يد ليدجيت.

«هذه خربشة السيد جيجلي. ماذا كتب لك...؟»، قال ليدجيت متسائلاً وهو يقدم لها الرسالة... لقد أجبرت على أن تطلعه عليها، ثم قال وهو ينظر إليها غاضباً: «بحق السماء ياروزموند...!! ما الذي يدفعك إلى إرسال الدعوات دون أن تخبريني...؟؟؟ لقد طلبت منك ملحّاً ألّا تقومي بدعوة أحد إلى هذا المنزل. أعتقد أنك قد دعوت آخرين، وهم رفضوا

كذلك». لم تقل شيئاً...!

صرخ ليدجيت: «هل تسمعينني...؟؟؟».

«نعم بالتأكيد أسمعك..»، قالت روزموند مشيحة برأسها جانباً بحركة من رقبتها الجميلة التي تشبه رقبة الطير. رفع ليدجيت رأسه فجأة دون أي رحمة، ثم خرج من الغرفة إذ شعر بأنه قد أصبح خطراً.

أما روزموند فقد شعرت بأنه قد أصبح لا يحتمل أكثر فأكثر... لأنه لم يكن هناك أي سبب جديد لهذا التعجرف.

إن عدم رغبته في إخبارها أي شيء لأنه كان متأكداً مسبقاً من عدم اكتراثها له، كانت تتحول إلى عادة طائشة، كما كانت تجهل كل شيء يتعلق بالألف جنيه، باستثناء أن القرض قد قدمه زوج عمتها السيد بولسترود.

إن طباع ليدجيت الغريبة وتجنب معارفهما... قد جعلت من الواضح لها أن تاريخهما لم يعد قابلاً للتعديل بالنسبة إليها ولاسيما بعد أن تحرر من الصعوبات المالية.

لو قبلت الدعوات، لذهبت تدعو أمها والآخرين الذين لم تسمع عنهم منذ أيام. أما الآن فقد وضعت قبعتها على رأسها، وذهبت لتسأل عما حصل لهم جميعاً وقد أحست فجأة أن هناك مؤامرة لتركها وحيدة مع زوج يسيء للجميع.

كان الوقت بعد العشاء، عندما وجدت أباها وأمها جالسين لوحدهما في غرفة الاستقبال. حيّاها بنظرة حزينة تقول: «آه يا عزيزتنا»... ولا شيء آخر. إنها لم تر في حياتها أباها يبدو محطماً هكذا، وبينما كانت جلست إلى جانبه، قالت:

«هل هناك ما يقلق يا أبي...؟». لم يجب، لكن السيدة فنسي قالت: «آه يا عزيزتي... ألم تسمعي أي شيء؟ لن يمضي وقت طويل قبل أن يبلغك الأمر».

«أهو أمر يتعلق بترشيوس؟»، سألت روزموند بعد أن شحب وجهها، ففكرة المعضلة قد ارتبطت في ذهنها مباشرة مع ما صدر منه تجاهها، ولم تجد له تفسيراً.

«آه يا عزيزتي، نعم... إذا ما فكرت في زواجك من صاحب المعضلة هذا، فالدين كان سيئاً بما فيه الكفاية، ولكن هذه المرة ستكون المعضلة أسوأ».

قال السيد فنسي: «تمهلي... تمهلي يا لوسي.. ألم تسمعي شيئاً حول زوج عمتك بولسترود يا روزموند؟».

«كلاّ يا أبي..». قالت المسكينة وقد شعرت وكأن المشكلة لم تكن تشبه أي شيء عرفته من قبل، ولكن قوة خفية بقبضة حديدية جعلت روحها تفقد الوعي في داخلها.

أخبرها أبوها كل شيء... قائلاً في النهاية: «من الأفضل لك أن تعرفي يا عزيزتي. أعتقد أن على ليدجيت مغادرة البلدة، فقد أصبح كل شيء ضده. أجرؤ أن أقول انه لا يستطيع مقاومة ذلك، وأنا لا أتهمه بأي سوء». هذا ما قاله السيد فنسي، الذي اعتاد في السابق أن يبحث عن أفدح أخطاء ليدجيت.

لقد كانت الصدمة على روزموند مخيفة، إذ بدا لها أنه لا يوجد قدر يمكن أن يكون قاسياً جداً كقسوة قدرها.. أي أن تتزوج من رجل يصبح في ما بعد مركزاً لشبهات مشينة.

في حالات كثيرة... يكون الشعور بالعار أسوأ جزء من الجريمة، ويتعذر اجتنابه، كما يحتاج إلى قدر كبير من تفكيك الخزي الذي لم يدخل مثله في حياة روزموند قط، فبالنسبة إليها... كانت تشعر في هذه اللحظات بأن مشكلتها كانت لتبدو أخف وطأة مما لو تأكدت من أن زوجها قد قام بفعل جرمي.

الخجل بعينه قد بدا حاضراً، وهي قد تزوجت هذا الرجل ببراءة معتقدة أنه وعائلته كانوا يشكلون مجداً وفخراً لها! لقد أظهرت استياءها المعتاد لوالديها، واكتفت بالقول إنه لو فعل ليدجيت ما كانت تتمنى، لكان قد ترك مدل مارش منذ وقت بعيد.

قالت أمها بعد أن ذهبت: «لقد تحملت أكثر مما تستطيع تحمله..».

قال السيد فنسي الذي كان منفطر القلب جداً: «آه... شكراً للرب!».

إلا إن روزموند عادت إلى منزلها وهي تحمل مقتاً مبرراً نحو زوجها. حقّاً... ماذا فعل؟ حقاً كيف تصرف؟ لم تعرف الجواب. لماذا لم يخبرها بكل شيء؟ وهو لم يحدثها في الموضوع، وبالطبع لم تستطع أن تتحدث إليه.

خطر لها ذات مرة أن تطلب من أبيها العودة إلى منزله ثانية، ولكن مجرد التفكير في هذا الأمر بدا لها مفزعاً.. إذ إن عودة امرأة متزوجة للعيش في بيت أبيها... ستبدو لها

الحياة دون معنى في حالة كهذه.. فلم تستطع التفكير مليّاً في هذا الأمر.

خلال اليومين التاليين، لاحظ ليدجيت تغيراً قد طرأ عليها، فأيقن أنها قد سمعت الأخبار السيئة. هل ستحدثه بها...؟؟ أم هل ستبقى إلى الأبد في صمت يدل على أنها كانت على يقين من أنه كان مذنباً..؟؟ يجب أن نتذكر أنه كان في حالة فكرية كئيبة، بموجبها كانت جميع اتصالاته تسبب له الألم.

بالتأكيد... في هذه الحالة كان لدى روزموند سبب مواز يجعلها تشكو من التأجيل، وفي حاجة إلى الثقة به، ولكن في قرارة نفسه أقام العذر لنفسه. ألن يكن معذوراً لعدم البوح لها؟

وما دامت قد عرفت الحقيقة الآن، فليس لديها دافع يجعلها تتحدث إليه، إلا أن شعوراً عميقاً جدّاً يشير إلى أنه كان خاطئاً جعله منهمكاً، فأصبح الصمت بينهما لا يحتمل، حتى باتا وكأنهما يطوفان على قطعة خشبية واحدة ويشيح كل منهما بنظره عن الآخر.

فكر قائلاً لنفسه:

«إنني أحمق. ألم أقلع عن توقع أي شيء...؟ لقد تزوجت الهمّ ولم أتزوج المساعدة»... وفي ذاك المساء قال:

«روزموند، هل سمعت أي شيء يبعث فيك التوتر والقلق...؟».

«نعم...!!»، أجابت واضعة من يديها تطريزها الذي كانت تقوم به بوعي واهٍ وليس على عادتها.

«ماذا سمعت...؟؟».

«كل شيء على ما أعتقد...! لقد أخبرني أبي».

«إن الناس يعتقدون أن خزياً قد لحق بي...؟».

«نعم»، قالت روزموند بوهن وقد بدأت تنشج ثانية تلقائيّاً.

عند ذلك ساد صمت، ففكر ليدجيت: «إذا كان لديها أيّ ثقة بي... أيّ فكرة بما أنا عليه، يجب عليها أن تتحدث الآن، وتقول إنها لا تصدق بأنني أستحق أن يلصق بي تهمة الخزي والعار... ».

إلا أن روزموند من جانبها تابعت تحريك أصابعها ببطء. أي شيء يجب أن يقال حول الموضوع، توقعت أن يأتي من ترشيوس. ماذا عرفت؟ وإذا كان بريئاً من كل خطأ، لماذا لم يفعل شيئاً كي يبرئ نفسه...؟

صمتها هذا قد أضاف مرارة قاسية جديدة إلى مزاجه المرير... الذي كان من خلاله يقول ليدجيت لنفسه إنه لم يصدقه أحد... حتى فيربرذر لم يتقدم.

لقد بدأ يستجوبها على أمل أن يبدد حديثهما الضباب الكثيف الذي تلبد بينهما، لكنه شعر أن تصميمه قد كبحه استياء يائس. حتى هذه المعضلة، كغيرها، اعتبرتها معضلتها فقط. لقد كان بالنسبة إليها كائناً منفصلاً عنها يفعل كل ما تعترض عليه.

قفز من على كرسيه باندفاع غاضب، وراح يسير في الغرفة ذهاباً وإياباً واضعاً يديه في جيبيه. انتابه وعي خفي، طوال الوقت، على أنه يجب عليه أن يسيطر على هذا الغضب، ويخبرها كل شيء، ويقنعها بالحقيقة.

لأنه كان قد تعلم الدرس.. أي أنه يجب عليه أن ينصاع لطبيعتها، ولأنها لا تتعاطف كثيراً يجب عليه أن يقدم الأكثر. عاد مباشرة إلى نيته في البوح.. يجب ألّا تضيع الفرصة... إذا استطاع أن يجعلها تشعر برزانة أنه يوجد هنا افتراء يجب مواجهته وليس الهروب منه، وأن المشكلة بأكملها قد نبعت من حاجته إلى النقود، فستكون لحظة إلحاح عليها بقوة كي تقتنع معه بضرورة العيش بأقل مقدار ممكن من النفقات كي يكون في استطاعتهما تحمل الأوقات العصيبة، والعيش بطريقة مستقلة.

سيتحدث عن الإجراءات الأكيدة التي قرر اتخاذها، ويجعلها تقتنع بها. كان مصمماً على محاولة ذلك... وما هو الشيء الآخر الذي يستطيع فعله؟

لم يعلم كم مضى عليه من الوقت وهو يسير في الغرفة مضطرباً، لكن روزموند شعرت أنه كان وقتاً طويلاً، وتمنت لو أنه يجلس. هي أيضاً بدأت تعتقد أن هذه فرصة لتلح على ترشيوس بما ينبغي له فعله. مهما تكن الحقيقة حول هذه التعاسة فقد كان هناك خوف واحد فرض نفسه.

في نهاية الأمر جلس ليدجيت، ليس على كرسيه المعتاد، بل على كرسي كان أقرب إلى روزموند عاطفاً نفسه جانباً نحوها، وناظراً إليها بحزن قبل أن يفتح الموضوع الحزين.

لقد تغلب على نفسه كثيراً، وكان سيبدأ حديثه بقسط من الوقار وكأنه في مناسبة لا تتكرر، حتى إنه قد فتح شفتيه، عندما نظرت إليه روزموند، وقالت بعد أن تركت يديها تنزلان إلى الأسفل:

«بالتأكيد يا ترشيوس...».

«حسناً...؟».

«بالتأكيد الآن قد أقلعت عن فكرة البقاء في مدل مارش. إنني لا أستطيع العيش هنا... دعنا نذهب إلى لندن... أبي وجميع الآخرين يقولون من الأفضل لنا أن نذهب. مهما كانت التعاسة التي سيترتب عليّ التأقلم معها، فهي ستكون أهون من البقاء هنا».

شعر ليدجيت أنه قد أصيب بهزة تعسة، فبدلاً من ذلك البوح المهم، الذي هيأ له نفسه بجد كبير، وجب عليه أن يتعامل مع ذلك الموضوع القديم. لم يستطع تحمل ذلك، فبدا تغير سريع لملامحه، نهض وخرج من الغرفة.

ربما لو كان قوياً بما فيه الكفاية كي يمضي في تصميمه لكي يكون الأعلى لأنها هي الأدنى، لتحقق في ذلك المساء هدف أفضل، ولو تحملت قدرته ذلك الكبح، لاستطاع أن يسيطر على إرادة روزموند ورؤيتها.

لا يمكننا الوثوق بأيّ طبيعة، مهما كانت صارمة وغريبة، فإنها تستطيع أن تقاوم هذا التأثير الصادر عن مخلوق أكبر من تلك الطبيعة. يمكن لتلك الطبيعة أن تؤخذ بعاصفة، فتتحول للحظة لتصبح جزءاً من الروح التي تحتضنها بحماس حركتها. إلا أن ليدجيت المسكين كان ينتابه ألم نابض، وتراجعت قدرته عن تحقيق أهدافها.

لقد بدا الفهم المتبادل والتصميم بعيدين إلى الأبد، إذ إن كلاهما قد بدا محجوباً لفشل الجهد المبذول. لقد تابعا حياتهما يوماً تلو الآخر وأفكارهما لا تزال متباعدة، تابع ليدجيت ما كان يتوافر له من عمل بمزاج اليائس، وكانت تشعر روزموند معللة نفسها أنه كان يتصرف بقسوة.

لم يكن هناك من جدوى من التحدث إلى ترشيوس، ولكن عندما جاء لادسلو، كانت مصممة على أن تقول له كل شيء، فعلى الرغم من تكتمها العام، فإنها كانت في حاجة إلى أحد يوضح لها أخطاءها.

الفصل السادس والسبعون

لأجل الرحمة والشفقة والسلام والحب

يصلي الجميع في أوقات كربهم

ولدى سعادتهم بهذه الفضائل... يقدمون شكرهم

لأن الرحمة تملك قلباً بشرياً

والشفقة وجهاً بشرياً

والحب شكلاً بشرياً مقدساً

والسلام يرتدي ثوب الإنسان

وليلم بليك: أغاني البراءة

بعد عدة أيام كان ليدجيت في طريقه إلى لُويك منر ملبياً طلباً أرسلته إليه دورثيا. لم يكن طلبها مستغرباً، إذ جاء بعد رسالة تسلمتها من بولسترود، قال فيها إنه تابع ترتيباته لمغادرة مدل مارش، وإنه ينبغي له التفكير في ليدجيت.. والحديث الذي دار بينهما حول المستشفى... وما زال متقيداً بفحواه.

لقد كان من واجبه، قبل اتخاذ أيّ خطوة إضافية، أن يناقش الموضوع ثانية مع السيدة كزابون التي تتمنى الآن، كما كانت من قبل، أن تناقش الموضوع مع ليدجيت... كتب السيد بولسترود: «ربما طرأ تغير على آرائك... ولكن أيضاً في هذه الحالة، من المستحسن أن تضعيها أمامه».

انتظرت دورثيا وصوله باهتمام بالغ. على الرغم من احترامها لناصحيها من الرجال، فإنها أحجمت عما أسماه السير جيمس «تدخلاً في شؤون بولسترود هذه...». ان الصعوبات التي كان يمر بها ليدجيت كانت تخيم على تفكيرها، وعندما طلب إليها بولسترود ثانية

التدخل في شأن المستشفى، وجدت أن الفرصة، التي كانت تؤجل توافرها، قد حان وقتها.

في منزلها الفاخر، وهي تتجول تحت أغصان الأشجار الضخمة، كانت أفكارها تتمحور حول أقدار الآخرين، إلا أن مشاعرها كانت سجينة.

فكرة وجود عمل خير في متناول يدها كانت تطاردها كمطاردة العاطفة، وحاجة إنسان آخر، كانت قد سيطرت مرة على تفكيرها وكأنها صورة ذهنية بارزة، عادت لتثير رغبتها العارمة في العطاء، وجعلت حياتها الرغيدة لا طعم لها.

كان الأمل يملؤها بما سيفضي إليه لقاؤها هذا بليدجيت، دون أن تبالي بما قيل حول سره الشخصي، كما أنها لم تأبه لكونها سيدة شابة. لا شيء يمكن أن يكون أقل أهمية لدى دورثيا من تمسكها بشبابها وجنسها عندما تندفع لتظهر إنسانيتها.

بينما كانت تجلس في المكتبة تنتظر ليدجيت لم تستطع فعل شيء سوى استرجاع المشاهد الماضية، التي أعادت إلى ذاكرتها صورة ليدجيت، وقد كانت أهميتها جميعاً تنبع من زواجها، والمتاعب التي نجمت عنه ولكن لا... كانت هناك مناسبتان حضرتا صورة ليدجيت في ذهنها بألم.. إذ كانتا ترتبطان بزوجته وشخص آخر، إلا أن ذلك الألم ما لبث أن سكن، لكنه ترك في داخلها تساؤلاً يقظاً عما يمكن أن يكون زواج ليدجيت بالنسبة اليه... ما كان يثير لديها حساسية ضعيفة جدّاً نحو السيدة ليدجيت.

لقد شكلت تلك الأفكار ما يشبه المسرحية، فبعثت البريق في عينيها، ومنحت كيانها الإثارة والتشوق، على الرغم من أنها كانت فقط تنظر من داخل المكتبة البنية اللون إلى المرج الأخضر والبراعم المتفتحة التي كانت تزهو مرتاحة أمام النباتات الدائمة الخضرة.

عندما دخل ليدجيت هزها التغير الذي ظهر على وجهه، فقد أدركته لأنها لم تره منذ شهرين. لم يكن تغيراً ناجماً عن النحول، لكنه كان ناجماً عن ذلك التأثير الذي يظهر جليّاً حتى على وجوه الشباب، بسبب التواجد المستمر للاشمئزاز والكآبة. لطفت نظرة ودودة أبدتها عندما مدت يدها لمصافحته... تعابير وجهه، ولكن فقط بحزن.

«تمنيت رؤيتك منذ مدة طويلة يا سيد ليدجيت..». قالت هذا دورثيا بعد أن جلسا في مواجهة بعضهما بعضاً: «لكنني أجلت طلب قدومك حتى طلب مني السيد بولسترود ثانية بشأن المستشفى. إنني أعلم أن فرصة إبقاء إدارة المستشفى منفصلة عن إدارة المستشفى

القديم ترتبط بك كلياً، أو على الأقل بفعل الخير الذي تتمنى إبقاءه بإدارتك. كما إنني متأكدة من أنك لن تتردد بإخباري تماماً بما تفكر فيه».

قال ليدجيت: «إنك تريدين أن تقرري ما إذا كنت ستقدمين دعماً سخيّاً للمستشفى. لا أستطيع نصحك بإخلاص، كي تفعلي ذلك معتمدة على أي نشاط يرتبط بي، فربما أُضطر إلى مغادرة البلدة».

تحدث بجفاف، إذ أحس بألم اليأس الناجم عن عدم قدرته على تحقيق أي هدف، وقد اتخذت روزموند قراراً بالوقوف ضده.

«ليس لأنه لا يوجد أحد يصدقك..»، قالت دورثيا مخرجة كلماتها بوضوح من قلب صادق: «أعلم أنك قد ارتكبت خطأ يؤسف له... لقد عرفت منذ اللحظة الأولى أن ذلك قد وقع بطريق الخطأ. إنك لم تفعل شيئاً كريهاً، وإنك لن تفعل شيئاً غير مشرف».

كان هذا أول تصديق مؤكد وقع على مسامع ليدجيت، لذلك سحب نفساً عميقاً، وقال:

«شكراً...». لم يستطع أن يقول أكثر من ذلك... إذ كان هذا شيئاً جديداً في حياته.. وقد أصبحت مثل هذه الكلمات القليلة، التي تعبر عن ثقة وصادرة عن امرأة، تستكثر عليه.

قالت دورثيا من دون خوف: «أرجوك أن تقول لي كيف حدث كل شيء... إذ إنني متأكدة من أن الحقيقة ستبرئك».

قفز ليدجيت من على كرسيه وذهب إلى النافذة ناسياً أين كان. كان قد قلّب في ذهنه مرات عديدة إمكانية البوح بكل شيء دون أن يظهر عليه ما يسيء لبولسترود، فغالباً ما أحجم عن ذلك... قال لنفسه مرات عديدةً إن تأكيداته لن تغير شيئاً في انطباعات الناس... إلا أن كلمات دورثيا بدت كأنها إغراء له ليفعل شيئاً اعتبره في سره غير لائق.

«أخبرني..! أتوسل إليك...». قالت دورثيا بجدية واضحة:... «عندها نستطيع أن نتشاور في الأمر. إنه من السيئ أن يترك الناس يظنون سوءاً بأحد دون حق في وقت يمكن منعهم من ذلك».

دار ليدجيت عندما تذكر أين كان، فرأى وجه دورثيا وهي تنظر إليه بجاذبية تملؤها ثقة عذبة.

عندما تحضر الطبيعة النبيلة والسخية بأمنياتها والمتحمسة لفعل الخير يتغير لون

الضوء في أعيننا.. نبدأ عندها نرى الأشياء ثانية بأحجامها الأكبر والأهدأ، ثم نؤمن أن كلينا يمكن أن يرى ويحكم عليه من خلال كامل شخصيته.

بدأ ذلك التأثير يحدث تغيراً لدى ليدجيت، الذي ظل يرى لأيام عديدة الحياة بأكملها تتمثل في شخص يجر قصراً، مكابداً الآلام وسط ازدحام الناس. عاد إلى كرسيه ليجلس ثانية، وشعر أنه كان يستعيد ذاته القديمة مدركاً أنه هو الذي آمن بها.

قال: «إنني لا أريد... أن أكون قاسياً على بولسترود الذي أقرضني نقوداً كنت في حاجة اليها... على الرغم من أنني الآن أفضل لو أنني لم آخذها... إنه منكسر وتعس، ولم يبق فيه إلا خيوط حياة رفيعة. إلا أنني أود أن أخبرك كل شيء، فسيكون من دواعي ارتياحي أن أقول أين ذهب اليقين مسبقاً، وأين لا ينبغي لي أن أقدم تأكيدات على نزاهتي. ستدركين ما هو منصف بالنسبة إلى لآخرين، كما إنك ستدركين ما هو منصف بالنسبة إلي».

قالت دورثيا: «ضع ثقتك بي. إنني لن أبوح بشيء دون إذنك، ولكن على الأقل، سأستطيع القول إنك قد أوضحت جميع الظروف لي، وإنني أعلم أنك لست مذنباً. السيد فيربرذر سيصدقني وكذلك عمي والسير جيمس جتم. بل هناك أناس مهمون في مدل مارش أستطيع أن أذهب إليهم على الرغم من عدم معرفتهم الجيدة بي، فإنهم سيصدقونني، فهم سيعلمون أن لا دافع لدي سوى دافع العدالة والحقيقة. سأتحمل جميع الآلام في سبيل تبرئتك. إن مشاغلي قليلة، ولا يوجد عمل في العالم أقوم به أفضل من هذا العمل».

يمكن أن يؤخذ صوت دورثيا، وهي ترسم تلك الصورة الطفولية لما ستفعله، دليلاً على أنها تستطيع فعل ذلك على نحو مؤثر جدّاً. إن عاطفة صوتها الأنثوي بدت مستعدة للدفاع ضد اتهامات جاهزة.

لم ينتظر ليدجيت حتى يعتقد أنها كانت واهمة، ولقد أعطت نفسه الحرية لأول مرة في حياته... كي يشعر بالاتكال تماماً على تعاطف شهم دون أي تحفظ كبريائي، ثم أخبرها كل شيء منذ أن تقدم مرغماً بطلبه لبولسترود نتيجة المتاعب المالية التي كان يمر بها، ثم تدريجاً وبينما كان يعبر بدقة عمّا كان في ذهنه، راح يتحدث عن حقيقة علاجه للمريض أنها كانت تتعارض مع طرق العلاج المتبعة، ثم انتقل للحديث عن شكوكه حول ما حدث في النهاية، وكذلك عن واجباته الطبية المثالية، ثم عن إدراكه المتعب لحقيقة أن قبوله للمال قد أحدث بعض التغير لميوله الخاصة وكذلك سلوكه المهني ولكن ليس في أدائه لواجباته العامة.

أضاف: «لقد علمت... أن السيد هولي قد أرسل أحداً كي يستجوب خادمة المنزل في ستون كورت، وأنها قالت له بأنها أعطت المريض كل المخدر الذي تركته في الزجاجة وكذلك كمية كبيرة من شراب البراندي. إلا أن ذلك لا يتعارض مع الوصفات العادية حتى تلك التي تصدر عن أفضل الرجال. لم يكن للشكوك التي أثيرت حولي أيّ دلائل.. إذ كانت تستند إلى حقيقة أنني تلقيت مالاً من بولسترود، وأن بولسترود كان لديه محرض قوي يجعله يتمنى موت الرجل، وأنه قدم لي المال كرشوة مقابل أن أقوم بعمل سيئ ضد المريض... وأنني، في أيّ حال، قد قبلت الرشوة مقابل أن أمسك لساني. إنها اتهامات تصمد بعناد لأنها تقوم على خزي الناس ولا يمكن نفيها. كيف لم يتم التقيد بتعليماتي.. إنه سؤال لا أعرف له جواباً. يحتمل أن يكون بولسترود بريئاً من أيّ نية إجرامية، ويحتمل أيضاً أنه لم يكن له أي تدخل بعدم التقيد بأوامري، ومجرد أنه قد أحجم عن ذكر ذلك. إلا أن هذا كله لا علاقة له بما يعتقده الناس. إنها إحدى تلك الحالات التي يشجب فيها الرجل بالاستناد إلى طبيعة شخصيته... يعتقد أنه قد ارتكب جريمة بطريقة لا يمكن الدفاع عنها، لأن كان لديه المحرض الذي يدفعه لارتكابها، ولقد أثرت بي شخصية بولسترود لأنني أخذت نقوده. لقد أسيء إلي ببساطة... فأصبحت كحبة الذرة الفاسدة... وما حدث قد حدث، ولا يمكن تجنبه».

قالت دورثيا: «آه... إن هذا لمؤلم...! إنني أتفهم صعوبة تبرئة نفسك، كما أنني أتفهم أن هذا كله قد حدث لك أنت.. إذ أردت أن تحقق حياة أكثر سموّاً من الحياة العادية، كما أردت أن تجد طرقاً أفضل... إنني لا أستطيع أن أشعر براحة ما دام هذا يبقى دون تغير. إنني أعلم أنك أردت ذلك. إنني أتذكر ما قلته لي عندما حدثتني أول مرة حول المستشفى. لا يوجد أسف شعرت به أشد من ذلك الأسف... أن تحب ما هو عظيم، وتحاول الوصول إليه إلا أنك رغم ذلك تفشل».

«نعم»، قال ليدجيت شاعراً أنه قد وجد حيزاً لما يعنيه أساه تماماً: «كان لدي طموح محدد. أردت أن يكون كل شيء عندي مختلفاً. كنت أعتقد أنني أملك قوة أكبر وقدرة على التحكم. إلا أن أشد العوائق سوءاً هي تلك التي لا يستطيع أحد أن يراها سوى صاحبها».

قالت دورثيا بتأمل: «افترض... افترض لو أبقينا على المستشفى بناءً على الخطط الحالية، وأنت بقيت هنا على الرغم من وجود دعم قليل من الأصدقاء فقط، فإن الشعور الشيطاني نحوك سيختفي تدريجاً، وستأتي فرص يضطر خلالها الناس إلى الاعتراف بأنهم كانوا غير عادلين بحقك لأنهم سيرون أهدافك إن كانت نقية. لا زالت الفرصة أمامك

سانحة لتفوز بشهرة عظيمة كتلك التي فاز بها لوي ولينك، اللذان سمعتك تتحدث عنهما، وعندها سنكون جميعاً فخورين بك...». أنهت كلامها وهي تبتسم.

قال ليدجيت بكآبة: «يمكن لهذا أن يتحقق، لو كنت أملك ثقتي القديمة بنفسي.. لا شيء يرهقني أكثر من فكرة الهروب قبل أن تتضح حقيقة هذا الافتراء. في أي حال فإنني لا أستطيع أن أطلب من أحد أن يضع مبلغاً كبيراً من النقود في خطة تعتمد على وجودي».

قالت دورثيا ببساطة: «إن هذا يستحق مني كل الوقت... فكر فقط... إنني لا أشعر بالارتياح في ما يتعلق بنقودي، لأنهم يقولون لي إنني أملك أقل مما يتطلبه أكثر مشروع أحبه، إلا أنني أملك أكثر مما هو مطلوب. إنني لا أعرف ماذا أفعل!! أملك دخلاً شخصيّاً مقداره سبعمئة جنيه سنوياً بالإضافة إلى ألف وتسعمئة جنيه تركها لي السيد كزابون، وكذلك بين ثلاثة آلاف وأربعة آلاف جنيه جاهزة في المصرف. تمنيت أن أستثمر مبلغاً من النقود، ثم أسدده من دخلي الذي لا أحتاج إليه، كي أشتري به أرضاً، ثم أبني عليها قرية لتصبح مدرسة مهنية، إلا أن السير جيمس وعمّي أقنعاني بأنها ستكون مغامرة خطيرة. لذلك كما ترى فإن أكثر شيء يبهجني هو أن أنفق نقودي على فعل خيّر.. إنني أحب أن أحول حياة الآخرين إلى حياة أفضل. إن هذا يرهقني جدّاً... أي أن أحصل على ما لا أحتاج إليه ولا أريده».

برزت ابتسامة من خلال تجهم وجه ليدجيت، كما أن دورثيا لم تستطع أن تمنع ظهور النظرة الطفولية الجادة على وجهها وهي تتكلم، إذ امتزجت بفهمها لخبرة عميقة بتوقير كامل (كخبرة أقل مستوى وتؤدّي دوراً مهمّاً في العالم، يا للسيدة كزابون المسكينة لم يتوافر لها سوى معرفة مشوشة... وذات نظرة قصيرة... يساعدها قليلاً خيالها) إلا أنها اعتبرت الابتسامة تشجيعاً لخطتها.

قالت ذلك بنبرة إقناع: «أعتقد أنك تحدثت بشكوك كثيرة».. سيكون المستشفى أمراً خيّراً وإعادة حياتك إلى وضع جيد تماماً أمراً آخر».

اختفت ابتسامة ليدجيت: «إنك تملكين الطيبة وكذلك النقود لتحقيق ذلك لو كان تحقيقه ممكناً... ». ثم قال: «ولكن...».

تردد قليلاً وهو ينظر بغموض إلى النافذة، بينما ظلت جالسة في ترقب صامت، وفي آخر الأمر استدار نحوها ليقول بتهور: «لماذا لا ينبغي لي أن أقول لك...؟ إنك تعرفين ما هو

الرابط الزوجي. إنك ستفهمين كل شيء».

شعرت دورثيا بنبضات قلبها تتسارع... هل ينتابه ذاك الأسى أيضاً؟ لكنها خشيت أن تقول أيّ كلمة، فتابع على الفور قائلاً:

«من المستحيل علي أن أفعل أي شيء الآن... أي أن أتخذ أيّ خطوة دون أن آخذ في الاعتبار سعادة زوجتي. ربما كان الشيء الذي أود فعله، لو كنت لوحدي، قد أصبح مستحيلاً علي. لا أستطيع أن أراها بائسة. لقد تزوجتني دون أن تعرف أين هي ذاهبة، وربما كان من الأفضل لها لو أنها لم تتزوجني».

قالت دورثيا متذكرة بوضوح حياتها الشخصية: «أنا أعلم... أنا أعلم أنك لا تستطيع أن تسبب لها الألم، ما لم تكن مضطراً لذلك..».

قال ليدجيت متوقفاً عن حديثه ثانية لئلا يقول أكثر مما ينبغي: «ولقد قررت عدم البقاء، وهي تتمنى الرحيل، فالمتاعب التي مرت بها هنا قد أتعبتها».

«ولكن عندما ترى النتيجة الجيدة التي يمكن أن تنجم عن البقاء هنا...»، قالت دورثيا معترضة وهي تنظر إلى ليدجيت وكأنه قد نسي الأسباب التي كانا يناقشانها للتو. لم يتكلم مباشرة.

«إنها لن ترى ذلك...!!»، قالها أخيراً بجفاف وقد شعر في بادئ الأمر أن هذه العبارة ستكون كافية دون شرح مفصل. «وحقّاً إنني قد فقدت المتعة والاندفاع لأواصل حياتي هنا..». توقف للحظة... ثم قال بعد أن ترك الفرصة لدورثيا كي تنظر بعمق إلى صعوبات حياته: «الحقيقة هي أن هذه المشكلة قد وقعت عليها، فأربكتها حتى إننا ما كنّا قادرين على أن نتحدث حولها معاً. أنا لست متأكداً ممّا يجول في ذهنها حولها.. ربما ينتابها خوف من أنني قد فعلت شيئاً مخزياً. إنها خطيئتي، إذ ينبغي لي أن أكون أكثر صراحة، لكنني كنت أعاني بقسوة شديدة».

قالت دورثيا باندفاع: «هل لي أن أذهب لأراها...؟ هل ستتقبل بتعاطفي...؟ إنني سأقول لها إنك لا تلام بحكم أحد سوى بحكمك على نفسك. إنني سأقول لها إنك ستبرأ في كل ذهن عادل. إنني سأسعد قلبها. هل ستطلب منها أن تأذن لي بالذهاب لأراها؟ لقد رأيتها مرة».

قال ليدجيت قابلاً طلبها بأمل قد انتابه: «أنا متأكد أنك تستطيعين..! إنها ستشعر بالفخر والبهجة، على ما أعتقد، لأنك على الأقل تكنين بعض الاحترام لي، إلا أنني لن أخبرها بقدومك لئلا تربط ذلك برغباتي أبداً. إنني أعلم جيداً أنه كان علي ألّا أدع شيئاً للآخرين كي يقولوه لها، ولكن...».

توقف... فساد صمت للحظات، وأحجمت دورثيا عن البوح بما كان يجول في خاطرها... لقد عرفت جيداً أنه يمكن أن تكون هناك حواجز غير مرئية تمنع الحديث بين الزوج والزوجة، ففي مثل هذه الحالات حتى التعاطف يمكن أن يحدث جرحاً، ثم عادت ثانية إلى ما يتعلق بمكانة ليدجيت في عالمه الخارجي قائلة ببهجة: «وإذا ما عرفت السيدة ليدجيت أن هناك أصدقاء يصدقونك ويدعمونك... لربما انتابتها السعادة، فتبقى أنت في مكانك، وتستعيد آمالك، فتفعل ما كنت تريد فعله. ربما عندها سترى... أنه كان من الصحيح أن توافقني الرأي في ما أقترح حول استمرارية المستشفى. من المؤكد إنك ستفعل لو كنت لا تزال تؤمن بها كوسيلة تجعل من خلالها معرفتك ذات نفع...!!».

لم يجب ليدجيت، ولاحظت أنه كان يحاور نفسه.

قالت بلطف: «إنك لا تحتاج أن تقرر مباشرة.. فلا بأس في أن تأخذ أياماً قليلة، فالوقت مبكر جدّاً كي أرسل بجوابي إلى بولسترود».

انتظر ليدجيت قليلاً، إلا أنه في آخر الأمر قال بأكثر أصواته حزماً وجدية:

«كلا... إنني أفضل ألّا يترك وقت آخر للتردد، فما عدت متأكداً من نفسي.. أعني ما يتعلق بما هو ممكن بالنسبة الى فعله ضمن تغيرات حياتي، ولن يكون من المشرف أن أجعل الآخرين يقحمون أنفسهم في أي أمر خاص وجاد يتعلق بي. ربما في نهاية المطاف، سأضطر للرحيل، لا أكاد أرى أيّ فرصة لأي شيء آخر. إن الوضع بأسره تتتابه مشاكل جمة، ولا أسمح لنفسي أن أكون سبباً لضياع سخائك وكرمك. كلا... دعي المستشفى يدمج مع المستشفى القديم، ودعي كل شيء يتابع مسيره وكأنني لم آت إلى هنا البتة. إنني أحتفظ بسجل قيّم، بدأت تدوينه منذ بداية عملي هناك، سأرسله إلى رجل ينتفع منه»... قال جملته الأخيرة بمرارة: «إنني لا أستطيع التفكير على المدى البعيد... باستثناء الحصول على دخل».

قالت دورثيا: «إن سماعي لك وأنت تتحدث بهذه الطريقة اليائسة ليجرحني جدّاً!! سيكون من دواعي سعادة أصدقائك، الذين يؤمنون بمستقبلك وبقدرتك على فعل الأشياء

الخيرة، لو تركت لهم الفرصة كي ينقذوك من ذلك. فكر كم أملك من النقود. سيكون كإزاحة عبء عني لو أخذت بعضه في كل سنة حتى تتحرر من قيود حاجتك إلى دخل. لماذا لا يفعل الناس مثل هذه الأشياء؟ إنه لمن صعب عليهم حتى أن يقدموا مساهمة، فهذه إحدى الطرق».

«فليسعدك الرب يا سيدة كزابون...!»، قال ليدجيت ذلك وهو ينهض بالاندفاع نفسه الذي جعل كلماته مليئة بالحيوية، ثم أضاف وهو يضع إحدى يديه على ظهر كرسي الجلد الفاخر الذي كان يجلس عليه: «إنه لشيء حسن أن يكون لديك مثل هذه المشاعر، لكنني لست الرجل الذي يسمح لنفسه أن ينتفع منها. إنني لم أقدم ضماناتٍ كافية. يجب ألا أغرق في تقديم التنازلات كي يقدم لي منحة مقابل عمل لم أقم به. من الواضح لي تماماً أنه ينبغي لي ألاّ أركن إلى أي شيء آخر سوى ترك مدل مارش في أسرع وقت ممكن. لن يكون في استطاعتي الحصول على دخل هنا لفترة طويلة في أفضل الأحوال. و... وإن من الأسهل القيام بتغييرات ضرورية في مكان جديد. يجب أن أفعل ما يفعله الرجال الآخرون، وأفكر في ما يسعد الآخرين، فأجلب النقود... سأتطلع إلى بداية بسيطة وسط ازدحام لندن، ثم أستقر في أحد الشواطئ، أو أذهب إلى إحدى بلدات الجنوب حيث يوجد الكثير من الإنجليز العاطلين عن العمل، فأغالي بنفسي... تلك هي الصدفة التي ينبغي لي أن أزحف نحوها، وأحاول أن أبقي روحي حية داخلها».

قالت دورثيا: «إن ذلك ليس من الشجاعة... أن تسلّم في الحرب».

قال ليدجيت: «كلا إنها ليست من الشجاعة، ولكن إذا كان الرجل خائفاً من شلل زاحف؟»، ثم بنبرة صوت أخرى: «إلا أنك قد أحدثت تغييراً في الشجاعة وذلك بتصديقك لي. يبدو لي كل شيء أكثر احتمالاً منذ أن تحدثت إليك؛ وإذا استطعت أن تبرئيني لدى أشخاص آخرين قلائل، خصوصاً لدى أفراد أسرة فيربرذر، فسأكون ممتنّاً جدّاً لك. النقطة التي أتمنى ألّا تذكريها هي عدم الانصياع لتعليماتي، إذ إنها ستشوه مباشرة. في آخر الأمر فأنا لا أملك أي دليل باستثناء ما يقوله الناس عني مسبقاً. تستطيعين أن تكرري ما قلته لك».

قالت دورثيا: «السيد فيربرذر سيصدق... الآخرون سيصدقون.. سأقول بحقك ما يجعل الظن بأن تلقيك رشوة مقابل فعل شرير لهو غباء».

قال ليدجيت وقد ظهر على صوته بعض الأنين: «إنني لا أعرف. إنني لم أتلق رشوة حتى الآن، لكن هناك نوعاً من الرشوة المظللة تدعى أحياناً بالرفاهية. ستقدمين لي جميلاً عظيماً آخر عندما تأتين لتري زوجتي؟».

«نعم سأفعل. إنني أتذكر كم هي جميلة». قالت هذا دورثيا التي انغمس في ذاكرتها عميقاً كل انطباع شكلته حول روزموند: «أتمنى أن تحبني».

بينما كان ليدجيت في طريق عودته فكر: «هذه المخلوقة الشابة تملك قلباً كبيراً كقلب مريم العذراء. بالتأكيد لا تفكر في مستقبلها، فهي لا تتردد بتقديم نصف دخلها على الفور، وكأنها لا تريد أي شيء لنفسها سوى كرسي تجلس عليه لتنظر بعينيها النقيتين إلى الأسفل نحو أولئك المساكين الذين يصلون لأجلها. يبدو أنها تتمتع بما لم أجده لدى أيّ امرأة من قبل... ينبوع صداقة مع الرجال... يستطيع الرجل أن يتخذها صديقة له. لا بد من أن كزابون قد خلق في داخلها نزعة بطولية...! أتساءل في ما إذا كانت تملك أي نوع آخر من العاطفة نحو رجل ما...؟ لادسلو...؟! بالتأكيد كان هناك شعور غير اعتيادي بينهما، ولابد من أن كزابون قد علم بذلك. حسناً... فحبها يمكن أن يساعد الرجل أكثر مما تساعد نقودها».

وضعت دورثيا، من جانبها، مباشرة خطة لتخليص ليدجيت من دينه لبولسترود، إذ أدركت أنه كان يشكل جزءاً من الضغط القاسي الذي كان عليه تحمله.

جلست مباشرة تحت تأثير مقابلتها معه، ثم كتبت ملاحظة قصيرة توسلت فيها قائلة إنها أكثر جدارة من بولسترود كي تقدم النقود التي خدمت ليدجيت... وإنه لن يكون لطفاً من ليدجيت إذا حرمها من نعمة تقديم المساعدة له في هذا الشأن البسيط، فالمعروف سيقدم لها في وقت لا تعرف ماذا تفعل بمالها الكثير جدّاً.

يمكنه أن يدعوها باسم دائنة أو أي اسم آخر إذا كان هذا يضمن قبوله لطلبها. أرفقت الملاحظة بشيك قدره ألف جنيه، وقرّرت أن تأخذ الرسالة معها في اليوم التالي عندما تذهب لترى روزموند.

الفصل السابع والسبعون

وهكذا ترك سقوطك وصمة

لتظهر الرجل المليء المفعم والأكثر هبة

ببعض الشّك

هنري الخامس

في اليوم التالي، كان على ليدجيت أن يذهب إلى براسِنغ، فقال لروزموند إنه لن يعود حتى المساء. لم تخرج من منزلها مؤخراً إلا عندما ذهبت إلى الكنيسة ومرة إلى أبيها لتقول له: «إذا قرر ترشيوس الرحيل، فإنك ستساعدنا يا أبي، أليس كذلك؟ أعتقد أنه لن يكون لدينا إلا القليل من النقود. إنني متأكدة من أن أحداً سيساعدنا». وقال السيد فنسي: «نعم يا ابنتي لن أمتنع عن تقديم مئة أو مئتين. إنني أستطيع أن أرى نهاية الأمر». بهذه التوقعات جلست في منزلها بكآبة مضنية وقلق... مركزة تفكيرها حول قدوم لادسلو كأمل وحيد مرفقة ذلك بإلحاح شديد على ليدجيت، كي يقوم بالترتيبات الفورية لمغادرة مدل مارش والذهاب إلى لندن حتى شعرت أنها متأكدة من أن قدومه سيكون السبب المقنع للذهاب دون أن تعلم تماماً كيف سيحدث ذلك. إن طريقة إنشاء هذا التسلسل هي أكثر شيوعاً من أن تعتبر حماقة خاصة بروزموند، و لاسيما أن هذا التسلسل خصوصاً، يحدث صدمة عندما يتبعثر.. لكن رؤية كيف يمكن للتأثير أن ينشأ غالباً ما تترافق برؤية أشياء تفقد... وتوبيخات، ولكن عدم رؤية أي شيء باستثناء السبب المرغوب فيه، والتأثير الملتصق به، تحررنا من الشك، وتجعل تفكيرنا يميل بقوة إلى الحدث.

هذا ما كان يسيطر على تفكير روزموند المسكينة بينما كانت ترتب جميع الأشياء من حولها بالطريقة اللطيفة نفسها التي اعتادت عليها، ولكن ببطء أكثر... أو حين كانت تجلس إلى آلة البيانو لتعزف عليها، ثم تكف عنه، لكنها تبقي أصابعها البيضاء على مقدمته الخشبية وهي تنظر أمامها بسأم حالم.

لقد أصبحت كآبتها واضحة جدّاً حتى إن ليدجيت قد شعر نحوها بحنو غريب كتأنيب صامت مستمر، كما أن هذا الرجل القوي، الذي تتحكم به مشاعره المرهفة تجاه هذه المخلوقة الضعيفة، فرأى أن حياتها أصيبت بصدمات، قد أجفل لنظراتها، وكان أحياناً يفزع لدى اقترابها منه خوفاً منها وخوفاً عليها؛ إذ يدخل هذا الخوف فيه عنوة بعد أن طرده اليأس مؤقتاً.

في هذا الصباح نزلت روزموند من غرفتها في الطابق العلوي، حيث كانت تقضي أحياناً طوال النهار عندما يكون ليدجيت خارج المنزل، وقد هيأت نفسها للتجوال في البلدة. كانت تحمل معها رسالة لترسلها في البريد... رسالة تحمل عنوان لادسلو، وكتبت بعناية فائقة، لكنها تعجل وصوله بالإشارة إلى معضلة قد وقعت. عندما رأتها خادمتها، وهي تنزل من الطابق العلوي مرتدية ثياب الزيارة، فكرت: «... لا توجد واحدة تبدو جميلة في قبعتها مثل هذه المسكينة».

في ذلك الوقت... كانت تسيطر على تفكير دورثيا فكرة الذهاب إلى روزموند وأفكار الماضي الكثيرة بالإضافة إلى احتمالات المستقبل التي تحلقت حول فكرة الزيارة. حتى يوم البارحة، عندما كاشفها ليدجيت ببعض مشاكل حياته الزوجية، كانت دائماً صورة السيدة ليدجيت تبرز في ذهن دورثيا مترافقة مع صورة لادسلو.

حتى في أصعب أوقاتها... وحتى عندما أثارها حديث السيدة كادولدر المؤلم حول ما يتداوله الآخرون عنها... كان جهدها -كلا... بل أقوى حوافزها- يدفعها نحو تبرئة لادسلو من أي ظنون ملطخة، وأثناء لقائها به، بعد ذلك، فسّرت كلماته في البداية على أنها إشارة ممكنة للشعور نحو السيدة ليدجيت، كان قد قرر التخلي عنه تماماً فتملكتها رؤية حزينة وسريعة تعذره، على السحر الذي ربما خيّم من خلال صحبته المستمرة مع تلك المخلوقة الجميلة التي من الأرجح أنها قد شاركته معظم أذواقه، بالإضافة إلى مشاركتها له استمتاعه بالموسيقى. إلا أن كلمات الفراق تلت كلماته تلك... كلمات عاطفية قليلة ضمنها أنها هي من أبقى حبه يتملكه الخوف حتى انه قرّر عدم البوح بحبه لها، ولكن أن ينفي نفسه بعيداً؟ منذ ذلك الفراق، ولأن دورثيا كانت تؤمن بحب ويل لها ولأنها كانت تؤمن بكبريائه وتصميمه اللذين لا يمكن لأحد أن يجرحه فيهما، شعرت بارتياح قلبي تجاه شعوره المحتمل نحو السيدة ليدجيت، إذ كانت متأكدة من أن ذلك الشعور لا يمكن لومه.

هناك أنواع من الطبائع البشرية إذا أحبتنا ندرك أننا في صدد تجربة جديدة وتكريس في الحياة.. إذ تربطنا بالاستقامة والعفة من خلال إيمانها النقي بنا، وتصبح خطايانا أسوأ نوع من

أنواع التدنيس، التي تمزق التبدل غير المرئي للثقة. «إذا لم تكن جيداً، فلا أحد جيد»... يمكن أن تعطي تلك الكلمات البسيطة معنىً جميلاً للمسؤولية، ويمكن أن تقدم نقداً لاذعاً للرحمة.

لقد كانت طبيعة دورثيا من ذلك النوع.. إذ كانت أخطاؤها العاطفية تنسجم مع القنوات المفتوحة لشخصيتها المتحمسة، وعندما تتملكها الشفقة نتيجة أخطاء الآخرين، لم تكن خبرتها تملك أي عنصر لبناء تفسيراتٍ ذكية وشكوك لأخطاء خفية، إلا أن بساطتها هذه، لأنها كانت بمثابة مثل أعلى لدى الآخرين نتيجة تصديقها الفطري لهم، كانت تشكل إحدى أقوى عناصر أنوثتها، وقد أثرت بقوة على لادسلو حتى إنه قد شعر عندما فارقها أن الكلمات المختصرة التي حاول أن يعبر بها عن شعوره نحوها، والحاجز الذي وضعته ثروتها بينهما، ستؤدي غرضها فقط من خلال اختزالها عندما تفسرها دورثيا.. إذ وجد في تفكيرها أعلى تقويم وتثمين لذاته.

ولقد كان محقّاً في ذلك، فخلال الأشهر التي لحقت فراقهما شعرت دورثيا باستكانة حزينة انتابت علاقتهما، لتبدو وكأنها كاملة المضمون ولا ينتابها عيب. لقد كانت في داخلها قوة نشطة لخصومة داخلية، فحين كانت تتحول هذه الخصومة إلى دفاع عن خطط أو أشخاص كانت تؤمن بهم، وكذلك الأخطاء التي أدركت أن زوجها قد سببها لويل والظروف الخارجية التي شكلت قاعدة لإساءة الآخرين له، كانت تبعث فيها تشبثاً أكبر بعاطفتها، وإعجابها بالأحكام التي كانت تطلقها، والآن بالتزامن مع إفشاء أسرار بولسترود، ظهرت حقيقة أخرى أثرت على وضع ويل الاجتماعي مما أثار مقاومة جديدة لدى دورثيا لما قيل عن علاقته بها.

«لادسلو الشاب حفيد المسترهن اليهودي السارق...!!»، كانت هذه عبارة قد ترددت كثيراً أثناء الحوارات التي دارت حول شؤون بولسترود في لُويك وتبتن وفريشت... كما كانت إعلاناً على ظهر ويل أسوأ من «الإيطالي ذي الفئران البيضاء»... كان السير جتم، المستقيم أخلاقيّاً، معتقداً أنه على حق عندما اعتقد، برضىً، أنه ها هنا فرسخ آخر يضاف إلى البعد الهائل الذي كان يفصل بين دورثيا وويل، مما مكنه من أن يستبعد أي قلق في ذلك الاتجاه لأنه كان مجرد عبث شديد، وربما كان هناك بعض المتعة في جذب انتباه السيد بروك إلى الجانب القبيح من نسب لادسلو، فتكون شمعة مضيئة يرى بها حماقته الشخصية.

لقد لاحظت دورثيا أن ذكر دور ويل في القصة الأليمة قد تكرر أكثر من مرة بطريقة معادية، لكنها لم تنطق كلمة واحدة لأنها أصبحت تراقب الآن... ولاسيما أنها لم تكن تتحدث

عن ويل قبل هذا الوقت لإدراكها بعلاقة عميقة كانت تربط بينهما... ويجب أن تظل دائماً في سرية دائمة، لكن صمتها حوّل عاطفتها المقاومة إلى اتقاد أكثر توهجاً، فما أثار فيها سوء حظه، الذي كان يتخذه الآخرون سبب استهزائهم به، إلا شيئاً أقوى من الحماسة لفكرتها العالقة.

إنها لم تتخيل يوماً ارتباطها به، لكنها على الرغم من ذلك فإنها لم تتخذ موقفاً زاهداً، فهي تقبلت علاقتها بويل ببساطة شديدة كجزء من أسفها على زواجها، وكانت ستعتبرها إثماً لو أبقتها على شكل شكوىً في داخلها لأنها لم تكن سعيدة تماماً جراء امتلاكها ثروة طائلة.

لقد استطاعت أن تتحمل بقاء المتع الرئيسية لعاطفتها في ذاكرتها، وفكرة الزواج قد جاءتها، بشكل رئيسي، كطلب مندفع من خاطبين لا تعرف عنهم شيئاً في الوقت الحاضر، باستثناء ما عرفه عنهم محبوها من خصال حميدة مما أصبح ذلك مصدر شقاء لها... «أحدهم يستطيع أن يدير شؤون أملاكك يا عزيزتي». كان اقتراحاً مثيراً لصفات مناسبة صدرت عن السيد بروك. قالت دورثيا: «...أحب أن أديرها بنفسي لو عرفت ماذا سأفعل بها»، ثم أضافت «كلاّ...». وتمسكت بتصريحها على أنها لن تتزوج ثانية، وخلال حياتها الطويلة، التي بدت سطحية جدّاً وخالية من شاخصات الطرق، لا بد لدليل من أن يأتيها وهي تسير في الطريق، وترى في طريقها رفقاءها في السفر.

كان شعورها المعتاد نحو لادسلو قويّاً في جميع ساعات يقظتها منذ أن اقترحت زيارتها للسيدة ليدجيت، ولاسيما وهي تنسج في خيالها صورة خيالية تظهر وسطها روزموند... دون أن تضع عوائق أمام عاطفتها واهتمامها.

من الواضح أنه كان هناك نوع من الانفصال الفكري مما أوجد عائقاً أمام بناء الثقة بين هذه الزوجة وهذا الزوج، الذي... على الرغم من ذلك، جعل سعادتها قانوناً له. كان ذلك يشكل معضلة لا يمكن لشخص ثالث أن يلمسها مباشرة، لكن دورثيا فكرت في عمق الشفقة الناجمة عن العزلة التي لا بد لروزموند من أنها وقعت فيها نتيجة الشكوك التي أثيرت حول زوجها، ومن المؤكّد أنه لا بد من أن يكون هناك مساعدة تقدم احتراماً لليدجيت وتعاطفاً معها.

«سأتحدث إليها حول زوجها»... فكرت دورثيا في نفسها وهي جالسة في عربتها

متجهة نحو البلدة، فالصباح الربيعي المشرق وشذى رطوبة الأرض والأوراق اليانعة الخضرة كانت تشكل جزءاً من شعورها بالبهجة نتيجة حديثها مع السيد فيربرذر، الذي قبل بسرور التفسير المبرر لدور ليدجيت... «سأقدم للسيدة ليدجيت أخباراً سارة، وربما ستحب الحديث معي، فتصبح صديقة لي».

كان لدى دورثيا مهمة أخرى في لُويك جيت.. تتعلق بجرس جديد للمدرسة، وبعد أن نزلت من عربتها طلبت من سائق العربة انتظار بعض العلب، وسارت مسرعة عبر الشارع نحو منزل ليدجيت، الذي كان بابه مفتوحاً، مما أتاح الفرصة للخادمة أن ترى العربة بوضوح، فبدا لها من الواضح أن السيدة التي نزلت منها كانت قادمة نحوها.

قالت دورثيا: «هل السيدة ليدجيت في المنزل...؟».

قالت مارثا: «لست متأكدة يا سيدتي...! سأرى. تفضلي بالدخول لو سمحت»، وقد أصابها ارتباك لارتدائها ثياب المطبخ، لكنها لم تغفل عن أن كلمة مدام ليست باللقب المناسب لهذه الشابة الملكية الأرملة ذات العربة بحصانين.

«هلاّ تفضلت بالدخول، وسأذهب لأرى».

«قولي إنني السيدة كزابون...». قالت هذا دورثيا بينما كانت مارثا تتقدم لتدلها على غرفة الاستقبال، ثم تصعد إلى الطابق العلوي لتتبين ما إذا كانت روزموند قد عادت من تجوالها.

ذهبتا عبر صالة المدخل الأمامي، ثم استدارتا نحو الممر الذي يقود إلى الحديقة. لم يكن باب غرفة الاستقبال مقفلاً، فدفعت به مارثا دون أن تنظر إلى داخل الغرفة، ثم انتظرت كي تدخل السيدة كزابون، وتنصرف. كان قد فتح الباب ثم أغلق دون أن يصدر صوتاً.

كانت تدقيق دورثيا بنظرها أقل من المعتاد في ذلك الصباح، وذلك لانشغال تفكيرها الكثيف بما حدث وما سيحدث. لقد وجدت نفسها داخل الغرفة دون أن تلاحظ أي شيء محدد، لكنها ما لبثت أن سمعت حديثاً بصوت خافت جدّاً مما جعلها تجفل وكأنها استيقظت من حلم يقظة، ثم لدى تقدمها متجاوزة خزانة الكتب الخشبية بخطوة أو خطوتين، رأت بوضوح يقيني مخيف ما يفسر كل غموض.. شيئاً جعلها تقف بلا حراك ودون قدرة على الكلام.

رأت لادسلو جالساً وظهره نحوها إلى أريكة وضعت أمام الحائط الموازي للباب الذي دخلت منه، وبقربه روزموند مستديرة نحوه وقد اغرورقت عيناها بالدموع مما منح وجهها بريقاً جديداً، وكانت قبعتها ملقاة إلى الخلف بينما كان ويل منحنياً نحوها ماسكاً كلتا يديها بيديه ويتحدث متحمساً بصوت خافت.

على الرغم من ملاحظة روزموند الدقيقة فإنها لم تلاحظ الشخص المتقدم بصمت، ولكن عندما تراجعت دورثيا مرتبكة إلى الوراء قليلاً لما رأته، اعترضتها قطعة من الأثاث، وفجأة تنبهت روزموند لوجودها وبحركة لا إرادية سحبت يديها، ونهضت ناظرة إلى دورثيا التي وقفت جامدة. كذلك استدار لادسلو لما أصابه من دهشة، وعندما رأى عيني دورثيا وهما تشعان بريقاً جديداً، تحول إلى قطعة من رخام، إلا أنها حولت نظرها مباشرة عنه إلى روزموند لتقول بثبات:

«عذراً يا سيدة ليدجيت، فالخادمة لم تعلم أنك هنا. لقد أتيت لأحضر رسالة للسيد ليدجيت أرغب في أن أضعها بين يديك».

وضعت الرسالة على الطاولة الصغيرة التي كانت قد تعثرت بها، ثم بعد أن رمقت كلاًّ من روزموند وويل بنظرة واحدة وانحنت محيية كليهما، خرجت مسرعة من الغرفة لتقابل في الممر مارثا المندهشة التي قالت إنها تأسف لعدم وجود سيدتها في المنزل، ثم رافقت السيدة الغريبة إلى الباب الخارجي بانطباع داخلي بأن الأغنياء أقل صبراً من الآخرين.

عبرت دورثيا الشارع بأسرع خطواتها المرنة لتعلو عربتها ثانية بسرعة فائقة.

قالت لسائق العربة: «اذهب إلى فريشت هول...». لو أن أحداً نظر إليها لتيقن أن طاقة لم تنتبها كهذه المرة... على الرغم من بعض الشحوب الذي اعتلى وجهها، وحقًّا كانت تلك هي طبيعتها، إذ بدت كما لو أنها قد تجرعت جرعة كبيرة من الازدراء الذي أثارها، فما عادت تأبه للمشاعر الأخرى.

لقد رأت شيئاً أدنى مستوًى مما كانت تعتقد به حتى إن مشاعرها قد تقهقرت أمامه... فأحدثت زحمة مدهشة دون هدف. لقد كانت في حاجة إلى شيء مثير كي تفرغ فيه دهشتها.

لقد شعرت بطاقة تكفيها للسير والعمل ليوم بأكمله دون حاجة إلى طعام أو شراب، ولتنفذ هدفها الذي بدأت به ذاك الصباح.. أي أن تذهب إلى تبتن وفريشت لتخبر السير

جيمس وعمّها بكل ما عرفته عن ليدجيت الذي برزت لها وحدته الزوجية، تحت الصعوبات التي كان يمر بها، بمعنىً جديد، وجعلتها أكثر تحمساً كي تكون ممثلة له.

إنها لم تشعر بمثل هذه القوة الساخطة المنتصرة خلال صراع حياتها الزوجية التي كانت فيها دائماً منصاعة، وكانت تعتبرها مؤشراً لقوة جديدة.

قالت سيليا بعد أن خرج السير جيمس من الغرفة: «كم هي عيناك براقتان يا دودو...! وأنت لا ترين أي شيء تنظرين إليه، لا آرثر ولا أي شيء. إنك ستفعلين شيئاً مزعجاً. إنني أعلم ذلك. هل الأمر يتعلق كله بالسيد ليدجيت...؟ أم هناك شيء آخر..؟؟». كانت سيليا قد اعتادت على مراقبة أختها بتوقع وترصد.

قالت دودو بنبرتها القوية: «نعم يا عزيزتي، لقد حدثت أشياء كثيرة وكبيرة...!!».

قالت سيليا وقد عقدت ذراعيها بهدوء، ثم انحنت إلى الأمام قليلاً: «إنني لأعجب ماذا تكون...»..

قالت دورثيا رافعة ذراعيها خلف رأسها: «آه... إنها مشاكل الناس كافة الذين على وجه الأرض..».

قالت سيليا بعدم ارتياح لهذا الهذيان الذي يشبه هذيان هاملت: «عزيزتي دودو، هل ستضعين لها حلاً؟».

إلا أن السير جيمس قد دخل ثانية بعد أن استعد لمرافقة دورثيا إلى كرينج، فأنهت حملتها بطريقة جيدة ولم تحد عن قرارها حتى وصلت باب منزلها.

الفصل الثامن والسبعون

تمنيت لو حدث ذلك البارحة وأنا في القبر...

ومن فوق يقينها العذب نصباً تذكارياً...

وقف كل من ويل وروزموند، متسمرين في مكانهما دون أن يدركا كم من الوقت مضى عليهما وهما في وقفتهما تلك... كان ينظر إلى البقعة التي كانت تقف بها دورثيا، بينما كانت هي تنظر إليه بشك. بدا الوقت لا نهاية له بالنسبة إلى روزموند، التي لم يصب أعماق روحها إزعاج قدر الرضى الذي انتابها نتيجة ما حدث للتو.

تحلم طبيعة بعض الناس السطحية بسيطرتها السهلة على عواطف الآخرين، وبثقة تامة بسحرها التافه تصبو إلى تحويل أعمق الجداول، كما أنها تكون واثقة من قدرتها على تحويل الأشياء من العدم إلى النفع وذلك بمجرد إشارات جميلة وملاحظات تصدرها.

أدركت أن ويل قد تلقى صدمة قاسية، لكنها لم تعتد على التنبه إلى الحالات الفكرية التي يمر بها الآخرون باستثناء كونها مادة تصوغها بحسب رغباتها وأمنياتها، إلا أنها كانت تؤمن بقدرتها على الإخضاع والتسكين، فحتى ترشيوس، الذي هو أكثر الرجال عناداً، كان دائماً ينتهي الأمر به بالانصياع لها.

على الرغم من استعصاء الأحداث فإن روزموند كانت ستقول الآن، ما كانت تقوله قبل زواجها، من أنها لا تيأس مما قررته في ذهنها. مدت يدها لتجعل أطراف أصابعها تلامس معطف ويل.

«لا تلمسيني...!!»، قال هذا بصوت يشبه ضربة السوط مبتعداً عنها فجأة وقد تحول لون وجهه من اللون الوردي إلى الأبيض، ثم إلى الوردي ثانية، فبدا وكأن جسده قد أصابه ألم واخز ناجم عن لسعة. ثم سار إلى الطرف الثاني من الغرفة ليقف مواجهاً لها واضعاً أطراف أصابعه في جيوبه وناظراً بحنق، ورأسه إلى الوراء قليلاً، ليس إلى روزموند بل إلى نقطة تبعد عنها بضعة سنتمترات.

لقد أسيء إليها بقوة، ولكن الإشارات التي أبدتها ردّاً على هذا كانت تشبه تلك التي لا يفهمها إلا ليدجيت. لقد هدأت فجأة، وجلست، ثم فكت قبعتها المتدلية لتضعها جانباً مع شالها، أما يداها اللتان عقدتهما أمامها فكانتا باردتين جدّاً.

في بادئ الأمر، كان من الأسهل على ويل أن يلتقط قبعته وينصرف، لكنه لم يشعر برغبة للقيام بذلك، بل على العكس، فقد انتابته رغبة عارمة في البقاء وإرهاق روزموند بغضبه.

لقد بدا له من المستحيل أن يتحمل الهلاك الذي صبته عليه، دون أن يصب جام غضبه، فيكون كالنمر الذي جرحه رمح، وفرض عليه التحمل، دون أن يثب أو يعض.. وفضلاً عن ذلك كيف له أن يقول لامرأة إنه مستعد كي يلعنها؟ وهو يستشيط غضباً تحت قانون قمعي، وجب عليه الاعتراف به.. كاد يفقد رباطة جأشه، وقد استطاع صوت روزموند في تلك اللحظة أن يستعيد حزمه، فقالت بنغمة يشوبها قليل من السخرية:

«تستطيع ببساطة أن تلحق بالسيدة كزابون وتشرح لها ما تفضله».

«ألحق بها؟؟؟!» -انفجر قائلاً بصوت حاد- «هل تعتقدين أنها ستستدير لتنظر إلي، أو تثمن أيّ كلمة أقولها لها بأكثر ما تثمن ريشة قذرة؟ أشرح؟؟؟! كيف يمكن لرجل أن يشرح على حساب امرأة؟؟!».

قالت روزموند بارتعاش أكثر: «تستطيع أن تقول لها ما يسرّك...!!».

«هل تعتقدين أنها ستحبني أكثر إذا ما ضحيت بك؟ إنها ليست المرأة التي تقبل الإطراء من خلال تذللي لها... أو كي تقتنع أنني صادق معها يجب أن أكون خسيساً معك...!!». ثم راح يتنقل في الغرفة كحيوان مفترس يرى فريسته، ولكنه لا يستطيع الوصول إليها، وبعدها انفجر ثانية...

«لم يكن لدي من قبل أي أمل... ليس كثيراً... أي شيء أفضل يمكن له أن يقع. إلا أنه كان لدي يقين واحد أنها كانت تصدقني. مهما قاله الناس عني أو فعلوه ضدي، كانت تصدقني... لقد ذهب ذلك كله! إنها لن تعتبرني ثانية سوى مدّعٍ خسيس... وأنني غني عن كل ما في هذه الحياة، باستثناء ما يتعلق بالإطراء والمداهنة، وفضلاً عن ذلك فإنني مستعد لأن أبيع نفسي لشأن شيطاني بالمكر والخداع. إنها ستعتبرني مجرد إهانة مجسدة لها منذ اللحظة الأولى...».

توقف ويل ليجد نفسه وكأنه كان يمسك بشيء يخشى أن يقع فيتحطم. لقد وجد طريقة أخرى للتنفيس عن غضبه وذلك بالتقاطه كلمات روزموند ثانية وكأنها زواحف يخنقها ثم يلقي بها.

«أشرح...؟! قولي لرجل كي يشرح كيف وقع في جهنم...؟؟! أشرح ما أفضله...؟؟! إنني لم أملك تفضيلاً عليها قط أكثر من تفضيلي للتنفس. لا يوجد امرأة في الوجود توازيها. أفضل أن أمسك يدها ميتة على أن أمسك يد امرأة أخرى حيّة».

بينما كانت هذه الأسلحة السامة تنهار على روزموند، كانت توشك أن تفقد إحساسها بكيانها، وبدت أنها تستيقظ في وجود رهيب جديد عليها، فلم يسبق لها الإحساس بشعور بهياج حازم وقاسٍ، ولا تبرير ذاتي كتوم يشبه ذلك الذي عرفته لدى زوبعة امتعاض ليدجيت.. إذ تحولت قدرتها على الإدراك إلى ذهول نتيجة ألم واضح، وشعرت بتراجع مخيف تحت ضربة سوط لم تعهدها من قبل، وما أحست به الطبيعة المعاكسة لطبيعتها كان يحرق ويلدغ ضمن إدراكها.

عندما توقف ويل عن الكلام، تحولت هي إلى صورة بؤس. كان ترشيوس هو الشخص الذي يقف أمامها الآن، ويرى نظرة البؤس تلك.. فشحبت شفتاها وامتلأت عيناها برعب دون دموع، فلو كان هنا لكانت صدمة كبيرة له، ولغرق قربها ليريحها بذراعيه القويتين اللتين كانت تستهين بهما كثيراً.

فلنضرب صفحاً عن ويل، لأنه لم تكن لديه مثل هذه الشفقة. إنه لم يشعر برباط مسبق يربطه بهذه المرأة، التي أفسدت كنز حياته المثالي، ولم يلم نفسه. أدرك أنه كان قاسياً، ولكن لم تنبعث فيه رقة ولا لين بعد.

بعد أن فرغ من كلامه ظل يتنقل في الغرفة بنصف وعيه، بينما كانت روزموند تجلس بهدوء تام، وبعد فترة طويلة وعندما عاد ويل إلى وعيه التام أخذ قبعته إلا أنه توقف متردداً للحظات.

لقد خاطبها بطريقة قاسية... فكان نطق عبارة أدب عادية صعباً للغاية، إلا أنه عندما جاءت لحظة مغادرته، أجفل من أن ينصرف دون أن يقول لها شيئاً آخر، واعتبر ذلك قسوة، فتنبه لنفسه، وأحبط ثورة غضبه، ثم سار نحو رف موقد النار، ووضع ذراعه عليه منتظراً بصمت... كان صعباً عليه أن يعرف ماذا، ولاسيما أن النار المشتعلة كانت لا تزال تتقد في

داخله، فلم يستطع أن ينطق بكلمة تراجع واحدة ولكن في أي حال، عندما أدرك أنه كان يقف بالقرب من هذا الموقد حيث استمتع بصحبة ملاطفة، وجد بؤساً يجلس هناك... لقد أدرك فجأة أن هناك مشكلة تكمن خارج المنزل، فضلاً عن وجودها في داخله، وما كان يتنبأ به كان يضغط عليه كما تضغط كماشة ببطء.. إذ يمكن أن تستعبد حياته هذه المرأة العاجزة، التي ألقت نفسها عليه في أثناء حزن قلبها المخيف.

إلا أنه كان في حالة تمرد مظلم.. على حقيقة أن إدراكه السريع قد تنبأ له، وعندما وقع نظره على وجه روزموند المتعب، أدرك أنه كان يستحق الشفقة أكثر منها، لأن الألم يجب أن يدخل في حياة ذاكرته المبجلة قبل أن يتحول إلى تعاطف.

وهكذا بقيا لدقائق كثيرة في مواجهة أحدهما الآخر، وبعيدين من بعض في صمت. كان وجه ويل لا يزال يتملكه الغضب الصامت، في حين كان وجه روزموند يتملكه البؤس الصامت، فلم يكن لدى المرأة المسكينة قوة كي تفجر أيّ عاطفة كردة فعل؛ إذ كان الانهيار المفزع لوهمها، الذي تعلق به كامل أملها، صدمة هزتها بأكملها، كما تحول عالمها الصغير إلى حطام، فشعرت أنها تترنح وسطه كضمير وحيد مرتبك.

تمنى ويل لو أنها تكلمت، فتخفف من حدة كلامه القاسي، الذي بدا وكأنه يحدق بهما ساخراً من أي محاولة لإنعاش الصداقة بينهما، لكنها لم تقل شيئاً، و في آخر الأمر سأل بيأس: «هل سأعود لأرى ليدجيت في هذا المساء؟».

«إذا شئت ذلك...».. أجابت روزموند بصوت لا يكاد يسمع، ثم خرج ويل من المنزل دون أن تعلم مارثا بوجوده.

بعد أن ذهب، حاولت روزموند النهوض من كرسيها ولكنها سقطت مغمياً عليها، وعندما عادت إلى وعيها شعرت أنها أشد مرضاً من أن تنهض لتقرع الجرس، وظلت عاجزة عن الحراك حتى إن الخادمة قد استغربت غيابها الطويل، ففكرت في البحث عنها أولاً في جميع غرف الطابق السفلي.

قالت روزموند إنها قد شعرت بالإعياء والمرض فجأة فأغمي عليها، وإنها تحتاج الى مساعدة كي تذهب إلى الطابق العلوي، وعندما أصبحت هناك ألقت بنفسها على السرير دون أن تغير ثيابها، واستلقت في خدر كما حدث لها ذات مرة من قبل في يوم حزن مذكور.

عاد ليدجيت إلى المنزل في وقت أبكر مما توقع؛ إذ كانت الساعة حوالي الخامسة والنصف، فوجدها هناك. و فكرة أنها كانت مريضة قد استبعدت جميع الاحتمالات الأخرى.. وبينما كان يجس نبضها، استقرت عيناها عليه بإلحاح لم تفعلهما لمدة طويلة خلت، فبدت وكأنها قد انتابها بعض الرضى لوجوده هناك.

لقد لاحظ التغير في لحظة واحدة، فجلس بقربها ووضع ذراعه تحتها، وبعد أن انحنى فوقها قال: «يا عزيزتي المسكينة روزموندا هل أغضبك شيء..؟؟» .بعد أن أمسكت به، غرقت في نحيب وبكاء هستيريين، ولم يفعل هو شيئاً لساعة بأكملها... سوى التخفيف عنها والحنو عليها.

تخيل أن دورثيا قد جاءت لتراها، وأن كل هذا التأثير على جهازها العصبي، الذي من الواضح قد سبب تحولاً جديداً نحوه، كان نتيجة للاهتياج الذي أصابها جراء الانطباعات الجديدة التي أثارتها تلك الزيارة.

الفصل التاسع والسبعون

«رأيت الآن في حلمي أنهما، فور انتهائهما من حديثهما، قد انسحبا قرب مستنقع المرح الشديد، الذي كان يتوسط أرضاً منبسطة، ولأنهما كانا مغفلين وقع كلاهما فجأة في المستنقع. كان اسم المستنقع.. الكآبة... ».

الكاتب بانيان

عندما هدأت روزموند، تركها ليدجيت على أمل أن تنام مباشرة تحت تأثير الدواء الذي أعطاه لها، ثم ذهب إلى غرفة الاستقبال ليحضر كتاباً كان قد تركه هناك.. إذ أراد أن يقضي مساءه في غرفة المكتب، فرأى رسالة دورثيا على الطاولة، وقد كانت معنونة باسمه.

لم يجازف بسؤال روزموند إذا ما كانت دورثيا قد حضرت، لكنه تأكد من ذلك لدى قراءته للرسالة.. إذ ذكرت دورثيا فيها أنها ستحضرها بنفسها.

عندما حضر ويل بعد وقت قصير، قابله ليدجيت بدهشة، مما جعله يتبين أن ليدجيت لم يعلم بزيارته التي قام بها في الصباح، كما أن ويل لم يستطع أن يقول: «ألم تقل لك السيدة ليدجيت أنني قد حضرت هذا الصباح؟».

أضاف ليدجيت مباشرة بعد تحيته لويل: «إن روزموند المسكينة مريضة...».

قال ويل: «أرجو ألاّ يكون مرضاً سيئاً...؟».

«كلا... إنها صدمة نفسية خفيفة، ناجمة عن تأثير انفعال. لقد أرهقت أكثر مما ينبغي مؤخراً. الحقيقة يا لادسلو أنني شيطان غير محظوظ. لقد مررنا بأصناف عديدة من العذاب منذ أن غادرت، ولقد وقعت مؤخراً في أسوأ مراحلها. أعتقد أنك قد وصلت للتو، فإنك تبدو مرهقاً قليلاً... لم يمض عليك وقت كافٍ في البلدة لتسمع أي شيء؟».

«كنت مسافراً طوال الليل، وقد وصلت إلى وايت هارت في الثامنة صباحاً. لقد كنت في عزلة كي أرتاح...». قال هذا ويل مدركاً أنه كان يتملص، إلا أنه لم يجد بدّاً من تلك

المراوغة.

ثم استمع لسرد ليدجيت للمتاعب التي كانت روزموند قد صورتها له بطريقتها، فهي لم تذكر ما كان يتعلق باسم ويل كجزء من القصة التي أصبح يعرفها الجميع، إذ لم يؤثر فيها ذلك الجانب بطريقة مباشرة، فقد سمع ذلك الآن لأول مرة.

«أعتقد أن من الأفضل أن أخبرك بأن اسمك قد ذكر في أثناء كشف الحقائق»... قال ذلك ليدجيت الذي كان يعرف أكثر من سائر الرجال، كيف يمكن أن يلسع لادسلو من خلال إفشاء الحقيقة: «من المؤكّد إنك ستسمع ذلك فور دخولك البلدة. أعتقد أنه صحيح ما يظن بأن رفلز قد تحدث إليك...؟» .

قال ويل ساخراً: «نعم، سأكون محظوظاً إذا لم تجعل مني الثرثرة أكثر رجل سيئ السمعة في القضية بأسرها. أعتقد أن الرواية الأخيرة ستكون إدعاءً بأنني قد اتفقت مع رفلز كي نقتل بولسترود، إن هروبي من مدل مارش كان لأجل ذلك الهدف».

كان يدور في ذهنه... «ها هنا رنين جديد لاسمي كي يصبح جذاباً لدى الاستماع له. في أيّ حال... ما فائدة ذلك الآن؟».

إلا أنه لم يقل شيئاً حول العرض الذي قدمه له بولسترود. كان ويل صريحاً جدّاً وغير مبالٍ لشؤونه الشخصية، ولكن كان من أكثر خصاله الرائعة أنه كان يتمتع بكرم لطيف مما أجبره على الصمت والتكتم. لقد أجفل من أن يقول إنه رفض مالاً، كان بولسترود قد قدمه له لحظة عرف أنه لسوء حظ ليدجيت قد قبل ذلك المال.

كان ليدجيت أيضاً متكتماً وسط ثقته، فهو لم يشر إلى حالة مشاعر روزموند تحت وطأة مشاكلهما، أما عن دورثيا فقد قال فقط: «كانت السيدة كزابون الشخص الوحيد الذي تقدم ليقول بأنها لا تصدق أيّاً من الشكوك التي تتعلق بي... ». وعندما لاحظ تغيراً في وجه ويل، تجنب أي ذكر آخر حولها، ولأنه شعر بجهله للعلاقة التي كانت تربطهما ببعض، خشي أن تحمل كلماته ألماً خفيّاً في طياتها. كما أنه خطر له بأن دورثيا تشكل السبب الذي يقف وراء زيارته الحالية إلى مدل مارش.

كان الرجلان يشفقان بعضهما على بعض، ولكن ويل وحده كان من يدرك بعض متاعب صاحبه. عندما تحدث ليدجيت باستسلام يائس عن نيته في الذهاب إلى لندن والاستقرار

فيها، وقال بشبه ابتسامة: «سنحظى بك أيها الصديق القديم..»، شعر ويل بحزن لا يعبر عنه، فلم يقل شيئاً. لقد طلبت منه روزموند في ذلك الصباح أن يقنع ليدجيت بتلك الخطوة، فبدا له وكأنه كان يرى، بطريقة سحرية، مستقبلاً كان هو نفسه ينزلق فيه إلى استسلام لا متعة له لإغواء بسيط ناجم عن الظروف، التي هي تاريخ هلاك أكثر عمومية من أي صفقة ثمينة.

نكون ضمن هامش خطير عندما ننظر بسلبية إلى مستقبلنا، ونرى أنفسنا يقودها رضى مقيت إلى أفعال سيئة وغير شيقة وإنجازات بالية. كان ليدجيت المسكين يئن في ذلك الهامش، أما ويل فكان يقترب منه. بدا له، في هذا المساء، وكأن قسوته التي صبها على روزموند قد تسببت له بالالتزام نحوها، فخاف من الالتزام، كما خاف من وداد ليدجيت البعيد من الشك، وكذلك خاف من كرهه لحياته الفاسدة التي ستتركه في طيش دون هدف.

الفصل الثمانون

إنك لمشرع قاس!! رغم ارتدائك

أعظم ثوب رحمة إلهية:

ولا نعلم منك رفقاً...

سوى الابتسامة التي ترتسم على وجهك...

فالورود تضحك لك وهي على أغصانها...

وتنثر عبقها بين أقدامك...

وأنت تقي النجوم عن ارتكاب الأخطاء؛

ويظل أقدم النعيم في كيانك يافعاً وقويّاً.

وردزوودث - قصيدة للواجب

عندما رأت دورثيا السيد فيربرذر في الصباح، وعدته بأنها ستتناول العشاء مع أسرته في منزل الكاهن بعد عودتها من فريشت.. إذ كانت هناك زيارات متبادلة بينها وبين أسرته مما يجعلها قادرة على القول إنها لا تعيش وحيدة في منزلها، كما يمكنها من أن تقاوم، في الوقت الحاضر، الوصفة القاسية التي تدعو إلى وجوب مصاحبتها من قبل امرأة.

عندما وصلت منزلها، وتذكرت الالتزام الذي وعدت به شعرت بالسرور، ولما وجدت أنه لا يزال أمامها ساعة من الزمن قبل أن تبدأ ارتداء ثياب العشاء، ذهبت مباشرة إلى بناء المدرسة ودخلت في حديث مع مدير ومديرة المدرسة حول الجرس الجديد، معيرة اهتماماً بالغاً لأصغر التفصيلات والتكرارات التي كانا يقدمانها لها، فانتابها شعور بأن حياتها كانت مليئة بالمشاغل، ثم توقفت في طريق عودتها لتتحدث إلى السيد العجوز بوني الذي كان يزرع بذوراً في الحديقة، فراح يشرح لها بتعقل... وبتلك الحكمة الريفية... كيف يمكن لقطعة صغيرة من الأرض أن تأتي بمحصول، وكذلك خلاصة خبرة ستين عاماً في التربة... بشكل رئيسي إذا كانت تربتك طرية فهي الأفضل، لكنها إذا رويت أكثر مما ينبغي فإنها تتحول إلى تربة محنطة، لماذا إذاً؟

عندما وجدت أن الروح الاجتماعية قد ألهتها كثيراً وتسببت لها ببعض التأخير، ارتدت ثيابها بسرعة وذهبت إلى منزل الكاهن في وقت أبكر من اللازم.

لا تصيب الكآبة ذلك المنزل... السيد فيربرذر يشبه وايت أوف سلبورن الذي لديه دائماً شيء جديد يقوله لضيوفه العاجزين عن الكلام، وأولئك الذين هم في حمايته، وكان يعلم الأولاد منهم ألاّ يعذبوا. لقد اقتنى مؤخراً زوجين جميلين من الماعز، لتكون حيوانات أليفة لجميع أهالي القرية، فتتجول فيها كحيوانات مقدسة.

انقضى المساء بمرح حتى انتهوا جميعاً من تناول الشاي، فكانت دورثيا تتحدث أكثر من المعتاد، وتسهم مع السيد فيربرذر في الحديث عن التاريخ المحتمل لبعض المخلوقات التي تتحوّل بسرعة بحسب أهوائها، ولأنه ينبغي لنا أن نعلم أنه ربما يصبح لهم مجالس نيابية معدلة، ثم فجأة صدر صوت عجوز غير مفهوم لفت انتباه الجميع.

«إنها هنرييتا نوبل...!!»، قالت السيدة فيربرذر لدى رؤيتها أختها الصغيرة الحجم تتحرك بين أرجل قطع الأثاث وقد أصابها كرب: «ما الأمر..؟؟».

«لقد أضعت علبة السكاكر، التي هي على شكل ترس سلحفاة كما ترين، وأخشى أن تكون القطة قد دحرجتها بعيداً».. قالت السيدة العجوز الصغيرة الحجم جدّاً متابعة بحثها كما يفعل القندس..

قال السيد فيربرذر وهو يرتدي النظارة لينظر إلى السجادة: «أهو كنز عظيم يا خالتي؟».

قالت الآنسة نوبل: «لقد أعطاها لي السيد لادسلو. إنها علبة ألمانية، وجميلة جدّاً، ولكن عندما تسقط دائماً تتدحرج بعيداً حتى تبلغ أبعد نقطة يمكن أن تصل إليها».

«آه... إذا كانت هدية من لادسلو، قال هذا السيد فيربرذر بصوت يعبر عن فهم عميق، ثم نهض بعد أن تبين له أن العلبة كانت تحت خزانة الأدراج، فاحتضنتها الآنسة نوبل ببهجة... وقالت: «لقد كانت تحت سياج المدفأة كما في المرة الماضية».

قال السيد فيربرذر مبتسماً لدورثيا بينما كان عائداً ليجلس ثانية: «هذا شأن قلب خالتي...».

قالت الأم مؤكدة: «إذا أقامت هنرييتا أي علاقة مع أحد يا سيدة كزابون.. تصبح

ككلب... ستتخذ حذاءه وسادة لها لتنام مرتاحة أكثر...!!».

قالت هنرييتا نوبل: «إذا كان حذاء السيد لادسلو، فإنني سأفعل..».

حاولت دورثيا إبداء ابتسامة كاستجابة لما حدث.. إذ أصابتها دهشة وقلق عندما وجدت قلبها يخفق بقوة، وأدركت أنه لن يكون هناك جدوى لمحاولتها بعد أن تعافت من حياتها السابقة، وعندما تنبهت لنفسها... خائفة من ظهور أي تغير آخر خداع يلاحظ عليها، نهضت وقالت بصوت خافت و بقلق غير خفي: «يجب أن أذهب، فقد أرهقت نفسي أكثر مما ينبغي». عندها فهم السيد فيربرذر بإدراكه السريع، نهض وقال:

«هذا صحيح.. لا بد من أن يكون نصف الإرهاق الذي أصابك هو بسبب الحديث عن ليدجيت، فعمل كهذا يظهر أثره على الإنسان بعد أن يفرغ منه».

قدم لها ذراعه ليرافقها إلى منزلها، لكن دورثيا لم تحاول التحدث حتى عندما قال: «ليلتك سعيدة».

لقد بلغت مقاومتها حدودها، فغرقت عاجزة في قبضة الكرب الذي لا مفر منه، وبعد أن صرفت الخادمة تنترب بكلمات قليلة قالتها بوهن، أقفلت بابها ثم ابتعدت عنه مستديرة نحو الغرفة الخالية لتربط يديها فوق رأسها بقوة، وتنتحب قائلة:

«آه... لقد أحببته!!!».

ثم جاءت الساعة التي هزتها فيها موجات المعاناة بقوة أكبر من أن تترك لها أيّ قدرة على التفكير، فلم تقو إلا على البكاء بهمسات عالية أثناء نحيبها، بعد ضياع يقينها الذي زرعته، وأبقته على قيد الحياة منذ أن كان بذرة صغيرة... منذ أيام روما... بعد ضياع متعتها بتشبثها بحب صامت... ويقين بشخص لا قيمة له لدى الآخرين، لكنه ذو ثمن مرتفع في رأيها... وبعد ضياع سيطرة كبريائها الأنثوي على ذاكرته... وبعد نظرة غامضة لأمل جميل لأن يلتقيا في طريق طويل بتعارف ثابت ليستعيدا السنوات الماضية وكأنها كانت البارحة.

في تلك الساعة كررت ما كانت تتطلع إليه تلك العيون الرحيمة لزمن طويل في الصراع الروحي لدى الإنسان، وراحت تتلمس القسوة والبرودة والألم الوهن كي تحصل على راحتها من القوة الروحية الغامضة لكربها، فافترشت الأرض لتدع برودة الليل تلفها بينما راح النحيب يهز جسدها الأنثوي لتبدو وكأنها طفلة بائسة.

تنازعتها صورتان خياليتان... كان هناك كائنان حيّان قد مزقا قلبها إلى نصفين كما لو كان قلب أم رأت ابنها يقطعه سيف إلى نصفين، فراحت تضغط النصف الدامي إلى صدرها... وتعلق نظرها بألم بالنصف الآخر الذي حملته بعيدًا المرأة المضطجعة التي لم تدرك صدمة الأم.

هنا، بقرب ابتسامة مجيبة، وهنا ضمن اهتزاز رابط لحديث متبادل... كان المخلوق الذكي الذي وثقت به، وجاء إليها كما تأتي روح الصباح إلى المدفن المظلم حيث كانت تجلس كعروس لحياة فانية، والآن بوعي تام لم يستيقظ من قبل أبداً. مدت ذراعيها نحوه وبكت بمرارة لأن لقاءهما كان مجرد مشهد فراق.. لقد اكتشفت أن عاطفتها في يأس لا ينكمش.

هناك بعيداً، ولكن يتحرك معها باستمرار، كان لادسلو، الذي يمثل تصديقاً متغيراً لأمل خائر ووهم ملتقط... كلا بل هو رجل حي لم تستطع أيّ صرخة تعبر عن شفقة نادمة، وتكون صادرة من وسط الازدراء والاحتقار، وكذلك الكبرياء الحاسدة والمُساء إليها، لم تستطع أن تصارعها.

لم تخمد نار غضب دورثيا بسهولة، إذ كان لهب غضبها يخبو تارة ثم يشتد سعيره باللوم والازدراء تارة أخرى. لماذا جاء ليقحم حياته ضمن حياتها؛ حياتها التي كانت كاملة من دونه؟ لماذا جلب اعتباره الرخيص، ووجه كلماته لها، هي التي لا تملك مراوغة كي تبادله بها؟ لقد علم أنه كان يخدعها... وقد تمنى لحظة فراقه معها لو استطاع أن يجعلها تصدق أنه قد منحها كامل ثمن قلبها، في وقت كان يعلم أنه قد أنفق نصفه مسبقاً. لماذا لم يبق وسط الزحمة التي لم تطلب هي منها شيئاً سوى الدعاء كي يكونا في موضع أقل ازدراء؟

إلا أنها في آخر الأمر فقدت كل قواها حتى قدرتها على البكاء بهمسات عالية والأنين، فغرقت في نشيج بكاء يائس، وعلى الأرض الباردة ظلت تنتحب حتى نامت.

خلال ساعات ضوء الصباح الباردة، حين كان كل شيء مظلماً من حولها، استيقظت دون أن تصيبها أيّ دهشة جراء المكان الذي كانت فيه، ولا مما حدث لها، ولكن بوعي أكثر وأوضح، كانت تنظر في عيون الأسى. ثم نهضت ولفت نفسها بثياب دافئة، وجلست على كرسي ضخم اعتادت من قبل التأمل وهي تجلس عليه.

كانت تتمتع بقوة كافية لتتحمل قسوة الليل دون أن تشعر بمرض ينتاب جسدها باستثناء قليل من الألم والوهن، إلا أنها قد استيقظت على حالة جديدة.. إذ أحست وكأن روحها قد

تحررت من صراعها المخيف، فما عادت تصارع حزنها، لكنها أصبحت قادرة على الجلوس معه كرفيق أزلي وتجعله شريكاً لها في أفكارها، لأن الأفكار قد تزاحمت الآن بكثافة.

ليس من طبيعة دورثيا أن تجلس لمدة أطول من مدة نوبة المرض، في سجن نكبتها الضيّق بيأس عميق لإدراك لا يرى في حظ الشخص الآخر إلا حادثاً قد تسبب به هو.

لقد بدأت تعايش ما حدث لها في صباح البارحة ثانية... مجبرة نفسها على التعامل مع جميع التفاصيل ومعانيها. هل كانت وحيدة في ذلك المشهد؟ هل كان حدثاً يتعلق بها فقط...!؟

أجبرت نفسها على التفكير فيه وكأنه يتعلق بحياة امرأة أخرى... امرأة قررت هي بتوق أن تقدم لشبابها الملبّد بالغيوم التوضيح والراحة، إلا أنه لدى أول وثبة للسخط الغيور والاشمئزاز -أي لدى مغادرتها الغرفة الكريهة- قذفت جانباً بالرحمة التي بموجبها تعهدت بالقيام بتلك الزيارة، ثم لفت كلًّا من روزموند ولادسلو بازدرائها الحارق، فبدت لها روزموند تحترق بعيداً من نظرها إلى الأبد.

إلا أن ذلك التذكر الدنيء، الذي يجعل امرأة قاسية نحو منافستها أكثر مما هي قاسية نحو حبيبها غير الوفي، لم تكن لديه القوة كي يعاود وجوده لدى دورثيا عندما تغلبت، مرة في داخلها، روح العدالة المسيطرة على الاضطراب النفسي، وأرتها مرة حجم الأشياء على حقيقتها.

جميع الأفكار التي كانت تستحضرها من قبل مع محن حظ ليدجيت، وروابط الزواج هذا الحديث العهد، الذي يشبه زواجها، قد بدا أن لها مشاكلها الظاهرة وتلك الخفية، فعادت إليها الآن هذه التجربة القوية المتعاطفة كقوة فرضت وجودها كما تفرض المعرفة المكتسبة نفسها، ولا تمكننا من رؤية ما كنا نراه أيام جهلنا.

قالت لحزنها الذي لا دواء له إنه يجب عليه أن يجعلها أكثر مساعدة للآخرين بدلاً من أن يثبط همتها في بذل الجهد.

وأيّ أزمة يمكن أن تكون غائبة عن حياة هؤلاء الثلاثة الذين فرضت علاقتهم بها التزاماً عليها، وبدوا وكأنهم متوسلون يحملون الغصن المقدس...؟ لم تكن أهداف إنقاذها في حاجة إلى أن يبحث عنها خيالها.. فقد اختيرت لها. كانت تتوق إلى الحق التام الذي

يستطيع أن يوجد عرشاً فيها، فيحكم إرادتها الهائمة.

«ماذا سأفعل...؟؟ وماذا ينبغي لي فعله الآن؟؟ وفي هذا اليوم تحديداً إذا ما استطعت الإمساك بألمي وإسكاته لأفكر بأولئك الثلاثة!؟».

أخذت وقتاً طويلاً حتى وصلت إلى ذلك السؤال، وعندما شاهدت ضوءاً ينبعث إلى الغرفة، فتحت ستائرها لتنظر إلى جزء الطريق الذي يظهر في المشهد أمامها وخلفه حقول من وراء بوابات.

كان يسير في الشارع رجل يحمل على ظهره صرة ومعه امرأة تحمل طفلها الرضيع، وفي الحقول استطاعت أن ترى أشخاصاً يتحركون... ربما كان الراعي مع كلبه.

بعيداً حيث انحناء السماء رأت ضوءاً لؤلؤيّاً.. فشعرت بضخامة العالم واتساعه، كما رأت تنوع استيقاظ الرجال للكد والعمل. لقد كانت هي جزءاً من تلك الحياة النابضة القسرية، إلا أنها لم تستطع النظر إليها من منزلها الفاخر لتكون مجرد مشاهد، كما أنها لم تستطع أن تخفي عينيها في شكوى أنانية.

لم يكن قرارها في ما ستفعله في ذلك اليوم قد اتضح تماماً بعد، إلا أن إحساسها بأنها تستطيع أن تفعل شيئاً... حركها وكأنه همهمة قريبة منها تكاد تكوّن لديها رؤية واضحة، فخلعت عنها ثيابها التي كان النظر إليها يبعث فيها بعض التعب، ثم راحت تزين نفسها بعد أن قرعت الجرس لتستدعي تنترب التي دخلت وهي لا تزال ترتدي ثياب نومها.

«لماذا يا سيدتي...؟؟ إنك لم تنامي في فراشك في هذه الليلة المباركة». هكذا انفجرت تنترب ناظرة أولاً إلى الفراش ثم إلى وجه دورثيا الذي رغم الاغتسال..بدت وجنتاه شاحبتين كما ظهر احمرار على جفنيها.

«إنك تقتلين نفسك... إنك ستفعلين!! لا بد من أن يعتقد الجميع الآن أن لك الحق في أن تمنحي نفسك بعض الراحة...!!».

قالت دورثيا مبتسمة: «لا تقلقي يا تنترب... لقد نمت، وأنا لست مريضة. سأكون سعيدة لو جلبت لي فنجاناً من القهوة بأسرع وقت ممكن، كما إنني أريدك أن تجلبي لي ثوبي الجديد، و من المرجح أنني أريد أن أرتدي قبعتي الجديدة هذا اليوم».

«لقد مرَّ عليها شهر وهي موضوعة هناك جاهزة لك يا سيدتي... وسأكون ممتنة عندما أراك ترتدين ثياباً أقل ثمناً من قماش الكريب بعدة جنيهات»... قالت هذا تنترب وهي تنحني لتشعل النار في الموقد، «هناك سبب للحداد كما كنت أقول دائماً، وثلاث ثنيات في أسفل تنورتك، وثنية بسيطة في قبعتك... فإذا كان لأحد أن يبدو كملاك فلا بد من أن تكوني أنت تحت قبعتك ذات الشبك المثني... فهذا ما يناسب السنة الثانية. على الأقل هذا ما أعتقد به»... أنهت تنترب كلامها وهي تنظر بقلق إلى النار: «وإذا ما أراد أحد الزواج مني ليطري على نفسه، فإنني سأرتدي له عصابة الحداد الكريهة لسنتين، وهو سيخدع بزهوه. هذا كل ما أعتقده».

«النار ستشتعل يا عزيزتي تنترب»، قالت دورثيا بطريقة كانت تتحدث بها أيام كانت في لوزان، إلا أن صوتها كان خافتاً في هذه المرة.. «أحضري لي القهوة».

جلست على الكرسي الضخم، وأسندت رأسها عليه بهدوء تعب، بينما ذهبت تنترب متعجبة من التضارب الغريب لدى سيدتها الشابة... في ذات الصباح الذي يظهر على وجهها فيه أشد الحداد، تطلب لباساً بأقل حداد كانت قد رفضته من قبل.

ما كان لتنترب أن تجد تفسيراً لهذا الغموض. لقد تمنت دورثيا أن تصل إلى نتيجة بأن حياتها القادمة ليست أقل حيوية لأنها قد دفنت متعة خاصة بها، وأن تقليد ارتداء الثياب الجديدة لهو أمر يتزامن مع بداية كل عمل. كان هذا يسيطر على تفكيرها ما جعلها تسعى وراء حتى تلك المساعدة الخارجية تجاه القرار الهادئ، ولا سيما أن القرار لم يكن سهلاً.

في أي حال، في الساعة الحادية عشرة... كانت في طريقها إلى مدل مارش، بعد أن قررت زيارتها وإنقاذ روزموند بأكثر الطرق هدوءاً وأقلها ملاحظة من قبل الآخرين.

الفصل الحادي والثمانون

Du Erde warst auch diese Nacht bestandig,
Und athmest neu erquickt zu meinen Fussen,
Beginnest schon mit Lust mich zu umgeben,
Zum regst und ruhrst ein kraftiges Reschliessen
Zum hochsten Dasein immerfort zu streben.

Faust: 2r Theil.

لمّا كانت دورثيا ثانية عند باب منزل ليدجيت تتحدث إلى مارثا، كان هو في الغرفة القريبة من الباب المفتوح جزئيّاً يهم بالذهاب، فسمع صوتها وأتى إليها مباشرة.

«هل تعتقد أن السيدة ليدجيت تستطيع أن تستقبلني هذا الصباح؟»، قالت هذا معتقدة أن من الأفضل لها أن تستبعد جميع التلميحات التي يمكن أن تشير إلى زيارتها السابقة.

«لا أشك في أنها ستفعل..»، قال ليدجيت مخفياً ملاحظته لمظهر دورثيا الذي كان يشبه مظهر روزموند: «لو تفضلت بالدخول لتدعيني أخبرها بأنك هنا. إنها ليست على ما يرام منذ زيارتك البارحة، لكنها في وضع أفضل هذا الصباح، لذلك أعتقد أنها من المرجح ستكون مبتهجة لرؤيتك ثانية».

من الواضح أن ليدجيت، وكما توقعت دورثيا، لم يكن يعلم شيئاً حول ظروف زيارتها البارحة، بل ظهر عليه أنه قد تخيل أنها نفذتها بموجب نيتها المسبقة. كانت قد أحضرت معها ورقة تطلب فيها من روزموند كي تقابلها، لتعطيها للخادمة لو لم يكن هو في المنزل، لكنها أصبحت الآن أكثر اضطراباً نتيجة وجوده.

بعد أن اقتادها إلى غرفة الاستقبال، توقف ليخرج رسالة من جيبه ويضعها في يدها قائلاً: «لقد كتبت هذه الورقة في الليلة الماضية، وكنت سأحضرها إلى لُويك في طريقي. عندما يكون المرء ممتنّاً لشيء أثمن من تقديم الشكر تصبح الكتابة معبرة أكثر من الكلام... فعلى الأقل لا يسمع المرء كم هي الكلمات غير دقيقة».

أشرق وجه دورثيا... فقالت وقد انتابها شك مفاجئ: «أنا من ينبغي عليه أن يقدم الشكر لأنك أفسحت لي المجال لأخذ تلك المكانة. لقد قبلت...؟؟».

«نعم... الصك المالي سيذهب إلى بولسترود هذا اليوم».

لم يقل شيئاً آخر، لكنه ذهب إلى الطابق العلوي ليرى روزموند، التي انتهت للتو من ارتداء ثيابها، وجلست بذهول محتارة في ما ينبغي لها فعله في ما بعد، فالكدّ المعتاد الذي كانت تبذله في الأشياء الصغيرة، حتى في أيام حزنها، كان يحثها على أن تبدأ بنوع من الانشغال القليل الذي تقوم به ببطء، أو تتوقف عنه لعدم اهتمامها به. كانت تبدو مريضة، لكنها استعادت هدوء طبيعتها، وخشي ليدجيت أن يزعجها بأي سؤال.

كان قد أخبرها باحتواء رسالة دورثيا على صك مالي، ثم قال: «لقد جاء لادسلو يا روزي. لقد قضى الليلة البارحة معي، وأتوقعه أن يأتي ثانية هذا اليوم. أعتقد أنه كان يبدو منهكاً وكئيباً». لكن روزموند لم تجب بشيء.

أما الآن... وعندما صعد إلى الطابق العلوي، فقد قال لها بلطف: «يا عزيزتي روزموند، السيدة كزابون جاءت لتراك ثانية، إنك ترغبين في رؤيتها أليس كذلك...؟». لم يفاجأ من تلون وجهها، ولا من الحركة المروعة التي قامت بها، ولا سيما بعد الانفعال الذي طرأ عليها البارحة... لقد كان انفعالاً مفيداً، إذ جعلها ترجع إليه.

لم تجرؤ روزموند على قول لا، إنها لم تجرؤ لئلا يظهر على صوتها حقيقة ما حدث البارحة. لماذا جاءت السيدة كزابون ثانية؟ كان الجواب فارغاً ولم تستطع روزموند أن تملأه إلا بالخوف، لأن كلمات لادسلو الجارحة قد جعلت تفكيرها بدورثيا مصدر ألم واخز.

في أيّ حال... فضمن شكها المزري الحالي لم تجرؤ على فعل أي شيء سوى الإذعان. لم تقل نعم، لكنها نهضت وجعلت ليدجيت يضع على كتفيها شالاً رقيقاً... بينما كان يقول: «إنني سأخرج مباشرة»..ثم خطر لها شيء جعلها تقول: «أرجوك قل لمارثا ألّا تدع أحداً آخر يدخل غرفة الاستقبال»... فوافق ليدجيت معتقداً إنه قد فهم تماماً هذه الرغبة، واقتادها إلى الطابق السفلي، حتى باب غرفة الاستقبال، ثم انصرف قائلاً لنفسه إنه كان زوجاً متخبطاً لأنه يجعل اعتماده على ثقة زوجته به تحت تأثير امرأة أخرى.

بينما كانت روزموند تتقدم نحو دورثيا وهي تلف شالها الرقيق حولها، كانت تلف داخلها روحها بتكتم بارد. هل جاءت السيدة كزابون لتقول لها شيئاً حول ويل...؟؟

إذا كان الأمر هكذا.. فهو انتهاك لقواعد السلوك كانت تنفر منه روزموند، فهيأت نفسها لتقابل كل كلمة بعدم تأثر مهذب. لقد جرح كبرياءها لادسلو فكان أكثر إيلاماً لها من أن تشعر بأي ندم نحوه أو نحو دورثيا.. إذ بدا لها جرحها هو الأعمق.

لم تكن دورثيا المرأة المفضلة فحسب، بل كانت تتمتع بميزة عظيمة لكونها محسنة لليدجيت، وبموجب الرؤية المرتبكة والمتألمة لروزموند المسكينة يبدو أن السيدة كزابون هذه... هذه المرأة التي سيطرت على جميع الأشياء التي تتعلق بها... لا بد من أنها جاءت الآن بإحساس أنها تملك الفرصة، وبعداوة تحثها على انتهازها.

حقّاً ليست روزموند وحدها لكنّ أيَّ شخص آخر، يعلم الحقائق الخارجية للقضية دون علمه بإيحاء واحد حول تصرفات دورثيا، يمكن له أن يتساءل عن السبب الذي جاءت لأجله دورثيا.

وهي تبدو شبه شبح جميل، وبرشاقة جسمها الفاتن الملفوف بشالها الأبيض الرقيق، وبفمها المدور ووجنتيها الطفوليتين ذات المظهر العذب والبريء، توقفت روزموند على بعد ثلاثة ياردات من ضيفتها وانحنت، لكن دورثيا، التي خلعت قفازيها باندفاع لا تستطيع مقاومته كلما احتاجت إلى نوع من الحرية، تقدمت إلى الأمام ووجهها يعلوه صراحة حزينة إلا أنها جميلة، ومدت يدها.

لم تستطع روزموند تجنب نظرتها، ولم تستطع تجنب وضع يدها الصغيرة في يد دورثيا التي تلقتها بحنو الأمومة، وعندها بدأ شك محير يتحرك داخلها، ولمّا كانت عين روزموند ذكية في قراءة وجوه الآخرين، رأت أن وجه السيدة كزابون كان يبدو شاحباً وقد تغير منذ البارحة، إلا أنه لا يزال لطيفاً يشبه نعومة يدها.

إلا أن دورثيا قد اعتمدت على قوتها أكثر مما ينبغي بقليل.. إذ كان كل من وضوح وكثافة نشاطها الفكري استمراراً لإفراط أصاب شعورها، فجعله يتجاوب على نحو خطير وكأنه أفضل قطعة كريستال فينيسية... فعندما نظرت إلى روزموند، شعرت وكأن قلبها قد أصابه التورم، فما عادت تقوى على الكلام... إذ احتاجت لجميع قواها كي تبقي دموعها محبوسة.

لقد نجحت في ذلك، فلم يبد عليها شيء سوى أن الشعور قد مرّ على وجهها وكأنه مسحة نحيب، لكنه أضاف لدى انطباع روزموند بأن تفكير السيدة كزابون كان مختلفاً تماماً عمّا تخيلته.

وهكذا جلستا، دون أن تقولا كلمة واحدة كمقدمة، على أقرب كرسيين كانا متجاورين... على الرغم من نية روزموند، عندما انحنت لها، فإنها كانت تجلس بعيداً من السيدة كزابون،

لكنها توقفت عن التفكير في كيفية جريان الأحداث متأملة فقط ماذا سيحدث، بينما بدأت دورثيا تتحدث ببساطة تامة مستجمعة قواها في أثناء متابعة حديثها.

«لقد أتيت البارحة بمهمة لم أنجزها، ولهذا قد حضرت ثانية خلال وقت قصير جدّاً. أرجو ألا تعتبريني مزعجة عندما أقول لك إنني قد حضرت لأخبرك بالظلم الذي وقع على السيد ليدجيت. إنه سيسعدك أليس كذلك..؟ عندما تعرفين الكثير عنه..؟؟؟ أي إنه لا يحب أن يتحدث عن نفسه فقط لأن ذلك تبرئة له وكذلك مشرف له. لا بد من أنك تحبين أن تعرفي بأن لدى زوجك أصدقاء حميمين لم ينقطعوا عن الإيمان بشخصيته ذات المستوى الرفيع؟ سوف تدعينني أتحدث عن ذلك دون أن تعتبرينني قد تجاوزت حدود حريتي؟».

نبرات التوسل الودية، التي بدت مشحونة بطيش سخي سيطر على جميع الحقائق التي ملأت فكر روزموند كأرضية لعوائق وكراهية بينها وبين هذه المرأة، قد عبرت بانسياب فوق مخاوفها المنكمشة وكأنها جدول دافئ.

بالطبع كانت السيدة كزابون تحمل في ذهنها الحقائق لكنها لن تتحدث عن أي شيء يتعلق بها. لقد كان ذلك الارتياح بالنسبة إلى روزموند أعظم بكثير من أن تشعر بأي شيء آخر، فأجابت بعذوبة لما انتاب روحها من ارتياح جديد:

«أعلم أنك كنت دائماً إنسانة عظيمة، سأحب أن أسمع كل شيء تقولينه لي عن ترشيوس».

قالت دورثيا: «في يوم أول أمس... عندما طلبت منه المجيء إلى لُويك كي يقدم لي رأيه بشؤون المستشفى، أخبرني بكلِّ ما يتعلق بسلوكه ومشاعره المتعلقة بهذا الحدث المحزن، الذي جعل الجاهلين يثيرون الشكوك حوله. السبب الذي دعاه أن يخبرني بذلك لأنني كنت جريئة جدّاً، وكذلك لأنني سألته. أعتقد أنه لم يقم قط بأي تصرف مشين، كما أنني توسلت إليه كي يخبرني بالقصة كاملة. لقد اعترف لي أنه لم يتحدث بها من قبل، حتى لك أنت لأنه كره أن يقول: إنني لم أرتكب خطأ!! كدليل، فالمذنبون يقولون ذلك. الحقيقة هي أنه لم يعرف شيئاً عن ذلك الرجل الذي اسمه رفلز، أو إذا ما كان هناك أيّ أسرار سيئة حوله، كما أنه اعتقد أن السيد بولسترود قد قدم له المال لأنه تاب فأكرمه، ولا سيما أنه قد رفض المساعدة من قبل. كان جل هدفه ينصب حول معالجة مريضه بطريقة صحيحة، وكان غير مرتاح لأن القضية لم تنته كما كان يتوقع... لكنه اعتقد آنذاك، وما زال يعتقد، أنه لم يرتكب

أي خطأ فيها من قبل أحد. ولقد أخبرت كل من السيد فيربرذر والسيد بروك والسير جتم وهم جميعاً يصدقون زوجك. لا بد من أن ذلك يبعث فيك البهجة أليس كذلك؟ وذلك يبعث فيك الشجاعة؟».

أصبح وجه دورثيا مفعماً بالحيوية وهو يشع على روزموند قريباً منها، إذ شعرت بشيء يشبه الحنو الخجول أمام شيء أسمى منه في حضور هذا الحماس الباعث على النسيان.

قالت وهي تحمر خجلاً: «أشكرك إنك لطيفة جدّاً...!!».

«كما كان يشعر أنه قد ارتكب خطأ لأنه لم يبح لك بكل هذا، لكنك ستسامحينه. لقد كان ذلك بسبب أنه يهتم بسعادتك أكثر بكثير من اهتمامه بأي شيء آخر. إنه يشعر أن حياته مرتبطة بحياتك تماماً، إن أكثر شيء يؤذيه هو أن سوء حظه يتسبب لك بالإيذاء. لقد استطاع أن يتحدث إلي لأنني شخص محايد، ثم سألته ما إذا كان في استطاعتي أن آتي لأراك لأنني أحسست بمشكلته وكذلك بمشكلتك كثيراً جدّاً. لهذا السبب أتيت البارحة.. وها أنا قد أتيت اليوم. إنه من الصعب أن يتحمل الإنسان المشاكل أليس كذلك...؟ كيف لنا أن نعيش ونفكر بمجرد أن أحداً لديه متاعب... متاعب جلية... ونستطيع أن نساعده، لكننا لا نحاول؟».

نسيت دورثيا وقد سيطر عليها تماماً الشعور الذي كانت تعبر عنه، كل شيء باستثناء أنها كانت تخاطب مشكلة روزموند من صميم مشكلتها، فراحت عاطفتها تظهر جلية أكثر فأكثر على نبرة صوتها على أمل أن يصل صدى صوتها إلى صميم أعماق الشخص الآخر، إذ كان صوتها يشبه صرخة خافتة صدرت عن مخلوق يعاني في الظلام. ثم وضعت يدها بلا وعي على اليد الصغيرة التي أمسكتها من قبل.

روزموند، وقد أصابها ألم قاهر مفاجئ، وكأن جرحاً في داخلها قد جس، انفجرت ببكاء هستيري كما فعلت في اليوم السابق، عندما أمسكت بزوجها.

أما دورثيا المسكينة، فقد شعرت أن موجة عظيمة من أساها قد عادت إليها... إذ جذب تفكيرها إلى احتمال أن لادسلو ربما ساهم بنوبة بكاء روزموند النفسية.

بدأت تخاف من أن تكون عاجزة عن كبح جماح نفسها حتى نهاية هذا اللقاء، وبينما كانت إحدى يديها ملقاة في حضن روزموند، والأخرى كانت قد سحبتها، كانت تصارع

نوبات نحيبها المتصاعدة. لقد حاولت التحكم بنفسها من خلال التفكير في أن هذه اللحظة يمكن أن تكون نقطة تحول في حياة ثلاثة أشخاص... ليس في حياتها... كلا -فقد حدث ما لا يمكن تغييره- ولكن في حياة أولئك الثلاثة التي تؤثر في حياتها من خلال الجوار المقدس للخطر والاكتئاب.

هذه المخلوقة الرقيقة، التي كانت تبكي إلى جوارها، ربما لا يزال هناك وقت لإنقاذها من تعاسة علاقات زائفة وغير منسجمة، هذه اللحظة ليست كغيرها من اللحظات.. فربما لن تكون مع روزموند ثانية تحت تأثير الشعور المثير لما حدث البارحة، إذ أدركت أن العلاقة بينهما يجب أن تكون خاصة إلى حدّ يمنحها تأثيراً خاصّاً على الرغم من أنها لم تدرك أن طريقة شعورها كانت معروفة تماماً لدى السيدة ليدجيت.

لقد كانت أزمة في حياة روزموند أحدث من مجرد أن تتخيلها دورثيا.. إذ كانت تحت تأثير أول صدمة هائلة إلى حدّ أنها قد حطمت عالم أحلامها، الذي كانت فيه واثقة من نفسها بسهولة وناقدة للآخرين، كما أن ظهور هذا الشعور الغريب وغير المتوقع لدى امرأة اقتربت منها بكراهية وخوف، وكأنها أحد فرضت عليه الكراهية الغيورة نحوها، جعل روحها تترنح، فشعرت هي وكأنها تسير في عالم دخلته للتو.

عندما هدأ تشنج حنجرة روزموند، وبينما سحبت منديلها الذي كانت تخبئ وجهها وراءه، التقت عيناها بعيني دورثيا بعجز وكأنهما كانتا وردتين زرقاوين.

ما جدوى التفكير في السلوك بعد هذا البكاء؟ وكانت دورثيا تبدو كطفلة بأثر مهمل لدمعة صامتة. لقد تحطم الكبرياء بين هاتين المرأتين.

قالت دورثيا ببعض الحنو: «كنّا نتحدث عن زوجك... لقد رأيت منذ أيام نظراته وقد تغيرت فأصبحت حزينة مع بعض المعاناة، إذ لم أره لعدة أسابيع من قبل. لقد قال لي إنه كان يشعر أنه وحيد في محنته، لكنني أعتقد أنه كان في استطاعته أن يتحملها على نحو أفضل لو استطاع أن يكون صريحاً معك».

«إنه يغضب جدّاً... وينفذ صبره عندما أقول أي شيء».. قالت هذا روزموند متصورة أنه قد شكاها لدورثيا.. «كان ينبغي له أن يدرك أنني لا أرفض الحديث معه بمواضيع مؤلمة».

قالت دورثيا: «لقد لام نفسه فقط لأنه لم يصارحك... ولكن ما قاله عنك هو أنه لا

يكون سعيداً لدى فعله أي شيء يسبب لك التعاسة... فزواجه بالطبع لهو وثاق لا بد من أن يؤثر على اختياره لكل شيء، ولهذا السبب رفض عرضي بوجوب بقائه في المستشفى، لأن ذلك يتطلب منه البقاء في مدل مارش، وهو لا يريد الالتزام بأي شيء يمكن أن يسبب لك الألم. لقد استطاع أن يقول ذلك لي لأنه يعلم أنني قد عانيت كثيراً في زواجي... بسبب مرض زوجي الذي عرقل تنفيذ خطته وأحزنه، كما أنه يعلم أنني أدركت كم من الصعب أن يبقى الإنسان خائفاً من إيذاء الآخرين الذين هم مرتبطون بنا...».

انتظرت دورثيا قليلاً إذ استطاعت أن تلحظ بهجة طفيفة تعلو وجه روزموند، ولكن لم يكن هناك جواب، فتابعت بارتجاف: «إن الزواج لا يشبه أي شيء آخر. هناك شيء بغيض حتى في الشيء الذي يأتي به قربه. حتى لو أحببنا أحداً أفضل من... من الذين تزوجنا منهم، فلن تكون هناك جدوى...».

يا لدورثيا المسكينة، لم تستطع، في غمرة قلقها النابض، إلا أن تتمسك بلغتها على نحو متقطع: «أعني أن الزواج يلتهم جميع قوانا في العطاء أو الحصول على السعادة من خلال مثل ذلك النوع من الحب. أعلم أن ذلك ربما يكون عزيزاً جدّاً علينا، لكنه يقتل زواجنا... ثم يبقى الزواج معنا كجريمة... ثم ينتهي كل شيء. ثم زوجنا... إذا ما أحبنا ووثق بنا، فإننا لم نقدم له المساعدة سوى أننا قد تسببنا باللعنة لحياته».

انخفض صوتها جدّاً، إذ خشيت أن تكون قد ذهبت أبعد مما ينبغي، وأنها كانت تتحدث وكأنها كانت تمثل الكمال مخاطبة الخطأ. كانت سيطرة قلقها عليها أقوى من أن تدرك أن روزموند كانت أيضاً ترتجف، وفي حاجة ماسة إلى التعبير عن صداقة ملؤها الشفقة وليس التوبيخ، ثم قالت باغتياظ سريع بعد أن وضعت يديها على روزموند: «أعلم أن الشعور ربما يكون عزيزاً جدّاً... إنه يسيطر علينا دون أن نعي... إن ذلك لقاسٍ جدّاً. ربما يبدو لنا فراقه كقسوة الموت، ولا سيما أننا ضعفاء... إنني ضعيفة».

لقد ظهرت على دورثيا موجات الأسى، التي كانت تصارع من خلالها كي تنقذ الأخرى، مندفعة بقوة السيطرة، فتوقفت في هياج صامت دون بكاء لكنها شعرت بصراع داخلي. لقد ظهر على وجهها شحوب الموت وارتجفت شفتاها، فضغطت يداها بعجز على اليدين اللتين كانتا تحتهما.

أما روزموند التي سيطر عليها شعور أقوى من شعورها، فأسرعت بالقيام بحركة جديدة أضافت إلى الأشياء كلها شيئاً جديداً غير معروف لكنه بغيض... لن تجد كلمات، لكنها أجبرت على وضع شفتيها على جبهة دورثيا التي كانت قريبة منها جدّاً، ثم لدقيقة

واحدة احتضنت المرأتان بعضهما بعضًا لتبدوا وكأنهما كانتا في سفينة محطمة.

قالت روزموند هامسة بغضب: «إنك تفكرين في ما هو ليس حقيقيّاً..». وبينما كانت لا تزال تشعر بذراعي دورثيا حولها... وقد أجبرتها ضرورة غامضة على تحرير نفسها من شيء كان يضغط عليها وكأنه كان يشبه ذنباً يسري في عروقها.

ثم ابتعدت كل منهما عن الأخرى وهي تنظر إليها. قالت روزموند بالنبرة نفسها: «عندما أتيت البارحة لم يكن الأمر كما تعتقدين». لقد انتاب دورثيا انتباه مدهش، إذ كانت تتوقع من روزموند تبرئة نفسها.

«كان يقول لي كيف أنه أحب امرأة أخرى... حتى أعلم أنه لا يستطيع أن يحبني». قالت روزموند وهي تأخذ بالاستعجال أكثر فأكثر بينما كانت تتحدث: «... وأعتقد أنه الآن يكرهني لأن... لأنك أسأت فهمه البارحة. إنه يقول.. إنه بسببي ستسيئين الظن به... ستعتقدين أنه شخص كاذب. إلا أنه كان دائماً يفكر بي قليلاً فقط. لقد قال البارحة إنه لا وجود لامرأة عنده بجانبك. اللوم في كل ما حصل كله يقع علي. قال إنه لن يستطيع شرح ذلك كله لك... وذلك بسببي أنا. قال إنك لن تحسني الظن به ثانية. أما الآن وقد أخبرتك، فهو لن يستطيع أن يلومني أبداً».

أفصحت روزموند عما في داخلها تحت اندفاعات لم تعرفها من قبل، إذ بدأت تقديم اعترافاتها تحت تأثير عاطفة دورثيا الملحة، وبينما كانت تتابع حديثها، انتابها شعور بأنها كانت تثور وترفض تأنيب لادسلو لها الذي كان يشبه جرح سكين في داخلها.

كانت ردة فعل شعور دورثيا المفاجئة أقوى من أن تسمى فرحة، لقد كانت نوبة ضمّنها ضغط الليلة السابقة والصباح ألماً مقاوماً. كان في استطاعتها أن تدرك أنها فرحة فقط عندما تستعيد قوة إحساسها بها. فتمثل إدراكها الفوري في تعاطف فوري وعفوي.. فراحت الآن تهتم بروزموند دون صراع، إذ تجاوبت بإخلاص مع كلماتها الأخيرة:

«كلا إنه لا يستطيع أن يوبخك بعد الآن»...

وبرغبتها في تثمين طيبة الآخرين أكثر مما ينبغي، شعرت بامتنان عميق ينبثق من صميم قلبها نحو روزموند ردّاً على الجهد السخي الذي خلصها من العذاب، غير معتبرة أن ذلك الجهد كان ردة فعل لنشاطها هي، وبعد أن صمتتا قليلاً قالت: «إنك لست آسفة لأنني قد حضرت هذا الصباح؟».

قالت روزموند: «كلا... لقد كنت لطيفة جداً معي... لم أفكر في أنك ستكونين طيبة هكذا، إذ لم أكن سعيدة قط، وأنا لست سعيدة الآن. كل شيء حزين جدّاً».

قالت دورثيا: «لكن أياماً أفضل ستأتي عندما يعطى زوجك حقه... وهو يعتمد عليك لأجل الراحة... إنك أفضل من يحب... إذا خسرت ذلك فستكون أسوأ خسارة لك، وإنك لم تخسريها بعد».

حاولت أن تستبعد إظهار ارتياحها لئلا تفشل في كسب بعض المؤشرات على أن عاطفة روزموند قد بدأت تتوق ثانية إلى زوجها.

«إذاً... لم يجد ترشيوس عيباً فيّ؟»، قالت هذا روزموند وقد أدركت الآن أن ليدجيت ربما قال شيئاً عنها للسيدة كزابون، وبأنها بالتأكيد كانت مختلفة عن النساء الأخريات. ربما كان سؤالها يتضمن بعض الغيرة الخفيفة.

بدأت ابتسامة ترتسم على وجه دورثيا عندما قالت: «كلا.. البتة! كيف لك أن تتخيلي ذلك...؟!»، ولكن في هذه اللحظة فتح الباب ودخل ليدجيت.

قال: «لقد عدت كطبيب... فبعد أن ذهبت لازمتني صورة وجهين شاحبين.. فالسيدة كزابون تبدو في حاجة إلى الرعاية مثلك تماماً يا روزي، ولقد اعتقدت أنني لم أقم بواجبي بتركي لكما معاً، فحالما وصلت إلى منزل كولمن عدت ثانية. لقد لاحظت أنك كنت تسيرين يا سيدة كزابون، والسماء قد تغيرت، وأعتقد أنه سيهطل المطر علينا. هل لي أن أرسل أحدًا ليطلب عربتك كي تأتي لتأخذك...؟؟».

«آه... كلا... إنني قوية، وأنا أحتاج إلى المشي»، قالت دورثيا وهي تنهض وقد اعتلت الحيوية وجهها. «أنا والسيدة ليدجيت تحدثنا كثيراً وقد آن الأوان كي أنصرف. كنت دائماً أتهم بعدم الاعتدال وبأنني أتحدث كثيراً».

مدت يدها لروزموند، فقالتا بجد وهدوء: «وداعاً». دون قُبل أو تدفق عواطف.. كانت بينهما مشاعر أكثر جدية من أن تعبرا عنها بطريقة سطحية.

عندما رافقها ليدجيت إلى الباب لم تقل شيئاً عن روزموند، لكنها أخبرته عن السيد فيربرذر والأصدقاء الآخرين الذين أصغوا مصدقين روايته.

عندما عاد إلى روزموند، وجدها قد ألقت بنفسها إلى الأريكة في وهن شديد.

قال وهو يقف فوقها ويلمس شعرها: «حسناً يا روزي... ما رأيك بالسيدة كزابون الآن وقد رأيت الكثير منها...؟».

قالت روزموند: «أعتقد أنها أفضل من أي إنسانة أخرى... وهي جميلة جدّاً، فإذا بقيت تذهب إليها كثيراً، فستكون غير راضٍ عني أكثر من ذي قبل»... ضحك ليدجيت لقولها: «أذهب إليها كثيراً!»..تابع: «ولكن هل جعلتك راضية عني أكثر...؟!».

قالت روزموند ناظرة إلى وجهه: «أعتقد أنها فعلت. كم هي مجهدة عيناك يا ترشيوس... ادفع شعرك إلى الخلف».. رفع يده البيضاء الكبيرة مطيعاً لها، وشعر بالامتنان لهذا المؤشر البسيط عن اهتمامها به.

يا لروزموند المسكينة، فقد عاد خيالها التائه، بعد أن عوقب على نحو مروع، ليستكين خنوعاً تحت مأواه القديم والذي كان يستخف به، أما المأوى فما زال موجوداً هناك.. إذ قبل ليدجيت حظه القليل باستسلام حزين.

لقد اختار مخلوقته الرقيقة، وحمل عبء حياتها فوق ذراعيه. يجب عليه أن يسير قدر استطاعته حاملاً ذلك العبء بشفقة.

الفصل الثاني والثمانون

تكمن أحزاني في القادم من الأيام ومتعي في ما خلى منها.

من قصائد شكسبير

يقتات المبعدون على الآمال بطريقة سيئة السمعة، وهم من المرجح لا يبقون في منفاهم ما لم يجبروا على ذلك. عندما أبعد ويل لادسلو نفسه عن مدل مارش لم يضع عائقاً في طريق عودته أقوى من تصميمه، الذي لم يكن حاجزاً متيناً فحسب، بل كان ببساطة حالة فكرية قابلة للذوبان والانصهار مع حالات فكرية أخرى كما يحدث في رقصة المينيويت الرزينة، إذ تجد نفسها تنحني وتبتسم وتقدم مكاناً بأسلوب مهذب. بعد أن مرت الشهور بدا له البقاء صعباً؛ فلماذا لايهرع إلى مدل مارش... فقط لأجل أن يسمع شيئاً عن دورثيا ولعل في هذه الدراسة السريعة يحالفه الحظ في اغتنام صدفة غريبة، ويلتقيها، فلا يوجد سبب يجعله خجلاً من أن يقوم برحلة بريئة كان قد افترض من قبل عدم القيام بها. ما دام منفصلاً عنها بلا أمل، فلماذا لا يغامر بالاقتراب منها، أما بالنسبة إلى الأشخاص الكثيري الشكوك، الذين أقاموا مراقبة صارمة عليها، أصبح رأيهم أقل أهمية مع مرور الوقت وتغير الأحوال.

ثم جاء سبب لا يتعلق بدورثيا جعل زيارته تبدو وكأنها واجب لعمل خير. لقد أعار ويل لادسلو اهتماماً نزيهاً للخطط الجديدة القاضية ببناء بيوت حديثة في الغرب الأقصى. كما أن الحاجة إلى المال لتنفيذ تصاميم جيدة جعلته يحاور نفسه... ما إذا كانت هناك فائدة جديرة بالثناء في حقه لدى بولسترود، أي أن يطلب تلك النقود، التي قدمت له مرة، لتكون وسيلة ينفذ بها مشروع ذو فائدة عظيمة. بدت المسألة مشكوكًا فيها بالنسبة إلى ويل لادسلو، كما أن اشمئزازه من إقامة علاقة ثانية مع صاحب المصرف ربما جعله يبعد ذلك بسرعة، لو لم يظهر في مخيلته أن قراره ربما يكون أصوب إذا ما قام بزيارة إلى مدل مارش.

ذلك كان الدافع الذي أقنع به ويل نفسه كسبب لقدومه إلى مدل مارش، لقد أراد أن يفضي ما بنفسه إلى ليدجيت، فيناقش المسألة المالية معه، كما أراد أن يمتع نفسه في

أمسيات قليلة من خلال عزف الموسيقى والمزاح مع روزموند دون أن يتجاهل أصدقاءه في منزل أبرشية لُويك، وكون منزل الأبرشية قريباً من منزل دورثيا، فذلك لم يكن خطأه. كان قد تجاهل عائلة فيربرذر قبل مغادرته ليستبعد بكبرياء الاتهامات المتوقعة له بأنه يهدف إلى مقابلة دورثيا بطريقة غير مباشرة. إلا أن الجوع قد يروضنا وويل قد أصبح جائعاً جدّاً لرؤية شكل معين وسماع صوت محدد، فلم يعوضه شيء عن ذلك، لا الأوبرا، ولا حديث السياسيين المتحمسين، ولا الإطراء الذي كان يتلقاه على المقالات الجديدة التي كان يكتبها بيده.

هكذا جاء إلى مدل مارش متنبأ بثقة كيف يبدو العالم الصغير المألوف لديه، إلا أنه كان خائفاً من أنه لن تكون هناك مفاجآت تحدث خلال زيارته، لكنه وجد ذلك العالم الممل في حالة نشاط جديد جدّاً فتحول فيه حتى الهزل والغناء إلى متفجرات، وأصبح اليوم الأول من زيارته أكثر حقبة قاتلة في حياته، حتى إنه في الصباح التالي شعر بأنه منهك جدّاً جراء كابوس العواقب؛ فقد أفزعه جدّاً ما شاهده أمامه، حتى إنه عندما رأى عربة الأجرة لريفرستون في أثناء تناوله إفطاره هرع إليها مسرعاً، وأخذ مكانه فيها بغية أن يرتاح ليوم واحد على الأقل من ضرورة فعل أو قول شيء في مدل مارش، إذ كان ويل لادسلو أحد أطراف إحدى تلك الأزمات المتشابكة والأكثر عامية من أن يتصورها المرء خلال تجربته بأحكام الرجال السطحية والمطلقة. لقد وجد ليدجيت، الذي كان يكن له الاحترام الخالص، ضمن ظروف تطلبت منه تعاطفه التام والتصريح عنه بوضوح، كما كانت تلك الظروف، السبب الذي يقف وراء تجنب التعاطي مع ليدجيت بموجب الصداقة الحميمية التي كانت تربط بينهما، أو حتى التقاؤه، إذ كان ذلك مستحيلاً لمخلوق لديه مزاج حساس كويل لادسلو -دون أن يوجد في طبيعته أي حيز حيادي وغير مبالٍ، ومستعد لتحويل أي شيء حدث له إلى صدامات في مسرحية عاطفية- اكتشافه أن اعتماد سعادة روزموند عليه كانت تشكل له صعوبة ازدادت تعقيداً نتيجة صب جام غضبه عليها. لقد كره قسوته، وعلى الرغم من هذا فإنه خاف أن يظهر كامل رقته ولينه؛ يجب عليه أن يذهب إليها ثانية، فالصداقة يجب ألّا تنتهي فجأة، كما كانت تعاستها تشكل قوة فزع منها. وطوال ذلك الوقت لم يكن هناك تذوق في متع حياته أكثر من استمتاعه في حال قطع أطرافه السفلى وبدأ محاولاته الأولى باستخدامه عكازين. في الليل فكر في ما إذا كان عليه أن يسافر بعربة الأجرة، ليس إلى ريفرستون، ولكن إلى لندن، تاركاً وراءه ملاحظة لليدجيت تظهر سبباً مؤقتاً لتراجعه. إلا أن حبالاً قوية كانت تجره إلى الوراء وتمنعه من ذلك السفر المفاجئ: فإفساد سعادته لدى تفكيره في دورثيا، وتحطم ذلك الأمل الرئيسي، الذي ظلّ على الرغم من رغم الأهمية

المعترف بها للتخلي، شكلا تعاسة حديثة العهد بالنسبة إليه تمنعه من الاستسلام لها، كما تمنعه من الذهاب إلى البعيد مباشرة الذي هو يأس أيضاً.

لذلك لم يفعل شيئاً سوى أنه قرر الذهاب إلى ريفرستون فقط، ثم عاد ثانية بعربة الأجرة قبل انقضاء النهار، وقد قرر أن يذهب إلى منزل ليدجيت في ذلك المساء. لم يكن نهر روبيكون الصغير ذا أهمية كبيرة تستلزم رؤيته، إذ تكمن أهميته في حالات غير مرئية شعر ويل وكأنه مجبر على تجاوز خندقه الصغير، وما رأى خلفه ليست إمبراطورية، لكنه كان خنوعًا غير مرض.

ولكن يطلب منا أحياناً حتى في ضوء كل يوم أن نشهد تأثير إنقاذ لطبيعة نبيلة، فالتأثير المقدس للإنقاذ يكمن في فعل الخضوع الذاتي للصداقة. لو لم تذهب دورثيا بعد القلق الذي انتابها في تلك الليلة إلى روزموند، لكانت امرأة ربما فازت بأسمى صفة للتعقل، ولكن من المؤكد ما كان الأمر سيصبح أيضاً الشيء نفسه لدى أولئك الثلاثة الذين كانوا بجانب الموقد في منزل ليدجيت في الساعة السابعة والنصف من ذلك المساء. كانت روزموند قد تهيأت لزيارة ويل لادسلو فاستقبلته ببرود، مما عزاه ليدجيت لإرهاقها النفسي، ولم يستطع أن يفترض أي شيء ذي صلة بويل، وعندما جلست صامتة ومكبّة على تطريزها اعتذر لها ببراءة وبطريقة غير مباشرة ومتوسلًا إليها كي تسند ظهرها إلى الوراء وتستريح. أصاب ويل شعور بالتعاسة لأنه كان عليه أن يؤدي دور الصديق الذي قد تعرف إلى روزموند للتو وحياها، بينما كان تفكيره منشغلاً بمشاعرها نتيجة المشهد الذي حدث بالأمس، وما زال يطوقهما بصعوبة كروية مؤلمة لجنون مزدوج. حدث أن ليدجيت لم يتطلب منه شيء يخرجه من الغرفة، ولكن عندما صبت روزموند الشاي وجاء ويل لادسلو ليأخذه منها، كانت قد تركت في صحنه ورقة مثنية، فرآها وأخفاها بسرعة. وعندما عاد إلى نزله سارع إلى فتح الورقة، إذ ربما ما كتبته روزموند فيها يعمق المشاعر المؤلمة التي سادت ذلك المساء. إلا أنه عندما فتحها وقرأها في ضوء الشمعة التي كانت في فراشه، تبيّن أنها كانت تحمل فقط هذه الكلمات التي كتبتها بخط يدها الأنيق: «..لقد أخبرت السيدة كزابون أن لا تسيء الظن بك أبداً. أخبرتها لأنها جاءت لتراني، وقد كانت لطيفة جدّاً، لن يكون لديك سبب تزدريني لأجله بعد الآن. إنني لن أكون سبباً في تغيير أحوالك».

لم يكن تأثير هذه الكلمات مفرحاً تماماً، فبينما كان يفكر فيها بخيال متقد، شعر أن وجنتيه وأذنيه قد احمرت، وهو يفكر في ما جرى بين روزموند ودورثيا، ولأنه لم يكن متأكداً

إلى أي مدى لا تزال تشعر بألم جرح في كبريائها نتيجة تقديم شرح عن تصرفاته لها. ربما لا يزال في ذهنها فكرة خاطئة عنه لا يمكن تغييرها - عيب دائم في خيال نشيط أقحم نفسه في حالة من الشك أهون بقليل من حالة رجل نجا من سفينة محطمة في عتمة الليل ليجد نفسه واقفاً على أرض غريبة تحت جنح الظلام. حتى يوم البارحة البائس - باستثناء دقيقة الغيظ الذي وقع في الغرفة نفسها ومع الحضور نفسه- كانت رؤيتهما ورأيهما ببعض وكأنهما في عالم منفصل عن عالمنا هذا حيث ترسل الشمس أشعتها إلى أزهار الزنبق البيضاء المشوقة، وحيث لا يختبئ شيطان ولا تدخل إليه أرواح أخرى. ولكن هل تقابله دورثيا ثانية في ذلك العالم؟؟؟

الفصل الثالث والثمانون

الآن صباح الخير على الأرواح المستيقظة،

التي لا تراقب واحدة الأخرى بسبب الخوف؛

لأن الحب يتحكم بحب المشاهد الأخرى،

ويجعل من المكان الصغير متسعاً لجميع الأماكن.

دكتور دوّن

في اليوم الثالث من زيارتها لروزموند، وبعد نومها العميق لليلتين، لم تشعر دورثيا بأن آثار الوهن والتعب قد زالت فحسب لكنها شعرت بأنها قد استجمعت نشاطاً هائلاً إضافياً – أي نشاط أقوى من أن يمكنها من التركيز في القيام بأي عمل. في اليوم السابق كانت قد قامت بسير طويل خارج منزلها، كما قامت بزيارتين إلى منزل الكاهن، لكنها لم تقل في حياتها لأحد لماذا كانت تقضي وقتها في تلك الطريقة غير المثمرة، وفي هذا الصباح لم تكن راضية عن نفسها لما أصابها من قلق طفولي. ينبغي لها أن تقضي هذا اليوم بطريقة مختلفة تماماً. ماذا يوجد في القرية كي ينجز؟ ياإلهي! لا شيء. الجميع في حالة طيبة، الجميع لديهم ملابس، ولم يمت خنزير أحد، وكان يوم صباح سبت؛ موعد تنظيف أرض المنازل وعتبات الأبواب، ولم يكن الذهاب إلى المدرسة ذا جدوى. إلا أن كانت هناك مواضيع أخرى كانت دورثيا تحاول استيضاحها، فعزمت على التعامل بنشاط شديد مع أكثرها تعقيداً. جلست في غرفة المكتبة أمام كومة صغيرة من كتبها المفضلة حول الاقتصاد السياسي وقضايا الشعب، كانت تحاول من خلالها التقاط ضوء يساعدها لاكتشاف أفضل طريقة لإنفاق النقود لئلا تسيء لجيرانها، فيكون الشيء نفسه لو قدمت لهم أفضل ما لديها. كان هناك موضوع مهم جدّاً، لو استطاعت التعامل معه فقط، لشغل تفكيرها تماماً، ولسوء الحظ غفل عنه تفكيرها لساعة كاملة، فوجدت نفسها في النهاية تكرر قراءتها للجمل نفسها بتكرير مركز حول قضايا عديدة باستثناء ما كان يحتويه النص. لقد كان هذا غير مجدٍ.

أكان عليها تحضير عربتها كي تذهب إلى تبتن؟ كلا، فلسبب أو آخر فضلت البقاء في لُويك، ولكن ينبغي لتفكيرها المشتت أن ينضبط، إذ يوجد فن للانضباط الذاتي. ثم راحت تلف في غرفة المكتبة البنية اللون مفكرة في أي مناورة تستطيع أن تشغل تفكيرها بها. ربما كان مجرد عمل هو أفضل وسيلة - ربما كانت تقوم به بانهماك. ألم تكن هناك جغرافية الأناضول، التي لطالما وبخها السيد كزابون على جهلها بها. ذهبت إلى خزانة الخرائط وفتحت إحداها، أخيراً ستوقن في هذا الصباح أن بفلاجونيا لا تقع على الساحل الشرقي، كما ستنير جهلها بأن جيليبي تقع على شواطئ البحر الأسود. تشكل الخرائط مادة لطيفة للدراسة عندما يكون ذهنك منشغلاً بأشياء أخرى، لأنها غزيرة بالأسماء التي تكون رنانة لو كررت نطقك لها. جلست دورثيا بتوق إلى عملها منكبّة على خريطتها، وراحت تلفظ الأسماء بصوت مسموع منخفض غالباً ما كان له جرساً. بدت كفتاة فاتنة بعد كل خبرتها العميقة، وهي تومئ برأسها وتعد بأصابعها الأسماء، وتضغط على شفتيها قليلاً، وبين الآونة والأخرى كانت تضع يديها على خديها قائلة: «يا إلهي، يا إلهي!!!».

لم يكن هناك سبب يمنع هذا الشيء من أن يصل إلى نهاية تختلف عن الحركة الدائرية، ولكن في نهاية الأمر قوطع بفتح الباب ودخول الآنسة نوبل. رحبت بحرارة بالسيدة العجوز الصغيرة الحجم، التي تكاد بقبعتها لا تصل إلى كتف دورثيا، ولكن بينما كانت يدها تصافح بقوة أصدرت أصواتاً كثيرة تشبه صوت القندس، فبدت وكأنها كانت تريد أن تقول شيئاً يصعب قوله.

قالت دورثيا وهي تقدم لها كرسياً: «أجلسي.. هل يطلب مني أن أقوم بأي شيء؟ سأكون سعيدة جدّاً إذا ما استطعت القيام بأي شيء».

قالت الآنسة نوبل وهي تمد يدها داخل سلة صغيرة، وتمسك شيئاً باضطراب: «إنني لن أجلس، لقد تركت صديقاً في فناء الكنيسة». ثم راحتْ تصدر أصواتاً غير مفهومة وبدون وعي أخرجت الشيء الذي كانت تمسك به: لقد كان علبة الحلوى التي على شكل ترس سلحفاة، فشعرت دورثيا بوجنتيها قد احمرتا.

تابعت المرأة الصغيرة الحجم: «السيد لادسلو.. إنه يخشى أن يكون قد أساء إليك، فتوسل إلي كي أطلب منك أن تقابليه لبضع دقائق...». لم تجب دورثيا مباشرة، إذ خطر لها أنها لا تستطيع أن تقابله في هذه المكتبة حيث منع زوجها كان ماثلاً، ثم نظرت خارج النافذة. هل تستطيع أن تخرج لتقابله في الحديقة؟ كانت السماء ملبدة بالغيوم، وبدأت

أغصان الأشجار تهتز وكأن عاصفة كانت في طريقها، فضلًا عن ذلك جفلت من أن تخرج إليه.

قالت الآنسة نوبل بحزن مثير للشفقة: «قابليه يا سيدة كزابون، وإلا عدت لأقول كلا، وهذا سيسبب له الأذى».

قالت دورثيا: «نعم إنني سأراه..!! أرجوك اطلبي منه أن يحضر».

وإلا ماذا كانت ستفعل؟ لم يكن في تلك اللحظة شيء تتوق إليه سوى أن ترى ويل لادسلو، ولا سيما أن تلك الرؤية قد فرضت نفسها ملحة لتعزلها عن سائر الأشياء، وعلى الرغم من ذلك فقد انتابها هياج مضطرب وكأنه تنبيه لها لأنها كانت تقوم بتحدٍ جريء لأجله.

عندما انصرفت السيدة الصغيرة الحجم لتنفذ مهمتها، وقفت دورثيا في وسط المكتبة حابكة يديها أمامها دون أن تحاول وضع نفسها في حالة لاوعي رزين. أقل ما كانت تدركه في تلك اللحظة هو جسدها؛ إذ كانت منشغلة بالتفكير في ما يمكن أن يكون في ذهن ويل، وبمشاعر الآخرين القاسية تجاهه. كيف يمكن لأي واجب أن يلزمها بالقسوة؟ لقد اختلطت مقاومة الذنب غير العادل لمشاعرها نحوه منذ البداية، الآن في غمرة ارتداد قلبها بعد الكرب الذي لحق به، أصبحت المقاومة أقوى من أي وقت مضى.

«إذا كنت أحبه جدّاً، فذلك لأنه قد أسيء إليه كثيراً». كان هذا صوت في داخلها يقول هذا لمستمعين وهميّين في غرفة المكتبة، وعندما فتح الباب رأت ويل يقف أمامها، لم تتحرك بينما تقدم نحوها، وقد ظهر على وجهه تردد وجبن لم تعهدهما من قبل. لقد كان في حالة عدم يقين جعلته خائفاً من أن تصدر عنه كلمة أو نظرة تبعدها عنه ثانية، كما كانت دورثيا خائفة من مشاعرها فبدت وكأن سحراً قد تلبسها فأبقاها دون حراك ومنعها من فتح يديها، بينما حبس في عينيها توق شديد وحزين. عندما رآها ويل لم تمد يدها له كالمعتاد، وقف على بعد ياردة منها وقال بارتباك: «إنني ممتن لرؤيتك لي».

«أردت أن أراك»، قالت دورثيا دون أن تخطرها كلمات أخرى مباشرة، فلم يخطر لها أن تجلس، كما أن ويل لم يبد فهماً مبهجاً لهذا الاستقبال الملكي له، لكنه تابع قائلاً ليعبر عما كان في ذهنه:

«أخشى أن تظنيني أحمق، وربما مخطئاً لأنني عدت بسرعة. لقد عوقبت لعدم صبري. أنت تعلمين - الجميع يعلمون الآن- قصة مؤلمة حول والديّ. كنت قد علمت بها قبل مغادرتي، ولطالما أردت أن أخبرك بها إذا... إذا تقابلنا ثانية». تحرك شيء داخل دورثيا ففكت يديها، ولكن مباشرة لفتهما بعضهما فوق بعض.

تابع ويل: «لكن المسألة تحوّلت إلى إشاعات... أردت أن تعرفي شيئاً يرتبط بها.. شيئاً حدث قبل مغادرتي جعلني أعود إلى هنا ثانية. على الأقل اعتقدت أنه مبرر لقدومي. إنها فكرة جعل بولسترود يدفع مالاً لأهداف عامة- مالاً قد فكر في دفعه لي. ربما لصالح بولسترود أنه قدم لي سرّاً تعويضاً عن إساءة قديمة؛ إذ عرض علي أن يقدم لي دخلاً كبيراً كتعويض، لكنني أعتقد أنك تعلمين بالقصة السيئة».

نظر ويل بشك إلى دورثيا، لكنه كان يستجمع بعض الشجاعة المتحدية التي كان دائماً يفكر من خلالها في هذه الحقيقة المرتبطة بقدره، ثم أضاف: «إنك تعلمين أن الأمر برمته كان مؤلماً بالنسبة إليّ».

قالت دورثيا بسرعة: «نعم، نعم إنني أعلم».

قال ويل: «إنني لم أقبل أن أتلقى دخلاً من مثل هذا المصدر. كنت متأكداً من أنك لن تحسني الظن بي لو فعلت ذلك!!». لماذا هو مهتم بقول شيء كهذا لها الآن؟؟ ولاسيما أنها كانت تعلم أنه قد أعلن حبه لها. «شعرت أنني...»، ثم توقف.

قالت دورثيا وقد بدأ وجهها يضيء، وراحت ترفع رأسها قليلاً: «لقد تصرفت كما توقعت منك أن تتصرف».

«لم أعتقد أنك كنت ستجعلين ظروف ولادتي تثير إجحافاً في نفسك نحوي، على الرغم من أنها تفعل في نفوس الآخرين». قال ويل هذا هازاً رأسه إلى الوراء كعادته القديمة وناظراً في عينيها بتوسل حزين.

قالت دورثيا متقدة: «لو كانت هناك صعوبات جديدة لشكلت سبباً جديداً لتعلقي بك، ما كان لشيء أن يغيرني باستثناء...». كان قلبها يخفق، وأصبح من الصعب عليها أن تتابع حديثها، لكنها بعد أن بذلت جهداً كبيراً قالت بصوت خافت:«باستثناء لو كنت مختلفاً... ليس جيداً كما أظنك».

«من المؤكد أنك تحسنين الظن بي في كل الأمور باستثناء شيء واحد»، قال ويل معبراً عن شعوره ردّاً عما فعلته من قليل، «أعني حقيقة مشاعري نحوك. عندما خطر لي أنك تحملين بعض الشكوك حول ذلك، لم أعد آبه لأي شيء آخر. اعتقدت عندها أن كل شيء قد انتهى بالنسبة إلي، ولم يبق شيء يستلزم المحاولات - باستثناء ما يجب علي تحمله».

قالت دورثيا مادة يدها نحوه، وقد انتابها خوف غامض نحوه فدفعها للتعبير عن حنو لا يعبر عنه بالكلمات: «إنني لن أشك بك بعد اليوم».

ثم أخذ يدها ورفعها إلى شفتيه بشيء يشبه النحيب، لكنه وقف وفي يده الآخرى قبعته وقفازاه، كما كان يقف أمام لوحة لأحد أفراد أسرة مالكة. كان من الصعب عليه أن يترك يدها، ولكن دورثيا بارتباك بعث فيها كآبة، سحبتها وهي تنظر، ثم ابتعدت قائلة: «انظر كم أصبحت الغيوم متلبدة في السماء، وكيف تهتز الأشجار!»، قالت وهي تمشي نحو النافذة إلا أنها لم تكن تشعر بما كانت تقوله أو تفعله.

تبعها ويل ليقف بالقرب منها ويتكئ إلى مسند كرسي طويل حيث أصبح في استطاعته أن يضع قبعته وقفازيه، ويحرر نفسه من سجن الرسميات غير المحتمل الذي حكم عليه به لأول مرة بحضور دورثيا. يجب الاعتراف بأنه كان سعيداً جدّاً في تلك اللحظة عندما اتكأ على ذلك الكرسي، ولم يعد خائفاً من أي شيء قد تشعر به الآن.

وقفا بصمت لا ينظران إلى بعضهما، لكنهما كانا ينظران إلى الأشجار الدائمة الخضرة التي كانت تهتز، فيظهر على أوراقها لون أفتح من عتمة السماء. لم يستمتع ويل في حياته من قبل بعاطفة على هذا النحو؛ إذ أعتقته من ضرورة انصرافه. فتناثرت الأوراق والأغصان الصغيرة في كل مكان، كان صوت الرعد يقترب فأخذ ضوء السماء يقترب أكثر فأكثر، إلا أن بريقاً مفاجئاً جعلهما يجفلان وينظران إلى بعضهما، ثم يبتسمان، وبدأت دورثيا تعبر عما كانت تفكر فيه.

«لقد كان خطأ منك أن تقول إنه لم يكن هناك شيء تحاول لأجله. فإذا خسرنا طيبتنا الرئيسية، فإن طيبة الآخرين ستبقى وهذا يستحق المحاولة. يمكن للبعض أن يكونوا سعداء. لقد عرفت ذلك بوضوح أكثر حين كنت أكثر إنسانة بائسة. لا أكاد أدرك كيف استطعت أن أتحمل المعضلة لو لم ينتبني ذلك الشعور ليبعث في القوة».

قال ويل: «إنك لم تشعري بالتعاسة التي شعرت بها، تعاسة أنك تكرهينني».

«لكنني شعرت بأسوأ من ذلك؛ فالخطأ بالتفكير أسوأ من ذلك».

بدأت دورثيا بتهور لكنها توقفت فجأة. أما ويل فقد تلون وجهه، إذ كان يشعر مهما قالت، فإنها تقول ذلك بموجب نظرة القدر الذي أبقاهما منفصلين. ثم صمت للحظات ليقول بانفعال: «يمكننا على الأقل أن نتحدث إلى بعضنا بارتياح وبدون خفية، ما دام يجب علي الرحيل... وما دام يجب علينا أن نبقى منفصلين... يمكنك التفكير بي كواحد على حافة قبره».

بينما كان يتحدث ظهر ضوء برق فأضاء وجه كل منهما للآخر... فبدا الضوء كخوف لحب يائس. ابتعدت دورثيا من النافذة على الفور، ثم تبعها ويل ممسكاً بيدها بحركة تلقائية، وهكذا وقفا ممسكين بأيديهما كطفلين ينظران إلى العاصفة، بينما هدر الرعد قوياً وراح يرسل أصواته المرعبة فوقهما، ثم بدأ المطر ينهمر بغزارة. ثم التفت كل منهما إلى الآخر متذكراً الكلمات الأخيرة دون أن يفلت يديه عن الآخر.

قال ويل: «لا أمل لي، حتى لو كنت تحبينني كما أحبك... حتى لو كنت كل شيء بالنسبة إليك؛ فمن المرجح أنني سأكون فقيراً جدّاً: أعيش ضمن حسابات دقيقة، لا أستطيع أن أعتمد على شيء سوى حظ هزيل. من المستحيل أن نرتبط ببعض. ربما كانت خسة مني أن أطلب كلمة. أردت أن أرحل بصمت، لكنني لم أستطع فعل ما أردت».

قالت دورثيا بصوتها العذب الحنون: «لا تأسف.. أفضل أن أشاركك جميع المتاعب التي تنجم عن فراقنا».

بدأت شفتاها ترتجفان وكذلك شفتاه، ولم يعرف شفتا من تحركت نحو الأخريين، لكنهما قبّلا بعضهما بارتجاف، ثم ابتعدا عن بعض. كان المطر يرشق زجاج النافذة وكأن فيه روحًا غاضبة، ومن خلفها تنقض ريح عاتية؛ إذ كانت إحدى اللحظات التي هيمن فيها الرعب على كل من الوقفتين المتسمرة والمنشغلة.

جلست دورثيا على أقرب كرسي منها، وكان على الطراز العثماني الطويل والمنخفض في وسط الغرفة، وراحت تنظر إلى العالم الخارجي المخيف بينما ثنت يديها فوق بعضهما في حضنها. في حين ظل ويل واقفاً ينظر إليها بسكون، ثم جلس بجوارها ليضع يده على يدها التي أدارتها كي تتصافحان، فظلّا على تلك الحالة دون أن ينظرا إلى بعضهما حتى هدأ المطر وراح ينهمر بهدوء. كانت الأفكار تتزاحم في كل منهما دون أن يستطيع التفوه ولو

بكلمة واحدة. ولكن عندما هدأ المطر استدارت دورثيا لتنظر إلى ويل، فبتعجب عاطفي وكأنه مسمار تعذيب كان يهدده قفز... وقال: «إنه من المستحيل!!!».

ثم ذهب ليتكئ إلى مسند الكرسي ثانية، فبدا وكأنه يصارع غضبه بينما كانت تنظر إليه بحزن.

«إنه قاتل كالجريمة، أو أي نوع آخر من الرعب الذي يفرق بين الناس... انفجر ثانية، «إنه لايحتمل أن تحطم حوادث تافهة حياتنا».

قالت دورثيا بلطف: «كلا. لا تقل هذا.. يجب ألّا تحطم حياتك».

قال ويل: «نعم لا بد من أن يحدث لها ذلك، إنها قسوة منك أن تتحدثي بهذه الطريقة، وكأنه يوجد نوع من الراحة. ربما ترين الجانب الإيجابي، ولكن ليس أنا. إنك تردين إلي حبي لك وكأنه شيء تافه عندما تتحدثين بهذه الطريقة أمام الحقيقة... إننا لن نتزوج أبداً».

قالت دورثيا بصوت مرتجف: «ربما نفعل هذا في وقت ما».

قال ويل بمرارة: «متى؟؟؟ ما جدوى الاعتماد على نجاحي؟ إنها مسألة حظ؛ لن أستطيع أن أحقق حياة أفضل من الحياة البسيطة ما لم أبع نفسي كقلم ولسان، وأستطيع أن أرى ذلك بوضوح تام. لم أستطع أن أقدم نفسي لأي امرأة حتى لو لم يكن لديها ثروة تتخلى عنها!!».

عندها ساد صمت.. وكان شيء يملأ قلب دورثيا، فأرادت أن تقوله إلا أن الكلمات صعبة جدّاً، إذ استحوذت على كيانها بأسره؛ فكان الحوار صامتاً في داخلها، وكان صعب عليها.. أنها لا تستطيع أن تقول ما أرادت قوله. كان ويل ينظر إلى خارج النافذة بغضب، لو نظر إليها ولم يبتعد عنها، لكان كل شيء أهون حتى اعتقادها، أخيراً استدار وهو لا يزال يتكئ إلى مسند الكرسي، فمد يده تلقائيّاً إلى قبعته بانفعال شديد: «وداعاً..!!!».

«آه لا أستطيع تحمل ذلك.. سينفطر قلبي»، قالت دورثيا وهي تقفز عن كرسيها، إذ تغلبت عاطفتها اليافعة الجياشة على جميع العوائق التي أبقتها صامتة، وكانت دموعها تنهمر بغزارة، «إنني لا أكره الفقر، بل أكره ثرائي».

فبعد لحظة أصبح ويل بقربها ليلفها بذراعيه، لكنها أبعدت رأسها إلى الوراء ودفعت رأسه بعيداً بلطف، وبينما كانت عيناها تغرق بالدموع وهي تنظر إلى عينيه ببساطة، قالت

وهي تنشج كطفلة: «إننا نستطيع أن نعيش بطريقة جيدة معتمدين على دخلي السنوي فهو أكثر مما نحتاج؛ إنه سبعمئة جنيه سنويّاً.. إنني أحتاج القليل فقط - لا ملابس جديدة - وأتعلم كم تكلف الأشياء».

الفصل الرابع والثمانون

رغم أنها أصبحت أغنية للكبار والصغار،

لأنني: أنا يجب من يلام،

وفيها دوّت تهمة قد شوهت اسمي.

الفتاة ليست السمراء

بعد أن ألغى اللوردات وثيقة الإصلاح بوقت قصير جداً، حدث أن السيد كادولدر كان يسير على المنحدر العشبي المجاور للشرفة البلورية لمنزل السير جيمس، وقد أمسك بيده خلف ظهره صحيفة التايمز، وكان يتحدث بهدوء صياد سمك التروت حول مستقبل البلاد مع السير جتم، أما السيدة كادولدر والأرملة النبيلة السيدة جتم ومعها سيليا فقد كن يجلسن أحياناً على كراسٍ صغيرة وأحياناً أخرى يذهبن ليقابلن آرثر الصغير الذي كان يجر بعربته وكأنه بوذا الصغير وهو تحت مظلته المقدسة بخيوطها الحريرية.

كانت النساء يتحدثن بالسياسة، على الرغم من فعلهن ذلك بعاطفة أقوى، فإن السيدة كادولدر كانت متشددة بما يتعلق بمنح رتبة النبلاء؛ إذ علمت من ابن عم لها أن ترويري قد غير انتماءه من حزب آخر نتيجة تحريض زوجته التي بثت نبأ منح رتبة النبلاء منذ عرضت وثيقة الإصلاح لأول مرة، وكانت مستعدة لتسليم روحها للشيطان مقابل حصولها على مرتبة أعلى من تلك التي حصلت عليها أختها الصغرى التي كانت قد تزوجت من بارون. كانت السيدة جتم تعتقد ذلك التصرف يستحق الشجب والتوبيخ، كما أنها تذكرت أن والدة السيدة ترويري كان اسمها قبل الزواج الآنسة وولسينغهام من منطقة ملسبرينغ، ثم اعترفت سيليا أن لقب ليدي لهو أفضل من لقب سيدة، وأن دودو لا تكترث للأسبقية ما دامت تفعل ما تريد. أما السيدة كادولدر فكانت تعتقد أن الأسبقية والحصول على لقب ليس من دواعي السرور عندما يكون جميع من هم حولك لا دم نبيلاً يجري في عروقك، وبعد أن توقفت سيليا.. لتنظر إلى آرثر تابعت كلامها قائلة: «سيكون أمراً رائعاً لو أصبح فيكونت بينما تنبت سنّه الصغيرة!! لو كان جيمس يحمل لقب إيرل لكان ذلك ممكناً».

قالت الأرملة النبيلة: «يا عزيزتي سيليا، إن اللقب الذي يحمله جيمس لهو أفضل بكثير من لقب إيرل الجديد العهد، وأنا لم أتمنّ أن يكون أبوه سوى سير جيمس».

قالت سيليا بارتياح: «إنني عنيت فقط سن آرثر الصغير. ولكن انظروا ها هو عمي قادم!!».

هرعت لمقابلة عمها بينما تقدم السير جيمس والسيدة كادولدر ليكوّنوا جميعاً مع السيدات مجموعة واحدة. لفت سيليا ذراع عمها بذراعها، فربت على يدها بقليل من الكآبة. «حسناً يا عزيزتي»، بينما كانا يقتربان ظهر بأن السيد بروك كان مكتئباً، ولكن اعتبر هذا كله نتيجة للوضع السياسي، فبينما كان يصافح الجميع بتحية ليست أكثر من «حسناً، إنكم هنا جميعاً»، قال القس ضاحكاً: «لا تدع رفض الوثيقة يحز قلبك يا بروك، فإنك تلقى دعم جميع الرعاع في البلاد».

«الوثيقة، آه..!!»، قال هذا السيد بروك بطريقة تعبر عن قليل من التشتت: «ألغيت..آه؟ لقد ذهب اللوردات أبعد مما ينبغي، على الرغم من أنهم كان عليهم أن يتوقفوا عن ذلك... إنها أخبارٍ سيئة كما تعلمون. أعني هنا في عائلتنا.. أخبار محزنة. ينبغي ألا تلومني يا جتم».

قال السير جيمس: «ما الأمر؟؟ أتمنى ألّا يكون مقتل حارس آخر؟ فهذا ما أتوقعه عندما يطلق صراح شخص بسهولة.. مثل ترابينغ باس».

«حارس؟؟ كلا، دعونا ندخل، فأستطيع أن أخبركم بالأمر داخل المنزل». قال السيد بروك مشيحاً برأسه إلى أسرة كادولدر ليبدو لهما أنه يقصدهما كذلك..». «بالنسبة إلى السارقين، مثل ترابينغ باس، كما تعلم يا جتم - تابع كلامه بينما كانوا يدخلون - «عندما تكون قاضياً لن تجد الالتزام سهلاً، الشدة أمر حسن، لكنها تصبح أسهل بكثير عندما تجد من يقوم بها بالنيابة عنك. في قلبك جانب من الرقة كما تعلم - أنك لست القاضيين دراكو ولا جيفري.. ولست من ذلك الصنف».

من الواضح أن السيد بروك كان في حالة اضطراب نفسي، فكلما كان لديه شيء مؤلم يريد قوله، كانت طريقته المعتادة هي أن يقول ذلك الشيء ضمن أشياء أخرى متفرقة ليبدو وكأنه دواء يقوم بخلطه مع مواد أخرى ليخفف من مرارته. تابع حديثه مع السير جيمس حتى جلس الجميع، وحتى قالت السيدة كادولدر بعد نفاد صبرها من هذا الهراء: «أكاد أموت كي أعرف الأخبار المحزنة. لم يقتل الحارس، وها قد انتهى، فما الأمر إذاً؟».

قال السيد بروك: «حسناً إنه شيء مرهق، إنني مسرور لأنك والقس هنا. إنها مسألة عائلية، لكنكما ستساعداننا على تحملها. يجب أن أفشي لك الأمر أولاً يا عزيزتي». هنا نظر السيد بروك إلى سيليا: «إنك لا تعلمين به شيئاً... إنه سيغضبك جدّاً يا جتم، ولكن هل ترى أنك لم تستطع منع ذلك أكثر مما استطعت أنا. هناك شيء وحيد ضمن الأشياء عندما تظهر، هل تعلمون؟».

«لا بد من أن يكون الأمر يتعلق بدودو»، قالت هذا سيليا التي اعتادت على التفكير في أختها كالعنصر الخطير في الأسرة. كانت جالسة على مقعد منخفض مقابل ركبة زوجها.

قال السير جيمس: «لأجل الرب أسمعنا ما الأمر؟!».

«حسناً يا جتم، فكما تعلم، أنني لم أستطع تنفيذ وصية كزابون: إذ إنها وصية تجعل الأشياء أكثر سوءاً».

قال السير جيمس متعجلاً: «بالضبط! ولكن ما هو الأسوأ؟».

«إن دورثيا ستتزوج ثانية..هل تعلم؟»، قال هذا السيد بروك مشيحاً بوجهه إلى سيليا التي رفعت نظرها مباشرة إلى زوجها بارتعاب، ثم وضعت يدها على ركبته. أبيضّ وجه السير جيمس غضباً لكنه لم يتكلم.

قالت السيدة كادولدر: «يا للرب الرحيم! ليس من الشاب لادسلو؟؟».

هز السيد بروك رأسه قائلاً: «نعم من لادسلو». ثم سكت بصمت متعقل.

قالت السيدة كادولدر مشيرة بذراعها إلى زوجها: «هل ترى يا همفري! إنك ستعترف مرة أخرى بقدرتي على التنبؤ، أو ستعارضني... فتكون مغمض العينين كما أنت دائماً، إذ اعتقدت أن الشاب قد غادر البلاد».

قال القس بهدوء: «ربما كان الأمر كذلك، ثم عاد الآن».

قال السير جيمس وهو كاره لسماع أحد يتكلم، فضلًا عنه ذلك كان صعباً عليه الكلام: «متى علمت بهذا الأمر؟».

قال السيد بروك بخنوع: «البارحة.. لقد ذهبت إلى لُويك إذ أرسلت ورائي دورثيا، كان قد حدث ذلك فجأة – لم يكن يفكر أي منهما في الأمر قبل يومين – دون أدنى فكرة.. هل

تعلم؟ هناك خصوصية في الأشياء. إلا أن دورثيا مصممة تماماً ولا جدوى من معارضتها. لقد عارضتها بقوة. لقد قمت بواجبي يا جتم، لكنها تستطيع التصرف كما تشاء.. هل تعلم؟».

«كان من الأفضل لو استدعيته منذ عام وأطلقت عليه النار»، قال هذا السير جيمس ليس رغبة في القتل ولكنه أراد أن يقول شيئاً قويّاً.

قالت سيليا: «أحقّاً يا جيمس!!! لكان ذلك أمراً سيئاً للغاية».

«تعقل يا جتم وانظر إلى المسألة بهدوء أكثر». قال هذا السيد كادولدر، وقد أصابه أسف لرؤية صديقه ذي الطبيعة الطيبة يتملكه الغضب.

قال السير جيمس ولا يزال في سخطه الصارخ: «إن ذلك ليس سهلاً على رجل يملك وقاراً، ويتمتع بإحساس بالحق – عندما يحدث ذلك في أسرته. إنها فضيحة كاملة، لو كان لدى لادسلو ذرة من الشرف لغادر البلاد فوراً، وما أظهر وجهه فيها ثانية. في أي حال فأنا لست مندهشاً. لقد قلت ما يجب فعله في اليوم الذي تلا تشييع جثمان كزابون، ولكن لم يصغِ إلي».

قال السيد بروك: «أردت ما هو مستحيل... هل تعلم يا جتم؟ لقد أردت تسفيره بالقوة، وقلت لك إنه لا يمكن أن نفعل بلادسلو كما نحب؛ إذ لديه أفكاره، وإنه شاب ذكي – كنت دائماً أقول: بأنه شاب ذكي».

«نعم!!»، قال السير جيمس غير قادر على إخفاء رده السريع، «إنه لمن المؤسف أن تحمل عنه وجهة نظر جيدة: فلهذا السبب أصبح في جوارنا ولهذا السبب أيضاً نرى امرأة كدورثيا تحط من قدرها بزواجها منه». كان السير جيمس قد توقف عدة مرات أثناء كلامه فلم تخرج الكلمات منه بسهولة... «رجل أشير إليه بوضوح تام في وصية زوجها على أن الكياسة تمنعها من رؤيته ثانية، وهو يخرجها من مكانتها الطبيعية إلى الفقر، وفيه دناءة تجعله يقبل مثل هذه التضحية، وهو دائماً في وضع غير مرغوب فيه، وذو أصل وضيع، وأنا أعتقد أنه ذو مبادئ خسيسة وشخصية تافهة. هذا هو رأيي فيه». قال هذا السير جيمس مؤكداً، وهو يستدير جانبًا ليضع إحدى ساقيه فوق الأخرى.

قال السيد بروك بطريقة اعتذار: «لقد أوضحت كل شيء لها. أعني الفقر وتخليها عن مكانتها. لقد قلت لها: يا عزيزتي لا تعلمين، ماذا يعني أن تعيشي على سبعمئة جنيه في

السنة، ودون أن يكون لديك عربة وأشياء كتلك، وأن تذهبي لتعيشي بين أناس لا يعرفونك. لقد شرحت لها هذا بقوة. إلا أنني أنصحك أن تتحدث إلى دورثيا نفسها. الحقيقة أنها تكره ما ورثته من كزابون. ستسمع ما تقول هي».

قال السير جيمس ببرود أقوى: «كلا.. اعذرني.. إنني لن أفعل. إنني لا أطيق رؤيتها ثانية؛ فذلك مؤلم جداً. إنه يؤلمني جدّاً أن أرى امرأة كدورثيا تفعل ما هو خطأ».

قال القس الطيب ذو الشفاه الغليظة الذي عارض كل هذا الاستياء غير الضروري: «كن عادلاً يا جتم، ربما تصرفت السيدة كزابون بطيش؛ أي أن تضحي بثروة مقابل رجل، ونحن الرجال غالباً ما نسيء الظن ببعضنا حتى إننا لا نكاد نسمي امرأة تفعل ذلك بالحكيمة. إلا أنني أعتقد أنه يجب عليك ألّا تشجب ذلك كعمل خاطئ بالمعنى الدقيق للكلمة».

قال السير جيمس: «نعم إنني أفعل!! إنني أعتقد أن دورثيا ترتكب خطأ بزواجها من لادسلو».

قال القس بهدوء: «يا صديقي العزيز، إننا نميل دائماً إلى اعتبار فعل ما على أنه خطأ فقط لأنه لا يسرنا». ككثير من الرجال الذين يأخذون الحياة بسهولة، كان لديه القوة كي يقول الحقيقة في بعض المناسبات لأولئك الذين يعتقدون أنهم يخرجون عن طبيعتهم لأجل الفضيلة. ثم أخرج السير جيمس منديله وراح يعض على طرفه.

قالت سيليا راغبة في تبرير موقف زوجها: «إلا أنه تصرف مشين صدر عن دودو، لقد قالت لن تتزوج ثانية.. ليس من أحد على الأطلاق».

قالت الليدي جتم بوقار شديد وكأنها قدمت دليلاً ملكيّاً: «سمعتها تقول الشيء نفسه».

قالت السيدة كادولدر: «يوجد عادة اعتراض صامت في مثل هذه الحالات. عجبي الوحيد هو أن يصاب أحدكم بالدهشة، إذ لم تفعلوا شيئاً لكي تمنعوا وقوع ذلك. لو كنتم قد استقبلتم هنا اللورد تريتون ليتودد إليها من خلال إحسانه وحبه لفعل الخير لكان قد غير رأيها قبل انقضاء السنة الأولى، إذ لم يكن هناك أمان لأي شيء آخر. لقد هيأ السيد كزابون لهذا كله على أفضل وجه ممكن. لقد جعل من نفسه غير محبوب – وإلا كان ذلك مرضاة للرب فقط – وتحداها كي تعارضه. عندما تريد أن تجعل شيئاً تافهاً مغرياً فعليك برفع سعره».

قال السير جيمس ولا يزال يشعر بالوخز قليلاً ومستديراً بكرسيه نحو القس: «لا أعلم ماذا تعني بالخطأ يا كادولدر. إنه ليس الرجل الذي نستطيع إدخاله في العائلة، وعلى الأقل لا بد وأن أتحدث عن نفسي». تابع وهو حذر من ألّا ينظر إلى السيد بروك: «أعتقد أن الآخرين سيجدون صحبته ممتعة لهم جدّاً، فلا يأبهون لما لديه من آداب اجتماعية».

قال السيد بروك بلطف وهو يدلك ساقه: «حسناً، إنك تعلم يا جتم، إنني لا أستطيع أن أدير ظهري لدورثيا، إذ يجب علي أن أكون لها أباً إلى حد معين. لقد قلت: إنني لن أعارضك في الزواج. لقد تحدثت بقوة من قبل، لكنني أستطيع أن أمنع عنها الإرث..كما تعلم؟ سيكلف ذلك مالاً، ويمكن أن يسبب ذلك متاعب لكنني أستطيع أن أفعل ذلك.. كما تعلم؟».

كان السيد بروك يشير برأسه إلى السير جيمس، إذ أراد أن يظهر قوته في اتخاذ القرار، وأن يخفف من غضب البارون في الوقت عينه. لقد ضرب بطريقة ماهرة وعبقرية أكثر قوة مما كان يتصور، إذ لامس أمراً يخجل منه السير جيمس. كانت قوة مشاعره وانفعاله نحو زواج دوروثيا من لادسلو ناتجة عن إجحاف مبرر، أو حتى من وجهة نظر معللة، وكذلك عن كره ناجم عن الغيرة شأنها في حالة لادسلو كما في حالة كزابون. كان مقتنعاً أن الزواج سيكون كارثة على دورثيا، لكن وسط ذلك الانفعال القوي، تدفق شعور منعته طيبة أخلاقه من أن يقره حتى لنفسه: إذ لم يكن ممكناً إنكار دمج الملكيتين تبتن وفريشت ضمن سور واحد كشأن متوقع مستقبلاً قد داعب مشاعره لأجل ابنه الوريث. لذلك عندما أوحى السيد بروك بهذا الشأن مشيراً برأسه إلى السير جيمس،انتاب السير شعور بالاستحياء وغبطة في حنجرته وحتى احمر وجهه. وجد كلمات أكثر لدى بداية غضبه، لكن استرضاء السيد بروك كان لاجماً للسانه أكثر من إشارة السيد كادولدر الساخرة.

إلا أن سيليا كانت سعيدة لأنها وجدت لنفسها مجالاً للتحدث بعد اقتراح عمها لحفل الزواج، فقالت بطريقة، على الرغم منه أنها كانت تنم عن شغف، وكأن المسألة قد تحولت إلى دعوة عشاء.

«هل تعني أن دورثيا ستتزوج مباشرة يا عمي؟».

قال السيد بروك عاجزاً: «بعد ثلاثة أسابيع.. كما تعلمين.. إنني لا أستطيع فعل أي شيء يمنع تحقيق ذلك يا كادولدر». أضاف مستديراً نحو القس، وكأنه يطلب قليلاً من التأييد، فقال القس:

«ما كنت لأثير جدلاً شديداً، إذا ما كانت راغبة في أن تكون فقيرة، فهذا شأن يخصها هي، ما كان أخذ أي شيء لو تزوجت من الشاب لأنه غني. كثير من رجال الدين، الذين يحملون رتبة كنسية هم أفقر مما ستكون عليه دورثيا وويل. ها هي إلينور (تابع الزوج المثير) لقد أغضبت أصدقاءها وأقاربها بزواجها مني؛ إذ كان دخلي لا يكاد يبلغ ألف جنيه سنوياً. لقد كنت جلفاً، لم يستطع أحد أن يرى فيّ شيء.. لم يكن حذائي على أحدث طراز ، وقد تعجب جميع الرجال كيف يمكن لامرأة أن تحبني. أقسم إنه يجب علي أن أقف إلى جانب لادسلو حتى أسمع عنه ما هو أسوأ».

قالت زوجته: «همفري، إن هذا كله سفسطة، وأنت تعرف ذلك. الأشياء كلها واحدة - تلك هي البداية وكذلك النهاية معك. وكأنك لم تكن من أسرة كادولدر!! هل من أحد يعتقد أنني كنت سأتزوج من وحش مثلك يحمل اسماً آخر؟».

عقبت الليدي جتم مؤيدة: «ورجل دين أيضاً. لا يمكن أن يقال إن إلينور قد نزلت عن مستواها. إنه من الصعب القول: هو مستوى لادسلو... آه يا جيمس؟؟».

أصدر السير جيمس صوت نخرة قصيرة ما كان أقل احتراماً من طريقة رد احترام لأمه، فنظرت إليه سيليا كقطة ذكية. «يجب الاعتراف أن أصله خليط مخيف!!!» - قالت السيدة كادولدر،«فقد بدأت بالحبار الرشيق كزابون، ثم عازف كمان بولندي متمرد أو سيد رقص، أليس كذلك؟ ثم عجوز».

قال القس وهو ينهض: «هذا هراء يا إلينور. لقد حان الوقت كي نذهب».

قالت السيدة كادولدر وهي تنهض كذلك، وعندما أرادت أن تصلح الأمر قالت: «آخر المطاف إنه شاب جميل. إنه يشبه لوحات كريتجلي القديمة والجميلة قبل أن يظهر الحمقى».

قال السيد بروك ناهضاً بنشاط مبهج: «سأذهب معكما، يجب أن تأتوا جميعاً لتناول العشاء معي غداً. أليس كذلك يا عزيزتي سيليا؟».

قالت سيليا ماسكة بيد زوجها: «ستذهب يا جيمس، أليس كذلك؟».

قال السير جيمس وهو يشد بصدريته إلى الأسفل، لكنه غير قادر على تغيير تعابير وجهه لتعبر عن مزاج رائق: «نعم لو أحببت ذلك.. شرط ألّا نلتقي أحدًا».

قال السيد بروك فاهماً الشرط: «كلا، كلا، كلا. إن دورثيا لن تحضر ما لم تذهب لرؤيتها».

حين كانت سيليا لوحدها مع زوجها قالت: «هل تسمح لي أن آخذ العربة لأذهب إلى لُويك ياجيمس؟».

أجاب بقليل من الدهشة: «ماذا؟ الآن مباشرة؟».

قالت سيليا: «نعم إنه من المهم جداً».

قال السير جيمس: «تذكري يا سيليا أنني لا أستطيع أن أراها».

«حتى إذا أقلعت عن الزواج؟».

«ما الفائدة من قول ذلك؟ في أي حال إنني ذاهب إلى الإصطبل، سأطلب من بريكس أن يحضر العربة».

اعتقدت سيليا أن هناك فائدة كبيرة جدّاً، إذا لم تقل ذلك، فعلى الأقل تقوم بزيارة إلى لُويك كي تؤثر في دورثيا، ولا سيما أن طوال طفولتهما كانت تشعر أنها قادرة في التأثير على أختها من خلال التحدث إليها بحصافة وحكمة، من خلال فتح نافذة صغيرة ليدخل عبرها ضياء فهمها ليأخذ مكانه بين المصابيح الملونة الغريبة التي عادة تراها دورثيا، فشعرت سيليا الحكيمة تلقائيّاً أنها أكثر قدرة على نصح أختها التي لم تعد طفلة؛ إذ لا يمكن لأحد أن يفهم دورثيا كما كانت تفهمها وتحبها سيليا بمثل ذلك الحنو؟

بينما كانت دورثيا منشغلة في مخدعها، شعرت ببهجة عارمة انتابتها لدى رؤيتها لأختها سيليا و لاسيما بعد إعلان نبأ الزواج المنوي تحقيقه، إذ كانت قد تخيلت استياء أحبائها منها حتى بمبالغة كبيرة، وحتى إنها قد خشيت من أن سيليا ستبعد عنها.

قالت دورثيا واضعة يديها على كتفي سيليا ومبتسمة لها: «آه.. يا كيتي إنني سعيدة لرؤيتك، كنت أظن أنك لن تأتي إلي».

«إنني لم أحضر آرثر لأنني كنت على عجلة من أمري». قالت سيليا ثم جلستا إلى كرسيين مقابل بعضهما حيث لامست ركبتا كل منهما ركبتي الآخرى.

قالت سيليا بصوتها الحنجري الهادئ مبتعدة قدر استطاعتها عن المزاح: «هل تعلمين يا دورثيا أن ذلك ليس شيئاً جيداً؟ «لقد خيبت رجاءنا جميعاً، ولا يمكنني أن أصدق أن ذلك سيحدث. إنك لا تستطيعين أبداً أن تذهبي لتعيشي بتلك الطريقة. كما أن هناك خططك كلها!!! إنك لم تفكري في ذلك قط. إن جيمس مستعد لتحمل المتاعب لأجلك، وفي

استطاعتك أن تقضي حياتك كاملة وأنت تفعلين ما تشائين».

قالت دورثيا: «على العكس يا عزيزتي. إنني لم أنجز شيئاً أردته. إنني لم أنفذ أي خطة حتى هذا الوقت».

«ذلك لأنك دائماً تريدين أشياء لا يمكن تنفيذها، لكن خططاً أخرى ستأتي. كما أنك كيف تستطيعين أن تتزوجي من ويل لادسلو في وقت لم يخطر لنا جميعاً أنه يمكن لك أن تتزوجي أحداً؟ لقد هز ذلك جيمس على نحو مخيف جدّاً، ولا سيما أن ذلك مختلف جدّاً عما كنا عليه دائماً. لقد تزوجت من السيد كزابون لأنه كانت لديه روح عظيمة وكان كبيراً في السن ومنقبض الصدر ومتعلماً، أما الآن فإنك تفكرين في الزواج من السيد لادسلو الذي لا يملك أرضاً ولا أي شيء آخر. أعتقد أنك ترهقين نفسك بطريقة أو أخرى»... ضحكت دورثيا.

قالت سيليا، وقد غدت متأثرة أكثر: «إن الأمر خطير جداً. كيف ستعيشين عندما تذهبين بعيداً لتكوني بين غرباء، أنا لن أراك.. إنك لن تفكري في آرثر الصغير.. وأنا كنت أعتقد أنك ستظلين تفكرين فيه».

ظهرت دموع سيليا النادرة في عينيها، كما كانت زاويتا فمها ترتجفان.«يا عزيزتي سيليا»، قالت دورثيا بجاذبية ساحرة، «إذا لن تريني أبداً، فلن يكون ذلك خطئي».

«نعم، سيكون!». قالت هذا سيليا بالتغيير نفسه الذي طرأ على تقاسيم وجهها الصغيرة. «كيف لي أن آتي إليك أو أستقبلك عندي، بينما جيمس لا يحتمل ذلك؟ وذلك أنه يعتقد بأن ذلك ليس صحيحاً.. إنه يعتقد أنك مخطئة جدّاً يا دورثيا. إلا أنك كنت دائماً مخطئة؛ والشيء الذي لا أستطيع منعه هو حبي لك، ولا أحد يستطيع أن يفكر أين ستعيشين: إلى أين تستطيعين الذهاب؟».

قالت دورثيا: «إنني ذاهبة إلى لندن».

«كيف تستطيعين أن تعيشي دائماً في الشارع؟ وستكونين فقيرة جدّاً. أستطيع أن أقدم نصف ما أملك، ولكن كيف لي وأنا لا أستطيع رؤيتك؟».

قالت دورثيا بحرارة لطيفة: «فليسعدك الرب يا كيتي!».

«كوني مرتاحة، فربما سيسامحني يوماً السير جيمس».

قالت سيليا مجففة عينيها، وقد عادت للنقاش: «ولكن سيكون من الأفضل إذا كنت غير متزوجة. لن يكون هناك أي شيء يبعث على الراحة، وإنك لن تفعلي ما لا أحد يعتقد أنك تفعلينه. قال جيمس: ينبغي أن تكوني ملكة، ولكن هذا لا يجعل منك ملكة. إنك تعين جميع الأخطاء التي ارتكبتها يا دورثيا. وهذا خطأ آخر تضيفينه إليها. لا أحد يعتقد أن السيد لادسلو يصلح زوجاً لك. كما أنك قلت من قبل بأنك لن تتزوجي ثانية».

قالت دورثيا: «حقّاً ربما كنت إنسانة أكثر حكمة يا سيليا».

«وربما كان في إمكاني القيام بأشياء أفضل لو كنت في وضع أفضل، ولكن هذا ما كنت سأفعله، لقد وعدت السيد لادسلو بالزواج وأنا سأتزوج منه».

فكرت سيليا طويلاً بنبرة الصوت التي تحدثت بها دورثيا حتى أدركتها، فصمتت للحظات، ثم قالت وكأنها قد استبعدت تماماً كل الخلاف: «أهو مغرم بك جدّاً يا دورثيا؟».

«أرجو ذلك، وأنا مغرمة به جدّاً».

قالت سيليا بارتياح: «هذا لطيف!! كنت أفضل فقط لو حصلت على زوج مثل جيمس، وأقمت في مكان قريب أستطيع أن أزورك فيه».

ابتسمت دورثيا، وبدت سيليا متأملة، ثم قالت: «لا أستطيع أن أتخيل كيف حدث ذلك». فكرت سيليا لو سمعت القصة.

قالت دورثيا وهي تقرص ذقن أختها: «إنني لا أجرؤ على ذلك، لو عرفت كيف حدث ذلك لما بدا لك الأمر مدهشاً جدّاً».

قالت سيليا، وقد أسدلت ذراعيها بارتياح: «ألا تستطيعين إخباري؟ كلا يا عزيزتي، ينبغي لك أن تشعري معي، وإلا لن تدركي شيئاً».

الفصل الخامس والثمانون

«ثم ظهرت هيئة المحلفين الذين كانت أسماؤهم كالتالي: السيد أعمى، والسيد شر، والسيد حقد، والسيد حب الشهوة، والسيد خلاعة، والسيد عنيف، والسيد متهور، والسيد طائش، والسيد عداوة، والسيد كذاب، والسيد قسوة، والسيد ظلام، والسيد عنيد، الذين قدم كل منهم حكمه الخاص ضده في ما بينهم، ثم انتهوا بالإجماع على أن يحضروا مذنباً أمام القاضي. وفي اجتماعهم المغلق قال السيد أعمى رئيس المحلفين: إنني أرى بوضوح أن هذا الرجل منشق عن عقيدته. ثم قال السيد شر: اقتلعوا مثل هذا الرجل عن سطح الأرض!! قال السيد حقد، نعم، لأنني أكره شكله. ثم قال السيد حب الشهوة: إنني لا أطيقه أبداً... وكذلك أنا، قال السيد خلاعة، لأنه سيظل دائماً عثرة في طريقي. اشنقوه، اشنقوه.. قال السيد عنيف. إنه شخص حقير مخجل، قال السيد متهور. لقد طفق قلبي منه، قال السيد عداوة... إنه وغد فاسق، قال السيد كذاب... إن الشنق لأفضل مما يستحق، قال السيد قسوة... دعونا نزيله عن طريقنا، قال السيد ظلام، ثم قال السيد عنيد: لو أعطيت العالم بأسره لما تصالحت معه، لذلك دعونا نقدمه كمذنب يستحق الموت».

من تقدم الرحالة

عندما يرسم بانيان الأزلي صورة المشاعر المضطهدة وهي تجلب بتهمة الذنب، من يشفق على المخلص؟ إنه حظ نادر ومبارك لا يحصل عليه معظم الرجال، أي أن نعرف أنفسنا غير مذنبين أمام حشد شاجب.. أن نكون متأكدين بأن ما نلام عليه لهو الجانب الإيجابي فينا. الحظ المثير للشفقة هو حظ ذلك الرجل الذي لا يستطيع أن يدعو نفسه شهيداً حتى لو كان عليه أن يقنع نفسه بأن الرجال الذين رجموه ما هم إلّا مشاعر قبيحة مجسدة.. الذي يعرف أنه قد رجم ليس لاعترافه بالحقيقة، بل لأنّه لم يكن في الوضع الذي أراده لنفسه.

هذا ما كان يرهق السيد بولسترود بينما كان يهيئ لرحيله من مدل مارش، وينهي حياته المبتلاة من خلال ذلك اللجوء الحزين. إذعان زوجته المخلص والرحيم قد حرره من خوف

واحد لكن وجودها لم يستطع أن يمنع من أن يكون محكمة خشي الاعتراف أمامها، فأراد التأييد. أما الالتباس الذي كان ينتاب تفكيره حول وفاة رفلز فقد ثبت فيه الإيمان الإلهي الذي صلى لأجله، إلا أن ذلك الالتباس قد فرض عليه رعباً منعه من عرضه على حكم زوجته من خلال اعتراف كامل. بأي من الأسماء عساها أن تدعو أفعاله التي غسلها ومزجها مع دافع حوار داخلي، وبالمقارنة معها يبدو كسب العذر الخفي سهل المنال؟ ولا سيما أنه لم يستطع تحمل نعتها أفعاله بصمت جريمة. لقد شعر بشكوكها تلفه؛ إذ كانت لديه قوة تجعله يواجهها لأنها لم تستطع إيجاد مبرر لنفسها كي تصب عليه أسوأ أنواع الشجب والإدانة. ربما في وقت ما عندما يكون على فراش موته، سيخبرها بكل شيء: في غمرة ذلك الوقت بينما تكون تمسك بيده تحت عتمة الموت ربما تصغي إليه دون أن تتراجع عن لمسه. ربما كان الإخفاء عادة في حياته، ولم يكن للاندفاع نحو الاعتراف قوة أمام الخوف من الذل الأكثر عمقاً.

كان الاهتمام المشفق على زوجته يملأ كيانه، ليس لأنه ينتقص من قسوة حكمها عليه فحسب، بل لأنه كان يشعر باكتئاب لدى رؤيته لها وهي تعاني. كانت قد أرسلت ابنتيها إلى مدرسة داخلية في الساحل بغية إخفاء هذه الفضيحة عنهما قدر المستطاع، ولما تحررت في أثناء غيابهما، من ضرورة تفسير أساها غير المحتمل ومن تساؤلهما المخيف، استطاعت أن تعيش مع أساها الذي كان كل يوم يخط شعرها بالبياض ويضني جفونها بعيداً من الضغوط.

قال لها بولسترود: «قولي لي أي شيء تريدنني أن أفعله يا هاريت.. أعني بما يتعلق بترتيبات الملكية. إن نيتي ألّا أبيع الأرض التي أملكها هنا، ولكن أن أتركها لك كاحتياط أمان. لو كان لديك أي رغبة في هذا الأمر فلا تخفيه عني».

بعد بضعة أيام، وعندما عادت من زيارة إلى منزل أخيها، بدأت تتحدث إلى زوجها حول موضوع كان يشغل فكرها لبعض الوقت.

«أرغب في أن أفعل شيئاً لأخي يا نيكولاس، وأعتقد أننا ملزمون بتقديم تعويض لروزموند وزوجها.. يقول وولتر إنه يجب على ليدجيت مغادرة البلدة، وإن عيادته لا لا تكاد تجلب أي نفع على الإطلاق، وهما لا يملكان إلا القليل ليقيما في أي مكان آخر، وإنني أفضل العيش دون أن يبقى لنا شيء وذلك في سبيل تقديم المساعدة لأسرة أخي الفقيرة».

لم ترغب السيدة بولسترود في الذهاب أبعد من القول «تقديم المساعدة» لأنها كانت تدرك بأنه لا بد لزوجها من أن يفهمها. كان لديه سبب معين، لم تكن تعلم به، يجعله يجفل من اقتراحها. تردد قبل أن يقول: «لا يمكن تنفيذ رغبتك بالطريقة التي تقترحينها يا عزيزتي.

لقد رفض السيد ليدجيت عمليّاً أي خدمة مني: لقد أعاد لي الألف جنيه التي أقرضته إياها، إذ قدمت له السيدة كزابون ذلك المبلغ لهذا السبب، ها هي رسالته».

يبدو أن الرسالة قد جرحت السيدة بولسترود بعمق، فذكر قرض السيدة كزابون بدا لها انعكاس لذلك الشعور العام مما جعل الاعتقاد بأن الجميع يتجنبون أي تعامل مع زوجها يبدو بديهيّاً. ظلّت صامتة لبعض الوقت والدموع راحت تنهمر من عينيها الواحدة تلو الأخرى، وارتجف ذقنها عندما راحت تجففها. بينما كان بولسترود جالساً أمامها يعتريه الألم لرؤية وجهها الحزين والمتعب، والذي كان منذ شهرين مشرقاً ومتفتحاً، إذ ظهر عليه الكبر كي يصبح شبه صاحبه ذي الملامح المرهقة. بعد أن اضطر لبذل بعض الجهد كي يبعث فيها الراحة قال:

«هناك طريقة أخرى يا هاريت أستطيع من خلالها أن أقدم المساعدة لأسرة أخيك إذا رغبت في ذلك. كما أنني أعتقد أنها ستكون ذات نفع بالنسبة إليك؛ ستكون من خلال الأرض التي أنوي تمليكها لك». نظرت إليه باهتمام.. «كان قد فكر السيد جارث ذات مرة بإدارة الأرض في ستون كورت في سبيل وضع ابن أخيك هناك. كان من المفترض أن يبقى كل شيء على حاله دون أي تغيير، كما كان عليهما أن يدفعا جزءاً من الأرباح بدلاً من دفع أجرة محددة. ستكون هذه بداية مجزية للشاب بموجب التزامه مع السيد جارث. هل هذا سيرضيك؟».

قالت السيدة بولسترود بعد أن عادت لها بعض حيويتها: «نعم سيكون ذلك. يا لوولتر المسكين إنه محطم، سأبذل قصارى جهدي كي أقدم لهم العون قبل رحيلي، لقد كنا دائماً أخاً وأختاً».

«ينبغي لك أن تعرضي الأمر بنفسك على السيد جارث يا هاريت»، قال ذلك السيد بولسترود و هو ليس راغباً في قول ما كان عليه قوله، بل رغبة ما كانت في ذهنه لأسباب أخرى بالإضافة إلى مواساة زوجته. «ينبغي لك أن تقولي له بوضوح بأن الأرض أصبحت ملكاً لك، وأنه لا يحتاج إلى أي تعامل معي. يمكن أن تجري التعاملات من خلال ستاندش. إنني أذكر ذلك لأن جارث قد تخلى عن كونه وكيلاً لي. أستطيع أن أضع بين يديك ورقة كتبها بيده توضح جميع الشروط، ويمكنك أن تقترحي عليه قبوله المجدد بها. أعتقد أنه لن يرفض اقتراحك إذا ما كان لابن أخيك».

الفصل السادس والثمانون

Le coeur se sature d'amour comme d'un sel divin qui le conserve; de la l'incorruptible adhérence de ceux qui se sont aimés dès l'aube de la vie, et la fraicheur des vieilles amours prolongés. Il existe un embaumement d'amour. C'est de Daphnis et Chloé que sont faits Philémon et Baucis. Cette vieillesse là, ressemblance du soir avec l'aurore.

VICTOR HUGO
L'homme qui rit

عندما سمعت السيدة جارث صوت كيلب وهو يدخل المر وقت تناول الشاي، فتحت باب غرفة الجلوس، وقالت: «ها أنت هنا يا كيلب، هل تناولت عشاءك؟»، كان تناول الوجبات أقل أهمية من العمل لدى السيد جارث.

«آه.. نعم، لقد كان عشاء جيداً، لحم خروف بارد، ولا أعلم ماذا... أين ماري؟».

«في الحديقة مع لتي على ما أعتقد».

«ألم يأتِ فِرد حتى الآن؟».

قالت السيدة جارث، وهي ترى زوجها يضع قبعته على رأسه ثانية نتيجة لتشوش تفكيره: «كلا.. هل أنت ذاهب ثانية دون أن تتناول الشاي يا كيلب؟».

«كلا، كلا، إنني ذاهب لأرى ماري لدقيقة».

كانت ماري في الزاوية المعشوشبة من الحديقة حيث كانت أرجوحة عُلّقت عالية بين شجرتي الكمثرى. كانت تربط رأسها بمنديل وردي اللون تاركة طرفه يغطي عينيها ليحجب عنهما أشعة الشمس، وهي تهز في الأرجوحة لتي التي كانت تضحك وتصرخ بصوت مرتفع. عندما رأت أباها تركت الأرجوحة وذهبت لتقابله، وبعد أن أزاحت المنديل عن عينيها، ابتسمت له تلقائيّاً ابتسامة حب وسرور.

قال السيد جارث: «أتيت لأبحث عنك يا ماري. دعينا نتمشّ قليلاً».

عرفت ماري أن أباها كان لديه شيء يقوله: إذ احنى حاجباه على نحو يثير الشفقة، وكانت هناك جاذبية حنونة في صوته، فكانت هذه دلائل عرفتها منذ أن كانت في عمر لِتي، ثم وضعت ذراعها في ذراعه، واستدارا نحو صف أشجار اللوز.

قال أبوها دون أن ينظر إليها، ولكنه كان ينظر إلى نهاية العصا التي كان يمسكها بيده الأخرى: «ستكون فترة حزينة قبل أن تتزوجي يا ماري».

قالت ماري ضاحكة: «ليست فترة حزينة يا أبي، إذ يفترض أن أكون مرحة. لقد مضى علي أربعة وعشرون عاماً وأنا عازبة ومرحة، وأعتقد أن هذه الفترة لن تكون بطول تلك».

ثم بعد توقف قصير قالت بحزن أقوى، وهي تحني وجهها أمام وجه أبيها: «إذا كنت راضياً عن فْرِد؟».

زم كيلب فمه وأدار رأسه جانباً بتعقل.. «الآن يا أبي، لقد امتدحته في الأربعاء الماضي؛ لقد قلت إنه يفهم بالأعمال الحرة على نحو غير عادي، وإن لديه نظرة في الأشياء».

قال كيلب ماكراً: «هل فعلت؟!!».

قالت ماري: «نعم لقد كتبت كل ذلك، والتاريخ وكل شيء» إنك تحب أن تدون الأشياء بمهارة. أما بالنسبة إلى سلوكه معك، فهو حقّاً جيد؛ فهو يكن لك احتراماً شديداً جدّاً، ومن المستحيل الحصول على أفضل من مزاج فرد».

«مهلاً مهلاً، إنك تتملقين لي كي أعتبره رجلاً مناسباً لك».

«كلا، حقّاً يا أبي إنني لا أحبه لأنه رجل مناسب».

«لماذا إذاً؟».

«آه.. يا عزيزي لأنني أحببته دائماً. إنني لم أحب أن أوبخ أحداً سواه، وهذه سمة في الزوج يجب التفكير فيها».

قال كيلب عائداً إلى نبرة صوته الأولى: «إذاً لقد استقر تفكيرك تماماً يا ماري؟ ولم تعتريك رغبة أخرى منذ أن تابعت الأحداث سيرها كما أصبحت تحدث مؤخراً». عنى كيلب الكثير من خلال تلك العبارة الغامضة، «لأن من الأفضل أن يأتي متأخراً من أن لا يأتي أبداً. لا ينبغي لامرأة أن تضغط على قلبها، لأنها ستسيء للرجل من خلال ذلك».

قالت ماري بهدوء: «لن تتغير مشاعري يا أبي. سأكون مخلصة لفرد، ما دام هو مخلصًا لي، ولا أعتقد أن أحداً منا سيفرط بالآخر، ولا يحب شخصاً ثالثاً مهما أعجبنا به. ستكون حيلتنا مختلفة جدّاً كما كنا نرى الأماكن القديمة وقد تغيرت، وتغير الاسم كذلك لأجل كل شيء. يجب أن ننتظر بعضنا وقتاً طويلاً، ولكن فرد يعرف ذلك».

بدلاً من أن يتكلم مباشرة، وقف كيلب ساكتاً وراح يلف عصاه ضاغطاً عليها في الممر العشبي، ثم قال بصوت مليء بالمشاعر: «لدي خبر صغير. ما رأيك لو ذهب فرد ليعيش في ستون كورت، ويدير الأرض هناك؟!!».

قالت ماري متسائلة: «كيف يمكن لهذا أن يحدث يا أبي؟».

«سيديرها لصالح عمته السيدة بولسترود. لقد جاءتني المسكينة متوسلة ومستعطفة. إنها تريد أن تقدم معروفاً للشاب، وربما يكون ذلك شيئاً جيداً له. من خلال ادخاره يمكن أن يشتري تدريجًا المواشي، ثم يدخل في الزراعة».

«آه.. سيكون فرد سعيداً جدّاً!! إنه خبر جيد وأفضل من أن يصدق».

قال كيلب وهو يدير رأسه محذراً: «آه.. ولكن انتبهي، يجب أن آخذ هذا على عاتقي، فأكون مسؤولاً، ثم أراقب كل شيء، مما يحزن أمك قليلاً، وعلى الرّغم من أنها لا تقول ذلك. يجب على فرد الاحتراس».

قالت ماري بعد أن فطنت أثناء فرحتها: «ربما كان هذا كثيراً جداً يا أبي. لن تكون هناك سعادة إذا ما أتتك منا أي مشكلة جديدة».

«كلا، كلا، فالعمل بهجتي يا ابنتي، ما دام لا يغضب أمك. ثم إذا تزوجتما.. -هنا اهتز صوت كيلب بطريقة واضحة- «سيكون في حال جيدة وقادرًا على الادخار، وأنت تملكين ذكاء أمك وكذلك ذكائي أنا، ولكن في طريقة أنثوية، فتستطيعين أن تبقيه ضمن نظام محدد. هو في طريقه إلى هنا الآن، لذلك أردت أن أخبرك أولاً لأنني أعتقد أنك تحبين أن تخبريه بنفسك. بعد ذلك أستطيع أن أناقش معه جميع التفاصيل».

صرخت ماري واضعة يديها حول عنق أبيها، بينما طأطأ رأسه بحنو متمنياً أن تحنو عليه: «آه.. كم أنت أب طيب وعزيز!! أعجب إذا كانت هناك فتاة تعتبر أباها أفضل أب في العالم!!!!».

«هذا هراء يا ابنتي. ستعتبرين زوجك أفضل».

قالت ماري وقد عادت إلى صوتها المعتاد: «مستحيل!! الأزواج طبقة دنيا من الرجال يحتاجون إلى من يبقيهم ضمن نظام».

بينما كانا يدخلان المنزل مع لتي التي ركضت لتلحق بهما، رأت ماري فرد في الحديقة الأمامية للمنزل، فذهبت لتلاقيه.

قالت ماري بينما كان فرد يقف ساكتاً ورافعاً قبعته ليحييها بطريقة هزلية: «كم هي ثيابك جميلة أيها الشاب المسرف!!! إنك لا تعرف الاقتصاد».

قال فرد: «الآن.. يا ماري ذلك سيئ جداً. انظري فقط إلى أطراف أكمام هذا المعطف!!! فقط لأنني نظفتها جيداً أبدو محترماً. إنني أدخر ثمن ثلاث بزات... واحدة لحفل الزواج».

«كم ستبدو مضحكاً!!! كرجل نبيل في كتاب أزياء قديم».

«كلا إنها ستكفيني لسنتين».

قالت ماري، وهي تستدير كي تسير: «سنتين..!! كن منطقياً يا فرد. لا تكن متفائلاً جدّاً».

«ولمَ لا؟؟ أن يعيش المرء عليها أفضل من دونها. إذا كنا لا نستطيع أن نتزوج خلال عامين، عندها ستكون الحقيقة مُرة جدّاً».

«لقد سمعت مرة قصة شاب تفاءل أكثر مما ينبغي، فوقع عليه أذى».

«يا ماري، إذا كان لديك شيء يبعث الاحباط في النفس فإنني سأهرب راكضاً. سأدخل إلى السيد جارث في المنزل. إنني لست سعيداً. أبي حزين جدّاً... المنزل عندنا ليس كما كان. لا أطيق سماع أي أخبار سيئة أخرى».

«هل تدعوها أخباراً سيئة إذا قيل لك إنك ستعيش في ستون كورت، وتدير المزرعة هناك، وتصبح حصيفاً جدّاً، فتدخر مالاً كل عام حتى تصبح المواشي والأثاث مُلكاً لك، وتصبح شخصية زراعية متميزة، كما يقول السيد بورثرب ترمبل؛ متمكناً إلى حدّ ما، وأخشى عندها أن تنسى اللغة الإغريقية وكذلك اللاتينية؟؟».

قال فرد وقد تلون وجهه قليلًا في أيّ حال: «إنك لا تعنين شيئاً سوى الهراء يا ماري؟» قالت ماري ناظرة إلى فرد وهو يمسك يدها، وهما يسيران حتى آلمها، لكنها لم تشتك: «هذا ما أخبرني به أبي للتو كشيء يمكن حدوثه، وهو لا يتحدث أبداً هراءً».

«آه.. يمكنني أن أصبح شاباً ممتازاً إذاً يا ماري، ونستطيع أن نتزوج مباشرة».

«ليس بهذه السرعة يا سيدي. كيف لك أن تعلم أنني لا أرغب في تأخير زواجنا لعدة سنوات؟ هذا سيترك لك بعض الوقت لتسيء التصرف، ثم إذا أحببت أحداً آخر أكثر مما أحبك، فسيكون لدي المبرر كي أتركك».

قال فرد بشعور قوي: «أرجوك لا تمزحي يا ماري. قولي لي بجد إن هذا كله حقيقي، وإنك سعيدة لذلك، لأنني أكثر من تحبين».

قالت ماري بنبرة تنم عن الطاعة: «كله حقيقي يا فرد، وأنا سعيدة بسبب ذلك، لأنك أكثر من أحب».

توقفا عند عتبة الباب تحت بوابة المنزل، فقال فرد هامساً: «عندما ارتبطنا ببعض أول مرة بعزقة المظلة يا ماري كنت...».

بدأت روح الفرحة تتلألأ في عيني ماري، لكن بن العنيف جاء راكضاً إلى الباب وخلفه الكلب براوني، وراح يقفز عليهما قائلاً: «فرد وماري!!! هل ستدخلان؟؟ أم هل لي أن آكل حصتكما من الفطيرة؟».

الخاتمة

لكل شيء بداية ونهاية. ومن يستطيع التخلي عن حياة شبان قضى معهم وقتاً طويلاً دون أن تمتلكه رغبة في معرفة ما حدث لهم في سنيّ عمرهم اللاحقة؟ لأن أحد أجزاء حياة الإنسان مهما كان نموذجيّاً، لا يمكن أن يمثل كاملها؛ فربما الوعود لا تبقى، والبداية المتحمسة يتبعها انحدار، وربما تلقى القوى الكامنة فرصتها، وخطأ قديم ربما يفرض استرجاعاً لأرض. ولا يزال الزواج الذي هو هدف لحكايات كثيرة، بداية عظيمة، كما كان لدى آدم وحواء اللذين قضيا شهر عسلهما في الجنة، ولكنهما أنجبا أول أبنائهما بين أشواك البراري. ولا تزال بداية ملحمة البيت - الغزو التدريجي، أو الخسارة التي لا تعوض لذلك الاتحاد التام - هي التي تجعل من السنين الأخيرة للعمر ذروته، وتجعل حصاد الذكريات يعمّر بين الناس.

يبدأ بعض الناس حياتهم متسلحين بسلاح الأمل والتفاؤل العظيمين، كما كان يفعل الصليبيون القدماء، ثم ينكسرون في الطريق بعد نفاد صبرهم تجاه بعضهم، وتجاه العالم.

ولا بدّ من أنّ جميع أولئك الذين اهتموا بفْرِد فنسي وماري جارث يرغبون في معرفة أن هذين الاثنين لم يحدث لهما مثل ذلك الفشل، لكنهما حققا سعادة راسخة متبادلة؛ إذ فاجأ فْرِد جيرانه بطرق عديدة. فقد أصبح متميزاً إلى حدّ ما كمزارع وخبير في الزراعة في ذلك الجزء من الإقليم، كما أنه ألّف كتاباً بعنوان: «حصاد المحاصيل الخضراء واقتصاد المواشي»، جلب له تهاني قيّمة جدّاً أثناء بعض الاجتماعات الزراعية. وكان الناس متحفظين بشأن الإعجاب به، فقد اعتقد معظمهم هناك بأن الفضل في كتابات فْرِد يعود إلى زوجته، إذ لم يتوقعوا من فْرد فنسي أن يكتب حول اللفت أو شوندر الماشية.

ولكن عندما ألّفت ماري كتاباً صغيراً لأبنائها يدعى: «قصص رجال عظام مستقاة من بلوتارخ»، وقامت بطباعته وتوزيعه لدى دار نشرجريب وشركائه في مدل مارش، رغب جميع أهالي البلدة في أن يعيدوا فضل هذا العمل لفْرِد، إذ كانوا يعلمون أنه هو الذي ذهب إلى الجامعة حيث درس الآداب القديمة، وأنه كان مؤهلاً لأن يصبح رجل دين لو كان رغب في ذلك.

وهكذا أصبح واضحاً أن أهالي مدل مارش لم يخدعوا، فلم يكن هناك حاجة إلى مدح امرئ لأنه قد ألّف كتاباً، إذ كانت الكتب عادة يكتبها شخص آخر. فضلًا عن ذلك فقد بقي فِرد ثابتاً دون مراوغة. وبعد سنين عديدة من زواجه قال لماري بأنه مدين بنصف سعادته للسيد فيربرذر، الذي قدم له الدعم القوي في اللحظة الحاسمة. ولا أستطيع القول بأنه لم يضلل ثانية جراء طموحاته؛ إذ كانت المحاصيل الزراعية السنوية، وكذلك أرباح الماشية، دائماً أقل من تقديراته، كما كان يعتقد أنه يستطيع تحقيق ربح من خلال شرائه حصاناً، وقد ثبت عكس ذلك، على الرّغم من أن ماري كانت تعتقد أن ذلك الخطأ قد حصل نتيجة عيب في الحصان وليس نتيجة تقدير فرِد الخاطئ. لقد احتفظ بحبه للفروسية، ولكنه نادراً ما كان يذهب إلى الصّيد، وحين كان يفعل ذلك كان يثير الضحك لدى الآخرين على جبنه عند الأسوار، إذ كان يتخيل ماري وأطفاله جالسين عند البوابة الرئيسية، وتتراءى له رؤوسهم من خلال الأشجار.

كان لديهما ثلاثة أبناء؛ ولم تتضايق ماري من كونها رزقت بأبناء فقط، وعندما تمنى فرد أن تكون له ابنة تشبهها؛ قالت ضاحكة: «ستكون هذه محنة أثقل من أن تحتملها أمك».

في أواخر سنيّ عمر السيدة فنسي، وبعد أن اضمحلّ بريق رعايتها لمنزلها، كانت مرتاحة جدّاً لرؤيتها اثنين على الأقل من أبناء فرد يشبهان تماماً أفراد عائلة فنسي، ولا يشبهان أسرة جارث. إلا أن ماري كانت مبتهجة سرّاً لأن الثالث كان يشبه تماماً أباها عندما يرتدي سترته ذات الياقة المستديرة، ويبدي براعة فائقة في تصويبه الكرات الزجاجية الصغيرة عندما يلعب بها، أو عندما يرمي الحجارة ليُسقط بها الكمثرى الناضجة من على الأشجار.

أما بن ولتي جارث، اللذان أصبحا خالاً وخالة قبل بلوغهما سن الرشد، فكثيراً ما كانا يختلفان حول أي من الجنسين مرغوب فيه أكثر؛ أبناء الأخت أم بنات الأخت. إذ كان بن مقتنعاً أن البنات أدنى درجةً من الصبيان، وإلا لما ارتدين دائماً تنانير كانت تعكس ضآلة قدرهن، في حين كانت لتي تجادل كثيراً من خلال قراءتها للكتب، وكانت تجيب غاضبة بأن الرب قد جعل معاطف جلدية لكل من آدم وحواء على حد سواء، كما خطر لها أن الرجال في الشرق يرتدون تنانير أيضاً. إلا أن هذه الجدليّة الأخيرة التي كانت تلفّ مكانة سابقتها بالغموض، كانت واحدة من الجدليّات الكثيرة التي كان بن يجيب عنها بازدراء: «إنهن أكثر سذاجة»، ثم يذهب مباشرة ليسأل أمه عمّا «إذا لم يكن الأبناء أفضل من البنات»، فتجيب

السيدة جارث بأن كليهما مشاكس على حد سواء، لكن الأبناء أقوى بلا شك، فهم يستطيعون الجري أسرع، ويصوبون على مسافة أبعد وبدقّة أكثر. بهذه الجملة أصبح بن راضياً أكثر دون أن يأبه للمشاكسة، إلا أنها أثارت استياء لتي، إذ كان شعورها بالتفوق أقوى من عضلاتها.

لم يصبح فرد غنيّاً؛ إذ إنّ طموحه لم يجعله يتوقع ذلك، إلا أنه أدخر ما يكفي ليكون مالكاً للمواشي والأثاث في ستون كورت، كما أن العمل الذي وضعه بين يديه السيد جارث كان يعود عليه بالكثير ممّا يكفيه في الأوقات الصعبة التي يمر بها دائماً المزارعون.

أصبحت ماري قوية البنية كأمها في أيام نضجها، لكنها، على عكس أمّها، كانت تقدم لأبنائها قليلاً من التعليم، حتى إن السيدة جارث غدت قلقة حول كفاية ما تلقّوا من قواعد اللغة والجغرافيا. في أيّ حال فقد كانوا متقدمين في علمهم عندما التحقوا بالمدرسة، ربما لأنهم لم يحبوا شيئاً كحبهم لبقائهم مع أمهم. وكلما كان فرِد في طريقه عائداً إلى منزله، كان يرى منظر الموقد المشتعل في غرفة الاستقبال الخشبية الفاخرة، ويأسف للرجال الآخرين الذين لم يستطيعوا الحصول على ماري زوجة لهم، وخصوصًا السيد فيربرذر: «لقد كان يستحقك عشرة أضعاف ما كنت أنا أستحقك». هذا ما كان يتخيل فرِد أن يقوله لها.

أجابت ماري: «تأكد أنه كان كذلك. ولهذا السبب أصبح في وضع أفضل مما لو كنت معه، أما أنت، فإنني أرتجف من تصوري للوضع الذي كنت ستؤول إليه: قسّاً مَديناً بأجرة حصان، وبثمن مناديل جيب قطنية!!!».

لو بحثنا، لربما وجدنا ماري وفرد لا يزالان يقطنان في ستون كورت، وكذلك لا تزال النباتات المتسلقة تبسط أزهارها فوق الجدران الحجرية نحو الحقول، حيث تصطف أشجار الجوز، وربما نجد الحبيبين اللذين ارتبطا بالخطوبة لأول مرة مرتبطين بحلقة المظلة، وقد ابيضّ شعرهما، يجلسان في الأيام المشمسة خلف النافذة المفتوحة التي كان على ماري أيام فيذرستون العجوز أن تنظر من خلالها لترى ما إذا كان ليدجيت قد حضر.

لم يبيض شعر ليدجيت، إذ مات في الخمسين من عمره فقط تاركاً لزوجته وأطفاله دخلاً كبيراً يتقاضونه نتيجة لتأمينه على حياته. كان قد حصل على خبرة واسعة جدّاً في عمله، إذ كان يقسم وقته بحسب الفصول بين لندن ومكان ساحليّ في أوروبا، وكان قد كتب بحثاً حول داء النقرس الذي غالباً ما يصيب الأثرياء، كما كان يعتمد في عمله على المرضى الذين كانوا يدفعون له الأجور، إلا أنه كان يعتبر نفسه فاشلاً؛ إذ لم يحقق في حياته ما أراد

تحقيقه. أما معارفه فكانوا يحسدونه على زوجته الفاتنة، وفي نظرهم لم يحدث شيء يغير من رأيهم. أما روزموند فهي لم ترتكب حماقة ثانية، لكنها ظلّت في مزاجها المعتدل ومرنة في أحكامها، مبدية لومها لزوجها وقادرة على تثبيط همته بحيلها.

ومع مرور السنين كانت معارضته لها تقلّ شيئاً فشيئاً، حتى اقتنعت روزموند بأنه أصبح يدرك قيمة آرائها. في أي حال، وعلى الجانب الآخر، فقد تولّد لديها اقتناع أكثر رسوخاً بمهارته، إذ أصبح يحصل على دخل كبير جدّاً. فعوضاً عن التهديد بإقامتها في منزل صغير جدّاً في شارع برايد، أمّن لها منزلاً مليئاً بالورود والزخارف ولائقاً بطير من الجنة كانت تشبهه.

باختصار كان ليدجيت رجلاً ناجحاً لكنه توفي مبكرًا بمرض الدفتريا، ثم تزوجت روزموند بعده من طبيب غني عجوز، فتولى العناية بأطفالها الأربعة. وكان منظرها جميلاً مع فتياتها وهن جالسات في عربتهن، وكثيراً ما تحدثت عن السعادة التي نالتها كمكافأة - إنها لم تقل على ماذا - لكنها قصدت، ربما، أنها كانت مكافأة على صبرها مع ترشيوس الذي لم يكن طبعه خالياً من العيوب، فهو، حتى آخر مناسبة، كان يُسمعها كلاماً قاسياً كانت تتذكره أكثر من تذكُّرها لما كان يظهر عليه من دلائل على ندمه. ومرة دعاها باسم «ريحانته»، وعندما طلبت منه تفسيراً لذلك قال: إنّها نبتة ازدهرت بشكل عجيب على أدمغة الرجال القتلى. كان لدى روزموند أجوبة قوية، ولكن هادئة، على مثل هذه الأقوال، وإلّا لماذا اختارها؟؟ فمن المثير للإشفاق أنه لم يتزوج من السيدة لادسلو التي كان يمتدحها دائماً ويضعها في مرتبة أعلى من مرتبة روزموند. وهكذا كان النقاش دائماً ينتهي لصالح روزموند، ولكن ليس من العدل ألاّ نقول إنها لم تتلفظ مرة بكلمة انتقاص واحدة لدورثيا، متذكرة في المناسبات الدينية كرمها الذي قدمته لها في أقسى أزمات حياتها.

لم تحلم دورثيا بثناء عليها يصنفها في مرتبة أعلى من مرتبة النساء الأخريات، لأنها دائماً تشعر بأن هناك شيئاً أفضل كان في استطاعتها أن تفعله لو كانت في وضع أفضل، وتملك معرفة أفضل. إلا أنها لم تندم قط على تخليها عن ثروتها ومكانتها لتتزوج من ويل لادسلو، ولو أنها فعلت ذلك لاعتبره أكبر خزي وأسف يصيبانه.

كان يربطهما حب أقوى من أي اندفاعات يمكن أن تؤثر فيه، فلا يمكن لدورثيا أن تقبل حياة ليست مليئة بعواطف، وهي الآن تعيش حياة مليئة بنشاطات مفيدة، لم يترتب عليها أن تقاسي آلام الشك كي تكتشفها وتستوضحها لنفسها. أما ويل لادسلو فقد أصبح رجلاً سياسيّاً متحمساً، وقد عمل كثيراً في تلك الأزمنة التي بدأ فيها العمل بالإصلاح بأمل يافع

خيّر أصبح يخضع للفحص والمراجعة كثيراً في أيامنا هذه، ثم أعيد في النهاية إلى البرلمان من قبل الدائرة الانتخابية التي دفعت له أجوره.

لم تحب دورثيا شيئاً أكثر من صراع زوجها العنيف مع الأخطاء منذ أن وجدت، ولا أكثر من رغبتها في تقديم الدعم الزوجي له. وكثيرون من الذين عرفوها وجدوا أن من المحزن أن تذوب مخلوقة نادرة وجوهرية في حياة إنسان آخر، ولا تُعرف إلا ضمن دائرة محددة كزوجة وأم، ولكن لا أحد أوضح تماماً ما كان في مقدورها أن تفعله، ولا حتى السير جيمس جتم الذي لم يتعدّ حدود تقديم وصفة سلبية ينبغي بموجبها عدم زواجها من ويل لادسلو. إلا أن رأيه هذا لم يسبب نفوراً وعزلة دائمين، فالطريقة التي أعيد بها لمّ شمل الأسرة كانت تمثل سمة لجميع الأطراف أصحاب الشأن.

لم يستطع السيد بروك أن يقاوم متعة مراسلة ويل لادسلو ودورثيا، وفي صباح أحد الأيام حين كان قلمه ينساب في الكتابة حول الإصلاح المحلي، تحول ليكتب لهما دعوة يقومان بموجبها بزيارة إلى كرينج التي لم يكن في مقدوره أن يحذفها ما لم يضحّ بكامل الرسالة القيمة والطويلة. وخلال هذه الأشهر من المراسلات، كان السيد بروك، خلال أحاديثه مع السير جيمس، يشير دائماً إلى أن نيته في حرمان دورثيا من الإرث لا تزال قائمة، وفي اليوم نفسه الذي خط فيه دعوته لهما، ذهب إلى فريشت خصيصاً ليوضح أن لديه الآن أسباباً تدعوه للقيام بتلك الخطوة الحاسمة أكثر من ذي قبل، كاحتراس من أن يختلط دم من طبقة متدنية مع دم ورثة عائلة بروك.

إلا أن شيئاً ممتعاً حدث في ذلك الصباح في منزل السير جيمس. فقد تلقت سيليا رسالة جعلتها تبكي بصمت وهي تقرأ، وعندما سألها السير جيمس، الذي لم يعتد أن يراها باكية بدموع، عن المشكلة بقلق؛ انفجرت ببكاء ونحيب لم يسمعهما منها من قبل.

«أصبح لدى دورثيا طفل وأنت لا تدعني أذهب لأراها، وأنا متأكدة من أنها تريد أن تراني، وهي لا تعرف ماذا تفعل بالمولود.. إنها ستفعل ما هو خطأ، وهم يعتقدون أنها ستموت. إن هذا لمرعب جدّاً! افترض أنّ ذلك حدث لي ولآرثر الصغير، ومُنعت دورثيا من القدوم إلي لتراني..!! أتمنى لو كنت أقل قسوة يا جيمس!!».

قال السير جيمس وقد تأثر كثيراً بذلك: «يا إلهي... يا سيليا!!! ماذا تتمنين؟؟ سأفعل أيّ شيء تريدينه. سآخذك إلى المدينة غداً لو أردت». وسيليا أرادت ذلك.

بعد هذا مباشرة كان السيد بروك قد حضر، ولدى مقابلته البارون في الحديقة بدأ

التحدث إليه وهو يجهل ما حدث، إذ إن السير جيمس لم يشأ أن يخبره بذلك مباشرة لسبب ما، إلا أنه عندما بدأ الحديث حول الإرث قال:

«يا سيدي العزيز ليس أنا من يملي عليك، ولكن لو تُرك الأمر لي لأبقيت كل شيء على حاله».

شعر السيد بروك بمفاجأة كبيرة، حتى إنه لم يكتشف مباشرة مقدار الارتياح الذي أصابه نتيجة معرفته بأنه لم يكن يتوقع منه أن يفعل أي شيء محدد. كان من الواضح أن ينصاع السير جيمس لرغبة سيليا، فيعود الوفاق بينهما وبين دورثيا وزوجها.

عندما يحب النسوة بعضهن بعضاً؛ يتعلم الرجال كيف يكبحون كره بعضهم لبعض. لم يحب السير جيمس قطّ ويل لادسلو، وكان ويل يفضل الالتقاء بالسير جيمس بحضور شخص ثالث؛ إذ كان يحتمل أحدهما الآخر فقط عندما تكون كل من دورثيا وسيليا موجودتين. وقد أصبح من المفهوم أن يقوم كل من السيد والسيدة لادسلو بزيارتين على الأقل في السنة إلى كرينج، وهكذا أبناء الخالة في فريشت بصحبة ولدي خالتهما عندما يحضرون إلى تبتن، وكأنهما لم ينتميا إلى درجة اجتماعية أدنى من درجتهم.

عاش السيد بروك حتى تقدمت به السن، وورث ابن دورثيا أرضه، فكان في إمكان هذا الحفيد أن يمثل مدل مارش، إلا أنه رفض ذلك معتقداً أن فرصة كبح أفكاره تبقى أقلّ لو ظلّ هو حرّاً طليقاً.

ولم يتخلّ السير جيمس عن اعتقاده بأن زواج دورثيا الثاني كان خطأ، وحقّاً ظلّ هذا المعتقد راسخاً لدى أهالي مدل مارش، حيث ظلت حكايتها تروى للأجيال القادمة كفتاة لطيفة تزوجت من رجل دين مريض وفي عمر أبيها، وما إن انقضت السنة الأولى من وفاته حتى تخلت عن ثروتها لتتزوج من ابن ابنة خالته، الذي كان شاباً يصلح أن يكون ابناً لزوجها الأول، ولا يملك أرضاً ولا بيتاً، ونسبه لا ينتمي إلى طبقة اجتماعية رفيعة. أولئك الذين لم يروا دورثيا غالباً ما كانوا يعتقدون أنها ليست امرأة جيدة وإلا لما تزوجت الأول ولا الثاني.

من المؤكّد أن تلك الأحداث الرئيسية، التي حددت سير حياتها، لم تكن جميلة تماماً. لقد كانت نتيجة اندفاع شابٍّ ونبيل يصارع بين ظروف اجتماعية غير كاملة تنحو المشاعر العظيمة فيها منحى الخطأ، وينحو فيها المعتقد العظيم منحى الوهم، إذ لا يوجد مخلوق روحه أعظم من أن تتأثر بالعالم الخارجي. وسيكون من الصعب على تيريزا جديدة الحصول

على فرصة كي تصلح من خلالها حياة الرهبانية أكثر مما تستطيع أنتيفون جديدة أن توظف ولاءها السري البطولي متحدية كل المصاعب والأشياء من أجل دفن أخيها؛ فالظروف التي أحاطت بأفعالهم المتحمسة قد اختفت إلى الأبد. إلا أننا نحن الأناس غير المهمين نهيّئ من خلال أفعالنا وأحاديثنا اليومية لإيجاد حياة فتيات كثيرات تشبه حياة دورثيا، وقد يكون بعضها أشد حزناً وقسوةً من تلك التي قدمتها دورثيا.

إنها لا تزال تحتفظ بعناصر روحها العذبة على الرّغم من عدم تمييزها بوضوح، فكامل طبيعتها تشبه ذلك النهر الذي حطم قوته الملك قورش الفارسي، فتشعب في جداول لا أسماء لامعة لها على وجه الأرض. إلا أن تأثير وجودها في من كانوا حولها كان منتشراً إلى حدٍّ لا يُحصى؛ لأن نمو الخير لدى الناس يعتمد جزئيّاً على أحداث غير تاريخية، وكون الأشياء إيجابية معي ومعك، على عكس ما يفترض أن تكون عليه، يعود فضله لأولئك الذين قضوا حياتهم بإخلاص وغموض، ثم رقدوا في قبور لا يزورها أحد.

مِدِل مارش:

من كان شديد الاهتمام بمعرفة تاريخ الإنسان، وبالتغيرات التي تطرأ على هذا المزيج الغامض عبر تغيّر الظروف ومعطيات الزمن، لا يمكنه إلا أن يتوقّف، ولو قليلاً، عند حياة القديسة تيريزا، وأن يبتسم بقليل من اللطف وهو يتخيّل فتاة صغيرة تسير في صباح أحد الأيام ممسكة بيد أخيها، الذي ما يزال صغيراً، سعياً وراء الاستشهاد في بلاد المغرب. إنهما خرجا يدرجان من مدينة أفيلا القاسية بعيون فاغرة ومظهر بائس وكأنهما غزالان صغيران، ولكن لهما قلبين بشريين ينبضان بفكرة وطنية، إلى أن واجههما واقعٌ عائليّ، فردّهما عن قرارهما العظيم. لقد كانت تلك الهجرة الطفولية بداية مناسبة. كانت حياة تيريزا العاطفية المثالية تتطلب حياة ملحمية: ما قيمة مجلّدات كثيرة وُضعت حول قصص الفروسية الرومانسية والإخضاع الاجتماعي أمام فتاة رائعة مثلها؟ لقد أشعل لهيبها بسرعة ذلك الوقود الخفيف، ثم راح يتغذى على ذاته محلقاً وراء إشباع رغبة لا حدود لها، ووراء هدف لا يبرر إرهاقاً يمكن أن يصلح بين اليأس الذاتي والإدراك المنتشي لحياة أخرى، فهي قد وجدت ملحمتها في إصلاح النظام الديني.







